الوجيز

من التحرير و التنوير

للشيخ مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور

(1879م- 1973م / 1296هـ- 1393هـ)

المجلد الثاني

ثلاثة أجزاء

(من الأعراف إلى الكهف)

مُحَمَّد بن عبد القادر الزغواني

2023م / 1444هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الوجيز

من التحرير و التنوير

للشيخ مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور

(1879م- 1973م / 1296هـ- 1393هـ)

الجزء الرابع

(الأعراف – الأنفال – التوبة)

محمد بن عبد القادر الزغواني

2023م / 1444هـ

بسم الله الرحمان الرحيم

الإهداء

إلى أئمتنا و دعاتنا وطلبة العلوم الشرعيّة

إلى كلّ العاملين في مجال الدعوة،

السالكين سبل الهداية، والمبشّرين بها بين النّاس.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأعراف

هذا هو الاسم الذي عرفت به هذه السورة، من عهد النبي ﷺ. أخرج النسائي، من حديث أبي مليكة، عن عروة بن زيد ابن ثابت أنّه قال لمروان به الحكم: " ما لي أراك تقرأ في المغرب بقصار السور وقد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ فيها بأطول الطوليين". قال مروان قلت: يا أبا عبد الله ما أطول الطوليين، قال: الأعراف". والمراد بالطوليين سورة الأعراف وسورة الأنعام، فإن سورة الأعراف أطول من سورة الأنعام، باعتبار عدد الآيات. ويفسّر ذلك حديث عائشة رضي الله عنها: " أنّ رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف فرّقها في ركعتين ".

ووجه تسميتها، أنّها ذكر فيها لفظ الأعراف بقوله تعالى { وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ } [46]. ولم يذكر في غيرها من سور القرآن، ولأنّها ذكر فيها شأن أهل الأعراف في الآخرة، ولم يذكر في غيرها من السور بهذا اللفظ، ولكنّه ذكر بلفظ (سور) في قوله {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [الحديد :13]

وربما تدعى بأسماء الحروف المقطعة التي في أولها،(ألف، لام، ميم، صاد). وكذلك سمّاها الشيخ ابن أبي زيد في الرسالة في باب سجود القرآن. ولم يعدّوا هذه السورة في السور ذات الأسماء المتعدّدة.

وهي مكيّة بلا خلاف. ثم قيل جميعها مكي، وهو ظاهر رواية مجاهد وعطاء الخراساني عن ابن عباس، وكذلك نقل عن ابن الزبير، وقيل نزل بعضها في المدينة، قال قتادة آية { وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ} [163] نزلت بالمدينة. واحتمل أنها نزلت بمكة وأكمل منها بقيتها تانك الآيتان.

وعن جابر بن زيد أنّها نزلت بعد سورة (ص) وقبل سورة (الجن)، ولا أحسب أنّ سورة الأعراف قد نزلت في تلك المدة لأن السور الطوال يظهر أنّها لم تنزل في أول البعثة.

وهي من السبع الطوال التي جعلت في أول القرآن لطولها وهي (البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، وبراءة).

وهي معدودة التاسعة والثلاثين في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد عن ابن عباس.

وعدّ آي سورة الأعراف مائتان وست آيات في عد أهل المدينة والكوفة، ومائتان وخمس في عدّ أهل الشام والبصرة، قال في الإتقان قيل مائتان وسبع.

أغراضها

افتتحت هذه السورة بالتنويه بالقرآن والوعد بتيسيره على النبي ﷺ ليبلّغه، وكان افتتاحها كلاما جامعا وهو

مناسب لما اشتملت عليه السورة من المقاصد، فهو افتتاح وارد على أحسن وجوه البيان وأكملها شأن سور القرآن.

وتدور مقاصد هذه السورة على :

النهي عن اتخاذ الشركاء من دون الله.

وإنذار المشركين عن سوء عاقبة الشرك في الدنيا والآخرة.

ووصف ما حلّ بالمشركين والذين كذّبوا الرسل، من سوء العذاب في الدنيا، وما سيحل بهم في الآخرة.

تذكير النّاس بنعمة خلق الأرض، وتمكين النوع الإنساني من خيرات الأرض، وبنعمة الله على هذا النوع بخلق أصله وتفضيله.

وما نشأ من عداوة جنس الشيطان لنوع الإنسان.

وتحذير النّاس من التلبّس ببقايا مكر الشيطان من تسويله إيّاهم حرمان أنفسهم الطيّبات، ومن الوقوع فيما يزجّ بهم في العذاب في الآخرة.

ووصف أهوال يوم الجزاء للمجرمين وكراماته للمتقين.

والتذكير بالبعث وتقريب دليله.

والنهي عن الفساد في الأرض التي أصلحها الله لفائدة الإنسان.

والتذكير ببديع ما أوجده الله صلاحها وإحيائها.

والتذكير بما أودع الله في فطرة الإنسان من وقت تكوين أصله أن يقبلوا دعوة رسل الله إلى التقوى والإصلاح.

وأفاض في أحوال الرسل مع أقوامهم المشركين، وممّا لاقوه من عنادهم وأذاهم، وأنذر بعدم الاغترار بإمهال الله النّاس قبل أن ينزل بهم العذاب، وإعذارا لهم ان يقلعوا عن كفرهم وعنادهم، فإنّ العذاب يأتيهم بغتة بعد ذلك الإمهال.

وأطال القول في قصّة موسى عليه السلام مع فرعون، وفي تصرفات بني إسرائيل مع موسى عليه السلام.

وتخلّل قصّته بشارة الله ببعثة محمد ﷺ وصفة أمته وفضل دينه.

ثم تخلّص إلى موعظة المشركين كيف بدّلوا الحنيفيّة وتقلّدوا الشرك، وضرب لهم مثلا بمن آتاه الله الآيات فوسوس له الشيطان فانسلخ عن الهدى.

ووصف حال أهل الضلالة ووصف تكذيبهم بما جاء به الرّسول ووصف آلهتهم بما ينافي الإلهيّة وأن لله الصفات الحسنى صفات الكمال.

ثم أمر الله رسوله ﷺ والمسلمين بسعة الصدر والمداومة على الدعوة وحذّرهم من مداخل الشيطان بمراقبة الله بذكره سرا وجهرا والإقبال على عبادته.

{ ألمص }[1]

هذه الحروف الأربعة المقطّعة التي افتتحت بها هاته السورة، ينطق بأسمائها (ألف، لام، ميم، صاد)، لأن المقصود بها أسماء الحروف لا مسمّياتها وأشكالها. وتقدّم الكلام حولها في أوّل سورة البقرة.

كما ذكرنا هناك أنّ الحروف المقطّعة في أوائل السور أعقبت بذكر القرآن أو الوحي أو في معنى ذلك، وذلك يرجّح أنّ المقصود من هذه الحروف التهجّي، إبلاغا في التّحدّي للعرب بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن، وتخفيفا للعبء عن النبي ﷺ. فتلك جملة مستقلة وهي هنا معدودة آية ولم تعد في بعض السور.

{ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ }[2]

{ كِتَابٌ } مبتدأ، ووقع الابتداء بالنكرة إمّا لأنّها أريد بها النوع لا الفرد، وفائدة إرادة النوع الردّ على المشركين إنكارهم أن يكون القرآن من عند الله، واستبعادهم ذلك، فذكّرهم الله بأنّه كتاب من نوع الكتب المنزّلة على الأنبياء، فكما نزلت صحف إبراهيم وكتاب موسى كذلك نزّل هذا القرآن، فيكون تنكير النوعية لدفع الابتعاد.

وإمّا لأن التنكير أريد به التعظيم والتعجيب ، أي هو كتاب عظيم تنويها بشأنه فصار التنكير في معنى التوصيف.

{ أُنْزِلَ إِلَيْكَ } يجوز أن يكون المقصود من الإخبار تذكير المنكرين والمكابرين. فالخبر مستعمل في التعريض بتغليط المشركين والمكابرين والقاصدين إغاظة الرّسول ﷺ بالإعراض. ويجوز أن يكون المقصود من الخبر الامتنان والتذكير بالنعمة.

والمقصود: تسكين نفس النبي ﷺ، وإغاظة الكافرين، وتأنيس المؤمنين، أي: هو كتاب أنزل لفائدة، وقد حصلت الفائدة فلا يكن في صدرك حرج إن كذّبوا.

{ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ } الفاء اعتراضية إذ الجملة معترضة بين فعل {أُنْزِلَ} ومتعلّقه وهو {لِتُنْذِرَ بِهِ} ، فإنّ الاعتراض يكون مقترنا بالفاء كما يكون مقترنا بالواو.

الحرج، حقيقته المكان الضيّق من الغابات الكثيرة الأشجار، بحيث يعسر السلوك فيه، ويستعار لحالة النفس عند الحزن والغضب والأسف.

{ لِتُنْذِرَ بِهِ } متعلق بـ {أُنْزِلَ} على معنى المفعول لأجله، لأنّه الغرض الأهمّ لإبطال ما عليه المشركون من

الباطل.

{ **وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** } يجوز أن يكون معطوفا على {لِتُنْذِرَ بِهِ}. وصرّح بمتعلّق { وَذِكْرَى } دون متعلّق {لِتُنْذِرَ} تنويها بشأن المؤمنين وتعريضا بتحقير الكافرين تجاه ذكر المؤمنين.

{ **اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ** }[3]

الخطاب موجّه للمشركين، ويندرج فيه المسلمون بالأولى، فبعد أن نوّه الله بالكتاب المنزّل إلى الرّسول ﷺ، وبيّن أنّ حكمة إنزاله للإنذار والذكرى، أمر النّاس أن يتّبعوا ما أنزل إليهم، فالمشركون أنزل إليهم الزجر عن الشرك والاحتجاج على ضلالهم، والمسلمون أنزل إليهم الأمر والنهي والتكليف. فكلٌّ مأمور باتّباع ما أنزل إليه. فوصف الربّ هنا دون اسم الجلالة، للتذكير بوجوب اتباع أمره، لأنّ وصف الربوبيّة يقتضي الامتثال لأوامره، ونهاهم عن اتباع أوليائهم الذين جعلوهم آلهة دونه.

الاتّباع، حقيقته المشي وراء ماش، فمعناه يقتضي ذاتين: تابعا ومتبوعا، يقال: اتّبع وتبع، ويستعار للعمل بأمر الآمر نحو {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} [طه: 92، 93] وهو استعارة تمثيلية مبنية على تشبيه حالتين، ويستعار للاقتداء بسيرة أو قول نحو {وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} [البقرة: 168] والمراد بما أنزل هو الكتاب.

{ **وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ** } والمقصود من هذا النهي تأكيد مقتضى الأمر باتّباع ما أنزل إليهم اهتماما بهذا الجانب ممّا أنزل أليهم.

الأولياء، جمع وليّ، وهو الموالي، أي الملازم والمعاون، فيطلق على الناصر، والحليف، والصاحب صادق المودّة، واستعير هنا للمعبود وللإله، لأنّ العبادة أقوى أحوال الموالاة.

ويجوز أن يكون مستعملا في المعنى الذي استعمل فيه الاتّباع في قوله { اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ }، أي لا تمتثلوا للأولياء أو أمرهم أو لدعاة الأولياء وسدنتهم.

{ **مِنْ دُونِهِ** } استعارة للترك والإعراض. فإنّ المشركين وإن كانوا قد اعترفوا لله بالإلهيّة، واتبعوا أمره بزعمهم في كثير من أعمالهم؛ كالحجّ ومناسكه والحلف باسمه، فهم أيضا اتّبعوا الأصنام بعبادتها أو نسبة الدين إليها. فكلّ عمل تقرّبوا به إلى الأصنام، وكلّ عمل عملوه امتثالا لأمر ينسب إلى الأصنام، فهم عند عمله يكونون متّبعين اتباعا فيه إعراض عن الله وترك للتقرّب إليه.

{ **قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ** } حال سببيّة كاشفة لصاحبها، وليست مقيّدة للنهي، لظهور أنّ المتّبعين أولياء من دون الله ليسوا إلا قليلي التذكّر.

وهذا نداء على إضاعتهم النظر والاستدلال في صفات الله وفي نقائص أوليائهم المزعومين..

{ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ [4] فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِين } [5]

الخبر مستعمل في التهديد للمشركين الذين وجّه إليهم التعريض في الآية الأولى والذين قصدوا من العموم. وقد ثلّث هنا بتمحيض التوجيه إليهم.

وإنّما خصّ بالذكر إهلاك القرى، دون ذكر الأمم كما في قوله { فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ } [الحاقة: 5، 6]، لأنّ المواجهين بالتعريض هم أهل مكّة وهي أم القرى، فناسب أن يكون تهديد أهلها بما أصاب القرى وأهلها. وتعليق فعل {أَهْلَكْنَا} بالقرية دون أهلها لقصد الإحاطة والشمول، فهو مغن عن أدوات الشمول، ونظيرها قوله تعالى {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا} [يوسف: 82]، فكل هذا من الإيجاز البديع.

وأجري الضميران في قوله {أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا} على الإفراد والتأنيث مراعاة للفظ قرية، ليحصل التماثل بين لفظ المعاد ولفظ ضميره في كلام متّصل القرب، ثم أجريت ضمائر القرية على صيغة الجمع في قوله {أَوْ هُمْ قَائِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ } لحصول الفصل بين الضمير ولفظ معاده بجملة فيها ضمير معاده غير لفظ القرية، وهو{بَأْسُنَا بَيَاتاً} وانتقل منه إلى ضمير القرية باعتبار أهلها.

الإهلاك، الإفناء والاستئصال. و هنا بمعنى إرادة الإهلاك.

{ فَجَاءَهَا بَأْسُنَا } معطوفة على {أَهْلَكْنَاهَا} ، وأصل الفاء العاطفة أن تفيد ترتيب حصول معطوفها بعد حصول المعطوف عليه، ولمّا كان مجيء البأس حاصلا مع حصول الإهلاك أو قبله، إذ هو سبب الإهلاك، عسر على جمع من المفسرين معنى موقع الفاء هنا، حتّى قال الفرّاء: إنّ الفاء لا تفيد الترتيب مطلقا، وعنه أيضا إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدمت أيهما شئت، مثل شتمني فأساء وأساء فشتمني. وعن بعضهم أنّ الكلام جرى على طريقة القلب، والأصل: جاءها بأسنا فأهلكناها. والذي فسّر به الجمهور: أنّ فعل {أَهْلَكْنَاهَا} مستعمل في معنى إرادة الفعل كقوله تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [نحل:98] وقوله تعالى {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ} [المائدة: 6] الآية أي فإذا أردت القراءة، وإذا أردتم القيام إلى الصلاة.

والتعبير عن إرادة الفعل بذكر الصيغة التي تدلّ على وقوع الفعل يكون لإفادة عزم الفاعل على الفعل، عزما لا يتأخّر عنه العمل، والغرض من ذلك تهديد السامعين المعاندين وتحذيرهم من أن يحلّ غضب الله عليهم فيريد إهلاكهم.

البيات، مصدر بات، وهو هنا منصوب على الحال من البأس، أي جاءهم البأس مبيّتا لهم، أي جاءهم ليلا، ويطلق البيات على ضرب من الغارة تقع ليلا.

{ **أَوْ هُمْ قَائِلُونَ** } أي في وقت القيلولة، وهي القائلة، وهي اسم للوقت المبتدئ من نصف النهار المنتهي بالعصر، وفعله: قال يقيل فهو قائل، والمقيل الراحة في ذلك الوقت.

{ **أو**} لتقسيم القرى المهلَكة، إلى مهلَكة في الليل، ومهلَكة في النهار، والمقصود من هذا التقسيم تهديد أهل مكّة حتّى يكونوا على وجل في كل وقت، لا يدرون متى يحلّ بهم العذاب، بحيث لا يأمنون في وقت ما.

وخصّ هذان الوقتان من بين أوقات الليل والنّهار، لأنّهما اللذان يطلب فيهما النّاس الراحة والدعة، فوقوع العذاب فيهما أشدّ على الناس، ولأنّ التذكير بالعذاب فيهما ينغّص على المكذّبين تخيّل نعيم الوقتين.

{ **فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ** } يصحّ أن تكون الفاء فيه للترتيب الذكري تبعا للفاء في قوله {فَجَاءَهَا بَأْسُنَا} لأنّه من بقية المذكور، ويصحّ أن يكون للترتيب المعنوي لأنّ دعواهم ترتبت على مجيء البأس.

والدعوى اسم بمعنى الدعاء كقوله {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ} [يونس: 10] وهو كثير في القرآن. والدعاء هنا لرفع العذاب، أي الاستغاثة عند حلول البأس وظهور أسباب العذاب، وذلك أنّ شأن النّاس إذا حلّ بهم العذاب أن يجأروا إلى الله بالاستغاثة.

{ **إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِين** } ومعنى الحصر أنّهم لم يستغيثوا الله ولا توجهوا إليه بالدعاء ولكنهم وضعوا الاعتراف بالظلم موضع الاستغاثة فلذلك استثناه الله من الدعوى.

واقتصارهم على ذلك القول، إمّا لأنّ ذلك القول مقدّمة التوبة لأنّ التوبة يتقدمها الاعتراف بالذنب، فهم اعترفوا على نيّة أن ينتقلوا من الاعتراف إلى طلب العفو، فعوجلوا بالعذاب، فكان اعترافهم آخر قولهم في الدنيا مقدّمة لشهادة ألسنتهم عليهم في الحشر، وإمّا لأنّ الله أجرى ذلك على ألسنتهم وصرفهم عن الدعاء إلى الله ليحرمهم موجبات تخفيف العذاب.

والمراد، اعترافهم بأنّهم ظلموا أنفسهم بالعناد، وتكذيب الرسل، والإعراض عن الآيات، وصمّ الأذان عن الوعيد والوعظ، وذلك يجمعه الإشراك بالله، قال تعالى {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: 13]، وذلك موضع الاعتبار للمخاطبين بقوله {وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} [الأعراف: 3] أي أنّ الله لم يظلمهم، فيكون الكلام إقرارا محضا، فصيغة الخبر مستعملة في إنشاء الإقرار.

وهذا القول يقولونه لغير مخاطب معين، كشأن الكلام الذي يجري على اللسان عند الشدائد، مثل لويل والثبور، فيكون الكلام مستعملا في معناه المجازي، أو يقوله بعضهم لبعض، بينهم، على معنى التوبيخ، والتوقيف على الخطا، وإنشاء الندامة، فيكون مستعملا في المعنى المجازي الصريح، والمعنى الكنائي.

{ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ [6] فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ } [7]

انتقال من الخبر عن حالتهم الدنيوية إلى الخبر عن أحوالهم في الآخرة، وأكّد الخبر بلام القسم ونون التوكيد لإزالة الشك في ذلك.

وسؤال الذين أرسل إليهم سؤال عن بلوغ الرسالة. وهو سؤال تقريع في ذلك المحشر. وسؤال المرسلين عن تبليغهم الرسالة، سؤال إرهاب لأممهم، لأنّهم إذا سمعوا شهادة رسلهم عليهم أيقنوا بأنّهم مسوقون إلى العذاب، و تقدّم ذلك في قوله {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ} [النساء: 41].

{ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ } الفاء للتفريع والترتيب على قوله {فَلَنَسْأَلَنَّ} ، أي لنسألنّهم ثم نخبرهم بتفصيل ما أجمله جوابهم، أي فلنقصنّ عليهم تفاصيل أحوالهم. وبـ {علم} التنكير للتعظيم.

القصّ، الإخبار، يقال: قصّ عليه، بمعنى أخبره، وتقدّم في قوله تعالى {يَقُصُّ الْحَقَّ}[الأنعام :57]

{ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ } معطوفة على {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ} ، وهي في موقع التذييل.

والغائب ضد الحاضر، وهو هنا كناية عن الجاهل، أي، وما كنّا جاهلين بشيء من أحوالهم.

{ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [8] وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ }[9]

عطفت على جملة {فَلَنَقُصَّنَّ}، لما تضمّنته المعطوف عليها من العلم بحسنات النّاس وسيّئاتهم، فلا جرم أشعرت بأنّ مظهر ذلك العلم وأثره هو الثواب والعقاب، وتفاوت درجات العاملين ودركاتهم تفاوتا لا يظلم العامل فيه مثقال ذرة.

الوزن، حقيقته معادلة جسم بآخر لمعرفة ثقل أحد الجسمين أو كليهما في تعادلهما أو تفاوتهما في المقدار، والأجسام التي تجعل لتعيين المقادير تسمى موازين، وأحدها ميزان، وتسمّى أوزانا وأحدها وزن، ويطلق الوزن على معرفة مقدار حال في فضل ونحوه قال تعالى {فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً} [الكهف: 105] وفي حديث أبي هريرة، في الصحيحين: " إنّه ليؤتى بالعظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ". ويستعار استعارة تمثيلية للتدبير في أحوال، كقول الراعي:

وزنت أميّة أمرها فدعت له ... من لم يكن غمرا ولا مجهولا

فالوزن في هذه الآية يراد به تعيين مقادير ما تستحقّه الأعمال من الثواب والعقاب تعيينا لا إجحاف فيه، كتعيين الميزان على حسب ما عيّن الله من ثواب أو عقاب على الأعمال، وذلك مما يعلمه الله تعالى، ككون العمل الصالح لله وكونه رياء، وككون الجهاد لإعلاء كلمة الله، أو كونه لمجرّد الطمع في الغنيمة، فيكون الجزاء على قدر العمل.

{ **الْحَقُّ** } بمعنى العدل، أي الجزاء عادل غير جائر، لأنّه من أنواع القضاء والحكم.

{ **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } ، فهو تفصيل للوزن ببيان أثره على قدر الموزون. وثقل الميزان في المعنى الحقيقي رجحان الميزان بالشيء الموزون، وهو هنا مستعار لاعتبار الأعمال الصالحة غالبة ووافرة، أي من ثقلت موزاينه الصالحات، وإنّما لم يذكر ما ثقلت به الموازين لأنّه معلوم من اعتبار الوزن، لأنّ متعارف النّاس أنّهم يزنون الأشياء المرغوب في شرائها المتنافس في ضبط مقاديرها والتي يتغابن النّاس فيها.

والثقل مع تلك الاستعارة هو أيضا ترشيح لاستعارة الوزن للجزاء، ثم الخفّة مستعارة لعدم الأعمال الصالحة أخذا بغاية الخفّة على وزان عكس الثقل.

الفلاح، حصول الخير وإدراك المطلوب، و تقدّم في قوله تعالى {فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة :5]

{ **هُمُ** } ضمير الفصل لقصد الانحصار أي هم الذين انحصر فيهم تحقّق المفلحين.

{ **الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** } الخسران، حقيقته ضد الربح، ويستعار لفقدان نفع ما يرجى منه النفع.

فنفوس المشركين قد سوّلت لهم أعمالا كانت سبب خفّة موازين أعمالهم.

{ **بِمَا كَانُوا بِآياتِنَا يَظْلِمُونَ** } باء السببيّة، وما مصدريّة، أي بكونهم ظلموا بآياتنا في الدنيا، فصيغة المضارع في قوله {يَظْلِمُونَ} لحكاية حالهم في تجدّد الظلم فيما مضى.

والظلم هنا ضدّ العدل، أي يظلمون الآيات فلا ينصفونها حقّها من الصدق. وإنّما جعل تكذيبهم ظلما لأنّه تكذيب ما قامت الأدلة على صدقه، فتكذيبه ظلم للأدلة بدحضها وعدم إعمالها.

{ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ }[10]

فهذا تذكير لهم بأنّ الله هو وليّ الخلق، لأنّه خالقهم على وجه الأرض، وخالق ما به عيشهم الذي به بقاء وجودهم إلى أجل معلوم، وتوبيخ على قلّة شكرها، كما دلّ عليه تذييل الجملة بقوله { قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ }، فإنّ النفوس التي لا يزجرها التهديد قد تنفعها الذكريات الصالحة.

وتأكيد الخبر بلام القسم وقد، المفيد للتحقيق، لتنزيلهم منزلة من ينكر مضمون الخبر، لأنّهم لمّا عبدوا غير الله كان حالهم كحال من ينكر أنّ الله هو الذي مكّنهم من الأرض.

التمكين، جعل الشيء في مكان، وهو يطلق على الإقدار على التصرّف، على سبيل الكناية، وقد تقدّم عند قوله تعالى {مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ} [الأنعام :6]. أي جعلنا لكم قدرة، أي أقدرناكم على أمور الأرض وخولناكم التصرّف في مخلوقاتها، وذلك بما أودع الله في البشر من قوّة العقل والتفكير التي أهّلته لسيادة هذا العالم. وليس المراد من التمكين هنا القوّة والحكم، ولا معناه الحقيقي، وهو جعل المكان في

الأرض.

معايش، جمع معيشة، وهي ما يعيش به الحيّ من الطعام والشراب، مشتقّة من العيش وهو الحياة، سمّي به الشيء الذي به العيش، تسمية للشيء باسم سببه على طريقة المجاز الذي غلب حتى صار مساويا للحقيقة.

{ **قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ** } الخطاب للمشركين خاصة، لأنّهم الذين قلّ شكرهم لله تعالى إذ اتخذوا معه آلهة.

ووصف قليل يستعمل في معنى المعدوم كما تقدم آنفا في أول السورة، ويجوز أن يكون على حقيقته، أي إنّ شكركم الله قليل، لأنّهم لمّا عرفوا أنّه ربهم فقد شكروه، ولكن أكثر أحوالهم هو الإعراض عن شكره والإقبال على عبادة الأصنام وما يتبعها.

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ [11] قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [12] قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِين } [13]

تذكير بنعمة إيجاد النوع، وهي نعمة عناية، لأنّ الوجود أشرف من العدم، بقطع النظر عما قد يعرض للموجود من الأكدار والمتاعب، وبنعمة تفضيله على النوع بأن أمر الملائكة بالسجود لأصله، وأدمج في هذا الامتنان تنبيه وإيقاظ إلى عداوة الشيطان لنوع الإنسان من القدم، ليكون ذلك تمهيدا للتحذير من وسوسه وتضليله، وإغراء بالإقلاع عمّا أوقع فيه النّاس من الشرك والضلالة، وهو غرض السورة، فلذلك كان هذا بمنزلة الاستدلال وُسِّط في خلال الموعظة. والخطاب للنّاس كلّهم، والمقصود منه المشركون.

الخلق، الإيجاد وإبراز الشيء إلى الوجود، وهذا الإطلاق هو المراد منه عند إسناده إلى الله تعالى أو وصف الله به.

التّصوير، جعل الشيء صورة، والصورة الشكل الذي يشكّل به الجسم كما يشكّل الطين بصورة نوع من الأنواع.

{ **ثمّ** } الدالة على تراخي رتبة التصوير عن رتبة الخلق، لأنّ التصوير حالة كمال في الخلق بأن كان الإنسان على الصورة الإنسانيّة المتقنة حسنا وشرفا، بما فيها من مشاعر الإدراك والتدبير، سواء كان التصوير مقارنا للخلق كما في خلق آدم، أم كان بعد الخلق بمدة، كما في تصوير الأجنّة من عظام ولحم وعصب وعروق ومشاعر.

وأمّا تعلّق فعليّ الخلق والتصوير بضمير المخاطبين فمراد منه أصل نوعهم الأوّل وهو آدم بقرينة تعقيبه بقوله {ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ}، فنزل خلق أصل نوعهم منزلة خلق أفراد النوع الذين منهم المخاطبون لأنّ المقصود التذكير بنعمة الإيجاد ليشكروا موجدهم.

{ **ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ** } على أنّ المخلوق والمصوّر هو آدم، ومعنى الكلام خلقنا أصلكم وصوّرناه فبرز موجودا معيّنا مسمّى بآدم، فإنّ التّسمية طريق لتعين المسمّى، ثم أظهرنا فضله وبديع صنعنا فيه فقلنا للملائكة اسجدوا له فوقع إيجاز بديع في نسج الكلام.

{ **ثُمَّ** } عاطفة الجملة على الجملة، فهي مفيدة للتراخي الرتبي لا للتراخي الزماني وذلك أن مضمون الجملة المعطوفة هنا أرقى رتبة من مضمون الجملة المعطوف عليها.

وتقدم تفسيره، وبيان ما تقدّم أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، من ظهور فضل ما علّمه الله من الأسماء ما لم يعلّمه الملائكة، عند قوله تعالى {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ} [البقرة :34]

{ **الْمَلائِكَةِ** } التعريف للجنس فلا يلزم أن يكون الأمر عاما لجميع الملائكة، بل يجوز أن يكون المأمورون هم الملائكة الذين كانوا في المكان الذي خلق فيه آدم، ونقل ذلك عن ابن عباس. ويحتمل الاستغراق لجميع الملائكة. وطريق أمرهم جميعا وسجودهم جميعا لآدم لا يعلمه إلّا الله.

واعلم أن أمر الله الملائكة بالسجود لآدم لا يقتضي أن يكون آدم قد خلق في العالم الذي فيه الملائكة بل ذلك محتمل، ويحتمل أن الله لمّا خلق آدم حشر الملائكة، وأطلعهم على هذا الخلق العجيب. فإنّ الملائكة ينتقلون من مكان إلى مكان. فالآية ليست نصّا في أنّ آدم خلق في السماوات، ولا أنّه في الجنّة التي هي دار الثواب والعقاب، وإن كان ظاهرها يقتضي ذلك، وبهذا الظاهر أخذ جمهور أهل السنّة، وتقدّم ذلك في سورة البقرة.

{ **إِلاَّ إِبْلِيسَ** } استثناء إبليس من الساجدين يدلّ على أنّه كان في عداد الملائكة، لأنّه كان مختلطا بهم. وقال السكّاكي في المفتاح: عدّ إبليس من الملائكة بحكم التغليب.

{ **لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ** } حال من (إبليس)، وهي حال تأكيد، إشارة إلى أنّه انتفى عنه السجود انتفاء شديدا لأنّ قولك: لم يكن فلان من المهتدين، يفيد من النفي أشدّ مما يفيده قولك: لم يكن مهتديا.

وفي الآية إشارة إلى أنّ الله تعالى خلق في نفس إبليس جبلّة تدفعه إلى العصيان عندما لا يوافق الأمر هواه، وجعل له هوى ورأيا، فكانت جبلّته مخالفة لجبلّة الملائكة. وإنّما استمر في عداد الملائكة لأنده لم يحدث من الأمر ما يخالف هواه، فلمّا حدث الأمر بالسجود ظهر خلق العصيان الكامن فيه.

{ **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** } ابتداء المحاورة، لأنّ ترك إبليس السجود لآدم بمنزلة جواب عن قول الله {اسْجُدُوا لِآدَمَ}، وضمير {قَالَ} عائد إلى معلوم من المقام أي قال الله تعالى، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: قلنا، فكان العدول إلى ضمير الغائب التفاتا، نكتته تحويل مقام الكلام، إذ كان المقام مقام أمر للملائكة ومن في زمرتهم فصار مقام توبيخ لإبليس خاصة.

{ **مَا** } للاستفهام، وهو استفهام ظاهره حقيقي، ومشوب بتوبيخ، والمقصود إظهار مقصد إبليس للملائكة.

{ **مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ** } معناه صدّك وكفّك عن السجود، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: ما منعك أن تسجد لأنّه

إنّما كف عن السجود لا عن نفي السجود فقد قال تعالى في الآية الأخرى {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [صٓ: 75]، فلذلك كان ذكر (**لا**) هنا على خلاف مقتضى الظاهر، فقيل هي مزيدة للتأكيد، ولا تفيد نفيا، لأنّ الحرف المزيد للتأكيد لا يفيد معنى غير التأكيد. و(لا) من جملة الحروف التي يؤكّد بها الكلام كما في قوله تعالى { لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ } [البلد:1]، وقوله { لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ} [الحديد: 29]، أي ليعلم أهل الكتاب علما محققا. وهذا تأويل الكسائي، والفراء، والزجاج، والزمخشري، وفي توجيه معنى التأكيد إلى الفعل مع كون السجود غير واقع فلا ينبغي تأكيده خفاءٌ، لأنّ التوكيد تحقيق حصول الفعل المؤكد، فلا ينبغي التعويل على هذا التأويل.

وقيل (لا) نافية، ووجودها يؤذن بفعل مقدّر دلّ عليه {مَنَعَكَ} لأنّ المانع من شيء يدعو لضدّه، فكأنه قيل: ما منعك أن تسجد فدعاك إلى أن لا تسجد، فإمّا أن يكون {مَنَعَكَ} مستعملا في معنى دعاك، على سبيل المجاز، و(لا) هي قرينة المجاز، وهذا تأويل السكّاكي في المفتاح في فصل المجاز اللغوي، وقريب منه لعبد الجبّار فيما نقله الفخر عنه، وهو أحسن تأويلا. وإمّا أن يكون قد أريد الفعلان، فذكر أحدهما وحذف الآخر، وأشير إلى المحذوف بمتعلّقه الصالح له فيكون من إيجاز الحذف، وهو اختيار الطبري ومن تبعه.

وانظر ما قلته عند قوله تعالى {قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ} [طه:92، 93]

{ **إِذْ أَمَرْتُكَ** } يقتضي أنّ أمر الملائكة شامل له، إمّا لأنّه صنف من الملائكة، فخلق الله إبليس أصلا للجنّ ليجعل منه صنفا متميّزا عن بقية الملائكة بقبوله للمعصية، وهذا هو ظاهر القرآن، وإليه ذهب كثير من الفقهاء، وقد قال الله تعالى {إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ} [الكهف: 50] .

وإمّا لأنّ الجنّ نوع آخر من المجرّدات، وإبليس أصل ذلك النوع، جعله الله في عداد الملائكة، فكان أمرهم شاملا له بناء على أنّ الملائكة خلقوا من النور وأنّ الجنّ خلقوا من النّار. وفي صحيح مسلم، عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: " خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار "، وإلى هذا ذهب المعتزلة وبعض الأشاعرة، وقد يكون المراد من النّار نورا مخلوطا بالمادة، ويكون المراد بالنّور نورا مجردا، فيكون الجنّ نوعا من جنس الملائكة أحطّ، كما كان الإنسان نوعا من جنس الحيوان أرقى.

{ **قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ** } مسوق مساق التعليل للامتناع من السجود، بأنّه رأى نفسه خيرا من آدم، فلم يمتثل، وهذا معصية صريحة.

{ **خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ** } عطف البيان من المبين. وحصل لإبليس العلم بكونه مخلوقا من نار، بإخبار من الملائكة الذين شهدوا خلقه، أو بإخبار من الله تعالى. وهذا ثابت، قال تعالى { وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ} [الرحمن: 15] وإبليس من جنس الجنّ، قال تعالى {فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} [الكهف :50].

واستند في تفضيل نفسه إلى فضيلة العنصر الذي خلق منه على العنصر الذي خلق منه آدم.

النار، أفضل من التراب لقوّة تأثيرها وتسلّطها على الأجسام التي تلاقيها، ولأنّها تضيء، ولأنّها زكيّة لا تلصق بها الأقذار، والتراب لا يشاركها في ذلك وقد اشتركا في أنّ كليهما تتكون منه الأجسام الحيّة كلّها.

وأما النور الذي خلق منه الملك فهو أخلص من الشعاع الذي يبين من النّار مجردا عن ما في النّار من الأخلاط الجثمانية.

الطين، التراب المختلط بالماء، والماء عنصر آخر تتوقف عليه الحياة الحيوانيّة مع النّار والتراب.

وظاهر القرآن في آيات هذه القصّة كلّها أنّ شرف النّار على التراب مقرّر، وأن إبليس أُوخذ بعصيان أمر الله عصيانا باتا، والله تعالى لمّا أمر الملائكة بالسجود لآدم قد علم استحقاق آدم ذلك بما أودع الله فيه من القوّة التي قد تبلغ به إلى مبلغ الملائكة في الزكاء والتقديس. فأمّا إبليس فغرّه زكاء عنصره، وذلك ليس كافيا في التفضيل وحده، ما لم يكن كيانه من ذلك العنصر مهيئا إيّاه لبلوغ الكمالات، لأن العبرة بكيفية التركيب واعتبار خصائص المادة المركّب منها بعد التركيب، بحسب مقصد الخالق عند التركيب، ولا عبرة بحالة المادة المجرّدة. فالله تعالى ركّب إبليس من عنصر النّار على هيئة تجعله يستخدم آثار القوّة العنصريّة في الفساد والاندفاع إليه بالطبع دون نظر، بحسب خصائص المادة المركّب هو منها. وركّب آدم من عنصر التراب على هيئة تجعله يستخدم آثار القوة العنصرية في الخير والصلاح والاندفاع إلى ازدياد الكمال بمحض الاختيار والنظر، بحسب ما تسمح به خصائص المادة المركّب هو منها، وكل ذلك منوط بحكمة الخالق للتركيب. وركّب الملائكة من عنصر النّور تجعلهم يستخدمون قواهم العنصرية في الخيرات المحضة، والاندفاع إلى ذلك بالطبع دون اختيار ولا نظر، بحسب خصائص عنصرهم.

ولذلك كان بلوغ الإنسان إلى الفضائل الملكية أعلى وأعجب، وكان مبلغه إلى الرذائل الشيطانية أحط وأسهل.

ومن أجل ذلك خوطب بالتكليف. ولأجل هذا المعنى أمر الله الملائكة بالسجود لآدم أصل النوع البشري لأنّه سجود اعتراف لله تعالى بمظهر قدرته العظيمة، وأمر إبليس بالسجود له كذلك.

فأمّا الملائكة فامتثلوا أمر الله ولم يعلموا حكمته، وانتظروا البيان، كما حكى عنهم بقوله { قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [البقرة:32] فجاءهم البيان مجملا بقوله {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 30]، ثمّ مفصلا بقصة قوله { ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - إلى قوله - وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة :33]

{ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا } عاقبه الله على عصيانه بإخراجه من المكان الذي كان فيه في اعتلاء وهو السماء. وأحلّ الملائكة فيه. وجعله مكانا مقدّسا فاضلا على الأرض. فإنّ ذلك كلّه بجعل آلهي بإفاضة الأنوار وملازمة الملائكة.

الهبوط، إمّا حقيقة إن كان المكان عاليا، وإمّا استعارة للبعد عن المكان المشرّف. بتشبيه البعد عنه بالنزول من مكان مرتفع وقد تقدّم ذلك في سورة البقرة.

{ **فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا** } الفاء للسببيّة والتفريع تعليلا للأمر بالهبوط، وهو عقوبة خاصة، عقوبةَ إبعاد عن المكان المقدّس، لأنّه قد صار خلقه غير ملائم لما جعل الله ذلك المكان له، وقد قال مالك رحمه الله: " لا تحدثوا بدعة في بلدنا ". وهذه الآية أصل في ثبوت الحقّ لأهل المحلّة أن يخرجوا من محلّتهم من يُخشى من سيرته فشو الفساد بينهم.

{مَا يَكُونُ لَكَ} صيغة نفي أشد من النفي بـ (ليس لك) كما تقدّم عند قوله تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ} [آل عمران :79].

{ **فَاخْرُجْ** } تأكيد لجملة { فَاهْبِطْ } بمرادفها، وأعيدت الفاء مع الجملة الثانية لزيادة تأكيد تسبّب الكبر في إخراجه من الجنّة.

{ **إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ** } يجوز أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا، إذا كان المراد من الخبر الإخبار عن تكوين الصغار فيه، بجعل الله تعالى إيّاه صاغرا حقيرا حيثما حلّ. ويجوز أن تكون واقعة موقع التعليل للإخراج على طريقة استعمال (إنّ) في مثل هذا المقام استعمال (فاء) التعليل، فهذا إذا كان المراد من الخبر إظهار ما فيه من الصغار والحقارة التي غفل عنها فذهبت به الغفلة عنها إلى التكبّر.

الصاغر، المتّصف بالصغار وهو الذلّ والحقارة، وإنّما يكون له الصغار عند الله لأنّ جبلته صارت على غير ما يرضي الله، وهو صغار الغواية.

{ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [14] قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ } [15]

لما كوّن الله فيه الصغار والحقارة بعد عزّة الملكيّة وشرفها انقلبت مرامي همّته إلى التعلّق بالسفاسف، فسأل النظرة بطول الحياة إلى يوم البعث، إذ كان يعلم قبل ذلك أنّه من الحوادث الباقية لأنّه من أهل العالم الباقي، فلما أهبط إلى العالم الأرضي ظنّ أنّه صائر إلى العدم، فلذلك سأل النظرة إبقاء لما كان له من قبل.

{ **إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ** } أي أنك من المخلوقات الباقية. أي أنّ الله خلق خلقا وقدّر بقاءهم إلى يوم البعث.

فجواب الله تعالى لإبليس إخبار عن أمر تحقّق، وليس إجابة لطِلْبة إبليس، لأنّه أهون على الله من أن يجيب له طلبا، وهذه هي النكتة في العدول عن أن يكون الجواب: أنظرتك أو أجبت لك، ممّا يدلّ على تكرمة باستجابة طلبه، ولكنّه أعلمه أنّ ما سأله أمر حاصل.

{ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ [16] ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } [17]

خلق الله في نفس إبليس مقدرة على إغواء النّاس بقوله {إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ}، وجعله باقيا متصرّفا بقواه الشرّيرة إلى يوم البعث، بجبلّة قَلَبه الله إليها قلْبا وهو من المسخ النفساني، وإنّه فاعل ذلك لا محالة، مع علمه بأنّ ما يصدر عنه هو ضلال وفساد، فصدور ذلك منه كصدور النهش من الحية.

وهذا الكلام يدلّ على أنّ إبليس علم أن الله خلق البشر للصلاح والنفع، وأنّه أودع فيهم معرفة الكمال، وأعانهم على بلوغه بالإرشاد، فلذلك سمّيت أعمال الخير، في حكاية كلام إبليس، صراطا مستقيما، وإضافة إلى ضمير الجلالة، لأنّ الله دعا إليه وارد من النّاس سلوكه.

وبهذا الاعتبار كان إبليس عدوّا لبني آدم، لأنّه يطلب منهم ما لم يخلقوا لأجله، وما هو مناف للفطرة التي فطر الله عليها البشر، فالعداوة متأصّلة وجبلّيّة بين طبع الشيطان وفطرة الإنسان السالمة من التغيير، وذلك ما أفصح عنه الجعل الإلهي المشار إليه بقوله {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} [البقرة: 36]، وبه سيتّضح كيف انقلبت العداوة ولاية بين الشياطين وبين البشر الذين استحبّوا الضلال والكفر على الإيمان والصلاح.

{ **ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ** } التدرّج في الإخبار إلى خبر أهم، لأنّ الجملة الأولى أفادت الترصّد للبشر بالإغواء، والجملة المعطوفة أفادت التهجّم عليهم بشتّى الوسائل.

وكما ضُرب المثل لهيئة الحرص على الإغواء بالقعود على الطريق، كذلك مُثّلت هيئة التوسّل إلى الإغواء بكل وسيلة بهيئة الباحث الحريص على أخذ العدو إذ يأتيه من كل جهة حتى يصادف الجهة التي يتمكّن فيها من أخذه، فالكلام تمثيل، وليس للشيطان مسلك للإنسان إلّا من نفسه وعقله بإلقاء الوسوسة في نفسه، وليست الجهات الأربع المذكورة في الآية بحقيقة، ولكنّها مجاز تمثيلي بما هو متعارف في محاولة النّاس ومخاتلتهم، ولذلك لم يذكر في الآية الإتيان من فوقهم ومن تحتهم، إذ ليس ذلك من شأن النّاس في المخاتلة والمهاجمة.

{ **وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** } زيادة في بيان قوّة إضلاله بحيث لا يفلت من الوقوع في حبائله إلّا القليل من النّاس. وكنّى بنفي الشكر عن الكفر إذ لا واسطة بينهما كما قال تعالى {وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ} [البقرة: 152]

{ **قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ** }[18]

أعاد الله أمره بالخروج من السماء تأكيدا للأمرين الأول والثاني {اهْبِطْ مِنْهَا} وقوله {فَاخْرُجْ} [13]

مذموم، اسم مفعول من ذَأَمه (مهموزا)، إذا عابه وذمّه ذأما، وقد تسهّل همزة ذأم فتصير ألفا فيقال ذام ولا تسهل في بقية تصاريفه.

مدحور، مفعول من دَحَرَه إذا أبعده وأقصاه، أي: أُخرُج خروجَ مذموم مطرود، فالذمّ لما اتصف به من الرذائل، والطرد لتنزيه عالم القدس عن مخالطته.
والتقدير: أقسم من تبعك منهم لأملأن جهنم منهم ومنك.
{ **أَجْمَعِينَ** } التأكيد للتنصيص على العموم لئلا يحمل على التغليب، وذلك أنّ الكلام جرى على أمّة بعنوان كونهم أتباعا لواحد، والعرب قد تجري العموم في مثل هذا على المجموع دون الجميع، كما يقولون: قتلت تميم فلانا، وإنما قتله بعضهم.

{ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ }[19]

هذا من عطف المتكلّم بعض كلامه على بعض، إذا كان لبعض كلامه اتصال وتناسب مع بعضه الآخر، ولم يكن أحد الكلامين موجّها إلى الذي وجه إليه الكلام الآخر، مع اتحاد مقام الكلام، كما يفعل المتكلم مع متعدّدين في مجلس واحد فيقبل على كل مخاطب منهم بكلام يخصّه.
إن كان آدم خلق في الجنّة، فكان مستقرا بها من قبل، فالأمر {اسْكُنْ} إنّما هو أمر تقرير، أي أبق في الجنّة، وإن كان قد خلق خارج الجنّة فالأمر للإذن تكريما له، وأيّا ما كان ففي هذا الأمر، بمسمع من إبليس، مقمعة له. فقد دلّ موقع هذا الكلام، في هذه السورة، على معنى عظيم من قمع إبليس، زائد على ما في آية سورة البقرة، وإن كانتا متماثلتين في اللفظ، ولكن هذا المعنى البديع استفيد من الموقع وهذا من بدائع إعجاز القرآن. ووجه إيثار هذه الآية بهذه الخصوصية، أنّ هذا الكلام مسوق إلى المشركين الذين اتخذوا الشيطان وليّا من دون الله، فأمّا ما في سورة البقرة فإنّه لموعظة بني إسرائيل، وهم ممّن يحذر الشيطان ولا يتّبع خطواته.
{ **وَيَا آدَمُ** } النداء للإقبال على آدم والتنويه بذكره في ذلك الملأ. والإتيان بالضمير المنفصل بعد الأمر(**أنت**)، لقصد زيادة التنكيل بإبليس لأنّ ذكر ضميره في مقام العطف يذكّر غيره بأنه ليس مثله، إذ الضمير وإن كان من قبيل اللقب وليس له مفهوم مخالفة، فإنّه قد يفيد الاحتراز عن غير صاحب الضمير بالقرينة على طريقة التعريض. وهذه نكتة فاتني العلم بها في آية سورة البقرة فضمّها إليها أيضا.
{ **فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا** } أذن الله لآدم بأن يتمتّع بثمار الجنّة عقب أمره بالسكنى فيها. وتلك منّة عاجلة تؤذن بتمام الإكرام.
{ **وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ** } أشدّ في التحذير من أن ينهى عن الأكل منها، لأنّ النهي عن قربانها سدّ لذريعة الأكل منها وقد تقدّم نظيره في سورة البقرة.

والنهي عن قربان شجرة خاصة من شجر الجنّة، يحتمل أن يكون نهي ابتلاء، جعل الله شجرة مستثناة من شجر الجنّة من الإذن بالأكل منها، تهيئة للتكليف بمقاومة الشهوة لامتثال النهي، لتتكوّن مختلف القوى العقليّة في عقل النوع بتأسيسها في أصل النوع، فتنتقل بعده إلى نسله. وذلك من اللطف الإلهي في تكوين النوع ومن مظاهر حقيقة الربوبيّة والمربوبيّة.

والقول أنّ ذلك لخصوصية في طبع تلك الشجرة أن تثير في النفس علم الخير والشر، كما جاء في التوراة أنّ الله نهاه عن أكل شجرة معرفة الخير والشر، فهو عندي بعيد.

والإشارة إلى شجرة مشاهدة، وقد رويت روايات ضعيفة في تعيين نوعها وذلك مما تقدّم في سورة البقرة.

{ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } والمراد بـ {الظَّالِمِينَ}، الذين يحقّ عليهم وصف الظلم، إمّا لظلمهم أنفسهم وإلقائها في العواقب السيّئة، وإمّا لاعتدائهم على حقّ غيرهم، فإنّ العصيان ظلم لحقّ الربّ الواجب طاعته.

{ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ [20] وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ } [21]

والوسوسة الكلام الخفي الذي لا يسمعه إلا المداني للمتكلّم. وسمّي إلقاء الشيطان وسوسة، لأنّه ألقى إليهما تسويلا خفيّا من كلام كلّمهما به أو انفعال في أنفسهما.

ثم درج اصطلاح القرآن وكلام الرّسول ﷺ على تسمية إلقاء الشيطان في نفوس النّاس خواطر فاسدة، وسوسة تقريبا لمعنى ذلك الإلقاء للإفهام كما في قوله {مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} [الناس:4]، وهذا التّفصيل لإلقاء الشيطان كيده انفردت به هذه الآية عن آية سورة البقرة، لأنّ هذه خطاب شامل للمشركين وهم أخلياء عن العلم بذلك فناسب تفظيع أعمال الشيطان بمسمع منهم.

{ لِيُبْدِيَ } اللام، لام العاقبة إذا كان الشيطان لا يعلم أن العصيان يفضي بهما إلى حدوث خاطر الشر في النفوس وظهور السوآت. ويجوز أن تكون لام العلّة الباعثة، إذا كان الشيطان يعلم ذلك بالإلهام أو بالنظر.

والحاصل أنّه أراد الإضرار، لأنّه قد استقر في طبعه عداوة البشر، {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً} [فاطر: 6].

الإبداء، ضد الإخفاء، فالإبداء كشف الشّيء وإظهاره، ويطلق مجازا على معرفة الشّيء بعد جهله يقال: بدا لي أن أفعل كذا. وأسند إبداء السوآت إلى الشيطان لأنّه المتسبّب فيه على طريقة المجاز العقلي.

السوآت، جمع سوأة وهي اسم لما يسوء ويتعيّر به من النقائص، ومن سبّ العرب قولهم: سوأةً لك، ومن تلهّفهم: يا سوْأتَا. ويكنّى بالسوأة عن العورة.

والسوآت هنا يجوز أن تكون جمع السوأة للخصلة الذميمة، فتكون صيغة الجمع على حقيقتها. ويجوز أن تكون جمع السوأة، المكنّى بها عن العورة، وقد روي تفسيرها بذلك عن ابن عباس، كقوله تعالى {قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ} [الأعراف: 26]، وعلى هذا فصيغة الجمع مستعملة في الاثنين للتخفيف، كقوله تعالى {فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} [التحريم: 4].

{ **وُورِيَ عَنْهُمَا** } حجب عنهما وأخفي، مشتقا من المواراة وهي التغطية والإخفاء، وتطلق المواراة مجازا على صرف المرء عن علم شيء بالكتمان أو التلبيس.

{ **وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا** } العطف على {فَوَسْوَسَ} يدل على أن الشيطان وسوس لهما وسوسة غير قوله {مَا نَهَاكُمَا} ثمّ ثنّى وسوسته بأن قال ما نهاكما، ولو كانت جملة {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا} إلى آخرها بيانا لجملة {فَوَسْوَسَ} لكانت جملة {وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا} بدون عاطف، لأنّ البيان لا يعطف على المبين. وفي هذا العطف إشعار بأنّ آدم وزوجه تردّدا في الأخذ بوسوسة الشيطان فأخذ الشيطان يراودهما.

{ **عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ** } الإشارة إلى الشجرة التي نهاه الله عنها.

{ **إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ** } استثناء من علل. أي ما نهاكما لعلّة وغرض إلّا لغرض أن تكونا ملكين، وكانا يشاهدان تفضيل الملائكة عند الله تعالى وزلفاهم وسعة مقدرتهم، فأطمعهما إبليس أن يصيرا من الملائكة إذا أكلا من الشجرة، وقيل المراد التشبيه البليغ، أي إلّا أن تكونا في القرب والزلفى كالملكين، وقد مثّل لهما بما يعرفان من كمال الملائكة.

{ **أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** } فمعنى الكلام، أن الآكل من هذه الشجرة يكون ملكا وخالدا، ولم يكن آدم قد علم حينئذ أنّ الخلود متعذّر، وأنّ الموت والحشر والبعث مكتوب على النّاس، فإن ذلك يُتلقى من الوحي كما في قوله تعالى لهما في الآية الأخرى {وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [البقرة: 36].

{ **وَقَاسَمَهُمَا** } أي حلف لهما بما يوهم صدقه، والمقاسمة مفاعلة من أقسم إذا حلف، حذفت منه الهمزة عند صوغ المفاعلة، والمفاعلة هنا للمبالغة في الفعل. وتأكيد إخباره عن نفسه بالنصح لهما بثلاث مؤكّدات دليل على مبلغ شك آدم وزوجه في نصحه لهما، وما رأى عليهما من مخائل التردّد في صدقه.

{ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنّة وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ }[22]

{ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنّة }

{ **فَدَلاَّهُمَا** } أقدمهما ففعلا فعلا يطمعان به في نفع، فخابا فيه، وأصل دلّى، تمثيل حال من يطلب شيئا من مظنّته فلا يجده، بحال من يدلي دلوه أو رجليه في البئر ليستقي من مائها فلا يجد فيها ماء فيقال دلّى فلان.

يقال دلّى كما يقال أدلى.

{ **بِغُرُورٍ** } الباء للملابسة أي دلاهما ملابسا للغرور أي لاستيلاء الغرور عليه.

وقيل الغرور اعتقاد الشيء نافعا بحسب ظاهر حاله ولا نفع فيه عند تجربته، وعلى هذا القياس يقال دلاّه بغرور إذا أوقعه في الطمع فيما لا نفع فيه.

{ **فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا** } ترتيب على دلاّهما بغرور، والتقدير: فأكلا منها.

الذوق، إدراك طعم المأكول أو المشروب باللسان، وهو يحصل عند ابتداء الأكل أو الشرب، ودلت هذه الآية على أنّ بدو سوآتهما حصل عند أوّل إدراك طعم الشجرة، دلالة على سرعة ترتّب الأمر المحذور عند أوّل المخالفة، فزادت هذه الآية على آية البقرة. أي أن الله جعل الأمرين مقترنين في الوقت، ولكن هذا التقارن هو لكون الأمرين مسبّبين عن سبب واحد، وهو خاطر السوء الذي نفثه الشيطان فيهما. وهذه أوّل وسوسة صدرت عن الشيطان، وأوّل تضليل منه للإنسان.

وهذا التطوّر، الذي أشارت إليه الآية، قد جعله الله تطوّرا فطريا في ذريّة آدم، فالطفل في أوّل عمره يكون بريئا من خواطر السوء فلا يستاء من تلقاء نفسه إلا إذا لحق به مؤلم خارجي، ثم إذا ترعرع أخذت خواطر السوء تنتابه في باطن نفسه فيفرضها ويولّها. وينفعل بها أو يفعل بما تشير به عليه.

{ **وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجنّة** } حكاية لابتداء عمل الإنسان لستر نقائصه، وتحيّله على تجنّب ما يكرهه، وعلى تحسين حاله بحسب ما يخيّل إليه خياله، وهذا أوّل مظهر من مظاهر الحضارة أنشأه الله في عقلي أصلي البشر، فإنّهما لما شعرا بسوآتهما بكلا المعنيين، عرفا بعض جزئياتها، وهي العورة وحدث في نفوسهما الشعور بقبح بروزها، فشرعا يخفيانها عن أنظارهما استبشاعا وكراهيّة، وإذ قد شعرا بذلك بالإلهام الفطري، حيث لا ملقّن يلقنهما ذلك، ولا تعليم يعلمهما، تقرّر في نفوس النّاس أن كشف العورة قبيح في الفطرة، وأنّ سترها متعيّن، وهذا من حكم القوّة الواهمة الذي قارن البشر في نشأته، فدلّ على أنّه وهم فطري متأصّل، فلذلك جاء دين الفطرة بتقرير ستر العورة، مشايعة لما استقر في نفوس البشر، وقد جعل الله للقوّة الواهمة سلطانا على نفوس البشر في عصور طويلة، لأنّ في اتباعها عونا على تهذيب طباعه، ونزع الجلافة الحيوانية من النوع، لأنّ القوّة الواهمة لا توجد في الحيوان، ثم أخذت الشرائع، ووصايا الحكماء، وآداب المربّين، تزيل من عقول البشر متابعة الأوهام تدريجا مع الزمان، ولا يبقون منها إلّا ما لا بدّ منه لاستبقاء الفضيلة في العادة بين البشر، حتّى جاء الإسلام، وهو الشريعة الخاتمة، فكان نوط الأحكام في دين الإسلام بالأمور الوهميّة ملغى في غالب الأحكام، كما فصّلته في كتاب مقاصد الشريعة وكتاب أصول نظام الاجتماع في الإسلام.

الخصف، حقيقته تقوية الطبقة من النعل بطبقة أخرى لتشتدّ، ويستعمل مجازا مرسلا في مطلق التقوية للخرقة

والثوب، ومنه ثوب خصيف و مخصوف، أي غليظ النسج لا يشفّ عمّا تحته، فمعنى يخصفان يضعان على عوراتهما الورق بعضه على بعض.

{ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ [22] قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [23]

عطف على جواب { **لمّا** }، فهو ممّا حصل عند ذوق الشجرة، وقد رتّب الإخبار عن الأمور الحاصلة عند ذوق الشجرة على حسب ترتيب حصولها في الوجود، فإنّهما بدت لهما سوآتهما فطفقا يخصفان، وأعقب ذلك نداء الله إياهما. وهذا أصل في ترتيب الجمل في صناعة الإنشاء، إلّا إذا اقتضى المقام العدول عن ذلك، ونظير هذا الترتيب ما في قوله تعالى {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ} [هود:77]. وقد بيّنته في كتاب (أصول الإنشاء والخطابة) ولم أعلم أني سبقت إلى الاهتداء إليه. وقد تأخّر نداء الربّ إيّاهما إلى أن بدت لهما سوآتهما وتحيلا لستر عوراتهما، ليكون للتوبيخ وقع مكين من نفوسهما، حين يقع بعد أن تظهر لهما مفاسد عصيانهما، فيعلما أنّ الخير في طاعة الله، وأنّ في عصيانه ضرّا.

{ **وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا** }، النداء حقيقته ارتفاع الصوت وهو مشتقّ من الندى (بفتح النون والقصر) وهو بعد الصوت. وهو مجاز مشهور في الكلام الذي يراد به طلب إقبال أحد إليك، وله حروف معروفة في العربية. وهو هنا مستعمل في المعنى المشهور، وهو طلب الإقبال، على أن الإقبال مجازي لا محالة، فيكون كقوله تعالى {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ} [الانبياء: 89] وهو كثير في الكلام.

ويجوز أن يكون مستعملا في الكلام بصوت مرتفع، ورفع الصوت يكون لأغراض، ومحمله هنا على أنّه صوت غضب وتوبيخ.

وظاهر إسناد النداء إلى الله أنّ الله ناداهما بكلام بدون واسطة ملك مرسل، مثل الكلام الذي كلم الله به موسى، وهذا واقع قبل الهبوط إلى الأرض، فلا ينافي ما ورد من أنّ موسى هو أوّل نبيء كلّمه الله تعالى بلا واسطة، ويجوز أن يكون نداء آدم بواسطة أحد الملائكة.

{ **أَلَمْ أَنْهَكُمَا** } في موضع البيان لجملة {نَادَاهُمَا} ، ولهذا فصلت الجملة عن التي قبلها. والاستفهام للتقرير والتّوبيخ، ولذلك اعترفا بأنّهما ظلما أنفسهما.

{ **وَأَقُلْ لَكُمَا** } عطف على {أَنْهَكُمَا} للمبالغة في التوبيخ، لأنّ النهي كان مشفوعا بالتحذير من الشيطان الذي هو المغري لهما بالأكل من الشجرة، فهما قد أضاعا وصيّتين.

{ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ** } والمقصود من حكاية هذا القول هنا، تذكير الأمّة بعداوة الشيطان لأصل نوع البشر، فيعلموا أنّها عداوة بين النوعين، فيحذروا من كلّ ما هو منسوب إلى الشيطان ومعدود من وسوسته، فإنّه لما جبل على الخبث والخزي كان يدعو إلى ذلك بطبعه، وكذلك لا يهنأ له بال ما دام عدوّه ومحسوده في حالة حسنة.

المُبين، أصله المُظهر، أي للعداوة بحيث لا تخفى على من يتتبّع آثار وسوسته وتغريره، وما عامل به آدم من حين خلقه إلى حين غروره به، ففي ذلك كلّه إبانة عن عداوته، ووجه تلك العداوة أنّ طبعه ينافي ما في الإنسان من الكمال الفطري المؤيّد بالتوفيق والإرشاد الإلهي، فلا يحبّ أن يكون الإنسان إلّا في حالة الضلال والفساد.

ويجوز أن يكون المُبين مستعملا مجازا في القويّ الشديد، لأنّ شأن الوصف الشديد أن يظهر للعيان.

{ **قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** } اعترافا بالعصيان، وبأنّهما علما أنّ ضرّ المعصية عاد عليهما، فكانا ظالمين، وبأنّهما جرّا على أنفسهما غضب الله تعالى، فهما في توقّع حقوق العذاب، وقد جزما بأنّهما يكونان من الخاسرين إن لم يغفر الله لهما، إمّا بطريق الإلهام أو نوع من الوحي، وإمّا بالاستدلال على العواقب بالمبادئ، فإنّهما رأيا من العصيان بوادئ الضرّ والشرّ، فعلما أنّه من غضب الله ومن مخالفة وصايته، وقد أكّدا جملة جواب الشرط بلام القسم ونون التوكيد إظهارا لتحقيق الخسران، استرحاما واستغفارا من الله تعالى.

{ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ }[24]

طوى القرآن هنا ذكر التوبة على آدم، لأنّ المقصود من القصّة في هذه السورة التذكير بعداوة الشيطان وتحذير النّاس من اتّباع وسوسته، وإظهار ما يعقبه اتّباعه من الخسران والفساد، ومقام هذه الموعظة يقتضي الإعراض عن ذكر التوبة للاقتصار على أسباب الخسارة، وقد ذكرت التوبة في آية البقرة المقصود منها بيان فضل آدم وكرامته عند ربّه، ولكلّ مقام مقال. والخطاب لآدم وزوجه وإبليس. والأمر تكويني، وبه صار آدم وزوجه وإبليس من سكّان الأرض.

{ **بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** } في موضع الحال من ضمير{اهْبِطُوا} المرفوع بالأمر التكويني فهذه الحال أيضا تفيد معنى تكوينيّا، وإذ قد كانت هذه العداوة تكوينيّة بين أصلي الجنسين، كانت موروثة في نسليهما.

والمقصود تذكير بني آدم بعداوة الشيطان لهم ولأصلهم ليتّهموا كلّ وسوسة تأتيهم من قبله.

وإذ قد كانت نفوس الشياطين داعية إلى الشرّ بالجبلّة، تعيّن أنّ عقل الإنسان منصرف بجبلّته إلى الخير، ولكنّه معرّض لوسوسة الشياطين، فيقع في شذوذ عن أصل فطرته. وفي هذا ما يكون مفتاحا لمعنى كون

النّاس يولدون على الفطرة، وكون الإسلام دين الفطرة، وكون الأصل في النّاس الخير.

{ **وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ** } عطفت على {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ }.

المستقرّ، مصدر ميمي، والاستقرار هو المكث، وتقدم عند قوله تعالى {لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ} [الأنعام: 67].

والمراد به الوجود، أي وجود نوع الإنسان وبخصائصه، وليس المراد به الدفن كما فسّر به البعض.

المتاع والتمتّع، نيل الملذّات والمرغوبات غير الدائمة، وتقدم في قوله تعالى { لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ } [النساء :102]

الحين، المدّة من الزمن، طويلة أو قصيرة، وقد نكّر هنا ولم يحدّد لاختلاف مقداره باختلاف الأجناس والأفراد. وهذا الزمن المقارن لحالة الحياة والإدراك هو المسمّى بالأجل، فإذا انتهى الأجل وانعدمت الحياة انقطع المستقرّ والمتاع. وهذا إعلام من الله بما قدره للنّوعين، وليس فيه امتنان ولا تنكيل بهم.

{ **قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ** }[25]

أعيد فعل القول في هذه الجملة مستأنفا غير مقترن بعاطف، مع كون القائل واحدا، والغرض متّحدا، خروجا عن مقتضى الظاهر، لأنّ مقتضى الظاهر في مثله هو العطف، وقد أهمل توجيه ترك العطف جمهور الحذّاق من المفسّرين؛ الزمخشري وغيره، ولعلّه رأى ذلك أسلوبا من أساليب الحكاية، وأوّل من رأيته حاول توجيه ترك العطف هو الشيخ محمد بن عرفة التونسي في إملاءات التفسير المروية عنه.

والذي أراه أنّ هذا ليس أسلوبا في حكاية القول يتخيّر فيه البليغ، وإنّما استئناف ابتدائي للاهتمام بالخبر، إيذانا بتغيّرالخطاب بأن يكون بين الخطابين تخالف ما، فالخطاب بالأوّل آدم وزوجه الشيطان، والمخاطب بالثّاني آدم وزوجه وأبناؤهما، والقرينة على أنّ إبليس غير داخل في الخطاب في قوله {وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} لأنّ الإخراج من الأرض يقتضي سبق الدخول في باطنها، وذلك هو الدفن بعد الموت، والشياطين لا يدفنون. وقد أمهل الله إبليس بالحياة إلى يوم البعث فهو يحشر حينئذ أو يموت ويبعث، ولا يعلم ذلك إلّا الله تعالى.

وقد دلّ جمع الضمير على كلام مطوي بطريقة الإيجاز: وهو أن آدم وزوجه استقرّا في الأرض، وتظهر لهما ذرية، وأن الله أعلمهم بطريق من طرق الإعلام الإلهي بأنّ الأرض قرارهم، ومنها مبعثهم، يشمل هذا الحكم الموجودين منهم يوم الخطاب والذين سيوجدون من بعد.

وقد يُجعل سبب تغيير الأسلوب بأنّ القول السابق قول مخاطبة، والقول الذي بعده قول تقدير وقضاء، أي قدّر الله تحيون فيها وتموتون فيها وتخرجون منها.

{ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } [26]

إذا جرينا على ظاهر التفاسير كان قوله { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً } استئنافا ابتدائيا، عاد به الخطاب إلى سائر النّاس الذين خوطبوا في أوّل الدعوة، لأنّ الغرض من السورة إبطال ما كان عليه مشركو العرب، أمّة الدعوة، من الشرك وتوابعه من أحوال دينهم الجاهلي، وكان قوله { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ } [11] استطراد بذكر منّه عليهم وهم يكفرون به، كما تقدّم عند قوله تعالى {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ}.

فخاطبت هذه الآية جميع بني آدم بشيء من الأمور المقصودة من السورة، فهذه الآية كالمقدمة للغرض.

ويجوز أن يكون قوله { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً } وما أشبهه مما افتتح بقوله {يَا بَنِي آدَمَ} أربع مرات، ممّا خاطب الله بني آدم في ابتداء عهدهم بعمران الأرض على لسان أبيهم، أو بطريق من طرق الإعلام الإلهي، ولو بالإلهام، لما تنشأ به في نفوسهم هذه الحقائق، واستطرد بين ذلك كلّه بمواعظ تنفع الذين قصدوا من هذا القصص، وهم المشركون المكذّبون محمدا ﷺ، فهم المقصود من هذا الكلام كيفما تفنّنت أساليبه وتناسق نظمُه.

وأيّا ما كان فالمقصود الأوّل من هذه الخطابات، أو من حكاياتها هم مشركو العرب ومكذّبو محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك تخلّلت هذه الخطابات مستطردات وتعريضات مناسبة لما وضعه المشركون من التكاذيب في نقض أمر الفطرة.

وهذا الخطاب يشمل المؤمنين والمشركين، ولكن الحظّ الأوفر منه للمشركين، لأنّ حظّ المؤمنين منه هو الشكر على يقينهم بأنّهم موافّقون في شؤونهم لمرضاة ربّهم، وأمّا حظّ المشركين فهو الإنذار بأنّهم كافرون بنعمة ربّهم، معرّضون لسخطه وعقابه.

وابتدئ الخطاب بالنداء ليقع إقبالهم على ما بعده بشراشر قلوبهم، وكان لاختيار استحضارهم عند الخطاب بعنوان بني آدم مرتين وقع عجيب، بعد الفراغ من ذكر قصّة خلق آدم وما لقيه من وسوسة الشيطان.

ولمّا كان إلهام الله آدم أن يستر نفسه بورق الجنّة منّة عليه، وقد تقلّدها بنوه، خوطب النّاس بشمول هذه المنّة لهم بعنوان يدلّ على أنّها منّة موروثة، وهي أوقع وأدعى للشكر، ولذلك سمّى تيسير اللباس لهم وإلهامهم إيّاه إنزالا، لقصد تشريف هذا المظهر، وهو أول مظاهر الحضارة، بأنّه منزّل على النّاس من عند الله.

وهذا تنبيه إلى أنّ اللّباس من أصل الفطرة الإنسانية، والفطرة أوّل أصول الإسلام، وأنّه مما كرّم الله به النوع منذ ظهوره في الأرض.

اللّباس، اسم لما يلبسه الإنسان، أي يستر به جزءا من جسده، فالقميص لباس، والإزار لباس، والعمامة لباس، ويقال لبِس التاج ولبس الخاتم قال تعالى {وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} [فاطر: 12] ومصدر لبِس

اللُّبس (بضم اللام).
{ **يُوَارِي سَوْآتِكُمْ** } صفة مدح اللّباس، أي من شأنه ذلك، وإن كان كثير من اللباس ليس لموار اة السوآت مثل العمامة، وفي الآية إشارة إلى وجوب ستر العورة المغلّظة، وهي السوأة، وأمّا ستر ما عداها من الرجل والمرأة فلا تدل الآية عليه، وقد ثبت بعضه بالسنّة، وبعضه بالقياس، والخوض في تفاصيلها وعللها من مسائل الفقه.
الرّيش، لباس الزينة الزائد على ما يستر العورة، وهو مستعار من ريش الطير لأنّه زينته، ويقال للباس الزّينة رِياش.
والمعنى يسّرنا لكم لباسا يستركم ولباسا تتزيّنون به.
{ **وَلِبَاسُ التَّقْوَى** } قرأه نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو جعفر بالنصب، عطفا على {لِبَاساً}، والتقوى، على هذه القراءة، مصدر بمعنى الوقاية، فالمراد: لبوس الحرب، من الدروع والجواشن والمغافر. فيكون كقوله تعالى {وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ} [النحل: 81].
وقرأه ابن كثير، وعاصم، وحمزة، وأبو عمرو، ويعقوب، وخلف بالرفع {لِبَاسُ التَّقْوَى} على أنّ الجملة معطوفة على جملة { قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً } ، فيجوز أن يكون المراد بلباس التقوى مثل ما يرد به في قراءة النصب. ويجوز أن يكون المراد بالتقوى تقوى الله وخشيته. وهذا المعنى الرفعُ أليق به. ويكون استطرادا للتحريض على تقوى الله، فإنّها خير للنّاس من منافع الزينة، واسم الإشارة على هذه القراءة لتعظيم المشار إليه.
{ **ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** } بعد الامتنان بأصناف اللّباس، استئنافين يؤذنان بعظيم النعمة، الأوّل بأنّ اللّباس خير للنّاس، والثاني بأنّ اللّباس آية من آيات الله تدل على علمه ولطفه، وتدلّ على وجوده.
وضمير الغيبة في { لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } التفات، أي جعل الله ذلك آية لعلكم تتذكرون عظيم قدرة الله تعالى وانفراده بالخلق والتقدير واللطف، وفي هذا الالتفات تعريض بمن لم يتذكّر من بني آدم فكأنه غائب عن حضرة الخطاب، على أنّ ضمائر الغيبة، في مثل هذا المقام في القرآن، كثيرا ما يقصد بها مشركو العرب.

{ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجنّة يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ}[27]

النداء بعنوان بني آدم، للوجه الذي ذكرته في الآية قبلها، مع زيادة التنويه بمنّة اللباس. وقد نهوا عن أن يفتنهم الشيطان، وفتون الشيطان حصول آثار وسوسته، أي لا تمكّنوا الشيطان من أن يفتنكم. والمعنى النهي

عن طاعته، وهذا من مبالغة النهي، فالمعنى لا تطيعوا الشيطان في فتنه فيفتنكم.
وشبّه الفتون الصادر من الشيطان للنّاس بفتنة آدم وزوجه، إذ أقدمهما على الأكل من الشجرة المنهيّ عنه، فأخرجهما من نعيم كانا فيه، تذكيرا للبشر بأعظم فتنة فتن الشيطان بها نوعهم، وشملت كلّ أحد من النوع، إذ حرم من النعيم الذي كان يتحقّق له لو بقي أبواه في الجنّة وتناسلا فيها، وفي ذلك أيضا تذكير بأنّ عداوة البشر للشيطان موروثة، فيكون أبعث لهم على الحذر من كيده.

{ **كَمَا أَخْرَجَ** } كإخراجه أبويكم من الجنّة، فإنّ إخراجه إيّاهما من الجنّة فتون عظيم يشبّه به فتون الشيطان حين يراد تقريب معناه للبشر وتخويفهم منه.

الأبوان، تثنية الأب، والمراد بهما الأب والأمّ على التغليب، وهو تغليب شائع في الكلام وتقدّم عند قوله تعالى {وَلِأَبَوَيْهِ} [النساء :11]. وأطلق الأب هنا عن الجدّ لأنّه أب أعلى، كما في قول النبي ﷺ: أنا ابن عبد المطلب.

{ **يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا** } في موضع الحال، والمقصود من هذه الحال تفظيع هيئة الإخراج بكونها حاصلة في حال انكشاف سوآتهما، لأن انكشاف السوءة من أعظم الفظائع والفضائح في متعارف النّاس.
والتعبير عمّا مضى بالفعل المضارع لاستحضار الصورة العجيبة من تمكّنه من أن يتركهما عريانين.
واللّباس تقدم قريبا، ويجوز هنا أن يكون حقيقة، وهو لباس جلّلهما الله به في تلك الجنّة يحجب سوآتهما، كما روى أنّه حجاب من نور، وروي أنه كقشر الأظفار وهي روايات غير صحيحة، والأظهر أنّ نزع اللباس تمثيل لحال التسبّب في ظهور السوءة.
وإسناد الإخراج والنزع والإراءة إلى الشيطان مجاز عقلي، مبني على التسامح في الإسناد بتنزيل السبب منزلة الفاعل، سواء اعتبر النزع حقيقة أم تمثيلا، فإن أطراف الإسناد المجازي العقلي تكون حقائق، وتكون مجازات، وتكون مختلفة، كما تقرّر في علم المعاني.

{ **لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا** } لام التعليل الادعائي، تبعا للمجاز العقلي، لأنّه لما أسند الإخراج والنزع والإرادة إليه على وجه المجاز العقلي، ناسب أن يجعل له غرض من تلك الأفعال المضرّة، وكونه قاصدا من ذلك الشناعة والفظاعة، كشأن الفاعلين أن تكون لهم علل غائيّة من أفعالهم إتماما للكيد، وإنّما الشيطان في الواقع سبب لرؤيتهما سوآتهما، فانتظم الإسناد الادعائي مع التعليل الادعائي، فكانت لام العلة تقوية للإسناد المجازي، وترشيحا له، ولأجل هذه النكتة لم نجعل اللام هنا للعاقبة.

{ **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ** } واقعة موقع التعليل للنهي عن الافتتان بفتنة الشيطان، والتحذير من كيده، فأخبر الله النّاس بأن الشياطين ترى البشر، وأنّ البشر لا يرونها، إظهارا للتفاوت بين جانب كيدهم وجانب حذر النّاس منهم، فإنّ جانب كيدهم قوي متمكّن وجانب حذر النّاس منهم ضعيف، لأنّهم يأتون المكيد من حيث لا يدري.

قَبِيلُهُ، بمعنى القبيلة، للدلالة على أنّ له أنصارا ينصرونه على حين غفلة من النّاس.
وتأكيد الخبر بحرف التوكيد لتنزيل المخاطبين في إعراضهم عن الحذر من الشيطان وفتنته منزلة من يتردّدون في أنّ الشيطان يراهم وفي أنّهم لا يرونه.

{ **مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ** } فرؤية ذوات الشياطين منتفية لا محالة، وقد يخوّل الله رؤية الشياطين أو الجنّ متشكّلة في أشكال الجسمانيذات، معجزة للأنبياء كما ورد في الصحيح: " إنّ عفريتا من الجنّ تفلّت عليّ الليلة في صلاتي فهممت أن أوثقه في سارية من المسجد..." . أو كرامة للصالحين من الأمم، كما في حديث الذي جاء يسرق من زكاة الفطر عند أبي هريرة، وقول النبي ﷺ لأبي هريرة: " ذلك شيطان ". ولا يكون ذلك إلّا على تشكّل الشيطان أو الجنّ في صورة غير صورته الحقيقية، وطريق العلم بذلك هو الخبر الصادق، فلولا الخبر لما علم ذلك.

{ **إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا قصد منه الانتقال إلى أحوال المشركين في أئتمارهم بأمر الشيطان، تحذيرا للمؤمنين من الانتظام في سلكهم، وتنفيرا من أحوالهم، والمناسبة هي التحذير. وتأكيد الخبر بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر بالنسبة لمن يسمعه من المؤمنين.

{ **جَعَلْنَا** } جعل التكوين، بمعنى خلقنا الشياطين.

{ **أَوْلِيَاءَ** } حال من {الشَّيَاطِينَ} وهي حال مقدّرة أي خلقناهم مقدّرة ولايتهم للذين لا يؤمنون، وذلك أن الله جبل أنواع المخلوقات وأجناسها على طبائع لا تنتقل عنها، ولا تقدر على التصرّف بتغييرها، كالافتراس في الأسد، واللسع في العقرب، وخلق في الإنسان العقل والفكر فجعله قادرا على اكتساب ما يختار، ولمّا كان من جبلّة الشياطين حبّ ما هو فساد، وكان من قدرة الإنسان وكسبه أنّه قد يتطلّب الأمر العائد بالفساد، كان الإنسان في هذه الحالة موافقا لطبع الشياطين، ومؤتمرا بما تسوله إليه، ثم يغلب كسب الفساد والشر على الذين توغلوا فيه وتدرجوا إليه، حتى صار المالك لإراداتهم، فلا جرم نشأت بينهم وبين الشياطين ولاية ووفاق، لتقارب الدواعي، فبذلك انقلبت العداوة التي في الجبلة التي أثبتها قوله {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ} [الأعراف: 22] وقوله {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} فصارت ولاية ومحبّة عند بلوغ ابن آدم آخر دركات الفساد، وهو الشرك وما فيه، فصار هذا جعلا جديدا ناسخا للجعل الذي في قوله {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} كما تقدمت الإشارة إليه هنالك. فما في هذه الآية مقيد للإطلاق الذي في الآية الأخرى، تنبيها على أنّ من حق المؤمن أن لا يوالي الشيطان.

والمراد بالذين لا يؤمنون المشركون، لأنّهم المضادون للمؤمنين في مكّة.

{ **وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ**

أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ }[28]

{ **وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً** } معطوف على { لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ } [27]، فهو من جملة الصلة، وفيه إدماج لكشف باطلهم في تعلّلاتهم ومعاذيرهم الفاسدة، أي للّذين لا يقبلون الإيمان ويفعلون الفواحش ويعتذرون عن فعلها بأنّهم اتّبعوا آباءهم وأنّ الله أمرهم بذلك، وهذا خاص بأحوال المشركين المكذّبين. والمقصود تفظيع حال دينهم، بأنّه ارتكاب فواحش.

الفاحشة، في الأصل صفة لموصوف محذوف أي، فَعْلَة فاحشةٌ، ثم نزل الوصف منزلة الاسم لكثرة دورانه، فصارت الفاحشة اسما للعمل الذميم، وهي مشتقة من الفُحش (بضم الفاء) وهو الكثرة والقوّة في الشيء المذموم والمكروه، وغلبت الفاحشة في الأفعال الشديدة القبح، وهي التي تنفر منها الفطرة السليمة، أو ينشأ عنها ضرّ وفساد بحيث يأباها أهل العقول الراجحة، وينكرها أولو الأحلام، ويستحيي فاعلها من النّاس، ويتستّر من فعلها، مثل البغاء والزنى والوأد والسرقة، ثم تنهى عنها الشرائع الحقّة.

{ **قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا** } فكأنّ أئمة الشرك قد أعدّوا لأتباعهم معاذير عن تلك الأعمال، وجماعها أن ينسبوها إلى آبائهم السالفين الذين هم قدوة لخلفهم، واعتقدوا أن آباءهم أعلم بما في طي تلك الأعمال من مصالح لو اطلع عليها المنكرون لعرفوا ما أنكروا، ثم عطفوا على ذلك أنّ الله أمر بذلك، يعنون أن آباءهم ما رسموها من تلقاء أنفسهم، ولكنّهم رسموها بأمر من الله تعالى، ففهم منه أنّهم اعتذروا لأنفسهم واعتذروا لآبائهم.

{ **وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا** } ليس ادعاء بلوغ أمر من الله إليهم، ولكنّهم أرادوا أنّ الله أمر آباءهم الذين رسموا تلك الرسوم وسنّوها، فكان أمر الله آباءهم أمرا لهم، لأنّه أراد بقاء ذلك في ذريّاتهم، فهذا معنى استدلالهم، وقد أجمله إيجاز القرآن اعتمادا على فطنة المخاطبين.

ودلّت الآية على إنكار ما كان مماثلا لهذا الاستدلال، وهو كلّ دليل توكأ على اتّباع الآباء في الأمور الظاهر فسادها وفحشها، وكلّ دليل استند إلى ما لا قبل للمستدلّ بعلمه، فإنّ قولهم {وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا} دعوى باطلة إذ لم يبلغهم أمر الله بذلك بواسطة مبلّغ، فإنهم كانوا ينكرون النبوءة، فمن أين لهم تلقّي مراد الله تعالى.

{ **قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ** } رد الله ذلك عليهم، وأعرض عن رد قولهم {وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا} لأنّه إن كان يراد ردّه من جهة التكذيب، فهم غير كاذبين في قولهم، لأنّ آباءهم كانوا يأتون تلك الفواحش، وإن كان يراد رده من جهة عدم صلاحيته للحجّة فإنّ ذلك ظاهر.

لأنّ الله متصف بالكمال فلا يأمر بما هو نقص لم يرضه العقلاء وأنكروه، فكون الفعل فاحشة كاف في الدلالة على أنّ الله لا يأمر به لأنّ الله له الكمال الأعلى، وما كان اعتذارهم بأنّ الله أمر بذلك إلّا عن جهل، ولذلك وبّخهم الله بالاستفهام التوبيخي بقوله:

{ **أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** } أي ما لا تعلمون أن الله أمر به، فحذف المفعول لدلالة ما تقدّم عليه، لأنّهم لم يعلموا أنّ الله أمرهم بذلك، إذ لا مستند لهم فيه، وإنّما قالوه عن مجرّد التوهّم، ولأنّهم لم يعلموا أنّ الله لا يليق بجلالة وكماله أن يأمر بمثل تلك الرذائل.

{ **أَتَقُولُونَ** } ضمن معنى تكذبون أو معنى تتقوّلون، فلذلك عدي بـ (على)، وكان حقّه أن يعدّى بـ (عن) لو كان قولا صحيح النسبة، وإذ كان التوبيخ واردا على أن يقولوا على الله ما لا يعلمون كان القول على الله بما يتحقّق عدم وروده من الله أحرى.

واعلم أن ليس في الآية مستند لإبطال التقليد في الأمور الفرعية أو الأصول الدينيّة، لأنّ التقليد الذي نعاه الله على المشركين هو تقليدهم من ليسوا أهلا لأن يقلّدوا، لأنّهم لا يرتفعون عن رتبة مقلّديهم، إلّا بأنّهم أقدم جيلا، وأنّهم آباؤهم، فإنّ المشركين لم يعتذروا بأنّهم وجدوا عليه الصالحين وهداة الأمّة، ولا بأنّه ممّا كان عليه إبراهيم وأبناؤه. ولأنّ التقليد الذي نعاه الله عليهم تقليد أعمال بديهيّة الفساد، والتقليد في الفساد يستوي، هو وتسنينه، في الذمّ، على أنّ تسنين الفساد أشدّ مذمّة من التقليد فيه كما أنبأ عنه الحديث الصحيح: ما من نفس تقتل ظلما إلّا كان على ابن آدم الأوّل كفل من دمها ذلك لأنّه أوّل من سن القتل" ، وحديث: "من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة".

{ **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** [29] **فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ** } [30]

بعد أن أبطل زعمهم أنّ الله أمرهم بما يفعلونه من الفواحش إبطالا عاما بقوله {قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} استأنف استئنافا استطراديا بما فيه جماع مقوّمات الدين الحقّ الذي يجمعه معنى القسط، أي العدل، تعليما لهم بنقيض جهلهم، وتنويها بجلال الله تعالى، بأن يعلموا ما شأنه أن يأمر الله به.

ولأهمية هذا الغرض، ولمضادته لمدعاهم المنفي في جملة {قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} فصلت هذه الجملة عن التي قبلها، ولم يعطف القول على القول ولا المقول على المقول، لأنّ في إعادة فعل القول وفي ترك عطفه على نظيره لفتا للأذهان إليه.

القسط، العدل وهو هنا العدل بمعناه الأعمّ، أي الفعل الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط في الأشياء، وهو الفضيلة من كل فعل. فالله أمر بالفضائل، وبما تشهد العقول السليمة أنّه صلاح محض وأنّه حسن مستقيم، نظير قوله {وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} [الفرقان: 67].

فالتوحيد عدل بين الإشراك والتعطيل، والإحسان عدل بين الشحّ والإسراف.

فالقسط صفة للفعل في ذاته بأن يكون ملائما للصلاح عاجلا وآجلا، أي سالما من عواقب الفساد، وهذا إبطال للفواحش التي زعموا أنّ الله أمرهم بها، لأنّ شيئا من تلك الفواحش ليس بقسط، فقوله { قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ} كلام جامع لإبطال كلّ ما يزعمون أنّ الله أمرهم به ممّا ليس من قبيل القسط.

{ **وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ** } عطف على جملة {أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ}، أمر للنبي ﷺ بأن يقول لأولئك المخاطبين أقيموا وجوهكم. والقصد الأوّل منه إبطال بعض ممّا زعموا أنّ الله أمرهم به، بطريق أمرهم بضد ما زعموه، ليحصل أمرهم بما يرضي الله بالتصريح.

إقامة الوجوه، تمثيل لكمال الإقبال على عبادة الله تعالى، في مواضع عبادته، بحال المتهيّئ لمشاهدة أمر مهمّ فذلك التوجّه المحض يطلق عليه إقامة، كما يقال: قامت السوق، وقامت الصلاة وقد تقدّم عند قوله تعالى {وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ} [البقرة:3]، فالمعنى أنّ الله أمر بإقامة الوجوه عند المساجد، لأنّ ذلك هو تعظيم المعبود ومكان العبادة. وهذا كما ورد في الحديث: " المصلي يناجي ربّه فلا يبصقن قبل وجهه".

{ **عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ** } عند كل مكان متّخذ لعبادة الله تعالى، واسم المسجد منقول في الإسلام للمكان المعيّن المتّخذ للصلاة، وتقدم عند قوله تعالى {وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ} [المائدة :2].

فالأمر بإقامة الوجوه عند المساجد كلّها، أمر بالتزام التوحيد وكمال الحال في شعائر الحجّ كلها. وهذا الأمر وإن كان المقصود به المشركين لأنّهم المتّصفون بضدّه، فللمؤمنين منه حظّ الدوام عليه، كما كان للمشركين حظّ الإعراض عنه والتفريط فيه.

{ **وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** }الدعاء هنا بمعنى العبادة. والإخلاص، تمحيص الشيء من مخالطة غيره. والدين، بمعنى الطاعة، من قولهم دنت لفلان أي أطعته. ومنه سمّي الله تعالى: الديّان، أي القهّار المذلّل المطوّع لسائر الموجودات.

{ **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** } هذا إنذار لهم بأنّهم عائدون إليه فمجازون عن إشراكهم في عبادته، وهو أيضا احتجاج عليهم على عدم جدوى عبادتهم غير الله، وإثبات للبعث الذي أنكروه.

{ **فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ** } أي ترجعون إلى الله فريقين. وهذا كلّه إنذار من الوقوع في الضلال، وتحذير من اتباع الشيطان، وتحريض على توخّي الاهتداء الذي هو من الله تعالى، كما دل عليه إسناده إلى ضمير الجلالة في قوله {هَدَى} فيعلم السامعون أنهم إذا رجعوا إليه فريقين كان الفريق المفلح هو الفريق الذين هداهم الله تعالى.

وذلك أن المخاطبين كانوا مشركين كلّهم، فلمّا أمروا بأن يعبدوا الله مخلصين افترقوا فريقين: فريقا هداه الله إلى التوحيد، وفريقا لازم الشرك والضلالة، فلم يطرأ عليهم حال جديد. وبذلك يظهر حسن موقع لفظ {حَقَّ} هنا دون أن يقال أضلّه الله، لأنّ ضلالهم قديم مستمر اكتسبوه لأنفسهم، كما في نظيره {فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ

وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ} [النحل: 36] ثم قال {إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ} [النحل: 37]. فليس تغيير الأسلوب بين { فريقا هدى } وبين {وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ} تحاشيا عن إسناد الإضلال إلى الله، كما توهّمه صاحب الكشاف، لأنّه قد أسند الإضلال إلى الله في نظير هذه الآية كما علمت وفي آيات كثيرة، ولكن اختلاف الأسلوب لاختلاف الأحوال.

وجرّد فعل (حقّ) عن علامة التأنيث لأنّ فاعله غير حقيقي التأنيث، وقد أظهرت علامة التأنيث في نظيره في قوله تعالى {وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ} [النحل: 36].

{ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } استئناف مراد به التعليل لجملة **{ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ }** وهذا شأن (إنّ) إذا وقعت في صدر جملة عقب جملة أخرى أن تكون للربط والتعليل وتغني غَنَاء الفاء، كما تقدم غير مرة.

والمعنى أنّ هذا الفريق، الذي حقّت عليهم الضلالة، لمّا سمعوا الدعوة إلى التوحيد والإسلام، لم يطلبوا النجاة ولم يتفكّروا في ضلال الشرك البيّن، ولكنهم استوحوا شياطينهم، وطابت نفوسهم بوسوستهم، وائتمروا بأمرهم، واتخذوهم أولياء، فلا جرم أن يدوموا على ضلالهم لأجل اتخاذهم الشياطين أولياء من دون الله.

{ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ } عطف على جملة {اتَّخَذُوا} فكان ضلالهم ضلالا مركّبا، إذ هم قد ضلّوا في الائتمار بأمر أئمة الكفر وأولياء الشياطين، ولمّا سمعوا داعي الهدى لم يتفكّروا، وأهملوا النظر، لأنّهم يحسبون أنّهم مهتدون، فلذلك لم تخطر ببالهم الحاجة إلى النظر في صدق الرّسول ﷺ.

الحسبان، الظنّ، وهو هنا ظنّ مجرّد عن دليل، وذلك أغلب ما يراد بالظن وما يرادفه في القرآن.

{ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[31]

إعادة النداء في صدر هذه الجملة للاهتمام. وهذه الجملة تتنزل، من التي بعدها، {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ} منزلة النتيجة من الجدل، فقدّمت على الجدل، فصارت بمنزلة دعوى، وجُعل الجدل حجّة على الدعوى، وذلك طريق من طرق الإنشاء في ترتيب المعاني ونتائجها.

{ خُذُوا زِينَتَكُمْ } إبطال ما زعمه المشركون من لزوم التعرّي في الحجّ في أحوال خاصة، وعند مساجد معيّنة، فقد أخرج مسلم عن عروة بن الزبير، قال: " كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلّا الحُمْس (والحُمْس قريش وما ولدت) فكان غيرهم يطوفون عراة إلّا أن يعطيهم الحمس ثيابا، فيعطي الرجال الرجال والنساء النساء". وعنه: " أنّهم كانوا إذا وصلوا إلى منى طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة". وروي أنّ الحمس كانوا يقولون: نحن أهل الحرم فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلّا في ثيابنا ولا يأكل، إذا دخل أرضنا، إلّا

من طعامنا. فمن لم يكن له من العرب صديق بمكّة يعيره ثوبا ولا يجد ما يستأجر به كان بين أحد أمرين إمّا أن يطوف بالبيت عريانا، وإمّا أن يطوف في ثيابه، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه فلم يمسّه أحد، وكان ذلك الثوب يسمى: اللَّقى (بفتح اللام).

وفي الكشاف، عن طاووس: كان أحدهم يطوف عريانا ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضرب وانتزعت منه، لأنهم قالوا لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها، وقد أبطله النبي ﷺ إذ أمر أبا بكر رضي الله عنه، عام حجّته سنة تسع، أن ينادي في الموسم: " أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان".

{ **خُذُوا زِينَتَكُمْ** } الأمر للوجوب، وفي قوله { **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا** } للإباحة لبني آدم الماضين والحاضرين.

والمقصود من توجيه الأمر أو من حكايته إبطال التحريم الذي جعله أهل الجاهليّة لأنّهم نقضوا به ما تقرّر في أصل الفطرة ممّا أمر الله به بني آدم كلّهم، وامتن به عليهم، إذ خلق لهم ما في الأرض جميعا.

{ **عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ** } تعميم، أي لا تخصّوا بعض المساجد بالتعري مثل المسجد الحرام ومسجد منى، وقد تقدم في قوله {وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [الأعراف: 29].

الإسراف، تقدم عند قوله تعالى {وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً} [النساء: 6]، وهو تجاوز الحدّ المتعارف في الشيء.

والنهي عن السرف نهي إرشاد لا نهي تحريم بقرينة الإباحة اللاحقة في قوله {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ}. ولأن مقدار الإسراف لا ينضبط فلا يتعلّق به التكليف، ولكن يوكل إلى تدبير النّاس مصالحهم.

{ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** } تذييل، وتقدّم القول في نظيره في سورة الأنعام.

{ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }[32]

استئناف معترض بين الخطابات المحكيّة والموجّهة، وهو موضع إبطال مزاعم أهل الجاهليّة فيما حرّموه من اللباس والطعام وهي زيادة تأكيد لإباحة التستّر في المساجد، فابتدئ الكلام السابق بأنّ اللّباس نعمة من الله، وثنّى بالأمر بإجاب التستّر عند كل مسجد، وثلّث بإنكار أن يوجد تحريم اللباس.

{ **قُلْ** } دلالة على أنّه كلام مسوق للردّ والإنكار والمحاورة.

والاستفهام إنكاري قصد به التهكّم إذ جعلهم بمنزلة أهل علم يطلب منهم البيان والإفادة، نظير قوله {قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا} [الأنعام: 148].

{ **قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } ولوضوح انتفاء تحريمها، وأنه لا يقوله عاقل، وأن السؤال سؤال عالم لا سؤال طالب علم، أمر السائل بأن يجيب بنفسه.

{ **هِيَ** } ضمير عائد إلى الزينة والطيّبات.

{ **خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } قرأه نافع، وحده بالرفع على أنه خبر ثان، وقرأه باقي العشرة بالنصب على الحال من المبتدأ، ومعنى القراءتين واحد، وهو أنّ الزينة والطيبات تكون خالصة للمؤمنين يوم القيامة.

والمقصود أنّ المشركين وغيرهم من الكافرين لا زينة لهم ولا طيّبات من الرزق يوم القيامة. وهذا المعنى مروي عن ابن عباس وأصحابه.

{ **كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ** } تقدم نظير هذا التركيب في سورة الأنعام.

والمراد بالآيات الدلائل الدالة على عظيم قدرة الله تعالى، وانفراده بالإلهيّة. والدالة على صدق رسوله محمد ﷺ، إذ بيّن فساد دين أهل الجاهليّة. وعلّم أهل الإسلام علما كاملا لا يختلط معه الصالح والفاسد من الأعمال.

{ **لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } لام العلّة، وهو متعلّق بفعل {نُفَصِّلُ} ، أي تفصيل الآيات لا يفهمه إلّا قوم يعلمون. والمراد، الثناء على المسلمين الذين فهموا الآيات وشكروا عليها. والتعريض بجهل وضلال عقول المشركين الذين استمروا على عنادهم وضلالهم، رغم ما فصّل لهم من الآيات.

{ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْأِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ }.[33]

{ **إِنَّمَا** } قصر إضافي مفاده أنّ الله حرم الفواحش وما ذكر معها، لا ما حرّمتموه من الزينة والطيبات، فأفاد إبطال اعتقادهم، ثم هو يفيد بطريق التعريض أنّ ما عده الله من المحرمات الثابت تحريمها قد تلبسوا بها، لأنه لما عدّ أشياء، وقد علم النّاس أن المحرمات ليست محصورة فيها، علم السامع أن ما عيّنه مقصود به تعيين ما تلبّسوا به فحصل بصيغة القصر تحليل ما زعموه حراما وتحريم ما استباحوه من الفواحش وما معها.

الفواحش، جمع فاحشة وقد تقدم عند قوله تعالى {إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً} [النساء :22] و عند قوله تعالى {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً} [الأعراف: 28].

{ **مَا ظَهَرَ مِنْهَا** } هو ما يظهره النّاس بين قرنائهم وخاصتهم مثل البغاء والمخادعة.

{ **وَمَا بَطَنَ** } ما لا يظهره النّاس مثل الوأد والسرقة، وقد تقدم عند قوله تعالى {وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} [الأنعام: 151].

الإثم، كل ذنب، فهو أعم من الفواحش، وتقدم في قوله تعالى {قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ} [البقرة :219].

فيكون ذكر الفواحش قبله للاهتمام بالتحذير منها قبل التحذير من عموم الذنوب، فهو من ذكر الخاص قبل العام للاهتمام، كذكر الخاص بعد العام، إلا أن الاهتمام الحاصل بالتخصيص مع التقديم أقوى لأن فيه اهتماما

من جهتين.

البغي، هو الاعتداء على حقّ الغير بسلب أموالهم أو بأذاهم، والكبر على النّاس من البغي، وقد كان البغي شائعا في الجاهليّة فكان القوي يأكل الضعيف، وذو البأس يغير على أنعام النّاس ويقتل أعداءه منهم، ومن البغي أن يضربوا من يطوف بالبيت بثيابه إذا كان من غير الحمس. وأن يلزموه بأن لا يأكل غير طعام الحمس، ولا يطوف إلا في ثيابهم.

{ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** } صفة كاشفة للبغي، لأن البغي لا يكون إلا بغير حق.

الإشراك، معروف، وقد حرمه الله تعالى على لسان جميع الأنبياء منذ خلق البشر.

{ **مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً** } والسلطان البرهان والحجة. نفي الحجّة الدالة على إثبات صفة الشركة مع الله في الإلهية. وهذه الصلة مؤذنة بتخطئة المشركين، ونفي معذرتهم في الإشراك بأنه لا دليل يشتبه على النّاس في عدم استحقاق الأصنام العبادة.

{ **وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** } تقدم نظيره عند قوله تعالى{ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ} [28]

وقد جمعت هذه الآية أصول أحوال أهل الجاهليّة فيما تلبّسوا به من الفواحش والآثام، وهم يزعمون أنّهم يتورّعون عن الطواف في الثياب، وعن أكل بعض الطيّبات في الحجّ.

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ }[34]

لما نعى الله على المشركين ضلالهم وتمرّدهم، بعد أن دعاهم إلى الإيمان، وإعراضهم عنه، بالمجادلة والتوبيخ وإظهار نقائصهم بالحجّة البيّنة، وكان حالهم حال من لا يقلع عمّا هم فيه، أعقب ذلك بإنذارهم ووعيدهم، إقامة للحجّة عليهم وأعذارا لهم قبل حلول العذاب بهم.

وهذه الجملة تحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المقصود بهذا الخبر المشركين، بأن أقبل الله على خطابهم، أو أمر نبيّه بأن يخاطبهم، لأنّ هذا الخطاب خطاب وعيد وإنذار.

والمعنى الثاني: أن يكون المقصود بالخبر النبي ﷺ، فيكون وعدا له بالنصر على مكذّبيه.

وذكر عموم الأمم في هذا الوعيد، مع أنّ المقصود هم المشركون من العرب الذين لم يؤمنوا، إنّما هو مبالغة في الإنذار والوعيد بتقريب حصوله كما حصل لغيرهم من الأمم، على طريقة الاستشهاد بشواهد التاريخ في قياس الحاضر على الماضي، فيكون الوعيد خبرا معضودا بالدليل والحجّة.

وذكر الأجل هنا، دون أن يقول لكل أمة عذاب أو استئصال، إيقاظا لعقولهم من أن يغرّهم الإمهال فيحسبوا

أنّ الله غير مؤاخذهم على تكذيبهم، وطمأنة للرّسول ﷺ بأنّ تأخير العذاب عنهم إنّما هو جري على عادة الله تعالى في إمهال الظالمين على حد قوله {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا} [يوسف: 110].

{ **لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ** } لكلّ أمة مكذّبة إمهال فحذف وصف الأمّة.

الأجل، يطلق على مدة الإمهال، وجعل لذلك الزمان نهاية وهي الوقت المضروب لانقضاء الإمهال، ويطلق على الوقت المحدد به انتهاء المدّة، وفي هذه الآية يصح للاستعمالين بأن يكون المراد بالأجل الأول المدّة، وبالثاني الوقت المحدّد لفعل ما.

والمراد بالأمّة هنا الجماعة التي اشتركت في عقيدة الإشراك أو في تكذيب الرّسل، كما يدلّ عليه السياق من قوله تعالى {وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ} [الأعراف: 33]، وليس المراد بالأمّة، الجماعة التي يجمعها نسب أو لغة، إذ لا يتصوّر انقراضها عن بكرة أبيها.

وليس المراد في الآية، بأجل الأمة، أجل أفرادها، وهو مدّة حياة كل واحد منها، لأنه لا علاقة له بالسياق.

{ **إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ** } أظهر لفظ أجل ولم يكتف بضميره لزيادة تقرير الحكم عليه، ولتكون هذه الجملة مستقلّة بنفسها غير متوقّفة على سماع غيرها، بحيث تجري مجرى المثل. وإرسال الكلام الصالح لأن يكون مثلا طريق من طرق البلاغة.

{ **لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** } بمعنى، لا يتأخّرون ولا يتقدّمون، فالسين والتاء فيهما للتأكيد مثل استجاب. والمقصود أنهم لا يؤخّرون عنه.

وكل ذلك مبني على تمثيل حالة الذي لا يستطيع التخلّص من وعيد أو نحوه، بهيئة من احتبس بمكان لا يستطيع تجاوزه إلى الأمام ولا إلى الوراء.

{ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [35] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[36]

قال ابن عطية : " وكأن هذا خطابٌ لجميع الأمم، قديمها وحديثها، هو متمكّن لهم، ومتحصّل منه لحاضري محمد ﷺ أن هذا حكم الله في العالم منذ أنشأه ".

يريد أنّ الله أبلغ النّاس هذا الخطاب على لسان كلّ نبي، من آدم إلى هلم جرّا. فما من نبيء أو رسول إلّا وبلّغه أمّته، وأمرهم بأن يبلّغ الشاهد منهم الغائب، حتّى نزل في القرآن على محمد ﷺ، فعلمت أمّته أنّها مشمولة في عموم بني آدم.

وهذه الآية، والتي بعدها، متصلتا المعنى بمضمون قوله تعالى في أوّل السورة {وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} [4] اتصال التفصيل بإجماله. أكّد به تحذيرهم من كيد الشيطان وفتونه، وأراهم به مناهج الرشد التي تعين على تجنّب كيده، بدعوة الرسل إيّاهم إلى التقوى والإصلاح، كما أشار إليه بقوله {يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ} [27]، وأنبأهم بأنّ الشيطان توعّد نوع الإنسان {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [16]، فلذلك حذّر الله بني آدم من كيد الشيطان، وأشعرهم بقوّته {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ} [27] عسى أن يتّخذوا العدّة للنّجاة من مخالب فتنته، وأردف ذلك بالتحذير من حزبه ودعاته الذين يفتنون المؤمنين، ثم عزّز ذلك بإعلامه إيّاهم أنّه أعانهم على الاحتراز من الشيطان، بأن يبعث إليهم قوما من حزب الله يبلّغونهم عن الله ما فيه منجاة لهم من كيد الشياطين، {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ}، فأوصاهم بتصديقهم والامتثال لهم.

{ **إِمَّا** } مركّبة من (إن) الشرطية و(ما) الزائدة المؤكّدة لمعنى الشرطية، واصطلح أئمة رسم الخط على كتابتها في صورة كلمة واحدة، رعيا لحالة النطق بها، بإدغام النون في الميم، والأظهر أنّها تفيد مع التأكيد عموم الشرط مثل أخواتها (مهما) و (أينما).

{ **مِنْكُمْ** } أي من بني آدم، وهذا تنبيه لبني آدم بأنّهم لا يترقّبون أن تجيئهم رسل الله من الملائكة، لأنّ المرسل يكون من جنس من أرسل إليهم، وفي هذا تعريض بالجهلة من الأمم الذين أنكروا رسالة الرسل، لأنّهم من جنسهم، مثل قوم نوح، إذ قالوا {مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا} [هود: 27].

{ **يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي** } يتلونها ويحكونها، ويجوز أن يكون بمعنى يُتبعون الآية بأخرى، ويجوز أن يكون بمعنى يظهرون، وكلّها معان مجازية للقصّ.

الآية، أصلها العلامة الدالة على شيء، من قول أو فعل. و**آيات الله،** الدلائل التي جعلها دالة على وجوده، أو على صفاته، أو على صدق رسله، كما تقدم عند قوله {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [البقرة:39].

ومنه آيات القرآن التي جعلها الله دلالة على مراده للنّاس. ووجه دلالة الآيات على ذلك إمّا لأنّها جاءت على نظم يعجز البشر عن تأليف مثله، وذلك من خصائص القرآن، وإمّا لأنّها تشتمل على أحكام ومعان لا قبل لغير الله ورسوله بإدراك مثلها، أو لأنّها تدعو إلى صلاح لم يعهده النّاس، فيدل ما اشتملت عليه على أنّه ممّا أراده الله للنّاس، مثل بقيّة الكتب التي جاءت بها الرسل، وإمّا لأنها قارنتها أمور خارقة للعادة تحدّى بها الرّسول المرسل بتلك الأقوال أمّته، فهذا معنى تسميتها آيات، ومعنى إضافتها إلى الله تعالى.

ويجوز أن يكون المراد بالآيات ما يشمل المعجزات غير القولية، مثل نبع الماء من بين أصابع محمد ﷺ، ومثل قلب العصا حيّة لموسى عليه السلام، وإبراء الأكمة لعيسى عليه السلام.

{ فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } جواب الشرط وبينها وبين جملة {إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ} محذوف تقديره، فاتقى منكم فريق وكذّب فريق، {فَمَنِ اتَّقَى}. وهذه الجملة شرطيّة أيضا، وجوابها {فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } ، أي فمن اتبع رسلي فاتقاني وأصلح نفسه وعمله فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. إيماء إلى حكمة إرسال الرسل، وتحريضا على اتّباعهم، بأنّ فائدته للأمم لا للرّسل، كما قال شعيب {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ} [هود: 88].

فالخوف والحزن المنفيان هما ما يوجبه العقاب، وقد ينتفي عنهم الخوف والحزن مطلقا بمقدار قوة التقوى والصلاح، وهذا من الأسرار التي بين الله وعباده الصالحين، ومثله قوله تعالى {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} [يونس: 62، 64].

{ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } معطوفة على جملة { فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ }، والرابط محذوف تقديره، والذين كفروا منكم وكذّبوا.

الاستكبار، مبالغة في التكبّر، فالسين والتاء للمبالغة وللحسبان أيضا، وهو أن يعد المرء نفسه كبيرا، أي عظيما وما هو به، ، وكلا الأمرين يؤذن بإفراطهم في ذلك وأنّهم عدوا قدرهم.

وفيه معنى الإعراض، فعلق به ضمير الآيات، والمعنى: واستكبروا فأعرضوا عنها.

وأفاد تحقيق أنّهم صائرون إلى النّار بطريق قصر ملازمة النّار عليهم في قوله {أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ} لأنّ لفظ أصحاب مؤذن بالملازمة، وبما تدل عليه الجملة الاسمية من الدوام والثبات في قوله { هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ [37] قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ فِي النّار كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النّار قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ [38] وَقَالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ } [39]

{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ [37] قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ فِي النّار }

هذه كالفذلكة لما تقدّم، لتبيّن أنّ صفات الضلال، التي أُبهم أصحابها، هي حافّة بالمشركين المكذّبين برسالة محمد ﷺ، فإنّ الله ذكر أولياء الشياطين وبعض صفاتهم بقوله {إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ} [27]، وذكر أنّ الله عهد لبني آدم منذ القدم بأن يتّبعوا من يجيئهم من الرسل عن الله تعالى بآياته ليتّقوا ويصلحوا، ووعدهم على اتباع ما جاءهم، الأمن من الخوف والحزن، وأوعدهم على التكذيب والاستكبار بأن يكونوا أصحاب النّار، فقد أعذر إليهم وبصّرهم بالعواقب، فتفرع على ذلك، أنّ من كذب على الله، فزعم أنّ الله أمره بالفواحش، أو كذّب بآيات الله التي جاء بها رسوله، فقد ظلم نفسه ظلما عظيما، حتّى يُسأل عمن هو أظلم منه.

{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى } تقدّم الكلام على هذا تركيب عند قوله تعالى {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ} [البقرة :114]، وأنّ الاستفهام للإنكار، أي لا أحد أظلم.

الافتراء و**الكذب**، تقدّم القول فيهما عند قوله {وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} [المائدة:103]، ولهذه الآية اتصال بآية {وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا} [4] من حيث ما فيها من التهديد بوعيد عذاب الآخرة وتفظيع أهواله.

وإنّما كانوا أظلم النّاس ولم يكن أظلم منهم، لأنّ الظلم اعتداء على حقّ، وأعظم الحقوق هي حقوق الله تعالى. والمراد بهذا الفريق، هم المشركون من العرب، فإنّهم كذّبوا بآيات الله التي جاء بها محمد ﷺ، وافتروا على الله الكذب فيما زعموا أنّ الله أمرهم به من الفواحش، كما تقدّم آنفا عند قوله تعالى {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا} [28].

{ **أو** } ظاهرها التقسيم فيكون الأظلم، وهم المشركون، فريقين: فريق افتروا على الله الكذب، وهم سادة أهل الشرك وكبراؤهم، الذين شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، ونسبوه إلى الله وهم يعلمون، مثل عمرو بن لحي، وأبي كبشة، ومن جاء بعدهما، وأكثر هذا الفريق قد انقرضوا في وقت نزول الآية، وفريق كذّبوا بالآيات ولم يفتروا على الله، وهم عامة المشركين، من أهل مكة وما حولها.

ولك أن تجعل { أو } بمعنى الواو، فيكون الموصوف بأنّه أظلم النّاس هو من اتصف بالأمرين الكذب والتكذيب، ويكون صادقا على المشركين لأنّ جماعتهم لا تخلو عن ذلك.

{ **أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ** } جيء باسم الإشارة ليدلّ على أنّ المشار إليهم أحرياء بأن يصيبهم العذاب بناء على ما دلّ عليه التفريع بالفاء.

والجملة يجوز أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيّا ناشئا عن الاستفهام، لأنّ التهويل المستفاد من الاستفهام يسترعي السامع أن يسأل عمّا سيلاقونه من الله الذي افتروا عليه وكذّبوا بآياته.

ويجوز أن تكون عطف بيان لجملة { أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [36]، أي خالدون الخلود الذي هو نصيبهم من الكتاب.

{ **يَنَالُهُمْ** } مادة النيل والنوال وردت واوية العين ويائية العين مختلطتين في دواوين اللغة. تقول نُلت (بضم النون) من نال ينول، وتقول نِلت (بكسر النون) من نال ينيل، ويظهر أن أكثر معاني المادتين مترادفة، وأصل النيل إصابة الإنسان شيئا لنفسه بيده، ونوّله أعطاه فنال، فالأصل أن تقول نال فلان كسبا، وقد جاء هنا بعكس ذلك، لأنّ النصيب من الكتاب هو أمر معنوي، فتعيّن أن يكون هذا إمّا مجازا مرسلا في معنى مطلق الإصابة، وإمّا أن يكون استعارة مبنيّة على عكس التشبيه، بأن شبّه النصيب بشخص طالب طلبة فنالها، وإنّما يصار إلى هذا، للتنبيه على أنّ الذي ينالهم شيء يكرهونه.

النصيب، الحظ الصائر لأحد المتقاسمين من الشيء المقسوم. وقد تقدم عند قوله تعالى {أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا} [البقرة: 202].

{ **مِنَ الْكِتَابِ** } والمراد بالكتاب ما تضمّنه الكتاب، فإن كان الكتاب مستعملا حقيقة فهو القرآن، ونصيبهم منه هو نصيبهم من وعيده، وإن كان الكتاب مجازا في الأمر الذي قضاه الله وقدّره، فنصيبهم منه هو ما أخبر الله بأنّه قدّره عليهم من الخلود في العذاب، وأنه لا يغفر لهم.

والمعنى: إمّا أنّ كل واحد من المشركين سيصيبه ما توعدهم الله به من الوعيد على قدر عتوّه في تكذيبه وإعراضه، فتصيبه هو ما يناسب حاله عند الله من مقدار عذابه، وإمّا أن مجموع المشركين سيصيبهم ما قدّر لأمثالهم من الأمم المكذّبين للرسل المعرضين عن الآيات من عذاب الدنيا، فلا يغرنّهم تأخير ذلك، لأنّه مصيبهم لا محالة عند حلول أجله، فنصيبهم هو صفة عذابهم من بين صفات العذاب التي عذّبت بها الأمم.

{ **حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا** } تفصيل لمضمون جملة {يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ} . فالوقت الذي أفاده قوله {إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ} هو مبدأ وصف نصيبهم من الكتاب حين ينقطع عنهم الإمهال الذي لقوه في الدنيا. و{حَتَّى} ابتدائية لأنّ الواقع بعدها جملة فتفيد السببيّة، فالمعنى، فـ {إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا}. و(حتّى) الابتدائية لها صدر الكلام، فالغاية التي تدلّ عليها هي غاية ما يخبر به المخبر، وليست غاية ما يبلغ إليه المعطوف عليه بحتّى، لأن ذلك إنّما يلتزم إذا كانت حتى عاطفة.

وهي تدلّ على أنّ مضمون الكلام الذي بعدها أهم بالاعتناء للإلقاء عند المتكلم، لأنّه أجدى في الغرض المسوق له الكلام، وهذا الكلام الواقع هنا بعد (حتّى) فيه تهويل ما يصيبهم عند قبض أرواحهم، وهو أدخل في تهديدهم وترويعهم وموعظتهم، من الوعيد المتعارف، وقد هدّد القرآن المشركين بشدائد الموت عليهم في آيات كثيرة لأنّهم كانوا يرهبونه.

وقد تقدّم بعض هذا عند قوله تعالى {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ} [الأنعام:31].

{ **رُسُلُنَا** } هم الملائكة قال تعالى {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ} [السجدة: 11] وقال {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ} [الأنفال: 50.[

{ **يَتَوَفَّوْنَهُمْ** } في موضع الحال من {رُسُلُنَا} وهي حال معلّلة لعاملها، كقوله {وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ} [الأعراف: 61، 62]، أي رسول لأبلغكم ولأنصح لكم.

التّوفّي، نزع الرّوح من الجسد، و تقدّم بيانه عند قوله {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} [آل عمران:55]، وهو المراد هنا، فيجوز أن يكون المراد منه وقت أن يتوفوهم جميعا، إن كان المراد بالنصيب من الكتاب الاستئصال، أي حين تبعث طوائف الملائكة لإهلاك جميع أمّة الشرك.

ويجوز أن يكون المراد حين يتوفّون آحادهم في أوقات متفرّقة، إن كان المراد بالنصيب من الكتاب وعيد العذاب. وعلى الوجهين فالقول محكي على وجه الجمع، والمراد منه التوزيع، أي قال كل ملك لمن وكِّل بتوفّيه. وقد حكي كلام الرسل معهم وجوابهم إياهم بصيغة الماضي على طريقة المحاورة، لأنّ وجود ظرف المستقبل قرينة على المراد.

{ **أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } الاستفهام مستعمل في التهكّم والتأييس.

يعني، أين آلهتكم التي كنتم تزعمون أنّهم ينفعونكم عند الشدائد ويردون عنكم العذاب، فإنّهم لم يحضروكم. وذلك حين يشهدون العذاب، عند قبض أرواحهم، فقد جاء في حديث الموطأ: أنّ الميت يرى مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنّة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النّار يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله".

{ **قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا** } أي أتلفوا مواقعنا وأضاعونا فلم يحضروا، وهذا يقتضي أنهم لمّا يعلموا أنّهم لا يغنون

عنهم شيئا من النفع، لأنّ ذلك إنّما يتبيّن لهم يوم الحشر، حين يرون إهانة أصنامهم وتعذيب كبرائهم، ولذلك لم ينكروا في جوابهم أنهم كانوا يدعونهم من دون الله.

{ **وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ** } والشهادة هنا شهادة ضمنيّة، لأنّهم لمّا لم ينفوا أن يكونوا يدعون من دون الله وأجابوا بأنّهم ضلوا عنهم، قد اعترفوا بأنّهم عبدوهم.

بخلاف ما حكي عنهم في يوم الحشر من قولهم {وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: 23] ولذلك قال هناك {انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ} [الأنعام: 24].

{ **قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ فِي النّار** } فهذا قول آخر، ليس هو من المحاورة السابقة، لأنّه جاء بصيغة الإفراد، والأقوال قبله مسندة إلى ضمائر الجمع، فتعيّن أن ضمير { **قال** } عائد إلى الله تعالى بقرينة المقام، لأنّ مثل هذا القول لا يصدر من أحد غير الله تعالى، فهو استئناف كلام نشأ بمناسبة حكاية حال المشركين حين أوّل قدومهم على الحياة الآخرة، وهي حالة وفاة الواحد منهم، فيكون خطابا صدر من الله إليهم بواسطة أحد ملائكته، أو بكلام سمعوه وعلموا أنّه من قبل الله تعالى بحيث يوقنون منه أنّهم داخلون إلى النّار، فيكون هذا من أشدّ ما يرون فيه مقعدهم من النّار عقوبة خاصة بهم.

والأمر مستعمل للوعيد فيتأخر تنجيزه إلى يوم القيامة.

ويجوز أن يكون المحكي به ما يصدر من الله تعالى يوم القيامة من حكم عليهم بدخول النّار مع الأمم السابقة، فذُكر عقب حكاية حال قبض أرواحهم، إكمالا لذكر حال مصيرهم، وتخلّصا إلى وصف ما ينتظرهم من العذاب، ولذكر أحوال غيرهم.

وأيّا ما كان فالإتيان بفعل القول، بصيغة الماضي، للتنبيه على تحقيق وقوعه على خلاف مقتضى الظاهر.

{ **قَدْ خَلَتْ** } قد مضت وانقرضت قبلكم، كما في قوله تعالى {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} [البقرة: 134]. يعني، أنّ حالهم كحال الأمم المكذّبين قبلهم، وهذا تذكير لهم بما حاق بأولئك الأمم من عذاب الدنيا، وتعريض بالوعيد، بأن يحلّ بهم مثل ذلك، وتصريح بأنّهم في عذاب النّار سواء.

{ **كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النّار قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ [38] وَقَالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ** }[39]

{ **كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا** }، مستأنفة استئنافا ابتدائيا، لوصف أحوالهم في النّار، وتفظيعها للسامع، ليتّعظ أمثالهم ويستبشر المؤمنين بالسلامة ممّا أصابهم. ويجوز أن تكون جملة معترضة.

{ **أُمَّةٌ** } نكرة وقعت في حيز عموم الأزمنة، والمراد بأختها المماثلة لها في الدين الذي أوجب لها الدخول في

النار، كما يقال: هذه الأمة أخت تلك الأمة إذا اشتركتا في النسب، فيقال: بكر وأختها تغلب.
والمقام يعيّن جهة الأخوّة، وسبب اللعن أنّ كلّ أمّة إنّما تدخل النّار بعد مناقشة الحساب، والأمر بإدخالهم النّار، وإنّما يقع ذلك بعد أن يتبيّن لهم أنّ ما كانوا عليه من الدين هو ضلال وباطل، وبذلك تقع في نفوسهم كراهية ما كانوا عليه، لأنّ النفوس تكره الضلال والباطل بعد تبيّنه، ولأنّهم رأوا أنّ عاقبة ذلك كانت مجلبة العقاب لهم، فيزدادون بذلك كراهية لدينهم، فإذا دخلوا النّار فرأوا الأمم التي أدخلت النّار قبلهم علموا، بوجه من وجوه العلم، أنّهم أدخلوا النّار بذلك السبب فلعنوهم لكراهية دينهم ومن اتبعوه.
وقيل: المراد بأختها أسلافها الذين أضلّوها.
{ **حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا** } حتّى ابتدائية، فهي جملة مستأنفة، وقد تقدّم أنّ (حتّى) الابتدائية تفيد معنى التسبّب، أي تسبب مضمون ما قبلها في مضمون ما بعدها.
{ **ادَّارَكُوا** } أصله تداركوا فقلبت التاء دالا ليتأتى إدغامها في الدال للتخفيف، وسكنت ليتحقق معنى الإدغام المتحركين، لثقل واجتلبت همزة الوصل لأجل الابتداء بالساكن. والمعنى، تلاحقوا واجتمعوا في النّار.
{ **جَمِيعاً** } حال من ضمير {ادَّارَكُوا} لتحقيق استيعاب الاجتماع، أي حتّى إذا اجتمعت أمم الضلال كلّها.
{ **أُخْرَاهُمْ** } : الآخرة في الرتبة، وهم الأتباع والرعيّة من كلّ أمّة من تلك الأمم، لأنّ كلّ أمّة في عصر لا تخلو من قادة ورعاع.
{ **لِأُولاهُمْ** } الأولى في المرتبة والاعتبار، وهم القادة والمتبوعون من كلّ أمّة أيضا.
وقيل: أريد بالأخرى المتأخرة في الزمان، وبالأولى أسلافهم، وهذا لا يلائم ما يأتي بعده.
واللام في{لِأُولاهُمْ} لام العلّة، وليست اللام التي يتعدى بها فعل القول، لأنّ قول الطائفة الأخيرة موجّه إلى الله تعالى.
{ **عَذَاباً ضِعْفاً** }، والضعف (بكسر الضاد) المثل لمقدار الشيء، وهو من الألفاظ الدالة على معنى نسبي يقتضي وجود معنى آخر، كالزوج والنصف، ويختص بالمقدار والعدد، هذا قول أبي عبيدة والزجاج وأئمة اللغة، وقد يستعمل فعله في مطلق التكثير وذلك إذا أسند إلى ما لا يدخل تحت المقدار، مثل العذاب في قوله تعالى { يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [الفرقان: 69]
{ **قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ** } حكاية لجواب الله إيّاهم عن سؤالهم مضاعفة العذاب لقادتهم، فلذلك فصل ولم يعطف جريا على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات. والتقدير: لكلّ أمّة، أو لكل طائفة ضعف، أي زيادة عذاب مثل العذاب الذي هي معذبه أوّل الأمر، فأمّا مضاعفة العذاب للقادة فلأنّهم سنّوا الضلال أو أيّدوه ونصروه وذبّوا عنه بالتمويه والمغالطات فأضلّوا، وأما مضاعفته للأتباع فلأنّهم ضلّوا بإضلال قادتهم، ولأنّهم بطاعتهم العمياء لقادتهم، يزيدونهم طغيانا وجراءة على الإضلال ويغرونهم بالازدياد منه.

{ **وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ** } الاستدراك لرفع ما توهمه التسوية بين القادة والأتباع في مضاعفة العذاب، والتقدير، لا تعلمون سبب تضعيف العذاب لكلّ من الطائفتين.

{ **وَقَالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ** } عطفت على جملة {قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ} لأنّهم لم يدخلوا في المحاورة ابتداء فلذلك لم تفصل الجملة.

{ **فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ** } الفاء فاء فصيحة، مرتبة على قول الله تعالى {لِكُلٍّ ضِعْفٌ} حيث سوّى بين الطائفتين في مضاعفة العذاب. لأنّ إخبار الله تعالى { لِكُلٍّ ضِعْفٌ } سبب للعلم بأنّ لا مزيّة لأخراهم عليهم في تعذيبهم عذابا أقل من عذابهم. فالتقدير، فإذا كان لكلّ ضعف فما كان لكم من فضل.

{ **فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ** } يجوز أن يكون من كلام أولاهم، للتشفّي منهم فيما نالهم من عذاب الضعف. وصيغة الأمر {فَذُوقُوا} مستعملة في الإهانة والتشفي.

الذوق، استعمل مجازا مرسلا في الإحساس بحاسة اللمس، وقد تقدم نظائره غير مرّة.

{ **بِمَا** } الباء سببيّة، أي بسبب ما كنتم تكسبون مما أوجب لكم مضاعفة العذاب.

{ **تَكْسِبُونَ** } عبّر بالكسب دون الكفر لأنّه أشمل لأحوالهم، لأنّ إضلالهم لأعقابهم كان بالكفر وبحب الفخر والإغراب بما علّموهم وما سنوا لهم، فشمل ذلك كله أنه كسب.

ويجوز أن يكون قوله {فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} من كلام الله تعالى، مخاطبا به كلا الفريقين، وعلى اعتباره يكون الأمر في قوله {فَذُوقُوا} للتكوين والإهانة.

وفيما قصّ الله من محاورة قادة الأمم وأتباعهم ما فيه موعظة وتحذير لقادة المسلمين من الإيقاع بأتباعهم فيما يزجّ بهم في الضلالة، ويحسن لهم هواهم، وموعظة لعامتهم من الاسترسال في تأييد من يشايع هواهم، ولا يبلّغهم النصيحة، وفي الحديث: " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ".

{ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الجنّة حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ [40] لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ } [41]

استئناف ابتدائي مسوق لتحقيق خلود الفريقين في النّار. وأكّد الخبر بـ {إِنَّ} لتأييسهم من دخول الجنّة، لدفع توهّم أن يكون المراد من الخلود المتقدّم ذكره، الكناية عن طول مدّة البقاء في النّار، فإنّه ورد في مواضع كثيرة مرادا به هذا المعنى.

{ **أَبْوَابُ السَّمَاءِ** } السماء أطلقت في القرآن على معان، والأكثر أن يراد بها العوالم العليا غير الأرضيّة،

فالسماء مجموع العوالم العليا وهي مراتب وفيها عوالم القدس الإلهية من الملائكة والروحانيّات الصالحة النافعة، ومصدر إفاضة الخيرات الروحيّة والجثمانية على العالم الأرضي، ومصدر المقادير المقدّرة .

أبواب السماء، أسبابُ أمور عظيمة، أطلق عليها اسم الأبواب لتقريب حقائقها إلى الأذهان فمنها قبول الأعمال، ومسالك وصول الأمور الخيريّة الصادرة من أهل الأرض، وطرق قبولها، وهو تمثيل لأسباب التزكية.

وأضيفت الأبواب إلى السماء ليظهر أنّ هذا تمثيل لحرمانهم من وسائل الخيرات الإلهية الروحيّة، فيشمل ذلك عدم استجابة الدعاء، وعدم قبول الأعمال والعبادات، وحرمان أرواحهم بعد الموت مشاهدة مناظر الجنّة ومقاعد المؤمنين منها. فتكون{ لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ } كلمة جامعة لمعنى الحرمان من الخيرات الإلهيّة في الآخرة.

{ وَلا يَدْخُلُونَ الجنّة حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ } إخبار عن حالهم في الآخرة وتحقيق لخلودهم في النار. فبعد أن حقّق ذلك بتأكيد الخبر كلّه بحرف التوكيد**{إنَّ}**، زيد تأكيدا بطريق تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه، المشتهر عند أهل البيان بتأكيد المدح بما يشبه الذم، فقد جعل لانتفاء دخولهم الجنّة امتدادا مستمرا، إذ جعل غايته شيئا مستحيلا، وهو أن يلج الجمل في سمّ الخياط، أي لو كانت لانتفاء دخولهم الجنّة غاية لكانت غايته ولوج الجمل وهو البعير في سمّ الخياط، وهو أمر لا يكون أبدا.

الجمل، البعير المعروف للعرب، ضرب به المثل لأنّه أشهر الأجسام في الضخامة في عرف العرب.

الخياط، هو المخيط بكسر الميم وهو آلة الخياطة المسمى بالإبرة.

السمّ، الخرْت الذي في الإبرة يدخل فيه خيط الخائط، وهو ثقب ضيق، وهو (بفتح السين) في الآية بلغة قريش وتضمّ السين في لغة أهل العالية(هي ما بين نجد وبين حدود أرض مكّة).

والقرآن أحال على ما هو معروف عند النّاس من حقيقة الجمل وحقيقة الخياط، ليعلم أنّ دخول الجمل في خرت الإبرة محال متعذّر ما داما على حاليهما المتعارفين.

{ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ } تذييل يؤذن بأنّ الإجرام هو الذي أوقعهم في ذلك الجزاء.

الإجرام، فعل الجُرم (بضم الجيم) وهو الذنب، وأصل: أجرم صار ذا جرم.

{ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ }

المِهَاد، بكسر الميم ما يمهّد، أي يفرش. و**غَوَاشٍ،** جمع غاشية وهي ما يغشى الإنسان، أي يغطّيه كاللّحاف. شبّه ما هو تحتهم من النّار بالمهاد، وما هو فوقهم منها بالغواشي، كناية عن انتفاء الراحة لهم في جهنّم، فإنّ المرء يحتاج إلى المهاد والغاشية عند اضطجاعه للراحة.

{ **وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** } ليدلّ على أن سبب ذلك الجزاء بالعقاب: هو الظلم، وهو الشرك.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجنّة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }[42]

أعقب الإنذار والوعيد للمكذّبين، بالبشارة والوعد للمؤمنين المصدّقين على عادة القرآن في تعقيب أحد الغرضين بالآخر.

عطف على { الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } [40]، لأن بين مضمون الجملتين مناسبة متوسّطة بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع، وهو التّضاد بين وصف المسند إليهما في الجملتين، وهو التكذيب بالآيات والإيمان بها، وبين حكم المسندين وهو العذاب والنعيم، وهذا من قبيل الجامع الوهمي المذكور في أحكام الفصل والوصل من علم المعاني.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا** } ولم يذكر متعلّق الإيمان، لأن الإيمان صار كاللقب للإيمان الخاص الذي جاء به دين الإسلام وهو الإيمان بالله وحده.

{ **لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا** } معترضة بين المسند إليه والمسند على طريقة الإدماج. وفائدة هذا الإدماج الإرتفاق بالمؤمنين، لأنّه لمّا بشّرهم بالجنّة على فعل الصالحات أطْمن قلوبهم بأن لا يُطلبوا من الأعمال الصالحة بما يخرج عن الطاقة، بل إنّما يُطلبون منها بما في وسعهم، فإن ذلك يرضي ربّهم.

الوسع، تقدم في قوله تعالى {لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة :286].

{ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجنّة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } دلّ على قصر ملازمة الجنّة عليهم، دون غيرهم، ففيه تأييس آخر للمشركين بحيث قويت نصيّة حرمانهم من الجنّة ونعيمها.

{ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجنّة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [43]

التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي للتنبيه على تحقّق وقوعه، أي: وننزع ما في صدورهم من غلّ، وهو تعبير معروف في القرآن كقوله تعالى {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ} [النحل: 1]

النزع، حقيقته قلع الشيء من موضعه، و تقدّم عند قوله تعالى {وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ} [آل عمران:26].

ونزع الغلّ من قلوب أهل الجنّة، هو إزالة ما كان في قلوبهم في الدنيا من الغلّ عند تلقي ما يسوء من الغير، بحيث طهّر الله نفوسهم في حياتها الثانية عن الانفعال بالخواطر المدنّسة التي منها الغلّ، وأزال طباع الغلّ

التي في النفوس البشريّة بحيث لا يخطر في نفوسهم.
الغلّ، الحقد والإحْنَة والضِغْن، التي تحصل في النفس عند إدراك ما يسؤوها من عمل غيرها، وليس الحسد من الغلّ بل هو إحساس باطني آخر.
{ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ** } في موضع الحال، أي هم في أمكنة عالية تشرف على أنهار الجنّة.
{ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا** } وهذا القول يحتمل أن يكونوا يقولونه في خاصتهم ونفوسهم، على معنى التقرّب إلى الله بحمده، ويحتمل أن يكونوا يقولونه بينهم في مجامعهم.
{ **لِهَذَا** } الإشارة إلى جميع ما هو حاضر من النعيم في وقت ذلك الحمد.
{ **هَدَانَا** } الهداية له هي الإرشاد إلى أسبابه، وجعل الهداية لنفس النعيم، لأنّ الدلالة على ما يوصل إلى الشيء إنّما هي هداية لأجل ذلك الشيء.
{ **وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ** } في موضع الحال من الضمير المنصوب، دلّ على بعد حالهم السالفة عن الاهتداء، فإنّهم كانوا منغمسين في ضلالات قديمة قد رسخت في أنفسهم، فما كان من السهل اهتداؤهم، لولا أن هداهم الله ببعثة الرسل وسياستهم في دعوتهم، وأن قذف في قلوبهم قبول الدعوة.
{ **لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** } جملة مستأنفة، استئنافا ابتدائيا، لصدروها عن ابتهاج نفوسهم واغتباطهم بما جاءتهم به الرسل. فلم يعاندوا، ولم يستكبروا، مع ما يسّر الله لهم من قبولهم الدعوة وامتثالهم الأمر، فإنّه من تمام المنّة المحمود عليها. وهذا التيسير هو الذي حُرمه المكذّبون المستكبرون، لأجل ابتدائهم بالتكذيب والاستكبار، دون النظر والاعتبار.
{ **وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجنّة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } هذا النداء جواب لثنائهم، يدلّ على قبول ما أثنوا به، وعلى رضى الله عنهم. والنداء من قبل الله، ولذلك بني فعله إلى المجهول لظهور المقصود.
النداء، إعلان الخطاب، وهو أصل حقيقته في اللغة، ويطلق النداء غالبا على دعاء أحد ليقبل بذاته أو بفهمه لسماع كلام، ولو لم يكن برفع صوت { إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً } [مريم:3] ولهذا المعنى حروف خاصة تدل عليه في العربية. وتقدّم عند قوله تعالى { وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا } [الأعراف: 22].
{ **أَنْ تِلْكُمُ الجنّة** } والإشارة إلى الجنّة بـ {تِلْكُمُ} ، الذي حقّه أن يستعمل في المشار إليه البعيد، مع أنّ الجنّة حاضرة بين يديهم، لقصد رفعة شانها وتعظيم المنّة بها.
الإرث، حقيقته مصير مال الميت إلى أقرب النّاس إليه، ويقال: أورث الميت أقرباءه ماله، بمعنى جعلهم يرثونه عنه، لأنّه لمّا لم يصرفه عنهم بالوصية لغيره فقد تركه لهم، ويطلق مجازا على مصير شيء إلى أحد بدون عوض ولا غصب تشبيها بإرث الميّت، أي أعطيتموها عطيّة هنيئة لا تعب فيها ولا منازعة.

{ **بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } الباء سببية، أي بسبب أعمالكم، وهي الإيمان والعمل الصالح. وهذا الكلام ثناء عليهم بأنّ الله شكر لهم أعمالهم، فأعطاهم هذا النعيم الخالد لأجل أعمالهم.

{ وَنَادَى أَصْحَابُ الجنّة أَصْحَابَ النّار أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ [44] الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ } [45]

{ **وَنَادَى أَصْحَابُ الجنّة** } وهذا النداء خطاب من أصحاب الجنّة، عبّر عنه بالنداء كناية عن بلوغه إلى أسماع أصحاب النّار من مسافة سحيقة البعد، ووسيلة بلوغ هذا الخطاب من الجنّة إلى أصحاب النّار وسيلة عجيبة غير متعارفة. وعلم الله وقدرته لا حدّ لمتعلقاتهما.

{ **أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً** } (أن) تفسيريّة للنداء. والخبر مستعمل في لازم معناه وهو الاغتباط بحالهم، وتنغيص أعدائهم بعلمهم برفاهيّة حالهم. وهذه الكناية جمع فيها بين المعنى الصريح والمعاني الكنائيّة، ولكن المعاني الكنائية هي المقصودة، إذ ليس القصد أن يعلم أهل النّار بما حصل لأهل الجنّة، ولكن القصد ما يلزم عن ذلك. وأمّا المعاني الصريحة فمدلولة بالأصالة عند عدم القرينة المانعة.

{ **فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً** } الاستفهام مستعمل مجازا مرسلا بعلاقة اللّزوم في توقيف المخاطبين على غلطهم، وإثارة ندامتهم وغمّهم على ما فرط منهم، والشماتة بهم في عواقب عنادهم. والمعاني المجازية التي علاقتها اللّزوم يجوز تعدّدها مثل الكناية، وقرينة المجاز هي ظهور أنّ أصحاب الجنّة يعلمون أنّ أصحاب النّار وجدوا وعده حقّا.

الوجدان، إلفاء الشيء ولقيّه، قال تعالى {فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ} [القصص: 15] وفعله يتعدى إلى مفعول واحد. ولا يدلّ على سبق بحث أو تطلّب. وقد يستعمل الوجدان في الإدراك والظنّ مجازا، وهو مجاز شائع.

{ **قَالُوا نَعَمْ** } جواب المقرّ المتحسّر المعترف، وقد جاء الجواب صالحا لظاهر السؤال وخفيّه، فالمقصود من الجواب بها، تحقيق ما أريد بالسؤال من المعاني حقيقة أو مجازا.

{ **فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** }

التّأذين، رفع الصوت بالكلام رفعا يُسمع البعيد بقدر الإمكان، وهو مشتق من الأُذن (بضم الهمزة)، جارحة السمع المعروفة، وهذا التّأذين، إخبار باللعن، وهو الإبعاد عن الخير، أي إعلام بأنّ أهل النّار مبعدون عن رحمة الله، زيادة في التأييس لهم، أو دعاء عليهم بزيادة البعد عن الرحمة، بتضعيف العذاب أو تحقيق الخلود. ووقوع هذا التأذين عقب المحاورة يُعلَم منه أنّ المراد بالظالمين أصحاب النار، ومن تلك الصفات والأفعال، تفظيع حالهم، والنداء على خبث نفوسهم، وفساد معتقدهم.

والتعبير عنهم بالظالمين تعريف لهم بوصف جرى مجرى اللقب تعرف به جماعتهم، كما يقال: المؤمنين، لأهل الإسلام.

{ **أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** } يجوز أن تكون هذه اللعنة كانت الملائكة يلعنونهم بها في الدنيا، فجهروا بها في الآخرة، لأنّها صارت كالشعار للكفرة ينادون بها.

{ **الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً** }

{**يَصُدُّونَ** – وقوله - **وَيَبْغُونَهَا**}، شان المضارع الدلالة على حدث حاصل في زمن الحال، وهم في زمن التأذين لم يكونوا متّصفين بالصدّ عن سبيل الله، ولا ببغي عوج السبيل، فذلك لقصد ما يفيده المضارع من تكرّر حصول الفعل تبعا لمعنى التجدّد. والمعنى وصفهم بتكرّر ذلك منهم في الزمن الماضي، وهو معنى قول علماء المعاني **استحضار الحالة**، كقوله تعالى في الحكاية عن نوح {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ} [هود: 38].

الصدّ عن سبيل الله: إمّا تعرّض المشركين للراغبين في الإسلام بالأذى والصرف عن الدخول في الدين بوجوه مختلفة، وإمّا إعراضهم عن سماع دعوة الإسلام وسماع القرآن.

سبيل الله، ما به الوصول إلى مرضاته وهو الإسلام.

العوج، ضد الاستقامة، وهو (بفتح العين) في الأجسام و(بكسرها) في المعاني، وأصله أن يجوز فيه الفتح والكسر، ولكن الاستعمال خصّص الحقيقة بأحد الوجهين والمجاز بالوجه الآخر، وذلك من محاسن الاستعمال. أي ويرومون إظهار هذه السبيل عوجاء. أي يختلقون لها نقائص، تنفيرا عن الإسلام.

{ **وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ** } أي كافرون بالآخرة فيما مضى من حياتهم الدنيا، فإنّهم حينئذ قد علموا الحقّ وشاهدوه كما دل عليه قولهم { نعم }.

وورد وصفهم بالكفر بطريق الجملة الإسميّة، للدلالة على ثبات الكفر فيهم وتمكّنه منهم، لأنّ الكفر من الاعتقادات العقلية التي لا يناسبها التكرّر، فلذلك خولف بينه وبين وصفهم بالصدّ عن سبيل الله وبغي إظهار العوج فيها، لأنّ ذينك من الأفعال القابلة للتكرّر، بخلاف الكفر فإنه من الانفعالات.

{ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلّاً بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنّة أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ [46] وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النّار قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [47]

{ **بَيْنَهُمَا** } الضمير يعود إلى لفظي الجنّة والنّار، وهما اسما مكان، فيصلح اعتبار التوسّط بينهما. وجعل الحجاب فصلا بينهما، وتثنية الضمير تعيّن هذا المعنى، ولو أريد من الضمير فريقا أهل الجنّة وأهل النار، لقال: بينهم. كما قال في سورة الحديد {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ} [13].

الحجاب، سور ضرب فاصلا بين مكان الجنّة ومكان جهنم، وقد سمّاه القرآن سورا في قوله {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ} [الحديد :13]. وسُمّي حجابا، لأنّه يقصد منه الحجب والمنع، كما سمّي سورا باعتبار الإحاطة.
الأعراف، جمع عُرْف (بضم العين وسكون الراء وقد تضمّ) وهو أعلى الشيء، ومنه سُمّي عرف الفرس، الشعر الذي في أعلى رقبته، وسمّي عرف الديك، الريش الذي في أعلى رأسه.
{ **الأَعْرَافِ** } يجوز أن تكون (أل) للعهد، وهي الأعراف المعهودة التي تكون بارزة في أعالي السور، ليرقب منها النظّارة حركات العدوّ ليشعروا به إذا داهمهم. أو يجعل (أل) عوضا عن المضاف إليه: أي وعلى أعراف السور. وأيّا ما كان، فنظم الآية يأبى أن يكون المراد من الأعراف مكانا مخصوصا يتعرّف منه أهل الجنّة وأهل النّار، إذ لا وجه حينئذ لتعريفه مع عدم سبق الحديث عنه.
والآية حديث عن رجال مجهولين يكونون على أعراف هذا الحجاب. قبل أن يدخلوا الجنّة، فيشهدون هنالك أحوال أهل الجنّة وأحوال أهل النّار، ويعرفون رجالا من أهل النّار كانوا من أهل العزة والكبرياء في الدنيا، وكانوا يكذبون وعد الله المؤمنين بالجنّة.
وليس تخصيص الرجال بالذكر بمقتض أن ليس في أهل الأعراف نساء، ولا اختصاص هؤلاء الرجال المتحدث عنهم بذلك المكان دون سواهم من الرجال، ولكن هؤلاء رجال يقع لهم هذا الخبر، فذكروا هنا للاعتبار على وجه المصادفة، لا لقصد تقسيم أهل الآخرة وأمكنتهم.
ولعلّ توهّم أنّ تخصيص الرجال بالذكر لقصد التقسيم قد أوقع بعض المفسّرين في حيرة لتطلّب المعنى، لأنّ ذلك يقتضي أن يكون أهل الأعراف قد استحقّوا ذلك المكان لأجل حالة لا حظّ للنساء فيها، وليس إلّا الجهاد. فقال بعض المفسّرين: هؤلاء قوم جاهدوا وكانوا عاصين لآبائهم.
وبعض المفسّرين حمل الرجال على المجاز، بمعنى الأشخاص من الملائكة، أطلق عليهم الرجال لأنّهم ليسوا إناثا كما أطلق على أشخاص الجنّ في قوله تعالى {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ} [الجن: 6].
وأمّا ما نقل عن بعض السلف أنّ أهل الأعراف هم قوم استوت موازين حسناتهم مع موازين سيئاتهم، ويكون إطلاق الرجال عليهم تغليبا، لأنّه لابد أن يكون فيهم نساء، ويروى فيه أخبار مسندة إلى النبي ﷺ لم تبلغ مبلغ الصحيح ولم تنزل إلى رتبة الضعيف، روى بعضها ابن ماجة، وبعضها ابن مردويه، وبعضها الطبري، فإذا صحّت، فإنّ المراد منها، أنّ من كانت تلك حالتهم يكونون من جملة أهل الأعراف المخبر عنهم في القرآن بأنّهم لم يدخلوا الجنّة وهم يطمعون. وليس المراد منها أنّهم المقصود من هذه الآية كما لا يخفى على المتأمل فيها.

والذي ينبغي تفسير الآية به، أنّ هذه الأعراف جعلها الله مكانا يُوقف به من جعله الله من أهل الجنّة قبل دخوله إيّاها، وذلك ضرب من العقاب خفيف، فجعل الداخلين إلى الجنّة متفاوتين في السبق تفاوتا يعلم الله أسبابه ومقاديره، وقد قال تعالى {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} [الحديد: 10]. وخص الله بالحديث في هذه الآيات رجالا من أصحاب الأعراف.

ثم يحتمل أن يكون أصحاب الأعراف من الأمة الإسلامية خاصة، ويحتمل أن يكونوا من سائر الأمم المؤمنين برسلهم، وأياما كان فالمقصود من هذه الآيات هم من كان من الأمّة المحمدية.

السيما، بالقصر السمة أي العلامة، أي بعلامة ميّز الله بها أهل الجنّة وأهل النّار، وقد تقدّم بيانها واشتقاقها عند قوله تعالى {تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ} [البقرة :273].

{ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الجنّة أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ } ونداؤهم أهل الجنّة بالسلام يؤذن بأنّهم في اتصال بعيد من أهل الجنّة، فجعل الله ذلك أمارة لهم بحسن عاقبتهم ترتاح لها نفوسهم، ويعلمون أنّهم صائرون إلى الجنّة، فلذلك حكي الله حالهم هذه للنّاس إيذانا بذلك وبأنّ طمعهم في قوله **{ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ }** هو طمع مستند إلى علامات وقوع المطموع فيه، فهو من صنف الرجاء.

{ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ } دعاء تحيّة وإكرام.

وجملة { لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ } مستأنفة للبيان، والجملتان معا معترضتان بين جملة {وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ} وجملة {وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ }.

{ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النّار قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }

الصرف، أمر الحالّ بمغادرة المكان. والصرف هنا مجاز في الالتفات أو استعارة. وإسناده إلى المجهول هنا جار على المتعارف في أمثاله من الأفعال التي لا يتطلب لها فاعل، وقد تكون لهذا الإسناد هنا فائدة زائدة، وهي الإشارة إلى أنّهم لا ينظرون إلى أهل النّار إلّا نظرا شبيها بفعل من يحمله على الفعل حامل، وذلك أنّ النفس وإن كانت تكره المناظر السيّئة، فإنّ حبّ الاطلاع يحملها على أن توجّه النظر إليها آونة لتحصيل ما هو مجهول لديها.

التلقاء، مكان وجود الشيء، وهو منقول من المصدر الذي هو بمعنى اللقاء.

{ وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ [48] أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الجنّة لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ }[49]

والنداء يؤذن ببعد المخاطب، فيظهر أنّ أهل الأعراف لمّا تطلّعوا بأبصارهم إلى النّار عرفوا رجالا، أو قبل ذلك لما مُرّ عليهم بأهل النّار عرفوا رجالا كانوا جبّارين في الدنيا.

السيما هنا، يتعيّن أن يكون المراد بها ذوات الأشخاص، وليست السيما التي يتميز بها أهل النّار كلّهم كما هو في الآية السابقة.

فالمقصود بهذه الآية ذكر شيء من أمر الآخرة. فيه نذارة وموعظة لجبابرة المشركين من العرب الذين كانوا يحقّرون المستضعفين من المؤمنين، وفيهم عبيد وفقراء.

قال ابن الكلبي: ينادي أهل الأعراف وهم على السور: " يا وليد بن المغيرة يا أبا جهل بن هشام يا فلان ويا فلان". فهؤلاء من الرجال الذين يعرفونهم بسيماهم وكانوا من أهل العزّة والكبرياء.

{ **قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ** } يحتمل أن يكون جمع النّاس، أي ما أغنت عنكم كثرتكم التي تعتزون بها، ويحتمل أن يراد من الجمع المصدر بمعنى اسم المفعول، أي ما جمعتموه من المال والثروة. والخبر مستعمل في الشماتة والتوقيف على الخطأ.

{ **وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ** } و(ما) الثانية مصدريّة، أي واستكباركم الذي مضى في الدنيا، ووجه صوغه بصيغة الفعل دون المصدر ليتوسّل بالفعل إلى كونه مضارعا فيفيد أن الاستكبار كان دأبهم لا يفترون عنه.

{ **أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ** } من كلام أصحاب الأعراف. والاستفهام مستعمل في التقرير.

{ **هَؤُلاءِ** } الإشارة إلى قوم من أهل الجنّة كانوا مستضعفين في الدنيا ومحقّرين عند المشركين، قال المفسّرون، هؤلاء مثل سلمان، وبلال، وخبّاب، وصهيب من ضعفاء المؤمنين. فإمّا أن يكونوا حينئذ قد استقرّوا في الجنّة، فجلّاهم الله لأهل الأعراف وللرجال الذين خاطبوهم، وإمّا أن يكون ذلك الحوار قد وقع قبل إدخالهم الجنّة.

{ **أَقْسَمْتُمْ** } لإظهار تصلّبهم في اعتقادهم وأنّهم لا يخامرهم شكّ في ذلك.

{ **لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ** } هو المقسم عليه، وهذا النظم الذي حكي به قسمهم يؤذن بتهكّمهم بضعفاء المؤمنين في الدنيا.

{ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ** } قيل مقول قول محذوف اختصارا لدلالة السياق عليه، والتقدير: قال لهم الله ادخلوا الجنّة، فكذّب الله قسمكم وخيّب ظنّكم. وهذا كلّه من كلام أصحاب الأعراف، والأظهر أن يكون الأمر للدعاء، لأنّ، المشار إليهم بهؤلاء هم أناس من أهل الجنّة، لأنّ ذلك الحين قد استقر فيه أهل الجنّة في الجنّة وأهل النّار في النّار، كما تقتضيه الآيات السابقة، فلذلك يتعيّن جعل الأمر للدعاء. وإذ قد كان الدخول حاصلا فالدعاء به لإرادة الدوام.

{ **لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ** } تقدم تفسيره عند قوله تعالى {فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} [لأعراف: 35].

{ وَنَادَى أَصْحَابُ النّار أَصْحَابَ الجنّة أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ [50] الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ } [51].

{ وَنَادَى أَصْحَابُ النّار أَصْحَابَ الجنّة أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا }

{ **وَنَادَى أَصْحَابُ النّار أَصْحَابَ الجنّة أَنْ** } القول فيها كالقول في {وَنَادَى أَصْحَابُ الجنّة أَصْحَابَ النّار أَنْ قَدْ وَجَدْنَا} [44]. وأصحاب النّار مراد بهم من كان من مشركي أمّة الدعوة لأنّهم المقصود كما تقدّم.

الفيض، حقيقته سيلان الماء وانصبابه بقوّة، ويستعمل مجازا في الكثرة. ويجيء منه مجاز في السخاء ووفرة العطاء، ومنه ما في الحديث أنّه قال لطلحة: " أنت الفيّاض".

فالفيض في الآية إذا حمل على حقيقته كان أصحاب النّار طالبين من أصحاب الجنّة أن يصبّوا عليهم ماء ليشربوا منه، وعلى هذا المعنى حمله المفسرون.

ويجوز عندي أن يحمل الفيض على المعنى المجازي، وهو سعة العطاء والسخاء، من الماء والرزق، إذ ليس معنى الصبّ بمناسب، بل المقصود الإرسال والتفضّل، ويكون العطف عطف مفرد على مفرد وهو أصل العطف، ويكون سؤالهم من الطعام مماثلا لسؤالهم من الماء في الكثرة.

الرزق، مراد به الطعام كما في قوله تعالى {كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ} [البقرة: 25].

{ **قَالُوا** } الضمير لأصحاب الجنّة، وهو جوابهم عن سؤال أصحاب النّار، ولذلك فصل على طريقة المحاورة.

{ **إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ** } التحريم مستعمل في معناه اللغوي. والمراد بالكافرين المشركون، لأنّهم قد عُرفوا في القرآن بأنّهم اتخذوا دينهم لهو ولعبا، وعُرفوا بإنكار لقاء يوم الحشر. وقد تقدّم نظيره عند قوله تعالى{وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [الأنعام :70].

{ **الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** } وظاهر النظم أنّه من حكاية كلام أهل الجنّة. وجُوّز أن يكون مبتدأ على أنّه من كلام الله تعالى.

{ **فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** }

اعتراض حكي به كلام من جانب الله تعالى، يسمعه الفريقان. وتغيير أسلوب الكلام هو القرينة على اختلاف المتكلّم، وهذا الأليق بما رجّحناه من جعل قوله {الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً} إلى آخره حكاية لكلام أصحاب الجنّة.

وهذا العطف بالفاء من قبيل ما يسمّى بعطف التلقين الممثّل له غالبا بمعطوف بالواو فهو عطف كلام متكلم على كلام متكلم آخر، وتقدير الكلام، قال الله: {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ} ، فحذف فعل القول، وهذا تصديق لأصحاب الجنة.

النسيان، في الموضعين مستعمل مجازا في الإهمال والترك، لأنّه من لوازم النسيان، فإنّهم لم يكونوا في الدنيا ناسين لقاء يوم القيامة. فقد كانوا يذكرونه ويتحدّثون عنه حديث من لا يصدّق بوقوعه.

{ **فَالْيَوْمَ** } وتعليق الظرف بفعل{نَنْسَاهُمْ} لإظهار أنّ حرمانهم من الرحمة كان في أشد أوقات احتياجهم إليها، فكان لذكر اليوم أثر في إثارة تحسّرهم وندامتهم، وذلك عذاب نفسانيّ.

{ **كَمَا نَسُوا** } دلّ معنى كاف التشبيه على أنّ حرمانهم من رحمة الله كان مماثلا لإهمالهم التصديق باللقاء، وهي مماثلة جزاء العمل للعمل، وهي مماثلة اعتبارية.

{ **وَمَا كَانُوا بِآياتِنَا يَجْحَدُونَ** } تقدّم نظيره عند قوله {وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام :33]

{ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [52]

عطف القصّة على القصّة، والغرض على الغرض، فهو كلام أنف انتقل به من غرض الخبر عن حال المشركين في الآخرة إلى غرض وصف أحوالهم في الدنيا، المستوجبين بها لما سيلاقونه في الآخرة، وليس هو من الكلام الذي عقب الله به كلام أصحاب الجنّة في قوله {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا}.

{ **وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ** } التأكيد بلام القسم و(قد)، إمّا باعتبار صفة {كتاب}، فيكون التأكيد جاريا على مقتضى الظاهر، لأنّ المشركين ينكرون أن يكون القرآن موصوفا بتلك الأوصاف.

وإمّا تأكيد لفعل {جِئْنَاهُمْ}، وهو بلوغ الكتاب إليهم فيكون التأكيد خارجا على خلاف مقتضى الظاهر، بتنزيل المبلّغ إليهم منزلة من ينكر بلوغ الكتاب إليهم، لأنّهم في إعراضهم عن النظر والتدبّر في شانه بمنزلة من لم يبلغه الكتاب.

{ **بِكِتَابٍ**} المراد به القرآن. والتنكير قصد به التعظيم، أو قصد به النوعيّة، أي ما هو إلّا كتاب كالكتب التي أنزلت من قبل.

{ **فَصَّلْنَاهُ** } أي بيّنّا ما فيه، والتفصيل تقدّم عند قوله تعالى {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام:55].

{ **عَلَى عِلْمٍ** } أي حال كوننا على علم، ومعنى هذا التمكّن، أنّ علم الله تعالى ذاتيّ لا يعزب عنه شيء من المعلومات. والتّنكير للتعظيم.

{ **هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } إشارة إلى أنّ المؤمنين هم الذين توصّلوا للاهتداء به والرحمة، وأنّ من لم يؤمنوا قد حرموا الاهتداء والرحمة، وهذا كقوله تعالى {هُدىً لِلْمُتَّقِينَ}[البقرة:2].

{ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [53].

{ **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، كالجواب عن سؤال من يسأل: فماذا يؤخّرهم عن التصديق بهذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات؟ والاستفهام إنكاري ولذلك جاء بعده الاستثناء.

يَنْظُرُونَ، ينتظرون من النظرة بمعنى الانتظار، أي ما ينتظرون آية أعظم إلّا تأويل الكتاب، أي إلّا ظهور ما توعّدهم به، وإطلاق الانتظار هنا استعارة تهكّميّة. وقد مضى القول في نظير هذا التركيب عند قوله تعالى {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ} [الأنعام :158].

التأويل، توضيح وتفسير ما خفي، من مقصد كلام أو فعل، وتحقيقه، وقد تقدّم اشتقاقه ومعناه في المقدّمة الأولى من مقدّمات هذا التفسير.

وتأويله، وضوح معنى ما عدّوه محالا وكذبا، من البعث والجزاء ورسالة رسول من الله تعالى ووحدانية الإله والعقاب، فذلك تأويل ما جاء به الكتاب، أي تحقيقه ووضوحه بالمشاهدة، وما بعد العيان بيان.

{ **يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ** } تتنزّل من التي قبلها منزلة البيان للمراد من تأويله، وهو التأويل الذي سيظهر يوم القيامة، فالمراد باليوم يوم القيامة.

{ **يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ** } هم المشركون، وهم معاد ضمير {يَنْظُرُونَ} فكان مقتضى الظاهر أن يقال: يقولون، إلّا أنّه أظهر بالموصوليّة لقصد التسجيل عليهم بأنّهم نسوه وأعرضوا عنه وأنكروه، مرادا به التنبيه على خطئهم، والنعي عليهم بأنّهم يجرّون، بإعراضهم، سوء العاقبة لأنفسهم.

النسيان، مستعمل في الإعراض والصدّ، كما تقدّم في قوله {كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا} [الأعراف: 51].

{ **مِنْ قَبْلُ** } ، أي من قبل تأويله، أو من قبل ذلك اليوم، أي في الدنيا. والقول هنا كناية عن العلم والاعتقاد، لأنّ الأصل في الأخبار مطابقتها لاعتقاد المخبر، أي يتبيّن لهم الحق ويصرحون به.

{ **قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** } خبر مستعمل في الإقرار بخطئهم في تكذيب الرسل، وإنشاء للحسرة على

ذلك، وإبداء الحيرة فيما ذا يصنعون. وهذا القول يقوله بعضهم لبعض اعترافا بخطئهم في تكذيبهم الرّسول ﷺ وما أخبر به عن الرسل من قبله.

{ **رُسُلُ رَبِّنَا** } جمع الرسل هنا، مع أنّ الحديث عن المكذّبين محمدا ﷺ، وذلك لأنّ رسول الله ﷺ ضرب لهم الأمثال بالرسل السابقين، وهم لمّا كذّبوه جرّأهم تكذيبه على إنكار بعثة الرسل. أو لأنّهم مشاهدون يومئذ ما هو عقاب الأمم السابقة على تكذيب رسلهم، فيصدر عنهم ذلك القول عن تأثّر بجميع ما شاهدوه من التهديد الشامل لهم ولمن عداهم من الأمم.

{ **فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا** } الاستفهام يجوز أن يكون حقيقيّا يقوله بعضهم لبعض، لعلّ أحدهم يرشدهم إلى مخلّص لهم من تلك الورطة، وهذا القول يقولونه في ابتداء رؤية ما يهدّدهم قبل أن يوقنوا بانتفاء الشفعاء. ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملا في التمنّي. ويجوز أن يكون مستعملا في النفي، على معنى التحسّر والتندم.

الشفعاء، جمع شفيع وهو الذي يسعى بالشفاعة، وهم يسمّون أصنامهم شفعاء، قال تعالى {وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} [يونس: 18]. وتقدّم معنى الشفاعة عند قوله تعالى {وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} [البقرة :48].

{ **فَيَشْفَعُوا لَنَا** } انتصب على جواب الاستفهام، أو التمنّي، أو النفي.

{ **أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** } العطف بـ (أو) يجعل الاستفهام عن أحد الأمرين، لأنّ أحدهما لا يجتمع مع الآخر، فإذا حصلت الشفاعة فلا حاجة إلى الردّ، وإذا حصل الردّ استغني عن الشفاعة.

{ **فَنَعْمَلَ** } المراد بالعمل ما يشمل الاعتقاد، وهو الأهم، مثل اعتقاد الوحدانيّة والبعث وتصديق الرّسول ﷺ، لأنّ الاعتقاد عمل القلب، ولأنّه تترتب عليه آثار عمليّة، من أقوال وأفعال وامتثال.

{ **الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** } المراد بالصّلة ما كانوا يعملونه من أمور الدين، أي فنعمل ما يغاير ما صمّمنا عليه بعد مجيء الرّسول ﷺ.

{ **قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا تذييلا وخلاصة لقصّتهم، أي فكان حاصل أمرهم أنّهم خسروا أنفسهم، وضلّ عنهم ما كانوا يفترون.

الخسارة، مستعارة لعدم الانتفاع بما يرجى منه النفع، وقد تقدّم بيان ذلك عند قوله تعالى {الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: 12].

الضلال، شبّه حالهم بضلال الإبل عن أربابها تهكّما عليهم.

{ **مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } أي يَكْذِبونه إذ يقولون {هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا} [يونس: 18]، وهم جماد لا حظّ لهم في شؤون العقلاء حتّى يشفعوا، فهم قد ضلّوا عنهم من الآن ولذلك عبّر بالماضي، لأنّ الضلال المستعار للعدم، متحقق من ماضي الأزمنة.

{ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [54]

جاءت أغراض هذه السورة متناسبة متماسكة. فإنّها ابتدئت بذكر القرآن والأمر باتباعه ونبذ ما يصدّ عنه وهو اتباع الشرك، ثم التذكير بالأمم التي أعرضت عن طاعة رسل الله. ثم الاستدلال على وحدانيّة الله، والامتنان بخلق الأرض والتمكين منها، وبخلق أصل البشر وخلقهم، وخُلِّل ذلك بالتذكير بعداوة الشيطان للبشر. وانتقل من ذلك إلى التنديد على المشركين فيما اتبعوا فيه تسويل الشيطان، ثم بتذكيرهم بالعهد الذي أخذه الله على البشر في قوله {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} [35]. وبأنّ المشركين ظلموا بنكث العهد وتوعّدهم وذكّرهم أحوال أهل الآخرة، وعَقِب ذلك عاد إلى ذكر القرآن.

فلا جرمقد تهيّأت الأسماع والقلوب لتلقّي الحجّة على أنّ الله إله واحد، وأنّ آلهة المشركين ضلال وباطل، ثمّ لبيان عظيم قدرته ومجده. فكان ما في صدر السورة بمنزلة المطلوب المنطقي، وكان ما بعده بمنزلة البرهان، وكان قوله {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ} بمنزلة النتيجة للبرهان، والنتيجة مساوية للمطلوب إلّا أنّها تؤخذ أوضح وأشد تفصيلا.

{ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ } الخطاب موجّه إلى المشركين ابتداء، ولذلك كان للتأكيد بحرف (إنّ) موقعه لردّ إنكار المشركين انفراد الله بالربوبيّة. وإذ كان ما اشتملت عليه هذه الآية يزيد المسلمين بصيرة بعظم مجد الله وسعة ملكه، ويزيدهم ذكرى بدلائل قدرته، كان الخطاب صالحا لتناول المسلمين، لصلاحيّة ضمير الخطاب لذلك، ولا يكون حرف { إنّ } بالنسبة إليهم سدى، لأنّه يفيد الاهتمام بالخبر.

{ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } صفة لاسم الجلالة، والصلة مؤذنة بالإيماء إلى وجه بناء الخبر المتقدّم، وهو {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ}، لأنّ خلق السماوات والأرض يكفيهم دليلا على انفراده بالإلهيّة.

{ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } تعليم بعظيم قدرته، ويحصل منه للمشركين زيادة شعور بضلالهم في تشريك غيره في الإلهية. ولا يدل قوله { فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } على أنّ أهل مكّة كانوا يعلمون ذلك. وفيه تحدٍّ لأهل الكتاب.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون خلق السماوات والأرض مدرّجا، وأن لا يكون دفعة، لأنّه جعل العوالم متولّدا بعضها من بعض، لتكون أتقن صنعا ممّا لو خلقت دفعة، وليكون هذا الخلق مظهرا لصفتي علم الله تعالى وقدرته، فالقدرة صالحة لخلقها دفعة، لكن العلم والحكمة أقتضيا هذا التدرّج.

وظاهر الآيات أنّ الأيام هي المعروفة للنّاس، التي هي جمع اليوم الذي هو مدة تقدر من مبدإ ظهور الشمس

في المشرق إلى ظهورها في ذلك المكان ثانية، وعلى هذا التفسير فالتقدير في ما يماثل تلك المدّة ست مرات، لأنّ حقيقة اليوم بهذا المعنى لم تتحقّق إلّا بعد تمام خلق السماء والأرض.

وقيل: إنّ الأيام هنا جمع اليوم من أيام الله تعالى الذي هو مدة ألف سنة، فستة أيام عبارة عن ستة آلاف من السنين نظرا لقوله تعالى {وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} [الحج: 47] وقوله {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} [السجدة:5]. ونقل ذلك عن زيد بن أرقم واختاره النقّاش، وما هو ببعيد، وإن كان مخالفا لما في التوراة.

وقيل المراد: في ستة أوقات، فإن اليوم يطلق على الوقت كما في قوله تعالى {وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ} [لأنفال: 16] أي حين إذ يلقاهم زحفا، ومقصود هذا القائل أنّ السماوات والأرض خلقت عالما بعد عالم ولم يشترك جميعها في أوقات تكوينها.

وأيّا ما كان فالأيام مراد بها مقادير لا الأيام التي واحدها يوم، والتعمّق في البحث في هذا خروج عن غرض القرآن.

الاستواء، حقيقته الاعتدال، والذي يؤخذ من كلام المحقّقين من علماء اللغة والمفسّرين أنّه حقيقة في الارتفاع والاعتلاء، كما في قوله تعالى في صفة جبريل {فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى} [النجم: 6، 8].

والاستواء له معان متفرّعة عن حقيقته، أشهرها القصد والاعتلاء.

وقد التزم هذا اللفظ في القرآن مسندا إلى ضمير الجلالة عند الإخبار عن أحوال سماوية، كما في هذه الآية. ونظائرها سبع آيات من القرآن: هنا، وفي يونس، والرعد، وطه، والفرقان، وألم السجدة، والحديد، وفصلت. فظهر لي أنّ لهذا الفعل خصوصيّة في كلام العرب كان بسببها أجدر بالدلالة على المعنى المراد تبليغه مجملا مما يليق بصفات الله ويقرّب إلى الإفهام معنى عظمته، ولذلك اختير في هذه الآيات دون غيره من الأفعال التي فسّره بها المفسّرون.

فالاستواء يعبّر عن شأن عظيم من شؤون عظمة الخالق تعالى، اختير التعبير به على طريق الاستعارة والتمثيل، لأن معناه أقرب معاني المواد العربية إلى المعنى المعبّر عنه من شؤونه تعالى، فإن الله لما أراد تعليم معان من عالم الغيب لم يكن يتأتى ذلك في اللغة إلّا بأمثلة معلومة من عالم الشهادة، فلم يكن بد من التعبير عن المعاني المغيّبة بعبارات تقربها مما يعبّر به عن عالم الشهادة، ولذلك يكثر في القرآن ذكر الاستعارات التمثيلية والتخيلية في مثل هذا.

وقد كان السلف يتلقّون أمثالها بلا بحث ولا سؤال لأنّهم علموا المقصود الإجمالي منها فاقتنعوا بالمعنى مجملا، ويسمون أمثالها بالمتشابهات، ثم لمّا ظهر عصر ابتداء البحث كانوا إذا سئلوا عن هذه الآية يقولون: استوى الله على العرش ولا نعرف لذلك كيفا، وقد بيّنتُ أنّ مثل هذا من القسم الثاني من المتشابه عند قوله

تعالى {وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آل عمران :7]، فكانوا يأبون تأويلها. وقد حكى عياض في المدارك عن سفيان بن عيينة أنّه قال: سأل رجل مالكا فقال: الرحمان على العرش استوى. كيف استوى يا أبا عبد الله؟ فسكت مالك مليا حتى علاه الرّحضَاء ثم سُرّي عنه، فقال: " الاستواء معلوم والكيف غير معقول والسؤال عن هذا بدعة والإيمان به واجب وإني لأظنك ضالا ".

قال البخاري، عن مجاهد: استوى، علا على العرش، وعن أبي العالية: استوى إلى السماء ارتفع فسوى خلقهن.

وأحسب أن استعارته تختلف بقرينة الحرف الذي يعدّى به فعله، فإن عدّي بحرف (**على**) كما في هذه الآية ونظائرها فهو مستعار من معنى الاعتلاء، مستعمل في اعتلاء مجازي يدل على معنى التمكّن، فيحتمل أنّه أريد منه التمثيل، وهو تمثيل شأن تصرّفه تعالى بتدبير العوالم، ولذلك نجده بهذا التركيب في الآيات السبع واقعا عقب ذكر خلق السماوات والأرض، فالمعنى حينئذ: خلقها ثم هو يدبّر أمورها تدبير الملك أمور مملكته مستويا على عرشه. ومما يقرب هذا المعنى قول النبي ﷺ: "يقبض الله الأرض ويطوي السماوات يوم القيامة ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض" .

ولذلك أيضا عقّب التركيب في مواقعه كلّها بما فيه معنى التصرّف كقوله هنا {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ}.

وكمال هذا التمثيل يقتضي أن يكون كل جزء من أجزاء الهيئة الممثّلة مشبّها بجزء من أجزاء الهيئة الممثل بها، فيقتضي أن يكون ثمّة موجود من أجزاء الهيئة الممثلة مشابها لعرش الملك في العظمة، وكونه مصدر التدبير والتصوف الإلهي يفيض على العوالم قوى تدبيرها.

وقد دلّت الآثار الصحيحة من أقوال الرّسول ﷺ على وجود هذا المخلوق العظيم المسمّى بالعرش كما سنبيّنه.

فأمّا إذا عدي فعل الاستواء بحرف (**اللام**) فهو مستعار من معنى القصد والتوجّه إلى معنى تعلّق الإرادة، كما في قوله {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} [البقرة: 29].

العرش، حقيقته الكرسي المرتفع الذي يجلس عليه الملك، قال تعالى {وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} [النمل: 23] وقال {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ} [يوسف: 100].

وهو في هذه الآية ونظائرها مستعمل جزءا من التشبيه المركّب، ومن بداعة هذا التشبيه أن كان كل جزء من أجزاء الهيئة المشبّهة مماثلا لجزء من أجزاء الهيئة المشبه بها، وذلك أكمل التمثيل في البلاغة العربية، كما قدمته آنفا. وإذ قد كان هذا التمثيل مقصودا لتقريب شأن من شؤون عظمة ملك الله بحال هيئة من الهيئات المتعارفة، ناسب أن يشتمل على ما هو شعار أعظم المدبرين للأمور المتعارفة أعني الملوك، وذلك شعار العرش الذي من حوله تصدر تصرفات الملك، فإن تدبير الله لمخلوقاته بأمر التكوين يكون صدوره بواسطة الملائكة، وقد بيّن القرآن عمل بعضهم مثل جبريل عليه السلام وملك الموت، وبينت السنة بعضها: فذكرت

ملك الجبال، وملك الرياح، والملك الذي يباشر تكوين الجنين، ويكتب رزقه وأجله وعاقبته، وكذلك أشار القرآن إلى أنّ من الموجودات العلوية موجودا منوّها به سمّاه العرش ذكره القرآن في آيات كثيرة. ولما ذكر خلق السماوات والأرض وذكر العرش ذكره بما يشعر بأنه موجود قبل هذا الخلق. وبيّنت السنّة أن العرش أعظم من السماوات وما فيهن، من ذلك حديث عمران بن حصين أنّ النبي ﷺ قال: "كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض"، وحديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في حديث طويل:" فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنّة وفوقه عرش الرحمان ومنه تفجّر أنهار الجنة". وقد قيل إن العرش هو الكرسي وأنه المراد في قوله تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} كما تقدم الكلام عليه في سورة البقرة [255].

{ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** } وقد دلت (ثمّ) على التراخي الرتبي أي وأعظم من خلق السماوات والأرض استواءه على العرش، تنبيها على أنّ خلق السماوات والأرض لم يحدث تغييرا في تصرفات الله بزيادة ولا نقصان، ولذلك ذكر الاستواء على العرش عقب ذكر خلق السماوات والأرض في آيات كثيرة، ولعلّ المقصد من ذلك إبطال ما يقوله اليهود: إن الله استراح في اليوم السابع. فهو كالمقصد من قوله تعالى {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [قّ:38].

{ **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ** } حال من اسم الجلالة، ذكر به شيء من عموم تدبيره تعالى وتصرّفه المضمّن في الاستواء على العرش، وتنبيه على المقصود من الاستواء، وخصّ هذا التصرّف بالذكر لما يدلّ عليه من عظيم المقدرة، وما فيه من عبرة التغيّر ودليل الحدوث، ولكونه متكرّرا حدوثه في مشاهدة النّاس كلّهم.

يُغْشِي، الإغشاء والتغشية، جعل الشيء غاشيا، حقيقته التغطية والغمّ. فمعنى {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} أن الله يجعل أحدهما غاشيا الآخر، وهو مستعار للاخفاء، لأنّ النهار يزيل أثر الليل والليل يزيل أثر النهار.

{ **يَطْلُبُهُ حَثِيثاً** } إن جُعلت استئنافا أو بدل اشتمال من جملة {يغشي} فأمرها واضح، واحتمل الضمير المنصوب في {يطلبه} أن يعود إلى الليل وإلى النهار.

وإن جُعلت حالا تعيّن أن تعتبر حالا من أحد المفعولين على السواء فإن كلا الليل والنهار يعتبر طالبا ومطلوبا، تبعا لاعتبار أحدهما مفعولا أولا أو ثانيا.

الحثيث، المسرع، وهو فعيل بمعنى مفعول، من حثّه إذا أعجله وكرّر إعجاله ليبادر بالعجلة. فالمعنى يطلبه سريعا مجدّا في السرعة لأنّه لا يلبث أن يعفى أثره.

{ **وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ** } بالنصب في قراءة الجمهور معطوفات على السماوات والأرض، أي وخلق الشمس والقمر والنجوم، وهي من أعظم المخلوقات التي اشتملت عليها السماوات.

و{مُسَخَّرَاتٍ} حال من المذكورات.

وقرأ ابن عامر برفع {الشَّمْسُ} وما عطف عليه ورفع {مُسَخَّرَاتٌ} ، فتكون الجملة حالا من ضمير اسم الجلالة كقوله { يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ}.

وتقدم الكلام على الليل والنهار عند قوله تعالى {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [البقرة :164].

التسخير حقيقته تذليل ذي عمل شاق أو شاغل، بقهر وتخويف أو بتعليم وسياسة بدون عوض، فمنه تسخير العبيد والأسرى، ومنه تسخير الأفراس والرواحل. ويستعمل مجازا في تصريف الشيء غير ذي الإرادة في عمل عجيب أو عظيم من شانه أن يصعب استعماله فيه، بحيلة أو إلهام، تصريفا يصيّره من خصائصه وشؤونه، كتسخير الفلك للمخر في البحر بالريح أو بالجذف، وتسخير السحاب للامطار.

فقوله { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ } أطلق التسخير فيه مجازا على جعلها خاضعة للنّظام الذي خلقها الله عليه بدون تغيير.

{ **بِأَمْرِهِ** } لفظ الأمر مستعمل مجازا في التصريف بحسب القدرة الجارية على وفق الإرادة، ومنه أمر التكوين المعبر عنه في القرآن بقوله: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يّس:82].

فـ (كن)تقريب لنفاذ القدرة.

{ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** } مستأنفة استئناف التذييل للكلام السابق من قوله {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} لإفادة تعميم الخلق. فالخلق، إيجاد الموجودات، والأمر تسخيرها للعمل الذي خلقت لأجله.

{ **ألا** } افتتحت الجملة بحرف التنبيه لتعي نفوس السامعين هذا الكلام الجامع.

{ **تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** } تذييل معترضة بين جملة {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ} وجملة {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً} إذ قد تهيّأ المقام للتّذكير بفضل الله على النّاس، وبنافع تصرفاته، عقب ما أجرى من إخبار عن عظيم قدرته وسعة علمه وإتقان صنعه.

وفعل { تَبَارَكَ } في صورة اشتقاقه يؤذن بإظهار الوصف على صاحبه المتّصف به، أي ظهرت بركته.

البركة، شدّة الخير، وتقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً} [آل عمران :96]، فبركة الله الموصوف بها هي مجده ونزاهته وقدسه، وذلك جامع صفات الكمال، ومن ذلك أنّ له الخلق والأمر.

{ **رَبُّ الْعَالَمِينَ** } إتباع اسم الجلالة بالوصف في معنى البيان لاستحقاقه البركة والمجد، لأنّه مفيض خيرات الإيجاد والإمداد، ومدبّر أحوال الموجودات، بوصف كونه رب أنواع المخلوقات. ومضى الكلام على {الْعَالَمِينَ} في سورة الفاتحة[2].

{ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ }[55]

جملة معترضة بين جملة { يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} [54] وجملة { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ } [57] جرى هذا الاعتراض على عادة القرآن في انتهاز فرص تهيُّؤ القلوب للذكرى. والخطاب خاص بالمسلمين لأنّه تعليم لأدب دعاء الله تعالى وعبادته، وليس المشركون بمتهيّئين لمثل هذا الخطاب، وهو تقريب للمؤمنين وإدناء لهم وتنبيه على رضى الله عنهم ومحبته، وشاهده قوله بعده {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [56].

الدعاء، حقيقته النداء، ويطلق أيضا على النداء لطلب مهم، واستعمل مجازا في العبادة لاشتمالها على الدعاء والطلب بالقول أو بلسان الحال، كما في الركوع والسجود، مع مقارنتهما للأقوال وهو إطلال كثير في القرآن.

والمراد منه هنا الطلب والتوجّه، لأنّ المسلمين قد عبدوا الله وأفردوه بالعبادة، وإنّما المهم إشعارهم بالقرب من رحمة ربّهم وإدناء مقامهم منها.

{ رَبَّكُمْ } وجيء لتعريف الربّ بطريق الإضافة دون ضمير الغائب، مع وجود معاد قريب في قوله {تَبَارَكَ اللَّهُ} [54] ودون ضمير المتكلّم، لأنّ في لفظ الربّ إشعارا بتقريب المؤمنين بصلة المربوبية، وليتوسل بإضافة الرب إلى ضمير المخاطبين إلى تشريف المؤمنين وعناية الربّ بهم.

التضرّع، إظهار التذلّل بهيئة خاصة، ويطلق التضرّع على الجهر بالدعاء، وقد فسّر في هذه الآية وفي قوله في سورة الأنعام {تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً} بالجهر بالدعاء، وهو الذي نختاره لأنّه أنسب بمقابلته بالخفية.

ومن المفسّرين من أبقى التضرّع على حقيقته وهو التذلّل، فيكون مصدرا بمعنى الحال، أي متذلّلين، أو مفعولا مطلقا لـ {ادْعُوا} ، لأن التذلل بعض أحوال الدعاء فكأنه نوع منه، وجعلوا قوله {وَخُفْيَةً}، أي ادعوه مخفين دعاءكم، حتّى أوهم كلام بعضهم أنّ الإعلان بالدعاء منهي عنه أو غير مثوب عليه، وهذا خطأ، فإن النبي ﷺ دعا علنا غير مرّة. وعلى المنبر بمسمع من النّاس وقال: " اللّهم حوالينا ولا علينا "، وقال: " اللّهم عليك بقريش".

فالصواب أنّ قوله {تَضَرُّعاً} إذن بالدعاء بالجهر والإخفاء، وأمّا ما ورد من النهي عن الجهر فإنّما هو عن الجهر الشديد الخارج عن حد الخشوع.

{ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } واقعة موقع التعليل للأمر بالدعاء، إشارة إلى أنّه أمر تكريم للمسلمين يتضمّن رضى الله عنهم، ولكن سلك في التعليل طريق إثبات الشيء بإبطال ضده، تنبيها على قصد الأمرين وإيجازا في الكلام. ولكون الجملة واقعة موقع التعليل افتتحت بـ { إنّ } المفيدة لمجرّد الاهتمام، بقرينة خلو المخاطبين عن التردّد في هذا الخبر، ومن شان (إنّ) إذا جاءت على هذا الوجه أن تفيد التعليل والربط، وتقوم مقام الفاء، كما نبّه عليه الشيخ عبد القاهر.

{ **لا يُحِبُّ** } وإطلاق المحبة وصفا لله تعالى، في هذه الآية ونحوها، إطلاق مجازي مراد بها لازم معنى المحبّة، بناء على أنّ حقيقة المحبة انفعال نفساني، وعندي فيه احتمال، فقالوا: أريد **لازم المحبّة**، أي في المحبوب والمحب، فيلزمها اتصاف المحبوب بما يرضي المحب لتنشأ المحبة التي أصلها الاستحسان، ويلزمها **رضى المحِبّ** عن محبوبهن **وإيصال النفع له**. وهذان اللازمان متلازمان في أنفسهما، فإطلاق المحبة وصفا لله مجاز بهذا اللازم المركب.

{ **الْمُعْتَدِينَ** } المشركون، لأنّه يرادف الظالمين.

والمعنى: ادعوا ربكم لأنه يحبكم ولا يحب المعتدين.

{ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } [56]

{ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا }

عطف النهي عن الفساد في الأرض على جملة {إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} عطفا على طريقة الاعتراض، فإنّ الكلام لما أنبأ عن عناية الله بالمسلمين وتقريبه إيّاهم إذ أمرهم بأن يدعوه وشرّفهم بذلك العنوان العظيم في قوله {رَبَّكُمْ} [55]، وعرّض لهم بمحبّته إيّاهم دون أعدائهم المعتدين، أعقبه بما يحول بينهم وبين الإدلال على الله بالاسترسال فيما تمليه عليهم شهواتهم من ثوران القوتين، الشهويّة والغضبيّة، فإنّهما تجنيان فسادا في الغالب، فذكّرهم بترك الإفساد ليكون صلاحهم منزّها عن أن يخالطه فساد، وكذلك دأب القرآن أن يعقب الترغيب بالترهيب، وبالعكس، لئلّا يقع النّاس في اليأس أو الأمن.

وفيه تعريض بانّ المعتدين، وهم المشركون مفسدون في الأرض، وإرباء للمسلمين عن مشابهتهم، أي لا يليق بكم وأنتم المقرّبون من ربكم، المأذون لكم بدعائه، أن تكونوا مثل المبعدين منه المبغضين.

والإفساد في الأرض والإصلاح تقدّم الكلام عليهما عند قوله تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} [البقرة :11].

وقد يكون بعض الإفساد مؤدّيا إلى صلاح أعظم ممّا جره الإفساد من المضرّة، فيترجّح الإفساد إذا لم يمكن تحصيل صلاح ضروري إلّا به، فقد قطع رسول الله ﷺ نخل بني النضير، ونهى أبو بكر رضي الله عنه عن قطع شجر العدو، لاختلاف الأحوال.

{ **بَعْدَ إِصْلاحِهَا** } بعديّة حقيقية، لأنّ الأرض خلقت من أوّل أمرها على صلاح قال الله تعالى {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} [فصلت: 10] على نظام صالح بما تحتوي عليه، وبخاصة الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات التي جعلها الله على الأرض، وخلق له ما في الأرض، وعزز ذلك

النظام بقوانين وضعها الله على ألسنة المرسلين والصالحين والحكماء من عباده، الذين أيدهم بالوحي والخطاب الإلهي، أو بالإلهام والتوفيق والحكمة، فعلّموا النّاس كيف يستعملون ما في الأرض على نظام يحصل به الانتفاع بنفع النافع وإزالة ما في النافع من الضرّ وتجنب ضرّ الضار، فذلك النظام الأصلي، والقانون المعزّز له، كلاهما إصلاح في الأرض، لأنّ الأول إيجاد الشيء صالحا، والثاني جعل الضار صالحا بالتهذيب أو بالإزالة.

{ وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ }

عود إلى أمر الدعاء لأنّ ما قبله من النهي عن الإفساد أشبه الاحتراس المعترض بين أجزاء الكلام، وأعيد الأمر بالدعاء ليبنى عليه قوله {خَوْفاً وَطَمَعاً} قصدا لتعليم الباعث على الدعاء بعد أن علموا كيفيّته، وهذا الباعث تنطوي تحته أغراض الدعاء وأنواعه، فلا إشكال في عطف الأمر بالدعاء على مثله لأنّهما مختلفان باختلاف متعلقاتهما.

الخوف، تقدّم عند قوله تعالى {إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ} [البقرة: 229].

الطمع، تقدّم في قوله {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ} في سورة البقرة [75].

وانتصاب {خَوْفاً وَطَمَعاً} هنا على المفعول لأجله، أي أنّ الدعاء يكون لأجل خوف منه وطمع فيه.

فالخوف من غضبه وعقابه، والطمع في رضاه وثوابه، والدعاء لأجل الخوف نحو الدعاء بالمغفرة، والدعاء لأجل الطمع نحو الدعاء بالتوفيق وبالرحمة. وفي الأمر بالدعاء خوفا وطمعا دليل على أنّ من حظوظ المكلّفين في أعمالهم مراعاة جانب الخوف من عقاب الله والطمع في ثوابه، وهذا مما طفحت به أدلّة الكتاب والسنّة.

{ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } واقعة موقع التفريع على جملة {وَادْعُوهُ} ، فلذلك قرنت بـ (إنّ) الدالة على التوكيد، وهو لمجرد الاهتمام بالخبر.

{رَحْمَتَ **اللَّهِ** } إحسانه وإيتاؤه الخير.

{ **قَرِيبٌ** } والقرب حقيقته دنو المكان وتجاوره، ويطلق على الرجاء مجازا يقال: هذا قريب، أي ممكن مرجو. وهو هنا بهذا المعنى.

{ **قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** } دلّ على مقدّر في الكلام، أي وأحسنوا لأنّهم إذا دعوا خوفا وطمعا فقد تهيأوا لنبذ ما يوجب الخوف، واكتساب ما يوجب الطمع، لئلا يكون الخوف والطمع كاذبين، لأنّ من خاف لا يقدم على المخوف، ومن طمع لا يترك طلب المطموع، ويتحقّق ذلك بالإحسان في العمل ويلزم من الإحسان ترك السيئات، فلا جرم تكون رحمة الله قريبا منهم، وسكت عن ضدّ المحسنين رفقا بالمؤمنين وتعريضا بأنّهم لا يظنّ بهم أن يسيئوا فتبعد الرحمة عنهم.

وعدم لحاق علامة التأنيث لوصف {قَرِيبٌ} مع أن موصوفه مؤنث اللفظ، وجهه علماء العربية بوجوه كثيرة، وأشار إليهما في الكشاف.وجلّها يحوم حول تأويل الاسم المؤنث بما يرادفه من اسم مذكر، أو الاعتذار بأن بعض الموصوف به غير حقيقي التأنيث كما هنا، وأحسنها عندي قول الفراء وأبي عبيدة: أنّ قريبا أو بعيدا إذا أطلق على قرابة النسب أو بعد النسب فهو مع المؤنث بتاء ولا بد، وإذا أطلق على قرب المسافة أو بعدها جاز فيه مطابقة موصوفة وجاز فيه التذكير على التأويل بالمكان، وهو الأكثر، قال الله تعالى {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} [هود: 83] وقال {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً} [الأحزاب: 63].

{ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [57]

لمّا ذكر قرب رحمته من المحسنين ذكر بعضا من رحمته العامة وهو المطر. فذكر إرسال الرياح هو المقصود الأهم، لأنّه دليل على عظم القدرة والتدبير، ولذلك جعلناه معطوفا على {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} [54]. وذكر بعض الأحوال المقارنة لإرسال الرياح يحصل منه إدماج الامتنان في الاستدلال، وذلك لا يقتضي أنّ الرياح لا ترسل إلّا للتبشير بالمطر، ولا أنّ المطر لا ينزل إلّا عقب إرسال الرياح، إذ ليس المقصود تعليم حوادث الجو، و ليس في الكلام ما يقتضي انحصار الملازمة.

وفيه تعريض ببشارة المؤمنين بإغداق الغيث عليهم ونذارة المشركين بالقحط والجوع.

وأطلق الإرسال على الانتقال على وجه الاستعارة، فإرسال الرياح هبوبها من المكان الذي تهبّ فيه ووصولها، وحسن هذه الاستعارة أن الريح مسخّرة إلى المكان الذي يريد الله هبوبها فيه، فشبّهت بالعاقل المرسل إلى جهة ما، ومن بدائع هذه الاستعارة أنّ الريح لا تفارق كرة الهواء كما تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [البقرة :164]، فتصريف الرياح من جهة إلى جهة أشبه بالإرسال منه بالإيجاد.

{ **بُشْراً** } قرأه نافع، وأبو عمرو، وابن كثير، وأبو جعفر {نُشُراً} (بضم النون والشين) على أنّه جمع نَشور (بفتح النون) كرسول ورسل، وهو فعول بمعنى فاعل، والنَشور الريح الحيّة الطيّبة لأنّها تنشر السحاب، أي تبثّه وتكثره في الجو، كالشيء المنشور، ويجوز أن يكون فعولا بمعنى مفعول، أي منشورة، أي مبثوثة في الجهات، متفرقة فيها، لأنّ النشر هو التفريق في جهات كثيرة، ومعنى ذلك أن ريح المطر تكون ليّنة، تجيء مرة من الجنوب ومرة من الشمال، وتتفرّق في الجهات حتى ينشأ بها السحاب ويتعدّد سحابات مبثوثة.

وقرأه ابن عامر {نُشْراً} (بضم النون وسكون الشين) وهو تخفيف نُشُر الذي هو بضمتين كما يقال: رسل في رسل.

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف {نَشْراً } بفتح النون وسكون الشين على أنه مصدر، وانتصب إمّا على المفعولية المطلقة لأنّه مرادف لـ "أرسل" بمعناه المجازي، أي أرسلها إرسالا أو نشرها نشرا. وإمّا على الحال من الريح، أي ناشرة أي السحاب، أو من الضمير في "أرسل" أي أرسلها ناشرا أي محييا بها الأرض الميّتة.

وقرأه عاصم{ **بُشْراً** } بالباء الموحدة في موضع النون مضمومة وبسكون الشين وبالتنوين، وهو تخفيف بُشُرا (بضمّهما) على أنّه جمع بشير مثل نُذُر ونذير، أي مبشّرة للنّاس باقتراب الغيث.

فحصل من مجموع هذه القراءات أنّ الرياح تنشر السحاب، وأنها تأتي من جهات مختلفة تتعاقب فيكون ذلك سبب امتلاء الأسحبة بالماء، وأنّها تحيي الأرض بعد موتها، وأنّها تبشّر النّاس بهبوبها.

{ **بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** } أصل معنى قولهم (بين يدي فلان)، أنّه يكون أمامه بقرب منه (ولذلك قوبل بالخلف في قوله تعالى {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} [البقرة: 255])، فقصد قائله الكناية عن الأمام.

الرحمة، أريد بها المطر، والقرينة على المراد بقيّة الكلام. وليست الرحمة من أسماء المطر في كلام العرب فإنّ ذلك لم يثبت، وإضافة الرحمة إلى اسم الجلالة في هذه الآية تبعد دعوى من ادعاها من أسماء المطر.

والمقصد الأوّل من قوله {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ} تقريع للمشركين وتفنيد إشراكهم، وتبعه تذكير المؤمنين وإثارة اعتبارهم، لأنّ المشركين يعلمون أنّ للرياح مصرّفا وأنّ للمطر مُنْزِلا، غير أنّهم يذهلون أو يتذاهلون عن تعيين ذلك الفاعل، ولذلك يجيئون في الكلام بأفعال نزول المطر مبنية إلى المجهول غالبا، فيقولون: (مطرنا بِنَوْء الثّريّا) ويقولون: (غِثْنَا مَا شِئْنَا) مبنيا للمجهول أي أغثنا، فأخبر الله تعالى بأنّ فاعل تلك الأفعال هو الله.

{ **حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ** } حَتَّى ابتدائية وهي غاية لمضمون قوله {بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} ، الذي هو في معنى متقدِّمة رحمتَه، أي تتقدّمها مدّة وتنشر أسحبتها، حتّى إذا أقلّت سحابا أنزلنا به الماء. فإنزال الماء هو غاية تقدّم الرياح وسبقها المطر.

الثقال، البطيئة التنقل لما فيها من رطوبة الماء، وهو البخار. وهو السحاب المرجوّ منه المطر.

{ **أَقَلَّتْ** } حملت، مشتق من القلّة، لأنّ الحامل يعدّ محموله قليلا فالهمزة فيه للجعل.

وإقلال الريح السحاب، هو أنّ الرياح تمرّ على سطح الأرض فيتجمّع بها ما على السطح من البخار، وترفعه الرياح إلى العلو في الجوّ، حتّى يبلغ نقطة باردة في أعلى الجوّ، فهنالك ينقبض البخار وتتجمّع أجزاؤه فيصير سحابات، وكلما انضمّت سحابة إلى أخرى حصلت منهما سحابة أثقل من إحداهما، حين كانت منفصلة عن الأخرى، فيقلّ انتشارها إلى أن تصير سحابا عظيما فيثقل، فينماع، ثم ينزل مطرا.

وقد تبيّن أن المراد من قوله {أَقَلَّتْ} غير المراد من قوله {فَتُثِيرُ سَحَاباً} [الروم: 48].

السحاب، اسم جمع لسحابة فلذلك جاز إجراؤه على اعتبار التذكير نظرا لتجرد لفظه عن علامة التأنيث، وجاز اعتبار التأنيث فيه نظرا لكونه في معنى الجمع ولهذه النكتة وصف السحاب في ابتداء إرساله بأنها تثير، ووصف بعد الغاية بأنها ثقال، وهذا من إعجاز القرآن العلمي، وقد ورد الاعتباران في هذه الآية فوصف السحاب بقوله {ثِقَالاً} اعتبارا بالجمع، وأعيد الضمير إليه بالإفراد في قوله {سُقْنَاهُ}.

السَّوْق، حقيقتة أنّه تسيير ما يمشي ومسَيِّره وراءه يُزجيه ويَحثُّه، وهو هنا مستعار لتسيير السحاب بأسبابه التي جعلها الله.

{ **لِبَلَدٍ** } اللام، لام العلة، أي لأجل بلد ميّت، وفي هذه اللام دلالة على العناية الربّانية بذلك البلد فلذلك عدل عن تعدية سقناه بحرف (إلى).

الميّت، مجاز أطلق على الجانب الذي انعدم منه النبات، وإسناد الموت المجازي إلى البلد هو أيضا مجاز عقلي، لأنّ الميّت إنما هو نباته وثمره.

{ **فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ** } الضمير المجرور بالباء{ بِهِ } يجوز أن يعود إلى البلد، فيكون الباء بمعنى (في)، ويجوز أن يعود إلى الماء فيكون الباء للآلة.

{ **كُلِّ الثَّمَرَاتِ** } استغراق حقيقي، لأنّ البلد الميّت ليس معيّنا، بل يشمل كل بلد ميّت ينزل عليه المطر، فيحصل من جميع أفراد البلد الميّت جميع الثمرات قد أخرجها الله بواسطة الماء، والبلد الواحد يخرج ثمراته المعتادة فيه.

{ **كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى** } معترضة استطرادا للموعظة، والاستدلال على تقريب البعث الذي يستبعدونه. فوجه الشبه هو إحياء بعد موت.

{ **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** } مستأنفة، والرجاء ناشئ عن الجمل المتقدمة من قوله {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} لأن المراد التذكّر الشامل الذي يزيد المؤمن عبرة وإيمانا، والذي من شانه أن يقلع من المشرك اعتقاد الشرك ومن منكر البعث إنكاره.

{ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ } [58]

جملة معترضة بين {كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى} وبين {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً} [59] تتضمّن تفصيلا لمضمون جملة {فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} [57] إذ قد بيّن فيها اختلاف حال البلد الذي يصيبه ماء السحاب. دعا إلى هذا التفصيل أنّه لمّا مثّل إخراج ثمرات الأرض بإخراج الموتى منها يوم البعث تذكيرا بذلك للمؤمنين، وإبطالا

لإحالة البعث عند المشركين، مُثّل هنا باختلاف حال إخراج النبات من الأرض اختلاف حال النّاس الأحياء في الانتفاع برحمة هدى الله. فموقع قوله {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ} كموقع قوله {كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ} ولذلك ذيل هذا بقوله {كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ} كما ذيّل ما قبله بقوله {كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [57].

والمعنى: كذلك نخرج الموتى وكذلك ينتفع برحمة الهدى من خلقت فطرته طيّبة قابلة للهدى، كالبلد الطيّب ينتفع بالمطر، ويُحرم من الانتفاع بالهدى من خلقت فطرته خبيثة كالأرض الخبيثة لا تنتفع بالمطر فلا تنبت نباتا نافعا، **فالمقصود من هذه الآية التمثيل**، وليس المقصود مجرّد تفصيل أحوال الأرض بعد نزول المطر، لأنّ الغرض المسوق له الكلام يجمع أمرين؛ العبرة بصنع الله، والموعظة بما يماثل أحواله.

الطيّب، وصف على وزن فَيْعِل وهي صيغة تدلّ على قوّة الوصف في الموصوف. والطيّب المتصف بالطيّب، وقد تقدم تفسير الطّيّب عند قوله تعالى {قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ} [المائدة :4].

البلد الطّيّب، الأرض الموصوفة بالطِّيب، وطيبها زكاء تربتها وملاءمتها لإخراج النبات الصالح وللزرع والغرس وهي الأرض النّقيّة.

{ **بِإِذْنِ رَبِّهِ** } في موضع الحال من {نَبَاتُهُ} . و**الإذن**، الأمر، والمراد به أمر العناية به، كقوله {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [صّ: 75] ليدلّ على تشريف ذلك النبات، فهو في معنى الوصف بالزكاء.

{ **وَالَّذِي خَبُثَ** } حمله جميع المفسّرين على أنّه وصف للبلد، أي البلد الذي خبث وهو مقابل البلد الطّيب، وفسّروه بالأرض التي لا تنبت إلّا نباتا لا ينفع، ولا يسرع إنباتها، مثل السباخ، وحملوا ضمير يخرج على أنّه عائد للنبات، وجعلوا تقدير الكلام: والذي خبث لا يخرج نباته إلّا نكدا.

والذي يظهر لي، أن يكون {الَّذِي} صادقا على نبات الأرض، والمعنى: والنبت الذي خبث لا يخرج إلّا نكدا، ويكون في الكلام احتباك إذ لم يذكر وصف الطيب بعد نبات البلد الطيب، ولم تذكر الأرض الخبيثة قبل ذكر النبات الخبيث، لدلالة كلا الضدين على الآخر. والتقدير: والبلد الطيب يخرج نباته طيبا بإذن ربه، والنبات الذي خبث يخرج نكدا من البلد الخبيث، وهذا صنع دقيق لا يهمل في الكلام البليغ.

النّكد، وصف من النكَد (بفتح الكاف) وهو مصدر نَكِدَ الشّيءُ إذا كان غير صالح يجرّ على مستعمله شرًّا.

وفي تفصيل معنى الآية جاء الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنّه قال: " مثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقيّةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماء فنفع بها الله النّاس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى إنّما هي قِيعَانٌ لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع لذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به ".

{ **كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ** } الإشارة إلى تفنّن الاستدلال بالدلائل الدالة على عظيم القدرة المقتضية الوحدانيّة، والدالة أيضا على وقوع البعث بعد الموت، والدالة على اختلاف قابليّة النّاس للهدى والانتفاع به بالاستدلال الواضح البيّن المقرّب في جميع ذلك، فذلك تصريف، أي تنويع وتفنين للآيات أي الدلائل.
{ **لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ** } المؤمنون: تنبيها على أنّهم مورد التمثيل بالبلد الطيب، وأنّ غيرهم مورد التمثيل بالبلد الخبيث.

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [59]

استئناف انتقل به الغرض من إقامة الحجّة والمنّة المبتدئة بقوله تعالى {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ} [10]، وتنبيه أهل الضلالة أنّهم غارقون في كيد الشيطان، الذي هو عدوّ نوعهم، من قوله {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ - إلى قوله - وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ} [16، 33]، ثم بالتهديد بوصف عذاب الآخرة وأحوال النّاس فيه، وما تخلّل ذلك من الأمثال والتعريض، إلى غرض الاعتبار والموعظة بما حلّ بالأمم الماضية، فهذا الاستئناف له مزيد اتصال بقوله في أوائل السورة { وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا }[4]، وقد أفيض القول فيه في معظم السورة. وتَتْبَعُ هذا الاعتبارَ أغراضٌ أخرى؛ وهي تسلية الرّسول ﷺ، وتعليم أمّته بتاريخ الأمم التي قبلها من الأمم المرسل إليهم، ليعلم المكذّبون من العرب أن لا غضاضة على محمد ﷺ، ولا على رسالته من تكذيبهم، ولا يجعله ذلك دون غيره من الرّسل، بله أن يؤيّد زعمهم أنّه لو كان صادقا في رسالته لأيّده الله بعقاب مكذّبيه، لمّا قالوا على سبيل التهكّم أو الحجاج { اللّهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم }. وليعلم أهل الكتاب وغيرهم أنّ ما لقيه محمد ﷺ من قومه هو شنشنة أهل الشقاوة تلقاء دعوة رسل الله.
{ **لَقَدْ** } أكد هذا الخبر بلام القسم وحرف التحقيق لأنّ الغرض من هذه الأخبار تنظير أحوال الأمم المكذّبة رسلها بحال مشركي العرب في تكذيبهم رسالة محمد ﷺ.
{ **نُوحاً** } تقدّم التعريف بنوح عند قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً} [آل عمران:33]، وكان قوم نوح يسكنون الجزيرة والعراق، حسب ظن المؤرّخين، وعبّر عنهم القرآن بطريق القوميّة المضافة إلى نوح إذ لم يكن لهم اسم خاص من أسماء الأمم يعرفون به.
{ **فَقَالَ يَا قَوْمِ** } خاطب نوح قومه كلّهم لأنّ الدعوة لا تكون إلّا عامة لهم، وعبّر في ندائهم بوصف القوم لتذكيرهم بآصرة القرابة، ليتحقّقوا أنّه ناصح ومريد خيرهم ومشفق عليهم.
{ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } إبطال للحالة التي كانوا عليها، وهي تحتمل أن تكون حالة شرك كحالة

العرب، وتحتمل أن تكون حالة وثنيّة باقتصارهم على عبادة لأصنام دون الله تعالى، كحالة الصابئة وقدماء اليونان، وآيات القرآن صالحة للحالين. والمنقول في القصص، أنّ قوم نوح كانوا مشركين، وهو الذي يقتضيه ما في صحيح البخاري عن ابن عباس، أنّ آلهة قوم نوح أسماء جماعة من صالحيهم، فلمّا ماتوا قال قومهم: لو اتخذنا في مجالسهم أنصابا، فاتخذوها وسموها بأسمائهم، حتى إذا هلك أولئك وتنسّخ العلم عُبدت.
وظاهر ما في سورة نوح أنّهم كانوا لا يعبدون الله لقوله {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ} [نوح: 3] وظاهر ما في سورة فصّلت أنهم يعترفون بالله لقولهم {لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً} [فصلت: 14].
{ **مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } على الوجه الأوّل، بيان للعبادة التي أمرهم بها، أي أفردوه بالعبادة دون غيره، إذ ليس غيره لكم بإله. وعلى الوجه الثاني، يكون استئنافا بيانيّا للأمر بالإقلاع عن عبادة غيره.
{ **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** } يجوز أن تكون في موقع التعليل، كما في الكشّاف، أي لمضمون قوله {مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} كأنّه قيل: اتركوا عبادة غير الله خوفا من عذاب يوم عظيم، وبني نظم الكلام على خوف المتكلّم عليهم، دلالة على إمحاضه النّصح لهم وحرصه على سلامتهم، حتّى جعل ما يضرّ بهم كأنّه يضرّ به، فهو يخافه كما يخافون على أنفسهم، وذلك لأن قوله هذا كان في مبدإ خطابهم بما أرسل به.
ويحتمل أنّه قاله بعد أن ظهر منهم التكذيب، إي إن كنتم لا تخافون عذابا فإني أخافه عليكم، وهذا من رحمة الرسل بقومهم.
ويجوز أن تكون مستأنفة ثانية بعد جملة {اعْبُدُوا اللَّهَ} لقصد الإرهاب والإنذار، ونكتة بناء نظم الكلام على خوف المتكلم عليهم هي هي.
والعذاب المخوف ويومه يحتمل أنّهما في الآخرة أو في الدنيا، والأظهر الأوّل لأن جوابهم بأنّه في ضلال مبين يشعر بأنّهم أحالوا الوحدانية وأحالوا البعث كما يدل عليه قوله في سورة نوح { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً } [نوح: 17، 18] فحالهم كحال مشركي العرب لأنّ عبادة الأصنام تمحّض أهلها للاقتصار على أغراض الدنيا.

{ قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ }[60]

اقترن جوابهم بحرف التأكيد للدلالة على أنّهم حقّقوا وأكّدوا اعتقادهم أنّ نوحا منغمس في الضلالة.
{**الْمَلأُ**} مهموز بغير مدّ، الجماعة الذين أمرهم واحد ورأيهم واحد لأنّهم يمالئ بعضهم بعضا، أي يعاونه ويوافقه. ويطلق الملأ على أشراف القوم وقادتهم لأنّ شأنهم أن يكون رأيهم واحدا عن تشاور، وهذا المعنى هو المناسب في هذه الآية بقرينة (من) الدالة على التبعيض، أي أنّ قادة القوم هم الذين تصدّوا لمجادلة نوح والمناضلة عن دينهم بمسمع من القوم الذين خاطب جميعهم.

{ **لَنَرَاكَ** } الرؤية قلبية بمعنى العلم. أي إنّا لنوقن أنّك في ضلال مبين، ولم يوصف الملأ هنا بالذين كفروا أو بالذين استكبروا، كما وصف الملأ في قصّة هود بالذين كفروا، استغناء بدلالة المقام على أنّهم كذبوا وكفروا.

الضّلال، اسم مصدر ضلّ إذا أخطأ الطريق الموصل.

المبين، اسم فاعل من (أبان) المرادف (بان).

ضَلالٍ مُبِينٍ، الضّلال البالغ الغاية في البعد عن طريق الحق، وهذه شبهة منهم فإنّهم توهّموا أنّ الحق هو ما هم عليه.

{ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [61] أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [62] أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [63]

{ **قَالَ يَا قَوْمِ** } النداء في جوابه إيّاهم للاهتمام بالخبر، ولم يخصّ خطابه بالذين جاوبوه، بل أعاد الخطاب إلى القوم كلّهم، لأنّ جوابه، مع كونه مجادلة للملأ من قومه، هو أيضا يتضمّن دعوة عامة، استنزالا لطائر نفوسهم.

{ **ضَلالَةٌ** } مصدر مثل الضلال، فتأنيثه لفظي محض، والعرب يستشعرون التأنيث غالبا في أسماء أجناس المعاني، مثل الغواية والسفاهة، فالتاء لمجرد تأنيث اللفظ وليس في هذه التاء معنى الوحدة، لأنّ أسماء أجناس المعاني لا تراعى فيها المشخّصات، فليس الضلال بمنزلة اسم الجمع للضلالة، خلافا لما في الكشّاف، وكأنّه حاول إثبات الفرق بين قول قومه له {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ} [60]، وقوله هو {لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ} وتبعه فيه الفخر، وابن الأثير في المثل السائر، وقد تكلّف لتصحيحه التفتزاني، ولا حاجة إلى ذلك، لأنّ التخالف بين كلمتي ضلال وضلالة اقتضاه التفنّن حيث سبق لفظ ضلال، وموجب سبقه إرادة وصفه بـ {مُبِينٍ}، فلو عبّر هنالك بلفظ ضلالة لكان وصفها بمبينة غير مألوف الاستعمال، ولمّا تقدّم لفظ {ضَلالٍ} استحسن أن يعاد بلفظ يغايره في السورة دفعا لثقل الإعادة. فقوله {لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ} رد لقولهم {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} بمساوية لا بأبلغ منه.

{ **وَلَكِنِّي رَسُولٌ** } الاستدراك لرفع ما توهّموه من أنّه في ضلال حيث خالف دينهم، أي هو في حال رسالة عن الله، مع ما تقتضي الرسالة من التبليغ والنصح والإخبار بما لا يعلمونه، وذلك ما حسبوه ضلالا.

{ **مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } واختيار طريق الإضافة في تعريف المرسِل، لما تؤذن به من تفخيم المضاف ومن وجوب طاعته على جميع النّاس، تعريضا بقومه إذ عصوه.

{ **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي** } صفة لرسول، أو مستأنفة، والمقصود منها إفادة التجدّد، وأنه غير تارك التبليغ من أجل تكذيبهم تأييسا لهم من متابعته إيّاهم.

التبليغ والإبلاغ: جعل الشيء بالغا، أي واصلا إلى المكان المقصود، وهو هنا استعارة للإعلام بالأمر المقصود علمه، فكأنّه ينقله من مكان إلى مكان.

{ **وَأَنْصَحُ لَكُمْ** } النصح والنصيحة كلمة جامعة، يعبّر بها عن حسن النيّة وإرادة الخير من قول أو عمل، وفي الحديث: " الدين النصيحة ". ويكثر إطلاق النصح على القول إلذي فيه تنبيه للمخاطب إلى ما ينفعه ويدفعه عنه الضرّ. وضدّه الغشّ.

وفي الإتيان بالمضارع دلالة على تجديد النصح لهم، وإنّه غير تاركه من أجل كراهيتهم أو بذاءتهم.

{ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** } جمعا لمعان كثيرة مما تتضمّنه الرسالة، وتأييدا لثباته على دوام التبليغ والنصح لهم، والاستخفاف بكراهيتهم وأذاهم. ويتضمن هذا الإجمال البديع تهديدا لهم بحلول عذاب بهم في العاجل والآجل، وتنبيها للتأمّل فيما أتاهم به، وفتحا لبصائرهم أن تتطلب العلم بما لم يكونوا يعلمونه، وكل ذلك شأنه أن يبعثهم على تصديقه وقبول ما جاءهم به.

{ **أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ** } انتقل إلى كشف الخطأ في شبهتهم. مفتتحا الجملة بالاستفهام الإنكاري بعد واو العطف، وهذا مشعر بأنّهم أحالوا أن يكون رسولا، مستدلين بأنّه بشر مثلهم، كما وقعت حكايته في آية أخرى {مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ} [المؤمنون: 24].

العجب، حقيقته أنّه انفعال نفساني يحصل عند إدراك شئ غير مألوف، وقد يكون العجب مشوبا بإنكار الشيء المتعجّب منه واستبعاده وإحالته، كما في قوله تعالى {بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} [قّ: 2، 3]. والذي في هذه الآية كناية عن الإنكار كما في قوله تعالى {قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} [هود: 73] أنكروا عليها أنّها عدت ولادتها ولدا، وهي عجوز، محالا.

{ **عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ** } أي من جنسهم البشري، ومع ما في الكلام من فضح شبهتهم، فيه أيضا ردّ لها بأنّهم أحقّاء بأن يكون ما جعلوه موجب استبعاد واستحالة هو موجب القبول والإيمان، إذ الشان أن ينظروا في الذكر الذي جاءهم من ربّهم وأن لا يسرعوا إلى تكذيب الجائي به، وأن يعلموا أن كون المذكّر رجلا منهم أقرب إلى التعقّل من كون مذكّرهم من جنس آخر من ملك أو جنّي.

{ **لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** } وقد رُتّبت الجمل على ترتيب حصول مضمونها في الوجود، فإنّ الإنذار مقدّم لأنّه حمل على الإقلاع عمّا هم عليه من الشرك أو الوثنية، ثم يحصل بعده العمل الصالح فترجى منه الرحمة.

الإنذار، تقدم عند قوله تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً} [البقرة :119].
التقوى، تقدم عند قوله تعالى {فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة :2].
لَعَلَّكُمْ، تقدم في قوله تعالى {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة :21].
الرحمة، تقدمت عند قوله تعالى {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة:3].

{ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ}[64]

ضمير الجمع عائد إلى القوم، والفاء في قوله {فَأَنْجَيْنَاهُ} للتعقيب، وهو تعقيب عرفي، لأنّ التكذيب حصل بعده الوحي إلى نوح بأنّه لن يؤمن من قومه إلّا من قد آمن، ولا يرجى زيادة مؤمن آخر، وأمره بأن يدخل الفلك ويحمل معه من آمن إلى آخر ما قصّه الله في سورة هود.
{ **فَأَنْجَيْنَاهُ** } قدّم الإنجاء للاهتمام بإنجاء المؤمنين، وتعجيلا لمسرّة السامعين من المؤمنين، بأنّ عادة الله إذا أهلك المشركين أن ينجّي الرّسول والمؤمنين. فلذلك، التقديم يفيد التعريض بالنذارة، وإلّا فإنّ الإغراق وقع قبل الإنجاء، إذ لا يظهر تحقّق إنجاء نوح ومن معه إلّا بعد حصول العذاب لمن لم يؤمنوا به.
{ **فِي الْفُلْكِ** } تقدّم في قوله تعالى { إن في خلق السماوات والأرض} [البقرة :164].
{ **وَالَّذِينَ مَعَهُ** } هم الذين آمنوا به، وسنذكر تعيينهم عند الكلام على قصته في سورة هود.
{ **وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا** } والإتيان بالموصول دون أن يقال: وأغرقنا سائرهم، أو بقيّتهم، لما تؤذن به الصلة من وجه تعليل الخبر {وَأَغْرَقْنَا}، أي أغرقناهم لأجل تكذيبهم.
{ **إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ** } تتنزل منزلة العلّة لجملة {أَغْرَقْنَا} كما دلّ عليه حرف (إنّ) لأنّه هنا لا يقصد به رد الشكّ والتردّد، إذ لا شك فيه، وإنّما المقصود من الحرف الدلالة على الاهتمام بالخبر، ومن شأن (إنّ) إذا جاءت للاهتمام أن تقوم مقام فاء التفريع، وتفيد التعليل وربط الجملة بالتي قبلها.
{عَمِينَ} جمع (عَمٍ)جمع سلامة بواو ونون، مشتقّ من العمى، وأصله فقدان البصر، ويطلق مجازا على فقدان الرأي النافع، ويقال: عمى القلب، وقد غلب في الكلام تخصيص الموصوف بالمعنى المجازي بالصفة المشبّهة لدلالتها على ثبوت الصفة، وتمكّنها بان تكون سجيّة وإنما يصدق ذلك في فقد الرأي، لأن المرء يخلق عليه غالبا، بخلاف فقد البصر، ولذلك قال تعالى هنا {عَمِينَ} ولم يقل عميا كما قال في الآية الأخرى {عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً} [الاسراء: 97].

{ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ [65] قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [66]

قدّم المجرور على المفعول الأصلي ليتأتّى الإيجاز بالإضمار حيث أريد وصف هود بأنّه من إخوة عاد ومن صميمهم، من غير احتياج إلى إعادة لفظ عاد، ومع تجنّب عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة.

عادٌ، أمّة عظيمة من العرب العاربة البائدة، وكانوا عشر قبائل، وقيل ثلاث عشرة قبيلة، وهم أبناء عاد بن عُوص، وعوص هو ابن إرَمَ بن سام بن نوح، كذا اصطلح المؤرّخون. وكانت منازل عاد ببلاد العرب بالشِّحْر (بكسر الشين المعجمة وسكون الحاء المهملة) من أرض اليمن وحضر موت وعمان والأحقاف، وهي الرمال التي بين حضر موت وعمان.

هود، اختلف في نسبه، فقيل: هو من ذريّة عاد، وقيل: هو من ذريّة سام جدّ عاد، وليس من ذرية عاد.

{ أَخَاهُمْ } والأخ هنا مستعمل في مطلق القريب، على وجه المجاز المرسل، ومنه قولهم: يا أخا العرب. وقد كان هود من بني عاد، ويطلق الأخ مجازا أيضا على المصاحب الملازم، كقولهم: هو أخو الحرب، ومنهقوله تعالى {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [الاسراء: 27] وقوله {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ} [لأعراف: 202]. فالمراد أنّ هودا كان من ذوي نسب قومه عاد، وإنما وصف هود وغيره بذلك، ولم يوصف نوح بأنّه أخ لقومه، لأنّ النّاس في زمن نوح لم يكونوا قد انقسموا شعوبا وقبائل، والعرب يقولون، للواحد من القبيلة: أخو بني فلان، قصدا لعزوه ونسبته، تمييزا للنّاس إذ قد يشتركون في الأعلام.

ويؤخذ من هذه الآية ونظائرها أنّ نظام القبائل ما حدث إلّا بعد الطوفان.

{ قَالَ يَا قَوْمِ } فصلت ولم تعطف بالفاء كما عطف نظيرها المتقدّم في قصّة نوح، لأنّ الحال اقتضى هنا أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ قصّة هود لمّا وردت عقب قصّة نوح المذكور فيها دعوته قومه صار السامع مترقِّبا معرفة ما خاطب به هود قومه حيث بعثه الله إليهم.

{ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } مستأنفة ابتدائية، وقد شابهت دعوة هود قومه دعوة نوح قومه في المهمّ من كلامهما، لأنّ الرّسل مرسلون من الله والحكمة من الإرسال واحدة، فلا جرم أن تتشابه دعواتهم، وفي الحديث: " الأنبياء أبناء عَلّاتٍ "، وقال تعالى {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى} [الشورى: 13].

{ أَفَلا تَتَّقُونَ } استفهاميّة إنكاريّة معطوفة بفاء التفريع على جملة {مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} . والمراد بالتقوى الحذر من عقاب الله تعالى على إشراكهم غيره في العبادة واعتقاد الإلهية. وفيه تعريض بوعيدهم إن استمروا على ذلك. ويحتمل أنّ ذلك حكاية قول من أقواله في تكرير الدعوة بعد أن دعاهم المرّة بعد المرّة ووعظهم.

{ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ } ووصف الملإ بـ {الَّذِينَ كَفَرُوا} هنا، دون ما في قصة نوح، وصف

كاشف وليس للتقييد تفنّنا في أساليب الحكاية، ألا ترى أنّه قد وصف ملأ قوم نوح بـ {الَّذِينَ كَفَرُوا} في آية سورة هود.

{ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } والرؤية قلبية، أي أنّا لنعلم أنّك في سفاهة.

السفاهة، سخافة العقل، وقد تقدّم عند قوله تعالى {قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ} [البقرة: 13].

وأطلقوا الظن على اليقين، وهو استعمال كثير، كما في قوله تعالى {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ}[البقرة :46].

وقد تشابهت أقوال قوم هود وأقوال قوم نوح في تكذيب الرّسول، لأنّ ضلالة المكذّبين متّحدة، وشبهاتهم متّحدة، كما قال تعالى {تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} [البقرة: 118].

{ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [67] أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ } [68].

فصلت جملة {قَالَ} لأنها على طريقة المحاورة، وقد تقدّم القول فيها آنفا وفيما مضى.

وتفسير الآية تقدّم في نظيرها آنفا في قصّة نوح، إلّا أنّه قال هناك {وَأَنْصَحُ لَكُمْ} [الأعراف: 62] وقال في هذه {وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ} فنوح قال ما يدلّ على أنّه غير مقلع عن النصح للوجه الذي تقدّم، وهود قال ما يدل على أن نصحه لهم وصف ثابت فيه متمكّن منه، وأنّ ما زعموه سفاهة هو نصح.

الأمين، هو الموصوف بالأمانة، والأمانة حالة في الإنسان تبعثه على حفظ ما يجب عليه من حقّ لغيره، وتمنعه من إضاعته، أو جعله لنفع نفسه، وضدّها الخيانة.

{ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }[69]

{ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ }

هذا مماثل قول نوح لقومه وقد تقدّم آنفا سبب المماثلة. وتقدّم من قبل تفسير نظيره. يجوز أن يكون قوله {لِيُنْذِرَكُمْ} عطفا على قوله {اعْبُدُوا} [65]، ويكون ما بينهما اعتراضا حُكي به ما جرى بينه وبين قومه من المحاورة التي قاطعوه بها عقب قوله لهم {اعْبُدُوا اللَّهَ} [65]، فلمّا أتمّ جوابهم عمّا قاطعوا به كلامه عاد إلى دعوته، فيكون رجوعا إلى الدعوى.

{ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }

انتقل من أمرهم بالتوحيد إلى تذكيرهم بنعمة الله عليهم التي لا ينكرون أنّها من نعم الله دون غيره، لأن الخلق

والأمر لله لا لغيره، تذكيرا من شانه إيصالهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة. وإنّما أمرهم بالذُّكر (بضم الذال) لأنّ النفس تنسى النعم فتكفر المنعم، فإذا تذكّرت النعمة رأت حقا عليها أن تشكر المنعم، ولذلك كانت مسألة شكر المنعم من أهم مسائل التكليف.

{ **خُلَفَاءَ** } جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في شيء، أي يتولّى عمل ما كان يعمله الآخر، وقد تقدّم عند قوله تعالى {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة :30]. فالمراد: جعلكم خلفاء في تعمير الأرض.

{ **مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ** } المقصود أنّهم خلفاء قوم نوح، فعاد أوّل أمّة اضطلعت بالحضارة بعد الطوفان، وليس المراد أنّهم خلفوا قوم نوح في ديارهم لأنّ منازل عاد غير منازل قوم نوح عند المؤرّخين.

وهذا التذكير، تصريح بالنعمة، وتعريض بالنذارة والوعيد بأنّ قوم نوح إنّما استأصلهم وأبادهم عذاب من الله على شركهم، فمن اتّبعهم في صنعهم يوشك أن يحلّ به عذاب أيضا.

{ **الْخَلْقُ** } يحتمل أن يكون مصدرا خالصا، ويحتمل أن يكون بمعنى اسم المفعول، وهو يستعمل في المعنيين.

{ **بَصْطَةً** } ثبت في المصاحف بصاد قبل الطاء وهو مرادف بسطة الذي هو بسين قبل الطاء. والبصطة، الوفرة والسعة في أمر من الأمور.

فإن كان {**الْخَلْقُ**} بمعنى المصدر، فالبصطة الزيادة في القوى الجبليّة، أي زادهم قوة في عقولهم وأجسامهم فخلقهم عقلاء أصحاء، وقد اشتهر عند العرب نسبة العقول الراجحة إلى عاد، ونسبة كمال قوى الأجسام إليهم قال النابغة:

أحلام عاد واجسام مطهّرة ... من المعقة والآفات والإثِم

وقال وَدّاك بن ثُمَيْل المازني في الحماسة:

وأحلام عاد لا يخاف جليسهم ... ولو نطق العوّار غَرْبَ لسان

وإن كان {**الخَلْقُ**} بمعنى النّاس فالمعنى، وزادكم بصطة في النّاس بأن جعلكم أفضل منهم فيما تتفاضل به الأمم من الأمور كلّها، فيشمل رجحان العقول وقوة الأجسام وسلامتها من العاهات والآفات وقوّة البأس، وقد نسبت الدروع وكذلك السيوف إلى عاد فيقال لها: العاديّة. وقد قال الله تعالى حكاية عنهم { وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً } [فصلت: 15]، وحكى في سورة الشعراء عن هود أنّه قال لهم {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ [129] وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ [130] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [131] وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ [132] أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ [133] وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} [134].

{ **فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ** }الفاء فصيحة، أي فاذكروا نعمه الكثيرة تفصيلا، فالكلام جاء على طريقة القياس من الاستدلال بالجزئي على إثبات حكم كلّي، فإنّه ذكّرهم بنعمة واضحة وهي كونهم خلفاء، ونعم مجملة وهي

زيادة بصطتهم، ثم ذكّرهم بقية النعم بلفظ العموم وهو الجمع المضاف.
الآلاء، جمع (إِلًى) والإِلَى النّعمة وهذا مثل جمع عنب على أعناب، ونظيره جمع إنًى بالنون، وهو الوقت، على آناء قال تعالى {غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ} [الأحزاب: 53] أي وقته، وقال {وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ} [طه:130]
{ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** } ورتّب على ذكر نعم الله رجاء أن يفلحوا لأن ذكر النعم يؤدي إلى تكرير شكر المنعم، فيحمل المنعم عليه على مقابلة النعم بالطاعة.

{ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [70] **قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ }** [71]
جاوبوا هودا بما أنبأ عن ضياع حجّته في جنب ضلالة عقولهم ومكابرة نفوسهم، ولذلك أعادوا تكذيبه بطريق الاستفهام الإنكاري على دعوته للتوحيد، وهذا الجواب أقل جفوة وغلظة من جوابهم الأوّل، إذ قالوا {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [66] كأنهم راموا استنزال نفس هود ومحاولة إرجاعه عمّا دعاهم إليه، فلذلك اقتصروا على الإنكار وذكّروه بانّ الأمر الذي أنكره هو دين آباء الجميع تعريضا بأنّه سفّه آباءه. وهذا المقصد هو الذي اقتضى التعبير عن دينهم بطريق الموصوليّة في قولهم {مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} إيماء إلى وجه الإنكار عليه، وإلى أنّه حقيق بمتابعة دين آبائه، كما قال الملأ من قريش لأبي طالب حين دعاه النبي ﷺ أن يقول (لا إله إلا الله) عند احتضاره، فقالوا لأبي طالب: أترغب عن ملّة عبد المطلب.
{ **يَعْبُدُ** } والتعبير بالفعل وكونه مضارعا ليدل على أنّ ذلك متكرّر من آبائهم ومتجدّد وأنّهم لا يفترون عنه.
{ **أَجِئْتَنَا** } أقصدت واهتممت بنا لنعبد الله وحده، فاستعير فعل المجيء لمعنى الاهتمام والتحفّز والتصلّب.
{ **وَنَذَرَ** } تقدّم عند قوله تعالى { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً } [الأنعام:70].
{ **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا** } الفاء لتفريع طلب تحقيق ما توعّدهم به، وتحدّيا لهود، وإشعارا له بأنّهم موقنون بأن لا صدق للوعيد الذي يتوعّدهم، فلا يخشون ما وعدهم به من العذاب. فالأمر {فَأْتِنَا} للتعجيز.
الإتيان بالشيء، حقيقته أن يجيء مصاحبا إيّاه، ويستعمل مجازا في الإحضار والإثبات كما هنا.
والمعنى فعجّل لنا ما تعدنا به من العذاب، أو فحقّق لنا ما زعمت من وعيدنا.
وأسندوا الفعل إلى ضميره، تعريضا بانّ ما توعّدهم به هو شيء من مختلقاته وليس من قبل الله تعالى.
والوعد الذي أرادوه وعد بالشر، وهو الوعيد. ولم يتقدّم ما يفيد أنّه توعدهم بسوء، فيحتمل أن يكون وعيدا ضمنيا تضمنه قوله {أَفَلا تَتَّقُونَ} [65] .
{ **إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } وعقّبوا كلامهم بالشرط استقصاء لمقدرته، قصدا منهم لإظهار عجزه عن الإتيان

بالعذاب فلا يسعه إلّا الاعتراف بأنّه كاذب، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله تقديره: أتيت به وإلّا فلست بصادق.

{ **قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ** } أجابهم بأن أخبرهم بأنّ الله قد غضب عليهم، وأنّهم وقع عليهم رجس من الله.

{ **وَقَعَ** } الأظهر أنّ معناه حقّ وثبت، من قولهم للأمر المحقّق: هذا واقع، وللأمر المكذوب: هذا غير واقع.

الرجس، هو الشيء الخبيث، أطلق هنا مجازا على خبث الباطن، أي فساد النفس كما في قوله تعالى {فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ} [توبة: 125]. والمعنى، أصاب الله نفوسهم بالفساد لكفرهم، فلا يقبلون الخير ولا يصيرون إليه.

وعن ابن عباس أنّه فسر الرجس هنا باللعنة، والجمهور فسّروا الرجس هنا بالعذاب، فيكون فعل {وَقَعَ} من استعمال صيغة الماضي في معنى الاستقبال، إشعارا بتحقيق وقوعه.

ومنهم من فسّر الرجس بالسخط، وفسر الغضب بالعذاب، على أنّه مجاز مرسل، لأنّ العذاب أثر الغضب.

غضب الله، تقديره الإبعاد والعقوبة والتحقير، وهي آثار الغضب في الحوادث، لأنّ حقيقة الغضب، انفعال تنشأ عنه كراهية المغضوب عليه وإبعاده وإضراره.

{ **عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ** } تقديم المفعول على الفاعل للاهتمام بتعجيل ذكر المغضوب والغاضب، إيقاظا لبصائرهم لعلهم يبادرون بالتوبة، ولأنّ المجرورين متعلقان بالفعل فناسب إيلاؤهما إيّاه.

{ **أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ** } لمّا قدّم إنذارهم بغضب الله عاد إلى الاحتجاج عليهم بفساد معتقدهم، فأنكر عليهم أن يجادلوا في شأن أصنامهم.

المجادلة، المحاجة.

{ **فِي أَسْمَاءٍ** } عبر عن الأصنام بأنّها أسماء، أي هي مجرّد أسماء ليست لها الحقائق التي اعتقدوها ووضعوا لها الأسماء لأجل استحضارها. فلعلّ بعض آلهة عاد كان مجرّد اسم يذكرونه بالإلهية ولا يجعلون له تمثالا ولا نصبا، مثل ما كانت العزى عند العرب، فقد قيل: إنّهم جعلوا لها بيتا ولم يجعلوا لها نصبا، وقد قال الله تعالى في ذلك {إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} [النجم: 23]

وذكر أهل الأخبار أن عادا اتخذوا أصناما ثلاثة وهي:

صَمود، (بفتح الصاد المهملة) بوزن زبور. و**صُداء،** (بضم الصاد المهملة وبدال مهملة بعدها ألف وبعد الألف همزة). و **الهباء**. ولم أر ذكر (صُداء والهباء) فيما رأيت من كتب اللغة.

{ **سَمَّيْتُمُوهَا** } ليس المراد من التسمية في الآية وضع الإسم للمسمّى، كما يقال: سمّيت ولدي كذا، لأنّ المخاطبين وكثيرا من آبائهم لاحظ لهم في تسمية الأصنام، وإنّما ذلك من فعل بعض الآباء وهم الذين انتحلوا

الشرك واتخذوه دينا وعلّموه أبناءهم وقومهم، ولأجل هذا المعنى المقصود من التسمية لم يذكر لفعل(سمّيتم) مفعول ثان ولا متعلّق، بل اقتصر على مفعول واحد.

{ **وَآبَاؤُكُمْ** } لأن من آباءهم من وضع لهم تلك الأسماء، فالواضعون وضعوا وسمّوا، والمقلّدون سمّوا ولم يضعوا، واشتراك الفريقان في أنهم يذكرون أسماء لا مسمّيات لها.

السلطان، الحجّة التي يصدّق بها المخالف، سمّيت سلطانا لأنّها تتسلّط على نفس المعارض وتقنعه.

ونفى أن تكون الحجّة منزلة من الله، لأنّ شأن الحجّة في مثل هذا أن يكون مخبرا بها من جانب الله تعالى، لأن أمور الغيب مما استأثر الله بعلمه. وأعظم المغيبات ثبوت الإلهية لأنّه قد يقصر العقل عن إدراكها فمن شأنها أن تتلقى من قبل الوحي الإلهي.

{ **فَانْتَظِرُوا** }الفاء لتفريع هذا الإنذار والتهديد السابق، لأنّ وقوع الغضب والرجس عليهم، ومكابرتهم واحتجاجهم مما لا حجّة له، ينشأ عن ذلك التهديد بانتظار العذاب. وصيغة الأمر للتهديد مثل {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ} [فصلت: 40]. و**الانتظار** افتعال من النظر بمعنى الترقّب، كأن المخاطب أمر بالترقب فارتقب.

ومفعول: {فَانتظِرُوا} محذوف دل عليه قوله، أي فانتظروا عقابا.

{ **إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ** } وهذا مقام أدب مع الله تعالى كقوله تعالىذ، تلقينا لرسوله محمد ﷺ { وما أدري ما يفعل بي ولا بكم }. فهود يخاف أن يشمله العذاب النازل بقومه وذلك جائز كما في الحديث أنّ أم سلمة قالت: أنهلك وفينا الصالحون قال: " نعم إذا كثر الخبث " . وفي الحديث الآخر: "ثم يحشرون على نيّاتهم" .

ويجوز أن ينزل بهم العذاب ويراه هود ولكنّه لا يصيبه، وقد روي ذلك في قصّته. ويجوز أن يبعده الله، وقد روي أيضا في قصّته بأن يأمره بمبارحة ديار قومه قبل نزول العذاب.

{ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ } [72].

الفاء للتعقيب، أي فعجّل الله استئصال عاد ونجّى هودا و المؤمنين من قومه، فالمعقّب به هو قطع دابر عاد، و جرى النظم على خلاف مقتضى الظاهر للاهتمام بتعجيل الإخبار بنجاة هود ومن آمن معه، على نحو ما قرّرته في قوله تعالى {فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [64] في قصة نوح.

{ **فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ** } المعيّة هي المصاحبة في الدين، وهي معية مجازيّة. قيل إنّ الله تعالى أمر هودا ومن معه بالهجرة إلى مكّة قبل أن يحلّ العذاب بعاد، وإنّه توفي هنالك ودفن في الحجر، ولا أحسب هذا ثابتا لأنّ مكّة إنّما بناها إبراهيم، وظاهر ما في سورة هود أنّ بين عاد وإبراهيم زمنا طويلا، والأظهر أنّ النجاة كانت بالأمر بالهجرة إلى مكان بعيد عن العذاب، وروي عن علي أنّ قبر هود بحضر موت وهذا أقرب.

{ **بِرَحْمَةٍ مِنَّا** } الباء فيه للسببية، وتنكير {رَحْمَةٍ} للتعظيم، وكذلك وصفها بأنّها من الله للدلالة على كمالها. ويجوز أن تكون الباء للمصاحبة، أي فأنجيناه ورحمناه، فكانت الرحمة مصاحبة لهم إذ كانوا بمحل اللطف والرفق حيثما حلوا إلى انقضاء آجالهم، وموقع { مِنَّا } على هذا الوجه موقع رشيق جدا يؤذن بأن الرحمة غير منقطعة عنهم كقوله {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} الطور: 48]

{ **وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** } نظير قوله تعالى {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا} [الأنعام:45]. وقد أرسل عليهم الريح الدبور فأفناهم جميعا ولم يبق منهم أحد. والظاهر أنّ الذين أنجاهم الله منهم لم يكن لهم نسل. وأمّا الآية فلا تقتضي إلّا انقراض نسل الذين كذّبوا ونزل بهم العذاب.

{ **وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ** } عطف على {كَذَّبُوا} فهو من الصلة، وفائدة عطفه الإشارة إلى أنّ كلتا الصلتين موجب لقطع دابرهم؛ وهما التكذيب والإشراك، تعريضا بمشركي قريش، ولموعظتهم ذكرت هذه القصص. وقد كان ما حل بعاد من الاستئصال تطهيرا أوّل لبلاد العرب من الشرك.

{ **وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } [73].

{ **وَإِلَى ثَمُودَ** – إلى قوله - **مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } القول في تفسيرها مثل ما في قوله {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً} [65].

ثمود، أمّة عظيمة من العرب البائدة، وهم أبناء ثمود بن جاثر (بجيم ومثلثة كما في القاموس) ابن إرم بن سام بن نوح فيلتقون مع عاد في إرم، وكانت مساكنهم بالحِجْر (بكسر الحاء وسكون الجيم) بين الحجاز والشام، وهو المكان المسمّى الآن مدائن صالح وسمي في حديث غزوة تبوك: حجر ثمود.

صالح، هو ابن عَبيل (بلام في آخره وبفتح العين) ابن آسف بن ماشج أو شالخ بن عبيل بن جاثر ويقال كاثر ابن ثمود.

وثمود هنا ممنوع من الصرف لأنّ المراد به القبيلة لا جدّها. وأسماء القبائل ممنوعة من الصرف على اعتبار التأنيث مع العلمية وهو الغالب في القرآن، وقد ورد في بعض آيات القرآن مصروفا كما في قوله تعالى {أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ} [هود: 68] على اعتبار الحي فينتفي موجب منع الصرف لأنّ الاسم عربي.

{ **مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } يدلّ على أنّ ثمود كانوا مشركين، وقد صرّح بذلك في آيات سورة هود وغيرها. والظاهر أنّهم عبدوا الأصنام التي عبدتها عاد، لأنّ ثمود وعادا أبناء نسب واحد.

قال المفسرون: إنّ ثمود قامت بعد عاد فنمت وعظمت واتّسعت حضارتها، وكانوا موحّدين، ولعلّهم اتعظوا بما حلّ بعاد، ثم طالت مدّتهم ونعم عيشهم فعتوا ونسوا نعمة الله وعبدوا الأصنام، فأرسل الله إليهم صالحا رسولا يدعوهم إلى التوحيد فلم يتّبعه إلا قليل منهم مستضعفون، وعصاه سادتهم وكبراؤهم. وذكر في آية

سورة هود أنّ قومه لم يغلظوا له القول كما أغلظت قوم نوح وقوم هود لرسولهم، فقد {قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} [هود:62]. وتدلّ آيات القرآن وما فسرت به من القصص على أن صالحا أجّلهم مدّة للتأمّل وجعل الناقة لهم آية، وأنّهم تَارَكوها ولم يُهيجوها زمنا طويلا.

فقد أشعرت مجادلتهم صالحا في أمر الدين على أنّ التعقّل في المجادلة أخذ يدبّ في نفوس البشر، وأنّ علواءهم في المكابرة أخذت تقصر، وأنّ قناة بأسهم ابتدأت تلين، للفرق الواضح بين جواب قوم نوح وقوم هود، وبين جواب قوم صالح. ومن أجل ذلك أمهلهم الله لينظروا ويفكّروا فيما يدعوهم إليه نبيّهم، وليزنوا أمرهم، وجعل لهم الانكفاف عن مسّ الناقة بسوء علامة على امتداد الإمهال، لأنّ إنكفافهم ذلك علامة على أنّ نفوسهم لم تحنق على رسولهم، فرجاؤه إيمانهم مستمر، والإمهال لهم أقطع لعذرهم، وأنهض بالحجّة عليهم، فلذلك أخر الله العذاب عنهم إكراما لنبيّهم الحريص على إيمانهم بقدر الطاقة.

{ **قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ** } هي من مقول صالح في وقت غير الوقت الذي ابتدأ فيه بالدعوة، لأنّه قد طوي هنا جواب قومه وسؤالهم إيّاه آية، كما دلّت عليه آيات سورة هود وسورة الشعراء، ففي سورة هود {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا} [هود: 62]، وفي سورة الشعراء {قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ [153] مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [154] قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ } [155].

أي اعبدوه وحده لأنّه جعل لكم آية على تصديقي فيما بلّغت لكم، وعلى انفراده بالتصرّف في المخلوقات.

{ **هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً** } يقتضي أنّ الناقة كانت حاضرة عند قوله {قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ} لأنّها نفس الآية.

البيّنة، الحجّة على صدق الدّعوى، فهي ترادف الآية.

{ **لَكُمْ** } أي هي آية مقنعة لكم، ومجعولة لأجلكم.

وإضافة ناقة إلى اسم الله تعالى تشريف لها، لأنّ الله أمر بالإحسان إليها وعدم التعرّض لها بسوء، وعظّم حرمتها، كما يقال: الكعبة بيت الله. أو لأنّها وجدت بكيفيّة خارقة للعادة، كما قيل: عيسى كلمة الله.

{ **فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ** } وأمّا إضافة أَرْضِ إلى اسم الجلالة فالمقصود منه أنّ للناقة حقا في الأكل من نبات الأرض، لأنّ الأرض لله وتلك الناقة من مخلوقاته فلها الحقّ في الانتفاع بما يصلح لانتفاعها.

{ **وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ** } أي بسوء يعوقها عن الرعي إما بموت أو بجرح.

وقد جعل الله سلامة تلك الناقة علامة على سلامتهم من عذاب الاستئصال للحكمة التي قدمتها آنفا، وأنّ ما

أوصى الله به في شانها شبيه بالحرم، وشبيه بحمى الملوك، لما فيه من الدلالة على تعظيم نفوس القوم لمن تنسب إليه تلك الحرمة.

{ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ }[74]

القول فيه كالقول في قوله { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } [69].

{ وَبَوَّأَكُمْ } معناه أنزلكم، مشتق من البَوْء وهو الرجوع، لأنّ المرء يرجع إلى منزله ومسكنه، وتقدّم في سورة آل عمران { تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ } [121]

{ فِي الْأَرْضِ } يجوز أن يكون تعريف الأرض للعهد، أي في أرضكم هذه، وهي أرض الحجر، ويجوز أن يكون للجنس، لأنّه لما بوّأهم في أرض معينة فقد بوّأهم في جانب من جوانب الأرض.

السهول، جمع سهل، وهو المستوي من الأرض، وضدّه الجبل.

القصور، جمع قصر وهو المسكن، وهذا يدل على أنّهم كانوا يشيّدون القصور، وآثارهم تنطق بذلك.

النحت، بَرْي الحجر والخشب بآلة على تقدير مخصوص.

{ بُيُوتاً } انتصب على الحال من الجبال، أي صائرة بعد النحت بيوتا، كما يقال: خِطْ هذا الثوب قميصا، وابْرِ هذه القصبة قلما، لأنّ الجبل لا يكون حاله حال البيوت وقت النحت، ولكن يصير بيوتا بعد النحت.

قيل كانوا يسكنون في الصيف القصور، وفي الشتاء البيوت المنحوتة في الجبال.

{ فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } تفريع على قوله { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ } تفريع الأعمّ على الأخصّ، لأنّه أمرهم بذكر نعمتين، ثم أمرهم بذكر جميع النعم التي لا يحصونها، فكان هذا بمنزلة التذييل. وتذكّر الآلاء يبعث على الشكر والطاعة وترك الفساد، فلذلك عطف نهيهم عن الفساد في الأرض على الأمر بذكر آلاء الله.

{ وَلا تَعْثَوْا } معناه ولا تفسدوا، يقال: عَثِيَ كرَضِيَ، وهذا الأفصح، ويقال عثا يعثو عثوا. والعَثْيُ والعَثْوُ كلّه بمعنى أفسد أشدّ الإفساد.

{ مُفْسِدِينَ } حال مؤكدة لمعنى {تَعْثَوْا} .

{ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ** [75] **قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** } [76]

عدل الملأ الذين استكبروا عن مجادلة صالح عليه السلام إلى اختبار تصلّب الذين آمنوا به في إيمانهم، ومحاولة إلقاء الشكّ في نفوسهم. ولمّا كان خطابهم للمؤمنين مقصودا به إفساد دعوة صالح عليه السلام كان خطابهم بمنزلة المحاورة مع صالح عليه السلام، فلذلك فصلت جملة حكاية قولهم على طريقة فصل جمل حكاية المحاورات، كما قدّمناه غير مرة آنفا وفيما مضى.

{ **الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ** } تقدّم تفسير الملأ قريبا. ووصفهم بالذين استكبروا هنا لتفظيع كبرهم وتعاظمهم على عامة قومهم واستذلالهم إيّاهم، وللتنبيه على أنّ الذين آمنوا بما جاءهم به صالح عليه السلام هم ضعفاء قومه.

واختيار طريق الموصوليّة في وصفهم، ووصف الآخرين بالذين استضعفوا لما تومئ إليه الصلة من وجه صدور هذا الكلام منهم، أي أنّ استكبارهم هو صارفهم عن طاعة نبيهم، وأن احتقارهم المؤمنين هو الذي لم يسغ عندهم سبقهم إيّاهم إلى الخير والهدى.

{ **لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا** } هم عامة النّاس الذين أذلّهم عظماؤهم واستعبدوهم لأنّ زعامة الذين استكبروا كانت قائمة على السيادة الدنيويّة الخالية عن خلال الفضيلة؛ من العدل والرأفة وحبّ الإصلاح، فلذلك وصف الملأ بالذين استكبروا، وأطلق على العامة وصف الذين استضعفوا.

{ **لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ** } بدل من { لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا } بإعادة حرف الجر الذي جرّ بمثله المبدل منه.

{ **أَتَعْلَمُونَ** } الاستفهام للتشكيك والإنكار، أي، ما نظنّكم آمنتم بصالح عن علم بصدقه، ولكنّكم اتبعتموه عن عمى وضلال غير موقنين، وفي ذلك شَوب من الاستهزاء.

{ **قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ** } جيء في الجواب بالجملة الاسمية للدلالة على أنّ الإيمان متمكّن منهم بمزيد الثبات، فلم يتركوا للذين استكبروا مطمعا في تشكيكهم، بله صرفهم عن الإيمان برسولهم.

وأكد الخبر بحرف (**إنّ**) لإزالة ما توهّموه من شك الذين استكبروا في صحة إيمانهم.

وهذا من بليغ الإيجاز المناسب لكون نسج هذه الجملة من حكاية القرآن لا من المحكي من كلامهم إذ لا يظنّ أن كلامهم بلغ من البلاغة هذا المبلغ.

{ **إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** } تدلّ على تصلّبهم في كفرهم وثباتهم فيه، إذ صيغ كلامهم بالجملة الاسمية المؤكدة.

{ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ [77] فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } [78]

الفاء للتعقيب، لحكاية قول الذين استكبروا {إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}، وذلك أنّهم حين قالوا ذلك كانوا قد صدعوا بالتكذيب، وصمّموا عليه، وعجزوا عن المحاجة والاستدلال، فعزموا على المصير إلى النكاية والإغاظة لصالح عليه السلام ومن آمن به، ورسموا لابتداء عملهم أن يعتدوا على الناقة التي جعلها صالح عليه السلام لهم، وأقامها بيّنة.

{ **فَعَقَرُوا** } الضمير عائد إلى {الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا}، وقد أسند العقر إليهم وإن كان فاعله واحدا منهم لأنّه كان عن تمالئ ورضى من جميع الكبراء، كما دلّ عليه قوله تعالى {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}[القمر:29].

وفي حديث البخاري أنّ النبي ﷺ ذكر في خطبته الذي عقر الناقة فقال:" انبعث لها رجل عزيز عارم(جبّار) منيع في رهطه مثل أبي زمعة (هو الأسود بن المطلب القرشي مات كافرا).

العقر، حقيقته الجرح البليغ. ويطلق العقر على قطع عضو الحيوان، ومنه قولهم، عَقَرَ حمارَ وحش، أي ضربه بالرمح فقطع منه عضوا، وكانوا يعقرون البعير المراد نحره بقطع عضو منه حتى لا يستطيع الهروب عند النحر، فلذلك أطلق العقر على النحر على وجه الكناية.

العتو، تجاوز الحد في الكبر، وتعديته بـ (عن) لتضمينه معنى الإعراض.

{ **أَمْرِ رَبِّهِمْ** } ما أمرهم به على لسان صالح عليه السلام {وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ}، فعُبّر عن النهي بالأمر لأنّ النهي عن الشّيء مقصود منه الأمر بفعل ضدّه، ولذلك يقول علماء الأصول: إنّ النهي عن الشّيء يستلزم الأمر بضدّه الذي يحصل به تحقّق الكفّ عن المنهي عنه.

{ **بِمَا تَعِدُنَا** } العذاب الذي توعّدهم به مجملا.

{ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ** } معترضة بين جملة {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ} وبين جملة {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ} [79] أريد باعتراضها التعجّل بالخبر عن نفاذ الوعيد فيهم. أي لم يكن بين العقر وبين الرجفة زمن طويل، كان بينهما ثلاثة أيام، كما ورد في سورة هود {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ} [65].

الأخذ، أصله تناول شئ باليد، ويستعمل مجازا في ملك الشيء، بعلاقة اللزوم، ويستعمل أيضا في القهر كقوله {فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ} [الأنفال: 52].

ولا شك أن الله نجّى صالحا عليه السلام والذين آمنوا معه، كما في آية سورة هود. وقد روي أنّه خرج في مائة وعشرة من المؤمنين، فقيل: نزلوا رملة فلسطين، وقيل: تباعدوا عن ديار قومهم بحيث يرونها، فلمّا أخذتهم الرجفة وهلكوا عاد صالح عليه السلام ومن آمن معه فسكنوا ديارهم. ومن أهل الأنساب من يقول: إنّ

ثقيفا من بقايا ثمود، أي من ذريّة من نجا منهم من العذاب، ولم يذكر القرآن أنّ ثمودا انقطع دابرهم، فيجوز أن تكون منهم بقية.

الرجفة، اضطراب الأرض وارتجاجها، فتكون من حوادث سماوية كالرياح العاصفة والصواعق، وتكون من أسباب أرضية كالزلزال، فالرجفة اسم للحالة الحاصلة، وقد سمّاها في سورة هود بالصيحة فعلمنا أنّ الذي أصاب ثمود هو صاعقة أو صواعق متوالية رجفت أرضهم وأهلكتهم، ويحتمل أن تقارنها زلازل أرضيّة.

الجاثم، المكبّ على صدره في الأرض مع قبض ساقيه كما يجثوا الأرنب، ولمّا كان ذلك أشدّ سكونا وانقطاعا عن اضطراب الأعضاء استعمل في الآية كناية عن همود الجثّة بالموت، ويجوز أن يكون المراد تشبيه حالة وقوعهم على وجوههم حين صعقوا بحالة الجاثم تفظيعا لهيئة ميتتهم، والمعنى أنّهم أصبحوا جثثا هامدة ميّتة على أبشع منظر لميت.

{ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}[79]

التولّي، الانصراف عن فراق وغضب، ويطلق مجازا على عدم الاكتراث بالشيء، وهو هنا يحتمل أن يكون حقيقة، فيكون المراد به أنّه فارق ديار قومه حين علم أنّ العذاب نازل بهم.

ويحتمل أن يكون مجازا بقرينة الخطاب أيضا، أي فأعرض عن النظر إلى القرية بعد أصابتها بالصاعقة، أو فأعرض عن الحزن عليهم.

{ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ } تفسيره مثل تفسير قوله في قصّة نوح عليه السلام {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ } [لأعراف: 62].

{ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ } الاستدراك مستعمل في التبرؤ من التقصير في معالجة كفرهم، سواء كان بحيث هم يسمعونه أم كان قاله في نفسه.

{ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ [80] إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ } [81]

وتغيير الأسلوب في ابتداء قصّة لوط وقومه، إذ ابتدئت بذكر لوط كما ابتدئت قصة نوح بذكر نوح، لأنّه لم يكن لقوم لوط اسم يعرفون به، كما لم يكن لقوم نوح اسم يعرفون به.

وقوم لوط كانوا خليطا من الكنعانيين وممن نزل حولهم. ولذلك لم يوصف بأنّه أخوهم إذ لم يكن من قبائلهم، وإنما نزل فيهم واستوطن ديارهم. ولوط عليه السلام هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام كما تقدّم في سورة

الأنعام.

والقوم الذين أرسل إليهم لوط عليه السلام هم أهل قرية سدوم و عمورة من أرض كنعان، وربما أطلق اسم سدوم وعمورة على سكّانها. وهم أسلاف الفينيقيين وكانتا على شاطئ السديم، وهو بحر الملح، كما جاء في التوراة(الاصحاح 14 من سفر التكوين) وهو البحر الميت، المدعو بحيرة لوط بقرب أرشليم.

وكانوا قد أحدثوا فاحشة استمتاع الرجال بالرجال، فأمر الله لوطا عليه السلام لمّا نزل بقريتهم سدوم في رحلته مع عمّه إبراهيم عليه السلام أن ينهاهم ويغلظ عليهم.

{ **أَتَأْتُونَ** } الاستفهام إنكاري توبيخي، والإتيان المستفهم عنه مجاز في التلبّس والعمل، أي أتعملون الفاحشة، وهي كناية مشهورة.

الفاحشة، الفعل الدنيء الذميم، وقد تقدّم عند تفسير قوله تعالى {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً} [الأعراف: 28]. والمراد هنا فاحشة معروفة، فالتعريف للعهد.

{ **مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ** } والسبق حقيقته وصول الماشي إلى مكان مطلوب له ولغيره قبل وصول غيره، ويستعمل مجازا في التقدّم في الزمان، أي الأوّليّة والابتداء، وهو المراد هنا، والمقصود أنّهم سبقوا النّاس بهذه الفاحشة.

{ **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ** } مبيّنة لجملة {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ} ، والتأكيد بـ (إنّ واللام) كناية عن التوبيخ.

الشهوة، الرغبة في تحصيل شيء مرغوب، وهي مصدر شَهِيَ كرَضِيَ.

{ **مِنْ دُونِ النِّسَاءِ** } زيادة في التفظيع وقطع للعذر في فعل هذه الفاحشة، وليس قيدا للإنكار، فليس إتيان الرجال مع إتيان النساء بأقلّ من الآخر فظاعة، ولكن المراد أنّ إتيان الرجال كله واقع في حالة من حقها إتيان النساء، كما قال في الآية الأخرى {وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ} [الشعراء: 166].

{ **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ** } للانتقال من غرض الإنكار إلى غرض الذم والتحقير، والتنبيه إلى حقيقة حالهم.

الإسراف، مجاوزة العمل مقدار أمثاله في نوعه، أي المسرفون في الباطل والجرم، وقد تقدّم عند قوله تعالى {وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً} [النساء:6] وعند قوله تعالى {وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأنعام:141].

ووصفهم بالإسراف بطريق الجملة الاسمية الدالة على الثبات، أي أنتم قوم تمكّن منهم الإسراف في الشهوات فلذلك اشتهوا شهوة غريبة لمّا سئموا الشهوات المعتادة. وهذه شنشنة الاسترسال في الشهوات حتى يصبح المرء لا يشفي شهوته شيء، ونحوه قوله عنهم في آية أخرى {بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ} [الشعراء: 166].

ووجه تسمية هذا الفعل الشنيع فاحشة وإسرافا أنّه يشتمل على مفاسد كثيرة: منها استعمال الشهوة الحيوانية المغروزة في غير ما غرزت عليه، لأن الله خلق في الإنسان الشهوة الحيوانية لإرادة بقاء النوع بقانون التناسل، حتّى يكون الداعي إليه قهري ينساق إليه الإنسان بطبعه، فقضاء تلك الشهوة في غير الغرض الذي

وضعها الله لأجله اعتداء على الفطرة وعلى النوع، ولأنه يغيّر خصوصية الرُجلة بالنسبة إلى المفعول به، إذ يُجعل آلة لقضاء شهوة غيره على خلاف ما وضع الله في نظام الذكورة والأنوثة من قضاء الشهوتين معا، ولأنه مفض إلى قطع النسل أو تقليله، ولأنّ ذلك الفعل يجلب أضرارا للفاعل والمفعول.

وحدثت هذه الفاحشة بين المسلمين في خلافة أبي بكر من رجل يسمى (الفجَاءة)، كتب فيه خالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق أنّه عمل عمل قوم لوط، وإذ لم يحفظ عن النبي ﷺ فيها حدّ معروف جمع أبو بكر أصحاب النبي ﷺ واستشارهم فيه، فقال علي: أرى أن يحرق بالنار، فاجتمع رأي الصحابة على ذلك فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه فأحرقه، وكذلك قضى ابن الزبير في جماعة عملوا الفاحشة في زمانه، وهشام بن الوليد، وخالد القسري بالعراق، ولعله قياس على أن الله أمطر عليهم نارا كما سيأتي.

قال مالك: يرجم الفاعل والمفعول به، إذ أطاع الفاعل وكانا بالغين، رجم الزاني المحصن، سواء أحصنا أن لم يحصنا. وقاس عقوبتهم على عقوبة الله لقوم لوط إذ أمطر عليهم حجارة، والذي يؤخذ من مذهب مالك أنّه يجوز القياس على ما فعله الله تعالى في الدنيا.

قال أبو حنيفة: يعزّر فاعله ولا يبلغ التعزير حدّ الزنى، كذا عزا إليه القرطبي، والذي في كتب الحنيفة أنّ أبا حنيفة يرى فيه التعزير إلا إذا تكرر منه فيقتل، وقال أبو يوسف ومحمد: فيه حدّ الزنى، فإذا اعتاد ذلك ففيه التعزير بالإحراق، أو يهدم عليه جدار، أو ينكس من مكان مرتفع ويتبع بالأحجار، أو يسجن حتى يموت أو يتوب، وذكر الغزنوي في الحاوي أن الأصح عن أبي يوسف ومحمد التعزير بالجلد أي دون تفصيل بين الاعتياد وغيره وسياق كلامهم التسوية في العقوبة بين الفاعل والمفعول به.

قال الشافعي: يحدّ حدّ الزاني، فإن كان محصنا فحد المحصن، وإن كان غير محصن فحد غير المحصن. كذا حكاه القرطبي. وقال ابن هبيرة الحنبلي، في كتاب اختلاف الأئمة: إن للشافعي قولين: أحدهما هذا، والآخر أنه يرجم بكل حال، ولم يذكر له ترجيحا.

عن أحمد بن حنبل، كما جاء في كتاب اختلاف الأئمة لابن هبيرة الحنبلي: أن أظهر الرّوايتين عن أحمد أنّ في اللواط الرجم بكل حال، أي محصنا كان أو غير محصن، وفي رواية عنه أنّه كالزنى.

قال ابن حزم، في المحلَّى: إنّ مذهب داود وجميع أصحابه أنّ اللوطي يجلد دون الحدّ.

ولم يصرّح، فيما نقلوا عن أبي حنيفة وصاحبيه، ولا عن أحمد، ولا الشافعي بمساواة الفاعل والمفعول به في الحكم إلّا عند مالك، ويؤخذ من حكاية ابن حزم في المحلَّى: أنّ أصحاب المذاهب المختلفة في تعزير هذه الفاحشة لم يفرقوا بين الفاعل والمفعول إلّا قولا شاذا لأحد فقهاء الشافعية رأى أن المفعول أغلظ عقوبة من الفاعل.

وروى أبو داود والترمذي، عن عكرمة عن ابن عباس، والترمذي عن أبي هريرة، وقال في إسناده مقال،

عن النبي ﷺ أنّه قال: " من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به " وهو **حديث غريب** لم يرو عن غير عكرمة عن ابن عباس وقد علمت استشارة أبي بكر في هذه الجريمة، ولو كان فيها سند صحيح لظهر يومئذ.

{ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } [82]

المعنى، أنّهم أُفحموا عن ترويج شنعتهم والمجادلة في شانها، وابتدروا بالتآمر على إخراج لوط عليه السلام وأهله من القرية، لأنّ لوطا عليه السلام كان غريبا بينهم وقد أرادوا الاستراحة من إنكاره عليهم.

الجواب، الكلام الذي يقابل به كلام آخر، تقريرا أو ردا أو جزاء.

{ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } علّة للأمر بالإخراج، وذلك شأن (إنّ) إذا جاءت في مقام لا شكّ فيه ولا إنكار، بل كانت لمجرد الاهتمام، فإنّها تفيد مفاد فاء التفريع وتدلّ على الربط والتعليل.

التطهّر، تكلّف الطّهارة. وحقيقتها النظافة، وتطلق الطهارة مجازا على تزكية النفس والحذر من الرذائل وهي المراد هنا، وتلك صفة كمال، لكن القوم لما تمرّدوا على الفسوق كانوا يعُدّون الكمال منافرا لطباعهم، فلا يطيقون معاشرة أهل الكمال، ويذمّون ما لهم من الكمالات فيسمونها ثقلا، ولذا وصفوا تنزه لوط عليه السلام وآله تطهّرا، بصيغة التكلّف والتصنع.

ويجوز أن يكون حكاية لما في كلامهم من التهكّم بلوط عليه السلام وآله، وهذا من قلب الحقائق لأجل مشايعة العوائد الذميمة، وأهل المجون والانخلاع، يسمّون المتعفّف عن سيرتهم بالتائب أو نحو ذلك، فقولهم {إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} قصدوا به ذمّهم.

{ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ [83] وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } [84].

{فَأَنْجَيْنَاهُ} قدّم الخبر بإنجاء لوط عليه السلام على الخبر بإمطارهم مطر العذاب، لقصد إظهار الاهتمام بأمر إنجاء لوط عليه السلام، ولتعجيل المسرّة للسامعين من المؤمنين، فتطمئن قلوبهم لحسن عواقب أسلافهم من مؤمني الأمم الماضية، فيعلموا أنّ تلك سنة الله في عباده، وقد تقدّم بيان ذلك عند قوله تعالى { فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ} [64].

أهل لوط عليه السلام، هم زوجه وابنتان له بكران، وكان له ابنتان متزوجتان كما ورد في التوراة امتنع زوجاهما من الخروج مع لوط عليه السلام فهلكتا مع أهل القرية.

وأمّا امرأة لوط عليه السلام فقد أخبر الله عنها هنا أنّ الله لم ينجها، فهلكت مع قوم لوط.

وذكر في سورة هود ما ظاهره أنّها لم تمتثل ما أمر الله لوطا عليه السلام أن لا يلتفت هو ولا أحد من أهله الخارجين معه إلى المدن حين يصيبها العذاب فالتفتت امرأته فأصابها العذاب.

وذكر في سورة التحريم أنّ امرأة لوط عليه السلام كانت كافرة. وقال المفسرون: كانت تسرّ الكفر وتظهر الإيمان، ولعلّ ذلك سبب التفاتها لأنّها كانت غير موقنة بنزول العذاب على قوم لوط، ويحتمل أنّها لم تخرج مع لوط عليه السلام وان قوله {إِلاَّ امْرَأَتَكَ} في سورة هود [81]، استثناء من {أَهْلِكَ} لا من {أَحَدٌ} .

ولعلّ امرأة لوط عليه السلام كانت من أهل سدوم تزوّجها لوط عليه السلام هنالك بعد هجرته، فإنّه أقام في سدوم سنين طويلة بعد أن هلكت أم بناته وقبل أن يرسل، وليست هي أم بنتيه فإن التوراة لم تذكر امرأة لوط عليه السلام إلا في آخر القصة.

{ **مِنَ الْغَابِرِينَ** } من الهالكين، والغابر يطلق على المنقضي، ويطلق على الآتي، فهو من أسماء الأضداد، وأشهر إطلاقيه هو المنقضي، ولذلك يقال: غبر بمعنى هلك، وهو المراد هنا، أي هلكت مع من هلك.

الإمطار، مشتق من المطر، والمطر اسم للماء النازل من السحاب، يقال: مطرتهم السماء بدون همزة بمعنى نزل عليهم المطر، كما يقال: غاثتهم ووبلتهم، ويقال: مكان ممطور، أي أصابه المطر، ولا يقال: ممطر، ويقال أمطروا بالهمزة بمعنى نزل عليهم من الجو ما يشبه المطر، وليس هو بمطر. قال الزمخشري: قد كثر الإمطار في معنى العذاب. وعن أبي عبيدة أن التفرقة بين مطر وأمطر أن مطر للرحمة وأمطر للعذاب.

وأما قوله تعالى في سورة الأحقاف: [24] {قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا} فهو يعكر على كلتا التفرقتين، ويعين أن تكون التفرقة أغلبية.

وكان الذي أصاب قوم لوط حجرا وكبريتا من أعلى القرى كما في التوراة وكان الدخان يظهر من الأرض مثل دخان الأتون. وقد ذكر في آية أخرى، في القرآن: أنّ الله جعل عالي تلك القرى سافلا، وذلك هو الخسف وهو من آثار الزلازل.

{ **مَطَراً** } التنكيرللتعظيم والتعجيب أي: مطرا عجيبا من شانه أن يهلك القرى.

{ **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** } الأمر للإرشاد والاعتبار. والخطاب يجوز أن يكون لغير معيّن بل لكل من يتأتّى منه الاعتبار، كما هو شان إيراد التذييل بالاعتبار عقب الموعظة، لأنّ المقصود بالخطاب كلّ من قصد بالموعظة، ويجوز أن يكون الخطاب للنبي ﷺ تسلية له على ما يلاقيه من قومه، بأن لا ييأس من نصر الله، وأنّ شأن الرسل انتظار العواقب.

المجرمون، فاعلوا الجريمة، وهي المعصية والسيئة، وهذا ظاهر في أن الله عاقبهم بذلك العقاب على هذه الفاحشة، وأنّ لوطا عليه السلام أرسل لهم لنهيهم عنها، لا لأنّهم مشركون بالله، إذ لم يتعرّض له في القرآن بخلاف ما قصّ عن الأمم الأخرى، لكن تمالئهم على فعل الفاحشة واستحلالهم إيّاها يدلّ على أنّهم لم يكونوا

مؤمنين بالله. فيكون إرسال لوط عليه السلام بإنكار تلك الفاحشة ابتداء بتطهير نفوسهم، ثم يصف لهم الإيمان، إذ لا شك أنّ لوطا عليه السلام بلّغهم الرسالة عن الله تعالى، وذلك يتضمّن أنّه دعاهم إلى الإيمان، إلّا أنّ اهتمامه الأوّل كان بإبطال هذه الفاحشة، ولذلك وقع الاقتصار في إنكاره عليهم ومجادلتهم إيّاه على ما يخصّ تلك الفاحشة، وقد عُلم أنّ الله أصابهم بالعذاب، عقوبة على تلك الفاحشة، كما قال في سورة العنكبوت {إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}[34] وأنّهم لو أقلعوا عنها لترك عذابهم على الكفر إلى يوم آخر أو إلى اليوم الآخر.

{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النّاس أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [85] وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [86] وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } [87].

تفسير صدر هذه الآية هو كتفسير نظيرها في قصّة ثمود، سوى أن تجريد فعل { **قَالَ يَا قَوْمِ** } من الفاء هنا يترجّح أنّه للدلالة على أنّ كلامه هذا ليس هو الذي فاتحهم به في ابتداء رسالته بل هو مما خاطبهم به بعد أن دعاهم مرارا، وبعد أن آمن به من آمن منهم كما يأتي.

مدين، أمّة سمّيت باسم جدّها مَدْيَنَ بن إبراهيم الخليل عليه السلام، من زوجه الثالثة التي تزوّجها في آخر عمره وهي سريّة اسمها قَطُورَا. وتزوّج مدين ابنة لوط عليه السلام وولد له أبناء هم (**عيفة** و **عفر** و **حنوك** و **ابيداع** و **ألْدَعة**) وقد أسكنهم إبراهيم عليه السلام في ديارهم، وسطا بين مسكن ابنه إسماعيل عليه السلام ومسكن ابنه إسحاق عليه السلام، ومن ذريّتهم تفرعت بطون مدين، ومواطنهم بين الحجاز وخليج العقبة بقرب ساحل البحر الأحمر، وقاعدة بلادهم (وَجّ)على البحر الأحمر وتنتهي أرضهم من الشمال إلى حدود مَعان من بلاد الشام، وإلى نحو تبوك من الحجاز، وتسمى بلادهم (**الأيكة**).

ويقال أنّ الأيكة هي تبوك، فعلى هذا هي من بلاد مدين، وكانت بلادهم قرى وبوادي، وكان شعيب عليه السلام من القرية وهي الأيكة، وقد تعرّبوا بمجاورة الأمم العربيّة وكانوا في مدة شعيب عليه السلام تحت ملوك مصر، وقد اكتسبوا، بمجاورة قبائل العرب ومخالطتهم، لكونهم في طريق مصر، عربيّة، فأصبحوا في

عداد العرب المستعربة، مثل بني إسماعيل عليه السلام.

شعيب عليه السلام، هو رسول لأهل مدين، وهو من أنفسهم، اسمه في العربية شعيب عليه السلام واسمه في التوراة، يشرون ويسمى أيضا رعوئيل وهو ابن نويلى أو نويب بن رعويل بن عيفا بن مدين. وكان موسى عليه السلام لمّا خرج من مصر نزل بلاد مدين وزوّجه شعيب ابنته المسماة (**صَفورَه**) وأقام موسى عليه السلام عنده عشر سنين أجيرا.

وقد خبط في نسب مدين ونسب شعيب عليه السلام جمع عظيم من المفسّرين والمؤرخين، فما وجدت مما يخالف هذه افانبذه. وعدّ الصفدي شعيبا في العميان، ولم أقف على ذلك في الكتب المعتمدة.

{ **قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } ابتدأ الدعوة بالإيمان، لأنّ به صلاح الاعتقاد والقلب، وإزالة الزيف من العقل.

{ **قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ** } بيّنة شعيب عليه السلام التي جاءت في كلامه، يجوز أن تكون أطلقت على الآية، لمعجزة أظهرها لقومه عرفوها ولم يذكرها القرآن، كما قال ذلك المفسرون. والأظهر عندي أن يكون المراد بالبيّنة حجّة أقامها على بطلان ما هم عليه من الشرك وسوء الفعل، وعجزوا عن مجادلته فيها، فقامت عليهم الحجّة مثل المجادلة التي حكيت في سورة هود، فتكون البيّنة أطلقت على ما يبيّن صدق الدعوى، لا على خصوص خارق العادة.

أو أن يكون أراد بالبيّنة ما أشار إليه بقوله {فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا} أي يكون أنذرهم بعذاب يحلّ بهم إن لم يؤمنوا، كما في قوله {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الشعراء:187]، فيكون التعبير بالماضي {قَدْ جَاءَتْكُمْ} مرادا به المستقبل القريب، تنبيها على تحقيق وقوعه.

{ **فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ** } الفاء للتفريع على مضمون معنى { بَيِّنَةٍ } لأنّ البيّنة تدل على صدقه، فلمّا قام الدليل على صدقه وكان قد أمرهم بالتوحيد بادئ بدء، لما فيه من صلاح القلب، شرع يأمرهم بالشرائع من الأعمال بعد الإيمان، كما دلّ عليه قوله {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، فتلك دعوة لمن آمن من قومه بأن يكملوا إيمانهم بالتزام الشرائع الفرعيّة، وإبلاغ لمن لم يؤمن بما يلزمهم بعد الإيمان بالله وحده.

وفي دعوة شعيب عليه السلام قومه إلى الأعمال الفرعيّة، بعد أن استقرت الدعوة إلى التوحيد، ما يؤذن بأنّ البشر في ذلك العصر قد تطورت نفوسهم تطوّرا هيّأهم لقبول الشرائع الفرعيّة، فإنّ دعوة شعيب عليه السلام كانت أوسع من دعوة الرسل من قبله هود وصالح عليهم السلام، وقد كان عصر شعيب عليه السلام قد أظل عصر موسى عليه السلام الذي جاء بشريعة عظيمة ماسّةٍ نواحيَ الحياة كلَّها.

البخس، فسّروه بالنقص، وزاد الراغب في المفردات قيدا، فقال: نقص الشيء على سبيل الظلم، وأحسن ما رأيت في تفسيره قول أبي بكر بن العربي في أحكام القرآن: البخس في لسان العرب هو النقص بالتعييب

والتزهيد أو المخادعة عن القيمة، أو الاحتيال في التزيّد في الكيل والنقصان منه. لذلك نقول: البخس هو إنقاص شيء من صفة أو مقدار هو حقيق بكمال في نوعه. ففيه معنى الظلم والتحيّل.

فالبخس حدث يتّصف به فاعل وليس صفة للشيء المبخوس في ذاته، إلا بمعنى الوصف بالمصدر، كما قال تعالى: {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ} [يوسف: 20] أي دون قيمة أمثاله، أي تساهل بائعوه في ثمنه لأنّهم حصّلوه بغير عوض ولا كلفة.

وحاصل ما أمر به شعيب عليه السلام قومه، بعد الأمر بالتوحيد، ينحصر في ثلاثة أصول:

*/ هي حفظ حقوق المعاملة المالية، { فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ }

*/ وحفظ نظام الأمة ومصالحها، { وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا }

*/ وحفظ حقوق حرية الاستهداء، { وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ }

الأصل الأول في قوله { **فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ** } فإيفاء الكيل والميزان يرجع إلى حفظ حقوق المشترين، لأن الكائل أو الوازن هو البائع، وهو الذي يحمله حبّ الاستفضال على تطفيف الكيل أو الوزن، ليكون باع الشيء الناقص بثمن الشيء الوافي.

وأمّا النهي عن بخس النّاس أشياءهم فيرجع إلى حفظ حقوق البائع، لأنّ المشتري هو الذي يبخس شيء البائع ليهيئه لقبول الغبن في ثمن شيئه. وكلا هذين الأمرين حيلة وخداع لتحصيل ربح من المال.

الكيل، مصدر، ويطلق على ما يكال به، وهو المكيال كقوله تعالى {وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ} [يوسف: 65] وهو المراد هنا: لمقابلته بالميزان، ولقوله في الآية الأخرى {وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ} [هود: 84].

وإنّما خصّ هذين التحيلين بالأمر والنهي المذكورين، لأنّهما كانا شائعين عند مدين، ولأنّ التحيّلات في المعاملة المالية تنحصر فيهما، إذ كان التعامل بين أهل البوادي منحصرا في المبادلات بأعيان الأشياء، عرضا وطلبا.

الأصل الثاني، في قوله {**وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا**} للنهي عن كل ما يفضي إلى إفساد ما هو على حالة الصلاح في الأرض، وقد تقدّم القول في نظير هذا التركيب عند قوله تعالى {وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً} [56].

{ **ذَلِكُمْ** } الإشارة إلى مجموع ما تضمّنه كلامه، أي ذلك المذكور. والمذكور هو عبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان، وتجنّب بخس أشياء النّاس، وتجنّب الفساد في الأرض، وقد أخبر عنه بأنه خير لهم، أي نفع وصلاح تنتظم به أمورهم. وإنما كان ما ذكر خيرا لأنّه يوجب هناء العيش واستقرار الأمن وصفاء الودّ بين الأمّة وزوال الإحن المفضية إلى الخصومات والمقاتلات، فإذا تمّ ذلك كثرت الأمّة وعزت وهابها أعداؤها وحسنت أحدوثتها وكثر مالها بسبب رغبة النّاس في التجارة والزراعة لأمن صاحب المال من ابتزاز ماله،

وفيه خير الآخرة لأن ذلك إن فعلوه امتثالا لأمر الله تعالى بواسطة رسوله أكسبهم رضى الله، فنجوا من العذاب، وسكنوا دار الثواب.

{ **خَيْرٌ** } التنكير للتعظيم والكمال، لأنّه جامع خيري الدنيا والآخرة.

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } شرط مقيّد لقوله {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ}. وهو رجوع إلى الدعوة للتوحيد، بمنزلة رد العجز على الصدر في كلامه، ومعناه أنّ حصول الخير من الأشياء المشار إليها لا يكون إلّا مع الإيمان. لأنّهم إذا فعلوها وهم مشركون لم يحصل منها الخير لأنّ مفاسد الشرك تفسد ما في الأفعال من الخير، أمّا في الآخرة فظاهر، وأمّا في الدنيا فإن الشرك يدعو إلى أضداد تلك الفضائل.

الأصل الثالث، في قوله { **وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ** } وهو النهي عن التعرّض للناس دون الإيمان، أي أصلحوا أنفسكم ولا تمنعوا من يرغب في إصلاح نفسه. ذلك أنّهم كانوا يصدّون وفود النّاس عن الدخول إلى المدينة التي كان بها شعيب عليه السلام لئلا يؤمنوا به. فالمراد بالصراط الطريق الموصلة إلى لقاء شعيب عليه السلام.

القعود، مستعمل كناية عن لازمه وهو الملازمة والاستقرار، وقد تقدم عند قوله تعالى {لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [16].

{ **تُوعِدُونَ** } حال من ضمير {وَلا تَقْعُدُوا}. و**الإيعاد:** الوعد بالشر. والمقصود من الإيعاد الصدّ.

{ **مَنْ آمَنَ** } قاصد الإيمان، فالتعبير عنه بالماضي لتحقيق عزم القاصد على الإيمان، فهو لولا أنّهم يصدونه لكان قد آمن.

{ **سَبِيلِ اللَّهِ** } الدين، لأنّه مثل الطريق الموصول إلى الله، أي إلى القرب من مرضاته.

{ **تَبْغُونَهَا عِوَجاً** } تبغون لسبيل الله عوجا، إذ كانوا يزعمون أنّ ما يدعوا إليه شعيب باطل.

العِوج، (بكسر العين) عدم الاستقامة في المعاني، وعَوج (بفتح العين)، عدم استقامة الذات.

والمعنى، تحاولون ان تصفوا دعوة شعيب المستقيمة، بأنّها باطل وضلال، كمن يحاول اعوجاج عود مستقيم. وإنّما أخّر النهي عن الصدّ عن سبيل الله، بعد جملة {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} ولم يجعله في نسق الأوامر والنواهي الماضية ثم يعقبه بقوله {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ} لأنه رتب الكلام على الابتداء بالدعوة إلى التوحيد، ثم إلى الأعمال الصالحة لمناسبة أنّ الجميع فيه صلاح المخاطبين، فأعقبها ببيان أنّها خير لهم إن كانوا مؤمنين، فأعاد تنبيههم إلى الإيمان وإلى أنّه شرط في صلاح الأعمال، وبمناسبة ذكر الإيمان عاد إلى النهي عن صد الراغبين فيه.

{ **وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ** } وذكّرهم شعيب عليه السلام عقب ذلك بتكثير الله إيّاهم بعد أن كانوا قليلا، وهي نعمة عليهم، إذ صاروا أمّة بعد أن كانوا معشرا. ومعنى تكثير الله إياهم تيسيره أسباب الكثرة لهم بأن

قوّى فيهم قوة التناسل، وحفظهم من أسباب الموتان، فصاروا عددا كثيرا في زمن لا يعهد في مثله مصير أمّة إلى عددهم، فيعدّ منعهم النّاس من الدخول في دين الله سعيا في تقليل حزب الله، وذلك كفران لنعمة الله عليهم بأن كثرهم، وليقابلوا اعتبار هذه النعمة باعتبار نقمته تعالى من الذين غضب عليهم، إذ استأصلهم بعد أن كانوا كثيرا فذلك من تمايز الأشياء بأضدادها.

{ **وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** } في هذا الكلام جمع بين طريقي الترغيب والترهيب.

{ **الْمُفْسِدِينَ** } الذين أفسدوا أنفسهم بعقيدة الشرك وبأعمال الضلال، وأفسدوا المجتمع بمخالفة الشرائع، وأفسدوا النّاس بإمدادهم بالضلال وصدّهم عن الهدى. وهذا الخطاب مقصود منه الكافرون من قومه ابتداء، وفيه تذكير للمؤمنين منهم بنعمة الله. وفيه تعريض بالوعد للمسلمين وبالتسلية لهم على ما يلاقونه من مفسدي أهل الشرك، لانطباق حال الفريقين على حال الفريقين من قوم شعيب عليه السلام.

{ **وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا** }

الطَائِفَةٌ، الجماعة ذات العدد الكثير وتقدّمت عند قوله تعالى {فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ} [النساء:102]

{ **وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ** } أفاد الشرط تعليق حصول مضمون الجزاء في المستقبل. فالمعنى: إن تبيّن أنّ طائفة آمنوا وطائفة كفروا، فاصبروا حتّى يحكم الله بيننا.

الصبر، حبس النفس في حال الترقّب، سواء كان ترقّب محبوب أم ترقب مكروه، وأشهر استعماله أن يطلق على حبس النفس في حال فقدان الأمر المحبوب، وقد جاء في هذه الآية مستعملا في القدر المشترك لأنّه خوطب به الفريقان: المؤمنون والكافرون، وصبر كلّ بما يناسبه. ولعله رجح فيه حال المؤمنين، ففيه إيذان بأن الحكم المترقب هو في منفعة المؤمنين، وقد قال بعض المفسرين: إنه خطاب للمؤمنين خاصة.

{ **حَتَّى** } تفيد غاية للصّبر، وهي مؤذنة بأن التقدير: وإن كان طائفة منكم آمنوا وطائفة لم يؤمنوا فسيحكم الله بيننا، فاصبروا حتى يحكم.

وحكم الله أريد به حكم في الدنيا بإظهار أثر غضبه على أحد الفريقين ورضاء على الذين خالفوهم، فيظهر المحقّ من المبطل، وهذا صدر عن ثقة شعيب عليه السلام بأنّ الله سيحكم بينه وبين قومه، استنادا لوعد الله إيّاه بالنصر على قومه، أو لعلمه بسنة الله في رسله ومن كذّبهم، بإخبار الله تعالى إيّاه بذلك.

{ **وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** } تذييل بالثناء على الله بأنّ حكمه عدل محض، لا يحتمل الظلم عمدا ولا خطأ، وغيره من الحاكمين يقع منه أحد الأمرين أو كلاهما.

{ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ } [88]

كان جوابهم عن حجة شعيب جواب مُفحم عن الحجّة الصائر إلى الشدّة، المزدهي بالقوة المتوقع أن يكثر معاندوه، فلذلك عدلوا إلى إقصاء شعيب وأتباعه عن بلادهم خشية ظهور دعوتهم بين قومهم، وببث أتباعه دعوته بين النّاس فلذلك قالوا: {لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا}

وتفسير صدر الآية هو كتفسير نظيره من قصة ثمود.

{ **قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ** } وإيثار وصفهم بالاستكبار هنا دون الكفر، مع أنّه لم يحك عنهم هنا خطاب المستضعفين، حتّى يكون ذكر الاستكبار، إشارة إلى أنّهم استضعفوا المؤمنين كما اقتضته قصّة ثمود، فاختير وصف الاستكبار هنا لمناسبة مخاطبتهم شعيبا بالإخراج أو الإكراه على اتّباع دينهم، وذلك من فعل الجبّارين أصحاب القوة.

{ **لَنُخْرِجَنَّكَ** } وكان إخراج المغضوب عليه من ديار قبيلته عقوبة متّبعة في العرب إذا أجمعت القبيلة على ذلك ويسمى هذا الإخراج عند العرب بالخلع. وأكّدوا التوعّد بلام القسم ونون التوكيد، ليوقن شعيب بأنّهم منجزو ذلك الوعيد.

{ **يَا شُعَيْبُ** } وخطابهم إيّاه بالنداء جار على طريقة خطاب الغضب، كما حكى الله قول آزر خطابا لإبراهيم عليه السلام {أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ} [مريم: 46]

القرية، المدينة لأنها يجتمع بها السكان. والتقرّي: الاجتماع. وقد تقدم عند قوله تعالى {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ} [البقرة: 259]، والمراد بقريتهم هنا هي **الأيكة**، وهي تبوك.

{ **أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا** } وقد رددوا أمر شعيب ومن معه بين أن يخرجوا من القرية وبين العود إلى ملة الكفر. والتوكيد مؤذن بأنّهم إن أبوا الخروج من القرية فإنّهم يُكرهون على العود إلى ملّة القوم، كما دلّ عليه قول شعيب في جوابهم {أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} ولما كان المقام للتوعّد والتهديد كان ذكر الإخراج من أرضهم أهم، فلذلك قدّموا القسم عليه ثم أعقبوه بالمعطوف بحرف (أو).

العَوْد: الرجوع إلى ما كان فيه المرء من مكان أو عمل، وجعلوا موافقة شعيب إيّاهم على الكفر عودا لأنّهم يحسبون شعيبا كان على دينهم. وشأن الذين أرادهم الله للنبوءة أن يكونوا غير مشاركين لأهل الضلال من قومهم ولكنّهم يكونون قبل أن يوحى إليهم في حالة خلو عن الإيمان حتى يهديهم الله إليه تدريجا، وقومهم لا يعلمون باطنهم فلا حيرة في تسمية قومه موافقته إياهم عودا.

وهذا بناء على أنّ الأنبياء معصومون من الشرك قبل النبوّة، وذلك قول جميع المتكلمين من المسلمين، وقد نبّه على ذلك عياض في الشفاء في القسم الثالث وأورد قول شعيب{إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ} [89] وتأوّل العود بأنّه المصير، وذلك تأويل كثير من المفسرين لهذه الآية. ودليل العصمة من هذا هو كمالهم، والدليل مبني على أن خلاف الكمال قبل الوحي يعد نقصا، وليس في الشريعة دليل قاطع على ذلك.

وقد تولى شعيب الجواب عمن معه من المؤمنين ليقينه بصدق إيمانهم.

الملة، الدين، وقد تقدم في قوله تعالى {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} [البقرة:130].

{ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ } [89]

{ **قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ** } الاستفهام مستعمل في التعجيب تعجبا من قولهم {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} المؤذن ما فيه من المؤكّدات بأنّهم يُكرهونهم على المصير إلى ملّة الكفر، وذلك التعجّب تمهيد لبيان تصميمه ومن معه على الإيمان، ليعلم قومه أنّه أحاط خبرا بما أرادوا من تخييره والمؤمنين معه بين الأمرين: الإخراج أو الرجوع إلى ملّة الكفر.

الكاره، مشتقّ من كَرِهَ الذي مصدره الكَرْه (بفتح الكاف وسكون الراء) وهو ضدّ المحبّة، فكاره الشيء لا يدانيه إلا مغصوبا، ويقال للغصب إكراه، وتقدّم في قوله {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ} [البقرة:216]

{ **قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا** } واستأنف مرتقيا في الجواب، فبيّن استحالة عودهم إلى ملّة الكفر، بأنّ العود إليها يستلزم كذبه فيما بلّغه عن الله تعالى من إرساله إليهم بالتوحيد، ويستلزم كذب الذين آمنوا به على الله، حيث أيقنوا بأنّ شعيبا مبعوث من الله بما دلّهم على ذلك من الدلائل، ولذلك جاء بضمير المتكلّم المشارك في كل من قوله {افْتَرَيْنَا} و {عُدْنَا} و {نَجَّانَا} و {نَعُودَ} و {رَبُّنَا} و{تَوَكَّلْنَا}.

والربط بين الشرط وجوابه ربط التبيين والانكشاف، أي إن يقع عودنا في ملّتكم فقد تبيّن أنّنا افترينا على الله كذبا، فالماضي في قوله {افْتَرَيْنَا} ماض حقيقي كما يقتضيه دخول {قَدِ} عليه.

{ **بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا** } بعد إذ هدانا الله للدين الحقّ الذي اتّبعناه بالوحي فنجّانا من الكفر، فذكر هذا الإنجاء لدلالته على الاهتداء والإعلان بأنّ مفارقة الكفر نجاة، فيكون في الكلام إيجاز حذف أو كناية.

{ **بَعْدَ** } وهذه البعديّة يقصد منها تفظيع هذا العود وتأييس الكافرين من عود شعيب وأتباعه إلى ملّة الكفر.

{ **وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا** } أي لأنّ ذلك لا يقصده العاقل فيلقى نفسه في الظلال والتعرّض للعذاب.

فنفى العود نفيا مؤكّدا بلام الجحود. وقد تقدم بيان تأكيد النفي بلام الجحود في قوله تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ} [آل عمران:79].

{ **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا** } تأدّب مع الله وتفويض أمر المؤمنين إليه، أي، إلّا أن يقدّر الله لنا العود في ملّتكم فإنه لا يُسأل عمّا يفعل. وهو يستلزم تقييد الدوام على الإيمان بمشيئة الله، لأنّ عدم العود إلى الكفر مساو

للثبات على الإيمان، وهو تقييد مقصود منه التأدّب وتفويض العلم بالمستقبل إلى الله، والكناية عن سؤال الدوام على الإيمان من الله تعالى كقوله {رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا} [آل عمران: 8].

ومن هنا يُستدل لقولّ الأشعري وجماعة على رأسهم محمد بن عبدوس الفقيه المالكي الجليل أنّ المسلم يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، لا يعلم ما يختم له بعد، ويضعف قول الماتريدي وطائفة من علماء القيروان على رأسهم محمد بن سحنون أن المسلم لا يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، لأنّه متحقّق أنّه مؤمن فلا يقول كلمة تنبئ عن الشك في إيمانه.

وقد تطاير شرر الخلاف بين ابن عبدوس وأصحابه من جهة، وابن سحنون وأصحابه من جهة، في القيروان زمانا طويلا ورمى كل فريق الفريق الآخر بما لا يليق بهما، وكان أصحاب ابن سحنون يدعون ابن عبدوس وأصحابه الشكوكية وتلقفت العامة بالقيروان هذا الخلاف على غير فهم فربما اجترأوا على ابن عبدوس وأصحابه اجتراء وافتراء، كما ذكره مفصلا عياض في المدارك في ترجمة محمد ابن سحنون، وترجمة ابن النبّان، والذي حققه الشيخ أبو محمد بن أبي زيد وعياض أن الخلاف لفظي: فإن كان يقول: إن شاء الله، وسريرته في الإيمان مثل علانيته فلا بأس بذلك، وإن كان شكا فهو شك في الإيمان، وليس ذلك ما يريده ابن عبدوس، وقد قال المحقّقون: أن الخلاف بين الأشعري والماتريدي في هذه المسألة من الخلاف اللفظي، كما حققه تاج الدين السبكي في منظومته النونية، وتبعه تلميذه نور الدين الشيرازي في شرحه.

{ **وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً** } تفويض لعلم الله، أي إلّا أن يشاء ذلك، فهو أعلم بمراده منّا.

السعة، مستعملة مجازا في الإحاطة بكل شئ، لأنّ الشيء الواسع يكون أكثر إحاطة.

وفي هذه المجادلة إدماج تعليم صفات الله لأتباعه وغيرهم على عادة الخطباء في انتهاز الفرصة.

{ **عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ** } ثم أخبر بأنّه ومن تبعه قد توكّلوا على الله.

التوكّل، تفويض مباشرة صلاح المرء إلى غيره، وتقدم عند قوله { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران :159]، وهذا تفويض يقتضي طلب الخير، أي، رجونا أن لا يسلبنا الإيمان الحقّ، ورجونا أن يكفينا شرّ من يضمر لنا شرا، وهو الفتنة بالإخراج، وفي الدين بالإكراه على اتباع الكفر.

{ **رَبَّنَا افْتَحْ** } فسروا الفتح هنا بالقضاء والحكم وقالوا: هو لغة أزد عمان من اليمن، أي احكم بيننا وبينهم، وهي مأخوذة من الفتح بمعنى النصر، لأنّ العرب كانوا لا يتحاكمون لغير السيف، ويحسبون أن النصر حكم الله للغالب على المغلوب.

{ **وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** } أي وأنت خير الناصرين، وخير الحاكمين هو أفضل أهل هذا الوصف، وهو الذي يتحقّق فيه كمال هذا الوصف فيما يقصد منه، وفي فائدته بحيث لا يشتبه عليه الحق بالباطل ولا تروج عليه الترهات.

{ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ [90] فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ [91] الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ } [92].

قول أنف وجه فيه الملأ خطابهم إلى عامة قومهم الباقين على الكفر تحذيرا لهم من اتباع شعيب خشية عليهم من أن تحيك في نفوسهم دعوة شعيب وصدق مجادلته، فلمّا رأوا حجّته ساطعة ولم يستطيعوا الفلج عليه في المجادلة، وصمّموا على كفرهم، أقبلوا على خطاب الحاضرين من قومهم ليحذّروهم من متابعة شعيب ويهددوهم بالخسارة.

{ **الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا** } ووصفهم بالكفر لمناسبة الكلام المحكي عنهم، الدال على تصلّبهم في كفرهم، كما وصفوا في الآية السابقة بالاستكبار لمناسبة حال مجادلتهم شعيبا، فحصل من الآيتين أنهم مستكبرون كافرون.

{ **لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً** } المخاطب هم عامة قوم شعيب الباقين على الكفر. و(اللام) موطِّئة للقسم.

{ **إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ** } جواب القسم. والخسران تقدّم عند قوله تعالى {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ} [الأنعام :40]. وهو مستعار لحصول الضرّ، والمراد به هنا التحذير من أضرار تحصل لهم في الدنيا من جراء غضب آلهتهم عليهم.

{ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** } تقدّم تفسيرها في نظيرها من قصة ثمود.

والرجفة التي أصابت أهل مدين هي صواعق خرجت من ظلّة، وهي السحابة، قال تعالى {فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} [الشعراء:189]. ، وقد عبّر عن الرجفة في سورة هود بالصيحة، والأظهر أن يكون أصابهم زلزال وصواعق، فتكون الرجفة الزلزال والصيحة الصاعقة كما يدل عليه قوله {كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا }.

{ **الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً** } مستأنفة ابتدائية، والتعريف بالموصولية للإيماء إلى وجه بناء الخبر، وهو أنّ اضمحلالهم وانقطاع دابرهم كان جزاء لهم على تكذيبهم شعيبا.

{ **كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا** } تشبيه حالة استئصالهم وعفاء آثارهم بحال من لم تسبق لهم حياة. يقال: **غَنِيَ** بالمكان كرضي، أقام، ولذلك سمّي مكان القوم مغنى. وابن عطيّة يُرجّح أن يكون أصابهم زلزال مع الصواعق بحيث احترقت أجسادهم وخُسف لهم في الأرض وانقلبت ديارهم في باطن الأرض ولم يبق شيء، أو بقي شيء قليل. فهذا هو وجه التشبيه، وليس وجه التشبيه حالة موتهم، لأن ذلك حاصل في كل ميت ولا يختص بأمثال مدين، وهذا مثل قوله تعالى {فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ} [الحاقة:8]

{ **الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ** } والتكرير للتعديد، وإيقاظ السامعين، وهم مشركو العرب، ليتّقوا عاقبة أمثالهم في الشرك والتكذيب على طريقة التعريض.

{ **كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ** } ضمير الفصل يفيد القصر وهو قصر إضافي، أي دون الذين اتبعوا شعيبا، وذلك لإظهار سفه قول الملأ للعامة {لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ} توقيفا للمعتبرين بهم على تهافت أقوالهم وسفاهة رأيهم، وتحذيرا لأمثالهم من الوقوع في ذلك الضلال.

{ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ}[93]

تقدّم تفسير نظير هذه الآية إلى قوله {وَنَصَحْتُ لَكُمْ} من قصة ثمود. وتقدّم وجه التعبير بـ {رِسَالاتِ} بصيغة الجمع في نظيرها من قصة قوم نوح.

{ **وَقَالَ يَا قَوْمِ** } ونداؤه قومه نداء تحسّر وتبرئ من عملهم، وهو مثل قول النبي ﷺ بعد وقعة بدر. حين وقف على القليب الذي ألقي فيه قتلى المشركين فناداهم بأسماء صناديدهم ثم قال: " لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ".

{ **فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ** } جاء بالاستفهام الإنكاري مخاطبا نفسه على طريقة التجريد، إذ خطر له خاطر الحزن عليهم فدفعه عن نفسه بأنّهم لا يستحقّون أن يؤسف عليهم لأنّهم اختاروا ذلك لأنفسهم.

الأسى، شدّة الحزن، وفعله كرضي، و(آسى) مضارع مفتتح بهمزة التكلّم، فاجتمع همزتان.

وقد نجّى الله شعيبا ممّا حل بقومه بأن فارق ديار العذاب. قيل: إنّه خرج مع من آمن به إلى مكّة واستقروا بها إلى أن توفّوا، والأظهر أنّهم سكنوا محلّة خاصة بهم في بلدهم رفع الله عنها العذاب، فانّ بقية مدين لم يزالوا بأرضهم، وقد ذكرت التوراة أنّ شعيبا كان بأرض قومه حينما مرت بنو إسرائيل على ديارهم في خروجهم من مصر.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ [94] ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [95]

عطف الأعمّ على الأخصّ، لأنّ ما ذُكر من القصص ابتداء من قوله تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ} [59] كلّه القصد منه العبرة بالأمم الخالية، موعظة لكفّار العرب، فلمّا تلا عليهم قصص خمس أمم جاء الآن بحكم كلّي يعمّ سائر الأمم المكذّبة على طريقة قياس التمثيل، أو قياس الاستقراء الناقص، وهو أشهر قياس يسلك

في المقامات الخطابية، وهذه الجمل إلى قوله {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى} [103] كالمعترضة بين القصص، للتنبيه على موقع الموعظة، وذلك هو المقصود من تلك القصص، فهو اعتراض ببيان المقصود من الكلام وهذا كثير الوقوع في اعتراض الكلام.

{ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ** }عدّي بـ (في) دون (إلى) لأنّ المراد بالقرية حقيقتها، وهي لا يرسل إليها وإنما يرسل فيها إلى أهلها، فالتقدير: وما أرسلنا في قرية من نبي إلى أهلها إلّا أخذنا أهلها.

{ **مِنْ نَبِيٍّ** } للتنصيص على العموم المستفاد من وقوع النكرة في سياق النفي.

وتخصيص القرى بإرسال الرّسل فيها دون البوادي كما أشارت إليه هذه الآية وغيرها من آي القرآن، وشهد به تاريخ الأديان، ينبئ أنّ مراد الله تعالى من إرسال الرّسل هو بثّ الصلاح لأصحاب الحضارة التي يتطرّق إليها الخلل بسبب اجتماع الأصناف المختلفة، وأنّ أهل البوادي لا يخلون عن الانحياز إلى القرى، والإيواء في حاجاتهم المدنيّة إلى القرى القريبة. فأمّا مجيء نبي غير رسول لأهل البوادي فقد جاء خالد بن سنان نبيّا في بني عبس، وأمّا حنظلة بن صفوان نبي أهل الرسّ فالأظهر أنّه رسول لأنّ الله ذكر أهل الرس في عداد الأمم المكذّبة. وقد قيل: إنه ظهر بقرية الرسّ التي تسمّى أيضا، (**فتح** بالمهملة أو **فتَخ** بالمعجمة أو **فَيْج** بتحتية وجيم أو **فلْج** بلام وجيم) من اليمامة.

{ **إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا** } والاستثناء مفرغ من أحوال، أي ما أرسلنا نبيّا في قرية في حال من الأحوال إلّا في حال أننا أخذنا أهلها بالبأساء، وقد وقع في الكلام إيجاز حذف دلّ عليه قوله {لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ} فإنّه يدل على أنّهم لم يضرّعوا قبل الأخذ بالبأساء والضراء. فالتقدير: وما أرسلنا في قرية من نبي إلّا كذّبه أهل القرية فخوفناهم لعلهم يذلّون لله ويتركون العناد.

الأخذ، هنا مجاز في التناول والإصابة بالمكروه الذي لا يستطاع دفعه، وهو معنى الغلبة، كما تقدّم في قوله تعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ } [الأنعام:42]

{ **بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ** } تقدم ما يفسّرها في قوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ} في سورة الأنعام. أي ابتدأناهم بالتخويف والمصائب لتَفُلّ من حدّتهم وتصرف تأمّلهم إلى تطلّب أسباب المصائب فيعلموا أنّها من غضب الله عليهم فيتوبوا.

التبديل، التعويض. أي بدلناهم حسنة في مكان السيّئة.

{ **حَتَّى عَفَوْا** } كثروا. يقال: عفا النبات، اذا كثر ونما.

{ **وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ** } **السراء**، النعمة ورخاء العيش، وهي ضدّ الضراء.

والمعنى أنّا نأخذهم بما يغيّر حالهم التي كانوا فيها من رخاء وصحّة عسى أن يعلموا أن سلب النعمة عنهم أمارة على غضب الله عليهم من جرّاء تكذيبهم رسولهم فلا يهتدون، ثم نردّهم إلى حالتهم الأولى إمهالا لهم

واستدراجا فيزدادون ضلالا، فإذا رأوا ذلك تعلّلوا لما أصابهم من البؤس والضرّ بأنّ ذلك التغيير إنّما هو عارض من عوارض الزمان وأنّه قد أصاب أسلافهم من قبلهم ولم يجئهم رسل.
وهذه عادة الله في تنبيه عباده فإنّه يحبّ منهم التوسّم في الأشياء والاستدلال بالعقل والنظر بالمسببات على الأسباب كما قال تعالى {أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ} [التوبة:126] لأن الله لمّا وهب الانسان العقل فقد أحبّ منه أن يستعمله فيما يبلغ به الكمال ويقيه الضلال.
وظاهر الآية أنّ هذا القول صادر بألسنتهم وهو يكون دائرا فيما بعضهم بعض في مجادلتهم لرسلهم حينما يعظونهم بما حلّ بهم ويدعوهم إلى التوبة والإيمان ليكشف عنهما الضر. ويجوز أن يكون هذا القول أيضا: يجيش في نفوسهم ليدفعوا بذلك ما يخطر ببالهم من توقّع أن يكون ذلك الضر عقابا من الله تعالى.
وحاصل ما دفعوا به دلالة الضراء على غضب الله أن مثل ذلك قد حل بآبائهم الذين لم يدعهم رسول إلى توحيد الله.
{ **فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** } الفاء للتعقيب عن قوله {عفوا} {وَقَالُوا} باعتبار كونهما غاية لإبدال الحسنة مكان السيئة، ولا إشعار فيه بأنّ قولهم ذلك هو سبب أخذهم بغتة، ولكنّه دلّ على إصرارهم، أي: فحصل أخذنا إيّاهم عقب تحسّن حالهم وبطرهم النعمة.
والأخذ هنا بمعنى الإهلاك كما في قوله تعالى { أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ } [الأنعام [44].
البغتة، الفجْأة، وتقدّمت عند قوله تعالى {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً} [الأنعام: 31].
{ **وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** } حال مؤكّدة لمعنى { بَغْتَةً }

{ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [96] أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ [97] أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ [98] أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } [99].

أي لو أنّ أهل تلك القرى المهلَكة آمنوا بما جاءهم به رسولهم واتقوا ربّهم لما أصبناهم بالبأساء ولأحييناهم حياة البركة. وشرط (لو) الامتناعية يحصل في الزمن الماضي. والمعنى: لو حصل إيمانهم فيما مضى لفتحنا عليهم بركات.
التقوى، هي تقوى الله بالوقوف عند حدوده وذلك بعد الإيمان.
وفي الآية تعريض بإنذار الذين كذّبوا محمدا ﷺ من أهل مكّة، وتعريض ببشارة أهل القرى الذين يؤمنون كأهل المدينة، وقد مضى في صدر تفسير هذه السورة ما يقرب أنّها من آخر ما نزل بمكّة، وقيل، إن آيات منها

نزلت بالمدينة كما تقدّم، وبذلك يظهر موقع التعريض بالنذارة والبشارة للفريقين من أهل القرى.

الفتح، الفتح هنا استعارة للتمكين، كما تقدّم في قوله تعالى {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام:44]. وتعدية فعل الفتح إلى البركات هنا استعارة مكنية بتشبيه البركات بالبيوت في الانتفاع بما تحتويه. فهنا استعارتان مكنية وتبعية.

البركات، جمع بركة، والمقصود من الجمع تعدّدها، باعتبار تعدد أصناف الأشياء المباركة. وتقدّم تفسيرها عند قوله تعالى {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} [الأنعام:92]. وجماع معناها هو الخير الصالح الذي لا تبعة عليه في الآخرة. فهو أحسن أحوال النعمة. ولذلك عبّر في جانب المغضوب عليهم المستدرجين بلفظ {الْحَسَنَةَ} بصيغة الإفراد في قوله {مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ} [95]، وفي جانب المؤمنين بالبركات مجموعة.

{ **مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** } مراد به حقيقته. لأنّ ما يناله النّاس من الخيرات الدنيوية لا يعدو أن يكون ناشئا من الأرض، وذلك معظم المنافع. أو من السماء، مثل ماء المطر وشعاع الشمس وضوء القمر والنجوم والهواء والرياح الصالحة.

{ **وَلَكِنْ كَذَّبُوا** } استثناء لنقيض شرط (لو) فإنّ التكذيب هو عدم الإيمان فهو قياس استثنائي.

{ **فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } متسبّبة على جملة {وَلَكِنْ كَذَّبُوا} وهو مثل نتيجة القياس. لأنّه مساوي نقيض التالي، لأنّ أخذهم بما كسبوا فيه عدم فتح البركات عليهم. والمراد بالأخذ هنا الاستئصال.

والباء للسببيّة أي بسبب ما كسبوه من الكفر والعصيان.

{ **أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى** } الفاء عاطفة، أفادت الترتّب الذكري. فانّه لمّا ذكر من أحوال جميعهم ما هو مثار التعجيب من حالهم أعقبه بما يدلّ عليه معطوفا بفاء الترتّب. ومحلّ التعجيب هو تواطؤهم على هذا الغرور. أي يترتّب على حكاية تكذيبهم وأخذهم استفهام التعجيب من غرورهم وأمنهم غضب القادر العليم.

وقد تقدّم الكلام على مثل هذا التركيب عند قوله تعالى {أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ} [البقرة:87]

{ **يَأْتِيَهُمُ** } جيء بصيغة المضارع لأنّ المراد حكاية أمنهم الذي مضى من إتيان بأس الله في مستقبل ذلك الوقت.

{ **أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ** }

قرأه نافع، وابن كثير. وابن عامر، وأبو جعفر بسكون الواو على أنه عطف بحرف (أو) الذي هو لأحد الشيئين عطفا على التعجيب، أي: هو تعجيب من أحد الحالين. وقرأه الباقون بفتح الواو على أنه عطف بالواو مقدّمة عليه همزة الاستفهام، فهو عطف استفهام ثان بالواو المفيدة للجمع، فيكون كلا الاستفهامين مدخولا لفاء التعقيب، على قول جمهور النحاة. وأمّا على رأي الزمخشري فيتعين أن تكون الواو للتقسيم، أي تقسيم الاستفهام إلى استفهامين.

{ **بَيَاتاً** } تقدّم معناه ووجه نصبه عند قوله تعالى {وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً}[4]

الضُحى، (بالضم مع القصر) هو في الأصل اسم لضوء الشمس إذا أشرق وارتفع، وفسّره الفقهاء بأن ترتفع الشمس قيد رمح، ويرادفه الضحوة والضّحْوُ. والضحى يذكّر ويؤنّث، وشاع التوقيت به عند العرب ومن قبلهم، قال تعالى حكاية عن موسى {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النّاس ضُحىً} [طه:59].

وتقييد التعجيب من أمنهم مجيء البأس، بوقتي البيات والضحى، لأنّهما وقتان للدعة، فالبيات للنوم بعد الفراغ من الشغل. والضحى للعب قبل استقبال الشغل، فكان شأن أولي النهى المعرضين عن دعوة رسل الله أن لا يأمنوا عذابه، بخاصة في هذين الوقتين والحالين.

{ **أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ** } تكرير لقوله {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى} قصد منه تقرير التعجيب من غفلتهم، وتقرير معنى التعريض بالسامعين من المشركين. مع زيادة التذكير بأنّ ما حلّ بأولئك من عذاب الله يماثل هيئة مكر الماكر بالممكور فلا يحسبوا الإمهال إعراضا عنهم، وليحذروا أن يكون ذلك كفعل الماكر بعدوّه.

المكر، حقيقته فعل يقصد به ضرّ أحد في هيئة تخفى أو هيئة يحسبها منفعة. وهو هنا استعارة للإمهال والإنعام في حال الإمهال، فهي تمثيليّة، شبّه حال الإنعام مع الإمهال وتعقيبه بالانتقام بحال المكر، وتقدّم عند قوله تعالى {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ }[آل عمران:54]

{ **فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** } مترتّب ومتفرّع عن التعجيب في قوله {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ}، لأنّ المقصود منه تفريع أنّ أهل القرى المذكورين خاسرون لثبوت أنّهم أمنوا مكر الله.

وإنما صيغ هذا التفريع بصيغة تعمّ المخبر عنهم وغيرهم، ليجري مجرى المثل ويصير تذييلا للكلام، ويدخل فيه المعرّض بهم في هذه الموعظة وهم المشركون الحاضرون.

الخسران هنا هو إضاعة ما فيه نفعهم بسوء اعتقادهم، شبه ذلك بالخسران، وهو إضاعة التاجر رأس ماله بسوء تصرّفه، لأنّهم باطمئنانهم إلى السلامة الحاضرة، وإعراضهم عن التفكّر فيما يعقبها من الأخذ الشبيه بفعل الماكر، قد خسروا الانتفاع بعقولهم وخسروا أنفسهم.

واعلم أن المراد بأمن مكر الله في هذه الآية هو الأمن الذي من نوع أمن أهل القرى المكذّبين، وهو الأمن الناشئ عن تكذيب خبر الرّسول، وعن الغرور بأنّ دين الشرك هو الحقّ، فهو أمن ناشئ عن كفر. والمأمون منه هو وعيد الرسل إيّاهم وما أطلق عليه أنّه مكر الله.

{ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ }[100]

عطفت على جملة {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى} [97] لاشتراك مضمون الجملتين في الاستفهام التعجيبي، فانتقل عن التعجيب من حال الذين مضوا إلى التعجيب من حال الأمّة الحاضرة، وهي الأمّة العربية الذين ورثوا ديار الأمم الماضية فسكنوها، مثل(**أهل نجران**، و**أهل اليمن**)، ومن سكنوا ديار ثمود مثل (**بليّ**، و**كعب**، و**الضجاغم**، و**بهراء**)، ومن سكنوا ديار مدين مثل (**جُهيْنة**، و**جَرْم**)، وكذلك من صاروا قبائل عظيمة فنالوا السيادة على القبائل مثل (**قريش**، و**طَي**، و**تميم**، و**هُذَيْل**).

وقد يقصد بالذين يرثون الأرض كل أمّة خلفت أمة قبلها.

{ **أَوَلَمْ يَهْدِ** } الاستفهام مستعمل في التعجيب، مثل الذي في قوله {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى} [97]، تعجيبا من شدّة ضلالتهم، إذ عدموا الاهتداء والاتعاظ بحال من قبلهم من الأمم، ونسوا أنّ الله قادر على استئصالهم إذا شاء.

الإرث، مصير مال الميّت إلى من هو أولى به، ويطلق مجازا على مماثلة الحيّ ميّتا في صفات كانت له، من عزّة وسيادة، كما فسّر به قوله تعالى حكاية عن زكرياء {فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي} [مريم: 5، 6] أي يخلفني في النبوءة، وقد يطلق على القدر المشترك بين المعنيين. وهو مطلق خلافة المنقرض، وهو هنا محتمل للإطلاقين، لأنّه إن أريد بالكلام أهل مكّة فالإرث بمعناه المجازي، وإن أريد أهل مكّة والقبائل التي سكنت بلاد الأمم الماضية فهو مستعمل في القدر المشترك.

والمراد تذكير السامعين بما كان فيه أهل الأرض الموروثة من بحبوحة العيش، ثم ما صاروا إليه من الهلاك الشامل العاجل، تصويرا للموعظة بأعظم صورة، فهو كقوله تعالى {وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: 129].

الهداية، أصلها تبيين الطريق للسائر، واشتهر استعمالهم في مطلق الإرشاد مجازا أو استعارة، كقوله تعالى {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة:6] وتقدّم أن فعلها يتعدّى إلى مفعولين، وأنّه يتعدى إلى الأول منهما بنفسه وإلى الثاني تارة بنفسه وأخرى بالحرف؛ بـ (اللام) أو(إلى)، فلذلك كانت تعديته إلى المفعول الأوّل باللام في هذه الآية إما لتضمينه معنى يبين، وإما لتقوية تعلق معنى الفعل بالمفعول.

{ **أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ** } وهؤلاء هم الذين أشركوا بالله وكذّبوا محمدا ﷺ.

الإصابة، نوال الشيء المطلوب بتمكن فيه، فالمعنى، أن نأخذهم أخذا لا يفلتون منه. والباء في {بِذُنُوبِهِمْ} للسببية، وليست لتعدية فعل {أَصَبْنَاهُمْ }.

انتفى أخذنا إيّاهم في الماضي بذنوب تكذيبهم، لأجل انتفاء مشيئتنا ذلك، لحكمة إمهالهم لا لكونهم أعزّ من الأمم البائدة أو أفضل حالا منهم. وفي هذا تهديد بأنّ الله قد يصيبهم بذنوبهم في المستقبل، إذ لا يصدّه عن ذلك غالب. والمعنى: أغرّهم تأخّر العذاب مع تكذيبهم فحسبوا أنفسهم في منعة منه، ولم يهتدوا إلى أنّ انتفاء نزوله بهم معلّق على انتفاء مشيئتنا وقوعه لحكمة.

{ **وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ** } ليست معطوفة على جملة {أَصَبْنَاهُمْ} حتّى تكون في حكم جواب (لو) لأنّ هذا يفسد المعنى، فإن هؤلاء الذين ورثوا الأرض من بعد أهلها فقد طبع على قلوبهم فلذلك لم تجد فيهم دعوة محمد ﷺ منذ بُعث إلى زمن نزول هذه السورة، فلو كان جوابا لـ (لو) لصار الطبع على قلوبهم ممتنعا وهذا فاسد.

فتعيّن، إمّا أن تكون جملة { وَنَطْبَعُ } معطوفة على جملة الاستفهام برمّتها فلها حكمها من العطف على أخبار الأمم الماضية والحاضرة. والتقدير: وطبعنا على قلوبهم، ولكنّه صيغ بصيغة المضارع للدلالة على استمرار هذا الطبع وازدياده آنا فآنا.

وإمّا أن تُجعل (الواو) للاستئناف والجملة مستأنفة، أي: ونحن نطبع على قلوبهم في المستقبل كما طبعنا عليها في الماضي. ويعرف الطبع عليها في الماضي بأخبار أخرى، فتكون الجملة تذييلا لتنهية القصّة.

ولكن موقع (الواو) في أوّل الجملة يرجّح الوجه الأوّل.

وتقدم معنى الطبع عند قوله تعالى {بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} [النساء:155].

{ **فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ** } معطوفة بالفاء على {وَنَطْبَعُ} متفرّعا عليه، والمراد بالسماع، فهم مغزى المسموعات لا استكاك الآذان، بقرينة قوله {وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ}.

{ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ [101] وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ } [102].

{ **تِلْكَ الْقُرَى** } لمّا تكرّر ذكر القرى التي كذّب أهلها رسل الله بالتعيين وبالتعميم، صارت للسامعين كالحاضرة المشاهدة الصالحة لأن يشار إليها، فجاء اسم الإشارة لزيادة إحضارها في أذهان السامعين من قوم محمد ﷺ، ليعتبروا حالهم بحال أهل القرى، فيروا أنّهم سواء فيفيئوا إلى الحقّ.

{ **نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا** } الامتنان بذكر قصصها، والاستدلال على نبوءة محمد ﷺ، إذ علّمه الله من علم الأوّلين ما لم يسبق له علمه، والوعد بالزيادة من ذلك، لما دل عليه قوله {نَقُصُّ} من التجدّد والاستمرار، والتعريض بالمعرضين عن الاتعاظ بأخبارها.

الأنباء، الأخبار، وقد تقدم في قوله تعالى {وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ} [الأنعام:34].

والمراد بالقرى وضمير أنبائها، أهلها، كما دلّ عليه الضمير في قوله { رُسُلُهُمْ }.

{ **وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ** }

البيّنات، الدلائل الدالة على الصدق وقد تقدمت في قصة ثمود، عند قوله تعالى {قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ}.

والجمع يشير إلى تكرّر البيّنات مع كل رسول.

{ **فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا** } الفاء لترتيب الإخبار بانتفاء إيمانهم عن الإخبار بمجيء الرسل إليهم بما من شأنه أن يحملهم على الإيمان. والصيغة تفيد مبالغة النفي بلام الجحود الدالة على أنّ حصول الإيمان كان منافيا لحالهم من التصلّب في الكفر. والمعنى: فاستمر عدم إيمانهم وتمكّن منهم الكفر في حين كان الشأن أن يقلعوا عنه.

{ **بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ** } أي، فما كانوا ليؤمنوا بشيء كذّبوا به من قبل، ممّا دُعوا إلى الإيمان به من التوحيد والبعث.

{ **بِمَا** } وشأن (ما) أن يراد بها غير العاقل، فلا يكون ما صدق (ما) هنا الرّسل، بل ما جاءت به الرّسل.

والمعنى: ما أفادتهم البينات أن يؤمنوا بشيء كان بدر منهم التكذيب به في ابتداء الدعوة.

وأسند نفي الإيمان إلى ضمير جميع أهل القرى باعتبار الغالب، وهو استعمال كثير.

{ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ** } وتقدم معنى الطبع عند قوله تعالى { بل طبع الله عليها بكفرهم } [النساء :155]. وإظهار المسند إليه في جملة {يَطْبَعُ اللَّهُ} دون الإضمار، لما في إسناد الطبع إلى الاسم العلم من صراحة التنبيه على أنّه طبع رهيب لا يغادر للهدى منفذا إلى قلوبهم، ولهذا اختير له الفعل المضارع الدال على استمرار الختم وتجدّده.

القلوب، العقول. والقلب في لسان العرب من أسماء العقل.

{ **وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ** } تنبيها على رسوخ الكفر من نفوسهم بحيث لم يقلعه منهم لا ما شاهدوه من البيّنات، ولا ما وضعه الله في فطرة الإنسان من اعتقاد وجود إله واحد وتصديق الرّسل الداعين إليه، ولا الوفاء بما عاهدوا عليه الرسل عند الدعوة، إنهم إن أتوهم بالبيّنات يؤمنون بها.

الوجدان، في الموضعين مجاز في العلم، فصار من أفعال القلوب، ونفيه في الأول كناية عن انتفاء العهد بالمعنى المقصود، أي وفائه، لأنّه لو كان موجودا لعلمه من شأنه أن يعلمه ويبحث عنه عند طلب الوفاء به، لا سيما والمتكلم هو الذي لا تخفى عليه خافية.

العهد، الالتزام والوعد المؤكّد وقوعه، والموثّق بما يمنع من إخلافه، من يمين، أو ضمان، أو خشية مسبّة.

وهو مشتق من عَهِد الشيء، بمعنى عرفه. ويسمى إيقاع ما التزمه الملتزم من عهده الوفاء بالعهد.

فالعهد هنا يجوز أن يراد به الوعد الذي حققه الأمم لرسلهم مثل قولهم: فأتنا بآية إن كنت من الصادقين، فإنّ معنى ذلك: إن أتيتنا بآية صدقناك.

ويجوز أن يراد به وعد وثّقه أسلاف الأمم من عهد آدم أن لا يعبدوا إلا الله وهو المذكور في قوله تعالى { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ} [يّس: 60]، فكان لازما لأعقابهم.

ويجوز أن يراد به ما وعدت به أرواح البشر خالقها في الأزل المحكي في قوله تعالى {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا} [الأعراف: 172]. وهو عبارة

عن خلق الله فطرة البشريّة معتقدة وجود خالقها ووحدانيّته، ثم حرّفتها النزعات الوثنية والضلالات الشيطانية.

ومعنى انتفاء وجدانه، هو انتفاء الوفاء به، لأن أصل الوعد ثابت موجود، ولكنّه لمّا كان تحقّقه لا يظهر إلا في المستقبل، وهو الوفاء، جعل انتفاء الوفاء بمنزلة انتفاء الوقوع، والمعنى على تقدير مضاف، أي ما وجدنا لأكثرهم من وفاء عهد.

{ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ } إخبار بأنّ عدم الوفاء بالعهد من أكثرهم، كان منهم عن عمد ونكث، ولكون ذلك معنى زائدا على ما في الجملة التي قبلها عطفت ولم تجعل تأكيدا للتي قبلها أو بيانا، لأنّ الفسق هو عصيان الأمر، وذلك أنّهم كذبوا فيما وعدوا عن قصد للكفر.

{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } [103]

انتقال من أخبار الرسالات السابقة إلى أخبار رسالة عظيمة لأمّة باقية إلى وقت نزول القرآن فضّلها الله بفضله فلم توف حقّ الشكر وتلقّت رسولها بين طاعة وإباء وانقياد ونفار. فلم يعاملها الله بالاستئصال ولكنّه أراها جزاء مختلف أعمالها، جزاء وفاقا، إن خيرا فخير، وإن شرّا فشر.

وخصّت بالتفضيل قصّة إرسال موسى لما تحتوي عليه من الحوادث العظيمة، والأنباء القيّمة. ولأنّ رسالته جاءت بأعظم شريعة بين يدي شريعة الإسلام، وأرسل رسولها هاديا وشارعا تمهيدا لشريعة تأتي لأمّة أعظم منها تكون بعدها.

{ ثُمَّ } دلّت على المهلة، والمهلة باعتبار مجموع الأمم المحكي عنها قبل، فإن منها ما بينه وبين موسى قرون، مثل قوم نوح، ومثل عاد وثمود، وقوم لوط، فهي متفاوتة المقدار.

{ مِنْ بَعْدِهِمْ } الضمير يعود إلى القرى، باعتبار أهلها.

{ بِآيَاتِنَا } للملابسة، وهي في موضع الحال من موسى، أي مصحوبا بآيات منّا.

الآيات، الدلائل على صدق الرسول، وهي المعجزات.

{ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ }

فِرْعَوْنَ، علم جنس لملك مصر في القديم، أي قبل أن يملكها اليونان، وهو اسم من لغة القبط. قيل أصله في القبطية (**فاراه**) ولعلّ الهاء فيه مبدلة عن العين فإن (رع) اسم الشمس، فمعنى (فاراه) نور الشمس، لأنّهم كانوا يعبدون الشمس، فجعلوا ملك مصر بمنزلة نور الشمس، لأنّه يصلح النّاس.

نقل هذا الاسم عنهم في كتب اليهود وانتقل عنهم إلى العربية، ولعله مما أدخله الإسلام. وهذا الاسم نظير **كسرى** لملك ملوك الفرس القدماء، و**قيصر** لملك الروم، و**نمروذ** لملك كنعان، و**النجاشي** لملك الحبشة، و**تُبّع** لملك ملوك اليمن، و**خان** لملك الترك.

واسم فرعون الذي أرسل موسى إليه (**منفطاح الثاني**) ، أحد ملوك العائلة التاسعة عشرة من العائلات التي ملكت مصر، على ترتيب المؤرّخين من الإفرنج وذلك في سنة (1491 ق م).

الملأ، الجماعة من علْية القوم، وتقدّم قريبا. وهم وزراء فرعون وسادة أهل مصر من الكهنة وقوّاد الجند. وإنّما خصّ فرعون وملأه لأنهم أهل الحلّ والعقد الذين يأذنون في سراح بني إسرائيل، فإنّ موسى بعثه الله إلى بني إسرائيل ليحرّرهم من الرق الذي كانوا فيه بمصر، ولمّا كان خروجهم من مصر متوقّفا على أمر فرعون وملئه، بعثه الله إليهم ليعلموا انّ الله أرسل موسى بذلك، وفي ضمن ذلك تحصل دعوة فرعون للهدى، لأنّ كل نبيء يعلن التوحيد ويأمر بالهدى، وإن كان المأمور من غير المبعوث إليهم حرصا على الهدى إلّا أنّه لا يقيم فيهم ولا يكرّر ذلك.

{ **فَظَلَمُوا** } الفاء للتعقيب، أي فبادروا بالتكذيب.

الظلم، الاعتداء على حقّ الغير. والمعنى، فظلموا كلّ من له حقّ في الانتفاع بالآيات. أي منعوا النّاس من التصديق بها، وآذوا الذين آمنوا بموسى لمّا رأوا آياته.

وظلموا أنفسهم إذ كابروا ولم يؤمنوا، فكان الظلم بسبب الآيات أي بسبب الاعتراف بها.

ويجوز أن يكون ضمن {ظَلَمُوا} معنى كفروا فعدي إلى الآيات بالباء، والتقدير: فظلموا إذ كفروا بها، لأنّ الكفر بالآيات ظلم حقيقة، إذ الظلم الاعتداء على الحق، فمن كفر بالدلائل الواضحة المسماة آيات فقد اعتدى على حق التأمل والنظر.

{ **فَانْظُرْ** } الفاء لتفريع الأمر على هذا الإخبار، أي لا تتريّث عند سماع خبر كفرهم عن أن تبادر بالتدبّر فيما سنقص عليك من عاقبتهم.

والخطاب للنبي ﷺ، والمراد هو ومن يبلغه، أو المخاطب غير معيّن وهو كلّ من يتأتى منه النظر والاعتبار عند سماع هذه الآيات. فالتقدير، فانظر أيها الناظر، وهذا استعمال شائع في كل كلام موجه لغير معين.

العاقبة، آخر الأمر ونهايته، وقد تقدم عند قوله تعالى {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الأنعام:11]

المفسدين، فرعون وملأه، فهو من الإظهار في مقام الإضمار تنبيها على أنّهم أصيبوا بسوء العاقبة لكفرهم وفسادهم، والكفر أعظم الفساد لأنّه فساد القلب ينشأ عنه فساد الأعمال. وفي الحديث: " ألا وإنّ في الجسد

مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب ".

{ **وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [104] حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائيلَ [105] قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [106] فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ [107] وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ** } [108].

{ **يَا فِرْعَوْنُ** } خطاب إكرام لأنّه ناداه بالاسم الدال على الملك والسلطان بحسب متعارف أمّته، فليس هو بمترفّع عليه، لأنّ الله تعالى قال له ولهارون { فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً } [طه:44]. والظاهر أيضا أنّ قول موسى هذا هو أول ما خاطب به فرعون.

{ **إِنِّي** } وصوغ حكاية كلام موسى بصيغة التأكيد بحرف (إنّ) لأنّ المخاطب مظنّة الإنكار أو التردد القوي في صحة الخبر.

{ **رَبِّ الْعَالَمِينَ** } واختيار هذه الصفة في الإعلام بالمرسل إبطال لاعتقاد فرعون أنّه ربّ مصر وأهلها فإنّه قال لهم {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات:24].

{ **حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ** }

حقيق، فعيل بمعنى فاعل، وهو مشتق من (حَقّ) وجب وثبت، أي متعيّن وواجب عليّ قول الحق على الله، و(على) الأولى للاستعلاء المجازي و(على) الثانية بمعنى (عن).

قرأه نافع بالياء في آخر { عليّ } فهي ياء المتكلّم دخل عليها حرف (على) وتعدية حقيق بحرف (على) معروفة. و{حَقِيقٌ} خبر ثان عن {إِنِّي} ، فليس في ضمير المتكلم من قوله {عليّ} على قراءة نافع التفات. بخلاف ما لو جعل قوله {حَقِيقٌ} صفة لـ {رَسُولٌ} فحينئذ يكون مقتضى الظاهر الإتيان بضمير الغائب، فيقول: حقيق عليه، فيكون العدول إلى التكلم التفاتا. وفاعل {حَقِيقٌ} هو المصدر المأخوذ من قوله {أَنْ لا أَقُولَ}، أي حقيق علي عدم قولي على الله غير الحق.

وقرأ الجمهور (على) بألف بعد اللام، وهي (على) الجارة. ففي تعلق (على) ومجرورها الظاهر بـ {حَقِيقٌ} تأويل بوجوه، أحسنها قول الفراء، وأبي علي الفارسي: أن (على) هنا بمعنى (**الباء**) وأنّ {حَقِيقٌ} فعيل بمعنى مفعول، أي محقوق بأنّ لا أقول على الله إلّا الحق.

{ **قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ مقام الإنكار مما يثير سؤال سائل أن يقول: هذه دعوى غريبة تحتاج إلى بيّنة.

البينة، الحجّة. وقد تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} [الأنعام:57]. والحجّة هنا

يجوز أن يكون المراد بها البراهين العقليّة على صدق ما جاء به موسى من التوحيد والهدى، ويجوز أن تكون المعجزة الدالة على صدق الرّسول، ويحتمل المعنى الأعمّ الشامل للنوعين على ما يحتمله كلام موسى المترجم عنه هنا.

{ **فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائيلَ** } الفاء لتفريع طلب تسريح بني إسرائيل على تحقّق الرسالة عن رب العالمين، والاستعداد لإظهار البيّنة على ذلك، لأنّ شأن الرّسل أن لا يبتدئوا بإظهار المعجزات صونا لمقام الرسالة.

الإرسال، الإطلاق والتخلية، وهو هنا مجاز لغوي في الإذن لبني إسرائيل بالخروج.

{ **مَعِيَ** } لأنّ المقصود من إخراجهم من مصر أن يكونوا مع الرسول ليرشدهم ويدبّر شؤونهم.

{ **قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } متعيّن لأن يكون معناه، إن كنت جئت بمعجزة فأظهرها. فإنّ أكثر موارد الآية في القرآن مراد فيه المعجزة، وأكثر موارد البيّنة مراد فيه الحجّة.

{ **فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ** }

الإلقاء، الرمي على الأرض أو في الماء أو نحو ذلك، أي فرمى عصاه من يده.

{ **فإذا** } للمفاجأة وهي حدوث الحادث عن غير ترقب.

{ **ثُعْبَانٌ مُبِينٌ** } الحيّة العظيمة، ومبين الظاهر الذي لا شك فيه ولا تخيّل.

{ **وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ** } المعنى هنا أنّه أخرج يده من جيب قميصه بعد أن أدخلها فيه، كما في سورة النمل وسورة القصص، فلمّا أخرجها صارت بيضاء، أي بياضا من النور.

{ **لِلنَّاظِرِينَ** } ، أي بياضا يراه الناظرون رؤية تعجّب من بياضها.

{ قَالَ الْمَلَأُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ [109] يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ [110] قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ [111] يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ}[112]

{ **قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ** } تقدّم الكلام على الملإ آنفا في القصص الماضية. فملأ قوم فرعون هم سادتهم، وهم أهل مجلس فرعون ومشورته. وقد كانت دعوة موسى أوّل الأمر قاصرة على فرعون في مجلسه، فلم يكن بمرأى ومسمع من العامة، لأنّ الله تعالى قال في آية أخرى {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [طه:43] وقال في هذه الآية {إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ} [103] وإنّما أشهرت دعوته بعد اجتماع السحرة.

وإنّما قالوا هذا الكلام على وجه الشورى مع فرعون واستنباط الاعتذار لأنفسهم عن قيام حجّة موسى.

{ **يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ** } يعنون أنّه ما أظهر إخراج بني إسرائيل إلّا ذريعة لإخراج كلّ من يؤمن به ليتّخذهم تبعا ويقيم بهم ملكا خارج مصر، فزعموا أنّ تلك مكيدة من موسى لتثلم ملك فرعون.

وإمّا أنّهم علموا أنّه إذا شاع في الأمّة ظهور حجّة موسى وعجز فرعون وملئه أدخل ذلك فتنة في عامة الأمّة، فآمنوا بموسى وأصبح هو الملك على مصر فأخرج فرعون وملأه منها.

{ **فَمَاذَا تَأْمُرُونَ** } المقصود من (الأمر) الطلب على وجه الإفتاء والاشتوار، لأنّ أمرهم لا يتعيّن العمل به. فإذا كان المخاطب فرعون على ما تقدّم، كان مرادا من الأمر الطلب الذي يجب امتثاله كما قال ملأ بلقيس {فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ} [النمل:33].

الساحر، فاعل السحر. وتقدّم الكلام على السحر عند قوله تعالى {يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} [البقرة:102].

{ **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ** } جواب القوم المستشارين، فتجريدها من حرف العطف لجريانها في طريق المحاورة.

الإرجاء، هو التأخير. والمعنى، أخّر المجادلة مع موسى إلى إحضار السحرة الذين يدافعون سحره.

وحكى القرآن ذكر الأخ هنا للإشارة إلى أنّه طوي ذكره في أوّل القصة، وقد ذكر في غير هذه القصة ابتداء.

{ **وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ** } عدي فعل الإرسال بـ (في) دون (إلى) لأنّ الفعل هنا غير مقصود تعديته إلى المرسل إليهم بل المقصود منه المرسلون خاصة، وهو المفعول الأول، إذ المعنى: وأرسل حاشرين في المدائن يأتوك بالسحرة، فعلم أنّهم مرسلون للبحث والجلب، لا للإبلاغ.

المدائن، جمع مدينة، وهي بوزن فعيلة، مشتقّة من مَدَن بالمكان إذا أقام. قيل أرادوا مدائن الصعيد، وكانت مقرّ العلماء بالسحر. ومدائن مصر في ذلك الزمن كثيرة وسنذكر بعضها عند قوله تعالى {فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} [الشعراء:53].

الحاشرون، الذين يحشرون النّاس ويجمعونهم.

{ **يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ** } جزم (يَأْتُوكَ) على جواب الأمر، للدلالة على شدّة اتصال السببيّة بين الإرسال والإتيان، فالتقدير، إن ترسل يأتوك.

{ **بِكُلِّ** } مستعمل في معنى الكثرة، أي بجمع عظيم من السحرة.

{ **عَلِيمٍ** } الذي هو من أمثلة المبالغة للدلالة على قوة المعرفة بالسحر، وحذف متعلقه لأنّه صار بمنزلة أفعال السجايا.

{ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ [113] قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ [114] قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ [115] قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ } [116]

{ **السَّحَرَةُ** } التعريف للعهد، أي السّحرة المذكورون، وكان حضور السّحرة عند فرعون في اليوم الذي عيّنه موسى للقاء السحرة، وهو المذكور في سورة طه.

{ **قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً** } قرأ نافع وابن كثير وحفص وأبو جعفر {إِنَّ لَنَا لَأَجْراً} ابتداء بحرف (إنّ) دون همزة استفهام، وقرأه الباقون بهمزة استفهام قبل (إنّ)، وعلى القرائتين فالمعنى على الاستفهام، فهمزة الاستفهام محذوفة تخفيفا على القراءة الأولى.

{ **أَجْراً** } تنكير تعظيم بقرينة مقام الملك وعظم العمل.

{ **إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ** } ضمير {نَحْنُ} تأكيد لضمير {كُنَّا} إشعارا بجدارتهم بالغلب، وثقتهم بأنّهم أعلم النّاس بالسحر، فأكدوا ضميرهم لزيادة تقرير مدلوله.

{ **قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ** } إجابة عما استفهموا، أو تقريرا لما توسّموا: على الاحتمالين المذكورين.

{ **قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ** } فصلت لوقوعها في طريقة المحاورة بينهم وبين فرعون وموسى، لأنّ هؤلاء هم أهل الكلام في ذلك المجمع.

{ **إِمَّا** } حرف يدل على الترديد بين أحد شيئين أو أشياء، ولا عمل له ولا هو معمول، وما بعده يكون معمولا للعامل الذي في الكلام. ويكون {إِمَّا} بمنزلة جزء كلمة مثل أل المعرفة.

وذلك هو التخيير، أي إمّا أن تبتدئ بإلقاء آلات سحرك وإمّا أن نبتدئ، فاختر أنت أحد أمرين.

ووجه دلالة التخيير على أنّ التقدّم في التخييلات والشعوذة أنجح للبادئ لأنّ بديهتها تمضي في النفوس وتستقرّ فيها، فتكون النفوس أشدّ تأثرا بها من تأثرها بما يأتي بعدها، ولعلّهم مع ذلك أرادوا أن يسبروا مقدار ثقة موسى بمعرفته مما يبدو منه من استواء الأمرين عنده أو من الحرص على أن يكون هو المقدّم.

ولذلك كان في جواب موسى إيّاهم بقوله {أَلْقُوا} استخفاف بأمرهم إذ مكّنهم من مباداة إظهار تخييلاتهم وسحرهم، لأنّ الله قوّى نفس موسى بذلك الجواب لتكون غلبته عليهم، بعد أن كانوا هم المبتدئين، أوقع حجّة وأقطع معذرة.

وفي هذا دليل على جواز الابتداء بتقرير الشبهة للذي يثق بأنّه سيدفعها.

{ **فَلَمَّا أَلْقَوْا** } عطف على محذوف للإيجاز، أي ألقوا آلات سحرهم.

{ **سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ** } جعلوها متأثّرة بالسحر بما ألقوا من التخييلات والشعوذة.

وفي الكلام مجازعقلي، لأنّ الأعين آلة إيصال التخييلات إلى الإدراك، وهم إنّما سحروا العقول، ولذلك لو قيل: سحروا النّاس لأفاد ذلك، ولكن تفوت نكتة التنبيه على أنّ السحر إنّما هو تخيلات مرئيّة.

الاسترهاب، طلب الرهب أي الخوف، وذلك أنّهم عزّزوا تخيلات السحر بأمور أخرى تثير خوف الناظرين، لتزداد تمكّن التخيلات من قلوبهم، وتلك الأمور، أقوال وأفعال توهم أن سيقع شيء مخيف كأن يقولوا للنّاس: خذوا حذركم، وحاذروا، ولا تقتربوا، وسيقع شيء عظيم، وسيحضر كبير السحرة، ونحو ذلك.

ولك أن تجعل (السين والتاء) في { وَاسْتَرْهَبُوهُمْ } للتأكيد، أي أرهبوهم رهبا شديدا، كما يقال استكبر

واستجاب.

{ **وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ** } ووصف السحر بالعظيم لأنّه من أعظم ما يفعله السحرة، إذ كان مجموعا ممّا تفرّق بين سحرة المملكة.

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ [117] فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [118] فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ } [119]

{ وَأَوْحَيْنَا } جملة في حيّز جواب لمّا، أي لمّا ألقوا سحروا، وأوحينا إلى موسى أن الق لهم عصاك.

{ **فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ** } الفاء للتعقيب الدال على سرعة مفاجأة شروعها في التلقّف بمجرد إلقائها، وقد دل السياق على جملتين محذوفتين، إذ التقدير، فألقاها فدبت فيها الحياة وانقلبت ثعبانا، فإذا هي تلقف.

التلقّف، قرأ الجمهور { تلقّف} (بقاف مشددة) وأصله تتلقف مبالغة في اللقف وهو الابتلاع والازدراد، وقراحفص عن عاصم بسكون اللام و تخفيف القاف على صيغة المجرّد.

الإفك، الصرف عن الشيء، ويسمّى الزور إفكا، والكذب المصنوع إفكا، لأنّ فيه صرفا عن الحق وإخفاء للواقع، فلا يسمى إفكا إلا الكذب المصطنع المموّه، وإنما جعل السحر إفكا لأن ما يظهر منه مخالف للواقع فشبّه بالخبر الكاذب. وتسمية سحرهم إفكا دليل على أنّ السحر لا معمول له وأنّه مجرد تخييلات وتمويهات.

{ **فَوَقَعَ الْحَقُّ** } تفريع على {تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} . والوقوع حقيقته سقوط الشيء من أعلى إلى الأرض، واستعير الوقوع لظهور أمر رفيع القدر، لأنّ ظهوره كان بتأييد الهي، فشبه بشيء نزل من علو، وقد يطلق الوقوع على الحصول، لأنّ الشيء الحاصل يشبه النازل على الأرض، وهي استعارة شائعة قال تعالى {وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ} [الذريات:6] أي حاصل وكائن، والمعنى فظهر الحق وحصل.

ولعل في اختيار لفظ (وقع)، هنا دون (نزل) مراعاة لفعل الإلقاء، لأنّ الشيء الملقى يقع على الأرض فكان وقوع العصا على الارض وظهور الحق مقترنين.

الْحَقُّ، هو الأمر الثابت الموافق للبرهان، وضدّه الباطل. أريد به هنا صدق موسى وصحة معجزته وكون ما فعلته العصا هو من صنع الله تعالى، وأثر قدرته.

{ **وَبَطَلَ** }حقيقته اضمحلّ. والمراد، اضمحلال المقصود منه وانتفاء أثر مزعوم لشيء. يقال: بطل سعيه، أي لم يأت بفائدة، ويقال: بطل عمله، أي: ذهب ضياعا وخسر بلا أجر، ومنه سمّي ضد الحق باطلا، لأنّه شيء لا يحصل منه الأثر المرجو، وهو القبول لدى العقول المستقيمة.

{ **مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } هو السحر، أي بطلت تخيّلات النّاس أنّ عِصِيّ السحرة وحبالهم تسعى كالحيّات.

{ **فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ** } انقلب من الأفعال التي تجيء بمعنى (صار) وهو المراد هنا، أي صاروا صاغرين، واختيار لفظ {وَانْقَلَبُوا} دون (رجعوا) أو (صاروا) لمناسبته للفظ غلبوا في الصيغة، ولما يُشعر به أصل اشتقاقه من الرجوع إلى حال أدون، فكان لفظ انقلبوا أدخل في الفصاحة.

الصغار، المذلّة، وهي مذلة ظهور عجزهم، ومذلّة خيبة رجائهم ما أملوه من الأجر والقرب عند فرعون.

{ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ [120] قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [121] رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ [122] قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [123] لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ [124] قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ [125] وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ } [126]

عطف على {فَغُلِبُوا} و {وَانْقَلَبُوا}، فهو في حيّز فاء التعقيب، أي حصل ذلك كلّه عقب تلقّف العصا ما يأفكون بدون مهلة، وتعقيب كل شيء بحسبه، فسجود السحرة متأخر عن مصيرهم صاغرين، ولكنه متأخر بزمن قليل وهو زمن انقداح الدليل على صدق موسى في نفوسهم، فإنّهم كانوا أعلم النّاس بالسحر فلا يخفى عليهم ما هو خارج عن الأعمال السحريّة، ولذلك لمّا رأوا تلقّف عصا موسى لحبالهم وعصيّهم جزموا بأنّ ذلك خارج عن طوق الساحر، فعلموا أنّه تأييد من الله لموسى وأيقنوا أنّ ما دعاهم إليه موسى حقّ، فلذلك سجدوا، وكان هذا خاصا بهم دون بقيّة الحاضرين، فلذلك جيء بالاسم الظاهر دون الضمير لئلا يلتبس بالضمير الذي قبله الذي هو شامل للسحرة وغيرهم.

الإلقاء، مستعمل في سرعة الهُوِي إلى الأرض، أي لم يتمالكوا أن سجدوا بدون تريّث ولا تردّد.

{ **سَاجِدِينَ** } حال، والسجود هيئة خاصة لإلقاء المرء نفسه على الأرض يقصد منها الإفراط في التعظيم، وسجودهم كان لله الذي عرفوه حينئذ بظهور معجزة موسى عليه السلام.

{ **قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ** [121] **رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ** } قصدوا من قولهم ذلك، الإعلان بإيمانهم بالله لئلّا يظنّ النّاس أنّهم سجدوا لفرعون، إذ كانت عادة القبط السجود لفرعون، ولذلك وصفوا الله بأنّه رب العالمين بالعنوان الذي دعا به موسى عليه السلام، وزادوا هذا القصد بيانا بالإبدال {رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}.

{ **قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ** } فصلت الجملة لوقوعها في طريق المحاورة.

{ **آمَنْتُمْ** } قرأه الجمهور بصيغة الاستفهام بهمزتين فمنهم من حقّقها، وهم: حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وروح عن يعقوب، وخلف، ومنهم من سهّل الثانية مَدَّة، فصار بعد الهمزة الأولى مدتان، وهؤلاء

هم: نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وقرأه حفص عن عاصم بهمزة واحدة فيجوز أن يكون إخبارا، ويجوز أن تكون همزة الاستفهام محذوفة وما ذلك ببدع. والاستفهام للإنكار والتهديد مجازا مرسلا مركّبا.

{ **قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ** } ترقّ في موجب التوبيخ، أي لم يكفكم أنّكم آمنتم بغيري حتّى فعلتم ذلك عن غير استئذان. وفصلها عمّا قبلها لأنّها تعداد للتوبيخ.

{ **إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا**} خبر مراد به لازم الفائدة، أي ولقد علمتُ مرادكم.

المكر، تقدّم عند قوله تعالى {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ} [آل عمران:54].

{ **فِي الْمَدِينَةِ** } ظرفية مجازية، أي أردتم إضرار أهلها.

وقول فرعون هذا يحتمل أنّه قاله موافقا لظنّه على سبيل التهمة لهم، لأنّه لم يكن له علم بدقائق علم السحر حتّى يفرّق بينه وبين المعجزة الخارقة للعادة، فظن أنّها مكيدة دبّرها موسى مع السحرة، كما في قوله تعالى {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ} [طه: 71].

ويحتمل أنّه قاله تمويها وبهتانا ليصرف النّاس عن اتباع السحرة، وعن التأثّر بغلبة موسى إياهم، فيدخل عليهم شكا في دلالة الغلبة واعتراف السحرة بها.

{ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** } فرع على الإنكار والتوبيخ الوعيد ، وحذف مفعول {تَعْلَمُونَ} لقصد الإجمال في الوعيد لإدخال الرعب.

{ **لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ** } بيان الوعيد. ووقوع الجمع معرّفا بالإضافة يكسبه العموم، فيعمّ كل يد وكل رجل من أيدي وأرجل السحرة. وقد تقدّم بيان نظيرها عند قوله تعالى {أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ} [المائدة: 33]. فالمعنى، أنّه يقطع من كل ساحر يدا ورجلا متخالفتي الجهة غير متقابلتيها.

{ **ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ** } المعروف أنّ الصلب أن يقتل المرء مشدودا على خشبة، كما تقدّم في قوله {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ} [النساء:157]، وعلى هذا يكون توعّدهم بنوعين من العذاب، والوعيد موجّه إلى جماعتهم فعلم أنّه جعلهم فريقين: فريق يعذّب بالقطع من خلاف، وفريق يعذّب بالصلب والقتل، فعلى هذا ليس المعنى على أنّه يصلبهم بعد أن يقطعهم.

ويحتمل أن يراد بالصلب، الصلب دون قتل، فيكون أراد صلبهم بعد القطع ليجعلهم نكالا ينذعر بهم النّاس، كيلا يقدم أحد على عصيان أمره من بعد، فتكون {ثُمَّ} دالة على الترتيب والمهلة، وهذا هو المناسب لظاهر قوله { **أَجْمَعِينَ** } المفيد أنّ الصلب ينالهم كلّهم.

{ **قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ** } فصلت لوقوعها في سياق المحاورة. و**الانقلاب**، الرجوع، وقد تقدّم قريبا. وهذا جواب عن وعيد فرعون بأنّه وعيد لا يضيرهم، لأنّهم يعلمون أنّهم صائرون إلى الله ربّ الجميع، وقد

جاء هذا الجواب موجزا إيجازا بديعا، لأنّه يتضمّن أنّهم يرجون ثواب الله على ما ينالهم من عذاب فرعون، ويرجون منه مغفرة ذنوبهم، ويرجون العقاب لفرعون على ذلك.

{ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا } ثمّ بيّنوا أنّ عقاب فرعون لا غضاضة عليهم منه، لأنّه لم يكن عن جناية بل كان على الإيمان بآيات الله لمّا ظهرت لهم.

النقْم، (بسكون القاف وبفتحها) الإنكار على الفعل، وكراهة صدوره وحقد على فاعله، ويكون باللسان وبالعمل.

{ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ } من تمام كلامهم، وهي انتقال من خطابهم فرعون إلى التوجّه إلى دعاء الله تعالى، ولذلك فصلت عن الجملة التي قبلها. والمعنى، اجعل لنا طاقة لتحمّل ما توعّدنا به فرعون.

الإفراغ، صب جميع ما في الإناء، تشبيه المعقول بالمحسوس، على طريقة الاستعارة المكنيّة. والمقصود من ذلك، الكناية عن قوّة الصبر، لأنّ إفراغ الإناء يستلزم أنّه لم يبق فيه شيء مما حواه، فاشتملت هذه الجملة على مكنية وتخييلية وكناية. وتقدم نظيره في قوله تعالى {قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً} [البقرة:250].

ولعلّه لم يحقّق ما توعّدهم به، فالقرآن لم يتعرّض هنا، ولا في سورة الشعراء، ولا في سورة طه، للإخبار عن وقوع ما توعّدهم به فرعون، لأنّ غرض القصص القرآنية هو الاعتبار بمحل العبرة وهو تأييد الله موسى وهداية السحرة وتصلّبهم في إيمانهم بعد تعرضهم للوعيد بنفوس مطمئنة.

والظاهر أنّ فرعون أفحم لمّا رأى قلة مبالاتهم بوعيده فلم يُرد جوابا.

وذكرهم الإسلام في دعائهم يدلّ على أنّ الله ألهمهم حقيقته التي كان عليها النبيون والصديقون من عهد إبراهيم عليه السلام.

{ وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ [127] قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [128]

محاورة بين ملإ فرعون وبينه في وقت غير وقت المحاورة التي جرت بين فرعون والسحرة، فإنّهم لمّا رأوا قلّة اكتراث المؤمنين بوعيد فرعون، ورأوا نهوض حجّتهم على فرعون وإفحامه، وأنّه لم يَحرْ جوابا، راموا إيقاظ ذهنه، وإسعار حميّته، فجاءوا بهذا الكلام المثير لغضب فرعون، ولعلّهم رأوا منه تأثّرا بمعجزة موسى وموعظة الذين آمنوا من قومه وتوقعوا عدوله عن تحقيق وعيده.

{ أَتَذَرُ مُوسَى } الاستفهام مستعمل في الإغراء بإهلاك موسى وقومه، والإنكار على الإبطاء بإتلافهم.

والكلام على فعل {تَذَرُ} تقدم في قوله { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً } [الأنعام:70]

قوم موسى، هم من آمن به. وأولئك هم بنوا إسرائيل كلّهم ومن آمن من القبط.
{ **لِيُفْسِدُوا** } لام التعليل وهو مبالغة في الإنكار، إذ جعلوا ترك موسى وقومه معللا بالفساد، وهذه اللام تسمى لام العاقبة. وليست العاقبة معنى من معاني اللام حقيقة ولكنّها مجاز.
والإفساد عندهم هو إبطال أصول ديانتهم وما ينشأ عن ذلك من تفريق الجماعة وحثّ بني إسرائيل على الحرية. ومغادرة أرض الاستعباد.
{ **فِي الْأَرْضِ** } مملكة فرعون وهي قطر مصر.
{ **وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ** } داخل في التعليل المجازي، لأنّ هذا حاصل في بقائهم دون شك، ومعنى تركهم فرعون، تركهم تأليهه وتعظيمه، ومعنى ترك آلهته نبذهم عبادتها ونهيهم النّاس عن عبادتها.
الآلهة، جمع آله. وكان القبط مشركين يعبدون آلهة متنوعة من الكواكب والعناصر وصوّروا لها صورا عديدة مختلفة باختلاف العصور والأقطار، أشهرها (**فتاح**) وهو أعظمها عندهم وكان يّعبد بمدينة (**مَنْفيس**)، ومنها (**رع**) وهو الشمس، وتتفرّع عنه آلهة باعتبار أوقات شعاع الشمس، ومنها (**ازبريس** و**إزيس** و**هوروس**) وهذا عندهم ثالوث مجموع من أب وأم وابن. ومنها (**توت**) وهو القمر وكان عندهم ربّ الحكمة. ومنها (**أمون رع**). فهذه الأصنام المشهورة عندهم وهي أصل إضلال عقولهم. وكانت لهم أصنام فرعيّة صغرى عديدة مثل العجل (**إيبيس**) ومثل الجعران وهو الجُعل.
وكان أعظم هذه الأصنام هو الذي ينتسب فرعون إلى بُنوّته وخدمته، وكان فرعون معدودا ابن الآلهة وقد حلّت فيه الإلهيّة على نحو عقيدة الحلول، ففرعون هو المنفّذ للدين، وكان يعدّ إله مصر.
{ **قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ** } توعّد فرعون موسى وقومه بالاستئصال بقتل الأبناء، والمراد الرجال بقرينة مقابلته بالنساء.
الاستحياء، مبالغة في الإحياء، (فالسين والتاء فيه للمبالغة) والغرض من استبقاء النساء أن يتخذوهن سراري وخدما.
{ **وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** } اعتذار من فرعون للملإ من قومه عن إبطائه باستئصال موسى وقومه، أي هم لا يقدرون أن يفسدوا في البلاد ولا أن يخرجوا عن طاعتي.
القاهر: الغالب بإذلال.
{ **فَوْقَهُمْ** } مستعمل مجازا في التمكّن من الشيء، لأن الاعتلاء على الشيء أقوى أحوال التمكّن من قهره.
{ **قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا** } خاطب موسى قومه بذلك تطمينا لقلوبهم، وتعليما لهم بنصر الله إيّاهم، لأنّه علم ذلك بوحي الله إليه.
{ **إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** } تذييل وتعليل للأمر بالاستعانة بالله والصبر، كناية عن ترقّب

زوال استعباد فرعون إيّاهم، قصد منها صرف اليأس عن أنفسهم الناشئ عن مشاهدة قوّة فرعون وسلطانه، بأن الله الذي خوله ذلك السلطان قادر على نزعه منه.

فالمراد من الأرض هنا الدنيا لأنّه أليق بالتذييل وأقوى في التعليل، فهذا إيماء إلى أنّهم خارجون من مصر وسيملكون أرضا أخرى.

{ **وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** } تذييل، فيجوز أن تكون الواو اعتراضية.

العاقبة، حقيقتها نهاية أمر من الأمور وآخره، وتقدّم ذكرها عند قوله تعالى {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الأنعام:11].

فإذا عرّفت العاقبة باللام كان المراد منها انتهاء أمر الشيء بأحسن من أولّه، كما قال تعالى {وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [طه: 132]. وفي حديث أبى سفيان قول هرقل " وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة ".

فلا تطلق المعرّفة على عاقبة السوء.

المتقون، المؤمنون العاملون.

{ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [129]

حكاية جواب قوم موسى إيّاه، فلذلك فصلت جملة القول على طريقة المحاورة، وهذا الخبر مستعمل في الشكاية واستئثارتهم موسى ليدعو ربه أن يفرّج كربهم.

الإيذاء، الإصابة بالأذى، والأذى ما يؤلم ويحزن من قول او فعل. و تقدّم عند قوله تعالى {لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً} [آل عمران:111]. وهو يكون ضعيفا وقويّا، ومرادهم هنا القويّ منه، وهو ما لحقهم من الاستعباد وتكليفهم الأعمال الشاقة عليهم في خدمة فرعون، وما توعّدهم به فرعون بعد بعثة موسى من القطع والصلب وقتل الأبناء. وكأنّهم أرادوا التعريض بنفاد صبرهم، وأنّ الأذى الذي مسّهم بعد بعثة موسى لم يكن بداية الأذى.

وقد توهّم بعض المفسرين أنّ هذا امتعاض منهم مما لحقهم بسبب موسى وبواسطته مستندا إلى أن قتل الذكور منهم كان قبل مجيء موسى بسبب توقع ولادة موسى، وكان الوعيد بمثله بعد مجيئه بسبب دعوته، وليس ذلك بمتجه.

{ **قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ** } أجابهم موسى بتقريب أن يكونوا هم الذين يرثون ملك الأرض والذين تكون لهم العاقبة.

{ **عَسَى** } جاء بفعل الرجاء دون الجزم تأدّبا مع الله تعالى، وإقصاء للاتكال على أعمالهم ليزدادوا من التقوى

والتعرّض إلى رضى الله تعالى ونصره.

عَدُوَّكُمْ، فرعون وحزبه.

الاستخلاف، إقامة الخليفة، فالسين والتاء لتأكيد الفعل، أي جعلهم أحرارا غالبين ومؤسّسين ملكا في الأرض المقدّسة.

{ **فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** } التحذير من أن يعملوا ما لا يرضي الله تعالى، والتحريض على الاستكثار من الطاعة ليستحقوا وصف المتقين، تذكيرا لهم بأنّه عليم بما يعملونه.

{ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ [130] فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [131]

هذا انتقال إلى ذكر المصائب التي أصاب الله بها فرعون وقومه، وجعلها آيات لموسى، ليلجئ فرعون إلى الإذن لبني إسرائيل بالخروج، وقد وقعت تلك الآيات بعد المعجزة الكبرى التي أظهرها الله لموسى في مجمع السحرة، ويظهر أن فرعون أغضى عن تحقيق وعيده، إبقاء على بني إسرائيل، لأنّهم كانوا يقومون بالأشغال العظيمة لفرعون.

ويؤخذ من التوراة أن موسى بقي في قومه مدّة يعيد محاولة فرعون أن يطلق بني إسرائيل، وفرعون يعد ويخلف، ولم تضبط التوراة مدة مقام موسى كذلك، وظاهرها أنّ المدة لم تطل، وليس قوله تعالى {بِالسِّنِينَ} دليل على أنّها طالت أعواما، لأن السنين هنا جمع سنة بمعنى الجدب لا بمعنى الزمن المقدّر من الدهر، فالسنة في كلام العرب إذا عرّفت باللام يراد بها سنة الجدب والقحط. فالمعنى، ولقد أخذناهم بالقحوط العامة في كلّ أرض.

الأخذ، هنا مجاز في القهر والغلبة. ويصحّ أن يكون هنا مجازا في الإصابة بالشدائد، وتعدّدت إطلاقاته، فأطلق كناية عن الملك، وأطلق استعارة للقهر والغلبة وللإهلاك.

نقص الثمرات، قلّة إنتاجها قلة غير معتادة لهم. فالسنون تنتاب المزارع والحقول، ونقص الثمرات ينتاب الجنّات.

{ **لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** } للرجاء، أي مرجوّا تذكّرهم، لأنّ المصائب والأضرار المقارنة لتذكير موسى إيّاهم بربّهم، وتسريح عبيده، من شأنها أن يكون أصحابها مرجوّا منهم أن يتذكّروا بأنّ ذلك عقاب على إعراضهم وعلى عدم تذكّرهم.

وفي هذه الآية تنبيه للأمّة للنظر فيما يحيط بها من دلائل غضب الله، فإنّ سلب النعمة للمنعم عليهم تنبيه لهم

على استحقاقهم إعراض الله تعالى عنهم.

{ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ }

المجيء، الحصول والإصابة. وإنّما عبّر في جانب الحسنة بالمجيء لأنّ حصولها مرغوب، فهي بحيث تُترقّب كما يُترقّب الجائي، وعبّر في جانب السيئة بالإصابة لأنّها تحصل فجأة عن غير رغبة ولا ترقّب.

وجيء في جانب الحسنة بإذا الشرطية لأنّ الغالب في (إذا) الدلالة على اليقين بوقوع الشرط أو ما يقرب من اليقين. وجيء في جانب السيّئة بحرف (إن) لأنّ الغالب أن تدلّ على التردّد في وقوع الشرط، أو على الشكّ، ولكون الشيء النادر الحصول غير مجزوم بوقوعه، ومشكوكا فيه.

وفي ذلك تعريض بأنّ نعم الله كانت متكاثرة لديهم وأنّهم كانوا معرضين عن الشكر، وتعريض بأنّ إصابتهم بالسيّئات نادرة، وهم يعدّون السيئات من جراء موسى ومن آمن معه، فهم في كلتا الحالتين بين كافرين بالنعمة وظالمين لموسى ومن معه.

و**الحسنة** و**السيئة** هنا مراد بهما الحالة الحسنة والحالة السيئة.

{ **لَنَا** } لام الاستحقاق، أي هذه الحسنة حقّ لنا، لأنّهم بغرورهم يحسبون أنّهم أحرياء بالنعم، فلا يرون تلك الحسنة فضلا من الله ونعمة.

{ **يَطَّيَّرُوا** } أصله يتطيّروا، وهو تفعّل، مشتق من اسم الطير، كأنّهم صاغوه على وزن التفعّل لما فيه من تكلّف معرفة حظ المرء بدلالة حركات الطير. وكان العرب إذا خرجوا في سفر لحاجة، نظروا إلى ما يلاقيهم أوّل سيرهم من طائر، فكانوا يزعمون أن في مروره علامات يمن وعلامات شؤم، فالذي في طيرانه علامة يمن في اصطلاحهم يسمونه **(السانح)**، وهو الذي ينهض فيطير من جهة اليمين للسائر، والذي علامته الشؤم هو **(البارح)** وهو الذي يمر على اليسار، وإذا وجد طيرا جاثما أثاره لينظر أي جهة يطير، وتسمى تلك الإثارة **(زجرا)**، فمن الطير ميمون ومنه مشؤوم. والعرب يدعون للمسافر بقولهم على الطائر الميمون، ثم غلب استعمال لفظ التطير في معنى التشاؤم خاصة.

وفي الحديث " لا طيرة وإنما الطيرة على من تطيّر"، أي الشؤم يقع على من يتشاءم، جعل الله ذلك عقوبة له في الدنيا لسوء ظنه بالله. وتأويل حديث " الطيرة شرك "(رواه أصحاب السنن)، أنّها من بقايا دين الشرك.

{ **وَمَنْ مَعَهُ** } من آمنوا به، لأنّ قوم فرعون يعدّون موجب شؤم موسى هو ما جاء به من الدين.

{ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ }

{ **أَلا** } حرف استفتاح يفيد الاهتمام بالخبر الوارد بعده. تعليما للأمّة، وتعريضا بمشركي العرب.

الطائر، اسم للطير الذي يثار ليتيمن به أو يتشاءم.

{ **عِنْدَ اللَّهِ** } أي سوء حالهم عقاب من الله، لا من عند موسى ومن معه. ، وهذا كما وقع في الحديث "ولا

طير إلا طيرك" ، فعبّر عمّا قدّره الله للنّاس (بطير) مشاكلة لقوله (ولا طير) ومن فسر الطائر بالحظ فقد أبعد عن السياق.

{ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ [132] فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ}[133]

فهم قابلوا المصائب التي أصابهم الله بها، ليذكّروا، بازدياد الغرور، وعاندوا موسى حين تحداهم بها فقالوا: مهما تأتنا به من أعمال سحرك العجيبة فما نحن لك بمؤمنين.

{ **مَهْمَا** } اسم مضمّن معنى الشرط، أي أيّما شيء تأتينا به فما نحن لك بمؤمنين.

الآية، العلامة الدالة، وقد تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ} [البقرة:39]، وفي قوله تعالى {وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} [الأنعام:37].

وهم لا يعدّونها آية ولكنهم جاروا موسى في التسمية بقرينة قولهم {لِتَسْحَرَنَا بِهَا} ، وفي ذلك استهزاء.

{ **فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ** } مفيدة المبالغة في القطع بانتفاء إيمانهم بموسى، لأنّهم جاءوا في كلامهم بما حوته الجملة الاسمية، التي حكته، من الدلالة على ثبوت هذا الانتفاء ودوامه، وبما تفيده الباء من توكيد النفي، وما يفيده تقديم متعلق مؤمنين من اهتمامهم بموسى في تعليق الإيمان به المنفي باسمه.

{ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ** } الفاء لتفريع إصابتهم بهذه المصائب على عتوّهم وعنادهم.

الإرسال، حقيقته توجيه رسول أو رسالة فيعدّى إلى المفعول الثاني بـ (إلى) ويضمن معنى الإرسال من فوق، فيعدّى إلى المفعول الثاني بـ (على)، قال تعالى: {وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ} [الفيل:3].

فحرف (على) دل على أنّ{ **فَأَرْسَلْنَا** } مفرعة تفريع العقاب لا تفريع زيادة الآيات.

الطوفان، السَّيْح الغالب من الماء الذي يغمر جهات كثيرة ويطغى على المنازل والمزارع.

الجراد، الحشرة الطائرة من فصيلة الصرصر والخنافس له أجنحة ستة ذات ألوان صفر وحمر تنتشر عند طيرانه، يكون جنودا كثيرة يسمى الجند منها رِجْلا. وهو مهلك للزرع والشجر، يأكل الورق والسنبل وورق الشجر وقشره، فهو من أسباب القحط. أصاب أرض قوم فرعون ولم يصب أرض بني إسرائيل.

القُمّل، (بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة) اسم نوع من القراد عظيم يسمى (الحُمّنان بضم الحاء المهملة وميم ساكنة ونونين) واحدته حُمنانة وهو يمتص دم الإنسان، وهو غير **القَمْل** (بفتح القاف وسكون الميم) الذي هو من الحشرات الدقيقة التي تكون في شعر الرأس وفي جلد الجسد يتكون من تعفّن الجلد لوسخه

ودسومته، ومن تعفّن جلد الرأس كثيرا، أصاب القبط عسر الاحتراز عنه، ولعلّه أصاب مواشيهم.
الضفادع، جمع ضفدع وهو حيوان يمشي على أرجل أربع ويسحب بطنه على الأرض ويسبح في المياه، ويكون في الغدران ومناقع المياه، صوته مثل القراقر يسمى نقيقا. كان يقع في طعامهم يرتمي إلى القدور، ويقع في في العيون والأسقية وفي البيوت فيفسد ما يقع فيه وتطوه أرجل النّاس فتتقذّر به البيوت، وقد سلمت منه بلاد جاسان منزل بني إسرائيل.
الدم، قيل: أصابهم رعاف متفشّ فيهم، وقيل: صارت مياه القبط كالدم في اللون، كما في التوراة، ولعلّ ذلك من حدوث دود أحمر في الماء فشبّه الماء بالدم، وسلمت مياه جاسان قرية بني إسرائيل.
وسمى الله هاته { **آيَاتٍ** } لأنّها دلائل على صدق موسى لاقترانها بالتحدي، ولأنّها دلائل على غضب الله عليهم لتظافرها عليهم حين صمّموا الكفر والعناد.
{ **مُفَصَّلاتٍ** } اسم مفعول من فصّل المضاعف الدال على قوّة الفصل. والفصل حقيقته التفرقة بين شيئين بحيث لا يختلط أحدهما بالآخر، ويستعار الفصل لإزالة اللبس والاختلاط، أي هي آيات لا شبهة في كونها كذلك لمن نظر نظر اعتبار.
وقيل: المراد أنّها مفصول بعضها عن بعض في الزمان، أي لم تحدث كلّها في وقت واحد، وعلى هذا فصيغة التفعيل للدلالة على تراخي المدة بين الواحدة والأخرى. ويجيء على هذا أنّ العذاب كان أشدّ وأطول زمنا كما دل عليه قوله تعالى { وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا}[الزخرف: 48]، قيل: كان بين الآية منها والأخرى مدة شهر أو مدة ثمانية أيام، وكانت تدوم الواحدة منها مدة ثمانية أيام وأكثر، وعلى هذا الوجه فالأنسب أن يجعل {مُفَصَّلاتٍ} حالا ثانية من الطوفان والجراد، وأن لا يجعل صفة { آيَاتٍ }.
{ **فَاسْتَكْبَرُوا** } الفاء للتفريع والترتّب، أي: فتفرّع على إرسال الطوفان وما بعده استكبارهم، كما تفرّع على أخذهم بالسنين غرورهم بأنّ ذلك من شؤم موسى ومن معه، وذلك دليل على انغماسهم في الضلالة والخذلان.
الاستكبار، شدّة التكبّر كما دلت عليه السين والتاء، أي تعاظمهم عن التصديق بموسى وإبطال دينهم إذ أعرضوا عن التصديق بتلك الآيات المفصّلات.
{ **وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ** } معطوفة على جملة {فَاسْتَكْبَرُوا} ، فالمعنى، فاستكبروا عن الاعتراف بدلالة تلك الآيات وأجرموا، وإنّما صيغ الخبر عن إجرامهم بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على ثبات وصف الإجرام فيهم، وتمكّنه منهم.
الإجرام، فعل الجرم وقد تقدّم عند قوله تعالى {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ} [40].

{ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائيلَ [134] **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ }** [135]

الرجز، العذاب فالتعريف باللام هنا للعهد أي العذاب المذكور وهو ما في قوله تعالى {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ}، والرجز من أسماء الطاعون، وقد تقدّم عند قوله تعالى {فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ} [البقرة:59]. أي أصابهم طاعون ألجأهم إلى التضرّع بموسى عليه السلام، فطوي ذكره للإيجاز.
وإنّما لم يذكر الرجز في عداد الآيات تخصيصا له بالذكر، لأنّ له نبأ عجيبا، فإنّه كان ملجئهم إلى الاعتراف بآيات موسى ووجود ربه تعالى.
وهذا الطاعون هو الموتان الذي حكي في الإصحاح الحادي عشر من سفر الخروج: " هكذا يقول الربّ إنّي أخرج نحو نصف الليل في وسط مصر فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحى وكلّ بكر بهيمة ". قيل مات سبعون ألف رجل في ذلك اليوم من القبط خاصة، ولم يصب بني إسرائيل منه شيء.
{ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ } وليس هذه قولهم عن إيمان بالله ورسالة موسى، ولكنّهم كانوا مشركين وكانوا يجوّزون تعدّد الآلهة واختصاص بعض الأمم وبعض الأقطار بآلهة لهم، فهم قد خامرهم من كثرة ما رأوا من آيات موسى أن يكون لموسى ربّ له تصرف وقدرة، وأنّه أصابهم بالمصائب لأنّهم أضرّوا عبيده، فسألوا موسى أن يكفّ عنهم ربّه ويكون جزاؤه الإذن لبني إسرائيل بالخروج من مصر ليعبدوا ربّهم، كما حكت التوراة في الإصحاح الثاني عشر عن فرعون.
فقد التبس حال موسى على فرعون فلم يدر أهو رسول من إله غير آلهة القبط، فلذلك قال له بما عهد عندك، أي بما عرّفك وأودع عندك من الأسرار، وهذه عبارة متحيّر في الأمر ملتبسة عليه الأدلة.
{ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ } مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ طلبهم من موسى الدعاء بكشف الرجز عنهم مع سابقية كفرهم به يثير سؤال موسى أن يقول: فما الجزاء على ذلك. واللام موطئة للقسم، و{لَنُؤْمِنَنَّ} جواب القسم.
{ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائيلَ } ووعدهم بالإيمان لموسى، وعد بالإيمان بأنّه صادق في أنّه مرسل من ربّ بني إسرائيل ليخرجهم من أرض مصر، وليس وعدا باتباع الدين الذي جاء به موسى عليه السلام، وقد جاء هذا الوعد على حسب ظنّهم أنّ الربّ الذي يدعو إليه موسى هو ربّ خاص به وبقومه، كما دلّ عليه قوله {ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ} وقد وضّحوا مرادهم بقولهم {وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائيلَ }.

{ **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ** } دالة على أنّ موسى دعا الله برفع الطاعون فارتفع، وقد جاء ذلك صريحا في التوراة، وحذف هنا للإيجاز.

{ **إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ** } وهو الأجل الذي قدّره الله لهلاكهم، فالغاية منظور فيها إلى فعل الكشف لا إلى مفعوله، وهو الرجز.

{ **إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ** } جواب (لمّا). وهذا وصف لهم بإضمار الكفر بموسى وإضمار النكث لليمين.

النكث، حقيقته نقض المفتول من حبل أو غزل، قال تعالى {وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً} [النحل: 92] واستعير النكث لعدم الوفاء بالعهد، كما استعير الحبل للعهد في قوله تعالى {إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ} [آل عمران: 112]، ففي قوله {يَنْكُثُونَ} استعارة تبعيّة.

وهذا النكث هو أن فرعون بعد أن أذن لبني إسرائيل بالخروج، وخرجوا من أرض جاسان ليلا قال لفرعون بعض خاصته: ماذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا فندم فرعون وجهز جيشا للالتحاق ببني إسرائيل ليردّوهم إلى منازلهم، كما هو في الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج.

{ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ }[136]

هذا محلّ العبرة من القصّة، فهو مفرع عليها تفريع النتيجة على المقدّمات والفذلكة على القصّة، فإنّه بعد أن وصف عناد فرعون وملئه وتكذيبهم رسالة موسى واقتراحهم على موسى أن يجيء بآية ومشاهدتهم آية انقلاب العصا ثعبانا، وتغيير لون يده، ورميهم موسى بالسحر، وسوء المقصد، ومعارضة السحرة معجزة موسى وتغلّب موسى عليهم، وكيف أخذ الله آل فرعون بمصائب جعلها آيات على صدق موسى، وكيف كابروا وعاندوا، حتى ألجئوا إلى أن وعدوا موسى بالإيمان وتسريح بني إسرائيل معه وعاهدوه على ذلك، فلما كشف عنهم الرجز نكثوا، فأخبر الله بأن ذلك ترتّب عليه استئصال المستكبرين المعاندين، وتحرير المؤمنين الذين كانوا مستضعفين.

الانتقام، افتعال، وهو العقوبة الشديدة الشبيهة بالنَقْم. وتقدّم الكلام على المجرّد من هذا الفعل عند قوله تعالى {وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا} [126].

وكان إغراقهم انتقاما من الله لذاته لأنّهم جحدوا انفراد الله بالإلهيّة، أو جحدوا إلهيّته أصلا، وانتقاما أيضا لبني إسرائيل لأنّ فرعون وقومه ظلموا بني إسرائيل وأذلّوهم واستعبدوهم باطلا.

الإغراق، الإلقاء في الماء المستبحر الذي يغمر الملقى فلا يترك له تنفّسا، وهو بيان للانتقام وتفصيل لمجمله.

اليم، البحر والنهر العظيم، قيل هو كلمة عربية، وقال بعض اللغويين: هو معرب عن السريانية وأصله فيها

يما وقال شَيْدَلَةُ: هو من القبطية، وقال ابن الجوزي: هو من العبرية، ولعله موجود في هذه اللغات. والمراد به هنا بحر القلزم، المسمّى في التوراة بحر سُوف، وهو البحر الأحمر.

وقد أطلق اليمّ على نهر النيل في قوله تعالى {أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ} [طه: 39] وقوله {فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ} [القصص: 7].

وقد أُغرق فرعون وجنده في البحر الأحمر حين لحق بني إسرائيل يريد صدهم عن الخروج من أرض مصر وتقدّمت الإشارة إلى ذلك في سورة البقرة وسيأتي تفصيله عند قوله تعالى {حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ} [يونس:90].

{ **بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** }الباء للسببية، أي أغرقناهم جزاء على تكذيبهم بالآيات.

الغفلة، ذهول الذهن عن تذكّر شيء، وتقدّمت في قوله تعالى {وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ} [الأنعام:156] وأريد بها التغافل عن عمد، وهو الإعراض عن التفكّر في الآيات، وإباية النظر في دلالتها على صدق موسى، فإطلاق الغفلة على هذا مجاز.

وهذا تعريض بمشركي العرب في إعراضهم عن التفكّر في صدق الرسول ﷺ، ودلالة معجزة القرآن.

وقد صيغ الإخبار عن إعراضهم بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على أنّ هذا الاعراض ثابت لهم، وراسخ فيهم، وأنه هو علة التكذيب، المصوغ خبره بصيغة الجملة الفعلية لإفادة تجدّده عند تجدد الآيات.

{ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ } [137]

{ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا }

عطف على {فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ}، والمعنى، فأخذناهم بالعقاب الذي استحقّوه، وجازينا بني إسرائيل بنعمة عظيمة.

{ **أَوْرَثْنَا** } تقدم عند قوله تعالى {أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا} [الأعراف: 100]، والمراد هنا تمليك بني إسرائيل جميع الأرض المقدّسة بعد أهلها من الأمم التي كانت تملكها من الكنعانيين وغيرهم.

الذين كانوا يستضعفون، هم بنو إسرائيل كما وقع في قوله {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرائيلَ} [الشعراء:59].

وعدل عن تعريفهم بطريق الإضافة إلى تعريفهم بطريق الموصولية لنكتتين:

الأولى: الإيماء إلى علّة الخبر، أي أنّ الله ملّكهم الأرض وجعلهم أمّة حاكمة جزاء لهم على ما صبروا على الاستعباد، غيرة من الله على عبيده.

الثانية: التعريض ببشارة المؤمنين بمحمد ﷺ بأنّهم ستكون لهم عاقبة السلطان كما كانت لبني إسرائيل، جزاء

على صبرهم على الأذى في الله، ونذارة المشركين بزوال سلطان دينهم.

يستضعفون، يستعبدون ويهانون.

المشارق والمغارب، المراد بهما إحاطة الأمكنة.

{ **الْأَرْضَ** } أرض الشام، وهي الأرض المقدّسة وهي تبتديء من السواحل الشرقية الشمالية للبحر الأحمر وتنتهي إلى سواحل بحر الروم (البحر المتوسط) وإلى حدود العراق وحدود بلاد العرب وحدود بلاد الترك.

{ **الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** } صفة للأرض أو لمشارقها ومغاربها، لأنّ ما صدقيهما متحدان، أي قدرنا لها البركة. وقد مضى الكلام على البركة عند قوله تعالى {لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ} [96].

{ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** } التنويه بفضيلة الصبر وحسن عاقبته.

{ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى** } هي القول، وهو هنا يحتمل أن يكون المراد به اللفظ الذي وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ} [129]، أو على لسان إبراهيم، وهي وعد تمليكهم الأرض المقدسة. وتمام الكلمة تحقّق وعدها، شبّه تحققها بالشيء إذا استوفى أجزاءه.

ويحتمل أنّها كلمة الله في علمه وقدره، وهي إرادة الله إطلاقهم من استعباد القبط وإرادته تمليكهم الأرض المقدسة كقوله {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ} [النساء: 171]، وتمام الكلمة بهذا المعنى ظهور تعلقها التنجيزي في الخارج على نحو قول موسى {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} [المائدة: 21]، وقد تقدّم عند قوله تعالى {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً} [الأنعام:115].

{ **الْحُسْنَى** } صفة تشريف، كما يقال الأسماء الحسنى، أي كلمة ربك المنزّهة عن الخلف. ويحتمل أن يكون المراد حسنها لبني إسرائيل، وإن كانت سيّئة على فرعون وقومه.

والخطاب في قوله { **رَبِّكَ** } للنبي ﷺ، أدمج في ذكر القصة إشارة إلى أنّ الذي حقّق نصر موسى وأمّته على عدوّهم هو ربك، فسينصرك وأمّتك على عدوّكم لأنّه ذلك الرب الذي نصر المؤمنين السابقين، وتلك سنته وصنعه، وليس في الخطاب التفات من الغيبة إلى الخطاب لاختلاف المراد من الضمائر.

{ **عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا** } الإشارة إلى تضمين {تَمَّتْ} معنى الإنعام، أو معنى حقّت.

{ **بِمَا صَبَرُوا** } الباء للسببية، أي بصبرهم على الأذى في ذات الإله.

{ **وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ** }

التدمير، التخريب الشديد وهو مصدر دمّر الشيء إذا جعله دامرا.

{ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ } ما شاده من المصانع، وإسناد الصنع إليه مجاز عقلي لأنّه الآمر بالصنع، وأمّا إسناده إلى قوم فرعون فهو على الحقيقة العقلية بالنسبة إلى القوم لا بالنسبة إلى كل فرد على وجه التغليب.

{ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ } ينشئون من الجنات ذات العرايش.

العريش، ما يرفع من دوالي الكروم، ويطلق أيضا على النخلات العديدة تربى في أصل واحد، ولعل جنّات القبط كانت كذلك، كما تشهد به بعض الصور المرسومة على هياكلهم نقشا ودهنا، وتقدّم في قوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ} [الأنعام:141].

وذلك أن الله خرّب ديار فرعون وقومه المذكورين، ودمر جناتهم بما ظلموا بالاهمال، أو بالزلزال، أو على أيدي جيوش أعدائهم الذين ملكوا مصر بعدهم.

ويجوز أن يكون {يَعْرِشُونَ} بمعنى يرفعون، أي يشيّدون من البناء مثل مباني الاهرام والهياكل وهو المناسب لفعل {وَدَمَّرْنَا}.

{ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ [138] إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [139] قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } [140]

لمّا تمت العبرة بقصة بعث موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، وكيف نصره الله على عدوّه، ونصر قومه وأهلك عدوّهم، كشأن سنّة الله في نصر الحقّ على الباطل، استرسل الكلام إلى وصف تكوين أمّة بني إسرائيل وما يحقّ أن يعتبر به من الأحوال العارضة لهم في خلال ذلك مما فيه طمأنينة نفوس المؤمنين الصالحين في صالح أعمالهم، وتحذيرهم مما يرمي بهم إلى غضب الله فيما يحقّرون من المخالفات، لما في ذلك كله من التشابه في تدبير الله تعالى أمور عبيده، وسنّته في تأييد رسله وأتباعهم، وإيقاظ نفوس الأمّة إلى مراقبة خواطرهم ومحاسبة نفوسهم في شكر النعمة ودحض الكفران.

المجاوزة، البعد عن المكان عقب المرور فيه، يقال: جاوز بمعنى جاز.

البحر، هو بحر القلزم المعروف اليوم بالبحر الأحمر، وهو المراد باليمّ في الآية السابقة، واختلاف اللفظ تفنن، تجنبا للإعادة. والمعنى، أنهم قطعوا البحر وخرجوا على شاطئه الشرقي.

{ أَتَوْا عَلَى قَوْمٍ } معناه أتوا قوما، ولمّا ضمّن معنى مروا عدي بـ (على)، لأنّهم لم يقصدوا الإقامة في القوم، ولكنّهم ألفوهم في طريقهم.

القوم، هم الكنعانيّون ويقال لهم عند العرب العمالقة، ويعرفون عند متأخري المؤرخين بالفنيقيين.

الأصنام، كانت صور البقر، وقد كان البقر يعبد عند الكنعانيين(الفنيقيين) باسم **(بعل)**. وتقدّم بيان ذلك عند

قوله تعالى {ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ} [البقرة:51]

العكوف، الملازمة بنيّة العبادة. و تقدّم عند قوله تعالى {وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ} [البقرة:187].

واختير طريق التنكير في أصنام ووصفه بأنّها لهم، للتحقير، لأنّ التنكير يستلزم خفاء المعرفة.

وقال ابن عرفة التونسي بأنّه زيادة تشنيع بهم وتنبيه على جهلهم وغوايتهم في أنّهم يعبدون ما هو ملك لهم فيجعلون مملوكهم إلاههم.

{ **قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** } ونداؤهم موسى وهو معهم مستعمل في طلب الإصغاء لما يقولونه، إظهارا لرغبتهم فيما سيطلبون، وسمّوا الصنم إلها لجهلهم، فهم يحسبون أنّ اتخاذ الصنم يجدي صاحبه، كما لو كان آلهه معه، وهذا يدل على أنّ بني إسرائيل قد انخلعوا في مدة إقامتهم بمصر عن عقيدة التوحيد وحنيفيّة إبراهيم ويعقوب، لأنّهم لمّا كانوا في حال ذلّ واستعباد ذهب علمهم وتاريخ مجدهم واندمجوا في ديانة الغالبين لهم فلم تبق لهم ميزة تميّزهم إلّا أنهم خدمة وعبيد.

{ **كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** } التشبيه أرادوا به حضّ موسى على إجابة سؤالهم، وابتهاجا بما رأوا من حال القوم الذين حلوا بين ظهرانيهم. وكفى بالأمّة خسّة عقول أن تعد القبيح حسنا، وأن تتخذ المظاهر المزيّنة قدوة لها، وأن تنخلع عن كمالها في اتباع نقائص غيرها.

{ **قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** } كان جواب موسى عليه السلام بعنف وغلظة لانّ ذلك هو المناسب لحالهم.

الجهل، انتفاء العلم، أو تصوّر الشيء على خلاف حقيقته. وتقدّم في قوله تعالى {لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ} [النساء:17]. والمراد جهلهم بمفاسد عبادة الأصنام.

{ **إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ** }

المتبّر، المدمّر، والتَّبار (بفتح التاء) الهلاك {وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً} [نوح: 28]. يقال **تَبَرَ** الشيء كضرب وقتل، و**تبّره** تضعيف للتعدية، أي أهلكه. والتتبير مستعار هنا لفساد الحال.

ويجوز أن يكون التتبير مستعار لسوء العاقبة.

{ **مَا هُمْ فِيهِ** } عبادة الأصنام وما تقتضيه من الضلالات والسيئات، ولذلك اختير في تعريفها طريق الموصولية، لأنّ الصلة تحيط بأحوالهم التي لا يحيط بها المتكلّم ولا المخاطبون.

{ **قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً** } يعاد لفظ { قَالَ} في حكاية الأقوال إذا طال المقول، أو لأنّه انتقال من غرض التوبيخ على سؤالهم إلى غرض التذكير بنعمة الله عليهم، وأنّ شكر النعمة يقتضي زجرهم عن محاولة عبادة غير المنعم.

والاستفهام للإنكار والتعجّب من طلبهم أن يجعل لهم إلها غير الله.

{ أَبْغِيكُمْ } همزة المتكلّم للفعل المضارع، وهو مضارع بغَى بمعنى طلب، ومصدره البُغاء (بضم الباء).

وفعله يتعدى إلى مفعول واحد، ومفعوله هو {أَغَيْرَ اللَّهِ} لأنّه هو الذي ينكر موسى أن يكون يبغيه لقومه.

{ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } في موضع الحال. وظاهر صوغ الكلام على هذا الاسلوب أنّ تفضيلهم على العالمين كان معلوما عندهم لأنّ ذلك هو المناسب للانكار، ويحتمل أنّه أراد إعلامهم بذلك وأنّه أمر محقّق.

على العالمين، أمم عصرهم. وتفضيلهم عليهم بأنّهم ذريّة رسول وأنبياء، وبأنّ منهم رسلا وأنبياء، وبأنّ الله هداهم إلى التوحيد والخلاص من دين فرعون بعد أن تخبّطوا فيه، وبأنّه جعلهم أحرارا بعد أن كانوا عبيدا، وساقهم إلى امتلاك أرض مباركة وأيّدهم بنصره وآياته، وبعث فيهم رسولا ليقيم لهم الشريعة. وهذه الفضائل لم تجتمع لأمة غيرهم يومئذ.

{ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ }[141]

من تتمّة كلام موسى عليه السلام كما يقتضيه السياق، ويعضده قراءة ابن عامر {وَإِذْ أَنْجَاكُمْ}.

ويجوز أن يكون هذا امتنانا من الله، انتقالا من الخبر والعبرة إلى النعمة والمنة.

واختار الطبري وجماعة أن يكون قوله {وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ} خطابا لليهود الموجودين في زمن محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا لا يستقيم لأنّ سورة الأعراف مكيّة ولم يكن في المكّي من القرءان هو مجادلة مع اليهود.

{ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ } إلى آخر الآية تقدّم تفسير مشابهتها في سورة البقرة.

{ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ }[142]

{ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً }

عود إلى بقية حوادث بني إسرائيل، بعد مجاوزتهم البحر.

المواعدة، تقدّم الكلام على معناها في نظير هذه الآية في سورة البقرة، وقرأ أبو عمرو(ووعدنا).

والموعود به هو الحضور لتلقي الشريعة.

وقد جعل الله مدّة المناجاة ثلاثين ليلة تيسيرا عليه، فلما قضاها وزادت نفسه الزكية تعلقا ورغبة في مناجاة

الله وعبادته، زاده الله من هذا الفضل عشر ليال، فصارت مدة المناجاة أربعين ليلة، وقد ذكر بعض المفسرين قصة في سبب زيادة عشر ليال، لم تصح.

ولم يزده على أربعين ليلة، إمّا لأنّه قد بلغ أقصى ما تحتمله قوته البشريّة، فباعده الله من أن تعرض له السآمة في عبادة ربه، وقد قال النبي ﷺ: " عليكم من الأعمال بما تطيقون فان الله لا يملّ حتّى تملّوا" .

وإمّا لأنّ زيادة مغيبه عن قومه تفضي إلى إضرار، فقد قيل إنّهم عبدوا العجل في العشر الليالي الأخيرة من الأربعين ليلة،.

{ **وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ** } سمّيت زيادة الليالي العشر إتماما إشارة إلى أنّ الله تعالى أراد أن تكون مناجاة موسى أربعين ليلة، ولكنّه لمّا أمره بها أمره بها مفرّقة، إمّا لحكمة الاستيناس، وإمّا لتكون تلك العشر عبادة أخرى فيتكرّر الثواب.

والمراد الليالي بأيامها فاقتصر على الليالي لأن المواعدة كانت لأجل الانقطاع للعبادة وتلقي المناجاة.

على أنّ الغالب في الكلام العربي التوقيت بالليالي، ويريدون أنّها بأيّامها، لأنّ الأشهر العربية تبتدأ بالليالي إذ هي منوطة بظهور الأهلّة.

{ **فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** } فذلكة الحساب كما في قوله {فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [البقرة: 196]، فالفاء للتفريع.

التمام، مستعمل في معنى النماء والتفوّق، فكان ميقاتا أكمل وأفضل، إشارة إلى أنّ زيادة العشر كانت لحكمة عظيمة تكون مدة الثلاثين بدونها غير بالغة أقصى الكمال، وأنّ الله قدّر المناجاة أربعين ليلة، ولكنّه أبرز الأمر لموسى مفرّقا تيسيرا عليه، وليكون إقباله على إتمام الأربعين باشتياق وقوة.

الميقات، قيل مرادف للوقت، وقيل هو وقت قدّر فيه عمل ما، وتقدم في قوله تعالى {قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} [البقرة:189]

{ **رَبِّهِ** } للتشريف، وللتعريض بتحميق بعض قومه حين تأخّر مغيب موسى عنهم في المناجاة بعد الثلاثين، فزعموا أنّ موسى هلك في الجبل كما رواه ابن جريج، ويشهد لبعضه كلام التوراة في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج.

{ **وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ** }

عند العزم على الصعود إلى الجبل للمناجاة فإنه صعد وحده ومعه غلامه يوشع بن نون.

{ **اخْلُفْنِي** } كن خلفا عني وخليفة، وهو الذي يتولى عمل غيره عند فقده فتنتهي تلك الخلافة عند حضور المستخلف، فالخلافة وكالة.

{ **وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ** } جمع له في وصيّته ملاك السياسة، فانّ سياسة الأمّة تدور حول محور

الاصلاح ، وهذا أمر لهارون جامع لما يتعين عليه عمله من أعماله في سياسة الأمة، وفيه تحذير من الفساد بأبلغ صيغة. وقد أجرى الله على لسان رسوله موسى، أو أعلمه، ما يقتضي أن في رعيّة هارون مفسدين، وانه يوشك إن سلكوا سبيل الفساد أن يسايرهم عليه، لما يعلم في نفس هارون من اللين في سياسته.

الإتباع، هنا مستعار للمشاركة في عمل المفسد. ففي هذا النهي سد ذريعة الفساد، وسد ذرائع الفساد من أصول الاسلام، وقد عني بها مالك بن أنس وكرّرها في كتابه واشتهرت هذه القاعدة في أصول مذهبه.

{ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ [143] قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ } [144]

جعل مجيء موسى للميقات وتكليم الله إيّاه شرطا لحرف { **لَمَّا** } لأنّه كالمعلوم، وجعل الإخبار متعلقا بما بعد ذلك، وهو اعتبار بعظمة الله وجلاله.

المجيء، انتقاله من بين قومه إلى جبل سينا المعيّن فيه مكان المناجاة.

{ **وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ** } التكليم حقيقته النطق بالألفاظ المفيدة معاني بحسب وضع مصطلح عليه، وهذه الحقيقة مستحيلة على الله تعالى لانّها من أعراض الحوادث، فتعيّن أن يكون إسناد التكليم إلى الله مجازا مستعملا في الدلالة على مراد الله تعالى بألفاظ من لغة المخاطب به، بكيفية يوقن المخاطب به أنّ ذلك الكلام من أثر قدرة الله على وفق الإرادة ووفق العلم. وهو تعلّق تنجيزي بطريق غير معتاد، فيجوز أن يخلق الله الكلام في شيء حادث سمعه موسى كما روي أن الله خلق الكلام في الشجرة التي كان موسى حذوها، وذلك أوّل كلام كلّمه الله موسى في أرض مدين في جبل حوريب، ويجوز أن يخلق الله الكلام من خلال السحاب وذلك الكلام الواقع في طور سينا وهو المراد هنا، وهو المذكور في الإصحاح 19 من سفر الخروج.

والكلام بهذه الكيفية كان يسمعه موسى حين يكون بعيدا عن النّاس في المناجاة أو نحوها، وهو أحد الأحوال الثلاثة التي يكلم الله بها أنبياءه كما في قوله تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً} [الشورى :51]. وهو حادث لا محالة ونسبته إلى الله أنّه صادر بكيفيّة غير معتادة لا تكون إلّا بإرادة الله أن يخالف به المعتاد تشريفا له، وهو المعبّر عنه بقوله {أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ} [الشورى: 51].

وقد كلم الله تعالى محمدا ﷺ ليلة الإسراء، وأحسب الأحاديث القدسيّة كلّها أو معظمها مما كلّم الله به محمدا ﷺ.

وأمّا إرسال الله جبريل بكلام إلى أحد أنبيائه فهي كيفيّة أخرى، وذلك بإلقاء الكلام في نفس الملك الذي يبلّغه إلى النبي، والقرآن كلّه من هذا النوع، وقد كان الوحي إلى موسى بواسطة الملك في أحوال كثيرة وهو الذي

يعبّر عنه في التوراة بقولها: قال الله لموسى.

{ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ } سؤال موسى رؤية الله تعالى تطلّع إلى زيادة المعرفة بالجلال الإلهي، لأنّه لمّا كانت المواعدة تتضمن الملاقاة، وكانت الملاقاة تعتمد رؤية الذات وسماع الحديث، وحصل لموسى أحد ركني الملاقاة وهو التكليم، أطمعه ذلك في الركن الثاني وهو المشاهدة، ومما يؤذن بأنّ التكليم هو الذي أطمع موسى في حصول الرؤية جعل جملة {وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} شرطا لحرف (لمّا)، لأنها تدلّ على شدة الارتباط بين شرطها وجوابها.

{ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي }

{ لَنْ } نفت رؤية موسى ربّه نفيا لا طمع بعده للسائل في الإلحاح والمراجعة، بحيث يعلم أنّ طلبته متعذّرة الحصول، وإنّما يتعلّق ذلك كلّه بهذه الحياة المعبّر عنها بالأبد، فلا دلالة في هذا النفي على استمراره في الدار الآخرة.

{ لَكِنِ } الاستدراك لرفع توهّم المخاطب الاقتصار على نفي الرؤية بدون تعليل ولا إقناع، أو أن يتوهّم أنّ هذا المنع لغضب على السائل ومنقصة فيه. وذلك أنّه أمره بالنظر إلى الجبل الذي هو فيه، هل يثبت في مكانه، وهذا يعلم منه أنّ الجبل سيتوجه إليه شيء من شأن الجلال الإلهي، وأنّ قوة الجبل لا تستقر عند ذلك التوجه العظيم، فيعلم موسى أنّه أحرى بتضاؤل قواه الفانية لو تجلى له شيء من سبحات الله تعالى.

{ فَسَوْفَ تَرَانِي } ليس بوعد بالرؤية، ولكنّه إيذان بأنّ المقصود من نظره إلى الجبل أن يرى رأي اليقين عجز القوّة البشريّة عن رؤية الله تعالى.

{ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً }

التجلّي، حقيقة الظهور وإزالة الحجاب، وهو هنا مجازا، ولعلّه أريد به إزالة الحوائل المعتادة التي جعلها الله حجابا بين الموجودات الأرضية وبين قوى الجبروت التي استأثر الله تعالى بتصريفها على مقادير مضبوطة ومتدرّجة في عوالم مترتّبة ترتيبا يعلمه الله.

الدك، مصدر وهو والدقّ مترادفان وهو الهدّ، وتفرّق الأجزاء كقوله {وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً} [مريم: 90]، وقد أخبر عن الجبل بأنّه جعل دكا للمبالغة، والمراد أنه مدكوك أي: مدقوق مهدوم.

وقرأ الكسائي، وحمزة، وخلف **{ دكّاء }** (بمد بعد الكاف وتشديد الكاف) والدكّاء الناقة التي لا سنام لها، فهو تشبيه بليغ، أي كالدكاء أي ذهبت قُنته.

{ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ }

الخرور، السقوط على الأرض.

الصعق، وصف بمعنى المصعوق، ومعناه المغشي عليه من صيحة ونحوها، مشتق من اسم الصاعقة وهي

القطعة النارية التي تبلغ إلى الأرض من كهرباء البرق، فإذا أصابت جسما أحرقته، وإذا أصابت الحيوان من قريب أماتته، أو من بعيد غشي عليه من رائحتها.

الإفاقة، رجوع الإدراك بعد زواله بغشي، أو نوم، أو سكر، أو تخبّط جنون.

{ **قَالَ سُبْحَانَكَ** } مصدر جاء عوضا عن فعله، أي اسبّحك، وهو هنا إنشاء ثناء على الله وتنزيه عما لا يليق به، لمناسبة سؤاله منه ما تبيّن له أنّه لا يليق به .

{ **تُبْتُ إِلَيْكَ** } إنشاء لتوبة من العود إلى مثل ذلك دون إذن من الله، وهذا كقول نوح عليه السلام {رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ} [هود:47]

{ **وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** } إطلاق الأوّل على المبادر مجاز شائع مساو للحقيقة، والمراد به هنا وفي نظائره الكناية عن قوة إيمانه، فهو للمبالغة وتقدّم نظيره في قوله تعالى {وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} [البقرة:41].

{ **قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** }

فصلت لوقوع القول في طريق المحاورة والمجاوبة، والنداء للتأنيس وإزالة الروع.

{ **إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ** } تأكيد الخبر للاهتمام به إذ ليس محلا للانكار.

الاصطفاء، افتعال مبالغة في الاصفاء وهو مشتق من الصّفْو، وهو الخلوص ممّا يكدّر، وتقدّم عند قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً} [آل عمران:33]. وضمن اصطفيتك معنى الإيثار والتفضيل فعدي بعلى.

{ **عَلَى النَّاسِ** } جميع النّاس، أي الموجودين في زمنه، فالاستغراق عرفي، أي هو مفضّل على النّاس يومئذ لأنه رسول، ولتفضيله بمزيّة الكلام.

{ **فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** }

الإيتاء، مجاز أطلق على التعليم والإرشاد، و**الأخذ** مجاز في التلقي والحفظ، والأظهر ان يكون { **مَا آتَيْتُكَ** } إعطاء الألواح بقرينة قوله {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ} [الأعراف: 145] وقد فسّر بذلك. فالإيتاء حقيقة، والأخذ كذلك، وهذا أليق بنظم الكلام.

{ **وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ** } أبلغ من أن يقال كن شاكرا.

{ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ } [145]

الألواح، جمع لَوح (بفتح اللام) وهو قطعة مربعة من الخشب، وكانوا يكتبون على الألواح، أو لأنّها ألواح معهودة للمسلمين الذين سيقت إليهم تفاصيل القصّة.

وتسمية الألواح التي أعطاها الله موسى ألواحا مجاز بالصورة، لأنّ الألواح التي أعطيها موسى كانت من حجارة، كما في التوراة في الإصحاح [24] من سفر الخروج. فتسميتها الألواح لأنّها على صورة الألواح. وأسندت الكتابة إلى الله تعالى لأنّها كانت مكتوبة نقشا في الحجر من غير فعل إنسان بل بمحض قدرة الله تعالى، كما يفهم من الإصحاح [32].

{ **مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** } (من) تبعيضيّة متعلّقة بـ {كَتَبْنَا}، ومفعول {كَتَبْنَا} محذوف دلّ عليه فعل كتبنا اي مكتوبا، ويجوز جعل (من) اسما بمعنى بعض، فيكون منصوبا على المفعول به بكتبنا، اي كتبنا له بعضا من كلّ شيء، وهذا كقوله تعالى { وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ }[النمل:16]

وكلّ شيء عام عموما عرفيّا، أي كلّ شيء تحتاج إليه الأمّة في دينها على طريقة قوله تعالى {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: 38].

والذي كتب الله لموسى في الألواح هو أصول كليّات هامة للشريعة التي أوحى الله بها إلى موسى عليه السلام وهي ما في الإصحاح [20] من سفر الخروج ونصّها:

" أنا الربّ إلهك الذي أخرجك من ارض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك، آلهة أخرى أمامي، لا تصنع تمثالا منحوتا، ولا صورة ما ممّا في السماء، من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنّي أنا الربّ إلهك غيور افتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي واضع إحسانا إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي. لا تنطق باسم الربّ إلهك باطلا لانّ الربّ لا يبرئ من نطق باسمه باطلا. اذكر يوم السبت لتقدّسه، ستّة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأمّا اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك لا تصنع عملا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأختك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك، لأنّ في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الربّ يوم السبت وقدّسه، أكرم أباك وأمّك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك. لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد على قريبك شهادة زور. لا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا امته، ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك ".

واشتهرت عند بني إسرائيل بالوصايا العشر، وبالكلمات العشر، اي الجمل العشر.

الموعظة، اسم مصدر الوعظ، وهو نصح بإرشاد مشوب بتحذير من لحاق ضر في العاقبة أو بتحريض على جلب نفع، مغفول عنه، وتقدّم عند قوله تعالى {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ} [البقرة:275]

التفصيل، التبيين للمجملات، ولعلّ الموعظة هي الكلمات العشر والتفصيل ما ذكر بعدها من الأحكام في الإصحاحات التي ذكرناها.

{ **فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ** } بدل من قوله {فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ}، بدل اشتمال، لأنّ الأخذ بقوّة يشتمل عليه الأخذ المطلق، وقد

اقتضاه العود إلى ما خاطب الله به موسى اثر صعقته إتماما لذلك الخطاب، فأعيد مضمون ما سبق ليتصل ببقيته، فيكون بمنزله أن يقول فخذ ما آتيتك بقوة وكن من الشاكرين، ويكون ما بينهما بمنزلة اعتراض.

القوّة هنا، تمثيل لحالة العزم على العمل بما في الالواح، بمنتهى الجدّ والحرص دون تأخير ولا تساهل ولا انقطاع عند المشقة ولا ملل، بحالة القوي الذي لا يستعصي عليه عمل يريده. ومنه قوله تعالى {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} [مريم:12]

{ **وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا** } تعريج على ما هو حظّ عموم الأمّة من الشريعة، وهو التمسّك بها. فهذا الأخذ مجاز في التمسّك والعمل، ولذلك عدي بالباء الدالة على اللصوق، يقال: أخذ بكذا إذا تمسّك به.

{ **بِأَحْسَنِهَا** } وصف مسلوب المفاضلة مقصود به المبالغة في الحسن، فإضافتها إلى ضمير الألواح على معنى اللام، أي بالأحسن الذي هو لها وهو جميع ما فيها، لظهور أنّ ما فيها من الشرائع ليس بينه تفاضل بين أحسن ودون الأحسن، بل كلّه مرتبة واحدة فيما عين له، ولظهور أنّهم لا يؤمنون بالأخذ ببعض الشريعة وترك بعضها، فقرائن سلب صيغة التفضيل عن المفاضلة قائمة واضحة، فلا وجه للتردد في تفسير الأحسن في هذه الآية. وهذه نظير قوله تعالى {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} [الزمر: 55].

والمعنى: وأمر قومك يأخذوا بما فيها لحسنها.

{ **سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ** } كلام موجّه إلى موسى عليه السلام، فيجوز ان يكون منفصلا عن الكلام الذي قبله فيكون استئنافا ابتدائيا. وهو وعد له بدخولهم الأرض الموعودة.

ويجوز أن تكون الجملة متصلة بما قبلها فتكون من تمام جملة {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا} على أنّها تحذير من التفريط في شيء مما كتب له في الألواح، والمعنى سأبين لكم عقاب الذين لا يأخذون بها.

الدار، المكان الذي تسكنه العائلة، والمكان الذي يحلّه الجماعة من حي أو قبيلة كما قال تعالى {فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [الأعراف: 91] وقد تقدم. وتطلق الدار على ما يكون عليه النّاس أو المرء من حالة مستمرة ومنه قول تعالى {فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: 24].وقد يراد بها مآل المرء ومصيره، لأنّه بمنزلة الدار يأوي إليه في شأنه، وقد تقدّم عند قوله تعالى {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ} [الأنعام:135].

الإراءة، من رأى البصريّة لأنها عدّيت إلى مفعولين فقط.

وأوثر فعل {أُرِيكُمْ} دون (سأدخلكم) ، لأنّ الله منع معظم القوم الذين كانوا مع موسى من دخول الأرض المقدّسة لمّا امتنعوا من قتال الكنعانيين كما تقدم في قوله تعالى {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ} [المائدة:26].

وفي الإصحاح [34]: " وصعد موسى إلى الجبل (نبو) فأراه الله جميع الأرض وقال له هذه الأرض التي أقسمت لإبراهيم قائلا لنسلك أعطيهما قد أريتك إياها بعينيك ولكنك لا تعبر".

ويجوز أن يكون فعل أريكم كناية عن الحلول في دار الفاسقين، والحلول في ديار قوم لا يكون إلا بالفتح والغلبة، فالإراءة رمز إلى الوعد بفتح بلاد الفاسقين، والمراد بالفاسقين المشركون.

{ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ }[146]

يجوز أن تكون هذه الآية تكملة لما خاطب الله به موسى وقومه، فتكون استئنافا بيانيّا، لأنّ بني إسرائيل كانوا يهابون أولئك الأقوام، وقد حكي ذلك في الإصحاح [14] من سفر العدد، فأجيبوا بأنّ الله سيصرف أولئك عن آياته.

الصرف، الدفع أي سأصدّ عن آياتي، أي عن تعطيلها وإبطالها. و**الآيات**، الشريعة.

ووعد الله أهلها بان يورثهم ارض الشام، فالصرف، على هذا الوجه، عناية من الله بموسى وقومه بما يهيّء لهم من أسباب النصر على أولئك الأقوام الأقوياء، كإلقاء الرعب في قلوبهم، وتشتيت كلمتهم، وإيجاد الحوادث التي تفتّ في ساعد عدتهم.

التكبّر، الاتصاف بالكبر. وقد صيغ له الصيغة الدالة على التكلّف، وقد بيّنّا ذلك عند قوله تعالى {أَبَى وَاسْتَكْبَرَ}[البقرة: 34].

{ **فِي الْأَرْضِ** } لتفضيح تكبّرهم، والتشهير بهم، أي ليس هو خفيّا مقتصرا على انفسهم، بل هو مبثوث في الأرض، أي مبثوث اثره. فهو تكبّر شائع في بقاع الأرض كقوله تعالى { يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } [يونس: 23]

{ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** } زيادة لتشنيع التكبّر بذكر ما هو صفة لازمة له، وهو مغايرة الحقّ، أي باطل، وهي حال لازمة للتكبّر، كاشفة لوصفه، إذ التكبّر لا يكون بحقّ في جانب الخلق، وإنّما هو وصف لله بحق لأنّه العظيم على كل موجود، وليس تكبر الله بمقصود أن يحترز عنه هنا حتّى يُجعل القيد {بِغَيْرِ الْحَقِّ} للاحتراز عنه، كما في الكشاف.

{ **وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا** } عطف على قوله {يَتَكَبَّرُونَ} فهو في حكم الصلة، والقول فيه كالقول في قوله {لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ} [يونس:96، 97].

{ **كلّ**} مستعملة في معنى الكثرة، كما في قوله تعالى {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ} [البقرة:145]

{ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً }

السبيل، مستعار لوسيلة الشيء، بقرينة إضافته إلى الرشد وإلى الغيّ. و**الرؤية**، مستعارة للإدراك.
الاتخاذ، حقيقته مطاوع أخّذه (بالتشديد)، إذا جعله آخذا، ثم أطلق على أخذ الشيء ولو لم يعطه إياه غيره، وهو هنا مستعار للملازمة، أي لا يلازمون طريق الرشد، ويلازمون طريق الغيّ.
الرُّشد، الصلاح وفعل النافع، و تقّدم في قوله تعالى {فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً} [النساء:6] والمراد به هنا، الشيء الصالح كلّه، من الإيمان والأعمال الصالحة.
الغيّ، الفساد والضلال، وهو ضدّ الرشد بهذا المعنى، كما أنّ السّفه ضد الرشد بمعنى حسن النظر في المال.
فالمعنى، إن يدركوا الشيء الصالح لم يعملوا به، لغلبة الهوى على قلوبهم. وإنّ يدركوا الفساد عملوا به.
وقرا الجمهور الرشد (بضم فسكون)، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بفتحتين، وهما لغتان فيه.
{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** } مستأنفة استئنافا بيانيا، أي كبرهم، وعدم إيمانهم، وأتّباعهم سبيل الغيّ، وإعراضهم عن سبيل الرشد سببه تكذيبهم بالآيات. والمعنى، أنّهم ابتدأوا بالتكذيب، ولم ينظروا، ولم يهتمّوا بالتأمّل في الآيات فداموا على الكبر وما معه، فصرف الله قلوبهم عن الانتفاع بالآيات.
{ **وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** } **الغفلة**، انصراف العقل والذهن عن تذكّر شيء بقصد أو بغير قصد، وأكثر استعماله في القرآن فيما كان عن قصد بإعراض وتشاغل. والمذموم منها ما كان عن قصد وهو مناط التكليف والمؤاخذة، فأمّا الغفلة عن غير قصد فلا مؤاخذة عليها. وهي المقصود من قول علماء أصول الفقه: يمتنع تكليف الغافل.
وصيغة الكلام دالة على استمرار غفلتهم، وكونها دأبا لهم، وإنّما تكون كذلك إذا كانوا قد التزموها..

{ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }[147]

أزيل التوهّم بأنّ الأعمال الصالحة لا تنفع مع التكذيب بآيات الله ولقاء الآخرة. وأشير إلى أنّ التكذيب هو سبب حبط الأعمال بتعريفهم بطريق الموصولية.
الحبط، فساد الشيء الذي كان صالحا، وتقدّم عند قوله تعالى {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ} [المائدة:5]
{ **هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا، جوابا عن سؤال ينشأ عن قوله {حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} إذ قد يقول سائل: كيف تحبط أعمالهم الصالحة؟ فأجيب بأنّهم جوزوا كما كانوا يعملون، لأنّ الجزاء إنّما يظهر في الآخرة، وهم قد كذّبوا بلقاء الآخرة، فقد قطعوا الصلة بينهم وبين الجزاء، فكان حبط أعمالهم الصالحة وفاقا لاعتقادهم.
{ **مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } ما كانوا يعتقدون، فأطلق على التكذيب بالآيات وبلقاء الآخرة فعل {يَعْمَلُونَ} لأنّ آثار

الاعتقاد تظهر في الأقوال والافعاله.

{ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ }[148]

عطف قصّة على قصّة، فذكر فيما تقدّم قصّة المناجاة وما حصل فيها من الآيات والعبر، وذكر في هذه الآية ما كان من قوم موسى، في مدّة مغيبه من الإشراك.

{ **مِنْ بَعْدِهِ** } أي من بعد مغيبه، كما هو معلوم من قوله { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا }[143].

{ **مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ** } (من) للتبعيض. و**الحُلِيّ** (بضم الحاء وكسر اللام وتشديد المثناة التحتية)، جمع **حَلْي** (بفتح الحاء وسكون اللام وتخفيف التحتية)، اي اتخذوا من مصوغهم. وفي التوراة أنّهم اتخذوه من ذهب، نزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائهم وبناتهم وبنيهم.

وذكر في سورة طه أنّ صانع العجل رجل يقال له السامري، وفي التوراة أنّ صانعه هو هارون، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه الواقع في التوراة بعد موسى، ولم يكن هارون صائغا. ونسب الاتخاذ إلى قوم موسى كلهم على طريقة المجاز العقلي لأنّهم الآمرون باتخاذه، والحريصون عليه، وهذا مجاز شائع في كلام العرب.

{ **عِجْلاً جَسَداً** } المراد أنّه كجسم العجل في الصورة والمقدار، إلّا أنّه ليس بحيّ، وما وقع في القصص، أنّه كان لحما ودما يأكل ويشرب، فهو من وضع القصّاصين.

الخوار (بالخاء المعجمة) صوت البقر، وقد جعل صانع العجل في باطنه تجويفا على تقدير من الضيق مخصوص واتخذ له آلة نافخة خفية فإذا حركت آلة النفخ انضغط الهواء في باطنه، وخرج من المضيق، فكان له صوت كالخوار، وهذه صنعة كصنعة الصفارة والمزمار، وكان الكنعانيون يجعلون مثل ذلك لصنعهما المسمّى بعلا.

{ **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا لبيان فساد نظرهم في اعتقادهم. والاستفهام للتقرير وللتعجيب من حالهم، ولذلك جعل الاستفهام عن نفي الرؤية. والرؤية بصرية لأنّ عدم تكليم العجل إيّاهم مشاهد لهم. وقد سفّه رأي الذين اتخذوا العجل إلها بأنّهم يشاهدون أنّه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا. وليس المقصود من هذا الاستدلال على الإلوهية بالتكليم والهداية، وإلّا للزم إثبات الإلهية لحكماء البشر.

{ **اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ** } مؤكدة لجملة {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى} فلذلك فصلت، والتكرير لأجل التعجيب.

{ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ }[149]

كان مقتضى الظاهر في ترتيب حكاية الحوادث أن يتأخر قوله {وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ} عن قوله {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً} [150]، لأنّهم ما سقط في أيديهم إلّا بعد أن رجع موسى ورأوا فرط غضبه وسمعوا توبيخه أخاه وإيّاهم، وإنّما خولف مقتضى الترتيب تعجيلا بذكر ما كان لاتخاذهم العجل من عاقبة الندامة وتبيّن الضلالة، موعظة للسامعين لكيلا يعجلوا في التحول عن سنتهم، حتّى يتبيّنوا عواقب ما هم متحوّلون إليه.

{ سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ } مبني للمجهول، كلمة أجراها القرآن مجرى المثل إذ انظمّت على إيجاز بديع وكناية واستعارة، فإنّ اليد تستعار للقوة والنصرة، إذ بها يضرب بالسيف والرمح، ولذلك حين يدعون على أنفسهم بالسوء يقولون شلّت من يدي الأنامل، وهي آلة القدرة قال تعالى {ذَا الْأَيْدِ} [صّ: 17]، ويقال: ما لي بذلك يد، أو ما لي بذلك يدان، أي لا أستطيعه. والمرء إذا حصل له شلل في عضد، ولم يستطع تحريكه يحسن أن يقال سقط في يده ساقط، أي نزل به نازل.

وقد استعمل في الآية في معنى الندم وتبيّن الخطإ لهم، فهو تمثيل لحالهم بحال من سقط في يده حين العمل.

فالمعنى أنّهم تبيّن لهم خطأهم وسوء معاملتهم ربهم ونبيّهم. فالندامة هي معنى التركيب كلّه.

وقال الزجّاج هو نظم لم يسمع قبل القرآن ولم تعرفه العرب. قلت وهو القول الفصل فإنّي لم أره في شيء من كلامهم قبل القرآن .

{ لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } توبة وإنابة، وقد علموا أنّهم أخطأوا خطيئة عظيمة ولذلك أكدوا التعليق الشرطي بالقسم الذي وطأته اللام. وقدموا الرحمة على المغفرة لأنّها سببها.

{ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [150] قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [151]

فرجوع موسى معلوم من تحقّق انقضاء المدّة الموعود بها، وكونه رجع في حالة غضب مشعر بأنّ الله أعلمه بما صنع قومه في مغيبه، وقد صرّح بذلك في سورة طه [85] { قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ }

الغضب، تقدّم في قوله { قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ } [71].

{ **أَسِفاً** } (بدون مد) صيغة مبالغة للآسف بالمد، الذي هو اسم فاعل للذي حل به الأسف، وهو الحزن الشديد، أي رجع غضبان من عصيان قومه حزينا على فساد أحوالهم.

{ **قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي** }

بئسما، ضد نعمّا، وقد مضى القول عليه في قوله تعالى {قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ} [البقرة :93].

والمعنى بئست خلافة خلفتونيها خلافتكم. وتقدّم الكلام على فعل خلف في قوله {اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي} قريبا.

وهذا خطاب لهارون ووجوه القوم لأنّهم خلفاء موسى في قومهم، فيكون خلفتموني مستعملا في حقيقته، ويجوز أن يكون الخطاب لجميع القوم، فأمّا هارون فلأنّه لم يحسن الخلافة بسياسة الأمّة كما كان يسوسها موسى، وأمّا القوم فلأنّهم عبدوا العجل بعد غيبة موسى.

{ **أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ** } **عَجِلَ**، بمعنى فعل العجلة أي السرعة، وقد يتعدى إلى المعمول بـ (عن) فيقال: عجل عن كذا، بمعنى لم يتمّه بعد أن شرع فيه، وضدّه (تمّ على الأمر) إذا شرع فيه فأتمّه، ويستعمل عَجِلَ مضمّنا معنى سبق، فعدى بنفسه على اعتبار هذا المعنى، وهو استعمال كثير.

ومعنى عجل هنا يجوز أن يكون بمعنى لم يتمّ.

الأمر، يكون بمعنى التكليف، وهو ما أمرهم الله به من المحافظة على الشريعة، وانتظار رجوعه، فلم يتمّوا ذلك واستعجلوا فبدلوا وغيروا.

ويجوز أن يكون بمعنى سبق، أي بادرتم فيكون الأمر بمعنى الشأن، أي الغضب والسخط، كقوله {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل: 1]. فالأمر هو الوعيد، فإنّ الله حذّرهم من عبادة الأصنام، وتوعّدهم، فكان الظنّ بهم إن وقع منهم ذلك أن يقع بعد طول المدّة، فلمّا فعلوا ما نهوا عنه بحدثان عهد النهي، جعلوا سابقين له على طريقة الاستعارة، وهذا هو المعنى الأوضح، ويوضّحه قوله، في نظير هذه القصة في سورة طه، حكاية عن موسى { قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي } .

{ **وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ** } تقدّم بيان الإلقاء آنفا، وذلك يؤذن بأنّه لمّا نزل من المناجاة كانت الألواح في يده، كما صرّح به في التوراة. ثم إنّ إلقاءه إيّاها إنّما كان إظهارا للغضب، أو أثرا من آثار فوران الغضب لمّا شاهدهم على تلك الحالة، وما ذكر القرآن ذلك الإلقاء إلّا للدلالة على هذا المعنى، إذ ليس فيه من فوائد العبرة في القصة إلّا ذلك.

وروي أنّ موسى عليه السلام كان في خلقه ضيق، وكان شديدا عند الغضب، ولذلك وكز القبطي فقضى عليه، ولذلك أخذ برأس أخيه يجرّه إليه، فهو دليل على فظاعة الفعل الذي شاهده من قومه، وذلك علامة على

الفظاعة، وتشنيع عليهم، وليس تأديبا لهم، لأنّه لا يكون تأديبهم بإلقاء ألواح كتب فيها ما يصلحهم، لأن ذلك لا يناسب تصرف النبوءة.

ولذلك جزمنا بأنّ إعراض رسول الله ﷺ عن كتابة الكتاب الذي همّ بكتابته قبيل وفاته لم يكن تأديبا للقوم على اختلافهم عنده، كما هو ظاهر قول ابن عباس، بل إنّما كان ذلك لمّا رأى من اختلافهم في ذلك، فرأى أنّ الأولى ترك كتابته، إذ لم يكن الدين محتاجا إليه.

ووقع في التوراة أن الألواح تكسرت حين ألقاها، وليس في القرآن ما يدل على ذلك سوى أن التعبير بالإلقاء الذي هو الرمي، وما روى من أن الألواح كانت من حجر، يقتضي أنّها اعتراها انكسار، ولكن ذلك الانكسار لا يذهب ما احتوت عليه من الكتابة. وأمّا ما روي أنّها لما تكسّرت ذهب ستة اسباعها، أو ذهب تفصيلها وبقيت موعظتها، فهو من وضع القصاصين، والله تعالى يقول {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} [الأعراف:154]

{ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ } أي إمساكه بشعر رأسه، وذلك يؤلمه. فذلك تأنيب لهارون على عدم أخذه بالشدّة على عبدة العجل واقتصاره على تغيير ذلك عليهم بالقول. وكان موسى هو الرسول لبني إسرائيل، وما هارون إلّا من جملة قومه بهذا الاعتبار، وإنّما كان هارون رسولا مع موسى لفرعون خاصة، ولذلك لم يسع هارون إلّا الاعتذار والاستصفاح منه.

وفي هذا دليل على أن الخطأ في الاجتهاد مع وضوح الأدلة غير معذور فيه صاحبه في إجراء الأحكام عليه، وهو ما يسميه الفقهاء بالتأويل البعيد.

{ قَالَ ابْنَ أُمَّ } فصلت لوقوعها جوابا لحوار مقدّر دل عليه قوله {وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ} لأنّ الشأن أنّ ذلك لا يقع إلّا مع كلام توبيخ، وهو ما حكي في سورة طه بقوله { قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} [طه:92، 93] على عادة القرآن في توزيع القصّة، واقتصارا على موقع العبرة ليخالف أسلوب قصصه، الذي قصد منه الموعظة، أساليب القصّاصين الذين يقصدون الخبر بكل ما حدث.

والنداء بهذا الوصف للترقيق والاستشفاع، وحذف حرف النداء لإظهار ما صاحب هارون من الرعب والاضطراب، أو لأنّ كلامه هذا وقع بعد كلام سبقه فيه حرف النداء وهو المحكي في سورة طه [94] { قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي} ثم قال، بعد ذلك {ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي} فهما كلامان متعاقبان.

ويظهر أن المحكي هنا هو القول الثاني وأنّ ما في سورة طه هو الذي ابتدأ به هارون، لأنّه كان جوابا عن قول موسى {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ} [طه:92، 93]

{ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي } تأكيد الخبر بـ {إِنَّ} لتحقيقه لدى موسى. والسين والتاء في {اسْتَضْعَفُونِي} للحسبان أي حسبوني ضعيفا لا ناصر لي. لأنّهم تمالؤوا على عبادة العجل ولم يخالفهم إلّا هارون في شرذمة قليلة.

{ **وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي** } يدلّ على أنّه عارضهم معارضة شديدة ثم سلّم خشية القتل.
{ **فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ** } تفريع على تبيّن عذره في إقرارهم على ذلك، فطلب من أخيه الكفّ عن عقابه الذي يشمت به الأعداء لأجله، ويجعله مع عداد الظالمين.
الشماتة، سرور النفس بما يصيب غيرها من الأضرار، وإنّما تحصل من العداوة والحسد.
الأعداء، الذين دعوا إلى عبادة العجل، لأنّ هارون أنكره عليهم فكرهوه لذلك.
{ **وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } لا تحسبني واحدا منهم. والقوم الظالمون هم الذين أشركوا بالله عبادة العجل، ويجوز أن يكون المعنى، ولا تجعلني في العقوبة معهم، لأنّ موسى قد أمر بقتل الذين عبدوا العجل.
{ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ** } جواب عن كلام هارون، فلذلك فصلت، وابتدأ موسى دعاءه فطلب المغفرة لنفسه تأدّبا مع الله فيما ظهر عليه من الغضب، ثم طلب المغفرة لأخيه فيما عسى أن يكون قد ظهر منه من تفريط أو تساهل في ردع عبدة العجل.
والإدخال في الرحمة استعارة لشمول الرحمة لهما في سائر أحوالهما.
{ **وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** } تذييل، والواو للحال أو اعتراضية، و{أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} الأشدّ رحمة من كل راحم.

{ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ [152] وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [153]
يجوز أن قوله { إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ - إلى قوله – الدُّنْيَا } من تمام كلام موسى، فبعد أن دعا لأخيه بالمغفرة أخبر أنّ الله غضب على الذين عبدوا العجل، وأنّه سيظهر إثر غضبه عليهم، وستنالهم ذلّة في الدنيا وذلك بوحي تلقاه، وأنّ جملة { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ } خطاب من جانب الله في القرآن، فهو اعتراض، ذيّل الله به حكاية كلام موسى، فأخبر بأنّه يجازي كل مفتر بمثل ما أخبر به موسى عن مفتري قومه. وأنّ جملة {وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ} إلى آخر الآية تكملة للفائدة ببيان حالة أضداد المتحدث عنهم وعن أمثالهم.
ويجوز أن تكون الجملة إلى آخرها خطابا من الله لموسى، جوابا عن دعائه لأخيه بالمغفرة.
النّوْل والنّيْل، الأخذ، وهو هنا استعارة للإصابة والتلّبس كما في قوله تعالى {أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ}[37].
والمراد بالغضب ظهور أثره من الخذلان ومنع العناية، وأمّا نفس الغضب فهو حاصل في الحال.
الذلّة، خضوع في النفس واستكانة من جرّاء العجز عن الدفع، فمعنى نيل الذلة إيّاهم أنّهم يصيرون مغلوبين لمن يغلبهم، فقد يكون ذلك بتسليط العدو عليهم، أو بسلب الشجاعة من نفوسهم، بحيث يكونون خائفين العدو

ولو لم يسلّط عليهم، أو ذلّة الاغتراب إذ حرمهم الله ملك الأرض المقدّسة فكانوا بلا وطن طول حياتهم حتى انقرض ذلك الجيل كلّه.

وهذه الذلّة عقوبة دنيوية قد لا تمحوها التوبة، فإن التوبة إنّما تقتضي العفو عن عقاب التكليف، ولا تقتضي ترك المؤاخذة بمصائب الدنيا، لأنّ العقوبات الدنيويّة مسبّبات تنشأ عن أسبابها، فلا يلزم أن ترفعها التوبة إلّا بعناية إلهية خاصة، هذا وقد يمحو الله العقوبة الدنيوية إذا رضي عن الجاني، والله ذو فضل عظيم.

الافتراء، الكذب الذي لا شبهة لكاذبه في اختلاقه. والمراد بالافتراء هنا، الاختلاق في أصول الدين(عبادة العجل)، فإنّ موسى عليه السلام كان حذّرهم من عبادة الأصنام كما حكاه الله فيما مضى.

ويؤخذ من هذه الآية ان الكذّاب يرمى بالمذّلة.

{ **وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا** } اعتراض بأنّهم إن تابوا وآمنوا يغفر الله لهم على عادة القرآن من تعقيب التهديد بالترغيب، والمغفرة ترجع إلى عدم مؤاخذتهم بذنوبهم في عقاب الآخرة، وإلى ارتفاع غضب الله عنهم في المستقبل، والمراد **بالسيئات** ما يشمل الكفر وهو أعظم السيئات.و**التوبة** منه هي الإيمان.

{ **مِنْ بَعْدِهَا** } تأكيد لمفاد المهلة التي أفادها حرف (ثمّ) وهذا تعريض للمشركين بأنّهم إن آمنوا يغفر لهم ولو طال أمد الشرك عليهم، ولئلا يظن أنّ الإشراك لخطورته لا تنجي منه التوبة.

{ **إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** } الخطاب لمحمد ﷺ على الوجه الأظهر، أو لموسى عليه السلام.

وفي تعريف المسند إليه بالإضافة توسّل إلى تشريف المضاف إليه بأنّه مربوب لله تعالى، وفي ذكر وصف الربوبية هنا تمهيد لوصف الرحمة.

وتأكيد الخبر بـ (**إنّ** و**لام** التوكيد) وصيغتي المبالغة في { غَفُورٌ رَحِيمٌ } لمزيد الاهتمام به، ترغيبا للعصاة في التوبة، وطردا للقنوط من نفوسهم، وإن عظمت ذنوبهم، فلا يحسبوا تحديد التوبة بحد إذا تجاوزتْه الذنوب بالكثرة أو العظم لم تقبل منه توبة.

{ **مِنْ بَعْدِهَا** } الثاني مبالغة في الامتنان بقبول توبتهم بعد التملي من السيئات.

{ **غَفُورٌ رَحِيمٌ** } حذف المتعلّق لظهوره من السياق، والتقدير: لغفور رحيم لهم، أو لكل من عمل سيّئة وتاب منها.

{ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ }[154]

السكوت، مستعار لذهاب الغضب عنه، وهذا يستلزم تشبيه الغضب بالناطق المغري.

{ **وَفِي نُسْخَتِهَا** } النسخة بمعنى المنسوخ كالخطبة والقبضة، والنسخ هو نقل مثل المكتوب في لوح أو صحيفة أخرى، وهذا يقتضي أنّ هذه الألواح أخذت منها نسخة، لأنّ النسخة أضيفت إلى ضمير الألواح، وهذا يشير إلى ما في التوراة في الإصحاح [34] من سفر الخروج: " ثم قال الربّ لموسى انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأوّلين اللذين كسرتهما ".

وقد قيل أن رضاض الألواح الأصلية وضعه في تابوت العهد الذي أشار إليه قوله تعالى { أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى} [البقرة:248].

{ **لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ** } يتنازع تعلقه كل من {هُدىً} و {رَحْمَةً}.

{ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ [155] وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ [156] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [157]

{ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ [155] وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ }

عطفت {وَاخْتَارَ مُوسَى} على {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى} [148] عطف القصّة على القصّة، لأنّ هذه القصّة أيضا من مواقع الموعظة والعبرة بين العبر المأخوذ من قصّة موسى مع بني إسرائيل، فإن في هذه عبرة بعظمة الله تعالى ورحمته، ودعاء موسى بما فيه جماع الخيرات والبشارة بمحمد ﷺ وملاك شريعته.

الاختيار، تمييز المرغوب من بين ما هو مخلوط من مرغوب وضدّه.

{ **سَبْعِينَ رَجُلاً** } بدل من { قَوْمَهُ } بدل بعض من كل. والتقدير، اختار من قومه.
وهذا الاختيار وقع عندما أمره الله بالمجيء للمناجاة التي تقدم ذكرها في قوله تعالى {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً} [142] ، فقد جاء في التوراة في الإصحاح [24] من سفر الخروج، أنّ الله أمر موسى أن يصعد طور سينا هو وهارون و (ناداب) و (أبيهو) و (يشوع) وسبعون من شيوخ بني إسرائيل، ويكون شيوخ بني إسرائيل في مكان معين من الجبل ويتقدّم موسى حتّى يدخل في السحاب ليسمع كلام الله، وأنّ الله لما تجلّى للجبل ارتجف الجبل ومكث موسى أربعين يوما.
والحاصل أن موضع العبرة في هذه القصّة هو التوقّي من غضب الله، وخوف بطشه، ومقام الرسل من الخشية، ودعاء موسى.
{ **فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ** } **الأخذ**، مجاز في الإصابة الشديدة المتمكّنة تمكّن الآخذ من المأخوذ.
{ **قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا** }
يجوز أن يكون حرف (لو) مستعملا في معناه الأصلي، من امتناع جوابه لامتناع شرطه، فيتجه أن يتساءل عن موجب حذف اللام من جواب (لو) ولم يقل: (لأهلكتهم) مع أنّ الغالب في جوابها الماضي المثبت أن يقترن بـ (اللام). فحذف اللام هنا لنكتة أنّ التلازم بين شرط (لو) وجوابها هنا قوي، لظهور أنّ الإهلاك من فعل الله وحده، فهو كقوله تعالى {لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً[الواقعة:70]. ويكون المعنى اعترافا بمنّة العفو عنهم فيما سبق، وتمهيدا للتعريض بطلب العفو عنهم الآن، وهو المقصود من قوله {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ} أي إنّك لم تشأ إهلاكهم حين تلبّسوا بعبادة العجل فلا تهلكهم الآن.
{ **أَتُهْلِكُنَا** } الاستفهام مستعمل في التفجع أي أخشى ذلك، لأنّ القوم استحقّوا العذاب ويخشى أن يشمل عذاب الله من كان مع القوم المستحقين وإنّ لم يشاركهم في سبب العذاب.
{ **إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ** } ضميرراجع إلى ما فعل السفهاء، لأنّ ما صدق ما فعل السفهاء هو الفتنة. والخبر مستعمل في إنشاء التمجيد بسعة العلم والقدرة، والتعريض بطلب استبقائهم وهدايتهم، وليس مستعملا في الاعتذار لقومه. ثم عرّض بطلب الهداية لهم بقوله {وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ}.
الفتنة، ما يقع به اضطراب الاحوال، ومرجها، وتشتّت البال، وقد مضى تفسيرها عند قوله تعالى { وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ} [البقرة:102].
{ **أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ** } الاعتراف بالانقطاع لعبادة الله تعالى، تمهيدا لمطلب المغفرة والرحمة، لأنّ شأن الوليّ أن يرحم مولاه وينصره.
الوليّ، الذي له ولاية على أحد، والولاية حلف أو عتق يقتضي النصرة والإعانة، فان كان من جانبين متكافئين فكلا المتعاقدين يقال له مولى، وإنّ كان أحد الجانبين أقوى قيل للقوي وليّ وللضعيف مولى.

والمعنى عدم الانتصار بغير الله، وفي صريحه صيغة قصر.

{ **فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا** } تفريع كلام على كلام، وليس المراد أنّ الوليّ يتعين عليه الغفران.

وقدّم المغفرة على الرحمة لأنّ المغفرة سبب لرحمات كثيرة، فإنّ المغفرة تنهية لغضب الله المترتّب على الذنب، فإذا انتهى الغضب تسنّى أن يخلفه الرضا، والرضا يقتضي الإحسان.

{ **وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ** } الذي يغفر كثيرا.

{ **وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ** } مستعار لمعنى العطاء المحقّق حصوله، المجدّد مرة بعد مرة، لأنّ الذي يريد تحقيق عقد، أو عطاء، وتعلّقه بالتجدد في المستقبل يكتب به في صحيفة، فلا يقبل النكران، ولا النقصان، ولا الرجوع، وتسمّى تلك الكتابة عهدا.

فالمعنى، آتنا الحسنة تلو الحسنة في أزمان حياتنا وفي يوم القيامة.

الحسنة، الحالة الحسنة، وتقدّمت في قوله تعالى {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} [البقرة:201]

{ **إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ** } مسوقة مساق التعليل للطلب والاستجابة، ولذلك فصلت، ولأنّ موقع حرف التأكيد في أوّلها موقع الاهتمام، فيفيد التعليل والربط، ويغني غناء فاء السببيّة كما تقدّم غير مرة.

{ **هُدْنَا** } معناه تبنا، يقال: هاد يهود، إذا رجع وتاب.

{ **قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ** [156] **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } [157]

جواب لكلام موسى عليه السلام، فلذلك فصلت لوقوعها على طريقة المحاورة، وكلام موسى، وان كان طلبا، وهو لا يستدعي جوابا، فإنّ جواب الطالب عناية به وفضل.

{ **عَذَابِي** } المراد بالعذاب هنا عذاب الدنيا، لأنّ الكلام جواب لقول موسى {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا} . والإهلاك عذاب، فبيّن الله له أنّ عذاب الدنيا يصيب الله به من يشاء من عباده، وقد اجمل الله سبب المشيئة وهو اعلم به، وموسى يعلمه إجمالا، فالكلام يتضمّن طمأنة موسى من أن يناله العذاب هو والبرآء من قومه.

{ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** } وعد تعريض بحصول الرحمة المسؤولة له ولمن معه من المختارين، لأنّها لمّا وسعت كل شيء فهم أرجى النّاس بها، وأنّ العاصين هم أيضا مغمورون بالرحمة، فمنها رحمة الإمهال والرزق، ولكن رحمة الله عباده ذات مراتب متفاوتة.

{ **وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** } تقدّم في قوله تعالى {وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً} [89]

{ **فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ** } تفريع على سعة الرحمة، لأنّها لمّا وسعت كل شيء كان منها ما يكتب أي يعطى في المستقبل للذين أجريت عليهم الصفات، ويتضمّن ذلك وعدا لموسى ولصلحاء قومه لتحقّق تلك الصلات فيهم.

والمعنى، أنّ الرحمة التي سألها موسى له ولقومه، وعد الله بإعطائها لمن كان منهم متصفا بأنّه من المتقين والمؤتين الزكاة، ولمن كان من المؤمنين بآيات الله.

فتشمل هذه الرحمة من اتقى وآمن وآتى الزكاة من بني إسرائيل قبل بعثة محمد ﷺ.

وتشمل الرحمة أيضا الذين يؤمنون بآيات الله، والمعني بها الآيات التي ستجيء في المستقبل، لأنّ آيات موسى قد استقرّ الإيمان بها يومئذ، وهذا موجب إعادة اسم الموصول في ذكر أصحاب هذه الصلة، للإشارة إلى أنّهم طائفة أخرى، وهم من يكون عند بعثة محمد عليه الصلاة والسلام.

{ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ** } هو إشارة إلى اليهود والنصارى الكائنين في زمن البعثة وبعدها وفي هذه الآية بشارة ببعثة محمد ﷺ.

فهذه الرحمة العظيمة تختصّ بالذين آمنوا بالنبي محمد ﷺ من اليهود والنصارى، وتشمل الرسل والأنبياء الذين اخذ الله عليهم العهد بالإيمان بمحمد ﷺ فكانوا عالمين ببعثته يقينا، فهم آمنوا به، وتنزّلوا منزلة من اتبع ما جاء به، لأنّهم استعدّوا لذلك، وتشمل المسلمين من العرب وغيرهم.

{ **النَّبِيَّ الأُمِّيَّ** } وتقديم وصف الرسول لأنّه الوصف الأخصّ الأهم، ولأنّ في تقديمه زيادة تسجيل لتحريف أهل الكتاب، حيث حذفوا هذا الوصف ليصير كلام التوراة صادقا بمن أتى بعد موسى من أنبياء بني إسرائيل. ولأنّ محمدا ﷺ اشتهر بوصف النبي الأمّيّ، فصار هذا المركب كاللقب له، وكذلك هو حيثما ورد ذكره في القرآن.

الأمّيّ، الذي لا يعرف الكتابة والقراءة، قيل هو منسوب إلى الأمّ أي هو أشبه بأمّه منه بأبيه، لأنّ النساء في العرب ما كنّ يعرفن القراءة والكتابة، وما تعلمنها إلّا في الإسلام. أمّا الرجال ففيهم من يقرأ ويكتب.

وقيل منسوب إلى الأمّة أي الذي حاله حال معظم الأمّة، وكانوا في الجاهلية لا يعرف منهم القراءة والكتابة إلّا النادر منهم، ولذلك يصفهم أهل الكتاب بالأميين، لما حكى الله تعالى عنهم في قوله {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ} [آل عمران:75]

والأمّيّة وصف خصّ الله به من رسله محمدا ﷺ، إتماما للإعجاز العلمي العقلي الذي أيّده الله به، فجعل الأمّيّة وصفا ذاتيا له ليتمّ بها وصفه الذاتي وهو الرسالة، ليظهر أنّ كماله النفساني كمال لدنيّ الهيّ، لا واسطة فيه للأسباب المتعارفة للكمالات، وبذلك كانت الأمّيّة وصف كمال فيه، مع أنّها في غيره وصف نقصان، لأنّه لمّا

حصل له من المعرفة وسداد العقل ما لا يحتمل الخطأ، وكان على يقين من علمه، وبيّنة من أمره، ما هو اعظم مما حصل للمتعلمين، صارت أمّيّته آية على كون ما حصل له إنّما هو من فيوضات إلهيّة.

{ **يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ** } وجدان صفاته ونعوته، التي لا يشبهه فيها غيره، وهو كونه أمّيّا، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحلّ الطيّبات، ويحرّم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم، وشدة شريعتهم.

وذكر الإنجيل هنا لأنّه منزّل لبني إسرائيل، وقد آمن به جمع منهم ومن جاء بعدهم من خلفهم، وقد أعلم الله موسى بهذا.

والمكتوب في الإنجيل بشارات جمّة بمحمد ﷺ، وفي بعضها التصريح بأنه يبعث بعثة عامة، ففي إنجيل متي في الإصحاح [24]: " ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلّون كثيرون ولكن الذي يصبر إلى المنتهى أي يدوم شرعه إلى نهاية العالم فهذا يخلص ويكرّز [**يتنبّأ**، ولا أعرف لها أصلا في العربية] ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يأتي المنتهى " (منتهى الدنيا).

وفي إنجيل يوحنا في الإصحاح [14]: " وأمّا المُعزّي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم".

{ **يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ** }

ولا شك أن المقصود من هذه الصفات تعريفهم بها لتدلّهم على تعيين الرسول الأمّيّ عند مجيئه بشريعة هذه صفاتها.

وقد جعل الله المعروف والمنكر، والطيبات، والخبائث، والإصر والأغلال متعلّقات لتشريع النبي الأمّيّ وعلامات، فوجب أن يكون المراد منها ما يتبادر من معاني ألفاظها للأفهام المستقيمة.

المعروف، شامل لكلّ ما تقبله العقول والفطر السليمة، و**المنكر** ضدّه، وتقدم بيانهما عند قوله تعالى {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران:104]

ويجمعها معنى **الفطرة**، التي هي قوام الشريعة المحمديّة كما قال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [الروم: 30]، وهذه اوضح علامة لتعرف أحكام الشريعة المحمديّة.

الطيبات، جمع طيّبة، وقد روعي في التأنيث معنى الأكيلة، أو معنى الطعمة، تنبيها على أنّ المراد الطيبات من المأكولات، كما دل عليه قوله {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً} [البقرة: 168].

وليس المراد الأفعال الحسنة لأنّ الأفعال عرفت بوصف المعروف والمنكر، والمأكولات لا تدخل في المعروف والمنكر، إذ ليس للعقل حظّ في التمييز بين مقبولها ومرفوضها، بما تمتلك النّاسَ فيها عوائدُهم، ولما كان الإسلام دين الفطرة ولا اعتداد بالعوائد فيه، ناط حال المأكولات بالطيب وحرمتها بالخبث.

فالطيب، ما لا ضر فيه ولا وخامة ولا قذارة، **والخبيث**، ما اضرّ، أو كان وخيم العاقبة، أو كان مستقذرا لا يقبله العقلاء، كالنجاسة. وهذا ملاك المباح والمحرّم من المآكل، فلا تدخل العادات إلا في اختيار أهلها ما شاءوا من المباح، فقد كانت قريش لا تأكل الضبّ، وقد وضع على مائدة رسول الله ﷺ فكره أن يأكل منه، وقال: "ما هو بحرام ولكنه لم يكن من طعام قومي فأجدني أعافه".

ولهذا فالوجه أنّ كلّ ما لا ضرّ فيه ولا فساد ولا قذارة فهو مباح، وقد يكون مكروها اعتبارا بمضرة خفيفة، فلذلك ورد النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع، ومحمله عند مالك في اشهر الروايات عنه، على الكراهة، وهو الذي لا ينبغي التردد فيه، واي ضرّ في أكل لحم الأسد وكذلك إباحة أكل الخشاش والحشرات والزواحف البرية والبحرية لاختلاف عوائد الناس في أكلها وعدمه، فقد كانت (جَرْم) لا يأكلون الدجاج، و(فَقعس) يأكلون الكلب. وقد تقدم شيء من هذا في آية سورة المائدة.

{ **وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** } ووضع الإصر إبطال تشريعه، أي بنسخ ما كان فيه شدة من الشرائع الإلهية السابقة، وحقيقة **الوضع** الحطّ من علو إلى سفل، وهو هنا مجاز في إبطال التكليف بالأعمال الشاقة.

الإصر، ظاهر كلام الزمخشري في (الكشاف) و(الأساس) أنّه حقيقة في الثِّقل الحسي، بحيث يصعب معه التحرّك، والمراد به هنا التكاليف الشّاقة والحرج في الدين.

وقد كانت شريعة التوراة مشتملة على أحكام كثيرة شاقة مثل العقوبة بالقتل على معاص كثيرة، ومثلُ تحريم مأكولات كثيرة طيّبة، وتغليظ التحريم في أمور هيّنة، كالعمل يوم السبت، وأشد ما في شريعة التوراة من الإصر أنّها لم تشرّع فيها التوبة من الذنوب، ولا استتابة المجرم.

والإصر تقدم في قوله تعالى: {رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا} [البقرة:286].

{ **الأَغْلالَ** } جمع غُل (بضم الغين) وهو إطار من حديد يجعل في رقبة الأسير والجاني ويمسك بسير من جلد أو سلسلة من حديد بيد الموكل بحراسته. قال تعالى {إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ} [غافر:71].

ويستعار الغُلّ للتكليف والعمل الذي يؤلم ولا يطاق، فتعيّن أن وضع الأغلال، استعارة لما يعانيه اليهود من المذلّة بين الأمم الذين نزلوا في ديارهم بعد تخريب بيت المقدس، وزوال ملك يهوذا، فإنّ الإسلام جاء بتسوية اتباعه في حقوقهم في الجامعة الإسلامية، فلا يبقى فيه مَيز بين أصيل ودخيل، وصميم ولصيق، كما كان الأمر في الجاهلية.

وهذان الوصفان لهما مزيد اختصاص باليهود، المتحدث عنهم في خطاب الله تعالى لموسى، ولا يتحققان في غيرهم ممن آمن بمحمد ﷺ، لأنّ اليهود قد كان لهم شرع، وكان فيه تكاليف شاقة، بخلاف غير اليهود من العرب والفرس وغيرهم، ولذلك أضاف الله الإصر إلى ضميرهم، ووصف الأغلال بما فيه ضميرهم.

على أنّك إذا تأمّلت في حال الأمم كلّهم قبل الإسلام لا تجد شرائعهم وقوانينهم وأحوالهم خالية من إصر عليهم مثل تحريم بعض الطيبات في الجاهلية، ومثل تكاليف شاقة عند النصارى والمجوس لا تتلاقى مع السماحة الفطرية، وكذلك لا تجدها خالية من رهق الجبابرة، وإذلال الرؤساء، وشدّة الأقوياء على الضعفاء، وما كان يحدث بينهم من التقاتل والغارات، والتكايل في الدماء، وأكلهم أموالهم بالباطل، فارسل الله محمدا ﷺ بدين من شأنه أن يخلّص البشر من تلك الشدائد، كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الانبياء:107]. ولذلك فسّرنا الوضع بما يعم النسخ وغيره، وفسّرنا الأغلال بما يخالف المراد من الإصر، ولا يناكد هذا ما في أديان الجاهلية والمجوسية وغيرها من التحلل في أحكام كثيرة، فإنّه فساد عظيم لا يخفّف وطأة ما فيها من الإصر.

{ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } الفاء فاء الفصيحة، والمعنى، إذا كان هذا النبي كما علمتم من شهادة التوراة والإنجيل بنبوءته، ومن اتصاف شرعه بالصفة التي سمعتم، علمتم أنّ الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا هديه، هم المفلحون.

والقصر المستفاد من تعريف المسند ومن ضمير الفصل قصر إضافي، أي هم الذين أفلحوا أي دون من كفر به بقرينة المقام.

{ **عَزَّرُوهُ** } أيّدوه وقووه، وذلك بإظهار ما تضمّنته كتبهم من البشارة بصفاته، وصفات شريعته، وإعلان ذلك بين النّاس، وذلك شيء زائد على الإيمان به، كما فعل عبد الله بن سلام، وكقول ورقة بن نوفل: " هذا الناموس الذي انزل على موسى". وهو أيضا مغاير للنصر، لأنّ **النصر**، هو الإعانة في الحرب بالسلاح، ومن اجل ذلك عطف عليه {وَنَصَرُوهُ}

اتباع النور، تمثيل للاقتداء بما جاء به القرآن: شبّه حال المقتدي بهدي القرآن، بحال الساري في الليل إذا رأى نورا يلوح له اتّبعه لعلمه بأنّه يجد عنده منجاة من المخاوف وأضرار السير.

{ **أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** } للتنويه بشأنهم، وللدلالة على أنّ المشار إليهم بتلك الأوصاف صاروا أحرياء بما يخبر به عنهم بعد اسم الإشارة.

وفي هذه الآية تنويه بعظيم فضل أصحاب النبي ﷺ رضي الله عنهم، ويلحق بهم من نصر دينه بعدهم.

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [158]

هذه الجملة معترضة بين قصص بني إسرائيل، جاءت مستطردة لمناسبة ذكر الرّسول الأمّيّ، تذكيرا لبني

إسرائيل بما وعد الله به موسى عليه السلام، وإيقاظا لإفهامهم بأنّ محمدا ﷺ هو مصداق الصفات التي علّمها الله موسى. والخطاب بـ { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** } لجميع البشر، وضمير التكلّم ضمير الرسول محمد ﷺ.

وتأكيد الخبر بـ (إنّ) باعتبار أنّ في جملة المخاطبين منكرين ومتردّدين، استقصاء في إبلاغ الدعوة إليهم.

{ **جَمِيعاً** } لرفع احتمال تخصيص رسالته بغير بني إسرائيل، فإنّ من اليهود فريقا كانوا يزعمون أنّ محمدا ﷺ نبيّ، ويزعمون أنّه نبيّ العرب خاصة، ولذلك لمّا قال رسول الله لابن صيّاد، وهو يهودي، أتشهد أنّي رسول الله، قال ابن صيّاد: اشهد أنّك رسول الأمّيين" . وقد ثبت من مذاهب اليهود مذهب فريق من يهود أصفهان يدعون بالعيسوية وهم اتباع أبي عيسى الأصفهاني اليهودي القائل بأنّ محمدا رسول الله إلى العرب خاصة لا إلى بني إسرائيل. لأنّ اليهود فريقان: فريق يزعمون أنّ شريعة موسى لا تنسخ بغيرها. وفريق يزعمون أنّها لا تنسخ عن بني إسرائيل، ويجوز أن يبعث رسول لغير بني إسرائيل.

{ **الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** } نعت لاسم الجلالة، دال على الثناء. وتقديم المجرور للقصر، أي لا لغيره مما يعبده المشركون، فهو قصر إضافي للردّ على المشركين.

{ **لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** } قصر حقيقي لتحقيق صفة الوحدانيّة، لا لقصد الردّ على المشركين.

{ **يُحْيِي وَيُمِيتُ** } حال.

والمقصود من ذكر هذه الأوصاف الثلاثة، تذكير اليهود، ووعظهم، حيث جحدوا نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم، وزعموا أنّه لا رسول بعد موسى، واستعظموا دعوة محمد، فكانوا يعتقدون أنّ موسى لا يشبهه رسول. فذُكّروا بأنّ الله مالك السماوات والأرض، وهو واهب الفضائل، فلا يستعظم أن يرسل رسولا ثم يرسل رسولا آخر، لان الملك بيده، وبأن الله هو الذي لا يشابهه أحد في الوهيّته، وأمّا مرتبة الرسالة فهي قابلة للتعدّد.

{ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ** } وقد انتظم أن يفرّع على هذه الصفات الثلاث الطلب الجازم بالإيمان بهذا الرّسول، والمقصود طلب الإيمان بالنبيّ الأمّيّ لأنّه الذي سيق الكلام لأجله.

ولكن لمّا صدر الأمر بخطاب جميع البشر وكان فيهم من لا يؤمن بالله، وفيهم من يؤمن بالله ولا يؤمن بالنبيّ الأمّيّ، جمع بين الإيمان بالله والإيمان بالنبيّ الأمّيّ في طلب واحد، ليكون هذا الطلب متوجّها للفرق كلّهم، مع قضاء حقّ التأدّب مع الله بجعل الإيمان به مقدّما على طلب الإيمان بالرّسول ﷺ.

{ **وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ** } التفات من التكلّم إلى الغيبة، لقصد إعلان تحقّق الصفة الموعود بها في التوراة في شخص محمد ﷺ.

{ **الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ** } ووصف النبيّ الأمّيّ بالذي يؤمن بالله وكلماته، بطريق الموصولية للإيماء إلى وجه الأمر بالإيمان بالرسول، وانه لا معذرة لمن لا يؤمن به من أهل الكتاب، لأن هذا الرسول يؤمن بالله

وبكلمات الله، فقد اندرج في الإيمان به الإيمان بسائر الأديان الإلهية الحق. وهذا نظير قوله تعالى، في تفضيل المسلمين {وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} [آل عمران: 119].

كلمات، جمع كلمة بمعنى الكلام مثل قوله تعالى {كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا} [المؤمنون: 100]. فكلمات الله تشمل كتبه ووحيه للرّسل. وأوثر هنا التعبير بكلماته، دون كتبه، لأنّ المقصود الإيماء إلى إيمان الرّسول عليه الصلاة والسلام بأنّ عيسى كلمة الله، أي أثر كلمته، وهي أمر التكوين.

{ **وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** } والقول في معنى الاتباع تقدّم، وكذلك القول في نحو { لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }

{ **وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** } [159]

هذا تخصيص لظاهر العموم الذي في قوله { وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى } قصد به الاحتراس لئلا يتوهّم أنّ ذلك قد عمله قوم موسى كلّهم. وللتنبيه على دفع هذا التوهم قدّم {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى} على متعلّقه.

قوم موسى، هم أتباع دينه من قبل بعثة محمد ﷺ، فمن بقي متمسّكا بدين موسى، بعد بلوغ دعوة الإسلام إليه، فليس من قوم موسى، ولكن يقال هو من بني إسرائيل أو من اليهود، لأنّ الإضافة في { قَوْمِ مُوسَى } تؤذن بأنّهم متبعو دينه، الذي من جملة أصوله ترقّب مجيء الرسول الأمّيّ ﷺ.

{ **أُمَّةً** } جماعة كثيرة متفقة في عمل يجمعها، وتقدّم ذلك عند قوله تعالى {أُمَّةً وَاحِدَةً} [البقرة:213]، والمراد أنّ منهم في كل زمان قبل الإسلام.

{ **يَهْدُونَ بِالْحَقِّ** } أي يهدون النّاس من بني إسرائيل أو من غيرهم ببث فضائل الدين الإلهي، وهو الذي سماه الله بالحقّ.

{ **وَبِهِ يَعْدِلُونَ** } وتقديم المجرور للاهتمام به ولرعاية الفاصلة، إذ لا مقتضي لإرادة القصر، والمعنى، أنّهم يحكمون بالعدل على بصيرة وعلم، أي يحكمون حكما لا جور فيه.

{ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [160]

{ **وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً** }

التقطيع، شدّة في القطع وهو التفريق، والمراد به التقسيم، وليس المراد بهذا الخبر الذمّ، ولا بالتقطيع العقاب.لأنّ ذلك التقطيع منّة من الله، وهو من محاسن سياسة الشريعة الموسويّة، ومن مقدّمات نظام الجماعة

كما فصّله السفر الرابع، وهو سفر عدد بني إسرائيل وتقسيمهم، وهو نظير ما فعل عمر بن الخطاب من تدوين الديوان.

وهم كانوا منتسبين إلى أسباط اسحاق، ولكنّهم لم يكونوا مقسّمين عشائر لمّا كانوا في مصر، فكان التقسيم بعد اجتيازهم البحر الأحمر، وقبل انفجار العيون. وهو ظاهر القرآن في سورة البقرة وفي هذه السورة لقوله فيهما {قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ} وذكره هنا الاستسقاء عقب الانقسام إلى اثنتي عشرة أمّة. وذلك ضروري أن يكون قبل الاستسقاء، لأنّه لو وقع السقي قبل التقسيم لحصل التزاحم.

وظاهر التوراة أنّهم لمّا مرّوا بحوريب، وجاء شعيب للقاء موسى، أنّ شعيبا أشار على موسى أن يقيم لهم رؤساء ألوف، ورؤساء مئات، ورؤساء خماسين، ورؤساء عشرات، حسب الإصحاح [18] من الخروج.

وذلك يقتضي أنّ الأمّة كانت منتسبة قبائل من قبل، ليسهل وضع الرؤساء على الأعداد، ووقع في السّنة الثانية من خروجهم أنّ الله أمر موسى أن يحصي جميع بني إسرائيل، وأنّ موسى وهارون جمعا جميع بني إسرائيل فانتسبوا إلى عشائرهم وبيوت آبائهم، كما في الإصحاح الأوّل من سفر العدد.

الأسباط، تقدم ذكرهم عند قوله تعالى {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا} [البقرة:136]. و{أَسْبَاطاً} حال من الضمير المنصوب في {وَقَطَّعْنَاهُمُ} ولا يجوز كونه تمييزا لأن تمييز اثنتي عشرة ونحوه لا يكون إلا مفردا. وقوله {أُمَماً} بدل من {أَسْبَاطاً} أو من {اثْنَتَيْ عَشْرَةَ}.

وفي اللفظة تذكير ومنّة، التذكير بأنّهم أسباط إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، والمنّة التكثير، لأنّ كل سبط من أولئك قد صار أمّة قال تعالى { وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ } [الأعراف:86].

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ }

لم يعطف هذا الخبر بالفاء لإفادة أنّه منّة مستقلة. وتفسير هذه الآية مضى عند قوله { وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ} [البقرة:60]

{ **فَانْبَجَسَتْ** } مطاوع بجس إذا شقّ.

{ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }

هذه الآية نظير ما في سورة البقرة سوى اختلاف بضميري الغيبة هنا وضميري الخطاب هناك لأنّ ما هنالك قصد به التوبيخ.

{ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ [161] فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ } [162]

هذه الآية أيضا نظير ما في سورة البقرة إلّا أنّه عبّر في هذه الآية بقوله {اسْكُنُوا} وفي سورة البقرة بقوله {ادْخُلُوا}[58] لأنّ القولين قيلا لهم، أي قيل لهم: ادخلوا واسكنوها، ففرّق ذلك على القصتين على عادة القرآن في تغيير أسلوب القصص استجدادا لنشاط السامع.

وكذلك اختلاف التعبير في قوله هنا {وَكُلُوا} وقوله في سورة البقرة {فكلوا}، فإنّه قد قيل لهم بما يرادف فاء التعقيب، كما جاء في سورة البقرة، لأنّ التعقيب معنى زائد على مطلق الجمع الذي تفيده واو العطف، واقتصر هنا على حكاية أنّه قيل لهم. وكانت آية البقرة أولى بحكاية ما دلت عليه فاء التعقيب، لأنّ آية البقرة سيقت مساق التوبيخ فناسبها ما هو أدلّ على المنة، وهو تعجيل الانتفاع بخيرات القرية. وآيات الأعراف سيقت لمجرّد العبرة بقصة بني إسرائيل.

ولأجل هذا الاختلاف ميزت آية البقرة بإعادة الموصول وصلته في قوله {فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً} وعوض عنه هنا بضمير الذين ظلموا لأنّ القصد في آية البقرة بيان سبب إنزال العذاب عليهم مرتين، أشير إلى أولاهما بما يومئ إليه الموصول من علة الحكم، والى الثانية بحرف السببيّة، واقتصر هنا على الثاني.

وقد وقع في سورة البقرة لفظ {فَأَنْزَلْنَا} ووقع هنا لفظ {فَأَرْسَلْنَا} ولمّا قيّد كلاهما بقوله {مِنَ السَّمَاءِ} كان مفادهما واحدا، فالاختلاف لمجرّد التفنن بين القصتين.

وعبر هنا {بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ} وفي البقرة {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} لأنّه لمّا اقتضى الحال في القصتين تأكيد وصفهم بالظلم وأدي ذلك في البقرة بقوله {فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا} ، استثقلت إعادة لفظ الظلم هنالك ثالثة، فعدل عنه إلى ما يفيد مفاده، وهو الفسق، وهو أيضا أعمّ، فهو انسب بتذييل التوبيخ، وجيء هنا بلفظ {يَظْلِمُونَ} لئلا يفوت تسجيل الظلم عليهم مرة ثالثة، فكان تذييل آية البقرة أنسب بالتغليط في ذمّهم لأنّ مقام التوبيخ يقتضيه.

ووقع في هذه الآية {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} ولم يقع لفظ {مِنْهُمْ} في سورة البقرة، ووجه زيادتها هنا التصريح بأنّ تبديل القول لم يصدر من جميعهم، وأجمل ذلك في سورة البقرة لأنّ آية البقرة لمّا سيقت مساق التوبيخ ناسب إرهابهم بما يوهم أنّ الذين فعلوا ذلك هم جميع القوم لأنّ تبعات بعض القبيلة تحمل على جماعتها.

وقدم في سورة البقرة قوله{ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً } على قوله {وَقُولُوا حِطَّةٌ} وعكس هنا وهو اختلاف في الإخبار لمجرد التفنّن، فانّ كلا القولين واقع قدّم أو أخر.

وذكر في البقرة {فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً} ولم يذكر وصف رغدا هنا وإنما حكي في سورة البقرة لأنّ زيادة المنّة ادخل في تقوية التوبيخ.

{ **سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّ قوله {نَغْفِرْ لَكُمْ} في مقام الامتنان بإعطاء نعم كثيرة.

وفي نظير هذه الآية من سورة البقرة ذكرت جملة {وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} معطوفة بالواو على تقدير: قلنا لهم ذلك وقلنا لهم سنزيد المحسنين، فالواو هنالك لحكاية الاقوال، فهي من الحكاية.

وقرأ نافع، وأبو جعفر، ويعقوب {تُغْفِرْ} بمثناة فوقية مبنيا للمجهول، و {خَطِيئَاتِكُمْ} بصيغة جمع السلامة للمؤنث وقرأه ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف {نَغْفِرْ} بالنون مبنيا للفاعل وخطيئاتكم بصيغة جمع المؤنث السالم أيضا وقرأه أبو عمرو {نَغْفِرْ} بالنون و {خَطَايَاكُمْ} بصيغة جمع التكسير، مثل آية البقرة، وقرأ ابن عامر: {تُغْفِرْ} بالفوقية وخطيئتكم بالإفراد.

{ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [163]

غُيّر أسلوب الخبر عن بني إسرائيل هنا، فنعلم من ذلك أنّ لهذه القصص الآتية شأنا غير شأن القصص الماضية، ولا أحسب ذلك إلّا من أجل أنّ هذه القصّة ليست مما كتب في توراة اليهود ولا في كتب أنبيائهم، ولكنّها مما كان مرويا عن أحبارهم، ولذلك افتتحت بالأمر بسؤالهم عنها، لإشعار يهود العصر النبوي بأنّ الله أطلع نبيّه عليه الصلاة والسلام، عليها، وهم كانوا يكتمونها.

وذلك أنّ الحوادث التي تكون مواعظ للأمّة فيما اجترحته من المخالفات والمعاصي تُبقي لها عقب الموعظة أثرا قد تعيّر الأمّة به. وكذلك كان شأن اليهود، لمّا أضاعوا ملكهم ووطنهم وجاوروا أمما أخرى فأصبحوا يكتمون عن أولئك الجيرة مساوي تاريخهم، حتى أرسل الله محمدا ﷺ فعلّمه من أحوالهم ما فيه معجزة لأسلافهم، وما بقي معرّة لأخلافهم، وذلك تحد لهم، ووخز على سوء تلقّيهم الدعوة المحمديّة بالمكر والحسد.

والسؤال في كلام العرب على نوعين اشهرهما أن يسأل السائل عمّا لا يعلمه ليعلمه، والآخر أن يسأل على وجه التقرير حين يكون السائل يعلم حصول المسؤول عنه، ويعلم المسؤول أنّ السائل عالم وأنّه إنما سأله ليقرّره.

القرية، تقدّم ذكرها عند قوله تعالى { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ } [البقرة:65]

وهذه القرية قيل (**أيْلة**) وهي المسماة اليوم (**العقبة**) وهي مدينة على ساحل البحر الأحمر قرب شبه جزيرة طورسينا، وهي مبدأ أرض الشام من جهة مصر، وكانت من مملكة إسرائيل في زمان داود عليه السلام.

حاضرة البحر، بمعنى الاتصال بالبحر والقرب منه، لأنّ الحضور يستلزم القرب، وكانت (أيْلة) متّصلة

بخليج من البحر الأحمر وهو القلزم. وقيل هي طبريّة، وكانت طبرية تدعى بحيرة طبرية، وقد قال المفسرون: إنّ هذه القصّة التي أشير إليها في هذه الآية كانت في مدة داود.

وأطلقت القرية على أهلها بقرينة قوله { **إِذْ يَعْدُونَ** }

العدوان، الظلم ومخالفة الحقّ، وهو مشتقّ من العدو بسكون الدال وهو التجاوز. واختيار صيغة المضارع للدلالة على تكرّر ذلك منهم.

{ **فِي السَّبْتِ** } مؤذن بأنّ العدوان لأجل يوم السبت، نظرا إلى ما دلّت عليه صيغة المضارع من التكرير المقتضي أنّ عدوانهم يتكرّر في كلّ سبت، فيعلم أن الاعتداء كان منوطا بحق خاص بيوم السبت، وذلك هو حقّ عدم العمل فيه، إذ ليس ليوم السبت حقّ في شريعة موسى سوى أنّه يحرم العمل فيه.

{ **إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ** } أي يعدون حين تأتيهم حيتانهم.

الحيتان، جمع حوت، وهو السمكة، ويطلق الحوت على الجمع فهو مما استوى فيه المفرد والجمع مثل فلك، وأكثر ما يطلق الحوت على الواحد، والجمع حيتان.

{ **شُرَّعاً** } وهو جمع شارع، صفة للحوت الذي هو المفرد، قال ابن عباس: " ظاهرة على الماء "، يعني أنّها قريبة من سطح البحر آمنة من أن تصاد، أي أنّ الله ألهمها ذلك لتكون آية لبني إسرائيل على أنّ احترام السبت من العمل فيه هو من أمر الله.

وقال الضحّاك: " متتابعة مصطفّة "، أي فهو كناية عن الكثرة.

وأحسب أن ذلك وصف من شرعت الإبل نحو الماء أي دخلت لتشرب، وهي إذا شرعها الرعاة تسابقت إلى الماء فاكتظت وتراكمت وربما دخلت فيه، فمثلت هيئة الحيتان، في كثرتها في الماء، بالنعم الشارعة إلى الماء وحسّن ذلك وجود الماء في الحالتين وهذا أحسن تفسيرا.

{ **يَوْمَ سَبْتِهِمْ** } يجوز أن يكون لفظ سبت مصدر سبت إذا قطع العمل بقرينة ظاهر قوله {وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ} فإنّه مضارع سبت، فيتطابق المثبت والمنفي فيكون المعنى، أنّهم إذا حفظوا حرمة السبت، فأمسكوا عن الصيد، جاءت الحيتان يومئذ شرّعا آمنة، وإذا بعثهم الطمع في وفرة الصيد فأعدّوا له آلاته وعزموا على الصيد لم تأتهم.

ويجوز أن يكون لفظ {سَبْتِهِمْ} بمعنى الاسم العلم لليوم المعروف بهذا الاسم من أيام الاسبوع، وأضافته إلى ضميرهم اختصاصه بهم بما أنهم يهود، تعريضا بهم لاستحلالهم حرمة السبت.

{ **وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ** } وعلى الوجهين يجوز أن يكون المعنى، والأيام التي لا يحرم العمل فيها، أي أيام الأسبوع، لا تأتي فيها الحيتان.

فالمقصود من الآية الموعظة والعبرة وليست منّة عليهم، وقرينته قوله تعالى

{ **كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** } أي نمتحن طاعتهم بتعريضهم لداعي العصيان، وهو وجود المشتهى الممنوع.

البلوى، الاختبار والبلوى إذا أسندت إلى الله تعالى كانت مجازا عقليا أي ليبلو الناس تمسكهم بشرائع دينهم.

{ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** [164] **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** [165] **فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** } [166]

عطف على قوله {إِذْ يَعْدُونَ}، والتقدير، واسأل بني إسرائيل إذ قالت أمّة منهم. والمقصود توبيخ بني إسرائيل كلّهم، لأنّ القصّة مظهر آخر من مظاهر عصيانهم وعتوّهم وقلة جدوى الموعظة فيهم، وأنّ ذلك شأن معلوم منهم عند علمائهم وصلحائهم، ولذلك لمّا عطفت هذه القصة أعيد معها لفظ اسم الزمان فقيل { وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ } ولم يقل: وقالت أمّة.

{ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ** } **الأمّة**، الجماعة من النّاس المشتركة في هذا القول. قال المفسّرون: إنّ أمّة من بني إسرائيل كانت دائبة على القيام بالموعظة والنهي عن المنكر. وقد أجملت الآية ممّا كان من الأمّة القائلة إيجازا في الكلام، اعتمادا على القرينة.

{ **لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً** } للتعليل، والاستفهام إنكاري في معنى النفي، فيدلّ على انتفاء جميع العلل التي من شأنها أن يوعظ لتحصيلها. وذلك يفضي إلى اليأس من حصول اتعاظهم، والمخاطب أمّة أخرى.

الوعظ، تقدّم ذكره عند قوله آنفا {مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ} [145]، وعند قوله تعالى {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ} [النساء:63].

{ **اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً** } ووصف القوم بأنّ الله مهلكهم مبني على أنّهم تحققت فيهم الحال التي اخبر الله بأنّه يهلك أو يعذب من تحققت فيه، وقد أيقن القائلون بأنّها قد تحققت فيهم، وأيقن المقول لهم بذلك. واسما الفاعل مستعملان في معنى الاستقبال بقرينة المقام، وبقرينة التردّد بين الإهلاك والعذاب.

{ **قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ** } فصلت لوقوعها في سياق المحاورة.

المَعْذِرة، (بفتح الميم وكسر الذال) مصدر ميمي لفعل اعتذر على غير قياس. ومعنى اعتذر اظهر العُذر (بضم العين وسكون الذال) والعذر السبب الذي تبطل به المؤاخذة بذنب أو تقصير، فهو بمنزلة الحجّة التي يبديها المؤاخذ بذنب ليظهر أنّه بريء مما نسب إليه، أو متأول فيه، ويقال: عذره، إذا قبل عذره.

{ **وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** } علّة ثانية للاستمرار على الموعظة، أي رجاء لتأثير الموعظة فيهم بتكرارها.

فالمعنى، أن صلحاء القوم كانوا فريقين، فريق منهم أيس من نجاح الموعظة وتحقّق حلول الوعيد بالقوم، لتوغّلهم في المعاصي، وفريق لم ينقطع رجاؤهم من حصول أثر الموعظة بزيادة التكرار، فأنكر الفريق الأول على الفريق الثاني استمرارهم على كلفة الموعظة، واعتذر الفريق الثاني بقولهم {مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}.

{ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ** } الضمير عائد إلى {قَوْماً} والنسيان مستعمل في الإعراض المفضي إلى النسيان كما تقدّم عند قوله تعالى {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ} [الأنعام:44]

{ **أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ** } هم الفريقان المذكوران في قوله آنفا { وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً - إلى قوله - وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }.

{ **وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ** } هم القوم المذكورون في قوله {قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ}.

الظلم، هنا بمعنى العصيان، وهو ظلم النفس وظلم حقّ الله تعالى في عدم الامتثال لأمره.

{ **بَئِيسٍ** } المعنى، على جميع القراءات: أنّه عذاب شديد الضرّ.

{ **بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** } تقدّم القول في نظيره قريبا.

وقد أجمل هذا العذاب هنا، فقيل هو عذاب غير المسخ المذكور بعده، أي أنّ الله اعذر إليهم فابتدأهم بعذاب الشدّة فلمّا لم ينتهوا وعتوا سلط عليهم عذاب المسخ.

وقيل العذاب البئس هو المسخ، فيكون قوله { فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ } بيانا لإجمال العذاب البئس، ويكون قوله {فَلَمَّا عَتَوْا} بمنزلة التأكيد لقوله {فَلَمَّا نَسُوا} صيغ بهذا الأسلوب لتهويل النسيان والعتو.

العتوّ، تقدم عند قوله تعالى {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ} [77].

{ **قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** } تقدم القول في نظيره عند قوله تعالى {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [البقرة:65]. ولأجل التشابه بين الآيتين، وذكر العدو في السبت فيهما، وذكره هنا في الأخبار عن القرية، جزم المفسرون بأنّ الذين نسوا ما ذكروا به وعتوا عما نهوا عنه هم أهل هذه القرية، وبأنّ الأمّة القائلة {لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً} هي أمّة من هذه القرية، فجزموا بأن القصة واحدة.

{ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [167]

عطف على {وَاسْأَلْهُمْ} [163] بتقدير اذكر، وضمير {عَلَيْهِمْ} عائد إلى اليهود، فالمتحدّث عنهم بهذه الآية لا علاقة لهم بأهل القرية الذين عدوا في السبت.

{ **تَأَذَّنَ** } مشتق من الإذن وهو العلم، يقال أذن أي علم، فقيل هو هنا بمعنى أفعل، فمعنى {تَأَذَّنَ رَبُّكَ} أعْلم

وأخْبر ليبعثن. وقال في (الكشاف) معناه عزم ربّك. وعن ابن عباس {تَأَذَّنَ رَبُّكَ} أعلن ذلك على لسان رسله. وحاصل المعنى، أنّ الله أعلمهم بذلك وتوعّدهم به، وهذا كقوله تعالى {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم:7]

البعث، الإرسال، وهو هنا مجاز في التقييض والإلهام، وهو يؤذن بأنّ ذلك في أوقات مختلفة وليس ذلك مستمرا يوما فيوما، وضُمّن معنى التسليط فعدّي بـ (على) كقوله {بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا} [الاسراء:5].

{ **إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } غاية لما في القسم من معنى الاستقبال، وهي غاية مقصود منها جعل أزمنة المستقبل كلّه ظرفا للبعث، أي أنّ الله يسلط عليهم ذلك في خلال المستقبل كلّه.

{ **يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ** } يفرض عليهم، وحقيقة السوم أنّه تقدير العوض الذي يستبدل به الشيء، واستعمل مجازا في المعاملة اللازمة بتشبيهها بالسوم المقدر للشيء، وتقدّم في هذه السورة نظيره، وفي قوله تعالى {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} [البقرة:49]. فالمعنى يجعل سوء العذاب كالقيمة لهم، فهو حظّهم.

سوء العذاب، أشدّه، لأنّ العذاب كلّه سوء فسوءه الأشدّ فيه.

والآية تشير إلى وعيد الله إيّاهم بأن يسلّط عليهم عدوّهم كلّما نقضوا ميثاق الله تعالى، وقد تكرر هذا الوعيد من عهد موسى عليه السلام. وأوّل من سُلّط عليهم بختنصر ملك بابل، ثم توالت عليهم المصائب فكان أعظمها خراب أرشليم في زمن ادريانوس امبراطور روما، ولم تزل المصائب تنتابهم وينفّس عليهم في فترات معروفة في التاريخ.

{ **إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ** } أي لهم، والسرعة تقتضي التحقّق، أي أنّ عقابه واقع وغير متأخّر، لأنّ التأخر تقليل في التحقق.

{ **وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** } وعد بالإنجاء من ذلك إذا تأبوا واتبعوا الإسلام، أي لغفور لمن تاب ورجع إلى الحقّ. وفيه إيماء إلى أنّ الله قد ينفّس عليهم في فترات من الزمن، لأنّ رحمة الله سبقت غضبه.

{ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [168].

عطف قصة على قصة وهو عود إلى قصص الإخبار عن أحوالهم، فيجوز أن يكون الكلام إشارة إلى تفرّقهم بعد الاجتماع، والتقطيع التفريق، فيكون محمودا مثل {وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً} [160]، ويكون مذموما، فالتعويل على القرينة لا على لفظ التقطيع.

{ **أُمَماً** } جمع أمّة بمعنى الجماعة، فيجوز أن يكون المراد هنا تقطيعا مذموما أي تفريقا بعد اجتماع أمتهم فيكون إشارة إلى اسر بني إسرائيل عندما غزا مملكة إسرائيل (شلمناصر) ملك بابل، ونقلهم إلى جبال أنشور وارض بابل سنة (721 ق م).ثم أسر بختنصر مملكة يهوذا وملكها سنة (578 ق م)، ونقل اليهود من ارشليم ولم يبق إلّا الفقراء والعجز. ثم عادوا إلى ارشليم سنة (530 ق م) وبنوا البيت المقدس إلى أن أجلاهم طيطوس الروماني وخرّب بيت المقدس في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد، فلم تجتمع أمتهم بعد ذلك.

{ **مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ** } إيذان بأنّ التفريق شمل المذنبين وغيرهم، وأنّ الله جعل للصالحين منزلة إكرام عند الأمم التي حلوا بينها كما دل عليه قوله. {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ}. و{الصَّالِحُونَ} هم المتمسّكون بشريعة موسى والمصدّقون للأنبياء المبعوثين من بعده، والمؤمنون بعيسى بعد بعثته. وأن بني إسرائيل كانوا بعد بعثة عيسى غير صالحين إلّا قليلا منهم، الذين آمنوا به. وزادوا بعد بعثة محمد ﷺ وعدم إيمانهم به، بعدا عن الصلاح إلّا نفرا قليلا منهم، مثل عبد الله بن سلام، ومخيريق.

{ **وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ** } شمل كل من لم يكن صالحا على اختلاف مراتب فقدان الصلاح منهم.

{ **وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ** } أي أظهرنا مختلف حال بني إسرائيل في الصبر والشكر، أو في الجزع والكفر، بسبب الحسنات والسيئات، فهي جمع حسنة وسيئة بمعنى التي تحسن والتي تسوء، كما تقدّم في قوله {فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ} [131].

{ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } استئناف بياني، أي رجاء أن يتوبوا حين يرون حسن حال الصالحين وسوء حال من هم دون ذلك.

الرجوع هنا، الرجوع عن نقض العهد وعن العصيان، وهو معنى التوبة.

ويجوز عندي أن يكون قوله {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً} ، عودا إلى أخبار المنن عليهم، فيكون كالبناء على قوله { وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً } [160]، فيكون تقطيعا محمودا. والمراد بالأرض، أرض القدس الموعودة لهم، أي لكثّرناهم فعمروها جميعها، فيكون ذكر الأرض هنا للدلالة على أنّهم عمروها كلّها، ويكون قوله {مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ} إنصافا لهم بعد ذكر أحوال عدوان جماعاتهم وصمّ آذانهم عن الموعظة، وقوله {وَبَلَوْنَاهُمْ} إشارة إلى أنّ الله عاملهم مرة بالرحمة ومرة بالجزاء على أعمال دهمائهم.

{ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ [169] وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ } [170]

جملة {فَخَلَفَ} تفريع على قوله {وَقَطَّعْنَاهُمُ} إن كان المراد تقطيعهم في بلاد أعدائهم وإخراجهم من مملكتهم، فتكون الآية مشيرة إلى عودة بني إسرائيل إلى بلادهم في عهد الملك كورش ملك الفرس في حدود سنة (530 ق م). فإنّه لمّا فتح بلاد آشور أذن لليهود الذين أسرهم بختنصر أن يرجعوا إلى بلادهم فرجعوا وبنوا بيت المقدس بعد خرابه، كما تضمّنه سفر (نحميا) وسفر (عزرا)، وكان من جملة ما احيوه أنّهم أتوا بسفر شريعة موسى الذي كتبه (عزرا) وقرأوه على الشعب في أورشليم. فيكون المراد بالخلف الذين رجعوا من اسر الآشوريين. والمراد بـ { **وَرِثُوا الْكِتَابَ** } إعادة مزاولتهم التوراة التي أخرجها إليهم (عزرا) المعروف عند أهل الإسلام باسم (**عُزَيْر**)، ويكون { **يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى** } اخذ بعض الخلف لا جميعه، لأنّ صدر ذلك الخلف كانوا تائبين وفيهم أنبياء وصالحون.

وإن كان المراد من تقطيعهم في الأرض أمما تكثيرهم والامتنان عليهم، كان قوله {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ} تفريعا على جميع القصص المتقدّمة التي هي قصص أسلافهم، فيكون المراد بالخلف من نشأ من ذريّة أولئك اليهود بعد زوال الأمّة وتفرّقها. منهم الذين كانوا عند ظهور الإسلام وهم اليهود الذين كانوا بالمدينة وإلى هذا المعنى في (الخلْف) نحا المفسرون.

الخلْف، (بسكون اللام) من يأتي بعد غيره في مكان أو عمل أو نسل. وهو مصدر أريد به اسم الفاعل، ولا حد لآخر الخلف، بل يكون تحديده بالقرائن، فلا ينحصر في جيل ولا في قرن، بل قد يكون الخلف ممتدا. قال تعالى بعد ذكر الأنبياء {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ} [مريم: 59]

{ **وَرِثُوا** } مجاز في القيام مقام الغير، كما تقدّم في قوله تعالى {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا} [43]. فهو بمعنى الخليفة، والمعنى، فخلف من بعدهم خلف في إرث الكتاب.

{ **يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى** } حال، والمقصود هو ذمّ الخلْف بأنّهم يأخذون عرض الأدنى ويقولون سيغفر لنا، ومهّد لذلك بأنّهم ورثوا الكتاب ليدلّ على أنّهم يفعلون ذلك عن علم لا عن جهل، وذلك أشدّ مذمة.

الأخذ هنا، الملابسة والاستعمال فهو مجاز، أي يلابسونه، ويجوز كونه حقيقة كما سيأتي.

العَرَض، (بفتح العين وفتح الراء) الأمر الذي يزول ولا يدوم، ويراد به المال، ويراد به أيضا ما يعرض للمرء من الشهوات والمنافع.

الأدنى، الأقرب من المكان، والمراد به هنا الدنيا. وفيه إيماء إلى تحقير هذا العرض الذي رغبوا فيه.

و قيل: أريد به ملابسة الذنوب، وبذلك فسّر سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والطبري، فيشمل كل ذنب. ويكون الأخذ مستعملا في المجاز وهو الملابسة.

وقيل: هو الرشا، وبه فسّر السدي، ومعظم المفسرين، فيكون الأخذ مستعملا في حقيقته وهو التناول، وقد يترجّح هذا التفسير بقوله {وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ} كما سيأتي.

{ **وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا** } هو الكلام اللساني، يقولون لمن ينكر عليهم ملابسة الذنوب وتناول الشهوات، ويجوز أن يكون الكلام النفساني، لأنّه فرع عنه، أي قولهم في أنفسهم يعلّلونها به حين يجيش فيها وازع النهي، وذلك من غرورهم في الدين.

{ **وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ** } معطوفة على التي قبلها، واستعير إتيان العرض لبذله لهم إن كان المراد بالعرض المال، وقد يراد به خطور شهوته في نفوسهم إن كان المراد بالعرض جميع الشهوات والملاذ المحرّمة. والمعنى، أنّهم يعصون، ويزعمون أنّ سيّئاتهم مغفورة، ولا يقلعون عن المعاصي.

{ **أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ** } جواب عن قولهم {سَيُغْفَرُ لَنَا} إبطالا لمضمونه. والمقصود من هذه الجملة إعلام النبي ﷺ ليحجّهم بها، فهم المقصود بالكلام، كما تشهد به قراءة {أَفَلا تَعْقِلُونَ} بتاء الخطاب.

والاستفهام للتقرير المقصود منه التوبيخ، وهذا التقرير لا يسعهم إلّا الاعتراف به لأنّه صريح كتابهم. ففي الإصحاح [4] من السفر [5]: " لا تزيدوا على الكلام الذي أوصيكم به ولا تنقصوا منه لكي تحفظوا وصايا الرب ".

الميثاق، العهد، وهو وصيّة موسى التي بلّغها إليهم عن الله تعالى في مواضع كثيرة.

الكتاب، توراة موسى.

{ **أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ** } هو مضمون ميثاق الكتاب. والتقدير، ميثاق الكتاب عدم قولهم على الله إلاّ الحقّ.

{ **وَدَرَسُوا مَا فِيهِ** } عطف على {يُؤْخَذْ} ، لأنّ (يؤخذ) في معنى المضي، لأجل دخول (لم) عليه. والتقدير، ألم يؤخذ ويدرسوا، لأنّ المقصود تقريرهم بأنّهم درسوا الكتاب، لا الإخبار عنهم بذلك.

والمعنى، أنّهم قد أُخذ عليهم الميثاق بأن لا يقولوا على الله إلّا الحقّ، وهم عالمون بذلك الميثاق، لأنّهم درسوا ما في الكتاب، فبمجموع الأمرين قامت عليهم الحجّة.

{ **وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** } حالية من ضمير {يَأْخُذُونَ}، وفي جعل الجملة في موضع الحال تعريض بأنّهم يعلمون ذلك أيضا، فهم قد خيّروا عليه عرض الدنيا قصدا، وليس ذلك عن غفلة صادفتهم فحرمتهم من خير الآخرة، بل هم قد حرموا أنفسهم، وقرينة ذلك قوله { أَفَلا تَعْقِلُونَ } بتاء الخطاب،

على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ليكون أوقع في توجيه التوبيخ إليهم مواجهة.

وفي جعل الآخرة خير للمتقين كناية عن كون الذين أخذوا عرض الدنيا بتلك الكيفية لم يكونوا من المتّقين، **{ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ }** مضمونها مقابل حكم التي قبلها، إذ حصل من التي قبلها أنّ هؤلاء الخلف الذين أخذوا عرض الأدنى قد فرّطوا في ميثاق الكتاب، ولم يكونوا من المتّقين، فعُقب ذلك ببشارة من كانوا ضدّ أعمالهم، وهم الآخذون بميثاق الكتاب والعاملون ببشارته بالرّسل، وآمنوا بمحمد ﷺ، فأولئك يستكملون أجرهم لأنّهم مصلحون.

ويحتمل أن المراد بالذين يمسّكون بالكتاب، المسلمون، ثناء عليهم بأنّهم الفائزون في الآخرة وتبشيرا لهم بأنّهم لا يسلكون بكتابهم مسلك اليهود بكتابهم.

{ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ } والتقدير، إنّا لا نضيع أجرهم لأنّهم مصلحون، ثناء عليهم على طريقة الإيجاز البديع.

{ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [171]

عاد الكلام إلى العبرة بقصص بني إسرائيل مع موسى عليه السلام، لأنّ قصّة رفع الطور عليهم من أمّهات قصصهم، وليست مثل قصّة القرية الذين اعتدوا في السبت، ولا مثل خبر إيذانهم بمن يسومهم سوء العذاب.

فضمائر الجمع كلها هنا مراد بها بنو إسرائيل الذين كانوا مع موسى، بقرينة المقام.

{ إِذْ } متعلّقة بمحذوف تقديره، واذكر إذ نتقنا الجبل فوقهم.

النتق، الفصل والقلع.

وهذه آية أظهرها الله لهم تخويفا لهم، لتكون مذكّرة لهم. فكان رفع الطور معجزة لموسى عليه السلام تصديقا له فيما سيبلّغهم عن الله من أخذ أحكام التوراة بعزيمة ومداومة. والقصّة تقدّمت عند قوله تعالى {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ }[البقرة:63]

الظلة، السحابة.

{ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ }عدي بالباء للدلالة على أنّهم كانوا مستقرّين في الجبل، فهو إذا ارتفع وقع ملابسا لهم ففتنتهم، فهم يرون أعلاه فوقهم وهم في سفحه.

{ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ } مقول قول محذوف، وتقدّم تفسير نظيرها في سورة البقرة.

{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ [172] أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ [173] وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [147]

انتقال بالكلام إلى محاجّة المشركين من العرب، وهو المقصود من السورة ابتداء ونهاية، فكان هذا الانتقال بمنزلة ردّ العجز على الصدر. جاء هذا الانتقال بمناسبة ذكر العهد الذي أخذ الله على بني إسرائيل في وصيّة موسى، وهو ميثاق الكتاب، وفي يوم رفع الطور.

وهو عهد حصل بالخطاب التكويني، أي بجعل معناه في جبلّة كلّ نسمة وفطرتها، فالجملة معطوفة على الجمل السابقة عطف القصّة على القصّة. فهذا ابتداء لتقريع المشركين على الإشراك، وما ذكر بعده إلى آخر السورة مناسب لأحوال المشركين.

{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ }

(**إذْ**) اسم للزمن الماضي، وهو هنا مجرّد عن الظرفية، فهو مفعول به لفعل (اذكر) محذوف.

الذرّيّات، جمع ذرّيّة، والذرّيّة اسم جمع لما يتولّد من الإنسان، وجمعه هنا للتنصيص على العموم.

وأخذ العهد على الذرّيّة المخرجين من ظهور بني آدم يقتضي أخذ العهد على الذرّيّة الذين في ظهر آدم بدلالة الفحوى، وإلّا لكان أبناء آدم الأدنون ليسوا مأخوذا عليهم العهد مع أنّهم أولى بأخذ العهد عليهم في ظهر آدم.

ومما يثبت هذه الدلالة أخبار كثيرة رويت عن النبي ﷺ وعن جمع من أصحابه، متفاوتة في القوة غير خال واحد منها عن متكلّم، غير أنّ كثرتها يؤيد بعضها بعضا، وأوضحها ما روى مالك في الموطأ في ترجمة النهي عن القول بالقدر بسنده إلى عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عن هذه الآية { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتَهُمْ} فقال: " إنّ الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه حتى استخرج منه ذرّيّة، فقال خلقت هؤلاء للجنّة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرّيّة، فقال خلقت هؤلاء للنّار وبعمل أهل النّار يعملون". وساق الحديث بما لا حاجة إليه في غرضنا ومحمل هذا الحديث على أنه تصريح بمدلول الفحوى المذكور، وليس تفسيرا لمنطوق الآية.

وجاء في الآية أن الله أخذ على الذرّيّات العهد بالإقرار بربوبيّة الله، ولم يتعرض لذلك في الحديث. وذكر فيه أنّه ميّز بين أهل الجنّة وأهل النار منهم. ولعلّ الحديث اقتصار على بيان ما سأل عنه السائل فيكون تفسيرا للآية تفسير تكميل لما لم يذكر فيها، أو كان في الحديث اقتصار من أحد روّاته على بعض ما سمعه.

الأخذ، مجاز في الإخراج والانتزاع قال الله تعالى {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ} [الأنعام:46]

{ **مِنْ ظُهُورِهِمْ** } بدل {مِنْ بَنِي آدَمَ} أبدل بعض من كل.

الإشهادعلى الأنفس، يطلق على ما يساوي الإقرار أو الحمل عليه، وهو هنا الحمل على الإقرار، واستعير لحالة مغيّبة تتضمّن هذا الإقرار يعلمها الله لاستقرار معنى هذا الاعتراف في فطرتهم.

{ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ** } مقول لقول محذوف هو بيان لجملة {أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ} أي قرّرهم بهذا القول وهو من أمر التكوين. والمعنى واحد، لأن الذرّيّة لمّا أضيف إلى ضمير بني آدم كان على معنى التوزيع.

والاستفهام تقريري، ومثله يقال في تقرير من يُظنّ به الإنكار أو ينزل منزلة ذلك، فلذلك يقرّر على النفي استدراجا له. وقد تقدّم عند قوله تعالى {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} [الأنعام:130]

والكلام تمثيل حال من أحوال الغيب، من تسلّط أمر التكوين الإلهي على ذوات الكائنات وأعراضها عند إرادة تكوينها، لا تبلغ النفوس إلى تصوّرها بالكنه، لأنّها وراء المعتاد المألوف، فيراد تقريبها بهذا التمثيل.

وحاصل المعنى: أنّ الله خلق في الإنسان من وقت تكوينه إدراك أدلّة الوحدانيّة، وجعل في فطرة حركة تفكير الإنسان التطلّع إلى إدراك ذلك وتحصيل إدراكه إذا جرّد نفسه من العوارض التي تدخل على فطرته فتفسدها.

{ **قَالُوا بَلَى** } جواب عن الاستفهام التقريري، وفصّلت لأنّها جاءت على طريقة المحاورة.

وأطلق القول إمّا حقيقة فذلك قول خارق للعادة، وإمّا مجازا على دلالة حالهم على أنّهم مربوبون لله تعالى، كما أطلق القول على مثله في قوله تعالى { فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } [فصلت:11] أي ظهرت فيهما آثار أمر التكوين. فهو من المجاز الذي كثر في كلام العرب.

{ **بَلَى** } حرف جواب لكلام فيه معنى النفي، فيقتضي إبطال النفي وتقرير المنفي، ولذلك كان الجواب بها بعد النفي أصرح من الجواب بحرف (نعم)، لأنّ نعم تحتمل تقرير النفي وتقرير المنفي.

{ **شَهِدْنَا** } تأكيد لمضمون { بَلَى } والشهادة هنا أيضا بمعنى الإقرار.

{ **أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** } في موقع التعليل لفعل الأخذ والإشهاد. والمقصود التعليل بنفي أن يقولوا {إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} لا بإيقاع القول، فحذف حرف النفي جريا على شيوع حذفه مع القول. أو هو تعليل بأنّهم يقولون ذلك، إن لم يقع إشهادهم على أنفسهم.

وقرأ الجمهور، { **أن تقولوا**} بتاء الخطاب، وقد حوّل الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب، ثم من خطاب الرسول إلى خطاب قومه، تصريحا بأنّ المقصود من قصّة أخذ العهد تذكير المشركين بما أودع الله في الفطرة من التوحيد. وهذا الأسلوب هو من تحويل الخطاب عن مخاطب إلى غيره، وليس من الالتفاف لاختلاف المخاطبين. وقرأه أبو عمرو، وحده بياء الغيبة، والضمير عائد إلى ذريات بني آدم.

والمعنى: أن ذلك لمّا جُعل في الفطرة، عند التكوين، كانت عقول البشر منساقة إليه، فلا يغفل عنه أحد منهم فيعتذر يوم القيامة، إذا سئل عن الإشراك، بعذر الغفلة، فهذا إبطال للاعتذار بالغفلة، ولذلك وقع تقدير حرف نفي أي أن لا تقولوا.

{ **أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** } وعطف عليه الاعتذار بالجهل دون الغفلة بأن يقولوا: إننا اتبعنا آباءنا وما ظننا الإشراك إلا حقا، فلما كان في أصل الفطرة العلم بوحدانية الله بطل الاعتذار بالجهل به، وكان الإشراك إمّا عن عمد وإمّا عن تقصير، وكلاهما لا ينهض عذرا، وكلّ هذا إنما يصلح لخطاب المشركين دون بني إسرائيل.

{ **وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ** } كنا على دينهم تبعا لهم لأنّنا ذرّيّة لهم، وشأن الذرّيّة الاقتداء بالآباء وإقامة عوائدهم فوقع إيجاز في الكلام وأقيم التعليل مقام المعلّل.

{ **أَفَتُهْلِكُنَا** }الاستفهام إنكاري، والإهلاك هنا مستعار للعذاب.

المبطلون، الآخذون بالباطل، وهو في هذا المقام الإشراك.

وفي هذه الآية دليل على أنّ الإيمان بالإله الواحد مستقر في فطرة العقل، لو خلي ونفسه، وتجرّد من الشبهات الناشئة فيه من التقصير في النظر، أو الملقاة إليه من أهل الضلالة المستقرّة فيهم الضلالة، بقصد أو بغير قصد.

ولذلك قال الماتريدي والمعتزلة: إنّ الإيمان بالإله الواحد واجب بالعقل، ونُسب إلى أبي حنيفة والى الماوردي وبعض الشافعية من أهل العراق، وعليه انبتت مؤاخذة أهل الفترة على الإشراك، وقال الأشعري: " معرفة الله واجبة بالشرع لا بالعقل"، تمسكا بقوله تعالى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [الاسراء: 15] ولعلّه أرجع مؤاخذة أهل الفترة على الشرك إلى التواتر بمجيء الرسل بالتوحيد.

{ **وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ** } معترضة بين القصّتين، وتسمّى (واو) الاستئناف، أي مثل هذا التفصيل نفصل الآيات، أي آيات القرآن، وتقدّم نظير هذا عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } [الأنعام:55]. وتفصيلها بيانها وتجريدها من الالتباس.

{ **وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } وهذا إنشاء ترجّي رجوع المشركين إلى التوحيد، وقد تقدم القول في تأويل معنى الرجاء بالنسبة إلى صدوره من جانب الله تعالى عند قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة:21]

الرجوع، مستعار للإقلاع عن الشرك، شبّه الإقلاع عن الحالة التي هم متلبسون بها بترك من حل في غير مقرّه ليرجع إلى مقرّه. وهذا التشبيه يقتضي تشبيه حال الإشراك بموضع الغربة، لأنّ الشرك ليس من مقتضى الفطرة، فالتلبس به خروج عن أصل الخلقة كخروج المسافر عن موطنه.

ويقتضي أيضا تشبيه حال التوحيد بمحل المرء وحيّه الذي يأوي إليه، وقد تكرر في القرآن. وهو تعريض بالعرب لأنّهم المشركون من عقب إبراهيم.

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ [175] وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}[176]

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ [175] وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ }

أعقب ما يفيد أنّ التوحيد جعل في الفطرة بذكر حالة اهتداء بعض النّاس إلى نبذ الشرك في مبدأ أمره ثم تعرض وساوس الشيطان له بتحسين الشرك. ومناسبتها للتي قبلها، إشارة العبرة من حال أحد الذين أخذ الله عليهم العهد بالتوحيد والامتثال لأمر الله، وأمدّه الله بعلم يعينه على الوفاء بما عاهد الله عليه في الفطرة، ثم لم ينفعه ذلك كلّه حين لم يقدّر الله له الهدى المستمر.

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ } وشأن القصص المفتتحة بهذا القول أن يقصد منها وعظ المشركين بصاحب القصّة.

ومناسبة فعل التلاوة لهم أنّهم كانوا قوما تغلب عليهم الأمّية فأراد الله أن يبلّغ إليهم من التعليم ما يساوون به حال أهل الكتاب في التلاوة.

النبأ، الخبر المروي.

{ الَّذِي } وظاهر اسم الموصول المفرد أنّ صاحب الصلة واحد معيّن، وأنّ مضمون الصلة حال من أحواله التي عرف بها، والأقرب أن يكون صاحب هذا النبإ ممن للعرب إلمام بمجمل خبره. فقيل المعني به (**أمية بن أبي الصلت الثقفي**)، وروي هذا عن عبد الله بن عمرو بن العاص، بأسانيد كثيرة عند الطبري، وعن زيد بن أسلم، وقال القرطبي في التفسير: "هو الأشهروهو قول الأكثر". ذلك أنّ أمية بن أبي الصلت الثقفي كان ممن أراد اتباع دين غير الشرك طالبا دين الحقّ، ونظر في التوراة والإنجيل فلم ير النجاة في اليهودية ولا النصرانية، وتزهّد وتوخّى الحنيفيّة دين إبراهيم، وأُخبر أنّ الله يبعث نبيّا في العرب، فطمع أن يكونه، ورفض عبادة الأصنام وحرّم الخمر وذكر في شعره أخبارا من قصص التوراة، ويروى أنّه كانت له إلهامات ومكاشفات وكان يقول: كل دين يوم القيامة عند ... الله إلا دين الحنيفيّة زور

وله شعر كثير في أمور الإلهية، فلما بُعث محمد ﷺ أسف أن لم يكن هو الرسول المبعوث في العرب، وقد اتفق أن خرج إلى البحرين قبل البعثة وأقام هنالك ثمان سنين ثم رجع إلى مكّة فوجد البعثة وتردد في الإسلام، ثم

خرج إلى الشام ورجع بعد وقعة بدر فلم يؤمن بالنبي ﷺ حسدا، ورثى من قتل من ا لمشركين يوم بدر. وخرج إلى الطائف بلاد قومه فمات كافرا. وكان يذكر في شعره الثواب والعقاب واسم الله وأسماء الأنبياء، وقد قال فيه النبي ﷺ: " كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم ". وروي عن أمّية أنّه قال لما مرض مرض موته: " أنا أعلم أنّ الحنيفيّة حق ولكن الشك يداخلني في محمد"

{ **آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا** } أنّ الله ألهم أميّة كراهية الشرك، وألقى في نفسه طلب الحقّ، ويسّر له قراءة كتب الانبياء، وحبّب إليه الحنيفيّة، فلمّا انفتح له باب الهدى وأشرق نور الدعوة المحمديّة كابر وحسد وأعرض عن الإسلام، فلا جرم أن كانت حاله أنّه انسلخ عن جميع ما يُسّر له، ولم ينتفع به عند إبّان الانتفاع، فكان الشيطان هو الذي صرفه عن الهدى فكان من الغاوين، إذ مات على الكفر بمحمد ﷺ.

الإيتاء هنا، مستعار للإطلاع وتيسير العلم مثل قوله { وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ } [البقر251]

الآيات، دلاءل الوحدانيّة التي كرّهت إليه الشرك وبعثته على تطلّب الحنيفيّة بالنسبة لأمية بن أبي الصلت.

الانسلاخ، حقيقته خروج جسد الحيوان من جلده حينما يسلخ، والسَّلْخُ فعل ذلك. واستعير في الآية للانفصال المعنوي، وهو ترك التلبّس بالشيء أو عدم العمل به. ومعنى الانسلاخ عن الآيات الإقلاع عن العمل بما تقتضيه، وذلك أنّ الآيات أعلمته بفساد دين الجاهلية.

{ **فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ** } بمعنى لحقة غير مفلت، كقوله { فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ } [الصافات: 10] { فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ } [طه: 78] وهذا أخصّ من (اتّبعه) بتشديد المثناة ووصل الهمزة.

الغاوين، المتّصفين بالغيّ، وهو الضلال. والتركيب أشد مبالغة في الاتصاف بالغواية من أن يقال: وغوى أو كان غاويا، كما تقدّم عند قوله تعالى {قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [الأنعام [56].

{ **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا** } أفاد أنّ تلك الآيات شأنها أن تكون سببا للهداية والتزكية، لو شاء الله له التوفيق وعصمه من كيد الشيطان وفتنته فلم ينسلخ عنها، وهذه عبرة للموفّقين ليعلموا فضل الله عليهم في توفيقهم.

الرفعة، مستعارة لكمال النفس وزكائها، لأنّ الصفات الحميدة تخيّل صاحبها مرتفعا على من دونه، أي ولو شئنا لاكتسب بعمله بالآيات فضلا وزكاء وتميّزا.

{ **وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ** } وقد وقع الاستدراك على مضمون قوله {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} بذكر ما يناقض تلك المشيئة الممتنعة، أي ركن ومال إلى الأرض. والكلام تمثيل لحال المتلبّس بالنقائص والكفر بعد الإيمان والتقوى، بحال من كان مرتفعا عن الأرض فنزل من اعتلاء إلى أسفل. فبذكر الأرض عُلم أنّ الإخلاد هنا ركون إلى السفل، أي تلبّس بالنقائص والمفاسد.

اتباع الهوى، ترجيح ما يحسن لدى النفس من النقائص المحبوبة على ما يدعو إليه الحقّ والرشد، فالاتباع مستعار للاختيار والميل، والهوى شاع في المحبّة المذمومة الخاسرة عاقبتها.

{ **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ** }

واستعمال القرآن لفظ المثل بعد كاف التشبيه مألوف بأنّه يراد به تشبيه الحالة بالحالة، وتقدّم قوله تعالى {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً} [البقرة:17]، فلذلك تعين أنّ التشبيه هنا لا يخرج عن المتعارف في التشبيه المركّب.

فهذا الضال تحمّل كلفة اتباع الدين الصالح وصار يطلبه في حين كان غير مكلف بذلك في زمن الفترة فلقي من ذلك نصبا وعناء، فلما حان حين اتباع الحق ببعثة محمد ﷺ تحمل مشقة العناد والإعراض عنه في وقت كان جديرا فيه بان يستريح من عنائه لحصول طلبته فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الموصوف باللهث، فهو يلهث في حالة وجود أسباب اللهث من الطرد والإرهاب والمشقة وهي حالة الحمل عليه، وفي حالة الخلو عن ذلك السبب وهي حالة تركه في دعة ومسالمة.

{ **إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ** } أن تطارده وتهاجمه، مشتق من الحمل الذي هو الهجوم على أحد لقتاله، يقال حمل فلان على القوم حملة شعواء أو حملة منكرة، وقد أغفل المفسرون توضيحه وأغفل الراغب في مفردات القرآن هذا المعنى لهذا الفعل.

اللهث، سرعة التنفّس مع امتداد اللسان لضيق النفس، وفعله بفتح الهاء وبكسرها.

{ **ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** }

أي ذلك التمثيل مثل للمشركين المكذّبين بالقرآن، تشبيه بليغ. لأنّهم شابهوه في أنّهم أوتوا القرآن فكذّبوا به، فكانت حالهم كحال ذلك المكذّب.

والأظهر أن تكون الإشارة إلى {كَمَثَلِ الْكَلْبِ} أي حال الكلب المذكورة كحال المشركين المكذّبين في أنّهم كانوا يودّون معرفة دين إبراهيم، ويتمنّون مساواة أهل الكتاب في العلم والفضل، فكانوا بذلك في عناء وحيرة في الجاهلية فلمّا جاءهم رسول منهم بكتاب مبين انتقلوا إلى عناء معاندته. وهذا تأويل ما روي عن عبادة ابن الصامت أن آية {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا} إلى آخرها نزلت في قريش.

{ **فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** } فإنّ في القصص تفكرا وموعظة فيرجى منه تفكّرهم وموعظتهم. لأنّ للأمثال واستحضار النظائر شانا عظيما في اهتداء النفوس بها وتقريب الأحوال الخفيّة إلى النفوس الذاهلة أو المتغافلة، لما في التنظير بالقصّة المخصوصة من تذكّر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التذكير المجرد عن التنظير بالشيء المحسوس.

{ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ }[177]

جملة مستأنفة لأنّها جعلت إنشاء ذمّ لهم بأن كانوا في حالة شنيعة وظلموا أنفسهم.

الظلم هنا، على حقيقته فإنّهم ظلموا أنفسهم بما أحلّوه بها من الكفر الذي جعلهم مذمومين في الدنيا ومعذّبين في الآخرة.

وتقديم المفعول للاختصاص، أي ما ظلموا إلّا أنفسهم، وفيه إزالة تبجّحهم بأنّهم لم يتّبعوا محمدا ﷺ ظنّا منهم أنّ ذلك يغيظه ويغيظ المسلمين.

{ **وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ** } تذييل للجملة التي قبلها إخبارا عنهم بأنّهم في تكذيبهم، وانتفاء تفكّرهم من القصص ما ظلموا إلّا أنفسهم.

{ **كَانُوا يَظْلِمُونَ** } أقوى في إفادة وصفهم بالظلم.

{ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }[178]

هذه الجملة تذييل للقصّة والمثل وما أعقبا به من وصف حال المشركين، فإنّ هذه الجملة تُحصّل ذلك كلّه وتجري مجرى المثل، وذلك أعلى أنواع التذييل، وفيها تنويه بشأن المهتدين، وتلقين للمسلمين للتوجّه إلى الله تعالى بطلب الهداية منه والعصمة من مزالق الضلال، أي فالذين لم يهتدوا إلى الحقّ بعد أن جاءهم دلّت حالهم على أنّ الله غضب عليهم فحرمهم التوفيق.

الهداية، حقيقتها إبانة الطريق، وتطلق على مطلق الإرشاد لما فيه النفع سواء اهتدى المهدي إلى ما هدي إليه أم لم يهتد، قال تعالى { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً } [الانسان:3].

ثم قد عُلم أنّ الفعل الذي يسند إلى الله تعالى إنّما يراد به أتقن أنواع تلك الماهية وأدومها، ما لم تقم القرينة على خلاف ذلك، فقوله {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ} يعنى به من يقدّر الله اهتداءه. وليس المعنى من يرشده الله بالأدلة أو بواسطة الرسل، وقد استفيد ذلك من قصة {الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا} فإنّ الله أرشده، ولم يقدّر له الاهتداء، فالحالة التي كان عليها قبل أن يخلد إلى الأرض ليست حالة هدى، ولكنها حالة تردّد وتجربة.

فتعيّن أن يكون المعنى هنا، من يقدّر الله له أن يكون مهتديا فهو المهتدي.

{ **فَهُوَ الْمُهْتَدِي** } قصر حقيقي ادعائي باعتبار الكمال واستمرار الاهتداء إلى وفاة صاحبه، وهي مسألة الموافاة عند الأشاعرة.

{ **وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } زيد في جانب الخاسرين الفصل باسم الإشارة لزيادة الاهتمام بتمييزهم بعنوان الخسران، تحذيرا منه. فالقصر فيه مؤكّد.

الخسران، استعير لتحصيل ضدّ المقصود من العمل، كما يستعار الربح لحصول الخير من العمل، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ } [9].

{ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ }[179]

تأكيد الخبر بـ (لام القسم) وبـ (قد) لقصد تحقيقه، لأنّ غرابته تنزل سامعه منزلة المتردّد في تأويله. والمعني بهم المشركون، وهم ينكرون أنّهم في ضلال ويحسبون أنّهم يحسنون صنعا، وكانوا يحسبون أنّهم أصحاب أحلام وأفهام، ولذلك قالوا للرّسول ﷺ في معرض التهكّم { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ} [فصلت: 5].

الذرء، الخلق، وتقدّم في قوله {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً} [الأنعام:136].

{ **لِجَهَنَّمَ** } اللام للتعليل. فدلائل الحقّ قائمة في نفوسهم ولكنّهم ينصرفون عنها لغلبة الهوى عليهم. فبحسب خلقه نفوسهم غير ذات عزيمة على مقاومة الشهوات جعلوا كأنهم خلقوا لجهنم، وكأنّهم لم تخلق فيهم دواعي الحقّ في الفطرة.

الجنّ، خلق غير مرئي لنا، وظاهر القرآن أنّهم عقلاء وأنّهم مطبوعون على ما خلقوا لأجله من نفع أو ضرّ، وخير أو شرّ، ومنهم الشياطين، وهذا الخلق لا قبل لنا بتفصيل نظامه، ولا كيفيّات تلقيه لمراد الله تعالى منه.

{ **لَهُمْ قُلُوبٌ** } حال أو صفة لخصوص الإنس، لأنّهم الذين لهم قلوب وعقول وعيون وآذان، ولم يعرف للجنّ مثل ذلك. وقدّم الجنّ على الإنس في الذكر، ليتعيّن كون الصفات الواردة من بعد صفات للإنس وبقرينة قوله: { أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ }.

{ **الْقُلُوبُ** } اسم لموقع العقول في اللغة العربية، وتقدّم عند قوله تعالى {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [البقرة:7]

الفقه، تقدّم عند قوله {لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} [الأنعام:65].

ومعنى نفي الفقه والإبصار والسمع عن آلاتها الكائنة فيهم، أنّهم عطّلوا أعمالها بترك استعمالها في أهم ما تصلح له، وهو معرفة ما يحصل به الخير الأبدي، ويدفع به الضرّ الأبدي، لأنّ آلات الإدراك والعلم خلقها الله لتحصيل المنافع ودفع المضار، فلمّا لم يستعملوها في جلب أفضل المنافع ودفع أكبر المضار، نفي عنهم عملها على وجه العموم للمبالغة. فالنفي استعارة بتشبيه بعض الموجود بالمعدوم كله.

{ **أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ** } مستأنفة لابتداء كلام بتفظيع حالهم، فجعل ابتداء كلام ليكون أدعى للسامعين. وعرّفوا بالإشارة لزيادة تمييزهم بتلك الصفات، وللتنبيه على أنّهم بسببها أحرياء بما سيذكر من تسويتهم بالأنعام أو جعلهم أضل منها.

{ **بَلْ هُمْ أَضَلُّ** } للانتقال والترقّي في التشبيه في الضلال وعدم الانتفاع بما يمكن الانتفاع به، ولمّا كان وجه الشبه المستفاد من قوله {كَالأَنْعَامِ} يؤول إلى معنى الضلال، كان الارتقاء في التشبيه بطريقة اسم التفضيل في الضلال.

ووجه كونهم أضلّ من الأنعام، أنّ الأنعام لا يبلغ بها ضلالها إلى إيقاعها في مهاوي الشقاء الأبدي لأنّ لها إلهاما تتفصّى به عن المهالك، كالتردي من الجبال والسقوط في الهوات، هذا إذا حمل التفضيل في الضلال على التفضيل في جنسه وهو الأظهر. وإن حمل على التفضيل في كيفيّة الضلال ومقارناته كان وجهه أنّ الأنعام قد خلق إدراكها محدودا لا يتجاوز ما خلقت لأجله، فنقصان انتفاعها بمشاعرها ليس عن تقصير منها، فلا تكون بمحلّ الملامة، وأمّا أهل الضلالة فإنّهم حجزوا أنفسهم عن مدركاتهم، بتقصير منهم وإعراض عن النظر والاستدلال، فهم أضلّ سبيلا من الأنعام.

{ **أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** } تعليل لكونهم أضلّ من الأنعام، وهو بلوغهم حدّ النهاية في الغفلة، وبلوغهم هذا الحدّ أفيد بصيغة القصر الادعائي.

الغفلة، عدم الشعور بما يحقّ الشعور به، وأطلق على ضلالهم لفظ الغفلة بناء على تشبيه الإيمان بأنّه أمر بيّن واضح يعدّ عدم الشعور به غفلة.

وقد وقع التدرّج في وصفهم بهذه الأوصاف من نفي انتفاعهم، بمداركهم ثم تشبيههم بالانعام، ثم الترقّي إلى أنهم أضل من الأنعام، ثم قصر الغفلة عليهم.

{ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [180]

هذا خطاب للمسلمين، عقّبت الآيات التي وصفت ضلال المشركين، بتنبيه المسلمين للإقبال على دعاء الله بأسمائه الدالة على عظيم صفات الإلهيّة، والدوام على ذلك وأن يعرضوا عن شغب المشركين وجدالهم في أسماء الله تعالى.

وقد كان من جملة ما يتورّك به المشركون على النبي ﷺ والمسلمين، أن أنكروا اسمه تعالى الرحمان، وهو إنكار لم يُقدمهم عليه جهلهم بأنّ الله موصوف بما يدلّ عليه وصف (رحمان) من شدّة الرحمة، وإنّما أقدمهم عليه ما يقدّم كل معاند من تطلّب التغليظ والتخطئة للمخالف، ولو فيما يعرف أنّه حقّ.

وذكر ابن عطية، وغيره، أنّ أبا جهل سمع بعض أصحاب النبي ﷺ يقرأ فيذكر الله في قراءته ومرة يقرأ فيذكر الرحمان فقال أبو جهل: " محمد يزعم أنّ الإله واحد وهو إنّما يعبد آلهة كثيرة " فنزلت هذه الآية.

وتقديم المجرور المسند على المسند إليه لمجرد الاهتمام المفيد تأكيد استحقاقه إيّاها، المستفاد من اللام، والمعنى أن اتّسامه بها أمر ثابت، وقد التزم مثل هذا التقديم في جميع الآي التي في هذا الغرض مثل قوله {فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء:110] وقوله {لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[طه:8] وقوله {لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الحشر:24] ، وكل ذلك تأكيد للردّ على المشركين بتخييلهم أنّ تعدّد الاسم تعدّد للمسمّى، تمويها على

الدهماء.

الأسماء، هي الألفاظ المجعولة أعلاما على الذات بالتخصيص أو بالغلبة، فاسم الجلالة وهو(**الله**) علم على ذات الإله الحقّ بالتخصيص، شأن الإعلام. و(الرحمان) و(الرحيم) اسمان لله بالغلبة، وكذلك كل لفظ مفرد دلّ على صفة من صفات الله، وأطلق إطلاق الأعلام نحو الربّ، والخالق، والعزيز، والحكيم، والغفور، ولا يدخل في هذا ما كان مركبا إضافيا نحو ذو الجلال، ورب العرش، فان ذلك بالأوصاف أشبه، وأن كان دالا على معنى لا يليق إلّا بالله نحو {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}.

الحسنى مؤنّث الأحسن، وهو المتّصف بالحسن الكامل في ذاته، المقبول لدى العقول السليمة المجرّدة عن الهوى. وليس المراد بالحسن الملائمة لجميع النّاس لأنّ الملائمة وصف إضافي نسبي، فقد يلائم زيدا ما لا يلائم عمرا، فلذلك فالحسن صفة ذاتية للشيء الحسن.

{ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** } لأنّها دالة على ثبوت صفات كمال حقيقي، أمّا بعضها فلأنّ معانيها الكاملة لم تثبت إلّا لله نحو الحي، والعزيز، والحكيم، والغنيّ. وأمّا البعض الآخر فلأنّ معانيها مطلقا لا يحسن الاتصاف بها إلّا في جانب الله نحو المتكبر والجبّار، لأنّ معاني هذه الصفات وأشباهها كانت نقصا في المخلوق من حيث أنّ المتسم بها لم يكن مستحقا لها لعجزه أو لحاجته، بخلاف الإله لأنّه الغني المطلق، فكان اتّصاف المخلوق بها منشأ فساد في الأرض وكان اتصاف الخالق بها منشأ صلاح، لأنّها مصدر العدالة والجزاء القسط.

{ **فَادْعُوهُ بِهَا** } تفريع عن كونها أسماء له، وعن كونها حسنى، أي فلا حرج في دعائه بها لأنّها أسماء متعدّدة لمسمّى واحد، لا كما يزعم المشركون، ولأنّها حسنى فلا ضير في دعاء الله تعالى بها. وذلك يشير إلى أن الله يُدعى بكل ما دل على صفاته وعلى أفعاله.

وقد دلت الآية على أنّ كلّ ما دلّ على صفة لله تعالى وشأن من شؤونه على وجه التقريب للأفهام بحسب المعتاد يسوغ أن يطلق منه اسم لله تعالى ما لم يكن مجيئه على وجه المجاز نحو {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} [البقرة: 15] أو يوهم معنى نقص في متعارف النّاس نحو الماكر من قوله {وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران: 54].

وليست أسماء الله الحسنى منحصرة في التسعة والتسعين الواردة في الحديث الصحيح عن الأعرج، وعن أبي رافع، وعن همام بن منبه، عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: " إنّ لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة ". لأنّ الحديث الصحيح ليس فيه ما يقتضي حصر الأسماء في ذلك العدد، ولكن تلك الأسماء ذات العدد لها تلك المزية، وقد ثبت أنّ النبي ﷺ دعا فقال (**يا حنّان، يا منّان**) ولم يقع هذان الاسمان فيما روي من التسعة والتسعين، وليس في الحديث المروي بأسانيد صحيحة مشهورة تعيين الأسماء التسعة والتسعين.

ووقع في جامع الترمذي من رواية شعيب بن أبي حمزة، عن الأعرج، عن أبي هريرة بعد قوله: " دخل الجنة، هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمان الرحيم"، إلى آخرها فعيّن صفات لله تعالى تسعا وتسعين وهي

المشهورة بين الذين تصدوا لبيانها. قال الترمذي هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث ولا نعلم في شيء من الروايات لها إسناد صحيح ذكر الأسماء إلّا في هذا الحديث.

وقد عدّ ابن بَرَّجان الأشبيلي في كتابه في أسماء الله الحسنى (مائة واثنين وثلاثين) اسما مستخرجة من القرآن والأحاديث المقبولة. وذكر القرطبي أنّ له كتابا سماه (الأسنى في شرح الأسماء الحسنى) ذكر فيه من الأسماء ما ينيف على مائتي اسم.

والصواب أن لا يسمّى الله تعالى إلّا باسم قد أطلقته الشريعة، وأن يكون مدحا خالصا لا شبهة فيه.

{ **وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ** } الإمساك عن الاسترسال في محاجّتهم لظهور أنّهم غير قاصدين معرفة الحقّ. أو ترك الإصغاء لكلامهم لئلا يفتنوا عامة المؤمنين بشبهاتهم، أي اتركوهم ولا تُلغبوا أنفسكم في مجادلتهم فإني سأجزيهم.

ذرْ، تقدم عند قوله تعالى { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً } [الأنعام:70].

الإلحاد، الميل عن وسط الشيء إلى جانبه، وإلى هذا المعنى ترجع مشتقّاته كلّها، ولمّا كان وسط الشيء يشبّه به الحقّ والصواب، استتبع ذلك تشبيه العدول عن الحق إلى الباطل بالإلحاد، فأطلق الإلحاد على الكفر والإفساد، ويعدّى حينئذ بـ (في) لتنزيل المجرور بها منزلة المكان للالحاد، والاكثر أن يكون ذلك عن تعمّد للإفساد، ويقال لحد وألْحد والأشهر ألحد.

{ **يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ** } جعلها مظهرا من مظاهر الكفر، وذلك بإنكار تسميته تعالى بالأسماء الدالة على صفات ثابتة له، وهو الأحق بكمال مدلولها. فإنّهم أنكروا الرحمان، كما تقدّم، وجعلوا تسميته به في القرآن وسيلة للتشنيع ولمز النبيّ عليه الصلاة والسلام بأنّه عدد الآلهة. ولا أعظم من هذا البهتان والجور في الجدال فحقّ بان يسمّى إلحادا، لأنّه عدول عن الحقّ بقصد المكابرة والحسد.

وهذا يناسب أن يكون حرف (في) من قوله {فِي أَسْمَائِهِ} مستعملا في معنى التعليل، كقول النبي ﷺ " دخلت امرأة النار في هرة ".

{ **سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } تتنزل منزلة التعليل للأمر بترك الملحدين، أي لا تهتموا بإلحادهم ولا تحزنوا له، لأنّ الله سيجزيهم بسوء صنيعهم، وسُمّي إلحادهم عملا لأنّه من أعمال قلوبهم وألسنتهم.

{ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ [181] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ [182] وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } [183].

عطف على { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ } [179]، والمقصود، التنويه بالمسلمين في هديهم واهتدائهم، وذلك مقابلة لحال المشركين في ضلالهم. أي أعرض عن المشركين فإنّ الله أغناك عنهم

بالمسلمي.

روى الطبري عن قتادة قال بلغنا أنّ النبي ﷺ كان يقول إذا قرأ الآية " هذه لكم وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها"، ريد قوله تعالى {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} . وبقية ألفاظ الآية تقدّم تفسيرها في هذه السورة.

{ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** } هم المشركون الذين كذّبوا بالقرآن.ووجه تعدية فعل التكذيب بـ (الباء) ليدلّ على معنى الإنكار.

الاستدراج، مشتق من الدَّرَجة (بفتحتين) وهي طبقة من البناء مرتفعة من الأرض بقدر ما ترتفع الرجل للارتقاء منها إلى ما فوقها تيسيرا للصعود في مثل العلو أو الصومعة أو البرج، وهي أيضا واحدة الأعواد المصفوفة في السلم يرتقى منها إلى التي فوقها، وتسمّى هذه الدرجة مرقاة.

والسين والتاء في فعل الاستدراج للطلب، أي طلب منه أن يتدرّج، أي صاعدا أو نازلا. والكلام تمثيل لحال القاصد إبدال حال أحد إلى غيرها بدون إشعاره، بحال من يطلب من غيره أن ينزل من درجة إلى أخرى.

{ **مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ** } لتضمّن الاستدراج معنى الإيصال إلى مكان لا يعلمون ما يفضي إليه.

الإملاء، إفعال وهو الإمهال، يقال أملاه وملّاه إذا أمهله وأخّره.

{ **إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** } في موضع العلة للجملتين قبلها، فإنّ الاستدراج والإملاء ضرب من الكيد، وكيد الله متين أي قوي لا انفلات منه للمكيد.

الكيد، لم يضبط تحديد معناه في كتب اللغة، وظاهرها أنّه يرادف المكر والحيلة، وقال الراغب ضرب من الاحتيال، وقد يكون مذموما وممدوحا. وهو أخصّ من الحيلة ومن الاستدراج. وإطلاقه هنا جاء على طريقة التمثيلية.

المتين، القوي، وحقيقته القوي المتْن أي الظهر، لأن قوة متنه تمكنه من الأعمال الشديدة، ومتن كل شيء عموده وما يتماسك به.

{ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ }[184]

لمّا كان تكذيبهم بالآيات منبعثا عن تكذيبهم من جاء بها، وناشئا عن ظنّ أنّ آيات الله لا يجيء بها البشر وأنّ من يدعي أنّه مرسل من الله مجنون، عقب الإخبار عن المكذبين، ووعيدهم بدعوتهم للنظر في حال الرّسول، وانه ليس بمجنون كما يزعمون.

والجملة مستأنفة، وهي ابتداء كلام في محاجّتهم وتنبيههم، بعد الإخبار عنهم، بأنّهم مستدرجون ومملى لهم.

{ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا** } أي ألم يكونوا من المفكرين أهل النظر.

الصاحب، حقيقته الذي يلازم غيره في حالة من سفر أو نحوه، وسميت الزوجة صاحبة، ويطلق مجازا على الذي له مع غيره حادث عظيم وخبر، تنزيلا لملازمة الذكر منزلة ملازمة الذات.

فوصف الرسول ﷺ بأنّه صاحب الذين كذبوا بالآيات: هو بمعنى الذي اشتغلوا بشأنه ولزموا الخوض في أمره، وقد تكرّر ذلك في القرآن كقوله تعالى {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ} [التكوير:22]

الجِنّة، (بكسر الجيم) اسم للجنون وهو الخبال الذي يعتري الإنسان من اثر مس الجنّ إيّاه في عرف النّاس.

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ** } استئناف بياني لجواب سائل منهم يقول: فماذا شأنه؟

النذير، المحذّر من شيء يضرّ، وأصله الذي يخبر القوم بقدوم عدوّهم.

المبين، اسم فاعل من أبان إذا أوضح، ووقوع هذا الوصف عقب الإخبار بنذير يقتضي أنّه وصف للخبر.

فالغرض من اتباع {النذير} بوصف {المبين} التعريض بالذين لم ينصاعوا لنذارته، ولم يأخذوا حذرهم من شرّ ما حذرهم منه، وذلك يقطع عذرهم.

ويجوز جعل{ مُبِينٌ } خبرا ثانيا عن ضمير صاحبهم، والمعنى أنّه نذير وأنّه مبين فيما يبلغه.

وفي هذا استغباء أو تسفيه لهم بأنّ حاله لا يلتبس بحال المجنون للبون الواضح بين حال النذارة البيّنة وحال هذيان المجنون. فدعواهم جنونه، إمّا غباوة منهم بحيث التبست عليهم الحقائق المتمايزة، وإمّا مكابرة وعناد وافتراء على الرسول.

{ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ }[185]

ترق في الإنكار والتعجيب من حالهم في إعراضهم عن النظر في حال رسولهم، إلى الإنكار والتعجيب من إعراضهم عن النظر فيما هو أوضح من ذلك وأعمّ، وهو ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء ممّا هو آيات من آيات وحدانية الله تعالى التي دعاهم الرّسول ﷺ إلى الإيمان بها. والمناسبة بين الكلامين، أنّ دعوة الرّسول إلى التوحيد وإبطال الشرك هو من أكبر بواعثهم على تكذيبه { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } [صّ:5]

{ **أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ** } المراد التأمّل بتدبّر، وهو التفكّر كقوله تعالى {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ} [الذريات:21]. تقول: نظرت في شأني، فدلّ بحرف الظرفية (في) على أنّ هذا التفكّر عميق متغلغل في أصناف الموجودات، وهي ظرفية مجازية.

الملكوت، الملك العظيم، وقد مضى عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } [الأنعام:75]. وأضافته إلى السماء والأرض بيانيّة، أي الملك الذي هو السماوات والأرض أي ملك الله لهما.

فالمراد السماء بمجموعها، والأرض بمجموعها الدالين على عظم ملك الله تعالى.

{ **وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ** } عطف على {مَلَكُوتِ} فقسّم النظر إلى نظر في عظيم ملك الله تعالى، وإلى نظر في مخلوقاته ودقائق أحوالها الدالة على عظيم قدرة الله تعالى. فالنظر إلى عظمة السماوات والأرض دليل على عظم ملك الله تعالى فهو الحقيق بالإلهيّة دون غيره، والنظر إلى المخلوقات دليل على عظم قدرته تعالى، وأنّه المنفرد بالصنع فهو الحقيق بالإلهيّة.

{ **وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ** } صيغ الكلام على هذا النظم لإفادة تهويل الأمر عليهم وتخويفهم، بجعل متعلّق النظر من معنى الإخبار، للدلالة على أنّه أمر من شأنه أن يخطر في النفوس، وأن يتحدّث به النّاس، وأنّه قد صار حديثا وخبرا فكأنّه أمر مسلّم مقرّر.

ومعنى النظر في توقع اقتراب الأجل، التخوّف من ذلك.

الأجل المضاف إلى ضمير المكذّبين هو أجل الأمّة لا أجل الأفراد، لأنّ الكلام تهديد بأجل غير متعارف، نبّههم إلى التفكّر في توقّع حلول الاستئصال بهم وإهلاكهم كما هلك المكذّبون من قبلهم.

ويجوز أن يكون المراد بالأجل مجيء الساعة، وانقراض هذا العالم، فهو أجلهم وأجل غيرهم من النّاس فيكون تخويفا من يوم الجزاء.

{ **فَبِأَيِّ** } اسم أشرب معنى الاستفهام، فقوله { **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ** } سؤال عن الحديث المجهول المماثل للحديث المعروف بين السائل والمسؤول. وسيأتي الكلام على (أي) عند قوله تعالى {فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ}[القلم:5، 6]. والاستفهام هنا مستعمل في الإنكار، أي لا يؤمنون بشيء من الحديث بعد هذا الحديث.

الحديث، الخبر والقصة الحادثة {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ} [الذريات: 24]، ويطلق مجازا على الأمر الذي من شأنه أن يصير حديثا، وهو أعم من المعنى الحقيقي.

جاز هنا أن يراد به القرآن كما في قوله تعالى {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ} [الطور: 34] فيكون الضمير في قوله {بَعْدَهُ} أي بعد نزوله. وجاز أن يراد به دعوى محمد ﷺ الرسالة من عند الله. وكلا الاحتمالين يناسب قوله {أو لم يتفكروا ما بصاحبكم من جنة } [الأعراف: 184].

{ **بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** } مستعارة لمعنى (غير) لأنّ الظروف الدالة على المباعدة والمفارقة تستعمل استعمال المغاير قال تعالى {فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ} [الجاثية: 23]، وحمل بعد على حقيقتها هنا يحوج إلى تأويل، ويخرج الكلام عن سواء السبيل.

{ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }[186]

لإفادة أنّ ضلالهم أمر قدّر الله دوامه فلا طمع لأحد في هديهم.

وعطف جملة { وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } على جملة { مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ } للإشارة إلى استمرار ضلالهم وانتفاء هديهم في المستقبل كما وقع في الماضي.

{ **وَيَذَرُهُمْ** } تقدم عند قوله تعالى {وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا} في سورة الأنعام.

{ **فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**} تقدم عند نظيره في سورة البقرة [15]

{ يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [187]

استئناف ابتدائي يُذكر به شيء من ضلالهم ومحاولة تعجيزهم النبي ﷺ بتعيين وقت الساعة.

ومناسبة هذا الاستئناف هي التعرّض لتوقّع اقتراب أجلهم في قوله {وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ} [185] سواء أفسر الأجل بأجل إذهاب أهل الشرك من العرب في الدنيا، وهو الاستئصال، أمّ فسّر بأجلهم وأجل بقية النّاس وهو قيام الساعة، فإنّ للكلام على الساعة مناسبة لكلا الأجلين.

فالسائلون هم المشركون، وروي ذلك عن قتادة. والضمير يعود إلى الذين كذبوا بآياتنا، وقد حكي عنهم مثل هذا السؤال في مواضع من القرآن، كقوله تعالى {يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [النازعات:42] وقوله {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ} [النبأ:1، 3] يعنى البعث والساعة.

الساعة، معرّفة باللام علم بالغلبة في اصطلاح القرآن على وقت فناء هذا العالم الدنيوي والدخول في العالم الأخروي، وتسمى، يوم البعث، ويوم القيامة.

{ **أَيَّانَ** } اسم يدلّ على السؤال عن الزمان، وهو جامد غير متصرّف مركب من (أي) الاستفهامية و(آن) وهو الوقت، ثم خفّفت (أي) وقلبت همزة (آن) ياء ليتأتى الإدغام فصارت أيّان بمعنى، **أي زمان**.

المرسى، مصدر ميمي من الإرساء وهو الإقرار، يقال رسا الجبل ثبت وأرساه أثبته وأقرّه، والإرساء الاستقرار بعد السير. ومرسى السفينة استقرارها، قال تعالى {بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} [هود: 41].

{ **قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ** } أمر الله رسوله بجوابهم جواب جدّ وإغضاء عن سوء قصدهم بالسؤال، إظهارا لنفي الوصمة عن وصف النبوءة من جرّاء عدم العلم بوقت الساعة، وتعليما للذين يترقّبون أن يحصل من جواب الرسول عن سؤال المشركين علم للجميع بتعيين وقت الساعة فإذا أمر الساعة مما تتوجه النفوس إلى تطلبه، فقد ورد في الصحيح أنّ رجلا من المسلمين سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول

الله متى الساعة فقال رسول الله: " ماذا أعددت لها "، فقال: " ما أعددت لها كبير عمل، إلّا أنّي أحبّ الله ورسوله" فقال ﷺ: " أنت مع من أحببت".

علم الساعة، أي علم وقتها.

{ **قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي** } الحصر حقيقي، لأنّه الاصل، لأنّ علم الساعة بالتحديد مقصور على الله تعالى.

التجلية، الكشف، والمراد بها ما يشمل الكشف بالإخبار والتعيين، والكشف بالإيقاع، وكلاهما منفي الإسناد عن غير الله تعالى، فهو الذي يعلم وقتها، وهو الذي يظهرها إذا أراد، فإذا أظهرها فقد أجلاها.

{ **لِوَقْتِهَا** } اللام للتوقيت كالتي في قوله تعالى {أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ} [الاسراء: 78] ومعنى التوقيت، قريب من معنى (عند).

{ **ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } معترضة لقصد الإفادة بهولها، والإيماء إلى حكمة إخفائها.

{ **ثَقُلَتْ** } يجوز أن يكون لمجرد الإخبار بشدّة أمرها كقوله {وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً}. ويجوز أن يكون تعجيبا بصيغة فعُل (بضم العين)، فتقدّر الضمة ضمة تحويل الفعل للتعجيب.

الثقل، مستعار للمشقّة كما يستعار العظم والكبر، لأنّ شدة وقع الشيء في النفوس ومشقته عليها تخيل لمن حلت به، أنّه حامل شيئا ثقيلا. ومنه قوله تعالى {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً} [المزمل:5] أي شديدا تلقّيه، وهو القرآن.

ووصف الساعة بالثقل باعتبار ما هو مظروف في وقتها من الحوادث، فوصفها بذلك مجاز عقلي، والقرينة واضحة، وهي كون الثقل بمعنى الشدّة لا يكون وصفا للزمان، ولكنه وصف للأحداث فإذا أسند إلى الزمان، فإسناده إليه إنما هو باعتباره ظرفا للأحداث، كقوله {وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ} [هود: 77]

وثقل الساعة هو عظم ما يحدث فيها من الحوادث المهولة في السماوات والأرض، من تصادم الكواكب، وانخرام سيرها، ومن زلازل الأرض وفيضان البراكين والبحار وجفاف المياه، ونحو ذلك مما ينشأ عن اختلال النظام الذي كان عليه سير العالم، وذلك كله يُحدث شدّة عظيمة على كل ذي إدراك من الموجودات.

{ **لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً** } مستأنفة جاءت تكملة للإخبار عن وقت حلول الساعة، لأنّ الإتيان بغتة يحقّق مضمون الإخبار عن وقتها بأنّه غير معلوم إلّا لله وبأنّ الله غير مظهره لأحد. وأمّا ما ذكر لها من أمارات في حديث سؤال جبريل عن أماراتها فلا ينافي إتيانها بغتة، لأنّ تلك الأمارات ممتدة الأزمان بحيث لا يحصل معها تهيؤ للعلم بحلولها.

البغتة، مصدر من البغْت وهو المفاجأة أي الحصول بدون تهيؤ له، وقد مضى القول فيها عند قوله تعالى {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً} [الأنعام:31].

{ **يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا** } مؤكّدة لجملة {يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ} ومبيّنة لكيفية سؤالهم فلذينك فصلت.
{ **حَفِيٌّ** } فعيل فيجوز أن يكون بمعنى فاعل مشتقا من (حَفِيَ به)إذا أكثر السؤال عن حاله تلطفا.
ويكون المعنى، كأنّك اكثرت السؤال عن وقتها حتّى علمته. فيكون وصف (حفيّ) كناية عن العالم بالشيء لأنّ كثرة السؤال تقتضي حصول العلم بالمسؤول عنه، وبهذا المعنى فسّر في الكشاف.
ويجوز أن يكون {حَفِيٌّ} مشتقا من حفي به كرضي بمعنى بالغ في الإكرام فيكون مستعملا في صريح معناه، والتقدير كأنك حفي بهم أي مكرم لهم وملاطف، فيكون تهكما بالمشركين، أي يظهرون لك أنّك كذلك ليستنزلوك للخوض معهم في تعيين وقت الساعة، روي عن ابن عباس: " كأنك صديق لهم" . وقال قتادة: قالت قريش لمحمد: إنّ بيننا قرابة فأسرّ إلينا متى الساعة فقال الله تعالى {يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا}.
{ **قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ** } أكدت جملة الجواب الأولى تأكيدا لمعناها ليعلم أن ذلك الجواب لا يرجى غيره وأنّ الحصر المشتمل عليه قوله {إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي} حصر حقيقي. وإبطالا لظن الذين يحسبون أن شان الرسل أن يكونوا عالمين بكل مجهول.

{ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }[188]

الجملة مستأنفة ابتدائية قصد من استئنافها الاهتمام بمضمونها، كي تتوجه الأسماع إليها، ولذلك أعيد الأمر بالقول مع تقدّمه مرتين. وخصّ هذا المقول بالإخبار عن حال الرّسول عليه الصلاة والسلام نحو معرفة الغيب ليقلع من عقول المشركين توهّم ملازمة معرفة الغيب لصفة النبوّة، وأنّ ذلك ليس بطاعن في نبوّته حتّى يستيئسوا من تحدّيه بذلك. وإعلاما للمسلمين بالتمييز بين ما تقتضيه النبوّة وما لا تقتضيه.
في تفسير البغوي، عن ابن عباس، أنّ أهل مكّة قالوا: " يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتري فتربح عند الغلاء، وبالأرض التي تريد أن تجدب فترتحل منها إلى التي قد أخصبت" ، فأنزل الله تعالى: { قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ }.
{ **قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً** } ومعنى الملك هنا الاستطاعة والتمكّن، وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً} [المائدة: 76]، والمقصود منه هنا، ما يشمل العلم بالنفع والضر لأنّ المقام لنفي معرفة الغيب، ولأنّ العلم بالشيء هو موجب توجّه النفس إلى عمله.
وقدّم النفع في الذكر هنا، لأنّ النفع أحبّ إلى الإنسان، وعكس في آية المائدة لأنّ المقصود تهوين أمر معبوداتهم، وأنّها لا يخشى غضبها. وإنما عطف { وَلا ضَرّاً } مع أن المرء لا يتطلب إضرار نفسه، لأنّ

المقصود تعميم الأحوال. وجعل نفي أن يملك لنفسه نفعا أو ضرّا مقدّمة لنفي العلم بالغيب.
{ **إلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ** } والاستثناء من مجموع النفع والضرّ، أي إلّا ما شاء الله ان يُعْلمنيه ويقدّرني عليه.
وهذا يناسب ثبوت قدرة للعبد بجعل الله تعالى، وهي المسماة بالكسب. فإذا أراد الله أن يوجّه نفس الرسول عليه الصلاة والسلام إلى معرفة شيء مغيّب اطلعه عليه لمصلحة الأمة أو لإكرام الأمّة له، كقوله تعالى {إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ - إلى قوله - لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً} [لأنفال: 44]
{ **وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ** } تكملة للتبرؤ من معرفة الغيب. فحصل من مجموع الجملتين أنّه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، في عالم الشهادة وفي عالم الغيب.
{ **إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** } من تمام القول المأمور به وهي مستأنفة استئنافا بيانيا، ناشئا عن التبرؤ من أن يملك لنفسه نفعا أو ضرا، فبيّن لهم أنّ الرسالة منحصرة في النذارة على المفاسد وعواقبها والبشارة بعواقب الانتهاء عنها واكتساب الخيرات. وتقدّم الكلام على النذير البشير عند قوله تعالى { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً} [البقرة:119]
{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } يتنازع تعلقه كل من نذير وبشير، لأنّ الانتفاع بالأمرين يختصّ بالذين تهيّئوا إلى الإيمان بأن يتأمّلوا في الآيات وينهوا من أنفسهم ويقولوا الحق على آبائهم، دون الذين جعلوا ديدنهم التكذيب والإعراض والمكابرة،. فالمضارع مراد به الحال والاستقبال كما هو شأنه، ليشمل من تهيأ للإيمان حالا ومالا، وأما شموله لمن آمنوا فيما مضى فهو بدلالة فحوى الخطاب إذ هم أولى، وهذا على حد قوله تعالى {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا} [النازعات:45]

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ [189] فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }[190]
جملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا، عاد بها الكلام إلى تقرير دليل التوحيد وإبطال الشرك من الذي سلف ذكره في قوله {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} [172]. فالمناسب أن يكون الغرض الآخر كلاما موجّها من الله تعالى إلى المشركين لإقامة الحجّة عليهم بفساد عقولهم في إشراكهم وإشراك آبائهم.
وقد صدر ذلك بالتذكير بنعمة خلق النوع المبتدأ بخلق أصله وهو آدم وزوجه حواء تمهيدا للمقصود.
{ **مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ** } جعل كثير من المفسرين النفس الواحدة آدم، وبعض المحقّقين منهم جعلوا الأب لكلّ أحد، وهو المأثور عن الحسن، وقتادة، ومشى عليه الفخر، والبيضاوي وابن كثير.
ووصفت النفس بواحدة على أسلوب الإدماج بين العبرة والموعظة، لأنّ كونها واحدة أدعى للاعتبار، إذ

ينسل من الواحدة أبناء كثيرون حتّى ربما صارت النفس الواحدة قبيلة أو أمّة ففي هذا الوصف تذكير بهذه الحالة العجيبة الدالة على عظم القدرة وسعة العلم حيث بثه من نفس واحدة رجالا كثيرا ونساء.

{ **وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** } عبّر في جانب الأنثى بفعل (جعل) لأنّ المقصود جعل الأنثى زوجا للذكر، لا الإخبار عن كون الله خلقها، لأنّ ذلك قد علم من قوله {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}.

السكون، مجاز في الاطمئنان والتأنّس، أي جعل من نوع الرجل زوجة ليألفها ولا يجفو قربها، ففي ذلك منّة الإيناس بها، وكثرة ممارستها لينساق إلى غشيانها.

{ **فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ** } فإنّ الحمل في مبدئه لا تجد منه الحامل ألما، وليس المراد هنا حملا خاصا، ولكنّه الخبر عن كل حمل في أوّله، لأنّ المراد بالزوجين جنسهما، فهذه حكاية حالة تحصل منها عبرة أخرى، وهي عبرة تطوّر الحمل كيف يبتدئ خفيفا كالعدم، ثم يتزايد رويدا رويدا حتى يثقل.

{ **فَمَرَّتْ بِهِ** } حقيقة المرور، الاجتياز، ويستعار للتغافل وعدم الاكتراث للشيء كقوله تعالى { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ} [يونس: 12] أي نسي دعاءنا، وأعرض عن شكرنا لأنّ المار بالشيء لا يقف عنده ولا يسائله. فالمعنى لم تتفطن له، ولم تفكّر في شأنه، وكل هذا حكاية للواقع، وهو إدماج.

الإثقال، ثِقْل الحمل وكلفته، يقال أثقلت الحامل فهي مثقل وأثقل المريض فهو مثقل، والهمزة للصيرورة مثل أورق الشجر، فهو كما يقال أقربت الحامل فهي مقرب إذا قرب وضعها.

{ **دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا** } إن حُمل على ظاهره، قلنا لا يخلو أبوان مشركان من أن يتمنّيا أن يكون لهما من الحمل مولود صالح، سواء نطقا بذلك أم أضمراه في نفوسهما، فإنّ مدّة الحمل طويلة، لا تخلو أن يحدث هذا التمنّي في خلالها، وإنّما يكون التمنّي منهم على الله، فإن المشركين يعترفون لله بالربوبيّة، وبأنّه هو خالق المخلوقات ومكوّنها، ولا حظ للآلهة إلّا في التصرّفات في أحوال المخلوقات، كما دلت عليه محاجات القرآن لهم نحو قوله تعالى {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ} [يونس: 34].

وإن حُمل {دَعَوَا} على غير ظاهره، فتأويله أنّه مخصوص ببعض الأزواج الذين يخطر ببالهم الدعاء.

{ **رَبَّهُمَا** } المؤذنة بالرفق والإيجاد، للإشارة إلى استحضار الأبوين هذا الوصف عند دعائهما الله، أي يذكرانه باللفظ أو ما يفيد مفاده، ولعلّ العرب كانوا إذا دعوا بصلاح الحمل قالوا: ربنا آتانا صالحا.

{ **لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** } مبيّنة لجملة {دَعَوَا اللَّهَ }

{ **صَالِحاً** } وصف جرى على موصوف محذوف، وظاهر التذكير أنّ المحذوف تقديره (ذكرا) وكان العرب يرغبون في ولادة الذكور. فالدعاء بأن يؤتيا ذكرا، وأن يكون صالحا، أي نافعا.

{ **فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا** }

الشِّرك، مصدر شَرَكه في كذا، أي جعلا لله شركة، أي جعلا لله شريكا فيما آتاهما الله، والخبر مراد منه مع

الإخبار التعجيب من سفه آرائهم.

وهذا الشرك لا يخلو عنه أحد من الكفّار في العرب، وبخاصة أهل مكّة، فإنّ بعض المشركين يجعل ابنه سادنا لبيوت الأصنام، وبعضهم يحجر ابنه إلى صنم ليحفظه ويرعاه، وخاصة في وقت الصبا، وكل قبيلة تنتسب إلى صنمها الذي تعبده، وبعضهم يسمى ابنه: عبد كذا، مضافا إلى اسم صنم كما سموا عبد العزى، وعبد شمس، وعبد مناة، وعبد ياليل، وعبد ضخم، وكذلك امرؤ القيس، وزيد مناءة، لأنّ الإضافة على معنى التمليك والتعبيد.

{ **فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } أي تنزّه الله عن إشراكهم كله، ما ذكر منه آنفا من إشراك الوالدين مع الله فيما آتاهما، وما لم يذكر من أصناف إشراكهم. فهو متعال عن إشراكهم لا يليق به ذلك، وليس له شريك بحقّ. وهو إنشاء تنزيه غير مقصود به مخاطب.

وقد روى والترمذي وأحمد حديثا عن سمرة بن جندب، في تسويل الشيطان لحواء أن تسمي ولدها عبد الحارث، والحارث اسم إبليس، قال الترمذي حديث حسن غريب، ووسمه ابن العربي في أحكام القرآن بالضعف.

وقال بعض المفسّرين: الخطاب في {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} لقريش خاصة، والنفس الواحدة هو قصي بن كلاب تزوّج امرأة من خزاعة فلمّا آتاهما الله أولادا أربعة ذكورا سمى ثلاثة منهم عبد مناف، وعبد العزى، وعبد الدار، وسمى الرابع (عبدا) بدون إضافة وهو الذي يدعى بعبد قصي.

{ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ [191] وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } [192]

هذه الآيات الثلاث كلام معترض بين الكلامين المسوقين لتوبيخ المشركين وإقامة الحجّة عليهم، مخاطب بها النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمون، للتعجيب من عقول المشركين، وفيه تعريض بالرد عليهم لأنّه يبلغ مسامعهم. والاستفهام مستعمل في التعجيب والإنكار. وصيغة المضارع في {يُشْرِكُونَ} دالة على تجدّد هذا الإشراك منهم.

{ **وَهُمْ يُخْلَقُونَ** } ضمير الغيبة يجوز عندي أن يكون عائدا إلى ما عاد إليه ضمير {يُشْرِكُونَ}، أي والمشركون يُخلقون. ومعنى الحال زيادة تفظيع التعجيب من حالهم لإشراكهم بالله أصنافا لا تخلق شيئا في حال أنّ المشركين يتجدّد خلقهم، وهم يشاهدون الأصنام جاثمة لا تصنع شيئا.

والمفسّرون أعادوا ضمير {وَهُمْ يُخْلَقُونَ} على { مَا لا يَخْلُقُ} ، أي الأصنام، ولم يبيّنوا معنى كون الأصنام

مخلوقة وهي صور نحتها النّاس، فيتعيّن أنّ المراد أن مادتها مخلوقة وهي الحجارة.

{ **وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً** } الضمير المجرور باللام عائد إلى المشركين.

{ **وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ** } تقديم المفعول للاهتمام بنفي هذا النصر عنهم، لأنّه أدلّ على عجز تلك الآلهة. والظاهر أن تخصيص النصر من بين الأعمال التي يتخيّلون أن تقوم بها الأصنام مقصود منه تنبيه المشركين على انتفاء مقدرة الأصنام على نفعهم، إذ كان النصر أشدّ مرغوب لهم، فقد كانوا أهل غارات وقتال، فالانتصار من أهم الأمور لديهم.

{ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ }[193]

يجوز أن يكون عطفا على جملة {أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً} [191] زيادة في التعجيب من حال المشركين بذكر تصميمهم على الشرك على ما فيه من سخافة العقول ووهن الدليل، بعد ذكر ما هو كاف لتزييفه.

فضمير الخطاب المرفوع في {وَإِنْ تَدْعُوهُمْ} موجه إلى المسلمين مع الرسول ﷺ، وضمير جمع الغائب المنصوب عائد إلى المشركين كما عاد ضمير {أَيُشْرِكُونَ} فبعد أن عجّب الله المسلمين من حال أهل الشرك أنبأهم بأنّهم لا يقبلون الدعوة إلى الهدى، وذلك بالنظر إلى الغالب منهم، وإلّا فقد آمن بعضهم بعد حين وتلاحقوا بالإيمان.

{ **سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ** } مؤكدة لجملة {وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ} فلذلك فصلت.

{ **سَوَاءٌ** } اسم للشيء المساوي غيره، أي سواء دعوتكم إيّاهم وصمتكم عن الدعوة.

(**عَلَيْكُمْ**) للاستعلاء المجازي وهي بمعنى العندية أي سواء عندهم.

{ **أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ** } معادل { أَدَعَوْتُمُوهُمْ } مع اختلاف الأسلوب بين الجملتين بالفعلية والاسمية، فلم يقل أم صمتم، ففي تفسير القرطبي، عن ثعلب: أنّ ذلك لأنّه رأس آية، أي لمجرد الرعاية على الفاصلة. قال: وصامتون وصمتم عند سيبويه واحد، أي الفعل والوصف المشتق منه سواء، يريد لا تفاوت بينهما في أصل المعنى لأنّ ما بعد همزة التسوية لما كان في قوة المصدر لم يكن فيه اثر للفرق بين الفعل والاسم. فيكون العدول إلى الجملة الاسمية ليس له مقتض من البلاغة بل هما عند البليغ سيّان، ولكن العدول إلى الاسمية من مقتضى الفصاحة، لأنّ الفواصل والأسجاع من أفانين الفصاحة، وفيهما تظهر براعة الكلام إذ يكون فيه إيفاء بحقّ الفاصلة مع السلامة من التكلّف، كما تظهر براعة الشاعر في توفيته بحق القافية إذا سلم مع ذلك من التكلف.

{ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[194]

انتقال إلى مخاطبة المشركين، ولذلك صدر بحرف التوكيد، لأنّ المشركين ينكرون مساواة الأصنام إيّاهم في العبوديّة، وفيه الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

{ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } الأصنام، فتعريفها بالموصول لتنبيه المخاطبين على خطإ رأيهم في دعائهم إيّاها من دون الله.

العبد، اصله المملوك، ضد الحرّ، وقد أطلق في اللسان على المخلوق كما في قوله تعالى {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً} [مريم:93] ولذلك يطلق العبيد على النّاس.

والمشهور أنّه لا يطلق إلّا على المخلوقات من الآدميين، فيكون إطلاق العباد على الأصنام كإطلاق ضمير جمع العقلاء عليها بناء على الشائع في استعمال العرب يومئذ من الإطلاق. وجعله صاحب الكشاف إطلاق تهكّم واستهزاء بالمشركين. والأحسن عندي أن يكون إطلاق العباد عليهم مجازا بعلاقة الإطلاق عن التقييد روعي في حسنة المشاكلة التقديريّة، لأنّه لمّا ماثلهم بالمخاطبين في المخلوقيّة وكان المخاطبون عباد الله أطلق العباد على مماثليهم مشاكلة.

{ فَادْعُوهُمْ } الأظهر أنّ المراد بالدعوة المأمور بها الدعوة للنصر والنجدة. وبهذا يظهر أنّ أمر التعجيز كناية عن ثبوت عجز الأصنام عن إجابتهم، وعجز المشركين عن إظهار دعاء للأصنام تعقبه الاستجابة.

{ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ } أمر تعجيز للأصنام، وهذا أيضا كناية عن عجز الأصنام عن الاستجابة لعجزها عن تلقي التبليغ من عبدتها.

{ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ }[195]

تأكيد لما تضمّنته الجملة قبلها من أمر التعجيز وثبوت العجز، لأنّه إذا انتفت عن الأصنام أسباب الاستجابة تحقق عجزها عن الإجابة وتأكد معنى أمر التعجيز المكنى به عن عجز الأصنام وعجز عبدتها، والاستفهام إنكاري وتقديم المسند على المسند إليه للاهتمام بانتفاء الملك الذي دلت عليه اللام.

ووصف الأرجل بـ **{يَمْشُونَ}** والأيدي بـ **{يَبْطِشُونَ}** والأعين بـ **{يُبْصِرُونَ}** والآذان بـ **{يَسْمَعُونَ}**، إمّا لزيادة تسجيل العجز عليهم فيما يحتاج إليه الناصر، وإمّا لأنّ بعض تلك الأصنام كانت مجعولة على صور الآدميين مثل هبل، وذي الكفين، وكعيب في صور الرجال، ومثل سواع كان على صورة امرأة.

فإذا كان لأمثال أولئك صور أرجل وأيد وأعين وآذان فإنها عديمة العمل الذي تختص به الجوارح، فلا يطمع طامع في نصرها. وخصّ الأرجل والأيدي والأعين والآذان، لأنّها آلات العلم والسعي والدفع للنصر، ولهذا لم يذكر الألسن لما علمت من أن الاستجابة مراد بها النجدة والنصرة.

{ **قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ** } إذن من الله لرسوله بأن يتحدّاهم بأنّهم إن استطاعوا استصرخوا أصنامهم لتتألّب على الكيد للرسول عليه السلام.

الكيد، الإضرار الواقع في صورة عدم الإضرار، كما تقدم عند قوله تعالى آنفا {وأملي لهم أن كيدي متين}.

{ **فَلا تُنْظِرُونِ** } تفريع على الأمر بالكيد، أي فإذا تمكنتم من إضراري فأعجلوا ولا تؤجّلوني.

وفي هذا التحدي تعريض بأنه سيبلغهم وينتصر عليهم ويستأصل آلهتهم وقد تحداهم بأتم أحوال النصر وهي الاستنصار بأقدر الموجودات في اعتقادهم.

{ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ [196] وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } [197]

هذا من المأمور بقوله، وفصلت عن { ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ } لوقوعها موقع العلّة لمضمون التحدي { ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ } الذي هو تحقّق عجزهم عن كيده. فهذا تعليل لعدم الاكتراث بتألّبهم عليه واستنصارهم بشركائهم، ولثقته بأنّه منتصر عليهم.

الوليّ، الناصر والكافي، وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً } [الأنعام: 14]

{ **الْكِتَابَ** } التعريف للعهد، أي الكتاب الذي عهدتموه وسمعتموه وعجزتم عن معارضته وهو القرآن، أي المقدار الذي نزل منه إلى حد نزول هذه الآية.

{ **وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** } معترضة والواو اعتراضية. ومجيء المسند فعلا مضارعا لقصد الدلالة على استمرار هذا التولّي وتجدّده وأنّه سنّة إلهيّة، فكما تولّى النبيّ يتولى المؤمنين أيضا، وهذه بشارة للمسلمين المستقيمين على صراط نبيّهم ﷺ بأنّ ينصرهم الله كما نصر نبيّه وأولياءه.

الصالحون، هم الذين صلحت أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح.

{ **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ** } سلوك طريق الموصوليّة في التعبير عن الأصنام للتنبيه على خطإ المخاطبين في دعائهم إيّاها من دون الله مع ظهور عدم استحقاقها للعبادة، بعجزها عن نصر اتباعها وعن نصر أنفسها.

{ **لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ** } أعيد لأنّه هنا خطاب للمشركين، وهنالك حكاية عنهم للنبيّ والمسلمين، و إبانة المضادة بين شأن ولي المؤمنين وحال أولياء المشركين.

{ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ }[198]

عطف على {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ}، أي قل للمشركين، وإن تدعوا الذين تدعون من دون الله إلى الهدى لا يسمعوا .فالضمير المرفوع للمشركين، والضمير المنصوب عائد إلى الأصنام.

{ إِلَى الْهُدَى} لتحقيق عدم سماع الأصنام، وعدم إدراكها، لأنّ عدم سماع دعوة ما ينفع لا يكون إلّا لعدم الإدراك. و الهدى على هذا الوجه ما فيه رشد ونفع للمدعو.

{ لا يَسْمَعُوا } خولف هناعن قوله في الآية السابقة { لا يَتَّبِعُوكُمْ }، لأنّ الأصنام لا يتأتّى منها الاتّباع، إذ لا يتأتّى منها المشي الحقيقي ولا المجازي أي الامتثال.

{ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ } الخطاب لمن يصلح أن يخاطب فهو من خطاب غير المعين. ومعنى ينظرون إليك على التشبيه البليغ، أي تراهم كأنهم ينظرون إليك. لأنّ صور كثير من الأصنام كان على صور الأناسيّ وقد نحتوا لها أمثال الحدق الناظرة إلى الواقف أمامها.

{ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ }[199]

أشبعت هذه السورة من أفانين قوارع المشركين وعظتهم وإقامة الحجّة عليهم، وبعثتهم على التأمّل والنظر في دلائل وحدانية الله وصدق رسوله ﷺ وهدى دينه وكتابه، وفضح ضلال المشركين وفساد معتقدهم والتشويه بشركائهم. وقد تخلّل ذلك كلّه التسجيل بمكابرتهم، والتعجيب منهم كيف يركبون رؤوسهم، وكيف ينأون بجانبهم، وكيف يصمّون أسماعهم، ويغمضون أبصارهم عمّا دعوا إلى سماعه وإلى النظر فيه.

ونُظرت أحوالهم بأحوال الأمم الذين كذّبوا من قبلهم، وكفروا نعمة الله فحلّ بهم ما حلّ من أصناف العذاب. وأنذر هؤلاء بأن يحلّ بهم ما حل بأولئك، ثم أعلن باليأس من ارعوائهم، وبانتظار ما سيحلّ بهم من العذاب بأيدي المؤمنين. وبتثبيت الرسول والمؤمنين وتبشيرهم والثناء على ما هم عليه من الهدى، فكان من ذلك كله عبرة للمتبصّرين، ومسلاة للنبي وللمسلمين، وتنويه بفضلهم.

وإذ قد كان من شأن ذلك أن يثير في أنفس المسلمين كراهية أهل الشرك وتحفّزهم للانتقام منهم ومجافاتهم والإعراض عن دعائهم إلى الخير، لا جرم شرع في استئناف غرض جديد، يكون ختاما لهذا الخوض البديع، وهو غرض أمر الرسول والمؤمنين بقلّة المبالاة بجفاء المشركين وصلابتهم، وبأن يسعوهم من عفوهم والدأب على محاولة هديهم والتبليغ إليهم بقوله {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ}.

الأخذ، حقيقته تناول شيء للانتفاع به أو لاضراره، كما يقال: أخذت العدو من تلابيبه، ولذلك يقال في الأسير أخيذ. واستعمل هنا مجازا للتلبّس بالوصف.

خذ العفو، عامل به واجعله وصفا ولا تتلبّس بضدّه. وأحسب استعارة الأخذ للعفو من مبتكرات القرآن.

العفو الصفح عن ذنب المذنب وعدم مؤاخذته بذنبه، وتقدّم عند قوله تعالى {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} [البقرة: 219]. والمراد به هنا ما يعمّ العفو عن المشركين وعدم مؤاخذتهم بجفائهم ومساءتهم الرّسول والمؤمنين. وقد عمت الآية صور العفو كلّها، لأنّ التعريف في العفو تعريف الجنس فهو مفيد للاستغراق.

فأُمر الرسول ﷺ بأن يعفو ويصفح وذلك بعدم المؤاخذة بجفائهم وسوء خلقهم، فلا يعاقبهم ولا يقابلهم بمثل صنيعهم كما قال تعالى {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ} [آل عمران: 159]. ولا يخرج عن هذا العموم من أنواع العفو أزمانه وأحواله إلّا ما أخرجته الأدلة الشرعية مثل العفو عن القاتل غيلة، ومثل العفو عن انتهاك حرمات الله، والرّسول أعلم بمقدار ما يخصّ من هذا العموم وقد يبيّنه الكتاب والسنّة، وألحق به ما يقاس على ذلك المبيّن. وفي قوله {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} ضابط عظيم لمقدار تخصيص الأمر بالعفو.

عن عبد الله بن الزبير قال: " ما أنزل الله ذلك إلّا في أخلاق النّاس، ومن قال إنّ هذه الآية نسختها آيات القتال فقد وهم، لأنّ العفو باب آخر، وأمّا القتال فله أسبابه".

{ **الْعُرْفِ** } اسم مرادف للمعروف من الأعمال وهو الفعل الذي تعرفه النفوس، أي لا تنكره إذا خليت وشأنها بدون غرض لها في ضدّه. و تقدم بيانه عند قوله تعالى {تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران :110].

{ **وَأْمُرْ** } والأمر يشمل النهي عن الضدّ، فإنّ النهي عن المنكر أمر بالمعروف، والأمر بالمعروف نهي عن المنكر، لأنّ الأمر بالشيء نهي عن ضده، فالاجتزاء بالأمر بالعرف عن النهي عن المنكر من الإيجاز، وإنّما اقتصر على الأمر بالعرف هنا: لأنه الأهم في دعوة المشركين لأنه يدعوهم إلى أصول المعروف واحدا بعد واحد، كما ورد في حديث معاذ بن جبل حين أرسله إلى أهل اليمن فإنّه أمره أن يدعوهم إلى شهادة أن لا اله إلا الله ثم قال فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات. ولو كانت دعوة المشركين مبتدأه بالنهي عن المنكر لنفروا ولملّ الداعي، لأنّ المناكير غالبة عليهم ومحدّقة بهم.

الإعراض، إدارة الوجه عن النظر للشيء، مشتق من العارض وهو الخد، فإنّ الذي يلتفت لا ينظر إلى الشيء. وقد فسّر ذلك في قوله تعالى {أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ} [الاسراء: 83] وهو هنا مستعار لعدم المؤاخذة بما يسوء من أحد.

الجهل، هنا ضدّ الحلم والرشد، وهو أشهر إطلاق الجهل في كلام العرب قبل الإسلام، فالمراد بالجاهلين السفهاء كلّهم، لأنّ التعريف فيه للاستغراق، وأعظم الجهل هو الإشراك، إذ اتخاذ الحجر إلها سفاهة لا تعدلها سفاهة. ثم يشمل كل سفيه رأي.

وقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق لأن فضائل الأخلاق لا تعدو أن تكون عفوا عن اعتداء فتدخل في {خُذِ الْعَفْوَ} ، أو إغضاء عما لا يلائم فتدخل في {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} ، أو فعل خير واتساما بفضيلة فتدخل في {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ}، وهذا معنى قول جعفر بن محمد: " في هذه الآية أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها". وهي صالحة لأن يبيّن بعضها بعضا فإنّ الأمر بأخذ العفو يتقيّد بوجوب الأمر بالعرف، وذلك في كل ما لا يقبل العفو والمسامحة من الحقوق، وكذلك الأمر بالعرف يتقيّد بأخذ العفو وذلك بأن يدعو النّاس إلى الخير بلين ورفق.

{ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }[200]

وهذا الأمر مراد به رسول الله ﷺ ابتداء وهو شامل لأمّته.

{ إمّا } هذه (إن) الشرطية اتصلت بها (ما) الزائدة التي تزاد على بعض الأسماء غير أدوات الشروط فتصيّرها أدواتها، نحو (مهما) فإنّ أصلها ما، ونحو (إذ ما) و (أينما) و (أيا نما) و (حيثما) و (كيفما).

النزغ، النخس والغرز، كذا فسّره في الكشاف وهو التحقيق. وقال ابن عطية: " وقلما يستعمل في غير فعل الشيطان" {مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي} [يوسف: 100]

وإطلاق النزغ هنا على وسوسة الشيطان استعارة، شبّه حدوث الوسوسة الشيطانية في النفس بنزغ الإبرة ونحوها في الجسم بجامع التأثير الخفي، وشاعت هذه الاستعارة بعد نزول القرءان حتّى صارت كالحقيقة.

والمعنى، إن ألقى إليك الشيطان ما يخالف هذا الأمر، بأن سوّل لك الأخذ بالمعاقبة أو سوّل لك ترك أمرهم بالمعروف غضبا عليهم أو يأسا من هداهم، فاستعذ بالله منه ليدفع عنك حرجه ويشرح صدرك لمحبة العمل بما أمرت به.

الاستعاذة، مصدر طلب العوذ فالسين والتاء فيها للطلب، والعوذ الالتجاء إلى شيء يدفع مكروها عن الملتجئ، يقال: عاذ بفلان، وعاذ بالحرم، وأعاذه إذا منعه من الضر الذي عاذ من أجله.

والعوذ بالله هو الالتجاء إليه بالدعاء بالعصمة، أو استحضار ما حدّده الله له من حدود الشريعة. وهذا أمر لرسول الله ﷺ على الالتجاء إلى الله فيما عسر عليه، فإنّ ذلك شكر على نعمة الرسالة والعصمة، فإنّ العصمة من الذنوب حاصلة له، ولكنّه يشكر الله بإظهار الحاجة إليه لإدامتها عليه. وهذا مثل استغفار الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله في حديث صحيح مسلم: " إنه ليُغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة". فالشيطان لا ييأس من إلقاء الوسوسة للأنبياء لأنّها تنبعث عنه بطبعه، وإنّما يترصّد لهم مواقع خفاء مقصده طمعا في زلّة تصدر عن أحدهم، وإن كان قد علم أنّه لا يستطيع إغواءهم، ولكنّه لا

يفارق رجاء حملهم على التقصير في مراتبهم، ولذلك علّم الله رسوله عليه الصلاة والسلام الاستعانة على دفعها بالله تعالى.

روى الدارقطني أنّ النبي ﷺ قال: " ما منكم من أحد إلّا وقد وكلّ به قرينه من الجنّ وقرينه من الملائكة" قالوا وأنت يا رسول الله، قال " وأنا ولكن الله أعانني عليه فأسلم ". روي قوله فأسلم بفتح الميم بصيغة الماضي والهمزة أصلية، أي صار الشيطان المقارن له مسلما، وهي خصوصية للنبي ﷺ، وروي بضم الميم بصيغة المضارع، والهمزة للمتكلم، أي فأنا أسلمُ من وسوسته.

وهذا الأمر شامل للمؤمنين وحظ المؤمنين منه أقوى لأن نزغ الشيطان إيّاهم أكثر.

{ **إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } في موقع العلّة للأمر بالاستعاذة من الشيطان بالله، على ما هو شأن حرف (إنّ) إذا جاء في غير مقام دفع الشك أو الإنكار. أي أمرناك بذلك لأنّه يعصمك من وسوسته لأنّ الله سميع عليم.

السميع، العالم بالمسموعات، وهو مراد منه معناه الكنائي، أي عليم بدعائك مستجيب قابل للدعوة.

{ **عَلِيمٌ** } زيادة في الإخبار بعموم علمه تعالى بالأحوال كلّها.

{ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ** }[201]

هذا تأكيد وتقرير للأمر بالاستعاذة من الشيطان، فتتنزّل الآية منزلة التعليل للأمر بالاستعاذة من الشيطان إذا أحسّ بنزغه. ولذلك افتتحت بـ (إنّ) التي هي لمجرد الاهتمام لا لرد تردّد أو إنكار.

فيكون الأمر بالاستعاذة حينئذ قد علّل بعلّتين، أولاهما أنّ الاستعاذة بالله منجاة للرسول عليه الصلاة والسلام من نزغ الشيطان، والثانية أنّ في الاستعاذة بالله من الشيطان تذكّرا لواجب مجاهدة الشيطان والتيقّظ لكيده، وأنّ ذلك التيقّظ سنّة المتّقين. وقد جاءت العلّة هنا أعم من المعلّل، لأنّ التذكّر أعمّ من الاستعاذة.

ولعل الله ادخر خصوصية الاستعاذة لهذه الأمّة، فكثر في القرآن الأمر بالاستعاذة من الشيطان وكثر ذلك في أقوال النبي، ﷺ، كما ادخر لنا يوم الجمعة.

التَّقْوَى، تقدّم بيانها عند قوله تعالى {هُدىً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة:2]، والمراد بهم، الرسل وصالحو أممهم، لأنّه أريد جعلهم قدوة وأسوة حسنة.

المسّ، حقيقته وضع اليد على الجسم، واستعير للإصابة أو لأدنى الإصابة.

الطائف، هو الذي يمشي حول المكان ينتظر الإذن له، أطلق هنا على الخاطر الذي يخطر في النفس يبعث على فعل شيء نهى الله عن فعله، شبه ذلك الخاطر في مبدإ جولاته في النفس بحلول الطائف قبل أن يستقر.

وكانت عادة العرب أنّ القادم إلى أهل البيت، العائذ برب البيت، المستأنس للقرى يستأنس، فيطوف بالبيت، ويستأذن.

{ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا } (إذا) مع التعبير بفعل {مَسَّهُمْ } الدال على إصابة غير مكينة، إشارة إلى الفزع إلى الله من الشيطان، عند ابتداء إلمام الخواطر الشيطانية بالنّفس، لأنّ تلك الخواطر إذا أُمهلت لم تلبث أن تصير عزما ثم عملا.

التذكّر، استحضار المعلوم السابق. والمراد، تذكّروا أوامر الله ووصاياه، كقوله {ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ}[آل عمران: 135] ويشمل التذكر، تذكّر الاستعاذة.

{ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } الفاء لتفريع الإبصار على التذكّر. وأكد معنى فاء التعقيب بـ (إذا) الفجائيّة الدالة على حصول مضمون جملتها دفعة بدون تريّث. أي تذكّروا تذكّر ذوي عزم، فلم تتريّث نفوسهم أن تبيّن لها الحقّ الوازع عن العمل بالخواطر الشيطانية، فابتعدت عنها، وتمسكت بالحق، وعملت بما تذكّرت، فإذا هم ثابتون على هداهم وتقواهم.

وقد استعير الإبصار للاهتداء كما يستعار العمى للضلال، أي فإذا هم مهتدون ناجون من تضليل الشيطان، لأنّ الشيطان أراد إضلالهم فسلموا من ذلك. ووصفهم باسم الفاعل دون الفعل للدلالة على أنّ الإبصار ثابت لهم من قبل، وليس شيئا متجدّدا، ولذلك اخبر عنهم بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات.

{ وَإِخْوَانُـهُمْ يَمُدُّونَـهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ } [202]

عطف الضدّ على ضدّه، فلمّا ذكر شأن المتّقين في دفعهم طائف الشياطين، ذكر شأن أضدادهم من أهل الشرك والضلال.

الإخوان، جمع أخ على وزن فعلان. وحقيقة الأخ المشارك في بنوة الأم والأب أو في بنوة أحدهما ويطلق الأخ مجازا على الصديق الودود، ومنه ما آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وقول أبي بكر للنبيّ ﷺ لما خطب النبي منه عائشة إنما أنا أخوك فقال له النبي ﷺ: " أنت أخي وهي حلال لي". ويطلق الأخ على القرين كقولهم أخو الحرب، وعلى التابع الملازم.

{ وَإِخْوَانِهِمْ } الضمير عائد إلى غير مذكور في الكلام، إذ لا يصح أن يعود إلى المذكور قبله قريبا، لان الذي ذكر قبله {الذين اتقوا} فلا يصح أن يكون الخبر، فيحتمل أن يكون الضمير عائدا على معلوم من السياق وهم الجماعة المتحدّث عنهم في هذه الآيات أعني المشركين، ولهذا قال الزجاج: " هذه الآية متصلة في المعنى بقوله {وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} [192] "، أي وإخوان المشركين، أي أقاربهم ومن هو من قبيلتهم وجماعة دينهم، أي يمدّ المشركون بعضهم بعضا في الغي ويتعاونون عليه فلا مخلص لهم من الغي.

ويجوز أن يعود الضميران إلى الشيطان المذكور آنفا باعتبار إرادة الجنس أو الأتباع.

{ **يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ** } فالمعنى: وإخوانهم يمدون لهم في الغي، من مدّ للبعير في الطول. أي يطيلون لهم الحبل في الغيّ، تشبيها لحال أهل الغواية وازديادهم فيها بحال النعم المطال لها الطول في المرعى.

الغي، الضلال وقد تقدّم آنفا.

ويجوز أن يكون المراد من الإخوان الأولياء، ويكون الضميران للمشركين أيضا، أي وإخوان المشركين وأوليائهم، فيكون { الإخوان } صادقا بالشياطين كما فسر قتادة، لأنّه إذا كان المشركون إخوان الشياطين، كما هو معلوم، كان الشياطين إخوانا للمشركين، لأن نسبة الإخوة تقتضي جانبين، وصادقا بعظماء المشركين، فالخبر جار على من هو له، وقد كانت هذه المعاني مجتمعة في هذه الآيات بسبب هذا النظم البديع.

{ **ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ** } للترتيب الرتبي أي وأعظم من الإمداد لهم في الغي أنّهم لا يألونهم جهدا في الازدياد من الإغواء، فلذلك تجد إخوانهم اكبر الغاوين.

{ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [203]

معطوفة على جملة {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [199] والمناسبة أنّ مقالتهم هذه من جهالتهم.

الآية، يجوز أن يراد بها خارق العادة، أي هم لا يقنعون بمعجزة القرآن فيسألون آيات كما يشاءون، مثل قولهم: فجر لنا من الأرض ينبوعا. وهذا المعنى هو الذي شرحناه عند قوله تعالى {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا} [الأنعام:109].وروي هذا المعنى عن مجاهد، والسدّي، والكلبي.

ويجوز أن يراد آية من القرآن يقترحون فيها مدحا لهم ولأصنامهم. روي عن جابر بن زيد وقتادة: " كان المشركون إذا تأخّر الوحي يقولون للنبيّ هلا أتيت بقرآن من عندك يريدون التهكّم".

{ **لَوْلا** } حرف تحضيض مثل (هلّا).

الاجتباء، الاختيار، والمعنى، هلا اخترت آية وسألت ربك أن يعطيكها.

{ **قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي** } الجواب الذي أمر الرسول ﷺ بأن يجيب به صالح للمعنيين.

الاتباع، مستعمل في معنى الاقتصار والوقوف عند الحدّ، أي لا اطلب آية غير ما أوحى الله إليّ، ويعضد هذا ما في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: " ما من الأنبياء إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنّما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة".

{ **هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** }

مستأنفة لابتداء كلام في التنويه بشأن القرآن. منقطعه عن المقول، للانتقال من غرض إلى غرض بمنزلة التذييل لمجموع أغراض السورة، والخطاب للمسلمين.

ويجوز أن تكون من تمام القول المأمور بأن يجيبهم به، فيكون الخطاب للمشركين ثم وقع التخلص لذكر المؤمنين بقوله { وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }

{ **هَذَا بَصَائِرُ** }الإشارة إلى القرآن، ويجوز أن تكون الإشارة إلى ما تقدّم من السورة أو من المحاجّة الأخيرة منها.

البصائر، جمع بصيرة وهي ما به اتّضاح الحقّ، وقد تقدّم عند قوله تعالى {قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ} [الأنعام:104]. وهذا تنويه بشأن القرآن وأنّه خير من الآيات التي يسألونها، لأنّه يجمع بين الدلالة على صدق الرسول بواسطة دلالة الإعجاز وصدوره عن الأمّيّ، وبين الهداية والتعليم والإرشاد، والبقاء على العصور.

وإنّما جمع { البصائر} لأنّ في القرآن أنواعا من الهدى على حسب النواحي التي يهدي إليها، من تنوير العقل في إصلاح الاعتقاد، وتسديد الفهم في الدين، ووضع القوانين للمعاملات والمعاشرة بين النّاس، والدلالة على طرق النجاح والنجاة في الدنيا، والتحذير من مهاوي الخسران.

{ **مِنْ رَبِّكُمْ** } ترغيب للمؤمنين وتخويف للكافرين.

{ **وَهُدىً وَرَحْمَةٌ** } أفردا لأنّهما جنسان عامان يشملان أنواع البصائر، فالهدى يقارن البصائر والرحمة غاية.

الرحمة، ما يشمل رحمة الدنيا وهي استقامة أحوال الجماعة وانتظام المدنية، ورحمة الآخرة وهي الفوز بالنعيم الدائم كقوله تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل:97].

{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } يتنازعه (بصائر) و(هدى) و(رحمة)، لأنه إنّما ينتفع به المؤمنون،وهو تعريض بان غير المؤمنين ليسوا أهلا للانتفاع به وأنّهم لهوا عن هديه بطلب خوارق العادات.

{ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }[204]

يؤذن العطف بأنّ الخطاب بالأمر في قوله{فَاسْتَمِعُوا - وَأَنْصِتُوا} وفي قوله {لَعَلَّكُمْ} تابع للخطاب في قوله {هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ}. فقوله {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ} من جملة ما أُمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يقوله لهم، وذلك إعادة تذكير للمشركين تصريحا أو تعريضا بأن لا يعرضوا عن استماع القرآن، وبأن يتأمّلوه ليعلموا أنّه آية عظيمة، وأنّه بصائر وهدى ورحمة، لمن يؤمن به ولا يعاند. وقد علم من أحوال المشركين أنّهم كانوا يتناهون عن الإنصات إلى القرآن {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ

تَغْلِبُونَ} [فصلت:26].

{ **الْقُرْآنُ** } ذكر اسم القرآن إظهار في مقام الإضمار، لأنّ القرآن تقدّم ذكره بواسطة اسم الإشارة فنكتة هذا الإظهار التنويه بهذا الأمر، وجعل جملته مستقلّة بالدلالة غير متوقفة على غيرها، وهذا من وجوه الاهتمام بالكلام.

الاستماع، الإصغاء وصيغة الافتعال دالة على المبالغة في الفعل.

الإنصات، الاستماع مع ترك الكلام، فهذا مؤكد لا تسمعوا. مع زيادة معنى.

ويجوز أن يكون الاستماع مستعملا في معناه المجازي، وهو الامتثال للعمل بما فيه، كما تقدّم آنفا في قوله {وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا} [198] ويكون الإنصات جامعا لمعنى الإصغاء وترك اللغو.

وهذا الخطاب شامل للكفّار على وجه التبليغ، وللمسلمين على وجه الإرشاد، لأنّهم أرجى للانتفاع بهديه.

فالاستماع والإنصات المأمور بهما، هما المؤدّيان بالسامع إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الدلالة على صدق الرسول ﷺ المفضي إلى الإيمان به، ولما جاء به من إصلاح النفوس، فالأمر بالاستماع مقصود به التبليغ واستدعاء النظر والعمل بما فيه، فالاستماع والإنصات مراتب بحسب مراتب المستمعين.

وقد اتفق علماء الأمّة على أن ظاهر الآية بمجرّده في صور كثيرة مؤوّل. فلا يقول أحد منهم بأنّه يجب على كلّ مسلم إذا سمع أحدا يقرأ القرآن أن يشتغل بالاستماع وينصت، إذ قد يكون القارئ يقرأ بمحضر صانع في صنعته فلو وجب عليه الاستماع لأمر بترك عمله، ولكنّهم اختلفوا في محمل تأويلها؛

فمنهم من خصّها بسبب رأوا أنّه سبب نزولها، فرووا عن أبي هريرة أنّها نزلت في قراءة الإمام في الجهر.

وما قالوه في ذلك إنّما هو تفسير وتأويل وليس فيه شيء مأثور عن النبي ﷺ.

ومنهم من أبقى أمر الاستماع على إطلاقه القريب من العموم، ولكنّهم تأولوه على أمر الندب، وهذا الذي يؤخذ من كلام فقهاء المالكية.

{ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ }[205]

إقبال بالخطاب على النبي ﷺ فيما يختصّ به، بعد أن أُمر بما أُمر بتبليغه من الآيات المتقدّمة، والمناسبة في هذا الانتقال أنّ أمر النّاس باستماع القرآن يستلزم أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بقراءة القرآن عليهم قراءة جهريّة يسمعونها. فلما فرغ الكلام من حظّ النّاس نحو قراءة الرسول عليه الصلاة والسلام، أقبل على الكلام في حظّ الرسول ﷺ من القرآن وغيره، وهو التذكّر الخاص به. فأُمر بأن يذكر الله ما استطاع وكيفما

تسنّى له وفي أوقات النهار المختلفة.

النفس، اسم للقوّة التي بها الحياة، فهي مرادفة الروح، وتطلق على الذات المركّبة من الجسد والروح. ولكون مقر النفس في باطن الإنسان أطلقت على أمور باطن الإنسان من الإدراك والعقل كما في قوله تعالى حكاية عن عيسى {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي} [المائدة: 116]. ومن ذلك يتطرق إلى إطلاقها على خويصة المرء، ومنه قوله في الحديث القدسي في صحيح البخاري: " وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خير منهم"، فقابل قوله في نفسه بقوله في ملإٍ.

والمعنى، اذكر ربك وأنت في خلوتك كما تذكره في مجامع النّاس.

الذكر، حقيقة في ذكر اللسان، وهو المراد هنا، ويعضده قوله {وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ} وذلك يشمل قراءة القرآن وغير القرآن من الكلام الذي فيه تمجيد الله وشكره ونحو ذلك، مثل كلمة التوحيد والحوقلة والتسبيح والتكبير والدعاء.

التضرّع، التذلّل، ولمّا كان التذلّل يستلزم الخطاب بالصوت المرتفع في عادة العرب، كني بالتضرع عن رفع الصوت مرادا به معناه الأصلي والكنائي، ولذلك قوبل بالخفية في قوله {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً}[55]. وقوبل التضرع هنا بـ { **خِيفَةً** } وهي اسم مصدر الخوف، فهو من المصادر التي جاءت على صيغة الهيئة وليس المراد بها الهيئة، مثل الشدّة. لأنّه لمّا كانت الخيفة انفعالا نفسيا يجده الإنسان في خاصة نفسه كانت مستلزمة للتخافت بالكلام خشية أن يشعر بالمرء من يخافه، فلذلك **كني بها هنا عن الإسرار بالقول مع الخوف من الله**، فمقابلتها بالتضرّع طباق في معنيي اللفظين الصريحين ومعنييهما الكناءين، فكأنه قيل تضرعا وإعلانا وخيفة وإسرارا.

{ **وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ** } هو مقابل لكلّ من التضرّع والخيفة، وهو الذكر المتوسّط بين الجهر والإسرار. والمقصود من ذلك استيعاب أحوال الذكر باللسان، لأنّ بعضها قد تكون النفس أنشط إليه منها إلى البعض الآخر.

الغدو، اسم لزمن الصباح وهو النصف الأوّل من النّهار.

الآصال، جمع أصيل وهو العشي وهو النصف الثاني من النّهار إلى الغروب.

والمقصود استيعاب أجزاء النهار بحسب المتعارف.

{ **وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ** } التحذير من الغفلة عن ذكر الله، ولا حدّ للغفلة، فإنها تحدّد بحال الرسول، ﷺ وهو أعلم بنفسه، فإنّ له أوقاتا يتلقى فيها الوحي وأوقات شؤون جبليّة كالطعام. وهذا الأمر خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام، وكل ما خص به الرسول عليه الصلاة والسلام من الوجوب يُستحسن للأمّة اقتداؤهم به فيه إلّا ما نهوا عنه مثل الوصال في الصوم.

وقد تقدم أن هذا التركيب أشد في الانتفاء وفي النهي من نحو، (ولا تغفل)، لأنّه يفرض جماعة يحقّ عليهم وصف الغافلين، فيحذر من أن يكون في زمرتهم، وذلك أبين للحالة المنهي عنها.

{ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ } [206]

تتنزل منزلة العلّة للأمر بالذكر، ولذلك صدرت {إِنَّ} التي هي لمجرد الاهتمام بالخبر، لا لرد تردد أو إنكار، لأن المخاطب منزه عن أن يتردد في خبر الله تعالى، فحرف التوكيد في مثل هذا المقام يغني غناء فاء التفريع، ويفيد التعليل كما تقدم غير مرة.

المعنى، الحث على تكرر ذكر الله في مختلف الأحوال، لأن المسلمين مأمورون بالاقتداء بأهل الكمال من الملإ الأعلى، وفيها تعريض بالمشركين المستكبرين عن عبادة الله بأنّهم منحطّون عن تلك الدرجات.

{ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ } الملائكة، ووجه جعل حال الملائكة علة لأمر النبي ﷺ بالذكر، أنّ مرتبة الرسالة تلحق صاحبها من البشر برتبة الملائكة.

فليس في هذا التعليل ما يقتضي أن يكون الملائكة افضل من الرسل، كما يتوهمه المعتزلة لأنّ التشبّه بالملائكة من حيث كان الملائكة أسبق في هذا المعنى لكونه حاصلا منهم بالجبلة فهم مثل فيه، ولا شبهة في أنّ الفريق الذين لم يكونوا مجبولين على ما جبلت عليه الملائكة، إذا تخلقوا بمثل خلق الملائكة، كان سموّهم إلى تلك المرتبة أعجب، واستحقاقهم الشكر والفضل له أجدر.

{ عِنْدَ } مستعمل مجازا في رفعة المقدار، والحظوة الإلهية.

{ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ } ليس المقصود به التنويه بشأن الملائكة لأن التنويه بهم يكون بأفضل من ذلك، وإنما أريد به التعريض بالمشركين وأنّهم على النقيض من أحوال الملائكة المقرّبين، فخليق بهم أن يكونوا بعداء عن منازل الرفعة.

{ وَيُسَبِّحُونَهُ } أي ينزّهونه بالقول والاعتقاد عن صفات النقص، وهذه الصلة هي المقصودة من التعليل للأمر بالذكر.

{ وَلَهُ يَسْجُدُونَ } للدلالة على الاختصاص أي ولا يسجدون لغيره، وهذا أيضا تعريض بالمشركين الذين يسجدون لغيره، والمضارع يفيد الاستمرار أيضا.

وهنا موضع سجود من سجود القرآن، وهو أولها في ترتيب الصحف، وهو من المتفق على السجود فيه بين علماء الأمّة، ومقتضى السجدة هنا أن الآية جاءت للحضّ على التخلّق بأخلاق الملائكة في الذكر، فلما أخبرت عن حالة من أحوالهم في تعظيم الله وهو السجود لله، أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يبادر

بالتشبه بهم تحقيقا للمقصد الذي سبق هذا الخبر لأجله.

وقد دل استقراء مواقع سجود القرآن أنّها لا تعدو أن تكون إغاظة للمشركين، أو اقتداء بالأنبياء أو المرسلين كما قال ابن عباس في سجدة، {فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ} [صّ: 24] أن الله تعالى قال: {فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: 90]، فداود ممن أمر محمد ﷺ بأن يقتدي به.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأنفال

روى الواحدي في (أسباب النزول) عن سعد بن أبي وقاص قال: " لمّا كان يوم بدر، قُتل أخي عمير وقتلتُ سعيد بن العاصي فأخذت سيفه فأتيت به النبي ﷺ فقال: " اذهب القَبَض " (بفتحتين، الموضع الذي تجمع فيه الغنائم)، فرجعت في ما لا يعلمه إلّا الله، قُتل أخي وأُخذ سلبي فما جاوزت قريبا حتّى نزلت سورة الأنفال" .

وأخرج البخاري، عن سعيد بن جبير، قال: " قلت لابن عباس: سورة الأنفال، قال : نزلت في بدر".

فباسم الأنفال عرفت بين المسلمين وبه كتبت تسميتها في المصحف حين كتبت أسماء السور في زمن الحجّاج، ولم يثبت في تسميتها حديث. وتسميتها سورة الأنفال من أنّها افتتحت بآية فيها اسم الأنفال، ومن أجل أنّها ذُكر فيها حكم الأنفال كما سيأتي. وتسمّى أيضا سورة بدر لحديث سعيد بن جبير السابق.

وقد اتفق رجال الأثر كلّهم على أنّها نزلت في غزوة بدر. قال ابن إسحاق: " أنزلت في أمر بدر سورة الأنفال بأسرها، وكانت غزوة بدر في رمضان من العام الثاني للهجرة بعد عام ونصف من يوم الهجرة، وذلك بعد تحويل القبلة بشهرين، وكان ابتداء نزولها قبل الانصراف من بدر، فإنّ الآية الأولى منها نزلت والمسلمون في بدر قبل قسمة مغانمها، كما دلّ عليه حديث سعد بن أبي وقاص".

والظاهر أنّها استمر نزولها إلى ما بعد الانصراف من بدر.

وفي كلام أهل أسباب النزول ما يقتضي أنّ آية { الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً - إلى- مَعَ الصَّابِرِينَ} [66] نزلت بعد نزول السورة بمدة طويلة، كما روي عن ابن عباس، وسيأتي تحقيقه هنالك.

وقال جماعة من المفسرين إنّ آيات {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ – إلى - لا يَفْقَهُونَ} [64، 65] نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل ابتداء القتال، فتكون تلك الآية نزلت قبل نزول أوّل السورة.

نزلت هذه السورة بعد سورة البقرة، أي هي الثانية نزولا بالمدينة، وقيل نزلت البقرة ثم آل عمران ثم الأنفال، والأصحّ أنّها ثانية السور بالمدينة نزولا، بعد سورة البقرة.

وقد بيّنت في المقدّمات أنّ نزول سورة بعد أخرى لا يفهم منه أنّ التالية تنزل بعد انقضاء نزول التي قبلها، بل قد يبتدأ نزول سورة قبل انتهاء السورة التي ابتدئ نزولها قبل. ولعلّ سورة الأنفال قد انتهت قبل انتهاء نزول سورة البقرة، لأنّ الأحكام التي تضمنتها سورة الأنفال من جنس واحد وهي أحكام المغانم والقتال، وتفننت أحكام سورة البقرة أفانين كثيرة.

وقد عدّت السورة التاسعة والثمانين في عداد نزول سور القرآن.

وعدد آيها، في عدّ أهل المدينة وأهل مكة وأهل البصرة، ست وسبعون، وفي عدّ أهل الشام سبع وسبعون، وفي عد أهل الكوفة خمس وسبعون.

أغراض السورة

ابتدأت ببيان أحكام الأنفال وهي الغنائم وقسمتها ومصارفها.

والأمر بتقوى الله في ذلك وغيره.

والأمر بطاعة الله ورسوله، في أمر الغنائم وغيرها.

وأمر المسلمين بإصلاح ذات بينهم، وأنّ ذلك من مقوّمات معنى الإيمان الكامل.

وذكر الخروج إلى غزوة بدر، وخوفهم من قوة عدد الأعداء وما لقوا فيها من نصر. وتأييد الله لهم ولطفه بهم، وامتنان الله عليهم بان جعلهم أقوياء، ووعدهم بالنصر إن اتقوا بالثبات للعدو، والصبر.

والأمر بالاستعداد لحرب الأعداء.

والأمر باجتماع الكلمة والنهي عن التنازع.

والأمر بان يكون قصد النصرة للدين نصب أعينهم.

ووصف السبب الذي أخرج المسلمين إلى بدر.

وذكر مواقع الجيشين، وصفات ما جرى من القتال.

وتذكير النبي ﷺ بنعمة الله عليه إذ أنجاه من مكر المشركين به بمكّة وخلّصه من عنادهم، وأنّ مقامه بمكة كان أمانا لأهلها فلمّا فارقهم فقد حقّ عليهم عذاب الدنيا بما اقترفوا من الصدّ عن المسجد الحرام.

ودعوة المشركين للانتهاء عن مناوأة الإسلام، وإيذانهم بالقتال.

والتحذير من المنافقين.

وضرب المثل بالأمم الماضية التي عاندت رسل الله ولم يشكروا نعمة الله.

وأحكام العهد بين المسلمين والكفار وما يترتّب على نقضهم العهد، ومتى يحسن السلم.

وأحكام الأسرى.

وأحكام المسلمين الذين تخلّفوا في مكّة بعد الهجرة. وولايتهم وما يترتب على تلك الولاية.

{ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ قُلْ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ } [1]

{ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ } مؤذن بأنّ المسلمين لم يعلموا ماذا يكون في شأن المسمّى عندهم {الأَنْفَالِ} وكان ذلك يوم بدر، وأنّهم حاوروا رسول الله عليه الصلاة والسلام في ذلك، فمنهم من يتكلم بصريح السؤال، ومنهم من يخاصم أو يجادل غيره بما يؤذن حاله بأنّه يتطلّب فهما في هذا الشأن، وقد تكرّرت الحوادث يومئذ. ففي صحيح مسلم، وجامع الترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال: " لما كان يوم بدر أصبت سيفا

لسعيد بن العاصي فأتيت به النبي فقلت نفِّلْنيه فقال "ضعه في القَبَض" ، ثم قلت نفلنيه فقال "ضعه حيث أخذته"، ثم قلت نفلنيه فقال "ضعه من حيث أخذته" ، فنزلت {يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ} ".

وفي (أسباب النزول) للواحدي، و(سيرة ابن إسحاق) عن عبادة بن الصامت، أنّه سئل عن الأنفال فقال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل يوم بدر فانتزعه الله من أيدينا حين ساءت فيه أخلاقنا فردّه على رسوله فقسّمه بيننا على بواء يقول على السواء.

وروى أبو داود، عن ابن عباس، قال: " لمّا كان يوم بدر ذهب الشبان للقتال وجلس الشيوخ تحت الرايات فلمّا كانت الغنيمة جاء الشبّان يطلبون نفلهم فقال الشيوخ لا تستأثرون علينا فإنّا كنا تحت الرايات، ولو انهزمتم لكنّا ردءا لكم، واختصموا إلى النبي ﷺ فأنزل الله تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ} ".

السؤال، حقيقته الطلب، فإذا عدّي بـ (عن) فهو طلب معرفة المجرور بـ (عن)، وإذا عدي بنفسه فهو طلب إعطاء الشيء. فالمعنى هنا، يسألونك معرفة الأنفال، أي معرفة حقّها.

{ **يَسْأَلُونَكَ** } مجيء الفعل بصيغة المضارع دال على تكرّر السؤال، إمّا بإعادته المرة بعد الأخرى من سائلين متعدّدين، وإمّا بكثرة السائلين عن ذلك حين المحاورة في موقف واحد.

واللفظة مؤذنة بتنازع بين الصحابة في استحقاق الأنفال، فقد كانت لهم عوائد متبعة في الجاهلية في الغنائم والأنفال أرادوا العمل بها وتخالفوا في شأنها فسألوا.

الأنفال، جمع نفل (بالتحريك) والنفل مشتق من النافلة وهي الزيادة في العطاء. وقد أطلق العرب في القديم الأنفال على الغنائم في الحرب كأنّهم اعتبروها زيادة على المقصود من الحرب لأنّ المقصود الأهم من الحرب هو إبادة الأعداء، ولذلك ربما كان صناديدهم يأبون أخذ الغنائم كما قال عنترة

يخبرك من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ويقولون نفلني كذا يريدون أغنمني، حتى صار النفل يطلق على ما يعطاه المقاتل من المغنم زيادة على قسطه من المغنم لمزيّة له في البلاء والغناء، أو على ما يعثر عليه من غير قتيله وهذا صنف من المغانم.

فالمغانم، إذن، تنقسم إلى: ما قصد المقاتل أخذه من مال العدو مثل نعمهم، ومثل ما على القتلى من لباس وسلاح بالنسبة إلى القاتل، وفيما ما لم يقصده المقاتلون مما عثروا عليه مثل لباس قتيل لم يعرف قاتله.

فاحتملت الأنفال في هذه الآية أن تكون بمعنى المغانم مطلقا، وأن تكون بمعنى ما يزاد للمقاتل على حقّه من المغنم. فحديث سعد بن أبي وقاص كان سؤالا عن تنفيل بمعنى زيادة. وحديث ابن عباس حكى وقوع اختلاف في قسمة المغنم بين من قاتل ومن لم يقاتل، على أنّ طلب من لم يقاتلوا المشاركة في المغنم يرجع إلى طلب تنفيل، فيبقى النفل في معنى الزيادة.

وقد أطلقوا النفل أيضا على ما صار في أيدي المسلمين من أموال المشركين بدون انتزاع ولا افتكاك. فيدخل

بهذا الإطلاق تحت جنس الفيء كما سمّاه الله تعالى في سورة الحشر[6، 7] بقوله {وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ - إلى قوله - بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ } وذلك مثل أموال بني النضير التي سلّموها قبل القتال وفروا.

وبهذا تتحصّل في أسماء الأموال المأخوذة من العدو في القتال ثلاثة أسماء: المغنم، والفيء وهما نوعان والنفل وهو صورة من صور القسمة وكانت متداخلة.

والذي استقر عليه مذهب مالك أنّ النفل ما يعطيه الإمام من الخمس لمن يرى إعطاءه إيّاه، ممن لم يغنم ذلك بقتال.

قال الجمهور: المراد بها ما كان زائدا على المغنم، فيكون النظر فيه لأمير الجيش يصرفه لمصلحة المسلمين، أو يعطيه لبعض أهل الجيش لإظهار مزيّة البطل، أو لخصلة عظيمة يأتي بها، أو للتحريض على النكاية في العدو.

وقال مالك والجمهور:لا نفل إلّا من الخمس على الاجتهاد من الإمام وقال مالك: " إعطاء السلب من التنفيل" وقال مجاهد: " الأنفال هي خمس المغانم وهو المجعول لله والرسول ولذي القربى ".

{ لِلَّهِ } على القول الأوّل في معنى الأنفال: لام الملك، لأنّ النفل لا يحسب من الغنائم، وليس هو من حق الغزاة فهو بمنزلة مال لا يعرف مستحقّه، فيقال هو ملك لله ولرسوله، فيعطيه الرسول لمن شاء بأمر الله أو باجتهاده، وهذا ظاهر حديث سعد بن أبي وقاص في الترمذي، إذ قال له رسول الله عليه الصلاة والسلام: سألتني هذا السيف (السيف الذي تقدم ذكره في حديث مسلم) ولم يكن لي وقد صار لي فهو لك".

وأمّا على القول الثاني، الجامع لجميع المغانم، فاللام للاختصاص، أي الأنفال تختص بالله والرسول، أي حكمها وصرفها، فهي بمنزلة (إلى). تقول هذا لك أي إلى حكمك مردود. وأصحاب هذا القول رأوا أنّ المغانم لم تكن في أوّل الأمر مخمّسة بل كانت تقسم باجتهاد النبي ﷺ ثم خمّست بآية {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ} [الأنفال: 41].

{ **وَالرَّسُولِ** } عطف على اسم الله، لان المقصود، الأنفال للرّسول ﷺ يقسمها بإذن الله توفيقا أو تفويضا.

وتشمل الآية تصرّف أمراء الجيوش في غيبة الرسول أو بعد وفاته ﷺ، لأنّ ما كان حقّا لله كان التصرف فيه لخلفائه.

واختلف الفقهاء في حكم الأنفال اختلافا ناشئا عن اختلاف اجتهادهم في المراد من الآية، وهو اختلاف يعذرون عليه لسعة الإطلاق في أسماء الأموال الحاصلة للغزاة :

فقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وسعيد بن المسيب: النفل إعطاء بعض الجيش أو جميعه زيادة على قسمة أخماسهم الأربعة من المغنم، فإنّما يكون ذلك من خمس المغنم المجعول للرسول ﷺ ولخلفائه وأمرائه جمعا

بين هذه الآية وبين قوله: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ} [الأنفال: 41]. فلا نفل إلّا من الخمس المجعول لاجتهاد أمير الجيش. وعلّة ذلك تجنّب إعطاء حقّ أحد لغيره ولأنّه يفضي إلى إيقاد الإحن في نفوس الجيش وقد يبعث الجيش على عصيان الأمير، ولكن إذا رأى الإمام مصلحة في تنفيل بعض الجيش ساغ له ذلك من الخمس الذي هو موكول إليه كما سيأتي في آية المغانم. لذلك قال مالك لا يكون التنفيل قبل قسمة المغنم، وجعل ما صدر من النبي ﷺ يوم حنين من قوله : " من قتل قتيلا فله سلبه " خصوصيه للنبي ﷺ، وهو ظاهر، لأنّ طاعة الناس للرّسول أشد من طاعتهم لمن سواه، لأنّهم يؤمنون بأنّه معصوم عن الجور وبأنّه لا يتصرف إلّا بإذن الله. قال مالك في الموطأ: " ولم يبلغنا أنّ رسول الله فعل ذلك غير يوم حنين ولا أنّ أبا بكر وعمر فعلاه في فتوحهما ".

وقال جماعة يجوز التنفيل من جميع المغنم وهؤلاء يخصّصون عموم آية {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ} [41] بآية {قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ}، أي فالمغانم المخمسة ما كان دون النفل.

والقول الأوّل أسد وأجرى على الأصول وأوفق بالسنة، والمسألة تبسط في الفقه وليس من غرض المفسر إلا الإلمام بمعاقدها من الآية.

{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ** } فلمّا حكم بأنّها ملك لله ورسوله، أو بأنّ أمر قسمتها موكول لله، فقد وقع ذلك على كراهية كثير منهم ممن كانوا يحسبون أنّهم أحقّ بتلك الأنفال ممن أعطيها، تبعا لعوائدهم السالفة في الجاهلية فذكّرهم الله بأن قد وجب الرضى بما يقسّمه الرسول منها. وقدم الأمر بالتقوى لأنّها جامع الطاعات.

{ **وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ** } عطف الأمر بإصلاح ذات البين لأنّهم اختصموا واشتجروا في شأنها كما قال عبادة بن الصامت: " اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا "، فأمرهم الله بالتصافح.

الإصلاح، جعل الشيء صالحا، وهو مؤذن بأنّه كان غير صالح، فالأمر بالإصلاح دل على فساد ذات بينهم، وهو فساد التنازع والتظالم.

{ **ذَاتَ** } يجوز أن تكون مؤنث (ذو) الذي هو بمعني صاحب فتكون ألفها مبدلة من الواو. ووقع في كلامهم مضافا إلى الجهات وإلى الأزمان وإلى غيرهما، يجرونه مجرى الصفة لموصوف يدل عليه السياق كقوله تعالى {وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ} [الكهف:18]، على تأويل جهة . وتقول: لقيته ذات ليلة، ولقيته ذات صباح، على تأويل المقدّر ساعة أو وقت. وجرت مجرى المثل في ملازمتها هذا الاستعمال.

ويجوز أن تكون أصلية الألف، كما يقال: أنا أعرف ذات فلان، فالمعنى حقيقة الشيء وماهيته. وكذا فسّرها الزجاج والزمخشري. فتكون كلمة مقحمة لتحقيق الحقيقة، جعلت مقدّمة، وحقّها التأخير لأنّها للتأكيد مثل المعنى في قولهم جاءني بذاته. فالمعنى: أصلحوا بينكم.

{ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ** } وختم بالأمر بالطاعة، والمراد بها هنا الرضى بما قسّم الله ورسوله، أي الطاعة التامة كما قال تعالى {ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ} [النساء: 65]
{ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } واجتلاب {**إن**} في هذا الشرط للتحريض على إظهار الخصال التي يتطلبها الإيمان، وهي التقوى الجامعة لخصال الدين، وإصلاح ذات بينهم، والرضى بما فعله الرّسول. فالمقصود التحريض على أن يكون إيمانهم في أحسن صوره ومظاهره.

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }[2]
موقع هذه الجملة وما عطف عليها موقع التعليل لوجوب تقوى الله وإصلاح ذات بينهم وطاعتهم الله ورسوله. لأنّ ما تضمّنته هذه الجمل التي بعد { **إِنَّمَا** } من شأنه أن يحمل المتّصفين به على الامتثال لما تضمّنته جمل الأمر الثلاث السابقة، وقد اقتضى ظاهر القصر المستفاد من {إِنَّمَا} أنّ من لم يَجِلْ قلبه إذا ذكر الله، ولم تزده تلاوة آيات الله إيمانا مع إيمانه، ولم يتوكل على الله، ولم يقم الصلاة، ولم ينفق، لم يكن موصوفا بصفة الإيمان. فهذا ظاهر مؤوّل بما دلّت عليه أدلة كثيرة من الكتاب والسنّة، من أنّ الإيمان لا ينقضه الإخلال ببعض الواجبات كما سيأتي عند قوله تعالى {أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً} [4].
فيكون التأويل، إنّما المؤمنون الكاملون الإيمان، وحرف (أل) فيه هو ما يسمى بالدالة على معنى الكمال.
الذكر، حقيقته التلفّظ باللسان، وإذا علق بما يدلّ على ذات فالمقصود من الذات أسماؤها، فالمراد من قوله {إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ} إذا نطق ناطق باسم من أسماء الله أو بشأن من شؤونه، مثل أمره ونهيه.
الوجل، خوف مع فزع، فيكون لاستعظام الموجول منه. وقد جاء فعل وَجِلَ في الفصيح بكسر العين في الماضي على طريقة الأفعال الدالة على الانفعال الباطني مثل فرح، وصدي، وهوي، وروي.
وأسند الوجل إلى القلوب لأنّ القلب يكثر إطلاقه في كلام العرب على إحساس الإنسان وقرارة إدراكه.
وقد أجملت الآية ذكر الله إجمالا بديعا ليناسب معنى الوجل، فذكر الله يكون بذكر اسمه، وبذكر عقابه، وعظمته، وبذكر ثوابه ورحمته، وكلّ ذلك يحصل معه الوجل في قلوب كمل المؤمنين، لأنّه يحصل معه استحضار جلال الله وشدّة بأسه وسعة ثوابه، فينبعث عن ذلك الاستحضار توقّع حلول بأسه، وتوقّع انقطاع بعض ثوابه أو رحمته، وهو وجل يبعث المؤمن إلى الاستكثار من الخير وتوقّي ما لا يرضي الله تعالى، وملاحظة الوقوف عند حدود الله في أمره ونهيه، ولذلك روي عن عمر بن الخطاب أنّه قال: " أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه".

{ **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا** }

التلاوة، القراءة واستظهار ما يحفظه التالي من كلام له أو لغيره يحكيه لسامعه، وقد تقدّم عند قوله تعالى {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [البقرة:102]

آيات الله: القرآن، سمّيت آيات لأنّ وحيها إلى النبيّ الأمّيّ ﷺ وعجز قومه، خاصتهم وعامتهم، عن الإتيان بمثلها، وفيها دلالة على صدق من جاء بها فلذلك سمّيت آيات. ويسمّى القرآن كلّه آية أيضا باعتبار دلالة جملته على صدق محمد ﷺ، وقد تقدّم ذلك في المقدّمة الثامنة من مقدّمات هذا التفسير.

وإسناد فعل زيادة الإيمان إلى آيات الله لأنّها سبب تلك الزيادة. وهذا الإسناد من المجاز العقلي إذ جعلت الآيات بمنزلة فاعل الزيادة في الإيمان.

الإيمان، تصديق النفس بثبوت نسبة شيء لشيء، أو بانتفاء نسبة شيء عن شيء، تصديقا جازما لا يحتمل نقيض تلك النسبة، وقد اشتهر اسم الإيمان شرعا في اليقين بالنسبة المقتضية وجود الله ووجود صفاته التي دلّت عليها الأدلة العقلية أو الشرعيّة، والمقتضية مجيء رسول الله مخبرا عن الله الذي أرسله وثبوت صفات الرسول عليه الصلاة والسلام التي لا يتمّ معنى رسالته عن الله بدونها: مثل الصدق فيما يبلغ عن الله، والعصمة عن اقتراف معصية الله تعالى.

زيادة الإيمان، قوّة اليقين في نفس الموقن على حسب شدّة الاستغناء عن استحضار الأدلة في نفسه، وعن إعادة النظر فيها، ودفع الشك العارض للنفس، فإنّه كلما كانت الأدلة أكثر وأقوى وأجلى مقدّمات، كان اليقين أقوى، فتلك القوّة هي المعبر عنها بالزيادة، وتفاوتها تدرج في الزيادة. ويجوز أن تسمى قلة التدرج في الأدلة نقصا لكنه نقص عن الزيادة، وذلك مع مراعاة وجود أصل حقيقة الإيمان، لأنّها لو نقصت عن اليقين لبطلت ماهية الإيمان، وقد أشار البخاري إلى هذا بقوله: " باب زيادة الإيمان ونقصانه فإذا ترك شيئا من الكمال فهو ناقص" فلو أن نقص الأدلة بلغ بصاحبه إلى انخرام اليقين لم يكن العلم الحاصل له إيمانا، حتى يوصف بالنقص، فهذا هو المراد من وصف الإيمان بالزيادة، في القرآن وكلام الرسول ﷺ، وهو بيّن.

ولم يرد عن الشريعة ذكر نقص الإيمان، وذلك هو الذي يريده جمهور علماء الأمّة إذا قالوا الإيمان يزيد، كما قال مالك بن أنس: " الإيمان يزيد ولا ينقص "، وهي عبارة كاملة.

وقد يطلق الإيمان على الأعمال التي تجب على المؤمن وهو إطلاق باعتبار كون تلك الأعمال من شرائع الإيمان، كما أطلق على الصلاة اسم الإيمان في قوله تعالى {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [البقرة:143].

ولكن الاسم المضبوط لهذا المعنى هو اسم (الإسلام) كما يفصح عنه حديث سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان، فالإيمان قد يطلق على الإسلام وهو بهذا الاعتبار يوصف بالنقص والزيادة باعتبار

الإكثار من الأعمال والإقلال، ولكنه ليس المراد في هذه الآية ولا في نظائرها من آيات الكتاب وأقوال النبي ﷺ.

وقد يريده بعض علماء الأمة فيقول: الإيمان يزيد وينقص، ولعلّ الذي ألجأهم إلى وصفه بالنقص هو ما اقتضاه الوصف بالزيادة. وهذا مذهب أشار إليه البخاري في قوله " باب من قال إن الإيمان هو العمل".

وقال الشيخ ابن أبي زيد: " وأن الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقص الأعمال فيكون فيها النقص وبها الزيادة". وهو جار على طريقة السلف من إقرار ظواهر ألفاظ القرآن والسنة، في الأمور الاعتقادية ولكن وصف الإيمان بالنقص لا داعي إليه لعدم وجود مقتضيه لعدم وصفه بالنقص في القرآن والسنة ولهذا قال مالك الإيمان يزيد ولا ينقص.

وحظ المقام المتعلّق بأحكام الأنفال من هذه الزيادة، هو أنّ سماع آيات حكم الأنفال يزيد إيمان المؤمنين قوّة، بنبذ الشقاق والتشاجر الطارئ بينهم في أنفس الأموال عندهم، وهو المال المكتسب من سيوفهم، فإنّه أحبّ أموالهم إليهم. وبذلك تتضح المناسبة بين ذكر حكم الأنفال، وتعقيبه بالأمر بالتقوى وإصلاح ذات البين والطاعة، ثم تعليل ذلك بأنّ شأن المؤمنين ازدياد إيمانهم عند تلاوة آيات الله.

{ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }

صلة ثالثة ل { الْمُؤْمِنُونَ } أو حال منه، وجعلت فعلا مضارعا للدلالة على تكرّر ذلك منهم، ووصفهم بالتوكّل على الله، وهو الاعتماد على الله في الأحوال والمساعي. وتقدم تفسير **التوكّل** عند قوله {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [آل عمران:159]

ومناسبة هذا الوصف للغرض، أنّهم أُمروا بالتخلّي عن الأنفال، والرضى بقسمة الرسول ﷺ فيها، فمن كان قد حرم من نفل قتيله يتوكّل على الله في تعويضه بأحسن منه.

وتقديم المجرور إمّا للرعاية على الفاصلة، فهو من مقتضيات الفصاحة مع ما فيه من الاهتمام باسم الله، وإمّا للتعريض بالمشركين، لأنّهم يتوكلون على إعانة الأصنام. فيكون الكلام مدحا للمؤمنين، وتعريضا بذم المشركين. ثم فيه تحذير من أن تبقى في نفوس المؤمنين آثار من التعلق بما نهوا عن التعلق به، لتوهّمهم أنهم إذا فوتوه فقد أضاعوا خيرا من الدنيا.

{ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } [3]

لا علاقة للصلة المذكورة هنا بأحكام الأنفال والرضى بقسمها، ولكنّه مجرّد المدح، وعبّر في جانب الصلاة بالإقامة للدلالة على المحافظة عليها وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى {وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ} [البقرة:3].

{ **أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** } [4]
مؤكدة لمضمون { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ } [2] إلى آخرها ولذلك فصلت.
وعُرف المسند إليه بالإشارة لوقوعه عقب صفات لتدلّ الإشارة على أنّهم أحرياء بالحكم المسند إلى اسم الإشارة من أجل تلك الصفات، فكأنّ المخبر عنهم قد تميّزوا للسامع بتلك الصفات فصاروا بحيث يشار إليهم.
وفي هذه الجملة قصر آخر يشبه القصر الذي قوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ} [2] حيث قصر الإيمان مرة أخرى على أصحاب تلك الصفات، ولكنه قرن هنا بما فيه بيان المقصور، وهو أنّهم المؤمنون الأحقاء بوصف الإيمان.
الحقّ، أصله مصدر حَقَّ بمعنى ثبت، واستعمل استعمال الأسماء للشيء الثابت الذي لا شكّ فيه، قال تعالى {وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً} [النساء: 122]
ويطلق كثيرا، على الكامل في نوعه، كما يقول أحد لابنه البار به: أنت ابني حقّا، وليس يريد أنّ غيره من أبنائه ليسوا برشدة ولكنّه يريد، أنت بنوّتك واضحة آثارها. ويطلق الحقّ على الصواب والحكمة. فاسم الحقّ يجمع معنى كمال النوع.
ولكلّ صيغة قصر: منطوق ومفهوم، فمنطوقها هنا أنّ الذين جمعوا ما دلت عليه تلك الصلات هم مؤمنون حقا، ومفهومها أنّ من انتفى عنه أحد مدلولات تلك الصلات لم يكن مؤمنا حقّا، أي لم يكن مؤمنا كاملا.
ومن هذا المعنى ما ذكره القرطبي وغيره أنّ رجلا سأل الحسن البصري فقال له: يا أبا سعيد أمؤمن أنت؟ فقال: الإيمان إيمانان فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنّة والنار والبعث والحساب، فأنا به مؤمن، وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ- إلى قوله - أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً} [2-4] فوالله ما أدري أنا منهم أم لا؟
{ **حَقّاً** } الأحسن أن يكون منصوبا على الحال من ضمير { هُمُ } فيكون المصدر مؤوّلا باسم الفاعل كما هو الشأن في وقوع المصدر حالا مثل {أن تأتيهم الساعة بغتة} ، أي محققين إيمانهم بجلائل أعمالهم، وقد تقدّم مثل هذا المصدر في قوله {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً} [النساء:122].
{ **لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** } خبر ثان عن اسم الإشارة.
واللام للاستحقاق، أي درجات مستحقّة لهم، وذلك استعارة للشرف والكرامة عند الله، لأنّ **الدرجات** حقيقتها ما يتخذ من بناء أو أعواد لإمكان تخطي الصاعد إلى مكان مرتفع منقطع عن الأرض. وتستعار الدرجة لعناية العظيم ببعض من يصطفيهم، فتشبه العناية بالدرجة، تشبيه معقول بمحسوس، لأنّ الدنو من العلو عرفا يكون بالصعود إليه في الدرجات، فشبه ذلك الدنو بدرجات.
{ **عِنْدَ رَبِّهِمْ** } قرينة المجاز. دلّ على الكرامة والشرف عند الله تعالى في الدنيا بتوجيه عنايته، وفي الآخرة بالنعيم العظيم.

الرزق، اسم لما يرزق أي يعطى للانتفاع به، ووصفه بـ { **كريم** } بمعنى النفيس فهو وصف حقيقي للرزق، وفعله كرُم (بضم العين)، والكرم في كلّ شيء الصفات المحمودة في صنفه أو نوعه كما في قوله تعالى {إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ} [النمل:29].
ومنه إطلاق الكرم على السخاء والجود، والوصف منه كريم، وتصح إرادته هنا على أنّ وصف الرزق به مجاز عقلي، أي كريم رازقه، فان الكريم يرزق بوفرة وبغير حساب.

{ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ [5] يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ } [6]

الانتقال إلى تذكيرهم بالخروج إلى بدر وما ظهر فيه من دلائل عناية الله تعالى برسوله ﷺ وبالمؤمنين.
الإخراج، إمّا مراد به الأمر بالخروج للغزو، وإمّا تقدير الخروج لهم وتيسيره. والخروج مفارقة المنزل والبلد. والإخراج من البيت، هو الإخراج المعيّن الذي خرج به النبي ﷺ غازيا إلى بدر.
{ **بِالْحَقِّ** } الباء للمصاحبة، أي إخراجا مصاحبا للحقّ، والحقّ هنا الصواب، لما تقدّم آنفا من أنّ اسم الحقّ جامع لمعنى كمال كلّ شيء في محامد نوعه. والمعنى أنّ الله أمره بالخروج إلى المشركين ببدر أمرا موافقا للمصلحة.
وقد أشار هذا الكلام إلى السبب الذي خرج به المسلمون إلى بدر، وذلك أنّه كان في أوائل رمضان في السنة الثانية للهجرة أن قفلت عيرٌ لقريش، فيها أموال وتجارة لهم من بلاد الشام، راجعة إلى مكّة، وفيها أبو سفيان بن حرب في زهاء ثلاثين رجلا من قريش، فلمّا بلغ خبر هذه العير رسول الله ﷺ ندب المسلمين إليها فانتدب بعضهم وتثاقل بعض، وهم الذين كرهوا الخروج، ولم ينتظر رسول الله ﷺ من تثاقلوا ومن لم يحضر ظهره، أي راحلته، فسار وقد اجتمع من المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر خرجوا يوم ثمانية من رمضان، وكانوا يحسبون أنّهم يغيرون على العير ثم يرجعون، وبلغ أبا سفيان خبر خروج المسلمين فأرسل صارخا يستصرخ قريشا لحماية العير، فتجهّز منهم جيش، ولمّا بلغ المسلمون (**وادي ذفران**) بلغهم خروج قريش لتلقّي العير، وكانت العير يومئذ فاتتهم، واطمأن أبو سفيان لذلك فأرسل إلى أهل مكة يقول إن الله نجى عيركم فارجعوا، فقال أبو جهل لا نرجع حتّى نرد بدرا (وكان بدر موضع ماء فيه سوق للعرب في كل عام) فنقيم ثلاثا، فننحر الجزر ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان، وتتسامع العرب بنا وبمسيرنا فلا يزالوا يهابوننا ويعلموا أنّ محمدا لم يصب العير، وأنّا قد أعضضناه، فسار المشركون إلى بدر وتنبّكت عيرهم على طريق الساحل.

وأعلم، الله النبي ﷺ بذلك فأعلم المسلمين، فاستشارهم وقال: " العير أحب إليكم أم النفير" ، فقال أكثرهم العير أحبّ إلينا من لقاء العدو، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ، ثم أعاد استشارتهم فأشار أكثرهم قائلين: " عليك بالعير فإنّا خرجنا للعير"، فظهر الغضب على وجهه، فتكلم أبو بكر، وعمر، والمقداد بن الأسود، وسعد ابن عبادة، وأكثر الأنصار، ففوضوا إلى رسول الله ما يرى أن يسير إليه ﷺ، فأمرهم حينئذ أن يسيروا إلى القوم ببدر فساروا، وكان النصر العظيم الذي هزّ به الإسلام رأسه.

{ **وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ** } وذلك أنّهم خرجوا على نيّة التعرّض للعير، وأن ليس دون العير قتال، فلمّا أخبرهم عن تجمّع قريش لقتالهم تكلّم أبو بكر فأحسن، وتكلّم عمر فأحسن، ثم قام المقداد بن الأسود فقال " يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فوالذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى (**بَرْك الغِماد**)(بفتح باء برك وغين الغماد ومعجمة مكسورة موضع باليمن بعيدا جدا عن مكة) لجادلنا معك من دونه حتى تبلغه". ثم قال رسول الله ﷺ : "أشيروا علي أيها الناس "، وإنّما يريد الأنصار، وذلك أنّهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يومئذ: " إنّا براء من ذمامك حتّى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فإنّك في ذمّتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا"، فكان رسول الله يتخوّف أن يكون الأنصار لا يرون نصره إلّا ممّن دهمه بالمدينة، وأن ليس عليهم أن يسير بهم من بلادهم، فلمّا قال رسول الله ﷺ: " أشيروا عليّ "، قال له سعد بن معاذ : والله لكأنّك تريدنا يا رسول الله قال: أجل قال: فقد آمنّا بك وصدقناك وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلّف منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غدا إنّا لصُبَّرٌ في الحرب صدق في اللقاء، لعلّ الله يريك بنا ما تقرّبه عينك فسر بنا على بركة الله ". فسر رسول الله ﷺ، ثم قال: "سيروا وابشروا فإنّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين" (أي ولم يخصّ وعد النصر، بتلقي العير فقط)، فما كان بعد ذلك إلّا أن زال من نفوس المؤمنين الكارهين للقتال ما كان في قلوبهم من الكراهية.

وتأكيد خبر كراهية فريق من المؤمنين بـ (**إنّ** و**لام** الابتداء) مستعمل في التعجيب من شأنهم، إذ كان الشأن اتباع ما يحبّه الرسول ﷺ أو التفويض إليه، وما كان ينبغي لهم أن يكرهوا لقاء العدو.

{ **يُجَادِلُونَكَ** } حال من {فَرِيقاً}. وصيغة المضارع لحكاية حال المجادلة زيادة في التعجيب منها.

{ **بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ** } أي ظهر أنّ الله قدّر لهم النصر، فإنّهم كانوا عربا أذكياء، وكانوا مؤمنين أصفياء، وقد أخبرهم النبي ﷺ بأنّ الله ناصرهم على إحدى الطائفتين، طائفة العير أو طائفة النفير، فنصرهم إذن مضمون ثم أخبرهم بأن العير قد أخطاتهم، وقد بقي النفير، فكان بيّنا أنّهم إذا لقوا النفير ينصرهم الله عليه، ثم رأوا

كراهية النبي ﷺ لمّا اختاروا العير، فكان ذلك كافيا في اليقين بأنّهم إذا لقوا المشركين ينتصرون عليهم لا محالة، ولكنهم فضلوا غنيمة العير على خضد شوكة أعدائهم.

ومن هذه الآية يؤخذ حكم مؤاخذة المجتهد إذا قصّر في فهم ما هو مدلول لأهل النظر. وقد سأل أحدهم النبي ﷺ عن ضالة الغنم فأجابه: "هي لك أو لأخيك أو للذئب" ، فلمّا سأله بعد ذلك عن ضالة الإبل تمعّر وجهه وقال: " مالك ولها معها حذاؤها وسقاؤها تشرب الماء وترعى الشجر حتى يلقاها ربها".

{ **كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ** } في موضع الحال من {يُجَادِلُونَكَ} أي حالتهم في وقت مجادلتهم إيّاك تشبه حالتهم لو ساقهم سائق إلى الموت.

{ **وَهُمْ يَنْظُرُونَ** } حال من ضمير {يُسَاقُونَ}، أي وهم ينظرون الموت، لأنّ حالة الخوف من الشيء المخوف إذا كان منظورا إليه تكون أشدّ منها لو كان يعلم أنه يساق إليه ولا يراه.

{ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ [7] لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}[8]

جعل صاحب الكشاف { **إِذْ** } مفعولا لفعل (اذكر) محذوف شان (إِذْ) الواقعة في مفتتح القصص، فيكون عطف جملة الأمر المقدّر على جملة { قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ } [1] والمناسبة هي أنّ كلا القولين فيه توقيفهم على خطإ رأيهم وأنّ ما كرهوه هو الخير لهم.

والأحسن أن تكون { **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ** } معطوفا على {كَمَا أَخْرَجَكَ} [5] عطف المفرد على المفرد، فيكون المعطوف مشبها به التشبيه المفاد بالكاف. والمعنى، يعدكم الله إحدى الطائفتين كما أخرجك من بيتك.

الطائفة، الجماعة من النّاس، وتقدّم عند قوله {فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ} [النساء:102]

{**أَنَّهَا لَكُمْ**} في تأويل مصدر، هو بدل اشتمال من إحدى الطائفتين، أي كونها معطاة لكم، وهو إعطاء النصر.

و(**اللام**) للملك، وهو هنا ملك عرفي، كما يقولون كان يوم كذا لبني فلان على بني فلان، فيعرف أنّه كان لهم غلبة حرب.

{ **وَتَوَدُّونَ** } إمّا عطف على {يَعِدُكُمُ} أي إذ يقع الوعد من الله والودّ منكم، وإما في موضع الحال، أي يعدكم الله إحدى الطائفتين في حال ودّكم لقاء الطائفة غير ذات الشوكة. و**الوُدّ**، المحبة.

{ **ذَاتِ الشَّوْكَةِ** } صاحبة الشوكة، والشَّوْكَةِ أصلها الواحدة من الشوك وهو ما يخرج في بعض النبات من أعواد دقيقة تكون محددة الأطراف كالإبر، فإذا نزغت جلد الإنسان أدمته أو آلمته، وإذا علقت بثوب أمسكته.

وشاع استعارة الشوكة للبأس، يقال: فلان ذو شوكة، أي ذو بأس يُتّقى. كما يستعار القرن للبأس في قولهم:

أبدى قرنه، والناب أيضا في قولهم: كشّر عن نابه، وذلك من تشبيه المعقول بالمحسوس. أي تودّون الطائفة التي لا يُخشى بأسها تكون لكم، أي تودّون غنيمة بدون حرب.

وقد أشارت الآية إلى ما في قصة بدر التي أوردناها سابقا.

{ **وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ** } عطف على جملة {وَتَوَدُّونَ}، والمقصود من الإخبار بهذه الجمل الثلاث إظهار أنّ ما يودّونه ليس فيه كمال مصلحتهم، وأنّ الله اختار لهم الأصلح، وإن كان يشق عليهم ويرهبهم.

فهذا تلطّف من الله بهم.

{ **يُحِقَّ الْحَقَّ** }: يثبته، والمراد بالحقّ هنا، الإسلام. وقد أطلق عليه اسم الحقّ في مواضع كثيرة من القرآن كقوله {حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ} [الزخرف: 29].

وإحقاقه باستئصال معانديه. فأنتم تريدون نفعا قليلا عاجلا، وأراد الله نفعا عظيما في العاجل والأجل، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

{ **بِكَلِمَاتِهِ** } كلمات الله ما يدلّ على مراده وعلى كلامه النفسي، حقيقه من أقوال لفظيّة يخلقها خلقا غير متعارف ليفهمها أحد البشر ويبلّغها عن الله، مثل القرآن. أو مجازا من أدلة غير لفظية، مثل ما يخاطب به الملائكة.

والجمع المعرّف بالإضافة يفيد العموم، فقوله {بِكَلِمَاتِهِ} يعمّ أنواع الكلام الذي يوحي به الله الدال على إرادته تثبيت الحقّ، مثل آيات القرآن المنزّلة في قتال الكفار، وما أمر به الملائكة من نصرتهم المسلمين يوم بدر.

والباء للسببيّة، وذكر هذا القيد للتنويه بإحقاق هذا الحق وبيان أنّه ممّا أراد الله ويسّره وبينه للنّاس من الأمر، وللتنبيه على أنّ ذلك واقع لا محالة، ولمدح هذا الإحقاق بأنّه حصل بسبب كلمات الله.

{ **وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ** } قطع دابر الشيء إزالة الشيء كلّه. وتقدم في قوله {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا} [الأنعام:45]

{ **لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ** } لام التعليل، أي إنّما أراد ذلك وكوّن أسبابه بكلماته لأجل تحقيقه الحقّ وإبطاله الباطل.

وتعليل الفعل بنفس ذلك الفعل كناية عن كونه ما فعل ذلك الفعل إلا لذات الفعل، لا لغرض آخر زائد عليه.

والحصر هنا من مستتبعات التركيب، وليس من دلالة اللفظ، فافهمه فإنه دقيق وقد وقعت فيه غفلات.

ويجوز أن يكون الاختلاف بين المعلّل والعلة بالعموم والخصوص أي يريد الله أن يحق الحق في هذه الحادثة لأنه يريد إحقاق الحق عموما.

{ **وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ** } ضد قوله {لِيُحِقَّ الْحَقَّ} وهو من لوازم معنى ليحقّ الحقّ، لأنّه إذا حصل الحقّ ذهب الباطل كما قال تعالى {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} [الأنبياء: 18].

وهو بمنزلة التوكيد لقوله {لِيُحِقَّ الْحَقَّ}، لأن ثبوت الشيء قد يؤكد بنفي ضده.
{ **وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ** } شرط اتصالي. و{لَوْ} اتصاليّة تدل على المبالغة في الأحوال، وهو عطف على {يُرِيدُ اللَّهُ} أو على {لِيُحِقَّ الْحَقَّ}، أي يريد ذلك لذلك لا لغيره، ولا يصدّ مراده ما للمعاندين من قوّة.
الكراهية هنا، كناية عن لوازمها، وهي الاستعداد لمقاومة المراد من تلك الإرادة، فان المشركين، بكثرة عددهم، يريدون إحقاق الباطل، وإرادة الله تنفذ بالرغم على كراهية المجرمين. وأمّا مجرد الكراهة فليس صالحا أن يكون غاية للمبالغة في أحوال نفوذ مراد الله تعالى إحقاق الحقّ، لأنّه إحساس قاصر على صاحبه، ولكنّه إذا بعثه على مدافعة الأمر المكروه كانت أسباب المدافعة هي الغاية لنفوذ الأمر المكروه على الكاره.

{ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ } [9]

أشارت الآية إلى دعاء النبي ﷺ يوم بدر. أخرج الترمذي عن عمر بن الخطاب قال: " نظر نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين، وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يديه وجعل يهتف بربه: " اللّهم أنجز لي ما وعدتني، اللّهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض"، فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتّى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم ألتزمه من ورائه فقال: " يا نبيّ الله كفاك مناشدة ربك فإنّه سينجز لك ما وعدك ".
فأنزل الله {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [سنن الترمذي 5/ 269].
وعلى هذه الرواية يكون ضمير {تَسْتَغِيثُونَ} مرادا به النبي ﷺ وعبّر عنه بضمير الجماعة لأنّه كان يدعو لأجلهم، ولأنه كان معلنا بدعائه وهو يسمعونه، فهم بحال من يدعون.
وجاء في (السيرة) أنّ المسلمين لما نزلوا ببدر ورأوا كثرة المشركين استغاثوا الله تعالى فتكون الاستغاثة في جميع الجيش والضمير شاملا لهم.
الاستغاثة، طلب الغوث، وهو الإعانة على رفع الشدّة والمشقّة، ولمّا كانوا يومئذ في شدّة ودعوا بطلب النصر على العدو القويّ كان دعاؤهم استغاثة.
{ **فَاسْتَجَابَ لَكُمْ** } أي وعدكم بالإغاثة. وفعل استجاب يدل على قبول الطلب، والسين والتاء فيه للمبالغة، أي تحقيق المطلوب.
{ **أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ** } هو الكلام المستجاب به.
(**أنّ**) - المفتوحة الهمزة المشدّدة النون- إذا وقعت بعد ما فيه معنى القول دون حروفه، أن تكون مفيدة للتفسير مع التأكيد، كما كانت تفيد معنى المصدرية مع التأكيد.
الإمداد، إعطاء المدد وهو الزيادة من الشيء النافع. وقرأ نافع، وأبو جعفر، ويعقوب: بفتح الدال من

{مُرْدَفِينَ} أي يردفهم غيرهم من الملائكة. وقرأ البقية: بكسر الدال أي تكون الألف رادفا لغيرهم قبلهم. **الإرداف**، الاتباع والإلحاق، فيكون الوعد بألف وبغيرها على ما هو متعارف عندهم من إعداد نجدة للجيش عند الحاجة تكون لهم مددا، وذلك أنّ الله أمدهم بآلاف من الملائكة بلغوا خمسة آلاف كما تقدم في سورة آل عمران. ويجوز أن يكون المراد بألف هنا مطلق الكثرة فيفسره قوله {بِثَلاثَةِ آلافٍ} [آل عمران :124]، وهم مردفون بألفين، فتلك خمسة آلاف. وكانت عادتهم في الحرب إذا كان الجيش عظيما أن يبعثوا طائفة منه ثم يعقبوها بأخرى لأن ذلك أرهب للعدو. وحلول الملائكة في المسلمين كان بكيفية يعلمها الله تعالى.

{ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[10]

عطف على {أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ}، أي ما جعل جوابكم بهذا الكلام إلّا ليبشّركم، وإلّا فقد كان يكفيكم أن يضمن لكم النصر دون أن يبيّن أنّه بإمداد من الملائكة.

وفائدة التبشير بإمداد الملائكة أنّ يوم بدر كان في أوّل يوم لقي فيه المسلمون عدوا قويّا وجيشا عديدا، فبشّرهم الله بكيفية النصر، بأنّه بجيش من الملائكة، لأنّ النفوس أميل إلى المحسوسات.

وتقدّم القول في نظير هذه الآية في سورة آل عمران، فقط لتعرّض لما بين الآيتين من اختلاف في ترتيب النظم وذلك في ثلاثة أمور:

أحدها، أنّه قال في آل عمران [126] {إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ} وحذف {لَكُمْ} هنا دفعا لتكرير لفظه، لسبق كلمة {لَكُمْ} قريبا في قوله {فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} [9] فعلم السامع أن البشرى لهم، فأغنت {لَكُمْ} الأولى، بلفظها ومعناها، عن ذكرها مرّة ثانية. ولأنّ آية آل عمران سيقت مساق الامتنان والتذكير بنعمة النصر في حين القلّة والضعف، فكان تقييد {بُشْرَى} بأنّها لأجلهم زيادة في المنّة، أي جعل الله ذلك بشرى لأجلكم كقوله تعالى {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: 1]. وأمّا آية الأنفال فهي مسوقة مساق العتاب على كراهيّة الخروج إلى بدر في أوّل الأمر، فجرّد {بُشْرَى} عن أن يعلق به {لَكُمْ} إذ كانت البشرى للنبي ﷺ ومن لم يترددوا من المسلمين، وقد تقدم ذلك في آل عمران.

ثانيها، تقديم المجرور هنا في قوله {بِهِ قُلُوبُكُمْ} وهو يفيد الاختصاص، فيكون المعنى، ولتطمئن به قلوبكم لا بغيره، وفي هذا الاختصاص تعريض بما اعتراهم من الوجل من الطائفة ذات الشوكة وقناعتهم بغنم العروض التي كانت مع العير، فعرّض لهم، بأنّهم لم يتفهّموا مراد الرسول ﷺ، حين استشارهم، وكان الشأن أن يظنّوا بوعد الله أكمل الأحوال، فلمّا أراد الله تسكين روعهم، وعدهم بنصرة الملائكة علما بأنّه لا يطمئن قلوبهم إلا ذلك.

ثالثها، أنه قال في سورة آل عمران [126] {الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} فصاغ الصفتين العَلِيَّتَيْنِ في صيغة النعت، وجعلهما في هذه الآية في صيغة الخبر المؤكد، إذ قال {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} فنزل المخاطبين منزلة من يتردّد في أنّه تعالى موصوف بهاتين الصفتين: وهما العزّة، المقتضية أنه إذا وعد بالنصر لم يعجزه شيء، والحكمة. فما يصدر من جانبه يجب غوص الأفهام في تبيّن مقتضاءه. فكيف لا يهتدون إلى أنّ الله لما وعدهم الظفر بإحدى الطائفتين وقد فاتتهم العير أنّ ذلك آيل إلى الوعد بالظفر بالنفير.

{ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ }[11]

لقد أبدع نظم الآيات في التنقّل من قصّة إلى أخرى، من دلائل عناية الله تعالى برسوله ﷺ وبالمؤمنين، فقرنها، في قرن زمانها، وجعل ينتقل من إحداها إلى الأخرى بواسطة (**إذ**) الزمانية، وهذا من أبدع التخلّص، وهو من مبتكرات القرآن فيما أحسب.

ولذلك فالوجه أن يكون هذا الظرف مفعولا فيه لقوله {وَمَا النَّصْرُ} [10]، فإنّ إغشاءهم النعاس كان من أسباب النصر، فلا جرم أن يكون وقت حصوله ظرفا للنصر.

الغَشْيُ والغشيان كون الشيء غاشيا أي غاما ومغطيا، فالنوم يغطي العقل.

النعاس، النوم غير الثقيل، وهو مثل السِنَةُ.

فإسناد الإغشاء أو التغشية إلى الله لأنّه الذي قدّر أن يناموا في وقت لا ينام في مثله الخائف، ولا يكون عاما سائر الجيش، فهو نوم منحهم الله إيّاه لفائدتهم. وصيغة المضارع لاستحضار الحالة.

الأمنة، الأمن، وتقدّم في آل عمران. وإنّما كان النعاس أمنا لهم لأنّهم لمّا ناموا زال أثر الخوف من نفوسهم في مدّة النوم فتلك نعمة، ولمّا استيقظوا وجدوا نشاطا، ونشاط الأعصاب يكسب صاحبه شجاعة ويزيل شعور الخوف الذي هو فتور الأعصاب.

{ أَمَنَةً مِنْهُ } كان كرامة لهم، وقد حصل ذلك للمسلمين يوم بدر كما هو صريح هذه الآية وحصل النعاس يوم أحد لطائفة من الجيش، قال تعالى { ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ } [آل عمران: 154]. وفي صحيح البخاري عن أبي طلحة قال: " كنت فيمن تغشّاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مرارا".

{ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ } منّة أخرى جاءت في وقت الحاجة، وهي أنّه أنزل عليهم المطر يوم بدر. فإسناد هذا الإنزال إلى الله تعالى للتنبيه على أنّه أكرمهم به. ولعلّه كان في غير الوقت المعتاد فيه نزول الأمطار في أفقهم، قال أهل السير: كان المسلمون حين اقتربوا

من بدر راموا أن يسبقوا جيش المشركين إلى ماء بدر، وكان طريقهم دهساء، أي رملا ليّنا، تسوخ فيه الأرجل فشق عليهم إسراع السير إلى الماء، وكانت أرض طريق المشركين ملبّدة، فلما أنزل الله المطر تلبدت الأرض فصار السير أمكن لهم، واستوحلت الأرض للمشركين فصار السير فيها متعبا، فأمكن للمسلمين السبق إلى الماء من بدر ونزلوا عليه وادخروا ماء كثيرا من ماء المطر، وتطّهروا وشربوا، فذلك قوله تعالى { لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ }

الرجز، القذر، والمراد الوسخ الحسي وهو النجس، والمعنوي المعبر عنه في كتب الفقه بالحدث، والمراد الجنابة، لأن غالب الجيش لما ناموا احتلموا فأصبحوا على جنابة.

{ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ } أي يؤمّنكم بكونكم واثقين بوجود الماء، لا تخافون عطشا.

الربط، حقيقته شدّ الوثاق على الشيء وهو مجاز في التّثبيت وإزالة الاضطراب، ومنه قولهم فلان رابط الجأش وله رباطة جأش. و**{عَلَى}** مستعارة لتمكّن الربط، فهي ترشيح للمجاز.

تثبيت الأقدام، هو التمكّن من السير في الرمل، بأن لا تسوخ في ذلك الدهس الأرجل، لأنّ هذا المعنى هو المناسب حصوله بالمطر.

{ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ [12] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [13]

وجعل الخطاب هنا للنبيّ ﷺ تلطفا به، إذ كانت هذه الآية في تفصيل عمل الملائكة يوم بدر وما خاطبهم الله به، فكان توجيه الخطاب بذلك إلى النبيّ ﷺ أولى، لأنّه أحقّ من يعلم مثل هذا العلم، ولأنّ النبيّ ﷺ كان أوّل من استغاث الله. ولذلك عرّف الله هنا باسم الربّ وإضافته إلى ضمير النبيّ ﷺ ليوافق أسلوب {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ} [9] و فيه التنويه بقدر نبيّه ﷺ.

الوحي إلى الملائكة المرسلين، إمّا بطريق إلقاء هذا الأمر في نفوسهم بتكوين خاص، وإمّا بإبلاغهم ذلك بواسطة.

{ **أَنِّي مَعَكُمْ** } قيل هو في تأويل مصدر وذلك المصدر مفعول يوحي، أي يوحي إليهم ثبوت معيّته لهم. وقيل على تقدير باء الجر.

{ **مَعَكُمْ** } المعيّة حقيقتها هنا مستحيلة فتحمل على اللائقة بالله تعالى، أعني المعية المجازية، فقد يكون معناها توجيه عنايته إليهم وتيسير العمل لهم، وقد تكرّر إطلاق (مع) بمثل هذا في القرآن كقوله {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} [الحديد: 4]

وإيحاء الله إلى الملائكة بهذا مقصود منه تشريفهم وتشريف العمل الذي سيكلّفون به، لأنّ المعيّة تؤذن إجمالا بوجود شيء يستدعي المصاحبة، أي أنّي معكم في عملكم الذي أكلّفكم به.

{ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا } التثبيت هنا مجاز في إزالة الاضطراب النفساني مما ينشأ عن الخوف ومن عدم استقرار الرأي واطمئنانه. وعرّف المثبَّتون بالموصول{ الَّذِينَ آمَنُوا } لما تومئ إليه صلة {آمَنُوا} من كون إيمانهم هو الباعث على هذه العناية، فتكون الملائكة بعناية المؤمنين لأجل وصف الإيمان.

{ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ } مستأنفة استئنافا ابتدائيا إخبارا لهم بما يقتضي التخفيف عليهم في العمل الذي كلفهم الله به، بأنّ الله كفاهم تخذيل الكافرين، فليست جملة {سَأُلْقِي} مفسرة لمعنى {أَنِّي مَعَكُمْ }. لأن أولئك الملائكة المخاطبين كانوا ملائكة نصر.

وأسند إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا إلى الله على طريقة الإجمال دون بيان لكيفية إلقائه، وكل ما يقع في العالم هو من تقدير الله على حسب إرادته.

{ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } أعناق المشركين وهو بيّن من السياق.

البنان، اسم جمع بَنَانَة وهي الإصبع وقيل طرف الإصبع، وإضافة (**كلّ**) لاستغراق أصحابها.

وإنّما خصّت الأعناق والبنان لأنّ ضرب الأعناق إتلاف لأجساد المشركين، وضرب البنان يبطل صلاحية المضروب للقتال، لأنّ تناول السلاح إنما يكون بالأصابع.

وضرب الملائكة يجوز أن يكون مباشرة بقطع الأعناق والأصابع بواسطة فعل الملائكة على كيفية خارقة للعادة، وقد ورد في بعض الآثار عن بعض الصحابة ما يشهد لهذا المعنى، فإسناد الضرب حقيقة. ويجوز أن يكون بتسديد ضربات المسلمين وتوجيه المشركين إلى جهاتها فإسناد الضرب إلى الملائكة مجاز عقلي لأنّهم سببه.

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ } تعليل، والمخاطب بهذه الجملة، إمّا الملائكة، فتكون من جملة الموحى به إليهم إطلاعا لهم على حكمة فعل الله تعالى، لزيادة تقريبهم. وإمّا من تبلغهم الآية من المشركين الأحياء بعد يوم بدر، ولذا فالجملة معترضة للتحذير من الاستمرار على مشاقة الله ورسوله.

ويجوز أن يكون المخاطب به النبي ﷺ.

المشاقة، العداوة بعصيان وعناد، مشتقّة من الشِقّ (بكسر الشين) وهو الجانب، هو اسم بمعنى المشقوق أي المفرّق. ولما كان المخالف والمعادي يكون متباعدا عن عدوه فقد جعل كأنّه في شق آخر، أي ناحية أخرى.

والتصريح بسبب الانتقام تعريض للمؤمنين ليستزيدوا من طاعة الله ورسوله.

{ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } تذييل يعمّ كل من يشاقق الله ويعم أصناف العقائد.

{ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ }[14]

الخطاب للمشركين الذين قتلوا، أي يقال لهم هذا الكلام حيث تضرب أعناقهم وبنانهم بأن يلقى في نفوسهم حينما يصابون أنّ أصابتهم كانت لمشاقتهم الله ورسوله. ولعلّهم كانوا يرون إصابات تصيبهم من غير مرئي.

واسم الإشارة راجع إلى الضرب المأخوذ من قوله {فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [12] وهو مبتدأ وخبره محذوف، فإما أن يقدّر ذلك هو العقاب الموعود. وإمّا أن يكون ممّا دلّ عليه قوله { بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، فالتقدير ذلك بأنّكم شاققتم الله ورسوله. وصيغة الأمر مستعملة في الشماتة والإهانة.

{ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ }عطف على الخبر المحذوف أي ذلكم العذاب وأن عذاب النار لجميع الكافرين.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ [15] **وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}**[16]

لما ذكّر الله المسلمين بما أيّدهم يوم بدر بالملائكة والنصر من عنده، وأكرمهم بأن نصرهم على المشركين الذين كانوا أشدّ منهم وأكثر عَددا وعُددا، وأعقبه بأن أعلمهم أنّ ذلك شأنه مع الكافرين به، اعترض في خلال ذلك بتحذيرهم من الوهن والفرار. وفي هذا تدريب للمسلمين على الشجاعة والإقدام والثبات عند اللقاء.

اللقاء، غلب استعماله في كلامهم على مناجزة العدو في الحرب. وأصل اللقاء أنّه الحضور لدى الغير.

الزحف، أصله مصدر زَحَفَ، إذا انبعث من مكانه متنقلا على مقعدته يجرّ رجليه كما يزحف الصبي.

ثم أطلق على مشي المقاتل إلى عدّوه في ساحة القتال، لأنّه يدنو إلى العدو باحتراس وترصّد فرصة، فكأنّه يزحف إليه. ويطلق الزحف على الجيش الدَهْم، أي كثير العددِ.

وقد اختلفت طرق المفسرين في تفسير المراد من لفظ {زَحْفاً} في هذه الآية، فمنهم من فسّره بالمعنى المصدري أي المشي في الحرب، وجعله وصفا لتلاحم الجيشين عند القتا، لأنّ المقاتلين يدبّون إلى أقرانهم دبيبا. ومنهم من فسّره بمعنى الجيش الدهم، الكثير العدد، وجعله وصفا لذات الجيش.

فعلى التفسير الأوّل هو نهي عن الانصراف من القتال فرارا إذا التحم الجيشان.

وعلى التفسير الثاني كان نهيا عن الفرار إذا كان المسلمون جيشا كثيرا، ومفهومه أنّهم إذا كانوا قلّة فلا نهي.

وهذه الآية عند جمهور أهل العلم نزلت بعد انقضاء وقعة بدر، وهو القول الذي لا ينبغي التردّد في صحّته.

فإن هذه السورة نزلت بسبب الاختلاف في أنفال الجيش من أهل بدر عند قسمة مغانم بدر، وما هذه الآية إلا جزء من هذه السورة فحكم هذه الآية شرع شرعه الله على المسلمين بسبب تلك الغزوة لتوقّع حدوث غزوات يكون جيش المسلمين فيها قليلا، كما كان يوم بدر، فنهاهم الله عن التقهقر إذا لاقوا العدو.

وحكم هذه الآية باق غير منسوخ عند جمهور أهل العلم، وروي هذا عن ابن عباس، وبه قال ملك والشافعي وجمهور أهل العلم.

وروي عن أبي سعيد الخدري، وعطاء، والحسن، ونافع، وقتادة، والضحاك: أن هذه الآية نزلت قبل وقعة بدر. والصحيح هو الأوّل كما يقتضيه سياق انتظام آي السورة ولو صح قول أصحاب الرأي الثاني للزم أن تكون هذه الآية قد نزلت قبل الشروع في القتال يوم بدر ثم نزلت سورة الأنفال فألحقت الآية بها، وهذا ما لم يقله أحد من أصحاب الأثر.

ولم يستقر من عمل جيوش المسلمين، في غزواتهم مع رسول الله ﷺ، ومع الأمراء الصالحين في زمن الخلفاء الراشدين، ما ينضبط به مدى الإذن أو المنع من الفرار. وقد انكشف المسلمون يوم أحد فعنفهم الله تعالى بقوله {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ} [آل عمران: 155] وما عفا عنهم إلّا بعد أن استحقّوا الاثم. ولمّا انكشفوا عند لقاء هوازن يوم حنين عنفهم الله بقوله {ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ - إلى قوله - ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [براءة:25-27] وذكر التوبة يقتضي سبق الإثم.

{ فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ } لا توجهوا إليهم أدباركم.

الأدبار، جمع دُبُر وهو ضد قُبل الشيء أب وجهه. ومنه يقال استقبل واستدبر وأقبل وأدبر. وهو كناية عن الفرار من العدو بقرينة ذكره في سياق لقاء العدو.

{ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ } أي يولهم دبره حين الزحف.

{ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ } استثني منه حالة التحرّف لأجل الحيلة الحربيّة أوالانحياز إلى فئة من الجيش، للاستنجاد بها أو لإنجادها.

التحرّف، الانصراف إلى الحَرْف، وهو المكان البعيد عن وسطه، فالتحرّف مزايلة المكان المستقر فيه والعدول إلى أحد جوانبه، وهو يستدعي تولية الظهر لذلك المكان بمعنى الفرار منه.

واللام للتعليل أي مجانبة لأجل القتال. فالمراد بهذا التحرّف ما يعبّر عنه بالفرّ لأجلّ الكرّ.

الفئة، الجماعة من النّاس، وقد تقدّم في قوله { كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ } [البقرة:249].

وتطلق على مؤخّرة الجيش، لأنّها يفيء إليها من يحتاج إلى إصلاح أمره أو من عرض له ما يمنعه من القتال من مرض أو جراحة، أو يستنجد بهم، فهو تولّ لمقصد القتال. وليس المراد أن ينحاز إلى جماعة مستريحين لأنّ ذلك من الفرار.

ويدخل في معنى التحيّز إلى الفئة الرجوع إلى مقر أمير الجيش للاستنجاد بفئة أخرى، وكذلك القفول إلى مقر أمير المصر الذي وجّه الجيش للاستمداد بجيش آخر إذا رأى أمير الجيش ذلك من المصلحة كما فعل

المسلمون في فتح إفريقية وغيره في زمن الخلفاء. فلما انهزم أبو عبيد بن مسعود الثقفي يوم الجسر بالقادسية، وقتل هو ومن معه من المسلمين، قال عمر بن الخطاب: " هلا تحيز إلي فأنا فئته ".

{ **فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } باء رجع. والمعنى أن الله غضب عليه في رجوعه ذلك، فهو قد رجع ملابسا لغضب الله تعالى عليه. ومناسبة {باء} هنا أنّه يشير إلى أنّ سبب الغضب عليه هو ذلك البوء الذي باءه. وهذا غضب الله عليه في الدنيا. ثمّ يترتب عليه المصير إلى عذاب جهنّم.

فالآية دالة على تحريم التولي عن مقابلة العدو حين الزحف.

والذي أرى في فقه هذه الآية أن ظاهرها تحريم التولّي على آحادهم وجماعتهم إذا التقوا مع أعدائهم في ملاحم القتال والمجالدة. وعلى هذا، فللمسلمين النظر قبل اللقاء هل هم بحيث يستطيعون الثبات وجهه أو لا، فان وقت المجالدة يضيق عن التدبير. فقد ثبت في الصحيح أنّ النبي ﷺ يوم الأحزاب قام في النّاس فقال: " يا أيها النّاس لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أنّ الجنّة تحت ظلال السيوف ".

ولعلّ حكمة ذلك أن يمضي المسلمون في نصر الدين. وعلى هذا الوجه يكون لأمير الجيش، إذا رأى المصلحة في الانجلاء عن دار العدو وترك قتالهم، أن يغادر دار الحرب ويرجع إلى مقرّه، إذا أمن أن يلحق به العدو، وكان له من القوّة ما يستطيع به دفاعهم إذا لحقوا به، فذلك لا يسمى تولية أدبار، بل هو رأي ومصلحة، وهذا عندي هو محمل ما روى أبو داود والترمذي، عن عبد الله بن عمر: أنّه كان في سريّة بعثها النبي ﷺ، قال: " فحاص النّاس حيصة فكنت فيمن حاص، فلما برزنا قلنا كيف نصنع إذا دخلنا المدينة وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب، ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كان لنا توبة أقمنا وإن كان غير ذلك ذهبنا قال " فجلسنا لرسول الله قبل صلاة الفجر فلمّا خرج قمنا إليه فقلنا نحن الفرّارون، فاقبل إلينا فقال لا بل انتم العكّارون وأنا فئة المسلمين ". يتأول لهم أنّ فرارهم من قبيل قوله تعالى {أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ} قال ابن عمر: " فدنونا فقبّلنا يده". فيفهم منه أن فرار ابن عمر وأصحابه لم يكن في وقت مجالدتهم المشركين، ولكنه كان انسلالا لينحازوا إلى المدينة، فتلك فئتهم.

[**العكّارون**، أي الذين يكرّون، يقال للرجل إذا ولّى عن الحرب ثم كرّ راجعا إليها عكّر أو اعتكر].

وإنما حرم الله الفرار في وقت مناجزة المشركين ومجالدتهم، وهو وقت اللقاء، لأنّ الفرار حينئذ يوقع في الهزيمة الشنيعة والتقتيل، وذلك أنّ الله أوجب على المسلمين قتال المشركين فإذا أقدم المسلمون على القتال لم يكن نصرهم إلّا بصبرهم وتأييد الله إياهم، فلو انكشفوا بالفرار لأعمل المشركون الرماح في ظهورهم فاستأصلوهم، فلذلك أمرهم الله ورسوله بالصبر والثبات، فيكون ما في هذه الآية هو حكم الصبر عند اللقاء.

{ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [17]

{ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ }

الأظهر أنّ الفاء فصيحة ناشئة عن جملة {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ} [12] تفصح عن مقدّر قبلها شرط أو غيره، والأكثر أن يكون شرطا فتكون رابطة لجوابه. والتقدير هنا، إذا علمتم أنّ الله أوحى إلى الملائكة بضرب أعناق المشركين وقطع أيديهم، فلم تقتلوهم انتم ولكن الله قتلهم، أي فقد تبيّن أنّكم لم تقتلوهم أنتم.

ويجوز أن تكون الفاء عاطفة على {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ} [15] أي ينفرع على النهي عن أن تولّوا المشركين الأدبار تنبيهكم إلى أنّ الله هو الذي دفع المشركين عنكم وأنتم أقل منهم عددا وعدّة. وهو تعريض بضمان تأييد الله إياهم. فإنّهم إذا امتثلوا ما أمرهم الله كان الله ناصرهم، وذلك يؤكد الوعيد على تولية الأدبار لأنّه يقطع عذر المتولّين والفارين.

{ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى }

استطراد بذكر تأييد إلاهي آخر لم يذكر في الكلام السابق، وهو إشارة إلى ما ذكره المفسرون وابن إسحاق: " أن رسول الله ﷺ بعد أن حرّض المؤمنين على القتال يوم بدر أتاه جبريل فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها. فاخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها المشركين ثم قال: " شاهت الوجوه " ثم نفحهم بها ثم أمر أصحابه فقال: شدّوا فكانت الهزيمة على المشركين" . فلكون الرمي قصة مشهورة بينهم حذف مفعول الرمي في المواضع الثلاثة، وهذا أصح الروايات. وفيه روايات أخرى لا تناسب مهيع السورة.

فالخطاب في قوله {رَمَيْتَ} للنبي ﷺ، والرمي حقيقته إلقاء شيء أمسكته اليد، ويطلق الرمي على الإصابة بسوء من فعل أو قول.

وليس المراد نفي وقوع الرمي لأنّ الرمي واقع من يد النبيّ ﷺ، ولكنّ المراد نفي تأثيره، فإنّ المقصود من ذلك الرمي إصابة عيون أهل جيش المشركين، وما كان ذلك بالذي يحصل برمي اليد، لأنّ اثر رمي البشر لا يبلغ أثره مبلغ تلك الرمية، فلمّا ظهر من أثرها ما عمّ الجيش كلّهم، علم انتفاء أن تكون تلك الرمية مدفوعة بيد مخلوق ولكنّها مدفوعة بقدرة الخالق الخارجة عن الحدّ المتعارف، وأنّ المراد بإثبات الرمي في قوله {وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} كالقول في {وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ }.

{ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }

فإن قتلهم المشركين وإصابة أعينهم كانا الغرض هزم المشركين فهو العلة الأصلية، وله علّة أخرى وهي أن يبلي الله المؤمنين بلاء حسنا، أي يعطيهم عطاء حسنا يشكرونه عليه، فيظهر ما يدلّ عن قيامهم بشكره ممّا

تُختبر به طوّيتهم لمن لا يعرفها، وهذا العطاء هو النصر والغنيمة في الدنيا والجنّة في الآخرة.

{ **وَلِيُبْلِيَ** } أصل مادة هذا الفعل هي البلاء وجاء منه الإبلاء بالهمز، وتصريف هذا الفعل أغفله الراغب في (المفردات) ومن رأيت من المفسرين، وهو مضارع أبْلاه إذا أحسن إليه، مشتقّ من البلاء والبلوى الذي أصله الاختبار، ثم أطلق على إصابة أحد أحدا بشيء يظهر به مقدار تأثّره. والغالب أنّ الإصابة بشرّ، ثم تُوسّع فيه فأطلق على ما يشمل الإصابة بخير قال تعالى {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [الأنبياء: 35] وهو إطلاق كنائي. وشاع ذلك الإطلاق الكنائي حتّى صار بمنزلة المعنى الصريح.

{ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } تذييل للكلام، و(إنّ) مقيّدة للتعليل والربط، أي فعل ذلك لأنّه سميع عليم، فقد سمع دعاء المؤمنين واستغاثتهم.

{ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ } [18]

{ **ذَلِكُمْ** } الإشارة إلى البلاء الحسن وهذه الإشارة لمجرّد تأكيد المقصود من البلاء الحسن، وأن ذلك البلاء علّة للتوهين.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ** } بفتح همزة (أنّ)، فما بعدها في تأويل مصدر، مجرور بلام التعليل محذوفة، والتقدير ولتوهين كيد الكافرين.

{ **كَيْدِ الْكَافِرِينَ** } هو قصدهم الإضرار بالمسلمين في صورة ليست ظاهرها بمضرّة، وذلك أنّ جيش المشركين الذين جاءوا لإنقاذ العير لمّا علموا بنجاة غيرهم، وظنّوا خيبة المسلمين الذين خرجوا في طلبها، أبوا أن يرجعوا إلى مكّة، وأقاموا على بدر لينحروا ويشربوا الخمر ويضربوا الدفوف فرحا وافتخارا بنجاة عيرهم، وليس ذلك لمجرّد اللهو، ولكن ليتسامع العرب فيتساءلوا عن سبب ذلك فيخبروا بأنّهم غلبوا المسلمين، فيصرفهم ذلك عن اتباع الإسلام، فأراد الله توهينهم بهزمهم تلك الهزيمة الشنعاء، فهو موهن كيدهم في الحال. وتقدّم تفسير الكيد عند قوله تعالى {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [الأعراف:183]

{ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ }[19]

جمهور المفسّرين جعلوا الخطاب موجها إلى المشركين، فيكون الكلام اعتراضا خُوطب به المشركون في خلال خطبات المسلمين بمناسبة قوله {ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} [18] والخطاب التفات من طريق الغيبة. وذكر المفسّرون في سبب نزولها، أنّ أبا جهل وأصحابه لمّا أزمعوا الخروج إلى بدر استنصروا الله

تجاه الكعبة، وأنّهم قبل أن يشرعوا في القتال يوم بدر استنصروا الله أيضا وقالوا : ربنا افتح بيننا وبين محمد وأصحابه. فخوطبوا بأن قد جاءهم الفتح، على سبيل التهكّم، أي الفتح الذي هو نصر المسلمين عليهم.

وحمل ابن عطية فعل {جَاءَكُمُ} على معنى فقد تبيّن لكم النصر ورأيتموه أنّه عليكم لا لكم، وعلى هذا يكون المجيء بمعنى الظهور، ولا يكون في الكلام تهكّم.

{ **وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** } أي تنتهوا عن كفركم بعد ظهور الحقّ في جانب المسلمين.

{ **وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ** } أي إن تعودوا إلى العناد والقتال نعد، أي نعد إلى هزمكم كما فعلنا بكم يوم بدر.

{ **وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ** } أيْأسهم من الانتصار في المستقبل كلّه، أي لا تنفعكم جماعتكم على كثرتها كما لم تغن عنكم يوم بدر. فإنّ المشركين كانوا يومئذ واثقين بالنصر على المسلمين لكثرة عَددهم وعُددهم.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ** } زيادة في تأييس المشركين من النصر، وتنويه بفضل المؤمنين بأنّ النصر الذي انتصروه هو من الله لا بأسبابهم.

ومن المفسرين من جعل الخطاب بهذه الآية للمسلمين، ونُسب إلى أبي بن كعب وعطاء، لكون خطاب المشركين بعد الهجرة قد صار نادرا لأنّهم أصبحوا بعداء عن سماع القرآن.

الفتح، حقيقته إزالة شيء مجعول حاجزا دون شيء آخر، حفظا له من الضياع أو الافتكاك والسرقة. ويستعار لإعطاء الشيء العزيز النوال استعارة مفردة أو تمثيلية. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام: 44].

فالاستفتاح هنا طلب الفتح أي النصر. وكثر إطلاق الفتح على حلول قوم بأرض أو بلد غيرهم في حرب أو غارة، وعلى النصر، وعلى الحكم، وعلى معان أخر، على وجه المجاز أو الكناية.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ [20] وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ [21] إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ [22] وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ } [23]

لما أراهم آيات لطفه وعنايته بهم، ورأوا فوائد امتثال أمر الرّسول ﷺ بالخروج إلى بدر، أعقب ذلك بأن أمرهم بطاعة الله ورسوله شكرا على نعمة النصر، واعتبارا بأنّ ما يأمرهم به خير عواقبه، وحذّرهم من مخالفة أمر الله ورسوله ﷺ.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } افتتاح الخطاب بالنداء للاهتمام بما سيلقى إلى المخاطبين قصدا لإحضار الذهن لوعي ما سيقال لهم. فنزل الحاضر منزلة البعيد، فطلب حضوره بحرف النداء الموضوع لطلب الإقبال.

والتعريف بالموصوليّة للتنبيه على أنّ الموصوفين بهذه الصلة من شأنهم أن يتقبّلوا ما سيؤمرون به، وأنّه كما كان الشرك مسببا لمشاقة لله ورسوله، فخليق بالإيمان أن يكون باعثا على طاعة الله روسوله.

الطاعة، امتثال الأمر والنهي.

التولّي، الانصراف، وهو مستعار هنا للمخالفة والعصيان.

{ **وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ** } في موضع الحال، والمقصود من هذه الحال تشويه التولّي المنهي عنه. فالمراد بالسمع هنا حقيقته، وذلك لأنّ فائده السمع العمل بالمسموع، فمن سمع الحقّ ولم يعلم به فهو والذي لا يسمع سواء في عدم الانتفاع بذلك المسموع.

{ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ** } عن ابن عباس أنّ المراد بهم نفر من قريش، وهم بنو عبد الدار بن قصي، كانوا يقولون: نحن صمّ بكم عمّا جاء به محمد، فلم يسلم منهم إلّا رجلان؛ مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة، وبقيّتهم قتلوا جميعا في أحد، وكانوا أصحاب اللواء في الجاهلية. ولكن هؤلاء لم يقولوا سمعنا بل قالوا نحن صمّ بكم، فلا يصح أن يكونوا هم المراد بهذه الآية.

وقيل المراد بهم اليهود، وقد عُرفوا بهذه المقالة، واجهوا بها النبي ﷺ كما نقله القرآن الكريم { وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا} [النساء: 46]. وقيل أريد المنافقون.

{ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ** } معترضة، وسوقها في هذا الموضع تعريض بالذين {قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ} شبّهوا بدواب صماء بكماء.

{ **شَرّ** } اسم تفضيل، وأصله (أشرّ) فحذفت همزته تخفيفا.

الدواب، معناه الحقيقي.

فالإنسان الذي لم ينتفع بمواهبه السامية يصير أحط من العجماوات.

شبّهوا بالصم في عدم الانتفاع بما سمعوا، وشبّهوا بالبكم في انقطاع الحجّة والعجز عن رد ما جاءهم به القرآن، فهم ما قبلوه ولا اظهروا عذرا عن عدم قبوله.

ولما وصفهم بانتهاء قبول المعقولات والعجز عن النطق بالحجّة اتبعه بانتفاء العقل عنهم، اي عقل النظر والتأمّل بله عقل التقبّل. وقد وُصف بهذه الأوصاف في القرآن كلّ من المشركين والمنافقين في مواضع كثيرة.

{ **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ** } لو كان في نفوسهم خير. والمعنى أنّ جبلّتهم لا تقبل دعوة الخير والهداية والكمال، فلذلك انتفى عنهم الانتفاع بما يسمعون من الحكمة والموعظة والإرشاد، فكانوا كالصمّ، وانتفى عنهم أن تصدر منهم الدعوة إلى الخير والكلام بما يفيد كما لا نفسانيا فكانوا كالبكم.

وهي كناية عن عدم استعداد مداركهم للخير، بعلم الله عدم الخير فيهم، ووقع تشبيه عدم انتفاعهم بفهم آيات القرآن بعدم إسماع الله إيّاهم، لأنّ الآيات كلام الله فإذا لم يقبلوها فكأن الله لم يسمعهم كلامه، فالمراد انتفاء الخير الجبلّي عنهم، وهو القابلية للخير. ومعلوم أن انتفاء علم الله بشيء يساوي علمه بعدمه.

{ **وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ** } أي أنّهم لو قبلوا فهم الموعظة والحكمة فيما يسمعونه من القرآن وكلام النبوّة لغلب ما في نفوسهم من التخلّق بالباطل على ما خالطها من إدراك الخير، فحال ذلك التخلّق بينهم وبين العمل بما علموا، فتولوا وأعرضوا.

واعلم أن ليس عطف جملة {وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا} على جملة {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأسْمَعَهُمْ} بمقصود منه تفرّع الثانية على الأولى تفرع القضايا بعضها على بعض في تركيب القياس، لأنّ ذلك لا يجيء في القياس الاستثنائي، ولا أنّه من تفريع النتيجة على المقدّمات لأنّ تفريع الاقيسة بتلك الطريقة التي تشبه التفريع بالفاء ليس أسلوبا عربيا.

فالجملتان في هذه الآية كل واحدة منهما مستقلة عن الأخرى، ولا تجمع بينهما إلّا مناسبة المعنى والغرض.

وذلك أنّ (لو) الواقعة في هذه الجملة الثانية من قبيل (لو) المشتهرة بين النحاة بـ (لو الصهيبيّة) بسبب وقوع التمثيل بها بينهم بقول عمر بن الخطاب: " نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه" وذلك أن تستعمل (لو) لقصد الدلالة على أن مضمون الجزاء مستمر الوجود في جميع الأزمنة والأحوال عند المتكلم.

{ **وَهُمْ مُعْرِضُونَ** } حال من ضمير تولّوا، وهي مبيّنة للمراد من التولّي، وهو معناه المجازي، وصوغ هذه الجملة بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على تمكن إعراضهم.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }[24]

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ }

فافتتاح السورة كان بالأمر بالطاعة والتقوى، ثم بيان أنّ حق المؤمنين الكمّل أن يخافوا الله ويطيعوه ويمتثلوا أمره وإن كانوا كارهين، وضرب لهم مثلا بكراهتهم الخروج إلى بدر، ثم بكراهتهم لقاء النفير، وأوقفهم على ما اجتنوه من بركات الامتثال، وكيف أيّدهم الله بنصره ونصب لهم عليه أمارة الوعد بإمداد الملائكة لتطمئن قلوبهم بالنصر وما لطف بهم من الأحوال، وجعل ذلك كلّه إقناعا لهم بوجوب الثبات في وجه المشركين عند الزحف، ثم عادا إلى الأمر بالطاعة وحذرهم من أحوال الذين يقولون سمعنا وهم لا يسمعون، وأعقب ذلك بالأمر بالاستجابة للرّسول إذا دعاهم إلى شيء، فإنّ في دعوته إيّاهم إحياء لنفوسهم، وأعلمهم أنّ الله يُكسب قلوبهم بتلك الاستجابة قوى قدسيّة.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } واختير في تعريفهم، عند النداء، وصف الإيمان ليومىء إلى التعليل كما تقدّم في الآيات من قبل، أي أنّ الإيمان هو الذي يقتضي أن يثقوا بعناية الله بهم فيمتثلوا أمره إذا دعاهم.

الاستجابة، الإجابة، والسين والتاء فيها للتأكيد، وقد غلب استعمال الاستجابة في إجابة طلب معين أو في الأعم. وتقدّم ذلك عند قوله تعالى {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ} [آل عمران:195]

{ وَلِلرَّسُولِ } للإشارة إلى استقلال المجرور بالتعلّق بفعل الاستجابة، تنبيها على أنّ استجابة الرّسول صلى الله عليه وسلم أعمّ من استجابة الله، لأنّ الاستجابة لله لا تكون إلّا بمعنى المجاز، وهو الطاعة، بخلاف الاستجابة للرسول عليه الصلاة والسلام فإنّها بالمعنى الأعم الشامل للحقيقة وهو استجابة ندائه، وللمجاز وهو الطاعة. فأريد أمرهم بالاستجابة للرّسول بالمعنيين.

{ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ } ليس قيدا للأمر بالاستجابة ولكنّه تنبيه على أنّ دعاءه إيّاهم لا يكون إلّا إلى ما فيه خير لهم وإحياء لأنفسهم، أي لأجل ما هو سبب حياتكم الروحيّة.

الإحياء، تكوين الحياة في الجسد، والحياة قوة بها يكون الإدراك والتحرك بالاختيار، ويستعار الإحياء تبعا للصفة أو القوّة التي بها كمال موصوفها، مثل حياة الأرض بالإنبات وحياة العقل بالعلم وسداد الرأي.

وضدّها الموت في المعاني الحقيقية والمجازية.

والإحياء هنا مستعار لإعطاء الإنسان ما به كماله، فيعمّ كلّ ما به ذلك الكمال من إنارة العقول بالاعتقاد الصحيح والخلق الكريم، والدلالة على الأعمال الصالحة، وما يتقوّم به ذلك من الخلال الشريفة العظيمة، فالشجاعة حياة للنفس، والاستقلال حياة، والحرّيّة حياة، واستقامة أحوال العيش حياة.

{ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }

مقتضى ارتباط نظم الكلام يوجب أن يكون مضمون هذه الجملة مرتبطا بمضمون الجملة التي قبلها فيكون عطفها عليها عطف التكملة، والجملتان مجعولتان آية واحدة في المصحف.

{ وَاعْلَمُوا } للاهتمام بما تتضمّنه، وحثّ المخاطبين على التأمّل فيما بعده، وذلك من أساليب الكلام البليغ أنّ يفتتح بعض الجمل المشتملة على خبر أو طلب مهم بـ (اعلم - تعلم) لفتا لذهن المخاطب.

وفيه تعريض غالبا بغفلة المخاطب عن أمر مهم. من ذلك قوله تعالى {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: 196]. وفي الحديث أنّ النبي ﷺ قال لأبي مسعود الأنصاري وقد رآه يضرب عبدا له " اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام".

و{أَنَّ} بعد هذا الفعل مفتوحة الهمزة حيثما وقعت.

الحول، ويقال الحُوُل، منع شيئين أو أشياء من الاتصال. قال تعالى {وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ} [هود: 43]

وإسناد الحول إلى الله مجاز عقلي لأنّ الله منزه عن المكان. والمعنى، واعلموا أنّ علم الله يخلص بين المرء

وعقله خلوص الحائل بين شيئين فإنّه يكون شديد الاتصال بكليهما .
{ **الْمَرْءِ** } عمله وتصرفاته الجسمانية. وجيء بصيغة المضارع للدلالة على أنّ ذلك يتجدّد ويستمر، وهذا في معنى قوله تعالى {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق: 16] قاله قتادة.
والمقصود تحذير المؤمنين من التراخي في الاستجابة إلى دعوة الرسول ﷺ، والتنصل منها، أو التستّر في مخالفته، وهو معنى قوله {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ} [البقرة: 235]
{ **وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** } كان ما قبله تحذيرا وكان هو تهديدا. وتقديم متعلق {تُحْشَرُونَ} عليه لإفادة الاختصاص، أي إليه لا إلى غيره تحشرون، وهذا الاختصاص للكناية عن انعدام ملجإ أو مخبإ تلتجئون إليه من الحشر إلى الله، فكنّى عن انتفاء المكان بانتفاء محشور إليه غير الله بأبدع أسلوب. وليس الاختصاص لرد اعتقاد، لأنّ المخاطبين بذلك هم المؤمنون، فلا مقتضى لقصر الحشر على الكون إلى الله بالنسبة إليهم.

{ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [25]

تحذير المستجيبين من إعراض المعرضين، ليعلموا أنّهم قد يلحقهم أذى من جراء فعل غيرهم إذا هم لم يقوّموا عوج قومهم، كيلا يحسبوا أنّ امتثالهم كاف إذا عصى دهماؤهم، فحذّرهم فتنة تلحقهم فتعم الظالم وغيره.
فإنّ المسلمين إن لم يكونوا كلمة واحدة في الاستجابة لله وللرسول عليه الصلاة والسلام، دبّ بينهم الاختلاف واضطربت أحوالهم واختل نظام جماعتهم باختلاف الآراء، وذلك الحال هو المعبر عنه بالفتنة.
الفتنة، اضطراب الآراء، واختلال السير، وحلول الخوف والحذر في نفوس النّاس. وقد تقدّم ذكر الفتنة في قوله {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة:91]
فعلى عقلاء الأقوام وأصحاب الأحلام منهم إذا رأوا دبيب الفساد في عامتهم أن يبادروا للسعي إلى بيان ما حلّ بالنّاس من الضلال في نفوسهم، وأن يكشفوا لهم ماهيته وشبهته وعواقبه، وأن يمنعوهم منه بما أوتوه من الموعظة والسلطان، ويزجروا المفسدين عن ذلك الفساد حتّى يرتدعوا، فإن هم تركوا ذلك، وتوانوا فيه لم يلبث الفساد أن يسري في النفوس وينتقل بالعدوى من واحد إلى غيره، حتّى يعمّ أو يكاد، فيعسر اقتلاعه من النفوس، وذلك الاختلال يفسد على الصالحين صلاحهم وينكّد عيشهم على الرغم من صلاحهم واستقامتهم. فظهر أنّ الفتنة إذا حلّت بقوم لا تصيب الظالم خاصة بل تعمّه والصالح، فمن أجل ذلك وجب اتقاؤها على الكلّ لأنّ أضرار حلولها تصيب جميعهم.
جاء في الصحيح أنّ النبي ﷺ قال: " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا

لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وأن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا". وفي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش أنّها قالت: " يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال" نعم إذا كثر الخبث ثم يحشرون على نيّاتهم".

{ **لا تُصِيبَنَّ** } نهيا مستأنفا تأكيدا للأمر باتقائها مع زيادة التحذير بشمولها من لم يكن من الظالمين.

{ **خَاصَّةً** } اسم فاعل مؤنث لجريانه على {فِتْنَةً} فهو منتصب على الحال من ضمير {تُصِيبَنَّ} وهي حال مفيدة لأنها المقصود من التحذير.

{ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } فعل الأمر بالعلم للاهتمام لقصد شدّة التحذير، كما تقدم آنفا، والمعنى أنّه شديد العقاب لمن يخالف أمره.

{ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[26]

تذكيرهم بنعمة الله عليهم بالعزّة والنصر، بعد الضعف والقلّة والخوف، ليذكروا كيف يسّر الله لهم أسباب النصر من غير مظانها، حتّى أوصلهم إلى مكافحة عدوّهم وأن يتقي أعداؤهم بأسهم، فكيف لا يستجيبون لله فيما بعد ذلك، وهم قد كثروا وعزوا وانتصروا. فالخطاب للمؤمنين يومئذ، ومجيء هذه الخطابات بعد وصفهم بالذين آمنوا إيماء إلى أنّ الإيمان هو الذي ساق لهم هذه الخيرات كلّها.

{ **وَاذْكُرُوا** } مشتق من الذُكر (بضم الذال) وهو التذكّر لا ذكر اللسان، أي تذكّروا.

{ **إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ** } جيء بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات وصف القلّة والاستضعاف فيهم.

{ **قَلِيلٌ** } مفرد عن ضمير الجماعة، لأنّ (قليلا وكثيرا) قد يجيئان غير مطابقين لما جريا عليه، كما تقدّم عند قوله تعالى {مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ} [آل عمران:146]

{ **فِي الْأَرْضِ** } يراد بها الدنيا كما تقدّم عند قوله تعالى {وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ} [الأعراف:56]، أو أريد بها ارض مكّة، فالتعريف للعهد، والمعنى تذكير المؤمنين بأيام إقامتهم بمكة مستضعفين بين المشركين، فإنّهم كانوا حينئذ طائفة قليلة العدد.

التخطّف، شدّة الخطف، والخطف الأخذ بسرعة وقد تقدّم عند قوله تعالى {يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ} [البقرة:20]. وهو هنا مستعار للغلبة السريعة، لأنّ الغلبة شبه الأخذ، فإذا كانت سريعة أشبهت الخطف. قال تعالى {وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [العنكبوت: 27].

أي يأخذكم أعداؤكم بدون كبرى مشقه ولا طول محاربة، وكانوا أشدّ منكم قوّة، لولا أن الله صرفهم عنكم، وقد كان المؤمنون خائفين في مكّة، وكانوا خائفين في طرق هجرتيهم، وكانوا خائفين يوم بدر، حتّى أذاقهم

الله نعمة الأمن من بعد يوم بدر.

{ **النَّاسُ** } المشركون من أهل مكّة وغيرهم.

الإيواء، جعل الغير آويا، أي راجعا إلى الذي يحفظه، فيؤول معناه إلى الحفظ والرعاية.

التأييد، التقوية، أي جعل الشيء ذا أيد، لأنّ اليد يكنّى بها عن القدرة. قال تعالى {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ} [ص: 17].

{ **وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** } إدماج بذكر نعمة توفير الرزق في خلال المنّة بنعمة النصر وتوفير العدد بعد الضعف والقلة فإنّ الأمن ووفرة العدد يجلبان سعة الرزق.

{ **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } نبّههم الله تعالى، فلما أعطوا حق الشكر دام أمرهم في تصاعد، وحين نسوه اخذ أمرهم في تراجع ولله عاقبة الأمور.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [27] وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [28]

استئناف خطاب للمؤمنين يحذّرهم من العصيان الخفيّ، بعد أن أمرهم بالطاعة والاستجابة لله ولرسوله ﷺ. حذّرهم من أن يظهروا الطاعة والاستجابة ويبطنوا المعصية والخلاف. ومناسبته لما قبله ظاهرة وإنّ لم تسبق من المسلمين خيانة وإنّما هو تحذير.

وذكر الواحدي في (أسباب النزول)، وروى جمهور المفسّرين وأهل السير، عن الزهري والكلبي، وعبد الله بن أبي قتادة، أنها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري، لمّا حاصر المسلمون بني قريظة، فسألت بنو قريظة الصلح فقال رسول الله ﷺ: " تنزلون على حكم سعد بن معاذ " فأبوا وقالوا: " أرسل إلينا أبا لبابة فبعث رسول الله ﷺ إليهم أبا لبابة، وكان ولده وعياله وماله عندهم، فلما جاءهم قالوا له ما ترى أننزل على حكم سعد، فأشار أبو لبابة بيده على حلقه، أنه الذبح، ثم فطن أنّه قد خان الله ورسوله فنزلت فيه هذه الآية . وهذا الخبر لم يثبت في الصحيح، ولكنّه اشتهر بين أهل السير والمفسّرين، فإذا صحّ، وهو الأقرب، كانت الآية مما نزل بعد زمن طويل من وقت نزول الآيات التي قبلها، المتعلقة باختلاف المسلمين في أمر الأنفال فإنّ بين الحادثتين نحوا من ثلاث سنين، ويقرب هذا ما أشرنا إليه آنفا من انتفاء وقوع خيانة لله ورسوله بين المسلمين.

الخون والخيانة، إبطال ونقض ما وقع عليه التعاقد من دون إعلان بذلك النقض، قال تعالى {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ} [الأنفال: 58] وهي ضد الوفاء. قال الزمخشرى: "وأصل معنى الخون النقص، كما أنّ أصل الوفاء التمام".

فالإيمان والطاعة لله ورسوله عهد بين المؤمن وبين الله ورسوله، فكما حُذّروا من المعصية العلنية حُذّروا من المعصية الخفية. وتشمل الخيانة كل معصية خفيّة، فهي داخلة في {لا تَخُونُوا} ، لأنّ الفعل في سياق النهي يعم، فكل معصية خفيّة فهي مراد من هذا النهي، فتشمل الغلول الذي حاموا حوله في قضية الأنفال، لأنّهم لما سأل بعضهم النفل وكانوا قد خرجوا يتتبعون آثار القتلى لينتفلوا منهم، تعيّن تحذيرهم من الغلول، فذلك مناسبة وقع هذه الآية من هذه الآيات سواء صح ما حكي في سبب النزول أم كانت متصلة النزول بقريناتها.

الأمانة، اسم لما يحفظه المرء عند غيره، مشتقّة من الأمن لأنّه يأمنه من أن يضيّعها، والأمين الذي يحفظ حقوق من يواليه، وإنّما أضيفت الأمانات إلى المخاطبين مبالغة في تفظيع الخيانة.

وللأمانة شأن عظيم في استقامة أحوال المسلمين، ما ثبتوا عليها وتخلّقوا بها وهي دليل نزاهة النفس واعتدال أعمالها، وقد حذّر النبي ﷺ من أضاعتها والتهاون بها، وأشار إلى أنّ في إضاعتها انحلال أمر المسلمين. ففي صحيح البخاري عن حذيفة بن اليمان قال: " حدثنا رسول الله ﷺ حديثين: رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر، حدثنا أنّ الأمانة نزلت على جَذْر قلوب الرجال ثم عَلِموا من القرآن ثم عَلِموا من السنة، وحدثنا عن رفعها فقال ينام الرجل النومة فتقبض من قلبه فيظل أثرها مثل الوكْت، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل أثر المَجْل كجَمْر دَحْرَجْتَهُ على رجلك فَنَفِطَ فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شيء، ويصبح الناس يتبايعون ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة فيقال إنّ في بني فلان رجلا أمينا ويقال للرجل ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان."

[**الوكت**، سواد يكون في البسر إذا قارب أن يصير رطبا. و**المجل**، غلظ الجلد من أثر العمل والخدمة. و**نفط** تقرّح. و**منتبرا** منتفخا"، وقد جعلها النبي ﷺ من الإيمان إذ قال في آخر الأخبار عنها وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان.

وحسبك من رفع شأن الأمانة أن كان صاحبها حقيقا بولاية أمر المسلمين لأنّ ولاية أمر المسلمين أمانة لهم ونصح، ولذلك قال عمر بن الخطاب حين أوصى بأن يكون الأمر شورى بين ستة: " ولو كان أبو عبيدة ابن الجراح حيا لعهدت إليه لقول رسول الله ﷺ له " إنه أمين هذه الأمة" .

{ **وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } في موضع الحال من ضمير تخونوا الأوّل والثاني، وهي حال كاشفة والمقصود منها تشديد النهي، أو تشنيع المنهي عنه، لأنّ النهي عن القبيح في حال معرفة المنهي أنّه قبيح يكون أشدّ. وليس المراد تقييد النهي عن الخيانة بحالة العلم بها، لأنّ ذلك قليل الجدوى، فإنّ كلّ تكليف مشروط بالعلم وكون الخيانة قبيحة أمر معلوم.

{ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ } وهذا تنبيه على الحذر من الخيانة التي يحمل عليها المرء حبّ المال وهي خيانة الغلول وغيرها، فتقديم الأموال لأنّها مظنّة الحمل على الخيانة في هذا المقام. وعطف الأولاد على الأموال لاستيفاء أقوى دواعي الخيانة، فإنّ غرض جمهور النّاس في جمع الأموال أن يتركوها لأبنائهم من بعدهم، وقد كثرفي القرآن قرن الأموال والأولاد في التحذير.

{ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } للإشارة إلى أنّ ما عند الله من الأجر على كفّ النفس عن المنهيات هو خير من المنافع الحاصلة عن اقتحام المناهي لأجل الأموال والأولاد.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }[29]

خوطب المؤمنون بوصف الإيمان تذكيرا لهم بعهد الإيمان وما يقتضيه، كما تقدم آنفا في نظائره، وعقّب التحذير من العصيان والتنبيه على سوء عواقبه، بالترغيب في التقوى وبيان حسن عاقبتها وبالوعد بدوام النصر واستقامة الأحوال إن هم داموا على التقوى.

الفرقان، أصله مصدر كالشكران والغفران، وهو ما يفرّق، أي يميز بين شيئين متشابهين. وقد أطلق بالخصوص على أنواع من التفرقة فأطلق على النصر، لأنّه يفرق بين حالين كانا محتملين. ولقّب القرآن بالفرقان لأنّه فرّق بين الحق والباطل، قال تعالى {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} [الفرقان: 1].

عن ابن وهب وابن القاسم وأشهب أنّهم سألوا مالكا عن قوله تعالى {يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً} قال **مخرجا**، ثم قرأ {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق: 3]. وفُسّر **بالتمييز** بينهم وبين الكفار في الأحوال التي يستحب فيها التمايز في أحوال الدنيا، فيشمل ذلك أحوال النفس، من الهداية والمعرفة والرضى وانشراح القلب وإزالة الحقد والغل والحسد بينهم والمكر والخداع.

{ لَكُمْ } أشعر أنّ الفرقان شيء نافع لهم، فالظاهر أنّ المراد منه كلّ ما فيه مخرج لهم ونجاة من التباس الأحوال وارتباك الأمور وانبهام المقاصد، فيؤول إلى استقامة أحوال الحياة، حتّى يكونوا مطمئني البال منشرحي الخاطر، وذلك يستدعي أن يكونوا منصورين، كَمَلَةُ الأخلاق، سائرين في طريق الحق والرشد. وذلك هو ملاك استقامة الأمم. فاختيار الفرقان هنا من تمام الفصاحة.

{ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ } تكفير السيئات يصحّ أن يكون المراد به تكفير السيئات الفارطة التي تعقبها التقوى. ومفعول {يَغْفِرْ لَكُمْ} ، محذوف وهو ما يستحق الغفران وذلك هو الذنب. ويتعيّن أن يحمل على نوع من الذنوب، وهو الصغائر التي عبّر عنها باللمم. ويجوز العكس بأن يراد بالسيئات الصغائر وبالمغفرة مغفرة الكبائر بالتوبة المعقبة لها.

وقيل التكفير الستر في الدنيا، والغفران عدم المؤاخذة بها في الآخرة. والحاصل أنّ الإجمال مقصود للحثّ على التقوى وتحقق فائدتها والتعريض بالتحذير من التفريط فيها.

{ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } تذييل وتكميل وهو كناية عن حصول منافع أخرى لهم من جراء التقوى.

{ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ }[30]

يجوز أن يكون عطف قصة على قصة من قصص تأييد الله رسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين فيكون {إِذْ} متعلقا بفعل محذوف تقديره واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا، على طريقة نظائره الكثيرة في القرآن.

ويجوز أن يكون عطفا على قوله: {إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ} [26] فهو متعلق بفعل (اذكروا) من قوله {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ} [26]، فإنّ المكر بالرسول عليه الصلاة والسلام مكر بالمسلمين ويكون ما بينهما اعتراضا. فهذا تعداد لنعم النصر، التي أنعم الله بها على رسوله ﷺ والمؤمنين، في أحوال ما كان يظنّ الناس أن سيجدوا منها مخلصا.

وهذه نعمة خاصة بالنبي ﷺ. والإنعام بحياته وسلامته نعمة تشمل المسلمين كلهم، والقصّة تذكير بأيّام مقامهم بمكة، وما لاقاه النبي ﷺ، وما لاقاه المسلمون عموما.

المكر، إيقاع الضرّ خفية، وتقدّم عند قوله تعالى {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران:45].

{ لِيُثْبِتُوكَ } ليحبسوك، يقال أثبته إذا حبسه ومنعه من الحركة وأوثقه.

وأشارت الآية إلى تردّد قريش في أمر النبي ﷺ حين اجتمعوا للتشاور في ذلك بدار الندوة في الأيام الأخيرة قبيل هجرته، فقال أبو البختري: إذا أصبح فأثبتوه بالوثائق وسدّوا عليه باب بيت غير كوة تلقون إليه منها الطعام. وقال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل بطن في قريش فتى جَلْدا فيجتمعون ثم يأخذ كل واحد منهم سيفا ويأتون محمدا في بيته فيضربونه ضربة رجل واحد فلا تقدر بنو هاشم على قتال قريش بأسرها فيأخذون العقل ونستريح منه، وقال هشام بن عمرو: الرأي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضرّكم ما صنع.

{ وَيَمْكُرُونَ } لم أر أحدا من المفسّرين عرّج على بيان موقع الواو، وهي تحتمل وجهين: **أحدهما**، أن تكون واو الحال، والجملة حال من {الَّذِينَ كَفَرُوا} وهي حال مؤسّسة غير مؤكدة، والمضارع في يمكرون ويمكر الله لاستحضار حالة المكر.

ثانيهما، أن تكون واو الاعتراض أي العطف الصوري، ويكون المراد بالفعل المعطوف الدوام أي هم مكروا بك ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك وهم لا يزالون يمكرون.

{ **وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** } بيان معنى إسناد المكر إلى الله تقدّم في [آل عمران:54] و[الأعراف:99]
والذين تولوا المكر هم سادة المشركين وكبراؤهم واعون أولئك الذين كان دأبهم الطعن في نبوة محمد ﷺ وفي نزول القرآن عليه، وإنّما أسند إلى جميع الكافرين لأنّ البقية كانوا أتباعا للزعماء يأتمرون بأمرهم.

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}[31]

وهذا القول مقالة المتصدّين للطعن على الرسول ﷺ، ومحاجته، والتشغيب عليه، منهم النضر بن الحارث وطعيمة بن عدي وعقبة بن أبي معيط.
{ **قَدْ سَمِعْنَا** } قد فهمنا ما تحتوي عليه، لو نشاء لقلنا مثلها. وإنّما اهتموا بالقصص ولم يتبيّنوا مغزاها ولا ما في القرآن من الآداب والحقائق.
ومن عجيب بهتانهم أنّ الرسول ﷺ تحدّاهم بمعارضة سورة من القرآن، فعجزوا عن ذلك وأفحموا، ثم اعتذروا بأنّ ما في القرآن أساطير الأوّلين وأنّهم قادرون على الإتيان بمثل ذلك.
قيل: قائل ذلك هو النضر بن الحارث من بني عبد الدار، كان رجلا من مردة قريش ومن المستهزئين، وكان كثير الأسفار إلى الحيرة والى أطراف بلاد العجم في تجارته، فكان يلقى بالحيرة ناسا من العِبَاد [بتخفيف الباء اسم طائفة من النصارى] فيحدّثونه من أخبار الإنجيل.
{ **لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا** } إيهام بأنّهم ترفعوا عن معارضته، وأنّهم لو شاءوا لنقلوا من أساطير الأولين إلى العربية ما يوازي قصص القرآن وهذه وقاحة، وإلّا فما منعهم أن يشاءوا معارضة من تحدّاهم وقرعهم بالعجز بقوله {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا} [البقرة: 24].
الأساطير، جمع أسطورة (بضم الهمزة) وهي القصّة وتقدّم عند قوله تعالى {حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأنعام:25]

{ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [32] وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [33]

وقائل هذه المقالة هو النضر بن الحارث صاحب المقالة السابقة، وقالها أيضا أبو جهل. وكلامهم هذا جار مجرى القسم، وذلك أنّهم يقسمون بطريقة الدعاء على أنفسهم. وهم يحسبون أنّ دعوة المرء على نفسه مستجابة. وهذه طريقة شهيرة في كلامهم.
وقد كانوا لجهلهم وضلالهم يحسبون أنّ الله يتصدّى لمخاطرتهم، فإذا سألوه أن يمطر عليهم حجارة إن كان

القرآن حقا منه أمطر عليهم الحجارة. وأرادوا أن يظهروا لقومهم صحة جزمهم بعدم حقّية القرآن فأعلنوا الدعاء على أنفسهم بأن يصيبهم عذاب عاجل إن كان القرآن حقّا من الله ليستدلوا بعدم نزول العذاب على أنّ القرآن ليس من عند الله، وذلك في معنى القسم كما علمت.

{ **مِنْ عِنْدِكَ** } حال من الحقّ، أي منزلا من عندك فهم يطعنون في كونه حقا وفي كونه منزلا من عند الله.

{ **مِنَ السَّمَاءِ** } وصف لحجارة أي حجارة مخلوقة لعذاب من تصيبه لأن الشأن أن مطر السماء لا يكون بحجارة.

{ **أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** } ذكروا عذابا خاصا وهو مطر الحجارة ثم عمّموا، يريدون بذلك كلّه عذاب الدنيا، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة. وكانت الآية نزلت بعد أن حقّ العذاب على قائلي هذا القول وهو عذاب القتل المهين بأيدي المسلمين يوم بدر، وكان العذاب قد تأخّر عنهم زمنا اقتضته حكمة الله.

{ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ** } كناية عن استحقاقهم العذاب، وإعلام بكرامة رسوله ﷺ عنده، لأنّه جعل وجوده بين ظهراني المشركين مع استحقاقهم العقاب سببا في تأخير العذاب عنهم. وهذه مكرمة أكرم الله بها نبيّه محمدا ﷺ فجعل وجوده في مكان مانعا من نزول العذاب على أهله.

قال ابن عطية: قالت فرقه نزلت هذه الآية كلّها بمكة.

{ **وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** } أشكل على المفسّرين نظمها، وحمل ذلك بعضهم على تفكيك الضمائر، فجعل ضمائر الغيبة من { يُعَذِّبَهُمْ/ فِيهِمْ/ مُعَذِّبَهُمْ } للمشركين، وجعل ضمير{وهم يستغفرون} للمسلمين.

والذي يظهر أنّها جملة معترضة انتهزت بها فرصة التهديد بتعقيبه بترغيب على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد، فبعد أن هدّد المشركين بالعذاب ذكّرهم بالتوبة من الشرك بطلب المغفرة من ربّهم بأن يؤمنوا بأنّه واحد، ويصدّقوا رسوله. فهو وعد بأنّ التوبة من الشرك تدفع عنهم العذاب وتكون لهم أمنا وذلك هو المراد بالاستغفار.

وقد دلت الآية على فضيلة الاستغفار وبركته بإثبات بان المسلمين آمنوا من العذاب الذي عذب الله به الأمم لأنّهم استغفروا من الشرك باتباعهم الإسلام. روى الترمذي عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: " أنزل الله عليّ أمانين لأمتي { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة ".

{ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ }[34]

ارتقاء في بيان أنّهم أحقّاء بتعذيب الله إيّاهم، بيانا بالصراحة.

{ وَمَا لَهُمْ } (مَا) استفهامية، والاستفهام إنكاري، وهي في محل المبتدإ و (لَهُمْ) خبره، واللام للاستحقاق، والتقدير ما الذي ثبت لهم لأن ينتفي عنهم عذاب الله.

{ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ } التقدير، أنّهم لا شيء يمنعهم من العذاب. فاللفظ نفي لمانع الفعل. والمقصود أن الفعل توفرت أسبابه ثم انتفت موانعه.

{ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ }

الصدّ، الصرف، والمفعول محذوف دلّ عليه السياق، أي يصدّون المؤمنين عن المسجد الحرام.

فكان الصدّ عن المسجد الحرام جريمة عظيمة يستحقّ فاعلوه عذاب الدنيا قبيل عذاب الآخرة، لأنّه يؤول إلى الصدّ عن التوحيد.

وهذا الصدّ الذي ذكرته الآية، هو عزمهم على صدّ المسلمين المهاجرين عن أن يحجّوا ويعتمروا.

في الكشّاف: " كانوا يقولون نحن وُلَاة البيت والحرم فنصدّ من نشاء وندخل من نشاء". وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود، أنّه حدّث عن سعد بن معاذ: " أنّه كان صديقا لأميّة بن خلف، وكان أميّة إذا مرّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مرّ بمكّة نزل على أميّة، فلمّا هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة انطلق سعد معتمرا فنزل على أميّة بمكة فقال لأميّة انظر لي ساعة خلوة لعلي أطوف بالبيت فخرج قريبا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان (كنية أمية بن خلف) من هذا معك ؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بالبيت آمنا وقد آويتم الصباة، أمّا والله لولا أنّك مع أبي صفوان ما رجعت إلى اهلك سالما ".

{ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ } إظهار اعتدائهم في صدّهم عن المسجد الحرام.

{ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ } تعيين لأوليائه الحقّ، فهي بمنزلة الدليل على نفي ولاية المشركين.

{ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } وإنّما نفى العلم عن أكثرهم دون أن يقال (ولكنهم لا يعلمون) فاقتضى أنّ منهم من يعلم أنّهم ليسوا أولياء المسجد الحرام، وهم من أيقنوا بصدق الرسول ﷺ واستفاقوا من غفلتهم القديمة، ولكن حملهم على المشايعة للصّادين عن المسجد الحرام، العناد وطلب الرئاسة، وموافقة الدهماء على ضلالهم، وهؤلاء هم عقلاء أهل مكّة ومن تهيأ للإيمان منهم مثل العبّاس وعقيل بن أبي طالب وأبي سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وخالد بن الوليد ومن استبقاهم الله للإسلام فكانوا من نُصرائه من بعد نزول هذه الآية.

{ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ }[35]

معطوفة على {وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، فمضمونها سبب ثان لاستحقاقهم العذاب، وموقعها، عقب جملة {وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ} يجعلها كالدليل المقرّر لانتفاء ولايتهم للمسجد الحرام، لأنّ من كان يفعل مثل هذا عند مسجد الله لم يكن من المتقين، فكان حقيقا بسلب ولاية المسجد عنه.

المُكَاء، على صيغة مصادر الأصوات كالرغاء والثغاء والبكاء والنواح. يقال مَكَا يمْكُو إذا صفّر بفيه ومنه سمي نوع من الطير المَكّاء (بفتح الميم وتشديد الكاف) وجمعه مكاكيء (بهمزة في آخره بعد الياء) وهو طائر أبيض يكون بالحجاز.

التصدية، التصفيق مشتقا من الصدى وهو الصوت الذي يرده الهواء محاكيا لصوت صائح في البراح من جهة مقابلة.

ولا تعرف للمشركين صلاة، فتسمية مكائهم وتصديتهم صلاة مشاكلة تقديريّة، لأنّهم لمّا صدوا المسلمين عن الصلاة وقراءة القرآن في المسجد الحرام عند البيت، كان من جملة طرائق صدّهم إيّاهم تشغيبهم عليهم وسخريتهم بهم بالمكاء والتصدية. قال مجاهد فعل ذلك نفر من بني عبد الدار يخلطون على محمد صلاته، وبنو عبد الدار هم سدنة الكعبة وأهل عمارة المسجد الحرام، فلما فعلوا ذلك للاستسخار من الصلاة سمي فعلهم ذلك صلاة على طريقة المشاكلة التقديرية. والمشاكلة ترجع إلى استعارة علاقتها المشاكلة اللفظية أو التقديرية، فلم تكن للمشركين صلاة بالمكاء والتصدية. وهذا الذي نحاه حذّاق المفسرين: مجاهد، وابن جبير، وقتادة.

ومن المفسرين من ذكر أنّ المشركين كانوا يطوفون بالبيت عراة ويمكون ويصفقون. روي عن ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفقون ويصفّرون.

{ فَذُوقُوا الْعَذَابَ } الأمر هنا للتوبيخ والتغليط، وذلك هو العذاب الذي حلّ بهم يوم بدر.

{ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } أي بكفركم. وعبّر هنا بـ {تَكْفُرُونَ} وفي سورة الأعراف[39] بـ {تَكْسِبُونَ} لأنّ العذاب المتحدّث عنه هنا لأجل الكفر، والمتحدّث عنه في الأعراف لأجلّ الكفر والإضلال وما يجرّه الإضلال من الكبرياء الرئاسة.

{ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ [36] لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } [37]

{ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** }

لما ذكر صدّهم المسلمين عن المسجد الحرام الموجب لتعذيبهم، عقّب بذكر محاولتهم استئصال المسلمين وصدّهم عن الإسلام، وهو المعني ب { **سَبِيلِ اللَّهِ** } وجعلت الجملة مستأنفة غير معطوفة، اهتماما بها. أي أنّهم ينفقون أموالهم للصدّ عن الإسلام.

الانفاق، كانوا يطعمون جيشهم يوم بدر اللحم كلّ يوم، وكان المطعمون اثني عشر رجلا وهم: (أبو جهل، وأمية بن خلف، والعباس بن عبد المطلب وعتبة بن ربيعة، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، وأبو البختري والعاصي بن هشام، وحكيم بن حزام، والنضر بن الحارث، ونبيه بن حجاج السهمي، وأخوه منبه، وسهيل بن عمرو العامري). كانوا يطعمون في كل يوم عشر جزائر.

وهذا الإنفاق وقع يوم بدر، وقد مضى، فالتعبير عنه بصيغة المضارع لاستحضار حالة الإنفاق وأنّها حالة عجيبة في وفرة النفقات.

{ **فَسَيُنْفِقُونَهَا** } أي ستكون لهم شدائد من بأس المسلمين تضطرّهم إلى تكرير الإنفاق على الجيوش لدفاع قوة المسلمين.

{ **ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** } (ثُمَّ) للتراخي الحقيقي والرتبي، أي وبعد ذلك تكون تلك الأموال التي ينفقونها حسرة عليهم.

الحسرة، شدّة الندامة والتلهّف على ما فات. وأسندت الحسرة إلى الأموال لأنها سبب الحسرة بإنفاقها.

وهذا إنذار بأنّهم لا يحصلون من إنفاقهم على طائل فيما أنفقوا لأجله، لأنّ المنفق إنّما يتحسّر ويندم إذا لم يحصل له المقصود من إنفاقه.

فقد أنفقوا بعد ذلك على الجيش يوم أحد: استأجر أبو سفيان ألفين من الأحابيش لقتال المسلمين يوم أُحُد، والأحابيش فِرَق من كناية تجمعت من أفذاذ شتّى وحالفوا قريشا وسكنوا حول مكة سمّوا أحابيش جمع أحبوش وهو الجماعة.

ثم أنفقوا على الأحزاب حين هاجموا المدينة ثم انصرفوا بلا طائل، فكان إنفاقهم حسرة عليهم.

{ **ثُمَّ يُغْلَبُونَ** } ارتقاء في الإنذار بخيبتهم وخذلانهم، فإنّهم بعد أن لم يُحصّلوا من إنفاقهم على طائل تُوعّدوا بأنّهم سيغلبهم المسلمون بعد أن غلبوهم يوم بدر، وهو إنذار لهم بغلب فتح مكّة وانقطاع دابر أمرهم. وهذا كالإنذار في قوله {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران: 12]

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ [36] لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [37]

كان مقتضى الظاهر أن يقال وإلى جهنم يحشرون كما قال في الآية الأخرى {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران: 12] فعدل عن الإضمار هنا إلى الإظهار تخريجا على خلاف مقتضى الظاهر، للإفصاح عن التشنيع بهم في هذا الإنذار حتّى يعاد استحضار وصفهم بالكفر بأصرح عبارة.

{ لِيَمِيزَ } لبيان أنّ من حكمة حشرهم إلى جهنّم أن يتميّز الفريق الخبيث من الفريق الطيّب في يوم الحشر.

الخبيث، الشيء الموصوف بالخبث والخباثة، وحقيقة ذلك أنّه حالة حسيّة لشيء تجعله مكروها مثل القذر، والوسخ، ويطلق الخبث مجازا على الحالة المعنويّة من نحو ما ذكرنا، تشبيها للمعقول بالمحسوس، وهو مجاز مشهور، والمراد به هنا خسّة النفوس الصادرة عنها مفاسد الأعمال.

الطيب، الموصوف بالطيب ضد الخبث بإطلاقيه، فالكفر خبث لأنّ أساسه الاعتقاد الفاسد، فنفس صاحبه تتصور الأشياء على خلاف حقائقها، فلا جرم أن تأتي صاحبها بالأفعال على خلاف وجهها.

{ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ } علّة أخرى لحشر الكافرين إلى جهنّم فالمقصود جمع الخبيث وإن اختلفت أصنافه في مجمع واحد، لزيادة تمييزه عن الطيب، ولتشهير من كانوا يسرّون الكفر ويظهرون الإيمان. وفي جمعه بهذه الكيفية تذليل لهم وإيلام، اذ يجعل بعضهم على بعض حتى يصيروا ركاما.

الرَكْم، ضم شيء أعلى إلى أسفل منه، وقد وصف السحاب بقوله {ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً} [النور: 43]

{ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } فإنّ من كانت تلك حاله كان حقيقا بأنّه قد خسر اعظم الخسران، لأنّه خسر منافع الدنيا ومنافع الآخرة. وصيغة القصر للمبالغة في اتصافهم بالخسران، وكأنّهم انفردوا بالخسران من بين الناس.

{ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ }[38]

جرى هذا الكلام على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب، والوعيد بالوعد، والعكس، فأنذرهم بما أنذر، وتوعّدهم بما توعّد، ثم ذكّرهم بأنّهم متمكّنون من التدارك وإصلاح ما أفسدوا، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما يفتح لهم باب الإنابة.

الانتهاء، الانتهاء عن الأفعال والصفات التي أوجبت لهم صفة الكفر من مثل الإنفاق للصدّ عن سبيل الله. أي أن ينتهوا عن ذلك، وإنّما يكون الانتهاء عن ذلك كلّه بالإيمان.

{ **مَا قَدْ سَلَفَ** } هو ما أسلفوه من الكفر وآثاره.

{ **يُغْفَرْ لَهُمْ** } لفظ الغفران حقيقة شرعيّة في العفو عن جزاء الذنوب في الآخرة، وذلك مهيع الآية فهو معلوم منها بالقصد الأوّل لا محالة، ويلحق به هنا عذاب الله في الدنيا.

واستنبط أئمتنا من هذه الآية أحكاما للأفعال والتبعات التي قد تصدر من الكافر في حال كفره فإذا هو أسلم قبل أن يؤاخذ بها هل يسقط عنه إسلامه التبعات بها؟

روى ابن العربي في (الأحكام) عن مالك: إنّما يعني عز وجل ما قد مضى قبل الإسلام من مال أو دم أو شيء. قال ابن العربي وهو الصواب لعموم قوله {إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} ، وأنّ ابن القاسم، وابن وهب، رويا عن مالك أنّ الكافر إذا افترى على مسلم أو سرق ثم أسلم يقام عليه الحدّ. ولو زنى ثم أسلم أو اغتصب مسلمة ثم أسلم لسقط عنه الحدّ تفرقة بين ما كان حقا لله محضا وما كان فيه حقّ للنّاس.

وفي (المدوّنة) تسقط عنه الحدود كلّها.

وذكر القرطبي عن ابن المنذر: أنّه حكى مثل ذلك عن الشافعي، وأنّه احتج بهذه الآية.

وعن أبي حنيفة يسقط عنه كل حق هو لله ولا يسقط عنه حقّ النّاس وحجّة الجميع هذه الآية تعميما وتخصيصا بمخصصات أخرى.

{ **وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ** } المراد بالعود الرجوع إلى ما هم فيه من مناوأة الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، والتجهّز لحربهم. مثل صنعهم يوم بدر. وليس المراد عودهم إلى الكفر بعد الانتهاء. لأنّ الذين كفروا لما يفارقوا الكفر بعد فلا يكون المراد بالعود عودهم إلى الكفر بعد أن يسلموا.

السنّة، العادة المألوفة والسيرة، وقد تقدّم في قوله تعالى {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ} [آل عمران:137]

مَضَتْ، تقدمت وعرفها الناس.

وهذا الخبر تعريض بالوعيد بأنّهم سيلقون ما لقيه الأوّلون.

الأوّلون، السابقون المتقدّمون في حالة، والمراد هنا الأمم التي سبقت وعرفوا أخبارهم أنّهم كذّبوا رسل الله فلقوا عذاب الاستئصال مثل عاد وثمود.

ويجوز أن المراد بالأولين أيضا السابقون للمخاطبين، من قومهم من أهل مكّة، الذين استأصلهم السيف يوم بدر. وفي كل أولئك عبرة للحاضرين الباقين، وتهديد بأن يصيروا مصيرهم.

{ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [39] وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } [40]

التقدير: فإن يعودوا فقاتلوهم، والضمير عائد إلى مشركي مكّة.

الفتنة، اضطراب أمر النّاس ومرجهم، وقد تقدّم بيانها غير مرّة، منها عند قوله تعالى { إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ} [البقرة[102] وقوله {وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ} [المائدة:71]

والمراد هنا أن لا تكون فتنة من المشركين، لأنّه لما جعل انتفاء الفتنة غاية لقتالهم.

وهي دالة على ما رآه المحقّقون من مؤرّخينا من أنّ قتال المسلمين المشركين إنّما كان أوّله دفعا لأذى المشركين، فتلك الفتنة التي أشار إليها القرآن.

{ **وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ** } التعريف في (الدين) للجنس، وتقدّم الكلام على نظيرها في سورة البقرة. إلّا أنّ هذه الآية زيد فيها اسم التأكيد وهو {كُلُّهُ} وذلك لأنّ هذه الآية أسبق نزولا من آية البقرة فاحتيج فيها إلى تأكيد مفاد صيغة اختصاص جنس الدين بأنّه لله تعالى، لئلا يتوهّم الاقتناع بإسلام غالب المشركين. فلمّا تقرّر معنى العموم وصار نصّا من هذه الآية عدل عن إعادته في آية البقرة تطلبا للإيجاز.

{ **فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** } كناية عن حسن مجازاته إيّاهم لأنّ القادر على نفع أوليائه ومطيعيه لا يحول بينه وبين إيصال النفع إليهم خفاء حال من يخلص إليه.

{ **وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** }

التولّي، الإعراض و تقدّم عند قوله تعالى {فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ }[المائدة:92]

والمولى الذي يتولّى أمر غيره ويدفع عنه وفيه معنى النصر.

والمعنى وإن تولّوا عن هاته الدعوة فالله مغن لكم عن ولائهم، أي لا يضرّكم توليهم فقوله {أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ} يؤذن بجواب محذوف تقديره: فلا تخافوا توليهم فإنّ الله مولاكم وهو يقدر لكم ما فيه نفعكم.

{ **نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** } مستأنفة لأنّها إنشاء ثناء على الله فكانت بمنزلة التذييل.

{ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[41]

انتقال لبيان ما أجمل من حكم الأنفال، الذي افتتحته السورة، ناسب الانتقال إليه ما جرى من الأمر بقتال المشركين إن عادوا إلى قتال المسلمين.

والخطاب لجميع المسلمين، وبالخصوص جيش بدر وليس هذا نسخا لحكم الأنفال المذكور أوّل السورة، بل هو بيان لإجمال قوله {لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ}. وقال أبو عبيد: إنها ناسخة. وذكروا: أنّ رسول الله لم يخمّس مغانم بدر ثم خمّس مغانم أخرى بعد بدر، أي بعد نزول آية سورة الأنفال. وفي حديث علي: " أنّ رسول الله أعطاه شارفا من الخمس يوم بدر" ، فاقتضت هذه الرواية أن مغانم بدر خمّست.

وقد اضطربت أقوال المفسرين قديما في المراد من المغنم في هذه الآية. والوجه عندي في تفسير هذه الآية، واتصالها بقوله {يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ} [1] أنّ المراد بقوله {مَا غَنِمْتُمْ} في هذه الآية: ما حصّلتم من الغنائم من متاع الجيش، وذلك ما سمّي بالأنفال، في أول السورة، فالنفل والغنيمة مترادفان، وذلك مقتضى استعمال اللغة. فعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، وعطاء: الأنفال الغنائم. وعليه فوجه المخالفة بين اللفظين إذ قال تعالى هنا {غَنِمْتُمْ} وقال في أول السورة {يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ} لاقتضاء الحال التعبير هنا بفعل، وليس في العربية فعل من مادة (النفل) يفيد إسناد معناه إلى من حصل له. ولذلك فآية { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ} سيقت هنا بيانا لآية {يَسْأَلونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ} فإنهما وردتا في انتظام متصل من الكلام.

ونرى أن تخصيص اسم **النفل**، بما يعطيه أمير الجيش أحد المقاتلين زائدا على سهمه من الغنيمة سواء كان سلبا أو نحوه مما يسعه الخمس، أو من أصل مال الغنيمة، على الخلاف الذي سقناه سابقا، إنّما هو اصطلاح شاع بين أمراء الجيوش بعد نزول هذه الآية.

الغنيمة، ويقال: لها المغنم، ما يأخذه الغزاة من أمتعة المقاتلين غصبا، بقتل أو بأسر، أو يقتحمون ديارهم غازين، أو يتركه الأعداء في ديارهم، إذا فروا عند هجوم الجيش عليهم بعد ابتداء القتال.

الفيء، ما يظفر به الجيش في غير حالة الغزو من مال العدو، وما يتركه العدو من المتاع إذا أخلوا بلادهم قبل هجوم جيش المسلمين.

قال مالك: ليس أموال العدو المقاتل حقّ لجيش المسلمين إلّا الغنيمة والفيء. وأمّا النفل فليس حقا مستقلّا بالحكم، ولكنّه ما يعطيه الإمام من الخمس لبعض المقاتلين زائدا على سهمه من الغنيمة، على ما يرى من الاجتهاد، ولا تعيين لمقدار النفل في الخمس ولا حدّ له، ولا يكون فيما زاد على الخمس. هذا قول مالك ورواية عن الشافعي. وهو الجاري على ما عمل به الخلفاء الثلاثة بعد رسول الله ﷺ.

وقال أبو حنيفة، والشافعي، في أشهر الروايتين عنه، وسعيد بن المسيب: النفل من الخمس وهو خمس الخمس.

{ **فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ** } أي فحق لله خمسه. واللام للملك أو الاستحقاق، وقد علم أن أربعة الأخماس للغزاة الصادق عليهم ضمير {غَنِمْتُمْ} فثبت به أن الغنيمة لهم عدا خمسها.

وقد جعل الله خمس الغنيمة حقّا لله وللرسول ومن عطف عليهما، وكان أمر العرب في الجاهلية أنّ ربع الغنيمة يكون لقائد الجيش، ويسمّى ذلك (المِرباع).

وفي عرف الإسلام إذا جُعل شيء حقّا لله، من غير ما فيه عبادة له، أن ذلك يكون للذين يأمر الله بتسديد حاجتهم منه. فلكلّ نوع من الأموال مستحقّون عيّنهم الشرع.

فالابتداء باسم الله تعالى للإشارة إلى أنّ ذلك الخمس حقّ الله يصرفه حيث يشاء، وقد شاء فوكّل صرفه إلى رسوله ﷺ ولمن يخلف رسوله من أئمة المسلمين. وبهذا التأويل يكون الخمس مقسوما على خمسة أسهم. وهذا قول عامة علماء الإسلام. (سهم للنبي ﷺ، وسهم لذوي القربى، وسهم اليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل).

وقد جعل الله الخمس لخمسة مصارف ولم يعين مقدار ما لكل مصرف منه، ولا شك أن الله أراد ذلك ليكون صرفه لمصارفه هذه موكولا إلى اجتهاد رسوله ﷺ وخلفائه من بعده، فيقسم بحسب الحاجات والمصالح، فيأخذ كل مصرف منه ما يفي بحاجته على وجه لا ضر معه على أهل المصرف الآخر، وهذا قول مالك في قسمة الخمس، وهو أصح الأقوال، إذ ليس في الآية تعرض لمقدار القسمة، ولم يرد في السنة ما يصح التمسّك به لذلك، فوجب أن يناط بالحاجة، وبتقديم الأحوج والأهم عند التضايق والأمر فيه موكول إلى اجتهاد الإمام، وقد قال عمر: "فكان الله ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله."

وقال الشافعي: يقسم لكل مصرف الخمس من الخمس، لأنها خمسة مصارف، فجعلها متساوية لأن التساوي هو الأصل في الشركة المجملة ولم يلتفت إلى دليل المصلحة المقتضية للترجيح وإذ قد جعل ما لله ولرسوله خمسا واحدا تبعا للجمهور فقد جعله بعد رسول الله لمصالح المسلمين.

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فلحقّه حالتان: حالة تصرّفه في مال الله بما ائتمنه الله على سائر مصالح الأمة، وحالة انتفاعه بما يحب انتفاعه به من ذلك. فلذلك ثبت في الصحيح أنّ النبي ﷺ كان يأخذ من الخمس نفقته ونفقة عياله، ويجعل الباقي مجعل مال الله. وفي الصحيح أنّ النبي ﷺ قال في الفيء " مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم". فيقاس عليه خمس الغنيمة وكذلك كان شأن رسول الله في انتفاعه بما جعله الله له من الحق في مال الله.

{ وَلِذِي الْقُرْبَى } أي ذوي قرابة المؤتي المال، أي قرابته ﷺ، وذلك إكرام من الله لرسوله ﷺ إذ جعل لأهل قرابته حقا في مال الله. لأنّ الله حرّم عليهم أخذ الصدقات والزكاة، فلا جرم أنّه أغناهم من مال الله. ولذلك كان حقّهم في الخمس ثابتا بوصف القرابة.

وقال أبو حنيفة: ارتفع سهم رسول الله وسهم قرابته بوفاته، وبقي الخمس لليتامى والمساكين وابن السبيل، لأن رسول الله إنما أخذ سهما في المغنم لأنّه رسول الله، لا لأنّه إمام، فلذلك لا يخلفه فيه غيره.

وعند الجمهور أن سهم رسول الله ﷺ يخلفه فيه الإمام يبدأ بنفقته ونفقة عياله بلا تقدير، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين.

{ **وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ** } تقدّم تفسير معانيها عند قوله تعالى {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} [البقرة:177] وعند قوله تعالى { وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً - إلى قوله –وَابْنَ السَّبِيلِ} [النساء:36]

واليتامى وابن السبيل لا يعطون إلّا إذا كانوا فقراء ففائدة تعيين خمس الخمس لكل صنف من هؤلاء أن لا يحاصهم فيه غيرهم من الفقراء. والشأن في اليتامى في الغالب أن لا تكون لهم سعة في المكاسب فهم مظنّة الحاجة، ولكنها دون الفقر فجعل لهم حقّ في المغنم، توفيرا عليهم في إقامة شؤونهم، فهم من الحاجة المالية أحسن حالا من المساكين، وهم من حالة المقدرة أضعف حالا منهم، فلو كانوا أغنياء بأموال تركها لهم آباؤهم فلا يعطون من الخمس شيئا.

والمساكين الفقراء الشديدو الفقر، جعل الله لهم خمس الخمس كما جعل لهم حقا في الزكاة، ولم يجعل للفقراء حقا في الخمس كما لم يجعل لليتامى حقا في الزكاة.

وابن السبيل أيضا في حاجة إلى الإعانة على البلاغ وتسديد شؤونه، فهو مظنّة الحاجة، فلو كان ابن السبيل ذا وفر وغنى لم يعط من الخمس، ولذلك لم يشترط مالك وبعض الفقهاء في اليتامى وأبناء السبيل الفقر، بل مطلق الحاجة. واشترط أبو حنيفة الفقر في ذوي القربى واليتامى وأبناء السبيل وجعل ذكرهم دون الاكتفاء بالمساكين لتقرير استحقاقهم.

{ **إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ** } وجيء في الشرط بحرف (إن) التي شأن شرطها أن يكون مشكوكا في وقوعه زيادة في حثّهم على الطاعة حيث يفرض حالهم في صورة المشكوك في حصول شرطه، إلهابا لهم ليبعثهم على إظهار تحقّق الشرط فيهم. فالمعنى، أنّكم آمنتم بالله، والإيمان يرشد إلى اليقين بتمام العلم والقدرة له، وآمنتم بما أنزل الله على عبده يوم بدر حين فرّق الله بين الحق والباطل فرأيتم ذلك رأي العين وارتقى إيمانكم من مرتبة حق اليقين إلى مرتبة عين اليقين، فعلمتم أنّ الله أعلم بنفعكم من أنفسكم إذ يعدكم إحدى الطائفتين أنّها لكم، فكان ما دفعكم الله إليه أحفظ لمصلحتكم واشدّ تثبيتا لقوّة دينكم. فمن رأوا ذلك وتحقّقوه فهم أحرياء بأن يعلموا أنّ ما شرع الله لهم من قسمة الغنائم هو المصلحة، ولم يعبأوا بما يدخل عليهم من نقص في حظوظهم العاجلة، علما بأنّ وراء ذلك مصالح جمّة آجلة في الدنيا والآخرة.

{ **وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ** } وآمنتم بما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، وهذا تخلّص للتذكير بما حصل لهم من النصر يوم بدر. وتخصيصه بالذكر من بين جملة المعلومات الراجعة للاعتقاد، لأنّ لذلك المنزل مزيد تعلّق بما أمروا به من العمل.

الإنزال، هو إيصال شيء من علو إلى سفل وأطلق هنا على إبلاغ أمر من الله ومن النعم الإلهية إلى الرسول ﷺ والمسلمين، فيجوز أن يكون هذا المنزل من قبيل الوحي، أي الوحي الذي أنزلناه على عبدنا يوم بدر. ويجوز أن يكون من قبيل خوارق العادات، والألطاف العجيبة، مثل إنزال الملائكة للنصر، وإنزال المطر عند حاجة المسلمين إليه، لتعبيد الطريق، وتثبيت الأقدام، والاستقاء.

{ **يَوْمَ الْفُرْقَانِ** } هو يوم بدر، وهو اليوم السابع عشر من رمضان سنة اثنتين، سمي يوم الفرقان لأنه كان يوما فارقا بين الحق والباطل، ولأنّه أول يوم ظهر فيه نصر المسلمين الضعفاء على المشركين الأقوياء، وهو نصر المحقّين الأذلة على الأعزة المبطلين، وكفى بذلك فرقانا وتمييزا بين من هم على الحقّ ومن هم على الباطل.

{ **يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ** } للتذكير بذلك الالتقاء العجيب الذي كان فيه نصرهم على عدوهم. والتعريف في الجمعان للعهد، وهما جمع المسلمين وجمع المشركين.

{ **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } اعتراض بتذييل الآيات السابقة وهو متعلق ببعض جملة الشرط في قوله {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ} فإن ذلك دليل على أنه لا يتعاصى على قدرته شيء، فإن ما أسداه إليكم يوم بدر لم يكن جاريا على متعارف الأسباب المعتادة، فقدرة الله قلبت الأحوال وأنشأت الأشياء من غير مجاريها ولا يبعد أن يكون من سبب تسمية ذلك اليوم {يَوْمَ الْفُرْقَانِ} أنه أضيف إلى الفرقان الذي هو لقب القرآن فإن المشهور أنّ ابتداء نزول القرآن كان يوم سبعة عشر من رمضان فيكون من استعمال المشترك في معنييه.

{ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ } [42]

تذكيرهم بحالة حرجة كان المسلمون فيها، وتنبيههم للطف عظيم حقّهم من الله تعالى وهي حالة موقع جيش المسلمين من جيش المشركين، وكيف التقى الجيشان في مكان واحد عن غير ميعاد، ووجد المسلمون أنفسهم أمام عدو قوي العِدّة والعُدّة والمكانة من حسن الموقع. ولولا هذا المقصد من وصف هذه الهيئة لما كان من داع لهذا الإطناب إذ ليس من أغراض القرآن وصف المنازل إذا لم تكن فيه عبرة.

العدوة، (بتثليث العين) ضفّة الوادي وشاطئه، والضم والكسر في العين أفصح وعليهما القراءات المشهورة. والمراد بها شاطئ وادي بدر. وبدر اسم ماء.

{ **الدُّنْيَا** } هي القريبة، أي العدوة التي من جهة المدينة فهي أقرب لجيش المسلمين من التي من جهة مكّة.

{ **الْقُصْوَى**} هي التي مما يلي مكّة، وهي كثيب وهي قصوى بالنسبة لموقع بلد المسلمين.

والوصف ب {الدُّنْيَا} و{الْقُصْوَى} يَشعُر المخاطبون بفائدته وهي أنّ المسلمين كانوا حريصين أن يسبقوا المشركين إلى العدوة القصوى لأنّها اصلب أرضا، فلمّا سبق جيش المشركين إليها اغتم المسلمون. فلما نزل المسلمون بالعدوة الدنيا أرسل الله المطر وكان الوادي دهسا فلبّد المطر الأرض ولم يعقهم عن المسير وأصاب الأرض التي بها قريش فعطّلهم عن الرحيل فلم يبلغوا بدرا إلّا بعد أن وصل المسلمون وتخيّروا أحسن موقع وسبقوا إلى الماء فاتخذوا حوضا يكفيهم وغوّروا الماء، فلمّا وصل المشركون إلى الماء وجدوه قد احتازه المسلمون.

{ **وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ** } هو ركب قريش الراجعون من الشام، وهو العير.

{ **أَسْفَلَ** } من الفريقين أي أخفض من منازلهما، لأنّ العير كانوا سائرين في طريق الساحل وقد تركوا ماء بدر عن يسارهم. ذلك أن أبا سفيان لما بلغه أنّ المسلمين خرجوا لتلقّي عيره رجع بالعير عن الطريق التي تمر ببدر، وسلك طريق الساحل لينجو بالعير، فكان مسيره في السهول المنخفضة، وكان رجال الركب أربعين رجلا.

والمعنى أن جيش المسلمين كان بين جماعتين للمشركين وهما الجيش بالعدوة القصوى وعير القوم أسفل من العدوة الدنيا، فلو علم العدو بهذا الوضع لطبق جماعتيه على جيش المسلمين ولكن الله صرفهم عن التفطن لذلك وصرف المسلمين عن ذلك، وقد كانوا يطمعون أن يصادفوا العير فينتهبوها كما قال تعالى {وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ} [7] ولو حاولوا ذلك لوقعوا بين جماعتين من العدو.

والغرض من التقييد بهذا الوقت، وبتلك الحالة، احضارها في ذكرهم، لأجل ما يلزم ذلك من شكر نعمة الله، ومن حسن الظن بوعده والاعتماد عليه في أمورهم، فإنّهم كانوا حينئذ في أشد ما يكون فيه جيش تجاه عدوّه. لأنّهم يعلمون أنّ تلك الحالة كان ظاهرها ملائما للعدو، إذ كان العدو في شوكة واكتمال عدّة، وقد تمهّدت له أسباب الغلبة بحسن موقع جيشه، إذ كان بالعدوة التي فيها الماء لسقياهم والتي أرضها متوسطة الصلابة.

فأما جيش المسلمين فقد وجدوا أنفسهم أمام العدو في عدوة تسوخ في أرضها الأرجل من لين رملها، مع قلّة مائها، وكانت العير قد فاتت المسلمين وحلّت وراء ظهور جيش المشركين، فكانت في مأمن من أن ينالها المسلمون. وكان المشركون واثقين بمكنة الذبّ عن عيرهم.

فكانت ظاهرة هذه الحالة ظاهرة خيبة وخوف للمسلمين، وظاهرة فوز وقوة للمشركين، فكان من عجيب عناية الله بالمسلمين أن قلب تلك الحالة رأسا على عقب، فأنزل من السماء مطرا تعبدت به الأرض لجيش المسلمين فساروا فيها غير مشفوق عليهم، وتطهّروا وسقوا، وصارت به الأرض لجيش المشركين وحلا يثقل فيها السير وفاضت المياه عليهم، وألقى الله في قلوبهم تهوين أمر المسلمين، فلم يأخذوا حذرهم ولا أعدّوا للحرب عدّتها، وجعلوا مقامهم هنالك مقام لهو وطرب.فجعل الله ذلك سببا لنصر المسلمين عليهم، ورأوا كيف أنجز الله لهم ما وعدهم من النصر الذي لم يكونوا يتوقعونه. فالذين خوطبوا بهذه الآية هم أعلم السامعين بفائدة التوقيت الذي في قوله {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا}. ولذلك تعين على المفسّر وصف الحالة التي تضمنتها الآية، ولولا ذلك لكان هذا التقييد بالوقت قليل الجدوى.

{ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ } في موضع الحال من {الْجَمْعَانِ}، أي في حال لقاء على غير ميعاد. فالوجه في تفسير هذه الآية أن **{ لَوْ }** هذه من قبيل (لو) الصهيبيّة فإنّ لها استعمالات، ملاكها أن لا يقصد من (لو) ربط انتفاء مضمون جوابها بانتفاء مضمون شرطها، أي ربط حصول نقيض مضمون الجواب بحصول نقيض مضمون الشرط، بل يقصد أنّ مضمون الجواب حاصل لا محالة، سواء فرض حصول مضمون شرطها أو فرض انتفاؤه. ومحصل هذا أن مضمون الجزاء مستمر الحصول في جميع الأحوال في فرض المتكلم. فيأتي بجملة الشرط متضمّنة الحالة التي هي عند السامع مظنة أن يحصل فيها نقيض مضمون الجواب. وقد تقدمت الإشارة إلى هذا عند قوله تعالى {وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [23]. والمعنى: فبالأحرى وأنتم لم تتواعدوا وقد أتيتم سواء في اتحاد وقت حلولكم في العدوتين، فاعلموا أنّ ذلك تيسير بقدر الله لأنّه قدر ذلك لتعلموا أنّ نصركم من عنده على نحو قوله {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال:17]

{ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً } ولكن لم تتواعدوا وجئتم على غير ميعاد ليحقّق الله وينجز ما أراده من نصركم على المشركين.

{ كَانَ مَفْعُولاً } مفعول من فعل، للدلالة على أنّه حين قدّرت مفعوليته فقد صار كأنه فعل.

{ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ } بدل الاشتمال من {لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً} لأنّ الأمر هو نصر المسلمين وقهر المشركين وذلك قد اشتمل على إهلاك المهزومين وإحياء المنصورين وحفّه من الأحوال الدالة على عناية الله بالمسلمين وإهانته المشركين ما فيه بيّنة للفريقين تقطع عذر الهالكين، وتقتضي شكر الأحياء.

الهلاك، الموت والاضمحلال، ولذلك قوبل بالحياة. والهلاك والحياة مستعاران لمعنى ذهاب الشوكة. فإنّ الكفّار كانوا في عزة ومنعة، وكان المسلمون في قلّة، فلما قضي الله بالنصر للمسلمين يوم بدر أخفق أمر

المشركين ووهنوا، وصار أمر المسلمين إلى جدّة ونهوض، وكان كل ذلك، عن بينة، أي عن حجّة ظاهرة تدلّ على تأييد الله قوما وخذله آخرين بدون ريب.

{ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ } تذييل يشير إلى أن الله سميع دعاء المسلمين طلب النصر، وسميع ما جرى بينهم من الحوار في شأن الخروج إلى بدر، ومن مودّتهم أن تكون غير ذات الشوكة هي إحدى الطائفتين التي يلاقونها، وغير ذلك، وعليم بما يجول في خواطرهم من غير الأمور المسموعة وبما يصلح بهم ويبني عليه مجد مستقبلهم.

{ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }[43]

{ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً } .

المنام، مصدر ميمي بمعنى النوم ويطلق على زمن النوم وعلى مكانه.

وكان النبي ﷺ قد رأى، رؤيا منام، جيش المشركين قليلا، أي قليل العدد وأخبر برؤياه المسلمين فتشجّعوا للقاء المشركين، وحملوها على ظاهرها، وزال عنهم ما كان يخامرهم من تهيّب جيش المشركين. فكانت تلك الرؤيا من أسباب النصر، وكانت تلك الرؤيا منّة من الله على رسوله والمؤمنين، وكانت قلّة العدد في الرؤيا رمزا وكناية عن وهن أمر المشركين لا عن قلّة عددهم. ولذلك جعلها الله في رؤيا النوم دون الوحي، لأنّ صور المرائي المنامية تكون رموزا لمعان فلا تعد صورتها الظاهرية خلفا، بخلاف الوحي بالكلام.

ورؤيا النبي لا تخطيء ولكنّها قد تكون جارية على الصورة الحاصلة في الخارج كما ورد في حديث عائشة في بدء الوحي: " أنّه كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح"، وهذا هو الغالب وخاصة قبل ابتداء نزول الملك بالوحي، وقد تكون رؤيا النبي ﷺ رمزية وكناية كما في حديث رؤياه بقرا تذبح ويقال له: الله خير. فلم يعلم المراد حتّى تبيّن له أنّهم المؤمنون الذين قتلوا يوم أحد.

وقد يمسك النبي عليه الصلاة والسلام عن بيان التعبير الصحيح لحكمة كما في حديث تعبير أبي بكر رؤيا الرجل الذي قص رؤياه على رسول الله ﷺ وقول النبي له: " أصبت بعضا وأخطأت بعضا" وأبى أن يبيّن له ما أصاب منها وما أخطأ.

{ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ } أنّه لو أراكهم رؤيا مماثلة للحالة التي تبصرها الأعين لدخل قلوب المسلمين الفشل. فأراد الله إكرام المسلمين بأن لا يدخل نفوسهم هلع وإن كان النصر مضمونا لهم.

الفشل، الجبن والوهن.

التنازع، الاختلاف.
الأمر، الخطة التي يجب اتباعها في قتال العدو من ثبات أو انجلاء.
{ **وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ** } سلّمكم من الفشل والتنازع بأن سلّمكم من سببهما وهو إراءتكم واقع عدد المشركين، لأنّ الاطلاع على كثرة العدو يلقي في النفوس تهيّبا له وتخوفا منه، وذلك ينقص شجاعة المسلمين الذين أراد الله أن يوفّر لهم منتهى الشجاعة.
{ **إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** } تذييل للمنّة، أي: أوحى إلى رسوله بتلك الرؤيا الرمزيّة لعلمه بما في الصدور البشريّة من تأثّر النفوس بالمشاهدات والمحسوسات أكثر مما تتأثر بالاعتقادات، فعلم أنّه لو أخبركم بأنّ المشركين ينهزمون، واعتقدتم ذلك لصدق ايمانكم، لم يكن ذلك الاعتقاد مثيرا في نفوسكم من الشجاعة والإقدام ما يثيره اعتقاد أنّ عددهم قليل.
{ **ذَاتِ الصُّدُورِ** } النوايا والخواطر وما يهمّ به المرء وما يدبّره ويكيده.

{ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ }[44]

هذه رؤية بصر أراها الله الفريقين على خلاف ما في نفس الأمر، فكانت خطأ من الفريقين، ولم يرها النبي ﷺ. أرى الله المسلمين أنّ المشركين قليلون، وأرى المشركين أنّ المسلمين قليلون. خيل الله لكلا الفريقين قلة الفريق الآخر، بإلقاء ذلك التخيّل في نفوسهم، وجعل الغاية من تينك الرؤيتين نصر المسلمين، وهذا من بديع صنع الله تعالى إذ جعل للشيء الواحد أثرين مختلفين، وجعل للأثرين المختلفين أثرا متحدا، فكان تخيل المسلمين قلة المشركين مقوّيا لقلوبهم، وزائدا لشجاعتهم، ومزيلا للرعب عنهم، فعظم بذلك بأسهم عند اللقاء، لأنّهم ما كان ليفل من بأسهم إلّا شعورهم بأنّهم أضعف من أعدائهم عَددا وعُددا، فلمّا أزيل ذلك عنهم، بتخييلهم قلة عدوهم، خلصت أسباب شدّتهم مما يوهنها. وكان تخيّل المشركين قلة المسلمين، أي كونهم أقل مما هم عليه في نفس الأمر، بردا على غليان قلوبهم من الغيظ، وغارا إيّاهم بأنّهم سينالون التغلّب عليهم بأدنى قتال، فكان صارفا إيّاهم عن التأهّب لقتال المسلمين، حتّى فاجأهم جيش المسلمين، فكانت الدائرة على المشركين، فنتج عن تخيّل القلّتين انتصار المسلمين.
قال أهل السير: كان المسلمون يحسبون عدد المشركين يتراوح بين السبعين والمائة وكانوا في نفس الأمر زهاء ألف، وكان المشركون يحسبون المسلمين قليلا، فقد قال أبو جهل لقومه، وقد حزر المسلمين: إنّما هم أكلة جزور، أي قرابة المائة وكانوا في نفس الأمر ثلاثمائة وبضعة عشر.
وهذا التخيل قد يحصل من انعكاس الأشعة واختلاف الظلال، باعتبار مواقع الرائين من ارتفاع المواقع

وانخفاضها، وإلقاء الله الخيال في نفوس الفريقين أعظم من تلك الأسباب.

الالتقاء، افتعال من اللقاء، وصيغة الافتعال فيه دالة على المبالغة. واللقاء والالتقاء في الأصل الحضور لدى الغير، من صديق أو عدو، وفي خير أو شر، وقد كثر إطلاقه على الحضور مع الأعداء في الحرب، وقد تقدّم عند قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً} [15]

{ **لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً** } هو نظير قوله {وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً} [42] المتقدّم أعيد هنا لأنّه علة إراءة كلا الفريقين الفريق الآخر قليلا، وأمّا السابق فهو علة لتلاقي الفريقين في مكان واحد في وقت واحد. ثم إنّ المشركين لمّا برزوا لقتال المسلمين ظهر لهم كثرة المسلمين فبهتوا، فكان ملقيا الرعب في قلوبهم، وذلك ما حكاه في قوله {يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ } [آل عمران:13]

وخولف الأسلوب في حكاية إراءة المشركين، وحكاية إراءة المسلمين، لأن المشركين كانوا عددا كثيرا فناسب أن يحكى تقليلهم بإراءتهم قليلا، المؤذنة بأنهم ليسوا بالقليل. وأما المسلمون فكانوا عددا قليلا بالنسبة لعدوّهم، فكان المناسب لتقليلهم أن يعبّر عنه بأنّه { تقليل } المؤذن بأنّه زيادة في قلّتهم.

{ **وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** } تذييل معطوف على ما قبله عطفا اعتراضيا، لأنّه عطف صوري ليست فيه مشاركة في الحكم.

الرجوع، المراد رجوع أسبابها، أي إيجادها، فإنّ الأسباب قد تلوح جارية بتصرّف العباد وتأثير الحوادث، ولكن الأسباب العالية، وهي الأسباب التي تتصاعد إليها الأسباب المعتادة، لا يتصرّف فيها إلّا الله وهو مؤثّرها وموجدها. على أنّ جميع الأسباب، عاليها وقريبها، متأثّر بما أودع الله فيها من القوى والنواميس والطبائع، فرجوع الجميع إليه، ولكنّه رجوع متفاوت على حسب جريه على النظام المعتاد، وعدم جريه. فإيجاد الأشياء قد يلوح حصوله بفعل بعض الحوادث والعباد، وهو عند التأمّل الحق راجع إلى إيجاد الله تعالى خالق كل صانع. والذوات وأحوالها، كلها من الأمور، ومآلها كله رجوع، فهذا ليس رجوع ذوات ولكنه رجوع تصرّف، كالذي في قوله {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: 156]

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** [45] **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** } [46]

لما عرّفهم الله بنعمه ودلائل عنايته، وكشف لهم عن سر من أسرار نصره إيّاهم، وكيف خذل أعداءهم، وصرفهم عن أذاهم، فاستتب لهم النصر مع قلّتهم وكثرة أعدائهم، أقبل في هذه الآية على أن يأمرهم بما يهيّء لهم النصر في المواقع كلّها، ويستدعي عناية الله بهم وتأييده إيّاهم، فجمع لهم في هذه الآية ما به قوام النصر في الحروب.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } افتتحت هذه الوصايا بالنداء اهتماما بها، وجعل طريق تعريف المنادي طريق الموصولية لما تؤذن به الصلة من الاستعداد لامتثال ما يأمرهم به الله تعالى، لأنّ ذلك أخصّ صفاتهم تلقاء أوامر الله تعالى.

اللقاء، أصله مصادفة الشخص ومواجهته، باجتماع في مكان واحد. وقد غلب إطلاقه على لقاء خاص وهو لقاء القتال، فيرادف القتال والنزال. و تقم في قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [15] وبهذا المعنى تعيّن أن المراد **بالفئة،** فئة خاصة وهي فئة العدو، يعني المشركين.

الفئة، الجماعة من الناس، وتقدّم اشتقاقها عند قوله تعالى {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً} [البقرة:249]

{ **وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً** } هو ذكره باللسان، لأنّه يتضمّن ذكر القلب وزيادة، فإنّه إذا ذكر بلسانه فقد ذكر بقلبه وبلسانه، وسمع الذكر بسمعه، وذكّر من يليه بذلك الذكر. ففيه فوائد زائدة على ذكر القلب المجرّد، وقرينة إرادة ذكر اللسان ظاهر وصفه بـ { كثيرا }، لأنّ الذكر بالقلب يوصف بالقوّة، والمقصود تذكّر أنّه الناصر.

{ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** } وهذان أمران أمروا بهما وهما يخصّان المجاهد في نفسه، فهما لإصلاح الأفراد.

{ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** } ثمّ أمرهم بأعمال راجعة إلى انتظام جيشهم وجماعتهم، وهي علائق بعضهم مع بعض، وهي الطاعة وترك التنازع، فأمّا طاعة الله ورسوله فتشمل اتباع سائر أحكام القتال المشروعة بالتعيين، مثل الغنائم. وكذلك ما يأمرهم به الرسول ﷺ من آراء الحرب كقوله للرماة يوم أحد: " لا تبرحوا من مكانكم ولو تخطّفنا الطير". وتشمل طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام طاعة أمرائه في حياته، لقوله: " ومن أطاع أميري فقد أطاعني"، وتشمل طاعة أمراء الجيوش بعد وفاة الرسول ﷺ لمساواتهم لأمرائه الغائبين عنه في الغزوات والسرايا في حكم الغيبة عن شخصه.

{ **وَلا تَنَازَعُوا** } يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك، بالتفاهم، والتشاور، ومراجعة بعضهم بعضا، حتّى يصدروا عن رأي واحد، فإن تنازعوا في شيء رجعوا إلى أمرائهم لقوله تعالى { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ } [النساء: 83] وقوله {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} [النساء: 59]. والنهي عن التنازع أعمّ من الأمر بالطاعة لولاة الأمور، لأنّهم إذا نهوا عن التنازع بينهم فالتنازع مع ولي الأمر أولى بالنهي.

{ **فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** } ولما كان التنازع من شأنه أن ينشأ عن اختلاف الآراء، وهو أمر مرتكز في الفطرة بسط القرآن القول فيه ببيان سيئ آثاره، فجاء بالتفريع بالفاء، فحذّرهم أمرين معلوما سوء مغبّتهما، وهما الفشل وذهاب الريح.

الفشل، انحطاط القوة وقد تقدّم آنفا عند قوله {وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ} [43] وهو هنا مراد به حقيقة الفشل في خصوص القتال ومدافعة العدو، ويصحّ أن يكون تمثيلا لحال المتقاعس عن القتال بحال من خارت قوّته

وفشلت أعضاؤه، في انعدام إقدامه على العمل. وإنّما كان التنازع مفضيا إلى الفشل لأنّه يثير التغاضب ويزيل التعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتقاء بعضهم بعضا، فيصرف الأمة عن التوجّه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم.

الريح، حقيقتها تحرّك الهواء وتموّجه، واستعيرت هنا للغلبة.

{ **وَاصْبِرُوا** } ثم أمرهم الله بشيء يعمّ نفعه المرء في نفسه وفي علاقته مع أصحابه، ويسهّل عليهم الأمور الأربعة، التي أمروا بها آنفا في قوله {فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً} وفي قوله {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا}، ألا وهو **الصبر**، لأنّ الصبر هو تحمّل المكروه وكلّ شديد على النفس، وتلك المأمورات كلها تحتاج إلى تحمّل المكاره.

{ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** } إيماء إلى منفعة للصبر إلهيّة، وهي إعانة الله لمن صبر امتثالا لأمره، وهذا مشاهد في تصرفات الحياة كلّها.

{ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ }[47]

عطف نهي على أمر، إكمالا لأسباب النجاح والفوز عند اللقاء، بأن يتلبّسوا بما يدنيهم من النصر، وأن يتجنّبوا ما يفسد إخلاصهم في الجهاد.

وجيء في نهيهم عن البطر والرئاء بطريقة النهي عن التشبّه بالمشركين، إدماجا للتشنيع بالمشركين وأحوالهم، وتكريها للمسلمين تلك الأحوال، لأن الأحوال الذميمة تتضح مذمتها، وتتكشف مزيد الانكشاف إذا كانت من أحوال قوم مذمومين عند أخرين، وذلك أبلغ في النهي، وأكشف لقبح المنهي عنه. ونظيره قوله تعالى {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ} [21].

فنهوا عن أن يشبهوا حال المشركين في خروجهم لبدر، إذ خرجوا بطرا ورئاء النّاس، لأنّ حق كل مسلم أن يريد بكل قول وعمل وجه الله، والجهاد من أعظم الأعمال الدينية.

{ **كَالَّذِينَ خَرَجُوا** } الموصول مراد به جماعة خاصة، وهم أبو جهل وأصحابه، وقد مضى خبر خروجهم إلى بدر، فإنّهم خرجوا من مكّة بقصد حماية عيرهم فلمّا بلغوا الجحفة جاءهم رسول أبي سفيان، وهو كبير العير يخبرهم أنّ العير قد سلمت، فقال أبو جهل: " لا نرجع حتّى نقدم بدرا نشرب بها وتعزف علينا القيان ونطعم من حضرنا من العرب حتّى يتسامع العرب بأننا غلبنا محمدا وأصحابه ".

{ **بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ** } انتصبا على الحاليّة، أي بطرين مرائين، ووصفهم بالمصدر للمبالغة في تمكن

الصفتين منهم لأنّ البطر والرياء خلقان من خلقهم.

البطر، إعجاب المرء بما هو فيه من نعمة، والاستكبار والفخر بها، فالمشركون لما خرجوا من الجحفة، خرجوا عجبا بما هم فيه من القوة.

الرئاء، (بهمزتين) من الرؤية، وصيغة المفاعلة فيه مبالغة، أي بالغ في إراءة النّاس عمله محبّة أن يروه ليفخر عليهم.

{ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ }

سبيل الله، الطريق الموصلة إليه، وهو الإسلام، شبّه الدين، في إبلاغه إلى رضي الله تعالى، بالسبيل الموصل إلى المقصود.

{ يَصُدُّونَ } صيغة المضارع للدلالة على حدوث وتجدّد صدّهم النّاس عن سبيل الله.

{ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } تذكير للمسلمين بصريحه، ووعيد للمشركين بالمعنى الكنائي، لأنّ إحاطة العلم بما يعملون مجاز في عدم خفاء شيء من عملهم عن علم الله تعالى، ويلزمه أنّه مجازيهم عن عملهم بما يجازي به العليم القدير من اعتدى على حرمه. وإسناد الإحاطة إلى اسم الله تعالى مجاز عقلي، لأنّ المحيط هو علم الله تعالى فإسناد الإحاطة إلى صاحب العلم مجاز.

{ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ }[48]

وذلك أنّ قريشا لما أجمعوا أمرهم على السير إلى إنقاذ العير ذكروا ما كان بينهم وبين كنانة من الحرب فكاد أن يثبّطهم عن الخروج، فلقيهم في مسيرهم سراقة بن مالك بن جعشم الكناني في جند معه راية وقال لهم: لا غالب لكم اليوم، وإني مجيركم من كنانة. فقوي عزم قريش على المسير، فلمّا أمعنوا السير وتقارب المشركون من منازل جيش المسلمين، ورأى سراقة الجيشين، نكص سراقة بمن معه وانطلقوا، فقال له الحارث بن هشام، أخو أبي جهل: " إلى أين اتخذلنا في هذه الحال؟ فقال سراقة: إنّي أرى ما لا ترون ". فكان ذلك من أسباب عزم قريش على الخروج والمسير، حتى لقوا هزيمتهم التي كتب الله لهم في بدر وكان خروج سراقة ومن معه بوسوسة من الشيطان، لئلا ينثني قريش عن الخروج، وكان انخذال سراقة بتقدير من الله ليتم نصر المسلمين، وكان خاطر رجوع سراقة خاطرا ملكيا ساقه الله إليه لأنّ سراقة لم يزل يتردّد في أن يسلم منذ يوم لقائه رسول الله ﷺ في طريق الهجرة، حين شاهد معجزة سوخ قوائم فرسه في الأرض، وأخذه الأمان من رسول الله ﷺ.

تزيين الشيطان للمشركين أعمالهم يجوز أن يكون إسنادا مجازيا، وإنّما المزين لهم سراقة بإغراء الشيطان، بما سوّل إلى سراقة بن مالك من تثبيته المشركين على المضي في طريقهم لإنقاذ عيرهم، وأن لا يخشوا غدر كنانة بهم.

وقيل تمثّل الشيطان للمشركين في صورة سراقة وليس تمثل الشيطان وجنده بصورة سراقة وجيشه بمروي عن النبي ﷺ، وإنّما روي ذلك عن قول ابن عباس. وتأويل ذلك: أن ما صدر من سراقة كان بوسوسة من الشيطان، ويجوز أن يكون اسم الشيطان أطلق على سراقة لأنّه فعل فعل الشيطان كما يقولون: فلان من شياطين العرب.

{ **إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ** } إن كان من الشيطان فهو قول في نفسه، وضمير الخطاب التفات استحضرهم كأنهم يسمعونه، فقال قوله هذا، وتكون الرؤية بصرية يعني رأى نزول الملائكة وخاف.

وإن كان ذلك كله من قول سراقة فهو إعلان لهم برد جواره إيّاهم لئلا يكون خائنا لهم، لأنّ العرب كانوا إذا أرادوا نقض جوار أعلنوا ذلك لمن أجاروه، كما فعل ابن الدغنة حين أجار أبا بكر من أذى قريش ثم رد جواره من أبي بكر، ومنه قوله تعالى: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [58] فالمعنى: إني بريء من جواركم، ولذلك قال له الحارث بن هشام: " إلى اين أتخذلنا ".

فيكون قد اقتصر على تأمينهم من غدر قومه بني كنانة.

{ **إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } فعلى احتمال أن يكون الإسناد إلى الشيطان حقيقة فالمراد من خوف الله توقع أن يصيبه الله بضر، من نحو الرجم بالشهب. وإن كان مجازا عقليا، وأن حقيقته قول سراقة فلعل سراقة قال قولا في نفسه، لأنّه كان عاهد رسول الله ﷺ على أن لا يدلّ عليه المشركين، فلعله تذكر ذلك ورأى أنّ فيما وعد المشركين من الإعانة ضربا من خيانة العهد فخاف سوء عاقبة الخيانة.

التزيين، إظهار الشيء زيْنا، أي حسنا، وقد تقدم عند قوله تعالى {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ}[الأنعام:108].

والمعنى، أنّه أراهم حسنا ما يعملونه من الخروج إلى إنقاذ العير، ثم من إزماع السير إلى بدر.

{ **تَرَاءَتِ** } مفاعلة من الرؤية، أي رأت كلتا الفئتين الأخرى.

{ **نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ** } رجع من حيث جاء. ومصدره النكوص وهو من باب رجع.

{**عَلَى عَقِبَيْهِ**} مؤكّد لمعنى نكص إذ النكوص لا يكون إلا على العقبين، لأنّه الرجوع إلى الوراء كقولهم: رجع القهقرى، ونظيره قوله تعالى {فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ} [المؤمنين:66]

{ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [49]

كان المنافقون يقبّحون أعمال المسلمين ويصفونهم بالغرور وقلّة التدبير من اعتقادهم في دينهم الذي أوقعهم في هذا الغرور، ويجول في نفوس الذين في قلوبهم مرض مثل هذا.

{ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } والقول هنا مستعمل في حقيقته ومجازه الشامل لحديث النفس، لأنّ المنافقين يقولون ذلك بألسنتهم، وأمّا الذين في قلوبهم مرض وهم طائفة غير المنافقين، بل هم من لم يتمكّن الإيمان من قلوبهم. فيقولونه في أنفسهم لما لهم من الشك في صدق وعد النبي ﷺ لأنّهم غير موالين للمنافقين، ويجوز أن يتحدّثوا به بين جماعتهم.

المرض هنا مجاز في اختلال الاعتقاد، شبه بالمرض بوجه سوء عاقبته عليهم.

{ هَؤُلاءِ } أشاروا إلى المسلمين الذين خرجوا إلى بدر.

الغرور، الإيقاع في المضرّة بإيهام المنفعة، وقد تقدّم عند قوله تعالى {لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ} [عمران:196] وقوله {زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً} [الأنعام:112].

{ دِينُهُمْ } هو الإسلام. وإسنادهم الغرور إلى الدين باعتبار ما فيه من الوعد بالنصر، أي غرّهم ذلك فخرجوا وهم عدد قليل للقاء جيش كثير.

{ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } من جملة الأخبار المسوقة لبيان عناية الله تعالى بالمسلمين، وللامتنان عليهم، فالمناسبة بينها وبين الجملة التي قبلها، أنّها كالعلّة لخيبة ظنون المشركين ونُصرائهم. أي أنّ الله خيب ظنونهم لأنّ المسلمين توكلوا عليه وهو عزيز لا يغلب.

التوكل، الاستسلام والتفويض، وقد تقدّم عند قوله تعالى {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [آل عمران:159]

{ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ [50] ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } [51]

انتقل إلى وصف ما لقيه من العذاب من قُتل منهم يوم بدر، مما هو مغيّب عن النّاس، ليعلم المؤمنون ويرتدع الكافرون. والمراد بالذين كفروا هنا الذين قتلوا يوم بدر، وتكون هذه الآية من تمام الخبر عن قوم بدر.

ويجوز أن يكون المراد بالذين كفروا جميع الكافرين، حملا للموصول على معنى العموم فتكون الآية اعتراضا مستطردا في خلال القصّة بمناسبة وصف ما لقيه المشركون في ذلك اليوم، الذي عجّل لهم فيه عذاب الموت.

{ وَلَوْ تَرَى } مخاطب غير معيّن، ليعم كل مخاطب، أي لو ترى أيّها السامع. إذ ليس المقصود بهذا الخبر

خصوص النبي ﷺ حتّى يحمل الخطاب على ظاهره، بل غير النبي أولى به منه.
ثم إن كان المراد بالذين كفروا مشركي يوم بدر، فالإتيان بالمضارع في الموضعين مكان الماضي لقصد استحضار تلك الحالة العجيبة، وهي حالة ضرب الوجوه والأدبار، ليخيل للسامع أنّه يشاهد تلك الحالة. وإن كان المراد المشركين حيثما كانوا كان التعبير بالمضارع على مقتضى الظاهر.
التوفِّي: الإماتة سمّيت توفّيا لأنّها تنهي حياة المرء أو تستوفيها { قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ } [السجدة: 11]
{ **يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ** } في موضع الحال إن كان المراد من التوفّي قبض أرواح المشركين يوم بدر حين يقتلهم المسلمون، أي يزيدهم الملائكة تعذيبا عند نزع أرواحهم، وهي بدل اشتمال من جملة { يَتَوَفَّى } إن كان المراد بالتوفّي توفيا يتوفاه الملائكة الكافرين.
{ **وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** } معطوفة على {يَضْرِبُونَ} بتقدير القول، لأنّ هذه الجملة لا موقع لها مع التي قبلها، إلّا أن تكون من قول الملائكة، أي ويقولون: ذوقوا عذاب الحريق.
وذكر الوجوه والأدبار للتعميم، أي يضربون جميع أجسادهم. فالأدبار، جمع دبر وهو ما دبر من الإنسان. وكذلك الوجوه كناية عما أقبل من الإنسان. وهذا كقول العرب: ضربته الظهر والبطن، كناية عما أقبل وما أدبر أي ضربته في جميع جسده.
{ **وَذُوقُوا** } مستعمل في مطلق الإحساس، بعلاقة الإطلاق.
{ **عَذَابَ الْحَرِيقِ** } من إضافة الجنس إلى نوعه، أي عذابا هو الحريق، فهي إضافة بيانية.
المراد بقول الملائكة {وَذُوقُوا} إنذارهم بأنهم سيذوقونه، وإنّما يقع الذوق يوم القيامة، فيكون الأمر مستعملا في الإنذار.
{ **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ** } الإشارة إلى ما يشاهدونه من العذاب. وجيء بإشارة البعيد لتعظيم ما يشاهدونه من الأهوال.
{ **قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ** } أسلفته من الأعمال فيما مضى، أي من الشرك وفروعه من الفواحش..
{ **وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** } نفي الظلم عن الله تعالى كناية عن عدله، وأن الجزاء الأليم كان كفاء للعمل المجازي عنه دون إفراط.

{ **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ** }[52]
{ **كَدَأْبِ** } خبر مبتدأ محذوف، فالتقدير هنا، دأبهم كدأب آل فرعون والذين من قبلهم، أي من الأمم المكذّبين

برسل ربهم، مثل عاد وثمود.

الدأب، العادة والسيرة المألوفة، وقد تقدّم مثله في الآية [11] من سورة آل عمران. وتقدم وجه تخصيص آل فرعون بالذكر. ولا فرق بين الآيتين إلا اختلاف العبارة، ففي آية آل عمران {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} وهنا {كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ} ، وهنالك {وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} وهنا {إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ}.

فأما المخالفة بين {كَذَّبُوا} و {كَفَرُوا} فلأن قوم فرعون والذين من قبلهم شاركوا المشركين في الكفر بالله وتكذيب رسله، وفي جحد دلالة الآيات على الوحدانية وعلى صدق الرسول ﷺ، فذكروا هنا ابتداء بالأفظع من الأمرين فعبّر بالكفر بالآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، لأنّ الكفر أصرح في إنكار صفات الله تعالى.

فأمّا في آية آل عمران، فقد ذكر تكذيبهم بالآيات، أي الدالة على صدق الرسول ﷺ، لأنّ التكذيب متبادر في معنى تكذيب المخبر، لوقوع ذلك عقب ذكر تنزيل القرآن وتصديق من صدق به، وإلحاد من قصد الفتنة بمتشابهه، فعبر عن الذين شابهوهم في تكذيب رسولهم بوصف التكذيب.

فأمّا الإظهار هنا في مقام الإضمار فاقتضاه أن الكفر كفر بما يرجع إلى صفات الله فأضيفت الآيات إلى اسم الجلالة ليدلّ على الذات بعنوان الإله الحق وهو الوحدانية، وأمّا الإضمار في آل عمران فلكون التكذيب تكذيبا لآيات دالة على ثبوت رسالة محمد ﷺ، فأضيفت الآيات إلى الضمير على الأصل في التكلّم.

وأمّا الاختلاف بذكر حرف التأكيد هنا(إِنَّ)، دونه في آية آل عمران، فلأنه قصد هنا التعريض بالمشركين، وكانوا ينكرون قوة الله عليهم، بمعنى لازمها، وهو إنزال الضرّ بهم، وينكرون أنّه شديد العقاب لهم، فأكد الخبر باعتبار لازمه التعريضي الذي هو إبلاغ هذا الإنذار إلى من بقي من المشركين، وفي سورة آل عمران لم يقصد إلّا الإخبار عن كون الله شديد العقاب إذا عاقب، فهو تذكير للمسلمين وهم المقصود بالإخبار.

وزيد وصف { قوي } هنا مبالغة في تهديد المشركين المقصودين بالإنذار والتهديد.

القويّ،الموصوف بالقوة، وحقيقتها كمال صلابة الأعضاء لأداء الأعمال التي تراد منها، وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ } [الأعراف:145]. وهي إذا وصف الله بها مستعملة في معناها اللزومي وهم منتهى القدرة على فعل ما تتعلق به إراداته تعالى من الممكنات.

{ **إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } والمقصود من ذكر هذين الوصفين الإيماء إلى أنّ أخذهم كان قويّا شديدا، لأنّه عقابُ قوي شديد العقاب، كقوله {فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ} [القمر: 42].

{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[53]

الإشارة إلى قوله {فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [52].

وذلك يقتضي أنّ آل فرعون والذين من قبلهم كانوا في نعمة فغيّرها الله عليهم بالنقمة، وأنّ ذلك جرى على سنة الله أنّه لا يسلب نعمة أنعمها على قوم حتّى يغيروا ذلك بأنفسهم، كما قال تعالى {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا} [القصص: 58]

وهذا إنذار لقريش أن يحلّ بهم مثل ما حلّ بغيرهم من الأمم الذين بطروا النعمة.

التغيير، تبديل شيء بما يضاده، فتغيير النعمة إبدالها بضدّها وهو النقمة وسوء الحال.

{ **أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ** } للتذكير بأنّ أصل النعمة من الله.

{ **مَا بِأَنْفُسِهِمْ** } الباء للملابسة، أي ما أستقرّ وعلق بهم.

ذلك أنّ الأمم تكون صالحة ثم تتغير أحوالها ببطر النعمة فيعظم فسادها، فذلك تغيير ما كانوا عليه. فإذا أراد الله إصلاحهم أرسل إليهم هداة لهم فإذا أصلحوا استمرت عليهم النعم مثل قوم يونس وهم أهل (نينوى). وإذا كذبوا وبطروا النعمة غير الله ما بهم من النعمة إلى عذاب ونقمة.

{ **حَتَّى** } تغيير نعمة الله على الأقوام هي غاية متّسعة، لأنّ الأقوام إذا غيّروا ما بأنفسهم من هدى أمهلهم الله زمنا ثم أرسل إليهم الرسل فإذا أرسل إليهم الرسل فقد نبهّهم إلى اقتراب المؤاخذة ثم أمهلهم مدة لتبليغ الدعوة والنظر فإذا أصرّوا على الكفر غير نعمته عليهم بإبدالها بالعذاب أو الذلّ أو الأسر، كما فعل ببني إسرائيل حين أفسدوا في الأرض فسلط عليهم الأشوريين.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } أي ذلك بأنّ الله يعلم ما يضمره النّاس وما يعملونه، ويعلم ما ينطقون به، فهو يعاملهم بما يعلم منهم. وذكر صفة { سَمِيعٌ } قبل صفة { عَلِيمٌ } يومئ إلى أنّ التغيير الذي أحدثه المعرض بهم متعلق بأقوالهم وهو دعوتهم آلهة غير الله تعالى.

{ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ } [54]

{ **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ** } تكرير لقصد التأكيد والتسميع، تقرير للإنذار والتهديد، وخولف بين الجملتين تفنّنا في الأسلوب، وزيادة للفائدة، بذكر التكذيب هنا بعد ذكر الكفر هناك، وهما سببان للأخذ والإهلاك كما قدّمناه آنفا.

وذكر وصف الربوبية هنا دون الاسم العلم لزيادة تفظيع تكذيبهم، لأنّ الاجتراء على الله مع ملاحظة كونه

ربا للمجتريء، يزيد جراءته قبحا، لإشعاره بأنّها جراءة في موضع الشكر، لأنّ الرب يستحق الشكر.
وعبر بالإهلاك عوض الأخذ المتقدّم ذكره ليفسّر الأخذ بأنّه آل إلى الإهلاك، وزيد الإهلاك بيانا بالنسبة إلى آل فرعون بأنه إهلاك الغرق.

{ **كُلٌّ** } تنوين للتعويض عن المضاف إليه، أي وكل المذكورين، أي آل فرعون والذين من قبلهم.

{ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ [55] الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ [56] فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** } [57]

عن ابن عباس وقتادة، أنّ المراد بهم قريظة فإنّهم عاهدوا النبي ﷺ أن لا يحاربوه ولا يعينوا عليه عدوّه، ثمّ نقضوا عهدهم فأمدّوا المشركين بالسلاح والعدّة يوم بدر، واعتذروا فقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدوه أن لا يعودوا لمثل ذلك فنكثوا عهدهم يوم الخندق، ومالوا مع الأحزاب، وأمدوهم بالسلاح والأدراع.

والأظهر عندي أن يكون المراد بهم قريظة وغيرهم من بعض قبائل المشركين، وأخصّها المنافقون فقد كانوا يعاهدون النبي ﷺ ثم ينقضون عهدهم. وقد نقض عبد الله بن أبي ومن معه عهد النصرة في أحد، فانخذل بمن معه وكانوا ثلث الجيش. وقد ذكر في أول سورة براءة عهد فرق من المشركين. وهذا هو الأنسب بإجراء صلة الذين كفروا عليهم لأنّ الكفر غلب في اصطلاح القرآن إطلاقه على المشركين.

{ **شَرَّ الدَّوَابِّ** } لأنّ دعوة الإسلام أظهر من دعوة الأديان السابقة، ومعجزة الرسول ﷺ أسطع، ولأنّ الدلالة على أحقيّة الإسلام دلالة عقلية بيّنة، فمن يجحده فهو أشبه بما لا عقل له. وتقدّم آنفا الكلام على نظير قوله {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ} [22].

{ **فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** } الذين كفروا من قبل الإسلام فاستمر كفرهم فهم لا يؤمنون بعد سماع دعوة الإسلام. ولمّا كان هذا الوصف هو الذي جعلهم شرّ الدواب عند الله عطف هنا بالفاء للإشارة إلى أنّ سبب إجراء ذلك الحكم عليهم هو مجموع الوصفين، وأتى بصلة {فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} جملة اسمية لإفادة ثبوت عدم إيمانهم وأنّهم غير مرجو منهم الإيمان.

{ **الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ** } بدل من { الَّذِينَ كَفَرُوا } بدلا مطابقا، فالذين عاهدهم هم الذين كفروا، فهم لا يؤمنون.

{ **مِنْهُمْ** } وتعدية {عَاهَدْتَ} ب {مِنْ} للدلالة على أنّ العهد كان يتضمّن التزاما من جانبهم، لأنّه يقال أخذت منه عهدا، أي التزاما. نبّه على أنّ المقصود من المعاهدة التزامهم بأن لا يعينوا عليه عدوا. وليست {مِنْ} تبعيضية لعدم متانة المعنى إذ يصير الذمّ متوجها إلى بعض الذين كفروا، فهم لا يؤمنون، وهم الذين ينقضون عهدهم.

{ **ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ** } المضارع للدلالة على أنّ ذلك يتجدّد منهم ويتكرّر، بعد نزول هذه الآية،

وأنهم لا ينتهون عنه، فهو تعريض بالتأييس من وفائهم بعهدهم.

{ كُلِّ مَرَّةٍ } كلّ مرة من المرات التي يحقّ فيها الوفاء بما عاهدوه عليه سواء تكرّر العهد أم لم يتكرر، لأنّ العهد الأوّل يقتضي الوفاء كلما دعا داع إليه.

والأظهر أنّ هذه الآية نزلت عقب وقعة بدر، وقبل وقعة الخندق، فالنقض الحاصل منهم حصل مرة واحدة، وأخبر عنه بأنّه يتكرر مرّات، وإن كانت نزلت بعد الخندق، بأنّ امتد زمان نزول هذه السورة، فالنقض منهم قد حصل مرتين، والإخبار عنه بأنّه يتكرر مرات هو هو، فلا جدوى في ادعاء أنّ الآية نزلت بعد وقعة الخندق.

{ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ } دالة على أن انتفاء التقوى عنهم صفة متمكنّة منهم، وملكة فيهم.

ووقوع فعل {يَتَّقُونَ} في حيز النفي يعمّ سائر جنس الأتقاء وهو الجنس المتعارف منه، الذي يتهمم به أهل المروءات والمتديّنون، فيعمّ اتقاء الله وخشية عقابه في الدنيا والآخرة، ويعمّ اتقاء العار، واتقاء المسبة واتقاء سوء السمعة.

{ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } وإذ قد تحقق منهم نقض العهد فيما مضى، وهو متوقع منهم فيما يأتي، لا جرم تفرّع عليه أمر الله رسوله ﷺ أن يجعلهم نكالا لغيرهم، متى ظفر بهم في حرب يشهرونها عليه أو يعينون عليه عدوّه.

الثقف، الظفر بالمطلوب، أي فإن وجدتهم وظفرت بهم في حرب، أي انتصرت عليهم.

التشريد، التطريد والتفريق. أي فبعِّد من خلفهم، وقد يجعل التشريد كناية عن التخويف والتنفير.

الخَلْف، مستعار للاقتداء بجامع الاتِّباع. ونظيره (الوراء) في قول ضمام ابن ثعلبة :و أنا رسول من ورائي. وقال وفد الأشعريين للنبي ﷺ: " فمرنا بأمر نأخذ به ونخبر به من وراءنا ".

والمعنى، فاجعلهم مثلا وعبرة لغيرهم من الكفّار الذين يترقّبون ماذا يجتني هؤلاء من نقض عهدهم فيفعلون مثل فعلهم. ولأجل هذا الأمر نكّل النبي ﷺ بقريظة حين حاصرهم ونزلوا على حكم سعد بن معاذ، فحكم بأن تقتل المقاتلة وتسبى الذريّة، فقتلهم رسول الله ﷺ بالمدينة وكانوا أكثر من ثمانمائة رجل.

وقد أمر الله رسوله ﷺ في هذا الأمر بالإغلاظ على العدو لما في ذلك من مصلحة إرهاب أعدائه، فإنّهم كانوا يستضعفون المسلمين، فكان في هذا الإغلاظ على الناكثين تحريض على عقوبتهم، لأنهم استحقّوها. وفي ذلك رحمة لغيرهم لأنّه يصدّ أمثالهم عن النكث، ويكفي المؤمنين شرّ الناكثين الخائنين.

{ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } تذكّر حالة المثقّفين في الحرب التي انجرّت لهم من نقض العهد، أي لعلّ من خلفهم يتذكّرون ما حل بناقضي العهد من النكال، فلا يقدموا على نقض العهد، فآل معنى التذكر إلى لازمه وهو الاتعاظ والاعتبار، وقد شاع إطلاق التذكر وإرادة معناه الكنائي وغلب فيه.

{ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ }[58]

عطف حكم عام لمعاملة جميع الأقوام الذين تلوح منهم بوارق الغدر والخيانة، بحيث يبدو من أعمالهم ما فيه مخيلة بعدم وفائهم، فأمره الله أن يردّ إليهم عهدهم، إذ لا فائدة فيه وإذ هم ينتفعون من مسالمة المؤمنين لهم، ولا ينتفع المؤمنون من مسالمتهم عند الحاجة.

الخوف، توقع ضرّ من شيء، وهو الخوف الحقّ المحمود. وأمّا تخيل الضرّ بدون أمارة فليس من الخوف وإنّما هو الهوس والتوهّم. وخوف الخيانة ظهور بوارقها. وبلوغ إضمارهم إيّاها، بما يتّصل بالمسلمين من أخبار أولئك وما يأتي به تجسس أحوالهم.

{ مِنْ قَوْمٍ } نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم، أي كلّ قوم تخاف منهم خيانة.

الخيانة، ضد الأمانة، وهي هنا نقض العهد، لأنّ الوفاء من الأمانة. وقد تقدّم معنى الخيانة عند قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} [27]

النبذ، الطرح وإلقاء الشيء. وقد مضى عند قوله تعالى {أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ} [البقرة:100] وإنّما رتّب نبذ العهد على خوف الخيانة، دون وقوعها لأنّ شؤون المعاملات السياسية والحربية تجري على حسب الظنون ومخائل الأحوال ولا ينتظر تحقّق وقوع الأمر المظنون لأنّه إذا تريّث ولاة الأمور في ذلك يكونون قد عرضوا الأمّة للخطر، أو للتورط في غفلة وضياع مصلحة. ولا تدار سياسة الأمّة بما يدار به القضاء في الحقوق، لأنّ الحقوق إذا فاتت كانت بليّتها على واحد، وأمكن تدارك فائتها. ومصالح الأمّة إذا فاتت تمكّن منها عدوها.

{ عَلَى سَوَاءٍ } صفة لمصدر محذوف، أي نبذا على سواء. ووصف النبذ أو النابذ بأنّه على سواء، تمثيل بحال الماشي على طريق جادة لا التواء فيها، فلا مخاتلة لصاحبها كقوله تعالى {فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ} [الأنبياء: 109] . والمعنى، فانبذ إليهم نبذا واضحا علنا مكشوفا.

{ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ } تذييل لما اقتضته جملة {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً} تصريحا واستلزاما.

والمعنى، لأنّ الله لا يحبهم لأنّهم متصفون بالخيانة فلا تستمر على عهدهم فتكون معاهدا لمن لا يحبهم الله.

{ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ }[59]

تسلية للنبي ﷺ على ما أبدأه به أعداؤه من الخيانة مثل ما فعلت قريظة، وما فعل عبد الله بن أبي سلول وغيرهم من فلول المشركين الذين نجوا يوم بدر. وطمأنة له وللمسلمين بأنّهم سيدالون منهم، ويأتون على بقيّتهم. وتهديد للعدو بأنّ الله سيمكّن منهم المسلمين.

السبق، مستعار للنجاة ممن يطلب، والتفلّت من سلطته. شبّه المتخلّص من طالبه بالسابق. كقوله تعالى {أَمْ

حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا} [العنكبوت: 4]
{ **إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ** } ، أي هم وإن ظهرت نجاتهم الآن، فما هي إلّا نجاة في وقت قليل، فهم لا يعجزون الله، أو لا يعجزون المسلمين.

{ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ} [60]

عطفت على {وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا} [59]، فتفيد مفاد الاحتراس عن مفادها، لأنّ قوله {وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا} يفيد توهينا لشأن المشركين، فتعقيبه بالأمر بالاستعداد لهم لئلّا يحسب المسلمون أنّ المشركين قد صاروا في مكنتهم. ويلزم من ذلك الاحتراس أنّ الاستعداد لهم هو سبب جعل الله إيّاهم لا يعجزون الله ورسوله، لأنّ الله هيأ أسباب استئصالهم ظاهرها وباطنها.

الإعداد، التهيئة والإحضار.

{ **مَا اسْتَطَعْتُمْ** } كلّ ما يدخل تحت قدرة النّاس اتخاذه من العدّة.

والخطاب لجماعة المسلمين وولّاة الأمر منهم، لأنّ ما يراد من الجماعة إنّما يقوم بتنفيذه ولّاة الأمور الذين هم وكلاء الأمّة على مصالحها.

القوّة، كمال صلاحية الأعضاء لعملها، وقد تقدّمت عند قوله {إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [52]، وتطلق القوّة مجازا على شدّة تأثير شيء ذي أثر، وتطلق أيضا على سبب شدّة التأثير، فقوّة الجيش شدّة وقعه على العدو، وقوّته أيضا سلاحه وعتاده، وهو المراد هنا، فهو مجاز مرسل بواسطتين فاتخاذ السيوف والرماح والأقواس والنبال من القوّة في جيوش العصور الماضية، واتخاذ الدبابات والمدافع والطيارات والصواريخ من القوّة في جيوش عصرنا. وبهذا الاعتبار يفسّر ما روى مسلم والترمذي عن عقبة بن عامر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية على المنبر ثم قال: " ألّا إنّ القوّة الرمي قالها ثلاثا "، أي أكملُ أفراد القوّة آلة الرمي، أي في ذلك العصر. وليس المراد حصر القوّة في آلة الرمي.

{ **وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ** } من عطف الخاص على العام، للاهتمام بذلك الخاص.

الرباط، صيغة مفاعلة أتي بها هنا للمبالغة لتدلّ على قصد الكثرة من ربط الخيل للغزو، أي احتباسها وربطها انتظارا للغزو عليها. كقول النبيّ ﷺ: " من ارتبط فرسا في سبيل الله كان روثها وبولها حسنات له".

يقال: ربط الفرس إذا شدّه في مكان حفظه، وقد سمّوا المكان الذي ترتبط فيه الخيل رباطا، لأنّهم كانوا يحرسون الثغور المخوفة راكبين على أفراسهم. ثم أطلق الرباط على محرس الثغر البحري، وبه سموا رباط

(دمياط) بمصر، ورباط (المنستير) بتونس، ورباط (سلا) بالمغرب الأقصى. وقد تقدم شيء من هذا عند قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا} [آل عمران:200]

{ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ } إمّا مستأنفة استئنافا بيانيا، وإمّا في موضع الحال من ضمير {وَأَعِدُّوا}.

عدوّ الله وعدوّهم، هم المشركون، فكان تعريفهم بالإضافة لأنّها أخصر طريق لتعريفهم، ولما تتضمّنه من وجه قتالهم وإرهابهم، ومن ذمّهم، أن كانوا أعداء ربهم، ومن تحريض المسلمين على قتالهم إذ عدّوا أعداء لهم.

الإرهاب، جعل الغير راهبا، أي خائفا، فإن العدو إذا علم استعداد عدوّه لقتاله خافه، ولم يجرأ عليه، فكان ذلك هناء للمسلمين وأمنا من أن يغزوهم أعداؤهم.

{ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ } أعداء لا يعرفهم المسلمون بالتعيين ولا بالإجمال، وهم من كان يضمر للمسلمين عداوة وكيدا، ويتربص بهم الدوائر، مثل بعض القبائل. أي لم تكونوا تعلمونهم قبل هذا الإعلام، وقد علمتموهم الآن إجمالا. أو أريد، لا تعلمونهم بالتفصيل ولكنّكم تعلمون وجودهم إجمالا مثل المنافقين. فالعلم بمعنى المعرفة ولهذا نصب مفعولا واحدا.

{ مِنْ دُونِهِمْ } مؤذن بأنهم قبائل من العرب كانوا ينتظرون ما تنكشف عنه عاقبة المشركين من أهل مكّة من حربهم مع المسلمين، فقد كان ذلك دأب كثير من القبائل كما ورد في السيرة. بمعنى، من جهات أخرى، لأن أصل (دُونِ) أنّها للمكان المخالف، وهذا أولى من حمله على مطلق المغايرة التي هي من إطلاقات كلمة (دون)، لأنّ ذلك المعنى قد أغنى عنه وصفهم بـ {آخَرِينَ}

{ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ } تعريض بالتهديد لهؤلاء الآخرين، فالخبر مستعمل في معناه الكنائي، وهو تعقّبهم والإغراء بهم، وتعريض بالامتنان على المسلمين بأنّهم بمحل عناية الله، فهو يحصي أعداءهم وينبّههم إليهم.

{ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ } وإذ قد كان إعداد القوة يستدعي إنفاقا، وكانت النفوس شحيحة بالمال، تكفّل الله للمنفقين في سبيله بإخلاف ما أنفقوه والإثابة عليه.

سبيل الله، هو الجهاد لإعلاء كلمته.

التوفية، أداء الحقّ كاملا. جعل الله ذلك الإنفاق كالقرض لله، وجعل على الإنفاق جزاء، فسمّى جزاءه توفية على طريقة الاستعارة المكنية. وتدل التوفية على أنّه يشمل الأجر في الدنيا مع أجر الآخرة.

الظلم، هنا مستعمل في النقص من الحقّ، لأنّ نقص الحقّ ظلم، وتسمية النقص من الحق ظلما حقيقة.

{ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [61]

انتقال من بيان أحوال معاملة العدو في الحرب؛ من وفائهم بالعهد، وخيانتهم، وكيف يحلّ المسلمون العهد

معهم إن خافوا خيانتهم، ومعاملتهم إذا ظفروا بالخائنين. والأمر بالاستعداد لهم، إلى بيان أحكام السلم إن طلبوا السلم والمهادنة، وكفّوا عن حالة الحرب. فأمر الله المسلمين بأن لا يأنفوا من السلم وأن يوافقوا من سأله منهم.

الجنوح، الميل، وهو مشتق من جناح الطائر، لأنّ الطائر إذا أراد النزول مال بأحد جناحيه، وهو جناح جانبه الذي ينزل منه.

{ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ } إن مالوا إلى السلم ميل القاصد إليه، كما يميل الطائر الجانح. وإنما لم يقل: وإن طلبوا السلم فأجبهم إليها، للتنبيه على أنّه لا يسعفهم إلى السلم حتّى يعلم أن حالهم حال الراغب، لأنّهم قد يظهرون الميل إلى السلم كيدا.

{ لِلسَّلْمِ } اللام واقعة موقع (إلى) لتقوية التنبيه على أنّ ميلهم إلى السلم ميل حقّ، أي وإن مالوا لأجل السلم ورغبة فيه لا لغرض آخر غيره.

السلم، (بفتح السين وكسرها) ضد الحرب.

{ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } والأمر بالتوكل على الله، بعد الأمر بالجنوح إلى السلم، ليكون النبيّ ﷺ معتمدا في جميع شأنه على الله تعالى، ومفوّضا إليه تسيير أموره، لتكون مدة السلم مدة تقوّ واستعداد، وليكفيه الله شرّ عدوه إذا نقضوا العهد. ولذلك عقّب الأمر بالتوكل بتذكيره بأنّ الله السميع العليم.

{ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } أفاد قصر معنى الكمال في السمع والعلم، أي فهو سميع منهم ما لا تسمع ويعلم ما لا تعلم. وقصر هذين الوصفين بهذا المعنى على الله تعالى عقب الأمر بالتوكل عليه يفضي إلى الأمر بقصر التوكل عليه لا على غيره. وفي الجمع بين الأمر بقصر التوكل عليه وبين الأمر بإعداد ما استطاع من القوة للعدو، دليل بيّن على أنّ التوكل أمر غير تعاطي أسباب الأشياء، فتعاطي الأسباب فيما هو من مقدور الناس، والتوكل فيما يخرج عن ذلك.

واعلم أن ضمير جمع الغائبين في قوله {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ} وقع في هذه الآية عقب ذكر طوائف في الآيات قبلها. فقيل: عاد ضمير الغيبة إلى المشركين، قاله قتادة، وعكرمة، والحسن، وجابر بن زيد، ورواه عطاء عن ابن عباس، وقيل: عاد إلى أهل الكتاب، قاله مجاهد ، قيل: هم قريظة والنضير وبنو قينقاع.

{ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ [62] وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [63]

لما كان طلب السلم والهدنة من العدو قد يكون خديعة حربيّة، ليغروا المسلمين بالمصالحة ثم يأخذوهم على

غرّة، أيقظ الله رسوله لهذا الاحتمال فأمره بأن يأخذ الأعداء على ظاهر حالهم، ويحملهم على الصدق، لأنّه الخلق الإسلامي، وشأن أهل المروءة، ولا تكون الخديعة بمثل نكث العهد. فإذا ساقهم كفرُهم على ارتكاب مثل هذا التسفّل، فإنّ الله تكفّل، للوفي بعهده، أن يقيه شر خيانة الخائنين. وهذا الأصل، وهو أخذ النّاس بظواهرهم، شعبة من شعب دين الإسلام قال تعالى {فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: 4] وفي الحديث: "آية المنافق ثلاث، منها: وإذا وعد أخلف".

ومن أحكام الجهاد عن المسلمين ان لا يخفر للعدو بعهد.

والمعنى، إن كانوا يريدون من إظهار ميلهم إلى المسالمة خديعة فإنّ الله كافيك شرّهم. وليس هذا هو مقام نبذ العهد الذي في قوله {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ} [58] فإن ذلك مقام ظهور أمارات الخيانة من العدو، وهذا مقام إضمارهم الغدر دون أمارة على ما إضمروه.

{ **فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ** } دلّت على تكفّل كفايته، وقد أريد منه أيضا الكناية عن عدم معاملتهم بهذا الاحتمال، وأن لا يتوجّس منه خيفة، وأنّ ذلك لا يضرّه.

الخديعة، تقدّمت في قوله تعالى {يُخَادِعُونَ اللَّهَ} [البقرة:9]

حسب، معناه كاف وهو صفة مشبّهة بمعنى اسم الفاعل، أي حاسبك، أي كافيك، وقد تقدم عند قوله تعالى {وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران:173]

{ **هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ** } مستأنفة مسوقة مساق الاستدلال على أنّه حسبه، وعلى المعنى التعريضي وهو عدم التحرّج من احتمال قصدهم الخيانة والتوجّس من ذلك الاحتمال خيفة. والمعنى، فإن الله قد نصرك من قبل وقد كنت يومئذ أضعف منك اليوم، فنصره إيّاك عليهم مع مخاتلتهم، ومع كونك في قوة من المؤمنين الذين معك، أولى وأقرب. لأنّ النصر يقوّي العزيمة، ويثبت رأي المنصور، وضدّه يشوّش العقل، ويوهن العزم. وإضافة النصر إلى الله تنبيه على أنّه نصر خارق للعادة، وهو النصر بالملائكة والخوارق.

{ **وَبِالْمُؤْمِنِينَ** } عطف على {بِنَصْرِهِ} وأعيد حرف الجر بعد واو العطف لدفع توهّم أن يكون معطوفا على اسم الجلالة، فيوهم أنّ المعنى، ونصر المؤمنين، مع أنّ المقصود أن وجود المؤمنين تأييد من الله لرسوله إذ وفّقهم لاتّباعه، فشرح صدره بمشاهدة نجاح دعوته وتزايد أمّته ولكون المؤمنين جيشا ثابتي الجنان.

{ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ** } والتأليف بين قلوب المؤمنين منّة أخرى على الرّسول، إذ جعل أتباعه متحابين وذلك أعون له على سياستهم، وأرجى لاجتناء النفع بهم، إذ يكونون على قلب رجل واحد، وقد كان العرب يفضلون الجيش المؤلف من قبيلة واحدة، لأنّ ذلك أبعد عن حصول التنازع بينهم.

وهو أيضا منّة على المؤمنين إذ نزع من قلوبهم الأحقاد والإحن، التي كانت دأب النّاس في الجاهلية، فكانت سبب التقاتل بين القبائل، بعضها مع بعض، وبين بطون القبيلة الواحدة.

{ **لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ** } استئناف ناشئ عن مساق الامتنان بهذا الائتلاف، فهو بياني، أي لو حاولت تأليفهم ببذل المال العظيم ما حصل التآلف بينهم.

ومن أعظم مشاهد ذلك ما حدث بين الأوس والخزرج من الإحن قبل الإسلام مما نشأت عنه حرب بُعاث بينهم، ثم أصبحوا بعد حين إخوانا أنصارا لله تعالى، وأزال الله من قلوبهم البغضاء بينهم.

{ **وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** } الاستدراك لأجل ما يتوهّم من تعذر التأليف بينهم.

والخطاب في {أَنْفَقْتَ} و {أَلَّفْتَ} للرسول ﷺ باعتبار أنه أول من دعا إلى الله.

{ **إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } وإذ كان هذا التكوين صنعا عجيبا ذيّل الله الخبر بهذا القول. فهو قوي القدرة فلا يعجزه شيء، محكم التكوين فهو يكوّن المتعذّر، ويجعله كالأمر المسنون المألوف.

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }[64]

استئناف ابتدائي بالإقبال على خطاب الرسول ﷺ بأوامر وتعاليم عظيمة، مهد لقبولها وتسهيلها بما مضى من التذكير بعجيب صنع الله والامتنان بعنايته برسوله والمؤمنين، وإظهار أنّ النجاح والخير في طاعته وطاعة الله، من أول السورة إلى هنا، فموقع هذه الآية بعد التي قبلها كامل الاتساق والانتظام. فإنّه لمّا أخبره بأنّه حسبه وكافيه، وبيّن ذلك بأنّه أيّده بنصره فيما مضى وبالمؤمنين، فقد صار للمؤمنين حظّ في كفاية الله تعالى رسوله ﷺ فلا جرم أنتج ذلك أن حسبه الله والمؤمنون، فكانت الآية كالفذلكة للجملة التي قبلها.

{ **وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } وفي عطف {الْمُؤْمِنِينَ} على اسم الجلالة هنا تنويه بشأن كفاية الله النبي ﷺ بهم.

وقيل يجعل {وَمَنِ اتَّبَعَكَ} مفعولا معه لقوله {حَسْبُكَ}. وعلى هذا التقدير يكون التنويه بالمؤمنين في جعلهم مع النبي ﷺ في هذا التشريف، والتفسير الأول أولى وأرشق.

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ } [65]

أعيد نداء النبيّ ﷺ للتنويه بشأن الكلام الوارد بعد النداء وهذا الكلام في معنى المقصد بالنسبة للجملة التي قبله، لأنّه لمّا تكفّل الله له الكفاية وعطف المؤمنين في إسناد الكفاية إليهم، احتيج إلى بيان كيفية كفايتهم. وتلك هي الكفاية، بالذب عن الحوزة وقتال أعداء الله.

التحريض، المبالغة في المطلب.

{ **إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** }.

ضمير {مِنْكُمْ} خطاب للنبي ﷺ وللمؤمنين.

{ **صَابِرُونَ** } ثابتون في القتال، لأنّ الثبات على الآلام صبر، لأنّ أصل الصبر تحمل المشاق، والثبات منه، وفي الحديث: " لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لاقيتم فاصبروا ".

أي حرّض المؤمنين الصابرين الذين لا يتزلزلون. فالمقصود أن لا يكون فيهم من هو ضعيف النفس فيفشل الجيش.

وذكر في جانب جيش المسلمين في المرتين عدد العشرين وعدد المائة، وفي جانب جيش المشركين عدد المائتين وعدد الألف، إيماء إلى قلة جيش المسلمين في ذاته، مع الإيماء إلى أنّ ثباتهم لا يختلف باختلاف حالة عددهم في أنفسهم، فإنّ العادة أنّ زيادة عدد الجيش تقوّي نفوس أهله، ولو مع كون نسبة عددهم من عدد عدوهم غير مختلفة، فجعل الله الإيمان قوة لنفوس المسلمين تدفع عنهم وهم استشعار قلّة عدد جيشهم في ذاته.

أما اختيار لفظ العشرين للتعبير عن مرتبة العشرات دون لفظ العشرة، فلعلّ وجهه أنّ لفظ العشرين أسعد بتقابل السكنات في أواخر الكلم، لأنّ للفظة مائتين من المناسبة بسكنات كلمات الفواصل من السورة، ولذلك كثر المائة مع الألف لأن بعدها ذكر مميز العدد بألفاظ تناسب سكنات الفاصلة، وهو قوله {لا يَفْقَهُونَ} فتعين هذا اللفظ قضاء لحق الفصاحة.

فهذا الخبر كفالة للمسلمين بنصر العدد منهم على عشرة أمثاله، وهو يستلزم وجوب ثبات العدد منهم لعشرة أمثاله، للأمر بالثبات الواقع في قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا} [45]، وإطلاق النهي عن الفرار الواقع في قوله {فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ} [15] كما تقدم.

وهو من هذه الناحية التشريعية حكم شديد شاق اقتضته قلّة عدد المسلمين يومئذ وكثرة عدد المشركين، ولم يصل إلينا أنّ المسلمين احتاجوا إلى العمل به في بعض غزواتهم، وقصارى ما علمنا أنّهم ثبتوا لثلاثة أمثالهم في وقعة بدر، فقد كان المسلمون زهاء ثلاثمائة وكان المشركون زهاء الألف، ثم نزل التخفيف من بعد ذلك بالآية التالية.

{ **بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ** } والباء للسببية، أي بعدم فقههم.

الفقه، فهم الأمور الخفيّة، والمراد نفي الفقه عنهم من جانب معرفة الله تعالى بقرينة تعليق الحكم بهم بعد إجراء صلة الكفر عليهم.

وإنّما جعل الله الكفر سببا في انتفاء الفقاهة عنهم، لأن الكفر من شأنه إنكار ما ليس بمحسوس فصاحبه ينشأ على إهمال النظر، وعلى تعطيل حركات فكره، فهم لا يؤمنون إلّا بالأسباب الظاهرية، فيحسبون أنّ كثرتهم توجب لهم النصر على الأقلين، فقد شاع قولهم: " إنّما العزّة للكاثر". ولأنّهم لا يؤمنون بما بعد الموت من

نعيم وعذاب، فهم يخشون الموت فإذا قاتلوا ما يقاتلون إلّا في الحالة التي يكون نصرهم فيها أرجح.
والمؤمنون يعوّلون على نصر الله ويثبتون للعدو رجاء إعلاء كلمة الله، ولا يهابون الموت في سبيل الله، لأنّهم موقنون بالحياة الأبدية بعد الموت.

{ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } [66]

هذه الآية نزلت بعد نزول الآية التي قبلها بمدّة. ولعلّه بعد نزول جميع سورة الأنفال، ولعلّها وضعت في هذا الموضع لأنّها نزلت مفردة غير متّصلة بآيات سورة أخرى، فجعل لها هذا الموضع لأنّه أنسب بها لتكون متصلة بالآية التي نسخت هي حكمها، ولم أر من عين زمن نزولها. ولا شك أنه كان قبل فتح مكة فهي مستأنفة استئنافا ابتدائيا محضا لأنّها آية مستقلة.

{ الْآنَ } اسم ظرف للزمان الحاضر. قيل: أصله أوان، بمعنى زمان. ولمّا أريد تعيينه للزمان الحاضر لازمته لام التعريف بمعنى العهد الحضوري، فصار مع اللام كلمة واحدة ولزمه النصب على الظرفيّة. وهو الوقت الذي علم الله عنده انتهاء الحاجة إلى ثبات الواحد من المسلمين للعشرة من المشركين، بحيث صارت المصلحة في ثبات الواحد لاثنين، لا أكثر، رفقا بالمسلمين واستبقاء لعددهم.

روى الطبري عن ابن عباس: " كان لكلّ رجل من المسلمين عشرة لا ينبغي أن يفرّ منهم، وكانوا كذلك حتى أنزل الله { الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً}، فعبأ لكلّ رجل من المسلمين رجلين من المشركين فهذا حكم وجوب نسخ بالتخفيف الآتي.

{ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً } دلالة على أنّ ثبات الواحد من المسلمين للعشرة من المشركين كان وجوبا وعزيمة وليس ندبا، لأنّ المندوب لا يثقل على المكلفين، ولأنّ إبطال مشروعية المندوب لا يسمى تخفيفا، ثم إذا أبطل الندب لزم أن يصير ثبات الواحد للعشرة مباحا مع أنّه تعريض الأنفس للتهلكة.

{ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً } في موضع الحال، أي خفّف الله عنكم وقد علم من قبل أنّ فيكم ضعفا، فالكلام كالاعتذار على ما في الحكم السابق من المشقّة بأنّها مشقّة اقتضاها استصلاح حالهم.

الضعف،(بالضم والفتح) عدم القدرة على الأعمال الشديدة والشّاقة، ويكون في عموم الجسد وفي بعضه، وهو هنا ضعف الرهبة من لقاء العدد الكثير في قلة.

{ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ } الفاء لتفريع التشريع على التخفيف. وعبر عن وجوب ثبات العدد من المسلمين لمثليه من المشركين بلفظي عددين معينين ومثليهما: ليجيء الناسخ على وفق المنسوخ، فقوبل ثبات العشرين للمائتين بنسخه إلى ثبات مائة واحدة للمائتين فأبقي

مقدار عدد المشركين كما كان عليه في الآية المنسوخة، إيماء إلى أنّ موجب التخفيف كثرة المسلمين، لا قلة المشركين. وقوبل ثبات عدد مائة من المسلمين لألف من المشركين بثبات ألف من المسلمين لألفين من المشركين، إيماء إلى أنّ المسلمين الذين كان جيشهم لا يتجاوز مرتبة المئات صار جيشهم يعد بالآلاف.

{ **صَابِرَةٌ** } أعيد الوصف لأنّ المقام يقتضي التنويه بالاتصاف بالثبات.

{ **بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** } أمْرُه، فيجوز أن يكون المراد أمره التكليفي، باعتبار ما تضمّنه الخبر من الأمر، كما تقدم، ويجوز أن يراد أمره التكويني باعتبار صورة الخبر والوعد. وإذْن الله حاصل في كلتا الحالتين المنسوخة والناسخة. وإنما صرّح به هنا، دون ما سبق، لأنّ غلب الواحد للعشرة أظهر في الخرق للعادة، فيعلم بدءا أنّه بإذن الله، وأمّا غلب الواحد الاثنين فقد يحسب ناشئا عن قوّة أجساد المسلمين، فنبّه على أنّه بإذن الله، ليعلم أنّه مطّرد في سائر الأحوال، ولذلك ذيل بقوله { وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ }.

{ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** [68] **لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } [68]

استئناف ابتدائي مناسب لما قبله سواء نزل بعقبه أم تأخر نزوله عنه فكان موقعه هنا بسبب موالاة نزوله لنزول ما قبله أوكأن وضع الآية هنا بتوقيف خاص. والمناسبة ذكر بعض أحكام الجهاد وكان أعظم جهاد مضى هو جهاد يوم بدر. لا جرم نزلت هذه الآية بعد قضية فداء أسرى بدر مشيرة إليها.

وعندي أن هذا تشريع مستقبل أخّره الله تعالى رفقا بالمسلمين الذين انتصروا ببدر وإكراما لهم على ذلك النصر المبين وسدا لخلّتهم التي كانوا فيها، فنزلت لبيان الأمر الأجدر فيما جرى في شأن الأسرى في وقعة بدر. وذلك ما رواه مسلم عن ابن عباس، والترمذي عن ابن مسعود، ما مختصره، " أنّ المسلمين لما أسروا الأسارى يوم بدر وفيهم صناديد المشركين سأل المشركون رسول الله ﷺ أن يفاديهم بالمال وعاهدوا على أن لا يعودوا إلى حربه فقال رسول الله ﷺ للمسلمين ما ترون في هؤلاء الأسارى، قال أبو بكر: " يا نبيّ الله هم بنو العمّ والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوّة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام"، وقال عمر: أرى أن تمكّننا فنضرب أعناقهم فإنّ هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فَهَوِيَ رسولُ الله ما قال أبو بكر فأخذ منهم الفداء"، كما رواه أحمد عن ابن عباس فأنزل الله {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى}.

وهذه القضية إحدى قضايا جاء فيها القرآن مؤيدا لرأي عمر بن الخطاب. فقد روى مسلم عن عمر، قال: "وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر."

ومعنى قوله: هوي رسول الله ما قال أبو بكر: أن رسول الله أحب واختار ذلك لأنه من اليسر والرحمة

بالمسلمين إذ كانوا في حاجة إلى المال، وكان رسول الله ﷺ ما خير بين أمرين إلّا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما. وروي أن ذلك كان رغبة أكثرهم وفيه نفع للمسلمين، وهم في حاجة إلى المال.

ولمّا استشار رسول الله ﷺ عليه أهل مشورته تعيّن أنّه لم يوح الله إليه بشيء في ذلك، وأنّ الله أوكل ذلك إلى اجتهاد رسوله ﷺ، فرأى أن يستشير النّاس ثم رجّح أحد الرأيين باجتهاد. وقد خفي على النبي ﷺ شيء لم يعلمه إلّا الله وهو إضمار بعضهم بعد الرجوع إلى قومهم أن يتأهبوا لقتال المسلمين من بعد.

{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى } الكلام موجّه للمسلمين الذين أشاروا بالفداء، ويدلّ لذلك قوله {تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا} فإن الذين أرادوا عرض الدنيا هم الذين أشاروا بالفداء، وليس لرسول الله ﷺ في ذلك حظ.

وجيء بـ **{ نبيّ }** نكرة إشارة إلى أنّ هذا حكم سابق في حروب الأنبياء في بني إسرائيل، وهو في الإصحاح عشرين من سفر التثنية.

{ مَا كَانَ } ومثل هذا النفي في القرآن قد يجيء بمعنى النهي نحو {وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ} [الأحزاب: 53]. وقد يجيء بمعنى أنّه لا يصلح، كما هنا، لأنّ هذا الكلام جاء تمهيدا للعتاب، فتعيّن أن يكون مرادا منه ما لا يصلح من حيث الرأي والسياسة. وليس المراد أنّه لا يصلح أن تقع في يد النبي أسرى، لأن أخذ الأسرى من شؤون الحرب، وهو من شؤون الغلب، إذا استسلم المقاتلون، فلا يعقل أحد نفيه عن النبي. فتعيّن أنّ المراد نفي أثره، وإذا نفي أثر الأسر صدق بأحد أمرين: وهما المنّ عليهم بإطلاقهم، أو قتلهم، ولا يصلح المن هنا لأنّه ينافي الغاية وهي حتى يثخن في الأرض، فتعيّن أن المقصود قتل الأسرى الحاصلين في يده، أي أنّ ذلك الأجدر به حين ضعف المؤمنين، خضْدا لشوكة أهل العناد. وقد صار حكم هذه الآية تشريعا للنبي ﷺ فيمن يأسرهم في غزواته.

الإثخان، الشدّة والغلظة في الأذى. يقال أثخنته الجراحة وأثخنه المرض إذا ثقل عليه، وقد شاع إطلاقه على شدة الجراحة على الجريح. وقد حمله بعض المفسّرين في هذه الآية على معنى الشدّة والقوّة. فالمعنى، حتى يتمكّن في الأرض، أي يتمكّن سلطانه وأمره.

{ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ } والكلام عتاب للذين أشاروا باختيار الفداء والميل إليه وغض النظر عن الأخذ بالحزم في قطع دابر صناديد المشركين، فإن في هلاكهم خضدا لشوكة قومهم فهذا ترجيح للمقتضى السياسي العرضي على المقتضى الذي بني عليه الإسلام وهو التيسير والرفق في شؤون المسلمين بعضهم مع بعض كما قال تعالى {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: 29]. وقد كان هذا المسلك السياسي خفيّا حتّى كأنّه مما استأثر الله به.

الإرادة، هنا بمعنى المحبة، أي تحبّون منافع الدنيا والله يحب ثواب الآخرة، ومعنى محبة الله إياها محبته ذلك للنّاس، أي يحب لكم ثواب الآخرة، فعلق فعل الإرادة بذات الآخرة.

{عَرَضَ الدُّنْيَا } هو المال، وإنّما سمي عرضا لأنّ الانتفاع به قليل اللبث، فأشبه الشيء العارض إذ العروض مرور الشيء وعدم مكثه لأنه يعرض للماشين بدون تهيّؤ.

ويجوز عندي أن يكون قوله **{ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا }** مستعملا في معنى الاستفهام الإنكاري. والمعنى، لعلّكم تحبّون عرض الدنيا، فإنّ الله يحبّ لكم الثواب وقوة الدين، تحذيرا لهم من التوغّل في إيثار الحظوظ العاجلة.

{ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } عطف على جملة {وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ} عطفا يؤذن بأن لهذين الوصفين أثرا في أنّه يريد الآخرة، فيكون كالتعليل، وهو يفيد أنّ حظ الآخرة هو الحظّ الحقّ، ولذلك يريده العزيز الحكيم.

فوصف (العزيز) يدلّ على الاستغناء عن الاحتياج، وعلى الرفعة والمقدرة، ووصف (الحكيم) يقتضي أنّه العالم بالمنافع الحقّ على ما هي عليه، لأنّ الحكمة هي العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه.

{ لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ الكلام السابق يؤذن بأنّ مفاداة الأسرى أمر مرهوب تخشى عواقبه.

{ لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ } الكتابة التي هي التعيين والتقدير، وقد نكّر الكتاب تنكير نوعية وإبهام، أي لولا وجود سنة تشريع سبق عن الله. وذلك الكتاب هو عذر المستشار وعذر المجتهد في اجتهاده إذا أخطأ، فقد استشارهم النبي ﷺ فأشاروا بما فيه مصلحة رأوها وأخذ بما أشاروا به ولولا ذلك لكانت مخالفتهم لما يحبه الله اجتراء على الله يوجب أن يمسهم عذاب عظيم.

وهذه الآية تدلّ على أن لله حكما في كل حادثة، وأنّه نصب على حكمه أمارة هي دليل المجتهد وأن مخطئه من المجتهدين لا يأثم بل يؤجر.

ويجوز أن يكون العذاب المنفي عذابا في الدنيا، أي لولا قدر من الله سبق من لطفه بكم فصرف بلطفه وعنايته عن المؤمنين عذابا كان من شأن أخذهم الفداء أن يسبّبه لهم ويوقعهم فيه. وهذا العذاب عذاب دنيوي لأن عذاب الآخرة لا يترتب إلّا على مخالفة شرع سابق، ولم يسبق من الشرع ما يحرم عليهم أخذ الفداء. كيف وقد خيروا فيه لمّا استشيروا. وهو أيضا عذاب من شأنه أن يجره عملهم جر الأسباب لمسبباتها.

فالمراد بالعذاب أنّ أولئك الأسرى، الذين فادوهم كانوا صناديد المشركين وقد تخلّصوا من القتل والأسر، يحملون في صدورهم حنقا فكان من معتاد أمثالهم في مثل ذلك أن يسعوا في قومهم إلى أخذ ثار قتلاهم واسترداد أموالهم فلو فعلوا لكانت دائرة عظيمة على المسلمين، ولكنّ الله سلّم المسلمين من ذلك فصرف المشركين عن محبة أخذ الثأر، وألهاهم بما شغلهم عن معاودة قتال المسلمين. فذلك الصرف هو من الكتاب الذي سبق عند الله تعالى.

{ **فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** }[69]

الفاء تؤذن بتفريع هذا الكلام على ما قبله. وفي هذا التفريع وجهان.

الوجه الأول، الذي جرى عليه كلام المفسّرين، أنّه تفريع على قوله {لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ} [68]، أي لولا ما سبق من حلّ الغنائم لكم لمسكم عذاب عظيم، وإذ قد سبق الحلّ فلا تبعة عليكم في الانتفاع بمال الفداء. وقد روي أنه لما نزل قوله تعالى {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى} [67] الآية. أمسكوا عن الانتفاع بمال الفداء، فنزل قوله تعالى {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً}. وعلى هذا الوجه قد سمّى مال الفداء غنيمة تسمية بالاسم اللغوي دون الاسم الشرعي، لأنّ الغنيمة في اصطلاح الشرع هي ما افتكه المسلمون من مال العدو بالإيجاف عليهم.

الوجه الثاني، يظهر لي أن التفريع ناشئ على التحذير من العود إلى مثل ذلك في المستقبل، وأنّ المعنى فاكتفوا بما تغنمونه ولا تفادوا الأسرى إلى أن تثخنوا في الأرض. وهذا هو المناسب لإطلاق اسم الغنيمة هنا إذ لا ينبغي صرفه عن معناه الشرعي. ولما تضمّن قوله {لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ} [68]، امتنانا عليهم بأنّه صرف عنهم بأس العدو. فرّع على الامتنان الإذنَ لهم بأن ينتفعوا بمال الفداء في مصالحهم، ويتوسّعوا به في نفقاتهم، دون نكد ولا غصّة، فإنّهم استغنوا به مع الأمن من ضرّ العدو بفضل الله.

{ **فَكُلُوا** } عبر عن الانتفاع الهنيء بالأكل. لأنّ الأكل أقوى كيفيات الانتفاع بالشيء. والأمر مستعمل في المنّة ولا يحمل على الإباحة هنا، لأنّ إباحة المغانم مقرّرة من قبل يوم بدر.

{ **حَلالاً** } حالا موسّسة لا مؤكّدة لمعنى الإباحة.

الطيب، النفيس في نوعه، أي حلالا من خير الحلال.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ** } وذيّل ذلك بالأمر بالتقوى، لأنّ التقوى شكر الله على ما أنعم من دفع العذاب عنهم.

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تعليل للأمر بالتقوى، وتنبيه على أنّ التقوى شكر على النعمة، فحرف التأكيد للاهتمام، وهو مغن غناء فاء التفريع.

{ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** }[70]

استئناف ابتدائي، وهو إقبال على خطاب النبيّ ﷺ بشيء يتعلّق بحال سرائر بعض الأسرى، بعد أن كان الخطاب متعلّقا بالتحريض على القتال وما يتبعه، وقد كان العباس في جملة الأسرى وكان ظهر منه ميل إلى الإسلام. قبل خروجه إلى بدر، وكذلك كان عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث ابن عبد المطلب، وقد فدى العباس نفسه وفدى ابني أخويه: عقيلا ونوفلا. وقال للنبيّ ﷺ: " تركتني أتكفّف قريشا ".

فنزلت هذه الآية في ذلك، وهي ترغيب لهم في الإسلام في المستقبل، ولذلك قيل لهم هذا القول قبل أن يفارقوهم.

{ **مَنْ فِي أَيْدِيكُمْ** } من في ملكتكم ووثاقكم، فالأيدي مستعارة للملك. وجمعها باعتبار عدد المالكين. وكان الأسرى مشركين، فإنهم ما فادوا أنفسهم إلا لقصد الرجوع إلى أهل الشرك.

{ **فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً** } والمراد بالخير محبة الإيمان والعزم عليه، أي فإذا آمنتم بعد هذا الفداء يؤتكم الله خيرا مما أخذ منكم. وليس إيتاء الخير على مجرد محبة الإيمان والميل إليه، كما أخبر العباس عن نفسه، بل المراد به ما يترتّب على تلك المحبة من الإسلام بقرينة قوله {وَيَغْفِرْ لَكُمْ} وكذلك ليس الخير الذي في قلوبهم هو الجزم بالإيمان، لأن ذلك لم يدّعوه ولا عرفوا به، قال ابن وهب عن مالك: " كان أسرى بدر مشركين ففادوا ورجعوا ولو كانوا مسلمين لأقاموا ".

{ **يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ** } ما أخذ منهم هو مال الفداء، والخير منه هو الأوفر من المال بأن ييسر لهم أسباب الثروة بالعطاء من أموال الغنائم وغيرها. فقد أعطى رسول الله ﷺ العباس بعد إسلامه من فيء البحرين. وإنما حملنا الخير على الأفضل من المال، لأنّ ذلك هو الأصل في التفضيل بين شيئين أن يكون تفضيلا في خصائص النوع، ولأنّه عطف عليه قوله {وَيَغْفِرْ لَكُمْ} وذلك هو خير الآخرة المترتّب على الإيمان، لأنّ المغفرة لا تحصل إلا للمؤمن.

{ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** }التذييل للإيماء إلى عظم مغفرته التي يغفر لهم.

{ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [71]

{ **يُرِيدُوا** } الضمير عائد إلى من في أيديكم من الأسرى. وهذا كلام خاطب به الله رسوله ﷺ اطمئنانا لنفسه، وليبلّغ مضمونه إلى الأسرى، ليعلموا أنّهم لا يغلبون الله ورسوله. وفيه تقرير للمنّة على المسلمين التي أفادها قوله {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً} [69]، فكمّل ذلك الإذن والتطييب بالتهنئة والطمأنة بأن ضمن لهم إن خانهم الأسرى بعد رجوعهم إلى قومهم ونكثوا عهدهم وعادوا إلى القتال، بأنّ الله يمكّن المسلمين منهم مرة أخرى.

الخيانة، نقض العهد وما في معنى العهد كالأمانة. فالعهد، الذي أعطوه، هو العهد بأن لا يعودوا إلى قتال المسلمين، وهذه عادة معروفة في أسرى الحرب إذا أطلقوهم. فمن الأسرى من يخون العهد ويرجع إلى قتال من أطلقوه.

ويجوز أن يراد بالعهد ما نكثوا من التزامهم للنبي ﷺ حين دعاهم إلى الإسلام من تصديقه إذا جاءهم ببيّنة، فلما تحداهم بالقرآن كفروا به وكابروا.

{ **فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ** } سكت معظم التفاسير وكتب اللغة عن تبيين حقيقة هذا التركيب وبيان اشتقاقه وألم به بعضهم إلماما خفيفا بأن فسروا (أمكن) بأقدر، فهل هو مشتق من المكان أو من الإمكان بمعنى الاستطاعة أو من المكانة بمعنى الظفر؟

والذي أفهمه من تصاريف كلامهم أن هذا الفعل مشتق من المكان وأنّ الهمزة فيه للجعل وأن معني أمكنه من كذا، جعل له منه مكانا أي مقرا، وأنّ المكان مجاز أو كناية عن كونه في تصرفه كما يكون المكان مجالا للكائن فيه. أي أمكنك منهم يوم بدر، أي لم ينفلتوا منك. والمعنى أنه أتاكم بهم إلى بدر على غير ترقب منكم فسلطكم عليهم.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تذييل، أي عليم بما في قلوبهم حكيم في معاملتهم على حسب ما يعلم منهم.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [72]

هذه الآيات استئناف ابتدائي للإعلام بأحكام موالاة المسلمين للمسلمين الذين هاجروا والذين لم يهاجروا وعدم موالاتهم للذين كفروا، نشأ عن قول العباس بن عبد المطلب حين أسر ببدر أنّه مسلم وأنّ المشركين أكرهوه على الخروج إلى بدر. ولعلّ بعض الأسرى غيره قد قال ذلك وكانوا صادقين، فلعلّ بعض المسلمين عطفوا عليهم وظنّوهم أولياء لهم، فأخبر الله المسلمين وغيرهم بحكم من آمن واستمر على البقاء بدار الشرك.

تعرضت الآية إلى مراتب الذين أسلموا، فابتدأت ببيان فريقين اتّحدت أحكامهم في الولاية والمؤاساة حتى صاروا بمنزلة فريق واحد، وهؤلاء هم فريقا المهاجرين والأنصار الذين امتازوا بتأييد الدين. فالمهاجرون امتازوا بالسبق إلى الإسلام وتكبّدوا مفارقة الوطن، والأنصار امتازوا بإيوائهم، وبمجموع العملين حصل إظهار البراءة من الشرك وأهله، وقد اشترك الفريقان في أنّهم آمنوا وأنهم جاهدوا، واختص المهاجرون بأنهم هاجروا واختص الأنصار بأنهم آووا ونصروا، وكان فضل المهاجرين أقوى لأنّهم فضّلوا الإسلام على وطنهم وأهليهم، وبادر إليه أكثرهم، فكانوا قدوة ومثالا صالحا للنّاس.

المهاجرة، هجر البلاد، أي الخروج منها وتركها. وأصل الهجرة الترك واشتق منه صيغة المفاعلة لخصوص ترك الدار والقوم، لأنّ الغالب عندهم كان أنّهم لا يتركون قومهم ويتركهم قومهم، إذ لا يفارق أحد قومه إلّا لسوء معاشرة تنشأ بينه وبينهم.

وقد كانت الهجرة من أشهر أحوال المخالفين لقومهم في الدين فقد هاجر إبراهيم عليه السلام {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ

إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الصافات: 99]. وهاجر لوط عليه السلام {وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [العنكبوت: 26]، وهاجر موسى عليه السلام بقومه، وهاجر محمد ﷺ وهاجر المسلمون بإذنه إلى الحبشة، ثم إلى المدينة (يثرب)، ولمّا استقر المسلمون من أهل مكّة بالمدينة غلب عليهم وصف المهاجرين وأصبحت الهجرة صفة مدح في الدين، ولذلك قال النبي ﷺ في مقام التفضيل: " لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار"، وقال للأعرابي: " ويحك إن شأنها شديد"، وقال : " لا هجرة بعد الفتح ".

الإيواء، تقدم عند قوله تعالى { فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ } [26]

النصر، تقدّم عند قوله تعالى {وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً - إلى قوله - وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ} [البقرة:123]

والمراد بالنصر هنا، النصر الحاصل قبل الجهاد، وهو نصر النبي ﷺ والمسلمين بأنّهم يحمونهم بما يحمون به أهلهم، ولذلك غلب على الأوس والخزرج وصف الأنصار.

{ **أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** } اسم الإشارة لإفادة الاهتمام بتمييزهم للأخبار عنهم، وللتعريض بالتعظيم لشأنهم، ولذلك لم يؤت بمثله في الأخبار عن أحوال الفرق الأخرى.

ولمّا أطلق الله الولاية بينهم احتمل حملها على أقصى معانيها، وإن كان موردها في خصوص ولاية النصر، فإنّ ذلك كورود العام على سبب خاص، قال ابن عباس {أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [75] يعني في الميراث، جعل بين المهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام، حتّى أنزل الله قوله {وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} [75]. وهذا قول مجاهد وعكرمة وقتادة والحسن. وروي عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وهو قول أبي حنيفة وأحمد.

وقال كثير من المفسّرين هذه الولاية هي في الموالاة والمؤازرة والمعاونة دون الميراث اعتدادا بأنّها خاصة بهذا الغرض وهو قول مالك بن أنس والشافعي. وروي عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت وابن عمر وأهل المدينة.

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ** }

جاء على أسلوب تقسيم الفرق فعطف كما عطفت الجمل بعده، ومع ذلك قد جعل تكملة لحكم الفرقة المذكورة قبله. فإنّ وصف الإيمان يقابله وصف الشرك، و وصف الهجرة يقابله وصف المكث بدار الشرك، فلمّا بيّن أوّل الآية ما لأصحاب الوصفين (الإيمان والهجرة) من الفضل وما بينهم من الولاية انتقلت إلى بيان حال الفريق الذي يقابل أصحاب الوصفين وهو فريق ثالث، فبيّنت حكم المؤمنين الذين لم يهاجروا، فأثبتت لهم وصف الإيمان وأمرت المهاجرين والأنصار بالتبرئي من ولايتهم حتّى يهاجروا، فلا يثبت بينهم وبين أولئك حكم التوراث ولا النصر إلّا إذا طلبوا النصر على قوم فتنوهم في دينهم.

وفي نفي ولاية المهاجرين والأنصار لهم، مع السكوت عن كونهم أولياء للذين كفروا، دليل على أنّهم معتبرون مسلمين ولكنّ الله أمر بمقاطعتهم حتى يهاجروا ليكون ذلك باعثا لهم على الهجرة.

الوَلاية، (بفتح الواو)، وهي اسم لمصدر تولّاه، وقرأها حمزة وحده (بكسر الواو). والفتح والكسر وجهان متساويان مثل الدلالة بفتح الدال وكسرها.

{ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ }

ظرفية مجازية، تؤول إلى معنى التعليل، أي طلبوا ان تنصروهم لأجل الدين، أي لردّ الفتنة عنهم في دينهم إذ حاول المشركون إرجاعهم إلى دين الشرك وجب نصرهم، لأنّ نصرهم للدين ليس من الولاية لهم بل هو من الولاية للدين ونصره، وذلك واجب عليهم سواء استنصرهم النّاس أم لم يستنصروهم إذا توفر داعي القتال، فجعل الله استنصار المسلمين الذين لم يهاجروا من جملة دواعي الجهاد.

{ عَلَيْكُمُ النَّصْرُ } من صيغ الوجوب، أي فواجب عليكم نصرهم.

{ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ } استثناء من متعلق النصر وهو المنصور عليهم، ووجه ذلك أنّ الميثاق يقتضي عدم قتالهم إلّا إذا نكثوا عهدهم مع المسلمين، وعهدهم مع المسلمين لا يتعلق إلّا بالمسلمين المتميّزين بجماعة ووطن واحد، وهم يومئذ المهاجرون والأنصار، فأمّا المسلمون الذين أسلموا ولم يهاجروا من دار الشرك فلا يتحمّل المسلمون تبعاتهم، فما ينشأ بين الكفار المعاهدين للمسلمين وبين المسلمين الباقين في دار الكفر لا يعدّ نكثا من الكفار لعهد المسلمين.

{ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } تحذير للمسلمين لئلا يحملهم العطف على المسلمين على أن يقاتلوا قوما بينهم وبينهم ميثاق. وفي هذا التحذير تنويه بشأن الوفاء بالعهد وأنّه لا ينقضه إلّا أمر صريح في مخالفته.

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ } [73]

هذا بيان لحكم القسم المقابل لقوله {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا} [72] وما عطف عليه. والواو للتقسيم والإخبار عنهم بأنّ بعضهم أولياء بعض، خبر مستعمل في مدلوله الكنائي، وهو أنّهم ليسوا بأولياء للمسلمين، لأنّ الإخبار عن ولاية بعضهم بعضا ليس صريحة ممّا يهم المسلمين لولا أنّ القصد النهي عن موالاة المسلمين إيّاهم، بقرينة قوله {إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} أي إن لا تفعلوا قطع الولاية معهم.

الفتنة، اختلال أحوال النّاس، وقد مضى القول فيها عند قوله {حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ} [البقرة: 102] وقوله {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة:191]، وتقدّم القول فيها آنفا في هذه السورة.

الفتنة تحصل من مخالطة المسلمين مع المشركين، لأنّ النّاس كانوا قريبي عهد بالإسلام، وكانت لهم مع المشركين أواصر قرابة وولاء ومودّة ومصاهرة ومخالطة، وقد كان إسلام من أسلم مثيرا لحنق المشركين عليه، فإذا لم ينقطع المسلمون عن موالاة المشركين يخشى على ضعفاء النفوس من المسلمين أن تجذبهم تلك

الأواصر وتفتنهم قوة المشركين وعزّتهم، ويقذف بها الشيطان في نفوسهم، فيحنّوا إلى المشركين ويعودوا إلى الكفر. فكان إيجاب مقاطعتهم لقصد قطع نفوسهم عن تذكر تلك الصلات، وإنسائهم تلك الأحوال، بحيث لا يشاهدون إلّا حال جماعة المسلمين، ولا يشتغلوا إلّا بما يقويها، وليكونوا في مزاولتهم أمور الإسلام عن تفرّغ بال من تحسر أو تعطف على المشركين، فلذا كان هذا حسما لوسائل الفتنة.

الفساد، ضدّ الصلاح، وقد مضى عند قوله تعالى {قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا} [البقرة:30]

الكبير، حقيقته العظيم الجسم. وهو هنا مستعار للشديد القوّي من نوعه.

والمراد بالفساد هنا، ضد صلاح اجتماع الكلمة، فإن المسلمين إذا لم يظهروا يدا واحدة على أهل الكفر لم تظهر شوكتهم، ولأنّه قد يحدث بينهم الاختلاف من جراء اختلافهم في مقدار مواصلتهم للمشركين، ويرمي بعضهم بعضا بالكفر أو النفاق، وذلك يفضي إلى تفرّق جماعتهم، وهذا فساد كبير.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }[74]

الأظهر أن الآية اعتراضية للتنويه بالمهاجرين والأنصار، وبيان جزائهم وثوابهم، بعد بيان أحكام ولاية بعضهم لبعض فليست هذه تكرير للأولى، وإن تشابهت ألفاظها، فالأولى لبيان ولاية بعضهم لبعض، وهذه واردة للثناء عليهم والشهادة لهم بصدق الإيمان مع وعدهم بالجزاء.

{ **أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً** } صيغة قصر، أي قصر الإيمان عليهم دون غيرهم ممن لم يهاجروا. فالمعنى، أنهم محقّقون لإيمانهم، بأن عضّدوه بالهجرة من دار الكفر. وليس الحقّ هنا بمعنى المقابل للباطل، حتّى يكون إيمان غيرهم ممن لم يهاجروا باطلا، لأنّ قرينة قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا} [72] مانعة من ذلك، إذ قد أثبت لهم الإيمان ونفي عنهم استحقاق ولاية المؤمنين.

{ **لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** } والرزق الكريم هو الذي لا يخالط النفع به ضرّ ولا نكد، فهو نفع محض لا كدر فيه.

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [75]

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ }

بعد أن منع الله ولاية المسلمين للذين آمنوا ولم يهاجروا بالصراحة، فتح باب التدارك بهذه الآية، فكانت بيانا،

وكان مقتضى الظاهر أن تكون مفصولة غير معطوفة، ولكن عدل عن الفصل إلى العطف تغليبا لمقام التقسيم الذي استوعبته هذه الآيات.

{ **فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ** } أي إذا حصل منهم ما لم يكن حاصلا في وقت نزول الآيات السابقة، ليكون أصحاب هذه الصلة قسما مغايرا للأقسام السابقة. فليس المعنى أنهم آمنوا من بعد نزول هذه الآية، لأن الذين لم يكونوا مؤمنين ثم آمنوا من بعد لا حاجة إلى بيان حكم الاعتداد بإيمانهم، فإنّ من المعلوم أنّ الإسلام يجب ما قبله.

{ **مَعَكُمْ** } إيذان بأنّهم دون المخاطبين الذين لم يستقروا بدار الكفر بعد أنّ هاجر منها المؤمنون وأنّهم فرطوا في الجهاد مدة.

{ **فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ** } تبعيضية، أي فقد صاروا منكم، أي من جماعتكم وبذلك يعلم أن ولايتهم للمسلمين.

{ **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** }

يظهر أن التقاسيم السابقة لمّا أثبتت ولاية بين المؤمنين، ونفت ولاية من بينهم وبين الكافرين، ومن بينهم وبين الذين آمنوا ولم يهاجروا حتّى يهاجروا، ثم عادت على الذين يهاجرون من المؤمنين بعد تقاعسهم عن الهجرة بالبقاء في دار الكفر مدة، فبيّنت أنّهم إن تداركوا أمرهم وهاجروا يدخلون بذلك في ولاية المسلمين، جاءت هذه الآية تذكّر بأن ولاية الأرحام قائمة وأنّها مرجّحة لغيرها من الولاية فموقعها كموقع الشروط وشأن الصفات والغايات بعد الجمل المتعاطفة أنها تعود إلى جميع تلك الجمل، وعلى هذا الوجه لا تكون هذه الآية ناسخة لما اقتضته الآيات قبلها من الولاية بين المهاجرين والأنصار بل مقيّدة الإطلاق الذي فيها.

{ **الْأَرْحَامِ** } جمع رحم وهو مقر الولد في بطن أمّه. فمن العلماء من أبقاه على ظاهره في اللغة فجعل المراد من أولي الأرحام ذوي القرابة الناشئة عن الأمومة، وهو ما درج عليه جمهور المفسرين، ومنهم من جعل المراد من الأرحام العصابات دون المولودين بالرحم. قاله القرطبي، واستدل له بأنّ لفظ الرحم يراد به العصابة، كقول العرب في الدعاء "وصلتك رحم".

{ **فِي كِتَابِ اللَّهِ** } قضاؤه وشرعه.

وجعل تلك الأولوية كائنة في كتاب الله كناية عن عدم تغييرها لأنّهم كانوا إذا أرادوا توكيد عهد كتبوه.

فتقييد أولوية أولي الأرحام بأنّها في كتاب الله للدلالة على أنّ ذلك حكم فطري قدّره الله وأثبته بما وضع في النّاس من الميل إلى قراباتهم. فلمّا كانت ولاية الأرحام أمرا مقررا في الفطرة، ولم تكن ولاية الدين معروفة في الجاهلية، بيّن الله أنّ ولاية الدين لا تبطل ولاية الرحم إلّا إذا تعارضتا، لأنّ أواصر العقيدة والرأي أقوى من أواصر الجسد، فلا يغيّره ما ورد هنا من أحكام ولاية النّاس بعضهم بعضا، وبذلك الاعتبار الأصلي لولاية ذوي الأرحام، كانوا مقدمين على أهل الولاية، حيث تكون الولاية، وينتفي التفضيل بانتفاء أصلها، فلا ولاية لأولي الأرحام إذا كانوا غير مسلمين.

واختلف العلماء في أن ولاية الأرحام هنا هل تشمل ولاية الميراث، فقال مالك ابن أنس هذه الآية ليست في المواريث، أي فهي ولاية النصر وحسن الصحبة، أي فتقصر على موردها ولم يرها مساوية للعام الوارد على سبب خاص، إذ ليست صيغتها صيغة عموم لأنّ مناط الحكم قوله {أَوْلَى بِبَعْضٍ }

وقال جماعة تشمل ولاية الميراث، ثم اختلفوا فمنهم من قال: نسخت هذه الولاية بآية المواريث فبطل توريث ذوي الأرحام بقول النبي ﷺ: "ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر"، فيكون تخصيصا للعموم عندهم. وقال جماعة يرث ذوو الأرحام وهم مقدمون على أبناء الأعمام وهذا قول أبي حنيفة وفقهاء الكوفة. وقد علمت ممّا تقدّم كله أنّ في هذه الآيات غموضا جعلها مرامي لمختلف الأفهام والأقوال. وأيّاما كانت فقد جاء بعدها من القرآن والسنّة ما أغنى عن زيادة البسط.

{ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } تذييل هو مؤذن بالتعليل لتقرير أولوية ذوي الأرحام بعضهم ببعض فيما فيه اعتداد بالولاية، أي إنّما اعتبرت تلك الأولويّة في الولاية لأنّ الله قد علم أنّ لآصرة الرحم حقا في الولاية هو ثابت ما لم يمانعه مانع معتبر في الشرع، لأنّ الله بكل شيء عليم وهذا الحكم مما علم أنّ إثباته رفق ورأفة بالأمة.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة التوبة

سمّيت هذه السورة في أكثر المصاحف وفي كلام السلف (**سورة براءة**). ففي الصحيح عن أبي هريرة، في قصّة حجّ أبي بكر بالنّاس، قال أبو هريرة: " فأذّن معنا علي بن أبي طالب في أهل منى ببراءة ". وفي صحيح البخاري عن زيد بن ثابت قال: " آخر سورة نزلت سورة براءة ". وبذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه. وهي تسمية لها بأوّل كلمة منها.

وتسمّى (**سورة التوبة**) في كلام بعض السلف في مصاحف كثيرة، فعن ابن عباس: " سورة التوبة هي الفاضحة ". وترجم لها الترمذي في (جامعه) باسم التوبة.

ووجه التسمية، أنّها وردت فيها توبة الله تعالى عن الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك وهو حدث عظيم.

ووقع هذان الاسمان معا في حديث زيد بن ثابت، في صحيح البخاري، في باب جمع القرآن، قال زيد: "فتتبعت القرآن حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} ، حتى خاتمة سورة البراءة ". وهذان الاسمان هما الموجودان في المصاحف التي رأيناها.

ولهذه السورة أسماء أخر، وقعت في كلام السلف، من الصحابة والتابعين، فروي عن ابن عمر، عن ابن عباس: " كنّا ندعوها (**المقشقِشة**) [بصيغة اسم الفاعل وتاء التأنيث من قشقشهُ إذا أبراه من المرض] " . كان هذا لقبا لها ولسورة الكافرون، لأنّهما تخلّصان من آمن بما فيهما من النفاق والشرك، لما فيهما من الدعاء إلى الإخلاص، ومن وصف أحوال المنافقين.

وكان ابن عباس يدعوها (**الفاضحة**) : قال : " ما زال ينزل فيها (ومنهم ، ومنهم) حتّى ظننا أنّه لا يبقى أحد إلّا ذكر فيها ". وعن حذيفة، أنّه سماها (**سورة العذاب**) لأنّها نزلت بعذاب الكفار، أي عذاب القتل والأخذ حين يثقفون. وعن عبيد بن عمير أنّه سماها (**المنقِّرة**) (بكسر القاف مشدّدة) لأنّها نقّرت عمّا في قلوب المشركين [لعله يعني من نوايا الغدر بالمسلمين والتمالي على نقض العهد وهو من نقر الطائر إذا أنفى بمنقاره موضعا من الحصى ونحوه ليبيض فيه]، وعن الحسن البصري أنّه دعاها (**الحافرة**)، كأنّها حفرت عما في قلوب المنافقين من النفاق، فأظهرته للمسلمين. وعن قتادة أنها تسمى (**المثيرة**) لأنها أثارت عورات المنافقين وأظهرتها. وعن ابن عباس أنه سماها **"المبعثِرة"** لأنها بعثرت عن أسرار المنافقين، أي أخرجتها من مكانها. وفي الإتقان، أنّها تسمى (**المخزية**) و(**المنكِّلة**) و (**المشدّدة**). وعن سفيان أنها تسمى (**المدمدمة**) بصيغة اسم الفاعل من دمدم إذا أهلك لأنّها كانت سبب هلاك المشركين. فهذه أربعة عشر اسما.

وهي مدنية بالاتفاق، قال في الإتقان: " واستثنى بعضهم قوله {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا

لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى} [113]. ففي صحيح البخاري:" أنّ أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ فقال: " يا عمّ قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله"، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أميّة: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب". فكان آخر قول أبي طالب، أنّه على ملة عبد المطلب، فقال النبيّ: "لأستغفرن لك ما لم أنه عنك". وتوفي أبو طالب فنزلت {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} [113]

وهذه السورة آخر السور نزولا عند الجميع، نزلت بعد سورة الفتح، في قول جابر بن زيد، فهي السورة الرابعة عشر بعد المائة في عداد نزول سور القرآن. وروي أنّها نزلت في أوّل شوال سنة تسع، وقيل آخر ذي القعدة سنة تسع، بعد خروج أبي بكر الصديق من المدينة للحجّة التي أمّره عليها النبي ﷺ وقيل: قبيل خروجه.

والجمهور على أنها نزلت دفعة واحدة، فتكون مثل سورة الأنعام بين السور الطوال.

وفسّر كثير من المفسرين بعض آيات هذه السورة بما يقتضي أنها نزلت أوزاعا في أوقات متباعدة، كما سيأتي، ولعلّ مراد من قال إنّها نزلت غير متفرقة، أنّه يعني أنّها لم يتخلّلها ابتداء نزول سورة أخرى.

والذي يغلب على الظنّ أنّ ثلاث عشرة آية من أولها إلى قوله تعالى {فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [13] نزلت متتابعة، كما سيأتي في خبر بعث علي بن أبي طالب ليؤذّن بها في الموسم. وهذا ما اتفقت عليه الروايات.

وعدد آيها، في عد أهل المدينة ومكّة والشام والبصرة: مائة وثلاثون آية، وفي عدّ أهل الكوفة مائة وتسع وعشرون آية.

سبب نزولها

اتفقت الروايات على أنّ النبيّ ﷺ لمّا قفل من غزوة تبوك، في رمضان سنة تسع، عقد العزم على أن يحجّ من عامه ولكنّه كره، عن اجتهاد أو بوحي من الله، مخالطة المشركين في الحجّ معه، وسماع تلبيتهم التي تتضمن الإشراك، أي قولهم في التلبية (لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك). وطوافهم عراة، وكان بينه وبين المشركين عهد لم يزل عاملا لم ينقض. فأمسك عن الحجّ تلك السنّة، وأمر أبا بكر الصديق على أن يحجّ بالمسلمين، وأمره أن يخبر المشركين بأن لا يحجّ بعد عامه ذلك مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. وأكثر الأقوال على أن براءة نزلت قبل خروج أبي بكر من المدينة، فكان ما صدر عن النبي ﷺ صادرا عن وحي، لقوله تعالى في هذه السورة {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ - إلى قوله -

أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [17، 18] وقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} [28].

وقد كان رسول الله ﷺ صالح قريشا عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها النّاس ويكفّ بعضهم عن بعض، فدخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ودخل بنو بكر في عهد قريش ثم عدت بنو بكر على خزاعة بسبب دم كان لبني بكر عند خزاعة قبل البعثة بمدّة. واقتتلوا فكان ذلك نقضا للصلح.

واستصرخت خزاعة النبيّ ﷺ فوعدهم بالنصر وتجهّز رسول الله ﷺ لفتح مكة ثم حنين ثم الطائف، وحجّ بالمسلمين تلك السنة، سنة ثمان، عتَّاب بن أسِيد، ثم كانت غزوة تبوك في رجب سنة تسع فلمّا انصرف رسول الله ﷺ. من تبوك أمر أبا بكر الصديق على الحجّ وبعث معه بأربعين آية من صدر سورة براءة ليقرأها على النّاس، ثم أردفه بعلي بن أبي طالب ليقرأ على النّاس ذلك.

وقد يقع خلط في الأخبار بين قضية بعث أبي بكر الصديق ليحج بالمسلمين عوضا عن النبي ﷺ وبين قضية بعث علي بن أبي طالب ليؤذن في الناس بسورة براءة في تلك الحجة اشتبه به الغرضان على من أراد أن يتلبس وعلى من لُبس عليه الأمر فأردنا إيقاظ البصائر لذلك. فهذا سبب نزولها.

أغراض السورة

افتتحت السورة بتحديد مدة العهود التي بين النبيّ ﷺ وبين المشركين وما يتبع ذلك من حالة حرب وأمن، وفي خلال مدّة الحرب مدّة تمكينهم من تلقي دعوة الدين وسماع القرآن.

وأتبع بأحكام الوفاء والنكث وموالاتهم.

ومنع المشركين من دخول المسجد الحرام وحضور مناسك الحج.

وإبطال مناصب الجاهلية التي كانوا يعتزّون بأنّهم أهلها، وإعلان حالة الحرب بين المسلمين وبينهم.

وإعلان الحرب على أهل الكتاب من العرب حتّى يعطوا الجزية، وأنّهم ليسوا بعيدا من أهل الشرك وأنّ الجميع لا تنفعهم قوتهم ولا أموالهم.

وحرمة الأشهر الحرام، وضبط السنة الشرعية وإبطال النسيء الذي كان عند الجاهلية.

وتحريض المسلمين على المبادرة بالإجابة إلى النفير للقتال في سبيل الله ونصر النبي ﷺ، وأنّ الله ناصر نبيّه وناصر الذين ينصرونه. وتذكيرهم بنصر الله رسوله يوم حنين، وبنصره إذ أنجاه من كيد المشركين بما هيّأ له من الهجرة إلى المدينة.

والإشارة إلى التجهيز بغزوة تبوك، وذم المنافقين المتثاقلين والمعتذرين والمستأذنين في التخلّف بلا عذر.

وصفات أهل النفاق من جبن وبخل وحرص على أخذ الصدقات مع أنّهم ليسوا بمستحقيها.

وذكر أذاهم الرسول ﷺ بالقول، وأيمانهم الكاذبة وأمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف وكذبهم في عهودهم وسخريتهم بضعفاء المؤمنين.

والأمر بضرب الجزية على أهل الكتاب. ومذمّة ما أدخله الأحبار والرهبان في دينهم من العقائد الباطلة، ومن التكالب على الأموال.

وأمر الله بجهاد الكفار والمنافقين، ونهي المؤمنين عن الاستعانة بهم في جهادهم والاستغفار لهم.

ونهي نبيّه ﷺ عن الصلاة على موتاهم.

وضرب المثل بالأمم الماضية.

وذكر الذين اتخذوا مسجد الضرار عن سوء نيّة، وفضل مسجد قباء ومسجد الرسول بالمدينة.

وانتقل إلى وصف حالة الأعراب من محسنهم ومسيئهم ومهاجرهم ومتخلفهم. وقوبلت صفات أهل الكفر والنفاق بأضدادها صفات المسلمين، وذكر ما أعدّ لهم من الخير.

وذكر في خلال ذلك فضل أبي بكر. وفضل المهاجرين والأنصار.

والتحريض على الصدقة والتوبة والعمل الصالح.

والجهاد وأنّه فرض على الكفاية. والتذكير بنصر الله المؤمنين يوم حنين بعد يأسهم.

والتنويه بغزوة تبوك وجيشها.

والذين تاب الله عليهم من المتخلفين عنها.

والامتنان على المسلمين بأن أرسل فيهم رسولا منهم جبله على صفات فيها كل خير لهم.

وشرع الزكاة ومصارفها والأمر بالفقه في الدين ونشر دعوة الدين.

ترك البسملة قبل سورة براءة

ترك الصحابة، الذين كتبوا المصحف، كتابة البسملة قبل سورة براءة، كما نبّهت عليه عند الكلام على سورة الفاتحة. فجعلوا سورة براءة عقب سورة الأنفال بدون بسملة بينهما، وتردّد العلماء في توجيه ذلك. وأوضح الأقوال ما رواه الترمذي والنسائي، عن ابن عباس، قال: قلت لعثمان: " ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمان الرحيم. فقال عثمان: إنّ رسول الله كان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول ضعوا هذه في السورة التي فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وبراءة من آخر القرآن وكانت قصتها شبيها بقصتها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبيّن لنا أنّها منها فظننت أنّها منها، فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمان الرحيم".

ونشأ من هذا قول آخر، وهو أن كتبة المصاحف في زمن عثمان اختلفوا في (الأنفال) و(براءة)، هل هما سورة واحدة أو هما سورتان، فتركوا فرجة فصلا بينهما مراعاة لقول من عدّهما سورتين، ولم يكتبوا البسملة بينهما مراعاة لقول من جعلهما سورة واحدة.

وروى أبو الشيخ، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب: أنّهم إنما تركوا البسملة في أوّلها، لأنّ البسملة أمان وبشارة، وسورة براءة نزلت بنبذ العهود والسيف، فلذلك لم تبدأ بشعار الأمان، وهذا إنما يجري على قول من يجعلون البسملة آية من أول كل سورة عدا سورة براءة، ففي هذا رعي لبلاغة مقام الخطاب كما أن الخاطب المغضب يبدأ خطبته بـ (أما بعد) دون استفتاح.

وشأن العرب إذا كان بينهم عهد فأرادوا نقضه، كتبوا إلى القوم الذين ينبذون إليهم بالعهد كتابا ولم يفتتحوه بكلمة (باسمك اللهم)، فلما نزلت براءة بنقض العهد الذي كان بين النبي ﷺ وبين المشركين بعث عليّا إلى الموسم فقرأ صدر براءة ولم يبسمل جريا على عادتهم في رسائل نقض العهود.

والذي وقفنا عليه من كلام مالك في ترك البسملة من سورة الأنفال وسورة براءة: هو ما في سماع ابن القاسم في أوائل كتاب الجامع الأول من (العتبيّة): " قال مالك في أول براءة إنّما ترك من مضى أن يكتبوا في أول براءة بسم الله الرحمان الرحيم".

{ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [1]

افتتحت السورة كما تفتتح العهود وصكوك العقود بأدلّ كلمة على الغرض الذي يراد منها كما في قولهم: هذا ما عهد به فلان، وهذا ما اصطلح عليه فلان وفلان، وقول الموثّقين: باع أو وكلّ أو تزوّج، وذلك هو مقتضى الحال في إنشاء الرسائل والمواثيق ونحوها.

{ بَرَاءَةٌ } تنكير التنويع، مبتدأ، وسوغ الابتداء به ما في التنكير من معنى التنويع للإشارة إلى أن هذا النوع كاف في فهم المقصود.

{ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } في موضع الخبر، لأنّه المقصود من الفائدة. والمعنى أنّ هذه براءة أصدرها الله بواسطة رسوله إبلاغا إلى الذين عاهدتم من المشركين.

البراءة، الخروج والتفصّي ممّا يُتعب، ورفع التبِعة. ولمّا كان العهد يوجب على المتعاهدين العمل بما تعاهدوا عليه ويعدّ الإخلاف بشيء منه غدرا على المخلف، كان الإعلان بفسخ العهد براءة من التبعات التي تنشأ عن إخلاف العهد. فلذلك كان لفظ **{ بَرَاءَةٌ }** هنا مفيدا معنى فسخ العهد ونبذه ليأخذ المعاهدون حذرهم.

وقد كان العرب ينبذون العهد ويردّون الجوار إذا شاءوا تنهية الالتزام بهما، كما فعل ابن الدُّغُنَّه في ردّ جوار أبي بكر عن قريش، وما فعل عثمان بن مظعون في ردّ جوار الوليد بن المغيرة إيّاه قائلا: " رضيت بجوار

ربي ولا أريد أن أستجير غيره". وقال تعالى { وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [لأنفال:58] أي ولا تخنهم لظنك أنّهم يخونونك فإذا ظننته فافسخ عهدك معهم.

ولمّا كان الجانب، الذي ابتدأ بإبطال العهد وتنهيته، هو جانب النبيّ ﷺ بإذن من الله، جعلت هذه البراءة صادرة من الله لأنّه الآذن بها، ومن رسوله لأنه المباشر لها، لأن المقصود إبلاغ ذلك الفسخ إليهم وإيصاله ليكونوا على بصيرة فلا يكون ذلك الفسخ غدرا.

{ **عَاهَدْتُمْ** } الخطاب للمؤمنين. فهذه البراءة مأمورون بإنفاذها.

واعلم أنّ العهد بين النبي ﷺ وبين المشركين كان قد انعقد على صور مختلفة، فكان بينه وبين أهل مكّة ومن ظاهرهم عهد الحديبية، أن لا يُصدّ أحد عن البيت إذا جاء، وأن لا يخاف أحد في الشهر الحرام، وقد كان معظم قبائل العرب داخلا في عقد قريش الواقع في الحديبية، لأنّ قريشا كانوا يومئذ زعماء جميع العرب، ولذلك كان من شروط الصلح يومئذ، أنّ من أحبّ أن يدخل في عهد محمد دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه، وكان من شروط الصلح وضع الحرب عن النّاس سنين، يأمن فيها النّاس ويكفّ بعضهم عن بعض، فالذين عاهدوا المسلمين من المشركين معروفون عند النّاس يوم نزول الآية.

وكان بين المسلمين وبعض قبائل المشركين عهود، كما أشارت إليها سورة النساء [90] في قوله تعالى {إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ} الآية. وكما أشارت إليها هذه السورة[4] في قوله تعالى {إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً}.

وبعض هذه العهود كان لغير أجل معيّن، وبعضها كان لأجل قد انقضى، وبعضها لم ينقض اجله. فقد كان صلح الحديبية مؤجلا إلى عشر سنين في بعض الأقوال، وقيل: إلى أربع سنين، وقيل: إلى سنتين. وقد كان عهد الحديبية في ذي القعدة سنة ست، فيكون قد انقضت مدته على بعض الأقوال، ولم ينقض على بعضها، حين نزول هذه الآية. وكان بعض تلك العهود مؤجّلا إلى أجل لم يتم، ولكن المشركين خفروا بالعهد في ممالاة بعض المشركين غير العاهدين، وفي إلحاق الأذى بالمسلمين. فقد ذكر أنّه لما وقعت غزوة تبوك أرجف المنافقون أنّ المسلمين غلبوا فنقض كثير من المشركين العهد، وممن نقض العهد بعض خزاعة، وبنو مُدلِج، وبنو خزيمة أو جَذِيمة، كما دلّ عليه قوله تعالى {ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً}[4]، فأعلن الله لهؤلاء هذه البراءة ليأخذوا حذرهم، وفي ذلك تضييق عليهم إن داموا على الشرك، لأنّ الأرض صارت لأهل الإسلام كما دلّ عليه قوله تعالى بعد { فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ} [التوبة:3]

وإنما جعلت البراءة شأنا من شؤون الله ورسوله، وأسند العهد إلى ضمير المسلمين، للإشارة إلى أنّ العهود التي عقدها النبي ﷺ لازمة للمسلمين وهي بمنزلة ما عقدوه بأنفسهم، لأنّ عهود النبي عليه الصلاة والسلام

إنما كانت لمصلحة المسلمين، في وقت عدم استجماع قوتهم، وأزمان كانت بقيّة قوة للمشركين، وإلّا فإنّ أهل الشرك ما كانوا يستحقون من الله ورسوله توسعة ولا عهدا، لأنّ مصلحة الدين تكون أقوم إذا شدّد المسلمون على أعدائه. فالآن لمّا كانت مصلحة الدين متحّمضة في نبذ العهد الذي عاهده المسلمون المشركين أذن الله ورسوله ﷺ بالبراءة من ذلك العهد، فلا تبعة على المسلمين في نبذه.

{ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ}[2]

{ **فَسِيحُوا** } الفاء للتفريع على معنى البراءة، لأنّها لما أمر الله بالأذان بها كانت إعلاما للمشركين، الذين هم المقصود من نقض العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، فضمير الخطاب في فعل الأمر معلوم منه أنّهم الموجّه إليهم الكلام وذلك التفات.

السياحة، حقيقتها السير في الأرض، ولمّا كان الأمر بهذا السير مفرّعا على البراءة من العهد، ومقرّرا لحرمة الأشهر الحرام، علم أنّ المراد، السير بأمن دون خوف في أي مكان من الأرض، فكان المعنى، فسيحوا آمنين حيثما شئتم من الأرض.

{ **أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ** } وهذا تأجيل خاص بعد البراءة، كان ابتداؤه من شوال وقت نزول براءة، ونهايته نهاية محرم في آخر الأشهر الحرم المتوالية، وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. وهذا قول الجمهور، قال ابن إسحاق: " وأجلّ النّاس أربعة اشهر من يوم أذّن فيهم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وقال بعضهم: هي أربعة أشهر تبتدئ من عاشر ذي الحجة وتنتهي في عاشر ربيع الآخر، فيكون قوله: {فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ} [التوبة: 5] (أي من ذلك العام) تنهية لذلك الأجل روعي فيها المدة الكافية لرجوع النّاس إلى بلادهم، وذلك نهاية المحرم.

وقيل، الأشهر الأربعة هي المعروفة عندهم في جميع قبائل العرب وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، أي فلم يبق للمشركين أمن إلّا في الأشهر الحرم، وعلى هذا فليس في الآية تأجيل خاص لتأمينهم ولكنه التأمين المقرّر للأشهر الحرم، فيكون المعنى، البراءة من العهد الذي بينهم فيما زاد على الأمن المقرر للأشهر الحرم.

وحكى السهيلي في (الروض الآنف): أنّه قيل أنّه أراد بانسلاخ الأشهر الحرم ذا الحجة والمحرم من ذلك العام وأنه جعل ذلك أجلا لمن لا عهد له من المشركين ومن كان له عهد جعل له أربعة أشهر أوّلها يوم النحر من ذلك العام.

وفي هذا الأمر إيذان بفرض القتال في غير الأشهر الحرم، وبأن ما دون تلك الأشهر حرب بين المسلمين والمشركين، وسيقع التصريح بذلك.

{ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ }

لّما أنبأهم بالأمان في أربعة الأشهر عقّبه بالتخويف من بأس الله احتراسا من تطرّق الغرور، وتهديدا بأن لا يطمئنّوا من أن يسلّط الله المسلمين عليهم في غير الأشهر الحرم، وإن قبعوا في ديارهم.

{ وَاعْلَمُوا } للتنبيه على أنّه مما يحقّ وعيه والتدبر فيه، وقد تقدّم التنبيه عليه في قوله { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [الأنفال:24].

المعجز، اسم فاعل من أعجز فلانا إذا جعله عاجزا عن عمل ما، فلذلك كان بمعنى الغالب والفائت، الخارج عن قدرة أحد. فالمعنى، أنكم غير خارجين عن قدرة الله.

{ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ } ذكر {الْكَافِرِينَ} إخراجا على خلاف مقتضى الظاهر، لأنّ مقتضى الظاهر أن يقول: وإن الله مخزيكم، ووجه تخريجه على الإظهار، الدلالة على سببيّة الكفر في الخزي.

الإخزاء، الإذلال. والخِزي (بكسر الخاء) الذل والهوان، أي مقدر للكافرين الإذلال، بالقتل والأسر وعذاب الآخرة، ما داموا متلبسين بوصف الكفر.

{ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[3]

{ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ }

عطف على {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [1] وموقع لفظ {وَأَذَانٌ} كموقع لفظ {بَرَاءَةٌ} في التقدير. وهذا إعلام للمشركين الذين لهم عهد بأنّ عهدهم انتقض.

الأذان، اسم مصدر آذنه، إذا أعلمه بإعلان، فهو بمعنى الإيذان.

وإضافة الأذان إلى الله ورسوله دون المسلمين، لأنّه تشريع وحكم في مصالح الأمّة، فلا يكون إلّا من الله على لسان رسوله ﷺ. وهذا أمر للمسلمين بأن يأذنوا المشركين بهذه البراءة، لئلا يكونوا غادرين. والمراد بالنّاس جميع الناس من مؤمنين ومشركين، لأنّ العلم بهذا النداء يهمّ النّاس كلّهم.

يوم الحجّ الأكبر، قيل هو يوم عرفة، لأنّه يوم مجتمع النّاس في صعيد واحد وهذا يروى عن عمر، وعثمان، وابن عباس، وطاووس، ومجاهد، وابن سيرين. وهو قول أبي حنيفة، والشافعي.

وقيل: هو **يوم النحر**، لأنّ النّاس كانوا في يوم موقف عرفة مفترقين إذ كانت الحُمْس يقفون بالمزدلفة، ويقف بقيّة النّاس بعرفة، وكانوا جميعا يحضرون منى يوم النحر، فكان ذلك الاجتماع الأكبر، ونسب ابن عطية هذا التعليل إلى منذر بن سعيد. وهذا قول علي، وابن عمر، وابن مسعود، والمغيرة ابن شعبة، وابن عباس أيضا، وابن أبي أوفى، والزهري، ورواه ابن وهب عن مالك، قال مالك: " لا نشك أنّ يوم الحجّ الأكبر يوم النحر، لأنّه اليوم الذي ترمى فيه الجمرة، وينحر فيه الهدي، وينقضي فيه الحجّ، من أدرك ليلة النحر فوقف بعرفة

قبل الفجر أدرك الحجّ ".

وأقول: إن يوم عرفة يوم شغل بعبادة من وقوف بالموقف ومن سماع الخطبة. فأمّا يوم منى فيوم عيدهم.

{ **الْأَكْبَرِ** }. بالجرّ نعت للحجّ، باعتبار تجزئته إلى أعمال، فوُصف الأعظم من تلك الأعمال بالأكبر. ويظهر من اختلافهم في المراد من الحجّ الأكبر أنّ هذا اللفظ لم يكن معروفا قبل نزول هذه الآية فمن ثمّ اختلف السلف في المراد منه.

{ **أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ** } وجاء التصريح بفعل البراءة مرة ثانية دون إضمار ولا اختصار لأنّ المقام مقام بيان وإطناب لأجل اختلاف أفهام السامعين فيما يسمعونه، ففيهم الذكيّ وغيره، ففي الإطناب والإيضاح قطع لمعاذيرهم واستقصاء في الإبلاغ لهم.

{ **وَرَسُولُهُ** } بالرفع، عند القراء كلهم، لأنّه من عطف الجملة، لأن السامع يعلم من الرفع أن تقديره: ورسوله بريء من المشركين، ففي هذا الرفع معنى بليغ من الإيضاح للمعنى مع الإيجاز في اللفظ.

وفي بعض كتب النحو أن هذه الآية، كانت السبب في وضع علم النحو، فقد روي: أنّ أعرابيا سمع رجلا قرأ {أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُوله} - بجر ورسولِهِ - فقال الأعرابي: إن كان الله بريئا من رسوله فأنا منه بريء، وإنّما أراد التورّك على القارئ، فلبّبه الرجل إلى عمر فحكى الأعرابي قراءته فعندها أمر عمر بتعلّم العربية . وروي أيضا، أنّ أبا الأسود الدؤلي سمع ذلك فرفع الأمر إلى علي. فكان ذلك سبب وضع النحو.

وهذا الأذان قد وقع في الحجّة التي حجّها أبو بكر بالنّاس، إذ ألحق رسول الله عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب بأبي بكر، موافيا الموسم ليؤذِّن ببراءة. فأذّن بها عليّ يوم النحر بمنى، من أوّلها إلى ثلاثين أو أربعين آية منها. كذا ثبت في الصحيح والسنن بطرق مختلفة يزيد بعضها على بعض.

وإنّما ألحق النبيّ عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب بأبي بكر الصديق لأنّه قيل لرسول الله إنّ العرب لا يرون أن ينقض أحد عهده مع من عاهده إلّا بنفسه أو برسول من ذي قرابة نسبه، فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن لا يترك للمشركين عذرا في علمهم بنبذ العهد الذي بينه وبينهم.

وروي: أن عليا بعث أبا هريرة يطوف في منازل قبائل العرب من منى، يصيح بآيات براءة حتى صحل صوته. وكان المشركون إذا سمعوا ذلك يقولون لعليّ " سترون بعد الأربعة الأشهر فإنّه لا عهد بيننا وبين ابن عمك إلاّ الطعن والضرب".

{ **فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** }.

والخطاب للمشركين الذين أوذنوا بالبراءة. والمعنى، فإن آمنتم فالإيمان خير لكم من العهد الذي كنتم عليه، لأن الإيمان فيه النجاة في الدنيا والآخرة، والعهد فيه نجاة الدنيا لا غير.

{ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ } المراد بالتولّي، الإعراض عن الإيمان. وأريد به معنى الاستمرار، أي إن دمتم على الشرك فاعلموا أنّكم غير مفلتين من قدرة الله، أي اعلموا أنّكم قد وقعتم في مكنة الله، وأوشكتم على العذاب.

{ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } البشارة أصلها الإخبار بما فيه مسرّة، وقد استعيرت هنا للإنذار، وهو الإخبار بما يسوء، على طريقة التهكّم، كما تقدّم في قوله تعالى {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [آل عمران:21]

العذاب الأليم، هو عذاب القتل، والأسر، والسبي، وفيء الأموال. أي أنذر المشركين بأنّك مقاتلهم وغالبهم بعد انقضاء الأشهر الحرم.

{ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِنْ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }[4]

استثناء من المشركين في قوله { أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ} [3]، ومن {الَّذِينَ كَفَرُوا} في قوله {وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [3]، لأنّ شأن الاستثناء إذا ورد عقب جمل أن يرجع إلى ما تحتويه جميعها ممّا يصلح لذلك الاستثناء، فهو استثناء لهؤلاء من حكم نقض العهد، ومن حكم الإنذار بالقتال، المترتّب على النقض.

فهذا الفريق من المشركين باقون على حرمة عهدهم وعلى السلم معهم.

{ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا } لأن عدم الإخلال بأقل شيء نادر الحصول.

النقص، إزالة البعض. والمراد: أنّهم لم يفرّطوا في شيء مما عاهدوا عليه.

وهؤلاء هم الذين احتفظوا بعهدهم مع المسلمين، ووفّوا به على أتمّ وجه، فلم يكيدوا المسلمين بكيد، ولا ظاهروا عليهم عدّواً سراً، فهؤلاء أمر المسلمون أن لا ينقضوا عهدهم إلى المدّة التي عوهدوا عليها. ومن هؤلاء: بنو ضَمره، وحيَّان من بني كنانة؛ هم بنو جذيمة، وبنو الدِّيل. ولا شك أنّهم ممن دخلوا في عهد الحديبية.

وقد علم من هذا، أن الذين أمر الله بالبراءة من عهدهم هم ضد أولئك، وهم قوم نقصوا مما عاهدوا عليه، أي كادوا، وغدروا سرا، أو ظاهروا العدو بالمدد والجوسسة. ومن هؤلاء: قريظة أمدوا المشركين غير مرّة، وبنو بَكر، عَدَوْا على خزاعة أحلاف المسلمين كما تقدّم. فعبّر عن فعلهم ذلك بالنقص لأنّهم لم ينقضوا العهد علنا، ولا أبطلوه، ولكنّهم أخلوا به.

{ شَيْئًا } للمبالغة في نفي الانتقاص، لأنّ كلمة (شيء) نكرة عامة، فإذا وقعت في سياق النفي أفادت انتفاء كلّ ما يصدق عليه أنّه موجود، كما تقدّم في قوله {وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ} [البقرة:113]

المظاهرة، المعاونة، الأرجح أن يكون فعلها مشتقّا من الاسم الجامد وهو الظهر، أي صلب الإنسان أو البعير، لأنّ الظهر به قوّة الإنسان في المشي والتغلّب، يقال: بعير ظهير، أي قوي على الرحلة. فمن ثمّ

جاءت صيغة المفاعلة، ومثله المعاضدة مشتقة من العضد، والمساعدة من الساعد، والتأييد من اليد، والمكاتفة مشتقة من الكتف، وكلّها أعضاء العمل.

المدّة، الأجل، مشتقّة من المدّ، لأنّ الأجل مدّ في زمن العمل، أي تطويل، وإضافة المدّة إلى ضمير المعاهدين لأنّها منعقدة معهم، فإضافتها إليهم كإضافتها إلى المسلمين ولكن رجح هنا جانبهم لأنّ انتفاعهم بالأجل أصبح أكثر من انتفاع المسلمين به، إذ صار المسلمون أقوى منهم، وأقدر على حربهم.

{ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } تذييل في معنى التعليل للأمر بإتمام العهد إلى الأجل بأنّ ذلك من التقوى.

ثم إنّ قبائل العرب كلّها رغبت في الإسلام فأسلموا في تلك المدة فانتهت حرمة الأشهر الحرم في حكم الإسلام.

{ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [5]

تفريع على قوله {فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} [2] فإن كان المراد في الآية المعطوف عليها بالأربعة الأشهر أربعة تبتدئ من وقت نزول براءة كان قوله {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ} ، تفريعا مرادا منه زيادة قيد على قيد الظرف من قوله {أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} [2] أي: فإذا انتهى أجل الأربعة الأشهر وانسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين، لانتهاء الإذن.

وإن كانت الأربعة الأشهر مرادا بها الأشهر الحرم، كان قوله {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ} تصريحا بمفهوم الإذن بالأمن أربعة أشهر. فيكون تأجيلا لهم إلى انقضاء شهر المحرم من سنة عشر، ثم تحذيرا من خرق حرمة شهر رجب، وكذلك يستمر الحال في كل عام إلى نسخ تأمين الأشهر الحرم كما سيأتي عند قوله تعالى {مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} [36]

انسلاخ الأشهر، انقضاؤها وتمامها وهو مطاوع سلخ. وهو في الأصل استعارة من سلخ جلد الحيوان، أي أزالته. ثم شاع هذا الإطلاق حتّى صار حقيقة.

الحُرُم، جمع حرام وهو سماعي لأنّ فُعُلا (بضم الفاء والعين)، وحرام صفة. وقد تقدّم عند قوله تعالى {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ} [البقرة:198]. وهي: (**ذو القعدة** و**ذو الحجة** و**محرم** و**رجب**).

وانسلاخها انقضاء المدّة المتتابعة منها، وقد بقيت حرمتها ما بقي من المشركين قبيلة، لمصلحة الفريقين، فلمّا آمن جميع العرب بطل حكم حرمة الأشهر الحرم، لأنّ حرمة المحارم الإسلامية أغنت عنها.

{ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ }

للإذن والإباحة باعتبار كل واحد من المأمورات على حدة، أي فقد أذن لكم في قتلها، وفي أخذهم، وفي حصارهم، وفي منعهم من المرور بالأرض التي تحت حكم الإسلام، وقد يعرض الوجوب إذا ظهرت مصلحة عظيمة. والمقصود هنا أنّ حرمة العهد قد زالت.

وفي هذه الآية شرع الجهاد والإذن فيه، والإشارة إلى أنّهم لا يُقبل منهم غير الإسلام. وهذه الآية نسخت آيات الموادعة والمعاهدة. وقد عمّت الآية جميع المشركين وعمّت البقاع إلّا ما خصّصته الأدلة من الكتاب والسنة.

الأخذ، الأسر.

الحصر، المنع من دخول أرض الإسلام إلّا بإذن من المسلمين.

القعود، مجاز في الثبات في المكان، والملازمة له، لأنّ القعود ثبوت شديد وطويل، فمعنى القعود في الآية المرابطة في مظان تطرّق العدو إلى بلاد الإسلام.

المرصد، مكان الرصد، والرصد، المراقبة وتتبّع النظر.

{ **كُلَّ** } مستعملة في تعميم المراصد المظنون مرورهم بها، تحذيرا للمسلمين من إضاعتهم الحراسة في المراصد فيأتيهم العدو منها، أو من التفريط في بعض ممار العدو فينطلق الأعداء آمنين فيستخفّوا بالمسلمين ويتسامع جماعات المشركين أنّ المسلمين ليسوا بذوي بأس ولا يقظة.

{ **فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تفريع على الأفعال المتقدمة.

التوبة هنا،عن الشرك وهي الإيمان، أي فإن آمنوا إيمانا صادقا، بأن أقاموا الصلاة الدالة إقامتها على أنّ صاحبها لم يكن كاذبا في إيمانه، وبأن آتوا الزكاة الدال إيتاؤها على أنّهم مؤمنون حقا.

{ **خَلُّوا سَبِيلَهُمْ** } اتركوا طريقهم، إذ لا بأس عليكم منهم، فإنّهم صاروا إخوانكم.

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل أريد به حثّ المسلمين على عدم التعرّض بالسوء للذين يسلمون من المشركين، وعدم مؤاخذتهم لمّا فرط منهم، فالمعنى اغفروا لهم، لأنّ الله غفر لهم وهو غفور رحيم.

{ وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ }[6]

عطف على {فَإِنْ تَابُوا} [5] لتفصيل مفهوم الشرط، أو عطف على {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} [5] لتخصيص عمومه، أي إلّا مشركا استجارك للسفارة عن قومه أو لمعرفة شرائع الإسلام. وصيغ الكلام بطريقة الشرط لتأكيد حكم الجواب، وللإشارة إلى أن تقع الرغبة في الجوار من جانب المشركين.

{ **إِنْ** } شأنها أن يكون شرطها نادر الوقوع، جيء بها للتنبيه على أن هذا شرط فرضي لكيلا يزعم

المشركون أنّهم لم يتمكّنوا من لقاء النبي ﷺ فيتخذوه عذراً للاستمرار على الشرك إذا غزاهم المسلمون.

{ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ } وجيء بلفظ أحد من المشركين دون لفظ مشرك للتنصيص على عموم الجنس. ولعل المقصود من التنصيص على إفادة العموم، ومن تقديم {أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ} على الفعل، تأكيد بذل الأمان لمن يسأله من المشركين إذا كان للقائه النبي ﷺ ودخوله بلاد الإسلام مصلحة، ولو كان أحد من القبائل التي خانت العهد، لئلا تحمل خيانتهم المسلمين على أن يخونوهم أو يغدروا بهم، فذلك كقوله تعالى {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا} [المائدة:2]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: " ولا تخن من خانك ".

الاستجارة، طلب الجوار، وهو الكون بالقرب، وقد استعمل مجازا شائعا في الأمن، لأنّ المرء لا يستقر بمكان إلا إذا كان آمنا، فمن ثم سموا المؤمن جارا، والحليف جارا، وصار فعل أجار بمعنى أمن، ولا يطلق بمعنى جعل شخصا جارا له. والمعنى، إن أحد من المشركين استأمنك فأمّنه.

ولم يبين سبب الاستجارة، لأن ذلك مختلف الغرض وهو موكول إلى مقاصد العقلاء، فإنّه لا يستجير أحد إلّا لغرض صحيح.

ولما كانت إقامة المشرك المستجير عند النبي عليه الصلاة والسلام لا تخلو من عرض الإسلام عليه وإسماعه القرآن، سواء كانت استجارته لذلك أم لغرض آخر، لما هو معروف من شأن النبي صلى الله عليه وسلم من الحرص على هدي الناس، جعل سماع هذا المستجير القرآن غاية لإقامته الوقتيّة عند الرسول صلى الله عليه وسلم.

كلام الله، القرآن، أضيف إلى اسم الجلالة لأنّه كلام أوجده الله ليدلّ على مراده من النّاس وأبلغه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بواسطة الملك، فلم يكن من تأليف مخلوق ولكن الله أوجده بقدرته بدون صنع أحد، بخلاف الحديث القدسي.

{ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ } للدلالة على وجوب استمرار إجازته في أرض الإسلام إلى أن يبلغ المكان الذي يأمن فيه، ولو بلغه بعد مدّة طويلة، فحرف (ثمّ) هنا للتراخي الرتبي، اهتماما بإبلاغه مأمنه.

وهذا يتضمّن أمر المسلمين بأن لا يتعرّضوا له بسوء حتّى يبلغ بلاده التي يأمن فيها. وليس المراد أنّ النبي ﷺ يتكلّف ترحيله ويبعث من يبلّغه. فالمعنى: اتركه يبلغ مأمنه.

المأمن، مكان الأمن، وهو المكان الذي يجد فيه المستجير أمنه السابق، وذلك هو دار قومه حيث لا يستطيع أحد أن يناله بسوء. وقد أضيف المأمن إلى ضمير المشرك للإشارة إلى أنّه مكان الأمن الخاص به، فيعلم أنّه مقرّه الأصلي، بخلاف دار الجوار فإنها مأمن عارض لا يضاف إلى المجار.

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ } في موضع التعليل لتأكيد الأمر بالوفاء لهم بالإجارة إلى أن يصلوا ديارهم،

فلذلك فصلت عن الجملة التي قبلها. أي أمرنا بذلك بسبب أنّهم قوم لا يعلمون. أي لا تؤاخذهم في مدّة استجارتهم بما سبق من أذاهم، لأنّهم قوم لا يعلمون. والعلم، في كلام العرب، بمعنى العقل وأصالة الرأي.

{ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [7]

المقام، مقام بيان سبب هذه البراءة، وأنّه أمران: بعد ما بين العقائد، وسبق الغدر.

{ كَيْفَ } الاستفهام إنكاري، إنكارا لحالة دوام العهد في المستقبل مع الذين عاهدوهم يوم الحديبية وما بعده. وليس ذلك إنكارا على وقوع العهد، فإنّ العهد قد انعقد بإذن من الله، وسمّاه الله فتحا في قوله {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} [الفتح:1] وسمّي رضى المؤمنين به يومئذ سكينة في قوله {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ} [الفتح:4]. وهذا يؤيد ما فسرنا به وجه إضافة البراءة إلى الله ورسوله، وإسناد العهد إلى ضمير المسلمين، في قوله تعالى: {بَرَاءةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ} [1]

وقد كانت قريش نكثوا عهدهم الذي عاهدوه يوم الحديبية، إذ أعانوا بني بكر بالسلاح والرجال على خزاعة، وكانت خزاعة داخلة في عهد النبي ﷺ، وكان ذلك سبب التجهيز لغزوة فتح مكّة.

{ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ } استثناء، أي لا يكون عهد للمشركين إلّا المشركين الذين عاهدتم عند المسجد الحرام.

والذين عاهدوهم عند المسجد الحرام هم: (**بنو ضمرة، وبنو جذيمة بن الدِّيل** و**بنو بكر** من كنانة).

والمقصود من تخصيصهم بالذكر، التنويه بخصلة وفائهم بما عاهدوا عليه. ويتعيّن أن يكون هؤلاء عاهدوا النبي ﷺ في عمرة القضاء عند المسجد الحرام، ودخلوا في الصلح الذي عقده مع قريش بخصوصهم، زيادة على دخولهم في الصلح الأعمّ، ولم ينقضوا عهدهم، ولا ظاهروا عدوا على المسلمين، إلى وقت نزول براءة. على أن معاهدتهم عند المسجد الحرام أبعد عن مظنة النكث، لأنّ المعاهدة عنده أوقع في نفوس المشركين من الحلف المجرد.

{ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ } تفريع على الاستثناء. فالتقدير إلّا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فاستقيموا لهم ما استقاموا لكم، أي ما داموا مستقيمين لكم.

الاستقامة، حقيقتها عدم الاعوجاج، والسين والتاء للمبالغة، وهي هنا مستعارة لحسن المعاملة وترك القتال، لأنّ سوء المعاملة يطلق عليه الالتواء والاعوجاج، فكذلك يطلق على ضدّه الاستقامة.

{ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } تعليل للأمر بالاستقامة. أنّ الاستقامة لهم من التقوى، وإلّا لم تكن مناسبة للإخبار بأنّ الله يحب المتقين. وهذا من الإيجاز. ولأنّ في الاستقامة لهم حفظا للعهد الذي هو من قبيل اليمين.

{ **كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** } [8]

{ **كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً** } إخبارا عن دخائلهم.

{ **كَيْفَ** } وفي إعادة الاستفهام إشعار بأن جملة الحال لها مزيد تعلّق بتوجّه الإنكار على دوام العهد للمشركين، حتى كأنها مستقلة بالإنكار. لا مجرد قيد للأمر الذي توجه إليه الإنكار ابتداء، {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ} [7]. فيؤول المعنى الحاصل من هذا النظم إلى إنكار دوام العهد مع المشركين في ذاته، ابتداء، لأنهم ليسوا أهلا لذلك، وإلى إنكار دوامه بالخصوص في هذه الحالة، وهي حالة ما يبطنونه من نيّة الغدر إن ظهروا على المسلمين، مما قامت عليه القرائن والأمارات، كما فعلت هوازن عقب فتح مكّة.

{ **وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ** } إن ينتصروا. وتقدّم بيان هذا الفعل عند قوله تعالى {وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا} [4]. والمعنى، لو انتصر المشركون، بعد ضعفهم، وبعد أن جرّبوا من العهد أنّه كان سببا في قوّتكم، لنقضوا العهد. وضمير {عَلَيْكُمْ} خطاب للمؤمنين.

{ لاَ يَرْقُبُوا } لا يوفوا ولا يراعوا، يقال: رَقَب الشيء، إذا نظر إليه نظر تعهّد ومراعاة، ومنه سمّي الرقيب، وسمّي المرْقب مكان الحراسة، وقد أطلق هنا على المراعاة والوفاء بالعهد، لأنّ من أبطل العمل بشيء فكأنّه لم يره وصرف نظره عنه.

الإلّ، الحلف والعهد؛ ويطلق الإلّ على النسب والقرابة. وقد كانت بين المشركين وبين المسلمين أنساب وقرابات، فيصح أن يراد هنا كلا معنييه.

الذِمّة، ما يمتّ به من الأواصر من صحبة وخلّة وجوار ممّا يجب في المروءة أن يحفظ ويحمى.

يقال: في ذمتي كذا، أي ألتزم به وأحفظه.

{ **يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** } استئناف ابتدائي، أي هم يقولون لكم ما يرضيكم، كيدا، ولو تمكنوا منكم لم يرقبوا فيكم إلّا ولا ذمّة.

الإباية، الامتناع من شيء مطلوب، وإسناد الإباية إلى القلوب استعارة، فقلوبهم لمّا نوت الغدر شبّهت بمن يطلب منه شيء فيأبى.

{ **وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** } في موضع الحال، مقصود منها الذم بأنّ أكثرهم موصوف، مع ذلك، بالخروج عن مهيع المروءة والرُّجلة، إذ نجد أكثرهم خالعين زمام الحياء، فجمعوا المذمّة الدينية والمذمة العرفية. فالفسق هنا الخروج عن الكمال العرفي بين النّاس، وليس المراد الخروج عن مهيع الدين، لأنّ ذلك وصف لجميعهم لا لأكثرهم، ولأنه قد عرف من وصفهم بالكفر.

{ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }[9]

هذه الآية وصف القرآن فيها المشركين بمثل ما وصف به أهل الكتاب في سورة البقرة من الاشتراء بآيات الله ثمنا قليلا، ثم لم يوصفوا بمثل هذا في آية أخرى نزلت بعدها، لأنّ نزولها كان في آخر عهد المشركين بالشرك إذ لم تطل مدّة حتّى دخلوا في دين الله أفواجا، سنة الوفود وما بعدها.

وفيها دلالة على هؤلاء الذين بقوا على الشرك من العرب، بعد فتح مكة وظهور الإسلام على معظم بلاد العرب. ليس لهم افتراء في صحة الإسلام ونهوض حجّته. فلكون آيات صدق القرآن أصبحت ثابتة عندهم جعلت مثل مال بأيديهم، وفرّطوا فيه لأجل اقتناء منافع قليلة، فلذلك مثّل حالهم بحال من اشترى شيئا بشيء، وقد مضى الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة [16]

{ بِآيَاتِ اللَّهِ } الدلائل، وهي دلائل الدعوة إلى الإسلام، وأعظمها القرآن لما اشتمل عليه من البراهين والحجاج والإعجاز. والباء، باء التعويض، وشأنها أن تدخل على ما هو عوض يبذله مالكه لأخذ معوض يملكه غيره.

{ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ } مفرّعة على {اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ} لأنّ إيثارهم البقاء على كفرهم يتسبّب عليه أن يصدّوا النّاس عن اتباع الإسلام، فمثّل حالهم بحال من يصدّ النّاس عن السير في طريق تبلّغ إلى المقصود. ومفعول {صَدُّوا} محذوف لقصد العموم، أي صدّوا كل قاصد.

{ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } . ابتدائية، فصلت عن التي قبلها ليظهر استقلالها بالإخبار، وأنّها لا ينبغي أن تعطف في الكلام، إذ العطف يجعل الجملة المعطوفة بمنزلة التكملة للمعطوفة عليها. وافتتحت بحرف التأكيد للاهتمام بهذا الذم لهم.

{ سَاءَ } من أفعال الذم، من باب بئس.

{ لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُعْتَدُونَ } [10]

يجوز أن تكون هذه الجملة بدل اشتمال من جملة {إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[9]. ويجوز أن تكون استئنافا ابتدئ به للاهتمام بمضمون الجملة. وقد أفادت معنى أعم وأوسع مما أفاده قوله {وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً} [8]، لأنّ إطلاق الحكم عن التقييد بشرط {إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ} يفيد أنّ عدم مراعاتهم حقّ الحلف والعهد خلق متأصّل فيهم، سواء كانوا أقوياء أم مستضعفين. والإلّ والذمة تقدما قريبا.

{ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ } القصر إمّا أن يكون للمبالغة في اعتدائهم، لأنّه اعتداء عظيم باطني على قوم حالفوهم وعاهدوهم، ولم يلحقوا بهم ضرّ مع تمكّنهم منه، وإمّا أن يكون قصر قلب، أي هم المعتدون لا أنتم، لأنّهم بدأوكم بنقض العهد في قضية خزاعة وبني الدِّيل من بكر بن وائل مما كان سببا في غزوة الفتح.

{ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }[11]

تفريع حكم على حكم لتعقيب الشدّة باللين، تنبيها لهم على أنّ تداركهم أمرهم هيّن عليهم. ولمّا كان المقام هنا لذكر عداوتهم مع المؤمنين جعلت توبتهم سببا للأخوة مع المؤمنين، بخلاف مقام قوله قبله {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} [5] حيث إن المعقَّب بالتوبة هنالك هو الأمر بقتالهم والترصد لهم، فناسب أن يفرّع على توبتهم عدم التعرض لهم بسوء. وقد حصل من المجموع أنّ توبتهم توجب أمنهم وأخوتهم.

الإخوان، جمع أخ في الحقيقة والمجاز، وأطلقت الأخوّة هنا على المودّة والصداقة.

{ فِي الدِّينِ } مجازيّة، زيادة في الدلالة على التمكّن من الإسلام وأنّه يجبّ ما قبله.

{ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } اعتراض وتذييل، دلّ على أن الآيات المذكورة آنفا في قوله {اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً} [9] آيات واضحة مفصّلة، وأنّ عدم اهتداء هؤلاء بها ليس لنقص فيها وإنّما يهتدي بها قوم يعلمون. وحذف مفعول {يَعْلَمُونَ} لتنزيل الفعل منزلة اللازم، إذا أريد به، لقوم ذوي علم وعقل.

ومعنى التفصيل تقدم في قوله تعالى {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام:55].

{ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ }[12]

لماّ استوفى البيان لأصناف المشركين؛ الذين أمر الله بالبراءة من عهدهم لإبطانهم الغدر، والذين أمر بإتمام عهدهم إلى مدتهم ما استقاموا على العهد، والذين يستجيبون، عطف على أولئك بيان الذين يعلنون بنكث العهد، ويعلنون بما يسخطُ المسلمين من قولهم.

النكث، تقدّم عند قوله تعالى {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ} [الأعراف:135] وعبّر عن نقض العهد بنكث الإيمان تشنيعا للنكث، لأنّ العهد كان يقارنه اليمين على الوفاء ولذلك سمي العهد حلفا.

{ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ } زيادة في تسجيل شناعة نكثهم، بتذكير أنّه غدْر لعهد، وحنث باليمين.

الطعن، حقيقته خرق الجسم بشيء محدّد كالرمح، ويستعمل مجازا بمعنى الثلب والنسبة إلى النقص، بتشبيه عرض المرء، الذي كان ملتئما غير منقوص، بالجسد السليم، فإذا أظهرت نقائصه بالثلب والشتم شبه بالجلد

الذي أفسد التحامه.

{ **فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ** } الأمر هنا للوجوب، وهي حالة من أحوال الإذن المتقدّم في قوله تعالى {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} [5] ففي هذه الحالة يجب قتالهم ذبا عن حرمة الدين.

{ **أَئِمَّةَ** } جمع إمام، وهو ما يُجعل قدوة في عمل يعمل على مثاله، قال تعالى {وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً} [القصص:5] أي مقتدى بهم. فأئمة الكفر هنا، الذين بلغوا الغاية فيه، بحيث صاروا قدوة لأهل الكفر.

{ **إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ** } تعليل لقتالهم بأنّهم استحقوه لأجل استخفافهم بالأيمان التي حلفوها على السلم، فغدروا. ولم أقف على أنّه كان مشروطا على المشركين في عقود المصالحة والمعاهدة مع المسلمين أن لا يطعنوا في الإسلام في غير هذه الآية، فكان هذا شرطا عليهم من بعد، لأنّ المسلمين أصبحوا في قوة.

{ **لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ** } ولم يذكر متعلّق فعل {يَنتَهُونَ} ولا يحتمل أن يكون الانتهاء عن نكث العهد، لأنّ عهدهم لا يُقبل بعد أن نكثوا لقول الله تعالى {إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ} ، ولا أن يكون الانتهاء عن الطعن في الدين، لأنّه إن كان طعنهم في الدين حاصلا في مدة قتالهم فلا جدوى لرجاء انتهائهم عنه، وإن كان بعد أن تضع الحرب أوزارها فإنّه لا يستقيم إذ لا غاية لتنهية القتل بين المسلمين وبينهم، فتعيّن أنّ المراد لعلهم ينتهون عن الكفر.

{ **أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ** } [13]

تحذير من التواني في قتالهم.

{ **أَلاَ** } يحتمل أن يكون مجموع حرفين؛ هما همزة الاستفهام و(لا) النافية، ويحتمل أن يكون حرفاً واحداً للتحضيض، مثل قوله تعالى{أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌرَحِيمٌ} [النور:22].

فعلى الاحتمال الأوّل يجوز أن يكون الاستفهام إنكارياً، على انتفاء مقاتلة المشركين، وهو ما ذهب إليه البيضاوي، فيكون دفعا لأن يتوهّم المسلمون حرمة لتلك العهود. ويجوز أن يكون الاستفهام تقريريا، ومعناه الحض على القتال على سبيل المبالغة.

وعلى الاحتمال الثاني أن يكون {أَلاَ} حرفا واحدا للتحضيض فهو تحضيض على القتال.

ولعل موجب هذا التفنن في التحذير من التهاون بقتالهم مع بيان استحقاقهم إيّاه، أن كثيرا من المسلمين كانوا قد فرحوا بالنصر يوم فتح مكّة ومالوا إلى اجتناء ثمرة السلم، فلذلك لمّا أمروا بقتال هؤلاء المشركين كانوا مظنّة التثاقل عنه خشية الهزيمة، بعد أن فازوا بسمعة النصر. وفي قوله عقبه {أَتَخْشَوْنَهُمْ} ما يزيد هذا وضوحا.

{ **قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ** }

{ **الهَمّ**} هو العزم على فعل شيء، سواء فعله أم انصرف عنه. ومؤاخذتهم في هذه الآية على مجرد الهمّ بإخراج الرسول تدلّ على أنّهم لم يخرجوه وإلّا لكان الأجدر أن ينعى عليهم الإخراج لا الهمّ به، كما في قوله: {إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [التوبة:40] وتدلّ على أنّهم لم يرجعوا عمّا همّوا به إلا لما حيل بينهم وبين تنفيذه.

والوجه عندي أنّ المعني بالأمر قبائل كانوا معاهدين للمسلمين فنكثوا العهد سنة ثمان للهجرة، يوم فتح مكّة، وهمّوا بنصرة المشركين، ولكن الله صرفهم وفضحهم وأمر بقتالهم . ولا ندري أقاتلهم النبيّ صلى الله عليه وسلّم . فلمّا لم تنشب الحرب بين المسلمين و المشركين أيسوا من نصرة أهل مكّة وأغضى عنهم النبيّ ﷺ.

{ **وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** } بدأوكم أوّل بدء بالنكث. والمقصود من هذا الكلام تهديدهم على النكث الذي أضمروه، وألاّ تسامح فيه.

{ **أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ** } الاستفهام إنكاري أو تقريري، عن سبب التردد في قتالهم. أي فالله الذي أمركم بقتالهم أحقّ أن تخشوه إذا خطر في نفوسكم خاطرا عدم الامتثال لأمره، إن كنتم مؤمنين، لأن الإيمان يقتضي الخشية من الله وعدم التردد في نجاح الامتثال له.

{ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ [14] وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [15]

{ **قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ** }

استئناف ابتدائي للعود من غرض التحذير، إلى صريح الأمر بقتالهم.

وجزم {يُعَذِّبْهُمُ} وما عطف عليه في جواب الأمر، وفي جعله جوابا وجزاء، أنّ الله ضمن للمسلمين من تلك المقاتلة خمس فوائد تنحلّ إلى اثنتي عشرة، إذ تشتمل كل فائدة منها على كرامة للمؤمنين وإهانة لهؤلاء المشركين وروعي في كل فائدة منها الغرض الأهم فصرح به وجعل ما عداه حاصلا بطريق الكناية.

الفائدة الأولى، تعذيب المشركين بأيدي المسلمين وهذه إهانة للمشركين وكرامة للمسلمين.

الثانية، خزي المشركين وهو يستلزم عزة المسلمين.

الثالثة، نصر المسلمين، وهذه كرامة صريحة لهم وتستلزم هزيمة المشركين وهي إهانة لهم.

الرابعة، شفاء صدور فريق من المؤمنين، وهذه صريحة في شفاء صدور طائفة من المؤمنين وهم خزاعة، وتستلزم شفاء صدور المؤمنين كلّهم، وبالضد حرج صدور أعدائهم.

الخامسة، إذهاب غيظ قلوب فريق من المؤمنين أو المؤمنين كلّهم، وهذه تستلزم ذهاب غيظ بقية المؤمنين الذي تحمّلوه من إغاظة أحلامهم، وتستلزم غيظ قلوب أعدائهم.

التعذيب، تعذيب القتل والجراحة. وأسند التعذيب إلى الله وجعلت أيدي المسلمين آلة له تشريفا للمسلمين.
الإخزاء، الإذلال، وتقدّم في البقرة. وهو هنا الإذلال بالأسر.
النصر، حصول عاقبة القتال المرجوّة. وتقدّم في أول البقرة.
الشفاء، زوال المرض ومعالجة زواله. أطلق هنا استعارة لإزالة ما في النفوس من تعب الغيظ والحقد، كما استعير ضدّه وهو المرض لما في النفوس من الخواطر الفاسدة في قوله {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [البقرة:10].
{ **صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ** } يدلّ على أنّ الذين يشفي الله صدورهم بنصر المؤمنين طائفة من المؤمنين المخاطبين بالقتال، وهم أقوام كانت في قلوبهم إحن على بعض المشركين الذين آذوهم وأعانوا عليهم، ولكنّهم كانوا محافظين على عهد النبي ﷺ، فلا يستطيعون مجازاتهم على سوء صنيعهم، وكانوا يودّون أن يؤذن لهم بقتالهم، فلمّا أمر الله بنقض عهود المشركين سرّوا بذلك وفرحوا. فهؤلاء فريق تغاير حالته حالة الفريق المخاطبين بالتحريض على القتال والتحذير من التهاون فيه. فعن مجاهد، والسدي أنّ القوم المؤمنين، هم خزاعة حلفاء النبي ﷺ، وكانت نفوس خزاعة إحن على بني بكر بن كنانة، الذين اعتدوا عليهم بالقتال، وفي ذكر هذا الفريق زيادة تحريض على القتال.
{ **وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ** }عطف على {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} ، يؤذن باختلاف المعطوف والمعطوف عليه، فيكون المراد بشفاء الصدور ما يحصل من المسرّة والانشراح بالنصر، والمراد بذهاب الغيظ استراحتهم من تعب الغيظ، وتحرّق الحقد. وضمير قلوبهم عائد إلى قوم مؤمنين فهم موعودون بالأمرين.
الغيظ، الغضب المشوب بإرادة الانتقام، وتقدّم في قوله {عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنْ الغَيْظِ} [آل عمران:119]
{ **وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** }
جملة ابتدائية مستأنفة، لأنّه ابتداء كلام ليس مما يترتّب على الأمر بالقتال، بل لذكر من لم يقتلوا، ولذلك جاء الفعل فيها مرفوعا، فدل هذا النظم على أنّها راجعة إلى قوم آخرين، وهم المشركون الذين خانوا وغدروا، ولم يقتلوا، بل أسلموا من قبل هذا الأمر أو بعده. وتوبة الله عليهم، هي قبول إسلامهم أو دخولهم فيه، وفي هذا إعذار وإمهال لمن تأخّر. فقد تاب الله على أبي سفيان، وعكرمة بن أبي جهل.
{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } لإفادة أنّ الله يعامل النّاس بما يعلم من نياتهم، وأنّه حكيم لا يأمر إلّا بما فيه تحقيق الحكمة، فوجب على النّاس امتثال أوامره، وأنّه يقبل توبة من تاب إليه تكثيرا للصلاح.

{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }[16]

{ أَمْ } منقطعة لإفادة الإضراب عن غرض من الكلام للانتقال إلى غرض آخر. والكلام بعدها له حكم

الاستفهام دائما. فقوله {حَسِبْتُمْ} في قوة (أحسبتم) والاستفهام المقدّر إنكاري.

والخطاب للمسلمين، على تفاوت مراتبهم في مدة إسلامهم، فشمل المنافقين لأنّهم أظهروا الإسلام.

حسبتم، ظننتم. ومصدر حسب، بمعنى ظن الحِسبان (بكسر الحاء). فأمّا مصدر حسُب(بضم الحاء) بمعنى أحصى العدد.

الترك، افتقاد الشيء وتعهّده، أي أن يترككم الله، فحذف فاعل الترك لظهوره. وحذف متعلق {تُتْرَكُوا} في الآية لدلالة السياق عليه، أي أن تتركوا دون جهاد، أي أن تتركوا في دعة بعد فتح مكّة.

{ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً }

في موضع الحال من ضمير {تُتْرَكُوا}، أي لا تظنّوا أن تتركوا.

{ وَلَمَّا } حرف للنفي، وهي أخت (لم).

{ يَعْلَمِ اللَّهُ } علمه بوقوع ذلك منهم وحصول امتثالهم، وهو من تعلّق العلم الإلهي بالأمور الواقعة، وهو أخصّ من علمه تعالى الأزلي بأنّ الشيء يقع أو لا يقع، ويجدر أن يوصف بـ **(التعلّق التنجيزي)**، وقد تقدّم شيء من ذلك عند قوله تعالى {وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران:142].

الوليجة، فعيلة بمعنى مفعولة، أي الدخيلة، وهي الفعلة التي يخفيها فاعلها، فكأنّه يولجها، أي يدخلها في مكمن بحيث لا تظهر، والمراد بها هنا، ما يشمل الخديعة وإغراء العدو بالمسلمين، وما يشمل اتخاذ أولياء من أعداء الإسلام يخلص إليهم ويفضي إليهم بسر المسلمين. لأن تنكير {وَلِيجَةً} في سياق النفي يعم سائر أفرادها.

{ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } تذييل لإنكار ذلك الحسبان. أي لا تحسبوا ذلك مع علمكم بأنّ الله خبير بكل ما تعملونه.

{ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ }[17]

هذا ابتداء غرض من أغراض معاملة المشركين، وهو منع المشركين من دخول المسجد الحرام في العام القابل، وهو مرتبط بما تضمنته البراءة في قوله {بَرَاءةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ}. ولمِاَ اتّصل بتلك الآية من بيان النبيّ ﷺ الذي أرسل به مع أبي بكر الصديق، أن لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. وهو توطئة لقوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا } [28]

{ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا } أي ليسوا بأهل لأن يعمروا مساجد الله. تركيب يدلّ على البعد و عدم الاستحقاق، كما تقدم عند قوله تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} [آل عمران:79].

{ **مَسَاجِدَ اللَّهِ** } مواضع عبادته بالسجود والركوع، المراد المسجد الحرام وما يتبعه من المسعى، وعرفة، والمشعر الحرام، والجمرات، والمنحر من منى.

عمر المساجد، العبادة فيها، لأنّها إنما وضعت لذلك، فعمرها بمن يحلّ فيها من المتعبّدين، ومن ذلك اشتقت العمرة، والمعنى، ما يحقّ للمشركين أن يعبدوا الله في مساجد الله. وإناطة هذا النفي بهم بوصف كونهم مشركين، إيماء إلى أنّ الشرك موجب لحرمانهم من عمارة مساجد الله.

{ **شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ** } جاء الحال مبينا لسبب براءتهم من أن يعمروا مساجد الله.أي انتفى تأهلهم لأن يعمروا مساجد الله بحال شهادتهم على أنفسهم بالكفر. وشهادتهم على أنفسهم بالكفر حاصلة في كثير من أقوالهم وأعمالهم، بحيث لا يستطيعون إنكار ذلك، مثل قولهم في التلبية (لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك)، ومثل سجودهم للأصنام، وطوافهم بها، ووضعهم إياها في جوف الكعبة وحولها وعلى سطحها.

{ **بِالْكُفْرِ** } الكفر بالله، أي بوحدانيته، فالكفر مرادف للشرك، فالكفر في حد ذاته موجب للحرمان من عمارة أصحابه مساجد الله، لأنّها مساجد الله فلا حق لغير الله فيها.

{ **أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ** } ابتداء ذم لهم، وجيء باسم الإشارة لأنّهم قد تميّزوا بوصف الشهادة على أنفسهم بالكفر.

{ **حَبِطَتْ** } بطلت، وقد تقدّم في قوله تعالى {وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} [البقرة:217].

وتقديم { **فِي النَّارِ** } على { **خَالِدُونَ** } للرعاية على الفاصلة ويحصل منه تعجيل المساءة للكفار إذا سمعوه.

{ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ الْمُهْتَدِينَ } [18]

الاستئناف البياني. لماّ اقتضت الآية السابقة إقصاء المشركين عن العبادة في المساجد كانت بحيث تثير سؤالا في نفوس السامعين أن يتطلّبوا من هم الأحقاء بأن يعمروا المساجد، فكانت هذه الآية مفيدة جواب هذا السائل ومجيء صيغة القصر فيها مؤذن بأنّ المقصود إقصاء فرق أخرى عن أن يعمروا مساجد الله، غير المشركين الذين كان إقصاؤهم بالصريح، فتعين أن يكون المراد من الموصول وصلته خصوص المسلمين، لأنّ مجموع الصفات المذكورة في الصلة لا يثبت لغيرهم، فاليهود والنصارى آمنوا بالله واليوم الآخر لكنّهم لم يقيموا الصلاة ولم يؤتوا الزكاة، لأنّ المقصود بالصلاة والزكاة العبادتان المعهودتان بهذين الاسمين والمفروضتان في الإسلام، ألا ترى إلى قوله تعالى {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ}

[المدثر:43 ،44] كناية عن أن لم يكونوا مسلمين.
واستغنى عن ذكر الإيمان برسوله محمد ﷺ بما يدلّ عليه من آثار شريعته، وهو الإيمان باليوم الآخر، وإقام الصلاة: وإيتاء الزكاة.
{ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ } ووجه هذا الرجاء أنّهم لما أتوا بما هو اهتداء لا محالة قوي الأمل في أن يستقرّوا على ذلك ويصير خلقا لهم فيكونوا من أهله، ولذلك قال {أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} ، ولم يقل أن يكونوا مهتدين. وفي هذا حث على الاستزادة من هذا الاهتداء وتحذير من الغرور والاعتماد على بعض العمل الصالح باعتقاد أنّ بعض الأعمال يغني عن بقيتها.

{ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }[19]

الاستفهام للإنكار. وظاهر هذه الآية يقتضي أنّها خطاب لقوم سوّوا بين سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام، وبين الجهاد والهجرة، في أنّ كل ذلك من عمل البرّ، فتؤذن بأنهّا خطاب لقوم مؤمنين قعدوا عن الهجرة والجهاد، بعلّة اجتزائهم بالسقاية والعمارة. ومناسبتها للآيات التي قبلها: أنه لما وقع الكلام على أن المؤمنين هم الأحقاء بعمارة المسجد الحرام من المشركين، دلّ ذلك الكلام على أنّ المسجد الحرام لا يحقّ لغير المسلم أن يباشر فيه عملا من الأعمال الخاصة به، فكان ذلك مثار ظن بأنّ القيام بشعائر المسجد الحرام مساو للقيام بأفضل أعمال الإسلام.
وأحسن ما روي في سبب نزول هذه الآية ما رواه الطبري، والواحدي، عن النعمان بن بشير، قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال رجل منهم "ما بالي أن لا أعمل عملا بعد الإسلام إلّا أن أسقي الحاج"، وقال آخر "بل عمارة المسجد الحرام" وقال آخر "بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم" فزجرهم عمر بن الخطاب وقال: " لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ،وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفيته فيما اختلفتم فيه" قال: فأنزل الله تعالى {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.
السقاية، صيغة للصناعة، أي صناعة السقي، وهي السقي من ماء زمزم، ولذلك أضيفت السقاية إلى الحاج.
العمارة، صناعة التعمير، أي القيام على تعمير شيء، بالإصلاح والحراسة ونحو ذلك، وهي، هنا، غير ما في قوله {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ} [17].
وقد كانت سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام من أعظم مناصب قريش في الجاهلية، والمناصب عشرة،

وتسمّى المآثر، فكانت السقاية لبني هاشم بن عبد مناف ابن قصي وجاء الإسلام وهي للعباس بن عبد المطلب، وكانت عمارة المسجد، وهي السدانة، وتسمّى الحجابة، لبني عبد الدار بن قصي وجاء الإسلام وهي لعثمان بن طلحة. وكانت لهم مناصب أخرى ثمانية أبطلها الإسلام رأيتها بخط جدي العلامة الوزير وهي(الديّات والحَملات، السِّفارة، الراية، الرِّفادة، المشورة، الأعنة والقبة، الحُكومة وأموال الآلهة، الأيْسار).

الديّات والحَملات، ، فجمع ديّة وهي عوض دم القتيل خطأ أو عمدا إذا صولح عليه. و**الحملات، جمع حَمالة** (بفتح الحاء المهملة) وهي الغرامة التي يحملها قوم عن قوم، وكانت لبني تيم بن مُرَّة بن كعب ومُرَّة جد قُصي، وجاء الإسلام وهي بيد أبي بكر الصديق.

السفارة، (بكسر السين وفتحها) فهي السعي بالصلح بين القبائل، والقائم بها يسمّى سفيرا. وكانت لبني عدي بن كعب بن أبناء عمّ لقصي وجاء الإسلام وهي بيد عمر بن الخطاب.

الراية، وتسميّ العُقاب (بضم العين) لأنّها تخفق فوق الجيش كالعُقاب، فهي راية جيش قريش، وكانت لبني أميّة، وجاء الإسلام وهي بيد أبي سفيان بن حرب.

الرِّفادة، فهي أموال تخرجها قريش إكراماً للحجيج فيطعمونهم جميع أيّام الموسم يشترون الجزر والطعام وكانت لبني نوفل بن عبد مناف، وجاء الإسلام وهي بيد الحارث بن عامر بن نوفل.

المشورة، فهي ولاية دار الندوة وكانت لبني أسد بن عبد العزّى بن قصّي. وجاء الإسلام وهي بيد زيد بن زمعة.

الأعنّة والقبة، فقبّة يضربونها يجتمعون إليها عند تجهيز الجيش وسميت الأعنّة وكانت لبني مخزوم. وهم أبناء عم قصي، وجاء الإسلام وهي بيد خالد بن الوليد.

الحكومة وأموال الآلهة (ولم أقف على حقيقتها) فأحسب أنّ تسميتها الحكومة لأنّ المال المتجمع بها هو ما يحصل من جزاء الصيد في الحرم أو في الإحرام. وأمّا تسميتها أموال الآلهة لأنّها أموال تحصل من نحو السائبة والبحيرة وما يوهب للآلهة من سلاح ومتاع. فكانت لبني سهم وهم أبناء عم لقصي. وجاء الإسلام وهي بيد الحارث بن قيس بن سهم.

الأيْسار، وهي الأزلام التي يستقسمون بها فكانت لبني جُمح وهم أبناء عمّ لقصي، وجاء الإسلام وهي بيد صفوان بن أمية بن خلف.

وقد أبطل الإسلام جميع هذه المناصب، عدا السدانة والسقاية، لقول النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع " ألا إنّ كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي هاتين إلا سقاية الحاج وسدانة البيت".

وذكر الإيمان بالله واليوم الآخر ليس لأنّه محلّ التسوية المردودة عليهم لأنّهم لم يدّعوا التسوية بين السقاية أو العمارة بدون الإيمان. بل ذكر الإيمان إدماج، للإيماء إلى أنّ الجهاد أثر الإيمان، وهو ملازم للإيمان، فلا

يجوز للمؤمن التنصّل منه بعلّة اشتغاله بسقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام.

{ **وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } تذييل لجملة {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ} إلخ، وموقعه هنا خفي إن كانت السورة قد نزلت بعد غزوة تبوك، وكانت هذه الآية ممّا نزل مع السورة ولم تنزل قبلها، على ما رجحناه من رواية النعمان بن بشير في سبب نزولها، فإنّه لم يبق يومئذ من يجعل سقاية الحاجّ وعمارة البيت تساويان الإيمان والجهاد، حتى يرد عليه بما يدل على عدم اهتدائه. وقد تقدّم ما روي عن عمر بن الخطاب في سبب نزولها وهو يزيد موقعها خفاء.

فالوجه عندي في موقع جملة {وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} أن موقعها الاعتراض بين جملة {أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ} وجملة {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا} [20]. والمقصود منها زيادة التنويه بشأن الإيمان، إعلاما بأنّه دليل إلى الخيرات، وقائد إليها.

فالذين آمنوا قد هداهم إيمانهم إلى فضيلة الجهاد، والذين كفروا لم ينفعهم ما كانوا فيه من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فلم يهدهم الله إلى الخير، وذلك برهان على أنّ الإيمان هو الاصل، وأنّ شعبه المتولدة منه أفضل الأعمال، وأنّ ما عداها من المكارم والخيرات في الدرجة الثانية في الفضل، لأنّها ليست من شعب الإيمان، وإن كان كلا الصفتين لا ينفع إلا إذا كان مع الإيمان، وخاصة الجهاد. وفيه إيماء إلى أنّه لولا الجهاد لما كان أهل للسقاية وعمارة المسجد الحرام مؤمنين، فإن إيمانهم كان من آثار غزوة فتح مكة وجيش الفتح، إذ آمن العباس ابن عبد المطلب وهو صاحب السقاية، وآمن عثمان بن طلحة وهو صاحب عمارة المسجد الحرام.

فإذا اعتمدنا قول عن عباس: من أنّ نزول هذه الآية كان يوم بدر، بسبب المماراة التي وقعت بين علي بن أبي طالب والعباس، فموقع التذييل بقوله: {وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} واضح، أي لا يهدي المشركين الذين يسقون الحاجّ ويعمرون المسجد الحرام، إذ لا يجدي ذلك مع الإشراك. فتبيّن أنّ ما توهّموه من المساواة بين تلك الأعمال وبين الجهاد، وتنازعهم في ذلك، خطأ من النظر، إذ لا تستقيم تسوية التابع بالمتبوع والفرع بالأصل، ولو كانت السقاية والعمارة مساويتين للجهاد لكان أصحابهما قد اهتدوا إلى نصر الإيمان، كما اهتدى إلى نصره المجاهدون، والمشاهدة دلت على خلاف ذلك، فإنّ المجاهدين كانوا مهتدين ولم يكن أهل السقاية والعمارة بالمهتدين. فالهداية شاع إطلاقها مجازا باستعارتها لمعنى الإرشاد على المطلوب، وهي بحسب هذا الإطلاق مراد بها مطلوب خاص وهو ما يطلبه من يعمل عملا يتقرب به إلى الله، كما يقتضيه تعقيب ذكر سقاية الحاج وعمارة المسجد بهذه الجملة. والمعنى: والله لا يقبل من القوم المشركين أعمالهم.

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَائِزُونَ } [20]

هذه الجملة مبيّنة لنفي الاستواء الذي في الآية السابقة، ومفصّلة للجهاد الذي في قوله {كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [19]، بأنّه الجهاد بالأموال والأنفس، وإدماج لبيان مزية المهاجرين من المجاهدين.

{ وَهَاجَرُوا } هم المؤمنون من أهل مكة وما حولها، الذين هاجروا منها إلى المدينة لمّا أذِنهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالهجرة إليها بعد أن أسلموا، وذلك قبل فتح مكة.

المهاجرة، ترك الموطن والحلول ببلد آخر، وهي مشتقة من الهجر وهو الترك، واشتقت لها صيغة المفاعلة لاختصاصها بالهجر القويّ وهو هجر الوطن. والمراد بها في عرف الشرع هجرة خاصة، وهي الهجرة من مكّة إلى المدينة، فلا تشتمل هجرة من هاجر من المسلمين إلى بلاد الحبشة لأنّها لم تكن على نيّة الاستيطان بل كانت هجرة مؤقته، وتقدّم ذكر الهجرة في آخر سورة الأنفال.

والمفضّل عليه محذوف لظهوره، أي أعظم درجة عند الله من أصحاب السقاية والعمارة الذين آمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا الجهاد الكثير الذي جاهده المسلمون أيام بقاء أولئك في الكفر.

الدرجة ،تقدّمت عند قوله تعالى {وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} [البقرة:228]. وهي في كل ذلك مستعارة لرفع المقدار. و{**عِنْدَ اللَّهِ**} إشارة إلى أنّ رفعة مقدارهم رفعة رضى من الله وتفضيل بالتشريف.

{ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَائِزُونَ } معطوفة على {أَعْظَمُ دَرَجَةً} أي أعظم وهم أصحاب الفوز. وتعريف المسند باللام مفيد للقصر، وهو قصر ادعائي للمبالغة في عظم فوزهم، حتّى إن فوز غيرهم بالنسبة إلى فوزهم يعد كالمعدوم. والإتيان باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم استحقّوا الفوز لأجل تلك الأوصاف التي ميّزتهم، وهي الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس.

{ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ [21] **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ }** [22]

بيان للدرجة العظيمة. فتلك الدرجة هي عناية الله تعالى بهم بإدخال المسرّة عليهم، وتحقيق فوزهم، وتعريفهم برضوانه عليهم، ورحمته بهم، وبما أعدّ لهم من النعيم الدائم. ومجموع هذه الأمور لم يمنحه غيرهم من أهل السقاية والعمارة، الذين وإن صلحوا لأنّ ينالوا بعض هذه المزايا فهم لم ينالوا جميعها.

التبشير، الإخبار بخير يحصل للمخبر لم يكن عالما به.

فإسناد التبشير إلى اسم الجلالة بصيغة المضارع، المفيد للتجدّد، مؤذن بتعاقب الخيرات عليهم، وتجدّد إدخال

السرور بذلك لهم.

وكون المسند إليه لفظ الربّ، دون غيره ممّا يدلّ على الخالق سبحانه، إيماء إلى الرحمة بهم والعناية، لأنّ معنى الربوبية يرجع إلى تدبير المربوب والرفق به واللطف به، ولتحصل به الإضافة إلى ضميرهم إضافة تشريف.

الرحمة، تقدّمت في قوله {الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة:1]

الرِضوان، (بكسرالراء وبضمّها)، الرضا الكامل الشديد، لأنّ هذه الصيغة تشعر بالمبالغة مثل الغفران.

الجنّات، تقدّم الكلام عليها في ذكر الجنّة في سورة البقرة، وجمعها باعتبار مراتبها وأنواعها.

النعيم، ما به التذاذ النفس باللذّات المحسوسة، وهو أخصّ من النعمة. قال تعالى {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [الإنفطار:13] وقال {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر:8].

المقيم، المستمّر، استعيرت الإقامة للدوام والاستمرار.

والتنكير في {بِرَحْمَةٍ، وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ، وَنَعِيمٌ} للتعظيم، بقرينة المقام، وقرينة قوله {مِنْهُ}، وقرينة كون تلك مبشرّاً بها.

{ **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** } تذييل وتنويه بشأن المؤمنين المهاجرين المجاهدين، لأّنّ مضمون هذه الجملة يعمّ مضمون ما قبلها وغيره، وفي هذا التذييل إفادة أنّ ما ذكر من عظيم درجات المؤمنين المهاجرين المجاهدين هو بعض ما عند الله من الخيرات فيحصل من ذلك الترغيب في الازدياد من الأعمال الصالحة ليزدادوا رفعة عند ربهم.

الأجر، العوض المعطى على عمل، وتقدم في قوله {إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} [المائدة:5].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ }[23]

استئناف ابتدائي لافتتاح غرض آخر وهو تقريع المنافقين ومن يواليهم، فإنّه لماّ كان أوّل السورة في تخطيط طريقة معاملة المظهرين للكفر، لا جرم تهيّأ المقام لمثل ذلك بالنسبة إلى من أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان، وهم المنافقون من أهل المدينة ومن بقايا قبائل العرب، ممن عرفوا بذلك، أو لم يعرفوا، وأطلع الله عليهم نبيّه ﷺ، وحذّر المؤمنين المطلّعين عليهم، من بطانتهم وذوي قرابتهم ومخالطتهم. وأكثر ما كان ذلك في أهل المدينة لأنّهم كانت من بينهم بقية من المنافقين وهم من ذوي قرابتهم.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** } إشعار بأنّ ما سيلقى إليهم من الوصايا هو من مقتضيات الإيمان وشعاره.

وقد أسفرت غزوة تبوك التي نزلت عقبها هذه السورة عن بقاء بقية من النفاق في أهل المدينة والأعراب

المجاورين لها، كما في قوله تعالى {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنْ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ} [90] وقوله {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنْ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ} [101] ونظائرهما من الآيات.

{ **اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ** } أحبّوه حبّاً متمكّناً. فالسين والتاء للتأكيد، مثل ما في استقام واستبشر.

حذر الله المؤمنين من موالاة من استحبّوا الكفر على الإيمان، في ظاهر أمرهم أو باطنه، إذا اطّلعوا عليهم وبدت عليهم أمارات ذلك بما ذكر من صفاتهم في هذه السورة، وجعل التحذير من أولئك بخصوص، كونهم آباء وإخواناً، تنبيهاً على أقصى الجدارة بالولاية ليعلم بفحوى الخطاب أنّ من دونهم أولى بحكم النهي. ولم يذكر الأبناء والأزواج هنا لأنّهم تابعون فلا يقعدون بعد متبوعيهم.

{ **فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ** } أريد به الظالمون انفسهم لأنهم وقعوا فيما نهاهم الله، فاستحقّوا العقاب. فالظلم هنا بمعناه اللغوي وليس مرادا به الشرك. وصيغة الحصر للمبالغة.

ويجوز أن يكون هم {الظَّالِمُونَ} عائداً إلى ما عاد إليه ضمير النصب في قوله {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ}، أي إلى الآباء والإخوان الذين استحبّوا الكفر على الإيمان. والمعنى ومن يتولّهم فقد تولّى الظالمين، فيكون الظلم على هذا مرادا به الشرك، كما هو الكثير في إطلاقه في القرآن.

{ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [24]

ارتقاء في التحذير من العلائق التي قد تفضي إلى التقصير في القيام بواجبات الإسلام، فلذلك جاءت زيادة تفصيل الأصناف من ذوي القرابة، وأسباب المخالطة التي تكون بين المؤمنين وبين الكافرين، ومن الأسباب التي تتعلّق بها نفوس النّاس فيحول تعلّقهم بها بينهم وبين الوفاء ببعض حقوق الإسلام، فلذلك ذكر الأبناء هنا لأنّ التّعلق بهم أقوى من التعلّق بالإخوان، وذكر غيرهم من قريب القرابة أيضا.

{ **قُلْ** } يشير إلى غِلَظِه والتوبيخ به.

والمخاطب بضمائر جماعة المخاطبين، المؤمنون الذين قصّروا في بعض الواجب أو المتوقّع منهم ذلك، كما يشعر به اقتران الشرط بحرف الشك { **إِنْ** }، ويفهم منه أنّ المسترسلين في ذلك الملابسين له هم أهل النفاق، فهم المعرّض لهم بالتهديد في قوله {فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}.

وقد جمعت هذه الآية أصنافا من العلاقات وذويها، من شأنها أن تألفها النفوس وترغب في القرب منها وعدم مفارقتها، فإذا كان الثبات على الإيمان يجرّ إلى هجران بعضها كالآباء والإخوان الكافرين الذين يهجر بعضهم بعضا إذا اختلفوا في الدين، وكالأبناء والأزواج والعشيرة الذين يألف المرء البقاء بينهم، فلعلّ ذلك

يقعده عن الغزو، وكالأموال والتجارة التي تصدّ عن الغزو وعن الإنفاق في سبيل الله. وكذلك المساكن التي يألف المرء الإقامة فيها فيصدّه إلفها عن الغزو. فإذا حصل التعارض والتدافع بين ما أراده الله من المؤمنين وبين ما تجر إليه تلك العلائق وجب على المؤمن دحضها وإرضاء ربّه.

{ **أَحَبَّ** } في هذا التعبير تحذير من التهاون بواجبات الدين مع الكناية عن جعل ذلك التهاون مسبّبا على تقديم محبة تلك العلائق على محبة الله.

{ **وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ** } خصّ الجهاد بالذكر من عموم ما يحبّه الله منهم تنويها بشأنه، ولأنّ ما فيه من الخطر على النفوس ومن إنفاق الأموال ومفارقة الإلف، جعله أقوى مظنّة للتقاعس عنه، لا سيما والسورة نزلت عقب غزوة تبوك التي تخلّف عنها كثير من المنافقين وبعض المسلمين.

العشيرة، الأقارب الأدنون، وكأنّه مشتق من العِشرة وهي الخلطة والصحبة.

الاقتراف، الاكتساب، وهو مشتقّ من قارف إذا قارب الشيء.

الكساد، قلّة التبايع وهو ضد الرّواج والنّفَاق، وذلك بمقاطعة طوائف من المشركين الذين كانوا يتبايعون معهم، وبالانقطاع عن الاتّجار أيام الجهاد.

التربّص، الانتظار، وهذا أمر تهديد لأنّ المراد انتظار الشرّ. وهو المراد بقوله {حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} أي الأمر الذي يظهر به سوء عاقبة إيثاركم محبّة الأقارب والأموال والمساكن، على محبة الله ورسوله والجهاد.

الأمر، اسم مبهم بمعنى الشيء والشأن، والمقصود من هذا الإبهام التهويل لتذهب نفوس المهدّدين كلّ مذهب.

فأمر الله: يحتمل أن يكون العذاب أو القتل أو نحوهما، ومن فسّر أمر الله بفتح مكّة فقد ذهل لأنّ هذه السورة نزلت بعد الفتح.

{ **وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** } تذييل، والواو اعتراضية وهذا تهديد بأنّهم فضلوا قرابتهم وأموالهم على محبّة الله ورسوله وعلى الجهاد فقد تحقّق أنّهم فاسقون والله لا يهدي القوم الفاسقين فحصل بموقع التذييل تعريض بهم بأنّهم من الفاسقين.

{ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ }[25]

لمّا تضمّنت الآيات السابقة الحثّ على قتال المشركين، وكان التمهيد للإقدام على ذلك مدرّجا بإبطال حرمة عهدهم، لشركهم، وبإظهار أنّهم مضمرون العزم على الابتداء بنقض العهود التي بينهم وبين المسلمين لو قدّر لهم النصر على المسلمين، وآية ذلك اعتداؤهم على خزاعة أحلاف المسلمين، وهمّهم بإخراج الرسول ﷺ من مكّة بعد الفتح، حتّى إذا انتهى ذلك التمهيد المدرج إلى الحثّ على قتالهم وضمان نصر الله المسلمين

عليهم، وما اتصل بذلك ممّا يثير حماسة المسلمين، جاء في هذه الآية بشواهد ما سبق من نصر الله المسلمين في مواطن كثيرة، وتذكير بمقارنة التأييد الإلهي لحالة الامتثال لأوامره، وأن في غزوة حنين شواهد تشهد للحالين. فالكلام استئناف ابتدائي لمناسبة الغرض السابق.

{ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ** } وأسند النصر إلى الله بالصراحة لإظهار أنّ إيثار محبّة الله وإن كان يُفيت بعض حظوظ الدنيا، ففيه حظ الآخرة وفيه حظوظ أخرى من الدنيا وهي حظوظ النصر، بما فيه من تأييد الجامعة، ومن المغانم، وحماية الأمّة من اعتداء أعدائها، وذلك من فضل الله إذ آثروا محبته على محبّة علائقهم الدنيوية.

وأكد الكلام بـ { **قَدْ** } لتحقيق هذا النصر، لأنّ القوم كأنّهم نسوه أو شكّوا فيه، فنزلوا منزلة من يحتاج إلى تأكيد الخبر.

{ **فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ** } : جمع موطن، والموطن أصله مكان التوطّن، أي الإقامة. ويطلق على مقام الحرب وموقفها، أي نصركم في مواقع حروب كثيرة.

{ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ** } معطوف على {فِي مَوَاطِنَ}، والتقدير: ونصركم يوم حنين وهو من جملة المواطن.

وتخصيص يوم حنين بالذكر من بين أيام الحروب، لأنّ المسلمين انهزموا في أثناء النصر ثم عاد إليهم النصر، فتخصيصه بالذكر لما فيه من العبرة بحصول النصر عند امتثال أمر الله ورسوله ﷺ وحصول الهزيمة عند إيثار الحظوظ العاجلة على الامتثال.

{ **حُنَيْنٍ** } اسم واد بين مكة والطائف قرب ذي المجاز، كانت فيه وقعة عظيمة عقب فتح مكة بين المسلمين مع النبيّ ﷺ، وكانوا اثني عشر ألفا، وبين هوازن وثقيف وألفافهما، إذ نهضوا لقتال النبي ﷺ حميّة وغضبا لهزيمة قريش ولفتح مكّة، وكان على هوازن مالك بن عوف، أخو بني نصر، وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمرو الثقفي، وكانوا في عدد كثير وساروا إلى مكّة فخرج إليهم النبيّ ﷺ حتّى اجتمعوا بحنين فقال المسلمون: " لن نغلب اليوم من قلة "، ووثقوا بالنصر لقوّتهم، فحصلت لهم هزيمة عند أوّل اللقاء كانت عتاّباً إلهيا على نسيانهم التوكّل على الله في النصر، واعتمادهم على كثرتهم. ولذلك روي أنّ رسول الله ﷺ لمّا سمع قول بعض المسلمين " لن نغلب من قلّة " ساءه ذلك. فإنهم لما هبطوا وادي حنين كان الأعداء قد كمنوا لهم في شعابه وأحنائه، فما راع المسلمين وهم منحدرون في الوادي إلّا كتائب العدو وقد شدّت عليهم. وقيل: إنّ المسلمين حملوا على العدوّ فانهزم العدو فلحقوهم يغنمون منهم، وكانت هوازن قوما رماة فاكثبوا المسلمين بالسهام فأدبر المسلمون راجعين لا يلوي أحد على أحد، وتفرّقوا في الوادي، وتطاول عليهم المشركون ورسول الله ﷺ ثابت في الجهة اليمنى من الوادي ومعه عشرة من المهاجرين والأنصار فأمر رسول الله ﷺ العباس عمّه أن يصرخ في النّاس: يا أصحاب الشجرة أو السمرة (يعني أهل بيعة الرضوان) يا معشر المهاجرين، يا أصحاب سورة البقرة (يعني الأنصار)، هلمّوا إليّ، فاجتمع إليه مائة، وقاتلوا هوازن

مع من بقي مع النبي ﷺ واجتلد النّاس، وتراجع بقيّة المنهزمين واشتد القتال وقال رسول الله ﷺ: " الآن حمي الوطيس" ، فكانت الدائرة على المشركين وهزموا شر هزيمة وغنمت أموالهم وسبيت نساؤهم.

{ **إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا** } موقع بديع، لأنّه تنبيه على خطئهم في الأدب مع الله المناسب لمقامهم، أي ما كان ينبغي لكم أن تعتمدوا على كثرتكم.

{ **وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ** } وهذا التركيب تمثيل لحال المسلمين لمّا اشتد عليهم البأس واضطربوا ولم يهتدوا لدفع العدو عنهم، بحال من يرى الأرض الواسعة ضيّقة.

الضيق، غير حقيقي، استعارة تمثيلية، تمثيلا لحال من لا يستطيع الخلاص من شدّة بسبب اختلال قوة تفكيره، بحال من هو في مكان ضيق من الأرض يريد أن يخرج منه فلا يستطيع تجاوزه ولا الانتقال منه.

وهذا أحسن من قول المفسرين أنّ المعنى، لم تهتدوا إلى موضع من الأرض تفرون إليه فكأن الأرض ضاقت عليكم، ومنهم من أجمل فقال: أي لشدة الحال وصعوبتها.

{ **ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ** } موقع التراخي الرتبي، أي وأعظم مما نالكم من الشر أن وليتم مدبرين.

التولّي، الرجوع.

{ **مُدْبِرِينَ** } حال، إمّا مؤكدة لمعنى {وَلَّيْتُمْ}، أو أريد بها إدبار أخص من التولّي، لأن التولي مطلق يكون للهروب، ويكون للفر في حيل الحروب، والإدبار شائع في الفرار الذي لم يقصد به حيلة فيكون الفرق بينه وبين التولي اصطلاحا حربيا.

{ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ } [26]

{ **ثُمَّ** } دالّة على التراخي الرتبي فإنّ نزول السكينة ونزول الملائكة أعظم من النصر الأوّل يوم حنين. على أنّ التراخي الزمني مراد، تنزيلا لعظم الشدّة وهول المصيبة منزلة طول مدتها، فإنّ أزمان الشدة تخيل طويلة وإن قصرت.

السكينة، الثبات واطمئنان النفس، و تقدم بيانها عند قوله تعالى{أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ} [البقرة :248]، وتعليقها بإنزال الله، وإضافتها إلى ضميره: تنويه بشأنها وبركتها، وإشارة إلى أنّها سكينة خارقة للعادة، وإنما حصلت بمحض تقدير الله، كرامة لنبيه ﷺ وإجابة لندائه النّاس، ولذلك قدّم ذكر الرسول قبل ذكر المؤمنين.

الجنود، جمع جند. والجند اسم جمع لا واحد له من لفظه، وهو الجماعة المهيّئة للحرب، وواحده بياء النسب: جندي. وقد تقدّم عند قوله تعالى {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ} [البقرة:249]. وقد يطلق الجند على الأمّة

العظيمة ذات القوة، كما في قوله تعالى {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ} [البروج :17 ،18].
والمراد بالجنود هنا جماعات من الملائكة موكلون بهزيمة المشركين كما دل عليه فعل أنزل، أي أرسلها الله لنصرة المؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب المشركين، ولذلك قال: {لَمْ تَرَوْهَا} ولكون الملائكة ملائكة النصر أطلق عليها اسم الجنود.
{ **وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } هو تعذيب القتل والأسر والسبي.
{ **وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** } الإشارة إلى العذاب المأخوذ من { عَذَّبَ }

{ **ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } [27]
إشارة إلى إسلام هوازن بعد تلك الهزيمة فإنّهم جاءوا رسول الله ﷺ مسلمين تائبين، وسألوه أن يردّ إليهم سبيهم وغنائمهم، فذلك أكبر منّة في نصر المسلمين، إذ أصبح العدو لهم مسلمين معهم، لا يخافونهم.
وأتى بالمضارع في قوله { يَتُوبُ اللَّهُ } دون الفعل الماضي، لأنّ المقصود ما يشمل توبة هوازن وتوبة غيرهم، للإشارة إلى إفادة تجدّد التوبة على كل من تاب إلى الله، لا يختصّ بها هوازن فتوبته على هوازن قد عرفها المسلمون، فأعلموا بأن الله يعامل بمثل ذلك كل من ندم وتاب.
{ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل للكلام لإفادة أن المغفرة من شأنه تعالى، وأنّه رحيم بعباده إن أنابوا إليه وتركوا الإشراك به.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } [28]
{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا** }
استئناف ابتدائي للرجوع إلى غرض إقصاء المشركين عن المسجد الحرام المفاد بقوله {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ} [17]، جيء به لتأكيد الأمر بإبعادهم عن المسجد الحرام مع تعليله بعلّة أخرى تقتضي إبعادهم عنه، وهي أنّهم نجس، فقد علّل فيما مضى بأنّهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، فليسوا أهلا لتعمير المسجد المبني للتوحيد، وعلّل هنا بأنّهم نجس فلا يعمروا المسجد لطهارته.
{ **نَجَسٌ** } صفة مشبّهة، اسم للشيء الذي النجاسة صفة ملازمة له، وقد أنيط وصف النجاسة بهم بصفة الإشراك، فعلمنا أنّها نجاسة معنوية نفسانية وليست نجاسة ذاتية.
النجاسة المعنوية، هي اعتبار صاحب وصف من الأوصاف محقّرا متجنَّبا من النّاس فلا يكون أهلا لفضل ما دام متلبسا بالصفة التي جعلته كذلك. فالمشرك نجس لأجل عقيدة إشراكه، وقد يكون جسده نظيفا مطيبا لا

يستقذر. ولا شك أن خباثة الاعتقاد أدنى بصاحبها إلى التحقير من قذارة الذات، ولذلك أوجب الغسل على المشرك إذا أسلم انخلاعا عن تلك القذارة المعنوية بالطهارة الحسية لإزالة خباثة نفسه.

{ **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ** } صيغة الحصر لإفادة نفي التردّد في اعتبارهم نجسا، فهو للمبالغة في اتصافهم بالنجاسة حتى كأنّهم لا وصف لهم إلّا النجسية.

{ **فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ** } المقصود من النهي عن اقترابهم من المسجد الحرام النهي عن حضورهم الحجّ ، لأنّ مناسك الحجّ كلّها تتقدمها زيارة المسجد الحرام وتعقبها كذلك، ولذلك لما نزلت (براءة) أرسل النبيّ ﷺ بأن ينادي في الموسم أن لا يحجّ بعد العام مشرك.

{ **بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا** } الإشارة إلى العام الذي نزلت فيه الآية، وهو عام تسعة من الهجرة، فقد حضر المشركون موسم الحج فيه وأعلن لهم فيه أنّهم لا يعودون إلى الحج بعد ذلك العام.

{ **وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** }

العيلة، الاحتياج والفقر، أي إن خطر في نفوسكم خوف الفقر من انقطاع الإمداد عنكم بمنع قبائل كثيرة من الحجّ، فإنّ الله سيغنيكم عن ذلك. وقد أغناهم الله بأن هدى للإسلام أهل تَبَالَة وجُرَش من بلاد اليمن، فأسلموا عقب ذلك، وكانت بلادهم بلاد خصب وزرع فحملوا إلى مكة الطعام والميرة، وأسلم أيضا أهل جدّة وبلدهم مرفأ ترد إليه الأقوات من مصر وغيرها، فحملوا الطعام إلى مكّة، وأسلم أهل صنعاء من اليمن، وبلدهم تأتيه السفن من أقاليم كثيرة من الهند وغيرها.

{ **إِنْ شَاءَ** } يفتح لهم باب الرجاء مع التضرّع إلى الله في تحقيق وعده لأنّه يفعل ما يشاء.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تعليل، أي أنّ الله يغنيكم لأنّه يعلم ما لكم من المنافع من وفادة القبائل، فلما منعكم من تمكينهم من الحج لم يكن تاركا منفعتكم فقدّر غناكم عنهم بوسائل أخرى علمها وأحكم تدبيرها.

{ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [29]

الكلام انتقال من غرض نبذ العهد مع المشركين وأحوال المعاملة بينهم وبين المسلمين إلى غرض المعاملة بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، إذ كان الفريقان مسالمين المسلمين في أول بدء الإسلام، وكانوا يحسبون أن في مدافعة المشركين للمسلمين ما يكفيهم أمر التصدّي للطعن في الإسلام وتلاشي أمره، فلمّا أخذ الإسلام ينتشر في بلاد العرب يوما فيوما، واستقل أمره بالمدينة، ابتدأ بعض اليهود يظهر إحنه نحو المسلمين، فنشأ النفاق بالمدينة وظاهرت قريظة والنضير أهل الأحزاب لمّا غزوا المدينة فأذهبهم الله عنها. ثم لما اكتمل نصر الإسلام بفتح مكة والطائف وعمومه بلاد العرب بمجيء وفودهم مسلمين، وامتد إلى تخوم

البلاد الشامية، أوجست نصارى العرب خيفة من تطرقه إليهم، ولم تغمض عين دولة الروم حامية نصارى العرب عن تداني بلاد الإسلام من بلادهم، فأخذوا يستعدّون لحرب المسلمين بواسطة ملوك غسان سادة بلاد الشام في ملك الروم.

فلا جرم لما أمن المسلمون بأس المشركين وأصبحوا في مأمن منهم، أن يأخذوا الأهبة ليأمنوا بأس أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فابتدأ ذلك بغزو خيبر وقريظة والنضير وقد هزموا وكفى الله المسلمين بأسهم وأورثهم أرضهم فلم يقع قتال معهم بعد. ثم ثنّى بغزوة تبوك التي هي من مشارف الشام.

وظاهر الآية أنّ القوم المأمور بقتالهم ثبتت لهم معاني الأفعال الثلاثة المتعاطفة في صلة الموصول؛ انتفى الإيمان بالله واليوم الآخر، وتحريم ما حرم الله، والتدين بدين الحق. ولم يعرف أهل الكتاب بأنّهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. فاليهود والنصارى مثبتون لوجود الله تعالى ومؤمنون بيوم الجزاء.

وبهذا الاعتبار تحيّر المفسرون في تفسير هذه الآية فلذلك تأولوها بأن اليهود والنصارى، وإن أثبتوا وجود الله واليوم الآخر، فقد وصفوا الله بصفات تنافي الإلهية فكأنهم ما أمنوا به، إذ أثبت اليهود الجسمية لله تعالى وقالوا {يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ} وقال كثير منهم {عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ} [التوبة: 30]

وأثبت النصارى تعدّد الإله بالتثليث فقاربوا قول المشركين فهم أبعد من اليهود عن الإيمان الحق.

وأنّ قول الفريقين بإثبات اليوم الآخر قد ألصقوا به تخيّلات وأكذوبات تنافي حقيقة الجزاء، كقولهم {لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً} [البقرة:80] فكأنّهم لم يؤمنوا باليوم الآخر.

والذي أراه في تفسير هذه الآية أنّ المقصود الأهم منها قتال أهل الكتاب من النصارى كما علمت، ولكنّها أدمجت معهم المشركين لئلا يتوهّم أحد أنّ الأمر بقتال أهل الكتاب يقتضي التفرغ لقتالهم ومتاركة قتال المشركين.

{ **مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** } بيان لأقرب صلة منه وهي صلة { **وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ** }، وفائدة ذكره التنديد عليهم بأنّهم أوتوا الكتاب ولم يدينوا دين الحق الذي جاء به كتابهم، وإنّما دانوا بما حرّفوا منه، وما أنكروا منه، وما ألصقوا به، ولو دانوا دين الحق لاتبعوا الإسلام.

{ **وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** } . بمعنى لا يجعلون حراما ما حرّمه الله، والمقصود من هذا تشنيع حالهم وإثارة كراهيتهم لهم بأنّهم يستبيحون ما حرمه الله على عباده.

{ **وَرَسُولُهُ** } محمد ﷺ كما هو متعارف القرآن ولو أريد غيره من الرسل لقال ورسله لأنّ الله ما حرم على لسان رسوله إلا ما هو حقيق بالتحريم.

وعلى هذا التفسير تكون هذه الآية تهيئة للمسلمين لأن يغزوا الروم والفرس وما بقي من قبائل العرب، الذين يستظلّون بنصر إحدى هاتين الأمتين، الذين تأخر إسلامهم مثل قضاعة وتغلب بتخوم الشام، حتّى يؤمنوا أو

يعطوا الجزية.

و { **حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** } غاية للقتال، وضمير {يُعْطُوا} عائد إلى {أُوتُوا الْكِتَابَ}.

الجزية، اسم لمال يعطيه رجال قوم جزاء على الإبقاء بالحياة أو على الإقرار بالأرض. والظاهر أنّه اسم معرّب عن كلمة (**كِزِيَتْ**) بالفارسية بمعنى الخراج، نقله المفسّرون عن الخوارزمي، ولم أقف على هذه الكلمة في كلام العرب في الجاهلية ولم يعرّج عليها الراغب في (مفردات القرآن)، ولم يذكروها في معرّب القرآن، لوقوع التردّد في ذلك لأنّهم وجدوا مادة الاشتقاق العربي صالحة فيها. ولا شك أنّها كانت معروفة المعنى للذين نزل القرآن بينهم، ولذلك عرّفت في هذه الآية.

{ **عَنْ يَدٍ** } تأكيد لمعنى {يُعْطُوا} للتنصيص على الإعطاء. أي يعطوها غير ممتنعين ولا منازعين في إعطائها.

الصاغر، اسم فاعل من صغِر (بكسر الغين) صَغَرا بالتحريك وصَغَارا. إذا ذلّ، وتقدم ذكر الصغار في قوله تعالى {سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ} [الأنعام:124]. أي وهم أذلّاء. والمقصود منه تعظيم أمر الإسلام وتحقير أهل الكفر ليكون ذلك ترغيبا لهم في الانخلاع عن دينهم الباطل واتباعهم دين الإسلام.

وقد دلت هذه الآية على أخذ الجزية من المجوس لأنّهم أهل كتاب. نقل عن ابن المنذر: " لا أعلم خلافا في أن الجزية تؤخذ منهم ". وخالف ابن وهب من أصحاب مالك في أخذ الجزية من مجوس العرب. وقال لا تقبل منهم جزية ولابد من القتل أو الإسلام. كما دلّت الآية على أخذ الجزية من نصارى العرب، دون مشركيهم.

{ وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [30]

تشنيع على قائليهما من أهل الكتاب بأنهم بلغوا في الكفر غايته حتى ساووا المشركين.

عُزير، اسم حبر كبير من أحبار اليهود الذين كانوا في الأسر البابلي، واسمه في العبرانية **عِزْرا** بن سرايا من سبط اللاويين، كان حافظا للتوراة. وقد تفضّل عليه (كورش) ملك فارس فأطلقه من الأسر، وأطلق معه بني إسرائيل من الأسر الذي كان عليهم في بابل، وأذنهم بالرجوع إلى أورشليم وبناء هيكلهم فيه، وذلك في سنة (451 ق م)، فكان عزرا زعيم أحبار اليهود الذين رجعوا بقومهم إلى أورشليم وجدّدوا الهيكل وأعاد شريعة التوراة من حفظه. فكان اليهود يعظمون عزرا إلى حد أن أدعى عامتهم أنّ عزرا ابن الله، غلوا منهم في تقديسه، والذين وصفوه بذلك جماعة من أحبار اليهود في المدينة، وتبعهم كثير من عامتهم.

قال بهذا القول فرقة من اليهود فألصق القول بهم جميعا، لأنّ سكوت الباقين عليه وعدم تغييره يلزمهم

الموافقة عليه والرضا به، وقد ذكر اسم عزرا في الآية بصيغة التصغير، فيحتمل أنّه لمّا عرّب عزّب بصيغة تشبه صيغة التصغير، فيكون كذلك اسمه عند يهود المدينة. ويحتمل أنّ تصغيره جرى على لسان يهود المدينة تحبيبا فيه.

{ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ } قول النصارى ببنوة المسيح معلوم مشهور. وقد مضى الكلام على المسيح عند قوله تعالى {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ} [البقرة 87]. وعند قوله تعالى {اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ} [آل عمران:45]

{ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ } حال من القول، والمراد أنه قول لا يعدو الوجود في اللسان وليس له ما يحقّقه في الواقع، وهذا كناية عن كونه كاذبا كقوله تعالى {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا} [الكهف:5]. وفي هذا أيضا إلزام لهم بهذا القول.

المضاهاة، المشابهة، وإسنادها إلى القائلين: على تقدير مضاف ظاهر من كلام، أي يضاهي قولُهم.

{ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ } هم المشركون من العرب، ومن اليونان، وغيرهم، وكونهم من قبل النصارى ظاهر، وأمّا كونهم من قبل اليهود، فلأن اعتقاد بنوة عزير طارئ في اليهود وليس من عقيدة قدمائهم.

{ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ } دعاء مستعمل في التعجيب، وهو مركب يستعمل في التعجب من عمل شنيع، والمفاعلة فيه للمبالغة في الدعاء: أي قتلهم الله قتلا شديدا.

{ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } مستأنفة. والاستفهام فيها مستعمل في التعجيب من حالهم في اتباع الباطل، حتّى شبّه المكان الذي يصرفون إليه باعتقادهم بمكان مجهول من شأنه أن يسأل عنه باسم الاستفهام عن المكان.

{ يُؤْفَكُونَ } يصرفون. يقال: أَفَكَه يأفِكه إذا صرفه، قال تعالى: {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [الذاريات:9] والإفك بمعنى الكذب قد جاء من هذه المادة، لأنّ الكاذب يصرف السامع عن الصدق، وقد تقدم ذلك غير مرة.

{ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ }[31]

جملة تقريريّة لزيادة التشنيع. والضمير لليهود والنصارى.

الأحبار، جمع حَبر (بفتح الحاء) وهو العالم من علماء اليهود.

الرهبان، اسم جمع لراهب وهو التقي المنقطع لعبادة الله من أهل دين النصرانية.

وإنّما خص الحَبر، بعالم اليهود لأن عظماء دين اليهودية يشتغلون بتحرير علوم شريعة التوراة فهم علماء في الدين، وخصّ الراهب بعظيم دين النصرانية، لأنّ دين النصارى قائم على أصل الزهد في الدنيا والانقطاع للعبادة.

{ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ } ومعنى اتخاذهم هؤلاء أربابا، أنّ اليهود ادعوا لبعضهم بنوّة الله تعالى وذلك تأليه، وأنّ النصارى أشدّ منهم في ذلك إذ كانوا يسجدون لصور عظماء ملّتهم، مثل صورة مريم، وصور الحواريين، وصورة يحيى بن زكرياء، والسجود من شعار الربوبية، وكانوا يستنصرون بهم في حروبه. وهذا حال كثير من طوائفهم وفرقهم. ولأنّهم كانوا يأخذون بأقوال أحبارهم ورهبانهم المخالفة لما هو معلوم بالضرورة أنّه من الدين، فكانوا يعتقدون أن أحبارهم ورهبانهم يحلّلون ما حرم الله، ويحرّمون ما أحل الله، وهذا مطرد في جميع أهل الدينين، ولذلك أفحم به النبيّ ﷺ عُديّا بن حاتم لمّا وفد عليه قبيل إسلامه، لمّا سمع قوله تعالى {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} قال عديّ: لسنا نعبدهم فقال ﷺ: " أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتستحلونه - فقال: بلى ، قال: فتلك عبادتهم".

وتخصيص المسيح بالذكر لأن تأليه النصارى إيّاه أشنع وأشهر.

{ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا } في موضع الحال، زيادة التشنيع عليهم وإنكار صنيعهم بأنّهم لا عذر لهم فيما زعموا، لأنّ وصايا كتب الملّتين طافحة بالتحذير من عبادة المخلوقات ومن إشراكها في خصائص الإلهية.

{ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } مستأنفة لقصد التنزيه والتبرئ مما افتروا على الله تعالى، ولذلك سمي ذلك إشراكا.

{ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }[32]

استئناف ابتدائي لزيادة إثارة غيظ المسلمين على أهل الكتاب، بكشف ما يضمرونه للإسلام من الممالاة، والتألب على مناواة الدين، حين تحقّقوا أنّه في انتشار وظهور فثار حسدهم وخشوا ظهور فضله على دينهم.

والضمير في {يُرِيدُونَ} عائد إلى {الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} [29].

الإطفاء، إبطال الإسراج وإزالة النور بنفخ عليه، أو هبوب رياح، أو إراقة مياه على الشيء المستنير من سراج أو جمر. و**النور**، الضوء وقد تقدم عند قوله تعالى {نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ} [الأنعام:91].

والكلام تمثيل لحالهم في محاولة تكذيب النبيّ ﷺ، وصدّ النّاس عن اتباع الإسلام، وإعانة المناوئين للإسلام بالقول والإرجاف، والتحريض على المقاومة. والانضمام إلى صفوف الأعداء في الحروب، ومحاولة نصارى الشام الهجوم على المدينة، بحال من يحاول إطفاء نور بنفخ فمه عليه.

وإضافة النور إلى اسم الجلالة إشارة إلى أن محاولة إطفائه عبث، وأنّ أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مرادهم.

{ وَيَأْبَى اللَّهُ } الإباء والإباية، الامتناع من الفعل، وهو هنا تمثيل لإرادة الله تعالى إتمام ظهور الإسلام بحال

من يحاوله محاول على فعل وهو يمتنع منه.
{ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } الإتمام مؤذن بالزيادة والانتشار ولذلك لم يقل: ويأبى الله إلّا أن يبقي نوره.

{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}[33]

بيان لجملة {وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ} [32]. وفي هذا البيان تنويه بشأن الرسول بعد التنويه بشأن الدين.
{ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ } صيغة قصر، أي هو لا غيره أرسل رسوله بهذا النور، فكيف يترك معانديه يطفئونه.
{ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ } التنويه بفضل الإسلام ، والتعريض بأنّ ما هم عليه ليس بهدى ولا حق.
{ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ } فعل الإظهار إذا عدي بـ (على) كان مضمّنا معنى النصر أو التفضيل، أي لينصره على الأديان كلّها، أي ليكون أشرف الأديان وأغلبها. ومنه المظاهرة أي المناصرة، وقد تقدم ذكرها آنفا عند قوله {وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا} [4].
{ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } ذُكر المشركون هنا، لأنّ ظهور دين الإسلام أشدّ حسرة عليهم من كل أمّة، لأنّهم الذين ابتدأوا بمعارضته وعداوته ودعوا الأمم للتألّب عليه واستنصروا بهم فلم يغنوا عنهم شيئا، ولأنّ أتم مظاهر انتصار الإسلام كان في جزيرة العرب وهي ديار المشركين، وزالت منها جميع الأديان الأخرى.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنْ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[34]

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنْ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } استئناف ابتدائي لتنبيه المسلمين على نقائص أهل الكتاب. فبعد أن ذكر تأليه عامتهم لأفاضل من أحبارهم ورهبانهم المتقدّمين، مثل عزير، بيّن للمسلمين أنّ كثيرا من الأحبار والرهبان المتأخّرين ليسوا على حال كمال، ولا يستحقّون المقام الديني الذي ينتحلونه. والمقصود من هذا التنبيه أن يعلم المسلمون تمالئ الخاصة والعامة من أهل الكتاب، على الضلال وعلى مناواة الإسلام، وأنّ غرضهم من ذلك حبّ الخاصة الاستيثار بالسيادة، وحبّ العامة الاستيثار بالمزيّة بين العرب.
وافتتاح الجملة بالنداء واقترانها بحرفي التأكيد، للاهتمام بمضمونها ورفع احتمال المبالغة فيه لغرابته.

وتقدم ذكر الأحبار والرهبان آنفا.

{ **إِنَّ كَثِيرًا** } دون جميعهم لأنّهم لم يخلوا من وجود الصالحين فيهم مثل عبد الله بن سلام ومخيريق.

الباطل، ضدّ الحقّ، أي أكلا لا مبرّر له، وإطلاق الأكل على أخذ مال الغير إطلاق شائع قال تعالى {وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ } [البقرة :188].

والباطل يشمل وجوها كثيرة، منها تغيير الأحكام الدينية لموافقة أهواء النّاس، ومنها القضاء بين النّاس بغير إعطاء صاحب الحقّ حقّه المعيّن له في الشريعة، ومنها جحد الأمانات عن أربابها أو عن ورثتهم، ومنها أكل أموال اليتامى، وأموال الأوقاف والصدقات.

{ **وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** } وسبيل الله طريقه، استعير لدينه الموصل إليه، أي إلى رضاه. والصدّ عنه الإعراض عن متابعة الدين الحقّ في خاصة النفس، وإغراء النّاس بالإعراض عن ذلك. فيكون هذا بالنسبة لأحكام دينهم إذ يغيّرون العمل بها، ويضلّلون العامة في حقيقتها حتّى يعملوا بخلافها، وهم يحسبون أنّهم متبعون لدينهم، ويكون ذلك أيضا بالنسبة إلى دين الإسلام إذ ينكرون نبوءة محمد ﷺ ويعلمون أتباع ملّتهم أن الإسلام ليس بدين الحق.

{ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** }

معطوفة على {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا} والمناسبة بين الجملتين، أن كلتيهما تنبيه على مساوي أقوام يضعهم النّاس في مقامات الرفعة والسؤدد وليسوا أهلا لذلك. فمضمون الجملة الأولى بيان مساوي أقوام رفع الناس أقدارهم لعلمهم ودينهم، وكانوا منطوين على خبائث خفيّة، ومضمون الجملة الثانية بيان مساوي أقوام رفعهم الناس لأجل أموالهم، فبين الله أنّ تلك الأموال إذا لم تنفق في سبيل الله لا تغني عنهم شيئا من العذاب.

وأما وجه مناسبة نزول هذه الآية في هذه السورة، فذلك أنّ هذه السورة نزلت إثر غزوة تبوك، وكانت غزوة تبوك في وقت عسرة، وكانت الحاجة إلى العدة والظهر كثيرة، كما أشارت إليه آية {وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ} [92]

وقد ورد في (السيرة) أنّ رسول الله ﷺ حضّ أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله، وقد أنفق عثمان بن عفان ألف دينار ذهبا على جيش غزوة تبوك وحمل كثير من أهل الغنى، فالذين انكمشوا عن النفقة هم الذين عنتهم الآية بـ {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} ولا شك أنهم من المنافقين.

الكَنز، (بفتح الكاف) مصدر كنز إذا ادّخر مالا، ويطلق على المال من الذهب والفضة الذي يخزن.

{ **وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** }، سَبِيلِ اللَّهِ هنا، الجهاد. ولا ينفقونها، انتفاء الإنفاق الواجب، وهو الصدقات الواجبة والنفقات الواجبة، إمّا وجوبا مستمرّا كالزكاة، وإمّا وجوبا عارضا كالنفقة في الحجّ الواجب، والنفقة في نوائب المسلمين مما يدعو النّاس إليه ولاة العدل.

والوعيد منوط بالكنز وعدم الإنفاق، فليس الكنز وحده بمتوعّد عليه، وليست الآية في معرض أحكام ادخار المال، وفي معرض إيجاب الإنفاق، ولا هي في تعيين سبل البرّ والمعروف التي يجب الإخراج لأجلها من المال، ولا داعي إلى تأويل الكنز بالمال الذي لم تؤد زكاته حين وجوبها، ولا إلى تأويل الإنفاق بأداء الزكاة الواجبة، ولا إلى تأويل {سَبِيلِ اللَّهِ} بالصدقات الواجبة، لأنّه ليس المراد باسم الموصول العموم، بل أريد به العهد، فلا حاجة إلى إدعاء أنّها نسختها آية وجوب الزكاة، فإن وجوب الزكاة سابق على وقت نزول هذه الآية.

ووقع في الموطأ أنّ عبد الله بن عمر سئل عن الكنز في آية {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ} ما هو؟ فقال: هو المال الذي لا تؤدى منه الزكاة. وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ : "من كان عنده مال لم يؤد زكاته مثّل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه ثم يأخذ بلَهْزَمَتَيْه (يعني شدقيه) ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك". **أي فهو بعض الكنز المذموم في الكتاب والسنّة وليس كل كنز مذموما.**

وشذ أبو ذر فحمل الآية على عموم الكانزين في جميع أحوال الكنز، وعلى عموم الإنفاق، وحمل سبيل الله على وجوه البرّ، فقال بتحريم كنز المال، وكأنه تأول {وَلاَ يُنفِقُونَهَا} على معنى ما يسمّى عطف التفسير، أي على معنى العطف لمجرد القرن بين اللفظين، فكان أبو ذر بالشام ينهى النّاس على الكنز ويقول: بشر الكانزين بمكاو من نار تكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم، فقال له معاوية: وهو أمير الشام، في خلافة عثمان: إنّما نزلت الآية في أهل الكتاب، فقال أبو ذر: نزلت فيهم وفينا، واشتد قول أبي ذر على النّاس ورأوه قولا لم يقله أحد في زمن رسول الله ﷺ وصاحبيه فشكاه معاوية إلى عثمان، فاستجلبه من الشام وخشى أبو ذر الفتنة في المدينة فاعتزلها وسكن الربذة وثبت على رأيه وقوله.

{ **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** } يجوز كون الضمير عائدا إلى الأحبار والرهبان والذين يكنزون. أمر رسوله بأن ينذر جميعهم بالعذاب. والتبشير مستعار للوعيد على طريقة التهكم.

{ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ }[35]

الحمي، شدّة الحرارة. يقال: حمِيَ الشيء إذا أشتدّ حرّه.

الكَيُّ، أن يوضع على الجلد جمر أو شيء مشتعل.

الجباه، جمع جبهة وهي أعلى الوجه مما يلي الرأس.

الجنوب، جمع جنب وهو جانب الجسد من اليمين واليسار.

الظهور، جمع ظهر وهو ما بين العنفقة إلى منتهى فقار العظم.

والمعنى، تعميم جهات الأجساد بالكيّ فإن تلك الجهات متفاوتة ومختلفة في الإحساس بألم الكيّ، فيحصل مع التعميم إذاقة لأصناف من الآلام. وسلك في التعبير عن التعميم مسلك الإطناب بالتعداد لاستحضار حالة ذلك العقاب الأليم، تهويلا لشأنه.

{ **هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ** } مقول قول محذوف، وحذف القول في مثله كثير في القرآن، والإشارة إلى المحمي.، وزيادة قوله { لأَنفُسِكُمْ } للتنديم والتغليظ.

{ **فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ** } توبيخ وتنديم. والفاء في {فَذُوقُوا} لتفريع مضمون جملة التوبيخ على جملة التنديم الأولى.

الذوق، مجاز في الحسّ بعلاقة الإطلاق، وتقدم عند قوله تعالى {لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ} [المائدة:95].

و {مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ} مفعول لفعل الذوق على تقدير مضاف يعلم من المقام: أي ذوقوا عذاب ما كنتم تكنزون.

{ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [36]

{ **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ** }

استئناف ابتدائي لإقامة نظام التوقيت للأمّة على الوجه الحقّ الصالح لجميع البشر، والمناسب لما وضع الله عليه نظام العالم الأرضي، وما يتصل به من نظام العوالم السماويّة، بوجه محكم لا مدخل لتحكّمات الناس فيه، وليوضّح تعيين الأشهر الحرم من قوله { فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ} [5]، بعدما عقّب ذلك من التفاصيل في أحكام الأمن والحرب مع فرق الكفار من المشركين وغيرهم.

والمقصود، ضبط الأشهر الحرم وإبطال ما أدخله المشركون فيها من النسيء الذي أفسد أوقاتها، وأفضى إلى اختلاطها، وأزال حرمة ما له حرمة منها، وأكسب حرمة لما لا حرمة له منها. وإن ضبط التوقيت من أصول إقامة نظام الأمة ودفع الفوضى عن أحوالها.

الشهور، الشهور القمرية بقرينة المقام، لأنّها المعروفة عند العرب وعند أغلب الأمم، وهي أقدم أشهر التوقيت في البشر وأضبطها، لأنّ اختلاف أحوال القمر مساعد على اتخاذ تلك الأحوال مواقيت للمواعيد والآجال، وتاريخ الحوادث الماضية، بمجرّد المشاهدة، فإنّ القمر كرة تابعة لنظام الأرض. قال تعالى {لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} [يونس:5]، ولأن الاستناد إلى الأحوال السماوية أضبط وأبعد عن الخطأ، لأنها لا تتناولها أيدي الناس بالتغيير والتبديل.

وما حدثت الأشهر الشمسيّة وسنتها إلّا بعد ظهور علم الفلك والميقات، فانتفع النّاس بنظام سير الشمس في ضبط الفصول الأربعة، وجعلوها حسابا لتوقيت الأعمال التي لا يصلح لها إلا بعض الفصول، مثل الحرث والحصاد وأحوال الماشية، وقد كان الحساب الشمسي معروفا عند القبط والكلدانيين، وجاءت التوراة بتعيين الأوقات القمرية للأشهر، وتعيين الشمسيّة للأعياد، ومعلوم أن الأعياد في الدرجة الثانية من أحوال البشر لأنها راجعة إلى التحسين، فأما ضبط الأشهر فيرجع إلى الحاجي. فألهم الله البشر، فيما ألهمهم من تأسيس أصول حضارتهم، أن اتخذوا نظاما لتوقيت أعمالهم المحتاجة للتوقيت، وأن جعلوه مستندا إلى مشاهدات بيّنة واضحة لسائر النّاس، لا تنحجب عنهم إلّا قليلا في قليل، ثم لا تلبث أن تلوح لهم واضحة باهرة، وألهمهم أن اهتدوا إلى ظواهر مما خلق الله له نظاما مطردا. وذلك كواكب السماء ومنازلها، كما قال في بيان حكمة ذلك {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ} [يونس:5]، وأن جعلوا توقيتهم اليومي مستندا إلى ظهور نور الشمس ومغيبه عنهم، لأنّهم وجدوه على نظام لا يتغير، ولاشتراك الناس في مشاهدة ذلك، وبذلك تنظّم اليوم والليلة، وجعلوا توقيتهم الشهري بابتداء ظهور أول أجزاء القمر وهو المسمى هلالا إلى انتهاء محاقه فإذا عاد إلى مثل الظهور الأوّل فذلك ابتداء شهر آخر، وجعلوا مراتب أعداد أجزاء المدة المسماة بالشهر مرتبة بتزايد ضوء النصف المضيء من القمر كل ليلة، وبإعانة منازل ظهور القمر كل ليلة حذو شكل من النجوم سموه بالمنازل. وقد وجدوا ذلك على نظام مطرد، ثم ألهمهم فرقبوا المدة التي عاد فيها الثمر أو الكلأ الذي ابتدأوا في مثله العد وهي أوقات الفصول الأربعة، فوجدوها قد احتوت على اثني عشر شهرا فسموا تلك المدة عاما، فكانت الأشهر لذلك اثني عشر شهرا، لأن ما زاد على ذلك يعود إلى مثل الوقت الذي ابتدأوا فيه الحساب أول مرة، ودعوها بأسماء لتمييز بعضها عن بعض دفعا للغلط، وجعلوا لابتداء السنين بالحوادث على حسب اشتهارها عندهم، إن أرادوا ذلك وذلك واسع عليهم، فلما أراد الله أن يجعل الناس عبادات ومواسم وأعيادا دورية تكون مرة في كل سنة، أمرهم أن يجعلوا العبادة في الوقت المماثل لوقت أختها ففرض على إبراهيم وبنيه حجّ البيت كل سنة في الشهر الثاني عشر، وجعل لهم زمنا محترما بينهم يأمنون فيه على نفوسهم وأموالهم ويستطيعون فيه السفر البعيد وهي الأشهر الحرم، فلما حصل ذلك كله بمجموع تكوين الله تعالى للكواكب، وإيداعه الإلهام بالتفطن لحكمتها، والتمكن من ضبط مطرد أحوالها، وتعيينه ما عين من العبادات والأعمال بمواقيتها، كان ذلك كله مرادا عنده فلذلك قال {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ }

{ **فِي كِتَابِ اللَّهِ** } في تقديره، وهو التقدير الذي به وجدت المقدورات، أعني تعلق القدرة بها تعلقا تنجيزيا كقوله {كِتَابًا مُؤَجَّلاً} [آل عمران:145] أي قدرا محدّدا.

وهذه الأشهر معلومة بأسمائها عند العرب، وقد اصطلحوا على أن جعلوا ابتداء حسابها بعد موسم الحج، فمبدأ السنة عندهم هو ظهور الهلال الذي بعد انتهاء الحج وذلك هلال المحرّم، فلذلك كان أوّل السنة العربية شهر المحرم بلا شك.

والأربعة الحرم هي المعروفة عندهم: ثلاثة منها متوالية لا اختلاف فيها بين العرب وهي (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم)، والرابع فرد وهو (رجب) عند جمهور العرب، إلا ربيعة فهم يجعلون الرابع رمضان ويسمونه رجبا، وأحسب أنهم يصفونه بالثاني مثل ربيع وجمادى، ولا اعتداد بهؤلاء لأنهم شذوا كما لم يعتد بالقبيلة التي كانت تحل أشهر السنة كلها، وهي قضاعة.

وقد بين إجمال هذه الآية النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع بقوله: {مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ} "ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. "

وتحريم هذه الأشهر الأربعة مما شرعه الله لإبراهيم عليه السلام لمصلحة الناس، وإقامة الحجّ، كما قال تعالى: {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ} [المائدة:97].

واعلم أن تفضيل الأوقات والبقاع يشبه تفضيل الناس، فتفضيل الناس بما يصدر عنهم من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكريمة، وتفضيل غيرهم مما لا إرادة له بما يقارنه من الفضائل، الواقعة فيه، أو المقارنة له. فتفضيل الأوقات والبقاع إنّما يكون بجعل الله تعالى بخبر منه، أو بإطلاع على مراده، لأنّ الله إذا فضّلها جعلها مظان لتطلّب رضاه، مثل كونها مظان إجابة الدعوات، أو مضاعفة الحسنات، كما قال تعالى {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ} [القدر:3] أي من عبادة ألف شهر لمن قبلنا من الأمم، وقال النبي ﷺ: " صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلّا المسجد الحرام".

والله العليم بالحكمة التي لأجلها فضّل زمن على زمن، وفضل مكان على مكان والأمور المجعولة من الله تعالى هي شؤون وأحوال أرادها الله، فقدّرها، فأشبهت الأمور الكونية، فلا يبطلها إلا إبطال من الله تعالى، كما أبطل تقديس السبت بالجمعة، وليس للنّاس أن يجعلوا تفضيلا في أوقات دينية.

{ **ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** } الإشارة إلى المذكور من عدة الشهور الاثني عشر، وعدة الأشهر الحرم. أي ذلك التقسيم هو الدين الكامل، وما عداه لا يخلو من أن اعتراه التبديل أو التحكّم فيه لاختصاص بعض الناس بمعرفته على تفاوتهم في صحة المعرفة.

الدين، النظام المنسوب إلى الخالق الذي يدان النّاس به، أي يعاملون بقوانينه. وتقدم عند قوله تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ} [آل عمران:19]، كما وصف بذلك في قوله تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} [الروم:30].

{ **فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ** } تفريع على {مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ} فإنّها، لما كانت حرمتها مما شرعه الله، أوجب الله على النّاس تعظيم حرمتها بأن يتجنّبوا الأعمال السيئة فيها.

وعن ابن عباس أنّه فسر ضمير فيهن بالأشهر الاثني عشر فالمعنى عنده: فلا تظلموا أنفسكم بالمعاصي في جميع السنة، يعنى ان حرمة الدين أعظم من حرمة الأشهر الأربعة في الجاهلية، وهذا يقتضي عدم التفرقة في ضمائر التأنيث بين {فِيْهَا} و {فِيهِنَّ} وأن الاختلاف بينهما في الآية تفنن.

ظلم النفس، هو فعل ما نهى الله عنه وتوعّد عليه، فإن فعله إلقاء بالنفس إلى العذاب، فكان ظلما للنفس قال تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ} [النساء:64].

والأنفس تحتمل أنها أنفس الظالمين، أي لا يظلم كل واحد نفسه.

ويجوز أن يكون الظلم بمعنى الاعتداء، ويكون المراد بالأنفس أنفس غير الظالمين، وإضافتها إلى ضمير المخاطبين للتنبيه على أنّ الأمّة كالنفس من الجسد على حد قوله تعالى {فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ} [النور:61]. والمراد على هذا تأكيد حكم الأمن في هذه الأشهر.

و لا يشكل الأمر بمقاتلة الرسول عليه الصلاة والسلام هوازن أياما من ذي القعدة، لأنّهم ابتدأوا بقتال المسلمين قبل دخول الأشهر الحرم، فاستمرت الحرب إلى أن دخلوا في شهر ذي القعدة، وما كان ليكف القتال عند مشارفة هزيمة المشركين وهم بدأوهم أول مرة. وعلى هذا المحمل يكون حكم هذه الآية قد انتهى بانقراض المشركين من بلاد العرب بعد سنة الوفود.

والمحمل الأول للآية أخذ به الجمهور، وأخذ بالمحمل الثاني جماعة: فقال ابن المسيب، وابن شهاب، وقتادة، وعطاء الخراساني، حرمت الآية القتال في الأشهر الحرم ثم نسخت بإباحة الجهاد في جميع الأوقات، فتكون هذه الآية مكمّلة لما بقي من مدة حرمة الأشهر الحرم، حتى يعم جميع بلاد العرب حكم الإسلام، بإسلام جمهور القبائل وضرب الجزية على بعض قبائل العرب وهم النصارى واليهود. وقال عطاء ابن أبي رباح: يحرم الغزو في الأشهر الحرم إلا أن يبدأ العدو فيها بالقتال ولا نسخ في الآية.

{ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** }

أحسب أن موقع هذه الآية موقع الاحتراس من ظنّ أنّ النهي عن انتهاك الأشهر الحرم يقتضي النهي عن قتال المشركين فيها إذا بدأوا بقتال المسلمين. فيكون المعنى فلا تنتهكوا حرمة الأشهر الحرم بالمعاصي، أو باعتدائكم على أعدائكم، فإن هم بادأوكم بالقتال فقاتلوهم.

{ **كَافَّةً** } كلمة تدل على العموم والشمول بمنزلة (كلّ) لا يختلف لفظها باختلاف المؤكد من أفراد وتثنية وجمع، ولا من تذكير وتأنيث. والمقصود من تعميم الذوات تعميم الأحوال لأنّه تبع لعموم الذوات، أي كلّ فرق المشركين، فكلّ فريق وجد في حالة ما، وكان قد بادأ المسلمين بالقتال، فالمسلمون مأمورون بقتاله.

{ **كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** } أصلها كاف التشبيه استعيرت للتعليل بتشبيه الشيء المعلول بعلته، لأنه يقع على مثالها ومنه قوله تعالى {وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ} [البقرة:197].

{ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** } . تأييد وضمان بالنصر عند قتالهم المشركين، لأنّ المعيّة هنا معية تأييد على العمل، وليست معية علم، إذ لا تختص معية العلم بالمتقين.

{ **وَاعْلَمُوا** } للاهتمام بمضمونها كما تقدم في قوله تعالى{ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ } [الأنفال:41].

{ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [37]

استئناف بياني ناشئ عن قوله تعالى {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ} [36]، لأنّ ذلك كالمقدّمة إلى المقصود وهو إبطال النسيء وتشنيعه.

النسيء، يطلق على الشهر الحرام الذي أرجئت حرمته وجعلت لشهر آخر. فالنسيء فعيل بمعنى مفعول من نَسَأَ المهموز اللام، وفعله نسأ المهموز، أي أخّر.

وأحسن ما روي في صفة ذلك قول أبي وائل، أنّ العرب كانوا أصحاب حروب وغارات فكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغيرون فيها، فقالوا لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نصيب فيها شيئا لنهلكن.

والذي يجب اعتماده أنّ أول من نسأ النسيء هو حذيفة ابن عبد فقيم وهو الملقب بـ (**القَلَمَّس**).

قال ابن عطية: كان بنو فقيم أهل دين في العرب وتمسك بشرع إبراهيم فانتدب منهم القَلَمَّس وهو حذيفة بن عبد فقيم فنسأ الشهور للعرب، ثم خلفه ابنه عباد. ثم ابنه قلع، ثم ابنه أمية، ثم ابنه عوف، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة وعليه قام الإسلام". وتقريب زمن ابتداء العمل بالنسيء في أواخر القرن الثالث قبل الهجرة، أي في حدود سنة (220 ق هـ).

{ **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ** } صيغة القصر تقتضي أنّه لا يعدو كونه من أثر الكفر لمحبة الاعتداء والغارات فهو قصر حقيقي، ويلزم من كونه زيادة في الكفر. ووجه كونه كفرا أنّهم يعلمون أنّ الله شرع لهم الحجّ ووقّته بشهر من الشهور القمرية المعدودة المسماة بأسماء تميزها عن الاختلاط، فلما وضعوا النسيء قد علموا أنهّم يجعلون بعض الشهور في غير موقعه، ويسمونه بغير اسمه، ويصادفون إيقاع الحجّ في غير الشهر المعيّن له، أعني شهر ذي الحجة، فهم قد اعترفوا بأنّه تأخير شيء عن وقته، وهم في ذلك مستخفّون بشرع الله تعالى، ومخالفون لما وقّت لهم عن تعمّد، مثبتين الحل لشهر حرام والحرمة لشهر غير حرام، وذلك جرأة على دين الله واستخفاف به، فلذلك يشبه جعلهم لله شركاء، فكما جعلوا لله شركاء في الإلهية جعلوا من أنفسهم شركاء لله في التشريع، يخالفونه فيما شرعه فهو بهذا الاعتبار كالكفر.

{ **يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا** } خبر ثان عن النسيء أي هو ضلال مستمر، لما اقتضاه الفعل المضارع من التجدّد.
{ **يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا** } بيان لسبب كونه ضلالا. وقد اختير المضارع لهذه الأفعال لدلالته على التجدّد والاستمرار، أي هم في ضلال متجدّد مستمر بتجدد سببه، وهو تحليله تارة وتحريمه أخرى، ومواطأة عدة ما حرم الله. وإسناد الضلال إلى الذين كفروا يقتضي أنّ النسيء كان عمله مطّردا بين جميع المشركين من العرب.
{ **لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ** } أي يفعلون ذلك ليوافقوا عدد الأشهر الحرم فتبقى أربعة. فقد احتفظوا بالعدد وأفسدوا المعدود.
المواطأة، الموافقة، وهي مفاعلة عن الوطئ، شبّه التماثل في المقدار وفي الفعل بالتوافق وطئ الأرجل. ومن هذا قولهم (وقوع الحافر على الحافر)
{ **فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ** } دون أن يقال فيحلّوه، لزيادة التصريح بتسجيل شناعة عملهم، وهو مخالفتهم أمر الله تعالى وإبطالهم حرمة بعض الأشهر الحرم، تلك الحرمة التي لأجلها زعموا أنّهم يحرمون بعض الأشهر الحلال حفاظا على عدة الأشهر التي حرّمها الله تعالى.
{ **زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ** } مستأنفة استئنافا بيانيا، أي لأن الشيطان زيّن لهم سوء أعمالهم فحسّن لهم القبيح.
التزيين، التحسين، أي جعل شيء زيْنا، وهو إذا يسند إلى ما لا تتغير حقيقته فلا يصير حسنا، يؤذن بأنّ التحسين تلبيس. وتقدّم التزيين في قوله تعالى {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [البقرة:212]، وقوله {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} [الأنعام:108].
{ **وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** } عطف على {زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ} فهي مشمولة لمعنى الاستئناف البياني المراد منه التعليل لتلك الحالة الغريبة. فبعد أن أفيد السائل بأن سبب ذلك الاضطراب هو تزيين الشيطان لهم سوء أعمالهم، أفيد بأن دوامهم عليه لأن الله أمسك عنهم اللطف والتوفيق، الذين بهما يتفطن الضال لضلاله فيقلع عنه، جزاءا لهم على ما أسلفوه من الكفر، فلم يزالوا في دركات الضلال إلى أقصى غاية.
واعلم أنّ حرمة الأزمان والبقاع إنما تُتلقى عن الوحي الإلهي لأن الله الذي خلق هذا العالم هو الذي يسنّ له نظامه فبذلك تستقر حرمة كل ذي حرمة في نفوس جميع الناس، إذ ليس في ذلك عمل لبعضهم دون بعض، فإذا أدخل على ما جعله الله من ذلك تغيير تقشّعت الحرمة من النفوس فلا يرضى فريق بما وضعه غيره من الفرق، فلذلك كان النسيء زيادة في الكفر لأنّه من الأوضاع التي اصطلح عليها النّاس، كما اصطلحوا على عبادة الأصنام بتلقين عمرو بن لحيّ.
وقد أوحى الله لرسوله ﷺ أن العام الذي يحج فيه يصادف يوم الحج منه يوم تسعة من ذي الحجة، على

الحساب الذي يتسلسل من يوم خلق الله السماوات والأرض، وأن فيه يندحض أثر النسيء ولذلك قال النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض" .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ }[38]

هذا ابتداء خطاب للمؤمنين للتحريض على الجهاد في سبيل الله، بطريقة العتاب على التباطئ بإجابة دعوة النفير إلى الجهاد، والمقصود بذلك غزوة تبوك. قال ابن عطية: " لا اختلاف بين العلماء في أنّ هذه الآية نزلت عتابا على تخلّف من تخلّف عن غزوة تبوك، إذ تخلّف عنها قبائل ورجال من المؤمنين والمنافقون".
وهو خطاب للذين حصل منهم التثاقل، وكان رسول الله ﷺ استنفر المسلمين إلى تلك الغزوة، وكان ذلك في وقت حرّ شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا، حين نضجت الثمار، وطابت الظلال، وكان المسلمون يومئذ في شدّة حاجة إلى الظهر والعدّة، فلذلك سميت (غزوة العسرة) كما سيأتي في هذه السورة، فجلّى رسول الله للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أهبة عدوهم، وأخبرهم بوجهه الذي يريد، وكان قبل ذلك لا يريد غزوة إلّا وَرَّى بما يوهم مكانا غير المكان المقصود، فحصل لبعض المسلمين تثاقل، ومن بعضهم تخلّف، فوجه الله إليهم هذا الملام المعقّب بالوعيد.
فإنّ نحن جرينا على أن نزول السورة كان دفعة واحدة، وأنّه بعد غزوة تبوك، كما هو الأرجح، وهو قول جمهور المفسرين، كان محمل هذه الآية أنّها عتاب على ما مضى، وكانت {إِذَا} مستعملة ظرفا للماضي، على خلاف غالب استعمالها.
{ مَا لَكُمْ }، الـ (مَا) اسم استفهام إنكاري، و(لَكُمْ) خبر عن الاستفهام، أي شيء ثبت لكم.
النّفر، الخروج السريع من موضع إلى غيره لأمر يحدث، وأكثر ما يطلق على الخروج إلى الحرب، ومصدره حينئذ النفير.
سبيل الله، الجهاد، سمّي بذلك لأنّه كالطريق الموصل إلى الله، أي إلى رضاه
{ اثَّاقَلْتُمْ } أصله تثاقلتم قلبت التاء المثناة ثاء مثلثة لتقارب مخرجيهما طلبا للإدغام. في موضع الحال من ضمير الجماعة، وتلك الحالة هي محل الإنكار، أي ما لكم متثاقلين. وفيه تعريض بأنّ بطأهم ليس عن عجز، ولكنّه عن تعلق بالإقامة في بلادهم وأموالهم.
{ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ } تمثيل لحال الكارهين للغزو المتطلّبين للعذر عن الجهاد كسلا وجبنا، بحال من يطلب منه النهوض والخروج، فيقابل ذلك الطلب بالالتصاق بالأرض.
{ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا }الاستفهام إنكاري توبيخي، إذ لا يليق ذلك بالمؤمنين.

{ **مِنْ الآخِرَةِ** } أي كيف ترضون بالحياة الدنيا بدلا عن الآخرة. ومثل ذلك لا يُرضى به. والمراد بالحياة الدنيا، وبالآخرة: منافعهما، فإنهم لما حاولوا التخلّف عن الجهاد قد آثروا الراحة في الدنيا على الثواب الحاصل للمجاهدين في الآخرة.

واختير فعل (رَضِيتُمْ) دون غيره نحو آثرتم أو فضلتم، مبالغة في الإنكار، لأنّ فعل رَضِي بكذا يدلّ على انشراح النفس. ومنه قول أبي بكرالصديق في حديث الغار "فشرب حتّى رضيت".

المتاع، اسم مصدر تمتّع، فهو الالتذاذ والتنعم، كقوله {مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ} [عبس:32].

{ **قَلِيلٌ** } بمعنى ضعيف ودنيء. استعير القليل للتافه.

{ **فِي الآخِرَةِ** } المقايسة. كقوله {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ} [الرعد:26]، وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث مسلم: " ما الدنيا في الآخرة إلّا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع". أي متاع الحياة الدنيا إذا أقحم في خيرات الآخرة كان قليلا بالنسبة إلى كثرة خيرات الآخرة.

{ **إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** }[39]

هذا وعيد وتهديد عقّب به الملام السابق، لأنّ اللوم وقع على تثاقل حصل. ولماّ كان التثاقل مفضيا إلى التخلّف عن القتال، صرح بالوعيد والتهديد إن يعودوا لمثل ذلك التثاقل، فهو متعلّق بالمستقبل كما هو مقتضى أداة الشرط. فالجملة مستأنفة لغرض الإنكار بعد اللوم.

فإن كان هذا وعيدا فقد اقتضى أن خروج المخاطبين إلى الجهاد الذي استنفرهم إليه الرسول ﷺ قد وجب على أعيانهم كلهم بحيث لا يغني بعضهم عن بعض. وعن ابن عباس أن هذا الحكم منسوخ نسخه قوله تعالى {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ} [122]، فيكون الجهاد قد سبق له حكم فرض العين ثم نقل إلى فرض الكفاية. وهذا بناء على أنّ المراد بالعذاب الأليم في قوله: {يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} هو عذاب الآخرة كما هو المعتاد في إطلاق العذاب ووصفه بالأليم.

وقيل المراد بالعذاب الأليم عذاب الدنيا كقوله {بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا} [52]، فلا يكون في الآية حجّة على كون ذلك الجهاد واجبا على الأعيان، ولكنّ الله توعّدهم، إن لم يمتثلوا أمر الرسول عليه الصلاة والسلام، بأن يصيبهم بعذاب في الدنيا، فيكون الكلام تهديدا لا وعيدا. وقد يرجّح هذا الوجه بأنّه قرن بعواقب دنيوية في قوله {وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} .

والعقوبات الدنيوية مصائب تترتب على إهمال أسباب النجاح وبخاصة ترك الانتصاح بنصائح الرسول عليه الصلاة والسلام، كما أصابهم يوم أحد. فالمقصود تهديدهم بأنّهم إن تقاعدوا عن النفير هاجمهم العدو في

ديارهم فاستأصلوهم وأتي الله بقوم غيرهم.

{ **وَيَسْتَبْدِلْ** } يبدّل، فالسين والتاء للتأكيد، والبدل هو المأخوذ عوضا كقوله {وَمَنْ يَتَبَدَّلْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ} [البقرة:108]. أي ويستبدل بكم غيركم.

{ **وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا** } الكلام في قوة الحصر، كأنه قيل: إلّا تنفروا لا تضروا إلّا أنفسكم.

{ **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تذييل للكلام لأنّه يحقّق مضمون لحاق الضرّ بهم، لأنّه قدير عليهم.

{ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [40]

{ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** }

استئناف بياني لقوله { وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [39]. فالذي نصره حين كان ثاني اثنين قدير على نصره وهو في جيش عظيم، فتبيّن أن تقدير قعودهم عن النفير لا يضرّ الله شيئا.

{ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ** } الضمير المنصوب عائد إلى النبي ﷺ، وإن لم يتقدّم له ذكر، لأنّه واضح من المقام.

{ **إِذْ أَخْرَجَهُ** } المراد خروجه مهاجرا. وأسند الإخراج إلى الذين كفروا لأنّهم تسبّبوا فيه بأن دبّروا لخروجه غير مرة كما قال تعالى {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ} [الأنفال:30]، وبأن آذوه وضايقوه في الدعوة إلى الدين، وضايقوا المسلمين بالأذى والمقاطعة، فتوفّرت أسباب خروجه، ولكنّهم كانوا مع ذلك يتردّدون في تمكينه من الخروج خشية أن يظهر أمر الإسلام بين ظهراني قوم آخرين، فلذلك كانوا في آخر الأمر مصمّمين على منعه من الخروج، وأقاموا عليه من يرقبه، وحاولوا الإرسال وراءه ليردّوه إليهم، وجعلوا لمن يظفر به جزاء جزلا، كما جاء في حديث سراقة بن جعشم.

{ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ** } حال من ضمير النصب في {أَخْرَجَهُ}، والاثنان هما النبيّ ﷺ وأبو بكر، بتواتر الخبر وإجماع المسلمين كلّهم. ولكون الثاني معلوما للسامعين كلّهم لم يحتج إلى ذكره، وأيضا لأن المقصود تعظيم هذا النصر مع قلّة العدد.

{ **إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ** } التعريف في الغار للعهد، لغار يعلمه المخاطبون، وهو الذي اختفى فيه النبيّ ﷺ وأبو بكر حين خروجهما مهاجرين إلى المدينة، وهو غار في جبل ثور خارج مكّة إلى جنوبها، بينه وبين مكّة نحو خمسة أميال، في طريق جبليّ. والغار الثقب في التراب أو الصخر.

{ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا }

الصاحب، هو {ثَانِيَ اثْنَيْنِ} وهو أبو بكر الصديق. ومعنى الصاحب، المتّصف بالصحبة، وهي المعيّة في غالب الأحوال، ومنه سمّيت الزوجة صاحبة.

وهذا القول صدر من النبيّ ﷺ لأبي بكر حين كانا مختفيين في غار ثور، فكان أبو بكر حزينا إشفاقا على النبي ﷺ أن يشعر به المشركون، فيصيبوه بمضرّة، أو يرجعوه إلى مكّة.

{ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا } المعيّة هنا، معيّة الإعانة والعناية، كما حكى الله تعالى عن موسى وهارون {قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا} [طه:46] وقوله {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ} [الأنفال:12]

{ فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }

التفريع مؤذن بأنّ السكينة أنزلت عقب الحلول في الغار، وأنّها من النصر، إذ هي نصر نفسانيّ، وإنّما كان التأييد بجنود لم يروها نصرا جثمانيا. وجاء نظم الكلام على هذا السبك البديع للمبادأة بالدلالة على أنّ النصر حصل في أزمان وأحوال ما كان النصر ليحصل في أمثالها لغيره لولا عناية الله به، وأنّ نصره كان معجزة خارقا للعادة.

وبهذا البيان تندفع الحيرة التي حصلت للمفسرين في معنى الآية، حتّى أغرب كثير منهم فأرجع الضمير المجرور من قوله {فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ} إلى أبي بكر، مع أنّ المقام لذكر ثبات النبيّ ﷺ وتأييد الله إيّاه، وما جاء ذكر أبي بكر إلّا تبعا لذكر ثبات النبي ﷺ.

السكينة، اطمئنان النفس عند الأحوال المخوفة، مشتقّة من السكون، وقد تقدّم ذكرها عند قوله تعالى { فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ} [البقرة:248]

التأييد، التقوية والنصر، وهو مشتقّ من اسم اليد، و تقدم عند قوله {وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} [البقرة:87].

الجنود، جمع جند بمعنى الجيش، وتقدم آنفا في هذه السورة.

الكلمة، أصلها اللفظة من الكلام، ثم أطلقت على الأمر والشأن ونحو ذلك من كلّ ما يتحدّث به النّاس ويخبر المرء به عن نفسه من شأنه، قال تعالى {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} [الزخرف:28]. ومنه قولهم: لا تفرّق بين كلمة المسلمين، أي بين أمرهم واتفاقهم، وجمع الله كلمة المسلمين.

{ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ } شأنهم وكيدهم وما دبّروه من أنواع المكر.

السفلى، الحقيرة لأنّ السفل يكنى به عن الحقارة.

{ وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا } مستأنفة بمنزلة التذييل للكلام لأنّه لما أخبر عن كلمة الذين كفروا بأنّها صارت سفلى أفاد أنّ العلاء انحصر في دين الله وشأنه. فضمير الفصل مفيد للقصر، ولذلك لم تعطف كلمة الله على

كلمة الذين كفرو، إذ ليس المقصود إفادة جعل كلمة الله عليا، لما يشعر به الجعل من إحداث الحالة، بل إفادة أن العلاء ثابت لها ومقصور عليها، فكانت الجملة كالتذييل لجعل كلمة الذين كفروا سفلى.
{ **وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } تذييل لمضمون الجملتين: لأنّ العزيز لا يغلبه شيء، والحكيم لا يفوته مقصد، فلا جرم تكون كلمته العليا وكلمة ضده السفلى.

{ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}[41]

الخطاب للمؤمنين الذين سبق لومهم بقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ} [38]، فالنفير المأمور به ما يستقبل من الجهاد. وقد قدّمنا أن الاستنفار إلى غزوة تبوك كان عاما لكل قادر على الغزو لأنّها كانت في زمن مشقّة، وكان المغزو عدوا عظيما، فلا يقتضي هذا الأمر توجه وجوب النفير على كلّ مسلم في كل غزوة، ولا على المسلم العاجز لعمى أو زمانة أو مرض، وإنّما يجري العمل في كل غزوة على حسب ما يقتضيه حالها وما يصدر إليهم من نفير. وفي الحديث: " وإذا استنفرتم فانفروا ".
{ **خِفَافًا وَثِقَالاً** } خفافا، جمع خفيف وهو صفة مشبّهة من الخفّة، وهي حالة للجسم تقتضي أن يكون سهل التنقل سهل الحمل. و**الثقال** ضد ذلك، وتقدم الثقل آنفا عند قوله: {اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ} [38]. والخفاف والثقال هنا مستعاران لما يشابههما من أحوال الجيش وعلائقهم؛
تستعار الخفّة للإسراع إلى الحرب، والثقل الذي يناسب هذا هو الثبات في القتال.
وتستعار الخفّة لقلّة العدد، والثقل لكثرة عدد الجيش.
وتستعار الخفّة لتكرير الهجوم على الأعداء، والثقل للتثبّت في الهجوم.
وتستعار الخفّة لقلّة الأزواد أو قلّة السلاح، والثقل لضد ذلك.
وتستعار الخفّة لقلّة العيال، والثقل لضد ذلك
وتستعار الخفّة للركوب، لأنّ الراكب أخفّ سيرا، والثقل للمشي على الأرجل وذلك في وقت القتال.
وكلّ هذه المعاني صالحة للإرادة من الآية.
{ **وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** } المجاهدة المغالبة للعدوّ، وهي مشتقّة من الجُهد (بضم الجيم) أي بذل الاستطاعة في المغالبة، وهو حقيقة في المدافعة بالسلاح، فإطلاقه على بذل المال في الغزو من إنفاق على الجيش واشتراء الكراع والسلاح، مجاز بعلاقة السببية.
وقد أمر الله بكلا الأمرين فمن استطاعهما معا وجبا عليه، ومن لم يستطع إلّا واحدا منهما وجب عليه الذي

استطاعه منهما.
وتقديم الأموال على الأنفس هنا، لأنّ الجهاد بالأموال أقل حضورا بالذهن عند سماع الأمر بالجهاد، فكان ذكره أهمّ بعد ذكر الجهاد مجملا.
{ **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** } أي إن كنتم تعلمون ذلك الخير وشعبه. وإبهام {**خَيْرٌ**} لقصد توقّع خير الدنيا والآخرة من شعب كثيرة أهمها الاطمئنان من أن يغزوهم الروم.
وفي اختيار فعل (العلم) دون الإيمان مثلا للإشارة إلى أنّ من هذا الخير ما يخفى فيحتاج متطلّب تعيين شعبه إلى أعمال النظر والعلم.

{ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ }[42]

استئناف لابتداء الكلام على حال المنافقين وغزوة تبوك حين تخلّفوا واستأذن كثير منهم في التخلّف واعتلّوا بعلل كاذبة. وانتقل من الخطاب إلى الغيبة لأنّ المتحدّث عنهم هنا بعض المتثاقلين لا محالة. ومن هذه الآيات ابتدأ إشعار المنافقين بأنّ الله أطلع رسوله ﷺ على دخائلهم.
العرض، ما يعرض للنّاس من متاع الدنيا. وتقدّم في قوله {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى} [الأعراف:169] وقوله {تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا} [الأنفال:67]، والمراد به الغنيمة.
القريب، الكائن على مسافة قصيرة، وهو هنا مجاز في السهل حصوله.
{ **وَسَفَرًا قَاصِدًا** } أي وسطا في المسافة غير بعيد.
الشُقّة، (بضم الشين) المسافة الطويلة.
{ **وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ** } ولكن بعد منهم المكان لأنّه شقّة، فثقل عليهم السفر. جاء الكلام موجزا.
{ **وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ** } يؤذن بأنّ الآية نزلت قبل الرجوع من غزوة تبوك، فإنّ حلفهم إنّما كان بعد الرجوع وذلك حين استشعروا أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - ظان كذبهم في أعذارهم.
الاستطاعة، القدرة، أي لسنا مستطيعين الخروج، وهذا اعتذار منهم وتأكيد لاعتذارهم.
{ **لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ** } شاع إطلاق الخروج على السفر للغزو. وتقييده بالمعيّة إشعار بأنّ أمر الغزو لا يهمّهم ابتداء، وأنّهم إنّما يخرجون لو خرجوا خروج الناصر لغيره. تقول العرب: خرج بنو فلان وخرج معهم بنو فلان، إذا كانوا قاصدين نصرهم.
{ **يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ** } حال، أي يحلفون مهلكين أنفسهم، أي موقعينها في الهلك. و**الهلك** الفناء والموت، ويطلق على الأضرار الجسيمة، وهو المناسب هنا، أي يتسببون في ضر أنفسهم بالأيمان الكاذبة، وهو ضر الدنيا

وعذاب الآخرة. وفي هذه الآية دلالة على أنّ تعمّد اليمين الفاجرة يفضي إلى الهلاك.
{ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } حال، أي هم يفعلون ذلك في حال عدم جدواه عليهم، لأنّ الله يعلم كذبهم ويطلع رسوله على كذبهم، فما جنوا من الحلف إلّا هلاك أنفسهم.

{ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ }[43]

استأذن فريق من المنافقين النبي ﷺ، أن يتخلفوا عن الغزوة، منهم عبد الله بن أُبَيْ ابن سلول، والجِدّ بن قيس، ورفاعة بن التابوت، وكانوا تسعة وثلاثين واعتذروا بأعذار كاذبة، وأذن النبيّ ﷺ لمن استأذنه حملا للنّاس على الصدق، إذ كان ظاهر حالهم الإيمان، وعلما بأنّ المعتذرين إذا ألجئوا إلى الخروج لا يغنون شيئا، كما قال تعالى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً} [47] فعاتب الله نبيّه ﷺ في أن أذن لهم، لأنّه لو لم يأذن لهم لقعدوا، فيكون ذلك دليلا للنبيّ ﷺ على نفاقهم وكذبهم في دعوى الإيمان.
{ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ } افتتاح العتاب بالإعلام بالعفو إكرام عظيم، ولطافة شريفة، فأخبره بالعفو قبل أن يباشره بالعتاب. وفي هذا الافتتاح كناية عن خفّة موجب العتاب لأنّه بمنزلة أن يقال: ما كان ينبغي، وتسمية الصفح عن ذلك عفوا ناظر إلى مغزى قول أهل الحقيقة: حسنات الأبرار سيئات المقرّبين.
{ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ } ألقي إليه العتاب بصيغة الاستفهام عن العلة، إيماء إلى أنّه ما أذن لهم إلّا لسبب تأوّله ورجا منه الصلاح. وهذا من صيغ التلطّف في الإنكار أو اللوم، بأن يظهر المنكر نفسه كالسائل عن العلة التي خفيت عليه.
{ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ } ترك الإذن كان أجدر بتبيين حالهم، وهو غرض آخر لم يتعلق به قصد النبيّ ﷺ. وحذف متعلّق {أَذِنتَ} لظهوره من السياق، أي لم أذنت لهم في القعود والتخلف.
والمراد بالذين صدقوا: الصادقون في إيمانهم، و بالكاذبين فيما أظهروه من الإيمان، وهم المنافقون. فالمراد بالذين صدقوا المؤمنون.

{ لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ }[44]

المعنى، أن شأن المؤمنين الذين استنفروا أن لا يستأذنوا النبيّ ﷺ في التخلّف عن الجهاد. فأمّا أهل الأعذار، كالعمي، فهم لا يستنفرهم النبيّ ﷺ، وأمّا الذين تخلفوا من المؤمنين فقد تخلفوا ولم يستأذنوا في التخلّف، لأنّهم كانوا على نيّة اللحاق بالجيش بعد خروجه.
الاستئذان، طلب الأذن، أي في إباحة عمل وترك ضدّه، لأن شأن الإباحة أن تقتضي التخيير بين أحد أمرين متضادين.

ولماّ كان الاستئذان يستلزم شيئين متضادين، كما قلنا، جاز أن يقال: استأذنت في كذا واستأذنت في ترك كذا. وإنّما يذكر غالبا مع فعل الاستئذان الأمر الذي يرغب المستأذن الإذن فيه دون ضدّه وإن كان ذكر كليهما صحيحاً.

ولماّ كان شأن المؤمنين الرغبة في الجهاد كان المذكور مع استئذان المؤمنين، في الآية أن يجاهدوا دون أن لا يجاهدوا، إذ لا يليق بالمؤمنين الاستئذان في ترك الجهاد، فإذا انتفى أن يستأذنوا في أن يجاهدوا ثبت أنّهم يجاهدون دون استئذان، وهذا من لطائف بلاغة هذه الآية التي لم يعرّج عليها المفسرون وتكلفوا في إقامة نظم الآية.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ** } معترضة لفائدة التنبيه على أنّ الله مطّلع على أسرار المؤمنين إذ هم المراد بالمتقين.

{ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ}[45]

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا نشأ عن تبرئة المؤمنين من أن يستأذنوا في الجهاد، ببيان الذين شأنهم الاستئذان في هذا الشأن، وأنّهم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر في باطن أمرهم لأنّ انتفاء إيمانهم ينفي رجاءهم في ثواب الجهاد، فلذلك لا يعرضون أنفسهم له.

{ **إِنَّمَا** } أفادت القصر للتنويه بفضيلة المؤمنين. فالكلام إطناب لقصد التنويه.

{ **يَسْتَأْذِنُكَ** } وحذف المتعلق هنا لظهوره ممّا قبله. والتقدير، إنّما يستأذنك الذين لا يؤمنون في أن لا يجاهدوا

{ **وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ** } معطوف على {لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ} يدلّ على أنّ المراد بالارتياب الارتياب في ظهور أمر النبيّ ﷺ، فلأجل ذلك الارتياب كانوا ذوي وجهين معه فأظهروا الإسلام لئلا يفوتهم ما يحصل للمسلمين من العزّ والنفع، على تقدير ظهور أمر الإسلام، وأبطنوا الكفر حفاظا على دينهم الفاسد وعلى صلتهم بأهل ملّتهم، كما قال الله تعالى فيهم {الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء:141]

ولعلّ أعظم ارتيابهم كان في عاقبة غزوة تبوك لأنّهم لكفرهم ما كانوا يقدّرون أنّ المسلمين يغلبون الروم.

{ **لاَ يُؤْمِنُونَ** } صيغة المضارع للدلالة على تجدّد نفي إيمانهم، وفي {وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ} بصيغة الماضي للدلالة على قدم ذلك الارتياب ورسوخه، فلذلك كان أثره استمرار انتفاء إيمانهم.

{ **فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ** } تفريع المسبّب على السبب، لأنّ الارتياب هو الشكّ في الأمر بسبب التردّد في تحصيله، فلتردّدهم لم يصارحوا النبي ﷺ بالعصيان لاستنفاره، ولم يمتثلوا له فسلكوا مسلكا يصلح للأمرين، وهو مسلك الاستئذان في القعود، فالاستئذان مسبّب على التردّد، والتردد مسبّب على الارتياب.

التردّد، حقيقته ذهاب ورجوع متكرّر إلى محل واحد، وهو هنا تمثيل لحال المتحيّر بين الفعل وعدمه بحال الماشي والراجع.

{ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ}[46]

هذا تكذيب لزعمهم أنّهم تهيّأوا للغزو ثم عرضت لهم الأعذار فاستأذنوا في القعود، لأنّ عدم إعدادهم العدّة للجهاد دلّ على انتفاء إرادتهم الخروج إلى الغزو.

العُدّة، (بضم العين) ما يُحتاج إليه من الأشياء، كالسلاح للمحارب، والزاد للمسافر، مشتقة من الإعداد وهو التهيئة.

{ **وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ** } استدراك على ما دلّ عليه شرط {وَلَوْ} من فرض إرادتهم الخروج تأكيدا لانتفاء وقوعه بإثبات ضدّه، وعبّر عن ضدّ الخروج بتثبيط الله إيّاهم، لأنّه في السبب الإلهي ضد الخروج، فعبّر به عن مسبّبه. وهي أن الله كره انبعاثهم، فصيغ الاستدراك بذكر علّته اهتماما بها، وتنبيها على أنّ عدم إرادتهم الخروج كان حرمانا من الله إيّاهم، وعناية بالمسلمين فجاء الكلام بنسج بديع وحصل التأكيد مع فوائد زائدة. وكراهة الله انبعاثهم مفسرة في الآية بعدها {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً} [47]

الانبعاث، مطاوع بعثه إذا أرسله.

التثبيط، إزالة العزم. وتثبيط الله إيّاهم، أن خلق فيهم الكسل وضعف العزيمة على الغزو.

القعود، مستعمل في ترك الغزو تشبيها للترك بالجلوس.

{ **وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ** } مذمّة لهم، لأنّ القاعدين هم الذين شأنهم القعود عن الغزو، وهم الضعفاء من صبيان ونساء كالعمي والزمني.

{ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }[47]

استئناف لبيان الحكمة من كراهية الله انبعاثهم، وهي إرادة الله سلامة المسلمين من إضرار وجود هؤلاء بينهم، لأنّهم كانوا يضمرون المكر للمسلمين.

{ **زَادُوكُمْ** } حذف المفعول لدلالة الخروج عليه، أي ما زادوكم قوّة أو شيئا مما تفيد زيادته في الغزو نصرا على العدو.

{ **إلاَّ خَبَالاً** } الخبال، الفساد، وتفكّك الشيء الملتحم الملتئم، فأطلق هنا على اضطراب الجيش واختلال نظامه. استثني من المفعول المحذوف **الخبال** على طريقة التهكّم بتأكيد الشيء بما يشبه ضده، فإنّ الخبال في الحرب بعض من عدم الزيادة في قوة الجيش، بل هو أشدّ عدما للزيادة.

{ **وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ** } حقيقة (أَوْضَعُوا) أسرعوا سير الرِّكاب. يقال: وضع البعير وضعا، إذا أسرع ويقال: أوضعت بعيري، أي سيرته سيرا سريعا. وهو هنا تمثيل لحالة المنافقين حين يبذلون جهدهم لإيقاع التخاذل والخوف بين رجال الجيش، وإلقاء الأخبار الكاذبة عن قوّة العدو، بحال من يجهد بعيره بالسير. وقريب من هذا التمثيل قوله تعالى {فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ} [الإسراء: 62] وقوله: {وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة:62].

وأصله قولهم: يسعى لكذا، إلّا أنّه لما شاع إطلاق السعي في الحرص على الشيء خفيت ملاحظة تمثيل الحالة عند إطلاقه لكثرة الاستعمال، فلذلك اختير هنا ذكر (**الإيضاع**) لعزّة هذا المعنى، ولما فيه من الصلاحيّة لتفكيك الهيئة، بأن يشبه الفاتنون بالركب، ووسائل الفتنة بالرواحل.

الخلال، جمع خَلَل بالتحريك. وهو الفرجة بين شيئين واستعير هنا لمعنى بينكم تشبيها لجماعات الجيش بالأجزاء المتفرّقة.

{ **يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ** } في موضع الحال، وأصله يبغون لكم الفتنة. وهو استعمال شائع في فعل بغى بمعنى طلب.

الفتنة، اختلال الأمور وفساد الرأي، وتقدّمت في قوله {وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ} [المائدة:71]

{ **وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ** } أي من بين المسلمين. فيجوز أن يكون هؤلاء السماعون مسلمين يصدّقون ما يسمعونه من المنافقين. ويجوز ان يكون السماعون منافقين مبثوثين بين المسلمين.

وهذه الجملة اعتراض للتنبيه على أنّ بغيهم الفتنة أشد خطرا على المسلمين لأنّ في المسلمين فريقا تنطلي عليهم حيلهم، وهؤلاء هم سذج المسلمين الذين يعجبون من أخبارهم ويتأثرون ولا يبلغون إلى تمييز التمويهات والمكائد عن الصدق والحقّ.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** } تذييل قصد منه إعلام المسلمين بأنّ الله يعلم أحوال المنافقين الظالمين ليكونوا منهم على حذر، وليتوسّموا فيهم ما وسمهم القرآن به، وليعلموا أنّ الاستماع لهم هو ضرب من الظلم.

والظلم هنا الكفر والشرك {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان:13].

{ لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ}[48]

الجملة تعليل لقوله {يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ} [47] لأنّها دليل بأنّ ذلك ديدن لهم من قبل. وذلك يوم أحد إذ انخذل عبد الله بن أبي ابن سلول ومن معه من المنافقين بعد أن وصلوا إلى أحد، وكانوا ثلث الجيش، قصدوا إلقاء

الخوف في نفوس المسلمين حين يرون انخذال بعض جيشهم.

{ **وَقَلَّبُوا** } بتشديد اللام مضاعف قَلَب المخفّف، والمضاعفة للدلالة على قوة الفعل.

فيجوز أن يكون من قلب الشيء إذا **تأمّل باطنه وظاهره ليطّلع** على دقائق صفاته فتكون المبالغة راجعة إلى الكم أي كثرة التقليب، أي تردّدوا آراءهم وأعملوا المكائد والحيل للإضرار النبيّ ﷺ والمسلمين.

ويجوز أن يكون {وَقَلَّبُوا} من قلب بمعنى **فتّش وبحث**، استعير التقليب للبحث والتفتيش لمشابهة التفتيش للتقليب في الإحاطة بحال الشيء كقوله تعالى {فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ} [الكهف:42] فيكون المعنى، أنّهم بحثوا وتجسّسوا للاطلاع على شأن المسلمين وإخبار العدوّ به.

{ **لَكَ** } على هذين الوجهين لام العلّة، أي لأجلك، وهو مجمل. فالمعنى اتبعوا فتنة تظهر منك، أي في أحوالك وفي أحوال المسلمين.

{ **الأُمُورَ** } جمع أمر، وهو اسم مبهم مثل شيء.

{ **حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ** } ومجيء الحق حصوله واستقراره والمراد بذلك زوال ضعف المسلمين وانكشاف أمر المنافقين.

والمراد بظهور أمر الله نصر المسلمبن بفتح مكّة ودخول النّاس في الدين أفواجا. وذلك يكرهه المنافقون.

الظهور، الغلبة والنصر.

{ **أَمْرُ اللَّهِ** } دينه، أي فلما جاء الحق وظهر أمر الله علموا أن فتنتهم لا تضرّ المسلمين، فلذلك لم يروا فائدة في الخروج معهم إلى غزوة تبوك فاعتذروا عن الخروج من أول الأمر.

{ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** } [49]

نزلت في بعض المنافقبن استأذنوا النبي ﷺ في التخلّف عن تبوك ولم يبدوا عذرا يمنعهم من الغزو، ولكنّهم صرّحوا بأنّ الخروج إلى الغزو يفتنهم لمحبة أموالهم وأهليهم، ففضح الله أمرهم بأنهم منافقون.

وقيل: قال جماعة منهم: ائذن لنا لأنا قاعدون، أذنت لنا أم لم تأذن فإذن لنا لئلا نقع في المعصية.

وقيل: إن الجِدّ بن قيس قال: يا رسول الله لقد علم النّاس أنّي مستهتر بالنساء فإني إذا رأيت نساء بني الأصفر افتتنت بهن فأذن لي في التخلّف ولا تفتني وأنا أعينك بمالي، فأذن لهم. ولعل كل ذلك كان.

{ **أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا** } أداة الاستفتاح (ألا) للتنبيه على ما بعدها من عجيب حالهم إذ عاملهم الله بنقيض مقصودهم فهم احترزوا عن فتنة فوقعوا في الفتنة. فالتعريف في الفتنة ليس تعريف العهد إذ لا معهود هنا، ولكنّه تعريف الجنس المؤذن بكمال المعرف في جنسه، أي في الفتنة العظيمة سقطوا.

السقوط، مستعمل مجازا في الفجأة على وجه الاستعارة. شبه عدم التهيؤ وفي المفاجأة بالسقوط، باعتبار أنّهم حصلوا في الفتنة في حال أمنهم من الوقوع فيها، فهم كالساقط في هوّة على حين ظَنّ أنّه ماش في طريق

سهل.

{ **وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** } معترضة، أي وقعوا في الفتنة المفضية إلى الكفر. والكفر يستحقّ جهنم. وإحاطة جهنم مراد منها عدم إفلاتهم منها، فالإحاطة كناية عن عدم الإفلات. والمراد بالكافرين: جميع الكافرين فيشمل المتحدث عنهم لثبوت كفرهم.

{ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ } [50]

بيّن هنا أن تردّدهم هو أنّهم يخشون ظهور أمر المسلمين، فلذلك لا يصارحونهم بالإعراض ويودّون خيبة المؤمنين، فلذلك لا يحبون الخروج معهم.

الحسنة، الحادثة التي تحسن لمن حلّت به واعترته. والمراد بها هنا النصر والغنيمة.

المصيبة، مشتقّة من أصاب بمعنى حلّ ونال وصادف، وخصت المصيبة في اللغة بالحادثة التي تعتري الإنسان فتسوءه وتحزنه. ولذلك عبّر عنها بالسيئة في قوله تعالى {إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا} [آل عمران:120]. والمراد بها الهزيمة في الموضعين.

{ **قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ** } ابتهاج منهم بمصادفة أعمالهم ما فيه سلامتهم فيزعمون أنّ يقظتهم وحزمهم قد صادفا المحزَ، إذ احتاطوا له قبل الوقوع في الضرّ.

الأخذ، حقيقته التناول، وهو هنا مستعار للاستعداد والتلافي.

الأمر، الحال المهمّ صاحبه. أي قد استعددنا لما يهمّنا فلم نقع في المصيبة.

{ **وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ** } التولّي حقيقته الرجوع، وتقدّم في قوله تعالى {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ} [البقرة :205]. وهو هنا تمثيل لحالهم في تخلّصهم من المصيبة، التي قد كانت تحلّ بهم لو خرجوا مع المسلمين، بحال من أشرفوا على خطر ثم سلموا منه ورجعوا فارحين مسرورين بسلامتهم وبإصابة أعدائهم.

{ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }[51]

تلقين جواب لقولهم {قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ} [50] المنبيء عن فرحهم بما ينال المسلمين من مصيبة، بإثبات عدم اكتراث المسلمين بالمصيبة وانتفاء حزنهم عليها، لأنّهم يعلمون أنّ ما أصابهم ما كان إلّا بتقدير الله لمصلحة المسلمين في ذلك. وموقع هذا الجواب هو أن العدو يفرح بمصاب عدوّه لأنة ينكّد عدوه ويحزنه، فإذا علموا أنّ النبيء لا يحزن لما أصابه زال فرحهم.

وفيه تعليم للمسلمين التخلق بهذا الخلق، وهو أن لا يحزنوا لما يصيبهم لئلّا يهنو وتذهب قوّتهم، كما في قوله

تعالى { وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ } [آل عمران:139،104]. وأن يرضوا بما قدّر الله لهم، ويرجوا رضى ربّهم لأنّهم واثقون بأنّ الله يريد نصر دينه.

{ **هُوَ مَوْلاَنَا** } في موضع الحال من اسم الجلالة، أو معترضة، أي لا يصيبنا إلّا ما قدره الله لنا، ولنا الرجاء بأنّه لا يكتب لنا إلّا ما فيه خيرنا العاجل أو الآجل، لأنّ المولى لا يرضى لمولاه الخزي.

{ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** } يجوز أن تكون معطوفة على جملة {قُلْ} فهي من كلام الله تعالى خبرا في معنى الأمر، أي قل ذلك ولا تتوكلوا إلّا على الله دون نصرة هؤلاء، أي اعتمدوا على فضله عليكم.

ويجوز أن تكون معطوفة على جملة {لَنْ يُصِيبَنَا} أي قل ذلك لهم، وقل لهم إن المؤمنين لا يتوكلون إلّا على الله، أي يؤمنون بأنّه مؤيدهم.

{ قُلْ هَلْ تَتَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ }[52]

تتنزل هذه الجملة منزلة البيان لما تضمنته جملة {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا} [51]. والمعنى لا تنتظرون من حالنا إلّا حسنة عاجلة أو حسنة آجلة فأمّا نحن فننتظر من حالكم أن يعذّبكم الله في الآخرة بعذاب النّار، أو في الدنيا بعذاب على غير أيدينا من عذاب الله في الدنيا، كالجوع والخوف، أو بعذاب بأيدينا، وهو عذاب القتل، إذا أذن الله بحربكم، كما في قوله {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ} [الأحزاب:60].

والاستفهام مستعمل في النفي بقرينة الاستثناء. ومعنى الكلام توبيخ لهم وتخطئة لترّصهم لأنّهم يتربّصون بالمسلمين أن يقتلوا، ويغفلون عن احتمال ان ينصروا.

التربّص، انتظار حصول شيء مرغوب حصوله. وأكثر استعماله أن يكون انتظار حصول شيء لغير المنتظِر (بكسر الظاء) ولذلك كثرت تعدية فعل التربص بالباء لأنّ المتربّص ينتظر شيئا مصاحبا لآخر هو الذي لأجله الانتظار.

{ **وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ** } معطوفة على جملة الاستفهام. والمعنى: وجود البون بين الفريقين في عاقبة الحرب في حاليّ الغلبة والهزيمة.

وجعلت الجملة اسمية فلم يقل (ونتربّص بكم) بخلاف الجملة المعطوف عليها، لإفادة تقوية التربّص، وكناية عن تقويّة حصول المتربّص لأن تقوية التربص تفيد قوة الرجاء في حصول المتربص فتفيد قوة حصوله وهو المكنىّ عنه.

{ **فَتَرَبَّصُوا** } الأمر للتحضيض المجازي المفيد قلّة الاكتراث بتربّصهم.

{ **إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ** } تهديد للمخاطبين، والمعية هنا، معية في التربّص، أو في زمانه، وفصلت هذه الجملة عن التي قبلها لأنها كالعلة للحضّ.

{ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ } [53]

ابتداء كلام هو جواب عن قول بعض المستأذنين منهم في التخلف: " وأنا أعينك بمالي ". روي أنّ قائل ذلك هو الجِدّ بن قيس، أحد بني سلمة، الذي نزل فيه قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي} [49] كما تقدّم، وكان منافقا. وكأنّهم قالوا ذلك مع شدة شحّهم، لأنّهم ظنوا أن ذلك يرضي النبيء ﷺ عن قعودهم عن الجهاد.

{ **طَوْعًا أَوْ كَرْهًا** } أي بمال تبذلونه عوضا عن الغزو، أو بمال تنفقونه طوعا مع خروجكم إلى الغزو.

إدماج لتعميم أحوال الإنفاق في عدم القبول، فإنّهم لا ينفقون إلّا كرها لقوله تعالى بعد هذا {وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ} [54]

{ **أَنفِقُوا** }الأمر للتسوية، أي أنفقوا أو لا تنفقوا، كما دلت عليه {أَوْ}، وهو في معنى الخبر الشرطي، لأنّه في قوّة أن يقال: لن يُتقبل منكم إن أنفقتم طوعا أو أنفقتم كرها.

الكَره أشد الإلزام، وبينه وبين الطوع مراتب تعلم إرادتها بالأولى.

{ **إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ** } في موضع العلّة لنفي التقبّل، ولذلك وقعت فيها (إن) المفيدة لمعنى فاء التعليل، لأنّ الكافر لا يتقبل منه عمل البرّ. والمراد بالفاسقين: الكافرون، ولذلك أعقب بقوله {وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ} [54]. وإنّما اختير وصف الفاسقين دون الكافرين لأنّهم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، فكانوا كالمائلين عن الإسلام إلى الكفر. والمقصود من هذا تأييسهم من الانتفاع بما بذلوه من أموالهم، فلعلّهم كانوا يحسبون أنّ الإنفاق في الغزو ينفعهم.

{ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ }[54]

بيان للتعليل لعدم قبول نفقاتهم بزيادة ذكر سببين آخرين مانعين من قبول أعمالهم، هما من آثار الكفر والفسوق. وهما، أنّهم لا يأتون الصلاة إلّا وهم كسالى، وأنّهم لا ينفقون إلّا وهم كارهون. والكفر وإن كان وحده كافيا في عدم القبول، إلّا أنّ ذكر هذين السببين إشارة إلى تمكّن الكفر من قلوبهم، وإلى مذمّتهم بالنفاق الدال على الجبن والتردّد. فذكر الكفر بيان لذكر الفسوق، وذكر التكاسل عن الصلاة لإظهار أنّهم متهاونون

بأعظم عبادة فكيف يكون إنفاقهم عن إخلاص ورغبة. وذكر الكراهية في الإنفاق لإظهار عدم الإخلاص في هذه الخصلة المتحدّث عنها.

{ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ }[55]

تفريع على مذمّة حالهم في أموالهم، وأنّ وفرة أموالهم لا توجب لهم طمأنينة بال، بإعلام المسلمين أنّ ما يرون بعض هؤلاء المنافقين فيه من متاع الحياة الدنيا لا ينبغي أن يكون محلّ إعجاب المؤمنين، وأن يحسبوا المنافقين قد نالوا شيئا من الحظ العاجل ببيان أنّ ذلك سبب في عذابهم في الدنيا.

فالخطاب للنبيْ ﷺ، والمراد تعليم الأمّة.

ولكون ذكر الأولاد كالتكملة هنا لزيادة بيان عدم انتفاعهم بكل ما هو مظنة أن ينتفع به الناس، عطف الأولاد بإعادة حرف النفي بعد العاطف، إيماء إلى أنّ ذكرهم كالتكملة والاستطراد.

الإعجاب، استحسان مشوب باستغراب وسرور من المرئي قال تعالى {وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ} [المائدة:100] أي استحسنت مرأى وفرة عدده.

{ **لِيُعَذِّبَهُمْ** } اللام للتعليل، تعلقت بفعل الإرادة للدلالة على أن المراد حكمة وعلة فتغني عن مفعول الإرادة.

وهذه اللام كثير وقوعها بعد مادة الإرادة ومادة الأمر. وبعض القراء سماها (لام أنْ) - بفتح الهمزة - وتقدّم عند قوله تعالى {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ} [النساء:26].

{ **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } متعلق بـ {يُعَذِّبَهُمْ}.

الزهوق، الخروج بشدّة وضيق، وقد شاع ذكره في خروج الروح من الجسد، وسيأتي مثل هذه الآية في هذه السورة.

{ **وَهُمْ كَافِرُونَ** } في موضع الحال من الضمير المضاف إليه لأنّه إذا زهقت النفس في حال الكفر فقد مات كافراً.

{ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ } [56]

هذه الجملة معطوفة على ما قبلها من أخبار أهل النفاق. وضمائر الجمع عائدة إليهم، قصد منها إبطال ما يموّهون به على المسلمين من تأكيد كونهم مؤمنين بالقسم.

والفَرق: الخوف الشديد.

واختيار صيغة المضارع في قوله {وَيَحْلِفُونَ} وقوله {يَفْرَقُونَ} للدلالة على التجدّد وأنّ ذلك دأبهم.

وحذف متعلق {يَفْرَقُونَ} لظهوره، أي يخافون من عداوة المسلمين لهم وقتالهم إيّاهم أو إخراجهم.

{ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ } [57]

بيان لجملة {وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ}

الملجأ، مكان اللجإ، وهو الإيواء والاعتصام.

المغارات، جمع مغارة، وهي الغار المتسع الذي يستطيع الإنسان الولوج فيه، ولذلك اشتق لها المفعل الدال على مكان الفعل، من غار الشيء إذا دخل في الأرض.

المُدّخل، مفتعل اسم مكان للإدخال الذي هو افتعال من الدخول.

{ لَوَلَّوْا إِلَيْهِ } لانصرفوا إلى أحد المذكورات وأصل ولّى أعرض، ولما كان الإعراض يقتضي جهتين: جهة ينصرف عنها، وجهة ينصرف إليها، كانت تعديته بأحد الحرفين تعّن المراد.

الجموح، حقيقته النفور، واستعمل هنا تمثيلا للسرعة مع الخوف.

والمعنى، أنّهم لخوفهم من الخروج إلى الغزو لو وجدوا مكانا مما يختفي فيه المختفي فلا يشعر به النّاس لقصدوه مسرعين خشية أن يعزم عليهم الخروج إلى الغزو.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ}[58]

روي أنّ أبا الجَوَّاظ، من المنافقين، طعن في أن أعطى النبيء ﷺ من أموال الصدقات بعض ضعفاء الأعراب رعاء الغنم، إعانة لهم وتأليفا لقلوبهم، فقال: ما هذا بالعدل أن يضع صدقاتكم في رعاء الغنم، وقد أمر أن يقسّمها في الفقراء والمساكين، وقد روي أنّه شافه بذلك النبيء ﷺ.

وعن أبي سعيد الخدري، أنّها نزلت في ذي الخويصرة التميمي الذي قال للنبي ﷺ: اعدل، وكان ذلك في قسمة ذهب جاء من اليمن سنة تسع، فلعل السبب تكرّر، وقد كان ذو الخويصرة من المنافقين من الأعراب.

اللمز، القدح والتعييب.

{ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا }أي أنّ الطاعنين يطمعون أن يأخذوا من أموال الصدقات بوجه هدية وإعانة، فيكون ذلك من بلوغهم الغاية في الحرص والطمع. ويحتمل أنّهم يرومون أن لا تقسم الصدقات إلّا على فقرائهم، ولذلك كره أبو الجَوَّاظ أن يعطى الأعراب من الصدقات.

{ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا

إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ }[59]

ذكر الحالة المحمودة، بعد ذكر الحالة المذمومة.

رضي، إذا تعدى إلى المفعول دلّ على اختيار المرضي، وإذا عدي بالباء دلّ على أنّه صار راضيا بسبب ما دخلت عليه الباء، كقوله {أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [التوبة:38]. وإذا عدي بـ (عن) فمعناه أنّه تجاوز عن تقصيره أو عن ذنبه {فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [التوبة:96].

الإيتاء، الإعطاء، وحقيقته إعطاء الذوات ويطلق مجازا على تعيين المواهب كما في {وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ} [البقرة:251] وفي {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} [المائدة:54].

{ مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ } أي ما أوحى الله به إلى رسوله ﷺ أن يعطيهم.

حسب، اسم بمعنى الكافي، والكفاية تستعمل بمعنى الاجتزاء.

{ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ } بيان لجملة {حَسْبُنَا اللَّهُ} لأنّ كفاية المهمّ تقتضي تعهّد المكفي بالعوائد ودفع الحاجة، والإيتاء فيه بمعنى إعطاء الذوات.

الفضل، زيادة الخير والمنافع {إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ} [غافر:61].

{ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } تعليل، أي لأننا راغبون فضله. وتقديم المجرور لإفادة القصر، أي إلى الله راغبون لا إلى غيره. و**الرغبة** الطلب بتأدّب.

{ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [60]

استطراد نشأ عن ذكر اللمز في الصدقات أدمج فيه تبيين مصارف الصدقات.

و انحصارها في الأصناف الثمانية دون صنف آخر يستفاد من الاقتصار عليها في مقام البيان، إذ لا تكون صيغة القصر مستعملة للحقيقي والإضافي معا إلّا على طريقة استعمال المشترك في معنييه.

الفقير، صفة مشبّهة، أي المتصف بالفقر وهو عدم امتلاك ما به كفاية لوازم الإنسان في عيشه، وضدّه الغنيّ. وقد تقدّم عند قوله تعالى {إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا} [النساء:135]

المسكين، ذو المسكنة، وهي المذلّة التي تحصل بسبب الفقر، ولا شك أن ذكر أحدهما يغني عن ذكر الآخر، وإنّما النظر فيما إذا جمع ذكرهما في كلام واحد. فقيل: هو من قبيل التأكيد، ونسب إلى أبي يوسف ومحمد بن الحسن وأبي علي الجبائي. وقيل: يراد بكل من الكلمتين معنى غير المراد من الأخرى، واختلف في تفسير ذلك على أقوال كثيرة، الأوضح منها أن يكون المراد بالفقير المحتاج احتياجا لا يبلغ بصاحبه إلى الضراعة

والمذلة، والمسكين المحتاج احتياجا يلجئه إلى الضراعة والمذلّة، ونسب هذا إلى مالك، وأبي حنيفة، وابن عباس، والزهري، وابن السكيت، ويونس بن حبيب. فالمسكين أشدّ حاجة .

وقد تقدم الكلام عليهما عند قوله تعالى {وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ} [النساء:36]

{ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا } معناه العاملون لأجلها، وهؤلاء هم الساعون على الأحياء لجمع الزكاة.

وممن كان على الصدقة في زمن النبيء ﷺ حمل بن مالك بن النابغة الهذلي كان على صدقات هذيل.

{ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ } هم الذين تؤنس نفوسهم للإسلام من الذين دخلوا في الإسلام بحدثان عهد، أو من الذين يرغبون في الدخول في الإسلام. و**التأليف**، إيجاد الألفة وهي التأنس.

وللمؤلفة قلوبهم أحوال: فمنهم من كان حديث عهد بالإسلام، وعرف ضعف حينئذ في إسلامه، مثل: أبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، من مسلمة الفتح؛ ومنهم من هم كفار أشداء، مثل: عامر بن الطفيل، ومنهم من هم كفار، وظهر منهم ميل إلى الإسلام، مثل: صفوان بن أمية. فمثل هؤلاء أعطاهم النبيء صلى الله عليه وسلم من أموال الصدقات وغيرها يتألّفهم على الإسلام، وقد بلغ عدد من عدّهم ابن العربي في (الأحكام) من المؤلفة قلوبهم: تسعة وثلاثين رجلا.

{ وَفِي الرِّقَابِ } التقدير، فك الرقاب، بشراء أو إعانة على نجوم كتابة، أو فداء أسرى مسلمين، لأنّ الأسرى عبيد لمن أسروهم، وقد مضى في سورة البقرة قوله {وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ }

{ وَالْغَارِمِينَ } المدينون الذين ضاقت أموالهم عن أداء ما عليهم من الديون، بحيث يرزأ دائنوهم شيئا من أموالهم، أو يرزأ المدينون ما بقي لهم من مال لإقامة أود الحياة، فيكون من صرف أموال من الصدقات في ذلك رحمة للدائن والمدين.

{ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ } الجهاد، أي يصرف من أموال الصدقات ما تقام به وسائل الجهاد من آلات وحراسة في الثغور.

{ وَابْنَ السَّبِيلِ } الغريب بغير قومه.

ولفقهاء الأمّة في الأحكام المستمّدة من هذه الآية طرائق جمّة، وأفهام مهمّة، ينبغي أن نلمّ بالمشهور منها بما لا يفضي بنا إلى الإطالة، وإنّ معانيها لأوفر مما تفي به المقالة.

فأمّا ما يتعلق بجعل الصدقات لهؤلاء الأصناف، فقد اختلف العلماء في استحقاق المستحقين من هذه الصدقات هل يجب إعطاء كل صنف مقدارا من الصدقات، وهل تجب التسوية بين الأصناف فيما يعطى كل صنف من مقدارها؟ والذي عليه جمهور العلماء أنّه لا يجب الإعطاء لجميع الأصناف، بل التوزيع موكول لاجتهاد ولّاة الأمور يضعونها على حسب حاجة الأصناف وسعة الأموال، وهذا قول عمر بن الخطاب، وعلي، وحذيفة، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبي العالية، والنخعي، والحسن، ومالك، وأبي حنيفة. وعن مالك أنّ ذلك مما

أجمع عليه الصحابة، قال ابن عبد البر: ولا نعلم مخالفا في ذلك من الصحابة، وعن حذيفة. إنّما ذكر الله هذه الأصناف لتُعرف، وأي صنف أعطيت منها أجزأك. قال الطبري: الصدقة لسدّ خلة المسلمين أو لسد خلة الإسلام، وذلك مفهوم من مآخذ القرآن في بيان الأصناف وتعدادهم.

قلت: وهذا الذي اختاره حذّاق النظار من العلماء، مثل ابن العربي، وفخر الدين الرازي.

وذهب عكرمة، والزهري، وعمر بن عبد العزيز، والشافعي، إلى وجوب صرف الصدقات لجميع الأصناف الثمانية لكل صنف ثمن الصدقات فإن انعدم أحد الأصناف قسمت الصدقات إلى كسور بعدد ما بقي من الأصناف. واتفقوا على أنّه لا يجب توزيع ما يعطى إلى أحد الأصناف على جميع أفراد ذلك الصنف.

وأمّا ما يرجع إلى تحقيق معاني الأصناف، وتحديد صفاتها، فالأظهر في تحقيق وصف الفقير والمسكين أنّه موكول إلى العرف، وأنّ الخصاصة متفاوتة وقد تقدم آنفا. واختلف العلماء في ضبط المكاسب التي لا يكون صاحبها فقيرا، واتفقوا على أن دار السكنى والخادم لا يعدان مالا يَرفَع عن صاحبه وصف الفقر.

وأمّا القدرة على التكّسب، فقيل لا يعد القادر عليه فقيرا ولا يستحق الصدقة بالفقر وبه قال الشافعي، وأبو ثور، وابن خويز منداد، ويحيى بن عمر من المالكية.

وأما العاملون عليها فهم يتعينون بتعيين الأمير، وعن ابن عمر يعطون على قدر عملهم من الأجرة. وهو قول مالك وأبي حنيفة.

وأما المؤلّفة قلوبهم فقد أعطاهم النبيء ﷺ عطايا متفاوتة من الصدقات وغيرها. فأمّا الصدقات فلهم حقّ فيها بنص القرآن، وأمّا غير الصدقات فبفعل النبيء ﷺ، واستمر عطاؤهم في خلافة أبي بكر، وزمن من خلافة عمر، وكانوا يعطون بالاجتهاد، ولم يكونوا يعينون لهم ثمن الصدقات ثم اختلف العلماء في استمرار هذا المصرف. عن عمر بن الخطاب أنه انقطع سهمهم بعزة الإسلام، وبه قال الحسن، والشعبي، ومالك بن أنس وأبو حنيفة، وقد قيل: أن الصحابة أجمعوا على سقوط سهم المؤلفة قلوبهم من عهد خلافة أبي بكر حكاه القرطبي، ولا شك أن عمر قطع إعطاء المولفة قلوبهم مع أن صنفهم لا يزال موجودا، رأى أن الله أغنى دين الإسلام بكثرة أتباعه فلا مصلحة للإسلام في دفع أموال المسلمين لتأليف قلوب من لم يتمكن الإسلام من قلوبهم، ومن العلماء من جعل فعل عمر وسكوت الصحابة عليه إجماعا سكوتيا. وقال كثير من العلماء: هم باقون إذا وجدوا فإن الإمام ربما احتاج إلى أن يستأنف على الإسلام، وبه قال الزهري، وعمر بن عبد العزيز، والشافعي، وأحمد بن حنبل، واختاره عبد الوهاب. و قال ابن العربي: " الصحيح عندي أنه إن قوي الإسلام زالوا وإن احتيج إليهم أعطوا".

{وَفِي الرِّقَابِ} في شراء الرقيق للعتق، ودفع ما على المكاتب من مال تحصل به حريته، وهو رواية المدنيين عن مالك، وقيل لا يعان بها المكاتب. وفداء الأسرى من فك الرقاب على الأصح من المذهب، وهو لابن عبد

الحكم، وابن حبيب، خلافا لأصبغ، من المالكية.

وأما الغارمون فشرطهم أن لا يكون دينهم في معصية إلّا أن يتوبوا. والميّت المدين الذي لا وفاء لدينه في تركته يعد من الغارمين عند ابن حبيب، خلافا لابن الموّاز.

وسبيل الله لم يختلف أن الغزو هو المقصود. والحقّ أن سبيل الله يشمل شراء العدة للجهاد من سلاح، وخيل، ومراكب بحرية، ونوتيه، ومجانيق، وللحملان، ولبناء الحصون، وحفر الخنادق، وللجواسيس الذين يأتون بأخبار العدو، قاله محمد ابن عبد الحكم من المالكية ولم يذكر أن له مخالفا. وذهب بعض السلف أن الحج من سبيل الله يدخل في مصارف الصدقات، وروي عن ابن عمر، وأحمد، وإسحاق. وهذا اجتهاد وتأويل. قال ابن العربي: " وما جاء أثر قط بإعطاء الزكاة في الحج".

وأمّا ابن السبيل فلم يختلف في الغريب المحتاج في بلد غربته أنّه مراد ولو وجد من يسلفه، إذ ليس يلزمه أنّ يدخل نفسه تحت منّة. واختلف في الغني: فالجمهور قالوا: لا يعطى، وهو قول مالك، وقال الشافعي وأصبغ: يعطى ولو كان غنيا في بلد غربته.

{ فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ } يفيد معنى فرض الله أو أوجب. وأكد بـ (فريضة) من لفظ المقدّر ومعناه، والمقصود من هذا تعظيم شأن هذا الحكم والأمر بالوقوف عنده.

{ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } أي والله عليم حكيم في قصر الصدقات على هؤلاء.

الحكيم ،الذي أحكم الأشياء التي خلقها أو شرعها.

{ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النبيء وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }[61]

عطف ذكر فيه خلق آخر من أخلاق المنافقين، وهو تعلّلهم على ما يعاملهم به النبيء والمسلمون من الحذر، وما يطّلعون عليه من فلتات نفاقهم، يزعمون أنّ ذلك إرجاف من المرجفين بهم إلى النبيء ﷺ وأنّه يصدّق القالة فيهم، ويتّهمهم بما يبلغه عنهم ممّا هم منه برآء. وفيه زيادة في الأذى للرّسول ﷺ وإلقاء الشكّ في نفوس المسلمين في كمالات نبيّهم عليه الصلاة والسلام.

{ يُؤْذُونَ النبيء } عدل عن الإضمار إلى إظهار وصف النبيء للإيذان بشناعة قولهم ولزيادة تنزيه النبيء بالثناء عليه بوصف النبوءة، بحيث لا تحكى مقالتهم فيه إلّا بعد تقديم ما يشير إلى تنزيهه والتعريض بجرمهم فيما قالوه. وقد عدّ من هؤلاء المنافقين، القائلين ذلك: الجُلَاسُ بن سُويد، قبل توبته، ونَبْتَل بن الحارث، وعتاب بن قشير، ووديعة بن ثابت.

الأذى: الإضرار الخفيف، وأكثر ما يطلق على الضرّ بالقول والدسائس، ومنه قوله تعالى {لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى} [آل عمران:111]، وعند قوله تعالى {وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا} [الأنعام:34]

الأذن، الجارحة التي بها حاسة السمع.

{ **هُوَ أُذُنٌ** } كناية عن تصديقه بكل ما يسمع من دون تمييز بين المقبول والمردود. روي أنّ قائل هذا هو نَبْتَل بن الحارث أحد المنافقين.

{ **قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ** } جملة {قُلْ} مستأنفة استئنافا ابتدائيا، لإبطال قولهم بقلب مقصدهم إغاظة لهم، وكمدا لمقاصدهم، وهو من الأسلوب الحكيم الذي يحمل فيه المخاطب كلام المتكلم على غير ما يريده. وهذا من غيرة الله على رسوله عليه الصلاة والسلام، وهذا من لطائف القرآن.

{ **أُذُنُ خَيْرٍ** } أنّه يسمع ما يبلغه عنكم ولا يؤاخذكم، ويسمع معاذيركم ويقبلها منكم، فقبوله ما يسمعه ينفعكم ولا يضرّكم فهذا أذن في الخير، أي في سماعه والمعاملة به وليس أذنا في الشر.

{ **يُؤْمِنُ بِاللَّهِ** } فهو يعامل الناس بما أمر الله به من المعاملة بالعفو، والصفح، والأمر بالمعروف، والإعراض عن الجاهلين، وبأن لا يؤاخذ أحد إلّا ببينة، فالنّاس في أمن من جانبه فيما يبلغ إليه، لأنّه لا يعامل إلا بالوجه المعروف فكونه يؤمن بالله وازع له عن المؤاخذة بالظنّة والتهمة.

{ **وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ**} تصديقهم في ما يخبرونه، يقال: آمن لفلان بمعنى صدّقه، ولذلك عدي بـ (اللام) دون الباء كما في قوله تعالى {وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} [يوسف:17] فتصديقه إيّاهم لأنّهم صادقون لا يكذبون، لأن الإيمان وازع لهم عن أن يخبروه الكذب. فكما أن الرّسول لا يؤاخذ أحدا بخبر الكاذب فهو يعامل الناس بشهادة المؤمنين. فهذا ثناء عليه.

{ **وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ** } كونه رحمة للذين يؤمنون بعد علمه بنفاقهم أثر لإغضائه عن إجرامهم ولإمهالهم حتّى يتمكّن من الإيمان من وفّقه الله للإيمان منهم، ولو آخذهم بحالهم دون مهل لكان من سبق السيف العذل، فالمراد من الإيمان الإيمان بالفعل، لا التظاهر بالإيمان.

{ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } أعقب الترغيب بالترهيب من عواقب إيذاء الرسول وهو إنذار بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا. وفي ذكر النبيء بوصف {رَسُولَ اللَّهِ} إيماء إلى استحقاق مؤذيه العذاب الأليم.

{ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ } .[62]

الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا، لإعلام الرسول ﷺ والمؤمنين بأنّ المنافقين يحلفون الأيمان الكاذبة، فلا تغرّهم أيمانهم، فضمير يحلفون عائد إلى الذين يؤذون النبيء.

فكاف الخطاب للمسلمين، وذلك يدل على أن المنافقين يحلفون على التبرّئي، ممّا يبلغ المسلمين من أقوالهم المؤذية للرسول ﷺ، وذلك يغيظ المسلمين وينكرهم عليهم، والنبيء ﷺ يغضي عن ذلك.

{ **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ** } أي أحقّ منكم بأن يرضوهما، وسيأتي تعليل أحقيّة الله ورسوله بأن يرضوهما في الآية التي بعدها، فإرضاء الله بالإيمان به وبرسوله وتعظيم رسوله، وإرضاء الرسول بتصديقه ومحبّته وإكرامه.

{ **أَنْ يُرْضُوهُ** } أفرد الضمير مع أنّ المعاد اثنان، لأنّه أريد عود الضمير إلى أوّل الاسمين، واعتبار العطف من عطف الجمل، بتقدير، والله أحقّ أن يرضوه ورسوله كذلك، فيكون الكلام جملتين ثانيتهما كالاحتراس وحذف الخبر إيجاز. ومن نكتة ذلك الإشارة إلى التفرقة بين الإرضاءين.

{ **إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ** }، شرط مستعمل للحثّ والتوقّع لإيمانهم، لأن ما حكي عنهم من الأحوال لا يبقى معه احتمال في إيمانهم، فاستعمل الشرط للتوقّع وللحثّ على الإيمان. وفيه أيضا تسجيل عليهم، إن أعادوا مثل صنيعهم، بأنّهم كافرون بالله ورسوله، وفيه تعليم للمؤمنين وتحذير من غضب الله ورسوله.

{ **أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ** }[63]

الاستفهام مستعمل في الإنكار والتشنيع، لأنّ عدم علمهم بذلك محقّق بضرورة أنّهم كافرون بالرّسول، وبأنّ رضى الله عند رضاه، ولكن لمّا كان عدم علمهم بذلك غريبا لوجود الدلائل المقتضية أنّه ممّا يحق أن يعلموه، كان حال عدم العلم به حالا منكرا. وقد كثر استعمال هذا ونحوه في الإعلام بأمر مهم، كقوله { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ } [104] وقوله {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ} [78].

المحادّة، المعاداة والمخالفة. وفكّ الدالان لأنّه وقع مجزوما فجاز فيه الفك والإدغام، والفكّ أشهر وأكثر في القرآن، وهو لغة أهل الحجاز.

{ **جَهَنَّمَ** } تقدم ذكرها عند قوله تعالى {فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} [البقرة:206].

{ **الْخِزْيُ** } الذلّ والهوان، وتقدّم عند قوله تعالى {فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [البقرة:85].

{ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ }[64]

وظاهر الكلام أنّ الحذر صادر منهم وهذا الظاهر ينافي كونهم لا يصدّقون بأنّ نزول القرآن من الله وأنّ خبره صدق فلذلك تردّد المفسّرون في تأويل هذه الآية. وأحسن ما قيل في ذلك قول أبي مسلم الأصفهاني : " هو حذر يظهره المنافقون على وجه الاستهزاء. فأخبر الله رسوله بذلك وأمره أنّ يعلمهم بأنّه يُظهر سرّهم

الذي حذروا ظهوره ". و { قُلْ اسْتَهْزِئُوا } دلالة على ما ذكرناه، أي هم يظهرون ذلك يريدون به إيهام المسلمين بصدق إيمانهم وما هم إلّا مستهزئون بالمسلمين فيما بينهم.

{ **يَحْذَرُ** } أطلق على التظاهر بالحذر، فإنّ المنافقين لمّا كانوا مبطنين الكفر لم يكن من شأنهم الحذر من نزول القرآن بكشف ما في ضمائرهم، لأنّهم لا يصدقون بذلك فتعيّن صرف فعل {يَحْذَرُ} إلى معنى يتظاهرون بالحذر وعلى هذا القول يكون إطلاق الفعل على التظاهر بمدلوله من غرائب المجاز.

وتأول الزجّاج الآية بأنّ {يَحْذَرُ} خبر مستعمل في الأمر، أي ليحذر. وعلى تأويله تكون جملة {قُلْ اسْتَهْزِئُوا} استئنافا ابتدائيا لا علاقة لها بجملة {يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ} .

{ **عَلَيْهِمْ** } بمعنى لام التعليل أي تنزّل لأجل أحوالهم كقوله {وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ} [البقرة:185].

{ **تُنَبِّئُهُمْ** } أي تنبّئ عنهم، أي تنبئ الرّسول بما في قلوبهم.

ويجوز أن يكون تاء {تُنَبِّئُهُمْ} تاء الخطاب، والخطاب للرّسول ﷺ، أي تنبئهم أنت بما في قلوبهم.

السورة، طائفة معيّنة من آيات القرآن، ذات مبدأ ونهاية وقد تقدّم بيانها عند تفسير طالعة سورة الفاتحة.

التنبئة، الإخبار والإعلام مصدر نبّأ الخبرَ، وتقدّم في قوله {وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ}[الأنعام:34]

الاستهزاء، تقدّم في قوله {إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة:14]

{ **إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ** } الإخراج، مستعمل في الإظهار مجازا. والمعنى، أنّ الله مظهر ما في قلوبكم بإنزال السور، مثل سورة المنافقين، وهذه سورة براءة، التي من أسمائها الفاضحة.

والمعنى، إظهار سرائرهم، وكونه في سورة تنزّل، وهو أنكى لهم، ففيه إيجاز بديع كقوله تعالى {وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ} [مريم:80] بعد قوله { وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا } [مريم:77] أي نرثه ماله وولده.

{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ }[65]

روي أنّ المقصود من هذه الآية، أنّ ركبا من المنافقين الذين خرجوا في غزوة تبوك نفاقا، منهم: وديعة بن ثابت العَوْفي، ومخشي بن حُمَيِّر الأشجعي، حليف بني سلمة، وقفوا على عقبة في الطريق ينظرون جيش المسلمين فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح حصون الشام، هيهات هيهات. فسألهم النبيء ﷺ عن مناجاتهم فأجابوا: " إنّما كنّا نخوض ونلعب ".

وعندي أنّ هذا لا يتجه، لأنّ صيغة الشرط مستقبلة، فالآية نزلت فيما هو أعمّ، مما يسألون عنه في المستقبل، إخبارا بما سيجيبون، فهم يسألون عمّا يتحدّثون في مجالسهم ونواديهم، التي ذكرها الله تعالى في قوله { وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة:14]، لأنّهم كانوا كثيري الانفراد عن مجالس المسلمين. والتقدير: ولئن سألتهم عن حديثهم في خلواتهم.

الخوض، تقدّم في قوله تعالى {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا} [الأنعام:58]

اللعب، تقدّم في قوله {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ} [الأنعام:32].

{ **قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ** } لمّا كان اعتذارهم مبهما ردّ عليهم ذلك، إذ أمر الله رسوله ﷺ أن يجيبهم جواب الموقن بحالهم بعد أن أعلمه بما سيعتذرون به.

والاستفهام إنكاري توبيخي. وتقديم المعمول وهو {أَبِاللَّهِ} على فعله العامل فيه لقصد قصر التعيين لأنّهم لمّا أتوا في اعتذارهم بصيغة قصر تعيين جيء في الرد عليهم بصيغة قصر تعيين لإبطال مغالطتهم في الجواب، فأعلمهم بأنّ لعبهم الذي اعترفوا به ما كان إلّا استهزاء بالله وآياته ورسوله لا بغير أولئك.

{ لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ}[66]

{ **لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** } لمّا كشف الله أمر استهزائهم، أردفه بإظهار قلّة جدوى اعتذارهم، إذ قد تلبّسوا بما هو أشنع وأكبر ممّا اعتذروا عنه، وهو التباسهم بالكفر بعد إظهار الإيمان. فإنّ الله لما أظهر نفاقهم كان ما يصدر عنهم من الاستهزاء أهون.

{ **لاَ تَعْتَذِرُوا** } من جملة القول الذي أمر الرّسول أن يقوله، فهي متضمّنة توكيدا لمضمون جملة { أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ } [65]، مع زيادة ارتقاء في التوبيخ وارتقاء في مثالبهم بأنّهم تلبّسوا بما هو أشدّ وهو الكفر، فلذلك قطعت الجملة عن التي قبلها، فالمعنى لا حاجة بكم للاعتذار عن التناجي فإنّكم قد عُرفتم بما هو أعظم وأشنع. والنهي مستعمل في التسوية وعدم الجدوى.

{ **قَدْ كَفَرْتُمْ** } يدل على وقوع الكفر في الماضي، أي قبل الاستهزاء، وذلك أنّه قد عرف كفرهم من قبل.

{ **بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** } المراد إظهار الإيمان، لا وقوع حقيقته. وقد أنبأ عن ذلك إضافة الإيمان إلى ضميرهم دون تعريف الإيمان باللام المفيدة للحقيقة، أي بعد إيمان هو من شأنكم، وهذا تعريض بأنّه الإيمان الصوري غير الحقّ ، ونظيره قوله تعالى {وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ} [74] وهذا من لطائف القرآن.

{ **إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** } جاءت هذه الجملة على عادة القرآن في تعقيب النذارة بالتبشير للراغب في التوبة تذكيرا له بإمكان تدارك حاله.

ولمّا كان حال المنافقين عجيبا كانت البشارة لهم مخلوطة ببقيّة النذارة، فأنبأهم أنّ طائفة منهم قد يعفى عنها إذا طلبت سبب العفو، وهو إخلاص الإيمان، وأنّ طائفة تبقى في حالة العذاب. والآيات الواردة بعد هذه تزيد ما دلّ عليه المقام وضوحا من قوله {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ - إلى قوله - عَذَابٌ مُقِيمٌ} [67 ،68]. وقوله بعد ذلك {فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} [74].

وقد آمن بعض المنافقين بعد نزول هذه الآية، وذكر المفسّرون من هذه الطائفة (مخشيّا بن حُمَيِّر الأشجعي)، لمّا سمع هذه الآية تاب من النفاق، وحسن إسلامه، فعدّ من الصحابة، وقد جاهد يوم اليمامة واستشهد فيه.
وقد قيل: إنّه المقصود (بالطائفة) دون غيره، فيكون من باب إطلاق لفظ الجماعة على الواحد في مقام الإخفاء والتعمية.
{ **بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** } الباء للسببية، والمجرم الكافر.

{ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [67]

يظهر أنّ تكون هذه الآية احتراسا عن أن يظنّ المنافقون أنّ العفو المفروض لطائفة منهم هو عفو ينال فريقا منهم باقين على نفاقهم، فعقّب ذلك ببيان أنّ النفاق حالة واحدة وأنّ أصحابه سواء، ليعلم بذلك أن افتراق أحوالهم بين عفو وعذاب لا يكون إلّا إذا اختلفت أحوالهم بالإيمان والبقاء على النفاق.
{ **وَالْمُنَافِقَاتُ** } تنصيص على تسوية الأحكام لجميع المتصفين بالنفاق، ذكورهم وإناثهم، كيلا يخطر بالبال أنّ العفو يصادف نساءهم، والمؤاخذة خاصة بذكرانهم، ليعلم النّاس أن لنساء المنافقين حظا من مشاركة رجالهن في النفاق فيحذروهن.
{ **بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ** } شمل جميع المنافقين والمنافقات، لأنّ كل فرد هو بعض من الجميع، فإذا كان كل بعض متصلا ببعض آخر، علم أنهم سواء في الأحوال.
{ **يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ** } مبيّنة لمعنى الاتصال والاستواء في الأحوال.
المنكر، المعاصي لأنّها ينكرها الإسلام. و**المعروف**، ضدّها، لأنّ الدين يعرفه، أي يرضاه، وقد تقدّما في قوله تعالى {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران:104].
قبض الأيدي، كناية عن الشحّ، وهو وصف ذمّ لدلالته على القسوة، لأنّ المراد الشحّ على الفقراء.
{ **نَسُوا اللَّهَ** } النسيان مستعار للإشراك بالله، أو للإعراض عن ابتغاء مرضاته وامتثال ما أمر به، لأنّ الإهمال والإعراض يشبه نسيان المعرض عنه.
{ **فَنَسِيَهُمْ** } نسيان الله إيّاهم مشاكلة، أي حرمانه إيّاهم مما أعد للمؤمنين، لأنّ ذلك يشبه النسيان عند قسمة الحظوظ.
{ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** } فذلكة للتي قبلها فلذلك فصلت لأنها كالبيان الجامع. وصيغة القصر، قصر ادعائي للمبالغة، لأنّهم لمّا بلغوا النهاية في الفسوق جعل غيرهم كمن ليس بفاسق.

{ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ } [68]

هذه الجملة إمّا استئناف بياني ناشئي عن قوله {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [67]، وإمّا مبيّنة لجملة {فَنَسِيَهُمْ} [67]. لأنّ الخلود في جهنّم واللعن بيان للمراد من نسيان الله إيّاهم.

الوعد، أعم من الوعيد، فهو يطلق على الإخبار بالتزام المخبِر للمخبَر بشيء في المستقبل نافع أو ضار أو لا نفع فيه ولا ضر. {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ} [يس:52]. والوعيد خاص بالضّار.

والماضي هنا، إشعار بأنّه وعيد لا يتخلّف مثل العقد والالتزام.

{ **الْكُفَّارَ** } للدلالة على أنّ المنافقين ليسوا بأهون حالا من المشركين إذ قد جمع الكفر الفريقين.

{ **هِيَ حَسْبُهُمْ** } أنّها ملازمة لهم. وأصل حسب أنّه بمعنى الكافي، ولمّا كان الكافي يلازمه المكفي كني به هنا عن الملازمة، ويجوز أن يكون {حَسِبَ} على أصله ويكون ذكره في هذا المقام تهكّما بهم، كأنّهم طلبوا النعيم، فقيل: حسبهم نار جهنم.

اللعن، الإبعاد عن الرحمة والتحقير والغضب.

العذاب المقيم، إن كان المراد به عذاب جهنم فهو تأكيد لقوله {خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ} لدفع احتمال إطلاق الخلود على طول المدة، وتأكيد للكناية في قوله {هِيَ حَسْبُهُمْ}، وإن كان المراد به عذابا آخر تعيّن أنّه عذاب في الدنيا وهو عذاب الخزي والمذلة بين الناس.

{ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ } [69]

قيل هذا الخطاب التفات، عن ضمائر الغيبة الراجعة إلى المنافقين، إلى خطابهم لقصد التفريع والتهديد بالموعظة، والتذكير عن الغرور بما هم فيه من نعمة الإمهال، بأنّ آخر ذلك حبط الأعمال في الدنيا والآخرة، وأن يحق عليهم الخسران.

وقيل هذا من بقية المقول المأمور بأن يبلغه النبيء ﷺ إيّاهم من قوله { قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} [65]. فضمير الخطاب لهم جار على مقتضى الظاهر بدون التفات، والكلام مسوق لتشبيه حالهم في مصيرهم إلى النّار.

{ **كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ** } معناه أقوى، والقوة هنا القدرة على الأعمال

الصعبة. أو يراد بها العزّة وعدّة الغلب باستكمال العَدد والعُدد.

كثرة الأموال لها أسباب كثيرة، منها طيب الأرض للزرع والغرس، ومنها وفرة التجارة بحسن موقع الموطن ومنها اشتمال الأرض على الخيرات.

كثرة الأولاد، تأتي من الأمن بسبب بقاء الأنفس، ومن الخصب المؤثّر قوة الأبدان والسلامة من المجاعات المعقبة للموتان، ومن حسن المناخ بالسلامة من الأوبئة المهلكة، ومن الثروة بكثرة الأزواج.

الاستمتاع، التمتّع، والسين والتاء فيه للمبالغة في قوة التمتع .وهو نوال أحد المتاع الذي به التذاذ الإنسان. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [الأعراف:24].

الخلاق، الحظّ من الخير، و تقدّم عند قوله تعالى { فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ} [البقرة:200]

{ **فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ** } قصد الموعظة بالفريقين، المشبَّه بهم، والمشبهين، في إعراض كليهما عن أخذ العدّة للحياة الدائمة وفي انصبابهما على التمتّع العاجل فلم يكتف في الكلام بالاقتصارعلى حال أحد الفريقين قصدا، للاعتناء بكليهما، فذلك الذي اقتضى هذا الإطناب.

{ **كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ** } تأكيد للتشبيه، وللتنبيه على أنّ ذلك الجزء بخصوصه، من بين الحالة المشبهة والحالة المشبه بها، هو محلّ الموعظة والتذكير، فلا يغرّهم ما هم فيه من نعمة الإمهال والاستدراج.

{ **وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا** } تشبيه لخوض المنافقين بخوض أولئك، وهو الخوض الذي حكي عنهم في قوله {لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ} [65]. أي وخضتم في الكفر والاستهزاء بآيات الله ورسوله كالخوض الذي خاضوه في ذلك، فأنتم وهم سواء، فيوشك أن يحيق بكم ما حاق بهم. وكلامنا في هذين التشبيهين أدقّ ما كتب فيهما.

{ **أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** }

الحبط، الزوال والبطلان. تقدّم في قوله تعالى {فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ} [البقرة:217]

أعمالهم، ما كانوا يعملونه ويكدحون فيه، من معالجة الأموال والعيال والانكباب عليهما.

وفي هذا كلّه تذكرة للنبيء ﷺ والمؤمنين بأن لا يظنّوا أنّ الله لمّا أمهل المنافقين قد عفا عنهم.

{ **وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ** } قصرا مقصودا به المبالغة. وإعادة اسم الإشارة للاهتمام بتمييز المتحدث عنهم لزيادة تقرير أحوالهم في ذهن السامع.

{ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }[70]

عاد الكلام على المنافقين، والاستفهام موجّه للمخاطب تقريرا عنهم، بحيث يكون كالاستشهاد عليهم بأنّهم أتاهم نبأ الذين من قبلهم.

الإتيان، مستعمل في بلوغ الخبر كقوله تعالى {يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ} [المائدة:41]، شبّه حصول الخبر عند المخبر بإتيان الشخص.

النبأ، الخبر وتقدّم في قوله تعالى {وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ} [الأنعام:34]

قوم نوح، تقدّم الكلام عليهم عند قوله تعالى {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ} [الأعراف:59]

نوح، تقدّم ذكره عند قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا} [آل عمران:33]

عاد و**ثمود،** تقدّم الكلام عليهما عند قوله تعالى {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا} [الأعراف:65]

قوم إبراهيم، هم الكلدانيون، وتقدّم الكلام على إبراهيم وعليهم عند قوله تعالى {وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ} [البقرة:124]

{ **وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ** } باعتبار إطلاق اسم مدين على الأرض التي كان يقطنها بنو مدين، فكما أنّ مدين اسم للقبيلة كما في قوله تعالى {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} [الأعرف:85]. كذلك هو اسم لموطن تلك القبيلة. وقد تقدّم ذكر مدين عند قوله {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} [الأعراف:85]

{ **وَالْمُؤْتَفِكَاتِ** }، وهو جمع مؤتفكة، اسم فاعل من الائتفاك وهو الانقلاب. أي القرى التي انقلبت، والمراد بها قرى صغيرة كانت مساكن قوم لوط وهي (**سدوم** و**عمورة** و**أدمة** و**صبويم**)، وكانت قرى متجاورة فخسف بها وصار عاليها سافلها. وكانت في جهات الأردن حول البحر الميت، ونبأ هؤلاء مشهور معلوم، وهو خبر هلاكهم واستئصالهم بحوادث مهولة.

{ **أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ** } أي أتتهم رسلهم بدلائل الصدق والحق.

{ **فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** } تفريع على جملة {أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ}، لأنّ الذي تفرّع على إتيان الرسل أنّهم ظلموا أنفسهم بالعناد، والمكابرة، والتكذيب للرسل، وصمّ الآذان عن الحقّ، فأخذهم الله بذلك، ولكن نظم الكلام على هذا الأسلوب البديع إذ ابتدئ فيه بنفي أن يكون الله ظلمهم اهتماما بذلك لفرط التسجيل عليهم بسوء صنعهم حتّى جعل ذلك كأنّه هو المفرّع وجعل المفرّع بحسب المعنى في صورة الاستدراك. ونفي الظلم عن الله تعالى بأبلغ وجه، وهو النفي المقترن بلام الجحود، بعد فعل الكون المنفي، وقد تقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ} [المائدة:6]

وأثبت ظلمهم أنفسهم لهم بأبلغ وجه إذ أسند إليهم بصيغة الكون الماضي، الدال على تمكن الظلم منهم منذ

زمان مضى، وصيغ الظلم الكائن في ذلك الزمان بصيغة المضارع للدلالة على التجدّد والتكرّر، أي على تكرير ظلمهم أنفسهم في الأزمنة الماضية.

{ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }[71]

هذه تقابل قوله {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ} [67] لبيان أن الطائفة التي ينالها العفو هي الملتحقة بالمؤمنين.

{ **بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** } مقابل قوله في المنافقين {بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ}، وعبّر في جانب المؤمنين والمؤمنات بأنّهم (أولياء بعض)، للإشارة إلى أنّ اللحمة الجامعة بينهم هي ولاية الإسلام، فهم فيها على السواء، ليس واحد منهم مقلدا للآخر ولا تابعا له على غير بصيرة، لمّا في معنى الولاية من الإشعار بالإخلاص والتناصر بخلاف المنافقين فكأنّ بعضهم ناشئ من بعض في مذامهم.

{ **وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ** } زيد في وصف المؤمنين تنويها بأنّ الصلاة هي أعظم المعروف.

{ **وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** } مقابل قوله في المنافقين {وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ}.

{ **وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** } مقابل قوله في المنافقين {نَسُوا اللَّهَ}، لأنّ الطاعة تقتضي مراقبة المطاع فهي ضدّ النسيان.

{ **أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ** } مقابل قوله في المنافقين {فَنَسِيَهُمْ}. والسين لتأكيد حصول الرحمة في المستقبل. فحرف الاستقبال يفيد مع المضارع ما تفيد (قد) مع الماضي.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** } تعليل لجملة {سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ}، أي أنّه تعالى لعزّته ينفع أولياءه، وأنّه لحكمته يضع الجزاء لمستحقّه.

{ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }[72]

هذه كموقع جملة {وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ} [68]. وهي أيضا كالاستئناف البياني الناشئ عن قوله {أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ} [71]

{ **وَعَدَ اللَّهُ** } فعل الماضي إمّا لأنّه إخبار عن وعد تقدّم في آي القرآن، قصد من الإخبار به التذكير به

لتحقيقه. وإمّا أن يكون قد صيغ هذا الوعد بلفظ الماضي على طريقة صيغ العقود مثل بعت وتصدّقت، لكون تلك الصيغة معهودة في الالتزام الذي لا يتخلّف.

والإظهار في مقام الإضمار، دون أن يقال: (وعدهم الله)، لتقريرهم في ذهن السامع ليتمكّن تعلّق الفعل بهم أفضل تمكّن في ذهن السامع.

{ **جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا** } تقدّم الكلام حولها عند قوله تعالى {وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [البقرة:25].

{ **وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ** } للدلالة على أنّ لهم في الجنّات قصورا. وطيّبة، أي ليس فيها شيء من خبث مساكن الدنيا.

(**العدن**) الخلد والاستقرار المستمّر، فجنّات عدن هي الجنات المذكورة قبل، فذكرها بهذا اللفظ من الإظهار في مقام الإضمار مع التفنّن في التعبير والتنويه بالجنّات.

{ **وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ** } **الرضوان** (بكسر الراء ويجوز ضمها. وكسر الراء لغة أهل الحجاز، وضمها لغة تميم). وهو مصدر كالرضى، وزيادة الألف والنون فيه تدل على قوته، كالغفران والشكران.

والتنكير للتنويع، يدل على جنس الرضوان، وإنّما لم يقرن بلام تعريف الجنس ليتوسل بالتنكير إلى الإشعار بالتعظيم فإن رضوان الله تعالى عظيم.

{ **أَكْبَرُ** } تفضيل لم يذكر معه المفضّل عليه لظهوره من المقام، أي أكبر من الجنّات، لأنّ رضوان الله أصل لجميع الخيرات. وفيه دليل على أنّ السعادات الروحانية أعلى وأشرف من الجثمانية.

{ **ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } قصر حقيقي باعتبار وصف الفوز بعظيم.

{ يَا أَيُّهَا النبيء جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }[73]

بعد أن أنذرهم الله بذلك فلم يرتدعوا ومضى عليهم من المدّة ما كشفت فيه دخيلتهم بما تكرّر منهم من بوادر الكفر والكيد للمسلمين، أنجز الله ما أنذرهم به بأن أمر رسوله ﷺ بجهادهم.

الجهاد، القتال لنصر الدين، وتقدّم في قوله {يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ} [المائدة:54]

{ **الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ** } قُرن المنافقون هنا بالكفار، تنبيها على أنّ سبب الأمر بجهاد الكفار قد تحقّق في المنافقين، فجهادهم كجهاد الكفار، ولأنّ الله قرنهم في الوعيد بعذاب الآخرة {وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ} [68].

والجهاد المأمور للفريقين مختلف، واللفظ مستعمل في حقيقته ومجازه. وفائدة القرن بين الكفار والمنافقين في الجهاد، إلقاء الرعب في قلوبهم لأنّ جهادهم بالفعل متعذّر، لأنهم غير مظهرين الكفر، ولذلك تأوّل أكثر

المفسرين الجهاد بالنسبة إلى المنافقين بالمقاومة بالحجّة وإقامة الحدود عند ظهور ما يقتضيها، وكان غالب من أقيم عليه الحدّ في عهد النبوءة من المنافقين. وقال بعض السلف جهادهم ينتهي إلى الكشر في وجوههم.
وهذه الآية إيذان للمنافقين بأن النفاق يوجب جهادهم، قطعا لشافتهم من بين المسلمين.
وكان رسول الله ﷺ يعلمهم ويعرّفهم لحذيفة بن اليمان، وكان المسلمون يعرفون منهم من تكررت بوادر أحواله، وفلتات مقاله. وإنما كان النبيء ممسكا عن قتلهم سدا لذريعة دخول الشك في الأمان على الداخلين في الإسلام، كما قال لعمر: " لا يتحدث النّاس أنّ محمدا يقتل أصحابه ". لأنّ العامة والغائبين عن المدينة لا يبلغون بعلمهم إلى معرفة حقائق الأمور الجارية بالمدينة، فيستطيع دعاة الفتنة أن يشوّهوا الأعمال النافعة بما فيها من صورة بشيعة عند من لا يعلم الحقيقة.
{ **وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** } أمر بأن يكون غليظا معهم. وإنّما وجه هذا الأمر إلى الرّسول ﷺ لأنّه جبل على الرحمة فأمر بأن يتخلّى عن جبلّته في حق الكفار والمنافقين، وأن لا يغضي عنهم كما كان شأنه من قبل.
وهذه الآية تقتضي نسخ إعطاء الكفار المؤلفة قلوبهم على الإسلام وإنّما يبقى ذلك للداخلين في الإسلام حديثا.
{ **وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** } تذييل. وتقدم نظيره مرّات.
المأوى، ما يأوي إليه المرء من المكان، أي يرجع إليه.
المصير، المكان الذي يصير إليه المرء، أي يرجع، فالاختلاف بينه وبين المأوى بالاعتبار، والجمع بينهما هنا تفنن.

{ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ }[74]

{ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ }
لما كان معظم ما أخذ على المنافقين هو كلمات دالة على الطعن في الرسول ﷺ ونحو ذلك من دلائل الكفر، وكانوا إذا نقل ذلك عنهم تنصلوا منه بالأيمان الكاذبة، عقّبت آية الأمر بجهادهم بالتنبيه على أن ما يتنصّلون به تنصّل كاذب وأن لا ثقة بحلفهم، وعلى إثبات أنّهم قالوا ما هو صريح في كفرهم.
{ **يَحْلِفُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا يثيره الأمر بجهادهم، وقد تكون الجملة في محل التعليل للأمر بالجهاد إن اعتبر المقصود منها قوله {وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ} وما بعده.
{ **وَلَقَدْ قَالُوا** } أكّد صدور كلمة الكفر منهم، في مقابلة تأكيدهم نفي صدورها بصيغة القسم، ليكون تكذيب

قولهم مساويا لقولهم في التأكيد.

{ **كَلِمَةَ الْكُفْرِ** } الكلام الدال عليه، فكلمة الكفر جنس لكلّ كلام فيه تكذيب النبيء ﷺ. كما أطلقت كلمة الإسلام على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

وقيل المراد كلمة صدرت من بعض المنافقين تدل على تكذيب النبيء ﷺ، فعن عروة بن الزبير، ومجاهد، وابن إسحاق أن الجَلَاس (بضم الجيم وتخفيف اللام) بن سويد بن الصامت قال: " لئن كان ما يقول محمد حقا لنحن أشر من حميرنا هذه التي نحن عليها "، فأخبر عنه ربيبه النبيء فدعاه النبيء وسأله عن مقالته، فحلف بالله ما قال ذلك.

وقيل: بل نزلت في عبد الله بن أُبي بن سلول لقوله الذي حكاه الله عنه بقوله {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ} [المنافقون:8]، فسعى به رجل من المسلمين، فأرسل إليه رسول الله فسأله فجعل يحلف بالله ما قال ذلك.

فعلى هذه الروايات يكون إسناد القول إلى ضمير جمع كناية عن إخفاء اسم القائل، أو باعتبار قول واحد وسماع البقية فجعلوا مشاركين في التبعة.

{ **بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ** } بعد أن أظهروا الإسلام في الصورة، ولذلك أضيف الإسلام إليهم كما تقدّم في قوله تعالى {لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [التوبة:66]

الهمّ، نية الفعل سواء فعل أم لم يفعل.

نوال، الشيء حصوله، أي همّوا بشيء لم يحصّلوه. والذي همّوا به هو الفتك برسول الله ﷺ عند مرجعه من تبوك، حيث تواثق خمسة عشر منهم على أن يترصّدوا له في عقبة بالطريق تحتها واد، فإذا اعتلاها ليلا يدفعونه عن راحلته إلى الوادي. وكان رسول الله ﷺ سائرا وقد أخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها. وكان حذيفة بن اليمان يسوقها فأحس حذيفة بهم فصاح بهم فهربوا.

{ **وَمَا نَقَمُوا** } عطف على {وَلَقَدْ قَالُوا} أي والحال أنّهم ما ينقمون على النبيء ﷺ ولا على دخول الإسلام المدينة شيئا يدعوهم إلى ما يصنعونه من آثار الكراهية والعداوة.

النقم، الامتعاض من الشيء واستنكاره وتقدّم في قوله {وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا} [الأعراف:126]

{ **إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ** } استثناء تهكمي، وهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضده.

وإنّما أغناهم الله ورسوله بما جلبه حلول النبيء ﷺ بينهم من أسباب الرزق بكثرة عمل المهاجرين وبوفرة الغنائم في الغزوات وبالأمن الذي أدخله الإسلام فيهم، إذ جعل المؤمنين إخوة فانتفت الضغائن بينهم والثارات، وقد كان الأوس والخزرج قبل الإسلام أعداء وكانت بينهم حروب تفانوا فيها قبيل الهجرة وهي حروب بُعاث.

الفضل، الزيادة في البذل والسخاء. وفي جعل الإغناء من الفضل كناية عن وفرة الشيء المغني به لأنّ ذا الفضل يعطي الجزل. وعطف الرسول على اسم الجلالة في فعل الإغناء لأنّه السبب الظاهر المباشر.

{ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ }

التفريع على قوله {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} [73] على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والعكس، فلمّا أمر بجهادهم والغلظة عليهم وتوعّدهم بالمصير إلى النّار، فرّع على ذلك الإخبار بأنّ التوبة مفتوحة لهم وأنّ تدارك أمرهم في مكنتهم، لأنّ المقصود من الأمر بجهادهم قطع شافة مضرّتهم أو أن يصلح حالهم.

التوبة، هي إخلاصهم الأيمان.

التولّي، الإعراض، والمراد به الإعراض عن التوبة.

العذاب في الدنيا، عذاب الجهاد والأسر، و**في الآخرة**، عذاب النّار.

{ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ } عطف على {يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ}، فتكون جوابا ثانيا للشرط، والمعنى، أنّهم إن تولوا لم يجدوا من ينصرهم من القبائل، إذ لم يبق من العرب من لم يدخل في الإسلام إلّا من لا يعبأ بهم عَددا وعُددا. والمراد نفي الوليّ النافع كما هو مفهوم الولي.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ [75] فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ [76] فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } [77]

قيل نزلت في ثعلبة بن حاطب من المنافقين سأل رسول الله ﷺ أن يدعو له بسعة الرزق فدعا له فأثرى إثراء كثيرا فلما جاءه المصدّقون ليعطي زكاة أنعامه امتنع من ذلك ثم ندم فجاء بصدقته فأبى رسول الله ﷺ أن يقبلها منه. وذكروا من قصّته أنّه تاب ولكن لم تقبل صدقته في زمن النبيء ولا في زمن الخلفاء الثلاثة بعده عقوبة له وإظهار للاستغناء عنه حتّى مات في خلافة عثمان. وقيل إن قائل ذلك هو معتِّب بن قشير.

{ لَنَصَّدَّقَنَّ } بيان لجملة {عَاهَدَ اللَّهَ} والفعل أصله لنتصدّقنّ فأدغم للتخفيف.

الإعراض، إعراضهم عن عهدهم وعن شكر نعمة ربهم.

{ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا } والضمير المستتر في (أعقبهم) للمذكور من أحوالهم، أو للبخل المأخوذ من بخلوا، فإسناد الإعقاب مجاز عقلي. أو يعود إلى اسم الله تعالى في قوله {مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ} أي جعل فعلهم ذلك سببا في بقاء النفاق في قلوبهم إلى موتهم، وذلك جزاء تمرّدهم على النفاق.

{ **إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ** } إلى يوم الحشر، لأنّه يوم لقاء الله للحساب، أو إلى يوم الموت لأنّ الموت لقاء الله كما في الحديث: " من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ".
{ **كَانُوا يَكْذِبُونَ** } للدلالة على أنّ الكذب كائن فيهم ومتمكّن منهم، و المضارع على تكرّره وتجدّده.
وفي هذا دلالة على وجوب الحذر من إحداث الأفعال الذميمة، فإنها تفسد الأخلاق الصالحة ويزداد الفساد تمكنا من النفس بطبيعة التولد الذي هو ناموس الوجود.

{ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ }[78]

استئناف لأجل التقرير، لأنّ كونهم عالمين بذلك معروف لدى كل سامع.
السر، ما يخفيه المرء من كلام وما يضمر في نفسه فلا يطلع عليه النّاس، وتقدّم في قوله تعالى {سِرًّا وَعَلاَنِيَةً} [البقرة:274]
النجوى، المحادثة بخفاء. أي يعلم ما يضمرونه في أنفسهم وما يتحادثون به حديث سرّ.
وإنّما عطفت النجوى على السرّ مع أنّه أعم منها لينبئهم باطلاعه على ما يتناجون به من الكيد والطعن.
{ **وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ** } تعميم، أي قوي علمه لجميع الغيوب.
الغيوب، جمع غيب وهو ما خفي وغاب عن العيان. وتقدم في قوله {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [البقرة:3]

{ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [79]

استئناف ابتدائي، نزلت بسبب حادث حدث في مدة نزول السورة. ذلك أنّ النبيء ﷺ حثّ النّاس على الصدقة فجاء عبد الرحمان بن عوف بأربعة آلاف درهم، وجاء عاصم بن عدي بأوسق كثيرة من تمر، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر، فقال المنافقون: ما أعطى عبد الرحمان وعاصم إلّا رياء، وأحبّ أبو عقيل أن يذكّر بنفسه ليُعطى من الصدقات، فأنزل الله فيهم هذه الآية.
اللمز، الطعن. وتقدم في هذه السورة في قوله {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ} [58].
{ **الْمُطَّوِّعِينَ** } أصله المتطوّعين، أدغمت التاء في الطاء لقرب مخرجيهما.
{ **وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ** } عُطف على المطّوّعين وهم منهم، اهتماما بشأنهم.
الجُهد (بضم الجيم) الطاقة. وأطلقت الطاقة على مسبّبها الناشئ عنها.
والمراد، لا يجدون سبيلا إلى إيجاد ما يتصدقون به إلا طاقتهم، أي جهد أبدانهم. وفيه ثناء على قوة البدن والعمل وأنّها تقوم مقام المال. وهذا أصل عظيم في اعتبار أصول الثروة العامة والتنويه بشأن العامل.

السخرية، الاستهزاء. يقال: سخر منه، أي حصلت السخرية له من كذا.
واختير المضارع في يلمزون ويسخرون للدلالة على التكرّر.
{ **سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ** } على سبيل المجاز الذي حسّنته المشاكلة لفعلهم، والمعنى أن الله عاملهم معاملة تشبه سخرية الساخر، على طريقة التمثيل، وذلك في أن أمر نبيه بإجراء أحكام المسلمين على ظاهرهم زمنا ثم أمره بفضحهم. ويجوز أن يكون إطلاق سخر الله منهم على طريقة المجاز المرسل، أي احتقرهم ولعنهم.
{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } عطف على الخبر، أي سخر منهم وقضى عليهم بالعذاب في الآخرة.

{ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [80]

روى المفسّرون عن ابن عباس أنّه لمّا نزلت بعض الآيات السابقة في أحوالهم إلى قوله {سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [79]. قال فريق منهم: استغفر لنا يا رسول الله، فوعدهم النبيء ﷺ بأن يستغفر للذين سألوه.
وقال الحسن: كانوا يأتون رسول الله فيعتذرون إليه، ويقولون: إن أردنا إلا الحسنى.
وعن الشعبي، وعروة، ومجاهد، وابن جبير، وقتادة أنّ عبد الله ابن أبي ابن سلول مرض فسأل ابنه عبد الله بن عبد الله النبيء ﷺ أن يستغفر له ففعل. فنزلت.
والذي يظهر لي أنّ رسول الله ﷺ لمّا أوحي إليه بآية سورة المنافقين، وفيه أن استغفاره وعدمه سواء في حقّهم. تأوّل ذلك على الاستغفار غير المؤكد، وبعثته رحمته بالنّاس وحرصه على هداهم وتكدّره من اعتراضهم عن الإيمان أن يستغفر للمنافقين استغفارا مكرّرا مؤكدا عسى أن يغفر الله لهم ويزول عنهم غضبه تعالى فيهديهم إلى الإيمان الحق. بما أن مخالطتهم لأحوال الإيمان ولو في ظاهر الحال قد يجر إلى تعلق هديه بقلوبهم بأقل سبب، فيكون نزول هذه الآية تأييسا من رضى الله عنهم، أي عن البقية الباقية منهم تأييسا لهم ولمن كان على شاكلتهم ممن أطّلع على دخائلهم.
{ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ**} صيغة الأمر مستعملة في معنى التسوية المراد منها لازمها وهو عدم الحذر من الأمر المباح، وعد علماء أصول الفقه في معاني صيغة الأمر معنى التسوية ومثلوه بقوله تعالى: {اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا} [الطور:16]
{ **أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ** } يجوزأن تكون صيغة النهي استعملت لمعنى التسوية لأنّها قارنت الأمر الدال على إرادة التسوية، ويكون المعنى: أمرك بالاستغفار لهم ونهيك عنه سواء، وذلك كناية عن كون الآمر والناهي ليس بمغير مراده فيهم سواء فعل المأمور أو فعل المنهي.
{ **سَبْعِينَ مَرَّةً** } غير مراد به المقدار من العدد، بل هذا الاسم من أسماء العدد التي تستعمل في معنى الكثرة.

وكان النبيء ﷺ يصلّي صلاة الجنازة على من مات من المنافقين لأنّ صلاة الجنازة من الاستغفار. ولمّا مات عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين بعد نزول هذه الآية وسأل ابنه عبد الله بن عبد الله النبيء ﷺ أن يصلي عليه، فصلى عليه كرامة لابنه، وقال عمر للنبيء ﷺ قد نهاك ربّك أن تصلي عليه، قال له على سبيل الرد " إنما خيرني الله " ، أي ليس في هذه الآية نهي عن الاستغفار، فكان لصلاته عليهم واستغفاره لهم حكمة غير حصول المغفرة بل لمصالح أخرى، ولعلّ النبيء ﷺ أخذ بأضعف الاحتمالين في صيغة {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ} وكذلك في لفظ عدد {سَبْعِينَ مَرَّةً} استقصاء لمظنة الرحمة على نحو ما أصّلناه في المقدمة التاسعة من مقدمات هذا التفسير.

{ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا** } وكفرهم بالله هو الشرك. وكفرهم برسوله جحدهم رسالته ﷺ.

وفي هذه الآية دليل على أنّ جاحد نبوءة محمد ﷺ يطلق عليه كافر.

{ **وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** } بسبب بعدهم عن التأمّل في أدلّة النبوءة، وعن الإنصاف في الاعتراف بالحق. فمن كان ذلك ديدنه طُبع على قلبه فلا يقبل الهدى.

{ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } [81]

هذه الآية تشير إلى ما حصل للمنافقين عند الاستنفار لغزوة تبوك فيكون المراد بالمخلّفين خصوص من تخلّف عن غزوة تبوك من المنافقين. ومناسبة وقوعها في هذا الموضع أن فرحهم بتخلّفهم قد قوي لمّا استغفر لهم النبيء ﷺ وظنّوا أنّهم استغفلوه فقضوا مأربهم ثم حصّلوا الاستغفار، ظنّا منهم بأنّ معاملة الله إيّاهم تجري على ظواهر الأمور.

فالمخلّفون هم الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك استأذنوا النبيء ﷺ فأذن لهم وكانوا من المنافقين فلذلك أطلق عليهم في الآية وصف المخلّفين بصيغة اسم المفعول لأنّ النبيء خلّفهم، وفيه إيماء إلى أنّه ما أذن لهم في التخلف إلّا لعلمه بفساد قلوبهم وأنّهم لا يغنون عن المسلمين شيئا كما قال تعالى { لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً} [47]. وذكر فرحهم دلالة على نفاقهم لأنّهم لو كانوا مؤمنين لكان التخلف نكدا عليهم ونغصا كما وقع للثلاثة الذين خلّفوا فتاب الله عليهم.

{ **بِمَقْعَدِهِمْ** } مصدر ميمي أي بقعودهم.

{ **خِلاَفَ** } لغة في خلف. يقال: أقام خلاف الحي بمعنى بعدهم. ومن نكتة اختيار لفظ خلاف دون خلف أنّه يشير إلى أنّ قعودهم كان مخالفة لإرادة رسول الله حين استنفر النّاس كلهم للغزو، ولذلك جعله بعض المفسّرين منصوبا على المفعول له، أي بمقعدهم لمخالفة أمر الرسول.

{ **وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } خصلة أخرى من خصال النفاق، لأنّ الله أمر بذلك في الآية المتقدّمة {وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [41].
{ **وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ** } خطاب بعضهم بعضا وكانت غزوة تبوك في وقت الحر حين طابت الظلال.
{ **قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا** } مستأنفة ابتدائية خطاب للنبيء ﷺ والمقصود قرع أسماعهم بهذا الكلام، والتذكير بما هو معلوم، تعريضا بتجهيلهم لأنّهم حذروا من حرّ قليل وأقحموا أنفسهم فيما يصير بهم إلى حرّ أشدّ.
{ **لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ** } تتميم، للتجهيل والتذكير، أي يقال لهم ذلك لو كانوا يفقهون الذكرى، ولكنهم لا يفقهون، فلا تجدي فيهم الذكرى والموعظة.

{ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [82]

تفريع كلام على الكلام السابق من ذكر فرحهم، ومن إفادة قوله { قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا }[81] من التعريض بأنّهم أهلها وصائرون إليها.
الضحك، هنا كناية عن الفرح، أو أريد ضحكهم فرحا لاعتقادهم ترويج حيلتهم على النبيء ﷺ إذ أذن لهم بالتخلف. و**البكاء**، كناية عن حزنهم في الآخرة.
فالأمر بالضحك وبالبكاء مستعمل في الإخبار بحصولهما قطعا إذ جعلا من أمر الله. والمعنى أن فرحهم زائل وأن بكاءهم دائم.
{ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } حال من ضميرهم، أي جزاء لهم عن أعمال نفاقهم، واختير الموصول في التعبير عنه لأنه أشمل مع الإيجاز.

{ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ }[83]

فرّع على الغضب عليهم وتهديدهم عقاب آخر لهم، بإبعادهم عن مشاركة المسلمين في غزواتهم.
{ **فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ** }، وفعل (رجع) يكون قاصرا ومتعدّيا مرادفا لأرجع. وهو هنا متعدّ، أي أرجعك الله.
وليس المراد الإرجاع الحقيقي كما جرت عليه عبارات أكثر المفسّرين وجعلوه الإرجاع من سفر تبوك، مع أنّ السورة كلّها نزلت بعد غزوة تبوك، بل المراد المجازي، أي تكرر الخوض معهم مرة أخرى.
الطائفة، الجماعة وتقدّمت في قوله تعالى {يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ} [آل عمران:154].
والمراد بالطائفة هنا جماعة من المخلّفين، أي إلى طائفة منهم يبتغون الخروج للغزو، فيجوز أن تكون هذه

الطائفة من المنافقين أرادوا الخروج للغزو طمعا في الغنيمة أو نحو ذلك. ويجوز أن يكون طائفة من المخلّفين تابوا وأسلموا فاستأذنوا للخروج للغزو. وعلى الوجهين يحتمل أنّ منعهم من الخروج للخوف من غدرهم إن كانوا منافقين أو لمجرد التأديب لهم إن كانوا قد تابوا و آمنوا.

والجمع بين النفي بـ {لَنْ} وبين كلمة {أَبَدًا} تأكيد لمعنى انتفاء خروجهم في المستقبل إلى الغزو مع المسلمين.

{ **إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ** } مستأنفة للتعداد عليهم والتوبيخ، أي أنّكم تحبّون القعود وترضون به.

{ **أَوَّلَ مَرَّةٍ** } هي غزوة تبوك التي تخلّفوا عنها.

{ **فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ** } أي لمّا اخترتم القعود لأنفسكم فاقعدوا الآن لأنّكم تحبون التخلّف.

{ **الْخَالِفِينَ** } جمع خالف وهو الذي يخلف الغازي في أهله وكانوا يتركون لذلك من لا غناء له في الحرب. فكونهم مع الخالفين تعيير لهم.

{ **وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ** } [84]

سبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري والترمذي من حديث عبد الله بن عباس عن عمر بن الخطاب قال: " لمّا مات عبد الله بن أبي بن سلول دعي له رسول الله ليصلّي عليه، فلمّا قام رسول الله وثبتُ إليه، فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أبيّ وقد قال يوم كذا وكذا، كذا وكذا، أعدّد عليه قوله، فتبسّم رسول الله وقال: "أخر عني يا عمر" فلمّا أكثرت عليه قال: " إني خيّرت فاخترت، لو أعلم أني لو زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها ". قال: فصلى عليه رسول الله ثم انصرف فلم يمكث إلّا يسيرا حتّى نزلت الآيتان من براءة {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا - إلى قوله - وَهُمْ فَاسِقُونَ}، قال: فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله واللهُ ورسوله أعلم ".

وفي رواية أخرى فلم يصل رسول الله على أحد منهم بعد هذه الآية حتّى قبض ﷺ، وإنّما صلّى عليه وأعطاه قميصه ليكفّن فيه إكراما لابنه عبد الله وتأليفا للخزرج.

{ **وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ** } لا تقف عليه عند دفنه لأنّ المشاركة في دفن المسلم حقّ على المسلم على الكفاية كالصلاة عليه، فترك النبيء ﷺ الصلاة عليهم وحضور دفنهم إعلان بكفر من ترك ذلك له.

{ **إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** } تعليلية، ولذلك لم تعطف وقد أغنى وجود (إنّ) في أوّلها عن فاء التفريع كما هو الاستعمال.

{ **وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ** } الفسق مراد به الكفر فالتعبير ب {فَاسِقُونَ} عوض (كَافِرُونَ) مجرد تفنّن.

والأحسن أن يفسر الفسق هنا بالخروج عن الإيمان بعد التلبّس به، أي بصورة الإيمان فيكون المراد من

الفسق معنى أشنع من الكفر.

{ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ }[85]

الخطاب للنبي ﷺ والمقصود به المسلمون. والجملة معطوفة على جملة النهي عن الصلاة عليهم.

أعلم الله المسلمين أن تلك الأموال والأولاد وإن كانت في صورة النعمة فهي لهم نقمة وعذاب، وأن الله عذبهم بها في الدنيا بأن سلبهم طمأنينة البال عليها لأنهم لما اكتسبوا عداوة الرسول والمسلمين كانوا يحذرون أن يغري الله رسوله بهم فيستأصلهم.

وقد تقدّم نظير هذه الآية في هذه السورة عند ذكر شحهم بالنفقة في قوله {قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا} [53] الآيتين، فأفيد هنالك عدم انتفاعهم بأموالهم وأنّها عذاب عليهم في الدنيا، ثم أعيدت الآية بغالب ألفاظها هنا تأكيدا للمعنى الذي اشتملت عليه إبلاغا في نفي الفتنة والحيرة عن الناس.

ولكن هذه الآية خالفت السابقة بأمور:

أحدها، أنّ هذه جاء العطف في أوّلها بالواو والأخرى عطفت بالفاء. ومناسبة التفريع هنالك تقدم بيانها، ومناسبة عدم التفريع هنا أنّ معنى هذه الآية ليس مفرّعا على معنى الجملة المعطوف عليها ولكن بينهما مناسبة فقط.

ثانيهما، أن هذه الآية عطف فيها الأولاد على الأموال بدون إعادة حرف النفي، وفي الآية السالفة أعيدت (لا) النافية، ووجه ذلك أن ذكر الأولاد في الآية السالفة لمجرد التكملة والاستطراد إذ المقام مقام ذم أموالهم إذ لم ينتفعوا بها فلمّا كان ذكر الأولاد تكملة كان شبيها بالأمر المستقل فأعيد حرف النفي في عطفه، بخلاف مقام هذه الآية فإنّ أموالهم وأولادهم معا مقصود تحقيرهما في نظر المسلمين.

ثالثهما، أنّه جاء هنا قوله {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ} بإظهار {أَنْ} دون لام، وفي الآية السالفة {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ} [55] بذكر لام التعليل وحذف (أَنْ) بعدها.

رابعها: أنّه جاء في هذه الآية {أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا} وجاء في الآية السالفة {فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [55]، ونكتة ذلك أنّ الآية السالفة ذكرت حالة أموالهم في حياتهم فكانت الحاجة إلى ذكر الحياة. وهنا ذكرت حالة أموالهم بعد مماتهم لقوله {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا} [84] فقد صاروا إلى حياة أخرى وانقطعت حياتهم.

وبقية تفسير هذه الآية كتفسير سالفتها.

{ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا

نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ }[86]

هذا عطف غرض على غرض قصد به الانتقال إلى تقسيم فرق المتخلّفين عن الجهاد من المنافقين وغيرهم وأنواع معاذيرهم ومراتبها في القبول. دعا إليه الإغلاظ في تقريع المتخلّفين عن الجهاد نفاقا وتخذيلا للمسلمين، ابتداء من قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ} [38] ثم قوله {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا} [42] وكل ذلك مقصود به المنافقون.

{ **وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ** } لأجل كون هذه الآية غرضا جديدا ابتدئت بذكر نزول سورة داعية إلى الإيمان والجهاد. والمراد بها سورة براءة، وإطلاق اسم السورة عليها في أثنائها قبل إكمالها مجاز متسع فيه، كإطلاق الكتاب على القرآن في أثناء نزوله في نحو قوله {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [البقرة:2]، فهذا الوصف وصف مقدّر شبيه بالحال المقدّرة.

{ **أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ** } ولماّ كانت السورة ألفاظا وأقوالا صح بيانها ببعض ما حوته وهو الأمر بالإيمان والجهاد، فقوله {أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ} تفسير للسورة. وليس المراد لفظ {آمِنُوا} وما عطف عليه بل ما يراد فهما مثل قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [38] وقوله {لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ} [44].

{ **اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ** } ابتدئي بذكر المتخلّفين من المنافقين.

الطول، السعة في المال، قال تعالى {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ} [النساء:25]. والاقتصار على الطول يدلّ على أنّ المراد بهم هنا من له قدرة على الجهاد بصحة البدن. فبوجود الطول انتفى عذرهم، إذ من لم يكن قادرا ببدنه لا ينظر إلى كونه ذا مال.

{ **وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ** } بيان ما استأذنوا فيه وهو القعود. وفي نظمه إيذان بتلفيق معذرتهم وأنّ الحقيقة هي رغبتهم في القعود.

{ **رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ** }[87]

استئناف قصد منه التعجيب من دناءة نفوسهم وقلّة رجلتهم بأنّهم رضوا لأنفسهم بأن يكونوا تبعا للنساء. وفي اختيار فعل {رَضُوا} إشعار بأنّ ما تلبّسوا به من الحال من شأنه أن يتردّد العاقل في قبوله.

الخوالف، جمع خالفة وهي المرأة التي تتخلّف في البيت بعد سفر زوجها فإن سافرت معه فهي الظعينة.

الطبع، تمثيل لحال قلوبهم في عدم قبول الهدى بالإناء أو الكتاب المختوم. والطبع مرادف الختم.

{ **فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ** } انعدام علمهم بالأمور التي يختصّ بعلمها أهل الأفهام، وهو العلم المعبّر عنه بالفقه، أي إدراك الأشياء الخفيّة. وجيء في إسناد نفي الفقاهة عنهم بالمسند الفعلي للدلالة على تقوّي الخبر وتحقيق نسبته إلى المخبر عنهم وتمكنه منهم.

{ لَكِنْ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ }[88]

حرف الاستدراك يؤذن بأنّ مضمون هذا الكلام نقيض مضمون الكلام الذي قبله أصلا وتفريعا.

فلمّا كان قعود المنافقين عن الجهاد مسبّبا على كفرهم بالرسول ﷺ، كان المؤمنون على الضدّ من ذلك.

وابتدئ وصف أحوالهم بوصف حال الرّسول لأنّ تعلّقهم به واتّباعهم إيّاه هو أصل كمالهم وخيرهم.

{ **بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ** } مقابل قوله { اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ } [86]

{ **وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ** } مقابل قوله { وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ } [87].

وقد مضى الكلام على الجهاد بالأموال عند قوله {انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ} [41]

{ **وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** } تعريض بأنّ الذين لم يجاهدوا دون عذر ليسوا بمؤمنين.

{ **وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ** } خبر عن الذين آمنوا، أي على أنّها من أوصافهم وأحوالهم. والإتيان باسم الإشارة لإفادة أن استحقاقهم الخيرات والفلاح كان لأجل جهادهم.

{ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [89]

استئناف بياني {وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الْخَيْرَاتُ} [88]

الإعداد، التهيئة. وفيه إشعار بالعناية والتهمّم بشأنهم. وتقدّم القول في نظير هذه الآية في قوله قبل { وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً} [72].

{ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنْ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }[90]

المراد بالمعذّرين فريق من المؤمنين الصادقين من الأعراب، كما تدّل عليه المقابلة بقوله {وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}. وعلى هذا المعنى فسّر ابن عباس، ومجاهد، وكثير. وجعلوا من هؤلاء غِفَارا، وخالفهم قتادة فجعلهم المعتذرين كذبا وهم بنو عامر رهط عامر بن الطفيل، قالوا للنبيء ﷺ إن خرجنا معك أغارت أعراب طيء على بيوتنا. ومن المعذّرين الكاذبين أسد، وغطفان.

{ **الْمَعَذِّرُونَ** } وعلى الوجهين في التفسير يختلف التقدير، فإن كانوا المحقّين في العذر فالتقدير أنّ أصله **المعتذرون**. وإن كانوا الكاذبين في عذرهم فالتقدير، أنه اسم فاعل من عذر بمعنى **تكلّف العذر**.

ويجوز أن يكون اختيار صيغة المعذّرين من لطائف القرآن لتشمل الذين صدقوا في العذر والذين كذبوا فيه.

الأعراب، اسم جمع يقال في الواحد أعرابي (بياء النسب)، وهم سكّان البادية.

{ **وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ** } وهذا فريق آخر من الأعراب، {كَذَبُوا} بالتخفيف، أي كانوا كاذبين. والمراد أنهم كذبوا في الإيمان الذي أظهروه من قبل، ويحتمل أنّهم كذبوا في وعدهم النصر ثم قعدوا دون اعتذار بحيث لم يكن تخلفهم مترقّبا، لأنّ الذين اعتذروا قد علم النبيء ﷺ أنّهم غير خارجين معه بخلاف الآخرين فكانوا محسوبين في جملة الجيش. وتخلّفهم أشد إضرار لأنّه قد يفلّ من حدّة كثير من الغزاة.

{ **سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } مستأنفة لابتداء وعيد. وضمير {مِنْهُمْ} يعود إلى المذكورين فهو شامل للذين كذبوا الله ورسوله ولمن كان عذره ناشئا عن نفاق وكذب. وتنكير (عذاب) للتهويل، والمراد به عذاب جهنم.

{ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }[91]

استيفاء لأقسام المخلّفين، من ملوم ومعذور من الأعراب أو من غيرهم.

وإعادة حرف النفي في عطف الضعفاء والمرضى لتوكيد نفي المؤاخذة عن كل فريق بخصوصه.

الضعفاء، جمع ضعيف، وهو وهن القوّة البدنية من غير مرض.

المرضى، جمع مريض. والمرض تغيّر النظام المعتاد بالبدن بسبب اختلال يطرأ في بعض أجزاء المزاج.

الحرج، الضيق ويراد به ضيق التكليف، أي النهي.

النصح، العمل النافع للمنصوح، وتقدّم عند قوله {لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ} [الأعراف :79] وأطلق هنا على الإيمان والسعي في مرضاة الله ورسوله، والامتثال والسعي لما ينفع المسلمين، فإنّ ذلك يشبه فعل الموالي الناصح لمنصوحه.

{ **مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ** } واقعة موقع التعليل لنفي الحرج عنهم وهذه الجملة نظمت نظم الأمثال. والمعنى، ليس على الضعفاء ولا على من عطف عليهم حرج إذا نصحوا لله ورسوله، لأنّهم محسنون غير مسيئين. وما على المحسنين من سبيل، أي مؤاخذة أو معاقبة. والمحسنون الذين فعلوا الإحسان وهو ما فيه النفع التام.

السبيل، أصله الطريق، ويطلق على وسائل وأسباب المؤاخذة باللوم والعقاب، ونظيره قوله تعالى {فَإِنْ

أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً} [النساء:34] وقوله {فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً} [النساء:90].
{ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل والواو اعتراضية، أي شديد المغفرة ومن مغفرته أن لم يؤاخذ أهل الأعذار بالقعود عن الجهاد. شديد الرحمة بالنّاس ومن رحمته أن لم يكلّف أهل الإعذار ما يشقّ عليهم.

{ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ }[92]

عطف على {الضُّعَفَاءِ} و{الْمَرْضَى} . وإعادة حرف النفي بعد العاطف للنكتة المتقدّمة هنالك.
الحمل، يطلق على إعطاء ما يُحمل عليه، أي ما يركبونه ويحملون عليه سلاحهم ومؤنهم من الإبل.
{ **لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ** } إمّا حال من ضمير المخاطب في {أَتَوْكَ} وإمّا بدل اشتمال من فعل {أَتَوْكَ} لأنّ إتيانهم لأجل الحمل يشتمل على إجابة، وعلى منع.
{ **تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** } جواب {إِذَا}، والمجموع صلة الذين.
التولّي، الرجوع. وتقدّم عند قوله تعالى {مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ} [البقرة:142].
الفيض والفيضان، خروج الماء ونحوه من قراره ووعائه، ويسند إلى المائع حقيقة. يقال: فاض الوادي، وفاض الإناء. ومنه فاضت العين دمعا وهو أبلغ من فاض دمعهما، لأنّ العين جعلت كأنّها كلها دمع فائض. وقد تقدّم في قوله تعالى {تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ} [المائدة:83].
{ **حَزَنًا** } نصب على المفعول لأجله.
{ **أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** } مجرور بلام جرّ محذوف، أي حزنوا لأنّهم لا يجدون ما ينفقون.
والآية نزلت في نفر من الأنصار سبعة، وقيل: فيهم من غير الأنصار، واختلف أيضا في أسمائهم بما لا حاجة إلى ذكره، ولقّبوا بالبكّائين لأنّهم بكوا لمّا لم يجدوا عند رسول الله ﷺ الحُملان.
وقيل: نزلت في أبي موسى الأشعري ورهط من الأشعريين أتوا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك يستحملونه فلم يجد لهم حمولة وصادفوا ساعة غضب من النبيء ﷺ فحلف أن لا يحملهم، ثم جاءه نهب إبل فدعاهم وحملهم وقالوا: استغفلنا رسولَ الله يمينَه لا نفلح أبدا، فرجعوا وأخبروه فقال: " ما أنا حملتكم ولكنّ الله حملكم، وإنّي والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلّا كفّرت عن يميني وفعلت الذي هو خير". والظاهر أن هؤلاء غير المعنيين في هذه الآية لأن الأشعريين قد حملهم النبيء ﷺ.

{ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ }[93]

لمّا نفت الآيتان أن يكون سبيل على المؤمنين الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون والذين لم يجدوا حمولة، حصرت هذه الآية السبيل في كونه على الذين يستأذنون في التخلف وهم أغنياء، وهو انتقال بالتخلّص إلى العودة إلى أحوال المنافقين.

وفي هذا الحصر تأكيد للنفي السابق، أي لا سبيل عقاب إلّا على الذين يستأذنونك وهم أغنياء. والمراد بهم المنافقون بالمدينة الذين يكرهون الجهاد، إذ لا يؤمنون بما وعد الله عليه من الخيرات وهم أولو الطول.

{ **إِنَّمَا السَّبِيلُ** }، السبيل حقيقته الطريق. ومرّ في قوله {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} [91]، مستعار لمعنى المؤاخذة بالتبعة، شبّه المؤاخذة بالطريق. والمعنى، ليست التبعة والمؤاخذة إلّا على الذين يستأذنوك وهم أغنياء، الذين أرادوا أن يتخلّفوا عن غزوة تبوك ولا عذر لهم.

{ **رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ** } أي بعثهم على ذلك رضاهم بأن يكونوا مع الخوالف من النساء. وقد تقدّم القول في نظيره آنفا.

{ **وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ** } وأسند الطبع على قلوبهم إلى الله في هذه الآية بخلاف ما في الآية السابقة {وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [87] لعلّه للإشارة إلى أنهّ طبع أنشأه الله في قلوبهم لغضبه عليهم فحرمهم النجاة من الطبع الأصلي وزادهم عماية.

{ **فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ** } لنفي أصل العلم عنهم، أي يكادون أن يساووا العجماوات.

{ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [94]

استئناف ابتدائي، وضمير {يَعْتَذِرُونَ} عائد إلى أقرب معاد وهو قوله {وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [90] فإنّهم فريق من المنافقين، فهم الذين اعتذروا بعد رجوع النّاس من غزوة تبوك وجعل المسند فعلا مضارعا لإفادة التجدّد والتكرير.

والخطاب للمسلمين لأنّ المنافقين يقصدون بأعذارهم إلى النبيء ﷺ ويعيدونها مع جماعات المسلمين.

{ **لاَ تَعْتَذِرُوا** } النهي مستعمل في التأييس.

{ **لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ** } في موضع التعليل للنهي عن الاعتذار لعدم جدوى الاعتذار. يقال: آمن له إذا صدّقه. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ } [61]

{ **قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ** } تعليل لنفي تصديقهم، أي قد نبّأنا الله من أخباركم بما يقتضي تكذيبكم.

{ **مِنْ** } اسم بمعنى بعض، أو هي صفة لمحذوف، تقديره، قد نبأنا الله اليقين من أخباركم.

{ **وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ** } أي لا فائدة في اعتذاركم فإن خشيتم المؤاخذة فاعملوا الخير للمستقبل فسيرى الله عملكم ورسوله إن أحسنتم. فالمقصود فتح باب التوبة لهم، والتنبيه إلى المكنة من استدراك أمرهم. وفي ذلك تهديد بالوعيد إن لم يتوبوا.

{ **ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** } ، أي تصيرون بعد الموت إلى الله.

الردّ، بمعنى الإرجاع، كما في قوله تعالى {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ} [الأنعام:62]. والمراد به هنا مصير النفوس إلى عالم الخلد الذي لا تصرّف فيه لغير الله. تشبيها بردّ شيء إلى مقرّه أو إرجاعه إلى مالكه.

الغيب، ما غاب عن علم النّاس. و**الشهادة**، المشاهدة.

والعدول عن أن يقال: ثمّ تردون إليه، لما في الإظهار من التنبيه على أنّه لا يعزب عنه شيء من أعمالهم، زيادة في الترغيب والترهيب، ليعلموا أنّه لا يخفى على الله شيء.

{ **فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** } الإنباء: الإخبار. وما كنتم تعملون: علم كل عمل عملوه. واستعمل في لازم معناه، وهو المجازاة على كل ما عملوه، أي فتجدونه عالما بكل ما عملتموه. وهو كناية، لأنّ ذكر المجازاة في مقام الإجرام والجناية لازم لعموم علم ملك يوم الدين بكل ما عملوه.

{ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }[95]

الجملة مستأنفة ابتدائية تعداد لأحوالهم. ومعناها ناشئ عن مضمون جملة {لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ} [94] تنبيها على أنهم لا يرعوون عن الكذب ومخادعة المسلمين، فإذا قيل لهم {لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ} [94] حلفوا على أنّهم صادقون ترويجا لخداعهم. وهذا إخبار بما سيلاقي به المنافقون المسلمين قبل وقوعه وبعد رجوع المسلمين من الغزو.

الانقلاب، الرجوع، وتقدّم في قوله {انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} [آل عمران:144]

{ **لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ** } صرّح بعلّة الحلف هنا، أنّه لقصد إعراض المسلمين عنهم، أي عن عتابهم وتقريعهم، للإشارة إلى أنّهم لا يقصدون تطييب خواطر المسلمين ولكن أرادوا التملّص من مسبّة العتاب ولذعه. ولذلك قال في الآيتين الأخريين {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ }[62] و{يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ} [96]، لأنّ ذلك كان قبل الخروج إلى الغزو فلمّا فات الأمر وعلموا أنّ حلفهم لم يصدّقه المسلمون صاروا يحلفون لقصد أن يعرض المسلمون عنهم.

{ **فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ** } ، أي فإذا كانوا يرومون الإعراض عنهم فأعرضوا عنهم تماماً.

وهذا ضرب من التقريع فيه إطماع للمغضوب عليه الطالب، بأنّه أجيبت طلبته، حتّى إذا تأمل وجد ما طمع

فيه قد انقلب عكس المطلوب فصار يأسا، لأنّهم أرادوا الإعراض عن المعاتبة بالإمساك عنها واستدامة معاملتهم معاملة المسلمين، فإذا بهم يواجهون بالإعراض عن مكالمتهم ومخالطتهم.

{ **إِنَّهُمْ رِجْسٌ** } تعليل للأمر بالإعراض.

الرجس، الخبث. والمراد تشبيههم بالرجس في الدناءة ودنس النفوس. فهو رجس معنوي.

{ **وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** }

المأوى، المصير والمرجع. و {**جَزَاءً**} حال من { **جَهَنَّمُ** } ، أي مجازاة لهم على ما كانوا يعملون.

{ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } [96]

بدل اشتمال من جملة {سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ} [95] لأنّهم إذا حلفوا لأجل أن يعرض عنهم المسلمون فلا يلومونهم، فإنّ ذلك يتضمن طلبهم رضى المسلمين.

وقد فرّع الله على ذلك أنّه إن رضي المسلمون عنهم وأعرضوا عن لومهم فإنّ الله لا يرضى عن المنافقين.

وهذا تحذير للمسلمين من الرضى عن المنافقين بطريق الكناية إذ قد علم المسلمون أنّ ما لا يرضي الله لا يكون للمسلمين أن يرضوا به.

{ **الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** } هم هؤلاء المنافقون. والعدول عن الإتيان بضمير (هم) إلى التعبير بصفتهم للدلالة على ذمّهم وتعليل عدم الرضى عنهم.

{ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[97]

استئناف ابتدائي رجع به الكلام إلى أحوال المعذّرين من الأعراب والذين كذبوا الله ورسوله منهم، وما بين ذلك استطراد دعا إليه قرن الذين كذبوا الله ورسوله في الذكر مع الأعراب. فلمّا تقضّى الكلام على أولئك تخلّص إلى بقية أحوال الأعراب. ومن وراء ذلك تنبيه المسلمين لأحوال الأعراب لأنّهم لبعدهم عن الاحتكاك بهم والمخالطة معهم قد تخفى عليهم أحوالهم ويظنّون بجميعهم خيرا.

(**أشد**) و(**أجدر**)، اسما تفضيل ولم يذكر معهما ما يدل على مفضّل عليه.

فيجوز أن يكونا على ظاهرهما فيكون المفضل عليه أهل الحضر، أي كفّار ومنافقي المدينة. وهذا هو الذي تواطأ عليه جميع المفسرين.

وازديادهم في الكفر والنفاق هو بالنسبة لكفّار ومنافقي المدينة. ومنافقوهم أشدّ نفاقا من منافقي المدينة.

وذلك أن غلظ القلوب وجلافة الطبع تزيد النفوس السيئة وحشة ونفورا. فإنّ الأعراب لنشأتهم في البادية

كانوا بعداء عن مخالطة أهل العقول المستقيمة وكانت أذهانهم أبعد عن معرفة الحقائق وأملأ بالأوهام، وهم لبعدهم عن مشاهدة أنوار النبيء ﷺ وأخلاقه وآدابه وعن تلقي الهدى صباح مساء، أجهل بأمور الديانة وما به تهذيب النفوس. ولذلك قال عثمان لأبي ذر لمّا عزم على سكنى الربذة:" تعهّد المدينة كيلا ترتد أعرابيا ".
فأمّا في الأخلاق التي تحمد فيها الخشونة والغلظة والاستخفاف بالعظائم، مثل الشجاعة والصراحة وإباء الضيم والكرم فإنّها تكون أقوى في الأعراب بالجبلّة، ولذلك يكونون أقرب إلى الخير إذا اعتقدوه وآمنوا به.
ويجوز أن يكون {**أَشَدُّ**} و {**أَجْدَرُ**} مسلوبي المفاضلة مستعملين لقوة الوصفين في الموصوفين بهما. فالمعنى أنّ كفرهم شديد التمكّن من نفوسهم ونفاقهم كذلك، من غير إرادة أنّهم أشد كفرا ونفاقا من كفّار أهل المدينة ومنافقيها.
الأجدر، الأحق. والجدارة، الأولوية. وإنما كانوا أجدر بعدم العلم بالشريعة لأنّهم يبعدون عن مجالس التذكير ومنازل الوحي، ولقلة مخالطتهم أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ.
الحدود، المقادير والفواصل بين الأشياء. والمعنى أنّهم لا يعلمون فواصل الأحكام وضوابط تمييز متشابهها.
وفي هذا الوصف يظهر تفاوت أهل العلم والمعرفة. وهو المعبّر عنه في اصطلاح العلماء بالتحقيق أو بالحكمة، المفسّرة بمعرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه، فزيادة قيد (على ما هي عليه) للدلالة على التمييز بين المختلطات والمتشابهات والخفيّات.
{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تذييل لهذا الإفصاح عن دخيلة الأعراب وخلقهم، أي عليم بهم وبغيرهم، وحكيم في تمييز مراتبهم.

{ وَمِنْ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }[98]

هذا فريق من الأعراب يظهر الإيمان وينفق في سبيل الله. وإنّما يفعلون ذلك تقيّة وخوفا من الغزو، أو حبّا للمَحْمدة وسلوكا في مسلك الجماعة، وهم يبطنون الكفر وينتظرون الفرصة التي تمكّنهم من الانقلاب على أعقابهم. وهؤلاء وإن كانوا من جملة منافقي الأعراب فتخصيصهم بالتقسيم هنا منظور فيه إلى ما اختصّوا به من أحوال النفاق.
{ **وَمِنْ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا** } ومعنى {**يَتَّخِذُ**} يعدّ ويجعل.
المغرم، ما يدفع من المال قهرا وظلما، فهؤلاء يؤتون الزكاة وينفقون في سبيل الله ويعدّون ذلك كالاتاوات المالية والرزايا يدفعونها تقيّة. ومن هؤلاء من امتنعوا من إعطاء الزكاة بعد وفاة الرّسول ﷺ.
التربص، الانتظار. و**الدوائر**، جمع دائرة وهي تغيّر الحالة من استقامة إلى اختلال. وتقدّم الكلام عليها عند

قوله تعالى { يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ } [المائدة:52].
فالمعنى أنّهم ينتظرون ضعفكم وهزيمتكم، أو ينتظرون وفاة نبيّكم فيظهرون ما هو كامن فيهم من الكفر. وقد أنبأ الله بحالهم التي ظهرت عقب وفاة النبيء ﷺ، وهم أهل الردّة من العرب.
{ **عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ** } دعاء عليهم وتحقير، ولذلك فصلت. والدعاء من الله على خلقه تكوين وتقدير مشوب بإهانة، لأنّه لا يعجزه شيء، فلا يحتاج إلى تمنّي ما يريده.
وقد كانت على الأعراب دائرة السوء إذ قاتلهم المسلمون في خلافة أبي بكر عام الردّة وهزموهم فرجعوا خائبين.
وإضافة {دَائِرَةُ} إلى {السَّوْءِ} من الإضافة إلى الوصف اللازم. إذ الدائرة لا تكون إلّا في السوء.
{ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** } تذييل، أي سميع ما يتناجون به وما يدبرونه من الترصّد، عليم بما يبطنونه ويقصدون إخفاءه.

{ وَمِنْ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [99]

هؤلاء هم المؤمنون من الأعراب وفّاهم الله حقّهم من الثناء عليهم، وهم أضداد الفريقين الآخرين المذكورين في قوله { الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا } [97] وقوله { وَمِنْ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا } [98].
قيل هم (**بنو مُقَرّن من مزينة**) الذين نزل فيهم قوله تعالى {وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ} [92] كما تقدّم. ومن هؤلاء عبد الله ذو البجادين المزَني (ابن مغفل).
{ **قُرُبَاتٍ** } (بضم القاف وضم الراء) جمع قرْبة (بسكون الراء). وهي تطلق بمعنى المصدر، أي القرب وهو المراد هنا، أي يتخذون ما ينفقون تقرّبا عند الله. وجمع قربات باعتبار تعدد الإنفاق. قال تعالى {يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ} [الإسراء:57]. فـ {قُرُبَاتٍ} هنا مجاز مستعمل في رضى الله ورفع الدرجات في الجنة، فلذلك وصفت ب {عِنْدَ} الدالة على مكان الدنو.
{ **عِنْدَ اللَّهِ** } مجاز في التشريف والعناية، فإنّ الجنة تشبه بدار الكرامة عند الله.
{ **وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ** } دعواته. وأصل الصلاة الدعاء. وكان النبيء ﷺ يصلّي على كل من يأتيه بصدقته وإنفاقه امتثالا لما أمره الله به {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ} [103]. وجاء في حديث ابن أبي أوفى أنّه لما جاء بصدقته قال رسول الله ﷺ: " اللّهم صل على آل أبي أوفى ".
{ **أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ** } مستأنفة، مسوقة مساق البشارة لهم بقبول ما رجوه.
{ **سَيُدْخِلُهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ** } واقعة موقع البيان لجملة {إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ} ، لأنّ القربة عند الله هي الدرجات العلى ورضوانه، وذلك من الرحمة. والقربة عند صلوات الرسول ﷺ إجابة صلاته. والصلاة التي يدعو لهم

طلب الرحمة، فمآل الأمرين هو إدخال الله إيّاهم في رحمته. وأوثر فعل (**الإدخال**) هنا لأنّه المناسب للكون في الجنّة.

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل مناسب لما رجوه وما استجيب لهم. أي غفور لما مضى من كفرهم، رحيم بهم يفيض النعم عليهم.

{ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }[100]

عقّب ذكر الفرق المتلبّسة بالنقائص على تفاوت بينها في ذلك، بذكر القدوة الصالحة والمثل الكامل في الإيمان والفضائل والنصرة في سبيل الله، ليحتذي متطلّب الصلاح حذوهم، ولئلّا يخلو تقسيم القبائل الساكنة بالمدينة وحواليها وبواديها، عن ذكر أفضل الأقسام، تنويها به. وبهذا تم استقراء الفرق وأحوالها.

{ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ** } المقصود بالسبق، السبق في الإيمان، لأنّ سياق الآيات قبلها في تمييز أحوال المؤمنين الخالصين، والكفّار الصرحاء، والكفار المنافقين، فتعيّن أن يراد الذين سبقوا غيرهم من صنفهم، فالسابقون من المهاجرين هم الذين سبقوا بالإيمان قبل أن يهاجر النبيء ﷺ إلى المدينة، والسابقون من الأنصار هم الذين سبقوا قومهم بالإيمان، وهم أهل العقبتين الأولى والثانية.

وقد اختلف المفسرون في تحديد المدّة التي عندها ينتهي وصف السابقين من المهاجرين والأنصار معا، فقال أبو موسى وابن المسيّب وابن سيرين وقتادة: من صلى القبلتين. وقال عطاء: من شهد بدرا. وقال الشعبي: من أدركوا بيعة الرضوان. وهذه الأقوال الثلاثة تعتبر الواو في قوله {وَالأَنصَارِ} للجمع في وصف السبق لأنّه متّحد بالنسبة إلى الفريقين. وفي (أحكام ابن العربي) ما يشبه أن رأيه أنّ السابقين أصحاب العقبتين، وذلك يخصّ الأنصار. وعن الجبائي: أن السابقين من أسلموا قبل هجرة النبيء ﷺ إلى المدينة.

الأنصار، جمع نصير، وهو الناصر. والأنصار بهذا الجمع اسم غلب على الأوس والخزرج الذين آمنوا بالنبيء ﷺ في حياته أو بعد وفاته وعلى أبنائهم إلى آخر الزمان. دعاهم النبيء ﷺ بهذا الوصف، فيطلق على أولاد المنافقين منهم الذين نشأوا في الإسلام كولد ابن صيّاد.

وقرأ يعقوب {وَالأَنصَارُ} بالرفع، فيكون عطفا على وصف {وَالسَّابِقُونَ} ويكون المقسم إلى سابقين وغيرهم خصوص المهاجرين.

{ **وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ** } بقيّة المهاجرين وبقيّة الأنصار، اتّبعوهم إلى الايمان. ممّن آمنوا بعد فتح مكّة ومن آمنوا من المنافقين بعد مدّة.

الإحسان، هو العمل الصالح. والباء للملابسة. وإنّما قيد هذا الفريق خاصة لأنّ السابقين الأولين ما بعثهم

على الإيمان إلّا الإخلاص، فهم محسنون، وأمّا الذين اتبعوهم فمن بينهم من آمن اعتزازا بالمسلمين حين صاروا أكثر أهل المدينة. ومنهم من آمن وفي إيمانه ضعف وتردّد، مثل المؤلفة قلوبهم، فربّما نزل بهم إلى النفاق وربما ارتقى بهم إلى الإيمان الكامل، وهم المذكورون مع المنافقين في قوله تعالى {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [الأحزاب:60] فإذا بلغوا رتبة الإحسان دخلوا في وعد الرضى من الله وإعداد الجنات.

{ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ } رضى الله عنهم، عنايته بهم وإكرامه إيّاهم ودفاعه أعداءهم، وأمّا رضاهم عنه فهو كناية عن كثرة إحسانه إليهم حتّى رضيت نفوسهم لما أعطاهم ربّهم.

{ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }

الإعداد، التهيئة. وفيه إشعار بالعناية والكرامة. وتقدم القول في معنى جري الأنهار.

وقد خالفت هذه الآية عند معظم القراء أخواتها فلم تذكر فيها (من) مع (تحتها) في غالب المصاحف وفي رواية جمهور القراء، فتكون خالية من التأكيد إذ ليس لحرف (من) معنى مع أسماء الظروف إلا التأكيد. ويكون خلو الجملة من التأكيد لحصول ما يغني عنه من إفادة التقوي بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، ومن فعل (أعدّ) المؤذن بكمال العناية فلا يكون المُعدّ إلّا أكمل نوعه.

وثبتت (من) في مصحف مكّة، وهي قراءة ابن كثير المكي، فتكون مشتملة على زيادة مؤكدين.

{ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ } [101]

كانت الأعراب الذين حول المدينة قد خلصوا للنبي ﷺ وأطاعوه وهم: (جهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، ولحيان، وعصية)، فأعلم الله نبيّه ﷺ أنّ في هؤلاء منافقين لئلا يغتر بكلّ من يُظهر له المودّة.

وكانت المدينة قد خلُص أهلها للنبيء ﷺ وأطاعوه فأعلمه الله أنّ فيهم بقيّة مردوا على النفاق لأنّه تأصل فيهم من وقت دخول الإسلام بينهم.

{ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ } تقديره، ومن أهل المدينة جماعة مردوا.

مرد، على الأمر مرن عليه ودرب به، ومنه الشيطان المارد، أي في الشيطنة.

{ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ } أشيرإلى أنّ هذا الفلّ الباقي من المنافقين قد أراد الله الاستيثار بعلمه ولم يطلع عليهم رسوله ﷺ كما أطلعه على كثير من المنافقين من قبل. وإنّما أعلمه بوجودهم على الإجمال لئلّا يغترّ بهم المسلمون. والخبر مستعمل في الوعيد، كقوله {وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ} [94].

{ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ } والعذاب الموصوف بمرّتين عذاب في الدنيا لقوله بعده { ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ }.

وقد تحيّر المفسّرون في تعيين المراد من المرّتين. وحملوه كلهم على حقيقة العدد. وذكروا وجوها لا ينشرح لها الصدر. والظاهر عندي أنّ العدد مستعمل لمجرد قصد التكرير المفيد للتأكيد، كقوله { ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ} [الملك:4]، أي تأمل تأملا متكرّرا. ومنه قول العرب: لبيك وسعديك، فأسم التثنية نائب مناب إعادة اللفظ. والمعنى، سنعذبهم عذابا شديدا متكرّرا مضاعفا، كقوله {يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}[الأحزاب:30].

{ **ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ** } هو عذاب جهنم في الآخرة.

{ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [102]

الأظهر أنّ {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا} عطف على {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ} [101]، أي وممن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة آخرون أذنبوا بالتخلّف فاعترفوا بذنوبهم بالتقصير.

{ **اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ** } إيجاز لأنّه يدلّ على أنّهم أذنبوا واعترفوا بذنوبهم ولم يكونوا منافقين، لأنّ التعبير بالذنوب بصيغة الجمع يقتضي أنّها أعمال سيئة في حالة الإيمان، وكذلك التعبير عن ارتكاب الذنوب بخلط العمل الصالح بالسيئ.

وكان من هؤلاء جماعة منهم (الجِد بن قيس، وكردم، وأرس بن ثعلبة، ووديعة ابن حزام، ومرداس، وأبو قيس، وأبو لُبابة) في عشرة نفر اعترفوا بذنبهم في التخلّف عن غزوة تبوك وتابوا إلى الله وربطوا أنفسهم في سواري المسجد النبوي أيامّا حتّى نزلت هذه الآية في توبة الله عليهم.

الاعتراف، افتعال من عرف. وهو للمبالغة في المعرفة، ولذلك صار بمعنى الإقرار بالشيء وترك إنكاره، فالاعتراف بالذنب كناية عن التوبة منه، لأنّ الإقرار بالذنب الفائت إنّما يكون عند الندم والعزم على عدم العود إليه.

{ **خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا** } يقال: خلط كذا بكذا على اعتبار أحد الشيئين المختلطين متلابسين بالخلط. هو خلطهم حسنات أعمالهم بسيئات التخلّف عن الغزو وعدم الإنفاق على الجيش.

عسى، فعل رجاء. وهي من كلام الله تعالى المخاطب به النبيء ﷺ، فهي كناية عن وقوع المرجو، وأنّ الله قد تاب عليهم. وذكر فعل الرجاء يستتبع معنى اختيار المتكلم في وقوع الشيء وعدم وقوعه.

{ **أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** } أي يقبل توبتهم، وتقدّم عند قوله تعالى {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ} [البقرة:37]

{ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل مناسب للمقام.

{ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [103]

لمّا كان من شرط التوبة تدارك ما يمكن تداركه ممّا فات، وكان التخلّف عن الغزو مشتملا على أمرين هما عدم المشاركة في الجهاد، وعدم إنفاق المال في الجهاد، جاء في هذه الآية إرشاد لطريق تداركهم ما يمكن تداركه مما فات وهو نفع المسلمين بالمال، فالأنفاق العظيم على غزوة تبوك استنفد المال المعدّ لنوائب المسلمين، فإذا أخذ من المخلفين شيء من المال انجبر به بعض الثلم الذي حلّ بمال المسلمين.

وقد روي أنّ الذين اعترفوا بذنوبهم قالوا للنبي ﷺ: هذه أموالنا التي بسببها تخلّفنا عنك، خذها فتصدّق بها وطهّرنا واستغفر لنا، فقال لهم: لم أؤمر بأن آخذ من أموالكم. حتّى نزلت هذه الآية فأخذ منهم النبيء صلى الله عليه وسلم صدقاتهم، فالضمير عائد على آخرين اعترفوا بذنوبهم.

التزكية، جعل الشيء زكيا، أي كثير الخيرات. فقوله { تُطَهِّرُهُمْ } إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات، وقوله { تُزَكِّيهِمْ } إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات. ولا جرم أنّ التخلية مقدّمة على التحلية. فالمعنى أنّ هذه الصدقة كفارة لذنوبهم ومجلبة للثواب العظيم.

{ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ } الدعاء لهم. وقد كان النبيء ﷺ بعد نزول هذه الآية إذا جاءه أحد بصدقته يقول: اللهم صل على آل فلان. والصلاة من الله الرحمة، ومن النبيء الدعاء.

{ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ } تعليل للأمر بالصلاة عليهم، أي خير. فإطلاق السكن على هذا الدعاء مجاز مرسل.

السَكَن، (بفتحتين) ما يسكن إليه، أي يطمأن إليه ويرتاح به. وهو مشتقّ من السكون بالمعنى المجازي، وهو سكون النفس، أي سلامتها من الخوف ونحوه، لأنّ الخوف يوجب كثرة الحذر واضطراب الرأي فتكون النفس كأنّها غير مستقرّة، ولذلك سمّي ذلك قلقا لأنّ القلق كثرة التحرك.

{ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } تذييل مناسب للأمر بالدعاء لهم. والمراد بالسميع هنا، المجيب للدعاء. ففيه إيماء إلى التنويه بدعائه ﷺ. وذكر العليم إيماء إلى أنّه ما أمره بالدعاء لهم إلّا لأنّ في دعائه لهم خيرا عظيما.

{ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[104]

إن كان الذين اعترفوا بذنوبهم وعرضوا أموالهم للصدقة قد بقي في نفوسهم اضطراب من خوف أن لا تكون توبتهم مقبولة وأن لا يكون الرّسول ﷺ قد رضي عنهم، كان الاستفهام تقريرا مشوبا بتعجيب من تردّدهم في قبول توبتهم.

وإن كان الذين اعترفوا بذنوبهم لم يخطر ببالهم شك في قبول توبتهم، فهو استطراد لترغيب أمثال أولئك في التوبة ممن تأخّروا عنها.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** } تنبيه على أنّه كما يجب العلم بأن الله يفعل ذلك يجب العلم بأن من صفاته العُلى أنّه التّواب الرحيم.

{ وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }[105]

أمروا بالعمل عقب الإعلام بقبول توبتهم ، لإنّ التوبة إنّما ترفع المؤاخذة بما مضى. فوجب على المؤمن الراغب في الكمال بعد توبته أن يزيد من الأعمال الصالحة ليجبر ما فاته من الأوقات التي كانت حقيقة بأن يعمرها بالحسنات.

{ **فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ** } زيادة في التحضيض. وتذكير لهم باطلاع الله تعالى بعلمه على جميع الكائنات. وهذا كقول النبيء ﷺ في بيان الإحسان: " هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ".

{ **وَرَسُولُهُ** } عُطف على اسم الجلالة لأنّه ﷺ المبلّغ عن الله وهو الذي يتولّى معاملتهم على حسب أعمالهم.

{ **وَالْمُؤْمِنُونَ** } لأنّهم شهداء الله في أرضه، ولأنّ هؤلاء لمّا تابوا قد رجعوا إلى حضيرة جماعة الصحابة فإن عملوا مثلهم كانوا بمحلّ الكرامة منهم، وإلّا كانوا ملحوظين منهم بعين الغضب والإنكار.

{ **وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ** } وعد ووعيد معا على حسب الأعمال.

{ **فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** } تقدّم القول في نظيره آنفا.

{ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [106]

هذا فريق آخر عطف خبره على خبر الفرق الآخرين. والمراد بهؤلاء من بقي من المخلّفين لم يتب الله عليه، وكان أمرهم موقوفا إلى أن يقضي الله بما يشاء. وهؤلاء نفر ثلاثة هم: (**كعب بن مالك**، و**هِلال بن أمية**، و**مُرارة بن الربيع**)، وثلاثتهم قد تخلّفوا عن غزوة تبوك. ولم يكن تخلّفهم نفاقا ولا كراهية للجهاد ولكنّهم شغلوا عند خروج الجيش وهم يحسبون أنّهم يلحقونه وانقضت الأيام وأيسوا من اللحاق. وسأل عنهم النبيء ﷺ وهو في تبوك. فلمّا رجع النبيء ﷺ أتوه وصدقوه، فلم يكلّمهم، ونهى المسلمين عن كلامهم ومخالطتهم، وأمرهم باعتزال نسائهم، فامتثلوا وبقوا كذلك خمسين ليلة، فهم في تلك المدّة مرجون لأمر الله. وأنزل فيهم

قوله { لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النبيء وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ - إلى قوله - وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } [117- 119] وعن كعب ابن مالك في قصّته هذه حديث طويل أغر في صحيح البخاري على التوبة والتنبيه إلى فتح بابها.

{ **مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ** }، أي مؤخرون لأجل أمر الله في شأنهم. وفيه حذف مضاف تقديره، لأجل انتظار أمر الله في شأنهم لأنّ التأخير مشعر بانتظار شيء.

{ **إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ** } بيان لجملة {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ} باعتبار متعلق خبرها وهو {لأَمْرِ اللَّهِ} ، أي أمر الله الذي هو إمّا تعذيبهم، وإما توبته عليهم. ويفهم من قوله {يَتُوبُ عَلَيْهِمْ} أنّهم تابوا.

{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تذييل مناسب لإبهام أمرهم على النّاس، أي والله عليم بما يليق بهم من الأمرين، محكم تقديره حين تتعلق به إرادته.

{ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ [107] لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ } [108]

أشارت الآية إلى قصّة اتخاذ المنافقين مسجدا قرب مسجد قباء لقصد الضرار، وهم طائفة من (بني غُنْم بن عَوف وبني سالم بن عوف من أهل العوالي). كانوا اثني عشر رجلا سماهم ابن عطيّة. وكان سبب بنائهم إيّاه أنّ أبا عامر واسمه عبد عمرو، ويلقّب بالراهب من بني غُنْم بن عَوف كان قد تنصّر في الجاهلية فلمّا جاء الإسلام كان من المنافقين. ثم جاهر بالعداوة وخرج في جماعة من المنافقين فحزّب الأحزاب التي حاصرت المدينة في وقعة الخندق فلمّا هزمهم الله أقام أبو عامر بمكّة. ولمّا فتحت مكّة هرب إلى الطائف، فلمّا فتحت الطائف وأسلمت ثقيف خرج أبو عامر إلى الشام يستنصر بقيصر، وكتب إلى المنافقين من قومه يأمرهم بأن يبنوا مسجدا ليخلصوا فيه بأنفسهم، ويعدهم أنّه سيأتي في جيش من الروم ويخرج المسلمين من المدينة. فانتدب لذلك اثنا عشر رجلا من المنافقين بعضهم من بني عمرو بن عوف وبعضهم من أحلافهم من بني ضبيعة بن زيد وغيرهم، فبنوه بجانب مسجد قباء، وذلك قبيل مخرج رسول الله ﷺ إلى تبوك. وأتوا النبيء ﷺ وقالوا: بنينا مسجدا لذي العلّة والحاجة والليلة المطيرة، ونحن نحب أن تصلّي لنا فيه، فقال لهم رسول الله ﷺ "إنّي على جناح سفر وحال شغل وإذا قدمنا إن شاء الله صلّينا فيه ". فلمّا قفل من غزوة تبوك سألوه أن يأتي مسجدهم فأنزل الله هذه الآية، وحلفوا أنّهم ما أرادوا به إلّا خيرا.

الضرار، مصدر ضار مبالغة في ضرّ، أي ضرارا لأهل الإسلام.

التفريق بين المؤمنين هو ما قصدوه من صرف بني غنم وبني سالم عن قباء.
الإرصاد، التهيئة.
{ **لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ** } المراد به (أبو عامر الراهب)، لأنّه حارب رسول الله ﷺ مع الأحزاب وحاربه مع ثقيف وهوازن.
الحسنى، الخير.
{ **لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا** } المراد بالقيام الصلاة، لأنّ، أولها قيام.
ووجه النهي عن الصلاة فيه أن صلاة النبيء ﷺ فيه تكسبه يمنا وبركة، وبذلك يحصل غرض المنافقين من وضعه للتفريق بين جماعة المسلمين. وهذا النهي يعم جميع المسلمين، ولذلك أمر رسول الله ﷺ (**عمار بن ياسر**، و**وحشيا مولى المطعم بن عدي**، و**مالك بن الدخشم**، و**معن بن عدي**) فقال: " انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه"، ففعلوا. وتحريقه تحريق الأعواد التي يتخذ منها السقف، والجذوع التي تجعل له أعمدة.
{ **لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ** } أمره الله بأن يصلي في ذلك الوقت الذي دعوه فيه للصلاة في مسجد الضرار، أن يصلّي في مسجده أو في مسجد قباء، لئلا يكون لامتناعه من الصلاة من حظوظ الشيطان، أن يكون صرفه عن صلاة في وقت دعي للصلاة فيه، وهذا أدب نفساني عظيم. وفيه أيضا دفع مكيدة المنافقين أن يطعنوا في الرسول ﷺ بأّه دعي إلى الصلاة في مسجدهم فامتنع.
وثبت في صحيح مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري أنّ النبيء ﷺ سئل عن المراد من المسجد الذي أسّس على التقوى في هذه الآية فقال: " هو مسجدكم هذا ". يعني المسجد النبوي بالمدينة. وثبت في الصحيح أيضا أنّ النبيء ﷺ بيّن (الرجال الذين يحبون أن يتطهروا) بأنّهم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء. وذلك يقتضي أنّ المسجد الذي أسس على التقوى من أوّل يوم هو مسجدهم، لقوله {فِيهِ رِجَالٌ}
ووجه الجمع بين هذين عندي أن يكون المراد بقوله تعالى {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ} المسجد الذي هذه صفته، لا مسجدا واحدا معينا، فيكون هذا الوصف كلّيا انحصر في فردين، المسجد النبوي ومسجد قباء، فأيّهما صلى فيه رسول الله ﷺ في الوقت الذي دعوه فيه للصلاة في مسجد الضرار كان ذلك أحقّ وأجدر، فيحصل النجاء من حظ الشيطان في الامتناع من الصلاة في مسجدهم، ومن مطاعنهم أيضا.
ويحصل الجمع بين الحديثين الصحيحين. وقد كان قيام الرسول في المسجد النبوي هو دأبه.
{ **فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا** } ثناء على مؤمني الأنصار الذين يصلّون بمسجد رسول الله ﷺ وبمسجد قباء. وقد كان المؤمنون من الأنصار يجمعون بين الاستجمار بالأحجار والغسل بالماء كما دلّ عليه حديث رواه الدارقطني عن أبي أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك عن رسول الله ﷺ في هذه الآية { فِيهِ رِجَالٌ

يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا} فقال: " يا معشر الأنصار إنّ الله قد أثنى عليكم خيرا في الطهور فما طهوركم؟ قالوا: إن أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء. قال: هو ذلك فعليكموه" ، فهذا يعم الأنصار كلّهم. ولا يعارضه حديث أبي داود أن رسول الله ﷺ سأل أهل قباء عن طهارتهم لأنّ أهل قباء هم أيضا من الأنصار، فسؤاله إياهم لتحقق اطراد هذا التطهر في قبائل الأنصار.

{ **يُحِبُّونَ** } قصد التنويه بهم بأنّهم يتطهرون تقربا إلى الله بالطهارة وإرضاء لمحبة نفوسهم إيّاها، بحيث صارت الطهارة خلقا لهم فلو لم تجب عليهم لفعلوها من تلقاء أنفسهم.

{ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** } تذييل. وفيه إشارة إلى أنّ نفوسهم وافقت خلقا يحبّه الله تعالى. وكفى بذلك تنويها بزكاء أنفسهم.

{ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }[109]

زيادة بيان أحقيّة المسجد المؤسس على التقوى بالصلاة فيه.

{ **أَفَمَنْ أَسَّسَ** } الفاء مؤخرة عن همزة الاستفهام لأحقيّة حرف الاستفهام بالتصدير. والاستفهام تقريري.

التأسيس، بناء الأساس، وهو قاعدة الجدار المبني من حجر وطين أو جص.

البنيان، اسم لإقامة البيت ووضعه سواء كان البيت من أثواب أم من أدم أم كان من حجر وطين، فكل ذلك بناء. ويطلق البنيان على المبني من الحجر والطين خاصة.

{ **عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ** } لما كان من شأن الأساس أن تطلب له صلابة الأرض لدوامه جعلت التقوى في القصد الذي بني له أحد المسجدين، فشبّهت التقوى بما يرتكز عليه الأساس على طريقة المكنية.

{ **أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ** } تشبيه الضدّ بما أسّس على شفا جرف هار، وذلك بأنّ شبّه المقصد الفاسد بالبناء بجرف منهار، في عدم ثبات ما يقام عليه من الأساس بله البناء، على طريقة الاستعارة التصريحيّة.

والمقصود أنّ البنيان الأوّل حصل منه غرض بانيه، لأنّ غرض الباني دوام ما بناه. فهم لمّا بنوه لقصد التقوى ورضى الله تعالى، ولم يذكر ما يقتضي خيبتهم فيه كما ذكر في مقابله، علم أنّهم قد اتقوا الله بذلك وأرضوه ففازوا بالجنّة، كما دلت عليه المقابلة. وأنّ البنيان الثاني لم يحصل غرض بانيه، وهو الضرار والتفريق فخابوا فيما قصدوه فلم يثبت المقصد، وكان عدم ثباته مفضيا بهم إلى النّار كما يفضي البناء المنهار بساكنه إلى الهلاك.

الشّفا، (بفتح الشين وبالقصر) حرف البئر وحرف الحفرة.

الجُرُف، (بضمتين) جانب الوادي وجانب الهوّة.
هار، اسم مشتق من هار البناء إذا تصدع.
{ **وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } تذييل، وهو عام يشمل هؤلاء الظالمين الذين بنوا مسجد الضرار وغيرهم.

{ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [110]

{ **لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ** } يجوز أن تكون مستأنفة لتعداد مساوي مسجد الضرار بذكر سوء عواقبه بعد أن ذكر سوء الباعث عليه، وبعد أن ذكر سوء وقعه في الإسلام بأن نهي الله رسوله عن الصلاة فيه وأمره بهدمه، لأنّه لما نهاه عن الصلاة فيه فقد صار المسلمون كلهم منهيين عن الصلاة فيه، فسلب عنه حكم المساجد، ولذلك أمر رسول الله ﷺ بهدمه. ويرجّح هذا الوجه أنه لم يؤت بضمير المسجد أو البنيان بل جيء باسمه الظاهر. والمعنى، أنّ ذلك المسجد لمّا بنوه لغرض فاسد فقد جعله الله سببا لبقاء النفاق في قلوبهم ما دامت قلوبهم في أجسادهم.
{ **رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ** } مبالغة، كالوصف بالمصدر. والمعنى أنّه سبب للريبة في قلوبهم.
الريبة، الشكّ، فإنّ النفاق شك في الدين، لأنّ أصحابه يتردّدون بين موالاة المسلمين والإخلاص للكافرين.
{ **إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ** } استثناء تهكّمي. وهو من قبيل تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه كقوله تعالى {وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} [الأعراف:40]، أي يبقى ريبة أبدا إلّا أن تقطع قلوبهم منهم وما هي بمقطّعة.
{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تذييل مناسب لهذا الجعل العجيب والإحكام الرشيق. وهو أن يكون ذلك البناء سبب حسرة عليهم في الدنيا والآخرة.

{ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }[111]

استئناف ابتدائي للتنويه بأهل غزوة تبوك وهم جيش العسرة، ليكون توطئة وتمهيدا لذكر التوبة على الذين تخلّفوا عن الغزوة وكانوا صادقين في أيمانهم، وإنباء الذين أضمروا الكفر نفاقا بأنّهم لا يتوب الله عليهم ولا يستغفر لهم رسوله ﷺ. والمناسبة ما تقدّم من ذكر أحوال المنافقين الذين تسلسل الكلام عليهم.
{ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ** } افتتحت الجملة بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر.

الاشتراء، مستعار للوعد بالجزاء عن الجهاد. والمراد بالمؤمنين في الأظهر أن يكون مؤمني هذه الأمة.

{ **بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ** } لمّا كان شأن الباء أن تدخل على الثمن في صيغ الاشتراء أدخلت هنا لمشابهة هذا الوعد الثمن. وليس في هذا التركيب تمثيل إذ ليس ثمة هيئة مشبهة وأخرى مشبه بها.

{ **لَهُمْ الْجَنَّةَ** } اللام للملك والاستحقاق. والمجرور مصدر، والتقدير: بتحقيق تملّكهم الجنّة.

{ **يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ اشتراء الأنفس والأموال لغرابته في الظاهر يثير سؤال من يقول: كيف يبذلون أنفسهم وأموالهم؟ فكان جوابه { يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ }.

{ **فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ** } تفريع، لأنّ حال المقاتل لا تخلو من أحد هذين الأمرين.

{ **وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا** } قال الطيبي: " أتي بالأمر في صورة الخبر ثم ألزم الله البيع من جانبه وضمن إيصال الثمن إليهم، أي لا إقالة ولا استقالة من حضرة العزّة. ثم ما اكتفى بذلك بل عين الصكوك المثبت فيها هذه المبايعة وهي التوراة والإنجيل والقرآن".

{ **فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ** } حال من {وَعْدًا} . والظرفية ظرفية الكتاب للمكتوب، أي مكتوبا في التوراة والإنجيل والقرآن.

{ **وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ** } في موضع الحال، أي وعدا حقّا عليه، ولا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.

{ **أَوْفَى** } اسم تفضيل من وفّى بالعهد إذا فعل ما عاهد على فعله.

العهد، الوعد بحلف والوعد الموكّد، والبيعة عهد، والوصية عهد.

{ **فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ** } تفرع على كون الوعد حقّا على الله، وعلى أن الله أوفى بعهده من كل واعد، أن يستبشر المؤمنون ببيعهم هذا، فالخطاب للمؤمنين من هذه الأمة. وأضيف البيع إلى ضميرهم إظهارا لاغتباطهم به.

{ **وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** } تذييل جامع، فإن اسم الإشارة الواقع في أوّله جامع لصفات ذلك البيع بعوضيه. وأكّد بضمير الفصل وبالجملة الاسمية وبالوصف بـ { الْعَظِيمُ } المفيد للأهمية.

{ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ } [112]

أسماء الفاعلين هنا أوصاف للمؤمنين من قوله {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ} [111] فكان أصلها الجرّ، ولكنّها قطعت عن الوصفية وجعلت أخبارا لمبتدأ محذوف هو ضمير الجمع، اهتماما بهذه النعوت اهتماما أخرجها عن الوصفية إلى الخبريّة، ويسمى هذا الاستعمال نعتا مقطوعا، وما هو بنعت اصطلاحي ولكنه نعت في المعنى.

{ **التَّائِبُونَ** } مراد منه أنّهم مفارقون للذنوب سواء كان ذلك من غير اقتراف ذنب يقتضي التوبة، أم كان بعد اقترافه. وأوّل التوبة الإيمان لأنّه إقلاع عن الشرك، ثم يدخل منهم من كان له ذنب مع الإيمان وتاب منه.

{ **الْعَابِدُونَ** } المؤدّون لما أوجب الله عليهم.

{ **الْحَامِدُونَ** } المعترفون لله تعالى بنعمه عليهم الشاكرون له.

{ **السَّائِحُونَ** } مشتق من السياحة. وهي السير في الأرض. والمراد به سير خاص محمود شرعا. وهو السفر الذي فيه قربة لله وامتثال لأمره، مثل سفر الهجرة من دار الكفر أو السفر للحجّ أو السفر للجهاد. وحمله هنا على السفر للجهاد أنسب بالمقام.

{ **الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ** } أي المصلّون، إذ الصلاة المفروضة لا تخلو من الركوع والسجود.

{ **الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ** } الذين يدعون النّاس إلى الهدى والرشاد وينهونهم عما ينكره الشرع ويأباه. وإنّما ذكر الناهون عن المنكر بحرف العطف دون بقية الصفات، وإن كان العطف وتركه في الأخبار ونحوها جائزين، إلّا أنّ المناسبة أنّ الصفات المذكورة قبل قوله {الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ} ظاهرة في استقلال بعضها عن بعض. ثم لما ذكر {الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ} علم أن المراد الجامعون بينهما، أي المصلون بالنسبة إلى المسلمين. ولما جاء بعده {الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ} وكانا صفتين مستقلتين عطفتا بالواو لئلا يتوهم اعتبار الجمع بينهما كالوصفين اللذين قبلهما.

وقال جمع من العلماء: إن الواو في قوله {وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ} واو يكثر وقوعها في كلام العرب عند ذكر معدود ثامن، وسموها واو الثمانية.

{ **وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ** } صفة جامعة للعمل بالتكاليف الشرعية عند توجّهها. وحقيقة الحفظ توخي بقاء الشيء في المكان الذي يراد كونه فيه. ويطلق مجازا شائعا على ملازمة العمل بما يؤمر به. أي غير المضيّعين لشيء من حدود الله.

الحدود، مجاز على الوصايا والأوامر. فالحدود تشمل العبادات والمعاملات. ولذلك ختمت بها هذه الأوصاف. وعطفت بالواو لئلا يوهم ترك العطف أنّها مع التي قبلها صفتان متلازمتان معدودتان بعد صفة الأمر بالمعروف.

{ **وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ** } عطف على جملة {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ} [111] عطف إنشاء على خبر. والبشارة تقدمت مرارا.

{ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ }[113]

استئناف نسخ به التخيير الواقع في قوله تعالى {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ} [80].

ولعلّ الغرض الذي لأجله أبقي التخيير في الاستغفار لهم قد ضعف ما فيه من المصلحة ورجح ما فيه من المفسدة بانقراض من هم أهل لحسن القول وغلبة الدهماء من المنافقين الذين يحسبون أنّ استغفار النبيء ﷺ لهم يغفر لهم ذنوبهم فيصبحوا فرحين بأنّهم ربحوا الصفقتين وأرضوا الفريقين.

ولعلّ المسلمين لمّا سمعوا تخيير النبيء في الاستغفار للمشركين ذهبوا يستغفرون لأهليهم وأصحابهم من المشركين، فأصبح ذلك ذريعة إلى اعتقاد مساواة المشركين للمؤمنين في المغفرة فينتفي التفاضل الباعث على الرغبة في الإيمان، فنهى الله النبيء ﷺ والمؤمنين معا عن الاستغفار للمشركين.

وأمّا ما روي في أسباب النزول أنّ هذه الآية نزلت في استغفار النبيء ﷺ لأبي طالب، أو أنّها نزلت في سؤاله ربّه أن يستغفر لأمّه آمنة حين زار قبرها بالأبواء. فهما خبران واهيان، لأنّ هذه السورة نزلت بعد ذلك بزمن طويل.

{ مَا كَانَ } جاءت صيغة النهي بطريق نفي الكون مع لام الجحود مبالغة في التنزه عن هذا الاستغفار، كما تقدّم عند قوله تعالى { قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ } [المائدة:116]

{ لِلْمُشْرِكِينَ } ويدخل في المشركين المنافقون الذين علم النبيء ﷺ نفاقهم والذين علم المسلمون نفاقهم بتحقق الصفات التي أعلنت عليهم في هذه السورة وغيرها.

{ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى } زيادة للمبالغة في استقصاء أقرب الأحوال إلى المعذرة. وهذه المبالغة لقطع المعذرة عن المخالف.

{ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } [114]

معطوفة على جملة {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ} [113]. وهي من تمام الآية باعتبار ما فيها من قوله {وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى} إذ كان شأن ما لا ينبغي لنبيّنا محمد عليه الصلاة والسلام أن لا ينبغي لغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام لأنّ معظم أحكامهم متّحدة إلّا ما خصّ به نبيّنا من زيادة الفضل.

الموعدة، اسم للوعد. والوعد صدر من أبي إبراهيم لا محالة. فالتفسير الصحيح أنّ أبا إبراهيم وعد إبراهيم بالإيمان، فكان بمنزلة المؤلفة قلوبهم بالاستغفار له لأنّه ظنّه متردّدا في عبادة الأصنام. فسأل الله له المغفرة.

{ **فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ** } إمّا بالوحي بأن نهاه الله عن الاستغفار له، وإمّا بعد أن مات على الشرك.
التبرؤ، تفعّل من بريء من كذا إذا تنزّه عنه، فالتبرّؤ مبالغة في البراءة.
{ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** } استئناف ثناء على إبراهيم.
{ **أَوَّاهٌ** } فسّر بمعان ترجع إلى الشفقة، إمّا على النفس فتفيد الضراعة إلى الله والاستغفار، وإمّا على النّاس فتفيد الرحمة بهم والدعاء لهم.
الحليم، صاحب الحلم. والحِلم (بكسر الحاء) صفة في النفس وهي رجاحة العقل وثباتة ورصانة وتباعد عن العدوان. أي عدم القسوة.

{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[115]

عطف على الآية السابقة، لاعتذار عن النبيء وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - في استغفارهما لمن استغفرا لهما من أولي القربى كأبي طالب وآزر، ومن الأمّة كعبد الله بن أبي بن سلول، بأنّ فعلهما ذلك ما كان إلّا رجاء منهما هدى من استغفرا له، وإعانة له إن كان الله يريده، فلمّا تبيّن لهما الثابتُ على كفره إمّا بموته عليه أو باليأس من إيمانه، تركا الاستغفار له، وذلك كلّه بعد أن أبلغا الرسالة ونصحا لمن استغفرا له.
{ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا** } لفظ الآية صالح لإفادة معنى أنّ الله لا يؤاخذ النبيء ﷺ ولا إبراهيم عليه السلام ولا المسلمين باستغفارهم لمن استغفروا له من قبل ورود النهي وظهور دليل اليأس من المغفرة، لأنّ الله لا يؤاخذ قوما هداهم إلى الحق فيكتبهم ضُلالا بالمعاصي حتّى يبيّن لهم أنّ ما عملوه معصية، فموقع هذه الآية بعد جميع الكلام المتقدّم صيّرها كلاما جامعا تذييلا.
{ **إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** } تذييل مناسب للجملة السابقة، ووقوع {إِنَّ} في أولها يفيد معنى التفريع.

{ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ}[116]

تذييل ثان في قوة التأكيد لقوله {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [115]، ولذلك فصل بدون عطف لأنّ ثبوت ملك السماوات والأرض لله تعالى يقتضي أن يكون عليما بكل شيء، لأنّ تخلّف العلم عن التعلّق ببعض المتملكات يفضي إلى إضاعة شؤونها.
الملك، التصرف والتدبير. وقد تقدّم عند قوله تعالى {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة:4].
{ **يُحْيِ وَيُمِيتُ** } زيادة لتصوير معنى الملك في أتمّ مظاهره المحسوسة.
{ **وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ** } لتأييد المسلمين بأنّهم منصورون في سائر الأحوال، لأنّ الله

وليّهم فهو نصير لهم، ولإعلامهم بأنّهم لا يخشون الكفار لأنّ الكافرين لا مولى لهم لأنّ الله غاضب عليهم. وذلك مناسب لغرض الكلام المتعلّق باستغفارهم للمشركين بأنه لا يفيدهم.

الولي، تقدّم معناه عند قوله تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا} [الأنعام:14]

النصير، الناصر.

{ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النبيء وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ }[117]

انتقال من التحريض على الجهاد والتحذير من التقاعس والتوبيخ على التخلّف، وما طرأ على ذلك التحريض من بيان أحوال النّاس تجاه ذلك التحريض وما عقّبه من أعمال المنافقين والضعفاء والجبناء، إلى بيان فضيلة الذين انتدبوا للغزو واقتحموا شدائده، فالجملة استئناف ابتدائي.

ومن المحسّنات، افتتاح هذا الكلام بما يؤذن بالبشارة لرضى الله على المؤمنين الذين غزوا تبوك.

وتقديم النبيء ﷺ في تعلّق فعل التوبة بالغزاة للتنويه بشأن هذه التوبة وإتيانها على جميع الذنوب، إذ قد علم المسلمون كلّهم أنّ النبيء ﷺ قد غفر الله ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر.

فمعنى التوبة على النبيء والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه، أنّ الله لا يؤاخذهم بما قد يحسبون أنّه يسبّب مؤاخذة، كقول النبيء ﷺ: " لعلّ الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ".

المهاجرون والأنصار، هم مجموع أهل المدينة، وكان جيش العسرة منهم ومن غيرهم من القبائل التي حول المدينة ومكّة، ولكنّهم خصّوا بالثناء لأنّهم لم يتردّدوا ولم يتثاقلوا ولا شحّوا بأموالهم، فكانوا إسوة لمن اتّسى بهم من غيرهم من القبائل.

{ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ } وصف المهاجرون والأنصار، للإيماء إلى أنّ لصلة الموصول تسبُّبا في هذه المغفرة.

{ اتَّبَعُوهُ } أطاعوه ولم يخالفوا عليه، فالاتباع مجازي.

الساعة، الحصة من الزمن.

العسرة، اسم العسر، زيدت فيه التاء للمبالغة وهي الشدّة.

وساعة العسرة هي زمن استنفار النبيء ﷺ النّاس إلى غزوة تبوك. فالذين انتدبوا وتأهبوا وخرجوا هم الذين اتّبعوه، فأمّا ما بعد الخروج إلى الغزو فذلك ليس هو الاتباع ولكنّه الجهاد.

{ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ } اي من المهاجرين والأنصار، فإنّه متعلق بـ {اتَّبَعُوهُ} أي اتّبعوا أمره بعد أن خامر فريقا منهم خاطر التثاقل والقعود والمعصية بحيث يشبهون المنافقين، فانّ ذلك لا يتصور وقوعه بعد الخروج، وهذا الزيغ لم يقع ولكنه قارب الوقوع.

{ **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ** } عطف على {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ} أي تاب على غير هذا الفريق مطلقا، وتاب على هذا الفريق بعد ما كادت قلوبهم تزيغ، فتكون {ثُمَّ} على أصلها من المهلة.
{ **إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** } تعليل لما قبلها.

{ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [118]

{ **الثَّلاَثَةِ** } تعريف العهد فإنّهم كانوا معروفين بين النّاس، وهم (**كعب ابن مالك** من بني سلمة، و**مُرارة بن الربيع العمري** من بني عمرو بن عوف، و**هلال بن أمية الواقفي** من بني واقف)، كلّهم من الأنصار تخلّفوا عن غزوة تبوك بدون عذر. ولما رجع النبيء ﷺ من غزوة تبوك سألهم عن تخلّفهم فلم يكذبوه بالعذر ولكنّهم اعتذروا بذنبهم وحزنوا. ونهى رسول الله ﷺ النّاس عن كلامهم، وأمرهم بأن يعتزلوا نساءهم. ثم عفا الله عنهم بعد خمسين ليلة. وحديث كعب بن مالك في قصته هذه مع الآخرين في صحيح البخاري وصحيح مسلم طويل أغر.
{ **خُلِّفُوا** } بتشديد اللام مضاعف خَلَفَ المخفف الذي هو فعل قاصر، معناه أنّه وراء غيره.
تخليف مجازي استعير لتأخير البت في شأنهم، أي الذين خلّفوا عن القضاء في شأنهم فلم يعذرهم رسول الله ﷺ ولا أيسهم من التوبة كما أيس المنافقين. فالتخليف هنا بمعنى **الإرجاء**. وبهذا التفسير فسّره كعب بن مالك في حديثه المروي في (الصحيح) فقال: " وليس الذي ذكر الله مما خلّفنا عن الغزو وإنما تخليفه إيّانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه ".
{ **حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ** }
ضيق الأرض، استعارة، أي حتّى كانت الأرض كالضيقة عليهم، أي عندهم. وذلك التشبيه كناية عن غمّهم وتنكّر المسلمين لهم.
{ **بِمَا رَحُبَتْ** } حال من {الأَرْضُ} . والباء للملابسة، أي تخيلوا الأرض ضيّقة وهي الأرض الموصوفة بسعتها المعروفة.
ضيق أنفسهم، استعارة للغمّ والحزن، لأنّ الغمّ يكون في النفس بمنزلة الضيق. ولذلك يقال للمحزون: ضاق صدره، وللمسرور: شُرح صدره.
{ **وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ** }
الظن، مستعمل هنا في اليقين والجزم، وهو من معانيه الحقيقية. و تقدّم عند قوله تعالى {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ} [البقرة:46]، أي وأيقنوا أنّ أمر التوبة عليهم موكول إلى الله دون غيره بما يوحي به إلى

رسوله، أي التجأوا إلى الله دون غيره. وهذا كناية عن أنّهم تابوا إلى الله وانتظروا عفوه.
{ **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ** } عطف على ضاقت عليهم الأرض وما بعده، أي حتّى وقع ذلك كلّه ثم تاب عليهم بعده.
و{ثُمَّ} هنا للمهلة والتراخي الزمني وليست للتراخي الرتبي.
{ **لِيَتُوبُوا** } للتعليل، أي تاب عليهم لأجل أن يكفّوا عن المخالفة ويتنزهوا عن الذنب، أي ليدوموا على التوبة. فالفعل مستعمل في معنى الدوام على التلبس بالمصدر لا على إحداث المصدر.
{ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** } تذييل مفيد للامتنان.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } [119]

الظاهر أن هذه الآية خاتمة للآي السابقة وليست فاتحة غرض جديد. ففي صحيح البخاري من حديث كعب بن مالك حين تخلّف عن غزوة تبوك أنه قال: " فوالله ما أعلم أحدا.. أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني ما تعمّدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبا وانزل الله على رسوله {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النبيء وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ- إلى قوله - وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [117- 119].
فهذه الآية بمنزلة التذييل للقصّة، فإن القصة مشتملة على ذكر قوم اتقوا الله فصدقوا في إيمانهم وجهادهم فرضي الله عنهم، وذكر قوم كذبوا في ذلك واختلقوا المعاذير وحلفوا كذبا فغضب الله عليهم، وقوم تخلّفوا عن الجهاد وصدقوا في الاعتراف بعدم العذر فتاب الله عليهم، فلمّا كان سبب فوز الفائزين في هذه الأحوال كلّها هو الصدق لا جرم أمر الله المؤمنين بتقواه وبأن يكونوا في زمرة الصادقين مثل أولئك الصادقين الذين تضمنتهم القصة.
{ **كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** } الأمر أبلغ في التخلّق بالصدق من نحو: اصدقوا.

{ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } [120]

استئناف ابتدائي لإيجاب الغزو على أهل المدينة ومن حولهم من أهل باديتها الحافين بالمدينة إذا خرج النبيء ﷺ للغزو. فهذا وجوب عيني على هؤلاء شرّفهم الله بأن جعلهم جند النبيء ﷺ وحرس ذاته.
{ **مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ** } خبر مستعمل في إنشاء الأمر على طريق المبالغة، إذ جعل التخلّف ليس مما ثبت لهم، فهم براء منه، فيثبت لهم ضدّه وهو الخروج مع النبيء ﷺ إذا غزا.

{ **وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ** } هم: مزينة، وأشجع، وغفار، وجهينة، وأسلم.

فيه ثناء على أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب لما قاموا به من غزو تبوك، فهو يقتضي تحريضهم على ذلك. وفيه تعريض بالذين تخلفوا من أهل المدينة ومن الأعراب.

قال قتادة وجماعة: هذا الحكم خاص بخروج النبيء ﷺ دون غيره من الخلفاء والأمراء فهو محكم غير منسوخ. وبذلك جزم ابن بطال من المالكية. قال زيد بن أسلم وجابر ابن زيد: كان هذا حكما عاما في قلة الإسلام واحتياجه إلى كثرة الغزاة ثم نسخ لما قوي الإسلام بقوله تعالى {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} [122] فصار وجوب الجهاد على الكفاية. وقال ابن عطية: هذا حكم من استنفرهم الإمام بالتعيين، لأنّه لو جاز لهؤلاء التخلف لتعطل الخروج. واختاره فخر الدين.

التخلّف، البقاء في المكان بعد الغير ممن كان معه فيه، وقد تقدم عند قوله {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ} [81]

الرغبة، تُعدّى بحرف (في) فتفيد معنى مودّة تحصيل الشيء والحرص فيه، وتعدى بحرف (عن) فتفيد معنى المجافاة للشيء. وهي هنا معداة بـ (عن). أريد برغبتهم عن نفسه محبتهم أنفسهم وحرصهم على سلامتها دون الحرص على سلامة نفس الرّسول. وهذا نهي بليغ وتوبيخ لهم، وتهييج لمتابعته بأنفة وحميّة.

الظمأ، العطش، و**النصب**، التعب، و**المخمصة**، الجوع.

{ **وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يُغِيظُ الْكُفَّارَ** } مصدر ميمي للوطء، الدوس بالأرجل. والوطء في سبيل الله هو الدوس بحوافر الخيل وأخفاف الإبل وأرجل الغزاة في أرض العدو، فإنّه الذي يغيظ العدو ويغضبه، لأنّه يأنف من وطء أرضه بالجيش. ويجوز أن يكون الوطء هنا مستعارا لإذلال العدو وغلبته وإبادته.

النيل، مصدر ينالون. يقال: نال منه إذا أصابه برزء.

{ **إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ** } الاستثناء مفرغ من عموم الأحوال. والمعنى، أن يكتب لهم بكل شيء من أنواع تلك الأعمال عمل صالح، أي جعل الله كل عمل من تلك الأعمال عملا صالحا وإن لم يقصد به عاملوه تقربا إلى الله، فإنّ تلك الأعمال تصدر عن أصحابها وهم ذاهلون في غالب الأزمان أو جميعها عن الغاية منها فليست لهم نيّات بالتقرّب بها إلى الله ولكن الله تعالى بفضله جعلها لهم قربات باعتبار شرف الغاية منها. وذلك بأن جعل لهم عليها ثوابا كما جعل للأعمال المقصود بها القربة، كما ورد أن نوم الصائم عبادة.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** } دلّ هذا التذييل على أنّهم كانوا بتلك الأعمال محسنين.

{ وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }[121]

انتقال من عداد الكُلف التي تصدر عنهم بلا قصد في سبيل الله إلى بعض الكُلف التي لا تخلو عن استشعار من تحلّ بهم بأنّهم لقوها في سبيل الله. فالنفقة في سبيل الله لا تكون إلّا عن قصد، والنفقة الكبيرة أدخل في القصد. وكان هذا الإطناب في عد مناقبهم في الغزو لتصوير ما بذلوه في سبيل الله.

قطع الوادي، هو اجتيازه على وجه الاستعارة.

{ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ } أي كتب الله لهم صالحا ليجزيهم عن أحسن أعمالهم.

{ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ولمّا كان هذا جزاء عن عملهم المذكور علم أنّ عملهم هذا من أحسن أعمالهم. أي عن أحسن ما كانوا يعملون أو بأحسن ما كانوا يعملون.

{ كَانُوا } والإتيان بخبرها مضارعا **{ يَعْمَلُونَ }** إفادة أنّ مثل هذا العمل كان ديدنهم.

{ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ }[122]

كان غالب ما تقدّم من هذه السورة تحريضا على الجهاد وتنديدا على المقصّرين في شأنه، وانتهى الكلام قبل هذا بتبرئة أهل المدينة والذين حولهم من التخلّف عن رسول الله ﷺ، فلا جرم كانت قوّة الكلام مؤذنة بوجوب تمحضّ المسلمين للغزو.

وإذ قد كان من مقاصد الإسلام بثّ علومه وآدابه بين الأمّة وتكوين جماعات قائمة بعلم الدين وتثقيف أذهان المسلمين كي تصلح سياسة الأمة على ما قصده الدين منها، من أجل ذلك عقّب التحريض على الجهاد بما يبيّن أن ليس من المصلحة تمحضّ المسلمين كلّهم لأن يكونوا غزاة أو جندا، وأن ليس حظ القائم بواجب التعليم دون حظ الغازي في سبيل الله من حيث أنّ كليهما يقوم بعمل لتأييد الدين، فهذا يؤيده بتوسّع سلطانه وتكثير أتباعه، والآخر يؤيده بتثبيت ذلك السلطان وإعداده لأن يصدر عنه ما يضمن انتظام أمره وطول دوامه. فإن اتساع الفتوح وبسالة الأمة لا يكفيان لاستبقاء سلطانها إذا هي خلت من جماعة صالحة من العلماء والساسة وأولي الرأي المهتمين بتدبير ذلك السلطان.

{ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً } من محاسن هذا البيان أن قابل صيغة التحريض على الغزو بمثلها في التحريض على العلم إذ افتتحت صيغة تحريض الغزو بلام الجحود {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ}[120]، وافتتحت صيغة التحريض على العلم والتفقه بمثل ذلك.

{ **لِيَنْفِرُوا كَافَّةً** } الخروج إلى الغزو المأخوذ من قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ} [38]، أي وما كان المؤمنون لينفروا ذلك النفر كلّهم.

{ **لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ** } المراد ليتفقه منهم طائفة وهي الطائفة التي لم تنفر.

والإتيان بصيغة لام الجحود تأكيد للنفي، وهو خبر مستعمل في النهي فتأكيده يفيد تأكيد النهي، أي كونه نهيا جازما يقتضي التحريم. وذلك أنّه كما كان النفر للغزو واجبا لأن في تركه إضاعة مصلحة الأمة، كذلك كان تركه متعينا على طائفة كافية منهم لتحصيل المقصد الشرعي مما أمروا بالاشتغال به من العلم.

الفرقة، الجماعة من النّاس الذين تفرّقوا عن غيرهم في المواطن. فالقبيلة فرقة، وأهل البلاد الواحدة فرقة.

الطائفة، الجماعة، ولا تتقيّد بعدد. وتقدم عند قوله {فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ} [النساء:102]

التفقّه، تكلّف الفقاهة، وهي مشتقة من فقِه (بكسر القاف) إذا فهم ما يدق فهمه فهو فاقه. فالفقه أخص من العلم، ولذلك نجد في القرآن استعمال الفقه فيما يخفى علمه كقوله {لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء:44].

ويجيء منه فقُه (بضم القاف) إذا صار الفقه سجيته، فقاهة فهو فقيه.

ولما كان مصير الفقه سجيّة لا يحصل إلا بمزاولة ما يبلّغ إلى ذلك كانت صيغة التفعل المؤذنة بالتكلّف. وفي هذا إيماء إلى أنّ فهم الدين أمر دقيق المسلك لا يحصل بسهولة. ولذلك جاء في الحديث الصحيح: " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين". ولذلك جزم العلماء بأنّ الفقه أفضل العلوم.

وقد ضبط العلماء حقيقة الفقه بأنّه العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية بالاجتهاد.

الإنذار، الإخبار بما يُتوقع منه شر. والمراد هنا الإنذار من المهلكات في الآخرة. ومنه النذير. فالإنذار هو الموعظة، وإنما اقتصر عليه لأنّه أهم. ويدخل في معنى الإنذار تعليم الناس ما يميزون به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ.

{ **لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** } حذف المفعول للتعميم، أي يحذرون ما يُحذر، وهو فعل المحرمات وترك الواجبات.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [123]

كان جميع بلاد العرب خلص للإسلام قبل حجّة الوداع، فكانت تخوم بلاد الإسلام مجاورة لبلاد الشام مقر نصارى العرب، وكانوا تحت حكم الروم، فكانت غزوة تبوك أوّل غزوة للإسلام تجاوزت بلاد العرب إلى مشارف الشام ولم يكن فيها قتال ولكن وضعت الجزية على(**أَيْلَةَ** و **بُصرى**)، وكانت تلك الغزوة إرهابا للنصارى، ونزلت سورة براءة عقبها فكانت هذه الآية كالوصيّة بالاستمرار على غزو بلاد الكفر المجاورة لبلاد الإسلام.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } في توجيه الخطاب للذين آمنوا دون النبيء إيماء إلى أنّ النبيء عليه الصلاة والسلام لا يغزو بعد ذلك وأنّ أجله الشريف قد اقترب. ولعلّ في قوله {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} إيماء إلى التسلية على فقد نبيهم عليه الصلاة والسلام.

الغِلظة، (بكسر الغين) الشدّة الحسية والخشونة، وهي مستعارة هنا للمعاملة الضارة. والمقصد من ذلك إلقاء الرعب في قلوب الأعداء حتّى يخشوا عاقبة التصدي لقتال المسلمين.

وإنّما وقعت هذه المبالغة لما عليه العدو من القوّة، فإنّ المقصود من الكفّار هنا هم نصارى العرب وأنصارهم الروم، وهم أصحاب عَدد وعُدد، فلا يجدون الشدة من المؤمنين إلّا إذا كانت شدة عظيمة.

ومن وراء صريح هذا الكلام تعريض بالتهديد للمنافقين، إذ قد ظهر على كفرهم وهم أشدّ قربا من المؤمنين في المدينة.

{ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } تأييد وتشجيع ووعد بالنصر إن اتقوا بامتثال الأمر بالجهاد. وافتتحت الجملة بـ {اعْلَمُوا} للاهتمام بما يراد العلم به.

{ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [124] وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } [125]

عطف على قوله {وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ} [86] وهذا عود إلى بيان أحوال المنافقين وما بينهما اعتراضات.

وهذه الآية زيدت فيها (ما) عقب (إذا) وزيادتها للتأكيد، أي لتأكيد معنى (إذا) وهو الشرط، لأنّ هذا الخبر لغرابته كان خليقا بالتأكيد، ولأنّ المنافقين ينكرون صدوره منهم بخلاف الآية السابقة لأنّ مضمونها حكاية استيذانهم وهم لا ينكرونه.

{ فَمِنْهُمْ } عائد إلى المنافقين للعلم بالمعاد من المقام، فالمنافقون خاطرون بذهن السامع فيكون الإتيان بضمير يعود عليهم تقوية لذلك التعريض.

{ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً } خطاب بعضهم لبعض على سبيل التهكّم بالمؤمنين وبالقرآن، لأنّ بعض آيات القرآن مصرّحة بأنّ القرآن يزيد المؤمنين إيمانا قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً} [الأنفال: 2].

{ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } للتفريع على حكاية استفهامهم بحمله على ظاهر حاله وصرفه عن مقصدهم منه. وتلك طريقة الأسلوب الحكيم، وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقّب، بحمل كلامه

على خلاف مراده لنكتة، وهي هنا إبطال ما قصدوه من نفي أن تكون السورة تزيد أحدا إيمانا قياسا على أحوال قلوبهم فأجيب استفهامهم بهذا التفصيل المتفرّع عليه، فأثبت أن للسورة زيادة في إيمان بعض النّاس وأكثر من الزيادة، وهو حصول البشر لهم.

{ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } ارتقي في الجواب عن مقصدهم من الإنكار بأنّ السورة ليست منفيا عنها زيادة في إيمان بعض النّاس فقط بل الأمر أشد إذ هي زائدة في كفرهم، فالقسم الأول المؤمنون زادتهم إيمانا وأكتسبتهم بشرى فحصل من السورة لهم نفعان عظيمان، والقسم الثاني الذين في قلوبهم مرض زادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون.

فالوجه أن تكون {وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} معطوفة على {فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً} وأن تكون {وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} معطوفة على {فَزَادَتْهُمْ رِجْساً} لأن مضمون كلتا الجملتين مما أثرته السورة. أما جملة{وَهُمْ كَافِرُونَ} فهي حال من ضمير {مَاتُوا }.

وقوبل قوله {وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} في جانب المؤمنين بقوله {وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} في جانب المنافقين تحسينا بالازدواج، بحيث كانت للسورة فائدتان للمؤمنين ومصيبتان على المنافقين، فجعل موتهم على الكفر المتسبب على زيادة السورة في كفرهم بمنزلة مصيبة أخرى غير الأولى وإن كانت في الحقيقة زيادة في المصيبة الأولى.

هذا وجه نظم الآية على هذا النسج من البلاغة والبديع، وقد أغفل فيما رأيت من التفاسير، فمنها ما سكت عن بيانه. ومنها ما نشرت فيه معاني المفردات وترك جانب نظم الكلام.

الاستبشار، أثر البشرى في النفس، فالسين والتاء للتأكيد، وتقدم في قوله تعالى: {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ} [آل عمران:171].

الرجس، هنا الكفر. وأصله الشيء الخبيث.

والمراد بزيادة الإيمان وبزيادة الرجس الرسوخ والتمكن من النفس.

المرض في القلوب، تقدم في قوله تعالى {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [البقرة:10]

{ أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ }[126]

عطف على {فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ} [125] فهي من تمام التفصيل. وقدّمت همزة الاستفهام على حرف العطف على طريقة تصدير أدوات الاستفهام. والتصدير للتنبيه على أنّ الجملة في غرض الاستفهام.

والاستفهام هنا إنكار وتعجيب لعدم رؤيتهم فتنتهم فلا تعقبها توبتهم ولا تذكّرهم أمر ربّهم. والغرض من هذا الإنكار هو الاستدلال على ما تقدّم من ازدياد كفر المنافقين وتمكّنه كلّما نزلت سورة من القرآن بإيراد دليل

واضح ينزل منزلة المحسوس المرئي حتّى يتوجّه الإنكار على من لا يراه.

الفتنة، اختلال نظام الحالة المعتادة للنّاس واضطراب أمرهم، مثل التقاتل، واستمرار الخوف والأمراض. وقد تقدم ذكرها عند قوله {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة:191].

{ **أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ** } أنّ الله يسلّط عليهم المصائب والمضار تنال جماعتهم ممّا لا يعتاد تكرّر أمثاله في حياة الأمم بحيث يدل تكرّر ذلك على أنّه مراد منه إيقاظ الله النّاس إلى سوء سيرتهم في جانب الله تعالى، بعدم اهتدائهم إلى الإقلاع عما هم فيه من العناد للنبيء ﷺ فإنهم لو رزقوا التوفيق لأفاقوا من غفلتهم، فعلموا أنّ ما يحلّ بهم كل عام ما طرأ عليهم إلّا من وقت تلبسهم بالنفاق.

ولا شك أن الفتنة التي أشارت إليها الآية كانت خاصة بأهل النفاق من أمراض تحلّ بهم، أو متالف تصيب أموالهم، أو جوائح تصيب ثمارهم، أو نقص من أنفسهم ومواليدهم، فإذا حصل شيئان من ذلك في السنة كانت الفتنة مرتين.

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي لأن المعطوف بها هو زائد في رتبة التعجيب من شأنه على المعطوف عليه، فإن حصول الفتنة في ذاته عجيب، وعدم اهتدائهم للتدارك بالتوبة والتذكر أعجب.

{ **وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ** } ولم يقل: ولا يذكّرون، قصدا لإفادة التقوّي، أي انتفاء تذكرهم محقّق.

{ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّـهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ } [127]

عطف على {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً} [124].

ونظر بعضهم إلى بعض عند نزول السورة يدلّ على أنّهم كانوا حينئذ في مجلس النبيء ﷺ لأنّ نظر بعضهم إلى بعض تعلقت به أداة الظرفية، وهي (إذا). ويدلّ لذلك أيضا قوله { ثُمَّ انْصَرَفُوا}، أي عن ذلك المجلس. ويدلّ أيضا على أن السورة مشتملة على كشف أسرارهم وفضح مكرهم لأنّ نظر بعضهم إلى بعض هو نظر تعجّب واستفهام. ويدلّ أيضا على أنّهم كاتمون تعجّبهم من ظهور أحوالهم خشية الاعتراف بما نسب إليهم ولذلك اجتزوا بالتناظر دون الكلام. فالنظر هنا نظر دال على ما في ضمير الناظر من التعجب والاستفهام.

{ **هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ** } بيان لجملة {نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ}. والتقدير، وإذا ما أنزلت سورة فيها فضيحة أمرهم نظر بعضهم إلى بعض بخائنة الأعين مستفهمين متعجبين من اطلاع النبيء ﷺ على أسرارهم، أي هل يراكم من أحد إذا خلوتم ودبّرتم أموركم، لأنّهم بكفرهم لا يعتقدون أنّ الله أطلع نبيه ﷺ على دخيلتهم.

{ **ثُمَّ انْصَرَفُوا** } لإفادة أنّهم لم يكتسبوا من نزول السورة التي أطلعت المؤمنين على أسرارهم عبرة ولا قربا من الإيمان، بل كان قصارى أمرهم التعجّب والشك في أن يكون قد اطّلع عليهم من يبوح بأسرارهم ثم

انصرفوا كأن لم تكن عبرة. وهذا من جملة الفتن التي تحلّ بهم ثم لا يتوبون ولا هم يذّكرون.
{ **صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** } مستأنفة استئنافيا بيانيا. وكان ذلك عقابا لهم بسبب أنهم {قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ} ، أي لا يفهمون الدلائل، بمعنى لا يتطلّبون الهدى بالتدبر فيفهموا.

وجعل جماعة من المفسرين قوله {صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} دعاء عليهم، ولا داعي إليه، لأنّ دعاء الله على مخلوقاته تكوين كما تقدّم، ولأنّه يأباه تسبيبه بقوله { **بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ** }

{ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ** [128] **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** } [129]

كانت هذه السورة سورة شدّة وغلظة على المشركين وأهل الكتاب والمنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب، وأمرا للمؤمنين بالجهاد، وإنحاء على المقصّرين في شأنه. وتخلل ذلك تنويه بالمتّصفين بضدّ ذلك من المؤمنين الذين هاجروا والذين نصروا واتبعوا الرسول في ساعة العسرة.

فجاءت خاتمة هذه السورة آيتين بتذكيرهم بالمنّة ببعثة محمد ﷺ والتنويه بصفاته الجامعة للكمال. ومن أخصّها حرصه على هداهم، ورغبته في إيمانهم ودخولهم في جامعة الإسلام ليكون رؤوفا رحيما بهم ليعلموا أنّ ما لقيه المعرضون عن الإسلام من الإغلاظ عليهم بالقول والفعل ما هو إلّا استصلاح لحالهم. وهذا من مظاهر الرحمة التي جعلها الله تعالى مقارنة لبعثة رسوله ﷺ بقوله {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: 107]، بحيث جاء في هاتين الآيتين بما شأنه أن يزيل الحرج من قلوب الفرق التي نزلت فيهم آيات الشدّة وعوملوا بالغلظة تعقيبا للشدّة بالرفق وللغلظة بالرحمة، وكذلك عادة القرآن. فقد انفتح بهاتين الآيتين باب حظيرة الإيمان والتوبة ليدخلها من وفّقه الله إليها.

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا. وفي وقوعها آخر السورة ما يكسبها معنى التذييل والخلاصة.
{ **جَاءَكُمْ** } وما تبعه من الخطاب موجه إلى جميع الأمة المدعوة للإسلام.
وافتتاحها بحرفي التأكيد وهما (**لام - قد**) مع كون مضمونها ممّا لا يتطرّق إليه الإنكار، لقصد الاهتمام بهذه الجملة لأهمية الغرض الذي سيقت لأجله وهو الذي سنذكره.
المجيء، مستعمل مجازا في الخطاب بالدعوة إلى الدين. وهو استعمال شائع في القرآن.
الأنفس، جمع نفس، وهي الذات. أي هو معدود من ذوي نسبهم وليس عداده فيهم بحلف أو ولاء أو إلصاق. يقال: هو قريشي من أنفسهم، فمعنى {مِنْ أَنْفُسِكُمْ} من صميم نسبكم. وفيه امتنان على العرب وتنبيه على فضيلتهم، وفيه أيضا تعريض بتحريضهم على اتباعه وترك مناواته، وأنّ الأجدر بهم الافتخار به والالتفاف حوله كما قال تعالى في ذكر القرآن {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ} [الزخرف: 44] أي يبقي منه لكم ذكر حسن.

العزيز، الغالب. والعزّة: الغلبة. يقال عزّه إذا غلبه. ومنه {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ} [ص: 23]، فإذا عدّي بـ (على) دلّ على معنى الثقل والشدّة على النفس.

{ **عَنِتُّمْ** } : تعبتم. والعنت: التعب، أي شاق عليه حزنكم وشقاؤكم. وهذا كقوله {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 3] وذكر هذا في صفة الرسول عليه السلام يفيد أن هذا خلق له، فيكون أثر ظهوره الرفق بالأمّة والحذر مما يلقي بهم إلى العذاب في الدنيا والآخرة. ومن آثار ذلك شفاعته للنّاس كلهم في الموقف لتعجيل الحساب. ثم إنّ ذلك يومي إلى أنّ شرعه جاء مناسبا لخلقه فانتفى عنه الحرج والعسر قال تعالى {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: 185].

الرؤوف: الشديد الرأفة. و**الرحيم**: الشديد الرحمة، لأنهما صيغتا مبالغة، وهما يتنازعان المجرور المتعلّق بهما وهو { بالْمُؤْمِنِينَ }. وبينهما عموم وخصوص مطلق، ولذلك جمع بينهما هنا ولوازمهما مختلفة.

الرأفة، رقة تنشأ عند حدوث ضرّ بالمرءوف به.

الرحمة، رقّة تقتضي الإحسان للمرحوم.

{ **بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ** }، تقديم المتعلق على عامليه المتنازعينه، للاهتمام بالمؤمنين في توجه صفتي رأفته ورحمته بهم. وأمّا رحمته العامة الثابتة بقوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبيياء:107] فهي رحمة مشوبة بشدّة على غير المؤمنين فهو بالنسبة لغير المؤمنين رائف وراحم، ولا يقال: بهم رؤوف رحيم.

{ **فَإِنْ تَوَلَّوْا** } **التولّي**، الإعراض والإدبار: وهو مستعار هنا للمكابرة والعناد. والفاء للتفريع على إرسال النبيء ﷺ صاحب هذه الصفات إليهم فإنّ صفاته المذكورة تقتضي من كل ذي عقل سليم من العرب الإيمان به واتّباعه لأنّه من أنفسهم، ومحبّ لخيرهم رؤوف رحيم بمن يتّبعه منهم، فتفرّع عليه أنّهم محقوقون بالإيمان به، فإن آمنوا فذاك وان لم يؤمنوا فإنّ الله حسيبه وكافيه.

وبعد التفريع التفت الكلام من خطاب العرب إلى خطاب النبيء ﷺ بما كان مقتضى الظاهر أن يخاطبوا هم به اعتمادا على قرينة حرف التفريع فقيل له.

{ **فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** }. والتقدير: فإن توليتم عنه فحسبه الله. فجيء بهذا النظم البديع الإيجاز مع ما فيه من براعة الإيماء إلى عدم تأهلهم لخطاب الله على تقدير حالة توليهم.

الحسب، الكافي، أي كافيك شرّ إعراضهم، لأنّهم إن أعرضوا بعد هذا فقد أعرضوا عن حسد وحنق. وتلك حالة مظنّة السعي في الكيد والأذى.

{ **فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ** } أن يقول ذلك قولا ناشئا عن عقد القلب عليه، أي فاعلم أن حسبك الله وقل حسبي الله، لأنّ

القول يؤكد المعلوم ويرسّخه في نفس العالم به، ولأنّ في هذا القول إبلاغا للمعرضين عنه بأنّ الله كافيه إياهم.

التوكّل، التفويض. وهو مبالغة في وكّل.

وهذه الآية تفيد التنويه بهذه الكلمة المباركة لأنّه أمر بأن يقول هذه الكلمة بعينها ولم يؤمر بمجرد التوكّل كما أمر في قوله {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} [النمل: 79]. ولا أخبر بأنّ الله حسبه مجرّد إخبار كما في قوله {فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ} [الأنفال: 62]

{ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } مستأنفة للثناء، أو في موضع الحال وهي ثناء بالوحدانيّة.

{ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } للثناء بعظيم القدرة لأنّ من كان ربا للعرش العظيم ثبت أنّه قدير، لأنّه قد اشتهر أنّ العرش أعظم المخلوقات، ولذلك وصف بالعظيم.

وفي هاتين الآيتين إشعار بالإيداع والأعذار للنّاس، وتنبيه إلى المبادرة باغتنام وجود الرسول ﷺ بين أظهرهم ليتشرّفوا بالإيمان به وهم يشاهدونه ويقتبسون من أنوار هديه، لأنّ الاهتداء بمشاهدته والتلقّي منه أرجى لحصول كمال الإيمان والانتفاع بقليل من الزمان لتحصيل وافر الخير الذي لا يحصل مثله في أضعاف ذلك الزمان.

وفيهما أيضا إيماء إلى اقتراب أجل النبيء ﷺ لأنّ التذكير بقوله { لَقَدْ جَاءَكُمْ } يؤذن بأنّ هذا المجيء الذي مضى عليه زمن طويل يوشك أن ينقضي، لأنّ لكل وارد قفولا، ولكل طالع أفولا. وقد روي عن أبي بن كعب وقتادة أن هاتين الآيتين هما أحدث القرآن عهدا بالله عز وجل، أي آخر ما نزل من القرآن. وقيل: إن آخر القرآن نزولا آية الكلالة خاتمة سورة النساء. وقيل آخره نزولا قوله: {وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ} [البقرة:281]

في صحيح البخاري من طريق شعيب عن الزهري عن ابن السباق عن زيد بن ثابت في حديث جمع القرآن في زمن أبي بكر رضي الله عنه قال زيد: " حتىّ وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري أو أبي خزيمة، لم أجدهما مع أحد غيره {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ} إلى آخرهما". ومعنى ذلك أنّه بحث عن هاتين الآيتين في ما هو مكتوب من القرآن فلم يجدهما وهو يعلم أن في آخر سورة التوبة آيتين خاتمتين أو هو يحفظهما (فإن زيدا اعتنى في جمع القرآن بحفظه وبتتبع ما هو مكتوب بإملاء النبيء ﷺ وبقراءة حفاظ القرآن غيره) فوجد خزيمة أو أبا خزيمة يحفظهما. فلما أملاهما عليه تذكر زيد لفظهما وتذكرهما من سمعهما من الصحابة حين قرأوهما. كيف وقد قال أبي بن كعب: إنّهما آخر ما أنزل، فلفظهما ثابت بالإجماع، وتواترهما حاصل إذ لم يشك فيهما أحد وليس إثباتهما قاصرا على إخبار خزيمة أو أبي خزيمة.

الوجيز

من التحرير و التنوير

للشيخ مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور

(1879م- 1973م / 1296هـ- 1393هـ)

الجزء الخامس

(يونس – هود – يوسف - الرعد)

محمد بن عبد القادر الزغواني

2023م / 1444هـ

بسم الله الرحمان الرحيم

الإهداء

إلى أئمتنا و دعاتنا وطلبة العلوم الشرعيّة

إلى كلّ العاملين في مجال الدعوة،

السالكين سبل الهداية، والمبشّرين بها بين النّاس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة يونس

سمّيت في المصاحف وفي كتب التفسير والسنّة (سورة يونس) لأنّها انفردت بذكر خصوصيّة لقوم يونس، أنّهم آمنوا بعد أن توعّدهم رسولهم بنزول العذاب فعفا الله عنهم لمّا آمنوا. وذلك في قوله تعالى { فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [98]. وتلك الخصوصيّة كرامة ليونس- عليه السلام - وليس فيها ذكر ليونس غير ذلك. وقد ذكر يونس في سورة الصافات بأوسع ممّا في هذه السورة ولكن وجه التسمية لا يوجبها.

والأظهر عندي أنّها أضيفت إلى يونس تمييزا لها عن أخواتها الأربع المفتتحة ب **{ألر}**. ولذلك أضيفت كلّ واحدة منها إلى نبيء أو قوم نبيء عوضا عن أن يقال: آلر الأولى وألر الثانية. وهكذا فإن اشتهار السور بأسمائها أول ما يشيع بين المسلمين بأولى الكلمات التي تقع فيها وخاصة إذا كانت فواتحها حروفا مقطّعة فكانوا يدعون تلك السور بآل حم، وآل ألر ونحو ذلك.

وهي **مكيّة في قول الجمهور**. وهو المروي عن ابن عباس في الأصح عنه. وفي (الإتقان) عن عطاء عنه أنّها مدنيّة. وفي (القرطبي) عن ابن عباس أنّ ثلاث آيات منها مدنية وهي قوله تعالى { فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ - إلى قوله - حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ }[95 - 96]. وفي ابن عطيّة عن مقاتل: إلّا آيتين مدنيتين. وفيه عن الكلبي أن آية واحدة نزلت بالمدينة.

وأحسب أنّ هذه الأقوال ناشئة عن ظنّ أنّ ما في القرآن من مجادلة مع أهل الكتاب لم ينزل إلّا بالمدينة، فإنّ كان كذلك فظنّ هؤلاء مخطئ. وسيأتي التنبيه عليه.

عدد آيها مائة وتسع آيات (109) في عدّ أكثر الأمصار، ومائة وعشر (110) في عدّ أهل الشام.

وهي السورة الحادية والخمسون (51) في ترتيب نزول السور. نزلت بعد سورة بني إسرائيل وقبل سورة هود. وأحسب أنّها نزلت سنة إحدى عشرة بعد البعثة لما سيأتي عند قوله تعالى { وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا } [21].

أغراض هذه السورة

ابتدئت بمقصد إثبات رسالة محمد ﷺ بدلالة عجز المشركين عن معارضة القرآن، دلالة نبّه عليها بأسلوب تعريضي دقيق بني على الكناية بتهجية الحروف المقطّعة في أوّل السورة كما تقدّم في مفتتح سورة البقرة.

ولذلك أتبعت تلك الحروف بقوله تعالى {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} [1] إشارة إلى أنّ إعجازه لهم هو الدليل على أنّه من عند الله. وقد جاء التصريح بما كني عنه هنا في قوله { قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ } [38].

وأتبع بإثبات رسالة محمد ﷺ وإبطال إحالة المشركين أن يرسل الله رسولا بشرا.

وانتقل من ذلك إلى إثبات انفراد الله تعالى بالإلهية بدلالة أنّه خالق العالم ومدبّره، فأفضى ذلك إلى إبطال أن يكون لله شركاء في إلهيّته، وإلى إبطال معاذير المشركين بأنّ أصنامهم شفعاء عند الله.

وأتبع ذلك بإثبات الحشر والجزاء. فذلك إبطال أصول الشرك.

وتخلّل ذلك بذكر دلائل من المخلوقات، وبيان حكمة الجزاء، وصفة الجزاء، وما في دلائل المخلوقات من حكم ومنافع للنّاس.

ووعيد منكري البعث المعرضين عن آيات الله، وبضدّ أولئك وعد الذين آمنوا. فكان معظم هذه السورة يدور حول محور تقرير هذه الأصول.

فمن ذلك التنبيه على أنّ إمهال الله تعالى الكافرين دون تعجيل العذاب هو حكمة منه.

ومن ذلك التذكير بما حلّ بأهل القرون الماضية لمّا أشركوا وكذّبوا الرسل.

والاعتبار بما خلق الله للنّاس من مواهب القدرة على السير في البر والبحر، وما في أحوال السير في البحر من الألطاف.

وضرب المثل للدنيا وبهجتها وزوالها، وأنّ الآخرة هي دار السلام.

واختلاف أحوال المؤمنين والكافرين في الآخرة، وتبرّؤ الآلهة الباطلة من عَبدتها.

وإبطال إلهيّة غير الله تعالى، بدليل أنّها لا تغني عن النّاس شيئا في الدنيا ولا في الآخرة.

وإثبات أنّ القرآن منزل من الله، وأنّ الدلائل على بطلان أن يكون مفترى واضحة.

وتحدّي المشركين بأن يأتوا بسورة مثله، ولكن الضلالة أعمت أبصار المعاندين.

وإنذار المشركين بعواقب ما حلّ بالأمم التي كذّبت بالرسل، وأنّهم إن حلّ بهم العذاب لا ينفعهم إيمانهم، وأنّ ذلك لم يلحق قوم يونس لمصادفة مبادرتهم بالإيمان قبل حلول العذاب.

وتوبيخ المشركين على ما حرّموه ممّا أحل الله من الرزق.

وإثبات عموم العلم لله تعالى.

وتبشير أولياء الله في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وتسلية الرسول عما يقوله الكافرون، وأنّه لو شاء لآمن من في الأرض كلّهم.

ثم تخلّص إلى الاعتبار بالرّسل السابقين نوح ورسل من بعده ثم موسى وهارون.

ثم استشهد على صدق رسالة محمد ﷺ بشهادة أهل الكتاب.

وختمت السورة بتلقين الرسول عليه الصلاة والسلام ممّا يعذر به لأهل الشك في دين الإسلام، وأنّ اهتداء من اهتدى لنفسه وضلال من ضل عليها، وأن الله سيحكم بينه وبين معانديه.

{ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ } [1]

{ الر} تقدّم القول في الحروف الواقعة في فواتح بعض السور في أوّل سورة البقرة، فهي بمنزلة الأعداد المسرودة، لا محل لها من الإعراب، ولا ينطق بها إلّا على حال السكت.

{ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ }

اسم الإشارة يجوز أن يكون مرادا به جميع آي القرآن التي نزلت قبل هذه السورة باعتبار حضور تلك الآيات في أذهان النّاس من المؤمنين وغيرهم.

فالمقصود من الإشارة إمّا الحثّ على النظر في آيات القرآن، ليتبيّن لهم أنّه من عند الله ويعلموا صدق من جاءهم به. وإمّا إقنّاعهم من الآيات الدالة على صدق النبيء ﷺ بآيات الكتاب الحكيم، أي ما هو آية واحدة بل آيات كثيرة، فإنّ الإعجاز حاصل بكل سورة منه. ولأنّه اشتمل على الحقائق السامية والهدى إلى الحقّ والحكمة. فرجل أمّيّ ينشأ في أمّة جاهلة يجيء بمثل هذا الهدى والحكمة لا يكون إلّا موحى إليه بوحي إلهي. كما دلّ عليه قوله {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} [العنكبوت:48]

ويجوز أن تجعل الإشارة بـ {تِلْكَ} إلى حروف {ألر} لأنّ المختار في الحروف المقطّعة في فواتح السور أنّ المقصود من تعدادها التحدي بالاعجاز، فهي بمنزلة التهجّي للمتعلّم. وهذا لتسجيل عجزهم عن معارضته، بأنّ آيات الكتاب الحكيم كلّها من جنس حروف كلامهم، فما لكم لا تستطيعون معارضتها بمثلها إنّ كنتم تكذّبون بأنّ الكتاب منزل من عند الله.

الكتاب، القرآن. التعريف للعهد، ويجوز جعله دالا على معنى الكمال في الجنس، كما تقول: أنتَ الرجل.

الحكيم، وصف إما بمعنى فاعل، أي الحاكم على الكتب بتمييز صحيحها من محرفها، مثل قوله {وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} [البقرة: 213].

وإمّا بمعنى مُفعَل (بفتح العين)، أي محكُم، مثل عَتِيد، بمعنى مُعَد.

وإمّا بمعنى ذي الحكمة، لاشتماله على الحكمة والحق والحقائق العالية.

{ الْحَكِيمِ } اختيار هذا الوصف من بين أوصاف الكمال الثابتة للقرآن، لأنّ لهذا الوصف مزيد اختصاص بمقام إظهار الإعجاز من جهة المعنى بعد إظهار الإعجاز من جهة اللفظ، ولمّا اشتملت عليه السورة من براهين التوحيد وإبطال الشرك.

{ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ } [2]

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، وجاءت على هذا النظم الجامع بين بيان الداعي، وبين إنكار السبب الذي دعا إليه وتجهيل المتسبّبين فيه. ولك أن تجعله استئنافا ابتدائيا، لأنّه مبدأ الغرض الذي جاءت له السورة، وهو الاستدلال على صدق الرّسول وإثبات البعث.

فالهمزة للاستفهام المستعمل في الإنكار، أي كيف يتعجّبون من ذلك تعجّب إحالة.

{ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً } لزيادة الدلالة على استقرار هذا التعجّب فيهم، لأنّ أصل اللام أن تفيد الملك، ويستعار ذلك للتمكّن، أي لتمكّن العجب من نفوسهم.

{ أَنْ أَوْحَيْنَا } اسم كان، وجيء فيه بـ(أَنْ) والفعل بصيغة الماضي كي يفيد الاستقرار، تحقيقا لوقوع الوحي المتعجّب منه وتجدّده، وذلك ما يزيدهم كمدا.

العجب، مصدر عجِب، إذا عدّ الشيء خارجا عن المألوف، نادر الحصول. ولمّا كان التعجّب مبدأ للتكذيب وهم قد كذبوا بالوحي إليه ولم يقتصروا على كونه عجيبا جاء الإنكار عليهم بإنكار تعجّبهم من الإيحاء إلى رجل من البشر.

ويجوز أن يكون العجب كناية عن إحالة الوقوع، كما في قوله تعالى { قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} [هود: 72، 73].

{ النَّاسَ } على طائفة من البشر، والمراد المشركون من أهل مكّة. عن ابن عبّاس:" أنكرت طائفة من العرب رسالة محمد ﷺ فقالوا: الله أعظم من أن يكون له رسول بشرا، فأنزل الله تعالى {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ } ".

{ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ } تفسيريّة لفعل {أَوْحَيْنَا}، و{النَّاسَ} الثاني يعمّ جميع البشر الذين يمكن إنذارهم، فهو عموم عرفي. وحذف المنذر به للتهويل، ولأنّه يعلم حاصله من مقابله {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا}.

{ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ }

القدم، اسم لما تقدّم وسلف، فيكون في الخير والفضل وفي ضدّه. و{ **قَدَمَ صِدْقٍ** } أي قدم خير.

الصدق، موافقة الشيء لاعتقاد المعتقد، واشتهر في مطابقة الخبر. ويضاف شيء إلى { صِدْقٍ } فيفيد مصادفته للمأمول منه المرضي، وأنّه لا يخيب ظنّ آمل كقوله { وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ } [90]

{ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ }.

قرأه الجمهور {لسِحْر} (بكسر السين وسكون الحاء) على أنّ المراد به الحاصل بالمصدر، أي أنّ هذا الكلام كلام السحر، كلام يُسحر به. وقرأه ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي {لَسَاحِرٌ} فالإشارة إلى النبيء صلى

الله عليه وسلم، وإن وصفهم إياه بالسحر ينبئ بأنهم كذّبوا بكونه من عند الله ولم يستطيعوا أن يدّعوه هذيانا وباطلا فهرعوا إلى ادّعائه سحرا. وهذا من عجزهم عن الطعن في القرآن بمطاعن في لفظه ومعانيه.

السحر، تخييل ما ليس بكائن كائنا. وقد تقدّم عند قوله تعالى {يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} [البقرة:102].

المبين، اسم فاعل من أبان الذي هو بمعنى بان، أي ظهر. أي سحر واضح ظاهر.

{ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ }[3]

استئناف ابتدائي للاستدلال على تفرد الله تعالى بالإلهيّة. ذلك أنّ أقوى شيء بعث المشركين على ادعاء أنّ ما جاء به النبيء سحر هو أنّه أبطل الشركاء لله في الإلهيّة ونفاها عن إلهتهم التي أشركوا بها فقالوا {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: 5] فلا جرم أن أعقب إنكار إحالتهم ذلك بإقامة الدليل على ثبوته.

والخطاب للمشركين، ولذلك أكّد الخبر بحرف التوكيد. وقد مضى القول في نظير صدر هذه الآية في قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }[الأعراف:54].

{ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ } في موضع الحال من اسم الجلالة، أو خبر ثان عن {رَبَّكُمُ }

التدبير، النظر في عواقب المقدّرات وعوائقها لقصد إيقاعها تامة فيما تُقصد له، محمودة العاقبة. وتدبير الله الأمور عبارة عن تمام العلم بما يخلقها عليه، لأنّ لفظ (التدبير) هو أوفى الألفاظ اللغوية بتقريب إتقان الخلق.

الأمر، جنس يعمّ جميع الشؤون والأحوال في العالم.

وفي إجراء هذه الصفات على الله تعالى تعريض بالردّ على المشركين. فبعد أن وصف الإله الحقّ بما هو منتف عن إلهتهم، نفي عنها وصف الشفاعة عند الله وحماية المغضوب عليهم منه.

{ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ } احتراس لإثبات شفاعة محمد ﷺ بإذن الله، قال تعالى {وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} .

الشفاعة، تقدّمت عند قوله تعالى {وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} [البقرة:48]، وكذلك **الشفيع** تقدّم عند قوله {فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ} [الأعراف:53].

{ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ } ابتدائية، فذلكة للجمل التي قبلها ونتيجة لها. والإتيان في صدرها باسم الإشارة لتمييزه أكمل تمييز، لأنّهم امتروا في صفة الإلهية وضلوا فيها ضلالا مبينا، فكانوا أحرياء بالإيقاظ بطريق اسم الإشارة، وللتنبيه على أنّ المشار إليه حقيق بما سيذكر بعد اسم الإشارة من حيث إنّه اتصف بتلك الأوصاف التي أشير إليه من أجلها، فإن خالق العوالم بغاية الإتقان والمقدرة ومالك أمرها ومدبّر شؤونها والمتصرّف المطلق مستحق للعبادة.

والمقصود من العبادة العبادة الحقّ التي لا يشرَك معه فيها غيره، بقرينة تفريع الأمر بها على الصفات المنفرد بها الله دون معبوداتهم.

{ **أَفَلا تَذَكَّرُونَ** } التفات من الغيبة، وهي ابتدائية للتقريع. فالاستفهام إنكار لانتفاء تذكّرهم إذ أشركوا معه غيره ولم يتذكّروا في أنه المنفرد بخلق العوالم وبملكها وبتدبير أحوالها.

التذكّر: التأمّل. فهو قريب من التفكّر، إلّا أنّ التذكّر لمّا كان مشتقا من مادة الذكر التي هي في الأصل جريان اللفظ على اللسان، والتي يعبّر بها أيضا عن خطور المعلوم في الذهن بعد سهوه وغيبته عنه، كان مشعرا بأنّه حركة الذهن في معلومات متقرّرة فيه من قبل. وللإشارة إلى أنّ الاستدلال على وحدانية الله تعالى قد تقرّر في النفوس بالفطرة.

{ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ }[4]

وقع أمرهم بعبادته عقب ذكر الجزاء، إنذارا وتبشيرا، فالجملة كالدليل على وجوب عبادته، وهي بمنزلة النتيجة الناشئة عن إثبات خلقه السماوات والأرض، لأنّ الذي خلق مثل تلك العوالم من غير سابق وجود لا يعجزه أن يعيد بعض الموجودات الكائنة في تلك العوالم خلقا ثانيا. وقد تضمنت هذه الآية إثبات الحشر الذي أنكروه وكذّبوا النبيء ﷺ لأجله.

{ **إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ** } في تقديم المجرور إفادة القصر، أي لا إلى غيره، قطع لمطامع بعضهم القائلين في آلهتهم {هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} [18]، يريدون أنّهم شفعاء على تسليم وقوع البعث للجزاء.

المرجع، مصدر ميمي بمعنى الرجوع. وقد تقدّم في قوله { إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً } [العقود:105].

{ **وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً** } مفعول مطلق توكيد لمضمون الجملة المساوية له {إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ}. والتقدير، وعدكم الله وعدا حقا.

{ **إِنَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** } واقعة موقع الدليل على وقوع البعث وإمكانه، بأنّه قد ابتدأ خلق النّاس، وابتداء خلقهم يدلّ على إمكان إعادة خلقهم بعد العدم.

{ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ** } إبداء لحكمة البعث وهي الجزاء على الأعمال المقترفة في الحياة الدنيا. إذ لو أرسل النّاس على أعمالهم بغير جزاء على الحسن والقبيح لاستوى المحسن والمسيء، وربما كان بعض المسيئين في هذه الدنيا أحسن فيها حالا من المحسنين. فكان من الحكمة أن يلقى كل عامل جزاء عمله. ولم يكن هذا العالم صالحا لإظهار ذلك، لأنّه وضع نظامه على قاعدة الكون والفساد، قابلا لوقوع ما يخالف الحقّ، ولصرف الخيرات عن الصالحين وانهيالها على المفسدين والعكس، لأسباب وآثار

هي أوفق بالحياة المقرّرة في هذا العالم، فكانت الحكمة قاضية بوجود عالم آخر متمحّض للكون والبقاء وموضوعا فيه كل صنف فيما يليق به لا يعدوه إلى غيره، إذ لا قبل فيه لتصرفات وتسببات تخالف الحقّ والاستحقاق.

وقدم جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات لشرفه ولياقته بذلك العالم.

القسط، العدل. وهو التسوية بين شيئين في صفة، والجزاء بما يساوي المجزى عليه. فتفيد (الباء) أنّهم يجزون بما يعادل أعمالهم الصالحة، فيكون جزاؤهم صلاحا هنالك وهو غاية النعيم، وأنّ ذلك الجزاء مكافأة على قسطهم في أعمالهم.

وإنّما خصّ بذلك جزاء المؤمنين مع أنّ الجزاء كله عدل، بل ربّما كانت الزيادة في ثواب المؤمنين فضلا زائدا على العدل لأمرين:

أحدهما، تأنيس المؤمنين وإكرامهم بأنّ جزاءهم قد استحقّوه بما عملوا، كقوله {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل: 32]. ومن أعظم الكرم أن يوهم الكريم أنّ ما تفضل به على المكرم هو حقّه وأن لا فضل له فيه.

الثاني، الإشارة إلى أن جزاء الكافرين دون ما يقتضيه العدل، ففيه تفضّل بضرب من التخفيف لأنّهم لو جوزوا على قدر جرمهم لكان عذابهم أشد، ولأجل هذا خولف الأسلوب في ذكر جزاء الذين كفروا فجاء صريحا بما يعم أحوال العذاب.

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } استئناف بياني، لأنّه لمّا ورد ذكر جزاء المؤمنين على أنّه العلّة لرجوع الجميع إليه ولم يذكر في العلة ما هو جزاء الجميع، لا جرم يتشوّف السامع إلى معرفة جزاء الكافرين، فجاء الاستئناف للإعلام بذلك.

ونكتة تغيير الأسلوب، حيث لم يعطف جزاء الكافرين على جزاء المؤمنين فيقال: ويجزى الذين كفروا بعذاب، هو للإشارة إلى الاهتمام بجزاء المؤمنين الصالحين وأنّه الذي يبادر بالإعلام به وأنّ جزاء الكافرين جدير بالإعراض عن ذكره لولا سؤال السامعين.

شراب الحميم، تقدّم في قوله تعالى { لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [الأنعام:70].

وخصّ الشراب من الحميم بالذكر من بين أنواع العذاب الأليم لأنه أكره أنواع العذاب في مألوف النفوس.

{ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } الباء للعوض.

{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [5]

هذا استدلال آخر على انفراده تعالى بالتصرّف في المخلوقات، وهذا لون آخر من الاستدلال على الإلهيّة

ممزوج بالامتنان على المحجوجين به، لأنّ الدليل السابق كان متضمّنا لعظيم أمر الخلق وسعة العلم والقدرة بذكر أشياء ليس للمخاطبين حظ في التمتّع بها. وهذا الدليل قد تضمّن أشياء يأخذ المخاطبون بحظ عظيم من التمتّع بها وهو خلق الشمس والقمر على صورتهما وتقدير تنقلاتهما تقديرا مضبوطا ألهم الله البشر للانتفاع به في شؤون حياتهم.

فجعل الشمس ضياء لانتفاع الناس بضيائها في مشاهدة ما به قوام أعمال حياتهم في أوقات أشغالهم. وجعل القمر نورا للانتفاع بنوره انتفاعا مناسبا للحاجة التي قد تعرض إلى طلب رؤية الأشياء في وقت الظلمة.

الضياء، النور الساطع القوي، لأنّه يضيء للرائي. وهو اسم مشتق من الضوء، وهو النور الذي يوضح الأشياء، فالضياء أقوى من الضوء.

النور، الشعاع، وهو مشتق من اسم النّار، وهو أعمّ من الضياء، يصدق على الشعاع الضعيف والشعاع القوي، فضياء الشمس نور ونور القمر ليس بضياء. هذا هو الأصل في إطلاق هذه الأسماء، ولكن يكثر في كلام العرب إطلاق بعض هذه الكلمات في موضع بعض آخر بحيث يعسر انضباطه. ولمّا جعل النور في مقابلة الضياء تعيّن أن المراد به نور ما.

{ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ } وهي مراتب نور القمر في القوّة والضعف. فالنور في كل منزلة له قدر غير قدره الذي في منزلة أخرى.

المنازل، جمع منزل، وهو مكان النزول. والمراد بها هنا المواقع التي يظهر القمر في جهتها كل ليلة من الشهر. وهي ثمان وعشرون منزلة على عدد ليالي الشهر القمري. وإطلاق اسم المنازل عليها مجاز بالمشابهة، وإنّما هي سموت يلوح للنّاس القمر كلّ ليلة في سمت منها، كأنّه ينزل بها. وقد رصدها البشر فوجدوها لا تختلف. وعلم المهتدون منهم أنّها ما وجدت على ذلك النظام إلّا بصنع الخالق الحكيم.

وهذه المنازل أمارتها أنجم مجتمعة على شكل لا يختلف، فوضع العلماء السابقون لها أسماء وهي: (العَوَّاء، السِّمَاك الاعْزل، الغَفْر، الزُّبَاني، الاكليل، القَلْب، الشَّوْلَة، النَعَائم، البَلْدَة، سَعْد الذَّابِح، سَعْد بَلَع، سَعْد السُّعود، سَعْد الأخْبِيَة، الفَرْغ الأعلى، الفَرْغ الأسفل، الحُوت، الشَّرَطَانِ، البُطَيْن، الثُّرَيَا، الدَّبَران، الهَقْعَة، الهَنْعَة، ذِرَاع الأسَد، النَّثْرَة، الطَّرْف، الجَبْهَة، الزُّبْرَة، الصَّرْفَة).

{ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } أنبأنا الله بعلة تقديره القمر منازل، بأنّها معرفة النّاس عدد السنين والحساب.

الحساب، مصدر حسب بمعنى عدّ. وهو معطوف على {عَدَدَ} ، أي ولتعلموا الحساب. والمراد به حساب الأيام والأشهر، لأنّ حساب السنين قد ذكر بخصوصه.

{ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ } مستأنفة كالنتيجة للجملة السابقة كلّها لأنّه لما أخبر بأنّه الذي جعل الشمس

ضياء والقمر نورا وذكر حكمة بعض ذلك، أفضى إلى الغرض من ذكره وهو التنبيه إلى ما فيها من الحكمة ليستدل بذلك على أنّ خالقهما فاعل مختار حكيم ليستفيق المشركون من غفلتهم عن تلك الحكم، كما قال تعالى في هذه السورة { وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ }

{ **يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** } هذه الجملة مستأنفة ابتدائية مسوقة للامتنان بالنعمة، ولتسجيل المؤاخذة على الذين لم يهتدوا بهذه الدلائل إلى ما تحتوي عليه من البيان. فعلى قراءة {نفصّل} بالنون وهي لنافع والجمهور ورواية عن ابن كثير ففي ضمير صاحب الحال التفات، وعلى قراءة {يُفَصِّلُ } بالتحتية وهي لابن كثير في المشهور عنه وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب أمرها ظاهر.

التفصيل، التبيين، لأنّ التبيين يأتي على فصول الشيء كلّها. والإتيان بالفعل المضارع لإفادة التكرار.

{ **لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** }، أي الذين من شأنهم العلم، لما يؤذن به المضارع من تجدّد العلم، وإنّما يتجدّد لمن هو ديدنه ودأبه، فإن العلماء أهل العقول الراجحة هم أهل الانتفاع بالأدلة والبراهين.

{ **إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ** } [6]

استدلال آخر على انفراد الله تعالى بالخلق والتقدير. وهو استدلال بأحوال الضوء والظلمة وتعاقب الليل والنّهار وفي ذلك عبرة عظيمة. وهو أعمّ من الدليل الأوّل لشموله ما هو أكثر من خلق الشمس والقمر ومن خلق الليل والنهار، ومن كلّ ما في الأرض والسماء ممّا تبلغ إليه معرفة النّاس في مختلف العصور وعلى تفاوت مقادير الاستدلال من عقولهم.

{ **إِنَّ** } التأكيد لأجل تنزيل المخاطبين به الذين لم يهتدوا بتلك الدلائل إلى التوحيد، منزلة من ينكر أنّ في ذلك آيات على الوحدانيّة، بعدم جريهم على موجب العلم.

وتقدّم القول في شبيهة هذه الآية وهو قوله {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ } [البقرة:164] وفي خواتم سورة آل عمران [190]

{ **لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ** } وفي آية البقرة {لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} وفي آية آل عمران {لِأُولِي الْأَلْبَابِ}، لأنّ السياق هنا تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بالآيات، ليعلموا أنّ بعدهم عن التقوى هو سبب حرمانهم من الانتفاع بالآيات، وأنّ نفعها حاصل للذين يتّقون، أي يحذرون الضلال. فالمتّقون هم المتصفون باتّقاء ما يوقع في الخسران، فيبعثهم على تطلّب أسباب النجاح فيتوجه الفكر إلى النظر والاستدلال بالدلائل.

{ **إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ** [7] **أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } [8]

هذا استئناف وعيد للذين لم يؤمنوا بالبعث ولا فكّروا في الحياة الآخرة، ولم ينظروا في الآيات. إشارة إلى أنّ هؤلاء لا تنفعهم الأدلة وإنّما ينتفع بها الذين يعلمون ويتّقون، وأمّا هؤلاء فهم سادرون في غلوائهم حتى يلاقوا العذاب.

الرجاء، ظنّ وقوع الشيء من غير تقييد كون المظنون محبوبا، وإن كان ذلك كثيرا في كلامهم لكنّه ليس بمتعيّن. فمعنى { **لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا** } لا يظنّونه ولا يتوقّعونه.

{ **وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا** } أنّهم لم يُعملوا النظر في حياة أخرى أرقى وأبقى، لأنّ الرضا بالحياة الدنيا والاقتناع بأنّها كافية يصرف النظر عن أدلة الحياة الآخرة، وأهل الهدى يرون الحياة الدنيا حياة ناقصة فيشعرون بتطلّب حياة تكون أصفى من أكدارها، فلا يلبثون أن تطّلع لهم أدلّة وجودها. وناهيك بإخبار الصادق بها ونصب الأدلة على تعين حصولها، فلهذا جعل الرضى بالحياة الدنيا مذمّة وملقيا في مهواة الخسران.

وليس ذلك بمقتض الإعراض عن الحياة الدنيا، فإنّ الله أنعم على عباده بنعم كثيرة فيها، وجب الاعتراف بفضله بها وشكره عليها والتعرّف بها إلى مراتب أعلى، هي مراتب حياة أخرى، والتزوّد لها.

الاطمئنان، السكون يكون في الجسد وفي النفس وهو الأكثر، قال تعالى { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ } .

{ **اطْمَأَنُّوا بِهَا** } سكنت أنفسهم وصرفوا هممهم في تحصيل منافعها ولم يسعوا لتحصيل ما ينفع في الحياة الآخرة. لأنّ السكون عند الشيء يقتضي عدم التحرّك لغيره.

{ **وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ** } هم عين الذين لا يرجون اللقاء، ولكن أعيد الموصول للاهتمام بالصلة والإيماء إلى أنّها وحدها كافية في استحقاق ما سيذكر بعدها من الخبر. وإنّما لم يعد الموصول في قوله {وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا} لأنّ الرضى بالحياة الدنيا من تكملة معنى {إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا}.

الغفلة، إهمال النظر في الآيات أصلا، بقرينة المقام الدال على الدوام، وبتقديم المجرور. مما يدل مجموعه على أن غفلتهم عن آيات الله دأب لهم وسجيّة، وأنّهم يتعمّدونها، فتؤول إلى معنى الإعراض عن آيات الله وإباء النظر فيها عنادا ومكابرة. وليس المراد من تعرض له الغفلة عن بعض الآيات في بعض الأوقات.

{ **أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** }

المأوى، اسم مكان الإيواء، أي الرجوع إلى مصيرهم ومرجعهم.

{ **بِمَا كَسَبُوا** } للإيماء إلى علّة الحكم، أي أن مكسوبهم سبّب في مصيرهم إلى النّار.

{ **كَانُوا** } للدلالة على أنّ هذا المكسوب ديدنهم. والإتيان بالمضارع { **يَكْسِبُونَ** } لتأكيد التكرير.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ

النَّعِيمِ [9] دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [10]

جاءت هذه الجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا لتكون أحوال المؤمنين مستقلّة بالذكر غير تابعة في اللفظ لأحوال الكافرين، وهذا من طرق الاهتمام بالخبر. ومناسبة ذكرها مقابلة أحوال الذين يكذّبون بلقاء الله بأضدادها تنويها بأهلها وإغاضة للكافرين.

الهداية، الإرشاد على المقصد النافع والدلالة عليه. فمعنى { **يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ** } يرشدهم إلى ما فيه خيرهم. والمقصود، الإرشاد التكويني، أي يخلق في نفوسهم المعرفة بالأعمال النافعة وتسهيل الإكثار منها. وأمّا الإرشاد الذي هو الدلالة بالقول والتعليم فالله يخاطب به المؤمنين والكافرين.

{ **بِإِيمَانِهِمْ** } الباء للسببيّة، بحيث إن الإيمان يكون سببا في الهداية. وفي الحديث الذي رواه الترمذي: " اتقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله".

{ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** } خبر ثان لذكر ما يحصل لهم من النعيم في الآخرة بسبب هدايتهم الحاصلة لهم في الدنيا. وتقدّم القول في نظيره في [البقرة :25].

{ **مِنْ تَحْتِهِمُ** } من تحت منازلهم.

النعيم، تقدّم في قوله تعالى { **لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ** } [براءة:21]

{ **دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ** }

الدعوى، هنا الدعاء. يقال: دعوة ، ودعوى.

سبحان، مصدر بمعنى التسبيح، أي التنزيه. وتقدّم عند قوله تعالى {قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا} [البقرة:32].

{ **اللَّهُمَّ** } نداء لله تعالى. ويجوز أن تكون تسمية هذا التسبيح دعاء من حيث إنّه ثناء مسوق للتعرّض إلى إفاضة الرحمات والنعيم.

ووجه ذكر هذا في عدد أحوالهم أنّها تدلّ على أنّ ما هم فيه من النعيم هو غايات الراغبين بحيث إن أرادوا أن ينعموا بمقام دعاء ربّهم الذي هو مقام القرب لم يجدوا أنفسهم مشتاقين لشيء يسألونه فاعتاضوا عن السؤال بالثناء على ربّهم، فألهموا إلى التزام التسبيح لأنّه أدلّ لفظ على التمجيد والتنزيه.

{ **وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ** }

التحية، اسم جنس لما يفاتح به عند اللقاء من كلمات التكرمة. وأصلها مشتقة من مصدر حيّاه إذا قال له عند اللقاء أحياك الله. ثم غلبت في كل لفظ يقال عند اللقاء، كما غلب لفظ السلام. فيشمل: نحو حيّاك الله، وعم صباحا، وعم مساء وصبّحك الله بخير، وبتّ بخير. أي جعل الله لهم لفظ السلام تحية لهم.

والظاهر أنّ التحيّة بينهم هي كلمة (سلام)، وأنّها محكية هنا بلفظها دون لفظ السلام عليكم أو سلام عليكم.

وأما قوله { وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ } [الرعد: 23، 24] فهو تلطّف معهم بتحيتهم التي جاءهم بها الإسلام.

ونكتة حذف كلمة (عليكم) في سلام أهل الجنّة بعضهم على بعض أنّ التحيّة بينهم مجرّد إيناس وتكرمة فكانت أشبه بالخير والشكر منها بالدعاء والتأمين. بخلاف تحيّة أهل الدنيا فإنّها تقع كثيرا بين المتلاقين الذين لا يعرف بعضهم بعضا فكانت فيها بقيّة من المعنى الذي أحدث البشر لأجله السلام، وهو معنى تأمين الملاقي من الشر المتوقّع.

ووجه ذكر تحيتهم في هذه الآية الإشارة إلى أنّهم في أنس وحبور، وذلك من أعظم لذات النفس. وفيه تنويه بشأن هذا اللفظ الذي هو شعار المسلمين عند ملاقاتهم لما فيه من المعاني الجامعة للإكرام، إذ هو دعاء بالسلامة من كلّ ما يكدّر، فهو أبلغ من أحياك الله.

{ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } بقيّة الجمل الحالية. والمعنى أنّهم يختمون به دعاءهم فهم يكرّرون {سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ} فإذا أرادوا الانتقال إلى حالة أخرى من أحوال النعيم نهوا دعاءهم بذلك.

وقد دلّ على فضل هاتين الكلمتين قول النبيء ﷺ: " كلمتان حبيبتان إلى الرحمان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم ".

{ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [11]

هذه الجملة معطوفة على جملة {إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا} [7] ، فحيث ذكر عذابهم الذي هم أيلون إليه ناسب أن يبيّن لهم سبب تأخير العذاب عنهم في الدنيا لتكشف شبهة غرورهم، وليعلم الذين آمنوا حكمة من حكم تصرف الله في هذا الكون. والقرينة على هذا الاتصال في آخر الآية. فقد بيّنت هذه الآية أنّ الرفق جعله الله مستعمرا على عباده غير منقطع عنهم لأنّه أقام عليه نظام العالم إذ أراد ثبات بنائه، وأنّه لم يقدّر توازي الشرّ في هذا العالم بالخير، لطفا منه ورفقا، فالله لطيف بعباده، وفي ذلك منّة عظيمة عليهم، وأنّ الذين يستحقّون الشرّ لو عجّل لهم ما استحقّوه لبطل النظام الذي وضع عليه العالم.

{ لِلنَّاسِ } اسم عام لجميع النّاس، ولكن لمّا كان الكلام على إبطال شبهة المشركين وكانوا المستحقّين للشرّ كانوا أوّل من يتبادر من عموم النّاس، كما زاده تصريحا قوله {فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }.

{ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ } جاء نظم الآية على إيجاز محكم بديع، فذكر في جانب

الشرّ {يُعَجِّلُ} الدال على أصل جنس التعجيل ولو بأقل ما يتحقّق فيه معناه، وعبّر عن تعجيل الله الخير لهم بلفظ {اسْتِعْجَالَهُمْ} الدال على المبالغة في التعجيل بما تفيده زيادة السين والتاء.
فليس الاستعجال هنا بمعنى طلب التعجيل لأنّ المشركين لم يسألوا تعجيل الخير ولا سألوه فحصل، بل هو بمعنى التعجل الكثير. والمعنى، ولو يعجّل الله للنّاس الشرّ كما يجعل لهم الخير كثيرا.
{ **بِالْخَيْرِ** } الباء لتأكيد اللصوق، وتأكيد اللصوق على الامتنان، بأنّ الخير لهم كثير ومكين. وقد كثر اقتران مفعول فعل الاستعجال بهذه الباء ولم ينبّهوا عليه في مواقعه المتعددة. وسيجيء في النحل.
{ **لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ** } جواب (لو)، وشأن جواب (لو) أن يكون في حيز الامتناع، أي وذلك ممتنع لأنّ الله قدّر لآجال انقراضهم ميقاتا معينا {مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ} [الحجر: 5].
القضاء، التقدير. و**الأجل**، المدّة المعيّنة لبقاء قوم.
{ **فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** } مفرّعة على جملة (لو) وجوابها المفيدة انتفاء أن يعجّل الله للنّاس الشرّ بانتفاء لازمه وهو بلوغ أجلهم إليهم. أي فإذا انتفى التعجيل فنحن نذر الذين لا يرجون لقاءنا يعمهون، أي نتركهم في مدة تأخير العذاب عنهم متلبّسين بطغيانهم، أي فرط تكبّرهم وتعاظمهم.
العمه، عدم البصر. و**الطغيان**، الكفر. أي فنترك المنكرين للبعث في ضلالهم استدراجا لهم. وتقدّم نظيره في قوله { وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [البقرة:15].
{ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [12]
لمّا بين في الآية السابقة وجه تأخير عذاب الاستئصال عنهم وإرجاء جزائهم إلى الآخرة، بيّن في هذه حالهم عندما يمسّهم شيء من الضرّ وعندما يكشف الضرّ عنهم. والغرض الأهم من كلتيهما هو الاعتبار بذميم أحوال المشركين تفظيعا لحالهم وتحذيرا من الوقوع في أمثالها.
{ **الْإِنْسَانَ** } مراد به الجنس، والتعريف يفيد الاستغراق العرفي، أي الإنّسان الكافر، لأنّ جمهور النّاس حينئذ كافرون، إذ كان المسلمون قبل الهجرة لا يعدون بضعة وسبعين رجلا مع نسائهم وأبنائهم الذين هم تبع لهم. وبهذا الاعتبار يكون المنظور إليهم في هذا الحكم هم الكافرون. ويأخذ المسلمون من هذا الحكم ما يناسب مقدار ما في آحادهم من بقايا هذه الحال الجاهليّة فيفيق كلّ من غفلته.
ومن المفسّرين من جعل اللام في الإنسان للعهد، وجعل المراد به أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي، واسمه مُهَشِّم، وكان مشركا، وكان أصابه مرض.
الضرّ، تقدّم في قوله { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ } [الأنعام:17].
الدعاء، هنا الطلب والسؤال بتضرّع.

{ **لِجَنْبِهِ** } اللام بمعنى (على) كقوله تعالى {يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ} [الإسراء:109]. وإنّما سلك هنا حرف الاختصاص للإشارة إلى أنّ الجنب مختصّ بالدعاء عند الضرّ ومتّصل به، فبالأولى غيره.

{ **أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً** } ذكر الأفعال الدالة على أصل المعنى، للدلالة على أنّه يدعو الله في أندر الأحوال ملابسة للدعاء، وهي حالة تطلب الراحة وملازمة السكون. ولذلك ابتدئ بذكر الجنب، وزيادة {أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً} لقصد تعميم الأحوال وتكميلها، لأن المقام مقام الإطناب لزيادة تمثيل الأحوال، أي دعانا في سائر الأحوال لا يلهيه عن دعائنا شيء.

{ **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ** } هذا التفريع هو المقصود من الكلام إذ الحالة الأولى وهي المفرع عليها حالة محمودة لولا ما يعقبها.

الكشف، حقيقته إظهار شيء عليه ساتر أو غطاء. وشاع إطلاقه على مطلق الإزالة. إمّا على طريقة المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق، وإمّا على طريقة الاستعارة بتشبيه المزال بشيء ساتر لشيء.

المرور، هنا مجازي بمعنى استبدال حالة بغيرها. شبّه الاستبدال بالانتقال من مكان إلى آخر، أي نسي حالة اضطراره واحتياجه إلينا فصار كأنّه لم يقع في ذلك الاحتياج.

{ **كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } تذييل يعمّ ما تقدّم وغيره، أي هكذا التزيين الشيطاني زيّن لهم ما كانوا يعملون من أعمالهم في ماضي أزمانهم في الدعاء وغيره من ضلالاتهم.

وهو تزيين إعراضهم عن دعاء الله في حالة الرخاء.

الإسراف، الإفراط والإكثار في شيء غير محمود. فالمراد بالمسرفين هنا الكافرون. واختير لفظ {الْمُسْرِفِينَ} لدلالته على مبالغتهم في كفرهم، فالتعريف في المسرفين للاستغراق ليشمل المتحدّث عنهم وغيرهم.

وأسند فعل التزيين إلى المجهول لأنّ المسلمين يعلمون أنّ المزيّن للمسرفين خواطرهم الشيطانية، فقد أسند فعل التزيين إلى الشيطان غير مرّة. أو لأنّ معرفة المزيّن لهم غير مهمّة هاهنا وإنّما المهمّ الاعتبار والاتعاظ باستحسانهم أعمالهم الذميمة استحسانا شنيطا.

والمعنى أن شأن الأعمال الذميمة القبيحة إذا تكررت من أصحابها أن تصير لهم دربة، تحسن عندهم قبائحها فلا يكادون يشعرون بقبحها فكيف يقلعون عنها.

{ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ } [13]

عاد الخطاب إلى المشركين عودا على بدئه، بمناسبة التماثل بينهم وبين الأمم قبلهم في الغرور بتأخير العذاب عنهم حتّى حلّ بهم الهلاك فجأة. وهذه الآية تهديد وموعظة بما حلّ بأمثالهم.

ولتوكيد التهديد والوعيد أكدت الجملة بلام القسم و(قد) التي للتحقيق.

الإهلاك، الاستئصال والإفناء.

القرون، جمع قرن وأصله مدة طويلة من الزمان، والمراد به هنا أهل القرون.

والمعنى، أهلكناهم حينما ظلموا، أي أشركوا وجاءتهم رسلهم بالبيّنات، مثل هود وصالح، ولم يؤمنوا

البيّنات، جمع بيّنة، وهي الحجّة على الصدق.

{ **وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا** } معطوفة عليها. ومجموع الجمل الثلاث هو ما وقّت به الإهلاك. قال تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً }.

{ **كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ** } تذييل. والتعريف في {الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} للاستغراق، فلذلك عمّ القرون الماضية والمخاطبين، وبذلك كان إنذارا لقريش بأن ينالهم ما نال أولئك. والمراد بالإجرام أقصاه، وهو الشرك.

{ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [14]

{ **ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ** } عطف على {أَهْلَكْنَا} وحرف (ثمّ) مؤذن ببعد ما بين الزمنين، أي ثم جعلناكم تخلفونهم في الأرض. و تقتضي أيضا التراخي الرتبي، لأنّ جعلهم خلائف أهمّ من إهلاك القرون قبلهم، لما فيه من المنّة عليهم، ولأنّه عوّضهم بهم.

الخلائف، جمع خليفة. وتقدّم في قوله {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ} [الأنعام:165].

{ **الْأَرْضِ** } بلاد العرب، فالتعريف فيه للعهد، لأنّ المخاطبين خلفوا (عادا وثمودا وطسما وجديسا وجرهما) في منازلهم على الجملة.

{ **لِنَنْظُرَ** } مستعمل في العلم المحقّق، لأنّ النظر أقوى طرق المعرفة، أي لنعلم علما متعلّقا بأعمالكم.

وإنّما جعل استخلافهم في الأرض علّة لعلم الله بأعمالهم كناية عن ظهور أعمالهم في الواقع إن كانت مما يرضي الله أو مما لا يرضيه. فإذا ظهرت أعمالهم علمها الله علم الأشياء النافعة وإن كان يعلم أن ذلك سيقع علما أزليا. وقد تقدّم نظير هذا في قوله تعالى {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ} [آل عمران:140].

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [15]

أسلوب آخر من أساليب تكذيبهم النبيء ﷺ أن يكون القرآن موحى إليه من الله تعالى. فهم يتوهّمون أنّ القرآن

وضعه النبيء ﷺ من تلقاء نفسه، ولذلك جعلوا من تكذيبهم أن يقولوا له {ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ} إطماعا له بأن يؤمنوا به.

{ **آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ** } لزيادة التعجيب من طلبهم تبديلها إذ لا طمع في خير منه.

{ **ائْتِ بِقُرْآنٍ** } وسموا ما طلبوا الإتيان به قرآنا لأنّه عوض عن المسمى بالقرآن، فإنّ القرآن علم على الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ أي ائت بغير هذا مما تسميه قرآنا.

{ **غَيْرِ هَذَا** } مخالِفه. والمراد المخالفة للقرآن كلّه بالإعراض عنه وابتداء كتاب آخر بأساليب أخرى، كمثل كتب قصص الفرس وملاحمهم، إذ لا يحتمل كلامهم غير ذلك. إذ ليس مرادهم أن يأتي بسور أخرى غير التي نزلت من قبل لأنّ ذلك حاصل.

التبديل، التغيير. والمراد بالتبديل أن يعمد إلى القرآن الموجود فيغيّر الآيات المشتملة على عبارات ذمّ الشرك بمدحه، وعبارات ذمّ أصنامهم بالثناء عليها، وعبارات البعث والنشر بضدّها.

ثم إنّ قولهم يحتمل أن يكون جدّا ويحتمل أن يريدوا به الاستهزاء، وعلى الاحتمالين فقد أمر الله نبيّه ﷺ بأن يجيبهم بما يقلع شبهتهم من نفوسهم إن كانوا جادين، أو من نفوس من يسمعونهم من دهمائهم فيحسبوا كلامهم جدّا فيترقبوا تبديل القرآن.

ولمّا كان لاقتراحهم معنى صريح، وهو الإتيان بقرآن آخر أو تبديل آيات القرآن الموجود، ومعنى التزامي كنائي، وهو أنّه غير منزل من عند الله وأنّ الذي جاء به غير مرسل من الله، كان الجواب عن قولهم جوابين، أحدهما، ما لقّنه الله بقوله {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي} وهو جواب عن صريح اقتراحهم، وثانيهما، ما لقّنه بقوله {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ} [16] وهو جواب عن لازم كلامهم.

وعن مجاهد تسمية أناس ممن قال هذه المقالة وهم خمسة: (**عبد الله بن أمية**، و**الوليد بن المغيرة**، و**مكرز بن حفص**، و**عمرو بن عبد الله بن أبي قيس**، و**العاص ابن عامر**)، قالوا للنبيء ﷺ: ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة الأصنام واللات والعزى ومناة وهبل، وليس فيه عيبها.

{ **قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي** } وقد جاء الجواب بأبلغ صيغ النفي وهو {مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ} أي ما يكون التبديل ملكا بيدي.

{ **تِلْقَاءِ** } صيغة مصدر على وزن التفعال. وقياس وزن التفعال الشائع هو فتح التاء وقد شذ عن ذلك (تلقاء، وتبيان، وتمثال، بمعنى اللقاء والبيان والمثول) فجاءت بكسر التاء لا رابع لها، ثم أطلق التلقاء على جهة التلاقي ثم أطلق على الجهة والمكان مطلقا كقوله تعالى {وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ} [القصص: 22].

فالمعنى، من جهة نفسي.

{ **إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ** } تعليل، أي ما أتبع إلّا الوحي وليس لي تصرف بتغيير.

ومن رام أن يحتجّ بهذا القصر على عدم جواز الاجتهاد للنبيء ﷺ فقد خرج بالكلام عن مهيعه.

{ **إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** } في موضع التعليل لجملة {إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} ولذلك فصلت عنها. واقترنت بحرف (إن) للاهتمام، وهي تؤذن بالتعليل.

{ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ}[16]

هذا جواب عن لازم اقتراحهم وكنايته عن رميهم الرّسول ﷺ بالكذب عن الله فيما ادّعى من إرساله وإنزال القرآن عليه كما تقدّم في الجواب قبله. ولكونه جوابا مستقلا عن معنى قصدوه من كلامهم جاء الأمر به مفصولا عن الأول غير معطوف عليه تنبيها على استقلاله وأنّه ليس بتكملة للجواب الأول.

وفي هذا الجواب استدلال على أنّه مرسل من الله تعالى، وأنّه لم يختلق القرآن من عنده. أي لو شاء الله أن لا آتيكم بهذا القرآن لما أرسلني به ولبقيت على الحالة التي كنت عليها من أول عمري.

التلاوة، قراءة المكتوب أو استعراض المحفوظ، فهي مشعرة بإبلاغ كلام من غير المبلّغ. وقد تقدّمت عند قوله تعالى {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ} [البقرة:102].

{ **أَدْرَاكُمْ** } عرّفكم. وفعل الدراية إذا تعلق بذات يتعدى إليها بنفسه تارة وبالباء أيضا، يقال: دريته ودريت به. وقد جاء في هذه الآية على الاستعمال الثاني وهو الأكثر في حكاية سيبويه.

{ **وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ** }، أي لو شاء الله ما أمرني بتلاوة القرآن عليكم ولا أعلمكم الله به.

{ **فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** } تذكير لهم بقديم حاله المعروفة بينهم وهي حال الأمّيّة. أي قد كنت بين ظهرانيكم مدة طويلة، وهي أربعون سنة، تشاهدون أطوار نشأتي.

اللبث، الإقامة في المكان مدّة. وتقدم في قوله تعالى: { قَالَ كَمْ لَبِثْتَ } [البقرة:259]

{ **فِيكُمْ** }، أي بينكم.

العمر، الحياة. اشتق من العمران، لأنّ مدة الحياة يعمر بها الحي العالم الدنيوي. ويطلق العمر على المدّة الطويلة التي لو عاش المرء مقدارها لكان قد أخذ حظّه من البقاء. وهذا هو المراد هنا بدليل تنكير {عُمُراً} والمعنى لبثت فيكم أربعين سنة قبل نزول القرآن.

{ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** } إذ قد ظهر من حالهم ما يجعلهم كمن لا يعقل. والتقدير، أفلا تعقلون أنّ مثل هذا الحال، من الجمع بين الأمّيّة والإتيان بهذا الكتاب البديع في بلاغته ومعانيه، لا يكون إلّا حال من أفاض الله عليه رسالته

{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ } [17]

لما قامت الحجّة عليهم بما لا قبل لهم بالتنصّل منه أعقبت بالتفريع على افترائهم الكذب وذلك مما عُرف من

أحوالهم من اتخاذهم الشركاء له، وتكذيبهم بآيات الله.

{ **أَوْ** } للتقسيم، وهو إمّا تقسم أحوال، وإما تقسم أنواع. والاستفهام إنكاري.

الظلم، هنا بمعنى الاعتداء. وإنّما كان أحد الأمرين أشدّ الظلم لأنّه اعتداء على الخالق بالكذب عليه وبتكذيب آياته.

{ **إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ** } تذييل، وموقعه يقتضي شمول عمومه للمذكورين في الكلام.

الفلاح، تقدّم في قوله تعالى { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [البقرة:5].

وافتتاح الجملة بضمير الشأن لقصد الاهتمام بمضمونها.

{ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }[18]

عطف على { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ } [15] عطف القصّة على القصّة. والمناسبة بين القصّتين أنّ في كلتيهما كفرا أظهروه في صورة السخرية والاستهزاء. كانوا إذا أنذرهم النبيء ﷺ بعذاب الله قالوا: تشفع لنا إلهتنا عند الله. وقد روي أنّه قاله النضر بن الحارث: " إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى".

ويجوز أن تكون {وَيَعْبُدُونَ} عطفا على {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً} [17] فإن عبادتهم ما لا يضرّهم ولا ينفعهم من الافتراء.

{ **يَعْبُدُونَ** } و { **يَقُولُونَ** } اختيار صيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة من استمرارهم على عبادتها.

{ **مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ** } وقدّم ذكر نفي الضر على نفي النفع لأن المطلوب من المشركين الإقلاع عن عبادة الأصنام وقد كان سدنتها يخوّفون عَبدتها بأنّها تلحق بهم وبصبيانهم الضرّ، كما قالت امرأة طفيل بن عمرو الدوسي حين أخبرها أنّه أسلم ودعاها إلى أن تسلم فقالت: " أما تخشى على الصبية من ذي الشَرَى".

[الشرى(بفتح الشين المعجمة وألف في آخره) شجر الحنظل. وذو الشرى: صنم كان يعبده بنو دوس. كان بين مكة والطائف. ويسمى أيضاً ذا الكفّين]. فأريد الابتداء بنفي الضرّ لإزالة أوهام المشركين في ذلك الصّادة لكثير منهم عن نبذ عبادة الأصنام.

{ **وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ** } لتحقير رأيهم من رجاء الشفاعة من تلك الأصنام، فإنّها لا تقدر على ضرّ ولا نفع في الدنيا فهي أضعف مقدرة في الآخرة. وفي قولهم اعتراف بأنّ المتصرّف هو الله.

{ **قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ** } وقد أمر الله نبيّه عليه الصلاة والسلام أن يردّ عليهم بتهكّم بهم. ومعنى ذلك أنّ هذا لمّا كان شيئا اخترعوه وهو غير واقع جعل اختراعه بمنزلة أنّهم أعلموا

الله به وكان لا يعلمه، فصار ذلك كناية عن بطلانه، لأنّ ما لم يعلم الله وقوعه فهو منتف.
{ **أَتُنَبِّئُونَ** } الاستفهام للإنكار والتوبيخ.
الإنباء، الإعلام.
{ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** } إنشاء تنزيه، فهي منقطعة عن التي قبلها فلذلك فصلت. وتقدّم الكلام على نظيره عند قوله { وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنعام:100].

{ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }[19]

جملة معترضة بين جملة {وَيَعْبُدُونَ} [18] وجملة {وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} [20]. لأنّ عبادة الأصنام واختراع صفة الشفاعة لها هو من الاختلاف الذي أحدثه ضُلّال البشر في العقيدة السليمة التي فطر الله النّاس عليها في أوّل النشأة، فهي مما يشمله التوبيخ الذي في قوله {أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ} [18].
{ **وَمَا كَانَ النَّاسُ** } صيغة القصر للمبالغة في تأكيد الخبر لأنّه خبر مهم عجيب، هو من الحِكم العِمرانية والحقائق التاريخية بالمكان الأسمى.
وحسن القصر هنا وقوعه عقب الجدال مع الذين غيّروا الدين الحقّ وروّجوا نحلتهم بالمعاذير الباطلة كقولهم {هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} [18] وقولهم {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: 3]، بخلاف آية سورة البقرة {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً}[213]، فإنّها وقعت في سياق المجادلة مع أهل الكتاب، وأهل الكتاب لا ينكرون أنّ النّاس كانوا أمة واحدة.
فآية هذه السورة تشير إلى الوحدة الاعتقادية ولذلك عبر عن التفرّق الطارئ عليها باعتبار الاختلاف المشعر بالمذمّة والمعقب بالتخويف في قوله {وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ} إلى آخره. وآية سورة البقرة تشير إلى الوحدة الشرعية التي تجمعها الحنيفية الفطرية، ولذلك عبّر عن التفرّق الذي طرأ عليها بأنّ الله بعث النبيئين مبشّرين ومنذرين، ثم جاء ذكر الاختلاف عرضا عقب ذلك بقوله {وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ } وأريد به الاختلاف بين أتباع الشرائع لقوله { وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ } [البقرة: 213].
{ **وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً** } تقدّم القول في نظيره في سورة البقرة[213].
النّاس، اسم جمع للبشر وتعريفه للاستغراق.

الأمة، الجماعة العظيمة التي لها حال واحد في شيء ما. والمراد هنا أمّة واحدة في الدين. فتعيّن أنّ المراد في هذه الآية بكون النّاس أمّة واحدة، الوحدة في الحقّ، لأنّ المقصود من هذه الآية بيان فساد الشرك وإثبات خطأ منتحليه بأن سلفهم الأول لم يكن مثلهم في فساد العقول، وقد كان للمخاطبين تعظيم لما كان عليه أسلافهم.

ويجوز أن يراد بالنّاس العرب خاصة بقرينة الخطاب، ويكون المراد تذكيرهم بعهد أبيهم إبراهيم عليه السلام إذ كان هو وأبناؤه وذريّتهم على الحنيفيّة والتوحيد كما قال تعالى {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الزخرف: 26-28]، أي في عقبه من العرب، فيكون التعريف للعهد.

{ **وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** } إخبار بأنّ الحقّ واحد، وأنّ ذلك الاختلاف مذموم، وأنّه لولا أنّ الله أراد إمهال البشر إلى يوم الجزاء لأراهم وجه الفصل في اختلافهم باستئصال المبطل وإبقاء المحقّ.

{ **كَلِمَةٌ** } أجملت هنا وأشير إليها في الشورى بقوله {وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} [الشورى:14]. وأصرح من ذلك في بيان معناها قوله تعالى { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [هود:118] وسيأتي بيانها.

الأجل، هو أجل بقاء الأمم، وذلك عند انقراض العالم، فالقضاء بينهم إذن مؤخّر إلى يوم الحساب.

{ **فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** } تقديم المجرور للرعاية على الفاصلة.

{ وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ}[20]

عطف على { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ} [18]، فبعد أن ذكر افتراءهم في جانب الإلهيّة نفى بهتانهم في جانب النبوّة.

{ **لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ** } (لولا) حرف تحضيض، وشأن التحضيض أن يواجه به المحضّض لأنّ التحضيض من الطلب، وشأن الطلب أن يواجه به المطلوب، ولذلك كان تعلّق فعل الإنزال بضمير الغائب في هذه الآية مؤولا بأحد وجهين:

إمّا أن يكون التفاتا، وأصل الكلام: لولا أنزل عليك، وهو من حكاية القول بالمعنى، ونكتة ذلك، نكتة الالتفات لتجديد نشاط السامع.

وإما أن يكون هذا القول صدر منهم فيما بينهم ليبيّن بعضهم لبعض شبهة على انتفاء رسالة محمد ﷺ، أو صدر منهم للمسلمين طمعا في أن يردوهم إلى الكفر.

الآية، علامة الصدق. وأرادوا خارقا للعادة على حسب اقتراحهم. وهذا من جهلهم بحقائق الأشياء وتحكيمهم الخيال والوهم في حقائق الأشياء، فهم يفرضون أنّ الله حريص على إظهار صدق رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنّه يستفزّه تكذيبهم إيّاه فيغضب ويسرع في مجاراة عنادهم ليكفّوا عنه، فإن لم يفعل فقد أفحموه وأعجزوه وهو القادر. فتوهّموا أنّ مدعي الرسالة عنه غير صادق في دعواه وما دروا أنّ الله قدّر نظام الأمور تقديرا، ووضع الحقائق وأسبابها، وأجرى الحوادث على النظام الذي قدّره، وجعل الأمور بالغة مواقيتها التي حدّد لها، ولا يضرّه أن يكذّب المكذّبون أو يعاند الجاهلون، وقد وضع لهم ما يليق بهم من الزواجر في الآخرة لا محالة، وفي الدنيا تارات، كل ذلك يجري على نظم اقتضتها الحكمة لا يحمله على تبديلها سؤال سائل ولا تسفيه سفيه. وهو الحكيم العليم.

فهم جعلوا استمرار الرّسول ﷺ على دعوتهم بالأدلة التي أمره الله أن يدعوهم بها وعدم تبديله ذلك بآيات أخرى على حسب رغبتهم جعلوا كل ذلك دليلا على أنّه غير مؤيد من الله فاستدلوا بذلك على انتفاء أن يكون الله أرسله، لأنّه لو أرسله لأيّده بما يوجب له القبول عند المرسل إليهم.

{ **مِنْ رَبِّهِ** } العدول عن اسم الجلالة إلى لفظ الربّ المضاف إلى ضمير الرسول ﷺ إيماء إلى الربوبيّة الخاصة بالتعلّق بالرسول ﷺ وهي ربوبية المصطفِي (بصيغة اسم الفاعل) للمصطفَى (بصيغة المفعول) من بين بقية الخلق المقتضية الغضب لغضبه لتوهّمهم أنّ غضب الله مثل غضب الخلائق يستدعي الإسراع إلى الانتقام وما علموا أسرار الحكمة الإلهية والحكم الإلهي والعلم الأعلى.

{ **فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ** } ، أمر الله رسوله بأن يجيب عن اقتراحهم بما هو الحقيقة المرشدة وإن كانت أعلى من مداركهم، جوابا فيه تعريض بالتهديد لهم، فجاء بفاء التفريع هنا دون بعض نظائره للإشارة إلى تعقيب كلامهم بالجواب شأن المتمكّن من حاله المتثبّت في أمره.

الغيب، ما غاب عن حواس النّاس من الأشياء، والمراد به هنا ما يتكوّن من مخلوقات غير معتادة في العالم الدنيوي من المعجزات.

{ **لِلَّهِ** } اللام للملك، أي الأمور المغيّبة لا يقدر عليها إلّا الله. وجاء الكلام بصيغة القصر للردّ عليهم في اعتقادهم أنّ في مكنة الرّسول الحق أن يأتي بما يسأله قومه من الخوارق، فجعلوا عدم وقوع مقترحهم علامة على أنّه ليس برسول من الله، فلذلك رد عليهم بصيغة القصر الدالة على أنّ الرّسول ليس له تصرّف في إيقاع ما سألوه، ليعلموا أنّهم يرمون بسؤالهم إلى الجراءة على الله تعالى بالإفحام.

{ **فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ** } أي ليس دأبي ودأبكم إلّا انتظار ما يأتي به الله إن شاء، كقول نوح

لقومه {إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [هود: 33].
{ **مَعَكُمْ** } معية مجازية مستعملة في الاشتراك في مطلق الانتظار.

{ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ }[21]

لمّا حكى تمرّد المشركين بيّن هنا أنّهم في ذلك لاهون ببطرهم وازدهائهم بالنعمة والدعة فأنساهم ذلك أن يتوقّعوا حدوث ضدّه فتفنّنوا في التكذيب والاستهزاء، كما قال تعالى {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً} [المزمل: 11].
والملقى إليه الكلام هو النبيء ﷺ والمؤمنون. وفيه تعريض بتذكير الكفّار بحال حلول المصائب بهم لعلّهم يتذكّرون، فيعدّوا عدّة الخوف من حلول النقمة التي أنذرهم بها في قوله { فَانْتَظِرُوا } [20].
{ **النَّاسَ** } المعهودون المتحدّث عنهم بقرينة السياق في قوله تعالى {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ} [12].
الإذاقة، مستعملة في مطلق الإدراك، استعارة أو مجازا، كما تقدّم في قوله {لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ} [المائدة:95].
الرحمة، هنا مطلقة على أثر الرحمة، وهو النعمة والنفع، كقوله {وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ }.
الضراء، الضرّ. و**المسّ**، مستعمل في الإصابة.
والمعنى إذا نالت النّاس نعمة بعد الضرّ، كالمطر بعد القحط، والأمن بعد الخوف، والصحة بعد المرض.
{ **إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا** } (إذا) للمفاجأة، يدل على البدار والإسراع بمضمون الجملة، فيفيد مفاد فاء التعقيب التي يؤتى بها لربط جواب الشرط بشرطه، فإذا جاء حرف المفاجأة أغنى عنها.
المكر حقيقته إخفاء الإضرار وإبرازه في صورة المسالمة.
والمعنى، أنّهم يوهمون أنّ آيات القرآن غير دالة على صدق الرسول، ويزعمون أنّه لو أنزلت عليه آية أخرى لآمنوا بها وهم كاذبون في ذلك، وإنّما هم يكذّبونه عنادا ومكابرة وحفاظا على دينهم في الشرك.
{ **قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً** } ولمّا كان الكلام متضمّنا التعريض بإنذارهم، أمر الرسول أن يعظهم بأنّ الله أسرع مكرا. وأطلق على تأجيل الله عذابهم اسم المكر على وجه الاستعارة التمثيلية، وحسنته المشاكلة.
{ **إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ** } استئناف خطاب للمشركين مباشرة تهديدا من الله، فلذلك فصلت على التي قبلها لاختلاف المخاطب. أعلمهم الله بأنّ الملائكة الموكّلين بإحصاء الأعمال يكتبون ذلك. والمقصود أنّ

مكرهم محصى معدود عليهم لا يهمل، وهو إنذار بالعذاب عليه.

{**يَكْتُبُونَ - يَمْكُرُونَ**} المضارع للدلالة على التكرّر.

{ **مَا تَمْكُرُونَ** } التفات من الغيبة إلى الخطاب لاختلاف معادي الضميرين.

{ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ [22] فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [23]

هذه الجملة بدل اشمال من الجملة السابقة، لأن البغي في الأرض اشتمل عليه المكر في آيات الله. والمقصود من هذه الجملة هو قوله {فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ} وما سواه تمهيد وإدماج للامتنان.

أعقب التهديد على كفران النعمة بذكر بعض نعم الله عليهم، ثم ضرّاء تعقب النعمة للابتلاء والتذكير بخالقهم. لكيلا يغترّوا بالإمهال فيحسبوه رضى بكفرهم أو عجزا عن أخذهم، وهذا موقع رشيق جدّ الرشاقة لهذه الآية القرآنية.

{ **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ** } قصر ادعائي، وإسناد التسيير إلى الله تعالى باعتبار أنّه سببه، لأنّه خالق إلهام التفكير وقوى الحركة العقلية والجسديّة، فالإسناد مجاز عقلي. والكلام مستعمل في الامتنان والتعريض بإخلالهم بواجب الشكر.

{ **حَتَّى** } ابتدائية، وهي غاية للتسيير في البحار خاصة، والمغيّا هو ما في قوله {يُسَيِّرُكُمْ} من المنّة المؤذنة بأنّه تسيير رفق ملائم للنّاس، فكان ما بعد (حتّى) ومعطوفاتها نهاية ذلك الرفق، حيث ينتهي السير المنعّم به ويدخلون في حالة البأساء والضراء، وهذا النظم نسج بديع في أفانين الكلام.

ومن بديع الأسلوب في الآية أنّها لمّا كانت بصدد ذكر النعمة جاءت بضمائر الخطاب الصالحة لجميع السامعين، فلمّا تهيأت للانتقال إلى ذكر الضرّاء وقع الانتقال من ضمائر الخطاب إلى ضمير الغيبة لتلوين الأسلوب بما يخلّصه إلى الإفضاء إلى ما يخصّ المشركين فقال { **وَجَرَيْنَ بِهِمْ** } على طريقة الالتفات، أي وجرين بكم. وهذا ضرب من الالتفات لم ينبّه عليه أهل المعاني وهو كالتخصيص بطريق الرمز.

{ **يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** } والسير في البر معروف للعرب. وكذلك السير في البحر. كانوا يركبون البحر إلى اليمن وإلى بلاد الحبشة. وكانت لقريش رحلة الشتاء إلى اليمن وقد يركبون البحر لذلك. وقد وصف طرفة بن العبد السفن وسيرها، وذكرها عمرو بن كلثوم في معلقته، والنابغة في داليّته.

الفلك، اسم لمركب البحر، وهو هنا مراد به الجمع.
الجري، السير السريع في الأرض أو في البحر، قال تعالى {باسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا} والظاهر أنّه حقيقة فيهما.
الريح، مؤنّثة في كلام العرب.
الطيّبة، والطيّب، الموصوف بالطيب الشديد. وأصل معنى الطيّب الملاءمة فيما يراد من الشيء، كقوله تعالى { فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً } [النحل: 97]، ويقال: طاب له المقام في مكان كذا، وهنا الملائمة الرفيقة بالراكبين .
{ **جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ** } جواب {إِذَا} . وفي ذكر جَريها بريح طيبة وفرحهم بها إيماء إلى أنّ مجيء العاصفة حدث فجأة دون توقّع.
العاصف، وصف خاص بالريح، أي شديدة السرعة. وإنّما لم تلحقه علامة التأنيث لأنّه مختصّ بوصف الريح فاستغنى عن التأنيث، مثل: نافس وحائض ومرضع، فشاع استعماله كذلك.
{ **مِنْ كُلِّ مَكَانٍ** } من كل جهة من جهات الفلك.
{ **وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ** } ظنوا الهلاك. فالعرب يقولون: أحاط العدو بالقبيلة إذا تمكّن منها وغلبها، لأنّ الإحاطة بها تدلّ على الإحداق بها وتطويقها. استعارة تمثيلية للهلاك كما تقدم في قوله تعالى {وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} [البقرة: 19] وقوله تعالى { وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ } [الكهف: 42] أي هلكت.
{ **دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** } جواب: {إِذَا} . ومعنى مخلصين له الدين ممحّضين له العبادة في دعائهم. أي دعوه ولم يدعوا معه أصنامهم. وليس المراد أنّهم أقلعوا عن الإشراك في جميع أحوالهم بل تلك حالتهم في الدعاء عند الشدائد.
{ **لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** } بيان لجملة { دَعَوُا } لأنّ مضمونها هو الدعاء. والإشارة بـ {هَذِهِ} إلى حالة حاضرة لهم، وهي حالة إشرافهم على الغرق. وقد أُكّد وعدهم بالشكر بثلاث مؤكّدات: لام توطئة القسم، ونون التوكيد، والتعبير بصيغة {**مِنَ الشَّاكِرِينَ**} دون لنكوننّ شاكرين، لما يفيده من كونهم من هذه الزمرة التي ديدنها الشكر، كما تقدّم بيان خصوصية مثل هذا التركيب.
{ **فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** } وأتى بحرف (إذا) الفجائية للدلالة على تعجيلهم بالبغي في الأرض عقب النجاة.
البغي، الاعتداء. والمراد به هنا الإشراك كما صرّح به في نظيرها {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} [العنكبوت: 65]. وسمّي الشرك بغيا لأنّه اعتداء على حقّ الخالق وهو أعظم اعتداء، كما يسمّى ظلما في آيات كثيرة منها قوله {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: 13]. ولا يحسن تفسير البغي هنا بالظلم والفساد في الأرض، إذ ليس ذلك شأن جميعهم فإنّ منهم حلماء قومهم، ولأنّه لا يناسب قوله بعد {إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ}

{ **فِي الْأَرْضِ** } لمجرد تأكيد تمكّنهم من النجاة. وهو كقوله {فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ} [لقمان: 32] أي جعلوا مكان أثر النعمة بالنجاة مكانا للبغي.

{ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** } كذلك هو قيد كاشف لمعنى البغي، إذ البغي لا يكون بحق.

{ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** }

{ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** } لاستصغاء أسماعهم. والمقصود من هذا تحذير المشركين ثم تهديدهم.

{ **إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ** } وصيغة قصر البغي تنبيه على حقيقة واقعيّة وموعظة لهم، ليعلموا أنّ التحذير من الشرك والتهديد عليه لرعي صلاحهم لا لأنّهم يضرّونه. فالمعنى إنّما بغي كل أحد على نفسه، لأنّ الشرك لا يضرّ إلّا بنفس المشرك باختلال تفكيره وعمله ثم بوقوعه في العذاب.

{ **مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } مرفوع في قراءة الجمهور على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي هو متاع الحياة الدنيا.

وقرأه حفص عن عاصم بالنصب على الحال من { بغيكم }.

وتوقيت البغي بهذه المدة باعتبار أنّه ذكر في معرض الغضب عليهم، فالمعنى أنّه أمهلكم إمهالا طويلا فهلا تتذكرون؟ فلا تحسبون الإمهال رضى بفعلكم ولا عجزا، وسيؤاخذكم به في الآخرة.

المتاع، ما ينتفع به انتفاعا غير دائم. والمعنى على كلتا القراءتين واحد، أي أمهلناكم على إشراككم مدّة الحياة لا غير ثم نؤاخذكم على بغيكم عند مرجعكم إلينا.

{ **ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ** } عطفت بـ { ثُمَّ } لإفادة التراخي الرتبي لأنّ مضمون هذه الجملة أصرح تهديدا من مضمون جملة { إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ }. وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص، أي ترجعون إلينا لا إلى غيرنا.

{ **فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } تفريع وعيد على تهديد. واستعمل الإنباء كناية عن الجزاء، لأنّ الإنباء يستلزم العلم بأعمالهم السيئة، والقادر إذا علم بسوء صنيع عبده لا يمنعه من عقابه مانع.

{ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }[24]

تتنزّل هذه الآية منزلة البيان لجملة {مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [23] المؤذنة بأنّ تمتّعهم بالدنيا ما هو إلّا لمدة قصيرة، فبيّنت هذه الآية أن التمتّع صائر إلى زوال، وأطنبت فشبّهت هيئة التمتّع بالدنيا لأصحابها بهيئة الزرع في نضارته ثم في مصيره إلى الحصد.

{ **إِنَّمَا مَثَلُ** } المثَل، الحال الماثلة على هيئة خاصة، كان التشبيه هنا تشبيه حالة مركّبة بحالة مركبة. عبّر

عن ذلك بلفظ المثل الذي شاع في التشبيه المركّب كما تقدم في أوّل سورة البقرة.
وصيغة القصر لتأكيد المقصود من التشبيه، وهو سرعة الانقضاء. ولتنزيل السامعين منزلة من يحسب دوام بهجة الحياة الدنيا. وهو قصر قلب، بني على تنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد عكس تلك الحالة. ومن بديع هذا التشبيه تضمّنه لتشبيهات مفرّقة من أطوار الحالين المتشابهين.
{ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ } شبّه به ابتداء أطوار الحياة من وقت الصبا، إذ ليس ثمّة سوى الأمل في نعيم العيش ونضارته، فذلك الأمل يشبه حال نزول المطر من السماء في كونه ما يؤمّل منه من زخرف الأرض ونضارتها.
{ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ } شبّه به طور ابتداء نضارة العيش وإقبال زهرة الحياة، فذلك يشبه خروج الزرع بعيد المطر فيما يشاهد من بوارق المأمول، ولذلك عطف بفاء التعقيب للإيذان بسرعة ظهور النبات عقب المطر، فيؤذن بسرعة نماء الحياة في أوّل أطوارها.
{ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ } وصف لنبات الأرض الذي منه أصناف يأكلها النّاس من الخضروات والبقول، وأصناف تأكلها الأنعام من العشب والكلأ، وذلك يشبّه به ما ينعَم به النّاس في الحياة من اللذّات وما ينعَم به الحيوان، فإنّ له حظًّا في نعيم الحياة بمقدار نطاق حياته.
ولمّا كان ذلك قد تضمن المأكول والأكل صحّ أن تشبّه به رغبات النّاس في تناول لذائذ الحياة على حسب اختلاف مراتب الهمم، وذلك يتضمّن تشبيه معالي الأمور من نعم الدنيا التي تسمو إليها الهمم العوالي بالنبات الذي يقتاته النّاس، وتشبيه سفاسف الأمور بالنبات الذي يأكله الأنعام.
{ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ } مثله في قوله **{حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ}** [22]، وهو غاية شبّه بها بلوغ الانتفاع بخيرات الدنيا إلى أقصاه، وانهماك النّاس في تناولها ونسيانهم المصير إلى الفناء.
وإطلاق أخذ الأرض زخرفها على حصول الزينة فيها استعارة مكنية. شبّهت الأرض بالمرأة حين تريد التزين فتحضر فاخر ثيابها من حليّ وألوان.
الزخرف، اسم الذهب. وأطلق على ما يتزين به مما فيه ذهب وتلوين من الثياب والحلي.
{ ازَّيَّنَتْ } أصله تزيّنت فقلبت التاء زايا لتدغم في الزاي فسكنت وأدغمت واجتلبت همزة الوصل لأجل النطق بالساكن.
{ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا } أنّهم مستمرّون على الانتفاع بها محصّلون لثمراتها، فأطلق على التمكّن من الانتفاع ودوامه لفظ (القدرة) على وجه الاستعارة.
{ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ }

أمر الله: تقديره وتكوينه. **وإتيانه**: إصابة تلك الأرض بالجوائح المعجّلة لها باليبس والفناء.

{ **لَيْلاً أَوْ نَهَاراً** } ترديد في الوقت لإثارة التوقّع من إمكان زوال نضارة الحياة في جميع الأزمنة، لأنّ الشيء الموقّت بمعيّن من التوقيت يكون النّاس في أمن من حلوله في غير ذلك الوقت.

الحصيد، المحصود، وهو الزرع المقطوع من منابته. والإخبار عن الأرض بحصيد على طريقة المجاز العقلي، وإنّما المحصود نباتها.

{ **لَمْ تَغْنَ** } لم تَعْمُر، أي لم تعمر بالزرع. يقال: غَنِيَ المكان إذا عَمَر. ومنه المغنَى للمكان المأهول. وضد أغنى أقفر المكان.

{ **بِالْأَمْسِ**} الباءللظرفية. والأمس، اليوم الذي قبل يومك. والمراد في الآية مطلق الزمن الذي مضى، لأنّ أمس يستعمل بمعنى ما مضى من الزمان، كما يستعمل الغد في معنى المستقبل واليوم في معنى الحال.

{ **كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } تذييل جامع، أي نبيّن الدلالات كلّها الدالة على عموم العلم والقدرة وإتقان الصنع. فهذه آية من الآيات المبيّنة وهي واحدة من عموم الآيات. وتقدّم نظيره في قوله تعالى {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام:55]

التفكّر، التأمّل والنظر، وهو تفعّل مشتق من الفكر، وقد مرّ عند قوله تعالى { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ} [الأنعام:50]. وفيه تعريض بأنّ الذين لم ينتفعوا بالآيات ليسوا من أهل التفكّر ولا كان تفصيل الآيات لأجلهم.

{ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }[25]

{ **وَاللَّهُ يَدْعُو** } حذف المفعول لقصد التعميم، أي يدعو كلّ أحد. و**الدعوة** هي الطلب والتحريض. وهي هنا أوامر التكليف ونواهيه.

دار السلام، الجنّة، ، وتقدّم وجه تسميتها بذلك في قوله { لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ } [الأنعام:127].

{ **وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** } الهداية، الدلالة على المقصود النافع، والمراد بها هنا خلق الاهتداء إلى المقصود. فهي هداية بالمعنى الأصلي، أي خلق حصوله بأمر التكوين. وهذا التكوين يقع إمّا في كل جزئيّة من جزئيّات الاهتداء، على طريقة الأشاعرة، وإمّا بخلق الاستعداد له بحيث يقدر على الاهتداء عند حصول الأدلة، على طريقة المعتزلة. وهما متقاربان في الحال، وشؤون الغيب خفيّة. وقد تقدّم شيء من ذلك عند قوله تعالى {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: 6]. و**الصراط المستقيم**: الطريق الموصل.

{ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [26]

{ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا } هم الذين هداهم الله إلى صراط مستقيم، وأنّ الصراط المستقيم هو العمل الحسن، وأنّ الحسنى هي دار السلام.

الحسنى، في الأصل صفة أنثى الأحسن، ثم عوملت معاملة الجنس فأدخلت عليها لام تعريف الجنس فبعدت عن الوصفية ولم تتبع موصوفها. وتعريفها يفيد الاستغراق.

والمعنى، للذين أحسنوا الجنّة، لأنّها أحسن مثوبة يصير إليها الذين أحسنوا، وبذلك صيّرها القرآن علما بالغلبة على الجنّة ونعيمها.

{ وَزِيَادَةٌ } زيادة لهم ليست داخلة في نوع الحسنى. فتعيّن أنّها أمر يرجع إلى رفعة الأقدار. قيل: هي رضى الله تعالى، كما في قوله { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة: 72]. وقيل: هي رؤيتهم الله تعالى. وقد ورد ذلك عن النبيء ﷺ في صحيح مسلم وجامع الترمذي، عن صهيب عن النبيء ﷺ في قوله تعالى: { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ } قال: " إذا دخل أهل الجنّة الجنّة نادى مناد: إنّ لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه، قالوا: ألم تبيّض وجوهنا وتنجنا من النّار وتدخلنا الجنّة، قال: فيكشف الحجاب، قال: فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحبّ إليهم من النظر إليه ". وهو أصرح ما ورد في تفسيرها.

الرهق، الغشيان.

القتر، لون هو غُبرة إلى السواد. ويقال له قترة. والذي تخلّص لي من كلام الأئمة والاستعمال أنّ القترة لون يغشى جلدة الوجه من شدّة البؤس والشقاء والخوف.

الذلّة، الهوان. والمراد أثر الذلّة الذي يبدو على وجه الذليل. والكلام مستعمل في صريحه وكنايته، أي لا تتشوّه وجوههم بالقتر وأثر الذلة ولا يحصل لهم ما يؤثر القتر وهيئة الذلّة.

وليس معنى نفي القتر والذلّة عنهم في جملة أوصافهم مديحا لهم لأنّ ذلك لا يخطر بالبال وقوعا بعد أن أثبت لهم الحسنى وزيادة، بل المعنى التعريض بالذين لم يهدهم الله إلى صراط مستقيم، وهم الذين كسبوا السيّئات تعجيلا للمساءة إليهم بطريق التعريض قبل التصريح الذي سيأتي.

{ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } نتيجة للمقدّمة، فبينها وبين التي قبلها كمال الاتصال ولذلك فصلت عنها ولم تعطف.

{ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [27]

{ **كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ** } للإشارة إلى أنّ إساءتهم من فعلهم وسعيهم فما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

{ **جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا** } التنكير للعموم، أي جزاء كلّ سيّئة بمثلها، وهو وإن كان في سياق الإثبات فالعموم مستفاد من المقام وهو مقام عموم المبتدأ.

{ **وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ** } اقتصر على الذلّة لهم دون زيادة (ويرهقهم قتر) لأنّه سيجيء ما هو أشدّ منه.

{ **مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ** } تهديد وتأييس.

العاصم، المانع والحافظ. ومعنى { **مِنَ اللَّهِ** } من انتقامه وجزائه.

{ **كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً** } بيان لجملة { تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ } بيان تمثيل.

{ **أُغْشِيَتْ** } معدّى غَشِي، إذا أحاط وغطّا. وتقدّم في قوله تعالى {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} [الأعراف:54].

{ **قِطَعاً** } (بفتح الطاء) في قراءة الجمهور، جمع قطعة، وهي الجزء من الشيء، سمّي قطعة لأنّه يقتطع من كلّ غالبا. وقرأه ابن كثير والكسائي ويعقوب {قِطْعا} (بسكون الطاء). وهو اسم للجزء من زمن الليل المظلم. قال تعالى { فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ } [هود:81].

{ **مُظْلِماً** } حال من الليل. ووصف الليل وهو زمن الظلمة بكونه مظلما لإفادة تمكّن الوصف منه.

{ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } هي كجملة {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [26].

{ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ [28] فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ}[29]

لمّا ذكر في الجملتين السابقتين ما يختصّ به كلّ فريق من الفريقين من الجزاء وسماته، جاءت هذه الجملة بإجمال حالة جامعة للفريقين ثم بتفصيل حالة يمتاز بها المشركون ليحصل بذلك ذكر فظيع من أحوال الذين بلغوا الغاية في كسب السيّئات، وهي سيّئة الإشراك الذي هو أكبر الكبائر.

{ **وَيَوْمَ** } زيد في صدر الجملة لأنّ ذلك اليوم لمّا كان هو زمن الحشر وأعمال عظيمة أريد التذكير به تهويلا وموعظة.

{ **نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً** } الضمير للذين تقدّم الكلام عليهم، وهم الذين أحسنوا والذين كسبوا السيّئات. وذلك أنّ الحشر يعمّ النّاس كلهم. ومن نكت ذكر حشر الجميع هنا التنبيه على أنّ فظيع حال المشركين وافتضاحهم يكون بمرأى ومسمع من المؤمنين، فتكون السلامة من تلك الحالة زيادة في النعمة على المسلمين وتقوية في

النكاية للمشركين.

الحشر، الجمع من أمكنة إلى مكان واحد. وتقدّم في قوله تعالى {وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأنعام،111].

{ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ }

{ **مَكَانَكُمْ** } منصوب على المفعولية بفعل محذوف تقديره، الزموا مكانكم، واستعماله هذا شائع في كلام العرب في الأمر بالملازمة، مع التزام حذف العامل فيه حتّى صار بمنزلة أسماء الأفعال الموضوعة للأمر، نحو: صه. وأمرهم بملازمة المكان تثقيف وحبس. وإذ قد جُمع فيه المخاطبون وشركاؤهم علم أنّ ذلك الحبس لأجل جريمة مشتركة بين الفريقين، وهي كون أحد الفريقين عابدا والآخر معبودا.

{ **وَشُرَكَاؤُكُمْ** } الأصنام. وصفوا بالشركاء لاعتقاد المخاطبين ذلك. فإضافة شركاء إلى ضمير المخاطبين تهكّم.

{ **فَزَيَّلْنَا** } زيّل، مضاعف زال المتعدّي. يقال: زاله عن موضعه يَزِيله، بمعنى أزاله فجعلوه يائي العين للتفرقة بينه وبين زال القاصر الذي هو واوي العين. فزيّل فعل للمبالغة في الزيل مثل فرّق مبالغة في فرق. والمعنى وقع بينهم تفريق قوي بحيث انقطعت جميع الوِصَل التي كانت بينهم.

والتزييل هنا مجازي فيشمل اختلاف القول.

{ **وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ** } ويقول الشركاء هذا الكلام بخلق نطق فيها خارق للعادة يفهمه النّاس لإشعار أولئك العابدين بأن أصنامهم تبرأوا منهم، وذلك مما يزيدهم ندامة. وكلام الأصنام يفيد نفي أن يكونوا عبدوهم بل عبدوا غيرهم. وفي استقامة ذلك إشكال لأنّ الواقع أنهم عبدوهم وعبدوا غيرهم، فكيف ينفي كلامهم عبادتهم إيّاهم ؟

وقد تأوّل المفسرون هذا بوجوه لا ينثلج لها الصدر. والذي ظهر لي أن يكون آخر كلام الأصنام مبيّنا لما أجمله أوّله، بأنّهم نفوا أن يكونوا عبدوهم عبادة كاملة وهي العبادة التي يقصد منها العابد امتثال أمر المعبود وإرضاءه، فتقتضي أن يكون المعبود عالما وآمرا بتلك العبادة. ولمّا كانت الأصنام غير عالمين ولا آمرين استقام نفيهم أن يكون عَبدتهم قد عبدوهم تلك العبادة وإنّما عبدوا غيرهم ممّن أمروهم بالعبادة، وهم الشياطين ولذلك قالوا {إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ} كما تفسره الآية الأخرى وهي قوله تعالى {أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} [سبأ: 40، 41].

{ **فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ** } مؤكّدة بالقسم ليُثبتوا البراءة مما ألصق بهم. وجواب القسم {إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ}. وعطفت جملة القسم بالفاء للدلالة على أنّ القسم متفرّع على الكلام المتقدّم، لأنّ إخبارهم بنفي أن يكونوا يعبدونهم خبر غريب مخالف لما هو مشاهد فناسب أن يفرّع عليه ما يحقّقه ويبيّنه مع تأكيد ذلك بالقسم. والإتيان بفاء التفريع عند تعقيب الكلام بجملة قسميّة من فصيح الاستعمال، كقوله تعالى { فَوَرَبِّكَ

لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الحجر: 90-93]. ومن خصائصه أنّه إذا عطف بفاء التفريع كان مؤكدا لما قبله بطريق تفريع القسم عليه ومؤكدا لما بعده بطريق جواب القسم به. وهذه الآية لم تفسر حق تفسيرها.

الشهيد، الشاهد، وهو المؤيّد والمصدق لدعوى مدّع.

كفى، بمعنى أجزأ وأغنى عن غيره. وتقدّم في قوله تعالى { وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً } [النساء:45].

{ **إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ** } جواب للقسم. وتقديم {عَنْ عِبَادَتِكُمْ} على عامله للاهتمام وللرعاية على الفاصلة.

{ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}[30]

تذييل وفذلكة للجمل السابقة. وهو اعتراض بين الجمل المتعاطفة.

{ **هُنَالِكَ** } الإشارة إلى المكان الذي أنبأ عنه قوله {نَحْشُرُهُمْ} [28]، أي في ذلك المكان الذي نحشرهم فيه. وقُدم للاهتمام به، لأنّ الغرض الأهم من الكلام عظم ما يقع فيه.

{ **تَبْلُو** } تُختبر، وهو هنا كناية عن التحقّق وعلم اليقين. و{ **أَسْلَفَتْ** } قدّمت، أي عملا أسلفته.

والمعنى أنّها تختبر حالته وثمرته فتعرف ما هو حسن ونافع وما هو قبيح وضار، إذ قد وضح لهم ما يفضي إلى النعيم بصاحبه، وضدّه.

{ **وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ** }

يجوز ان تكون معطوفة على جملة {هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ} فتكون من تمام التذييل. ويجوز أن تكون معطوفة على قوله و {يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً} [28] أي ونردّهم إلينا، ويكون ضمير {ردّوا} عائدا إلى الذين أشركوا خاصة. والمعنى تحقّق عندهم الحشر الذي كانوا ينكرونه.

الردّ: الإرجاع. والإرجاع إلى الله، الإرجاع إلى تصرّفه بالجزاء على ما يرضيه وما لا يرضيه. وقد كانوا من قبل حين كانوا في الحياة الدنيا ممهلين غير مجازين.

المولى، السيّد، لأنّ بينه وبين عبده ولاء عهد الملك. ويطلق على متولّي أمور غيره وموفّر شؤونه.

الحقّ، الموافق للواقع والصدق، أي ردوا إلى الإله الحقّ دون الباطل. أي دون الأولياء الذين زعموهم باطلا.

{ **وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } هذه الجملة مختصه بالمشركين كما هو واضح.

الضلال، الضياع.

{ **مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } ما كانوا يكذبون من نسبتهم الإلهيّة إلى الأصنام.

{ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ } [31]

انتقال من غرض إلى غرض في أفانين إبطال الشرك وإثبات توحّد الله تعالى بالإلهيّة. وهذه الجملة تتنزّل منزلة الاستدلال لقوله {مَوْلاهُمُ الْحَقِّ} [30]، لأنّها برهان على أنّه المستحق للولاية.

فاحتجّ على ذلك بمواهب الرزق الذي به قوام الحياة، وبموهبة الحواس، وبنظام التناسل والتوالد الذي به بقاء الأنواع، وبتدبير نظام العالم وتقدير المقدّرات، فهذه كلها مواهب من الله. وهم كانوا يعلمون أنّ جميع ما ذكر لا يفعله إلّا الله، إذ لم يكونوا ينسبون إلى أصنامهم هذه الأمور، فلا جرم أن كان المختصّ بها هو مستحق الولاية والإلهيّة.

والاستفهام تقريري. وجاء الاستدلال بطريقة الاستفهام والجواب لأنّ ذلك في صورة الحوار، فيكون الدليل الحاصل به أوقع في نفوس السامعين، ولذلك كان من طرق التعليم ممّا يراد رسوخه من القواعد العلميّة أنّ يؤتى به في صورة السؤال والجواب.

{ **مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** } تذكير بأحوال الرزق ليكون أقوى حضورا في الذهن، فالرزق من السماء المطر، والرزق من الأرض النبات.

{ **أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ** } (أم) للإضراب الانتقالي من استفهام إلى آخر. أي يملك التصرّف فيهما، وهو ملك إيجاد تينك الحاستين، وذلك استدلال وتذكير بأنفع صنع وأدقّه.

وأفرد { **السَّمْعَ** } لأنّه مصدر فهو دال على الجنس الموجود في جميع حواس النّاس. وأمّا {**الْأَبْصَارَ**} فجي به جمعا لأنّه اسم، فهو ليس نصّا في إفادة العموم لاحتمال توهّم بصر مخصوص، فكان الجمع أدلّ على قصد العموم وأنفى لاحتمال العهد ونحوه، بخلاف قوله {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} [الإسراء: 36]، لأنّ المراد الواحد لكلّ مخاطب بقوله { وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [الإسراء: 36].

وقد تقدّم عند قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ } [الأنعام:46].

{ **وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ** } هو تولّد أطفال الحيوان من النطف ومن البيض. فالنطفة أو البيضة تكون لا حياة فيها ثم تتطور إلى الشكل القابل للحياة ثم تكون فيها الحياة. وإخراج الميّت من الحي إخراج النطفة والبيض من الحيوان. وقد تقدّم الكلام على نظيره في قوله {وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} [آل عمران:27]. غير أنّ ما هنا ليس فيه رمز إلى شيء.

{ **وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ** } تقدّم القول في نظيره في أوائل هذه السورة. وهو هنا تعميم بعد تخصيص.

{ **فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ** } فاء السببية التي من شأنها أن تقترن بجواب الشرط إذا كان غير صالح لمباشرة أداة الشرط، وذلك أنّه قصد تسبّب قولهم { اللَّهُ } على السؤال المأمور به النبيء عليه الصلاة والسلام.

{ **فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ** } والفاء في { فَقُلْ } فاء الفصيحة، أي إن قالوا ذلك فقل أفلا تتقون. والفاء في {أَفَلا تَتَّقُونَ} فاء التفريع، أي يتفرّع على اعترافكم بأنّه الفاعل الواحد إنكار عدم التقوى عليكم.

ومفعول {تَتَّقُونَ} محذوف، تقديره تتقونه، أي بتنزيهه عن الشريك.

{ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } [32]

{ **فَذَلِكُمُ** } الفاء للتفريع على الإنكار الذي في قوله {أَفَلا تَتَّقُونَ} [31]، فالفرع من جملة المقول. واسم الإشارة عائد إلى اسم الجلالة للتنبيه على أنّ المشار إليه جدير بالحكم الذي سيذكر بعد اسم الإشارة من أجل الأوصاف المتقدّمة على اسم الإشارة وهي كونه، الرازق، الواهب الادراك، الخالق، المدبّر.

{ **اللَّهُ** } اسم الجلالة بيان لاسم الإشارة لزيادة الإيضاح تعريضا بقوة خطئهم وضلالهم في الإلهية.

{ **رَبُّكُمُ الْحَقُّ** } تقدّم الوصف بالحقّ آنفا في الآية مثل هذه.

{ **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ** } فاء تفريع للاستفهام الإنكاري على الاستنتاج الواقع بعد الدليل، فهو تفريع على تفريع، وتقريع بعد تقريع.

{ **بَعْدَ** } هنا مستعملة في معنى (غير) باعتبار أنّ المغاير يحصل إثر مغايره وعند انتفائه. فالمعنى، لا يكون إثر انتفاء الحقّ إلّا الضلال إذ لا واسطة بينهما. فلمّا كان الله هو الربّ الحقّ تعيّن أنّ غيره مما نسبت إليه الإلهيّة باطل. وعبّر عن الباطل بالضلال لأنّ الضلال أشنع أنواع الباطل.

{ **فَأَنَّى تُصْرَفُونَ** } الفاء للتفريع أيضا، أي لتفريع التصريح بالتوبيخ على الإنكار والإبطال.

{ **أَنَّى** } استفهام عن المكان، إلى أيّ مكان تصرفكم عقولكم؟ وهو مكان اعتباري، أي أنكم في ضلال وعماية كمن ضلّ عن الطريق.

{ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ }[33]

تذييل للتعجيب من استمرارهم على الكفر بعد ما ظهر لهم من الحجج والآيات، وتأييس من إيمانهم بإفادة أنّ انتفاء الإيمان عنهم بتقدير من الله تعالى عليهم، فقد ظهر وقوع ما قدّره من كلمته في الازل. والكاف الداخلة قبل اسم الإشارة كاف التشبيه. والمشبه به هو المشار إليه، وهو حالهم وضلالهم.

وقرأ نافع، وابن عامر {كلمات ربك} بالجمع. وقرأها الباقون بالإفراد، والمعنى واحد لأنّ الكلمة تطلق على مجموع الكلام كقوله تعالى {كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا} [المؤمنون: 100]، ولأن الجمع يكون باعتبار تعدد

الكلمات أو باعتبار تكرر الكلمة الواحدة بالنسبة لأنّاس كثيرين.

{ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا }

الفسق، الخروج من المسلك الذي شأن الشيء سلوكه، والمراد به فسق عن تلقي دعوة الرسل وإعمال النظر، وتقدّم في قوله تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ } [البقرة:26]

ثم يجوز أن يكون المرد بالذين فسقوا كلّ من استمر على فسقه فلا يؤمن، فتكون الجملة تذييلا لما فيها من العموم الشامل لهؤلاء المتحدّث عنهم. ويجوز أن يكون المراد بالذين فسقوا المتحدّث عنهم خاصة فيكون من الإظهار في مقام الإضمار لإفادة أنّهم مع صفاتهم السابقة قد اتصفوا بالفسق، ولإفادة كون فسقهم علّة في أن حقت عليهم كلمة الله.

{ أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } بدل من **{ كَلِمَتُ رَبِّكَ }**.

{ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } [24]

هذا مقام تقرير وتعديد الاستدلال، وهو من دواعي التكرير، وهو احتجاج عليهم بأنّ حال إلهتهم على الضدّ من صفات الله تعالى، فبعد أن أقام عليهم الدليل على انفراد الله تعالى بالرزق وخلق الحواس وخلق الأجناس وتدبير جميع الأمور وأنّه المستحق للإلهيّة بسبب ذلك الانفراد، بيّن هنا أنّ إلهتهم مسلوبة من صفات الكمال وأنّ الله متّصف بها. وإنّما لم يعطف لأنّه غرض آخر مستقل، وموقع التكرير يزيده استقلالا.

{ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ } الاستفهام إنكار وتقرير بإنكار ذلك، إذ ليس المتكلّم بطالب للجواب، ولا يسعهم إلّا الاعتراف بذلك، فهو في معنى نفي أن يكون من إلهتهم من يبدأ الخلق ثم يعيده.

{ قُلِ اللَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ } أمر النبيء ﷺ بأن يرتقي معهم في الاستدلال، فصار مجموع الجملتين قصرا لصفة بدء الخلق وإعادته على الله تعالى قصر إفراد، أي دون شركائكم، أي فالأصنام لا تستحق الإلهية والله منفرد بها.

{ ثُمَّ يُعِيدُهُ .... ثُمَّ يُعِيدُهُ } ذكر إعادة الخلق في الموضعين مع أنّهم لا يعترفون بها ضرب من الإدماج في الحجاج وهو فن بديع.

{ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } كقوله { فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } [32].

أَفَكَهُ، قلبه. والمعنى، فإلى أي مكان تقلبون. والقلب مجازي وهو إفساد الرأي.

{ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } [35]

هذا تكرير آخر وهو استدلال بنقصان إلهتهم عن الإرشاد إلى الكمال النفساني بنشر الحقّ، وبأنّ الله تعالى هو

الهادي إلى الكمال والحقّ، ومجموع الجملتين مفيد قصر صفة الهداية إلى الحقّ على الله تعالى دون إلهتهم قصر إفراد، كما تقدّم في نظيره آنفا. ومعلوم أنّ منّة الهداية إلى الحقّ أعظم المنن لأنّ بها صلاح المجتمع وسلامة أفراده من اعتداء قويّهم على ضعيفهم، ولولا الهداية لكانت نعمة الإيجاد مختلّة أو مضمحلّة.

{ **يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ** } إلى الدين، وهو الأعمال الصالحة، وأصوله وهي الاعتقاد الصحيح.

وقد أتبع الاستدلال على كمال الخالق ببدء الخلق وإعادته بالاستدلال على كماله بالهداية كما في قول إبراهيم - عليه السلام - {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ} [الشعراء: 78] وقول موسى - عليه السلام - {رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: 50] وقوله تعالى {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [الأعلى: 1-3]. وذلك أنّ الإنسان الذي هو أكمل ما على الأرض مركّب من جسد وروح، فالاستدلال على وجود الخالق وكماله بإيجاد الأجساد وما فيها هو الخلق، والاستدلال عليه بنظام أحوال الأرواح وصلاحها هو الهداية.

{ **أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ** } إلى آخره تفريع استفهام تقريري على ما أفادته الجملتان السابقتان من قصر الهداية إلى الحق على الله تعالى دون إلهتهم. وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه أهل العقول بأنّ الذي يهدي إلى الحقّ يوصل إلى الكمال الروحاني وهو الكمال الباقي إلى الأبد وهو الكون المصون عن الفساد فإن خلق الأجساد مقصود لأجل الأرواح، والأرواح مراد منها الاهتداء، فالمقصود الأعلى هو الهداية. وإذ قد كانت العقول عرضة للاضطراب والخطأ احتاجت النفوس إلى هدي يُتلقّى من الجانب المعصوم عن الخطأ وهو جانب الله تعالى، فلذلك كان الذي يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يُتَّبع، لأنّه مصلح النفوس ومصلح نظام العالم البشري، فاتّباعه واجب عقلا.

{ **مَنْ لا يَهِدِّي** } أي الذي لا يهتدي فضلا عن أن يهدي غيره، أي لا يقبل الهداية فكيف يهدي غيره، فلا يحقّ له أن يُتَّبع. والمراد بها الأصنام، فإنّها لا تهتدي إلى شيء، كما قال إبراهيم {يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً} [مريم: 42].

{ **إِلَّا أَنْ يُهْدَى** } والاستثناء تهكّم من تأكيد الشيء بما يشبه ضده. وأريد بالهدي النقل من موضع إلى موضع أي لا تهتدي إلى مكان إلّا إذا نقلها النّاس ووضعوها في المكان الذي يريدونه لها. فشبّه المنقول بالسائر على طريقة المكنية، ورمز إلى ذلك بما هو من لوازم السير وهو الهداية.

{ **فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** } تفريع استفهام تعجيبي على اتّباعهم من لا يهتدي بحال. واتّباعهم هو عبادتهم.

{ **وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** }[36]

بعد أن أمر الله رسوله بأن يحجّهم فيما جعلوهم آلهة، وهي لا تَصَرّف ولا تدبير ولا هداية لها، أعقب ذلك

بأنّ عبادتهم إيّاها اتّباع لظنّ باطل، أي لوهم ليس فيه شبهة حقّ.
{ **أَكْثَرُهُمْ** } الضمير عائد إلى أصحاب ضمير {شُرَكَائِكُمْ} [35] وضمير {مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} [35].
وإنّما عمّهم في ضمائر {شُرَكَائِكُمْ / مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} ، وخصّ بالحكم في اتّباعهم الظنّ أكثرهم، لأنّهم ليسوا سواء في الاعتقاد الباعث لهم على عبادة الأصنام، إيماء إلى أنّ من بينهم عقلاء قليلين ارتقت مدارك أفهامهم فوق أن يعتقدوا أنّ للأصنام تصرفا، ولكنّهم أظهروا عبادتها تبعا للهوى وحفظا للسيادة بين قومهم. وبالتأمّل يظهر أنّ هؤلاء هم خاصة القوم وأهل الأحلام منهم، لأنّ المقام مقام تخطئة ذلك الظنّ. ففيه إيقاظ لجمهورهم، وفيه زيادة موعظة لخاصّتهم ليقلعوا عن الاستمرار في عبادة ما لا تطمئن إليه قلوبهم.
الظن، يطلق على مراتب الإدراك، فيطلق على الاعتقاد الجازم الذي لا يشوبه شك، كما في قوله تعالى {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: 45، 46]، ويطلق على الاعتقاد المشوب بشك. ويظهر أنّه حقيقة في هذا الثاني وأنّه مجاز في الأوّل، لكنّه في الأوّل شائع فصار كالمشترك. وقد تقدّم في سورة البقرة عند الكلام على الآية المذكورة. ومنه قوله تعالى { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [الأعراف:66].
وقد أطلق مجازا على الاعتقاد المخطئ كما في قوله تعالى {إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} وقول النبيء عليه الصلاة والسلام: " إيّاكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث ".
وقد يطلق على الظنّ الحصيبي وهو العلم المستند إلى دليل راجح مع احتمال الخطأ احتمالا ضعيفا. وهذا الظن هو مناط التكليف بفروع الشريعة، وهذا المعنى هو المصطلح عليه عند علماء أصول الدين وأصول الفقه. كقوله تعالى {ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً} [النور: 12] وقوله تعالى {إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: 12].
فوجه الجمع بين هذه المتعارضات إعمال كلّ في مورده اللائق به بحسب مقامات الكلام وسياقه، فمحمل قوله هنا { **إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً** }، أنّ العلم المشوب بشكّ لا يغني شيئا في إثبات الحقّ المطلوب، وذلك ما يطلب فيه الجزم واليقين من العلوم الحاصلة بالدليل العقلي، لأنّ الجزم فيها ممكن لمن أعمل رأيه إعمالا صائبا، إذ الأدلة العقلية يحصل منها اليقين، فأمّا ما طريق تحصيله الأدلّة الظاهرة التي لا يتأتى اليقين بها في جميع الأحوال فذلك يكتفى فيه بالظنّ الراجح بعد إعمال النظر وهو ما يسمى بالاجتهاد.
{ **ظَنّاً** } التنكير للتحقير، أي ظنّا واهيا. ودلت صيغة القصر على أنّهم ليسوا في عقائدهم المنافية للتوحيد على شيء من الحقّ، ردا على اعتقادهم أنّهم على الحقّ.
{ **مِنَ** } للبدليّة، أي عوضا عن الحقّ.
الحقّ، هو الثابت في نفس الأمر. والمراد به هنا معرفة الله وصفاته مما دلّ عليها الدليل العقلي مثل وجوده

وحياته، وما دل عليها فعل الله مثل العلم والقدرة والإرادة.

{ **شَيْئاً** } مفعول مطلق مؤكد لعامله، أي لا يغني شيئا من الإغناء.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** } استئناف للتهديد بالوعيد.

{ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [37]

لمّا كان الغرض الأوّل في هذه السورة إبطال تعجّب المشركين من الإيحاء بالقرآن إلى النبيء ﷺ وتبيين عدم اهتدائهم إلى آياته البيّنات الدالة على أنّه من عند الله، وكيف لم ينظروا في أحوال الرّسول الدالة على أنّ ما جاء به وحي من الله، وكيف سألوه مع ذلك أن يأتي بقرآن غيره أو يبدّل آياته بما يوافق أهواءهم. وتخلّل ذلك كلّه وصف افترائهم الكذب في دعوى الشركاء لله وإقامة الأدلة على انفراد الله بالإلهية وعلى إثبات البعث، وإنذارهم بما نال الأمم من قبلهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم وإمهالهم، وبيان خطئهم في اعتقاد الشرك اعتقادا مبنيّا على سوء النظر والقياس الفاسد، لا جرم عاد الكلام إلى قولهم في القرآن بإبطال رأيهم الذي هو من الظنّ الباطل أيضا، بقياسهم أحوال النبوءة والوحي بمقياس عاداتهم، كما قاسوا حقيقة الإلهية بمثل ذلك، فقارعتهم هذه الآية بذكر صفات القرآن في ذاته الدالة على أنّه حقّ من الله وتحدتهم بالإعجاز عن الإتيان بمثله.

{ **وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ** }

وهذا الكلام مسوق للتحدّي بإعجاز القرآن، وهي مفيدة المبالغة في نفي أن يكون مفترى من غير الله. أي لو تأمّل المتأمل الفطن تأمّلا صادقا في سور القرآن لعلم أنّه من عند الله وأنّه لا يجوز أن يكون من وضع البشر.

{ **أَنْ يُفْتَرَى** } بمنزلة أن يقال: ما كان ليفترى، بلام الجحود، وإنّما عدل عن الإتيان بلام الجحود، لأنّ الغالب أنّ لام الجحود تقع في نفي كون عن فاعل لا عن مفعول بما تدل عليه اللام من معنى الملك.

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } (من) للابتداء المجازي، أي أن يفتريه على الله مفتر.

الافتراء، الكذب، وتقدّم في قوله { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [العقود:103].

{ **وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ** } لمّا نفى عن القرآن الافتراء أخبر عنه بأنّه تصديق وتفصيل، فجرت أخباره كلّها بالمصدر، تنويها ببلوغه الغاية في هذه المعاني حتى اتّحد بأجناسها.

{ **تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** } كونه مصدّقا للكتب السالفة، أي مبيّنا للصادق منها ومميّزا له عمّا زيد فيها وأسيء من تأويلها كما قال تعالى {مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ} [العقود:48].

وأيضا هو مصدَّق (بفتح الدال) بشهادة الكتب السالفة فيما أخذت من العهد على أصحابها أن يؤمنوا بالرّسول الذي يجيء مصدّقا وخاتما. فالوصف بالمصدر صالح للأمرين، لأنّ المصدر يقتضي فاعلا ومفعولا.

التفصيل، التبيين بأنواعه.

{ **الْكِتَابِ** } والظاهر أنّ التعريف تعريف الجنس فيستغرق الكتب كلّها. ومعنى كون القرآن تفصيلا لها أنّه مبيّن لما جاء مجملا في الكتب السالفة، وناسخ لما لا مصلحة للنّاس في دوام حكمه، ودافع للمتشابهات التي ضلّ بها أهل الكتاب. فكلّ ذلك داخل في معنى التفصيل، وهو معنى قوله { وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ } [العقود:48].

{ **لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** } مستأنفة، ردّت مزاعم الذين زعموا أنّه مفترى باقتلاع دعوى افترائه، وأنّها مما لا يروج على أهل الفطن والعقول العادلة، فالريب المنفي عنه هو أن يكون من أحواله في ذاته ومقارناته ما يثير الريب، ولذلك كان ريب المرتابين فيه ريبا مزعوما مدّعى، وهم لو راجعوا أنفسهم لوجدوها غير مرتابة. وقد تقدم القول في نظير هذا في طالعة سورة البقرة[2].

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[38]

{ أَمْ } للإضراب الانتقالي من النفي إلى الاستفهام الإنكاري التعجيبي، وهو ارتقاء بإبطال دعواهم أن يكون القرآن مفترى من دون الله.

{ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ** } ومن بديع الأسلوب وبليغ الكلام أن قدّم وصف القرآن بما يقتضي بُعده عن الافتراء، وبما فيه من أجلّ صفات الكتب، وبتشريف نسبته إلى الله تعالى ثم أعقب ذلك بالاستفهام عن دعوى المشركين افتراءه، ليتلقى السامع هذه الدعوى بمزيد الاشمئزاز والتعجّب من حماقة أصحابها، فلذلك جعلت دعواهم افتراءه في حيّز الاستفهام الإنكاري التعجيبي.

{ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ** } أمر الله نبيّه أن يجيبهم عن دعوى الافتراء بتعجيزهم، وأن يقطع الاستدلال عليهم. فأمرهم بأن يأتوا بسورة مثله. والأمر أمر تعجيز، وقد وقع التحدّي بإتيانهم بسورة تماثل سور القرآن، أي تشابهه في البلاغة وحسن النظم. وقد تقدّم تقرير هذه المماثلة عند تفسير قوله تعالى {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ} [البقرة:23].

{ **وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } هو كقوله {وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة:23].

{ **مَنِ اسْتَطَعْتُمْ** } حذف المفعول لظهوره من فعل { ادْعُوا }، أي من استطعتم دعوته لنصرتكم وإعانتكم على تأليف سورة مثل سور القرآن.

{ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } [39]

{ **بَلْ** } إضراب انتقالي لبيان كنه تكذيبهم، وأنّ حالهم في المبادرة بالتكذيب قبل التأمّل أعجب من أصل التكذيب، إذ أنّهم بادروا إلى تكذيبه دون نظر في أدلّة صحّته التي أشار إليها قوله { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ } [37].

التكذيب، النسبة إلى الكذب، أو الوصف بالكذب سواء كان عن اعتقاد أم لم يكنه.

{ **بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ** } اختيار التعبير عن القرآن بطريق الموصولية لما تؤذن به صلة الموصول من عجيب تلك الحالة المنافية لتسليط التكذيب، فهم قد كذّبوا قبل ان يختبروا، وهذا من شأن الحماقة والجهالة.

الإحاطة، يكنى بها عن التمكّن من الشيء بحيث لا يفوت منه. ومنه قوله تعالى { وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً } [طه: 110] وقوله {وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ} [الجن: 28] أي علمُه.

{ **بِعِلْمِهِ** } الباء للتعدية. وشأنها مع فعل الإحاطة أن تدخل على المحاط به وهو المعلوم، وهو هنا القرآن، وعدل عن ذلك للمبالغة إذ جعل العلم معلوما. أي وكان الحقّ أن يحيطوا بعلمه، لأن توفّر أدلة صدقه يحتاج إلى زيادة تأمّل وتدقيق. وفي هذا مبالغة في فرط احتياجه إلى صدق التأمّل، ومبالغة في تجهيل الذين بادروا إلى التكذيب من دون تأمّل.

{ **وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** } معطوفة على الصلة، أي كذّبوا بما لما يأتهم تأويله. وهذا ارتقاء في وصفهم بقلّة الأناة والتثبّت، أي لو انتظروا حتى يأتيهم تأويل القرآن، أي ما يحتاج منه إلى التأويل، بل هم صمّموا على التكذيب قبل ظهور التأويل.

التأويل، مشتقّ من آل إذا رجع إلى الشيء. وهو يطلق على تفسير اللفظ الذي خفي معناه تفسيرا يظهر المعنى، فيؤول واضحا بعد أن كان خفيّا، وهو بهذا الإطلاق قريب من معنى التفسير. وقد مرّ في سورة آل عمران الآية [7]، وفي المقدمة الأولى من هذا التفسير.

والتأويل الذي في هذه الآية يحتمل المعنيين، ولعل كليهما مراد. أي لمّا يأتهم تأويل ما يدّعون أنّهم لم يفهموه من معاني القرآن لعدم اعتيادهم بمعرفة أمثالها، مثل حكمة التشريع، ووقوع البعث، وتفضيل ضعفاء المؤمنين على صناديد الكافرين، وتنزيل القرآن منجما، ونحو ذلك. فهم كانوا يعتبرون الأمور بما ألفوه في المحسوسات، وكانوا يقيسون الغائب على الشاهد، فكذّبوا بذلك وأمثاله قبل أن يأتيهم تأويله. ولو آمنوا ولازموا النبيء ﷺ لعلموها واحدة بعد واحدة.

وأيضا لمّا يأتهم تأويل، ما حسبوا عدم التعجيل به دليلا على الكذب كما قالوا {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: 32] ظنّا أنّهم إن استغضبوا الله عجّل لهم بالعذاب فظنّوا تأخّر حصول ذلك دليلا على أنّ القرآن ليس حقّا من عنده. وكذلك كانوا يسألون آيات من الخوارق، كقولهم {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً} [الإسراء: 90]. ولو أسلموا ولازموا النبيء ﷺ لعلموا أنّ الله لا يعبأ باقتراح الضُلّال.

{ **كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } استئناف، والخطاب للنبيء ﷺ أو لمن يتأتى منه السماع. والإشارة بـ {كَذَلِكَ} إلى تكذيبهم المذكور، أي كان تكذيب الذين من قبلهم كتكذيبهم. والمراد بالذين من قبلهم الأمم المكذبون رسلهم كما دلّ عليه المشبّه به. ومما يقصد من هذا التشبيه أمور:

أحدها، ، التعريض بالنذارة لهم بحلول العذاب بهم كما حل بأولئك الأمم التي عرف السامعون مصيرها وشاهدوا ديارها.

الثاني، تسلية النبيء ﷺ بأنّه ما لقي من قومه إلّا مثل ما لقي الرسل السابقون من أقوامهم.

{ **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ** } خطاب للنبيء ﷺ. والأمر بالنظر في عاقبة الظالمين مقصود منه قياس أمثالهم في التكذيب عليهم.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ } [40]

عطف على {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ} [39] لأنّ الإخبار عن تكذيبهم بأنّه دون الإحاطة بعلم ما كذّبوا به يقتضي أنّ تكذيبهم به ليس عن بصيرة وتأمّل. وما كان بهاته المثابة كان حال المكذّبين فيه متفاوتا حتّى يبلغ إلى أن يكون تكذيبا مع اعتقاد صدقه باطنا. ولذلك جاء موقع هذه الآية عقب الأخرى موقع التخصيص للعام في الظاهر، أو البيان للمجمل من عدم الإحاطة بعلمه.

فكان حالهم في الإيمان بالقرآن كحالهم في اتباع الأصنام إذ قال فيهم {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً} [36]، فأشعر لفظ {أَكْثَرُهُمْ} بأنّ منهم من يعلم بطلان عبادة الأصنام ولكنّهم يتبعونها مشايعة لقومهم ومكابرة للحقّ. وكذلك حالهم في التكذيب بنسبة القرآن إلى الله، فمنهم من يؤمن به ويكتم إيمانه مكابرة وعداء، ومنهم من لا يؤمنون به ويكذّبون عن تقليد لكبرائهم. والفريقان مشتركان في التكذيب في الظاهر كما أنبأت عنه (من) التبعيضية. فمعنى يؤمن به، يصدّق بحقّيته في نفسه ولكنّه يظهر تكذيبه، جمعا بين إسناد الإيمان إليهم وبين جعلهم بعضا من الذين يقولون { افْتَرَاهُ }.

واختيار المضارع للدلالة على الاستمرار والاصرار.

{ **وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ** } تعريض بالوعيد والإنذار، وبأنّهم من المفسدين. فالمعنى، وربّك أعلم بهم لأنّه أعلم بالمفسدين الذين هم من زمرتهم.

{ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ } [41]

لما كان العلم بتكذيبهم حاصلا ممّا تقدّم من الآيات تعيّن أنّ التكذيب المفروض هنا بواسطة أداة الشرط هو التكذيب في المستقبل، أي الاستمرار على التكذيب. وذلك أنّ كل ما تبيّن به صدق القرآن هو مثبِت لصدق الرّسول ﷺ الذي أتى به. أي إن أصرّوا على التكذيب بعد ما قارعتهم به من الحجّة فاعلم أنّهم لا تنجع فيهم الحجج، وأعلن لهم بالبراءة منهم كما تبرّؤوا منك.

{ **فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ** } المتاركة. وهو مما أجري مُجرى المثل، ولذلك بني على الاختصار ووفرة المعنى، فأفيد فيه معنى الحصر بتقديم المعمول، وبالتعبير بالإضافة بـ {عَمَلِي} و {عَمَلُكُمْ}.

البريء، الخليّ عن التلبّس بشيء وعن مخالطته. وهو فعيل من برّأ المضاعف على غير قياس. وفعل بَرَّأَ مشتق من برِيء (بكسر الراء) من كذا، إذا خلت عنه تبعته والمؤاخذة به.

{ **أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ** } بيان لجملة { لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ } ولذلك فصلت. وهذا التركيب لا يراد به صريحه وإنّما يراد به الكناية عن المباعدة. وقد جاء هذا المكنى به مصرّحا به في قوله تعالى { فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ } [الشعراء: 216]

وإنّما عدل عن الإتيان بالعمل مصدرا كما أتي به في قوله {لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ} إلى الإتيان به فعلا صلة لـ {مَا} الموصولة للدلالة على البراءة من كل عمل يحدث في الحال والاستقبال، وأمّا العمل الماضي فلكونه قد انقضى لا يتعلق الغرض بذكر البراءة منه. ولو عبّر بالعمل لربما توهم أن المراد عمل خاص لأنّ المصدر المضاف لا يعم. ولتجنب إعادة اللفظ بعينه في الكلام الواحد، لأنّ جملة البيان من تمام المبين، ولما في {تَعْمَلُونَ} من المد الذي يراعي الفاصلة. وهذا من دقائق فصاحة القرآن الخارجة عن الفصاحة المتعارفة بين الفصحاء.

{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ [42] وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ } [43]

لما سبق تقسيم المشركين بالنسبة إلى اعتقادهم في الأصنام إلى من يتّبع الظنّ ومن يوقن بها، وتقسيمهم بالنسبة لتصديق القرآن إلى قسمين؛ من يؤمن بصدقه باطنا ومن لا يؤمن بصدقه، كمّل في هذه الآية تقسيمهم بالنسبة للتلقّي من النبيء ﷺ إلى قسمين؛ قسم يحضرون مجلسه ويستمعون إلى كلامه، وقسم لا يحضرون

مجلسه وإنّما يتوسّمونه وينظرون سمته. وفي كلا الحالين مسلك عظيم إلى الهدى لو كانوا مهتدين، فإنّ سماع كلام النبيء وإرشاده ينير عقول القابلين للهداية، فلا جرم أن كان استمرار المشركين على كفرهم مع سماعهم كلام النبيء أو رؤية هديه مؤذنا ببلوغهم الغاية في الضلالة، ميئوسا من نفوذ الحق إليهم، وليس ذلك لقصور كلامه عن قوّة الإبلاغ إلى الاهتداء. كما أنّ التوسّم في سمته الشريف ودلائل نبوءته الواضحة في جميع أحواله، كاف في إقبال النفس عليه بشراشرها، فما عدم انتفاع الكفّار، الذين يعاينون ذاته الشريفة بمعاينتها، إلّا لشدّة بغضهم إيّاه وحسدهم.

وجيء بالفعل المضارع دون اسم الفاعل للدلالة على تكرّر الاستماع والنظر.

{ **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ** } تفريع لبيان سبب عدم انتفاعهم بسماع كلام النبيء ﷺ، وتسلية له وتعليم للمسلمين، فقُرّبت إليهم هذه الحالة الغريبة، بأنّ أولئك المستمعين بمنزلة صمّ لا يعقلون.

وبني على ذلك استفهام عن التمكّن من إسماع هؤلاء الصمّ وهدي هؤلاء العمي. وهذان الاستفهامان مستعملان في التعجيب من حالهم إذ يستمعون إلى دعوة النبيء ﷺ ولا يعقلونها، وإذ ينظرون أعماله وسيرته ولا يهتدون بها. فليس في هذين الاستفهامين معنى الإنكار على محاولة النبيء إبلاغهم وهديهم، لأنّ المقام ينبو عن ذلك.

{ **وَلَوْ كَانُوا** } (لو) وصلية دالة على المبالغة في الأحوال، وهي التي يكون الذي بعدها أقصى ما يعلق به الغرض. ولذلك يقدّرون لتفسير معناها جملة قبل جملة (لو) مضمونها ضد الجملة التي دخلت عليها (لو)، فيقال هنا: أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون بل ولو كانوا لا يعقلون.

ولما كان الغرض هنا التعجيب من حالهم إذ لم يصلوا إلى الهدى كان عدم فهمهم وعدم تبصرهم كناية عن كونهم لا يعقلون وكونهم لا بصائر لهم.

{ **لا يَعْقِلُونَ** } ليس لهم إدراك العقول، أي ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم، فإنّ الأصم العاقل ربما تفرّس في مخاطبه واستدلّ بملامحه.

{ **لا يُبْصِرُونَ** } لا بصيرة لهم يتبصّرون بها. وفي (الكشّاف) أنّه يقال: أبصر إذ استعمل بصيرته، وهي التفكير والاعتبار بحقائق الأشياء. وكلام (الأساس) يحوم حوله. وأيًّا ما كان، فالمراد معنى التأمّل.

وقد عُلم أنّ هذه الحالة التي اتّصفوا بها هي حالة جعلها الله عقابا لهم في تمّردهم في كفرهم، وتصلّبهم في شركهم، وإعراضهم عن دعوة رسوله، ولذلك جعلهم صمّا وعميا.

فبهذا النظم البديع المشتمل على الاستعارة في أوّله وعلى الكناية في آخره وعلى التعجيب وتقويته في وسطه حصل تحقيق أنّهم لا ينتفعون بأسماعهم ولا بأبصارهم وأنّهم لا يعقلون ولا يتبصّرون في الحقائق.

{ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [44]
تذييل، وشمل عموم النّاس المشركين الذين يستمعون ولا يهتدون وينظرون ولا يعتبرون. والمقصود من هذا التذييل التعريض بالوعيد بأن سينالهم ما نال جميع الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسل الله. وعموم {النَّاسَ} الأول على بابه وعموم {النَّاسَ} الثاني مراد به خصوص النّاس الذين ظلموا أنفسهم بقرينة الخبر.
{ وَلَكِنَّ } أشعر هذا الاستدراك بكلام مطوي بعد نفي الظلم عن الله، وهو أنّ الله لا يظلم النّاس بعقابه من لم يستوجب العقاب، ولكن النّاس يظلمون فيستحقّون العقاب. فصار المعنى، أنّ الله لا يظلم الناس بالعقاب ولكنهم يظلمون أنفسهم بالاعتداء على ما أراد منهم فيعاقبهم عدلا، لأنّهم ظلموا فاستوجبوا العقاب.
{ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } تقديم المفعول على عامله لإفادة تغليطهم بأنّهم ما جنوا بكفرهم إلّا على أنفسهم.

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } [45]
عطف على { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً } [28] عطف القصّة على القصّة. فإنّه لمّا جاء فيما مضى ذكر يوم الحشر، إذ هو حين افتضاح ضلال المشركين ببراءة شركائهم منهم، أتبع ذلك بالتقريع على عبادتهم الأصنام مع وضوح براهين الوحدانيّة لله تعالى. وإذ كان القرآن قد أبلغهم ما كان يعصمهم من ذلك الموقف الذليل لو اهتدوا به، أتبع ذلك بالتنويه بالقرآن وإثبات أنّه خارج عن طوق البشر، وتسفيه الذين كذّبوه وتفنّنوا في الإعراض عنه، واستوفي الغرض حقّه، عاد الكلام إلى ذكر يوم الحشر مرة أخرى، إذ هو حين خيبة أولئك الذين كذّبوا بالبعث وهم الذين أشركوا، وظهر افتضاح شركهم في يوم الحشر فكان مثل رد العجز على الصدر.
{ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ }
{ كَأَنْ } مخفّفة (كأنَّ)، وإذا خفّفت يكون اسمها محذوفا غالبا، والتقدير هنا: كأنّهم لم يلبثوا إلّا ساعة من النهار. وقد دل على الاسم المحذوف ما تقدّم من ضمائرهم.
{ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ } وصف غير مراد منه التقييد، إذ لا فرق في الزمن القليل بين كونه من النّهار أو من الليل، وإنّما هذا وصف خرج مخرج الغالب، لأنّ النّهار هو الزمن الذي تستحضره الأذهان في المتعارف. كما في الحديث: " وإنّما أحلت لي ساعة من نهار". والمقصود ساعة من الزمان وهي الساعة التي يقع فيها قتال أهل مكة، من غير التفات إلى تقييد بكونه في النهار، وإن كان صادف أنّه في النهار.
الساعة، المقدار من الزمان، والأكثر أن تطلق على الزمن القصير إلّا بقرينة تصرفها عن ذلك.

والمقصود من التشبيه التعريض بإبطال دعوى المشركين إحالتهم البعث بشبهة أنّ طول اللبث وتغيّر الأجساد ينافي إحياءها، { يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً } [النازعات: 10، 11].

{ **يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ** } حال من الضمير المنصوب في { نَحْشُرُهُمْ }.

التعارف، تفاعل من عرف، أي يعرف كل واحد منهم يومئذ من كان يعرفه في الدنيا ويعرفه الآخر كذلك.

والمقصود من ذكر هذه الحال كالمقصود من ذكر حالة {كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ} لتصوير أنّهم حشروا على الحالة التي كانوا عليها في الدنيا في أجسامهم وإدراكهم. زيادة في بيان إبطال إحالتهم البعث بشبهة أنّه ينافي تمزق الأجسام في القبور وانطفاء العقول بالموت.

{ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ** } عدل عن الأظمار إلى الموصولية، للإيماء إلى أنّ سبب خسرانهم هو تكذيبهم بلقاء الله، وذلك التكذيب من آثار الشرك. فظهر خسرانهم يومئذ بأنّهم نفوا البعث فلم يستعدّوا ليومه بقبول ما دعاهم إليه الرسول ﷺ.

{ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ }[46]

كان ذكر تكذيبهم منذرا بترقّب عذاب يحل بهم في الدنيا كما حلّ بالقرون الذين من قبلهم، وكان معلوما من خلق النبيء ﷺ رأفته بالنّاس ورغبته أن يتمّ هذا الدين وأن يهتدي جميع المدعوين إليه، فربما كان النبيء يحذر أن ينزل بهم عذاب الاستئصال فيفوت اهتداؤهم. وكان قوله: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [يونس: 11] تصريحا بإمكان استبقائهم وإيماء إلى إمهالهم، فجاء هذا الكلام بيانا لذلك وإنذارا بأنّهم إن أمهلوا فأبقي عليهم في الدنيا فإنّهم غير مفلتين من المصير إلى عقاب الآخرة حين يرجعون إلى تصرّف الله دون حائل.

{ **بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ** } هو عذاب الدنيا، فإنّهم أوعدوا بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

فالمعنى، إن وقع عذاب الدنيا بهم فرأيته أنت أو لم يقع فتوفاك الله، فمصيرهم إلينا على كل حال.

وإنما كُنِي عن التعجيل بأن يريه الله الرسول، للإيماء إلى أنّ حالة تعجيل العذاب لا يريد الله منها إلّا الانتصاف لرسوله، بأن يريه عذاب معانديه، ولذلك بني على ضدّ ذلك، ضد التعجيل، فكني بتوقّيه عن عدم تعجيل العذاب بل عن تأخيره، إذ كانت حكمة التعجيل هي الانتصاف للرّسول ﷺ.

{ **فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ** } اسمية تفيد الدوام والثبات، أي ذلك أمر في تصرّفنا دوما.

{ **ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ** } خبر مستعمل في معناه الكنائي، إذ هو كناية عن الوعيد بالجزاء على جميع ما فعلوه في الدنيا بحيث لا يغادر شيئا.

الشهيد، الشاهد، وحقيقته المخبر عن أمر فيه تصديق للمخبر، واستعمل هنا في العالم علم تحقيق.

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }[47]

عطف على {وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ} [46]، وهي بمنزلة السبب لمضمون الجملة التي قبلها. فقد بيّنت أنّ مجيء الرّسول للأمّة هو منتهى الإمهال، وأنّ الأمّة إن كذّبت رسولها استحقّت العقاب على ذلك. فهذا إعلام بأنّ تكذيبهم الرّسول هو الذي يجرّ عليهم الوعيد بالعقاب.

{ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ } ليست هي المقصود من الإخبار بل هي تمهيد للتفريع { فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ }. فلذلك لا يؤخذ من الجملة الأولى تعيّن أن يُرسل رسول لكلّ أمّة، لأنّ تعيين الأمّة بالزمن أو بالنسب أو بالموطن لا ينضبط. وقد تخلو قبيلة أو شعب أو عصر أو بلاد عن مجيء رسول فيها ولو كان خلوّها زمنا طويلا. وقد قال الله تعالى {لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ} [القصص: 46].

فالمعنى، ولكلّ أمّة من الأمم ذوات الشرائع رسول معروف جاءها مثل عاد وثمود ومدين واليهود والكلدان.

{ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ } الفاء للتفريع و(إذا) للظرفيّة، مجرّدة عن الاستقبال. والمعنى، أنّ في زمن مجيء الرسول يكون القضاء بينهم بالقسط.

{ بَيْنَهُمْ } تدل على توسّط في شيئين أو أشياء، فتعيّن أنّ الضمير الذي أضيفت إليه هنا عائد إلى مجموع الأمّة ورسولها، أي قضي بين الأمّة ورسولها بالعدل، أي بحسب عملهم مع رسولهم.

والمعنى: أنّ الله يمهل الأمّة على ما هي فيه من الضلال فإذا أرسل إليها رسولا فإرساله أمارة على أنّ الله تعالى أراد إقلاعهم عن الضلال فانتهى أمد الإمهال بإبلاغ الرسول إليهم مراد الله منهم فإن أطاعوه رضي الله عنهم وربحوا، وإن عصوه وشاقوه قضى الله بين الجميع.

{ قُضِيَ بَيْنَهُمْ } أشعر بحدوث مشاقة بين الكافرين وبين المؤمنين وفيهم الرّسول.

وهذا تحذير من مشاقة النبيء ﷺ وإنذار لأهل مكّة بما نالهم. وقد كان من بركة النبيء ﷺ ورغبته أن أبقى الله على العرب فلم يستأصلهم، ولكنّه أراهم بطشته وأهلك قادتهم يوم بدر، ثم ساقهم بالتدريج إلى حظيرة الإسلام حتى عمّهم وأصبحوا دعاته للأمم وحملة شريعته للعالم.

{ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } حال مؤكّدة لعاملها الذي هو { قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ } للإشعار بأنّ الذنب الذي قضي عليهم بسببه ذنب عظيم.

{ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [48] قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ } [49]

لمّا بيّنت الآية السالفة أنّ تعجيل الوعيد في الدنيا لهم وتأخيره سواء عند الله تعالى، إذ الوعيد الأتمّ هو وعيد

الآخرة، أتبعت بهذه الآية، حكاية لتهكّمهم على تأخير الوعيد.

{ **وَيَقُولُونَ** } صيغة المضارع لقصد استحضار الحالة، للدلالة على تكرّر صدوره منهم.

{ **الْوَعْدُ** } أي الموعود به، أي متى ظهوره؟ والوعد المذكور هنا ما هُدّدوا به من عذاب الدنيا.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } الإشارة إلى أنّهم مكذّبون بحصوله بطريق الإيماء، أي إن كنتم صادقين في أنّه واقع فعيّنوا لنا وقته، وهم يريدون أننا لا نصدّقك حتى نرى ما تتوعّدنا به.

والسؤال مستعمل في الاستبطاء، وهو كناية عن عدم اكتراثهم به وأنّهم لا يأبهون به.

وخطابهم للنبي وللمسلمين، جمعوهم في الخطاب لأنّ النبيء أخبر به والمسلمين آمنوا به، فخاطبوهم بذلك جميعا لتكذيب النبيء، وإدخال الشك في نفوس المؤمنين به. وإنّما خصّ الرسول عليه الصلاة والسلام بالأمر بجوابهم لأنّه الذي أخبرهم بالوعيد وأمّا المؤمنون فتابعون له في ذلك.

{ **قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلا نَفْعاً** } أي لا أستطيع، كما تقدّم في قوله تعالى { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً}]المائدة:76]. وقدّم الضرّ على النفع لأنّه أنسب بالغرض لأنّهم أظهروا استبطاء ما فيه مضرّتهم وهو الوعيد، ولأنّ استطاعة الضرّ أهون من استطاعة النفع فيكون ذكر النفع بعده ارتقاء.

{ **إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** } استثناء منقطع بمعنى لكن، أي لكن نفعي وضري هو ما يشاءه الله لي.

فكان معنى الجواب، أنّ الوعد من الله لا مني وأنا لا أقدر على إنزاله بكم لأنّ له أجلا عند الله.

{ **لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ** } تتضمّن أنّ سبب عدم المقدرة على ذلك هو أنّ الله قدّر آجال أحوال الأمم. ومن ذلك أجل حلول العقاب بهم، بحكمة اقتضت تلك الآجال، فلا يحلّ العقاب بهم إلّا عند مجيء الأجل، فلا يقدر أحد على تغيير ما حدّده الله.

{ **إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** } صفة، أي أجل محدود لا يقبل التغيّر. وقد تقدّم الكلام على نظيرها في سورة الأعراف.

و {إِذَا} في هذه الآية مشربة معنى الشرط، فلذلك اقترنت جملة عاملها بالفاء الرابطة للجواب.

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ [50] أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ } [51]

هذا جواب ثان عن قولهم {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [4] باعتبار ما يتضمّنه قولهم بأنّهم يؤمنون إذا حقّ الوعد الذي توعّدهم به. وهذا الجواب إبداء لخلل كلامهم واضطراب استهزائهم.

{ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً** } تفنّن في تخييل التهويل لهذا العذاب الموعود، تخييلا يناسب تحقّق وقوعه. فإنّ هاذين الوقتين لا يخلو حلول الحوادث عن أحدهما.

البيات، اسم مصدر التبييت، ليلا. وذلك مباغتة.

{ **مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ** } استفهام مستعمل في الإنكار عليهم، وفي التعجيب من تعجّلهم العذاب بنيّة أنّهم يؤمنون به عند نزوله. أي لا شيء من العذاب بصالح لاستعجالهم إيّاه، لأنّ كلّ شيء منه مهلك حائل بينهم وبين التمكّن من الإيمان وقت حلوله.

{ **أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ** } حرف المهلة(ثمّ) للدلالة على التراخي الرتبي كما هو شأنها في عطفها الجمل. لأنّ إيمانهم بالعذاب الذي كانوا ينكرون وقوعه حين وقوعه بهم أغرب وأهمّ من استعجالهم به.

والاستفهام مستعمل في الإنكار، بمعنى التغليط وإفساد رأيهم، فإنّهم وعدوا بالإيمان عند نزول العذاب استهزاء منهم، فوقع الجواب بمجاراة ظاهر حالهم وبيان أخطائهم، أي أتؤمنون بالوعد عند وقوعه.

{ **آلْآنَ** } استفهام إنكاري عن حصول إيمانهم عند حلول ما توعّدهم، فعبّر عن وقت وقوعه باسم الزمان الحاضر.

{ **وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ** } ترشيح. وإمّا تقدير قول في الكلام، أي يقال لهم إذا آمنوا بعد نزول العذاب: آلآن آمنتم، كما ذهب إليه أكثر المفسرين. فذلك تقدير معنى لا تقدير نظم وإعراب، لأنّ نظم هذا الكلام أدق من ذلك.

{ **تَسْتَعْجِلُونَ** } تكذّبون، فعبّر عن التكذيب بالاستعجال حكاية لحاصل قولهم {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ} [48] الذي هو في صورة الاستعجال، والمراد منه التكذيب.

وتقديم المجرور للاهتمام بالوعد الذي كذّبوا به، وللرعاية على الفاصلة.

{ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ }[52]

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، فهذا عذاب أعظم من العذاب الذي في قوله {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً } فإن ذلك عذاب الدنيا وأمّا عذاب الخلد فهو عذاب الآخرة، وهذا أعظم.

{ **ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا** } صيغة الماضي مستعملة في معنى المستقبل تنبيها على تحقيق وقوعه.

{ **لِلَّذِينَ ظَلَمُوا** } هم القائلون {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ} [48]. ومعنى ظلموا، أشركوا.

الذوق، مستعمل في الإحساس، وهو مجاز مشهور بعلاقة الإطلاق.

{ **هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ** } الاستفهام إنكاري بمعنى النفي. والجملة استئناف بياني، لأنّ جملة {ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ} تثير سؤالا في نفوسهم عن مقدار ذلك العذاب فيكون الجواب على أنّه على قدر فظاعة ما كسبوه من الأعمال. مع إفادة تعليل تسليط العذاب عليهم.

{ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } [53]

هذا حكاية فنّ من أفانين تكذيبهم، فمرّة يتظاهرون باستبطاء الوعد استخفافا به، ومرّة يقبلون على الرسول في صورة المستفهم الطالب فيسألونه: أهذا العذاب الخالد، أي عذاب الآخرة، حقّ؟

الحقّ، الثابت الواقع، فهو بمعنى حاق، أي ثابت، أي أن وقوعه ثابت.

{ أَحَقٌّ هُوَ } استفهاميّة معلّقة فعل {يَسْتَنْبِئُونَكَ} عن العمل في المفعول الثاني.

{ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ } أجيبوا على طريقة الأسلوب الحكيم بحمل كلامهم على خلاف مرادهم تنبيها على أنّ الأولى بهم سؤال الاسترشاد، تغليطا لهم واغتناما لفرصة الإرشاد بناء على ظاهر حال سؤالهم، ولذلك أكّد الجواب بالتوكيد اللفظي إذ جمع بين حرف {إي} وهو حرف جواب يحقّق به المسؤول عنه، وبين الجملة الدالة على ما دل عليه حرف الجواب، وبالقسم، وإنّ، ولام الابتداء، وكلّها مؤكّدات.

{ إِي } (بكسر الهمزة) حرف جواب لتحقيق ما تضمّنه سؤال سائل، فهو مرادف نعم ، ولكن من خصائص هذا الحرف أنّه لا يقع إلّا وبعده القسم.

{ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } معطوفة على جملة جواب القسم فمضمونها من المقسم عليه. أي هو واقع وأنتم مصابون به غير مفلتين منه.

المعجزون، الغالبون. أي وما أنتم بغالبين الذي طلبكم، أي بمفلتين. وقد تقدم عند قوله تعالى {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [الأنعام:134].

{ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }[54]

{ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ }

الأظهر أنّ هذه الجملة من بقيّة القول، فهي عطف على جملة {إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ } [53] إعلاما لهم بهول ذلك العذاب عساهم أن يحذروه، ولذلك حذف المتعلق الثاني لفعل { افْتَدَتْ } لأنّه يقتضي مفديا به ومفديا منه، أي لافتدت به من العذاب. والمعنى، أنّ هذا العذاب لا تتحمّله أية نفس على تفاوت الأنفس في احتمال الآلام.

{ ظَلَمَتْ } أشركت، وهو ظلم النفس {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }.

{ مَا فِي الْأَرْضِ } يعمّ كل شيء في ظاهر الأرض وباطنها، لأنّ الظرفيّة ظرفية جمع واحتواء.

افتدى، مرادف فدى، وفيه زيادة تاء الافتعال لتدل على زيادة المعنى، أي لتكلّفت فداءها به.

{ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }

جملة مستأنفة معطوفة عطف كلام على كلام. وضمير {أَسَرُّوا} عائد إلى {كُلِّ نَفْسٍ} باعتبار المعنى مع تغليب المذكّر على المؤنث.

{ **وَأَسَرُّوا** } عبّر عن الإسرار المستقبل بلفظ الماضي تنبيها على تحقيق وقوعه حتى كأنّه قد مضى.

والمعنى: وسيسرّون الندامة قطعا. وكذلك قوله { وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ }

الندامة، الندم. وهو أسف يحصل في النفس على تفويت شيء ممكن عمله في الماضي. والندم من هواجس النفس، فهو أمر غير ظاهر ولكنه كثير، أي يصدر عن صاحبه قول أو فعل يدل عليه، فإذا تجلّد صاحب الندم فلم يظهر قولا ولا فعلا فقد أسرّ الندامة، أي قصرها على سرّه فلم يظهرها، وإنما يكون ذلك من شدة الهول. فإنّما أسروا الندامة لأنّهم دهشوا لرؤية ما لم يكونوا يحتسبون، فلم يطيقوا صراخا ولا عويلا.

{ **قُضِيَ بَيْنَهُمْ** } قضي فيهم، أي قضي على كل واحد منهم بما يستحقّه بالعدل، فالقضاء بالعدل وقع فيهم. وليس المعنى أنه قضي بين كل واحد وآخر لأن القضاء هنا ليس قضاء نزاع ولكنه قضاء زجر وتأنيب، إذ ليس الكلام هنا إلا على المشركين وهم صنف واحد.

{ **وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** } جملة حالية.

{ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ [55] هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [56]

تذييل تنهية الكلام المتعلّق بصدق الرّسول والقرآن وما جاء به من الوعيد وترقّب يوم البعث ويوم نزول العذاب بالمشركين. وقد اشتمل هذا التذييل على مجمل تفصيل ذلك الغرض، وعلى تعليله بأنّ من هذه شؤونه لا يعجز عن تحقيق ما أخبر بوقوعه.

فكان افتتاحه بأنّ الله هو المتوحّد بملك ما في السماوات والأرض فهو يتصرّف في النّاس وأحوالهم في الدنيا والآخرة تصرفا لا يشاركه فيه غيره، فتصرّفه في أمور السماء شامل للمغيّبات كلّها، منها إظهار الجزاء بدار الثواب ودار العذاب، وتصرّفه في أمور الأرض شامل لتصرّفه في النّاس. ثم أعقب بتحقيق وعده، وأعقب بتجهيل منكريه، وأعقب بالتصريح بالمهم من ذلك وهو الإحياء والإماتة والبعث.

{ **أَلا إِنَّ** } افتتح هذا التذييل بحرف التنبيه، وأعيد فيه حرف التنبيه للاستيعاء لسماعه، وللتنبيه على أنّه كلام جامع هو حوصلة الغرض الذي سمعوا تفصيله آنفا. وأكّد بحرف التوكيد بعد حرف التنبيه في الموضعين للاهتمام به، ولرد إنكار منكري بعضه والذين هم بمنزلة المنكرين بعضه الآخر.

{ **لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } اللام في {لِلَّهِ} للملك، و(ما) اسم موصول مفيد لعموم كل ما ثبتت له صلة الموصول من الموجودات الظاهرة والخفيّة.

وعد الله، هو وعده بعذاب المشركين، وهو وعيد. ويجوز أن يكون وعده مرادا به البعث، قال تعالى { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}، فسمّى إعادة الخلق وعدا.

{ **وَعْدَ اللَّهِ** } أظهر اسم الجلالة في الجملة الثانية دون الإتيان بضميره لتكون الجملة مستقلّة فتجري مجرى المثل والكلام الجامع.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } استدراك، لأن الجملتين اللتين قبله أريد بهما الردّ على معتقدي خلافهما فصارتا في قوّة نفي الشك عن مضمونهما، فكأنّه قيل: ولكن أكثرهم لا يعلمون فلذلك يشكّون.

وتقييد نفي العلم بالأكثر إشارة إلى أنّ منهم من يعلم ذلك ولكنّه يجحده مكابرة، كما قال في الآية السابقة {وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ}، فضمير {أَكْثَرَهُمْ} للمتحدّث عنهم فيما تقدّم.

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}[57]

خطاب جميع النّاس بالتعريف بشأن القرآن وهديه، بعد أن كان الكلام في جدال المشركين والاحتجاج عليهم بإعجاز القرآن على أنّه من عند الله، وأنّ الآتي به صادق فيما جاء به من تهديدهم وتخويفهم من عاقبة تكذيب الأمم رسلها، وما ذيّل به ذلك من الوعيد وتحقيق ما توعّدوا به. وعلى هذا الوجه فليس في الخطاب بـ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} التفات من الغيبة إلى الخطاب.

والمعنى، أنّ القرآن موعظة لجميع النّاس وإنّما انتفع بموعظته المؤمنون فاهتدوا وكان لهم رحمة.

ويجوز أن يكون خطابا للمشركين بناء على الأكثر في خطاب القرآن بـ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، فيكون ذكر الثناء على القرآن بأنّه هدى ورحمة للمؤمنين، إدماجا وتسجيلا على المشركين بأنّهم حرموا أنفسهم الانتفاع بموعظة القرآن وشفائه لما في الصدور، فانتفع المؤمنون بذلك.

{ **قَدْ** } للتأكيد، لأنّ في المخاطبين كثيرا ممن ينكر هذه الأوصاف للقرآن.

المجيء، مستعمل مجازا في الإعلام بالشيء، كما استعمل للبلوغ أيضا، إلّا أنّ البلوغ أشهر في هذا وأكثر، يقال: بلغني خبر كذا، ويقال أيضا: جاءني خبر كذا أو أتاني خبر كذا. وإطلاق المجيء عليه في هذه الآية أعزّ.

والمراد بما جاءهم وبلغهم هو ما أنزل من القرآن وقرئ عليهم، وقد عبّر عنه بأربع صفات هي أصول كماله وخصائصه وهي (**موعظة - شفاء لما في الصدور - هدى - رحمة للمؤمنين**).

الموعظة، الوعظ كلام فيه نصح وتحذير مما يضرّ. وقد مضى الكلام عليها عند قوله تعالى {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ} [النساء:63]، وعند قوله تعالى {مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ} [الأعراف:145].

{ **مِنْ رَبِّكُمْ** } للتنبيه على أنّها بالغة غاية كمال أمثالها.

الشفاء، تقدّم عند قوله تعالى {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} [براءة:14]. وحقيقته، زوال المرض والألم، ومجازه، زوال النقائص والضلالات وما فيه حرج على النفس، وهذا هو المراد هنا.

الهدى، تقدّم في قوله تعالى {هُدىً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة:2]، وأصله الدالة على الطريق الموصل إلى المقصود. ومجازه، بيان وسائل الحصول على المنافع الحقّة.

الرحمة، تقدّمت في تفسير البسملة.

وقد أومأ وصف القرآن بالشفاء إلى تمثيل حال النفوس بالنسبة إلى القرآن وإلى ما جاء به، بحال المعتلّ السقيم الذي تغير نظام مزاجه عن حالة الاستقامة فأصبح مضطرب الأحوال خائر القوى فهو يترقّب الطبيب الذي يدبّر له بالشفاء.

وقد كان هذا التمثيل لكماله قابلا لتفريق تشبيه أجزاء الهيئة المشبهة بأجزاء الهيئة المشبه بها، فزواجر القرآن ومواعظه يشبه بنصح الطبيب على وجه المكنية، وإبطاله العقائد الضالة يشبه بنعت الدواء للشفاء من المضار على وجه التصريحية، وتعاليمه الدينية وآدابه تشبه بقواعد حفظ الصحة على وجه المكنية، وعبر عنها بالهدى، ورحمته للعالمين تشبه بالعيش في سلامة على وجه المكنية.

فالأوصاف الثلاثة الأول ثابتة للقرآن في ذاته سواء في ذلك من قبلها وعمل بها، ومن أعرض عنها ونبذها، إلّا أن وصفه بكونه هدى لمّا كان وصفا بالمصدر المقتضي للمبالغة كان الأنسب أن يراد به حصول الهدى به بالفعل فيكون في قران الوصف الرابع (الرحمة).

والوصف الرابع وهو الرحمة خاص بمن عمل بمقتضى الأوصاف الثلاثة الأول فانتفع بها فكان القرآن رحمة له في الدنيا والآخرة. وهو ينظر إلى قوله تعالى {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً} [الإسراء: 82].

{ **لِلْمُؤْمِنِينَ** } قيد متعلّق بـ { رَحْمَةٌ } بلا شبهة، وقد خصّه به جمهور المفسرين. ومن المحقّقين من جعله قيدا لـ {هُدىً وَرَحْمَةً} ناظرا إلى قوله تعالى {هُدىً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: 2] فإنّه لم يجعله هدى لغير المتقين وهم المؤمنون.

والوجه أنّ كونه موعظة وصف ذاتي له، لأنّ الموعظة هي الكلام المحذّر من الضرّ ولهذا عقّبت بقوله {مِنْ رَبِّكُمْ} فكانت عامة لمن خوطب بـ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} . وأمّا كونه شفاء فهو في ذاته صالح للشفاء ولكن الشفاء بالدواء لا يحصل إلّا لمن استعمله. وأمّا كونه هدى ورحمة فإنّ تمام وصف القرآن بهما يكون بالنسبة لمن حصلت له حقيقتهما وأمّا لمن لم تحصل له آثارهما فوصف القرآن بهما بمعنى صلاحيته لذلك وهو الوصف بالقوة في اصطلاح أهل المنطق. فالأظهر أنّ قيد { لِلْمُؤْمِنِينَ } راجع إلى {هُدىً وَرَحْمَةً} معا على قاعدة

القيّد الوارد بعد مفردات، وأما رجوعه إلى {شِفَاءٌ} فمحتمل، لأنّ وصف {شِفَاءٌ} قد عقب بقيد {لِمَا فِي الصُّدُورِ} فانقطع عن الوصفين اللذين بعده، ولأن تعريف {الصُّدُورِ} باللام يقتضي العموم.

{ قَدْ جَاءَتْكُمْ } متعلّق بالنّاس باعتبار كونهم المقصود بإنزال القرآن في الجملة. ثم وقع التفصيل بالنسبة لما اختلفت فيه أحوال تلقيهم وانتفاعهم، فعمّم في مجيء البرهان وإنزال النور جميع النّاس، وخصّص في الرحمة والفضل والهداية المؤمنين، وهذا منتهى البلاغة وصحة التقسيم.

{ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ }[58]

يتفرّع على كون القرآن هدى ورحمة للمؤمنين تنبيههم إلى أنّ ذلك فضل من الله عليهم ورحمة بهم يحقّ لهم أن يفرحوا بهما، وأن يقدّروا قدر نعمتهما، وأن يعلموا أنّها نعمة تفوق نعمة المال التي حرم منها أكثر المؤمنين ومنحها أكثر المشركين، فكانت الجملة حقيقة بأن تفتتح بفاء التفريع.

{ قُلْ } جيء بالأمر بالقول معترضا بين الجملة المفرعة والجملة المفرع عليها تنويها بالجملة المفرعة، بحيث يؤمر الرسول أمرا خاصا بأن يقولها وإن كان جميع ما ينزل عليه من القرآن مأمورا بأن يقوله.

وتقدير نظم الكلام: قل لهم فليفرحوا بفضل الله وبرحمته.

{ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ } مجرور متعلّق بفعل {فَلْيَفْرَحُوا} قدّم على متعلقه للاهتمام به للمسلمين ولإفادة القصر، أي بفضل الله وبرحمته دون مما سواه.

{ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا } {فَبِذَلِكَ} رابطة للجواب، والفاء في قوله {فَلْيَفْرَحُوا} مؤكدة للربط. ولم يختلف المفسّرون في أنّ القرآن مراد من فضل الله ورحمته. وقد روي حديث عن أنس بن مالك عن النبيء صلى الله عليه وسلم أنّه قال: " فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله " . وهو الذي يقتضيه اللفظ، فإنّ الفضل هو هداية الله التي في القرآن، والرحمة هي التوفيق إلى اتباع الشريعة التي هي الرحمة في الدنيا والآخرة.

{ هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } مبيّنة للمقصود من القصر المستفاد من تقديم المجرورين. أي ذلك خير مما يجمعون.

{ مَا يَجْمَعُونَ } مراد به الأموال والمكاسب، لأنّ فعل الجمع غلب في جمع المال. قال تعالى {الذي جمع مالا وعدده} [الهمزة: 2]. ومن المعتاد أنّ جامع المال يفرح بجمعه. وعلى هذا الوجه يظهر معنى القصر أتمّ الظهور، وهو أيضا المناسب لحالة المسلمين وحالة المشركين يومئذ، فإنّ المسلمين كانوا في ضعف لأنّ أكثرهم من ضعاف القوم أو لأن أقاربهم من المشركين تسلطوا على أموالهم ومنعوهم حقوقهم إلجاء لهم إلى

العود إلى الكفر.

وقد أجملت الآية وجه تفضيل هذا الفضل والرحمة على ما يجمعونه لقصد إعمال النظر في وجوه تفضيله، فإنّها كثيرة، منها واضح وخفي. وينبئ بوجه تفضيله في الجملة إضافته الفضل والرحمة إلى الله وإسناد فعل {يَجْمَعُونَ} إلى ضمير {النَّاسُ} [57]. وهذا الفضل أخروي ودنيوي؛ أمّا الأخروي فظاهر، وأمّا الدنيوي فلأن كمال النفس وصحّة الاعتقاد وتطلع النفس إلى الكمالات وإقبالها على الأعمال الصالحة تكسب الراحة في الدنيا وعيشة هنيئة.

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ } [59]

الاستدلال عليهم بشيء من تشريعهم في خصوص أرزاقهم متعلّق بآخر الكلام الذي قبله ليظهر ما فيه من حسن التخلّص إليه وذلك أنّ أخر الكلام المتقدّم جملة {هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [58]، أي من أموالهم. وتلك الأموال هي التي رزقهم الله إيّاها فجعلوا منها حلالا ومنها حراما وكفروا نعمة الله إذ حرّموا على أنفسهم من طيبات ما أعطاهم ربهم، وحسبهم بذلك شناعة بهم ملصقة، وأبوابا من الخير في وجوههم مغلقة.

{ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ } الرزق، ما ينتفع به. وتقدّم في قوله تعالى {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [البقرة:3]. وعبّر عن إعطاء الرزق بالإنزال لأنّ معظم أموالهم كانت الثمار والأعناب والحبوب، وكلّها من آثار المطر الذي هو نازل من السحاب بتكوين الله، فأسند إنزاله إلى الله بهذا الاعتبار، ومعظم أموالهم الأنعام، وحياتها من العشب والكلأ وهي من أثر المطر، قال تعالى {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ} [الذاريات: 22].

{ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً } هو ما حكى الله بعضه عنهم في قوله {وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها} وقوله {وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا} [الأنعام:138، 139]. ومحلّ الإنكار ابتداء هو جعلهم بعض ما رزقهم الله حراما عليهم.

{ وحَلالاً } عطف على {حَرَاماً} للإنكار بالتبع.

{ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ } الاستفهام تقريري باعتبار إلزامهم بأحد الأمرين: إمّا أن يكون الله أذن لهم، أو أن يكونوا مفترين على الله.

{ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ }[60]

عطف على {قُلْ أَرَأَيْتُمْ} [59]، فهو كلام غير داخل في القول المأمور به، ولكنّه ابتداء خطاب لجميع النّاس. والاستفهام مستعمل في التعجيب من حالهم، والمقصود به التعريض بالمشركين ليستفيقوا من غفلتهم ويحاسبوا أنفسهم.

{ **الَّذِينَ يَفْتَرُونَ** } عدل عن مقتضى الظاهر إلى الإتيان بالموصول بالصلة المختصّة بهم للتنبيه على أنّ الترديد بين أن يكون الله أذن لهم فيما حرّموه وبين أن يكونوا مفترين عليه قد انحصر في القسم الثاني، وهو كونهم مفترين، إذ لا مساغ لهم في ادعاء أنّه أذن لهم. فإذا تعيّن أنّهم مفترون، فقد صار الافتراء حالهم المختص بهم.

{ **يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } منصوب على الظرفية وعامله الظنّ. أي ما هو ظنهم في ذلك اليوم؟ أي إذا رأوا الغضب عليهم يومئذ ماذا يكون ظنهم أنهم لاقون؟ وهذا تهويل.

{ **إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ**} تذييل، وفيه قطع لعذر المشركين، وتسجيل عليهم بالتمرّد بأن الله تفضل عليهم بالرزق والموعظة والإرشاد فقابلوا ذلك بالكفر دون الشكر وجعلوا رزقهم أنّهم يكذّبون في حين قابله المؤمنون بالفرح والشكر فانتفعوا به في الدنيا والآخرة.

{ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ }[61]

وعد بالثواب للرّسول على ما هو قائم به من تبليغ أمر الله وتدبير شؤون المسلمين وتأييد دين الإسلام، وبالثواب للمسلمين على اتّباعهم الرّسول فيما دعاهم إليه. وجاء هذا الوعد بطريقة التعريض بحصول رضى الله تعالى في قوله { إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً }. ويتضمّن ذلك تنويها بالنبيء ﷺ في جليل أعماله وتسلية على ما يلاقيه من المشركين من تكذيب وأذى، لأنّ اطلاع الله على ذلك وعلمه بأنّه في مرضاته كاف في التسلية، ولذلك توجّه الخطاب ابتداء إلى النبيء ﷺ ثم توجّه إليه وإلى من معه من المسلمين.

الشأن، العمل المهم والحال المهم.

{ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ }

ابتدئ الكلام بشؤون النبيء ﷺ التي منها ما هو من خواصّه كقيام الليل، وثُنِّي بما هو من شؤونه بالنسبة إلى النّاس وهو تلاوة القرآن على النّاس، وثُلِّث بما هو من شؤون الأمّة في قوله {وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ} فإنّه وإن كان الخطاب فيه شاملا للنبيء ﷺ إلّا أنّ تقديم ذكر شأن في أوّل الآية يخصّص عموم الخطاب في قوله

{تَعْمَلُونَ} فلا يبقى مرادا منه إلّا ما يعمله بقية المسلمين.

{ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً }، أي إلّا علمنا بذلك، فجملة {كُنَّا عَلَيْكُمْ} في موضع الحال.

الشهود، جمع شاهد. وأخبر بصيغة الجمع عن الواحد وهو الله تعالى تبعا لضمير الجمع المستعمل للتعظيم. والشاهد، الحاضر، وأطلق على العالم بطريقة المجاز المرسل، ولذلك عدي بحرف (على).

الإفاضة في العمل، الاندفاع فيه، أي الشروع في العمل بقوّة واهتمام، وهذه المادة مؤذنة بأنّ المراد أعمالهم في مرضاة الله ومصابرتهم على أذى المشركين.

{ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ } هي بمنزلة التذييل لما فيها من زيادة التعميم في تعلّق علم الله تعالى بجميع الموجودات بعد الكلام على تعلّقه بعمل النبيء ﷺ والمسلمين.

العزوب، البعد، وهو مجاز هنا للخفاء وفوات العلم، لأنّ الخفاء لازم للشيء البعيد.

المثقال، اسم آلة لما يعرف به مقدار ثقل الشيء فهو على وزن مفعال من ثقل.

الذرّة، النملة الصغيرة، ويطلق على الهباءة التي ترى في ضوء الشمس كغبار دقيق جدا، والظاهر أنّ المراد في الآية الأول. وذكرت الذرّة مبالغة في الصغر والدقة للكناية بذلك عن إحاطة العلم بكل شيء، فإنّ ما هو أعظم من الذرّة يكون أولى بالحكم.

{ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ } المقصود تعميم الجهات والأبعاد بأخصر عبارة. وتقديم الأرض هنا لأنّ ما فيها أعلق بالغرض الذي فيه الكلام وهو أعمال النّاس فإنّهم من أهل الأرض، بخلاف قوله {عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ }[سبأ :3] فإنّه لما كان المقام لذكر علم الغيب، والغيب ما غاب عن النّاس ومعظمه في السماء لاءم ذلك أن قدّمت السماء على الأرض.

{ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ } تصريح بما كنّي عنه بمثقال ذرّة من جميع الأجرام.

{ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } أي إلّا معلوما مكتوبا، ويعلم السامع أنّ المكتوب في كتاب مبين لا يمكن أن يعزب، فيكون انتفاء عزوبه حاصلا بطريق برهاني.

الكتاب، علم الله، استعير له الكتاب لأنّه ثابت لا يخالف الحق بزيادة ولا نقصان.

مبين، اسم فاعل من أبان بمعنى بان، أي واضح بين لا احتمال فيه.

{ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [62] الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [63] لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [64]

استئناف للتصريح بوعد المؤمنين، وبتسلية النبيء ﷺ على ما يلاقيه من الكفّار من أذى وتهديد، إذ أعلن الله

للنبيء والمؤمنين بالأمن من مخافة أعدائهم، ومن الحزن من جرّاء ذلك، ولمّح لهم بعاقبة النصر، ووعدهم البشرى في الآخرة وعدا لا يقبل التغيير ولا التخلّف تطمينا لنفوسهم.

{ **أَلا إِنَّ**} افتتاح الكلام بأداة التنبيه إيماء إلى أهميّة شأنه. وأكدت الجملة بـ {إِنَّ} بعد أداة التنبيه.

{ **أَوْلِيَاءَ اللَّهِ** } يؤذن بأنّ المخاطبين قد حُقّ لهم أنّهم من أولياء الله، مع إفادة حكم عام شملهم ويشمل من يأتي على طريقتهم.

{ **لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** } **الخوف**، توقع حصول المكروه للمتوقِّع، فيتعدّى بنفسه إلى الشيء المتوقَّع حصوله، فيقال: خاف الشيء. وإذا كان توقّع حصول المكروه لغير المتوقِّع يقال للمتوقَّع: خاف عليه، كقوله تعالى: {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الشعراء: 135]..

أي هم بمأمن من أن يصيبهم مكروه يُخاف من إصابة مثله، فحالهم حال من لا ينبغي أن يخاف، ولذلك لا يخاف عليهم أولياؤهم لأنّهم يأمنون عليهم من عاقبة ما يتوجسون منه خيفة.

فالكلام يفيد أنّ الله ضمن لأوليائه أن لا يحصل لهم ما يخافونه وأن لا يحل بهم ما يحزنهم. ولمّا كان ما يخاف منه من شأنه أن يحزن من يصيبه كان نفي الحزن عنهم مؤكِّدا لمعنى نفي خوف خائف عليهم.

وجمهور المفسرين حملوا الخوف والحزن المنفيين على ما يحصل لأهل الشقاوة في الآخرة بناء على أنّ الخوف والحزن يحصلان في الدنيا.

الولي، الموالي، أي المحالف والناصر. وكلّها ترجع إلى معنى الوَلْي (بسكون اللام) ، وهو القرب. وتقدم في قوله تعالى{ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً } [الأنعام:14]. وهو قرب من الجانبين، ولذلك فسروه هنا بأنّه الذي يتولّى الله بالطاعة ويتولّاه الله بالكرامة.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** } بيّن أولياء الله في هذه الآية بأنّهم الذين آمنوا واتقوا، اعتناء بهم.

ودل قوله {وَكَانُوا يَتَّقُونَ} على أنّ التقوى ملازمة لهم، أخذا من صيغة {كَانُوا}، وأنّها متجددة منهم أخذا من صيغة المضارع {يَتَّقُونَ} . وقد كنت أقول في المذاكرات منذ سنين خلت في أيام الطلب أن هذه الآية هي أقوى ما يعتمد عليه في تفسير حقيقة الولي شرعا، وأن على حقيقتها يُحمل معنى قوله في الحديث القدسي الذي رواه الترمذي عن النبيء ﷺ قال: " قال الله تعالى من عادى لي وليا فقد آذنته بحرب".

{ **لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** } إشارة إلى تولّي الله إيّاهم بالكرامة. وتعريف { الْبُشْرَى } تعريف الجنس فهو صادق ببشارات كثيرة. والمعنى، أنّهم يُبّشرون بخيرات قبل حصولها؛ في الدنيا بما يتكرّر من البشارات الواردة في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، وفي الآخرة بما يتلقونه من الملائكة وما يسمعونه من أمر الله بهم إلى النعيم المقيم. روى الترمذي عن أبي الدرداء أنّه سأل رسول الله ﷺ عن قوله

تعالى { لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } فقال: " ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت، فهي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له". ومحمل هذا الخبر أنّ الرؤيا الصالحة من جملة البشرى في الحياة الدنيا.

{ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ } تذكير لهم بأنّ ما وعدهم الله به من البشائر مثل النصر وحسن العاقبة أمر ثابت لا يتخلّف لأنّه من كلمات الله.

التبديل، التغيير والإبطال، لأنّ إبطال الشيء يستلزم إيجاد نقيضه.

{ كَلِمَاتِ اللَّهِ } الأقوال التي أوحى بها إلى الرّسول في الوعد المشار إليه.

{ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } مؤكّدة لجملة { لَهُمُ الْبُشْرَى } ومقرّرة لمضمونها فلذلك فصلت.

والإشارة بـ (ذلك) إلى المذكور من مضمون الجمل الثلاث المتقدمة، واختيار اسم الإشارة لأنّه أجمع لما ذكر، وفيه كمال تمييز له لزيادة تقرير معناه.

{ هُوَ } ذكر ضمير الفصل بعد اسم الإشارة لزيادة التأكيد ولإفادة القصر، أي هو الفوز العظيم لا غيره مما يتقلب فيه المشركون في الحياة الدنيا من رزق ومنعة وقوّة، لأنّ ذلك لا يعدّ فوزا إذا عاقبته المذلّة والإهانة في الدنيا وبعده العذاب الخالد في الآخرة، كما أشار إليه قوله تعالى {لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران: 196، 197].

{ وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }[65]

معطوفة على { أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ } [62] عطف الجزئي على الكلّي، لأنّ الحزن المذكور هنا نوع من أنواع الحزن المذكور سابقا. ولأنّ الرّسول ﷺ من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وعدل عن العطف بفاء التفريع إلى العطف بالواو ليعطي مضمون الجملة المعطوفة استقلالا بالقصد إليه، فيكون ابتداء كلام مع عدم فوات معنى التفريع لظهوره من السياق.

والحزن المنهي عن تطرّقه هو الحزن الناشئ عن أذى المشركين محمدا ﷺ بأقوالهم البذيئة وتهديداتهم. ووجه الاقتصار على دحضه أنّ النبيء ﷺ لم يكن يلقى من المشركين محزنا إلّا أذى القول البذئي.

{ لا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ } خطاب للنبي ﷺ. وظاهر صيغته أنّه نهي عن أن يُحزن النبيء ﷺ كلام المشركين، مع أنّ شأن النهي أن يتوجّه الخطاب به إلى من فعل الفعل المنهي عنه، ولكن المقصود من مثل هذا التركيب نهي النبيء عليه الصلاة والسلام عن أن يتأثّر بما شأنه أن يحزن النّاس من أقوالهم.

{ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً } تعليل لدفع الحزن عنه، بأنّ عزتهم كالعدم لأنّها محدودة وزائلة والعزة الحق لله.

والجملة في محل استئناف بياني. وكل جملة كان مضمونها علّة للتي قبلها تكون أيضا استئنافا بيانيا، فالاستئناف البياني أعمّ من التعليل. وافتتحت بحرف التأكيد للاهتمام بها، ولأنّه يفيد مفاد لام التعليل وفاء

التفريع في مثل هذا المقام الذي لا يقصد فيه دفع إنكار من المخاطب.

{ **الْعِزَّةَ** } تعريف الجنس المفيد للاستغراق بقرينة السياق.

{ **لِلَّهِ** } اللام للملك. وقد أفاد جعل جنس العزة ملكا لله أن جميع أنواعها ثابت لله، فيفيد أن له أقوى أنواعها وأقصاها. وبذلك يفيد أن غير الله لا يملك منها إلا أنواعا قليلة.

{ **جَمِيعاً** } حال، موكّدة مضمون الجملة قبلها، المفيد لاختصاصه تعالى بجميع جنس العزّة لدفع احتمال إرادة المبالغة في ملك ذلك الجنس.

{ **هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } تفيد تعليلا آخر أو تكملة للتعليل الأوّل، لأنّه إذا تذكّر المخاطب أن صاحب العزّة يعلم أقوالهم وأحوالهم زاد ذلك قوّة في دفع الحزن من أقوالهم عن نفسه لأنّ الذي نهاه عن الحزن من أقوالهم وتطوالهم أشدّ منهم قوّة ومحيط علمه بما يقولونه وبأحوالهم.

{ **السَّمِيعُ** } العالم بأقوالهم التي من شأنها أن تسمع، و{ **الْعَلِيمُ** } ما هو أعمّ من أحوالهم التي ليست بمسموعات فلا يطلق على العلم بها اسم (السميع).

{ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [66]

المقصود بتوجيه هذا الكلام هم المشركون لتأييسهم من كل احتمال لانتصارهم على النبيء ﷺ والمسلمين.

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا ومناسبة وقوعها عقب جملة {وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ} أنّ أقوالهم دحضت بمضمون هذه الجملة. وأمّا وقوعها عقب جملة {إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً} [65] فلأنّها حجّة على أنّ العزّة لله، لأنّ الذي له من في السماوات ومن في الأرض تكون له العزّة الحقّ.

{ **أَلا إِنَّ لِلَّهِ** } افتتاح الجملة بحرف التنبيه مقصود منه إظهار أهميّة العلم بمضمونها وتحقيقه ولذلك عقّب بحرف التأكيد، وزيد ذلك تأكيدا بتقديم الخبر في قوله {لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ} وباجتلاب لام الملك.

{ **مَنْ** } الموصولة شأنها أن تطلق على العقلاء وجيء بها هنا مع أنّ المقصد الأول إثبات أنّ آلهتهم لله تعالى، وهي جمادات غير عاقلة، تغليبا، فإنّ من العرب من عبد الملائكة، ومنهم من عبدوا المسيح، وهم نصارى العرب.

وذكر السماوات والأرض لاستيعاب أمكنة الموجودات فكأنّه قيل: ألا إنّ لله جميع الموجودات.

{ **وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ** } هي كالنتيجة للجملة الأولى، إذ المعنى أنّ جميع الموجودات ملك لله، واتّباع المشركين أصنامهم اتباع خاطئ باطل.

{ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } توكيد لفظي لجملة {يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ} وأعيد مضمونها قضاء لحقّ الفصاحة، حيث حصل من البعد بين المستثنى والمستثنى منه بسبب الصلة الطويلة ما يشبه التعقيد اللفظي وذلك لا يليق بأفصح كلام، مع إفادة تلك الإعادة مفاد التأكيد، لأنّ المقام يقتضي الإمعان في إثبات الغرض.

الظنّ هنا، العلم المخطئ. وقد بيّنت الجملة التي بعدها أنّ ظنّهم لا دليل عليه بقوله {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ }.

الخرص، القول بالحزر والتخمين. وتقدّم نظير هذه الآية في قوله { وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام:116]

{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ }[67].

معترضة بين {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ} [66] و{قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً} [68] جاءت مجيء الاستدلال على فساد ظنّهم وخرصهم بشواهد خلق الليل والنّهار المشاهد في كل يوم من العمر مرّتين، وهم في غفلة عن دلالته.

ووصف النهار بمبصِر مجاز عقلي للمبالغة في حصول الإبصار فيه حتّى جعل النّهار هو المبصِر، والمراد مبصِرًا فيه النّاس.

ومن لطائف المناسبة أنّ النور الذي هو كيفية زمن النهار شيء وجودي فكان زمانه حقيقيا بأن يوصف بأوصاف العقلاء، بخلاف الليل فإنّ ظلمته عدميّة فاقتصر في العبرة به على ذكر الفائدة الحاصلة فيه وهي أن يسكنوا فيه.

فالمقصود الاستدلال على انفراده تعالى بخصائص الإلهيّة التي منها الخلق والتقدير، وأنّ آلهتهم انتفت عنها خصائص الإلهيّة، وقد حصل مع الاستدلال امتنان على النّاس بجعل الليل والنّهار على هذا النظام. وهذا الامتنان مستفاد من قوله {جَعَلَ لَكُمُ} ومن تعليل خلق الليل بعلّة سكون النّاس فيه، وخلق النّهار بعلّة إبصار النّاس، وكلّ النّاس يعلمون ما في سكون الليل من نعمة وما في إبصارهم بالنهار من نعمة كذلك.

وفي إدماج الاستدلال بالامتنان تعريض بأنّ الذين جعلوا لله شركاء جمعوا وصمتين هما: وصمة مخالفة الحقّ، ووصمة كفران النعمة.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } مستأنفة.

الآيات: الدلائل الدالة على وحدانيّة الله تعالى بالإلهيّة، فإنّ النظام الذي نشأ عنه الليل والنهار مشتمل على دقائق كثيرة من العلم والحكمة والقدرة وإتقان الصنع.

فمن تلك الآيات: خلق الشمس وخلق الأرض، وخلق النور في الشمس وخلق الظلمة في الأرض، ووصول شعاع الشمس إلى الأرض، ودوران الأرض كلّ يوم بحيث يكون نصف كرتها مواجها للشعاع ونصفها

الآخر محجوبا عن الشعاع. وخلق الإنسان وجعل نظام مزاجه العصبي متأثّرا بالشعاع نشاطا، وبالظلمة فتورا، وخلق حاسة البصر، وجعلها مقترنة بتأثر الضوء، وجعل نظام العمل مرتبطا بحاسة البصر، وخلق نظام المزاج الإنساني مشتملا على قوى قابلة للقوّة والضعف، ثم مدفوعا إلى استعمال قواه بقصد وبغير قصد بسبب نشاطه العصبي، ثم فاقدا بالعمل نصيبا من قواه محتاجا إلى الاعتياض بقوى تخلفها بالسكون والفتور الذي يلجئه إلى تطلب الراحة. وأيّة آيات أعظم من هذه، وأيّة منّة على الإنسان أعظم من إيداع الله فيه دواعي تسوقه إلى صلاحه وصلاح نوعه بداع من نفسه.

{ **لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** } إشارة إلى أنّ تلك الآيات والدلائل تنهض دلالتها للعقول بالتأمّل فيها، وأنّ توجّه التفكير إلى دلائلها غير محتاج إلّا إلى التنبيه عليها ولفته إليها. فلمّا كان سماع تذكير الله بها هو الأصل الأصيل في استخراج دلالتها أو تفريع مدلولاتها على تفاوت الأذهان في الفطنة وترتيب الأدلة جعل آيات دلالتها حاصلة للذين يسمعون. ويجوز أن يكون المراد يسمعون تفاصيل تلك الدلائل في تضاعيف سور القرآن. وعلى كلا الاحتمالين فالوصف بالسمع تعريض بأنّ الذين لم يهتدوا بها ولا تفطنوا لدلالتها بمنزلة الصمّ، كقوله تعالى {أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ }.

{ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ } [68]

حكاية فن من فنون كفرهم مغاير لادّعاء شركاء لله، لأنّ هذا كفر خفي من دينهم، ولأنّ الاستدلال على إبطاله مغاير للاستدلال على إبطال الشركاء.

{ **قَالُوا** } عائد إلى {الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ} [66] أي قال المشركون. وليس المراد من الضمير غيرهم من النصارى لأنّ السورة مكيّة والقرآن المكّي لم يتصدّ لإبطال زيغ عقائد أهل الكتاب. ذلك أنّ كثيرا من المشركين كانوا يزعمون أنّ لله بنات هم الملائكة، وهم بناته من سَروات نساء الجنّ، ولذلك عبدت فرق من العرب الجنّ. قال تعالى {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} [سبأ: 41].

الاتّخاذ، جعل شيء لفائدة الجاعل، وهو مشتق من الأخذ لأنّ المتّخِذ يأخذ الشيء الذي يصطفيه. وتقدّم في قوله تعالى {أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً} [الأنعام:74]. فالاتخاذ يصدق على أخذ شيء موجود للاستئثار به، ويصدق على تكوين شيء للانتفاع به. وهو هنا صالح للمعنيين لأنّ منهم من يعتقد تولّد الولد عن الله تعالى، ومنهم من يعتقد أنّ الله تبنّى بعض مخلوقاته.

الولد، اسم مصوغ على وزن فعل. وهو مأخوذ من الولادة. وأطلق على الواحد والجمع كما يوصف

بالمصدر. يقال: هؤلاء ولد فلان. وفي الحديث: " أنا سيد ولد آدم ". والمراد هنا الجمع لأنّهم قالوا الملائكة بنات الله استولدها من سروات الجن قال تعالى {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ} [النحل: 57].

{ **سُبْحَانَهُ** } إنشاء تنزيه للردّ عليهم. وهو اسم مصدر لـ (سبّح) إذا نزّه، نائب عن الفعل، أي نسبّحه. أي تنزيها لله عن هذا، لأنّ ما قالوه يستلزم تنقيص الله تعالى.

{ **هُوَ الْغَنِيُّ** } أي هو الغني عن اتخاذ الولد، لأنّ الإلهيّة تقتضي الغنى المطلق عن كلّ احتياج.

الغنيّ، الموصوف بالغنى، فعيل للمبالغة في فعل (غَنِيَ) عن كذا إذا كان غير محتاج، وغنى الله هو الغنى المطلق.

{ **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** } مقرّرة لوصف الغنى بأنّ ما في السماوات وما في الأرض ملكه، فهو يسخّر كل موجود لما خلقه لأجله، فلا يحتاج إلى إعانة ولد.

{ **إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا** } جواب ثان لقولهم { اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً}، فبعد أن أستدلّ على إبطال قولهم، سجّل عليهم أنّهم لا حجّة لهم في قولهم ذلك.

السلطان، البرهان والحجّة، لأنّه يُكسب المستدلّ به سلطة على مخالفه ومجادله.

{ **أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** } جواب ثالث ناشئ عن الجوابين لأنّهم لما أُبطل قولُهم بالحجّة. ونُفي أن تكون لهم على قولهم حجّة كانوا أحرياء بالتوبيخ والتشنيع بأنّهم يجترئون على جناب الله فيصفون الله بما لا يعلمون، أي بما لا يوقنون به، ولكونها جوابا فصلت. فالاستفهام مستعمل في التوبيخ، لأنّ المذكور بعده شيء ذميم، واجتراء عظيم وجهل كبير مركب.

{ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ [69] مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } [70]

{ **قُلْ** } أمر للنبيء ﷺ، لتنبيه السامعين بأنّه أمر مهم ووعيد لكلّ من يفتري على الله ما لم يقله.

الفلاح، حصول ما قصده العامل من عمله بدون انتقاض ولا عاقبة سوء. وتقدّم في طالع سورة البقرة[5].

فنفي الفلاح هنا نفي لحصول مقصودهم من الكذب وتكذيب محمد ﷺ.

{ **مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا** } استئناف بياني، أي أمرهم متاع لا يعبأ به.

المتاع، المنفعة القليلة في الدنيا، إذ يقيمون بكذبهم سيادتهم وعزّتهم بين قومهم ثم يزول ذلك. ومادة (متاع) مؤذنة بأنّه غير دائم كما تقدّم في قوله تعالى {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [الأعراف:24]. وتنكيره مؤذن بتقليله، وتقييده بأنّه في الدنيا مؤكّد للزوال وللتقليل.

{ **ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ** } (ثمّ) للتراخي الرتبي لأنّ مضمونه هو محقّة أنّهم لا يفلحون.

المرجع، مصدر ميمي بمعنى الرجوع. ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى وقت نفاذ حكمه المباشر فيهم.

ويجوز أن يكون المرجع كناية عن الموت.

{ **ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ** } بيان لجملة {ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ} .

إذاقة العذاب، إيصاله إلى الإحساس، أطلق عليه الإذاقة لتشبيهه بإحساس الذوق في التمكّن من أقوى أعضاء الجسم.

والجمل الأربع هي من المقول المأمور به النبيء ﷺ تبليغا عن الله تعالى.

{ **بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** }الباء للتعليل. والتركيب يؤذن بتكرّر ذلك منهم وتجدده بأنواع الكفر.

{ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ**} [71]

انتقال من مقارعة المشركين بالحجج الساطعة على بطلان دينهم، وبالدلائل الواضحة على تفنيد أكاذيبهم وتكذيبهم، وما تخلّل ذلك من الموعظة والوعيد بالعذاب العاجل والآجل والإرهاب، إلى التعريض لهم بذكر ما حلّ بالأمم المماثلة أحوالها لأحوالهم، استقصاء لطرائق الحجاج على أصحاب اللجاج، فإنّ نوحا عليه السلام مع قومه مثلٌ لحال محمد ﷺ مع المشركين من قومه في ابتداء الأمر وتطوّره. ففي ذكر عاقبة قوم نوح عليه السلام تعريض للمشركين بأنّ عاقبتهم كعاقبة أولئك، أو أنّهم إنّما يمتّعون قليلا ثم يؤخذون أخذة رابية. كما متع قوم نوح زمنا طويلا ثم لم يفلتوا من العذاب في الدنيا. وفيه أيضا تأنيس للرّسول ﷺ وللمسلمين بأنّهم إسوة بالأنبياء، والصالحين من أقوامهم. وكذلك قصة موسى عليه السلام عقبها.

{ **إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ** } إيماء إلى أنّ محاورته قومه وإصرارهم على الإعراض هو محلّ العبرة، لأنّه وجه الشبه بين المشركين وبين قوم نوح عليه السلام في صمّ آذانهم عن دعوة رسولهم.

التلاوة، القراءة. وتقدّمت في سورة الأنفال.

النبأ، الخبر. وتقدّم في قوله { وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ } [الأنعام:34].

والتعريف **بنوح** عليه السلام وتاريخه مضى في أول آل عمران.

{ **لِقَوْمِهِ** } تعريف قوم نوح بطريق الإضافة إلى ضمير نوح، إذ ليس ثمّة طريق لتعريفهم غير ذلك إذ لم يكن لتلك الأمّة اسم تعرف به.

{ **يَا قَوْمِ** } إيذان بأهمية ما سيلقيه إليهم، لأنّ النداء طلب الإقبال. ولمّا كان هنا ليس لطلب إقبال قومه إليه

لأنّه ما ابتدأ خطابهم إلّا في مجمعهم تعيّن أنّ النداء مستعمل مجازا في طلب الإقبال المجازي، وهو توجيه أذهانهم إلى فهم ما سيقوله. واختيار التعبير عنهم بوصف كونهم قومه تحبيب لهم في نفسه ليأخذوا قوله مأخذ قول الناصح المتطلّب الخير لهم، لأنّ المرء لا يريد لقومه إلّا خيرا. وحذفت ياء المتكلّم من المنادى المضاف إليها على الاستعمال المشهور في نداء المضاف إلى ياء المتكلم.

{ **إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ** } شقّ عليكم وأحرجكم.

الكبر، وفرة حجم الجسم بالنسبة لأمثاله من أجسام نوعه، ويستعار لأوصاف الذوات أو المعاني. وقد يكون مدحا كقوله تعالى {وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} ، ويكون ذمّا كقوله {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} [الكهف: 5]. ويستعار للمشقّة والحرج، كقوله تعالى {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} [الشورى: 13] وقوله {وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ} [الأنعام: 35] وكذلك هنا.

المقام، مصدر ميمي مرادف للقيام. وقد استعمل هنا في معنى شأن المرء وحاله كما في قوله تعالى {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمان: 46]. وهو استعمال من قبيل الكناية، لأنّ مكان المرء ومقامه من لوازم ذاته، وفيهما مظاهر أحواله.

{ **بِآيَاتِ اللَّهِ** } الباء لتأكيد تعديّة المصدر إلى مفعوله الثاني. وآيات الله، دلائل فضله عليهم، ودلائل وحدانيته، لأنّهم لما أشركوا بالله فقد نسوا تلك الدلائل، فكان يذكّرهم بها، وذلك يبرّمهم ويحرجهم.

{ **فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ** } أي لا على غيره.

التوكّل، التعويل على من يدبّره أمره. وقد مرّ عند قوله {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [آل عمران:159].

{ **فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ** } الفاء للتفريع على جملة {عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ} فللجملة المفرّعة حكم جواب الشرط لأنّها مفرّعة على جملة الجواب.

إجماع الأمر، العزم على الفعل بعد التردّد بين فعله وفعل ضدّه. وهو مأخوذ من الجمع الذي هو ضدّ التفريق، لأنّ المتردّد في ماذا يعمله تكون عنده أشياء متفرقة فهو يتدبّر ويتأمل، فإذا استقر رأيه على شيء منها فقد جمع ما كان متفرّقا. ويقولون: جاؤوا وأمرهم جميع، أي متفق عليه.

الأمر، شأنهم، من قصد دفعه وأذاه، وتردّدهم في وجوه ذلك ووسائله.

{ **وَشُرَكَاءَكُمْ** } منصوب في قراءة الجمهور على أنّه مفعول معه، أي أجمعوا أمركم ومعكم شركاؤكم الذين تستنصرون بهم. وزاد ذكر شركائهم للدلالة على أنّه لا يخشاها، لأنّها في اعتقادهم أشد بطشا من القوم، وذلك تهكّم بهم، كما في قوله تعالى {قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ} [الأعراف: 195].

{ **ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً** } {ثُمَّ} دالة على التراخي في الرتبة لما تتضمّنه الجملة الثانية من الترقّي في قلّة مبالاته بما يهيّئونه له من الضرّ، أي اجتهدوا في أن لا يكون ذلك.

الغُمّة، اسم مصدر للغَمّ. وهو الستر. والمراد بها في مثل هذا التركيب الستر المجازي، وهو انبهام الحال، وعدم تبيّن السداد فيه، ولعل هذا التركيب جرى مجرى المثل.

{ **ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ** } (ثمّ) للتراخي في الرتبة، فإن رتبة إنفاذ الرأي بما يزمعون عليه من أذاه أقوى من تدبير ذلك.

{ **اقْضُوا** } أمر من القضاء، فيجوز أن يكون من القضاء بمعنى الإتمام والفصل، أي انفذوا ما ترونه من الإضرار بي. ويجوز أن يكون من القضاء بمعنى الحكم، وهو قريب من الوجه الأول، أي أنفذوا حكمكم.

وعدّي بـ (إلى) دون (على) لأنّه ضُمّن معنى الإبلاغ والإيصال تنصيصا على معنى التنفيذ بالفعل، لأنّ القضاء يكون بالقول فيعقبه التنفيذ أو الإرجاء أو العفو، ويكون بالفعل، فهو قضاء بتنفيذ، ويسمى عند الفقهاء بالقضاء الفعلي.

{ **وَلا تُنْظِرُونِ** } تأكيد لمدلول التضمين المشار إليه بحرف (إلى).

الإنظار، التأخير، وحذفت ياء المتكلّم من {تُنْظِرُونِ} للتخفيف، وهو حذف كثير في فصيح الكلام، وبقاء نون الوقاية مشعر بها.

{ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ }[72]

الفاء لتفريغ الكلام على الكلام فجملة الشرط وجوابه مفرعتان على الجملتين السابقتين،

ولما كان توليهم عن دعوته قد وقع واستمر تعين أن جعل التولي في جملة الشرط مراد به ما كان حصل ليرتّب عليه جواب الشرط الذي هو شيء قد وقع أيضا. والمعنى، فإن تولّيتم فقد علمتم أنّي ما سألتكم أجرا فتتهموني برغبة في نفع ينجرّ لي من دعوتكم حتّى تعرضوا عنها شحّا بأموالكم أو اتهاما بتكذيبي، وهذا إلزام لهم بأن تولّيهم لم يكن فيه احتمال تهمتهم إيّاه بتطلب نفع لنفسه. وبذلك برّأ نفسه من أن يكون سببا لتوليهم.

{ **إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ** } تعميم لنفي تطلّبه أجرا على دعوتهم سواء منهم أم من غيرهم، فالقصر حقيقي وبه يحصل تأكيد جملة {فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ} مع زيادة التعميم. وطريق جزمه بأنّ الله يؤجره على ذلك هو وعد الله إيّاه به بما أوحى إليه.

الأجر، العوض الذي يعطى لأجل عمل يعمله آخذ العوض.

{ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** } معطوفة على جملة الجواب، أي أمرني الله أن أتّبع الدين الحقّ ولو كنت وحدي. وهذا تأييس لهم بأن إجماعهم على التولي عنه لا يفلّ حدّه ولا يصدّه عن مخالفة دينهم الضلال.

وبني الفعل للمجهول ، إذ من المعلوم من سياق الكلام أن الذي أمره هو الله تعالى. وقوله { مِنَ الْمُسْلِمِينَ} أي من الفئة التي يصدق عليها هذا الوصف وهو الإسلام، أي توحيد الله دون عبادة شريك.

وقد سمّي التوحيد ودين الحقّ الخالص إسلاما في مختلف العصور، وسمّى الله به سنن الرسل فحكاه عن نوح عليه السلام هنا وعن إبراهيم {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [البقرة: 131]، وعن إسماعيل {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ} [البقرة: 128]، ويعقوب وبنيه {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: 133]، وعن يوسف {تَوَفَّنِي مُسْلِماً} [يوسف: 101]، وعن موسى {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} [يونس: 8]، وعن سليمان {أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} [البقرة: 31]، وعن عيسى والحواريين {قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} [المائدة: 111]. وقد تقدّم بيان ذلك مفصلا عند قوله تعالى{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ} [البقرة:128].

{ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ }[73]

{ **فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ** } الفاء التي في جملة { فَنَجَّيْنَاهُ } للترتيب والتعقيب، لأنّ تكذيب قومه قد استمر إلى وقت إغراقهم وإنجاء نوح عليه السلام ومن اتّبعه. وهذا نظم بديع وإيجاز معجز، إذ رجع الكلام إلى التصريح بتكذيب قومه الذي لم يذكر قبل بل أشير له ضمنا بقوله {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي}[71] فكان كرد العجز على الصدر، ثم أشير إلى استمراره في الأزمنة كلّها حتّى انتهى بإغراقهم، فكان تفنّنا بديعا في النظم مع إيجاز بهيج.

وتقدّم ذكر إنجائه قبل ذكر الإغراق الذي وقع الإنجاء منه للإشارة إلى أنّ إنجاءه أهم عند الله تعالى من إغراق مكذّبيه، ولتعجيل المسرّة للمسلمين السامعين لهذه القصّة.

الفلك، السفينة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ } [البقرة:164].

الخلائف، جمع خليفة وهو اسم للذي يخلف غيره. وتقدّم عند قوله { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة:30]. وصيغة الجمع هنا باعتبار الذين معه في الفلك تفرع على كل زوجين منهم أمّة.

{ **فَانْظُرْ** } هنا نظر عين، نزل خبرهم لوضوحه واليقين به منزلة المشاهد. و يجوز أن يكون الخطاب لكلّ من يسمع، فلا يراد به مخاطب معيّن. ويجوز أن يكون خطابا لمحمد ﷺ، فخصّ به، تعظيما لشأنه، بأنّ الذين كذّبوه يوشك أن يصيبهم من العذاب نحو مما أصاب قوم نوح عليه السلام، وفي ذلك تسلية له على ما يلاقيه من أذاهم وإظهار لعناية الله به.

{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ }[74]

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، لأنّ بعثة رسل كثيرين إلى أمم تلقّوهم بمثل ما تلقّى به نوحًا قومُه أعجب من شأن قوم نوح حيث تمالأت تلك الأمم على طريقة واحدة من الكفر. وليست للتراخي في الزمن للاستغناء عن ذلك بقوله {مِنْ بَعْدِهِ }.

{ **رُسُلاً** } أبهم الرسل في هذه الآية ووقع في آيات أخرى التصريح بأنهم: هود وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب. وقد يكون هنالك رسل آخرون كما قال تعالى { وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ } [النساء: 164].

ويتعيّن أن يكون المقصود هنا من كانوا قبل موسى لقوله {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى} [75].

وفي الآية إشارة إلى أن نوحا أوّل الرسل.

{ **فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ** } الفاء للتعقيب، أي أظهروا لهم المعجزات بإثر إرسالهم. والباء للملابسة، أي جاءوا قومهم مبلّغين الرسالة ملابسين البيّنات، و**البيّنات**، هي الحجج الواضحة الدالة على الصدق.

{ **فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا** } الفاء للتفريع، أي فترتّب على ذلك أنّهم لم يؤمنوا. وصيغ النفي بصيغة لام الجحود مبالغة في انتفاء الإيمان عنهم بأقصى أحوال الانتفاء. ودلّت أيضا على أنّ الرّسل حاولوا إيمانهم محاولة متكرّرة.

{ **بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ** } دلّ أن هنالك تكذيبا بادروا به لرسلهم، فلمّا كذّبوهم جاؤوهم بالبيّنات على صدقهم فاستمروا على التكذيب. وهذا من إيجاز الحذف لجمل كثيرة. وهذا يقتضي تكرّر الدعوة وتكرّر البيّنات، وإلّا لما كان لقوله {فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ} وقع، لأنّ التكذيب الذي حصل أوّل مرّة إذا لم يطرأ عليه ما من شأنه أن يقلعه كان تكذيبا واحدا منسيا. وهذا من بلاغة معاني القرآن.

{ **كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ** } الطبع مؤذن بأنّ قلوبهم قد ورد عليها ما حال دون تأثير البيّنات في قلوبهم. وقد جعل الطبع الذي وقع على قلوب هؤلاء مثلا لكيفيّات الطبع على قلوب المعتدين، أي مثل هذا الطبع العجيب نطبع على قلوب المعتدين، فتأملوه واعتبروا به.

الطبع، الختم. وهو استعارة لعدم دخول الإيمان قلوبهم. وتقدّم في قوله { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [البقرة:7]

الاعتداء، افتعال من عدا عليه، إذا ظلمه، فالمعتدين مرادف الظالمين، والمراد به المشركونً لأنّ الشرك اعتداء، فإنّهم كذّبوا الرسل فاعتدوا على الصادقين بلمزهم بالكذب. وقد جاء في نظير هذه الآية { كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ }[الأعراف:101] فهذا التخالف للتفنّن في حكاية هذه العبرة في الموضعين.

{ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ }[75]

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي لأنّ بعثة موسى وهارون عليهما السلام كانت أعظم من بعثة من سبقهما من الرسل. وخصّت بعثة موسى وهارون بالذكر لأنّها كانت انقلابا عظيما وتطوّرا جديدا في تاريخ الشرائع وفي نظام الحضارة العقلية والتشريعية، فإنّ الرسل الذين كانوا قبل موسى إنّما بعثوا في أمم مستقلّة، وكانت أديانهم مقتصرة على الدعوة إلى إصلاح العقيدة، وتهذيب النفوس، وإبطال ما عظم من مفاسد في المعاملات، ولم تكن شرائع شاملة لجميع ما يحتاج إليه من نظم الأمّة وتقرير حاضرها ومستقبلها.

وأمّا بعثة موسى فقد أتت بتكوين أمّة، وتحريرها من استعباد أمة أخرى إيّاها، وتكوين وطن مستقل لها، وتأسيس قواعد استقلالها، ووضع نظام سياسة الأمة، وإعطاء كتاب يشتمل على قوانين حياتها الاجتماعية من كثير نواحيها. فبعثة موسى كانت أوّل مظهر عام من مظاهر الشرائع لم يسبق له نظير في تاريخ الشرائع ولا في تاريخ نظام الأمم، وهو مع تفوّقه على جميع ما تقدّمه من الشرائع قد امتاز بكونه تلقينا من الله المطّلع على حقائق الأمور، المريد إقرار الصالح وإزالة الفاسد.

{ **مُوسَى وَهَارُونَ** } وجعل موسى وهارون مبعوثين كليهما من حيث إنّ الله استجاب طلب موسى أن يجعل معه أخاه هارون مؤيدا ومعربا عن مقاصد موسى، فكان بذلك مأمورا من الله بالمشاركة في أعمال الرسالة، وقد بيّنته سورة القصص، فالمبعوث أصالة هو موسى وأمّا هارون فبعث معينا له وناصرا.

فرعون، ملك مصر، وهو منفطاح الثاني أحد فراعنة العائلة التاسعة عشرة من الأسر التي ملكت بلاد القبط، وقد مضى الكلام عليه عند قوله { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ } [الأعراف:103].

{ **وَمَلَأِهِ** } خاصة النّاس وسادتهم، وذلك أن موسى بعث الى بني إسرائيل وبعث إلى فرعون وأهل دولته ليطلقوا بني إسرائيل.

{ **اسْتَكْبَرُوا** } السين والتاء للمبالغة في التكبّر، والمراد أنّهم تكبّروا عن تلقي الدعوة من موسى، لأنّهم احتقروه وأحالوا أن يكون رسولا من الله وهو من قوم مستعبدين استعبدهم فرعون وقومه، وهذا وجه اختيار التعبير عن إعراضهم عن دعوته بالاستكبار.

{ **وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ** } حال، والتركيب يفيد أنّ الإجرام كان دأبهم وخلقهم، فكان استكبارهم على موسى من جملة إجرامهم.

الإجرام، فعل الجرم، وهو الجناية والذنب العظيم. وتقدّم عند قوله {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ} [الأعراف:40] وقد كان الفراعنة طغاة جبابرة فكانوا يعتبرون أنفسهم آلهة للقبط وكانوا قد وضعوا شرائع لا تخلو عن جور، وكانوا يستعبدون الغرباء، وقد استعبدوا بني إسرائيل وأذلوهم قرونا، فإذا سألوا حقّهم استأصلوهم ومثّلوا بهم وقتلوهم، كما حكى الله عنهم {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} . وكان القبط يعتقدون أوهاما ضالة وخرافات، فلذلك قال الله

تعالى {وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ} ، أي فلا يستغرب استكبارهم عن الحق والرشاد.

{ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ [76] قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ } [77]

أي لمّا رأوا المعجزات التي هي حقّ ثابت وليست بتخيّلات وتمويهات، وعلموا أنّ موسى صادق فيما ادّعاه، تدرّجوا من مجرّد الإباء المنبعث عن الاستكبار إلى البهتان المنبعث عن الشعور بالمغلوبيّة.

الحقّ، يطلق اسما على ما قابل الباطل وهو العدل الصالح، ويطلق وصفا على الثابت الذي لا ريبة فيه، كما يقال: أنت الصديق الحقّ. ويلازم الإفراد لأنّه مصدر وصف به. والذي أثبت له المجيء هنا هو الآيات التي أظهرها موسى إعجازا لهم لقوله قبله {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا} [103]، فكان جعل الحقّ جائيا بتلك الآيات صالحا لمعنيي الحقّ، لأنّ تلك الآيات لمّا كانت ثابتة لا ريبة فيها كانت في ذاتها حقّا، فمجيئها حصولها، وظهورها المقصود منه إثبات صدق موسى في رسالته فكان الحق جائيا معها، فمجيئه ثبوته كقوله تعالى {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ} [الإسراء: 81].

وبهذا يظهر أن لكلمة {**الحق**} ولكلمة {**مِنْ عِنْدِنَا**} هنا، من الوقع في الدلالة على تمام المعنى المراد ما ليس لغيرهما في الإيجاز، وهذا من حدّ الإعجاز.

وبهذا تبيّن أنّ الآية دالة على أنّ آيات الصدق ظهرت وأنّ المحجوجين أيقنوا بصدق موسى وأنّه جاء بالحقّ. واعتذارهم عن ظهور الآيات بأنّها سحر هو اعتذار المغلوب العديم الحجّة الذي قهرته الحجّة وبهره سلطان الحقّ، فلم يبق له منتشب من المعارضة المقبولة، فهو يهرع إلى انتحال معارضات بمعاذير لا تدخل تحت التمحيص ولا تثبت في محك النقد.

{ **إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ** } الإشارة إلى ما هو مشاهد بينهم حين إظهار المعجزة مثل انقلاب العصا حية، وخروج اليد بيضاء، أي أنّ هذا العمل الذي تشاهدونه سحر مبين.

{ **قَالَ مُوسَى** } مجاوبة منه عن كلامهم ففصلت من العطف على الطريقة التي استخرجناها في حكاية الأقوال. وتولى موسى وحده دون هارون مجادلتهم لأنّه المباشر للدعوة أصالة، ولأنّ المعجزات ظهرت على يديه.

{ **أَتَقُولُونَ** } استفهام إنكاري. واللام في { **لِلْحَقِّ** } لام التعليل. وبعضهم يسميها لام البيان. وبعضهم يسميها لام المجاوزة بمعنى (عن).

{ **أَسِحْرٌ هَذَا** } مستأنفة للتوبيخ والإنكار، أنكر موسى عليهم وصفهم الآيات الحقّ بأنّها سحر. والإشارة تفيد التعريض بجهلهم وفساد قولهم. ولذلك كان مفعول {أَتَقُولُونَ} محذوفا لدلالة الكلام عليه، فالتقدير، أتقولون هذا القول للحقّ لمّا جاءكم.

{ **وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ** } معطوفة على {أَسِحْرٌ هَذَا}. لمّا نفى موسى عن آيات الله أن تكون سحرا ارتقى فأبان لهم فساد السحر وسوء عاقبة معالجيه تحقيرا لهم، لأنّهم كانوا ينوّهون بشأن السحر.

{ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ }[78]

{ **أَجِئْتَنَا** } الاستفهام إنكاري، بنوا إنكارهم على تخطئة موسى فيما جاء به، وعلى سوء ظنّهم به وبهارون في الغاية التي يتطلبانها { وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ } .

{ **تَلْفِتَنَا** } مضارع لَفَتَ، متعدّيا إذا صرف وجهه عن النظر إلى شيء مقابل لوجهه. والفعل القاصر منه ليس إلّا للمطاوعة يقال: التفت. وهو هنا مستعمل مجازا في التحويل عن العمل أو الاعتقاد إلى غيره، فأصله استعارة تمثيليّة ثمّ غلبت حتّى صارت مساوية الحقيقة.

{ **عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا** } جمعت الصلة (ما) كلّ الأحوال التي كان آباؤهم متلبسين بها.

{ **وَجَدْنَا** } الإشارة إلى أنّهم نشأوا عليها وعقلوها، وذلك مما يكسبهم تعلّقا بها، وأنّها كانت أحوال آبائهم وذلك مما يزيدهم تعلّقا بها تبعا لمحبة آبائهم، لأنّ محبّة الشيء تقتضي محبّة أحواله وملابساته.

وقد جاءهم موسى لقصد لفتهم عمّا وجدوا عليه آباءهم فكان ذلك محلّ الإنكار عندهم، لأنّ تغيير ذلك يحسبونه إفسادا { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ } [الأعراف: 127].

{ **وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ** } أرادوا أنّهم تفطّنوا لغرض موسى وهارون في مجيئها إليهم بما جاءوا به، وهو الاستحواذ على سيادة مصر بالحيلة. و**الكبرياء**، العظمة وإظهار التفوّق على النّاس.

الأرض، هي المعهودة بينهم، وهي أرض مصر، كقوله {يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ} [الأعراف:110].

{ **لَكُمَا** } أتوا في خطاب موسى بضمير المثنّى المخاطب لأنّ هارون كان حاضرا فالتفتوا عن خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين. وإنّما شرّكوا هارون في هذا الظنّ من حيث إنّه جاء مع موسى ولم يباشر الدعوة فظنوا أنه جاء معه لينال من سيادة أخيه حظا لنفسه.

{ **وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ** } عطف على جملة {أَجِئْتَنَا}، وهي في قوّة النتيجة لتلك الجملة بما معها من العلّة، أي لما تبيّن مقصدكما فما نحن لكما بمؤمنين. وتقديم { لَكُمَا } على متعلقه لأنّ المخاطبين هما الأهم من جملة النفي، لأنّ انتفاء إيمانهم في زعمهم كان لأجل موسى وهارون إذ توهموهما متطلبي نفع لأنفسهما.

{ **وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ** } جملة اسمية، لإفادة الثبات والدوام، وأن انتفاء إيمانهم بهما متقرّر متمكّن لا طماعيّة لأحد في ضدّه.

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ [79] فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ [80] فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ [81] وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ } [82].

{ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ** } عطف على { قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ } [76]، فهذه الجملة في حكم جواب ثان لحرف (لمّا) حكي أوّلا ما تلقى به فرعون وملؤه دعوة موسى ومعجزته من منع أن يكون ما جاء به تأييدا من عند الله. ثم حكي ثانيا ما تلقى به فرعون خاصة تلك الدعوة من محاولة تأييد قوله {إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ} ليثبت أنّه قادر بما أوتي من سلطان على الإتيان بمثلها.

{ **ائْتُونِي** } المخاطب هم ملأ فرعون وخاصته الذين بيدهم تنفيذ أمره.

{ **بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ** } أمر بإحضار جميع السحرة المتمكّنين في علم السحر لأنّهم أبصر بدقائقه، وأقدر على إظهار ما يفوق خوارق موسى في زعمه. والعموم عموم عرفي، أي بكل ساحر تعلمونه وتظفرون به. أو أريد { **بِكُلِّ** } معنى الكثرة.

{ **فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ** } عطف بفاء التعقيب للدلالة على الفور في إحضارهم، وهو تعقيب بحسب المتعارف في الإسراع بمثل الشيء المأمور به، والمعطوف في المعنى محذوف لأنّ الذي يعقب قوله {ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ} هو إتيانهم بهم، ولكن ذلك لقلة جدواه في الغرض الذي سيقت القصّة لأجله حذف استغناء عنه بما يقتضيه ويدلّ عليه دلالة عقلية ولفظية من قوله {جَاءَ السَّحَرَةُ} على طريقة الإيجاز. والتقدير: فأتوه بهم فلما جاءوا قال لهم موسى.

{ **قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ** } وإنّما أمرهم موسى بأن يبتدئوا بإلقاء سحرهم إظهارا لقوّة حجّته، لأنّ شأن المبتدئ بالعمل المتباري فيه أن يكون أمكن في ذلك العمل من مباريه، ولا سيما الأعمال التي قوامها التمويه والترهيب، والتي يتطلّب المستنصر فيها السبق إلى تأثر الحاضرين وإعجابهم.

وقد ذكر القرآن في آيات أخرى أنّ السحرة خيروا موسى بين أن يبتدئ هو بإظهار معجزته وبين أن يبتدئوا، وأن موسى اختار أن يكونوا المبتدئين.

الإلقاء، رمي شيء في اليد إلى الأرض. وإطلاق الإلقاء على عمل السحر لأنّ أكثر تصاريف السحرة في أعمالهم السحرية يكون برمي أشياء إلى الأرض. وقد ورد في آيات كثيرة أنّهم ألقوا حبالهم وعصيّهم، وأنّها يخيّل من سحرهم أنها تسعى، وكان منتهى أعمال الساحر أن يخيّل الجماد حيّا.

{ **مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ** } قصد به التعميم البدلي، أي شيء تلقونه، وهذا زيادة في إظهار عدم الاكتراث بمبلغ سحرهم، وتهيئة للملأ الحاضرين أن يعلموا أنّ الله مبطل سحرهم على يد رسوله.

وقد طوي ذكر صورة سحرهم في هذه الآية، لأنّ الغرض من العبرة في هذه الآية وصف إصرار فرعون وملئه على الإعراض عن الدعوة، وما لقيه المستضعفون الذين آمنوا بموسى عليه السلام من اعتلاء فرعون عليهم، وكيف نصر الله رسوله والمستضعفين معه، وكيف كانت لهم العاقبة الحسنى ولمن كفروا عاقبة السوء، ليكونوا مثلا للمكذّبين بمحمد ﷺ. ولذلك لم يعرّج بالذكر إلّا على مقالة موسى - عليه السلام - حين رأى سحرهم، الدالة على يقينه بربه ووعده، وبأنّ العاقبة للحقّ.

{ **فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ** } أي ما أظهرتموه لنا، فالمجيء قد استعمل مجازا في الإظهار.

{ **إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ** } خبر (ما) الموصولة على قراءة الجمهور، وتأكيد الخبر بـ (إنّ) زيادة في إلقاء الروع في نفوسهم. و**إبطاله،** إظهار أنّه تخييل ليس بحقيقة، أي أن الله سيبطل تأثيره على النّاس بفضح سرّه.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ** } معترضة، وهي تعليل لمضمون جملة {إن الله سيبطله}، وتعريف {الْمُفْسِدِينَ} بلام الجنس، من التعميم في جنس الإصلاح المنفي وجنس المفسدين، ليعلم أنّ سحرهم هو من قبيل عمل المفسدين. والمراد بإصلاح عمل المفسدين الذي نفاه أنّه لا يؤيّده.

{ **وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ** } معطوفة على { إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ } أي سيبطله ويحق الحق، أي يثبت المعجزة.

الإحقاق، التثبيت. ومنه سمّي الحقّ حقّا لأنّه الثابت.

الكلمات، مستعارة لتعلّق قدرته تعالى بالإيجاد وهو التعلّق المعبر عنه بالتكوين الجاري على وفق إرادته وعلى وفق علمه. وهي استعارة رشيقة، لأنّ ذلك التعلّق يشبه الكلام في أنّه ينشأ عنه إدراك معنى ويدل على إرادة المتكلّم وعلى علمه.

{ **وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ** } في موضع الحال، و(لو) وصلية. لأن تلك الكراهية من شأنها أن تبعثهم على معارضة الحقّ الذي يسوءهم ومحاولة دحضه، فأعلمهم أن الله خاذلهم.

{ **الْمُجْرِمُونَ** } فرعون وملأه فعدل عن ضمير الخطاب إلى الاسم الظاهر لما فيه من وصفهم بالإجرام تعريضا بهم. وإنّما لم يخاطبهم بصفة الإجرام عدولا عن مواجهتهم بالذم، وقوفا عند أمر الله تعالى، إذ قال له {فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً} [طه: 44]، فأتى بالقضية في صورة قضية كليّة وهو يريد أنّهم من جزئيّاتها بدون تصريح بذلك. وموسى كان محاولا فرعون وملأه أن يؤمنوا، فكان في مقام الترغيب باللين.

{ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ } [83]

تفريع على ما تقدّم من المحاورة، أي فتفرّع على ذلك أنّ فرعون وملأه لم يؤمنوا بموسى، لأنّ حصر المؤمنين في ذرّيّة من قوم موسى يفيد أنّ غيرهم لم يؤمنوا وهو المقصود، فكانت صيغة القصر في هذا المقام إيجازا.

وقد طوي ما حدث بين المحاورة وبين تصميمهم على الإعراض، وهو إلقاء موسى عصاه والتقامها ما ألقوه من سحرهم، لعدم تعلق الغرض ببيان ذلك إذ المقصود الإفضاء إلى أنّهم صمّموا على الإعراض لأنّ ذلك محلّ تمثيل أعمالهم بحال مشركي أهل مكّة.

{ **آمَنَ** } أصله(أَأْمن) بهمزتين، إحداهما أصلية في الكلمة لأنّ الكلمة مشتقة من الأمانة، والثانية همزة مزيدة للتعدية، أي جعله ذا أمانة، أي غير كاذب، فصار فعل {آمَنَ} بمعنى صدّق، وحقّه أن يعدّى إلى المفعول بنفسه ولكن عدي باللام للتفرقة بين (آمن) بمعنى صدّق من الأمانة، وبين (آمن) بمعنى جعله في أمن، أي لا خوف عليه منه.

{ **لِمُوسَى** } هذه اللام سمّاها ابن مالك لام التبيين وتبعه ابن هشام، وهي تدخل على المفعول لتقوية معنى المفعولية.

وقد يعدّى بالباء لتضمنه معنى صدّق كما في قوله تعالى {قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ} [يونس: 90].

الذرّيّة، الأبناء وتقدّم في قوله {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ} [آل عمران:34].

أي فما آمن بما جاء به موسى إلّا أبناء بني إسرائيل ولم تبلغ دعوته بقية قومه أو لم يؤمر بالتبليغ إليهم حينئذ.

{ **عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ** } و(على) بمعنى (مع)، أي آمنوا مع خوفهم. وهذا ثناء عليهم بأنّهم آمنوا ولم يصدّهم عن الإيمان خوفهم من فرعون.

والمعنى، أنّهم آمنوا عند ظهور معجزته، أي أعلنوا الإيمان به في ذلك الموطن لأنّ الإيمان لا يعرف إلّا بإظهاره ولا فائدة منه إلّا ذلك الإظهار. أي من الحاضرين في ذلك المشهد من بني إسرائيل. وهذا لا يقتضي أنّ بقية قومه كفروا به، إذ يحتمل أن يكونوا آمنوا به بعد ذلك لمّا بلغتهم دعوته، لأنه يكون قد ابتدأ بدعوة فرعون مبادرة لامتثال الأمر من الله بقوله {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [طه: 43] فيكون المأمور به ابتداء هو دعوة فرعون وتخليص بني إسرائيل من الأسر.

{ **وَمَلَأِهِمْ** } تقدم آنفا في هذه القصة، وأضيف الملأ إلى ضمير الجمع وهو عائد إلى الذرّيّة، أي على خوف من فرعون وعلى خوف من قومهم، وهم بقية القوم الذين لم يحضروا ذلك المشهد خشية أن يغضبوا عليهم ويؤذنهم لإيمانهم بموسى لما يتوقّعون من مؤاخذة فرعون بذلك جميع قبيلتهم على عادة الجبابرة في أخذ

القبيلة بفعلة من بعض رجالها.

الفَتْنُ، إدخال الروع والاضطراب على العقل بسبب تسليط ما لا تستطيع النفس تحمله، وتقدّم في قوله تعالى {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة:191].

{ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ } في موضع الحال فهي عطف على قوله {عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ} وهي تفيد معنى التعليل لخوفهم من فرعون، فبعد أن أثنى عليهم بأنّهم آمنوا في حال شدّة الخوف، زاد فبيّن أنّهم أحقاء بالخوف، وفي هذا زيادة ثناء على قوّة إيمانهم. وتأكيد الخبر بـ (إنّ) للاهتمام بتحقيق بطش فرعون.

العلوّ: مستعار للغلبة والاستبداد.

الإسراف، تجاوز حدّ الاعتدال المعروف في فعل، فهو تجاوز مذموم، وأشهر موارده في الإنفاق، ولم يذكر متعلق الإفراط، فتعين أن يكون إسرافا فيما عرف به ملوك زمانهم من الصفات المكروهة عند النّاس الملازمة للملوك في العادة.

{ مِنَ الْمُسْرِفِينَ } أبلغ في وصفه بالإسراف من أن يقال: وإنه لمسرف.

{ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ [84] فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [85] وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } [86].

هذا خطاب موسى لجميع قومه، وهم بنو إسرائيل الذين بمصر، وهو يدلّ على أنّه خاطبهم بذلك بعد أن دعاهم وآمنوا به كما يؤذن به قوله {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ} . والمعنى، إن كنتم آمنتم بالله حقّا كما أظهرته أقوالكم فعليه اعتمدوا في نصركم ودفع الضرّ عنكم، ولا تعتمدوا في ذلك على أنفسكم بمصانعة فرعون، ولا على فرعون بإظهار الولاء له.

أراد إثارة صدق إيمانهم وإلهاب قلوبهم بجعل إيمانهم معلّقا بالشرط محتمل الوقوع، حيث تخوّفوا من فرعون أن يفتنهم فأرادوا أن يكتموا إيمانهم تقيّة من فرعون وملئهم، وإنما جعل عدم اكتراثهم ببطش فرعون علامة على إيمانهم لأنّ الدعوة في أوّل أمرها لا تتقوّم إلّا بإظهار متّبعيها جماعتهم، فلا تغتفر فيها التقيّة حينئذ. وبذلك عمل المسلمون الأوّلون مثل بلال، وعمّار، وأبي بكر، فأعلنوا الإيمان وتحمّلوا الأذى، وإنّما سوّغت التقيّة للآحاد من المؤمنين بعد أن تقوم جامعة الإيمان، فذلك محل قوله تعالى {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} [النحل: 106].

التوكّل، تقدّم آنفا في قصة نوح.

{ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ } شرط ثان مؤكد لشرط {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ} ، فحصل من مجموع الجملتين أن حصول

هذا التوكّل متوقف على حصول إيمانهم وإسلامهم، لمزيد الاعتناء بالتوكّل وأنّه ملازم للإيمان والإسلام، ومبيّن أيضا للشرط الأول، أي إن كان إيمانكم إيمان مسلّم لله، أي مخلص له غير شائب إيّاه بتردّد في قدرة الله ولا في أنّ وعده حقّ.

الإيمان، تصديق الرسول فيما جاء به وهو عمل قلبي، ولا يعتبر شرعا إلّا مع الإسلام.

الإسلام، النطق بما يدلّ على الإيمان ولا يعتبر شرعا إلا مع الإيمان.

فالإيمان انفعال قلبي نفساني، والإسلام عمل جسماني، وهما متلازمان في الاعتداد بهما في اتباع الدين إذ لا يعلم حصول تصديق القلب إلّا بالقول والطاعة، وإذ لا يكون القول حقّا إلّا إذا وافق ما في النفس، قال تعالى {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرلت: 14]. وقد ورد ذلك صريحا في حديث سؤال جبريل في الصحيحين.

{ **فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } وقد كان صادق إيمانهم مع نور الأمر النبوي الذي واجههم به نبيّهم مسرعا بهم إلى التجرّد عن التخوّف والمصانعة، وإلى عقد العزم على التوكل على الله، فلذلك بادروا بجوابه بكلمة {عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا} مشتملة على خصوصية القصر المقتضي تجرّدهم عن التوكل على غير الله تعالى.

وأشير إلى مبادرتهم بأن عطفت جملة قولهم ذلك على مقالة موسى بفاء التعقيب خلافا للأسلوب الغالب في حكاية جمل الأقوال الجارية في المحاورات أن تكون غير معطوفة، فخولف مقتضى الظاهر لهذه النكتة.

ثم ذيلوا كلمتهم بالتوجه إلى الله بسؤالهم من أن يقيهم ضرّ فرعون. وسموا ذلك فتنة لأنها تزيد الناس توغلا في الكفر، والكفر فتنة. فمعنى سؤالهم، أن لا يجعلهم الله فتنة، هو أن لا يجعلهم سبب فتنة.

{ **لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } لأنّ الشرك ظلم، ولأنّه يشعر بأنّهم تلبسوا بأنواع الظلم؛ ظلم أنفسهم، وظلم الخلائق.

{ **وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** } ثم سألوا ما فيه صلاحهم فطلبوا النجاة من القوم الكافرين، أي من بطشهم وإضرارهم.

{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } [87]

وقع الوحي بهذا الأمر إلى موسى وهارون عليهما السلام لأنّه من الأعمال الراجعة إلى تدبير أمر الأمّة، فيمكن الاشتراك فيها بين الرّسول ومؤازره.

التبوؤ، اتخاذ مكان يسكنه، وهو تفعّل من البوء، أي الرجوع، كأنّ صاحب المسكن يكلّف نفسه الرجوع إلى محل سكنه ولو كان تباعد عنه في شؤون اكتسابه. أي اجعلا قومكما متبوّئين بيوتا. وأسند هنا إلى ضمير موسى وهارون - عليهما السلام - على طريقة المجاز العقلي، إذ كانا سبب تبوؤ قومهما للبيوت.

ومعنى تبوؤ البيوت لقومهما أن يأمرا قومهما باتخاذ البيوت على الوصف الذي يأمرانهم به. وإذ قد كان لبني إسرائيل ديار في مصر من قبل، إذ لا يكونون قاطنين مصر بدون مساكن، وقد كانوا ساكنين أرض (جاسان) قرب مدينة (منفيس) قاعدة المملكة يومئذ في جنوب البلاد المصرية، كما بيّناه في سورة البقرة، لا جرم أن تكون البيوت المأمور بتبوئها غير البيوت التي كانوا ساكنيها.

واضطرب المفسّرون في المراد من هذه البيوت وذكروا روايات غير ملائمة لحالة القوم يومئذ. فقيل: أريد بالبيوت بيوت العبادة أي مساجد يصلّون فيها. وقيل: البيوت بيوت السكنى وأمسكوا عن المقصود من هذه البيوت.

فالذي يظهر لي أنّ هذه البيوت خيام أو أخصاص أمرهم الله باتخاذها تهيئة للارتحال وهي غير ديارهم التي كانوا يسكنونها في(جاسان) قرب مدينة فرعون. وقد جاء في التوراة ما يشهد بهذا التأويل في الفصل الرابع من سفر الخروج، أنّ الله أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل إلى البادية ليعملوا عيد الفصح ثلاثة أيام وأنّ ذلك أوّل ما سأله موسى من فرعون، وأن فرعون منعهم من ذلك، وأنّ موسى كرّر طلب ذلك من فرعون كلّ ذلك يمنعه، كما في الفصل السابع والفصل الثامن من سفر الخروج، وقد صار لهم ذلك عيدا بعد خروجهم.

{ **وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً** } أي هذه الخيام أو الأخصاص التي تتخذونها تجعلونها مفتوحة إلى القبلة. قاله ابن عطيّة عن ابن عباس.

القبلة، اسم في العربية لجهة الكعبة. وتلك الجهة هي ما بين المشرق والمغرب لأنّ قبلة بلاد مصر كقبلة المدينة ما بين المشرق والمغرب وهي الجنوب، فيجوز أن يكون التعبير عن تلك الجهة بالقبلة في الآية حكاية لتعبير موسى عنها بما يدل على معنى التوجّه إلى الجهة التي يصلّون إليها، وهي قبلة إبراهيم، فيكون أمر بني إسرائيل يومئذ جاريا على الملّة الحنيفيّة قبل أن ينسخ بالاستقبال إلى صخرة القدس.

ويجوز أن يكون موسى قد عبّر بما يفيد معنى الجنوب فحكيت عبارته في القرآن باللفظ المرادف له الشائع في التعبير عن الجنوب عند العرب وهو كلمة قبلة.

والحكمة في جعل البيوت إلى القبلة أنّ الشمس تدخلها من أبوابها في غالب أوقات النهار في جميع الفصول وفي ذلك منافع كثيرة.

والذين فسروا البيوت بأنها بيوت السكنى فسروا قبلة إما بمعنى متقابلة، وإما بمعنى اجعلوا بيوتكم محلّ صلاتكم، وكلا التفسيرين بعيد عن الاستعمال.

وأما الذين تأولوا البيوت بالمساجد فقد فسروا القبلة بأنها قبلة الصلاة، أي جهة الكعبة. وعن ابن عباس: كانت الكعبة قبلة موسى. وعن الحسن: كانت الكعبة قبلة كل الأنبياء. وهذا التفسير يلائم تركيب {اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ

قِبْلَةً} لأنّ التركيب اقتضى أن المجعول قبلة هو البيوت أنفسها لا أن تجعل الصلاة فيها إلى جهة القبلة فإذا افتقدنا التأويلات كلّها لا نجدها إلّا مفكّكة متعسفة خلا التفسير الذي عوّلنا عليه، وقد اختلفوا فيه فهدانا الله إليه.

{ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ** } وأمرهم بإقامة الصلاة، أي التي فرضها الله عليهم على لسان موسى، والتي كانوا يصلّونها من قبل مجيء موسى اتباعا لإبراهيم عليه السلام وأبنائه. والظاهر أن الداعي إلى أمرهم بإقامة الصلاة أن اتخاذ البيوت كان في حالة رحيل فكانت حالتهم مظنّة الشغل عن إقامة الصلوات فلذلك أمروا بالمحافظة على إقامة الصلاة في مدّة رحلتهم.

{ **وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** } مشعرة بترقّب أخطار وتخوف، فإنهم قالوا {رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً} فأمر موسى أنّ يبشّرهم بحسن العاقبة، وأنّهم منصورون على عدوهم وناجون منه. والمؤمنون هم قوم موسى.

{ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } [88]

عطف بقية ما جرى في القصّة ممّا فيه عبرة وموعظة. وهذا مقدّمة لخبر خروج موسى ومن معه من أرض مصر. فهذه المقدّمة لتعريف كرامة موسى عليه السلام على ربّه بأن استجاب له دعاءه، وأنفذ برسالته مراده تعالى من إنقاذ بني إسرائيل من الاستعباد.

ومهّد موسى لدعائه تمهيدا يدلّ على أنّ ما سأله من الله لزجر فرعون وملئه إنّما هو لمصلحة الدين لا للانتقام منه لقومه ولنفسه، فسأل الله سلب النعمة عن فرعون وملئه وحلول العذاب بهم لخضد شوكتهم وتذليل تجبّرهم ليرجعوا عن ضلالهم ويسهل قبولهم الإيمان.

ولمّا كانت النعمة مغرية بالطغيان لأهل الجهالة والخباثة جعل موسى إمداد فرعون بالنّعمة مغريا لفرعون بالاسترسال على الإعراض عن الدين فكان دعاء موسى عليهم استصلاحا لهم وتطلّبا لإيمانهم بوسائل التشديد عليهم، ولكن الله علم من قلوبهم ما لم يعلمه موسى وقضى عليهم بالاستئصال.

{ **رَبَّنَا** } افتتح الدعاء بالنداء لمناسبته لمقام الدعاء. ونودي الله بوصف الربوبيّة تذلّلا لإظهار العبوديّة.

{ **إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً** } توطئة للدعاء عليهم، والخبر مستعمل في التمهيد لطلب سلب النعمة عنهم.

{ **لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ** } تردّد المفسّرون في محل اللام، والذي سلكه أهل التدقيق منهم أنّ اللام **لام العاقبة**. ونقل ذلك عن نحاة البصرة، الخليل وسيبويه، والأخفش، وأصحابهما، على نحو اللام في قوله تعالى {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً}، فالمعنى، إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فضلّوا بذلك وأضلّوا.

وللمفسّرين وجوه خمسة أخرى:

أحدها: أن يكون للتعليل، وأن المعنى: إنك فعلت ذلك استدراجا لهم، ونسب إلى الفراء، وفسّر به الطبري.

الثاني: أنّ الكلام على حذف حرف، والتقدير: لئلا يضلوا عن سبيلك أي فضلوا. حكاه الفخر.

الثالث: أن اللام لام الدعاء. روي هذا عن الحسن. واقتصر عليه في الكشاف. وقاله ابن الأنباري. وهو أبعد الوجوه وأثقلها.

الرابع: أن يكون على حذف همزة الاستفهام. والتقدير: ليضلوا عن سبيلك آتيناهم زينة وأموالا تقريرا للشنعة عليهم، قاله ابن عطية. ويكون الاستفهام مستعملا في التعجب، قاله الفخر.

الخامس: تأويل معنى الضلال بأنّه الهلاك، قاله الفخر.

وهي وجوه ضعيفة متفاوتة الضعف فلا نطيل بتقريرها.

الزينة، ما يتزيّن به النّاس، وما يحسن في أنظارهم من طرائف الدنيا، كالحليّ والجواهر والمباني الضخمة. قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ} [آل عمران: 14].

الأموال، ما به قوام المعاش، فالزينة تلهيهم عن اتباع المواعظ، وتعظّم شأنهم في أنظار قومهم، والأموال يسخّرون بها الرعيّة لطاعتهم، وقد كان للفراعنة من سعة الرزق ورفاهية العيش ما سار ذكره في الآفاق.

{ **رَبَّنَا ... رَبَّنَا** } وأعيد النداء بين الجملة المعلِّلة والجملة المعلَّلة لتأكيد التذلّل والتعرّض للإجابة ولإظهار التبرؤ من قصد الاعتراض.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب {لِيَضِلُّوا} بفتح الياء. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي بضم الياء على معنى سعيهم في تضليل الناس. والمعنى الحاصل من القراءتين متّحد لأنّهم إذا ضلّوا في أنفسهم وهم قادة قومهم كان ضلالهم تضليلا لغيرهم، وكذلك إذا أضلّوا النّاس فإنّهم ما أضلّوهم إلّا وهم ضالون مثلهم. وقد علمت آنفا أنّ الزينة سبب ضلالهم والأموال سبب إضلال النّاس.

وأعيد النداء ثالث مرة لزيادة تأكيد التوجه والتضرّع.

{ **رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ** } هي المقصود من هذا الكلام، والنداء يقوم مقام وصل الجملة بما قبلها بمنزلة حرف العطف.

الطمس، المحو والإزالة. وفعله يتعدّى بنفسه كما في قوله {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً} [النساء:47]. ويُعدى بحرف (على) كما هنا وفي قوله تعالى {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ} في سورة يس[66]. ولعل تعديته بـ (على) لإرادة تمكّن الفعل من المفعول، أو لتضمين الطمس معنى الاعتلاء، فطمس الأموال إتلافها وإهلاكها.

{ **وَاشْدُدْ** } أحسب أنّه مشتقّ من الشدّ، وهو العسر. ومنه الشدّة للمصيبة والتحرّج، ولو أريد غير ذلك لقيل:

واطبع، أو واختم، أو نحوهما. والمعنى: أدخل الشدّة في قلوبهم.
القلوب، النفوس والعقول.
والمعنى: أنّه يدعو عليهم بالأنكاد والأحزان التي تجعل قلوبهم في ضيق وحرج، أي اجعلهم في عناء وبلبلة بال ما داموا في الكفر. وهذا حرص منه عليه السلام على وسائل هدايتهم رجاء أنّهم إذا زالت عنهم النعم وضاقت صدورهم بكروب الحياة تفكّروا في سبب ذلك، فعجّلوا بالتوبة إلى الله، كما هو معتاد النفوس الغافلة قال تعالى {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ} [الزمر: 8].
{ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } فاء السببيّة في جواب الدعاء، أي افعل بهم ذلك ليؤمنوا. والفعل منصوب بـ (أن) مضمرة إضمارا واجبا بعد فاء السببية.
وإنّما عدل عن إيقاع جواب الدعاء بصيغة إثبات الإيمان، إلى إيراده بصيغة نفي مغيّا بغاية هي رؤية العذاب سلوكا لأسلوب بديع في نظم الكلام، لأنّه أراد أن يجمع بين ترتيب الجواب على الدعاء وبين ما استبان له من طبع نفوسهم بطبع أنّهم لا تنفع فيهم الحجج، وأنّ قساوة قلوبهم وشراسة نفوسهم لا تذلّلها إلّا الآلام الجسديّة والنفسانية، وكل ذلك علاج بما هو مظنّة إيصالهم من طرق الضغط والشدّة، حيث لم تجد فيهم وسائل الحجّة. وهذا إيجاز بديع إذ جمع في هذا التركيب جواب الدعاء وبيان علة الدعاء عليهم بذلك. وأصل الكلام: فيؤمنوا، فإنّهم لا يؤمنون إلّا إذا رأوا العذاب الأليم.
الرؤية، مستعملة في الإحساس على وجه المجاز المرسل، أو مستعملة كناية عن حلول العذاب بهم لأنّ المشاهدة ملازمة لحلول الشيء المشاهد.
العذاب الأليم، عذاب الفقر والجوع وعذاب النكد في النفس.

{ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ }[89]

جواب من الله لكلام موسى جرى على طريقة حكاية المحاورات أن لا تُعطف جملها كما تقدّم غير مرة.
{ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا } أضيفت الدعوة إلى ضمير التثنية المخاطب به موسى وهارون، وإن كانت الدعوة إنّما حكيت عن موسى عليه السلام وحده، لأنّ موسى عليه السلام دعا لما كان هارون مواطئا له وقائلا بمثله لأن دعوتهما واحدة. وقيل: كان موسى عليه السلام يدعو وهارون عليه السلام يؤمّن.
ومعنى إجابة الدعوة إعطاء ما سأله موسى ربّه أن يسلب عن فرعون وملئه النعم، ويوالي عليهم المصائب حتّى يسأموا مقاومة دعوة موسى وتنحط غلواؤهم، قال تعالى {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأعراف: 130] وقال {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ

آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ} [الأعراف: 133].

{ **فَاسْتَقِيمَا** } فرّع على إجابة دعوتهما أمرهما بالاستقامة، فعلم أنّ الاستقامة شكر على الكرامة، فإن إجابة الله دعوة عبده إحسان للعبد وإكرام، وتلك نعمة عظيمة تستحق الشكر عليها، وأعظم الشكر طاعة المنعم.

وإذ قد كان موسى وهارون مستقيمين، وناهيك باستقامة النبوءة، كان أمرهما بالاستقامة مستعملا في الأمر بالدوام عليها. ومن الاستقامة أن يستمرّا على الدعوة إلى الدين ولا يضجرا. فكان أمرهما بالاستقامة جامعا لجميع خصال الخير والصلاح.

الاستقامة، حقيقتها الاعتدال، وهي ضدّ الاعوجاج، وهي مستعملة كثيرا في معنى ملازمة الحقّ والرشد، لأنّه شاع تشبيه الضلال والفساد بالاعوجاج والالتواء. وقيل للحقّ: طريق مستقيم. وفي حديث أبي عمرة الثقفي قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك. قال: قل: "آمنت بالله ثم استقم" .

{ **وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** } وأعقب حثّهما على الاستقامة بالنهي عن اتباع طريق الذين لا يعلمون، وإن كان ذلك مشمولا للاستقامة، تنبيها على توخي السلامة من العدول عن طريق الحقّ اهتماما بالتحذير من الفساد.

السبيل، الطريق، وهو هنا مستعمل للسيرة والعمل الغالب.

{ **وَلا تَتَّبِعَانِّ** } قرأه الجمهور بتشديد النون مكسورة. وهما نونان: إحداهما نون المثنى والأخرى نون التوكيد. وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر {وَلا تَتَّبِعَانِ} بنون خفيفة مكسورة. وهي نون رفع المثنى لا نون التوكيد، فتعيّن أن تكون (لا) على هاته القراءة نافية غير ناهية، والجملة في موضع الحال والواو واو الحال، لأن جملة الحال المضارعة المفتتحة بحرف نفي يجوز اقترانها بالواو وعدمه.

{ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ }[90]

معطوفة على جملة {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً} عطف الغرض على التمهيد، أي أمرناهما باتخاذ تلك البيوت تهيئة للسفر ومجاوزة البحر.

{ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرائيلَ الْبَحْرَ** } أي قطعنا بهم البحر، وتقدّم نظيره في سورة الأعراف[138]. ومجاوزتهم البحر تقتضي خوضهم فيه، وذلك أنّ الله جعل لهم طرائق في البحر يمرّون منها.

{ **فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً** } بمعنى لحقهم. يقال: تبعه فأتبعه إذا سار خلفه فأدركه. ومنه {فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}.

البغي، الظلم، مصدر بغى. وتقدم عند قوله تعالى {وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [الأعراف:33].
العدو، مصدر عدا. وهو تجاوز الحدّ في الظلم، وهو مسوق لتأكيد البغي.
والمعنى: أنّ فرعون دخل البحر يتقصّى آثارهم فسار في تلك الطرائق يريد الإحاطة بهم ومنعهم من السفر، وإنما كان اتّباعه إيّاهم ظلما وعدوانا، إذ ليس له فيه شائبة حقّ، لأنّ بني إسرائيل أرادوا مفارقة بلاد فرعون وليست مفارقة أحد بلده محظورة إن لم يكن لأحد عليه حق في البقاء، فإنّ لذي الوطن حقا في الإقامة في وطنه فإذا رام مغادرة وطنه فقد تخلّى عن حقّ له، وللإنسان أن يتخلى عن حقّه، فلذلك كان الخلع في الجاهلية عقابا، وكان النفي والتغريب في الإسلام عقوبة لا تقع إلّا بموجب شرعي، وكان الإمساك بالمكان عقابا، ومنه السجن، فليس الخروج من الوطن طوعا بعدوان. فلمّا رام فرعون منع بني إسرائيل من الخروج وشدّ للحاق بهم لردهم كرها كان في ذلك ظالما معتديا، لأنه يبتغي بذلك إكراههم على البقاء، ولأنّ غرضه من ذلك تسخيرهم.

{ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ }

{ **حَتَّى** } ابتدائية لوقوع { **إِذَا** } الفجائية بعدها. والتقدير: حتى أدركه الغرق فإذا أدركه الغرق قال آمنت.
الإدراك، اللحاق وانتهاء السير. وهو يؤذن بأنّ الغرق دنا منه تدريجيّا بهول البحر ومصارعته الموج، وهو يأمل النجاة منه، وأنّه لم يظهر الإيمان حتى أيس من النجاة وأيقن بالموت، وذلك لتصلّبه في الكفر.
وقد بني نظم الكلام على جملة {إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ} ، وجعل ما معها كالوسيلة إليها، فجعلت (حتّى) لبيان غاية الإتباع وجعلت الغاية أن قال {آمَنْتُ} لأنّ إتباعه بني إسرائيل كان مندفعا إليه بدافع حنقه عليهم لأجل الدين الذي جاء به رسولهم ليخرجهم من أرضه، فكانت غايته إيمانه بحقّهم. ولذلك قال {الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ} ليفيد مع اعترافه بالله تصويبه لبني إسرائيل فيما هدوا إليه، فجعل الصلة طريقا لمعرفته بالله، ولعدم علمه بالصفات المختصة بالله إلّا ما تضمّنته الصلة إذ لم يتبصّر في دعوة موسى تمام التبصر، ولذلك احتاج أن يزيد {وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} لأنّه كان يسمع من موسى دعوته لأنّ يكون مسلما فنطق بما كان يسمعه وجعل نفسه من زمرة الذين يحق عليهم ذلك الوصف، ولذلك لم يقل: أسلمت، بل قال أنا من المسلمين.
وسيأتي قريبا في تفسير الآية التي بعد هذه تحقيق صفة غرق فرعون، وما كان في بقاء بدنه بعد غرقه.

{ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [91] فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ } [92].

مقول لقول حذف لدلالة المقام عليه، تقديره: قال الله. وهو جواب لقوله {آمَنْتُ} لأنّه قصد بقوله ذلك طلب الإنجاء من الغرق اعترافا لله بالربوبية، فكأنّه وجّه إليه كلاما.

{ **الْآنَ** } الاستفهام إنكاري. ظرف لفعل محذوف دلّ عليه قوله {آمَنْتُ} تقديره، الآن تؤمن، أي هذا الوقت. والإنكار مؤذن بأنّ الوقت الذي علّق به الإنكار ليس وقتا ينفع فيه الإيمان، لأن الاستفهام الإنكاري في قوة النفي، فيكون المعنى: لا إيمان الآن.

وإنّما لم ينفعه إيمانه لأنّه جاء به في وقت حصول الموت. وهو وقت لا يقبل فيه إيمان الكافر ولا توبة العاصي، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ } [النساء: 18].

{ **كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** } الصيغة أبلغ في الوصف بالإفساد من وكنت مفسدا، كما تقدّم آنفا.

{ **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ** } الفاء فاء الفصيحة، تفصح عن شرط مقدّر في الكلام يدل عليه السياق. والمعنى: فإن رمت بإيمانك بعد فوات وقته أن أنجيك من الغرق فاليوم ننجيك ببدنك. والكلام جار مجرى التهكّم، فإطلاق الإنجاء على إخراجه من البحر استعارة تهكّميّة. وليس مسوغها التهكّم المحض كما هو الغالب في نوعها، بل فيها علاقة المشابهة، لأنّ إخراجه إلى البر كاملا يشبه الإنجاء، ولكنّه ضد الإنجاء، فكان بالمشابهة استعارة، وبالضديّة تهكما.

{ **بِبَدَنِكَ** } الأظهر أنّ الباء مزيدة للتأكيد، أي تأكيد آية إنجاء الجسد، فيكون (بدنك) في معنى البدل المطابق من الكاف في {نُنَجِّيكَ}.

البدن، الجسم بدون روح وهذا احتراس من أن يُظنّ المراد الإنجاء من الغرق. لأنّه لو لم يكن المقصود الاقتصار على تلك الحالة لما كان داع للبليغ أن يزيد ذلك القيد، فإن كل زيادة في الكلام البليغ يقصد منها معنى زائد، وإلّا لكانت حشوا في الكلام والكلام البليغ موزون، ولغة العرب مبنية على أساس الإيجاز.

{ **لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً** } أي من وراءك، في معنى المتأخّر والباقي، أي من ليسوا معك. أي لتكون ذاته آية على أن الله أعظم وأقهر من فرعون وآلهته. لأنهم كانوا يزعمون أنّ الفرعون لا يغلب، وأنّه حين يموت إنّما يُنقل إلى دار الخلود. ولذلك كانوا يموّهون على النّاس فيبنون له البيوت في الأهرام ويودعون بها لباسه وطعامه ورياشه وأنفس الأشياء عنده، فموته بالغرق وهو يتبع أعداءه ميتة لا تؤوّل بشيء من ذلك.

ولم يعدم فرعون فائدة من إيمانه، فإنّ الله بحكمته قدّر له الخروج من غمرات الماء، فلم يبق في الماء أكلة للحيتان ولكن لفظته الأمواج، وتلك حالة أقل خزيا من حالات سائر جيشه.

{ **فَالْيَوْمَ** } مستعملة في الآن، لأنّ اسم اليوم أطلق على جزء من زمن الحال مجازا بعلاقة الكلية والجزئية.

{ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ** } تذييل لموعظة المشركين، والواو اعتراضية، أو واو الحال. والمراد، دفع توهّم النقص عن آيات الله عندما يُحرم كثير من النّاس الاهتداء بها، فهي في ذاتها دلائل هدى سواء انتفع بها بعض النّاس أم لم ينتفعوا، فالتقصير منهم.

واعلم أن هذه الآية أصرح آية في القرآن دلالة على أنّ فرعون الذي أرسل إليه موسى والذي أتبع بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر قد أصابه الغرق. وقد أشارت إليه آية سورة الأعراف وآية سورة البقرة.

وفرعون هذا هو منفطاح الثاني، ويقال له (**مَيْرنْبَتَا**)، بباء فارسية أو (**منفتاح**)، أو (**منيفتا**) وهو ابن رعمسيس الثاني المعروف عند اليونان باسم (**سَيْزُوستريس**)، من ملوك العائلة التاسعة عشرة من الأسر الفرعونية، وكانوا في حدود سنة (1491 ق م).

ومؤرخو القبط لم يتعرّضوا لصفة موته، وما ذلك إلّا لأن الكهنة أجمعوا على إخفائها كيلا يتطرق الشك إلى الأمّة فيما يمجّد به الكهنة كل فرعون من صفات بنوّة الآلهة. وخلفته في ملك مصر ابنته المسماة (طوسير) لأنه تركها وابنا صغيرا.

وقد جاء ذكر غرق فرعون في التوراة في الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج بعبارات مختلفة الصراحة والإغلاق.

ومن دقائق القرآن قوله تعالى {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً} وهي عبارة لم يُأت مثلها فيما كتب من أخبار فرعون، وإنّها لمن الإعجاز العلمي في القرآن إذ كانت الآية منطبقة على الواقع التاريخي.

{ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [93]

فلمّا ضرب الله مثل السوء أتبعه بمثل الصلاح بحال الذين صدّقوا الرسول واتّبعوه، وكيف كانت عاقبتهم الحسنى، ليظهر الفرق بين مصيري فريقين جاءهم رسول فآمن به فريق وكفر به آخر، ليكون ذلك ترغيبا للمشركين في الإيمان، وبشارة للمؤمنين من أهل مكّة.

فالمراد ببني إسرائيل القوم المتحدّث عنهم، وترتيب الإخبار يقتضي أنّ الله بوّأهم مبوّأ صدق عقب مجاوزتهم البحر وغرق فرعون وجنوده، فإنّهم دخلوا بعد ذلك صحراء التيه وأمنوا على أنفسهم وأقبلوا على تزكية نفوسهم وإصلاح شؤونهم، ورزقوا المنّ والسلوى، وأعطوا النصر على الأمم التي تعرّضت لهم، تحاول منعهم من امتلاك الأرض الطيّبة. فما زالوا يتدرّجون في مدارج الخير والإنعام، فذلك مبوّأ الصدق.

فما اختلف أولئك ولا من خلفهم من أبنائهم وأخلافهم.

التبوّؤ تقدم آنفا، والمبوّأ: مكان البوء، أي الرجوع، والمراد المسكن كما تقدّم، والصدق هنا بمعنى الخالص

في نوعه. وتقدّم عند قوله تعالى {أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [2]. والمراد بمبوّأ الصدق ما فتح الله عليهم من بلاد فلسطين وما فيها من خصب وثراء، قال تعالى { وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا } [الأعراف: 137].

{ **فَمَا اخْتَلَفُوا** } تفريع على {بَوَّأْنَا}، تفريع ثناء عليهم بأنّهم شكروا تلك النعمة ولم يكفروها كما كفرها المشركون الذين بوّأهم الله حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كلّ شيء، فجعلوا لله شركاء، ثم كفروا بالرّسول المرسل إليهم. فوقع في الكلام إيجاز حذف. وتقدير معناه: فشكروا النعمة واتّبعوا وصايا الأنبياء وما خالفوا ذلك إلّا من بعد ما جاءهم العلم.

الاختلاف، افتعال أريد به شدّة التخالف، وهي مشتقة من الاسم الجامد وهو (الخلف) لمعنى الوراء، فتعيّن أن زيادة التاء للمبالغة مثل (اكتسب) مبالغة في(كسب). فيحمل على خلاف شديد، وهو مضادة ما جاء به الدين وما دعا إليه الرّسول ﷺ. وهو المناسب للسياق فإنّ الكلام ثناء مردف بغاية تؤذن أن ما بعد الغاية نهاية للثناء وإثبات للوم، فالذين لم يختلفوا هم الذين بوّأهم الله مبوّأ صدق. إلى أن جاء الذين اختلفوا على الأنبياء، وهؤلاء ما صدق ضمير الرفع في قوله { جَاءَهُمُ الْعِلْمُ }.

{ **حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ** } يجوز أن يكون ما جاءهم به الأنبياء من شرع الله فلم يعملوا بما جاؤوهم به، وأعظم ذلك تكذيبهم بمحمد ﷺ . ويجوز أن يكون العلم هو القرآن. فعن ابن عباس: هم اليهود الذين كانوا في زمن النبيء محمد ﷺ كانوا قبل مبعثه مقرّين بنبيء يأتي، فلمّا جاءهم العلم، وهو القرآن اختلفوا في تصديق محمد ﷺ. قال ابن عباس: هم قريظة والنضير وبنو قينقاع.

وعلى هذا الوجه يكون معنى الآية كمعنى قوله {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ} [آل عمران: 19]، وقوله: {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ} [البينة: 4] فإن البيّنة هي محمد ﷺ لأن قبل هذا قوله {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً} [1، 2].

وهذا المحمل هو المناسب لحرف (حتّى). وتعقيب {فَمَا اخْتَلَفُوا} بالغاية يؤذن بأنّ ما بعد الغاية منتهى حالة الشكر، أي فبقوا في ذلك المبوّأ، وفي تلك النعمة، حتّى اختلفوا فسلبت نعمتهم فإنّ الله سلبهم أوطانهم.

{ **إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } تذييل وتوعّد، والمقصود منه، أنّ أولئك قوم مضوا بما عملوا وأنّ أمرهم إلى ربهم كقوله {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ} [البقرة: 134]، وفيه إيماء إلى أنّ على الحاضرين اليوم أن يفكّروا في وسائل الخلاص من الضلال والوقوع في المؤاخذة يوم القيامة.

{ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ

رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ [94] وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[95].

تفريع على سياق القصص التي جعلها الله مثلا لأهل مكّة وعظة بما حلّ بأمثالهم. انتقل بهذا التفريع من أسلوب إلى أسلوب، كلاهما تعريض بالمكذّبين، فالأسلوب السابق تعريض بالتحذير من أن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم المماثلة لهم، وهذا الأسلوب الموالي تعريض لهم بشهادة أهل الكتاب على تلك الحوادث، وما في الكتب السابقة من الأنباء برسالة محمد ﷺ.

{ **مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ** } هو المنزّل الذي تفرع عليه هذا الكلام وهو ما أنزل في هذه السورة من القصص.

ثمّ إنّ الآية تحتمل معنيين لا يستقيم ما سواهما:

أوّلهما: أن تبقى الظرفية التي دلّت عليها (في) على حقيقتها، ويكون الشكّ قد أطلق وأريد به أصحابه، أي فإن كنت في قوم أهل شكّ ممّا أنزلنا إليك، أي يشكّون في وقوع هذه القصص، كما يقال: دخل في الفتنة، أي في أهلها. ويكون معنى {فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ} فاسأل أهل الكتاب سؤال تقرير وإشهاد عن صفة تلك الأخبار يخبروا بمثل ما أخبرتهم به، فيزول الشك من نفوس أهل الشكّ، إذ لا يحتمل تواطؤك مع أهل الكتاب على صفة واحدة لتلك الأخبار.

فالمقصود من الآية إقامة الحجة على المشركين بشهادة أهل الكتاب من اليهود والنصارى قطعا لمعذرتهم.

ثانيهما: أن تكون (في) للظرفيّة المجازية كالتي في قوله تعالى {فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ} [هود: 109] ويكون سوق هذه المحاورة إلى النبيء ﷺ على طريقة التعريض لقصد أن يسمع ذلك المشركون فيكون استقرار حاصل المحاورة في نفوسهم أمكن ممّا لو ألقي إليهم مواجهة. وهذه طريقة في الإلقاء التعريضي يسلكها الحكماء وأصحاب الأخلاق متى كان توجيه الكلام إلى الذي يقصد به مظنّة نفور كما في قوله تعالى {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: 65] أو كان في ذلك الإلقاء رفق بالذي يُقصد سوق الكلام إليه، كما في قصّة الخصم من اللذين اختصما إلى داود المذكورة في سورة (ص).

وكلا الاحتمالين يلاقي قوله {فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ} فإنه يقتضي أنّ المسؤول عنه ممّا لا يكتمه أهل الكتاب، وأنّهم يشهدون به، وإنّما يستقيم ذلك في القصص الموافقة لما في كتبهم، فإنّهم لا يتحرّجون من إعلانها والشهادة بها.

{ **فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ** } جواب للشرط باعتبار ما تفيده مادة السؤال من كونهم يجيبون بما يزيل الشك، فبذلك يلتئم التلازم بين الشرط والجواب.

{ **لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا لجواب سؤال ناشئ عن الشرط وجوابه، كأن السامع يقول: فإذا سألتهم ماذا يكون؟ فقيل: لقد جاءك الحق من ربك.

{ **لَقَدْ** } لمّا كان المقصود من ذلك علم السامعين بطريق التعريض لا علم الرسول ﷺ، لأنّه ليس بمحلّ الحاجة لإعلامه بأنّه على الحق، قرنت الجملة بحرفي التأكيد(لام القسم - قد) ، لدفع إنكار المعرّض بهم.

{ **فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** } تعريض أيضا بالمشركين.

الامتراء، الشكّ فيما لا شبهة للشك فيه. فهو أخصّ من الشك.

{ **وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ** } أصرح في التعريض بهم.

{ **فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ** } وهذا يقتضي أنهم خاسرون. ونظيره { لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}.

وحاصل المعنى: فإن كنتم شاكين في صدق ما أنزلنا على محمد ممّا أصاب المكذّبين قبلكم فاسألوا أهل الكتاب يخبروكم بأنّ ذلك صدق. لقد جاءكم الحقّ من رب محمد ﷺ فلا تكونوا شاكين ولا تكذّبوا بآيات الله فتكونوا خاسرين.

{ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ [96] وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [97]

لمّا سبق التعريض بالمشركين الشّاكين في صدق ﷺ والاستشهاد عليهم في صدقه بشهادة أهل الكتاب أعقب ذلك بأنّهم من زمرة الفرق الذين حقّت عليهم كلمة الله أن لا يؤمنوا، فهم لا تجدي فيهم الحجّة لأنّهم أهل مكابرة وليسوا طالبين للحقّ، فالذين لم يؤمنوا بما يجيء من الآيات هم ممن علم الله أنّهم لا يؤمنون. وهذا مسوق مساق التأييس من إيمانهم.

حقّت، ثبتت. و**عَلَيْهِمْ**، للاستعلاء المجازي، وهو تمكّن الفعل الذي تعلّقت به.

{ **كَلِمَتُ رَبِّكَ** }، أمر التكوين، على مراعاة الجنس، أي يحق على كلّ أمّة كلمة . وجمعت الكلمات (في قراءة نافع) بالنظر إلى أنّ متعلّقها ناس كثيرون، فكل واحد منهم تحقّ عليه كلمة.

ويحتمل أن تجعل الجملة في موضع التعليل للقصص السابقة، فتكون بمنزلة التذييل، والموصول للعموم الجامع جميع الأمم التي هي بمثابة الأمم المتحدّث عنهم، وتكون (إنّ) لمجرّد الاهتمام بالخبر، فتفيد التعليل والربط، وتغني عن فاء التفريع، كما تقدّم غير مرّة، ويكون في الآية تعريض آخر بالمشركين.

{ **وَلَوْ** } وصلية للمبالغة، أي لا يؤمنون ولو جاءتهم كلّ آية، فكيف إذا لم تجئهم إلّا بعض الآيات.

{ **كُلُّ آيَةٍ** } مستعملة في معنى الكثرة، وهو استعمال كثير في القرآن. كما في قوله تعالى { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ

كُلَّهَا } [البقرة:27]، أي ولو جاءتهم آيات كثيرة.

رؤية العذاب، كناية عن حلوله بهم.

والمعنى: أنّهم لا يؤمنون إلّا حين لا ينفعهم الإيمان، لأنّ نزول العذاب هو ابتداء مجازاتهم على كفرهم. ومن بركة هذا الدين أن الذين كفروا به قد هداهم الله قبل أن ينزل بهم عذابا.

{ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ }[98]

الفاء لتفريع التغليط على امتناع أهل القرى من الإيمان بالرسل قبل أن ينزل بهم العذاب على الإخبار بأنّ الذين حقّت عليهم كلمة الله أن لا يؤمنوا لا يؤمنون حتّى يروا العذاب. والغرض من ذكر أهل القرى التعريض بالمقصود، وهم أهل مكّة، فإنّهم أهل قرية. فكان ذلك كالتخلّص بالتعريض إلى المخصوصين به، وللإفضاء به إلى ذكر قوم يونس فإنّهم أهل قرية.

{ فَلَوْلا } الفاء للتفريع و(لولا) حرف يرد لمعان منها التوبيخ، وهو هنا مستعمل في لازم التوبيخ كناية عن التغليط، لأنّ أهل القرى قد انقضوا، وذلك أنّ أصل معنى (لولا) التحضيض، وهو طلب الفعل بحثّ، فإذا دخلت على فعل قد فات وقوعه كانت مستعملة في التغليط والتنديم والتوبيخ على تفويته، ويكون ما بعدها في هذا الاستعمال فعل ماضي مثل قوله تعالى {وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا} [النور:16]. والمقصود، التعريض بأنّ مشركي أهل مكّة يوشك أن يكونوا على سنن أهل القرى. وذلك تعريض بتحريض أهل مكّة على الإيمان قبل نزول العذاب.

والمستخلص من الروايات الواردة في قوم يونس أنّهم بادروا إلى الإيمان بعد أن فارقهم يونس، توقّعا لنزول العذاب، وقبل أن ينزل بهم العذاب، وذلك دليل على أنّ معاملة الله إيّاهم ليست مخالفة لما عامل به غيرهم من أهل القرى، وأن ليست لقوم يونس خصوصيّة، وبذلك لا يكون استثنائهم استثناءا منقطعا.

{ لَمَّا آمَنُوا } مستأنفة لتفصيل مجمل معنى الاستثناء. وفي الآية إيماء إلى أنّ أهل مكّة يعاملهم الله معاملة قوم يونس إذ آمنوا عند رؤية العذاب. وذلك حالهم عندما تسامعوا بقدوم جيش غزوة الفتح الذي لا قبل لهم به عَدّة وعُدّة، فيكاد يحل بهم عذاب استئصال لولا أنّهم عجّلوا بالإيمان يوم الفتح. فقال لهم النبيء ﷺ: " أنتم الطلقاء ".

وقوم يونس هم أهل قرية **نَيْنَوَى**[بفتح النونين بينهما ياء تحتية ساكنة وبعد النون الثانية واو مفتوحة بعدها ألف، هي إحدى مدن بلاد أشور من العراق كائنة على الضفة اليسرى من الدجلة بناها الملك أشور سنة (2229 ق م) وكانت مصطافا لملوك أشور من عهد شلمناصر الأوّل]. وهم خليط من الآشوريين واليهود الذين كانوا في أسر ملوك بابل بعد بختنصر. وكانت بعثة

يونس إليهم في أول القرن الثامن قبل المسيح. وقد تقدّم ذكر يونس وترجمته في سورة الأنعام.
ولمّا كذّبه أهل نينوى توعّدهم بخسف مدينتهم بعد أربعين يوما، وخرج من المدينة غاضبا عليهم، فلمّا خرج خافوا نزول العذاب بهم فتابوا وآمنوا بالله فقبل الله إيمانهم ولم يعذّبهم. والمذكور أنّهم رأوا غيما أسود بعد مضي خمسة وثلاثين يوما من حين توعّدهم يونس عليه السلام بحلول العذاب فعلموا أنّه مقدّمة العذاب فآمنوا وخضعوا لله تعالى فأمسك عنهم العذاب. وسيجيء ذكر ما حل بيونس عليه السلام في خروجه ذلك من ابتلاع الحوت إيّاه في سورة الأنبياء.
الكشف، إزالة ما هو ساتر لشيء، وهو هنا مجاز في الرفع. عبّر عن الرفع وإبطال العذاب قبل وقوعه بالكشف تنزيلا لمقاربة الوقوع منزلة الوقوع.
الخزي، الإهانة والذلّ. وإضافة العذاب إلى الخزي يجوز كونها بيانيّة لأنّ العذاب كلّه خزي، ويجوز أن تكون الإضافة حقيقيّة للتخصيص، ويكون المراد من الخزي الحالة المتصوّرة من حلوله. وهي شناعة الحالة لمن يشاهدهم مثل الخسف والحرق والغرق، وأشنع الخزي ما كان بأيدي أناس مثلهم، وهو عذاب السيف الذي حل بصناديد قريش يوم بدر، والذي كاد أن يحل بجميع قريش يوم فتح مكّة فنجاهم الله منه كما نجى قوم يونس.
{ **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } صفة ل {عَذَابَ الْخِزْيِ} للإشارة إلى أنّ العذاب الذي يحلّ بالأمم الكافرة هو عقاب في الدنيا وبعده عقاب في الآخرة، وأنّ الأمم التي لم تعذّب في الدنيا قد ادخر لها عذاب الآخرة.
التمتيع، الإمهال.
{ **إِلَى حِينٍ** } إبهام، لأنّه مختلف باختلاف آجال آحادهم. والمراد به التمتيع بالحياة لا بكشف العذاب، لأنّهم بعد موتهم ناجون من العذاب إذ كانوا قد آمنوا وأخلصوا.
ولعل الحكمة في نجاة قوم يونس تتمثل في أمرين:
أحدهما، أنّ الله علم أنّ تكذيبهم يونس - عليه السلام- في ابتداء دعوته لم يكن ناشئا عن تصميم على الكفر واستخفاف بعظمة الله، ولكنه كان شكا في صدق يونس - عليه السلام- . ولعلّ ذلك أنّهم كانوا على بقيّة من شريعة موسى - عليه السلام -، وإنّما حرّفوا وحادوا عن طريق الإيمان ممّا يعلمه الله، فإن في نينوى كثيرا من أسرى بني إسرائيل الذين كانوا في أسر الآشوريين كما علمت آنفا، فلما أوعدهم يونس - عليه السلام - بالعذاب بعد أربعين يوما ورأوا أماراته بعد خمسة وثلاثين يوما اهتدوا وآمنوا إيمانا خالصا.
ثانيهما، أنّ يونس -عليه السلام- لمّا صدرت منه فلتة المغاضبة كان قد خلط في دعوته شيئا من حظّ النفس، وإن كان لفائدة الدين، فقدّر الله إيمان قومه لعلمه كمال الإيمان والصبر والتسليم لله، وهذا عتاب وتأديب بينه وبين ربّه، ولذلك حذر رسولُ الله ﷺ الأمّة من توهّم أنّ ما جرى ليونس - عليه السلام - من المغاضبة

والمعاقبة ينقص من قدره فقال ﷺ: " لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متّى" يعني في صحة الرسالة لا في التفاضل فيها.

{ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[99]

تسلية للنبيء ﷺ على ما لقيه من قومه. وهذا تذييل لما تقدّم من مشابهة حال قريش مع النبيء ﷺ بحال قوم نوح وقوم موسى وقوم يونس. وهذه الجملة كالمقدّمة الكلّية للجملة التي بعدها {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ} المفرّعة على الجملة الأولى، وهي المقصود من التسلية.

النّاس، العرب، أو أهل مكّة منهم، وذلك إيماء إلى أنّهم المقصود من سوق القصص الماضية كما بيّنّاه.

{ **كُلُّهُمْ** } التأكيد للتنصيص على العموم المستفاد من **(من)** الموصولة فإنّها للعموم.

{ **جَمِيعاً** } لزيادة رفع احتمال العموم العرفي دون الحقيقي.

والمعنى: لو شاء الله لجعل مدارك النّاس متساوية منساقة إلى الخير، فكانوا سواء في قبول الهدى والنظر الصحيح.

{ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ** } (لو) تقتضي انتفاء جوابها لانتفاء شرطها. فالمعنى: لكنّه لم يشأ ذلك، فاقتضت حكمته أن خلق عقول الناس متأثّرة ومنفعلة بمؤثرات التفاوت في إدراك الحقائق فلم يتواطؤا على الإيمان.

{ **أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** } مفرعة على التي قبلها، لأنّه لمّا تقرّر أنّ الله لم تتعلّق مشيئته باتفاق النّاس على الإيمان بالله تفرّع على ذلك إنكار ما هو كالمحاولة لتحصيل إيمانهم جميعا.

والاستفهام إنكاري، فنزل النبيء ﷺ لحرصه على إيمان أهل مكّة وحثيث سعيه لذلك بكل وسيلة صالحة منزلة من يحاول إكراههم على الإيمان حتّى ترتّب على ذلك التنزيل إنكاره عليه.

وهذا تعريض بالثناء على النبيء ومعذرة له على عدم استجابتهم إيّاه، ومن بلغ المجهود حقّ له العذر.

وليس تقديم المسند إليه هنا مفيدا للتخصيص، أي القصر، لأنّ المقام غير صالح لاعتبار القصر، إذ مجرد تنزيل النبيء ﷺ منزلة من يستطيع إكراه النّاس على الإيمان كاف في الإشارة إلى تشبيه حرصه على إيمانهم بحرص من يستطيع إكراههم عليه. فما وقع في (الكشاف) من الإشارة إلى معنى الاختصاص غير وجيه.

الإكراه، الإلجاء والقسر.

{ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ }[100]

عطف على {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ} لتقرير مضمونها، لأنّ مضمونها إنكار أن يقدر النبيء ﷺ على إلجاء النّاس إلى الإيمان، لأنّ الله هو الذي يقدر على ذلك.

ويجوز أن تكون الواو للحال من ضمير المخاطب، أي كيف يمكنك أن تكره النّاس على الإيمان والحال أنّه لا تستطيع نفس أن تؤمن إلّا بإذن الله لها بالإيمان.

الإذن، هنا إذن تكوين وتقدير. فهو خلق النفس مستعدّة لقبول الحقّ مميّزة بين الحق والباطل، والصلاح والفساد، متوصّلة بالنظر الصحيح إلى معرفة ما ينبغي أن يتّبع وما لا ينبغي، متمكّنة بصحّة الإرادة من زجر داعية الهوى والأعراض العاجلة، ومن اتّباع داعية الحقّ والعاقبة الدائمة، حتّى إذا وُجّه إليها الإرشاد حصل فيها الهدى. ويومئ إلى هذا المعنى من الإذن قوله **{وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ}** فقابل هذه الحالة بحالة الذين لا يعقلون، فعلم أنّ حالة الإيمان حالة من يعقلون.

الرجس، حقيقته الخبث والفساد. وأطلق هنا على الكفر، لأنّه خبث نفساني، والقرينة مقابلته بالإيمان.

{ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ } نفي العقل المستقيم، أي الذين لا تهتدي عقولهم إلى إدراك الحقّ ولا يستعملون عقولهم بالنظر في الأدلة.

{ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ }[101]

أي فادعهم إلى النظر في دلائل الوحدانيّة والإرشاد إلى تحصيل أسباب الإيمان ودفع غشاوات الكفر، وذلك بالإرشاد إلى النظر والاستدلال بما هو حول الإنسان من أحوال الموجودات وتصاريفها الدالة على الوحدانية مثل أجرام الكواكب وتقادير مسيرها، وأحوال النور والظلمة والرياح والسحاب والمطر...

{ قُلِ } للاهتمام بمضمونها. وقد عمّم ما في السماوات والأرض لتتوجه كلّ نفس إلى ما هو أقرب إليها وأيسر استدلالا عليه لديها.

النظر، مستعمل هنا فيما يصلح للنظر القلبي والنظر البصري، وجيء بعده بالاستفهام المعلّق لكلا الفعلين بحيث أصبح حمل النظر على كليهما على حد السواء فصار صالحا للمعنيين الحقيقي والمجازي، وذلك من مقاصد القرآن.

{ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ } معترضة، فيجوز أن تكون متمّمة لمقول القول ممّا أمر النبيء ﷺ أن يقوله لهم، ويجوز أن تكون استئناف كلام من الله تعالى. والمعنى، أبلغهم ما أمرت بتبليغه إليهم وليست تغني الآيات عن قوم لا يؤمنون. وذلك أن القرآن جاء للنّاس بالاستدلال وبالتخويف ثم سجّل على هذا الفريق بأنّه لا تنجع فيه الآيات والأدلة ولا النذر والمخوّفات.

{ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ } يفيد أنّ انتفاء الإيمان عنهم وصف عرفوا به وأنّه مستقرّ من نفوسهم، لأنّ اجتلاب لفظ {قَوْمٍ} هنا مع صحّة حلول غيره محله يشير إلى أنّ الوصف المذكور بعده من مقوّمات قوميتهم لأنّه صار من خصائصهم، بخلاف ما لو قيل: عمّن لا يؤمنون.

{ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ [102] ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ } [103]

الاستفهام مجاز تهكّمي إنكاري، نزلوا منزلة من ينتظرون شيئا يأتيهم ليؤمنوا، وليس ثمّة شيء يصلح لأن ينتظروه إلّا أن ينتظروا حلول مثل أيام الذين خلوا من قبلهم التي هلكوا فيها. وضُمّن الاستفهام معنى النفي بقرينة الاستثناء المفرَّغ. والتقدير: فهل ينتظرون شيئا؟ ما ينتظرون إلّا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم.

{ **أَيَّامِ** } وأطلقت على ما يقع فيها من الأحداث العظيمة. ومن هذا (أيام العرب) على الوقائع الواقعة فيها.

{ **قُلْ فَانْتَظِرُوا** } مفرّعة على {فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ} . وفصل بينهما بـ {قُلْ} لزيادة الاهتمام، ولينتقل من مخاطبة الله رسولَه ﷺ إلى مخاطبة الرسول ﷺ قومَه، وبذلك يصير التفريع بين كلامين مختلفي القائل. على أنّ الاختلاف بين كلام الله وكلام الرسول ﷺ، في مقام الوحي والتبليغ، اختلاف ضعيف، لأنّهما آئلان إلى كلام واحد. وهذا موقع غريب لفاء التفريع.

والكلام يتضمّن وعد الله نبيّه بأنّه يرى ما ينتظرهم من العذاب، فهو وعيد وهو يتضمن النصر عليهم. وسيصرح بذلك { ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا }.

{ **إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ** } استئناف بياني مستعمل كناية عن ترقّبه النصر، إذ لا يُظنّ به أنّه ينتظر سوءا فتعيّن أنّه ينتظر من ذلك ضدّ ما يحصل لهم، فالمعيّة في أصل الانتظار لا في الحاصل بالانتظار.

{ **ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا** } ولمّا كانوا مهدّدين بعذاب يحلّ بموضع فيه الرّسول ﷺ والمؤمنون عجّل الله البشارة للرّسول ﷺ والمؤمنين بأنّه ينجّيهم من ذلك العذاب بقدرته كما أنجى الرسل من قبله.

{ **كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ**} تذييل. و{حَقّاً عَلَيْنَا} جملة معترضة لأنّ المصدر بدلٌ من الفعل، أي حقّ ذلك علينا حقا. وجعله الله حقّا عليه تحقيقا للتفضّل به والكرامة حتّى صار كالحقّ عليه.

وقرأ الجمهور {نُنَجّي المؤمنين} بفتح النون الثانية وتشديد الجيم على وزان {نُنَجِّي رُسُلَنَا} . وقرأ الكسائي، وحفص عن عاصم {نُنْج المؤمنين} بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم من الإنجاء. فالمخالفة بينه وبين نظيره الذي قبله تفنن، والمعنى واحد. وكتب في المصحف {نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ} بدون ياء بعد الجيم على صورة النطق بها لالتقاء الساكنين.

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }[104]

هذه الجملة متّصلة المعنى بجملة { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ، إذ المقصود من النظر

المأمور به هنالك النظر للاستدلال على إثبات الوحدانيّة. فلمّا أمرهم بالنظر المؤدي إلى إثبات انفراده تعالى بالإلهية أعقبه بأن يخبرهم بأنّهم إن استمروا على الشكّ فيما جاء به الرسول ﷺ، فإنّ الرسول ﷺ ثابت على ما جاء به، وأنّ دلائل صحّة دينه بيّنة للناظرين.

{ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ** } المشركون من أهل مكّة، أو جميع أمّة الدعوة الذين لمّا يستجيبوا للدعوة.

{ **فِي شَكٍّ** } للظرفيّة المجازية المستعملة في التمكّن، تشبيها لتمكّن الصفة بتمكّن الظرف من المظروف من جهة الإحاطة.

{ **مِنْ دِينِي** } للابتداء المجازي، أي إن كنتم شاكين شكا سببه ديني، أي يتعلّق بحقّيّته، لأنّ الشك يحمل في كل مقام على ما يناسبه. والشك في الدين هو الشك في كونه حقّا، وكونه من عند الله.

{ **فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } واقعة موقع جواب الشرط ودالة عليه في المعنى. فتقدير الجواب: فأنا على يقين من فساد دينكم، فلا أتّبعه، فلا أعبد الذين تعبدونهم ولكن أعبد الله.

{ **الَّذِينَ تَعْبُدُونَ** } الأصنام. وعوملت معاملة العقلاء فأطلق عليها اسم الموصول الذي لجماعة العقلاء مجاراة لما يعتقدونه فيها من العقل والتدبير. ونظير هذا في القرآن كثير.

{ **الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ** } اختيار صلة التوفّي هنا في نعت اسم الجلالة لما فيها من الدلالة على كمال التصرّف في المخلوق، فإنّ المشركين لم يبلغ بهم الإشراك إلى ادّعاء أنّ الأصنام تحيي وتميت. واختيار ذلك من بين الصفات الخاصة بالله تعالى تعريض بتذكيرهم بأنّهم معرّضون للموت فيقصّرون من طغيانهم.

{ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** } أريد بالمؤمنين الذين آمنوا بالله وبرسوله ﷺ وبالقرآن والبعث، فإذا أطلق لفظ المؤمنين انصرف إلى القوم الذين اتّصفوا بالإسلام، ولذلك لا يقدّر للمؤمنين متعلّق. وفي جعل النبيء ﷺ من جملة المؤمنين تشريف لهذا الجمع وتنويه به.

{ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [105]

{ **وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً** } موقع هذه الجملة معضل لأنّ الواو عاطفة لا محالة، ووقعت بعدها (أن) المصدرية، ووقوع فعل الطلب بعدها غير مألوف، لأنّ حق صلة (أن) أن تكون جملة خبرية.

قال في (الكشاف): قد سوغ سيبويه أن توصل (أن) بالأمر والنهي، وأن تكون بمنزلة (أي). فالمعنى: وأمرت بإقامة وجهي للدين حنيفا. ويكون العطف عطف مفرد على مفرد.

وقيل الواو عطفت فعلا مقدرا يدلّ عليه فعل (أمرت). والتقدير، وأوحي إلي، وتكون (أن) مفسّرة للفعل المقدّر، لأنّه فيه معنى القول دون حروفه.

وعندي أنّ أسلوب نظم الآية على هذا الوجه لم يقع إلّا لمقتضى بلاغي، فلا بد من أن يكون لصيغة {أَقِمْ

وَجْهَكَ} خصوصيّة في هذا المقام، فلنعرض عما وقع في (الكشاف) وعن جعل الآية مثالا لما سوّغه سيبويه ولنجعل الواو متوسّعا في استعمالها بأن استعملت نائبة مناب الفعل الذي عطفت عليه، أي فعل (أمرْت) دون قصد تشريكها لمعطوفها مع المعطوف عليه بل استعملت لمجرد تكريره. والتقدير: أمرت أن أقم وجهك.
وهذا من عطف الجمل لا من عطف المفردات، وقد سبق مثل هذا عند قوله تعالى {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ} [المائدة:49]، وهو هنا أوعب.
الإقامة، جعل الشيء قائما. وهي هنا مستعارة لإفراد الوجه بالتوجّه إلى شيء معين لا يترك وجهه ينثني إلى شيء آخر.
{ **لِلدِّينِ** } اللام للعلّة، أي لأجل الدين، فيصير المعنى، محّض وجهك للدين، لا تجعل لغير الدين شريكا في توجّهك. وهذه التمثيليّة كناية عن توجيه نفسه بأسرها لأجل ما أمره الله به من التبليغ وإرشاد الأمّة وإصلاحها. وقريب منه قوله { أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ } [آل عمران:20]
{ **حَنِيفاً** } حال من {الدين} وهو دين التوحيد، لأنّه حنف أي مال عن الآلهة وتمحّض لله. وقد تقدّم عند قوله تعالى { قل بل ملّة إبراهيم حنيفا } [البقرة :135].
{ **وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } نهي مؤكّد لمعنى الأمر الذي قبله تصريحا بمعنى {حَنِيفاً} . وتأكيد الفعل المنهي عنه بنون التوكيد للمبالغة في النهي عنه اعتناء بالتبرؤ من الشرك.
{ **مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } أبلغ في الاتصاف من نحو: لا تكن مشركا، لما فيه من التبرؤ من الطائفة ذات نحلة الإشراك.

{ وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ } [106]
عطف على {وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}. ولم يؤكّد الفعل بنون التوكيد لئلّا يمنع وجودها من حذف حرف العلة، لأنّ حذفه تخفيف وفصاحة، ولأنّ النهي لما اقترن بما يومئ إلى التعليل كان فيه غنية عن تأكيده، لأنّ الموصول في قوله {مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ} يومئ إلى وجه النهي عن الدعاء، إذ دعاء أمثالها لا يقصده العاقل.
{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } اعتراض بين فعل { تَدْعُ } ومفعوله، وهو إدماج للحثّ على دعائه الله.
{ **فَإِنْ فَعَلْتَ** }تفريع على النهيين للإشارة إلى أنّه لا معذرة لمن يأتي ما نُهي عنه بعد أن أُكد نهيه وبُيّنت علّته، فمن فعله فقد ظلم نفسه واعتدى على حقّ ربّه.
{ **مِنَ الظَّالِمِينَ** } تأكيد مثل ما تقدّم في قوله {مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [105] ونظائره.

والمقصود من هذا الفرض تنبيه النّاس على فظاعة عظم هذا الفعل حتّى لو فعله أشرف المخلوقين لكان من الظالمين.

{ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }[107]

عطف على {وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ} لقصد التعريض بإبطال عقيدة المشركين أنّ الأصنام شفعاء عند الله، فلمّا أبطلت الآية السابقة أن تكون الأصنام نافعة أو ضارة، عُقِّبت بهذه الجملة للإعلام بأنّ إرادة الله النفع أو الضرّ لأحد لا يستطيع غيره أن يصرفه عنها أو يتعرض فيها إلّا من جعل الله له ذلك بدعاء أو شفاعة.

وتوجيه الخطاب للنبي ﷺ لأنّه أولى النّاس بالخير ونفي الضرّ. فيعلم أنّ غيره أولى بهذا الحكم وهذا المقصود.

المس، حقيقته وضع اليد على جسم، وقد يطلق على الإصابة مجازا مرسلا. وقد تقدّم عند قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ } [الأعراف:201].

{ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ } تقديره والقصد إليه. ولما كان الذي لا يعجزه شيء ولا يتردّد علمه فإذا أراد شيئا فعله، فإطلاق الإرادة هنا **كناية عن الإصابة** كما يدلّ عليه قوله بعده {يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} .

وقد عبّر بالمسّ في موضع الإرادة في نظيرها { وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأنعام:17].
ولكن عبّر هنا بالإرادة مبالغة في سلب المقدرة عمن يريد معارضة مراده تعالى كائنا من كان بحيث لا يستطيع التعرّض لله في خيره ولو كان بمجرد إرادته قبل حصول فعله، فإنّ التعرض حينئذ أهون، لأنّ الدفع أسهل من الرفع، وأمّا آية سورة الأنعام فسياقها في بيان قدرة الله تعالى لا في تنزيهه عن المعارض والمعاند.

{ لِفَضْلِهِ } ، هو الخير، ولذلك فإيقاعه موقع الضمير للدلالة على أنّ الخير الواصل إلى النّاس فضل من الله لا استحقاق لهم به، لأنّهم عبيد إليه يصيبهم بما يشاء.

{ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } واقعة موقع البيان لما قبلها والحوصلة له، فلذلك فصلت عنها.

{ بِهِ } الضمير المجرور بالباء إمّا عائد إلى الخير، فيكون امتنانا وحثّا على التعرض لمرضاة الله، أو يعود إلى ما تقدّم من الضرّ. والضمير باعتبار أنّه مذكور فيكون تخويفا وتبشيرا وتحذيرا وترغيبا.

{ مَنْ يَشَاءُ } أجملت المشيئة هنا ولم تبيّن أسبابها ليسلك لها النّاس كلّ مسلك يأملون منه تحصيلها في العطاء وكل مسلك يتّقون يوقعهم فيها في الحرمان.

الإصابة، اتصال شيء بآخر وووروده عليه، وهي في معنى المس المتقدم، فقوله {يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ} هو في

معنى قوله { وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الأنعام:17]
{ **وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** } تذييل، يشير إلى أنّ إعطاء الخير فضل من الله ورحمة وتجاوز منه تعالى عن سيّئات عباده الصالحين، وتقصيرهم وغفلاتهم، فلو شاء لما تجاوز لهم عن شيء من ذلك فتورّطوا كلّهم.

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ } [108]

استئناف ابتدائي هو كذيل لما مضى في السورة كلّها وحوصلة لما جرى من الاستدلال والمجادلة والتخويف والترغيب، ولذلك جاء ما في هذه الجملة كلاما جامعا وموادعة قاطعة.

{ **قُلْ** } للتنبيه على أنّه تبليغ عن الله تعالى فهو جدير بالتلقّي.

{ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** } افتتاح المقول بالنداء لاستيعاء سماعهم لأهمية ما سيقال لهم، والخطاب لجميع النّاس من مؤمن وكافر، والمقصود منه ابتداء المشركون، ولذلك أطيل الكلام في شأنهم. وقد ذكر معهم من اهتدى تشريفا لهم.

{ **قَدْ** } أكد الخبر، تسجيلا عليهم بأنّ ما فيه الحقّ قد أُبلغ إليهم، وتحقيقا لكونه حقّا.

الحقّ، هو الدين الذي جاء به القرآن.

{ **مِنْ رَبِّكُمْ** } للتنويه بأنّه حقّ مبيّن لا يخلطه باطل ولا ريب، فهو معصوم من ذلك.

{ **فَمَنِ اهْتَدَى** } تفريع على {قَدْ جَاءَكُمُ} للإشارة إلى أنّ مجيء الحقّ الواضح يترتّب عليه أن إتّباعه غنم لمتّبعه وليس مزيّة له على الله، ليتوصّل من ذلك إلى أنّ المُعرض عنه قد ظلم نفسه، ورتّب عليها تبعة الإعراض.

{ **لِنَفْسِهِ** } اللام دالة على أنّ الاهتداء نعمة وغنى وأنّ الإعراض ضرّ على صاحبه.

{ **فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ** } و { **فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** } الإتيان بطريقتي الحصر للردّ على المشركين إذ كانوا يتمطّون في الاقتراح فيقولون {لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً} [الإسراء: 90] ونحو ذلك ممّا يفيد أنّهم يمنّون عليه لو أسلموا، وكان بعضهم يظهر أنّه يغيظ النبيء ﷺ بالبقاء على الكفر، فكان القصر مفيدا أن اهتداءه مقصور لفائدة نفسه. وأنّ ضلاله مقصور لمضرّتها.

{ **وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ** } داخلة في حيّز التفريع، وإتمام للمفرّع، لأنّه إذا كان اهتداء المهتدي لنفسه وضلال الضال على نفسه تحقّق أنّ النبيء ﷺ غير مأمور من الله بأكثر من التبليغ وأنّه لا نفع لنفسه في اهتدائهم ولا يضرّه ضلالهم، فلا يحسبوا حرصه لنفع نفسه أو دفع ضرّ عنها حتى يتمطّوا ويشترطوا، وأنّه ناصح لهم ومبلّغ ما في اتباعه خيرهم والإعراض عنه ضرّهم.

والإتيان بالجملة الاسمية المنفية للدلالة على دوام انتفاء ذلك الحكم وثباته في سائر الأحوال.
{ **عَلَيْكُمْ** } بمعنى على اهتدائكم. و**الوكيل**، الموكول إليه تحصيل الأمر.

{ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ }[109]

عطف على {قُلْ} أي بلّغ النّاس ذلك القول {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ} ، أي اتّبع في نفسك وأصحابك ما يوحى إليك، و {اصْبِرْ} أي على معاندة الذين لم يؤمنوا بقرينة الغاية بقوله {حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ}، فإنّها غاية لهذا الصبر الخاص لا لمطلق الصبر.

ولما كان الحكم يقتضي فريقين حذف متعلقه تعويلا على قرينة السياق، أي حتّى يحكم الله بينك وبينهم.

{ **وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** } ثناء وتذييل لما فيه من العموم، أي وهو خير الحاكمين بين كل خصمين في هذه القضية وفي غيرها، فالتعريف في {الْحَاكِمِينَ} للاستغراق بقرينة التذييل.

{ **خَيْرُ** } تفضيل، أصله (أخير) فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال. والأخيريّة من الحاكمين أخيرية وفاء الإنصاف في إعطاء الحقوق. وهي هنا كناية عن معاقبة الظالم، لأنّ الأمر بالصبر مشعر بأنّ المأمور به معتدى عليه، ففي الإخبار بأنّ الله خير الحاكمين إيماء بأنّ الله ناصر رسوله ﷺ والمؤمنين على الذين كذبوا وعاندوا. وهذا كلام جامع فيه براعة المقطع.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة هود

سمّيت في جميع المصاحف وكتب التفسير والسنّة سورة هود، ولا يعرف لها اسم غير ذلك، وكذلك وردت هذه التسمية عن النبيء ﷺ في حديث ابن عباس أنّ أبا بكر قال: " يا رسول الله قد شبتَ، قال: شيّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت". رواه الترمذي بسند حسن في كتاب التفسير من سورة الواقعة. وروي من طرق أخرى بألفاظ متقاربة يزيد بعضها على بعض.

وسمّيت باسم هود لتكرّر اسمه فيها خمس مرات، ولأنّ ما حكي عنه فيها أطول ممّا حكي عنه في غيرها، ولأنّ عادا وصفوا فيها بأنّهم قوم هود في قوله { أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ } [60].

وهي مكيّة كلّها عند الجمهور. وروي ذلك عن ابن عباس وابن الزبير، وقتادة، إلّا آية واحدة وهي { وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ- إلى قوله – لِلذَّاكِرِينَ } [114].

وقال ابن عطية: هي مكّية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة. وهي قوله تعالى {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ} [12]، وقوله { أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ - إلى قوله - أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} قيل نزلت في عبد الله بن سلام، وقوله { وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ } [114]. قيل نزلت في قصة أبي اليُسْر كما سيأتي.

والأصحّ أنّها كلّها مكّيّة وأن ما روي من أسباب النزول في بعض آيها توهّم، لاشتباه الاستدلال بها في قصة بأنها نزلت حينئذ كما يأتي، على أنّ الآية الأولى من هذه الثلاث واضح أنّها مكّية.

نزلت هذه السورة بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف. وقد عدّت الثانية والخمسين في ترتيب نزول السور.

وقد عدّت آياتها مائة وإحدى وعشرين في العدد المدني الأخير. وكانت آياتها معدودة في المدني الأوّل مائة واثنتين وعشرين، وهي كذلك في عدد أهل الشام وفي عدد أهل البصرة وأهل الكوفة مائة وثلاث وعشرون.

أغراض السورة

ابتدأت بالإيماء إلى التحدّي لمعارضة القرآن بما تومئ إليه الحروف المقطعة في أوّل السورة.

وبالتنويه بالقرآن. وبالنهي عن عبادة غير الله تعالى.

وبأنّ الرسول عليه الصلاة والسلام نذير للمشركين بعذاب يوم عظيم وبشير للمؤمنين بمتاع حسن إلى أجل مسمّى.

وإثبات الحشر. والإعلام بأنّ الله مطلع على خفايا النّاس. وأنّ الله مدبّر أمور كلّ حي على الأرض. وخلق العوالم بعد أن لم تكن. وأن مرجع النّاس إليه، وأنّه ما خلقهم إلّا للجزاء.

وتثبيت النبيء ﷺ وتسليته عمّا يقوله المشركون وما يقترحونه من آيات على وفق هواهم { أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ} [12]. وأنّ حسبهم آية القرآن الذي تحدّاهم بمعارضته فعجزوا فتبيّن خذلانهم فهم أحقّاء بالخسارة في الآخرة.

وضرب مثل لفريقي المؤمنين والمشركين. وذكر نظرائهم من الأمم البائدة من قوم نوح وتفصيل ما حلّ بهم وعاد وثمود، وإبراهيم، وقوم لوط، ومدين، ورسالة موسى، تعريضا بما في جميع ذلك من العبر وما ينبغي منه الحذر، فإنّ أولئك لم تنفعهم آلهتهم التي يدعونها. وأن في تلك الأنباء عظة للمتّبعين بسيرهم.

وأنّ ملاك ضلال الضالين عدم خوفهم عذاب الله في الآخرة فلا شك في أن مشركي العرب صائرون إلى ما صار إليه أولئك.

وانفردت هذه السورة بتفصيل حادث الطوفان وغيضه.

ثم عَرض باستئناس النبيء ﷺ وتسليته باختلاف قوم موسى في الكتاب الذي أوتيه، فما على الرّسول وأتباعه إلّا أن يستقيم فيما أمره الله وأن لا يركنوا إلى المشركين، وأنّ عليهم بالصلاة والصبر والمضي في الدعوة إلى الصلاح فإنّه لا هلاك مع الصلاح.

وقد تخلل ذلك عظات وعبر والأمر بإقامة الصلاة.

{ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } [1]

{ **الر** } تقدّم القول على الحروف المقطّعة الواقعة في أوائل السور في أوّل سورة البقرة وغيرها من نظرائها وما سورة يونس ببعيد.

{ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ }

{ **كِتَابٌ** } تنكيره مماثل لما في قوله {كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ} [الأعراف:2]. والمعنى، أنّ القرآن كتاب من عند الله

فلماذا يعجب المشركون من ذلك ويكذّبون به. فهو مبتدأ، سوغ الابتداء ما فيه من التنكير للنوعيّة، و{مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} خبر و{أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ} صفة للكتاب.

الإحكام: إتقان الصنع، مشتقّ من الحِكْمة (بكسر الحاء وسكون الكاف). وهي إتقان الأشياء بحيث تكون سالمة من الأخلال التي تعرض لنوعها، أي جعلت آياته كاملة في نوع الكلام . وتقدّم عند قوله تعالى {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ} [آل عمران:7].

آيات القرآن: الجمل المستقلّة بمعانيها المختتمة بفواصل. وقد تقدّم وجه تسمية جمل القرآن بالآيات عند قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } [البقرة:39]، وفي المقدّمة الثامنة من مقدّمات هذا التفسير.

التفصيل: التوضيح والبيان. وهو مشتقّ من الفصل بمعنى التفريق بين الشيء وغيره بما يميّزه، فصار كناية مشهورة عن البيان لما فيه من فصل المعاني. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } [الأنعام:55]. ونظيره، **الفرق**، كني به عن البيان فسمّي القرآن فرقانا. وعن النصر فسمي يوم بدر يوم الفرقان، ومنه في ذكر ليلة القدر { فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ } [الدخان: 4].

{ **مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** } أي من عند الموصوف بإبداع الصنع لحكمته، وإيضاح التبيين لقوّة علمه.

الخبير: العالم بخفايا الأشياء، وكلّما كثرت الأشياء كانت الإحاطة بها أعزّ.

فالحكيم مقابل لـ {أُحْكِمَتْ} ، والخبير مقابل لـ {فُصِّلَتْ} . وهما وإن كانا متعلّق العلم ومتعلّق القدرة، إذ القدرة لا تجري إلّا على وفق العلم، إلّا أنّه روعي في المقابلة الفعل الذي هو أثر إحدى الصفتين أشد تبادرا فيه للنّاس من الآخر وهذا من بليغ المزاوجة.

{ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ }[2]

هذه الجملة تفسيريّة لما أحكم من الآيات، لأنّ النهي عن عبادة غير الله وإيجاب عبادة الله هو أصل الدين، وإليه مرجع جميع الصفات التي ثبتت لله تعالى بالدليل، وهو الذي يتفرّع عنه جميع التفاصيل، ولذلك تكرّر الأمر بالتوحيد والاستدلال عليه في القرآن.

{ **أَلَّا تَعْبُدُوا** } الخطاب وضمائر الخطاب التي بعده موجّهة إلى الذين لم يؤمنوا، وهم كلّ من يسمع هذا الكلام المأمور بإبلاغه إليهم.

{ **إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** } معترضة بين { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ } [1] و{ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ } [3]، وهو اعتراض للتحذير من مخالفة النهي والتحريض على امتثاله.

{ **نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** } هو جامع عمل الرّسول ﷺ في رسالته، فهو بشير لمن آمن وأطاع، ونذير لمن أعرض

وعصى، وذلك أيضا جامع للأصول المتعلّقة بالرّسالة وأحوال الرّسل وما أخبروا به من الغيب فاندرج في ذلك العقائد السمعية، وهذا عين الإحكام.

{ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ } [3]

عطف على { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ } [2] وهو تفسير ثان يرجع إلى ما في الجملة الأولى من لفظ التفصيل، فهذا ابتداء التفصيل لأنّه بيان وإرشاد لوسائل نبذ عبادة ما عدا الله تعالى، ودلائل على ذلك وأمثال ونذر.

الاستغفار: طلب المغفرة، أي طلب عدم المؤاخذة بذنب مضى، وذلك الندم.

التوبة: الإقلاع عن الذنب، والعزم على أن لا يعود إليه.

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي، لأنّ الاعتراف بفساد ما هم فيه من عبادة الأصنام أهمّ من طلب المغفرة، فإنّ تصحيح العزم على عدم العودة إليها هو مسمّى التوبة، وهذا ترغيب في نبذ عبادة الأصنام وبيان لما في ذلك من الفوائد في الدنيا والآخرة.

المتاع: اسم مصدر التمتيع لما يتمتّع به، أي ينتفع. ويطلق على منافع الدنيا. و تقدّم عند قوله تعالى {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [الأعراف:24]. والمراد بالمتاع هنا، الإبقاء، أي الحياة، والمعنى أنّه لا يستأصلهم. ووصفه بـ { **حَسَناً** } لإفادة أنّها حياة طيبة.

{ **إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً** } متعلق بـ {يُمَتِّعْكُمْ} وهو غاية للتمتيع، وذلك موعظة وتنبيه على أنّ هذا المتاع له نهاية. والمقصود بالأجل: أجل كلّ واحد وهو نهاية حياته.

{ **وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ** } عطف على { يُمَتِّعْكُمْ } .

الإيتاء: الإعطاء، وذلك يدلّ على أنّه من المتاع الحسن، فيعلم أنّه إعطاء نعيم الآخرة.

الفضل: إعطاء الخير. سمّي فضلا لأنّ الغالب أنّ فاعل الخير يفعله بما هو فاضل عن حاجته، ثم تنوسي ذلك فصار الفضل بمعنى إعطاء الخير.

الفضل الأول: العمل الصالح، بقرينة مقابلته بفضل الله الغنيّ عن النّاس.

الفضل الثاني المضاف إلى ضمير الجلالة هو ثواب الآخرة، بقرينة مقابلته بالمتاع في الدنيا.

والمعنى: ويؤت الله فضله كل ذي فضل في عمله. وضبط ذلك لا يعلمه إلّا الله، وهو سر بين العبد وربه.

{ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ }

من تمام ما جاء تفسيرا لـ {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ} وهو مما أوحي به إلى الرّسول ﷺ أن يبلّغه إلى النّاس.

تولّوا: أصله تتولّوا، حذفت إحدى التائين تخفيفا.

{ إِنْ } أداة التأكيد هذه، مع مجيء المسند إليه فيها اسما مخبرا عنه بالجملة الفعلية لقصد شدّة تأكيد توقع العذاب.

{ يَوْمٍ } التنكير للتهويل، لتذهب نفوسهم للاحتمال الممكن أن يكون يوما في الدنيا أو في الآخرة، لأنّهم كانوا ينكرون الحشر، فتخويفهم بعذاب الدنيا أوقع في نفوسهم.

{ كَبِيرٍ } لزيادة تهويله، والمراد بالكبر الكبر المعنوي، وهو شدّة ما يقع فيه، أعني العذاب، فوصف اليوم بالكبر مجاز عقلي.

{ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[4]

جملة في موضع التعليل للخوف عليهم، فلذلك فصلت. والمعنى: أنّكم صائرون إلى الله، أي إلى قدرته غير منفلتين منه فهو مجازيكم على تولّيكم عن أمره.

المرجع: مصدر ميمي بمعنى الرجوع. وهو مستعمل كناية عن لازمه العرفي وهو عدم الانفلات وإن طال الزمن، وذلك شامل للرجوع بعد الموت. ولكنّه هنا أنسب بالمصير الدنيوي لأنّه المسلم عندهم لقوله {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. لأنّ القدرة يوم القيامة غير محتاجة للتنصيص لو آمنوا بالمصير الأخروي.

وتقديم المجرور على عامله للاهتمام والتقوّي، وليس المراد منه الحصر.

{ **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } أي فما ظنّكم برجوعكم إلى القادر على كلّ شيء وقد عصيتم أمره.

{ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }[5]

حُوّل أسلوب الكلام عن مخاطبة النبيء ﷺ، بما أمر بتبليغه، إلى إعلامه بحال من أحوال الذين أمر بالتبليغ إليهم في جهلهم بإحاطة علم الله تعالى بكلّ حال. فقدّم لذلك إبطال وهم من أوهام أهل الشرك أنّهم في مكنة من إخفاء بعض أحوالهم عن الله تعالى.

{ **أَلا** } حرف تنبيه للاهتمام بمضمونه لغرابة أمرهم المحكي، وللعناية بتعليم إحاطة علم الله تعالى.

وضمائر الجماعة الغائبين عائدة إلى المشركين الذين أُمر النبيء ﷺ بالإبلاغ إليهم في قوله { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ} [2] وليس بالتفات. وضمائر الغيبة للمفرد عائدة إلى اسم الجلالة في قوله {إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ} [4].

الثني: الطيّ، وأصل اشتقاقه من اسم الاثنين. يقال: ثَنَاه (بالتخفيف)، إذا جعله ثانيا، يقال: هذا واحد فاثْنِه، أي كن ثانيا له، فالذي يطوي الشيء يجعل أحد طاقيه ثانيا للذي قبله.

فثني الصدور: إمالتها وحنيها تشبيها بالطيّ. ومعنى ذلك **الطأطأة**. وهذا الكلام يحتمل الإجراء على حقيقة ألفاظه من ثني صدور والطأطأة. ويحتمل أن يكون تمثيلا لهيئة نفسية بهيئة حسيّة.

وقد روي أنّ الآية أشارت إلى ما يفعله المشركون أنّ أحدهم يدخل بيته ويرخي الستر عليه ويستغشي ثوبه ويحني ظهره ويقول: هل يعلم الله ما في قلبي؟ وذلك من جهلهم بعظمة الله.

وعلى الاحتمال الثاني فهو تمثيل لحالة إضمارهم العداوة للنبيء ﷺ في نفوسهم وتمويه ذلك عليه وعلى المؤمنين به بحال من يثني صدره ليخفيه ومن يستغشي ثوبه على ما يريد أن يستره به. ففي (أسباب النزول) للواحدي أنّها نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة وكان رجلا حلو المنطق، وكان يظهر المودة للنبي ﷺ وهو منطو على عداوته، أي عداوة الدين، فضرب الله ثني الصدور مثلا لإضماره بغض النبيء ﷺ. فهو تمثيل وليس بحقيقة.

الاستخفاء: الاختفاء، فالسين والتاء فيه للتأكيد، مثل استجاب واستأخر.

{ **أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** } يجوز أن تكون إتماما لجملة { أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ} فيكون حرف { أَلا } الثاني تأكيدا لنظيره لزيادة تحقيق الخبر، وتكون الحالة الموصوفة حالة واحدة مركّبة من ثني الصدور واستغشاء الثياب.

الاستغشاء: التغشّي بما يُغْشِي، أي يستر، فالسين والتاء فيه للتأكيد، مثل قوله { وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ } [نوح:7].

{ **وَمَا يُعْلِنُونَ** } لدفْع توهّم علمه بالخفيّات دون الظاهر.

{ **إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** } نتيجة وتعليل للجملة قبله، أي يعلم سرّهم وجهرهم، لأنّه شديد العلم بالخفيّ في النفوس وهو يعلم الجهر بالأولى.

ذات الصدور: الأشياء المستقرّة في النفوس التي لا تعدوها، فأضيفت إليها. لأنّ العرب يعبّرون عن الحواس الباطنيّة بالصدر.

{ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[6]

عطف على {يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [5]. والتقدير: وما من دابة إلّا يعلم مستقرّها ومستودعها، وإنّما نظم الكلام على هذا الأسلوب تفنّنا لإفادة التنصيص على العموم بالنفي المؤكّد ب {من} ، ولإدماج تعميم رزق الله كلّ دابة في الأرض في أثناء إفادة عموم علمه بأحوال كلّ دابة، فلأجل ذلك أخّر الفعل المعطوف لأنّ في التذكير بأنّ الله رازق الدواب التي لا حيلة لها في الاكتساب استدلالا على أنّه عليم بأحوالها.

الدابة: اسم لما يدبّ أي يمشي على الأرض غير الإنسان.

{ **فِي الْأَرْضِ** } تأكيد لمعنى {دَابَّةٍ} في التنصيص على أنّ العموم مستعمل في حقيقته.

{ **عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** } لإفادة القصر، أي على الله لا على غيره، ولإفادة معنى أنّ الله تكفّل برزقها ولم يهمله،

لأنّ (على) تدلّ على اللزوم والمحقوقيّة، ومعلوم أنّ الله لا يلزمه أحد شيئا، فما أفاد معنى اللزوم، فإنما هو التزامه بنفسه بمقتضى صفاته المقتضية ذلك له كما أشار إليه قوله تعالى {وَعْداً عَلَيْنَا} [الأنبياء:104]، وقوله {حَقّاً عَلَيْنَا} [يونس: 103]. وحصر الرزق على الله مجاز عقلي في العرف باعتبار أنّ الله مسبّب ذلك الرزق ومقدّره.

{ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا } أي والله يعلم مستقرّ كلّ دابة ومستودعها. فليس حكم هذه الجملة بداخل في حيّز الحصر.

المستقر: محلّ استقرارها.

المستودع: محل الإيداع، والإيداع: الوضع والدخر. والمراد به مستودعها في الرحم قبل بروزها إلى الأرض كقوله { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ } [الأنعام:98].

{ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } أي كلّ رزقها ومستقرها ومستودعها في كتاب مبين، أي كتابة. وهو مستعمل في تقدير العلم وتحقيقه، بحيث لا يقبل زيادة ولا نقصانا ولا تخلّفا. كما أنّ الكتابة يقصد منها أن لا يزاد في الأمر ولا ينقص ولا يبطل.

المبين: اسم فاعل أبان بمعنى أظهر، وهو تخييل لاستعارة الكتاب للتقدير.

{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } [7]

{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً }

عطف على {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} [6]. والمناسبة أنّ خلق السماوات والأرض من أكبر مظاهر علم الله وإتقان الصنع. فالمقصود من هذا الخبر لازمه وهو الاعتبار بسعة علمه وقدرته.

{ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ } والمعنى أنّ العرش كان مخلوقا قبل السماوات وكان محيطا بالماء أو حاويا للماء. وحمل العرش على أنّه ذات مخلوقة فوق السماوات هو ظاهر الآية. وذلك يقتضي أنّ العرش مخلوق قبل ذلك وأنّ الماء مخلوق قبل السماوات والأرض. وتفصيل ذلك وكيفيّته وكيفيّة الاستعلاء ممّا لا قبل للأفهام به إذ التعبير عنه تقريب.

ويجوز أن يكون المراد من العرش ملك الله وحكمه تمثيلا بعرش السلطان، أي كان ملك الله قبل خلق السماوات والأرض ملكا على الماء.

{ لِيَبْلُوَكُمْ } متعلق ب {خَلَقَ} واللام للتعليل.

البلو: الابتلاء، أي اختبار شيء لتحصيل علم بأحواله، وهو مستعمل كناية عن ظهور آثار خلقه تعالى للمخلوقات، لأنّ حقيقة البلو مستحيلة على الله لأنّه العليم بكّل شيء، فلا يحتاج إلى اختباره.
وجعل البلو علّة لخلق السماوات والأرض لكونه من حكمة خلق الأرض، باعتبار كون الأرض من مجموع هذا الخلق، ثم إنّ خلق الأرض يستتبع خلق ما جعلت الأرض عامرة به، واختلاف أعمال المخاطبين من جملة الأحوال التي اقتضاها الخلق، فكانت من حكمة خلق السماوات والأرض، وكان التعليل هنا بمراتب كثيرة، وعلّة العلة علّة.
وفي الآية إشارة إلى أنّ من حكمة خلق الأرض صدور الأعمال الفاضلة من شرف المخلوقات فيها. ثم إنّ ذلك يقتضي الجزاء على الأعمال إكمالا لمقتضى الحكمة ولذلك أعقبت بقوله {وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ}.
{ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ }
وجه جعلها جملة شرطية إفادة تجدّد التكذيب عند كل إخبار بالبعث. وتأكيد الجملة باللام الموطّئة للقسم وما يتبعه من نون التوكيد لتنزيل السامع منزلة المتردّد في صدور هذا القول منهم لغرابة صدوره من العاقل، فيكون التأكيد القويّ والتنزيل مستعملا في لازم معناه وهو التعجيب من حال الذين كفروا أن يحيلوا إعادة الخلق وقد شاهدوا آثار بدء الخلق وهو أعظم وأبدع.
ومعنى الإخبار عن القول بأنّه سحر أنّهم يزعمون أنّه كلام من قبيل الأقوال التي يقولها السحرة لخصائص تؤثّر في النفوس. ووجه جعلهم هذا القول سحرا أنّ في معتقداتهم وخرافاتهم أنّ من وسائل السحر الأقوال المستحيلة والتكاذيب البهتانيّة.
والمعنى أنّهم يكذّبون بالبعث، كلّما أخبروا به، لا يتردّدون في عدم إمكان حصوله بله إيمانهم به.
{ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } أي بيّن واضح أنه سحر أو أنّه ساحر.

{ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ }[8]

مناسبته لما قبله أنّ في كليهما وصف فن من أفانين عناد المشركين وتهكّمهم بالدعوة الإسلاميّة، فإذا خبّرهم الرّسول ﷺ بالبعث وأنّ شركهم سبب لتعذيبهم جعلوا كلامه سحرا، وإذا أنذرهم بعقوبة العذاب على الإشراك استعجلوه، فإذا تأخر عنهم إلى أجل اقتضته الحكمة الربّانيّة استفهموا عن سبب حبسه عنهم، استفهام تهكم، ظنّا أنّ تأخّره عجز.
الأمة: حقيقتها الجماعة الكثيرة من النّاس الذين أمرهم واحد، وتطلق على المدّة كأنّهم راعوا أنّها الأمد الذي يظهر فيه جيل فأطلقت على مطلق المدة، أي **بعد مدّة**.

{ **مَعْدُودَةٍ** } معناه مقدّرة، أي مؤجّلة. وفيه إيماء إلى أنّها ليست مديدة لأنه شاع في كلام العرب إطلاق العدّ والحساب ونحوهما على التقليل، لأن الشيء القليل يمكن ضبطه بالعدد، ولذلك يقولون في عكسه: بغير حساب، مثل { وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [البقرة:212].

الحبس: إلزام الشيء مكانا لا يتجاوزه. ولذلك يستعمل في معنى المنع كما هنا، أي ما يمنع أن يصل إلينا ويحلّ بنا، وهم يريدون التهكّم.

{ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ }

هذه الجملة واقعة موقع الجواب عن كلامهم، إذ يقولون ما يحبس عنّا العذاب، فلذلك فصلت كما تفصل المحاورة. وهذا تهديد وتخويف بأنّه لا يصرف عنهم ولكنّه مؤخّر.

{ **أَلَا** } افتتح الكلام بحرف التنبيه للاهتمام بالخبر لتحقيقه وإدخال الروع في ضمائرهم.

الصرف: الدفع والإقصاء.

الحوق: الإحاطة. والمعنى أنّه حالٌ بهم حلولا لا مخلّص منه بحال. وصيغة الماضي مستعملة في معنى التحقّق. وهذا عذاب القتل يوم بدر.

{ **مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } هو العذاب، فإن ذكر العذاب كان سببا لاستهزائهم حين توعّدهم به النبيء ﷺ.

{ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ }[9]

لمّا ذكر أنّ ما هم فيه متاع إلى أجل معلوم عند الله. وأنّهم بطروا نعمة التمتيع فسخروا بتأخير العذاب، بيّنت هذه الآية أنّ أهل الضلالة راسخون في ذلك. فشأنهم أنّهم إن حلّت بهم الضراء بعد النعمة ملكهم اليأس من الخير ونسوا النعمة فجحدوها وكفروا منعمها، فإنّ تأخير العذاب رحمة وإتيان العذاب نزع لتلك الرحمة، وهذه الجملة في قوة التذييل.

{ **الْإِنْسَانَ** } تعريف الجنس مراد به الاستغراق، وبذلك اكتسبت الجملة قوة التذييل. فمعيار العموم الاستثناء في قوله تعالى {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [11] كما يأتي، فيكون الاستغراق عرفيّا جاريا على اصطلاح القرآن من إطلاق لفظ الإنسان أو النّاس، ولأن وصفي {يَؤُوسٌ كَفُورٌ} يناسبان المشركين فيتخصّص العام بهم.

الإذاقة، مستعملة في إيصال الإدراك على وجه المجاز، واختيرت مادة الإذاقة لما تشعر به من إدراك أمر محبوب لأنّ المرء لا يذوق إلّا ما يشتهيه.

الرحمة، أريد بها رحمة الدنيا. وأطلقت على أثرها وهو النعمة كالصحة والأمن والعافية، والمراد النعمة السابقة قبل نزول الضرّ.

النزع، حقيقته خلع الثوب عن الجسد. واستعمل هنا في سلب النعمة على طريقة الاستعارة، ولذلك عدّي بحرف (من) دون (عن)، لأنّ المعنى على السلب والافتكاك.

{ **إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ** } جواب القسم، وجردت من الافتتاح باللام استغناء عنها بحرف التوكيد وبلام الابتداء في خبر (إنّ).

اليؤوس والكفور، مثالا مبالغة في الآيس وكافر النعمة، أي جاحدها. والمراد بالكفور منكر نعمة الله لأنّه تصدر منه أقوال وخواطر من السخط على ما انتابه كأنّه لم ينعم عليه قطّ.

{ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ } [10]

تتميم للتي قبلها لأنّها حكت حالة ضدّ الحالة في التي قبلها، وهي جملة قسم وشرط وجواب قسم كما تقدّم في نظائرها.

النعماء، بفتح النون وبالمد، النعمة. واختير هذا اللفظ هنا وإن كان لفظ النعمة أشهر لمحسن رعي النظير في زنة اللفظين: النعماء والضراء. والمراد هنا النعمة الحاصلة بعد الضرّاء.

المسّ، مستعمل في مطلق الإصابة على وجه المجاز. واختيار فعل المس بالنسبة إلى إدراك الضرّاء إيماء إلى أن إصابة الضرّاء أخفّ من إصابة النعماء، وأن لطف الله شامل لعباده في كل حال.

وأكدت الجملة باللام الموطئة للقسم وبنون التوكيد في جملة جواب القسم لمثل الغرض الذي بيّنّاه في الجملة السابقة.

{ **لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي** } للإشارة إلى اعتقاد كلّ واحد أنّه حقيق بأن تذهب عنه السيئات غرورا منه بنفسه.

{ **إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ** } استئناف ابتدائي للتعجيب من حاله، أي لشديد الفرح شديد الفخر.

شدة الفرح: تجاوزه الحدّ وهو البطر والأشَر.

الفخر: تباهي المرء على غيره بما له من الأشياء المحبوبة للنّاس.

{ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ }[11]

احتراس باستثناء من { **الْإِنْسَانَ** } [9]. والمراد بالذين صبروا المؤمنون بالله، لأنّ الصبر من مقارنات الإيمان، فإنّ الإيمان يروّض صاحبه على مفارقة الهوى ونبذ معتاد الضلالة. قال تعالى {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 3].

ومن معاني الصبر انتظار الفرج ولذلك أوثر هنا وصف { صَبَرُوا } دون { آمَنُوا } لأن المراد مقابلة حالهم

بحال الكفار في قوله {إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ} [9]. ودلّ الاستثناء على أنّهم متّصفون بضدّ صفات المستثنى منهم. وقد نسجت الآية على هذا المنوال من الإجمال لتذهب نفوس السامعين من المؤمنين في طرق الحذر من صفتي اليأس وكفران النعمة، ومن صفتي الفرح والفخر كل مذهب ممكن.

{ **أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** } مستأنفة ابتدائية. والإتيان باسم الإشارة تنبيه على أنّهم استحقّوا ما يذكر بعد اسم الإشارة لأجل ما ذكر قبله من الأوصاف.

{ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } [12]

تفريع على { وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ - إلى قوله - يَسْتَهْزِئُونَ} [7، 8] من ذكر تكذيبهم وعنادهم. يشير هذا التفريع إلى أنّ مضمون الكلام المفرّع عليه سبب لتوجيه هذا التوقّع، لأنّ من شأن المفرّع عليه اليأس من ارعوائهم لتكرر التكذيب والاستهزاء، يأسا قد يبعث على ترك دعائهم، فذلك كلّه أفيد بفاء التفريع.

{ **فَلَعَلَّكَ** } للتوقّع، مستعمل في تحذير مَنْ شأنه التبليغ. ويجوز أن يقدّر استفهام حذفت أداته. والتقدير: ألعلك تارك. نظير قوله تعالى {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 3]. والاستفهام كناية عن بلوغ الحالة حدّا يوجب توقع الأمر المستفهم عنه.

وهذا أسلوب يقصد به التحريك من همّة المخاطب وإلهاب همّته لدفع الفتور عنه، فليس في هذا تجويز ترك النبيء ﷺ تبليغ بعض ما يوحى إليه.

{ **تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ** } هو ما فيه دعوتهم إلى الإيمان وإنذارهم بالعذاب وإعلامهم بالبعث كما يدلّ عليه قوله تعالى في آية أخرى { وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا } [الأعراف: 23]. والمعنى تحذيره من التأثّر بعنادهم وتكذيبهم واستهزائهم، ويستتبع ذلك تأييس المشركين من تركه ذكر البعث والإنذار بالعذاب. فالخطاب مستعمل في حقيقته ومراد منه مع ذلك علم السامعين بمضمونه.

{ **وَضَائِقٌ** } اسم فاعل من ضاق. وإنّما عدل عن (ضيّق) لمراعاة النظير { تَارِكٌ } لأنّ ذلك أحسن فصاحة. ولأنّ {ضَائِقٌ} لا دلالة فيه على تمكّن وصف الضيق من صدره بخلاف ضيّق، إذ هو صفة مشبّهة وهي دالة على تمكّن الوصف من الموصوف، وإيماء إلى أنّ أقصى ما يتوهّم توقعه في جانبه ﷺ هو ضيق قليل يعرض له. والضيق مستعمل مجازا في الغمّ والأسف، كما استعمل ضدّه وهو الانشراح في الفرح والمسرّة.

{ **بِهِ صَدْرُكَ** } الباء للسببية، والضمير المجرور بالباء عائد على ما بعده وهو {أَنْ يَقُولُوا}. فيكون تحذيرا من أن يضيق صدره لاقتراحهم الآيات بأن يقولوا {لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ} ، ويحصل مع ذلك

التحذير من أن يضيق صدره من قولهم {إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [هود: 7]، ومن قولهم: ما يحبس العذاب عنا.

ومعظم المفسّرين جعلوا ضمير {بِهِ} عائدا إلى {بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ} . على أن ما يوحى إليه سبب لضيق صدره، أي لا يضيق له صدرك. وليس المعنى عليه بالمتين.

{ **لَوْلا** } : للتحضيض.

الكنز: المال المكنوز أي المخبوء.

إنزاله: إتيانه من مكان عال، أي من السماء.

وهذا القول صدر من المشركين قبل نزول هذه الآية فلذلك فالفعل المضارع مراد به تجدّد هذا القول وتكرّره منهم بقرينة العلم بأنّه صدر منهم في الماضي، وبقرينة التحذير من أن يكون ذلك سببا في ضيق صدره لأنّ التحذير إنّما يتعلق بالمستقبل.

{ **أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ** } أن يجيء ملك من الملائكة شاهدا برسالته، وهذا من جهلهم بحقائق الأمور وتوهّمهم أنّ الله يعبأ بإعراضهم ويتنازل لإجابة مقترح عنادهم، ومن قصورهم عن فهم المعجزات الإلهية ومدى التأييد الرباني.

{ **إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ** } في موقع العلّة للتحذير من تركه بعض ما يوحى إليه وضيق صدره من مقالتهم. فكأنّه قيل لا تترك إبلاغهم بعض ما يوحى إليك ولا يضق صدرك من مقالهم لأنّك نذير لا وكيل على تحصيل إيمانهم، حتّى يترتّب على يأسك من إيمانهم ترك دعوتهم.

{ **إِنَّمَا** } قصر إضافي، أي أنت نذير لا موكل بإيقاع الإيمان في قلوبهم إذ ليس ذلك إليك بل هو الله. وفيه تعريض بالمشركين برد اعتقادهم أنّ الرّسول يأتي بما يسأل عنه من الخوارق فإذا لم يأتهم به جعلوا ذلك سندا لتكذيبهم إيّاه. ردّا حاصلا من مستتبعات الخطاب، كما تقدم عند قوله تعالى {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ} إذ كثر في القرآن ذكر نحو هذه الجملة في مقام الرد على المشركين والكافرين الذين سألوا الإتيان بمعجزات على وفق هواهم.

{ **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** } أي أنّ الله وكيل على قلوب المكذّبين وهم المقصود، وإنّما جاء الكلام بصيغة العموم ليكون تذييلا وإتيانا للغرض بما هو كالدليل، ولينتقل من ذلك العموم إلى تسلية النبيء ﷺ بأنّ الله مطّلع على مكر أولئك، وأنّه وكيل على جزائهم وأنّ الله عالم ببذل النبيء جهده في التبليغ.

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [13]

{ أَمْ } هذه منقطعة بمعنى (بل) التي للإضراب، للانتقال من غرض إلى آخر، إلّا أنّ "أم" مختصة بالاستفهام فتقدّر بعدها همزة الاستفهام. والتقدير: بل أيقولون افتراه. والمناسبة ظاهرة، لأن الكلام في إبطال مزاعم المشركين، فإنهم قالوا: هذا كلام مفترى، وقرّعهم بالحجّة. والاستفهام إنكاري.

{ **افْتَرَاهُ** } الضمير المستتر عائد إلى النبيء ﷺ. وضمير الغائب البارز المنصوب عائد إلى القرآن المفهوم من قوله: {بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ} [12]. و **الافتراء**: الكذب الذي لا شبهة لصاحبه، فهو الكذب عن عمد.

{ **قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** } جواب لكلامهم فلذلك فصلت على ما هو مستعمل في المحاورة سواء كانت حكاية المحاورة بصيغة حكاية القول أو كانت أمرا بالقول.

الإتيان بالشيء: جلبه، سواء كان بالاسترفاد من الغير أم بالاختراع من الجالب وهذا توسعة عليهم في التحدّي.

{ **بِعَشْرِ سُوَرٍ** } تحدّاهم هنا بأن يأتوا بعشر سور خلاف ما تحدّاهم في غير هذا المكان بأن يأتوا بسورة مثله، كما في سورة البقرة وسورة يونس. فقال ابن عباس وجمهور المفسّرين: كان التحدّي أوّل الأمر بأن يأتوا بعشر سور مثل القرآن. وهو ما وقع في سورة هود، ثم نسخ بأن يأتوا بسورة واحدة كما وقع في سورة البقرة وسورة يونس. فتخطى أصحاب هذا القول إلى أن قالوا إنّ سورة هود نزلت قبل سورة يونس.

{ **مُفْتَرَيَاتٍ** } مفتريات المعاني كما تزعمون على القرآن، أي بمثل قصص أهل الجاهلية وتكاذيبهم. وهذا من إرخاء العنان والتسليم الجدلي.

{ **وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ** }

الدعاء: النداء لعمل. وهو مستعمل في الطلب مجازا ولو بدون نداء. وحذف المتعلق لدلالة المقام، أي وادعوا لذلك.

{ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** } وصف لـ {مَنِ اسْتَطَعْتُمْ} ، ونكتة ذكر هذا الوصف التذكير بأنّهم أنكروا أن يكون من عند الله.

{ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** } في قولكم {افْتَرَاهُ} ، وجواب الشرط هو قوله {فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ} . ووجه الملازمة بين الشرط وجزائه أنه إذا كان الافتراء يأتي بهذا القرآن فما لكم لا تفترون أنتم مثله فتنهض حجتكم.

{ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[14]

تفريع على {وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ} [13]، أي فإن لم يستجب لكم من تدعو لهم فأنتم أعجز منهم.

الاستجابة: الإجابة، والسين والتاء فيه للتأكيد. وهي مستعملة في المعاونة والمظاهرة على الأمر المستعان فيه، وهي مجاز مرسل لأنّ المعاونة تنشأ عن النداء إلى الإعانة غالبا، فإذا انتدب المستعان به إلى الإعانة أجاب النداء بحضوره فسميت استجابة.

العلم: الاعتقاد اليقين، أي فأيقنوا أنّ القرآن ما أنزل إلّا بعلم الله. أي لأثر العلم. وقد أفادت (إنّما) الحصر.

{ وَأَنْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } عطف على {مَا أُنْزِلَ} لأنّهم إذا عجزوا فقد ظهر أنّ من استنصروهم لا يستطيعون نصرهم.

{ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } الفاء للتفريع على {فَاعْلَمُوا} . والاستفهام مستعمل في الحثّ على الفعل وعدم تأخيره والمعنى: فهل تسلمون بعد تحقّقكم أنّ هذا القرآن من عند الله.

وجيء بالجملة الاسمية الدالة على دوام الفعل وثباته.

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ [15] أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [16]

تحذير من أن يغترّوا بالمتاع العاجل، وإعلام بأنّ وراء ذلك العذاب الدائم، وأنّهم على الباطل. فالمقصود من هذا الكلام هو الجملة الثانية، { أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ }، وما قبل ذلك تمهيد وتنبيه على بوارق الغرور ومزالق الذهول.

ولمّا كان ذلك هو حالهم كان في هذا الاعتراض زيادة بيان لأسباب مكابرتهم وبعدهم عن الإيمان، وفيه تنبيه المسلمين بأن لا يغترّوا بظاهر حسن حال الكافرين في الدنيا، وأن لا يحسبوا أيضا أنّ الكفر يوجب تعجيل العذاب، فأوقظوا من هذا التوهّم، كما قال تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران: 196، 197].

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا } وفعل الشرط في المقام الخطابي يفيد اقتصار الفاعل على ذلك الفعل. فالمعنى، من كان لا يطلب إلّا منافع الحياة وزينتها. وهذا لا يصدر إلّا عن الكافرين، لأنّ المؤمن لا يخلو من إرادة خير الآخرة وما آمن إلّا لذلك.

{ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا }

التوفية: إعطاء الشيء وافيا، أي كاملا غير منقوص، أي نجعل أعمالهم في الدنيا وافية. فالمراد أنّهم لا يُنقصون من لذاتهم التي هيّأوها لأنفسهم على اختلاف طبقاتهم في التمتّع بالدنيا، بخلاف المؤمنين فإنّهم تتهيأ

لهم أسباب التمتّع بالدنيا على اختلاف درجاتهم في ذلك التهيؤ فيتركون كثيرا من ذلك لمراعاتهم مرضاة الله تعالى وحذرهم من تبعات ذلك في الآخرة على اختلاف مراتبهم في هذه المراعاة. فكأنه قيل نتركهم وشأنهم.

{ **وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ** } أي في الدنيا لا يجازون على كفرهم بجزاء سلب بعض النعم عنهم بل يتركون وشأنهم استدراجا لهم وإمهالا. فهذا كالتكملة.

البخس: هو الحطّ من الشيء والنقص منه على ما ينبغي أن يكون عليه ظلما.

وفي هذه الآية دليل لما رآه الأشعري أنّ الكفر لا يمنع من نعمة الله.

{ **فِيهَا** } يجوز أن يعود إلى {الْحَيَاةَ} وأن يعود إلى { أَعْمَالَهُمْ }.

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ** } مستأنفة، وفي اسم الإشارة تنبيه على أنّ المشار إليه استحقّ ما يذكر بعد اختياره من الحكم من أجل الصفات التي ذكرت قبل اسم الإشارة.

{ **إِلَّا النَّارُ** } استثناء مفرّغ من { لَيْسَ لَهُمْ } أي ليس لهم شيء مما يعطاه النّاس في الآخرة إلّا النار.

{ **وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** }

الحبط: البطلان، أي الانعدام.

{ **مَا صَنَعُوا** } ما عملوا، من الإحسان في الدنيا كإطعام العُفاة ونحوه من مواساة بعضهم بعضا، ولذلك عبر هنا بـ {صَنَعُوا} لأنّ الإحسان يسمى صنيعة.

{ **فِيهَا** } يجوز أن يعود إلى {الدُّنْيَا}. ويجوز أن يعود إلى {الْآخِرَةِ}، أي انعدم أثره.

والكلام تنبيه على أنّ حظّهم من النعمة هو ما يحصل لهم في الدنيا، وأنّ رحمة الله بهم لا تعدو ذلك. وقد قال النبيء ﷺ لعمر لمّا ذكر له فارس والروم وما هم فيه من المتعة: " أولئك عجّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا"

الباطل: الشيء الذي يذهب ضياعا وخسرانا.

{ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ } [17]

أغلقت معاني هذه الآية لكثرة الاحتمالات التي تعتورها من جهة معاد الضمائر واسم الإشارة، ومن جهة إجمال المراد من الموصول، وموقع الاستفهام، وموقع فاء التفريع.

والذي تخلّص لي من ذلك، وممّا فتح الله به ممّا هو أوضح وجها وأقرب بالمعنى المقصود شبها:

{ **أَفَمَنْ** } الفاء للتفريع على { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ - إلى قوله - فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [13، 14] وأنّ ما بينهما اعتراض لتقرير توغّلهم في المكابرة وابتعادهم عن الإيمان، وهذا التفريع تفريع الضدّ على ضدّه في إثبات

ضدّ حكمه له. أي إن كان حال أولئك المكذّبين كما وصف فثمّ قوم هم بعكس حالهم قد نفعتهم البيّنات والشواهد، فهم يؤمنون بالقرآن وهم المسلمون. أي كما أسلم من كانوا على بيّنة من ربهم منكم ومن أهل الكتاب.

والهمزة للاستفهام التقريري، أي إن كفر به هؤلاء أفيؤمن به من كان على بيّنة من ربّه.

{ **مَنْ كَانَ** } لا يراد بها شخص معين. فكلمة (**مَنْ**) هنا تكون كالمعرّف بلام العهد الذهني صادقة على من تحققت له الصلة، أعني أنّه على بينة من ربه. وبدون ذلك لا تستقيم الإشارة. وإفراد الضمائر مراعاة للفظ (من) الموصولة وذلك أحد استعماليها. والجمع في قوله { أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ } مراعاة لمعنى (من) الموصولة وذلك استعمال آخر. والتقدير: أفمن كانوا على بيّنة من ربهم أولئك يؤمنون به.

{ **عَلَى بَيِّنَةٍ** } يجوز أن يكونوا النصارى فقط، فإنّهم كانوا منتشرين في العرب ويعرف أهل مكّة كثيرا منهم، وهم الذين عرفوا أحقيّة الإسلام مثل ورقة بن نوفل ودحية الكلبي. ويجوز أن يراد النصارى واليهود مثل عبد الله ابن سلام ممّن آمن بعد الهجرة فدلّوا على تمكّنهم من معرفة البيّنة لصحة أفهامهم ولوضوح دلالة البيّنة، فأصحابها مؤمنون بها.

{ **مِنْ رَبِّهِ** } أنّها من وحي الله ووصايته التي أشار إليها قوله تعالى {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النبيءينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ} [آل عمران:81] وقوله {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النبيء الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ} [الأعراف:157].

{ **وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ** }

يتلوه: مضارع التّلو، وهو الاتباع وليس من التلاوة، أي يتبعه. والاتّباع مستعار للتأييد والاقتداء. فإنّ الشاهد بالحقّ يحضر وراء المشهود له.

{ **شَاهِدٌ مِنْهُ** } شاهد من ربّه، أي شاهد من الله، وهو القرآن لأنّه لإعجازه المعاندين عن الإتيان بعشر سور مثله كان حجّة على أنّه آت من جانب الله.

{ **وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً** } وذكر كتاب موسى وأنّه من قبله يشير إلى أنّ البيّنة المذكورة هنا من الإنجيل، ويقوّي أن المراد بـ {مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ} النصارى.

وإذا كان المراد بـ {مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ} النصارى خاصة كان لذكر {كِتَابُ مُوسَى} إيماء إلى أنّ كتاب موسى - عليه السلام - شاهد على صدق محمد ﷺ. ولم يذكر أهل ذلك الكتاب، وهم اليهود، لأنّهم لم يكونوا على بيّنة من ربهم كاملة من جهة عدم تصديقهم بعيسى عليه السلام.

{ **إماما ورحمة** } حالان ثناء على التوراة بما فيها من تفصيل الشريعة، فهو إمام يُهتدى به ورحمة للنّاس يعملون بأحكامها فيرحمهم الله في الدنيا بإقامة العدل وفي الآخرة بجزاء الاستقامة، إذ الإمام ما يؤتمّ به

ويعمل على مثاله.

{ **أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** } أي أولئك الذين كانوا على بيّنة من ربّهم يؤمنون بالقرآن وليسوا مثلكم يا معشر المشركين، وذلك في معنى قوله {فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ} [الأنعام: 89].

{ **به** } عائد إلى القرآن المعلوم من المقام، أو من تقدّم ضميره في قوله {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ} [13].

والباء للتعدية لا للسببيّة، أي يؤمنون بما وصف به القرآن من أنّه من عند الله.

وحاصل معنى الآية وارتباطها بما قبلها {فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [14]، أنّ الذين يؤمنون به هم الذين كانوا على بيّنة من ربّهم مؤيدة بشاهد من ربّهم ومعضودة بكتاب موسى عليه السلام من قبل بيّنتهم.

{ **وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ** } عطف على {أفمن كان على بينة من ربه} لأنّه لمّا حرّض أهل مكّة على الإسلام بقوله {فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [14]، وأراهم القدوة بقوله {أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} ، عاد فحذّر من الكفر بالقرآن والإعراض عما تبيّن لهم من بينة ربهم وشواهد رسله، بأنّ النار موعدهم.

الأحزاب: هم الذين يجمعهم أمر، فالمشركون حزب، واليهود حزب، والنصارى حزب. { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ } [ص: 12، 13].

الموعد: ظرف للوعد من مكان أو زمان. وأطلق هنا على المصير الصائر إليه، لأنّ شأن المكان المعيّن لعمل أن يعيّن به بوعد سابق.

{ **فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** }

تفريع على { وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ } والخطاب للنبيء ﷺ والنهي مستعمل كناية تعريضيّة بالكافرين بالقرآن.

المرية: الشك. وهي مرادفة الامتراء المتقدّم في أوّل الأنعام. وفيه تعريض بأنّ ما فيه المشركون من اليقين بكذب القرآن أشد ذمّا وشناعة.

{ **إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ** } مستأنفة تأكيد لما دلّت عليه جملة { فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ } من أنّه لوضوح حقّيته لا ينبغي أن يمترى في صدقه

{ **الْحَقُّ** } التعريف لإفادة قصر جنس الحقّ على القرآن. وهو قصر مبالغة، لكمال جنس الحقّ فيه حتّى كأنّه لا يوجد حقّ غيره. مثل قولك: حاتم الجواد.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** } الاستدراك ناشئ على حكم الحصر، فإنّ الحصر يقتضي أن يؤمن به كل من بلغه ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون.

الإيمان: هو التصديق بما جاء به الرّسول ﷺ من الدين. وحذف متعلّق {يُؤْمِنُونَ} لأن المراد انتفاء حقيقة الإيمان عنهم في كل ما طلب الإيمان به من الحق.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ [18] الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } [19].

لمّا انقضى الكلام من إبطال زعمهم أنّ النبيء ﷺ افترى القرآن ونسبه إلى الله. وتعجيزهم عن برهان لما زعموه، كرّ عليهم أن قد وضح أنّهم المفترون على الله عدّة أكاذيب، منها نفيهم أن يكون القرآن منزّلا من عنده.

{ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى** } عُطفت على {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [17] لبيان استحقاقهم النّار على كفرهم بالقرآن، وزعمهم أنّ الرّسول ﷺ افتراه، فكانوا بالغين غاية الظلم. والسؤال إنكاري يؤول إلى معنى النفي، أي لا أحد أظلم منهم. وقد تقدم نظيره { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ } [البقرة:114]، وقوله { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ } [الأعراف:37].

وافتراؤهم على الله هو ما وضعوه من دين الشرك، كقولهم: إنّ الأصنام شفعاؤهم عند الله، وقولهم في كثير من أمور دينهم {وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا} [الأعراف: 28].

{ **أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ** } استئناف. وتصديرها باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة من الخبر بسبب ما قبله من الوصف، وهذا أشد الظلم. ولما يؤذن به اسم الإشارة من معنى تعليل ما قبله فيما بعده، أي أنّ عرضهم على ربّهم عرض زجر وانتقام. والمعنى أولئك يعرضون على الله للعقاب.

{ **وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ** } ويعلن الأشهاد بأنّهم كذبوا على ربهم، فضحا لهم.

الأشهاد: جمع شاهد بمعنى حاضر، أو جمع شهيد بمعنى المخبر بما عليهم من الحقّ. وهم من **الملائكة**.

{ **هَؤُلاءِ** } استحضارهم بطريق اسم الإشارة لتمييزهم للنّاس كلّهم، حتّى يشتهر ما سيخبر به عن حالهم، والمقصود من ذلك شهرتهم بالسوء وافتضاحهم.

{ **أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** } والمقصود من إعلان هذه الصفة التشهير والخزي لا إثبات كذبهم لأنّ إثبات ذلك حاصل في صحف أعمالهم، ولذلك لم يسند العرض إلى أعمالهم وأسند إلى ذواتهم، {أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ }. والجملة من بقية قول الأشهاد. وافتتاحها بحرف التنبيه يناسب مقام التشهير. وممّا يؤيّد أنّه من قول الأشهاد وقوع نظيره مصرّحا فيه بذلك {فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [الأعراف:44].

{ **الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ** } تقدم نظيره في [الأعراف:45].

{ **يَبْغُونَهَا** } ضمير المؤنث عائد إلى سبيل الله، لأنّ سبيل يجوز اعتباره مؤنثا.

والمعنى: أنّهم يبغون أن تصير سبيل الله عوجاء. وهنا انتهى كلام الأشهاد لأن نظيره الذي في سورة

الأعراف[44] في قوله {فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} انتهى بما يماثل آخر هذه الآية. واختصت هذه الآية على نظيرها في الأعراف بزيادة {هم} في قوله { هُمْ كَافِرُونَ } وهو توكيد يفيد تقوّي الحكم، لأنّ المقام هنا مقام تسجيل إنكارهم البعث وتقريره، إشعارا بما يترقّبهم من العقاب المناسب فحكي به من كلام الأشهاد ما يناسب هذا، وما في سورة الأعراف حكاية لما قيل في شأن قوم أدخلوا النار وظهر عقابهم فلا غرض لحكاية ما فيه تأكيد من كلام الأشهاد، وكلا المقالتين واقع. وإنّما يحكي البليغ فيما يحكيه ما له مناسبة لمقام الحكاية.

{ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ } [20]

{ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ }

استئناف بياني ناشئ عن الاقتصار في تهديدهم على وصف بعض عقابهم في الآخرة فإن ذلك يثير في نفس السامع أن يسأل: هل هم سالمون من عذاب الدنيا؟ فأجيب بأنّهم لم يكونوا معجزين في الدنيا.

وإعادة الإشارة إليهم بقوله: "أولئك " بعد أن أشير إليهم بقوله {أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِم} لتقرير فائدة اسم الإشارة السابق.

المُعْجِزُ هنا، الذي أفلت ممّن يروم إضراره. وتقدّم بيانه عند قوله تعالى { إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ } [الأنعام:134].

الأرض: الدنيا. وفائدة ذكره أنّهم لا ملجأ لهم من الله لو أراد الانتقام منهم فلا يجدون موضعا من الأرض يستعصمون به. فهذا نفي للملاجئ والمعاقل التي يستعصم فيها الهارب. وعندي أن مقارنة { في الأرض } بـ{ معجزين } جرى مجرى المثل في القرآن.

{ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ }.

يجوز أن يكون المراد بالأولياء الأنصار، أي ما لهم ناصر ينصرهم من دون الله. فجمع لهم نفي سببي النجاة من عذاب القادر؛ وهما المكان الذي لا يصل إليه القادر، أو معارضة قادر آخر يمنعه من تسليط عقابه.

ويجوز أن يراد بالأولياء الأصنام التي تولوها، أي أخلصوا لها المحبة والعبادة.

{ مِنْ دُونِ اللَّهِ } على هذا الوجه بمعنى من غير الله.

{ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ } خبر عن اسم الإشارة. ويجوز أن تكون جملة {لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ} خبرا أولا وجملة {يُضَاعَفُ} خبرا ثانيا. ويجوز أن تكون جملة {لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ} حالا، وجملة {يُضَاعَفُ} خبرا أول.

والعذاب المضاعف هو عذاب الآخرة بقرينة قوله {لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ} المشعر بتأخير العذاب عنهم في الدنيا لا عن عجز.

{ **مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ** } يجوز أن يكون هذا خبرا عن اسم الإشارة أو حالا منه.
{ **مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ** } مستعارة لكراهيتهم سماع القرآن وأقوال النبيء ﷺ.
وعبر هنا بالاستطاعة لأنّ النبيء ﷺ كان يدعوهم إلى استماع القرآن فيعرضون لأنهم يكرهون أن يسمعوه. لأنهم لو سمعوا ووعوا لاهتدوا. لأنّ الكلام المسموع مشتمل على تركيب الأدلة ونتائجها فسماعه كاف فيحصول الاهتداء.
{ **وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ** } هو النظر في المصنوعات الدالة على الوحدانيّة، أي ما كانوا يوجّهون أنظارهم إلى المصنوعات توجيه تأمّل واعتبار بل ينظرون إليها نظر الغافل عما فيها من الدقائق، ولذلك لم يقل هنا: وما كانوا يستطيعون أن يبصروا، لأنهم كانوا يبصرونها ولكن مجرد الإبصار غير كاف في حصول الاستدلال.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [21] لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ } [22]

استئناف، واسم الإشارة هنا تأكيد ثان لاسم الإشارة في قوله {أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ} [18].
{ **الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** } الموصول مراد به الجنس المعروف بهذه الصلة، أي إن بلغكم أنّ قوما خسروا أنفسهم فهم المفترون على الله كذبا، وخسارة أنفسهم عدم الانتفاع بها في الاهتداء، فلمّا ضلوا فقد خسروها.
وتقدّم الكلام على نظيره عند قوله تعالى { الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام:12].
الضلال: خطأ الطريق المقصود.
{ **مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } ما كانوا يزعمونه من أنّ الأصنام تشفع لهم وتدفع عنهم الضرّ عند الشدائد. { فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأحقاف: 28].
{ **لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ** } مستأنفة فذلكة ونتيجة للجمل المتقدمة، لأنّ ما جمع لهم من الزجّ للعقوبة ومن افتضاح أمرهم ومن إعراضهم عن استماع النذر وعن النظر في دلائل الوحدانية يوجب اليقين بأنّهم الأخسرون في الآخرة.
{ **لا جَرَمَ** } كلمة جزم ويقين جرت مجرى المثل، أي لا محالة أو لا بد. ثم يجيء بعدها (أنّ) واسمها وخبرها. والتقدير: لا جرم من أنّ الأمر كذا.
وعبّر عمّا لحقهم من الضرّ بالخسارة استعارة، لأنّه ضرّ أصابهم من حيث كانوا يرجون المنفعة.

{ **هُمُ الْأَخْسَرُونَ** } أي شديدي الخسارة، لأنّهم قد اجتمع لهم من أسباب الشقاء والعذاب ما افترق بين الأمم الضالة. ولأنّهم شقوا من حيث كانوا يحسبونه سعادة قال تعالى { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً } [الكهف: 103، 104] فكانوا أخسرين لأنهم اجتمعت لهم خسارة الدنيا والآخرة.

{ **هُمُ** الْأَخْسَرُونَ } ضمير الفصل يفيد القصر، وهو قصر ادعائي، لأنّهم بلغوا الحد الأقصى في الخسارة، فكأنهم انفردوا بالأخسريّة.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[23]

لمّا ذكر أحوال البالغين أقصى غايات الخسارة ذكر مقابلهم الذين بلغوا أعلى درجات السعادة. فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّ النفوس تشرئبّ عند سماع حكم الشيء إلى معرفة حكم ضدّه.

الإخبات: الخضوع والتواضع، أي أطاعوا ربّهم أحسن طاعة.

{ **أُولَئِكَ** } موقعه هنا مثل موقعه في الآية قبلها.

{ **هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } في موقع البيان لجملة { أَصْحَابُ الْجَنَّةِ } لأنّ الخلود في المكان هو أحقّ الأحوال بإطلاق وصف الصاحب على الحال بذلك المكان إذ الأمكنة لا تقصد إلّا لأجل الحلول فيها، فتكون الجملة مستأنفة لبيان ما قبلها، فمنزلتها منزلة عطف البيان. وقد تقدّم نظيرها في قوله { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة:82].

{ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ }[24]

بعد أن تبيّن الاختلاف بين حال المشركين المفترين على الله كذبا وبين حال الذين آمنوا وعملوا الصالحات في منازل الآخرة أعقب ببيان التنظير بين حالي الفريقين المشركين والمؤمنين بطريقة تمثيل ما تستحقّه من ذمّ ومدح. فالجملة فذلكة للكلام وتحصيل له وللتحذير من مواقعة سببه.

المَثَل: (بالتحريك) الحالة والصفة، أي حالة الفريقين المشركين والمؤمنين تشبه حال الأعمى الأصم من جهة وحال البصير السميع من الجهة الأخرى. فالكلام تشبيه وليس استعارة لوجود كاف التشبيه وهو أيضا تشبيه مفرد لا مركب.

والفريقان هما المعهودان في الذكر في هذا الكلام، وهما فريق المشركين وفريق المؤمنين.

الفريق: الجماعة التي تفارق، أي يخالف حالها حال جماعة أخرى في عمل أو نحلة. وتقدّم عند قوله تعالى

{فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنعام:81]

شبّه حال فريق الكفار في عدم الانتفاع بالنظر في دلائل وحدانيّة الله الواضحة من مخلوقاته بحال الأعمى، وشبّهوا في عدم الانتفاع بأدلة القرآن بحال من هو أصم. وشبّه حال فريق المؤمنين في ضدّ ذلك بحال من كان سليم البصر، سليم السمع فهو في هدى ويقين من مدركاته.

{ **هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً** } واقعة موقع البيان للغرض من التشبيه وهو نفي استواء حالهما، ونفي الاستواء كناية عن التفضيل، والمفضّل منهما معلوم من المقام، أي معلوم تفضيل الفريق الممثل بالسميع والبصير على الفريق الممثل بالأعمى والأصم.

{ **أَفَلا تَذَكَّرُونَ** } الاستفهام إنكاري. والمقصود تنبيه المشركين لما هم فيه من الضلالة لعلّهم يتداركون أمرهم

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ [25] أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ }[26]

انتقال من إنذار المشركين ووصف أحوالهم وما ناسب ذلك إلى موعظتهم بما أصاب المكذّبين قبلهم من المصائب، وفي ذلك تسلية للنبيء ﷺ بما لاقاه الرسل عليهم السلام قبله من أقوامهم.

فالعطف من عطف القصّة على القصّة وهي التي تسمى الواو الابتدائية.

{ **لَقَدْ**} وأكدت الجملة بلام القسم و {قَدْ} لأنّ المخاطبين لمّا غفلوا عن الحذر ممّا حلّ بقوم نوح نزلوا منزلة المنكر لوقوع رسالته.

وتقدم الكلام على نوح - عليه السلام - وقومه عند قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً} [آل عمران:33] وعند قوله {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ } [الأعراف:59].

{ **أَلّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ** } مفسرة لجملة { أَرْسَلْنَا } لأنّ الإرسال فيه معنى القول دون حروفه، ويجوز كونها تفسيرا لـ {نَذِيرٌ} لما في {نَذِيرٌ} من معنى القول.

{ **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ** } تعليل لـ {نَذِيرٌ}، لأن شأن النذارة أن تثقل على النفوس فكانت جديرة بالتعليل لدفع حرج ما يلاقونه.

{ **أَخَافُ عَلَيْكُمْ** } ونحوها مثل أخشى عليك، تستعمل للتوقّع في الأمر المظنون أو المقطوع به باعتبار إمكان الانفلات من المقطوع به.

فيتعدى الفعل بنفسه إلى الخوف منه، ويتعدى إلى المخوف عليه بحرف (على) كما في الآية .

{ **عَذَابَ** } نكرة في المعنى، لأنّه أضيف إلى نكرة فكان محتملا لعذاب الدنيا وعذاب الآخرة. فأما عذاب الدنيا فليس مقطوعا بنزوله بهم ولكنه مظنون من نوح عليه السلام بناء على ما علمه من عناية الله بإيمان قومه

وما أوحي إليه من الحرص في التبليغ، فعلم أن شأن ذلك أن لا يترك من عصوه دون عقوبة. ولذلك قال في كلامه الآتي {إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ} [33] على ما يأتي هنالك. وكان العذاب شاملا لعذاب الآخرة أيضا إن بقوا على الكفر، وهو مقطوع به لأنّ الله يقرن الوعيد بالدعوة، فلذلك قال نوح عليه السلام في كلامه الآتي {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [33]. وقد تبادر إلى أذهان قومه عذاب الدنيا لأنهم لا يؤمنون بالبعث، فلذلك قالوا في كلامهم الآتي {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [32]. ولعل في كلام نوح - عليه السلام - ما تفيدهم أنه توعّدهم بعذاب في الدنيا، وهو الطوفان.

{ **يَوْمٍ أَلِيمٍ** } مجاز عقلي، وهو أبلغ من أن يوصف العذاب بالأليم، لأن شدة العذاب لما بلغت الغاية جعل زمانه أليما، أي مؤلما.

{ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ }[27]

العطف بالفاء للإشارة إلى أنّهم بادروه بالتكذيب والمجادلة الباطلة لمّا قال لهم {إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [25].

الملأ: سادة القوم. وتقدّم عند قوله تعالى {قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الأعراف:60]. لمّا دعاهم نوح - عليه السلام - دعوة علموا منها أنّه يقودهم إلى طاعته ففكّروا وقدّروا فرأوا الأسباب المألوفة بينهم للسؤدد مفقودة من نوح - عليه السلام - ومن الذين اتّعبوه فجزموا بأنّه غير حقيق بالسيادة عليهم فجزموا بتكذيبه فيما ادعاه من الرسالة بسيادة للأمّة وقيادة لها.

البشر: الإنسان ذكرا أو أنثى، واحدا كان أو جمعا. قال الراغب: "عبر عن الإنسان بالبشر اعتبارا بظهور بشرته وهي جلده بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف والشعر والوبر". والبشر مرادف الإنسان فيطلق كما يطلق الإنسان على الواحد والأكثر والمؤنث والمذكر، وقد يثنى { أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا } [المؤمنون: 47].

{ **وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا** } وذلك تعريض بأنّهم لا يتّبعونه لأنّهم يترفّعون عن مخالطة أمثالهم وأنّه لو أبعدهم عنه لاتّبعوه، ولذلك ورد بعده { وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا } [29] .

الأراذل: جمع أرذل المجعول اسما غير صفة كذلك على القياس، أو جمع رذيل على خلاف القياس. والرذيل المحتقر. وأرادوا أنّهم من لفيف القوم غير سادة ولا أثرياء. وكان أتباع نوح عليه السلام من ضعفاء القوم ولكنهم من أزكياء النفوس ممن سبق لهم الهدى.

{ **بَادِيَ** } قرأه الجمهور بياء تحتية في آخره على أنّه مشتق من بدا المقصور إذا **ظهر**. والمعنى، فيما يبدو لهم من الرأي دون بحث عن خفاياه ودقائقه.

وقرأه أبو عمرو وحده بهمزة في آخره على أنه مشتق من **البداء**، وهو أول الشيء. ويكون المعنى: فيما يقع

أول الرأي، أي دون إعادة النظر لمعرفة الحق من التمويه، ومآل المعنيين واحد.
الرأي: نظر العقل، مشتقّ من فعل رأي، كما استعمل رأي بمعنى ظنّ وعلم.
يعنون أن هؤلاء قد غرّتهم دعوتك فتسرّعوا إلى متابعتك ولو أعادوا النظر والتأمّل لعلموا أنك لا تستحق أن تتبع.
{ **وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ** } ولمّا وصفوا كل فريق من التابع والمتبوع بما ينفي سيادة المتبوع وتزكية التابع جمعوا الوصف الشامل لهما. وهو المقصود من الوصفين المفرّقين. فنفوا أن يكون لنوح عليه السلام وأتباعه فضل على الذين لم يؤمنوا به حتّى يكون نوح عليه السلام سيّدا لهم ويكون أتباعه مفضّلين بسيادة متبوعهم.
الفضل: الزيادة في الشرف والكمال، والمراد هنا آثاره وعلاماته لأنّها التي ترى، فجعلوا عدم ظهور فضل لهم عليهم دليلا على انتفاء فضلهم.
{ **بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ** } زعموا نوحا - عليه السلام - كاذبا في دعوى الرسالة وأتباعه كاذبين في دعوى حصول اليقين بصدق نوح - عليه السلام -، بل ذلك منهم اعتقاد باطل، وهذا الظنّ الذي زعموه مستند إلى الدليل المحسوس في اعتقادهم. واستعمل الظنّ هنا في العلم كقوله { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ } وهو إطلاق شائع في الكلام.

{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ } [28]
فصلت عن التي قبلها على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات.
{ **يَا قَوْمِ** } افتتاح مراجعته بالنداء لطلب إقبال أذهانهم لوعي كلامه، واختيار استحضارهم بعنوان قومه لاستنزال طائر نفورهم تذكيرا لهم بأنّه منهم فلا يريد لهم إلّا خيرا.
{ **أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي** } استفهام عن الرؤية بمعنى الاعتقاد. وهو استفهام تقريري معناه إن كنت ذا برهان واضح، ومتّصفا برحمة الله بالرسالة بالهدى فلم تظهر لكم الحجّة ولا دلائل الهدى، فهل ألزمكم أنا وأتباعي بها، أي بالإذعان إليها والتصديق بها، إن أنتم تكرهون قبولها. وهذا تعريض بأنّهم لو تأمّلوا تأمّلا بريئا من الكراهية والعداوة لعلموا صدق دعوته.

البيّنة: الحجّة الواضحة، وتطلق على المعجزة، فيجوز أن تكون معجزته الطوفان، ويجوز أن تكون له معجزات أخرى لم تذكر، فإن بعثة الرسل - عليهم السلام - لا تخلو من معجزات.

واختيار وصف الربّ دون اسم الجلالة للدلالة على أنّ إعطاءه البيّنة والرحمة فضل من الله أراد به إظهار رفقه وعنايته به.

{ **وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ** } نعمة النبوءة والتفضيل عليهم الذي أنكروه، مع ما صحبها من البيّنة لأنّها من تمامها، فعطف { رحمة } على { بيّنة } يقتضي المغايرة بينهما، وهي مغايرة بالعموم والخصوص، لأنّ الرحمة أعمّ من البيّنة، إذ البيّنة على صدقه من جملة الرحمة به.

{ **فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ** } فخفيت، وهو استعارة. ومن بديع هذه الاستعارة هنا أنّ فيها طباقا لمقابلة قولهم في مجادلتهم {مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً - وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ - وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ} [27]. فقابل نوح - عليه السلام - كلامهم مقابلة بالمعنى واللفظ إذ جعل عدم رؤيتهم من قبيل العمى.

وعطف { **فَعُمِّيَتْ** } بفاء التعقيب إيماء إلى عدم الفترة بين إيتائه البيّنة والرحمة وبين خفائها عليهم. وهو تعريض لهم بأنّهم بادروا بالإنكار قبل التأمّل.

{ **أَنُلْزِمُكُمُوهَا** } الاستفهام إنكاري، أي لا نكرهكم على قبولها، فعُلّق الإلزام بضمير البيّنة أو الرحمة. والمراد تعليقه بقبولها بدلالة القرينة.

وجيء بضمير المتكلّم المشارك هنا للإشارة إلى أتباعه، فأراد أن لا يهمل ذكر أتباعه وأنّهم أنصار له لو شاء أن يهيب بهم. والقصد من ذلك التنويه بشأنهم في مقابلة تحقير الآخرين إيّاهم..

{ **وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ** } **الكاره**: المبغض لشيء. وعدي باللام إلى مفعوله لزيادة تقوية تعلّق الكراهية بالرحمة أو البيّنة، أي وأنتم مبغضون قبولها لأجل إعراضكم عن التدبّر فيها.

وتقديم المجرور على {كَارِهُونَ} لرعاية الفاصلة مع الاهتمام بشأنها.

والمقصود من كلامه بعثهم على إعادة التأمّل في الآيات، وتخفيض نفوسهم، واستنزالهم إلى الإنصاف. وليس المقصود معذرتهم بما صنعوا ولا العدول عن تكرير دعوتهم.

{ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ } [29]

{ **وَيَا قَوْمِ** } لما في الخطاب به أول مرة من المعاني التي ذكرناها، وأمّا عطف النداء بالواو مع أنّ المخاطب به واحد وشأن عطف النداء أن يكون عند اختلاف المنادى، فأمّا إذا اتّحد المنادى فالشأن عدم العطف.

يجوز أن يكون تنبيها على اتصال النداءات بعضها ببعض، وأنّ أحدها لا يغني عن الآخر. ويجوز أن يكون

ذلك تفنّنا عربيا في الكلام عند تكرّر النداء استحسانا للمخالفة بين التأكيد والمؤكّد. ويسجئ نظير هذا قريبا في قصة هود وقصة شعيب - عليهما السلام - .

{ **لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً** } انتقل إلى تقريبهم من النظر في نزاهة ما جاءهم به، وأنّه لا يريد نفعا دنيويّا.

{ **إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ** } احتراس، والمخالفة بين العبارتين { مَالاً } و { أَجْرِيَ } تفيد أنّه لا يسأل من الله مالا ولكنّه يسأل ثوابا.

الأجر: العوض على عمل. ويسمّى ثواب الله أجرا لأنّه جزاء على العمل الصالح.

{ **وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا** } عطف على { لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً } لأنّ مضمونها كالنتيجة لمضمون المعطوف عليها، لأنّ نفي طمعه في المخاطبين يقتضي أنّه لا يؤذي أتباعه لأجل إرضاء هؤلاء. ولذلك عبّر عن أتباعه بطريق الموصوليّة {الَّذِينَ آمَنُوا} لما يؤذن به الموصول من تغليط قومه في تعريضهم له بأن يطردهم، بما أنّهم لا يجالسون أمثالهم، إيذانا بأنّ إيمانهم يوجب تفضيلهم على غيرهم الذين لم يؤمنوا به والرغبة فيهم فكيف يطردهم.

الطرد: الأمر بالبعد عن مكان الحضور تحقيرا أو زجرا. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ } [الأنعام:52].

{ **إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ** } في موضع التعليل لنفي أن يطردهم بأنّهم صائرون إلى الله في الآخرة فمحاسب من يطردهم، هذا إذا كانت الملاقاة على الحقيقة. أو أراد أنّهم يدعون ربهم في صلاتهم فينتصر الله لهم إذا كانت الملاقاة مجازية، أو أنّهم ملاقو ربّهم حين يحضرون مجلس دعوتي، لأنّي أدعو إلى الله لا إلى شيء يخصّني فهم عند ملاقاتي كمن يلاقون ربّهم لأنّهم يتلقّون ما أوحى الله إلي. وهذا كقول النبيء ﷺ في قصة النفر الثلاثة الذين حضروا مجلس النبيء ﷺ فجلس أحدهم، واستحيا أحدهم، وأعرض الثالث: " أمّا الأوّل فآوى إلى الله فآواه الله، وأمّا الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه، وأمّا الثالث فأعرض فأعرض الله عنه".

{ **وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ** } موقع الاستدراك هو أنّ مضمون الجملة ضدّ مضمون التي قبلها، أي لا ريب في ذلك ولكنّكم تجهلون فتحسبونهم لا حضرة لهم وأن لا تبعة في طردهم. وحذف مفعول {تَجْهَلُونَ} للعلم به، أي تجهلون ذلك.

{ **قَوْماً** } زيادة تدلّ على أنّ جهلهم صفة لازمة لهم، كأنّها من مقومات قوّميتهم.

{ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ }[30]

{ **وَيَا قَوْمِ** } مثل إعادته في الآية قبلها.

{ **مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ** } الاستفهام إنكاري. و**النصر**: إعانة المقاوم لضدّ أو عدو. أي ينجيني من الله، أي من عقابه، لأنّ الله لا يحبّ إهانة أوليائه.

{ **أَفَلا تَذَكَّرُونَ** } فرّع على ذلك إنكارا على قومه في إهمالهم التذكّر، أي التأمّل في الدلائل ومدلولاتها، والأسباب ومسبّباتها. وأصل {تَذَكَّرُونَ}، تتذكّرون فأبدلت التاء ذالا وأدغمت في الذال. والتذكّر تقدّم عند قوله {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا} [الأعراف:201].

{ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ }[31]

هذا تفصيل لما ردّ به مقالة قومه إجمالا، فهم استدلوا على نفي نبوّته بأنّهم لم يروا له فضلا عليهم، فجاء هو في جوابهم بالقول إنّه لم يدّع فضلا غير الوحي إليه، ولذلك نفى أن يكون قد ادّعى غير ذلك. واقتصر على بعض ما يتوهّمونه من لوازم النبوءة وهو أن يكون أغنى منهم، أو أن يعلم الأمور الغائبة.

{ **وَلا أَقُولُ لَكُمْ** } بمعنى الدعوى، وإنّما نفى ذلك بصيغة المضارع للدلالة على أنّه منتف عنه ذلك في الحال، فأمّا انتفاؤه في الماضي فمعلوم لديهم حيث لم يقله، أي لا تظنّوا أنّي مضمر ادعاء ذلك وإن لم أقله.

الخزائن: جمع خِزانة (بكسر الخاء) وهي بيت أو مشكاة كبيرة يجعل لها باب، وذلك لخزن المال أو الطعام، أي حفظه من الضياع. وذكر الخزائن هنا استعارة مكنية، شبّهت النعم والأشياء النافعة بالأموال النفيسة التي تدّخر في الخزائن، ورمز إلى ذلك بذكر ما هو من روادف المشبه به وهو الخزائن.

{ **وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ** } نفي لشبهة قولهم {مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا} ولذلك أعاد معه فعل القول، لأنّه إبطال دعوى أخرى ألصقوها به.

{ **وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً** } أراد إبطال قولهم { وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا} [27]، أبطله بطريقة التغليط، بأنّ ضعفهم ليس بحائل بينهم وبين الخير من الله إذ لا ارتباط بين الضعف في الأمور الدنيوية من فقر وبين الحرمان من نوال الكمالات النفسانية والدينية، وأعاد معه فعل القول لأنّه أراد من القول معنى غير المراد منه فيما قيل، فالقول هنا كناية عن الاعتقاد، لأنّ المرء إنّما يقول ما يعتقد، وهي تعريضيّة بالمخاطبين لأنّهم يضمرون ذلك ويقدّرونه.

الازدراء: من الزري وهو الاحتقار وإلصاق العيب، فأصله: ازتراء، قلبت تاء الافتعال دالا بعد الزاي كما قلبت في الازدياد.

{ **أَعْيُنُكُمْ** } إسناد الازدراء إلى الأعين وإنّما هو من أفعال النفس مجاز عقلي، لأنّ الأعين سبب الازدراء غالبا، لأنّ الازدراء ينشأ عن مشاهدة الصفات الحقيرة عند الناظر. نظيره قوله تعالى {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ}

[الأعراف: 116] وإنّما سحروا عقولهم ولكن الأعين ترى حركات السحرة فتؤثّر رؤيتها على عقول المبصرين.

{ **لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً** } جيء في النفي بحرف {لَنْ} الدالة على تأكيد نفي الفعل في المستقبل تعريضا بقومه لأنّهم جعلوا ضعف أتباع نوح عليه السلام وفقرهم دليلا على انتفاء الخير عنهم فاقتضى دوام ذلك ما داموا ضعفاء فقراء.

{ **اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ** } تعليل لنفي أن يقول { لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً } . ولذلك فصلت الجملة ولم تعطف. أي أنّ أمرهم موكول إلى ربّهم الذي علم ما أودعه في نفوسهم من الخير والذي وفّقهم إلى الإيمان، أي فهو يعاملهم بما يعلم منهم. واسم التفضيل{ **أَعْلَمُ** } مسلوب المفاضلة، مقصود منه شدّة العلم.

{ **إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ** } تعليل ثان لنفي أن يقول {لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً} . و {إذن} حرف جواب وجزاء مجازاة للقول، أي لو قلت ذلك لكنت من الظالمين، وذلك أنّه يظلمهم بالقضاء عليهم بما لا يعلم من حقيقتهم، ويظلم نفسه باقتحام القول بما لا يصدق.

{ **مِنَ الظَّالِمِينَ** } أبلغ في إثبات الظلم من إني ظالم.

{ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [32] قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [33]

فصلت هذه الجملة فصلا على طريقة حكاية الأقوال في المحاورات كما تقدّم.

المجادلة: المخاصمة بالقول وإيراد الحجّة عليه، فتكون في الخير كقوله { يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ } [74]، وتكون في الشرّ كقوله { وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ } [البقرة:197]

وهذا قول وقع عقب مجادلته المحكيّة في الآية قبل هذه، فتعيّن أنّ تلك المجادلة كانت آخر مجادلة جادلها قومه، وأنّ ضجرهم وسآمتهم من تكرار مجادلته حصل ساعتئذ فقالوا قولهم هذا. فكانت كلّها مجادلات مضت. وكانت المجادلة الأخيرة هي التي استفزّت امتعاضهم من قوارع جدله حتّى سئموا من تزييف معارضتهم وآرائهم شأن المبطل إذا دمغته الحجّة، ولذلك أرادوا طي بساط الجدال، وأرادوا إفحامه بأن طلبوا تعجيل ما توعّدهم من عذاب ينزل بهم كقوله آنفا {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} [26].

{ **فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا** } خبر مستعمل في التذمّر والتضجير والتأييس من الاقتناع.

{ **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** }

الإتيان بالشيء: إحضاره. وأرادوا به تعجيله وعدم إنظاره.

{ **إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ** } قصر قلب بناء على ظاهر طلبهم، حملا لكلامهم على ظاهره على طريقة مجاراة الخصم في المناظرة.

{ **إِنْ شَاءَ** } احتراس راجع إلى حمل العذاب على عذاب الدنيا. ولعلّ نوحا عليه السلام لم يكن له وحي من الله بأنّ يحل بهم عذاب الدنيا، فلذلك فوضه إلى المشيئة.

{ **وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ** } يريد أنّ العذاب واقع لا محالة.

{ وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }[34]

عطف على وعظهم بحلول العذاب وتوقّعه بيان حال مجادلته إيّاهم التي امتعضوا منها بأنّها مجادلة لنفعهم وصلاحهم، وفي ذلك تعريض بتحميقهم وتسفيه آرائهم حيث كرهوا ما هو نفع لهم.

النصح: قول أو عمل يريد صاحبه صلاح المعمول لأجله. وأكثر ما يطلق على الأقوال النافعة المنقذة من الأضرار. ويكون بالعمل كقوله تعالى {إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة:91]. وفي الحديث: " الدين النصيحة لله ولرسوله " أي الإخلاص في العمل لهما، لأنّ الله لا ينبأ بشيء لا يعلمه. وقد تقدّم في قوله { وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ } [الأعراف [79]. فالمراد بالنصح هنا هو ما سماه قومه بالجدال، أي هو أولى بأن يسمّى نصحا، لأنّ الجدال يكون للخير والشرّ كما تقدّم.

{ **إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ** } التعليق بالشرط مؤذن بعزمه على تجديد النصح في المستقبل لأنّ واجبه هو البلاغ وإن كرهوا ذلك.

{ **إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ** } جملة الشرط، هي المقصود من الكلام، فجوابها في معنى قوله {لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي} ، ولكن نظم الكلام بني على الإخبار بعدم نفع النصح اهتماما بذلك فجعل معطوفا على ما قبله وأتي بالشرط قيدا له. أشار إلى ما هم فيه من كراهية دعوة نوح عليه السلام سببه خذلان الله إيّاهم ولولاه لنفعهم نصحه، ولكن نوحا عليه السلام لا يعلم مراد الله من إغوائهم ولا مدى استمرار غوايتهم فلذلك كان عليه أن ينصح لهم إلى نهاية الأمر.

الإغواء: جعل الشخص ذا غواية، وهي الضلال عن الحقّ والرشد.

{ **هُوَ رَبُّكُمْ** } ابتدائية لتعليمهم أنّ الله ربّهم إن كانوا لا يؤمنون بوجود الله، أو لتذكيرهم بذلك إن كانوا يؤمنون بوجوده ويشركون معه ودّا، وسواعا، ويغوث، ويعوق، ونسرا.

{ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** } التقديم للاهتمام ولرعاية الفاصلة وليس للقصر.

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ } [35]

جملة معترضة بين جملة أجزاء القصّة وليست من القصّة، ومن جعلها منها فقد أبعد، وهي تأكيد لنظيرها السابق في أول السورة. ومناسبة هذا الاعتراض أنّ تفاصيل القصّة التي لا يعلمها المخاطبون تفاصيل عجيبة تدعو المنكرين إلى أن يتذكّروا إنكارهم ويعيدوا ذكره.

وكون ذلك مطابقا لما حصل في زمن نوح عليه السلام وشاهدة به كتب بني إسرائيل يدل على صدق النبيء ﷺ لأنّ علمه بذلك مع أمّيّته وبعد قومه عن أهل الكتاب آية على أنّه وحي من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ } ضمير النصب عائد إلى القرآن المفهوم من السياق. و**{ أَمْ }** للإضراب للانتقال من غرض لغرض. وهو يؤذن باستفهام إنكاري. وموقع الإنكار بديع لتضمّنه الحجّة عليهم.

{ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي } مفصولة عن التي قبلها لوقوعها في سياق المحاورة كما تقدّم غير مرة. وأُمر النبيء ﷺ أن يعرض عن مجادلتهم بالدليل لأنّهم ليسوا بأهل لذلك، إذ قد أقيمت عليهم الحجّة غير مرة فلم تغن فيهم شيئا، فلذلك أجيبوا بأنّه لو فرض ذلك لكانت تبعة افترائه على نفسه لا ينالهم منها شيء.

وهذا جار على طريقة الاستدراج لهم والكلام المنصف.

الإجرام: اكتساب الجرم وهو الذنب، فهو يقتضي المؤاخذة لا محالة.

{ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ } تذييل للكلام وتأييده بمقابله، أي فإجرامي علي لا عليكم كما أن إجرامكم لا تنالني منه تبعة. ولا حاجة إلى تقدير المضاف في قوله {مِمَّا تُجْرِمُونَ} أي تبعته، وإنّما هو تقدير معنى لا تقدير إعراب، والشيء يؤكّد بضدّه كقوله {لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} [الكافرون: 2، 3].

وفي هذه الجملة توجيه بديع، وهو إفادة تبرئة نفسه من أن يفتري القرآن فإنّ افتراء القرآن دعوى باطلة ادّعوها عليه فهي إجرام منهم عليه، فيكون المعنى، وأنا بريء من قولكم الذي تجرمونه علي باطلا.

{ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ }[36]

عطف على { قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا } [32] أي بعد ذلك أوحي إلي نوح - عليه السلام - { أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ }

{ لَنْ } تفيد تأبيد النفي في المستقبل، وذلك شديد عليه لذلك عقّب بتسليته.

{ مَنْ قَدْ آمَنَ } تأكيد الفعل بـ { قَدْ } للتنصيص على أنّ المراد من حصّل منهم الإيمان يقينا دون الذين تردّدوا.

{ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } الفاء لتفريع التسلية على الخبر المحزن.
الابتئاس، افتعال من البؤس وهو الهم والحزن، أي لا تحزن. ومعنى الافتعال هنا التأثّر بالبؤس الذي أحدثه الخبر المذكور.
{ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } هو إصرارهم على الكفر واعتراضهم عن النظر في الدعوة إلى وقت أن أوحي إليه هذا.

{ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ }[37]
لمّا كان نهيه عن الابتئاس بفعلهم مع شدّة جرمهم مؤذنا بأنّ الله ينتصر له أعقبه بالأمر بصنع الفلك لتهيئة نجاته ونجاة من قد أمن به من العذاب الذي قدّره الله لقومه.
{ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ } داخلة في الموحى به، فتدلّ على أنّ الله أوحى إليه كيفيّة صنع الفلك، كما دل عليه قوله {وَوَحْيِنَا} . ولذلك فنوح - عليه السلام - أوّل من صنع الفلك ولم يكن ذلك معروفا للبشر، وكان ذلك منذ قرون لا يحصيها إلّا الله تعالى، ولا يعتدّ بما يوجد في الإسرائيليات من إحصاء قرونها.
الفلك: اسم يستوي فيه المفرد والجمع. وتقدّم عند قوله تعالى { وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ } [البقرة:164].
{ بِأَعْيُنِنَا } الباء للملابسة، وهي في موضع الحال من ضمير **{ اصْنَعِ }**. والأعين استعارة للمراقبة والملاحظة. وصيغة الجمع في {أَعْيُنِنَا} بمعنى المثنّى. والمراد الكناية بالمعنى المجازي عن لازمه وهو الحفظ من الخلل والخطأ في الصنع.
{ وَحْيِنَا } الوحي الذي به وصف كيفيّة صنع الفلك، كما دلّ عليه عطفه على المجرور بباء الملابسة المتعلقة بالأمر بالصنع.
{ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا } دلّ النهي على أنّ كفار قومه سينزل بهم عقاب عظيم، لأنّ المراد بالمخاطبة المنهي عنها المخاطبة التي ترفع عقابهم فتكون لنفعهم كالشفاعة. وطلب تخفيف العقاب لا مطلق المخاطبة. ولعلّ هذا توطئة لنهيه عن مخاطبته في شأن ابنه الكافر قبل أن يخطر ببال نوح عليه السلام سؤال نجاته حتّى يكون الرد عليه حين السؤال ألطف.
{ إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ } إخبار بما سيقع وبيان لسبب الأمر بصنع الفلك.

{ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ [38] فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ } [39].

عبّر عن صنعه بصيغة المضارع لاستحضار الحالة، لتخييل السامع أنّ نوحا عليه السلام بصدد العمل.

{ **وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ** } في موضع الحال من ضمير {يَصْنَعُ }. و{كُلَّمَا} كلمة مركبة من (كل) و(ما) الظرفيّة المصدرية.

{ **قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا** } حكاية لما يجيب به سخريتهم، أجريت على طريقة فعل القول إذا وقع في سياق المحاورة، لأنّ جملة { سَخِرُوا } تتضمن أقوالا تنبني عن سخريّتهم أو تبيّن عن كلام في نفوسهم.

السخرية: الاستهزاء. وهو تعجّب باحتقار واستحماق. وفعلها يتعدّى بـ (من). وتقدّم عند قوله تعالى { فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ } [الأنعام :10].

وسخريتهم منه حمل فعله على العبث بناء على اعتقادهم أن ما يصنعه لا يأتي بتصديق مدّعاه.

{ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ** } وفي إسناد (العلم) إلى ضمير المخاطبين إيماء إلى أنّ المخاطبين هم الأحق بعلم ذلك. وهذا يفيد أدبا شريفا بأنّ الواثق بأنّه على الحقّ لا يزعزع ثقته مقابلة السفهاء أعماله النافعة بالسخرية.

الخزي: الإهانة، وقد تقدّم عند قوله تعالى { رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ } [آل عمران :192].

حلول العذاب: حصوله، شبّه الحصول بحلول القادم إلى المكان، وهو إطلاق شائع حتّى ساوى الحقيقة.

العذاب المقيم: عذاب الآخرة، أي من يأتيه عذاب الخزي في الحياة الدنيا، والعذاب الخالد في الآخرة.

{ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } [40]

{ **حَتَّى** } ابتدائية غاية لـ {يَصْنَعُ الْفُلْكَ} أي يصنعه إلى زمن مجيء أمرنا.

{ **أَمْرُنَا** } هنا يحتمل أمر التكوين بالطوفان، ويحتمل الشأن وهو حادث الغرق، وإضافته إلى اسم الجلالة لتهويله بأنّه فوق ما يعرفون. و**مجيء الأمر**، حصوله.

{ **وَفَارَ التَّنُّورُ** }

الفوران: غليان القدر، ويطلق على نبع الماء بشدة، تشبيها بفوران ماء في القدر إذا غلي، وحملوه على ما جاء في آيات أخرى من قصة نوح عليه السلام مثل قوله {وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً} [القمر: 12]. ولذلك لم يتّضح لهم إسناده إلى التنور. فإنّ **التنّور** هو الموقد الذي ينضج فيه الخبز.

فمن المفسّرين من أبقى التنّور على حقيقته، فجعل الفوران خروج الماء من أحد التنانير وأنّه علامة جعلها الله لنوح عليه السلام إذ فار الماء من تنوره علم أنّ ذلك مبدأ الطوفان فركب الفلك وأركب من معه.

ومنهم من حمل التنّور على المجاز المفرد ففسره بسطح الأرض. أي فار الماء من جميع الأرض حتى صار بسطح الأرض كفوهة التنور.

ومنهم من حمل {فَارَ} و {التَّنُّورُ} على الحقيقة، وأخرج الكلام مخرج التمثيل لاشتداد الحال، كما يقال: حمي الوطيس. وقع حكاية ذلك في تفسير ابن عطيّة في هذه الآية وفي الكشّاف في تفسير سورة المؤمنون.

وهذا أحسن ما حكي عن المفسرين. فالقول مثلٌ لبلوغ الشيء إلى أقصى ما يتحمّل مثله. كما يقال: بلغ السيل الزُبى، وامتلأ الصاع، وفاضت الكأس وتفاقم.

الزوج: شيء يكون ثانيا لآخر في حالة. وأصله اسم لما ينضمّ إلى فرد فيصير زوجا له، وكلّ منهما زوج للآخر. والمراد بـ { زَوْجَيْنِ } هنا الذكر والأنثى من النوع. و{ اثْنَيْنِ } أي لا تزد على اثنين.

{ **وَأَهْلَكَ** } أهل الرجل قرابته وأهل بيته وهو اسم جمع لا واحد له. وزوجه أوّل من يبادر من اللفظ، ويطلق لفظ الأهل على امرأة الرجل قال تعالى { فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ } [القصص: 29].

{ **إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ** } أي من مضى قول الله عليه، أي وعيده. يعني إلّا من كان من أهلك كافرا. وما صدق هذا إحدى امرأتيه المذكورة في سورة التحريم وابنه منها المذكور في آخر هذه القصة.

وكان لنوح -عليه السلام - امرأتان.

{ **مَنْ آمَنَ** } كل المؤمنين.

{ **وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ** } اعتراض لتكميل الفائدة من القصّة في قلة الصالحين. قيل: كان جميع المؤمنين به من أهله وغيرهم نيفا وسبعين بين رجال ونساء، فكان معظم حمولة السفينة من الحيوان.

{ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [41]

{ **وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا** } وعدي الفعل بـ (في) جريا على الفصيح، لأنّ إطلاق الركوب عليه مجاز، وإنّما هو جلوس واستقرار، فلا يقال: ركب السفينة. فأرادوا التفرقة بين الركوب الحقيقي والركوب المشابه له.

{ **بِسْمِ اللَّهِ** } الباء للملابسة، أي قائلين: باسم الله.

{ **مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا** } بضم الميمين فيهما في قراءة الجمهور، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف { مَجراها } فقط بفتح الميم. وهما مصدرا **أجرى السفينة** إذا جعلها جارية، أي **سيّرها بسرعة، وأرساها** إذا جعلها راسية أي **واقفة على الشاطئ**. يقال: رسا إذا ثبت في المكان.

ويجوز أن يكون {مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} في محل نصب بالنيابة عن ظرف الزمان، أي وقت إجرائها ووقت إرسائها.

{ **إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** } تعليل للأمر بالركوب، ففي التعليل بالمغفرة والرحمة رمز إلى أنّ الله وعده بنجاتهم، وذلك من غفرانه ورحمته. وأكد بـ { إِنَّ } ولام الابتداء تحقيقا لأتباعه بأن الله منجيهم.

{ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ [42] قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ } [43]

{ **وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ** }

جملة معترضة دعا إلى اعتراضها هنا ذكر { مجراها } إتماما للفائدة، وصفا لعظم اليوم وعجيب صنع الله تعالى في تيسير نجاتهم. وعدل عن الفعل الماضي إلى المضارع لاستحضار الحالة.

الموج: ما يرتفع من الماء على سطحه عند اضطرابه، وتشبيهه بالجبال في ضخامته. وذلك إمّا لكثرة الرياح التي تعلو الماء وإما لدفع دفقات الماء الواردة من السيول والتقاء الأودية الماءَ السابقَ لها، فإن حادث الطوفان ما كان إلّا عن مثل زلازل تفجرت بها مياه الأرض وأمطار جمّة تلتقي سيولها مع مياه العيون فتختلط وتجتمع وتصب في الماء الذي كان قبلها حتى عم الماء جميع الأرض التي أراد الله إغراق أهلها، كما سيأتي.

{ **وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ** } عطفت على { وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا } لأنّ نداءه ابنه كان قبل جريان السفينة في موج كالجبال، إذ يتعذّر إيقافها بعد جريها، لأنّ الراكبين كلّهم كانوا مستقرين في جوف السفينة.

وابن نوح هذا هو ابن رابع من زوج ثانية لنوح كان اسمها (وَاعلة) غرقت، وأنّها المذكورة في آخر سورة التحريم. قيل كان اسم ابنه (ياما) وقيل اسمه (كنعان) وهو غير كنعان بن حام جدّ الكنعانيين. وقد أهملت التوراة الموجودة الآن ذكر هذا الابن وقضية غرقه وهل كان ذا زوجة أو كان عزبا.

{ **وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ** } حال من { ابْنَهُ } .

المعزل: مكان العزلة أي الانفراد، أي في معزل عن المؤمنين إمّا لأنّه كان لم يؤمن بنوح - عليه السلام - فلم يصدّق بوقوع الطوفان، وإمّا لأنّه ارتدّ فأنكر وقوع الطوفان، فكفر بذلك لتكذيبه الرسول.

{ **يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا** } بيان لجملة { نَادَى }، وهي إرشاد له ورفق به. و{ **بُنَيَّ** } تصغير (ابن) مضافا إلى ياء المتكلّم. وتصغيره هنا تصغير شفقة بحيث يجعل كالصغير في كونه محل الرحمة والشفقة.

{ **وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ** } فهي معطوفة لإعلامه بأنّ إعراضه عن الركوب يجعله في صف الكفّار، إذ لا يكون إعراضه عن الركوب إلّا أثرا لتكذيبه بوقوع الطوفان.

{ **قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ** } هذا القول كان قبل أن يبلغ الماء أعالي الجبال.

{ آوي } : أنزل، ومصدره: الأُوِيّ (بضم الهمزة وكسر الواو وتشديد الياء).
{ **يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ** } أي جبل عال.
{ **لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** } وهو الطوفان.
{ **إِلَّا مَنْ رَحِمَ** } أي من قدّر الله له النجاة من الغرق برحمته.
{ **وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ** } وحيلولة الموج بينهما في آخر المحاورة يشير إلى سرعة فيضان الماء في حين المحاولة.
{ **فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ** } أفاد أنّه غرق وغرق معه من توعّده بالغرق، فهو إيجاز بديع.

{ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } .[44]

{ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي** } والقول هنا أمر التكوين. وخطاب الأرض والسماء بطريقة النداء وبالأمر استعارة لتعلّق أمر التكوين بكيفيّات أفعال في ذاتيهما وانفعالهما بذلك، كما يخاطب العاقل بعمل يعمله فيقبله امتثالا وخشية. فالاستعارة هنا في حرف النداء وهي تبعية.
البلع: حقيقته اجتياز الطعام والشراب إلى الحلق. وهو هنا استعارة لإدخال الشيء في باطن شيء بسرعة، ومعنى: بلع الأرض ماءها دخوله في باطنها بسرعة كسرعة ازدراد البالع بحيث لم يكن جفاف الأرض بحرارة شمس أو رياح بل كان بعمل أرضي عاجل، وقد يكون ذلك بإحداث الله زلازل وخسفا انشقت به طبقة الأرض في مواضع كثيرة حتى غارت المياه التي كانت على سطح الأرض.
إقلاع السماء، مستعار لكف نزول المطر منها لأنّه إذا كف نزول المطر لم يخلف الماء الذي غار في الأرض، ولذلك قدم الأمر بالبلع لأنّه السبب الأعظم لغيض الماء.
وفي قران الأرض والسماء محسن الطباق، وفي مقابلة { **ابْلَعِي** } بـ { **أَقْلِعِي** } محسن الجناس.
{ **وَغِيضَ الْمَاءُ** } مغن عن التعرّض إلى كون السماء أقلعت والأرض بلعت، وبني فعل {غِيضَ الْمَاءُ} للنائب لمثل ما بني فعل {وَقِيلَ} باعتبار سبب الغيض، أو لأنّه لا فاعل له حقيقة لأنّ حصوله مسبّب عن سبب.
الغيض: نضوبه في الأرض. والمراد: الماء الذي نشأ بالطوفان زائدا على بحار الأرض وأوديتها.

{ **وَقُضِيَ الْأَمْرُ** } إتمامه. وبناء الفعل للنائب للعلم بأنّ فاعله ليس غير الله تعالى.

الاستواء: الاستقرار.

الجودي: اسم جبل بين العراق وأرمينا، يقال له اليوم أراراط .

{ **وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** }

{ بُعْداً } مصدر (بَعُدَ) على مثال كرُم وفرح، منصوب على المفعولية المطلقة. وهو نائب عن الفعل كما هو الاستعمال في مقام الدعاء ونحوه، كالمدح والذم مثل: تبا له، وسحقا، وسقيا، ورعيا، وشكرا. وهو كناية عن التحقير بلازم كراهية الشيء.

القوم الظالمون: هم الذين كفروا فغرقوا. والقائل قد يكون من قول الله، ويجوز أن يقوله المؤمنون.

{ **وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ** [45] **قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** [46] **قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ** } [47].

يجوز أن يكون دعاء نوح - عليه السلام - هذا وقع قبل غرق النّاس، أي نادى ربّه أن ينجّي ابنه من الغرق. ويجوز أن يكون بعد غرق من غرقوا، أي نادى ربه أن يغفر لابنه وأن لا يعامله معاملة الكافرين في الآخرة.

{ **وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ** } النداء هنا نداء دعاء فكأنه قيل: ودعا نوح ربه، لأنّ الدعاء يصدر بالنداء غالبا، والتعبير عن الجلالة بوصف الرب مضافا إلى نوح - عليه السلام - تشريف لنوح وإيماء إلى رأفة الله به وأن نهيه الوارد بعده نهي عتاب.

{ **فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي** } بيان للنداء، ومقتضى الظاهر أن لا تعطف بفاء التفريع. وهو خبر مستعمل في الاعتذار والتمهيد لأنّه يريد أن يسأل سؤالا لا يدري قبوله ولكنّه اقتحمه لأنّ المسؤول له من أهله فله عذر الشفقة عليه. وتأكيد الخبر بـ { إِنَّ } للاهتمام به.

{ **وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ** } خبر مستعمل في لازم الفائدة. وهو أنّه يعلم أن وعد الله حق. والمراد بالوعد ما في قوله تعالى { إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ } [المؤمنون: 27] إذ أفاد ذلك أن بعض أهله قد سبق من الله تقدير بأنه لا يركب السفينة.

فالمعنى: أنّ نوحا - عليه السلام - لا يجهل أنّ ابنه كافر، ولذلك فسؤال المغفرة له عن علم بأنّه كافر، ولكنّه يطمع لعل الله أن يعفو عنه لأجل قرابته به، فسؤاله له المغفرة بمنزلة الشفاعة له عند الله تعالى، وذلك أخذ بأقصى دواعي الشفقة والرحمة بابنه.

{ **وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ** } أشدّهم حكما. يفيد أنّه لا راد لما حكم به وقضاه، وأنّه لا دالة عليه لأحد من خلقه، ولكنّه مقام تضرّع وسؤال ما ليس بمحال. فكان حال نوح عليه السلام كحال النبيء ﷺ حين قال لأبي طالب لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، قبل أن ينزل قوله تعالى {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ} [التوبة: 113].

{ **إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ** } نفي أن يكون من أهل دينه واعتقاده، فليس ذلك إبطالا لقول نوح - عليه السلام - {إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي} ولكنه إعلام بأنّ قرابة الدين بالنسبة لأهل الإيمان هي القرابة.

{ **إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** } تعليل لمضمون جملة {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} فـ (إنّ) فيه لمجرّد الاهتمام.

{ **عَمَلٌ** } في قراءة الجمهور (بفتح الميم وتنوين اللام) مصدر أخبر به للمبالغة وبرفع { **غَيْرُ** } على أنّه صفة (عمل). وقرأه الكسائي، ويعقوب { **عَمِلَ** } (بكسر الميم) بصيغة الماضي وبنصب { **غَيْرَ** } على المفعولية لفعل (عمل). ومعنى العمل غير الصالح **الكفر**، وأطلق على الكفر عمل لأنّه عمل القلب، ولأنّه يظهر أثره في عمل صاحبه كامتناع ابن نوح من الركوب الدّال على تكذيبه بوعيد الطوفان.

{ **فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** } نهي عتاب، لأنّه لما قيل له { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ } بسبب تعليله بأنه عمل غير صالح، سقط ما مهّد به إجابة سؤاله، فكان حقيقا بأن لا يسأله وأن يتدبر ما أراد أن يسأله من الله.

{ **إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** } موعظة على ترك التثبّت قبل الإقدام.

{ **قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ** } أجاب نوح عليه السلام كلام ربّه بما يدل على التنصّل مما سأل، فاستعاذ أن يسأل ما ليس له به علم.

{ **وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ** } طلب المغفرة ابتداء لأنّ التخلية مقدّمة على التحلية، ثمّ أعقبها بطلب الرحمة لأنّه إذا كان بمحل الرضى من الله كان أهلا للرحمة.

{ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ }[48]

فصلت الجملة ولم تعطف لوقوعها في سياق المحاورة بين نوح - عليه السلام - وربّه، فإنّ نوحا عليه السلام لما أجاب بقوله { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ } [47] إلى آخره خاطبه ربه إتماما للمحاورة بما يسكّن جأشه.

{ **يَا نُوحُ** } النداء للتنويه به بين الملأ.

الهبوط: النزول. وتقدّم في قوله {اهْبِطُوا مِصْراً} [البقرة:61]. والمراد، النزول من السفينة لأنّها كانت أعلى من الأرض.

{ **اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ** } الباء للمصاحبة، أي اهبط مصحوبا بسلام منّا. ومصاحبة السلام الذي هو التحية مصاحبة مجازية. وخطابه بالسلام حينئذ إيماء إلى أنّه كان في ضيافة الله تعالى، لأنّه كان كافلا له النجاة.

وأصل السلام السلامة، فاستعمل عند اللقاء إيذانا بتأمين المرء ملاقيه وأنّه لا يضمر له سوءا، ثم شاع فصار قولا عند اللقاء للإكرام، ولذلك نهى النبيء ﷺ الذين قالوا: السلام على الله.

{ **مِنَّا** } تأكيد لتوجيه السلام إليه لأنّ (من) ابتدائية، كقوله {سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ} [يس: 58]. وذلك كثير في كلامهم. وهذا التأكيد يراد به زيادة الصلة والإكرام.

البركات: الخيرات النامية، واحدتها بركة، وهي من كلمات التحيّة مستعملة في الدعاء.

وصدور هذا الدعاء من لدنه، سبحانه، قائم مقام إجابة الدعاء فهو إفاضة بركات على نوح - عليه السلام - ومن معه، فحصل بذلك تكريمهم وتأمينهم والإنعام عليهم.

{ **عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ** }

الأمم: جمع أمّة. وهي الجماعة الكثيرة من النّاس التي يجمعها نسب **إلى جدّ** واحد. يقال: أمّة العرب، **أو لغة** مثل أمّة الترك، **أو موطن** مثل أمة أمريكا، **أو دين** مثل الأمّة الإسلامية.

وليس الذين ركبوا في السفينة أمما لقلة عددهم لقوله {وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} [40].

{ **مِمَّنْ مَعَكَ** } صادقة على الذين ركبوا مع نوح - عليه السلام - في السفينة. ومنهم ابناؤه الثلاثة. فالكلام بشارة لنوح - عليه السلام - ومن معه بأن الله يجعل منهم أمما كثيرة يكونون محل كرامته وبركاته. وفيه إيذان بأن يجعل منهم أمما بخلاف ذلك، ولذلك عطف على هذه الجملة قوله {وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

{ **وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ** } استئناف بياني لأنّها تبيين لما أفاده التنكير في قوله {وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ} من الاحتراز عن أمم آخرين. والمقصود: تحذير قوم نوح من اتباع سبيل الذين أغرقوا.

والمقصود من حكاية ذلك في القرآن التعريض بالمشركين من العرب فإنّهم من ذرّيّة نوح ولم يتّبعوا سبيل جدّهم، فأشعروا بأنّهم من الأمم التي أنبأ الله نوحا بأنّه سيمتّعهم ثم يمسّهم عذاب أليم.

{ **يَمَسُّهُمْ** } إطلاق المسّ على الإصابة القوية تقدّم عند قوله تعالى {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ} [الأنعام:17]. و{يَمَسُّهُمْ مِنَّا } لمقابلة قوله في ضدّه {بِسَلامٍ مِنَّا} ليعلموا أن ما يصيب الأمّة من الأحوال الزائدة على المعتاد في الخير والشرّ هو إعلام من الله بالرضى أو الغضب، لئلا يحسبوا ذلك من سنة ترتّب

المسبّبات العادية على أسبابها، إذ من حقّ النّاس أن يتبصّروا في الحوادث ويتوسّموا في جريان أحوالهم على مراد الله تعالى منهم، ويعلموا أنّ الله يخاطبهم بدلالة الكائنات عند انقطاع خطابه إيّاهم على ألسنة الرسل، فإنّ الرّسل يبيّنون لهم طرق الدلالة ويكلون إليهم النظر في وضع المدلولات عند دلالاتها.

{ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } [49]

استئناف أريد منه الامتنان على النبيء ﷺ والموعظة والتسلية. فالامتنان من قوله { مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا }، والموعظة من قوله { فَاصْبِرْ }، والتسلية من قوله { إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ }.

{ **تِلْكَ** } إشارة إلى ما تقدّم من قصّة نوح عليه السلام.

أنباء الغيب : الأخبار المغيّبة عن النّاس أو عن فريق منهم. فهذه الأنباء مغيّبة بالنسبة إلى العرب كلّهم لعدم علمهم بأكثر من مجملاتها.

{ **مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا** } ، فإنّهم لم ينكروا ذلك ولم يدّعوا علمه. على أنّ فيها ما هو غيب بالنسبة إلى جميع الأمم مثل قصة ابن نوح الرابع وعصيانه أباه وإصابته بالغرق، ومثل كلام الرب مع نوح - عليه السلام - عند هبوطه من السفينة، ومثل سخرية قومه به وهو يصنع الفلك، وما دار بين نوح - عليه السلام - وقومه من المحاورة، فإن ذلك كلّه ممّا لم يذكر في كتب أهل الكتاب.

{ **مِنْ قَبْلِ هَذَا** } الإشارة إمّا إلى القرآن، وإمّا إلى الوقت باعتبار ما في هذه القصة من الزيادة على ما ذكر في أمثالها مما تقدّم نزوله عليها.

{ **فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** } ووجه تفريع أمر الرسول بالصبر على هذه القصّة أنّ فيها قياس حاله مع قومه على حال نوح عليه السلام مع قومه، فكما صبر نوح - عليه السلام - فكانت العاقبة له، كذلك تكون العاقبة لك على قومك. أي اصبر لأنّ داعي الصبر قائم وهو أنّ العاقبة الحسنة تكون للمتقين.

العاقبة: الحالة التي تعقب حالة أخرى. وقد شاعت عند الإطلاق في حالة الخير.

{ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ [52] يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ [51] وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا

رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}[52].

ووصف هود بأنّه أخو عاد لأنّه كان من نسبهم. وتقدّم ذكر عاد وهود في سورة الأعراف.

{ **قَالَ يَا قَوْمِ** } افتتاح دعوته بنداء قومه لاسترعاء أسماعهم إشارة إلى أهمية ما سيلقى إليهم.

{ **مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } حال من ضمير {اعْبُدُوا} أو من اسم الجلالة. والحال لاستقصاد إبطال شركهم بأنّهم أشركوا غيره في عبادته في حال أنّهم لا إله لهم غيره، أو في حال أنّه لا إله لهم غيره. وذلك تشنيع للشرك.

{ **إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ** } توبيخ وإنكار. أي ما أنتم إلّا كاذبون في ادعاء إلهيّة غير الله تعالى.

{ **يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً** } النداء في أثناء الكلام تكرير للأهمية، يقصد به تهويل الأمر واسترعاء السمع اهتماما بما يستسمعونه. وإن كانت مقولة في وقت آخر، فكونها ابتداء كلام ظاهر.

{ **لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً** } تقدّم في قصة نوح عليه السلام، أي لا أسألكم أجرا على ما قلته لكم.

{ **الَّذِي فَطَرَنِي** } التعبير بالموصول دون الاسم العلم لزيادة تحقيق أنّه لا يسألهم على الإرشاد أجرا، بأنّه يعلم أن الذي خلقه يسوق إليه رزقه.

{ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** } فاء التفريع عاطفة استفهاما إنكاريا عن عدم تعقّلهم، أي تأمّلهم في دلالة حاله على صدقه فيما يبلّغ، ونصحه لهم فيما يأمرهم. والعقل: العلم.

{ **وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ** }

الاستغفار: طلب المغفرة للذنب، وهو هنا مكنى به عن ترك عقيدة الشرك.

التوبة: الإقلاع عن الذنب في المستقبل والندم على ما سلف منه. وفي ماهية التوبة العزم على عدم العود إلى الذنب، فيؤول إلى الأمر بالدوام على التوحيد ونفي الإشراك.

{ **يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً** }

الإرسال: بعث من مكان بعيد، فأطلق الإرسال على نزول المطر لأنّه حاصل بتقدير الله فشبّه بإرسال شيء من مكان المرسل إلى المبعوث إليه.

السماء: من أسماء المطر تسمية للشيء باسم مصدره. وفي الحديث " خطبنا رسول الله ﷺ على أثر سماء".

{ **مِدْرَاراً** } حال من السماء صيغة مبالغة من الدرور وهو الصبّ، أي **غزيرا**.

جعل جزاءهم على الاستغفار والتوبة إمدادهم بالمطر لأنّ ذلك من أعظم النعم عليهم في الدنيا إذ كانت عاد أهل زرع وكروم فكانوا بحاجة إلى الماء، وكانوا يجعلون السداد لخزن الماء. والأظهر أن الله أمسك عنهم المطر سنين فتناقص نسلهم ورزقهم جزاء على الشرك بعد أن أرسل إليهم هودا - عليه السلام -. فيكون الكلام وعدا وتنبيها على غضب الله عليهم، وقد كانت ديارهم من حضرموت إلى الأحقاف.

{ **وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ** } وكانوا أيضا معجبين بقوة أمّتهم وقالوا {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} [فصلت: 15] فلذلك جعل الله لهم جزاء على ترك الشرك زيادة قوّتهم بكثرة العدد وصحة الأجسام وسعة الأرزاق.

{ **وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ** } تحذيرا من الرجوع إلى الشرك. و**التولّي**: الانصراف. وهو هنا مجاز عن الإعراض.

{ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ [53] إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ [54] مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ [55] إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }[56]

{ **قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ** } محاورة منهم لهود - عليه السلام - بجواب عن دعوته، ولذلك جردت الجملة عن العاطف. وافتتاح كلامهم بالنداء يشير إلى الاهتمام بما سيقولونه، وأنّه جدير بأن يتنبّه له لأنّهم نزّلوه منزلة البعيد لغفلته فنادوه، فهو مستعمل في معناه الكنائي أيضا. وقد يكون مرادا منه مع ذلك توبيخه ولومه فيكون كناية ثانية، أو استعمال النداء في حقيقته ومجازه.

{ **مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ** } بهتان لأنّه أتاهم بمعجزات لقوله تعالى {وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ} [59] وإن كان القرآن لم يذكر آية معينة لهود عليه السلام. ولعلّ آيته أنّه وعدهم عند بعثته بوفرة الأرزاق والأولاد واطراد الخصب وفرة مطردة لا تنالهم في خلالها نكبة ولا مصيبة بحيث كانت خارقة لعادة النعمة في الأمم.

وفي الحديث الصحيح أنّ رسول الله ﷺ قال: " ما من الأنبياء نبي إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر". أو أرادوا أن البيّنات التي جاءهم بها هود عليه السلام لم تكن طبقا لمقترحاتهم.

{ **إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ** } استئناف بياني، أي نقول إنّك ممسوس من بعض آلهتنا.

الاعتراء: النزول والإصابة. والباء للملابسة، أي أصابك بسوء. ولا شكّ أنّهم يعنون أنّ آلهتهم أصابته بمس.

{ **قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ** }

لما جاءوا في كلامهم برفض ما دعاهم إليه وبجحد آياته وبتصميمهم على ملازمة عبادة أصنامهم وبالتنويه بتصرّف آلهتهم أجابهم هود عليه السلام بأنّه يُشهد الله عليهم أنّه أبلغهم وأنّهم كابروا وجحدوا آياته.

ثم حمّلهم شهادة له بأنّه بريء من شركائهم، مبادرة بإنكار المنكر.

{ **مِمَّا تُشْرِكُونَ** } الأصنام

{ **فَكِيدُونِي جَمِيعاً** } فرّع على البراءة، فأمر قومه بأن يكيدوه، وجعل الخطاب لقومه لئلا يكون خطابه لما لا

يعقل ولا يسمع، وأدخل في ضمير الكائدين أصنامهم مجاراة لاعتقادهم واستقصاء لتعجيزهم، أي أنتم وأصنامكم.

{ ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ } للتراخي الرتبي. تحدّاهم بأن يكيدوه ثم ارتقى في رتبة التعجيز والاحتقار فنهاهم عن التأخير بكيدهم إيّاه، وذلك نهاية الاستخفاف بأصنامهم وبهم وكناية عن كونهم لا يصلون إلى ذلك.

{ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ } تعليل لمضمون {فَكِيدُونِي} وهو التعجيز والاحتقار. يعني: أنّه واثق بعجزهم عن كيده لأنّه متوكل على الله.

{ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا } في محل صفة لاسم الجلالة، أو حال منه، والغرض منها مثل الغرض من صفة الربوبية.

الأخذ: الإمساك. و**الناصية**: ما انسدل على الجبهة من شعر الرأس. والأخذ بالناصية هنا تمثيل للتمكّن، تشبيها بهيئة إمساك الإنسان من ناصيته حيث يكون رأسه بيد آخذه فلا يستطيع انفلاتا.

{ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } تعليل لجملة { إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ}، أي توكلت عليه لأنه أهل لتوكلي عليه، لأنّه متّصف بإجراء أفعاله على طريق العدل والتأييد لرسله.

الصراط المستقيم، مستعار للفعل الجاري على مقتضى العدل والحكمة لأنّ العدل يشبه بالاستقامة والسواء.

{ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ } [57]

تفريع على جملة { إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ } [54]. وما بينهما اعتراض أوجبه قصد المبادرة بإبطال باطلهم، لأنّ مضمون هذه الجملة تفصيل لمضمون جملة { إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ } بناء على أنّ هذا من كلام هود عليه السلام .

{ تَوَلَّوْا } أصلها (تتولّوا) فحذفت إحدى التاءين اختصارا، فهو مضارع، وهو خطاب هود عليه السلام لقومه، وهو ظاهر إجراء الضمائر على وتيرة واحدة.

التولّي: الإعراض. وتقدّم في قوله تعالى { وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً } [النساء:80].

{ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ } جواب شرط التولّي، مع أنّ الإبلاغ سابق على التولّي المجعول شرطا، لأنّ المقصود بهذا الجواب هو لازم ذلك الإبلاغ، وهو انتفاء تبعة تولّيهم عنه وبراءته من جرمهم لأنّه أدى ما وجب عليه من الإبلاغ. كناية عن الإنذار بتبعة التولّي عليهم ونزول العقاب بهم.

{ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ } أي يزيلكم ويخلفكم بقوم آخرين لا يتولّون عن رسولهم، وهذا كقوله تعالى {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: 38].

{يَسْتَخْلِفُ} بالارتفاع في قراءة الكافة لأنّه معطوف على الجواب مجاز فيه الرفع والجزم. وإنّما كان **الرفع هنا أرجح** لإعطاء الفعل حكم الكلام المستأنف ليكون مقصودا بذاته لا تبعا للجواب، فبذلك يكون مقصودا به إخبارهم لإنذارهم بالاستئصال.

{ **وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً** } كذلك بالارتفاع للمقصد ذاته. والمراد لا تضرّون الله بتولّيكم شيئا.

{ **شَيْئاً** } مصدر مؤكّد لفعل {تَضُرُّونَهُ} المنفي. وتنكيره للتقليل، كما هو شأن تنكير لفظ الشيء غالبا. والمقصود من التأكيد التنصيص على العموم بنفي الضرّ لأنّه نكرة في حيّز النفي، أي فالله يلحق بكم الاستئصال، وهو أعظم الضرّ، ولا تضرّونه أقلّ ضرّ.

{ **إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ** } تعليل .فموقع { إِنَّ } فيها موقع فاء التفريع.

الحفيظ: أصله مبالغة الحافظ، وهو هنا كناية عن القدرة والقهر.

{ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } [58]

{ **وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا** } استعمال الماضي بمعنى اقتراب المجيء، لأنّ الإنجاء كان قبل حلول العذاب.

{ **أَمْرُنَا** } أطلق على أثر الأمر، وهو ما أمر الله به أمر تكوين، وهو العذاب، أي الريح العظيم..

{ **نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** } وكيفيّة إنجاء هود - عليه السلام - ومن معه تقدّم في [الأعراف:72].

{ **بِرَحْمَةٍ مِنَّا** } الباء للسببية، فكانت رحمة الله بهم سببا في نجاتهم.

{ **وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ** } أي نجّيناهم من عذاب الدنيا برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ في الآخرة. واستعمل الماضي في { وَنَجَّيْنَاهُمْ } في معنى المستقبل لتحقّق الوعد بوقوعه.

الغليظ: حقيقته الخشن ضدّ الرقيق، وهو مستعار للشديد.

{ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ [59] وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ }[60].

{ **وَتِلْكَ** } الإشارة إلى حاضر في الذهن بسبب ما أجري عليه من الحديث حتّى صار كأنّه حاضر في الحس والمشاهدة. وهو أيضا للتنبيه على أنّهم جديرون بما يأتي بعد اسم الإشارة من الخبر لأجل تلك الأوصاف المتقدّمة. وتأنيث اسم الإشارة بتأويل الأمة. و{ **عَادٌ** } بيان من اسم الإشارة.

{ **جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ** } خبر عن اسم الإشارة. وهو وما بعده تمهيد لزيادة تسجيل التمهيد بالأجرام السابقة، وهو الذي اقتضاه اسم الإشارة كما تقدم، لأن جميع ذلك من أسباب جمع العذابين لهم.

الجحد: الإنكار الشديد، مثل إنكار الواقعات والمشاهدات. وهذا يدلّ على أنّ هودا أتاهم بآيات فأنكروا دلالتها.

{ **وَعَصَوْا رُسُلَهُ** }، وإنما عصوا رسولا واحدا، وهو هود عليه السلام، لأنّ المراد ذكر إجرامهم، فناسب أن يناط الجرم بعصيان جنس الرّسل، لأنّ تكذيبهم هودا لم يكن خاصا بشخصه لأنهم قالوا له {وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ} ، فكل رسول جاء بأمر ترك عبادة الأصنام فهم مكذّبون به. ومثله قوله تعالى {كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ } [الشعراء: 123].

{ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ }

اتّباع الآمر: طاعة ما يأمرهم به، فالاتّباع تمثيل للعمل بما يملى على المتبع.

الجبّار: المتكبّر. و**العنيد**: مبالغة في المعاندة. فدلّ اتباعهم أمر الجبابرة المعاندين على أنّهم أطاعوا دعاة الكفر والضلال والظلم.

{ **كُلِّ** } من صيغ العموم، فإن أريد كل جبار عنيد من قومهم فالعموم حقيقي، وإن أريد جنس الجبابرة فمستعملة في الكثرة. منه قوله تعالى { يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ } [الحج:27].

{ **وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ** } مستعار لإصابتها إياهم إصابة عاجلة دون تأخير كما يتبع الماشي بمن يلحقه. ومما يزيد هذه الاستعارة حسنا ما فيها من المشاكلة ومن مماثلة العقاب للجرم، لأنّهم اتّبعوا الملعونين فأتبعوا باللعنة.

{ **أُتْبِعُوا** } بني للمجهول إذ لا غرض في بيان الفاعل، ليدل على أنّ إتّباعها لهم كان بأمر فاعل للإشعار بأنها تبعتهم عقابا من الله لا مجرد مصادفة.

اللعنة: الطرد بإهانة وتحقير.

{ **أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ** } مستأنفة ابتدائية افتتحت بحرف التنبيه لتهويل الخبر ومؤكدة بحرف {إن} لإفادة التعليل، تعريضا بالمشركين ليعتبروا بما أصاب عادا.

{ **أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ** } ابتدائية لإنشاء ذم لهم. وفائدة ذكر{ قَوْمِ هُودٍ } الإيماء إلى أنّ له أثرا في الذمّ بإعراضهم عن طاعة رسولهم، فيكون تعريضا بالمشركين من العرب.

{ بُعْداً } تقدم الكلام حولها في قصة نوح - عليه السلام - { وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [44].

{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ }[61]

ذكر ثمود وصالح - عليه السلام - تقدّم في سورة الأعراف. وثمود اسم جدّ سميت به القبيلة، فلذلك منع من الصرف بتأويل القبيلة.

{ **هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ** } في موضع التعليل للأمر بعبادة الله ونفي إلهيّة غيره، وكأنّهم كانوا مثل مشركي

قريش لا يدعون لأصنامهم خلقا ولا رزقا، فلذلك كانت الحجّة عليهم ناهضة واضحة.

الإنشاء: الإيجاد والإحداث، وتقدّم في قوله تعالى {وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ} [الأنعام:6].

والإنشاء من الأرض، خلق آدم، وإنّما ذكر تعلّق خلقهم بالأرض لأنّهم كانوا أهل غرس وزرع. كما في قوله { أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ } [الشعراء:146 - 148]، ولأنّهم كانوا ينحتون من جبال الأرض بيوتا ويبنون في الأرض قصورا، كما في قوله { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً} [الأعراف: 74]. فكانت لهم منافع من الأرض تناسب نعمة إنشائهم من الأرض. ولذلك عطف عليه { وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا }.

الاستعمار: الإعمار، أي جعلكم عامرينها، فالسين والتاء للمبالغة. ومعنى الإعمار أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع.

{ **فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ** } فرّع على التذكير بهذه النعم أمرهم باستغفاره والتوبة إليه، أي طلب مغفرة إجرامهم، والإقلاع عمّا لا يرضاه من الشرك والفساد. ومن تفنّن الأسلوب أن جعلت هذه النعم علّة لأمرهم بعبادة الله وحده بطريق جملة التعليل، وجعلت علّة أيضا للأمر بالاستغفار والتوبة بطريق التفريع.

{ **إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ** } استئناف بياني كأنّهم استعظموا أن يكون جرمهم ممّا يقبل الاستغفار عنه، فأجيبوا بأنّ الله قريب مجيب، وبذلك ظهر أنّ الجملة ليست بتعليل.

القرب: هنا مستعار للرأفة والإكرام، لأنّ البعد يستعار للجفاء والإعراض.

المجيب هنا: مجيب الدعاء، وهو الاستغفار. وإجابة الدعاء: إعطاء السائل مسؤوله.

{ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } [62]

هذا جوابهم عن دعوته البليغة الوجيزة الملأى إرشادا وهديا. وهو جواب ملئ بالضلال والمكابرة وضعف الحجة.

{ **يَا صَالِحُ** } افتتاح الكلام بالنداء لقصد التوبيخ أو الملام والتنبيه، كما تقدّم في قوله {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ} [53]. وقرينة التوبيخ هنا أظهر، وهي قولهم {قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا} فإنه تعريض بخيبة رجائهم فيه فهو تعنيف.

{ **قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا** }

الرجاء: ترقّب الخير، أي مرجوا للخير. و{قَدْ} لتأكيد الخبر. أي والآن وقع اليأس من خيرك. وهذا يفهم منه أنهم يعدون ما دعاهم إليه شرّا، وإنما خاطبوه بمثل هذا لأنّه بعث فيهم وهو شاب، وكان مرجوا لخصال

السيادة وحماية العشيرة ونصرة آلهتهم. كذا قال البغوي في تفسير سورة الأعراف.

{ **أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** } الاستفهام للإنكار والتوبيخ. وعبّروا عن أصنامهم بالموصول لما في الصلة من الدلالة على استحقاق تلك الأصنام أن يعبدوها في زعمهم اقتداء بآبائهم لأنّهم أسوة لهم، وذلك مما يزيد الإنكار اتجاها في اعتقادهم.

{ **وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** } فبعد أن ذكروا يأسهم من صلاح حاله ذكروا أنّهم يشكون في صدق أنّه مرسل إليهم، وزادوا ذلك تأكيدا بحرف التأكيد. ومن محاسن النكت هنا إثبات نون "إن" مع نون ضمير الجمع لأن ذلك زيادة إظهار لحرف التوكيد والإظهار ضرب من التحقيق بخلاف ما في سورة إبراهيم [9] من قول الأمّم لرسلهم {وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا} لأن الحكاية فيها عن أمم مختلفة في درجات التكذيب.

المريب: اسم فاعل من أراب إذا أوقع في الريب. يقال: رابه وأرابه بمعنى واحد. ووصف الشك بذلك تأكيد.

{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ }[63]

جواب عن كلامهم فلذلك لم تعطف، وهو الشأن في حكاية المحاورات كما تقدّم. وابتداء الجواب بالنداء لقصد التنبيه إلى ما سيقوله، اهتماما بشأنه. وخاطبهم بوصف القوميّة له للغرض الذي تقدّم في قصة نوح.

{ **أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً** } تقدّم الكلام على نظيرها في قصة نوح.

{ **فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ** } كذلك تقدّم الكلام على نظيرها في قصة نوح { مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ} [30].

{**فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ**} تفريع على الاستفهام الإنكاري، أي إذ كان ذلك فما دعاؤكم إياي إلّا سعي في خسراني. أي فما يحدث لي إن اتبعتكم وعصيت الله إلّا الخسران.

التخسير: مصدر خسر، إذا جعله خاسرا.

{ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ [64] فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ } [65]

{ **يَا قَوْمِ** } إعادة لمثل الغرض المتقدّم في قصة نوح { وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ } [30].

{ **هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ** } الإشارة بهذه إلى الناقة حين شاهدوا انفلاق الصخرة عنها. وإضافة الناقة إلى اسم الجلالة لأنّها خلقت بقدرة الله الخارقة للعادة.

{ **لَكُمْ آيَةً** } حالان من ناقة، وتقدّم نظير هذه الحال في سورة الأعراف.

{ **وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ** } أوصاهم بتجنب الاعتداء عليها لتوقّعه أنّهم يتصدّون لها، من تصلبهم في عنادهم.

{ **فَعَقَرُوهَا** } تقدّم عقرها وتفصيل ذلك في سورة الأعراف.

التمتّع: الانتفاع بالمتاع. وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [الأعراف:24].

الدار: البلد، وتقدّم في قوله تعالى {فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [الأعراف:78]، وذلك التأجيل استقصاء لهم في الدعوة إلى الحقّ.

المكذوب: الذي يخبر به الكاذب. يقال: كذب الخبر، إذا اختلقه.

{ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ [67] وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ [67] كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ } [68].

تقدّم الكلام على نظائر بعض هذه الآية في قصة هود في سورة الأعراف.

{ **وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ** }، أي نجّينا صالحا عليه السلام ومن معه من عذاب الاستئصال ومن الخزي المكيّف به العذاب، فإن العذاب يكون على كيفيّات بعضها أخزى من بعض. فالمقصود من العطف عطف منّة على منّة.

{ **يَوْمِئِذٍ** } تنوين عوض عن المضاف إليه. والتقدير: يوم إذ جاء أمرنا.

الخزي: الذلّ، وهو ذلّ العذاب.

{ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ** } معترضة. وقد أكّد الخبر بثلاث مؤكدات للاهتمام به.

{ **وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ** } عبّر عن ثمود بالذين ظلموا للإيماء بالموصول إلى علّة ترتّب الحكم، أي لظلمهم، وهو ظلم الشرك. وفيه تعريض بمشركي أهل مكّة بالتحذير من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك لأنّهم ظالمون أيضا.

الصيحة: الصاعقة أصابتهم.

{ **كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا** } كأن لم يقيموا.

{ **بُعْداً** } تقدم الكلام حولها في قصة نوح { وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [44].

{ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ [69] فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ

[70] وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ [71] قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ [71] قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } [73].

الغرض من هذه القصّة هو الموعظة بمصير قوم لوط إذ عصوا رسول ربّهم فحلّ بهم العذاب ولم تغن عنهم مجادلة إبراهيم. وقدّمت قصّة إبراهيم لذلك، وللتنويه بمقامه عند ربّه على وجه الإدماج.

الرّسل: الملائكة. قال تعالى { جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً } [فاطر:1].

البشرى: اسم. للتبشير والبشارة. وتقدّم عند قوله { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [البقرة :25].

وهذه البشرى هي التي في قوله { فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ } لأنّ بشارة زوجه بابن، بشارة له أيضا.

{ **قَالُوا سَلاماً** } بيان لـ {الْبُشْرَى}، لأنّ قولهم ذلك مبدأ البشرى، وإن ما اعترض بينها حكاية أحوال.

{ **قَالَ سَلامٌ** } ورفع المصدر أبلغ من نصبه، فهو أدلّ على الدوام والثبات. ولذلك خالف بينهما للدلالة على أنّ إبراهيم - عليه السلام - ردّ السلام بعبارة أحسن من عبارة الرّسل زيادة في الإكرام.

{ **فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ** } الفاء للدلالة على التعقيب، إسراعا في إكرام الضيف وتعجيل القرى.

اللبث، في المكان يقتضي الانتقال عنه، أي فما أبطأ مجيئه، أي عجّل.

الحنيذ: المشوي، وهو المحنوذ. والشيّ أسرع من الطبخ، فهو أعون على تعجيل إحضار الطعام للضيف.

{ **فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً** }

{ **لا تَصِلُ إِلَيْهِ** } أشد في عدم الأخذ. ونكر الشيءَ إذا أنكره أي كرهه.

وإنّما نكرهم لأنّه حسب أنّ إمساكهم عن الأكل لأجل التبرؤ من طعامه، وإنّما يكون ذلك في عادة النّاس في ذلك الزمان إذا كان النازل بالبيت يضمر شرا لمضيفه، لأن أكل طعام القرى كالعهد على السلامة من الأذى، لأنّ الجزاء على الإحسان بالإحسان مركوز في الفطرة، فإذا الكفّ أحد عن تناول الإحسان فذلك لأنّه لا يريد المسالمة ولا يرضى أن يكون كفورا للإحسان. ولذلك عقّب بـ { وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً } (مصدره الإيجاس)، أي أحسّ في نفسه خيفة منهم وأضمر ذلك. وذلك أنّه خشي أن يكونوا مضمرين شرّا له. وكانوا ثلاثة وكان إبراهيم - عليه السلام - وحده.

{ **قَالُوا لا تَخَفْ** } مفصولة عمّا قبلها، لأنّها أشبهت الجواب، لأنّه لما أوجس منهم خيفة ظهر أثرها على ملامحه، فكان ظهور أثرها بمنزلة قوله إنّي خفت منكم. أو هو جواب كلام مقدّر دلّ عليه قوله { فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً } ، أي وقال لهم: إنّي خفت منكم، كما حكي في قوله { قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ }[الحجر:52].

{ **إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ** } مكاشفة منهم إيّاه بأنّهم ملائكة. والجملة استئناف مبيّنة لسبب مجيئهم. والحكمة من ذلك كرامة إبراهيم عليه السلام وصدورهم عن علم منه.

{ **أُرْسِلْنَا** } حذف متعلقها، أي بأي شيء، إيجازا لظهوره من هذه القصة وغيرها.

{ **قَوْمِ لُوطٍ** } وعبّر عنهم بطريق الإضافة إذ لم يكن لأولئك الأقوام اسم يجمعهم ولا يرجعون إلى نسب بل كانوا خليطا من فصائل عرفوا بأسماء قراهم، وأشهرها سدوم كما تقدم في الأعراف.

{ **وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ** } ضحكت امرأة إبراهيم - عليه السلام - من تبشير الملائكة إبراهيم - عليه السلام - بغلام، وكان ضحكها ضحك تعجب واستبعاد. وقد وقع في التوراة في الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين: " وقالوا له: أين سارة امرأتك؟ فقال: ها هي في الخيمة. فقالوا: يكون لسارة امرأتك ابن، وكانت سارة سامعة في باب الخيمة فضحكت سارة في باطنها قائلة: أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت؟ "

فلما اقتضى ترتيب المحاورة تقديم جملة { قَالُوا لا تَخَفْ } حكيت قصة البشرى وما تبعها من المحاورة بطريقة الحال، لأنّ الحال تصلح للقبليّة وللمقارنة وللبعديّة، وهي الحال المقدّرة، لأنّ البشرى قد حصلت قبل أن يخبروه بأنّهم أرسلوا إلى قوم لوط كما في قوله { فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ} [الذاريات:28] .

{ **فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ** } لأنّها ما ضحكت إلّا بعد أن بشّرها الملائكة بابن، فلمّا تعجبت من ذلك بشّروها بابن الابن زيادة في البشرى. والتعجيب بأن يولد لها ابن ويعيش وتعيش هي حتى يولد لابنها ابن. وذلك أدخل في العجب.

{ **قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ** } صرّحت بتعجّبها الذي كتمته بالضحك.

الويلة: الحادثة الفظيعة والفضيحة. ولعلّها المرّة من الويل. وتستعمل في مقام التعجّب، يقال: يا ويلتي. واتفق القراء على قراءة {يَا وَيْلَتَى} (بفتحة مشبعة في آخره بألف). والألف التي في آخر {يَا وَيْلَتَى} هنا يجوز كونها عوضا عن ياء المتكلم في النداء.

البعل: الزوج. وسيأتي بيانه عند تفسير قوله تعالى { وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ } [النور:31]، فانظره.

{ **إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ** } جملة مؤكّدة لصيغة التعجّب فلذلك فصلت عن التي قبلها لكمال الاتصال.

{ **أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** } وجواب الملائكة إيّاها إنكار لتعجّبها، لأنّه تعجّب مراد منه الاستبعاد.

{ **أَمْرِ اللَّهِ** } هو أمر التكوين، أي أتعجبين من قدرة الله على خرق العادات.

{ **رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ** } تعليل لإنكار تعجّبها، لأنّ الإنكار في قوة النفي. فصار المعنى: لا عجب من أمر الله، لأنّ إعطاءك الولد رحمة من الله وبركة، فلا عجب في تعلّق قدرة الله بها، وأنتم أهلٌ لتلك الرحمة والبركة، فلا عجب في وقوعها عندكم.

{ **الْبَيْتِ** } تعريف حضور، أي بيت إبراهيم عليه السلام.

{ **إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ** } تعليل لتوجّه رحمته وبركاته إليهم بأنّ الله يحمد من يطيعه، وبأنّه مجيد، أي عظيم الشأن لا حد لنعمه فلا يعظم عليه أن يعطيها ولدا. وفي اختيار وصف الحميد من بين الأسماء الحسنى كناية عن رضى الله تعالى على إبراهيم – عليه السلام - وأهله.

{ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ [74] إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ [75] يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ } [76].

الروع: مرادف الخيفة.

المجادلة: المحاورة. وقد تقدّمت في قوله { وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ } [النساء:107]. والمجادلة هنا، دعاء ومناجاة سأل بها إبراهيم عليه السلام ربّه العفو عن قوم لوط خشية إهلاك المؤمنين منهم. وقد تكون المجادلة مع الملائكة، وعدّيت إلى ضمير الجلالة لأنّ المقصود من جدال الملائكة التعرض إلى أمر الله بصرف العذاب عن قوم لوط.

{ **فِي قَوْمِ لُوطٍ** } على تقدير مضاف، أي في عقاب قوم لوط. وهذا من تعليق الحكم باسم الذات، كقوله {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ} [المائدة: 3] أي أكلها.

{ **لَحَلِيمٌ** } الموصوف بالحلم وهو صفة تقتضي الصفح واحتمال الأذى.

{ **أَوَّاهٌ** } أصله الذي يكثر التأوّه، وهو قول: أوه. وأوه: اسم فعل نائب مناب أتوجّع، وهو هنا كناية عن شدّة اهتمامه بهموم النّاس.

{ **مُنِيبٌ** } من أناب إذا رجع، وهو مشتق من النوب وهو النزول. وحقيقة الإنابة: الرجوع إلى الشيء بعد مفارقته وتركه. والمراد هنا التوبة من التقصير، أي محاسب نفسه على ما يحذر منه.

{ **يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا** } مقول محذوف دلّ عليه المقام وهو من بديع الإيجاز، وهو وحي من الله إلى إبراهيم عليه السلام، أو جواب الملائكة إبراهيم عليه السلام.

{ **أَمْرُ رَبِّكَ** } قضاؤه، أي أمر تكوينه.

{ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ } [77].

وقد جاءوا لوطا كما جاءوا إبراهيم - عليهما السلام - في صورة البشر، فظنّهم ناسا وخشي أن يعتدي عليهم قومه بعادتهم الشنيعة، فلذلك سيء بهم.

{ **ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً** } ضاق ذرعه بسببهم، أي بسبب مجيئهم.

الذرع: مدّ الذراع فإذا أسند إلى الآدمي فهو تقدير المسافة. استعارة تمثيليّة لحال من لم يجد حيلة في أمر

يريد عمله بحال الذي لم يستطع مدّ ذراعه كما يشاء.
{ **هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ** } قاله في نفسه كما يناجي المرء نفسه إذا اشتد عليه أمر.
العصيب: الشديد فيما لا يرضي. يقال: يوم عصيب إذا حدث فيه أمر عظيم من أحوال النّاس أو أحوال الجوّ كشدّة البرد وشدة الحرّ.
ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنّها جاءت على ترتيب حصولها في الوجود، فإنّ أوّل ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يساء به ويتطلّب المخلص منه، فإذا علم أنّه لا مخلص منه ضاق به ذرعا، ثم يصدر تعبيرا عن المعاني وترتيبا عنه كلاما يريح به نفسه.

{ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ }[78]
أي جاءه بعض قومه. وهذا من إسناد الفعل إلى القبيلة إذا فعله بعضهم.
{ **يُهْرَعُونَ** } (بضم الياء وفتح الراء على صيغة المبني للمفعول) فسّروه بالمشي الشبيه بمشي المدفوع، وهو بين الخبب والجمز، فهو لا يكون إلّا مبنيا للمفعول لأنّ أصله مشي الأسير الذي يسرع به. إلّا أنّ ذلك تنوسي وبقي أهرع بمعنى سار سيرا كسير المدفوع. وفسّره في (الصحاح) و(القاموس) بأنّه الارتعاد من غضب أو خوف. وعلى الوجهين فجملة { يُهْرَعُونَ } حال.
{ **وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ** } طوى القرآن ذكر الغرض الذي جاؤوا لأجله، واكتفى بالإشارة إليه.
{ **قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ** }
افتتاح الكلام بالنداء وبأنّهم قومه ترقيق لنفوسهم عليه، لأنه يعلم تصلبهم في عادتهم.
والإشارة مستعملة في العرض، والتقدير: فخذوهنّ.
{ **هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ** } تعليل للعرض. والمعنى أنّهنّ حلال لكم يحلن بينكم وبين الفاحشة.
أراد نساء من قومه. وهذا معنى ما فسر به مجاهد، وابن جبير، وقتادة. وهذا أحسن المحامل.
وقيل: أراد بنات صلبه، وهو رواية عن قتادة. يجوز أن يكون تصرّفا بوصف النبوّة بالوحي للمصلحة.
{ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي** } أمرهم بتقوى الله ، أي خشيته والحذر من سوء المنقلب.
الخزي: الإهانة والمذلّة. وتقدم آنفا. وأراد مذلّته. أي لا تجعلوني مخزيّا عند ضيفي إذ يلحقهم أذى في ضيافتي، لأنّ الضيافة جوار عند رب المنزل، فإذا لحقت الضيف إهانة كانت عارا على رب المنزل.
الضيف: الضائف، النازل في منزل أحد نزولا غير دائم، لأجل مرور في سفر أو إجابة دعوة.
وقد ظنّ لوط - عليه السلام - الملائكة رجالا مارين ببيته عنده للاستراحة والطعام والمبيت.

{ **أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ** } إنكار وتوبيخ لأنّ إهانة الضيف مسبة لا يفعلها إلّا أهل السفاهة. وهذا إغراء لهم على التعقّل ليظهر فيهم من يتفطّن إلى فساد ما هم فيه فينهاهم.

{ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ [79] قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ } [80].

أي نحن نعلم أنّك قد علمت ما لنا رغبة في بناتك وإنّك تعلم مرادنا.

الحقّ: ما يحقّ، أي يجب لأحد أو عليه، فالظاهر أنّه أطلق هنا كناية عن عدم التعلّق بالشيء وعن التجافي عنه. وهو إطلاق لم أر مثله، وقد تحيّر المفسرون في تقريره. والمعنى: ما لنا في بناتك رغبة.

{ **لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً** } جواب يائس من ارعوائهم. و{ **لَوْ** } مستعملة في التمنّي، وهذا أقصى ما أمكنه في تغيير هذا المنكر. و{ **بِكُمْ** } الباء للاستعلاء، أي عليكم. يقال: ما لي به قوة وما لي به طاقة. ومنه قوله تعالى { قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ } [البقرة: 249].

والمعنى: ليت لي قوة أدفعكم بها، ويريد بذلك قوة أنصار، لأنّه كان غريبا بينهم.

{ **أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ** } أو أعتصم بما فيه منعة، أي بمكان أو ذي سلطان يمنعني منكم.

الركن: الشقّ من الجبل المتصل بالأرض.

{ قالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ } [81]

هذا كلام الملائكة للوط عليه السلام كاشفوه بأنّهم ملائكة مرسلون من الله تعالى. وهذا الكلام الذي كلّموا به لوطا عليه السلام وحي أوحاه الله إلى لوط - عليه السلام - بواسطة الملائكة.وابتدأ الملائكة خطابهم لوطا عليه السلام بالتعريف بأنفسهم لتعجيل الطمأنينة إلى نفسه. ثمّ ألحقوا هذا التعريف بالبشارة بقولهم {لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ} . وجيء بحرف تأكيد النفي للدلالة على أنّهم خاطبوه بما يزيل الشك من نفسه. وقد صرف الله الكفار عن لوط - عليه السلام - فرجعوا من حيث أتوا.

ووقع في التوراة أنّ الله أعمى أبصار المراودين لوطا - عليه السلام - عن ضيفه حتّى قالوا: إنّ ضيف لوط سحرة فانصرفوا. وذلك ظاهر قوله تعالى { وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ } [القمر:37].

{ **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ** } أمر بالسُرى (بضم السين والقصر)، وهو اسم مصدر للسير في الليل إلى الصباح. وفعله: سرى يقال بدون همزة في أوله ويقال: أسرى بالهمزة.

وقد جمعوه في الأمر مع أهله لأنّه إذا سرى بهم فقد سرى بنفسه.

القِطع (بكسر القاف): الجزء من الليل.

{ **وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ** } معترضة بين المستثنى والمستثنى منه. والالتفات المنهي عنه هو الالتفات إلى المكان المأمور بمغادرته كما دلّت عليه القرينة.

{ **إِلَّا امْرَأَتَكَ** } استثناء من { أَهْلِكَ }، والمعنى: لا تسر بها، أريد أن لا يعلمها بخروجه لأنّها كانت مخلصة لقومها فتخبرهم عن زوجها. وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو برفع {امْرَأَتُكَ}، على أنّه استثناء من {أَحَدٌ} الواقع في سياق النهي. والمعنى انّه نهاهم عن الالتفات فامتثلوا ولم تمتثل امرأته للنهي فالتفتت.

{ **إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ** } استعمال فعل الماضي في معنى الحال، ومقتضى الظاهر أن يقال: ما يصيبهم، فاستعمال فعل الماضي لتقريب زمن الماضي من الحال. أو في معنى الاستقبال تنبيها على تحقّق وقوعه.

{ **إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ** } مستأنفة ابتدائية قطعت عن التي قبلها اهتماما وتهويلا.

الموعد: وقت الوعد. والوعد أعم من الوعيد. والمراد بالموعد هنا موعد العذاب الذي علمه لوط عليه السلام إمّا بوحي سابق، وإمّا بقرينة الحال، وإمّا بإخبار من الملائكة في ذلك المقام، طوته الآية هنا إيجازا.

{ **أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ** } استئناف بياني صدر من الملائكة. والاستفهام تقريري، ولذلك يقع في مثله التقرير على النفي، إرخاء للعنان مع المخاطب المقرّر ليعرف خطأه. وإنّما قالوا ذلك في أوّل الليل.

{ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ [82] مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ } [83].

{ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا** } تقدّم الكلام على نظيره [66].

والمعنى أنّ القرية انقلبت عليهم انقلاب خسف حتّى صار عالي البيوت سافلا. أي وسافلها عاليا، وذلك من انقلاب الأرض بهم. وإنّما اقتصر على ذكر جعل العالي سافلا لأنّه أدخل في الإهانة.

السجّيل: فسّر بواد نار في جهنّم يقال: سجّيل باللام، وسجّين بالنون. وهو تشبيه بليغ.

وقد جاء في التوراة: أنّ الله أرسل عليهم كبريتا ونارا من السماء. ولعلّ الخسف فجّر من الأرض براكين قذفت عليهم حجارة معادن محرقة كالكبريت، أو لعلّ بركانا كان قريبا من مدنهم انفجر باضطرابات أرضية ثم زال من ذلك المكان بحوادث تعاقبت في القرون، أو طمى عليه البحر وبقي أثر البحر عليها حتى الآن، وهو المسمى بحيرة لوط أو البحر الميت.

المنضود: الموضوع بعضه على بعض. والمعنى هنا أنّها متتابعة متتالية في النزول ليس بينها فترة. والمراد وصف الحجارة بذلك، إلّا أنّ الحجارة لما جعلت من سجّيل أجري الوصف على سجّيل وهو يفضي إلى وصف الحجارة لأنّها منه.

المسوّمة: التي لها سيما، وهي العلامة. والعلامات توضع لأغراض، منها عدم الاشتباه، ومنها سهولة الإحضار، وهو هنا مكنى به عن المعدّة المهيّئة.

{ **عِنْدَ رَبِّكَ** } تسويمها عند الله هو تقديره إيّاها لهم.

{ **وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** } المعنى وما تلك القرية ببعيد عن المشركين، أي العرب، فمن شاء فليذهب إليها فينظر مصيرها، فالمراد البعد المكاني. ويصلح لأنّ يعود إلى الحجارة، أي وما تلك الحجارة ببعيد، أي أنّ الله قادر على أن يرمي المشركين بمثلها.

{ **بَعِيدٍ** } جرّد عن تاء التأنيث مع كونه خبرا عن الحجارة أو القرية، ومع كون { بَعِيدٍ } هنا بمعنى فاعل لا بمعنى مفعول، فالشأن أن يطابق موصوفه في تأنيثه، ولكن العرب قد يجرون فعيلا الذي بمعنى فاعل مجرى الذي بمعنى مفعول إذا جرى على مؤنث غير حقيقي التأنيث زيادة في التخفيف.

{ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ [84] وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [85] بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ } [86].

{ **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً** - إلى قوله - **مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** } نظير قوله { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً } [61].

أمرهم بثلاثة أمور:

أحدها: إصلاح الاعتقاد، وهو من إصلاح العقول والفكر.

الثاني: وهو شيء من صلاح العمل خصّ بالنهي، لأنّ إقدامهم عليه كان فاشيا فيهم حتّى نسوا ما فيه من قبح وفساد، وهذا هو الكف عن نقص المكيال والميزان.

الثالث: صلاح الأعمال والتصرّفات في العالم بأنّ لا يفسدوا في الأرض.

فابتدأ بالأمر بالتوحيد لأنّه أصل الصلاح ثم أعقبه بالنهي عن مظلمة كانت متفشية فيهم وهي خيانة المكيال والميزان. وقد تقدّم ذلك في سورة الأعراف. وهي مفسدة عظيمة لأنّها تجمع خصلتي السرقة والغدر، لأنّ المكتال مسترسل مستسلم. ونهاهم عن الإفساد في الأرض وعن نقص المكيال والميزان فعزّزه بالأمر بضدّه وهو إيفاؤهما.

{ **إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ** } تعليل للنهي عن نقص المكيال والميزان. أي أنّكم بخير. في معنى الشهادة عليهم بنعمة الله عليهم، فحقّ عليهم شكرها.

الخير: حسن الحالة. ويطلق على المال كقوله { إِنْ تَرَكَ خَيْراً } [البقرة: 180].

والأولى حمله عليه هنا ليكون أدخل في تعليل النهي، أي أنّكم في غنى عن هذا التطفيف بما أوتيتم من النعمة والثروة. وهذا التعليل يقتضي قبح ما يرتكبونه من التطفيف. وهذا حثّ على وسيلة بقاء النعمة.

{ **وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ** } ثم ارتقى في تعليل النهي بأنّه يخاف عليهم عذابا يحلّ بهم إمّا يوم القيامة وإمّا في الدنيا. ولصلوحيته للأمرين أجمله. وهذا تحذير من عواقب كفران النعمة وعصيان واهبها.

{ **وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ** } إعادة النداء لزيادة الاهتمام بالجملة والتنبيه لمضمونها، وهو الأمر بإيفاء المكيال والميزان. وهذا الأمر تأكيد للنهي عن نقصهما. والشيء يؤكّد بنفي ضدّه.

{ **بِالْقِسْطِ** } الباء للملابسة. أي العدل، تعليلا للأمر به، لأنّ العدل معروف حسن. وتنبيها على أنّ ضدّه ظلم وجور وهو قبيح منكر. والقسط تقدم في قوله تعالى { قَائِماً بِالْقِسْطِ } [آل عمران :18].

{ **وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** }

البخس: النقص. وتقدّم في قصّته في سورة الأعراف مفسّرا. وذكر ذلك بعد النهي عن نقص المكيال والميزان تذييل بالتعميم بعد تخصيص. لأنّ التطفيف من بخس النّاس في أشيائهم، وتعدية {تَبْخَسُوا} إلى مفعولين باعتباره ضدّ أعطى فهو من باب كسا.

العَثْيُ (بالياء) من باب سعى ورمى، وبالواو كدعا، هو: **الفساد**. ولذلك فقوله { مُفْسِدِينَ } حال مؤكّدة لعاملها مثل التوكيد اللفظي، مبالغة في النهي عن الفساد.

{ **فِي الْأَرْضِ** } المقصود منه تعميم أماكن الفساد.

وسلك في نهيهم عن الفساد مسلك التدرّج فابتدأه بنهيهم عن نوع من الفساد فاش فيهم وهو التطفيف. ثم ارتقى فنهاهم عن جنس ذلك النوع وهو أكل أموال النّاس. ثم ارتقى فنهاهم عن الجنس الأعلى للفساد الشامل لجميع أنواع المفاسد وهو الإفساد في الأرض كلّه. وهذا من أساليب الحكمة في تهيئة النفوس بقبول الإرشاد والكمال.

{ **بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ** } وإذ قد كانت غاية المفسد من الإفساد اجتلاب ما فيه نفع عاجل له من نوال ما يحبّه أعقب شعيب موعظته بما أدخره الله من الثواب على امتثال أمره، وهو النفع الباقي هو خير لهم مما يقترفونه من المتاع العاجل.

{ **بَقِيَّت** } كلمة جامعة لمعان في كلام العرب، منها: الدوام، ومؤذنة بضدّه وهو الزوال، فأفادت أن ما يقترفونه متاع زائل، وما يدعوهم إليه حظ باق غير زائل، وبقاؤه دنيوي وأخروي.

فأمّا كونه دنيويا فلأن الكسب الحلال ناشئ عن استحقاق شرعي فطري، فهو حاصل من تراض بين الأمّة فلا يحنق المأخوذ منه على آخذه فيعاديه ويتربص به الدوائر، فبتجنّب ذلك تبقى الأمّة في أمن من توثّب بعضها على بعض. ومن أجل ذلك قرن الأموال بالدماء في خطبة حجّة الوداع إذ قال النبيء صل الله عليه

وسلم: " إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام ". فكما أنّ إهراق الدماء بدون حقّ يفضي إلى التقاتل والتفاني بين الأمّة فكذلك انتزاع الأموال بدون وجهها يفضي إلى التواثب والتثاور فتكون معرضة للابتزاز والزوال.

وأيضا لأن نوالها بدون رضى الله عن وسائل أخذها كفران لله يعرّض إلى تسليط عقابه بسلبها من أصحابها.

قال ابن عطاء الله: " من لم يشكر النعم فقد تعرّض لزوالها ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها."

وأمّا كونه أخرويّا فلأنّ نهي الله عنها مقارنا للوعد بالجزاء على تركها، وذلك الجزاء من النعيم الخالد كما في قوله تعالى { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً } [مريم: 76].

على أن اللفظ يتحمّل معنى آخر من الفضل في كلام العرب، وهو معنى الخير والبركة، لأنّه لا يبقى إلّا ما يحتفظ به أصحابه وهو النفائس، ولذلك أطلقت (البقيّة) على الشيء النفيس المبارك كما في قوله تعالى { فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ} [البقرة: 248]، وقوله { فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ} [هود: 116].

وفي كلمة (البقية) معنى آخر وهو الإبقاء عليهم، والعرب يقولون عند طلب الكفّ عن القتال: ابقوا علينا.

ومعنى الآية: إبقاء الله عليكم ونجاتكم من عذاب الاستئصال خيرلكم من هذه الأعراض العاجلة سيّئة العاقبة، فيكون تعريضا بوعيد الاستئصال. وكل هذه المعاني صالحة هنا. ولعلّ كلام شعيب - عليه السلام - قد اشتمل على جميعها فحكاه القرآن بهذه الكلمة الجامعة.

{ **بَقِيَّتُ اللَّهِ** } إضافة إلى اسم الجلالة على المعاني كلّها جمعا وتفريقا، إضافة تشريف وتيمّن.

{ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** } إن كنتم مصدّقين بما أرسلت به إليكم، لأنّهم لا يتركون مفاسدهم ويرتكبون ما أمروا به إلّا إذا صدّقوا بأن ذلك من عند الله، فهنالك تكون بقية الله خيرا لهم، فموقع الشرط هو كون البقية خيرا لهم، أي لا تكون البقية خيرا إلّا للمؤمنين.

{ **وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** } أي افعلوا ذلك باختياركم لأنّه لصلاحكم ولست مكرهكم على فعله.

الحفيظ: المجبر، كقوله { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ} [الشورى: 48]، وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً } [الأنعام:107]. والمقصود من ذلك استنزال طائرهم لئلا يشمئزّوا من الأمر. وهذا استقصاء في الترغيب وحسن الجدال.

{ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ }[87]

كانت الصلاة من عماد الأديان كلّها. وكان المكذّبون الملحدون قد تمالؤوا في كلّ أمّة على إنكارها والاستهزاء بفاعلها { أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [الذاريات: 53]. فلمّا كانت الصلاة أخصّ أعماله

المخالفة لمعتادهم جعلوها المشيرة عليه بما بلّغه إليهم من أمور مخالفة لمعتادهم.

{ **أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** } معنى تركها ترك عبادتها.

{ **أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ** } أي أن نترك فعل ما نشاء في أموالنا فنكون طوع أمرك نفعل ما تأمرنا بفعله ونترك ما تأمرنا بتركه. و{ **أَو**} هنا للتقسيم، لأنّ منهم من لا يتّجر.

{ **إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** } استئناف تهكّم آخر. وقد جاءت الجملة مؤكدة بحرف (إنّ) ولام القسم وبصيغة القصر والضمير المنفصل، فاشتملت على أربعة مؤكّدات.

الحليم: ذو الحلم أي العقل، والرشيد: الحسن التدبير في المال.

{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [88]

تقدّم نظير الآية في قصّة نوح وقصة صالح - عليهما السلام- .

والمراد بالرزق الحسن هنا مثل المراد من الرحمة في كلام نوح وكلام صالح - عليهما السلام - وهو نعمة النبوءة، وإنّما عبر شعيّب - عليه السلام - عن النبوّة بالرزق على وجه التشبيه مشاكلة لقولهم { أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ} [87]، لأنّ الأموال أرزاق. وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه سياق الكلام، أو يدلّ عليه {إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} . والتقدير: ماذا يسعكم في تكذيبي، أو ماذا ينجيكم من عاقبة تكذيبي. وهو تحذير لهم على فرض احتمال أن يكون صادقا. أي فالحزم أن تأخذوا بهذا الاحتمال، أو فالحزم أن تنظروا في كنه ما نهيتكم عنه لتعلموا أنّه لصلاحكم.

{ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** } عند جميع المفسّرين من التّابعين فمن بعدهم: أي لم أكن لأنهاكم عن شيء وأنا أفعله. والمقصود: بيان أنّه مأمور بذلك أمرا يعمّ الأمّة وإيّاه وذلك شأن الشرائع، كما قال علماؤنا: إنّ خطاب الأمّة يشمل الرسول عليه الصلاة والسلام ما لم يدل دليل على تخصيصه بخلاف ذلك.

والذي يظهر لي في معنى الآية أنّ المراد من المخالفة المعاكسة والمنازعة، إمّا لأنّه عرف من ملامح تكذيبهم أنّهم توهّموه ساعيا إلى التملّك عليهم والتجبّر، وإمّا لأنّه أراد أن يقلع من نفوسهم خواطر الشرّ قبل أن تهجس فيها. وهذا المحمل في الآية يسمح به استعمال التركيب ومقاصد الرسل، وهو أشمل للمعاني من تفسير المتقدّمين، فلا ينبغي قصر تفسير الآية على ما قالوه لأنه لا يقابل قول قومه { أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ} [87]، فإنّهم ظنوا به أنّه ما قصد إلّا مخالفتهم وتخطئتهم ونفوا أن يكون له قصد صالح فيما دعاهم إليه، فكان مقتضى إبطال ظنّتهم أن ينفي أن يريد مجرد مخالفتهم،

بدليل قوله عقبه { إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ }. فالعنى أنه ما يريد مجرّد المخالفة كشأن المنتقدين المتقعّرين، ولكن يخالفهم لمقصد سام وهو إرادة إصلاحهم.

{ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ } بيان لجملة {مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ} لأن انتفاء إرادة المخالفة إلى ما نهاهم عنه مجمل فيما يريد إثباته من أضداد المنفي، فبيّنه بأنّ الضدّ المراد إثباته هو الإصلاح في جميع أوقات استطاعته، فالقصر قصر قلب.

{ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ } لمّا بيّن لهم حقيقة عمله وكان في بيانه ما يجرّ الثناء على نفسه أعقبه بإرجاع الفضل في ذلك إلى الله، فسمّى إرادته الإصلاح توفيقا، وجعله من الله، أي بإرادته وهديه.

التوفيق: جعل الشيء وفقا لآخر، أي طبقا له، ولذلك عرّفوه بأنّه خلق القدرة والداعية إلى الطاعة.

{ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }

التوكّل: مضى عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159].

الإنابة: تقدّمت آنفا في قوله { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [75].

{ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ [89] وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } [90]

تقدم الكلام على النكتة في إعادة النداء في الكلام الواحد لمخاطب متّحد قريبا.

{ لا يَجْرِمَنَّكُمْ } أي لا يكسبنّكم. وتقدم الكلام حولها عند قوله تعالى {وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ } [المائدة:2].

الشقاق: مصدر شاقه إذا عاداه. وقد مضت عند قوله تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [الأنفال:13].

والمعنى: لا تجرّ إليكم عداوتكم إيّاي إصابتكم بمثل ما أصاب قوم نوح إلى آخره. والمقصود نهيهم عن أن يجعلوا الشقاق سببا للإعراض عن النظر في دعوته، فيوقعوا أنفسهم في أن يصيبهم عذاب مثل ما أصاب الأمم قبلهم.

{ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ } والمراد بالبعد بعد الزمن والمكان والنسب، فزمن لوط - عليه السلام - غير بعيد في زمن شعيب - عليه السلام -، والديار قريبة من ديارهم، إذ منازل مدين عند عقبة أيلة مجاورة معان مما يلي الحجاز، وديار قوم لوط بناحية الأردن إلى البحر الميت، وكان مدين بن إبراهيم عليهما السلام وهو جد القبيلة المسماة باسمه، متزوجا بابنة لوط.

{ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ } عطف على جملة { لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي }.

{ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } تعليل للأمر باستغفاره والتوبة إليه، وهو تعليل لما يقتضيه الأمر من رجاء العفو عنهم إذا استغفروا وتابوا.

{ رَبَّكُمْ - رَبِّي } تفنّن في إضافة الرب إلى ضمير نفسه مرة وإلى ضمير قومه أخرى لتذكيرهم بأنّه ربّهم كيلا يستمروا على الإعراض وللتشرف بانتسابه إلى مخلوقيته.

الودود: مثال مبالغة من الودّ وهو المحبة. وتقدم عند قوله تعالى {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا} [النساء:89].

والمعنى: أنّ الله شديد المحبة لمن يتقرّب إليه بالتوبة.

{ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ }[91]

الفقه: الفهم. وتقدّم عند قوله تعالى {فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً } [النساء :78].

ومرادهم من هذا يحتمل أن يكون قصد المباهتة كما حكى الله عن المشركين { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ} [فصلت: 5]، وقوله عن إليهود {وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ} [البقرة: 88]. ويجوز أن يكون المراد **ما نتعقّله**، لأنّه عندهم كالمحال لمخالفته ما يألفون، كما حكى الله عن غيرهم بقوله {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [ص: 5]. وليس المراد عدم فهم كلامه لأنّ شعيبا عليه السلام كان مقوالا فصيحا، ووصفه النبيء ﷺ بأنّه خطيب الأنبياء.

{ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً } أي وإنك فينا لضعيف، أي غير ذي قوة ولا منعة. فالمراد الضعف عن المدافعة إذا راموا أذاه وذلك مما يرى لأنّه ترى دلائله وسماته.

ومن فساد التفاسير تفسير الضعيف بفاقد البصر وأنّه لغة حميرية فركّبوا منه أنّ شعيبا - عليه السلام - كان أعمى. ولم يعرف من الأثر ولا من كتب الأولين ما فيه أنّ شعيبا عليه السلام كان أعمى.

{ وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ } وهو المقصود ممّا مهد إليه من المقدّمات، أي لا يصدّنا عن رجمك شيء إلّا مكان رهطك فينا، لأنّك أوجبت رجمك بطعنك في ديننا.

الرهط، إذا أضيف إلى رجل أريد به القرابة الأدنون لأنّهم لا يكونون كثيرا، فأطلقوا عليهم لفظ الرهط الذي أصله الطائفة القليلة من الثلاثة إلى العشرة، ولم يقولوا قومك، لأنّ قومه قد نبذوه. وكان رهط شعيب عليه السلام من خاصة أهل دين قومه فلذلك وقّروهم بكف الأذى عن قريبهم لأنّهم يكرهون ما يؤذيه لقرابته.

الرجم: القتل بالحجارة رميا، وهو قتلة حقارة وخزي. وفيه دلالة على أنّ حكم من يخلع دينه الرجم في عوائدهم.

{ **وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ** } مؤكدة لمضمون {وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ} لأنّه إذا انتفى كونه قويّا في نفوسهم تعيّن أنّ كفّهم عن رجمه مع استحقاقه إيّاه في اعتقادهم ما كان إلّا لأجل إكرامهم رهطه لا للخوف منهم.

العزّة: القوّة والشدّة والغلبة. والعزيز: وصف منه، وتعديته بحرف (على) لما فيه من معنى الشدّة والوقع على النفس كقوله تعالى {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} [التوبة: 128].

وقصدهم من هذا الكلام تحذيره من الاستمرار على مخالفة رهطه بأنّهم يوشك أن يخلعوه ويبيحوا لهم رجمه.

{ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}[92]

لمّا أرادوا بالكلام الذي وجّهوه إليه تحذيره من الاستمرار على مخالفة دينهم، أجابهم بما يفيد أنّه لم يكن قط معوّلا على عزّة رهطه ولكنّه متوكّل على الله الذي هو أعزّ من كل عزيز.

وإعادة النداء للتنبيه لكلامه وأنّه متبصّر فيه. والاستفهام إنكاري، أي الله أعزّ من رهطي، وهو كناية عن اعتزازه بالله لا برهطه فلا يريبه عدم عزّة رهطه عليهم، وهذا تهديد لهم بأنّ الله ناصره.

{ **وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً** } في موضع الحال من اسم الجلالة، أي الله أعز.

الاتخاذ: الجعل، وتقدّم في قوله {أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً} [الأنعام [74].

الظِهريّ (بكسر الظاء): نسبة إلى الظهر على غير قياس، والتغييرات في الكلم لأجل النسبة كثيرة. والمراد بالظهري الكناية عن النسيان، أو الاستعارة لأنّ الشيء الموضوع بالوراء ينسى لقلّة مشاهدته، فهو يشبه الشيء المجعول خلف الظهر في ذلك، فوقع {ظِهْرِيّاً} حالا مؤكّدة للظرف إغراقا في معنى النسيان، لأنّهم اشتغلوا بالأصنام عن معرفة الله أو عن ملاحظة صفاته.

{ **إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** } استئناف، أو تعليل لمفهوم جملة { أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ } الذي هو توكّله عليه واستنصاره به.

المحيط: الموصوف بأنّه فاعل الإحاطة. وأصل الإحاطة: حصار شيء شيئا من جميع جهاته مثل إحاطة الظرف بالمظروف والسوار بالمعصم. ويطلق مجازا في قولهم: أحاط علمه بكذا. والمراد إحاطة علمه. وهذا تعريض بالتهديد، وأن الله يوشك أنّ يعاقبهم على ما علمه من أعمالهم.

{ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ }[93]

{ **اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ** } تقدم تفسير نظيرها في سورة الأنعام [136]. والأمر

للتهديد. والمعنى: أي اعملوا ما تحبّون أن تعملوه بي.

{ **سَوْفَ تَعْلَمُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، إذ لمّا فاتحهم بالتهديد كان ذلك ينشئ سؤالا في نفوسهم عمّا ينشأ على هذا التهديد فيجاب بالتهديد بـ {سَوْفَ تَعْلَمُونَ} . ولكونه كذلك كان مساويا للتفريع بالفاء الواقع في آية الأنعام في المآل، ولكنه أبلغ في الدلالة. ففي خطاب شعيب عليه السلام قومه من الشدّة ما ليس في الخطاب المأمور به النبيء ﷺ في سورة الأنعام.

{ **عَذَابٌ يُخْزِيهِ** } العذاب خزي لأنّه إهانة.

الارتقاب: الترقّب، وهو افتعال من رقبه إذا انتظره.

الرقيب هنا، فعيل بمعنى فاعل، أي أنّي معكم راقب، أي كلّ يرتقب ما يجازيه الله به إن كان كاذبا أو مكذّبا.

{ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ [94] كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ } [95]

عطف {لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا} هنا وفي قوله في قصّة عاد {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً} [59] بالواو فيهما وعطف نظيراهما في قصّة ثمود { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً } [66] وفي قصّة قوم لوط { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا } [82]، لأنّ قصتي ثمود وقوم لوط كان فيهما تعيين أجل العذاب الذي توعّد به النبيئان قومهما. ففي قصّة ثمود { فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ } [65]، وفي قصّة قوم لوط { إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ } [81]. فكان المقام مقتضيا ترقّب السامع لما حلّ بهم. وليس في قصّة عاد وقصّة مدين تعيين لموعد العذاب ولكن الوعيد فيهما مجمل.

{ **جاء أمرنا** - إلى قوله - **أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ** } تقدّم القول فيها في قصّة ثمود.

{ **بُعْداً** } تقدّم في قصّة نوح في قوله { وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [44].

{ **كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ** } فهو تشبيه البعد الذي هو انقراض مدين بانقراض ثمود. ووجه الشبه التماثل في سبب عقابهم بالاستئصال، وهو عذاب الصيحة.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ [97] إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ } [69].

عقّبت قصّة مدين بذكر بعثة موسى - عليه السلام - لقرب ما بين زمنيهما، ولشدّة الصلة بين النبيئين فإنّ

موسى بعث في حياة شعيب - عليهما السلام - وقد تزوّج ابنة شعيب.

{ بِآيَاتِنَا } الباء للمصاحبة فإنّ ظهور الآيات كان مصاحبا لزمن الإرسال.

السلطان: البرهان المبين، أي المظهر صدق الجائي به وهو الحجّة العقلية أو التأييد الإلهي.

وتقدّم ذكر فرعون وملئه في سورة الأعراف.

{ إِلَى فِرْعَوْنَ ... أَمْرَ فِرْعَوْنَ ... أَمْرُ فِرْعَوْنَ } وإظهار اسم فرعون في المرة الثانية دون الضمير والمرة الثالثة للتشهير، والإعلان بذمّه، وهو انتفاء الرشد عن أمره.

الرشيد: فعيل من رشد من باب نصر وفرح، إذا اتصف بإصابة الصواب. يقال: أرشدك الله. والمقصود أن أمر فرعون سفه إذ لا واسطة بين الرشد والسفه.

{ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ [98] وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ } [99].

{ يَقْدُمُ قَوْمَهُ } يجوز أن تكون في موضع الحال من { فِرْعَوْنَ }، ويجوز أن تكون استئنافا بيانيّا.

الإيراد: جعل الشيء واردا، أي قاصدا الماء، والذي يوردهم هو الفارط، ويقال له: الفرط.

الورد (كسر الواو): الماء المورود، وهو فعل بمعنى مفعول، مثل ذبح. استعارة الإيراد إلى التقدّم بالنّاس إلى العذاب، وهي تهكّميّة، لأنّ الإيراد يكون لأجل الانتفاع بالسقي، وأمّا التقدّم بقومه إلى النّار فهو ضدّ ذلك.

{ فَأَوْرَدَهُمُ } بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوع ذلك الإيراد، وإلّا فقرينة قوله {يَوْمَ الْقِيَامَةِ} تدل على أنّه لم يقع في الماضي.

{ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ } في موضع الحال والضمير المخصوص بالمدح المحذوف هو الرابط وهو تجريد للاستعارة، كقوله تعالى {بِئْسَ الشَّرَابُ} [الكهف: 29]، لأنّ الورد المشبّه به لا يكون مذموما.

الإتباع: الإلحاق.

اللعنة: هي لعنة العذاب في الدنيا وفي الآخرة.

{ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } متعلّق بـ {وَأُتْبِعُوا} ، فعلم أنهم أتبعوا لعنة يوم القيامة، لأن اللعنة الأولى قيدت بـ { فِي هَذِهِ }.

{ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ } مستأنفة لإنشاء ذمّ اللعنة. والمخصوص بالذمّ محذوف دلّ عليه ذكر اللعنة، أي بئس الرفد هي.

الرفد (بكسر الراء) اسم على وزن فعل بمعنى مفعول مثل ذبح. أي ما يرفد به، أي يعطى. يقال: رفده إذا

أعطاه ما يعينه به من مال ونحوه. وفي حذف المخصوص بالمدح إيجاز ليكون الذم متوجّها لإحدى اللعنتين لا على التعيين لأن كلتيهما بئيس. وإطلاق الرفد على اللعنة استعارة تهكّميّة.

المرفود: حقيقته المعطى شيئا. ووصف الرفد بالمرفود لأنّ كلتا اللعنتين معضودة بأخرى، فشبهت كل واحدة بمن أعطي عطاء فهي مرفودة. وإنما أجري المرفود على التذكير باعتبار أنه أطلق عليه رفد.

{ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ [100] وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } [101]

استئناف للتنويه بشأن الأنباء التي مرّ ذكرها.

الأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر، وتقدّم في قوله { وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ }[الأنعام:34] .

{ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ } حال من اسم الإشارة. وعبّر بالمضارع مع أنّ القصص مضى، لاستحضار حالة هذا القصص البليغ.

{ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ } معترضة، حال من {الْقُرَى}. القائم: الزرع المستقلّ على سوقه. والحصيد: الزرع المحصود. فعيل بمعنى مفعول. والمعنى: منها زرع قائم وزرع حصيد، وهذا تشبيه بليغ للباقي من القرى والعافي. والمراد بالقائم ما كان من القرى التي قصّها الله في القرآن قرى قائما بعضها كآثار بلد فرعون كالأهرام، ومثل آثار نينوى بلد قوم يونس. وأنطاكية قرية المرسلين الثلاثة، وصنعاء بلد قوم تبع. وقرى بائدة مثل ديار عاد، وقرى قوم لوط، وقرية مدين. وليس المراد القرى المذكورة في هذه السورة خاصة. والمقصود من هذه الجملة الاعتبار.

{ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ } ضمير الغيبة عائد إلى {الْقُرَى} باعتبار أهلها لأنّهم المقصود. وإنّما لم يظلمهم الله تعالى لأنّ ما أصابهم به من العذاب جزاء عن سوء أعمالهم فكانوا هم الظالمين أنفسهم إذ جرّوا لأنفسهم العذاب.

{ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ } وفرّع على ظلمهم أنفسهم انتفاء إغناء آلهتهم عنهم شيئا، فهم لمّا عبدوها كانوا يعبدونها للخلاص من طوارق الحدثان ولتكون لهم شفعاء عند الله وكانوا في أمن من أن ينالهم بأس في الدنيا اعتمادا على دفع أصنامهم عنهم فلمّا جاء أمرهم

بضدّ ذلك كان ذلك الضدّ مضادا لتأميلهم وتقديرهم.
والغرض من هذا التفريع التعريض بتحذير المشركين من العرب من الاعتماد على نفع الأصنام.
{ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } أي زادتهم أسباب الخسران.
التتبيب: مصدر تبّبه إذا أوقعه في التباب وهو **الخسارة**. وظاهر هذا أنّ أصنامهم زادتهم تتبيبا لمّا جاء أمر الله.

{ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [102]
الإشارة إلى المذكور من استئصال تلك القرى. والتقدير: وكذلك الأخذ الذي أخذنا به تلك القرى. والتشبيه في الكيفيّة والعاقبة.
والمقصود من هذا التذييل تعريض بتهديد مشركي العرب من أهل مكّة وغيرها.
الظلم: الشرك.
{ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } في موضع البيان. وفيه إشارة إلى وجه الشبه.

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ [103] **وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ }** [104].
بيان للتعريض، وتصريح بعد تلويح. والمعنى: وكذلك أخذ ربك فاحذروه واحذروا ما هو أشدّ منه وهو عذاب الآخرة. والإشارة إلى الأخذ المتقدّم. وفي هذا تخلّص إلى موعظة المسلمين والتعريض بمدحهم بأنّ مثلهم من ينتفع بالآيات ويعتبر بالعبر.
{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً } جعل عذاب الدنيا آية دالة على عذاب الآخرة لأنّ القرى الظالمة توعّدها الله بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فلمّا عاينوا عذاب الدنيا كان تحقّقه أمارة على تحقّق العذاب الآخر.
{ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ } معترضة للتنويه بشأن هذا اليوم. واللام في {مَجْمُوعٌ لَهُ} لام العلّة، أي مجموع النّاس لأجله. ومجيء الخبر جملة اسمية في الإخبار عن اليوم يدلّ على معنى الثبات، أي ثابت جمع الله النّاس لأجل ذلك اليوم.
{ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ } لزيادة التهويل لليوم بأنّه يُشهد. وطوي ذكر الفاعل إذ المراد يشهده الشاهدون.
والإخبار عنه بهذا يؤذن بأنّهم يشهدونه شهودا خاصا، وهو شهود الشيء المهول.
ويجوز أن يكون المشهود بمعنى المحقّق، أي مشهود بوقوعه، كما يقال: حقّ مشهود، أي عليه شهود لا

يستطاع إنكاره، واضح للعيان.

{ **وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ** } معترضة بين {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ} وبين {يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ} [105]. والمقصود الردّ على المنكرين للبعث، فبيّن الله لهم أنّ تأخيره إلى أجل حدّده الله له من يوم خلق العالم كما حدّد آجال الأحياء.

الأجل: أصله المدّة المنظر إليها في أمر، ويطلق أيضا على نهاية تلك المدّة، وهو المراد هنا بقرينة اللام، كما أريد في قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ } [الأعراف: 34].

المعدود: أصله المحسوب، وأطلق هنا كناية عن المعيّن المضبوط، بحيث لا يتأخّر ولا يتقدّم لأن المعدود يلزمه التعيّن. أو هو كناية عن القرب.

{ **يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ** [105] **فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ** [106] **خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ** [107] **وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ** } [108].

تفصيل لمدلول { ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ }، وبيّنت عظمة ذلك اليوم في الشرّ والخير تبعا لذلك التفصيل. فالمقصد الأوّل من هذه الجملة هو قوله {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} وما بعده، وأمّا ما قبله فتمهيد له أفصح عن عظمة ذلك اليوم. وقد جاء نظم الكلام على تقديم وتأخير اقتضاه وضع الاستطراد بتعظيم هول اليوم، في موضع الكلام المتّصل لأنّه أسعد بتناسب أغراض الكلام، والظروف صالحة لاتصال الكلام كصلاحية الحروف العاطفة وأدوات الشرط.

{ **يَوْمَ يَأْتِ** } مستعمل في معنى (حين) أو (ساعة)، وهو استعمال شائع في الكلام العربي في لفظ (يوم) و(ليلة) توسّعا بإطلاقهما على جزء من زمانهما.

ومعناه حين يأتي. وضمير {يَأْتِ} عائد إلى { يَوْمٌ مَشْهُودٌ } [103] وهو يوم القيامة. والمراد بإتيانه وقوعه وحلوله كقوله {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ} [الزخرف: 66].

{ **لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ** } مستأنفة ابتدائية. والتقدير: لا تكلّم نفس حين يحلّ اليوم المشهود.

{ **إِلَّا بِإِذْنِهِ** } الضميرعائد إلى الله تعالى المفهوم من المقام ومن ضمير {نُؤَخِّرُهُ} [104]. والمعنى أنّه لا يتكلّم أحد إلّا بإذن من الله. والمقصود من هذا إبطال اعتقاد أهل الجاهلية أنّ الأصنام لها حقّ الشفاعة عند الله.

{ **نَفْسٌ** } يعمّ جميع النفوس لوقوعه في سياق النفي، فشمل النفوس البرّة والفاجرة، وشمل كلام الشافع وكلام

المجادل عن نفسه.

الشقيّ: فعيل صفة مشبّهة من شقي، إذا تلبّس بالشقاء والشقاوة، أي سوء الحالة وشرّها.

السعيد: ضدّ الشقي، وهو المتلبّس بالسعادة التي هي الأحوال الحسنة الخيّرة.

والمعنى: فمنهم يومئذ من هو في عذاب وشدّة ومنهم من هو في نعمة ورخاء.

{ **فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا** } تفصيل

الزفير: إخراج الأنفاس بدفع وشدّة بسبب ضغط التنفس.

الشهيق: عكسه وهو اجتلاب الهواء إلى الصدر بشدة لقوة الاحتياج إلى التنفس.

{ **مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ** } التأييد لأنّه جرى مجرى المثل، وإلّا فإنّ السماوات والأرض المعروفة تضمحّل يومئذ، قال تعالى { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ } [إبراهيم: 48]. أو يراد سماوات الآخرة وأرضها.

{ **إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ** } استثناء من الأزمان التي عمّها الظرف، أي إلّا الأزمان التي شاء الله فيها عدم خلودهم، ويستتبع ذلك استثناء بعض الخالدين تبعا للأزمان. وقد تكرّر هذا الاستثناء في الآية مرتين.

فأمّا الأول منهما، فالمقصود أنّ أهل النّار مراتب في طول المدة فمنهم من يعذب ثم يعفى عنه، مثل أهل المعاصي من الموحّدين، كما في الصحيح من حديث أنس: " يدخل ناس جهنّم حتّى إذا صاروا كالحممة أخرجوا وأدخلوا الجنة فيقال: هؤلاء الجهنّميّون ".

ومنهم الخالدون وهم المشركون والكفار.

{ **إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ** } استئناف بياني ناشئ عن الاستثناء. وهذا مظهر من مظاهر التفويض إلى الله.

{ **وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا** } وأمّا الاستثناء الثاني في هذا القول فيحتمل معنيين:

أحدهما: أن يراد إلّا ما شاء ربك في أول أزمنة القيامة، وهي المدّة التي يدخل فيها عصاة المؤمنين غير التائبين في العذاب إلى أن يعفو الله عنهم بفضله بدون شفاعة، أو بشفاعة.

ويحتمل أن يقصد منه التحذير من توهّم استحقاق أحد ذلك النعيم حقّا على الله، بل هو مظهر من مظاهر الفضل والرحمة.

وقد دلّت الوعود الإلهيّة على أنّ الله لا يشاء إخراج أهل الجنّة منها. وأيّا ما كان فهم إذا أدخلوا الجنّة كانوا خالدين فيها فلا ينقطع عنهم نعيمها. وهو معنى قوله {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ }.

المجذوذ: المقطوع.

{ **سُعِدُوا** } بمعنى أسعدوا. وقيل: سعد متعد في لغة هذيل وتميم، يقولون: سعده الله بمعنى أسعده. وخرج أيضا على أنّ أصله أسعدوا. ومنه قولهم: رجل مسعود.

{ **فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ** }[109]

تفريع على القصص الماضية فإنّها تكسب سامعها يقينا بباطل ما عليه عبدة الأصنام وبخيبة ما أمّلوه فيهم من الشفاعة في الدنيا، وإنّ سابق شقائهم في الدنيا بعذاب الاستئصال يؤذن بسوء حالهم في الآخرة، ففرّع على ذلك نهي السامع أن يشكّ في سوء الشرك وفساده.

{ **فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ** } الخطاب يقصد به أي سامع سواء كان ممن يظنّ به أن يشكّ في ذلك أم لا.

ويجوز أن يكون الخطاب للنبيء ﷺ، ويكون مقصودا به مجرد تحقيق الخبر، فإنّه جرى مجرى المثل في ذلك في كلام العرب مثل كلمة: لا شك، ولا محالة، ولا أعرفنك، ونحوها.

ويجوز أن يكون تثبيتا للنبيء ﷺ على ما يلقاه من قومه من التصلّب في الشرك، أي لا تكن شاكا في أنّك لقيت من قومك من التكذيب مثل ما لقيته الرسل من أممهم فإنّ هؤلاء ما يعبدون إلّا عبادة كما يعبد آباؤهم من قبل متوارثينها عن أسلافهم من الأمم البائدة.

المِرية (بكسر الميم): الشكّ. أصل المراد المجادلة والمدافعة مستعارا من مريت الشاة إذا استخرجت لبنها. ومنه قولهم: لا يجارى ولا يمارى. وفي القرآن { أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى } [النجم: 12]. وتقدّم **الامتراء** عند قوله { ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ } [الأنعام:2].

{ **مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ** } الإشارة بهؤلاء إلى مشركي قريش. وقد تتبعت اصطلاح القرآن فوجدته عناهم باسم الإشارة هذا في نحو أحد عشر موضعا وهو مما ألهمت إليه ونبهت عليه عند قوله تعالى { وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً } [النساء:41].

{ **مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ** } مستأنفة، تعليلا لانتفاء الشك في عاقبة أمرهم في الدنيا.

ووجه كونه علّة أنّه لمّا كان دينهم عين دين من كان قبلهم من آبائهم، وقد بلغكم ما فعل الله بهم عقابا على دينهم، فأنتم توقنون بأنّ جزاءهم سيكون مماثلا لجزاء أسلافهم، لأنّ حكمة الله تقتضي المساواة في الجزاء على الأعمال المتماثلة.

الآباء: أطلق على الأسلاف، وهم عاد وثمود. وذلك أنّ العرب العدنانيين كانت أمّهم جرهميّة، وهي امرأة إسماعيل، وجرهم من إخوة ثمود، وثمود إخوة لعاد، ولأنّ قريشا كانت أمّهم خزاعية وهي زوج قصي.

وعبادة الأصنام في العرب أتاهم بها عمرو بن يحيى، وهو جدّ خزاعة.

وعبّر عن عبادة الآباء بالمضارع للدلالة على استمرارهم على تلك العبادة، أي إلّا كما اعتاد آباؤهم عبادتهم.

{ **وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ** } المعنى: وإنّا لموفوهم نصيبهم من العذاب كما وفّينا أسلافهم.
التوفية: إكمال الشيء غير منقوص.
النصيب: أصله الحظّ. وقد استعمل (موفوهم) و(نصيبهم) هنا استعمالا تهكّميا كأنّ لهم عطاء يسألونه فوفّوه، فوقع قوله { غَيْرَ مَنْقُوصٍ } حالا مؤكدة لتحقيق التوفية زيادة في التهكم.
والمراد نصيبهم من عذاب الآخرة، فإن الله لم يستأصلهم كما استأصل الأمم السابقة ببركة النبيء ﷺ إذ قال: " لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده ".

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ** } [110].
{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ** }.
اعتراض لتثبيت النبيء ﷺ وتسليته بأنّ أهل الكتاب، وهم أحسن حالا من أهل الشرك، قد أوتوا الكتاب فاختلفوا فيه، وهم أهل ملّة واحدة فلا تأس من اختلاف قومك عليك.
{ **فَاخْتُلِفَ فِيهِ** } أي في الكتاب، وهو التوراة. وبني الفعل للمجهول إذ الغرض لم يكن متعلّقا ببيان المختلفين ولا بذمّهم، بل كان للتحذير من الوقوع في مثله. ومعنى الاختلاف فيه اختلاف أهل التوراة في تقرير بعضها وإبطال بعض، وفي إظهار بعضها وإخفاء بعض مثل حكم الرجم، وفي تأويل البعض على هواهم، وفي إلحاق أشياء بالكتاب على أنّها منه. فهذا من شأنه أن يقع من بعضهم لا من جميعهم فيقتضي الاختلاف بينهم بين مثبت وناف. وهذا الاختلاف بأنواعه وأحواله يرجع إلى الاختلاف في شيء من الكتاب. فجمعت هذه المعاني جمعا بديعا في تعدية الاختلاف بحرف (في) الدالة على الظرفية المجازية وهي كالملابسة، أي فاختلف اختلافا يلابسه، أي يلابس الكتاب.
{ **وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** } أي ولولا ما سبق من حكمة الله أن يؤخّر عنهم العذاب لقضي بينهم، أي لقضى الله بينهم، فأهلك المشركين والمخالفين ونصر المؤمنين.
أي فعليكم بالحذر من الاختلاف في كتابكم فإنّكم إن اختلفتم بقيتم في شك ولحقكم جزاء أعمالكم.
{ **الكلمة** } هي إرادة الله الأزليّة وسنّته في خلقه. وهي أنّه وكّل النّاس إلى إرشاد الرّسل للدعوة إلى الله، وإلى النظر في الآيات، ثمّ إلى بذل الاجتهاد التام في إصابة الحقّ، والسعي إلى الاتفاق ونبذ الخلاف بصرف الأفهام السديدة إلى المعاني، وبالمراجعة فيما بينهم، والتبصّر في الحق، والإنصاف في الجدل والاستدلال، وأن يجعلوا الحق غايتهم والاجتهاد دأبهم.
{ **سَبَقَتْ** } ووصفها بالسبق لأنّها أزليّة، باعتبار تعلّق العلم بوقوعها، وبأنّها ترجع إلى سنة كلّيّة تقرّرت من

قبل.

{ **لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ** } قضاء استئصال المُبْطل واستبقاء المُحقّ، كما قضى الله بين الرّسل والمكذّبين، ولكن إرادة الله اقتضت خلاف ذلك بالنسبة إلى فهم الأمّة كتابها.

{ **وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ** } أي أنّ المشركين لفي شك من توفية نصيبهم لأنّهم لا يؤمنون بالبعث.

ويجوز أن تكون عطفا على جملة {فَاخْتُلِفَ فِيهِ} ، أي فاختلف فيه أهل الكتاب، أي اختلف أهل الكتاب في كتابهم وإنّهم لفي شك.

{ **مِنْهُ** } يجوز أن يعود إلى توراة. ويجوز أن يكون ضمير عائدا إلى القرآن.

المريب: الموقع في الشكّ.

{ وَإِنَّ كُلّاً لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [111]

تذييل للأخبار السابقة، والواو اعتراضية. أي كلّ المذكورين آنفا من أهل القرى، ومن المشركين المعرّض بهم، ومن المختلفين في الكتاب من أتباع موسى - عليه السلام- .

ومعنى الكثرة في هذه الآية الكناية عن عدم إفلات فريق من المختلفين في الكتاب من إلحاق الجزاء عن عمله به.

والمعنى: وإن جميعهم للاقون جزاء أعمالهم لا يفلت منهم أحد، وإنّ توفية الله إياهم أعمالهم حقّقه الله ولم يسامح فيه. فهذا التخريج هو أولى الوجوه التي خرجت عليها هذه القراءة وهو مروي عن الفرّاء وتبعه المهدوي ونصر الشيرازي النحوي، ومشى عليه البيضاوي.

وتوفية أعمالهم بمعنى توفية جزاء الأعمال، أي إعطاء الجزاء وافيا من الخير على عمل الخير ومن السوء على عمل السوء.

{ **إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** } استئناف وتعليل للتوفية لأنّ إحاطة العلم بأعمالهم مع إرادة جزائهم توجب أن يكون الجزاء مطابقا للعمل تمام المطابقة. وذلك محقّق التوفية.

{ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [112]

{ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ }

ترتّب عن التسلية التي تضمّنها قوله { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ } [110] وعن التثبيت المفاد بقوله { فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ } [109] الحضّ على الدوام على التمسّك بالإسلام على وجه قويم. وعبّر عن ذلك بالاستقامة لإفادة الدوام على العمل بتعاليم الإسلام، دواما جماعه الاستقامة عليه والحذر من

تغييره.
ولمّا كان الاختلاف في كتاب موسى عليه السلام إنما جاء من أهل الكتاب عطف على أمر النبيء صلى الله عليه وسلم بالاستقامة على كتابه أمر المؤمنين بتلك الاستقامة أيضا، لأن الاعوجاج من دواعي الاختلاف في الكتاب بنهوض فرق من الأمة إلى تبديله لمجاراة أهوائهم، ولأنّ مخالفة الأمّة عمدا إلى أحكام كتابها إن هو إلّا ضرب من ضروب الاختلاف فيه، لأنّه اختلافها على أحكامه. وفي الحديث: " فإنّما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم" ، فلا جرم أن كانت الاستقامة حائلا دون ذلك، إذ الاستقامة هي العمل بكمال الشريعة بحيث لا ينحرف عنها قيد شبر. ومتعلّقها العمل بالشريعة بعد الإيمان لأنّ الإيمان أصل فلا تتعلق به الاستقامة. وقد أشار إلى صحّة هذا المعنى قول النبيء ﷺ لأبي عمرة الثقفي لمّا قال له: " يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك. قال: قل آمنت بالله ثم استقم ". فجعل الاستقامة شيئا بعد الإيمان.
ووجّه الأمر إلى النبيء ﷺ تنويها ليبنى عليه قوله {كَمَا أُمِرْتَ} فيشير إلى أنّه المتلقّي للأوامر الشرعية ابتداء. وهذا تنويه له بمقام رسالته، ثم أعلم بخطاب أمته بذلك بقوله {وَمَنْ تَابَ مَعَكَ}، وهم المؤمنون، لأن الإيمان توبة من الشرك.
قال ابن عباس: " ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه. ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب " شيبتي هود وأخواتها ". وسئل عما في هود فقال: قوله {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ }.
{ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } الخطاب موجّه إلى المؤمنين.
الطغيان: أصله التعاظم والجراءة وقلّة الاكتراث، وتقدّم في قوله {وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [البقرة:15]. والمراد هنا الجراءة على مخالفة ما أمروا به. فنهى الله المسلمين عن مخالفة أحكام كتابه.
وقد شمل الطغيان أصول المفاسد، فكانت الآية جامعة لإقامة المصالح ودرء المفاسد، فكان النهي عنه جامعا لأحوال مصادر الفساد من نفس المفسد وبقي ما يخشى عليه من عدوى فساد خليطه فهو المنهى عنه بقوله بعد هذا { وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ } [113]. وعن الحسن البصري: جعل الله الدين بين لاءين {وَلا تَطْغَوْا} {وَلا تَرْكَنُوا}.
{ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } استئناف لتحذير من أخفى الطغيان بأنّ الله مطّلع على كل عمل يعمله المسلمون، ولذلك اختير وصف {بَصِيرٌ} من بين بقية الأسماء الحسنى لدلالة مادته على العلم البين ودلالة صيغته على قوته.

{ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ}[113]

الركون: الميل والموافقة. ولعلّه مشتق من الرُكْن (بضم فسكون) وهو الجنب، لأنّ المائل يدني جنبه إلى الشيء الممال إليه. وهو هنا مستعار للموافق، فبعد أن نهاهم عن الطغيان نهاهم عن التقارب من المشركين لئلا يضلّوهم ويزلّوهم عن الإسلام.

{ الَّذِينَ ظَلَمُوا } هم المشركون. وهذه الآية أصل في سد ذرائع الفساد المحقّقة أو المظنونة.

المسّ: مستعمل في الإصابة. والمراد: نار العذاب في جهنّم.

{ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ } حال، أي لا تجدون من يسعى لما ينفعكم.

{ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ } للتراخي الرتبي، أي ولا تجدون من ينصركم، أي من يخفّف عنكم مسّ عذاب النّار أو يخرجكم منها.

{ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}[114]

انتقل من خطاب المؤمنين إلى خطاب النبيء ﷺ وهذا الخطاب يتناول جميع الأمّة بقرينة أنّ المأمور به من الواجبات على جميع المسلمين، لا سيما وقد ذكر معه ما يناسب الأوقات المعيّنة للصلوات الخمس، وذلك ما اقتضاه حديث أبي اليسر الآتي.

طرف الشيء: منتهاه من أوله أو من آخره، فالتثنية صريحة في أن المراد أوّل النهار وآخره.

{ النَّهَارِ } : ما بين الفجر إلى غروب الشمس، سمّي نهارا لأنّ الضياء ينهر فيه، أي يبرز كما يبرز النهر. والأمر بالإقامة يؤذن بأنّه عمل واجب لأنّ الإقامة إيقاع العمل على ما يستحقّه، فتقتضي أنّ المراد بالصلاة هنا الصلاة المفروضة، فالطرفان ظرفان لإقامة الصلاة المفروضة، فعلم أنّ المأمور إيقاع صلاة في أوّل النّهار وهي الصبح وصلاة في آخره وهي العصر وقيل المغرب.

{ زُلَفاً }، جمع زلفة مثل غرفة وغرف، وهي الساعة القريبة من أختها، فعلم أنّ المأمور إيقاع الصلاة في زلف من الليل، ولمّا لم تعيّن الصلوات المأمور بإقامتها في هذه المدة من الزمان كان ذلك مجملا فبيّنته السنّة والعمل المتواتر بخمس صلوات هي الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء، وكان ذلك بيانا لآيات كثيرة في القرآن كانت مجملة في تعيين أوقات الصلوات مثل قوله تعالى { أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً} [الإسراء: 78].

والمقصود أن تكون الصلاة أوّل أعمال المسلم إذا أصبح وهي صلاة الصبح وآخر أعماله إذا أمسى وهي

صلاة العشاء لتكون السيّئات الحاصلة فيما بين ذلك ممحوّة بالحسنات الحافة بها. وهذا مشير إلى حكمة كراهة الحديث بعد صلاة العشاء. وقد ثبت وجوبهما بأدلة أخر وليس في هذه الآية ما يقتضي حصر الوجوب في المذكور فيها.

{ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** } مسوقة مساق التعليل للأمر بإقامة الصلوات، وتأكيد الجملة بحرف { **إِنَّ** } للاهتمام وتحقيق الخبر.

وإذهاب السيئات يشمل إذهاب وقوعها بأن يصير انسياق النفس إلى ترك السيئات سهلا وهيّنا. ويشمل أيضا محو إثمها إذا وقعت، ويكون هذا من خصائص الحسنات كلّها فضلا من الله على عباده الصالحين.

ومحمل السيئات هنا على السيئات الصغائر التي هي من اللمم حملا لمطلق هذه الآية على مقيّد آية { الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ} [النجم: 32] وقوله تعالى {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [النساء:31]، فيحصل من مجموع الآيات أنّ اجتناب الفواحش جعله الله سببا لغفران الصغائر أو أنّ الإتيان بالحسنات يذهب أثر السيئات الصغائر، وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [النساء 31].

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: " أنّ رجلا أصاب من امرأة قبلة حرام فأتى النبيء ﷺ فذكر ذلك فأنزلت عليه {وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ} . فقال الرجل: ألي هذه؟ قال: لمن عمل بها من أمتي ".

والظاهر أن المروي في هذه الآية هو الذي حمل ابن عباس وقتادة على القول بأن هذه الآية مدنية دون بقية هذه السورة لأنّه وقع عند البخاري والترمذي قوله: " فأنزلت عليه " فإن كان كذلك كما ذكره الراوي فهذه الآية ألحقت بهذه السورة في هذا المكان لمناسبة وقوع قوله {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} [112] قبلها وقوله {وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [115] بعدها.

وأما الذين رجّحوا أن السورة كلّها مكّية فقالوا: إن الآية نزلت في الأمر بإقامة الصلوات وإن النبيء صلى الله عليه وسلم أخبر بها الذي سأله عن القبلة الحرام وقد جاء تائبا. ويؤيد ذلك ما في رواية الترمذي عن علقمة والأسود عن ابن مسعود قوله: فتلا عليه رسول الله ﷺ {وَأَقِمِ الصَّلاةَ} ، ولم يقولا: فأنزل عليه.

{ **ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ** } أي تذكرة للذي شأنه أن يذّكر ولم يكن شأنه الإعراض عن طلب الرشد والخير.

{ **وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** }[115]

سيقت مساق التثبيت من جرّاء تأخير عقاب الذين كذبوا. ومناسبة وقوع الأمر بالصبر عقب الأمر بالاستقامة

والنهي عن الركون إلى الذين ظلموا، أنّ المأمورات لا تخلو عن مشقّة عظيمة ومخالفة لهوى كثير من النفوس، فناسب أن يكون الأمر بالصبر بعد ذلك ليكون الصبر على الجميع كلّ بما يناسبه.
وتوجيه الخطاب إلى النبيء ﷺ تنويه به. والمقصود هو وأمته.
وسمّي الثواب أجرا لوقوعه جزاء على الأعمال وموعودا به فأشبه الأجر.

{ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ }[116]
هذا قوي الاتصال بقوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ} [102] فيجوز أن يكون تفريعا عليه ويكون ما بينهما اعتراضا دعا إليه الانتقال الاستطرادي في معان متماسكة. والمعنى فهلّا كان في تلك الأمم أصحاب بقيّة من خير فنهوا قومهم عن الفساد لما حلّ بهم ما حلّ. وذلك إرشاد إلى وجوب النهي عن المنكر.
ويجوز أن يكون تفريعا على قوله تعالى {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ} [112] والآية تفريع على الأمر بالاستقامة والنهي عن الطغيان وعن الركون إلى الذين ظلموا، إذ المعنى: ولا تكونوا كالأمم من قبلكم إذ عدموا من ينهاهم عن الفساد في الأرض وينهاهم عن تكذيب الرّسل فأسرفوا في غلوائهم حتّى حلّ عليهم غضب الله إلّا قليلا منهم، فإن تركتم ما أمرتم به كان حالكم كحالهم، ولأجل هذا المعنى أتي بفاء التفريع. كأنّه قيل: وإن كلّا لما ليوفّينّهم ربك أعمالهم فلولا كان منهم بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلى آخره، أي فاحذروا أن تكونوا كما كانوا فيصيبكم ما أصابهم، وكونوا مستقيمين ولا تطغوا ولا تركنوا إلى الظالمين وأقيموا الصلاة، فغيّر نظم الكلام إلى هذا الأسلوب الذي في الآية لتفنّن فوائده ودقائقه واستقلال أغراضه مع كونها آيلة إلى غرض يعمّمها. وهذا من أبدع أساليب الإعجاز الذي هو كرد العجز على الصدر من غير تكلف ولا ظهور قصد. ويقرب من هذا المعنى قول النبيء ﷺ: "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم. "
لَوْلا، حرف تحضيض بمعنى "هلا". وتحضيض الفائت لا يقصد منه إلّا تحذير غيره من أن يقع فيما وقعوا فيه والعبرة بما أصابهم.
القرون: الأمم. وتقدّم في أوّل الأنعام.
البقية: الفضل والخير. وأطلق على الفضل البقيّة كناية غلبت فسارت مسرى الأمثال، لأنّ شأن الشيء النفيس أنّ صاحبه لا يفرّط فيه. وبقيّة النّاس: سادتهم وأهل الفضل منهم. والمعنى هنا: أولو فضل ودين وعلم بالشريعة. فليس المراد الرّسل ولكن أريد أتباع الرّسل وحملة الشرائع ينهون قومهم عن الفساد في الأرض.
الفساد: المعاصي واختلال الأحوال.

وفي هذا تنويه بأصحاب النبيء ﷺ فإنّهم أولو بقيّة من قريش يدعونهم إلى إيمان حتّى آمن كلّهم، وأولو بقية بين غيرهم من الأمم الذين اختلطوا بهم يدعونهم إلى الإيمان والاستقامة بعد الدخول فيه ويعلّمون الدين، كما قال تعالى فيهم {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران: 110].

{ **إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ** } استثناء منقطع من {أُولُو بَقِيَّةٍ}، وهو في معنى الاستدراك لأنّ معنى التحضيض متوجّه إلى القرون الذين لم يكن فيهم أولو بقية فهم الذين ينعى عليهم فقدان ذلك الصنف منهم. وهؤلاء القرون ليس منهم من يستثنى إذ كلّهم غير ناجين من عواقب الفساد، ولكن لمّا كان معنى التحضيض قد يوهم أن جميع القرون التي كانت قبل المسلمين قد عدموا أولي بقيّة مع أنّ بعض القرون فيهم أولو بقيّة كان الموقع للاستدراك لرفع هذا الإيهام، فصار المستثنى غير داخل في المذكور من قبل، فلذلك كان منقطعا، وعلامة انقطاعه انتصابه لأنّ نصب المستثنى بعد النفي إذا كان المستثنى منه غير منصوب أمارة على اعتبار الانقطاع إذ هو الأفصح. وهل يجيء أفصح كلام إلّا على أفصح إعراب، ولو كان معتبرا اتصاله لجاء مرفوعا على البدلية من المذكور قبله.

(من) بيان للقليل، لأن الذين أنجاهم الله من القرون هم القليل الذين ينهون عن الفساد، وهم أتباع الرسل. وفي البيان إشارة إلى أنّ نهيهم عن الفساد هو سبب إنجاء تلك القرون لأنّ النهي سبب السبب، إذ النهي يسبب الإقلاع عن المعاصي الذي هو سبب النجاة.

{ **وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ** } تصريح بمفهوم الاستثناء وتبيين لإجماله. والمعنى: وأكثرهم لم ينهوا عن الفساد ولم ينتهوا هم ولا قومهم واتّبعوا ما أترفوا فيه، تفصيلا لمفهوم الاستثناء. واتباع ما أترفوا فيه هو الانقطاع له والإقبال عليه إقبال المتّبع على متبوعه.

أترفوا: أعطوا الترف، وهو السعة والنعيم الذي سهّله الله لهم فالله هو الذي أترفهم فلم يشكروه.

وفي الآية عبرة وموعظة للعصاة من المسلمين لأنّهم لا يخلون من ظلم أنفسهم.

{ **وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** } أي في اتباع الترف فلم يكونوا شاكرين. وفي الكلام إيجاز حذف آخر، والتقدير: فحقّ عليهم هلاك المجرمين.

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ }[117]

عطف على { وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ } [116] لما يؤذن به مضمون الجملة المعطوف عليها من تعرّض المجرمين لحلول العقاب بهم بناء على وصفهم بالظلم والإجرام، فعقّب ذلك بأنّ نزول العذاب ممن نزل به منهم لم يكن ظلما من الله تعالى ولكنّهم جرّوا لأنفسهم الهلاك بما أفسدوا في الأرض والله لا يحب الفساد.

{ **الْقُرَى** } أهلها، على طريقة المجاز المرسل كقوله {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ} [يوسف: 82].
{ **وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** } حال من {الْقُرَى}، فالله تعالى لا يهلك قوما ظالما لهم ولكن يهلك قوما ظالمين أنفسهم.

{ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ [118] إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [119].

لمّا كان النعي على الأمم الذين لم يقع فيهم من ينهون عن الفساد فاتّبعوا الإجرام، وكان الإخبار عن إهلاكهم بأنّه ليس ظلما من الله وأنّهم لو كانوا مصلحين لما أهلكوا، لمّا كان ذلك كلّه قد يثير توهّم أنّ تعاصي الأمم عمّا أراد الله منهم خروج عن قبضة القدرة الإلهية أعقب ذلك بما يرفع هذا التوهّم بأنّ الله قادر أن يجعلهم أمّة واحدة متّفقة على الحقّ مستمرة عليه كما أمرهم أن يكونوا.
ولكن الحكمة التي أقيم عليها نظام هذا العالم اقتضت أن يكون نظام عقول البشر قابلا للتطوّح بهم في مسلك الضلالة أو في مسلك الهدى على مبلغ استقامة التفكير والنظر، والسلامة من حُجُب الضلالة، وأنّ الله تعالى لمّا خلق العقول صالحة لذلك جعل منها قبول الحقّ بحسب الفطرة التي هي سلامة العقول من عوارض الجهالة والضلال وهي الفطرة الكاملة المشار إليها بقوله تعالى {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً} ، وتقدم الكلام عليها في سورة البقرة [213]. لم يدخرهم إرشادا أو نصحا بواسطة الرسل ودعاة الخير وملقّنيه من أتباع الرسل، وهم أولو البقية الذين ينهون عن الفساد في الأرض، فمن النّاس مهتد وكثير منهم فاسقون. ولو شاء لخلق العقول البشرية على إلهام متّحد لا تعدوه كما خلق إدراك الحيوانات العجم على نظام لا تتخطاه من أوّل النشأة إلى انقضاء العالم، فنجد حال البعير والشاة في زمن آدم عليه السلام كحالهما في زماننا هذا، وكذلك يكون إلى انقراض العالم، فلا شك أنّ حكمة الله اقتضت هذا النظام في العقل الإنساني لأنّ ذلك أوفى بإقامة مراد الله تعالى من مساعي البشر في هذه الحياة الدنيا الزائلة المخلوطة، لينتقلوا منها إلى عالم الحياة الأبديّة الخالصة إن خيرا فخير وإن شرّا فشر، فلو خلق الإنسان كذلك لما كان العمل الصالح مقتضيا ثواب النعيم ولا كان الفساد مقتضيا عقاب الجحيم، فلا جرم أنّ الله خلق البشر على نظام من شأنه طريان الاختلاف بينهم في الأمور، ومنها أمر الصلاح والفساد في الأرض وهو أهمها وأعظمها ليتفاوت النّاس في مدارج الارتقاء ويسموا إلى مراتب الزلفى فتتميّز أفراد هذا النوع في كلّ أنحاء الحياة حتّى يعدّ الواحد بألف { لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ } [الأنفال: 37].
والتقدير: ولو شاء ربك أن يجعل النّاس أمّة واحدة لجعلهم كذلك.
الأمّة: الطائفة من النّاس الذين اتّحدوا في أمر من عظائم أمور الحياة كالموطن واللغة والنسب والدين. فتفسر الأمّة في كل مقام بما تدلّ عليه إضافتها إلى شيء من أسباب تكوينها كما يقال: الأمّة الإسلامية.

ومعنى كونها واحدة أن يكون البشر كلّهم متّفقين على اتّباع دين الحقّ كما يدل عليه السياق، فآل المعنى إلى: لو شاء ربك لجعل النّاس أهل ملّة واحدة فكانوا أمّة واحدة من حيث الدين الخالص.

{ **وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ** } عقّب العموم باستثناء من ثبتوا على الدين الحقّ ولم يخالفوه، أي فعصمهم من الاختلاف.

وفهم من هذا أن الاختلاف المذموم المحذّر منه هو الاختلاف في أصول الدين الذي يترتب عليه اعتبار المخالف خارجا عن الدين وإن كان يزعم أنه من متبعيه، فإذا طرأ هذا الاختلاف وجب على الأمة قصمه وبذل الوسع في إزالته من بينهم بكل وسيلة من وسائل الحق والعدل بالإرشاد والمجادلة الحسنة والمناظرة، فإن لم ينجع ذلك فبالقتال. وهذه الآية تحذير شديد من ذلك الاختلاف.

{ **وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** } تأكيد بمضمون {وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}. واللام للتعليل لأنّه لمّا خلقهم على جبلّة قاضية باختلاف الآراء والنزعات وكان مريدا لمقتضى تلك الجبلّة وعالما به كما بيّنّاه آنفا كان الاختلاف علّة غائية لخلقهم، والعلة الغائية لا يلزمها القصر عليها بل يكفي أنّها غاية الفعل، وقد تكون معها غايات كثيرة أخرى فلا ينافي ما هنا قوله { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات: 56] لأنّ القصر هنالك إضافي، أي إلّا بحالة أن يعبدوني لا يشركوا، والقصر الإضافي لا ينافي وجود أحوال أخرى غير ما قصد الرد عليه بالقصر كما هو بيّن لمن مارس أساليب البلاغة العربية.

{ **وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** } وتمام كلمة الرب مجاز في الصدق والتحقّق، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً } [الأنعام:115]، فالمختلفون هم نصيب جهنّم.

فكلمة الله: تقديره وإرادته. أطلق عليها {كلمة} مجازا لأنّها سبب في صدور كلمة (كن) وهي أمر التكوين.

{ **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ** } تفسير للكلمة. ويجوز أن تكون الكلمة كلاما خاطب به الملائكة قبل خلق النّاس.

{ **مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** } تبعيض، أي لأملأن جهنم من الفريقين. و{ أَجْمَعِينَ } تأكيد لشمول تثنية كلا النوعين لا لشمول جميع الأفراد لمنافاته لمعنى التبعيض الذي أفادته {مِنَ}.

{ وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ }[120]

هذا تذييل وحوصلة لما تقدّم من أنباء القرى وأنباء الرسل. وهذا تهيئة لاختتام السورة وفذلكة لما سيق فيها من القصص والمواعظ.

القصص: يأتي بيانه عند قوله تعالى {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} [يوسف:3].

التثبيت: حقيقته التسكين في المكان بحيث ينتفي الاضطراب والتزلزل. مستعار للتقرير.

الفؤاد: أطلق على الإدراك كما هو الشائع في كلام العرب.

وتثبيت فؤاد الرسول ﷺ زيادة يقينه ومعلوماته بما وعده الله لأنّ كلّ ما يعاد ذكره من قصص الأنبياء وأحوال أممهم معهم يزيده تذكّرا وعلما بأنّ حاله جار على سنن الأنبياء، وتجدّد تسلية على ما يلقاه من قومه من التكذيب وذلك يزيده صبرا، والصبر تثبيت الفؤاد.

وأنّ تماثل أحوال الأمم تلقاء دعوة أنبيائها مع اختلاف العصور يزيده علما بأنّ مراتب العقول البشرية متفاوتة، وأن قبول الهدي هو منتهى ارتقاء العقل، فيعلم أن الاختلاف شنشنة قديمة في البشر، وأن المصارعة بين الحق والباطل شأن قديم، وهي من النواميس التي جبل عليها النظام البشري، فلا يحزنه مخالفة قومه عليه، ويزيده علما بسموّ أتباعه الذين قبلوا هداه، واعتصموا من دينه بعراه.

{ **فِي هَذِهِ** } الإشارة إلى السورة وروي عن ابن عباس، فيقتضي أنّ هذه السورة كانت أوفى بأنباء الرسل من السور النازلة قبلها وبهذا يجري على قول من يقول: إنها نزلت قبل سورة يونس. والأظهر أن تكون الإشارة إلى الآيات التي قبلها وهي { فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ- إلى قوله - مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [116- 119]. فتكون هذه الآيات الثلاث أوّل ما نزل في شأن النهي عن المنكر. على أن قوله { وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ } ليس صريحا في أنّه لم يجيء مثله قبل هذه الآيات، فتأمّل.

الموعظة: اسم مصدر الوعظ، وهو التذكير بما يصد المرء عن عمل مضرّ.

الذكرى: مجرّد التذكير بما ينفع. فهذه موعظة للمسلمين ليحذروا ذلك وتذكيرا بأحوال الأمم ليقيسوا عليها ويتبصّروا في أحوالها. وتنكير {مَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى} للتعظيم.

{ وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ [121] وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ }[122]

أمر بأن يخاطب الذين لا يؤمنون بما فيها خطاب الآيس من انتفاعهم بالذكرى الذي لا يعبأ بإعراضهم ولا يصدّه عن دعوته إلى الحقّ تألّبهم على باطلهم ومقاومتهم الحقّ. وهذا القول مأمور أن يقوله على لسانه ولسان المؤمنين.

{ **اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ** } هو نظير ما حكي عن شعيب - عليه السلام - في هذه السورة آنفا.

{ **إِنَّا عَامِلُونَ** } و { **إِنَّا مُنْتَظِرُونَ** } الضمائر للنبي والمؤمنين الذين معه.

وفي أمر الله ورسوله بأن يقول ذلك على لسان المؤمنين شهادة من الله بصدق إيمانهم. وفيه التفويض إلى رأس الأمّة بأن يقطع أمرا عن أمّته ثقة بأنّهم لا يردّون فعله.

{ **وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ** } تهديد ووعيد.

{ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [123]

كلام جامع وهو للسورة مؤذن بختامها، فهو من براعة المقطع. والواو عاطفة كلاما على كلام، أو واو الاعتراض في آخر الكلام ومثله كثير.

{ **لِلَّهِ** } اللام للملك وهو ملك إحاطة العلم، أي لله ما غاب عن علم الناس في السماوات والأرض. وهذا كلام يجمع بشارة المؤمنين بما وعدوا من النعيم المغيّب عنهم، ونذارة المشركين بما توعّدوا به من العذاب المغيب عنهم في الدنيا والآخرة. وتقديم المجرورين لإفادة الاختصاص، أي الله لا غيره يملك غيب السماوات والأرض، لأنّ ذلك مما لا يشاركه فيه أحد. وإلى الله لا إلى غيره يرجع الأمر كلّه، وهو تعريض بفساد آراء الذين عبدوا غيره، لأنّ من لم يكن كذلك لا يستحق أن يعبد، ومن كان كذلك كان حقيقا بأن يفرد بالعبادة.

{ **وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ** } أنّ أمر التدبير والنصر والخذلان وغير ذلك يرجع إلى الله، أي إلى علمه وقدرته.

{ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** } لأن الله هو الحقيق بأن يعبد وأن يتوكل عليه في كل مهم. وهو تعريض بالتخطئة للذين عبدوا غيره وتوكلوا على شفاعة الآلهة ونفعها. ويتضمن أمر النبيء عليه الصلاة والسلام بالدوام على العبادة والتوكل.

{ **وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** } فذلكة جامعة، فهو تذييل لما تقدّم. فإنّ عدم غفلته عن أي عمل أنّه يعطي كلّ عامل جزاء عمله. ولذلك علّق وصف الغافل بالعمل ولم يعلّق بالذوات نحو: بغافل عنكم، إيماء إلى أن على العمل جزاء.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة يوسف

الاسم الوحيد لهذه السورة اسم (سورة يوسف)، فقد ذكر ابن حجر في كتاب (الإصابة) في ترجمة رافع بن مالك الزرقي عن ابن إسحاق أنّ أبا رافع بن مالك أوّل من قدم المدينة بسورة يوسف، يعني بعد أن بايع النبيء ﷺ يوم العقبة.

ووجه تسميتها ظاهر لأنّها قصّت قصّة يوسف - عليه السلام - كلّها، ولم تذكر قصته في غيرها. ولم يذكر

اسمه في غيرها إلّا في سورة الأنعام وغافر.
وهي مكّيّة على القول الذي لا ينبغي الالتفات إلى غيره. نزلت بعد سورة هود، وقبل سورة الحجر.
وهي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السور على قول الجمهور.
ولم تذكر قصة نبي في القرآن بمثل ما ذكرت قصة يوسف - عليه السلام – في هذه السورة من الإطناب.
وعدد آيها مائة وإحدى عشرة آية باتفاق أصحاب العدد في الأمصار.

أغراض السورة

روى الواحدي والطبري، يزيد أحدهما على الآخر، عن سعد بن أبي وقاص أنّه قال: أنزل القرآن فتلاه رسول الله -ﷺ- على أصحابه زمانا، فقالوا (أي المسلمون بمكة) : يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله { الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [سورة يوسف:1، 2].
بيان قصة يوسف - عليه السلام - مع إخوته، وما لقيه في حياته، وما في ذلك من العبر من نواح مختلفة.
وفيها إثبات أنّ بعض المرائي قد يكون إنباء بأمر مغيب، وذلك من أصول النبوءات.
وأنّ تعبير الرؤيا علم يهبه الله لمن يشاء من صالحي عباده.
وتحاسد القرابة بينهم.
ولطف الله بمن يصطفيه من عباده.
والعبرة بحسن العواقب، والوفاء، والأمانة، والصدق، والتوبة.
وسكنى إسرائيل وبنيه بأرض مصر.
وتسلية النبيء ﷺ بما لقيه يعقوب ويوسف عليهما السلام من آلهم من الأذى. وقد لقي النبيء ﷺ من آله أشدّ ما لقيه من كفّار قومه، مثل عمّه أبي لهب، والنضر بن الحارث، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وإن كان هذا قد أسلم بعد وحسن إسلامه. فإنّ وقع أذى الأقارب في النفوس أشدّ من وقع أذى البعداء، كما قال طرفة: وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند
وفيها العبرة بصبر الأنبياء مثل يعقوب ويوسف عليهم السلام على البلوى. وكيف تكون لهم العاقبة.
وفيها من عبر تاريخ الأمم والحضارة القديمة وقوانينها ونظام حكوماتها وعقوباتها وتجارتها.
وإنّ في هذه السورة **أسلوبا خاصا** من أساليب إعجاز القرآن وهو الإعجاز في أسلوب القصص الذي كان خاصة أهل مكّة يعجبون مما يتلقّونه منه من بين أقاصيص العجم والروم، فقد كان النضر بن الحارث وغيره يفتنون قريشا بأنّ ما يقوله القرآن في شأن الأمم هو أساطير الأوّلين اكتتبها محمد ﷺ.
وكان النضر يتردّد على الحيرة فتعلم أحاديث (رستم) و(اسفنديار) من أبطال فارس، فكان يحدّث قريشا

بذلك ويقول لهم: أنا والله أحسن حديثا من محمد فهلّم أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدّثهم بأخبار الفرس، فكان ما في بعضها من التطويل على عادة أهل الأخبار من الفرس يموّه به عليهم بأنّه أشبع للسامع، فجاءت هذه السورة على أسلوب استيعاب القصّة تحدّيا لهم بالمعارضة.

على أنّها مع ذلك قد طوت كثيرا من القصة من كل ما ليس له كبير أثر في العبرة.

{ ألر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } [1]

{ **ألر** } تقدّم الكلام على الحروف المقطّعة في أوّل سورة البقرة.

{ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ** } الكلام عليها مضى في سورة يونس.

{ **الْمُبِينِ** } ووصف في طالعة سورة يونس بـ {الْحَكِيمِ} لأنّ ذكر وصف إبانته هنا أنسب، إذ كانت القصّة التي تضمنتها هذه السورة مفصّلة ومبيّنة لأهمّ ما جرى في مدة يوسف -عليه السلام- بمصر. فقصّة يوسف -عليه السلام- لم تكن معروفة للعرب قبل نزول القرآن إجمالا ولا تفصيلا، بخلاف قصص الأنبياء: هود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب -عليهم السلام أجمعين- إذ كانت معروفة لديهم إجمالا، فلذلك كان القرآن مبيّنا إياها ومفصلا. ونزولها قبل اختلاط النبيء ﷺ باليهود في المدينة معجزة عظيمة من إعلام الله تعالى إيّاه بعلوم الأولين، وبذلك ساوى الصحابة علماء بني إسرائيل في علم تاريخ الأديان والأنبياء وذلك من أهم ما يعلمه المشرعون.

المبين: اسم فاعل من أبان المتعدّي. والمراد: الإبانة التامة باللفظ والمعنى.

{ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [2]

استئناف يفيد تعليل الإبانة من جهتي لفظه ومعناه، فإنّ كونه قرآنا يدل على إبانة المعاني، لأنّه ما جعل مقروءا إلّا لما في تراكيبه من المعاني المفيدة للقارئ.

وكونه عربيا يفيد إبانة ألفاظه المعاني المقصودة للذين خوطبوا به ابتداء، وهم العرب، إذ لم يكونوا يتبيّنون شيئا من الأمم التي حولهم لأنّ كتبهم كانت باللغات غير العربية.

والتأكيد بـ (إن) متوجه إلى خبرها وهو فعل {أَنْزَلْنَاهُ} ردا على الذين أنكروا أن يكون منزلا من عند الله.

{ **قُرْآناً** } حال، أي كتابا يقرأ، أي منظّما على أسلوب معدّ لأن يقرأ لا كأسلوب الرسائل والخطب أو الأشعار، بل هو أسلوب كتاب نافع نفعا مستمرّا يقرأه النّاس.

{ **عَرَبِيّاً** } صفة، فهو كتاب بالعربية ليس كالكتب السالفة فإنّه لم يسبقه كتاب بلغة العرب.

{ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } تعليل، أي رجاء حصول العلم لكم من لفظه ومعناه، لأنّكم عرب فنزوله بلغتكم مشتملا على ما فيه نفعكم، وعبر عن العلم بالعقل للإشارة إلى أن دلالة القرآن على هذا العلم قد بلغت في الوضوح حد أن ينزل من لم يحصل له العلم منها منزلة من لا عقل له، وأنهم ما داموا معرضين عنه فهم في عداد غير العقلاء.

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ}[3]

بدل اشتمال، لأنّ أحسن القصص ممّا يشتمل عليه إنزال القرآن. وكون القصص من عند الله يتنزّل منزلة الاشتمال من جملة تأكيد إنزاله من عند الله.

{ **بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ** } يتضمّن رابطا بين جملة البدل والجملة المبدل منها. وتقديم الضمير على الخبر الفعلي يفيد الاختصاص، أي نحن نقصّ لا غيرنا، ردّا على من يطعن من المشركين في القرآن.

{ **نَقُصُّ** } نخبر الأخبار السالفة. وهو منقول من قصّ الأثر إذا تتبّع مواقع الأقدام ليتعرّف منتهى سير صاحبها. ومصدره القصّ بالإدغام، والقصص بالفك. قال تعالى {فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً} [الكهف:64]. وذلك أنّ حكاية أخبار الماضين تشبه اتباع خطاهم، ألا ترى أنّهم سمّوا الأعمال سيرة وهي في الأصل هيئة السير، وقالوا: سار فلان سيرة فلان، أي فعل مثل فعله، وقد فرّقوا بين هذا الإطلاق المجازي وبين قصّ الأثر فخصوا المجازي بالصدر المفكك وغلبوا المصدر المدغم على المعنى الحقيقي.

{ **أَحْسَنَ الْقَصَصِ** } وجعل هذا القصص أحسن القصص لأنّه وارد من العليم الحكيم، فهو يوحي ما يعلم أنّه أحسن نفعا للسامعين في أبدع الألفاظ والتراكيب، فيحصل منه غذاء العقل والروح، وابتهاج النفس والذوق ممّا لا تأتي بمثله عقول البشر.

{ **وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** } في موضع الحال من كاف الخطاب. والضمير في { **قَبْلِهِ** } عائد إلى القرآن. والمراد من قبل نزوله بقرينة السياق.

الغفلة: انتفاء العلم لعدم توجّه الذهن إلى المعلوم. والمعنى المقصود من الغفلة ظاهر. ونكتة جعله من الغافلين دون أن يوصف وحده بالغفلة للإشارة إلى تفضيله بالقرآن على كلّ من لم ينتفع بالقرآن فدخل في هذا الفضل أصحابه والمسلمون على تفاوت مراتبهم في العلم.

والمقصود التعريض بالمشركين المعرضين عن هدى القرآن. عن أبي موسى الأشعري قال: قال النبيء ﷺ: " مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أصابَ أرْضًا، فَكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكانَتْ مِنْها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا،

وأَصابَتْ مِنْها طائِفَةً أُخْرَى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ، ونَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ بهِ " [متفق عليه]

{ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}[4]

يوسف: اسم عبراني تقدّم ذكره عند قوله تعالى { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ } [الأنعام:83]. وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق من زوجه (راحيل). وهو أحد الأسباط الذين تقدّم ذكرهم في سورة البقرة.

وكان يوسف أحب أبناء يعقوب - عليهما السلام – إليه، وكان ذلك سبب غيرة إخوته منه فكادوا له مكيدة، فسألوا أباهم أن يتركه يخرج معهم. فأخرجوه معهم بعلّة اللعب والتفسّح، وألقوه في جبّ، وأخبروا أباهم أنّهم فقدوه، وأنّهم وجدوا قميصه ملوثا بالدم، وأروه قميصه بعد أن لطّخوه بدم، والتقطه من البئر **سيارة من العرب الإسماعيليين** كانوا سائرين في طريقهم إلى مصر، وباعوه كرقيق في سوق عاصمة مصر السفلى التي كانت يومئذ في حكم أمّة من الكنعانيين يعرفون بالعمالقة أو (الهكصوص). وذلك في زمن الملك (**أبو فيس**) أو (ابيبي). ويقرب أن يكون ذلك في حدود سنة تسع وعشرين وسبعمائة وألف قبل المسيح عليه السلام (1729 ق م). فاشتراه (**فوطيفار**) رئيس شرطة فرعون الملقب في القرآن **بالعزيز**، أي رئيس المدينة. وحدثت مكيدة له من زوج سيّده ألقي بسببها في السجن. وبسبب رؤيا رآها الملك وعبّرها يوسف - عليه السلام - وهو في السجن، قرّبه الملك إليه زلفى، وأولاه على جميع أرض مصر، وهو لقب العزيز وسماه (**صفنات فعنيج**)، وزوجه (**أسنات**) بنت أحد الكهنة وعمره يومئذ ثلاثون سنة. وفي مدّة حكمه جلب أباه وأقاربه من البرّيّة إلى أرض مصر، فذلك سبب استيطان بني إسرائيل أرض مصر. وتوفي بمصر في حدود سنة خمس وثلاثين وستمائة وألف قبل ميلاد عيسى عليه السلام (1635 ق م). وحنّط على الطريقة المصرية. ووضع في تابوت، وأوصى قبل موته بأنّهم إذا خرجوا من مصر يرفعون جسده معهم. ولمّا خرج بنو إسرائيل من مصر رفعوا تابوت يوسف - عليه السلام - معهم ونقلوه معهم في رحلتهم إلى أن دفنوه في (شكيم) في مدة يوشع بن نون.

{ **يَا أَبَتِ** } تاء خاصة بكلمة الأب وكلمة الأم في النداء خاصة على نية الإضافة إلى المتكلم، فمفادها: يا أبي، ولا يكاد العرب يقولون: يا أبي. وورد في سلام ابن عمر على النبيء ﷺ وصاحبه حين وقف على قبورهم المنورة. والنداء في الآية مع كون المنادى حاضرا كناية عن الاهتمام أو استعارة له.

الكوكب: النجم، تقدّم عند قوله تعالى { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً } [الأنعام:76].

{ **رَأَيْتُهُمْ** } مؤكّدة لجملة { رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً } ، جيء بها على الاستعمال في حكاية المرائي الحلميّة أن

يعاد فعل الرؤية تأكيدا لفظيا أو استئنافا بيانيا، كأنّ سامع الرؤيا يستزيد الرائي اخبارا عما رأى.
وفي البخاري عن أبي موسى الاشعري أنّ النبيء ﷺ قال: " رَأَيْتُ في المَنامِ أنِّي أُهاجِرُ مِن مَكَّةَ إلى أرْضٍ بها نَخْلٌ، فَذَهَبَ وهَلِي إلى أنَّها اليَمامَةُ أوْ هَجَرُ، فإذا هي المَدِينَةُ يَثْرِبُ، ورَأَيْتُ في رُؤْيايَ هذِه أنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا، فانْقَطَعَ صَدْرُهُ فإذا هو ما أُصِيبَ مِنَ المُؤْمِنِينَ يَومَ أُحُدٍ، ثُمَّ هَزَزْتُهُ بأُخْرَى فَعادَ أحْسَنَ ما كانَ فإذا هو ما جاءَ اللَّهُ به مِنَ الفَتْحِ، واجْتِماعِ المُؤْمِنِينَ ورَأَيْتُ فيها بَقَرًا، واللَّهُ خَيْرٌ فإذا هُمُ المُؤْمِنُونَ يَومَ أُحُدٍ، وإذا الخَيْرُ ما جاءَ اللَّهُ به مِنَ الخَيْرِ وثَوابِ الصِّدْقِ، الذي آتانا اللَّهُ بَعْدَ يَومِ بَدْرٍ".
{ **رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** } استعمل ضمير جمع المذكر للكواكب والشمس والقمر، لأنّ كون ذلك للعقلاء غالب لا مطّرد، كما قال تعالى في الأصنام { وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ } [الأعراف:198]، وقال {يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا } [النمل:18]. وتقديم المجرور على عامله للاهتمام.
وابتداء قصة يوسف - عليه السلام - بذكر رؤياه إشارة إلى أنّ الله هيأ نفسه للنبوّة فابتدأه بالرؤيا الصادقة كما جاء في حديث عائشة: " أَوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ في النَّوْمِ، فَكانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ..." [البخاري].
فذكر هذه الرؤيا في صدر القصة كالمقدّمة والتمهيد للقصة المقصودة. وجعل الله تلك الرؤيا تنبيها ليوسف - عليه السلام - بعلو شأنه ليتذكّرها كلما حلت به ضائقة فتطمئن بها نفسه أن عاقبته طيبة.
وكانوا يعدّون الرؤيا من طرق الإنباء بالغيب، إذا سلمت من الاختلاط وكان مزاج الرائي غير منحرف ولا مضطرب، وكان الرائي قد اعتاد وقوع تأويل رؤياه، وهو شيء ورثوه من صفاء نفوس أسلافهم إبراهيم وإسحاق - عليه السلام -، فقد كانوا آل بيت نبوّة وصفاء سريرة. وفي البخاري عن أبي هريرة : " لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إلَّا المُبَشِّراتُ. قالوا: وما المُبَشِّراتُ؟ قالَ: الرُّؤْيا الصَّالِحَةُ ".
والاعتداد بالرؤيا من قديم أمور النبوّة. وقد جاء في التوراة أنّ الله خاطب إبراهيم -عليه السلام - في رؤيا رآها وبشّره بأنّه يهبه نسلا كثيرا، ويعطيه الأرض التي هو سائر فيها [الإصحاح 15 / سفر التكوين].
أمّا العرب فإنّهم وإن لم يرد في كلامهم شيء يفيد اعتدادهم بالأحلام، ولكن ذكر ابن إسحاق رؤيا عبد المطلب وهو قائم في الحجر أنّه أتاه آت فأمره بحفر بئر زمزم فوصف له مكانها، وكانت جرهم ردموها عند خروجهم من مكة. وذكر ابن إسحاق رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب أن: " راكبا أقبل على بعير فوقف بالأبطح ثم صرخ: يا آل غدر اخرجوا إلى مصارعكم في ثلاث "، فكانت وقعة بدر عقبها بثلاث ليال.
والرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض أصفيائه الذين زكت نفوسهم فتتصل نفوسهم بتعلّقات من علم الله وتعلّقات من إرادته وقدرته وأمره التكويني، فتنكشف بها الأشياء المغيّبة بالزمان قبل وقوعها، أو المغيبة بالمكان قبل اطلاع النّاس عليها اطلاعا عاديا. ولذلك قال النبيء ﷺ: " الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح

جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ". [متفق عليه]

مراتب الرؤيا:

منها: أن تُرى صور أفعال تتحقّق أمثالها في الوجود، مثل رؤيا النبيء ﷺ أنّه يهاجر من مكة إلى أرض ذات نخل، وظنّه أنّ تلك الأرض اليمامة فظهر أنّها المدينة، ولا شكّ أنّه لما رأى المدينة وجدها مطابقة للصورة التي رآها. ومثل رؤياه امرأة في سَرَقَة من حرير فقيل له اكتشفها فهي زوجك فكشف فإذا هي عائشة، فعلم أن سيتزوجها. وهذا النوع نادر وحالة الكشف فيه قويّة.

ومنها: أن ترى صور تكون رموزا للحقائق التي ستحصل أو التي حصلت في الواقع، وتلك من قبيل مكاشفة النفس للمعاني والمواهي وتشكيل المخيلة تلك الحقائق في أشكال محسوسة هي من مظاهر تلك المعاني، وهو ضرب من ضروب التشبيه والتمثيل الذي تخترعه ألباب الخطباء والشعراء، إلّا أنّ هذا تخترعه الألباب في حالة هدو الدماغ من الشواغل الشاغلة، فيكون أتقن وأصدق. وهذا أكثر أنواع المرائي. ومنه رؤيا النبيء ﷺ أنّه يشرب من قدح لبن رأى الريّ في أظفاره ثم أعطى فضله عمربن الخطاب رضي الله عنه. وتعبيره ذلك بأنّه العلم.

وكذلك رؤيا امرأة سوداء ناشرة شعرها خارجة من المدينة إلى الجحفة، فعبّرها بالحمّى تنتقل من المدينة إلى الجحفة، ورئي عبد الله بن سلام أنه في روضة، وأنّ فيها عمودا، وأنّ فيه عروة، وأنّه أخذ بتلك العروة فارتقى إلى أعلى العمود، فعبره النبيء ﷺ بأنّه لا يزال آخذا بالإيمان الذي هو العروة الوثقى، وأنّ الروضة هي الجنّة، فقد تطابق التمثيل النومي مع التمثيل المتعارف في قوله تعالى { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } [سورة البقرة:256]، وفي قول النبيء ﷺ: " ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ". وسيأتي تأويل هذه الرؤيا عند قوله تعالى {وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل} [100].

{ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [5]

والنداء مع حضور المخاطب مستعمل في طلب إحضار الذهن اهتماما بالغرض المخاطب فيه.

{ بُنَيَّ } (بكسر الياء المشدّدة) تصغير ابن مع إضافته إلى ياء المتكلّم. وهذا التصغير كناية عن تحبيب وشفقة. نزل الكبير منزلة الصغير لأنّ شأن الصغير أن يُحبّ ويشفق عليه. وفي ذلك كناية عن إمحاض النصح له.

القصّ: حكاية الرؤيا. يقال: قصّ الرؤيا إذا حكاها وأخبر بها. وهو جاء من القصص كما علمت آنفا.

الرؤيا: (بألف التأنيث): رؤية الصور في النوم، فرّقوا بينها وبين رؤية اليقظة باختلاف علامتي التأنيث.
وقد علم يعقوب - عليه السلام - أنّ إخوة يوسف - عليه السلام - العشرة كانوا يغارون منه لفرط فضله عليهم خُلقا وخَلقا، وعلم أنّهم يعبرون الرؤيا إجمالا وتفصيلا، وعلم أنّ تلك الرؤيا تؤذن برفعة ينالها يوسف - عليه السلام - على إخوته الذين هم أحد عشر، فخشي إن قصّها عليهم أن تشتدّ بهم الغيرة إلى حدّ الحسد.
{ **كَيْداً** }: إخفاء عمل يضرّ المكيد. وتقدّم عند قوله تعالى { وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } [الأعراف:183].
وتنوين {كَيْداً} للتعظيم والتهويل، زيادة في تحذيره من قصّ الرؤيا عليهم.
وقصد يعقوب - عليه السلام - من ذلك نجاة ابنه من أضرار تلحقه، وليس قصده إبطال ما دلّت عليه الرؤيا فإنّه يقع بعد أضرار ومشاق.
وقول يعقوب - عليه السلام - هذا لابنه تحذير له مع ثقته بأنّ التحذير لا يثير في نفسه كراهة لإخوته لأنّه وثق منه بكمال العقل، وصفاء السريرة، ومكارم الخلق. ومن كان حاله هكذا كان سمحا، عاذرا، معرضا عن الزلّات، عالما بأثر الصبر في رفعة الشأن.
{ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ** } ليعلم أنّه ما حذّره إلّا من نزغ الشيطان في نفوس إخوته. واقعة موقع التعليل للنهي عن قصّ الرؤيا على إخوته. وعداوة الشيطان لجنس الإنسان تحمله على أن يدفعهم إلى إضرار بعضهم ببعض.
وظاهر الآية أنّ يوسف - عليه السلام - لم يقص رؤياه على إخوته وهو المناسب لكماله الذي يبعثه على طاعة أمر أبيه. ووقع في الإسرائيليات أنّه قصّها عليهم فحسدوه.

{ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [6]
عطف هذا الكلام على تحذيره من قصّ الرؤيا على إخوته إعلاما له بعلوّ قدره ومستقبل كماله، كي يزيد تملّيا من سموّ الأخلاق فيتسع صدره لاحتمال أذى إخوته، وصفحا عن غيرتهم منه وحسدهم إيّاه ليتمحضّ تحذيره للصلاح، وتنتفي عنه مفسدة إثارة البغضاء ونحوها، حكمة نبويّة عظيمة وطبّا روحانيّا ناجعا.
{ **وَكَذَلِكَ** } الإشارة إلى ما دلّت عليه الرؤيا من العناية الربّانيّة به، أي ومثل ذلك الاجتباء يجتبيك ربّك في المستقبل.
الاجتباء: الاختيار والاصطفاء. وتقدّم في قوله تعالى { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ } [الأنعام:87]، أي اختياره من بين إخوته، أو من بين كثير من خلقه. وقد علم يعقوب - عليه السلام - ذلك بتعبير الرؤيا ودلالتها على رفعة شأنه في المستقبل، فتلك إذا ضمّت إلى ما هو عليه من الفضائل آلت إلى اجتباء الله إيّاه، وذلك يؤذن بنبوّته.

وإنّما علم يعقوب - عليه السلام - أنّ رفعة يوسف - عليه السلام - في مستقبله رفعة إلهية لأنّه علم أنّ نعم الله تعالى متناسبة، فلمّا كان ما ابتدأه من النعم اجتباء وكمالا نفسيّا تعيّن أن يكون ما يلحق بها من نوعها. فلذلك علم يعقوب - عليه السلام - أن الله سيعلّم يوسف - عليه السلام - من تأويل الأحاديث.

التأويل: إرجاع الشيء إلى حقيقته ودليله. وتقدّم عند قوله تعالى {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران:7].

{ **الْأَحَادِيثِ** }: يصحّ أن يكون جمع حديث بمعنى الشيء الحادث، فتأويل الأحاديث: إرجاع الحوادث إلى عللها وأسبابها بإدراك حقائقها على التمام، وهو المعني بالحكمة. ويصحّ أن يكون الأحاديث جمع حديث بمعنى الخبر المتحدّث به، فالتأويل تعبير الرؤيا. سمّيت أحاديث لأنّ المَرائي يتحدّث بها الراؤون وعلى هذا المعنى حملها بعض المفسرين. ولعلّ كلا المعنيين مراد بناء على صحّة استعمال المشترك في معنييه وهو الأصح. أو يكون اختيار هذا اللفظ إيجازا معجزا، إذ يكون قد حكي به كلام طويل صدر من يعقوب - عليه السلام - بلغته يعبر عن تأويل الأشياء بجميع تلك المعاني.

{ **وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ** } وإتمام النعمة عليه هو إعطاؤه أفضل النعم وهي نعمة النبوّة، أو هو ضميمة الملك إلى النبوّة والرّسالة، فيكون المراد إتمام نعمة الاجتباء الأخروي بنعمة المجد الدنيوي.

{ **وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ** } وعلم يعقوب - عليه السلام - ذلك من دلالة الرؤيا على سجود الكواكب والنيرين له. فالمراد من آل يعقوب خاصتهم وهم أبناؤه وزوجه (وهي خالة يوسف عليه السلام) . وإن كان المراد بإتمام النعمة ليوسف - عليه السلام - إعطاء الملك فإتمامها على آل يعقوب هو أن زادهم على ما أعطاهم من الفضل نعمة قرابة الملك، فيصحّ حينئذ أن يكون المراد من آله جميع قرابته.

{ **كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ** } تذكير له بنعم سابقة، وليس ممّا دلت عليه الرؤيا. ثم إن كان المراد من إتمام النعمة النبوّة فالتشبيه تام، وإن كان المراد من إتمام النعمة الملك فالتشبيه في إتمام النعمة على الإطلاق. وجعل إبراهيم وإسحاق - عليهما السلام - أبوين له لأنّ لهما ولادة عليه، فهما أبواه الأعليان بقرينة المقام كقول النبيء ﷺ: " أنا ابن عبد المطلب ".

{ **إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** } تذييل بتمجيد هذه النعم، وأنّها كائنة على وفق علمه وحكمته، فعلمه هو علمه بالنفوس الصالحة لهذه الفضائل لأنّه خلقها لقبول ذلك فعلمه بها سابق، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة.

و{إِنَّ} للاهتمام لا للتأكيد إذ لا يشك يوسف - عليه السلام - في علم الله وحكمته. والاهتمام ذريعة إلى إفادة التعليل. والتفريع في ذلك تعريض بالثناء على يوسف - عليه السلام - وتأهله لمثل تلك الفضائل.

{ **لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ** } [7]

جملة ابتدائية، وهي مبدأ القصص المقصود، إذ كان ما قبله كالمقدّمة له المنبئة بنباهة شأن صاحب القصّة.

أي لقد كان شأن يوسف - عليه السلام - وإخوته مقارنا لدلائل عظيمة من العبر والمواعظ.

الآيات: الدلائل على ما تتطلب معرفته من الأمور الخفيّة. والآيات حقيقة في آيات الطريق، وهي علامات يجعلونها في المفاوز تكون بادية لا تغمرها الرمال لتكون مرشدة للسائرين، ثم أطلقت على حجج الصدق، وأدلّة المعلومات الدقيقة. وجمع الآيات هنا مراعى فيه تعدّدها وتعدّد أنواعها، ففي قصّة يوسف عليه السلام دلائل على ما للصبر وحسن الطويّة من عواقب الخير والنصر، أو على ما للحسد والإضرار بالنّاس من الخيبة والانحدار والهبوط.

وفيها من الدلائل على صدق النبيء ﷺ وأنّ القرآن وحي من الله، إذ جاء في هذه السورة ما لا يعلمه إلّا أحبار أهل الكتاب دون قراءة ولا كتاب وذلك من المعجزات. وفي بلاغة نظمها وفصاحتها من الإعجاز ما هو دليل على أنّ هذا الكلام من صنع الله ألقاه إلى رسوله ﷺ معجزة له على قومه أهل الفصاحة والبلاغة.

السائلون: من يتوقّع منه السؤال عن المواعظ والحكم كقوله تعالى {فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ} [فصلت: 10]. ومثل هذا يستعمل في كلام العرب للتشويق، والحثّ على تطلّب الخبر والقصّة.

وقيل المراد بهم اليهود إذ سأل فريق منهم النبيء ﷺ عن ذلك. وهذا لا يستقيم لأنّ السورة مكّيّة ولم يكن لليهود مخالطة للمسلمين بمكة.

{ **إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** } [8]

عبرة من عبر الأخلاق التي تنشأ من حسد الإخوة والأقرباء، وعبرة من المجازفة في تغليطهم أباهم، واستخفافهم برأيه غرورا منهم، وغفلة عن مراتب موجبات ميل الأب إلى بعض أبنائه. وتلك الآيات قائمة في الحكاية عن ذلك الزمن. وهذا القول المحكي عنهم قول تآمر وتحاور.

{ **لَيُوسُفُ** } افتتاح المقول بلام الابتداء المفيدة للتوكيد لقصد تحقيق الخبر. والمراد توكيد لازم الخبر، إذ لم يكن فيهم من يشك في أنّ يوسف - عليه السلام - وأخاه أحبّ إلى أبيهم من بقيّتهم ولكنّهم لم يكونوا سواء في الحسد لهما والغيرة من تفضيل أبيهم إيّاهما على بقيّتهم، فأراد بعضهم إقناع بعض بذلك ليتمالؤوا على الكيد ليوسف - عليه السلام – وأخيه. فقائل الكلام بعض إخوته، أي جماعة منهم.

{ **وَأَخُوهُ** } أريد به (**بنيامين**) وإنّما خصّوه بالإخوة لأنّه كان شقيقه، أمهما (**راحيل بنت لابان**)، وكان بقية إخوته إخوة للأب، أم بعضهم (ليئة بنت لابان)، وأم بعضهم (بلهة) جارية (ليئة) وهبتها لزوجها.

ودعواهم أنّ يوسف - عليه السلام - وأخاه أحبّ إلى يعقوب - عليه السلام - منهم يجوز أن تكون دعوى باطلة أثار اعتقادها في نفوسهم شدّة الغيرة من أفضليّة يوسف - عليه السلام - وأخيه عليهم في الكمالات

وربما سمعوا ثناء أبيهم على يوسف - عليه السلام - وأخيه في أعمال تصدر منهما أو شاهدوه يأخذ بإشارتهما أو رأوا منه شفقة عليهما لصغرهما ووفاة أمّهما فتوهّموا من ذلك أنّه أشدّ حبّا إيّاهما منهم توهّما باطلا. ويجوز أن تكون دعواهم مطابقة للواقع وتكون زيادة محبته إيّاهما أمرا لا يملك صرفه عن نفسه لأنّه وجدان ولكنّه لم يكن يؤثرهما عليهم في المعاملات والأمور الظاهريّة ويكون أبناؤه قد علموا فرط محبّة أبيهم إيّاهما من التوسّم والقرائن لا من تفضيلهما في المعاملة. فلا يكون يعقوب - عليه السلام - مؤاخذا بشيء يفضي إلى التباغض بين الإخوة.

{ **وَنَحْنُ عُصْبَةٌ** } في موضع الحال من {أَحَبُّ} ، أي ونحن أكثر عددا. والمقصود من الحال التعجّب من تفضيلهما في الحبّ في حال أنّ رجاء انتفاعه من إخوتهما أشدّ من رجائه منهما، بناء على ما هو الشائع عند عامة أهل البدو من الاعتزاز بالكثرة.

ويجوز أن تكون عطفا على جملة { لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا }، والمقصود لازم الخبر وهو تجرئة بعضهم بعضا عن إتيان العمل الذي سيغريهم به في قولهم { اقْتُلُوا يُوسُفَ } [9]، أي أنّا لا يعجزنا الكيد ليوسف - عليه السلام - وأخيه فإنّا عصبة.

العصبة: اسم جمع لا واحد له من لفظه، مثل أسماء الجماعات، ويقال: العصابة. قال جمهور اللغويين: تطلق العصبة على الجماعة من عشرة إلى أربعين. وعن ابن عباس أنّها من ثلاثة إلى عشرة، وذهب إليه بعض أهل اللغة. وكان أبناء يعقوب - عليه السلام - اثنى عشر، وهم الأسباط. وقد تقدم الكلام عليهم عند قوله تعالى { أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ } [البقرة:140].

{ **إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } تعليلا للتعجّب أو للإغراء وتفريعا عليه.

{ **الضلال** } إخطاء مسلك الصواب. وإنّما أرادوا أخطأ التدبير للعيش لا الخطأ في الدين والاعتقاد. والتخطئة في أحوال الدنيا لا تنافي الاعتراف للمخطئ بالنبوءة.

{ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ } [9]

جملة مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّ الكلام المتقدّم يثير سؤالا في نفوس السامعين عن غرض القائلين مما قالوه فهذا المقصود للقائلين. وإنّما جعلوا له الكلام السابق كالمقدّمة لتتأثر نفوس السامعين فإذا ألقي إليها المطلوب كانت سريعة الامتثال إليه. أرادوا ارتكاب شيء يفرّق بين يوسف وأبيه - عليهما السلام -.

وهذه آية من عبر الأخلاق السيّئة وهي التخلّص من مزاحمة الفاضل بفضله لمن هو دونه فيه أو مساويه بإعدام صاحب الفضل وهي أكبر جريمة لاشتمالها على الحسد والإضرار بالغير، وانتهاك ما أمر الله بحفظه، وهم قد كانوا أهل دين ومن بيت نبوّة، وقد أصلح الله حالهم من بعد وأثنى عليهم وسمّاهم الأسباط.

{ **يَخْلُ** } في جواب الأمر، أي إن فعلتم ذلك يخل لكم وجه أبيكم. و**الخلو**: حقيقته الفراغ.
{ **وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ** } أي من بعد يوسف - عليه السلام -.
وإنما لم يدبّروا شيئا في إعدام أخي يوسف - عليه السلام - شفقة عليه لصغره.
وهذا الأمر صدر من قائله وسامعيه منهم قبل اتّصافهم بالنبوّة أو بالولاية لأنّ فيه ارتكاب كبيرة القتل أو التعذيب والاعتداء، وكبيرة العقوق.

{ **قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ** } [10]

وهذا القائل أحد الإخوة ولذلك وصف بأنّه منهم. والعدول عن اسمه العلم إلى التنكير والوصفيّة لعدم الجدوى في معرفة شخصه وإنّما المهم أنّه من جماعتهم، وتجنّبا لما في اسمه العلم من الثقل اللفظي الذي لا داعي إلى ارتكابه. والذي في سفر التكوين من التوراة أنّه (راوبين) صدّهم عن قتله وأن (يهوذا) دلّ عليه السيارة كما في الإصحاح (37). وعادة القرآن أنّ لا يذكر إلّا اسم المقصود من القصّة دون أسماء الذين شملتهم، مثل قوله { وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ } [سورة غافر: 28].
الإلقاء: الرمي.
الغيابات: جمع غيابة، وهي ما غاب عن البصر. فيقال: غيابة الجب وغيابة القبر، والمراد قعر الجبّ.
الجبّ: البئر التي تحفر ولا تطوى.
فلعلهم كانوا قد عهدوا جبابا كائنة على أبعاد متناسبة في طرق أسفارهم يأوون إلى قربها في مراحلهم لسقي رواحلهم وشربهم، وقد توخوا أن تكون طرائقهم عليها، وأحسب أنّها كانت ينصبّ إليها ماء السيول، وأنّها لم تكن بعيدة القعر حيث علموا أنّ إلقاءه في الجبّ لا يهشم عظامه ولا ماء فيه فيغرقه.
{ **يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ** } إظهار أنّ ما أشار به القائل من إلقاء يوسف - عليه السلام - في غيابة جب هو أمثل مما أشار به الآخرون من قتله أو تركه بفيفاء مهلكة لأنّه يحصل به إبعاد يوسف - عليه السلام - عن أبيه إبعادا لا يرجى بعده تلاقيهما، دون إلحاق ضرّ الإعدام بيوسف - عليه السلام -، فإن التقاط السيارة إيّاه أبقى له وأدخل في الغرض من المقصود لهم وهو إبعاده، لأنّه إذا التقطه السيارة أخذوه عندهم أو باعوه.
الالتقاط: تناول شيء من الأرض أو الطريق، واستعير لأخذ شيء مضاع.
السيّارة: الجماعة الموصوفة بحالة السير وكثرته، فتأنيثه لتأويله بالجماعة التي تسير مثل الفلاحة والبحارة.
والتعريف فيه تعريف العهد الذهني لأنّهم علموا أنّ الطريق لا تخلو من قوافل بين الشام ومصر للتجارة.
{ **إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ** } أي إن كنتم فاعلين إبعاده عن أبيه فألقوه في غيابات الجب ولا تقتلوه.

فكان هذا القائل أمثل الإخوة رأيا وأقربهم إلى التقوى، وقد علموا أنّ السيارة يقصدون إلى جميع الجباب للاستقاء، لأنّها كانت محتفرة على مسافات مراحل السفر. وفي هذا الرأي عبرة في الاقتصاد من الانتقام والاكتفاء بما يحصل به الغرض دون إفراط.

{ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ [11] أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [12].

استئناف بياني لأنّ سوق القصة يستدعي تساؤل السامع عمّا جرى بعد إشارة أخيهم عليهم، وهل رجعوا عمّا بيتوا وصمّموا على ما أشار به أخوهم. ولعلّ يعقوب - عليه السلام - كان لا يأذن ليوسف - عليه السلام - بالخروج مع إخوته للرعي أو للسبق خوفا عليه من أن يصيبه سوء من كيدهم أو من غيرهم، ولم يكن يصرّح لهم بأنّه لا يأمنهم عليه ولكن حاله في منعه من الخروج كحال من لا يأمنهم عليه فنزّلوه منزلة من لا يأمنهم، وأتوا بالاستفهام المستعمل في الإنكار على نفي الائتمان.

وفي التوراة أنّ يعقوب - عليه السلام - أرسله إلى إخوته وكانوا قد خرجوا يرعون، وإذا لم يكن تحريفا فلعلّ يعقوب - عليه السلام - بعد أن امتنع من خروج يوسف - عليه السلام - معهم سمح له بذلك، أو بعد أن سمع لومهم عليه سمح له بذلك.

{ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ } جملة معترضة بين { مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا } و { أَرْسِلْهُ }. والمعنى هنا: أنّهم يعملون ما فيه نفع ليوسف - عليه السلام- . والنصح عمل أو قول فيه نفع للمنصوح.

{ يَرْتَعْ } مضارع ارتعى وهو افتعال من الرعي للمبالغة فيه. فهو حقيقة في أكل المواشي والبهائم واستعير في كلامهم للأكل الكثير لأنّ النّاس إذا خرجوا إلى الرياض والأرياف للعب والسبق تقوى شهوة الأكل فيهم فيأكلون أكلا ذريعا فلذلك شبّه أكلهم بأكل الأنعام. وإنّما ذكروا ذلك لأنّه يسر أباهم أن يكونوا فرحين.

اللعب: فعل أو كلام يقصد منه الاستجمام ودفع السآمة. وهو مباح في الشرائع كلّها إذا لم يصر دأبا.

{ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } التأكيد فيهما للتحقيق تنزيلا لأبيهم منزلة الشاك في أنّهم يحفظونه وينصحونه، كما نزّلوه منزلة من لا يأمنهم عليه من حيث إنّه كان لا يأذن له بالخروج معهم للرعي ونحوه.

وتقديم {له} يجوز أن يكون لأجل الرعاية للفاصلة والاهتمام بشأن يوسف - عليه السلام - في ظاهر الأمر، ويجوز أن يكون للقصر الادعائي، جعلوا أنفسهم لفرط عنايتهم به بمنزلة من لا يحفظ غيره ولا ينصح غيره.

{ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ [13] قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ } [14]

{ **قَالَ** } فصل جملة جار على طريقة المحاورة.
أظهر لهم سبب امتناعه من خروج يوسف - عليه السلام - معهم إلى الريف بأنّه يحزنه لبعده عنه أيّاما، وبأنّه يخشى عليه الذئاب، إذ كان يوسف - عليه السلام - حينئذ غلاما، وكان قد ربّي في دعة فلم يكن مرنا بمقاومة الوحوش، والذئاب تجترئ على الذي تحسّ منه ضعفا في دفاعها.
والذئب: حيوان من الفصيلة الكلبيّة، وهو كلب بري وحشي.
{ **لَيَحْزُنُنِي** } تأكيد الجملة بحرف التأكيد لقطع إلحاحهم بتحقيق أنّ حزنه لفراقه ثابت، تنزيلا لهم منزلة من ينكر ذلك، إذ رأى إلحاحهم. ويسري التأكيد إلى جملة { وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ } .
{ **لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ** } أبوا إلّا المراجعة، أرادوا تأكيد الجواب باللام. والمراد الكناية عن عدم تفريطهم فيه وعن حفظهم إيّاه، لأنّ المرء لا يرضى أن يوصف بالخسران.
الخسران: انتفاء النفع المرجو من الرجال، استعاروا له انتفاء نفع التاجر من تجره، وهو خيبة مذمومة، أي إنّا إذن لمسلوبون من صفات الفتوّة من قوة ومقدرة ويقظة. فكونهم عصبة يحول دون تواطيهم على ما يوجب الخسران لجميعهم.

{ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [15]
{ **فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ** } تفريع حكاية الذهاب به والعزم على إلقائه في الجبّ على حكاية المحاورة بين يعقوب - عليه السلام - وبنيه في محاولة الخروج بيوسف - عليه السلام - إلى البادية يؤذن بجمل محذوفة فيها ذكر أنّهم ألحّوا على يعقوب - عليه السلام - حتّى أقنعوه فأذن ليوسف - عليه السلام - بالخروج معهم، وهو إيجاز. والمعنى: فلمّا أجابهم يعقوب - عليه السلام - إلى ما طلبوا ذهبوا به وبلغوا المكان الذي فيه الجبّ.
وجواب { **لمّا** } محذوف، والتقدير: جعلوه في الجب. ومثله كثير في القرآن. وهو من الإيجاز الخاص بالقرآن فهو تقليل في اللفظ لظهور المعنى.
{ **وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ** } الضمير عائد إلى يوسف - عليه السلام - في قول أكثر المفسرين مقتصرين عليه. وذكر ابن عطية أنّه قيل الضمير عائد إلى يعقوب - عليه السلام- .
{ **لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا** } بيان، وأكّدت باللام ونون التوكيد لتحقيق مضمونها سواء كان منها الإخبار عن المستقبل أو الأمر في الحال. فعلى الأوّل فهذا الوحي يحتمل أن يكون إلهاما ألقاه الله في نفس يوسف - عليه السلام - حين كيدهم له، ويحتمل أنّه وحي بواسطة الملك فيكون إرهاصا ليوسف - عليه السلام - قبل النبوّة رحمة من الله ليزيل عنه كربه، فأعلمه بما يدلّ على أن الله سيخلّصه من هذه المصيبة وتكون له العاقبة على

الذين كادوا له، وإيذان بأنّه سيؤانسه في وحشة الجبّ بالوحي والبشارة، وبأنّه سينبي في المستقبل إخوته بما فعلوه معه كما تؤذن به نون التوكيد إذا اقترنت بالجملة الخبرية، وذلك يستلزم نجاته وتمكّنه من إخوته.

{ **بِأَمْرِهِمْ** }: بفعلهم العظيم في الإساءة.

{ **وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** } في موضع الحال، أي لتخبرنّهم بما فعلوا بك وهم لا يشعرون أنّك أخوهم، وذلك إخبار بما وقع بعد سنين مما حكي في هذه السورة بقوله تعالى {قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ} [89].

وعلى احتمال عود ضمير { إِلَيْهِ } على يعقوب - عليه السلام - فالوحي هو إلقاء الله إليه ذلك بواسطة الملك.

واتفق واصفو الجبّ على أنه بين (بانياس) و(طبرية). وأنّه على اثني عشر ميلا من طبرية مما يلي دمشق، وأنّه قرب قرية يقال لها (سنجل أو سنجيل). وجب يوسف معروف بين طبرية وصفد، بنيت عليه قبة في زمن الدولة الأيوبية بحسب التوسم وهي قائمة إلى الآن.

{ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ [16] قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ [17] وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } [18].

العشاء: وقت غيبوبة الشفق الباقي من بقايا شعاع الشمس بعد غروبها.

البكاء: خروج الدموع من العينين عند الحزن والأسف والقهر. وقد أطلق هنا على البكاء المصطنع وهو التباكي. وإنّما اصطنعوا البكاء تمويها على أبيهم لئلّا يظنّ بهم أنّهم اغتالوا يوسف عليه السلام.

جاءت امرأة إلى شريح تخاصم في شيء وكانت مبطلة فجعلت تبكي، وأظهر شريح عدم الاطمئنان لدعواها، فقيل له: أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف - عليه السلام - أباهم عشاء يبكون وهم ظلمة كذبة.

الاستباق: افتعال من السبق وهو هنا بمعنى التسابق. والمراد: الاستباق بالجري على الأرجل، وذلك من مرح الشباب ولعبهم.

المتاع: ما ينتفع به. وتقدّم في قوله تعالى {لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ} [النساء :102]. والمراد به هنا ثقلهم من الثياب والآنية والزاد.

{ **فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ** } المراد بالذئب جمع من الذئاب على ما عرفت آنفا عند قوله {وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ} [13]. بحيث لم يترك الذئاب منه، ولذلك لم يقولوا فدفنّاه.

{ **وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا** } خبر مستعمل في لازم الفائدة. تعريض بأنّهم صادقون فيما ادّعوه لأنّهم يعلمون أباهم لا يصدّقهم فيه، فلم يكونوا طامعين بتصديقه إيّاهم.

{ **وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ** } في موضع الحال فالواو واو الحال. {وَلَوْ} اتصالية، وهي تفيد أنّ مضمون ما بعدها هو أبعد الأحوال عن تحقّق مضمون ما قبلها في ذلك الحال. والتقدير: وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين في نفس الأمر، أي نحن نعلم انتفاء إيمانك لنا في الحالين فلا نطمع أن نموّه عليك.

{ **وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ** } في موضع الحال. ووصف الدم بالكذب وصف بالمصدر، والمصدر هنا بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق، أي مكذوب كونه دم يوسف - عليه السلام -. ولا شك في أنّهم لم يتركوا كيفيّة من كيفيات تمويه الدم وحالة القميص بحال قميص من يأكله الذئب من آثار تخريق وتمزيق ممّا لا تخلو عنه حالة افتراس الذئب، وأنّهم أفطن من أن يفوتهم ذلك وهم عصبة لا يعزب عن مجموعهم مثل ذلك. فما قاله بعض أصحاب التفسير من أنّ يعقوب - عليه السلام - قال لأبنائه: ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا، أكل ابني ولم يمزق قميصه، فذلك من تظرّفات القصص.

{ **قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ** }

حرف الإضراب إبطال لدعواهم أن الذئب أكله فقد صرّح لهم بكذبهم.

التسويل: التسهيل وتزيين النفس ما تحرص على حصوله.

{ **أَمْراً** } الإبهام يحتمل عدة أشياء مما يمكن أن يؤذوا به يوسف - عليه السلام - ؛ من قتل، أو بيع، أو تغريب، لأنّه لم يعلم تعيين ما فعلوه.

{ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** } اصبر صبرا جميلا. عدل به عن النصب إلى الرفع للدلالة على الثبات والدوام، كما تقدّم عند قوله تعالى { قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ } [هود:69].

{ **جَمِيلٌ** } يحتمل أن يكون وصفا كاشفا إذ الصبر كلّه حسن دون الجزع.

{ **وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ** } عطف على جملة {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ} فتكون محتملة للمعنيين المذكورين من إنشاء الاستعانة أو الإخبار بحصول استعانته بالله على تحمّل الصبر على ذلك، أو أراد الاستعانة بالله ليوسف - عليه السلام - على الخلاص ممّا أحاط به.

{ **مَا تَصِفُونَ** } التعبير في غاية البلاغة لأنه كان واثقا بأنّهم كاذبون في الصفة وواثقا بأنّهم ألحقوا بيوسف - عليه السلام - ضرّا فلمّا لم يتعيّن عنده المصاب أجمل التعبير عنه إجمالا.

وإنما فوض يعقوب - عليه السلام - الأمر إلى الله ولم يسع للكشف عن مصير يوسف - عليه السلام - لأنّه علم تعذّر ذلك عليه لكبر سنّه، ولأنّه لا عضد له يستعين به على أبنائه أولئك.

{ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } [19]

عطف قصّة على قصّة. وهذا رجوع إلى ما جرى في شأن يوسف - عليه السلام - والمعنى: وجاءت الجبّ.
الوارد: الذي يرد الماء ليستقي للقوم.
الإدلاء: إرسال الدلو في البئر لنزع الماء.
الدلو: ظرف كبير من جلد مخيط له خرطوم في أسفله يكون مطويّا على ظاهر الظرف بسبب شده بحبل مقارن للحبل المعلقة فيه الدلو. والدلو مؤنثة.
{ **قَالَ يَا بُشْرَى** } مستأنفة استئنافا بيانيا. و**البشرى**: تقدّمت في قوله تعالى { لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } [يونس:64]. ونداء البشرى مجاز. والمعنى: أنّه فرح وابتهج بالعثور على غلام.
{ **هَذَا غُلامٌ** } اسم الإشارة عائد إلى ذات يوسف - عليه السلام - خاطب الوارد بقية السيارة. والمعنى: وجدت في البئر غلاما، فهو لقطة، فيكون عبدا لمن التقطه، وذلك سبب ابتهاجه.
الغلام: من سنه بين العشر والعشرين. وكان سنّ يوسف - عليه السلام - يومئذ سبع عشرة سنة.
وكان هؤلاء السيارة من الإسماعيلين كما في التوراة، أي أبناء إسماعيل ابن إبراهيم. وقيل: كانوا من أهل مدين وكان مجيئهم الجبّ للاستقاء منها، ولم يشعر بهم إخوة يوسف إذ كانوا قد ابتعدوا عن الجبّ.
{ **أَسَرُّوهُ** } الضمير للسيّارة لا محالة، أي أخفوا يوسف – عليه السلام - أي خبر التقاطه خشية أن يكون من ولدان بعض الأحياء القريبة من الماء قد تردى في الجبّ، فإذا علم أهله بخبره طلبوه وانتزعوه منهم لأنّهم توسّموا منه مخائل أبناء البيوت.
البضاعة: عروض التجارة ومتاعها، أي عزموا على بيعه.
{ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** } معترضة، أي والله عليم بما يعملون من استرقاق من ليس لهم حقّ في استرقاقه.
وفي عثور السيارة على الجبّ الذي فيه يوسف - عليه السلام - آية من لطف الله به.

{ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ } [20]

{ **شَرَوْهُ** } باعوه. يقال: شرى كما يقال: باع، ويقال: اشترى كما يقال: ابتاع. ومثلهما رهن وارتهن، وكرى واكترى. والأصل في ذلك وأمثاله أنّ الفعل للحدث والافتعال لمطاوعة الحدث.
البخس: أصله مصدر بخسه إذا نقصه عن قيمة شيئه. وهو هنا بمعنى المبخوس. وتقدّم فعل البخس عند قوله تعالى { وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً } [البقرة:282].
{ **دَرَاهِمَ** } بدل من {ثَمَنٍ} وهي جمع درهم، وهو المسكوك. وهو معرب عن الفارسية كما في (صحاح الجوهري) . وقد أغفله الذين جمعوا ما هو معرب في القرآن كالسيوطي في (الإتقان).

{ **مَعْدُودَةٍ** } كناية عن كونها قليلة لأنّ الشيء القليل يسهل عدّه، فإذا كثر صار تقديره بالوزن أو الكيل. وضمائر الجمع كلّها للسيّارة على أصحّ التفاسير.

الزهادة: قلّة الرغبة في حصول الشيء الذي من شأنه أن يرغب فيه، أو قلّة الرغبة في عوضه كما هنا، أي كان السيّارة غير راغبين في إغلاء ثمن يوسف عليه السلام. ولعلّ سبب ذلك قلّة معرفتهم بالأسعار.

{ **مِنَ الزَّاهِدِينَ** } أشدّ مبالغة ممّا لو أخبر بكانوا فيه زاهدين، لأنّ جعلهم من فريق زاهدين ينبي بأنّهم جروا في زهدهم في أمثاله على سنن أمثالهم البسطاء الذين لا يقدرون قدر نفائس الأمور.

{ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [21]

{ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً }.

{ **الَّذِي اشْتَرَاهُ** } مراد منه الذي دفع الثمن فملكه وإن كان لم يتول الاشتراء بنفسه، فإن فعل الاشتراء لا يدلّ إلّا على دفع العوض، ولذلك يكتب الموثّقون في مثل هذا أنّ شراءه لفلان.

والذي اشترى يوسف - عليه السلام - رجل اسمه (**فوطيفار**) رئيس شرطة ملك مصر، وهو والي مدينة مصر، ولقب في هذه السورة بالعزيز، وسيأتي.

ومدينة مصر هي (**منفيس**) ويقال (منف) وهي قاعدة مصر السفلى التي يحكمها قبائل من الكنعانيين عرفوا عند القبط باسم (**الهيكسوس**) أي الرعاة. وكانت مصر العليا المعروفة اليوم بالصعيد تحت حكم فراعنة القبط. وكانت مدينتها **ثيبة** أو **طيبة**، وهي اليوم خراب وموضعها يسمى الأقصر، جمع قصر، لأنّ بها أطلال القصور القديمة، أي الهياكل. وكانت حكومة مصر العليا أيامئذ مستضعفة لغلبة الكنعانيين على معظم القطر.

وامرأته تسمى في كتب العرب (**زَلِيخَا**) - بفتح الزاي وكسر اللام وقصر آخره - وسماها اليهود (راعيل). فيكون اشتراه ليهبه لها لتتخذه ولدا. وهذا يقتضي أنّهما لم يكن لهما ولد.

امرأته: معناه زوجه، فإن الزوجة يطلق عليها اسم المرأة ويراد منه معنى الزوجة. وقد تقدّم عند قوله تعالى {وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ} [هود:71].

المثوى: حقيقته المحلّ الذي يثوي المرء، أي يرجع إليه. وتقدّم عند قوله {قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ} [الأنعام:128]. وهو هنا كناية عن حال الإقامة عندهما، لأنّ المرء يثوي إلى منزل إقامته. فالمعنى: اجعلي إقامته عندك كريمة. أراد أن يجعل الإحسان إليه سببا في اجتلاب محبّته إياهما ونصحه لهما فينفعهما، أو يتخذانه ولدا فيبرّ بهما وذلك أشد تقريبا. ولعلّه كان آيسا من ولادة زوجه. وإنّما قال ذلك لحسن تفرّسه في ملامح يوسف -

عليه السلام - المؤذنة بالكمال.

{ **وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** }.

{ **وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ** } تنويها بأنّ ذلك التمكين بلغ غاية ما يطلب من نوعه، والتمكين في الأرض هنا مراد به ابتداؤه وتقدير أوّل أجزائه، فيوسف - عليه السلام - بحلوله محلّ العناية من عزيز مصر قد خط له مستقبل تمكينه من الأرض.

{ **وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ** } لأنّ الله لمّا قدّر في سابق علمه أن يجعل يوسف - عليه السلام - عالما بتأويل الرؤيا وأن يجعله نبيّا أنجاه من الهلاك، ومكّن له في الأرض تهيئة لأسباب مراد الله.

وتقدّم معنى تأويل الأحاديث آنفا عند ذكر قول أبيه له { وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ } [6] أي تعبير الرؤيا.

{ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ** } معترضة في آخر الكلام. والمعنى والله متمّم ما قدّره، ولذلك عقّبه بالاستدراك بقوله { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } استدراكا على ما يقتضيه هذا الحكم من كونه حقيقة ثابتة شأنها أن لا تُجهل لأنّ عليها شواهد من أحوال الحدثان، ولكن أكثر النّاس لا يعلمون ذلك مع ظهوره.

{ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** } [22]

هذا إخبار عن اصطفاء يوسف - عليه السلام - للنبوّة. ذكر هنا في ذكر مبدإ حلوله بمصر لمناسبة ذكر منّة الله عليه بتمكينه في الأرض وتعليمه تأويل الأحاديث.

الأشُد: القوّة. وفسّر ببلوغه ما بين خمس وثلاثين سنة إلى أربعين.

{ **حُكْماً** } الحكم والحكمة مترادفان، وهو: علم حقائق الأشياء والعمل بالصالح واجتناب ضدّه. وأريد به هنا النبوّة كما في قوله تعالى في ذكر داود وسليمان عليهما السلام { وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً } [الأنبياء: 79].

{ **وَعِلْماً** } علم زائد على النبوة.والتنكير للنوعية، أو للتعظيم. والمراد: علم تعبير الرؤيا، كما سيأتي في قوله تعالى عنه { ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي } [37].

{ **وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** } إيماء إلى أن إحسانه هو سبب جزائه بتلك النعمة.

{ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ [23] وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ [24] وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [25] قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ [26] وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ [27] فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ [28] يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ } [29]

عطف قصّة على قصّة، فلا يلزم أن تكون هذه القصة حاصلة في الوجود بعد التي قبلها. وقد كان هذا الحادث قبل إيتائه النبوّة لأنّ إيتاء النبوّة غلب أن يكون في سن الأربعين. والأظهر أنّه أوتي النبوّة والرسالة بعد دخول أهله إلى مصر وبعد وفاة أبيه. وقد تعرّضت الآيات لتقرير ثبات يوسف - عليه السلام - على العفاف والوفاء وكرم الخلق.

المراودة: مشتقّة من راد يرود، إذا جاء وذهب. شبّه حال المحاول أحدا على فعل شيء مكرّرا ذلك بحال من يذهب ويجيء في المعاودة إلى الشيء المذهوب عنه، فأطلق راود **بمعنى حاول.**

وصيغة المفاعلة مستعملة في التكرير. وقيل: المفاعلة تقديرية، بأن اعتبر العمل من جانب والممانعة من الجانب الآخر من العمل بمنزلة مقابلة العمل بمثله.

{ **عَنْ نَفْسِهِ** } للمجاوزة، أي بأن يجعل نفسه لها. والظاهر أنّ هذا التركيب من مبتكرات القرآن، فالنفس هنا كناية عن غرض المواقعة، قاله ابن عطية، أي فالنفس أريد بها عفافه وتمكينها منه لما تريد.

ووقع في قول أبي هريرة أنّ النبيء ﷺ يراود عمّه أبا طالب على الإسلام. وفي حديث الإسراء " فقال له موسى: " قد راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ".

{ **الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا** } لقصد ما تؤذن به الصلّة من تقرير عصمة يوسف - عليه السلام -، لأنّ كونه في بيتها من شأنه أن يطوّعه لمرادها. و{ بَيْتِهَا } بيت سكناها الذي تبيت فيه. ويجوز أن يكون المراد بالبيت المنزل كله، وهو قصر العزيز. ومنه قولهم: ربة البيت، أي زوجة صاحب الدار.

غلّق الأبواب: جعل كل باب سادا للفرجة التي هو بها. والتضعيف لإفادة شدّة الفعل وقوّته، أي أغلقت إغلاقا محكما.

{ **هَيْتَ** } اسم فعل أمر بمعنى **بادر**. قيل أصلها من اللغة الحورانية، وهي نبطية. وقيل: من اللغة العبرانية. ويظهر أنّها طلبت منه أمرا كان غير بدع في قصورهم بأن تستمتع المرأة بعبدها كما يستمتع الرجل بأمته، ولذلك لم تتقدم إليه من قبل بترغيب بل ابتدأته بالتمكين من نفسها.

{ **مَعَاذَ اللَّهِ** } مصدر أضيف إلى اسم الجلالة إضافة المصدر إلى معموله. وأصله: أعوذ عوذا بالله، أي أعتصم به ممّا تحاولين. وسيأتي بيانه عند قوله { قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ }.

{ **إِنَّهُ رَبِّي** } يجوز أن يعود ضمير إلى اسم الجلالة، ويكون {رَبِّي} بمعنى خالقي. ويجوز أن يعود إلى معلوم من المقام وهو زوجها الذي لا يرضى بأن يمسّها غيره، فهو معلوم بدلالة العرف، ويكون {رَبِّي} بمعنى سيدي ومالكي.

وهذا من الكلام الموجه توجيها بليغا حكي به كلام يوسف عليه السلام، إمّا لأن يوسف - عليه السلام - أتى بمثل هذا التركيب في لغة القبط، وإمّا لأنه أتى بتركيبين عذرين لامتناعه فحكاهما القرآن بطريقة الإيجاز والتوجيه. وأيّاما كان فالكلام تعليل لامتناعه وتعريض بها في خيانة عهدها.

وفي هذا الكلام عبرة عظيمة من العفاف والتقوى وعصمة الأنبياء قبل النبوة من الكبائر.

{ **أَحْسَنَ مَثْوَايَ** } تأكد وتعليل، أي جعل آخرتي حسنى، إذ أنقذني من الهلاك، أو أكرم كفالتي.

{ **إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** } تعليل ثان للامتناع. أشار إلى أن إجابتها لما راودته ظلم، لأنّ فيها ظلم كليهما نفسه بارتكاب معصية ممّا اتفقت الأديان على أنّها كبيرة، وظلم سيّده الذي آمنه على بيته وآمنها على نفسها إذ اتّخذها زوجا وأحصنها.

{ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيّا. والمقصود: أنّها كانت جادة فيما راودته لا مختبرة. والمقصود من ذكر همّها به التمهيد إلى ذكر انتفاء همّه بها لبيان الفرق بين حاليهما في الدين فإنّه معصوم.

الهمّ: العزم على الفعل. وأكّد همّها بـ { قَدْ } ولام القسم ليفيد أنّها عزمت عزما محقّقا.

{ **لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ** } لمّا أردفت جملة { وهَمَّ بِهَا } بجملة شرط { لَوْلاَ } المتمحّض لكونه من أحوال يوسف - عليه السلام - وحده لا من أحوال امرأة العزيز تعيّن أنّه لا علاقة بين الجملتين، فتعيّن أنّ الثانية مستقلّة لاختصاص شرطها بحال المسند إليه فيها. فالتقدير: ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، فقدّم الجواب على شرطه للاهتمام به. فيحسن الوقف على قوله { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ } ليظهر معنى الابتداء بجملة {وهمّ بها} واضحا. وبذلك يظهر أنّ يوسف - عليه السلام - لم يخالطه همّ بامرأة العزيز لأنّ الله عصمه من الهمّ بالمعصية بما أراه من البرهان.

وقال جماعة: همّ يوسف بأن يجيبها لما دعته إليه ثمّ ارعوى وانكفّ على ذلك لمّا رأى برهان ربّه. قاله ابن عبّاس، وقتادة، وابن أبي مليكة، وثعلب. وبيان هذا أنّه انصرف عمّا همّ به بحفظ الله أو بعصمته، والهمّ بالسيّئة مع الكفّ عن إيقاعها ليس بكبيرة فلا ينافي عصمة الأنبياء من الكبائر قبل النبوّة على قول من رأى عصمتهم منها قبل النبوّة، وهو قول الجمهور، وفيه خلاف، ولذلك جوّز ابن عباس ذلك على يوسف.

الرؤية: هنا علميّة لأنّ البرهان من المعاني التي لا ترى بالبصر.

البرهان: الحجّة. وهذا البرهان من جملته صرفه عن الهمّ بها، ولولا ذلك لكان حال البشريّة لا يسلم من الهمّ بمطاوعتها في تلك الحالة لتوفر دواعي الهمّ من حسنها، ورغبتها فيه، واغتباط أمثاله بطاعتها، والقرب منها. ودواعي الشباب المسوّلة لذلك، فكان برهان الله هو الحائل بينه وبين الهمّ بها دون شيء آخر.

واختلف المفسرون في ما هو هذا البرهان، فمنهم من يشير إلى أنه حجّة نظرية قبّحت له هذا الفعل، وقيل: هو وحي إلهي، وقيل: حفظ إلهي، وقيل: مشاهدات تمثّلت له.

{ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ** } الإشارة إلى شيء مفهوم ممّا قبله يتضمّنه قوله {رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ}، أي أريناه ذلك الرأي لنصرف عنه السوء.

الصرف: نقل الشيء من مكان إلى مكان، وهو هنا مجاز عن الحفظ من حلول الشيء بالمحلّ الذي من شأنه أن يحلّ فيه. عبّر به عن **العصمة** من شيء يوشك أن يلابس شيئا. والتعبير عن العصمة بالصرف يشير إلى أنّ أسباب حصول السوء والفحشاء موجودة ولكنّ الله صرفهما عنه.

السوء: القبيح، وهو خيانة من ائتمنه. و**الفحشاء**: المعصية، وهي الزنى. ومعنى صرفهما عنه صرف ملابسته إيّاهما.

{ **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** } تعليل لحكمة صرفه عن السوء والفحشاء الصرف الخارق للعادة.

الاستباق: افتعال من السبق. وتقدّم آنفا، وهو هنا إشارة إلى تكلّفهما السبق، أي أنّ كلّ واحد منهما يحاول أن يكون هو السابق إلى الباب. وانتصب {الْبَابَ} على نزع الخافض، أو على تضمين {اسْتَبَقَا} معنى ابتدرا. وذلك أن يوسف - عليه السلام - فرّ من مراودتها إلى الباب يريد فتحه والخروج وهي تريد أن تسبقه إلى الباب لتمنعه من فتحه.

{ **وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ** } في موضع الحال. و { قدّت } أي قطعت، أي قطعت منه قدّا، وذلك قبل الاستباق لا محالة. لأنه لو كان تمزيق القميص في حال الاستباق لم تكن فيه قرينة على صدق يوسف - عليه السلام - أنّها راودته، إذ لا يدلّ التمزيق في حال الاستباق على أكثر من أن يوسف - عليه السلام - سبقها مسرعا إلى الباب، فدلّ على أنّها أمسكته من قميصه حين أعرض عنها تريد إكراهه على ما راودته فجذب نفسه فتخرّق القميص من شدة الجذبة. وكان قطع القميص من دبر لأنّه كان موليا عنها معرضا فأمسكته منه لردّه عن

إعراضه.

{ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ } وصادف أن ألفيا سيّدها، أي زوجها، وهو العزيز، عند الباب الخارجي يريد الدخول إلى البيت. وإطلاق السيد على الزوج قيل: إنّ القرآن حكى به عادة القبط حينئذ، كانوا يدعون الزوج سيّدا. والظاهر أنّه لم يكن ذلك مستعملا في عادة العرب، فالتعبير به هنا من دقائق التاريخ مثل قوله {مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ} [76]. ولعلّ الزواج في مصر في ذلك العهد كان بطريق الملك غالبا.

الإلفاء: وجدان شيء من غير سعي لوجدانه، فالأكثر أن يكون مفاجئا، أو حاصلا عن جهل، كقوله تعالى {قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} [البقرة:170].

{ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } مستأنفة بيانيا. وابتدرته بالكلام إمعانا في البهتان بحيث لم تتلعثم، وأفرغت الكلام في قالب كلّي ليأخذ صيغة القانون، وليكون قاعدة لا يعرف المقصود منها فلا يسع المخاطب إلّا الإقرار لها. ولعلّها كانت تخشى أن تكون محبّة العزيز ليوسف - عليه السلام - مانعة له من عقابه. وكانت تريد بذلك أن لا يشعر زوجها بأنّها تهوى يوسف - عليه السلام -.

{ أَنْ يُسْجَنَ } كان الحبس عقابا قديما في ذلك العصر، واستمر إلى زمن موسى عليه السلام، فقد قال فرعون لموسى عليه السلام { لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ }.

{ عَذَابٌ أَلِيمٌ } أما العذاب فهو أنواع، وهو عقاب أقدم في اصطلاح البشر. ومنه الضرب والإيلام بالنار وبقطع الأعضاء. وسيأتي ذكر السجن في هذه السورة مرارا.

ومخالفة التعبير بين {أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ} دون أن يقول: إلّا السجن أو عذاب، لأنّ لفظ السجن يطلق على البيت الذي يوضع فيه المسجون، فقوله {أَنْ يُسْجَنَ} أوضح في تسلّط معنى الفعل عليه.

{ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي } من قول يوسف - عليه السلام - وفصلت لأنّها جاءت على طريقة المحاورة مع كلامها. وتقديم المبتدأ على خبره الذي هو فعل يفيد القصر، وهو قصر قلب للردّ عليها.

{ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ [26] وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ } كان مع العزيز رجل من أهل امرأته، وهو الذي شهد وكان فطنا عارفا بوجوه الدلالة. وسمّي قوله شهادة لأنّه يؤول إلى إظهار الحقّ في إثبات اعتداء يوسف - عليه السلام - على سيّدته أو دحضه. وهذا من القضاء بالقرينة البيّنة. ولا شكّ أنّ الاستدلال بكيفيّة تمزيق القميص نشأ عن ذكر امرأة العزيز وقوع تمزيق القميص تحاول أن تجعله حجة على أنّها أمسكته لتعاقبه، ولولا ذلك ما خطر ببال المشاهد أنّ تمزيقا وقع وإلّا فمن أين علم الشاهد تمزيق القميص. والظاهر أنّ الشاهد كان يظن صدقها فأراد أن يقيم دليلا على صدقها فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف - عليه السلام- .

وزيادة {وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} بعد {فَصَدَقَتْ} ، وزيادة {وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ} بعد {فَكَذَبَتْ} تأكيد لزيادة تقرير

الحق كما هو شأن الأحكام.

{ **فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** } الذي رأى قميصه قدّ من دبر وقال: إنّه من كيدكن، هو العزيز لا محالة. وقد استبان لديه براءة يوسف - عليه السلام - من الاعتداء على المرأة فاكتفى بلوم زوجه بأنّ ادعاءها عليه من كيد النساء.

الكيد: فعل شيء في صورة غير المقصودة للتوصّل إلى مقصود.

{ **يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ** } ثم أمر يوسف - عليه السلام - بالإعراض عمّا رمته به، أي عدم مؤاخذتها بذلك، وبالكف عن إعادة الخوض فيه. وأمر زوجه بالاستغفار من ذنبها، أي في اتهامها يوسف - عليه السلام - بالجرأة والاعتداء عليها.

قال المفسرون: وكان العزيز قليل الغيرة. وقيل: كان حليما عاقلا. ولعلّه كان مولعا بها، أو كانت شبهة الملك تخفّف مؤاخذة المرأة بمراودة مملوكها. وهو الذي يؤذن به حال مراودتها يوسف - عليه السلام - حين بادرته بقولها {هِيتَ لَكَ} كما تقدم آنفا.

الخاطئ: فاعل الخطيئة، وهي الجريمة. وجعلها من زمرة الذين خطئوا تخفيفا في مؤاخذتها. وصيغة جمع المذكر تغليب.

وهذا الأسلوب من الخطاب يسمى بالإقبال، وقد يسمّى بالالتفات بالمعنى اللغوي عند الالتفات البلاغي، وهو عزيز في الكلام البليغ. قال المرزوقي في (شرح الحماسة): والعرب تجمع في الخطاب والإخبار بين عدة، ثم تقبل أو تلتفت من بينهم إلى واحد لكونه أكبرهم أو أحسنهم سماعا وأخصهم بالحال.

{ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }[30]

{ **وَقَالَ نِسْوَةٌ** } الفعل المسند إلى ألفاظ الجموع غير الجمع المذكر السالم يجوز تجريده من التاء باعتبار الجمع، وقرنه بالتاء باعتبار الجماعة مثل { وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ } [سورة يوسف: 19].

النسوة: اسم جمع امرأة لا مفرد له، وهو اسم جمع قلّة مثله نساء.

{ **فِي الْمَدِينَةِ** } صفة لنسوة. والمقصود من ذكر هذه الصفة أنّهنّ كنّ متفرّقات في ديار من المدينة. وهذه المدينة هي قاعدة مصر السفلى وهي مدينة (**منفيس**) حيث كان قصر العزيز. وقيل: إنّ امرأة العزيز باحت بالسر لبعض خلائلها فأفشينه كأنّها أرادت التشاور معهن، أو أرادت الارتياح بالحديث إليهنّ.

{ **تُرَاوِدُ** } صيغة المضارع مع كون المراودة مضت لقصد استحضار الحالة العجيبة وذلك للإنكار عليها في أنفسهن ولومها على صنيعها.

الفتى: الذي في سن الشباب، ويكنى به عن المملوك وعن الخادم كما يكنى بالغلام والجارية وهو المراد هنا.
{ **فَتَاهَا** } لأنّه غلام زوجها فهو غلام لها بالتبع ما دامت زوجة لمالكه.
{ **قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً** } في موضع التعليل. و **شغف**: فعل مشتقّ من اسم جامد، وهو الشِغاف (بكسر الشين المعجمة) وهو غلاف القلب. وأصله شغفها حبّه، أي أصاب حبّه شغافها، أي اخترق الشغاف فبلغ القلب، **كناية عن التمكّن.**
{ **إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ** } استئناف ابتدائي لإظهار اللوم والإنكار عليها. والتأكيد بـ (إن) واللام لتحقيق اعتقادهن ذلك.
الضلال: مخالفة طريق الصواب، أي هي مفتونة العقل بحبّ هذا الفتى، وليس المراد الضلال الديني.

{ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ [31] قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ } [32].
{ **سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ** } حقّ (سمع) أن يعدّى إلى المسموع بنفسه، فتعديته بالباء هنا إمّا لأنّه ضمّن معنى أُخبرت. وإمّا أن تكون الباء مزيدة للتوكيد مثل قوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة: 6].
وأطلق على كلامهن اسم المكر، قيل: لأنهن أردن بذلك أن يبلغ قولهنّ إليها فيغريها بعرضها يوسف - عليه السلام - عليهن فيرين جماله لأنّهنّ أحببن أن يرينه. وقيل: لأنّهنّ قلنه خفية فأشبه المكر، ويجوز أن يكون أطلق على قولهن اسم المكر لأنّهنّ قلنه في صورة الإنكار وهن يضمرن حسدها على اقتناء مثله، إذ يجوز أن يكون الشغف بالعبد غير منكر.
{ **وَأَعْتَدَتْ** } أصله أعددت، أبدلت الدال الأولى تاء، كما تقدّم عند قوله تعالى { وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً} [النساء:37].
المتكأ: محل الاتكاء. والاتكاء: جلسة قريبة من الاضطجاع على الجنب مع انتصاب قليل في النصف الأعلى. وإنّما يكون الاتكاء إذا أريد إطالة المكث والاستراحة، أي أحضرت لهنّ نمارق يتكئن عليها لتناول طعام. وكان أهل الترف يأكلون متكئين كما كانت عادة للرومان، ولم تزل أسرّة اتكائهم موجودة في ديار الآثار. وقال النبيء ﷺ: " أمّا أنا فلا آكل متكئا ".
{ **آتَتْ** } أمرت خدمها بالإيتاء.
السكين: آلة قطع اللحم وغيره. وأعطت كل واحدة سكينا لقشر الثمار.

{ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ } يقتضي أنّه كان في بيت آخر وكان لا يدخل عليها إلّا بإذنها .وعدّي فعل الخروج بحرف (على) لأنّه ضمّن معنى (أُدخل) لأنّ المقصود دخوله عليهنّ لا مجرد خروجه من البيت الذي هو فيه.

{ أَكْبَرْنَهُ } أعظمنه، أي أعظمن جماله وشمائله. وأطلق الكبر على عظيم الصفات تشبيها لوفرة الصفات بعظم الذات.

{ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ } أي أجرين السكاكين على أيديهن يحسبن أنّهنّ يقطعن الفواكه، من الذهول. وأريد بالقطع الجرح، أطلق عليه القطع مجازا للمبالغة في شدّته حتّى كأنّه قطع قطعة من لحم اليد.

{ حَاشَ لِلَّهِ } تركيب عربي جرى مجرى المثل يراد منه إبطال شيء عن شيء وبراءته منه. وأصل (حاشا) فعل يدل على المباعدة عن شيء. وقد يوصل به اسم الجلالة فيصير كاليمين على النفي يقال: حاشا الله، أي أحاشيه عن أن يكذب، كما يقال: لا أقسم. حكي بهذا التركيب كلام قالته النسوة يدلّ على هذا المعنى في لغة القبط حكاية بالمعنى.

{ مَا هَذَا بَشَراً } مبالغة في فَوْته محاسن البشر، فمعناه التفضيل في محاسن البشر.

{ إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ } ثم شبّهنه بواحد من الملائكة بطريقة حصره في جنس الملائكة تشبيها بليغا مؤكّدا. وكان القبط يعتقدون وجود موجودات علوية هي من جنس الأرواح العلوية، ويعبّرون عنها بالآلهة أو قضاة يوم الجزاء، ويجعلون لها صورا، ولعلّهم كانوا يتوخّون أن تكون ذواتا حسنة. ومنها ما هي مدافعة عن الميت يوم الجزاء. فأطلق في الآية اسم الملك على ما كانت حقيقته مماثلة لحقيقة مسمّى الملك في اللغة العربية تقريبا لأفهام السامعين.

{ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ } فاء الفصيحة، أي إن كان هذا كما زعمتنّ ملكا فهو الذي بلغكن خبره فلمتنني فيه. وهنالك مضاف محذوف، والتقدير: في شأنه أو في محبّته.

والإشارة ليوسف عليه السلام، إذ كنّ لم يرينه قبل. والتعبير عنه بالموصولية لعدم علم النسوة بشيء عنه غير تلك الصلة، وقد باحت لهنّ بأنّها راودته لأنّها رأت منهنّ الافتنان به فعلمت أنّهنّ قد عذرنها. والظاهر أنّهنّ كنّ خلائل لها فلم تكتم عنهنّ أمرها.

استعصم: مبالغة في عصم نفسه، فالسين والتاء للمبالغة. فالمعنى: أنه امتنع امتناع معصوم، أي جاعلا المراودة خطيئة عصم نفسه منها.

{ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ } ولم تزل مصمّمة على مراودته تصريحا بفرط حبّها إيّاه، واستشماخا بعظمتها، وأن لا يعصي أمرها، فأكدت حصول سجنه بنوني التوكيد، وقد قالت ذلك بمسمع منه إرهابا له.

الصاغر: الذليل. وتركيب {مِنَ الصَّاغِرِينَ} أقوى في معنى الوصف بالصغار من أن يقال: وليكونن صاغرا.

{ **قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ** [33] **فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } [34]

استئناف بياني، لأنّ ما حكي قبله مقام شدّة من شأنه أن يسأل سامعه عن حال تلقي يوسف - عليه السلام - فيه لكلام امرأة العزيز.

وهذا الكلام مناجاة لربّه الذي هو شاهدهم، فالظاهر أنّه قال هذا القول في نفسه. ويحتمل أنّه جهر به في ملئهن تأييسا لهن من أن يفعل ما تأمره به.

فلمّا علم أنّه لا محيص من أحد الأمرين صار السجن محبوبا إليه باعتبار أنّه يخلّصه من الوقوع في الحرام.

فالإخبار بأن السجن أحب إليه من الاستمتاع بالمرأة مستعمل في إنشاء الرضى بالسجن في مرضاة الله تعالى والتباعد عن محارمه.

{ **يَدْعُونَنِي** } أسند الفعل إلى ضمير جمع النساء مع أنّ التي دعته امرأة واحدة، إمّا لأنّ تلك الدعوة من رغبات صنف النساء فيكون على وزان جمع الضمير في {كَيْدَهُنَّ}، وإمّا لأنّ النسوة اللاتي جمعتهنّ امرأة العزيز لمّا سمعن كلامها تمالأن على لوم يوسف - عليه السلام - وتحريضه على إجابة الداعية، وتحذيره من وعيدها بالسجن.

{ **وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ** } التجاء إلى الله وملازمة للأدب نحو ربّه بالتبرؤ من الحول والقوّة والخشية من تقلّب القلب ومن الفتنة بالميل إلى اللذّة الحرام. فالخبر مستعمل في الدعاء، ولذلك فرّع عنه جملة { فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ }.

{ **أَصْبُ** } أمِلْ. والصبو: الميل إلى المحبوب.

الجاهلون: سفهاء الأحلام، فالجهل هنا مقابل الحلم.

{ **فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ** } العطف بفاء التعقيب إشارة إلى أنّ الله عجّل إجابة دعائه.

استجاب: مبالغة في أجاب، كما تقدم في قوله { فَاسْتَعْصَمَ } [32].

وصرف كيدهنّ عنه صرف أثره، وذلك بأن ثبّته على العصمة فلم ينخدع لكيدها ولا لكيد خلائلها.

{ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** } في موضع العلّة، أي أجاب دعاءه بدون مهلة لأنّه سريع الإجابة وعليم بالضمائر الخالصة. فالسمع مستعمل في إجابة المطلوب، يقال: سمع الله لمن حمده. وتأكيده بضمير الفصل لتحقيق ذلك المعنى.

{ **ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ** }[35]

وإنّما بدا لهم أن يسجنوا يوسف - عليه السلام - حين شاعت القالة عن امرأة العزيز في شأنه فكان ذلك عقب انصراف النسوة، لأنّها خشيت إن هنّ انصرفن أن تشيع القالة في شأنها وشأن براءة يوسف - عليه السلام - فرامت أن تغطّي ذلك بسجن يوسف - عليه السلام - حتّى يظهر في صورة المجرمين بإرادته السوء بامرأة العزيز، وهي ترمي بذلك إلى تطويعه لها. ولعلّها أرادت أن توهم النّاس بأنّ مراودته إيّاها وقعت يوم ذلك المجمع، وأن توهم أنّهنّ شواهد.

{ **لَهُمْ** } الضمير لجماعة العزيز من مشير وآمر.

الآيات: دلائل صدق يوسف - عليه السلام - وكذب امرأة العزيز.

{ **لَيَسْجُنُنَّهُ** } جواب قسم محذوف، وهي متعلّقة فعل { بَدَا }. والتقدير: بدا لهم ما يدل عليه هذا القسم، أي بدا لهم تأكيد أن يسجنوه.

الحين: زمن غير محدود، فإن كان {حَتَّى حِينٍ} من كلامهم كان المعنى: أنّهم أمروا بسجنه سجنا غير مؤجّل المدّة. وإن كان من الحكاية كان القرآن قد أبهم المدّة، إذ لا يتعلّق فيها الغرض من القصّة.

{ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ }[36]

وهذان الفتيان هما ساقي الملك وخبّازه غضب عليهما الملك فأمر بسجنهما. قيل: اتهما بتسميم الملك في الشراب والطعام.

{ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** } وهذان الفتيان توسما من يوسف - عليه السلام - كمال العقل والفهم فظنّا أنّه يحسن تعبير الرؤيا ولم يكونا علما منه ذلك من قبل. أي المحسنين التعبير، أو المحسنين الفهم. وكان تعبير الرؤيا من فنون علمائهم فلذلك أيّد الله به يوسف - عليه السلام - بينهم.

الإحسان: الإتقان، يقال: هو لا يحسن القراءة، أي لا يتقنها. ومن عادة المساجين حكاية المرائي التي يرونها، لفقدانهم الأخبار التي هي وسائل المحادثة والمحاورة، ولأنّهم يتفاءلون بما عسى أن يبشّرهم بالخلاص.

العصر: الضغط باليد أو بحجر أو نحوه على شيء فيه رطوبة لإخراج ما فيه من المائع.

الخبز: دقيق البرّ أو الشعير أو نحوهما يعجن بالماء ويوضع قرب النّار حتى ينضج، ويسمّى رغيفا أيضا.

{ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ [37] وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ } [38].

{ **قَالَ لا يَأْتِيكُمَا** } جواب عن كلامهما ففصلت على أسلوب حكاية جمل التحاور.
أراد بهذا الجواب أن يفترض إقبالهما عليه وملازمة الحديث معه إذ هما يترقّبان تعبيره الرؤيا فيدمج في ذلك دعوتهما إلى الإيمان الصحيح مع الوعد بأنّه يعبّر لهما رؤياهما غير بعيد، وجعل لذلك وقتا معلوما لهم، وهو وقت إحضار طعام المساجين.
الرزق: حقيقته ما به النفع، ويطلق على الطعام كقوله { وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً } [آل عمران:37]، وقوله {أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } [الأعراف:50]، وقوله { وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً } [مريم: 62].
ويطلق على الإنفاق المتعارف كقوله { وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ } [النساء: 5]. ومن هنا يطلق على العطاء، يقال: رزق الجند كذا كلّ يوم.
{ **بِتَأْوِيلِهِ** } ضمير عائد إلى المرئي أو المنام. ولا ينبغي أن يعود إلى { **طَعَامٌ** } إذ لا يحسن إطلاق التأويل عن الأنباء بأسماء أصناف الطعام، خلافا لما سلكه جمهور المفسّرين.
{ **إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ** } أي لا يأتي الطعام المعتاد إلّا في حال أني قد نبأتكما بتأويل رؤياكما.
{ **ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي** } استئناف بياني، لأنّ وعده بتأويل الرؤيا في وقت قريب يثير عجب السائلين عن قوّة علمه وعن الطريقة التي حصل بها هذا العلم، فيجيب بأنّ ذلك ممّا علّمه الله تخلّصا إلى دعوتهما للإيمان بإله واحد. وكان القبط مشركين يدينون بتعدد الآلهة.
والقول إيذان بأنّه علّمه علوما أخرى، وهي علوم الشريعة والحكمة والاقتصاد والأمانة كما قال { اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [55].
{ **إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** } مزيد بيان، أخبر بأنّ سبب عناية الله به أنّه انفرد في ذلك المكان بتوحيد الله وترك ملّه أهل المدينة، فأراد الله اختياره لهديهم، ويجوز كون الجملة تعليلا.
الترك: عدم الأخذ للشيء مع إمكانه. أشار به إلى أنّه لم يتّبع ملّة القبط مع حلوله بينهم.
الملة: الدين، تقدّم في قوله { دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [الأنعام:161].
وأراد بالقوم الذين لا يؤمنون بالله، ما يشمل الكنعانيين الذين نشأ فيهم والقبط الذين شبّ بينهم. أو أراد الكنعانيين خاصة، وهم الذين نشأ فيهم تعريضا بالقبط الذين ماثلوهم في الإشراك. وأراد بهذا أن لا يواجههم بالتشنيع استنزالا لطائر نفورهم من موعظته.
{ **هُمْ كَافِرُونَ** } زيادة ضمير الفصل أراد به تخصيص قوم منهم بذلك وهم الكنعانيون، لأنّهم كانوا ينكرون البعث مثل كفّار العرب. وأراد بذلك إخراج القبط لأنّ القبط وإن كانوا مشركين فقد كانوا يثبتون بعث الأرواح والجزاء.

{ **وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** } ذكر آباءه تعليما بفضلهم، وإظهارا لسابقية الصلاح فيه، وأنّه متسلسل من آبائه. ولذلك قال النبيء ﷺ لمّا سئل عن أكرم الناس: " يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي". وهذه السلسلة في النبوّة لم تجتمع لأحد غير يوسف - عليه السلام -.

{ **مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ** } صار التوحيد كالسجيّة لهم عرف بها أسلافهم بين الأمم، وعرّفهم بها لنفسه في هذه الفرصة. ولا يخفى ما تقتضيه صيغة الجحود من مبالغة انتفاء الوصف على الموصوف، كما تقدّم في قوله تعالى { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ } [آل عمران:79].

{ **ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا** } زيادة في البيان لقصد الترغيب في اتّباع دين التوحيد بأنّه فضل.

{ **وَعَلَى النَّاسِ** } أي الذين يتّبعونهم، وهو المقصود من الترغيب بالجملة.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** } الاستدراك للتصريح بأنّ حال المخاطبين في إشراكهم حال من يكفر نعمة الله، لأنّ إرسال الهداة نعمة ينبغي أن ينظر النّاس فيها فيعلموا أنّ ما يدعونهم إليه خير وإنقاذ لهم من الانحطاط في الدنيا والعذاب في الآخرة، ولأنّ الإعراض عن النظر في أدلة صدق الرسل كفر بنعمة العقل والنظر.

{ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [39] مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [40].

أراد بالكلام الذي كلّمهما به تقريرهما بإبطال دينهما، فالاستفهام تقريري. وقد رتّب لهما الاستدلال بوجه خطابي قريب من أفهام العامة، إذ فرض لهما إلها واحدا متفرّدا بالإلهيّة كما هو حال ملّته التي أخبرهم بها. وفرض لهما آلهة متفرقين كل إله منهم إنّما يتصرّف في أشياء معينة من أنواع الموجودات تحت سلطانه لا يعدوها إلى ما هو من نطاق سلطان غيره منهم، وذلك حال ملّة القبط. ليصل بذلك إلى إقناعهما بأنّ حال المنفرد بالإلهية أعظم وأغنى، فيرجعان عن اعتقاد تعدّد الآلهة. ليستنزل بذلك طائر نظرهما واستدلالهما حتّى ينجلي لهما فساد اعتقاد تعدّد الآلهة، كما يومئ إليه وصف التفرّق بالنسبة للتعدّد، ووصف القهّار بالنسبة للوحدانيّة.

وكانت ديانة القبط في سائر العصور التي حفظها التاريخ وشهدت بها الآثار ديانة شرك، أي تعدّد الآلهة. وبالرغم على ما يحاوله بعض المؤرخين المصريين والإفرنج من إثبات اعتراف القبط بإله واحد وتأويلهم لهم تعدد الآلهة بأنها رموز للعناصر فإنّهم لم يستطيعوا أن يثبتوا إلّا أنّ هذا الإله هو معطي التصرف للآلهة الأخرى. وذلك هو شأن سائر أديان الشرك، فإنّ الشرك ينشأ عن مثل ذلك الخيال فيصبح تعدّد آلهة. والأمم

الجاهلة تتخيّل هذه الاعتقادات من تخيّلات نظام ملوكها وسلاطينها وهو النظام الإقطاعي القديم.

نعم إن القبط بنوا تعدد الآلهة على تعدد القوى والعناصر وبعض الكواكب ذات القوى. ومثلهم الإغريق فهم في ذلك أحسن حالا من مشركي العرب الذين ألهوا الحجارة، وقصارى ما قسّموه في عبادتها أن جعلوا بعضها آلهة لبعض القبائل. وأحسن حالا من الصابئة الكلدان والآشوريين الذين جعلوا الآلهة رموزا للنجوم والكواكب.

وكانت آلهة القبط نحوا من ثلاثين ربا أكبرها عندهم (**آمون رع**) ومن أعظم آلهتهم ثلاثة أخر وهي: [**أوزوريس - أزيس - هوروس**]. فلله بلاغة القرآن إذ عبّر عن تعددها بالتفرّق {أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ} [39].

{ **مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ** } انتقل إلى إبطال وجود تلك الآلهة على الحقيقة. فهي أسماء لا مسمّيات لها.

{ **أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ** } والمقصود من ذلك الرد على آبائهم، سدّا لمنافذ الاحتجاج لأحقيّتها بأنّ تلك الآلهة معبودات آبائهم، وإدماجا لتلقين المعذرة لهما ليسهل لهما الإقلاع عن عبادة آلهة متعدّدة.

{ **إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** } إبطال لجميع التصرّفات المزعومة لآلهتهم بأنّها لا حكم لها.

{ **أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** } انتقال من أدلة إثبات انفراد الله تعالى بالإلهية إلى التعليم بامتثال أمره ونهيه، لأنّ ذلك نتيجة لإثبات الإلهية والوحدانية له. فهي بيان من حيث ما فيها من معنى الحكم.

{ **ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** } خلاصة لما تقدّم من الاستدلال، أي ذلك الدين لا غيره مما أنتم عليه وغيركم.

{ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } [41]

افتتح خطابهما بالنداء اهتماما بما يلقيه إليهما من التعبير.

ثم إذا كان الكلام المحكي عن يوسف - عليه السلام - في الآية صدر منه على نحو النظم الذي نظم به في الآية، وهو الظاهر، كان جمع التأويل في عبارة واحدة مجملة، لأن في تأويل إحدى الرؤيين ما يسوء صاحبها، قصدا لتلقيه ما يسوء بعد تأمّل قليل كيلا يفجأه من أول الكلام، فإنّه بعد التأمّل يعلم أنّ الذي يسقي ربه خمرا هو رائي عصر الخمر، وأنّ الذي تأكل الطير من رأسه هو رائي أكل الطير من خبز على رأسه.

وإذا كان نظم الآية على غير ما صدر من يوسف - عليه السلام - كان في الآية إيجاز لحكاية كلام يوسف.

{ **قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ** } تحقيق لما دلّت عليه الرؤيا، وأنّ تعبيرها هو ما أخبرهما به فإنّهما يستفتيان في دلالة الرؤيا على ما سيكون في شأن سجنهما، لأنّ ذلك أكبر همّهما.

الاستفتاء: مصدر استفتى إذا طلب الإفتاء. وهو: الإخبار بإزالة مشكل، أو إرشاد إلى إزالة حيرة. وفعله أفتى ملازم للهمز ولم يسمع له فعل مجرّد، فدل ذلك على أن همزه في الأصل مجتلب لمعنى، قالوا: أصل اشتقاق أفتى من الفتى وهو الشاب، فكأن الذي يفتيه يقوي نهجه ببيانه فيصير بقوة بيانه فتيا أي قويا. واسم الخبر الصادر من المفتي: فتوى (بفتح الفاء وبضمّها مع الواو مقصورا، وبضم الفاء مع الياء مقصورا).

{ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ }[42]

قال يوسف - عليه السلام - للذي ظن نجاته وهو الساقي. والظنّ هنا مستعمل في القريب من القطع لأنّه لا يشك في صحّة تعبيره الرؤيا. وأراد بذكره ذكر قضيّته ومظلمته، أي اذكرني لربك، أي سيدك، ملك مصر.

{ **فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ** } أي أنسى الشيطان الذي نجا أن يذكره لربه. ويحتمل أن يعود الضميران إلى يوسف - عليه السلام - أنساه الشيطان ذكر الله، فالذكر الثاني غير الذكر الأول. ولعلّ كلا الاحتمالين مراد، وهو من بديع الإيجاز. وذلك أن نسيان يوسف - عليه السلام - أن يسأل الله إلهام الملك تذكّر شأنه كان من إلقاء الشيطان في أمنيّته، وكان ذلك سببا إلهيا في نسيان الساقي تذكير الملك، وكان ذلك عتابا إلهيا ليوسف - عليه السلام - على اشتغاله بعون العباد دون استعانة ربّه على خلاصه.

البضع: من الثلاث إلى التسع.

{ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ [43] قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعَالِمِينَ [44] وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ } [45].

هذا عطف جزء من قصّة على جزء منها تكملة لوصف خلاص يوسف - عليه السلام - من السجن.

{ **الْمَلِكُ** } التعريف للعهد، أي ملك مصر. وسمّاه القرآن هنا ملكا ولم يسمّه فرعون لأنّ هذا الملك لم يكن من الفراعنة، ملوك مصر القبط، وإنّما كان ملكا لمصر أيّام حكمها الهكسوس، وهم العمالقة، وهم من الكنعانيين، أو من العرب، ويعبّر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة، أي البدو. وقد ملكوا بمصر(من 1900 إلى 1525 ق م). وكان عصرهم فيما بين مدة العائلة الثالثة عشرة والعائلة الثامنة عشرة من ملوك القبط، إذ كانت عائلات ملوك القبط قد بقي لها حكم في مصر العليا في مدينة طيبة كما تقدم عند قوله تعالى { وَقَالَ

الَّذِي اشْتَرَاهُ} [21]. وكان ملكهم في تلك المدّة ضعيفا لأنّ السيادة كانت لملوك مصر السفلى. ويقدّر المؤرخون أن ملك مصر السفلى في زمن يوسف - عليه السلام - كان في مدة العائلة السابعة عشرة. فالتعبير عنه بالملك في القرآن دون التعبير بفرعون مع أنّه عبّر عن ملك مصر في زمن موسى - عليه السلام - بلقب فرعون هو من دقائق إعجاز القرآن العلمي. وقد وقع في التوراة إذ عبّر فيها عن ملك مصر في زمن يوسف - عليه السلام - فرعون وما هو بفرعون، لأنّ أمّته ما كانت تتكلم بالقبطية وإنّما كانت لغتهم كنعانية قريبة من الآرامية والعربية، فيكون زمن يوسف - عليه السلام - في آخر أزمان حكم ملوك الرعاة على اختلاف شديد في ذلك.

{ **سِمَانٍ** } جمع سمينة وسمين، مثل كِرام.

{ **عِجَافٌ** } جمع عجفاء. والقياس في جمع عجفاء عجف لكنّه صيغ هنا بوزن فعال لأجل المزاوجة لمقارنه وهو {سِمَانٍ}. والعجفاء: ذات العَجَف (بفتحتين) وهو **الهزال الشديد**.

{ **سَبْعَ سُنْبُلاتٍ** } السنبلة تقدّمت في قوله تعالى { كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ } [البقرة:261].

الملأ: أعيان النّاس. تقدّم عند قوله تعالى { قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ } [الأعراف:60].

الإفتاء: الإخبار بالفتوى. وتقدّمت آنفا عند قوله { قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } [41].

وكان تعبير الرؤيا مما يشتغلون به. وكان الكهنة منهم يعدّونه من علومهم، ولهم قواعد في حل رموز ما يراه النائم. وقد وجدت في آثار القبط أوراق من البردي فيها ضوابط وقواعد لتعبير الرؤى، فإن استفتاء صاحبي السجن يوسف - عليه السلام - في رؤييهما ينبئ بأنّ ذلك شائع فيهم، وسؤال الملك أهل ملئه تعبير رؤياه ينبئ عن احتواء ذلك الملأ على من يُظنّ بهم علم تعبير الرؤيا، ولا يخلو ملأ الملك من حضور كهّان من شأنهم تعبير الرؤيا. وفي التوراة: " فأرسل ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها وقص عليهم حلمه فلم يكن من يعبره له " (الإصحاح41 من سفر التكوين).

الأضغاث: جمع ضِغث (بكسر الضاد المعجمة) وهو: ما جمع في حزمة واحدة من أخلاط النبات وأعواد الشجر. و**الأحلام**: جمع حُلُم (بضمتين) وهو ما يراه النائم في نومه.

والتقدير: هذه الرؤيا أضغاث أحلام. شبهت تلك الرؤيا بالأضغاث في اختلاطها وعدم تناسقها لذلك لا تفهم.

{ **وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ** } فلما ظهر عَوْصُ تعبير هذا الحلم تذكّر ساقي الملك ما جرى له مع يوسف - عليه السلام – فقال: { أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ }.

{ **وَادَّكَرَ**} بالدال المهملة أصله (**اذتكر**)، وهو افتعال من الذكر، قلبت تاء الافتعال دالا لثقلها ولتقارب مخرجيهما ثم قلبت الذال ليتأتى إدغامها في الدال لأن الدال أخف من الذال. وهذا أفصح الإبدال في اذّكر.

{ **بَعْدَ أُمَّةٍ** } بعد زمن مضى على نسيانه وصاية يوسف عليه السلام. و**الأمة**: أطلقت هنا على **المدّة الطويلة**،

وأصل إطلاق الأمّة على المدّة الطويلة هو أنّها زمن ينقرض في مثله جيل، والجيل يسمى أمّة، كما في قوله تعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } [آل عمران: 110] على قول من حمله على الصحابة.

وإطلاقه في هذه الآية مبالغة في زمن نسيان الساقي. وفي التوراة كانت مدة نسيانه سنتين.

{ **أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ** } ابتداء كلامه بضميره وجعله مسندا إليه وخبره فعْليّ لقصد استجلاب تعجّب الملك من أن يكون الساقي ينبئ بتأويل رؤيا عَوِصَت على علماء بلاط الملك.

{ **أُنَبِّئُكُمْ – فَأَرْسِلُونِ**} وضمائر الجمع مخاطب بها الملك على وجه التعظيم.

ولم يسم لهم المرسل إليه لأنّه أراد أن يفاجئهم بخبر يوسف - عليه السلام – بعد حصول تعبيره ليكون أوقع، إذ ليس مثله مظنّة أن يكون بين المساجين.

{ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ }[46]

حذف من الكلام ذكر إرساله ومشيه ووصوله، إذ لا غرض فيه من القصّة. وهذا من بديع الإيجاز.

{ **الصِّدِّيقُ** } أصله صفة مبالغة مشتقّة من الصدق، كما تقدم عند قوله تعالى { وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ } [المائدة:75].

وغلب استعمال وصف الصّدّيق استعمال اللقب الجامع لمعاني الكمال واستقامة السلوك في طاعة الله تعالى، لأنّ تلك المعاني لا تجتمع إلّا لمن قوي صدقه في الوفاء بعهد الدين. وهذا ما يشهد به استعمال القرآن في آيات كثيرة مثل قوله { فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النبيئينَ وَالصِّدِّيقِينَ } [النساء: 69].

وكان لقبا لأبي بكر، لقّبه به النبيء ﷺ، ومن أجل ذلك أجمع أصحاب رسول الله ﷺ ومنهم علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - على أنّ أبا بكر - رضي الله عنه - أفضل الأمّة بعد النبيء ﷺ. وقد جمع الله هذا الوصف مع صفة النبوّة في قوله { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً } [مريم:56].

فهذا الذي استفتى يوسف - عليه السلام - في رؤيا الملك وصف في كلامه يوسف - عليه السلام - بمعنى يدل عليه وصف الصّدّيق في اللسان العربي، وإنّما وصفه به عن خبرة وتجربة اكتسبها من مخالطة يوسف - عليه السلام - في السجن.

فضُمّ ما ذكرناه هنا إلى ما تقدّم عند قوله تعالى {وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ} [المائدة:75]، وإلى قوله { مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النبيءينَ وَالصِّدِّيقِينَ} [النساء:69].

وإعادة العبارات المحكية عن الملك بعينها إشارة إلى أنّه بلّغ السؤال كما تلقاه، وذلك تمام أمانة الناقل.

{ **النَّاسِ** } هنا هم الملك وأهل مجلسه، لأنّ تأويل تلك الرؤيا يهمّهم جميعا ليعلم الملك تأويل رؤياه ويعلم أهل مجلسه أنّ ما عجزوا عن تأويله قد علمه من هو أعلم منهم. وهذا وجه قوله { **لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ** }.

{ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ [47] ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ [48] ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ } [49]

عبّر الرؤيا بجميع ما دلّت عليه، فالبقرات لسنين الزراعة، لأنّ البقرة تتخذ للإثمار. والسمن رمز للخصب. والعجف رمز للقحط. والسنبلات رمز للأقوات، فالسنبلات الخضر رمز لطعام ينتفع به، وكونها سبعا رمز للانتفاع به في السبع السنين، فكل سنبلة رمز لطعام سنة. والسنبلات اليابسات رمز لما يدّخر، وكونها سبعا رمز لادخارها في سبع سنين، لأن البقرات العجاف أكلت البقرات السمان، وتأويل ذلك: أنّ سني الجدب أتت على ما أثمرته سنو الخصب.

كانت رؤيا الملك لطفا من الله بالأمّة التي آوت يوسف عليه السلام، ووحيا أوحاه الله إلى يوسف - عليه السلام - بواسطة رؤيا الملك، كما أوحى إلى سليمان - عليه السلام - بواسطة الطير. ولعلّ الملك قد استعدّ للصلاح والإيمان.

{ **تَزْرَعُونَ** } خبر عمّا يكون من عملهم، وذلك أنّ الزرع عادتهم، فذكّره إيّاه تمهيد للكلام الآتي.

الدأب: العادة والاستمرار عليها. وتقدّم في قوله { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ } [آل عمران:11].

الشداد: وصف لسني الجدب، لأنّ الجدب حاصل فيها، فوصفها بالشدّة على طريقة المجاز العقلي.

الإحصان: الإحراز والادّخار، أي الوضع في الحصن وهو المطمور.

والمعنى: أن تلك السنين المجدبة يفنى فيها ما ادّخر لها إلّا قليلا منه. وهذا تحريض على استكثار الادخار.

{ **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** } بشارة وإدّخار لمسرّة الأمل بعد الكلام المؤيّس، وهو من لازم انتهاء مدّة الشدّة، ومن سنن الله تعالى في حصول اليسر بعد العسر.

{ **يُغَاثُ** } معناه يعطون الغيث، وهو المطر. و**العصر**: عصر الأعناب خمورا.

{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } [50]

أبى يوسف - عليه السلام - الخروج من السجن قبل أن تثبت براءته ممّا رمي به في بيت العزيز، فإنّ تبرئة العرض من التهم الباطلة مقصد شرعي، وليكون حضوره لدى الملك مرموقا بعين لا تنظر إليه بشائبة.

{ **فاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ** } جعل طريق تقرير براءته مفتتحة بالسؤال عن الخبر لإعادة ذكره من أوّله. وهذه حكمة عظيمة تحقّ بأن يؤتسى بها. وهي تطلّب المسجون باطلا أن يبقى في السجن حتّى تتبين براءته من السبب الذي سجن لأجله، وهي راجعة إلى التحلّي بالصبر حتّى يظهر النصر.

وجعل السؤال عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن دون امرأة العزيز تسهيلا للكشف عن أمرها، لأنّ ذكرها مع مكانة زوجها من الملك ربّما يصرف الملك عن الكشف، رعيا للعزيز، ولأنّ النسوة كن شواهد على إقرار امرأة العزيز بأنّها راودت يوسف - عليه السلام - عن نفسه. فلا جرم كان طلب الكشف عن أولئك النسوة منتهى الحكمة في البحث وغاية الإيجاز في الخطاب.

{ **إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** } من كلام يوسف - عليه السلام -. وهي تذييل وتعريض بأنّ الكشف المطلوب سينجلي عن براءته وظهور كيد الكائدات له ثقة بالله ربه أنّه ناصره.

وإضافة كيد إلى ضمير النسوة مع أنّه واقع من بعضهن، وهي امرأة العزيز، للإبهام المعين على التبيان.

{ **قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** }[51]

وقوع هذا بعد جملة { ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ } إلى آخرها مؤذن بكلام محذوف، تقديره: فرجع فأخبر الملك فأحضر الملك النسوة اللائي كانت جمعتهن امرأة العزيز فقال لهن {مَا خَطْبُكُنَّ} إلى آخره.

الخطب: الشأن المهم من حالة أو حادثة. قيل: سمّي خطبا لأنّه يقتضي أن يخاطب المرء صاحبه بالتساؤل عنه. وقيل: هو مأخوذ من الخطبة. أي يخطب فيه. وإنّما تكون الخطبة في أمر عظيم.

{ **إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ** } وأسندت المراودة إلى ضمير النسوة لوقوعها من بعضهنّ غير معين، أو لأنّ القالة التي شاعت في المدينة كانت مخلوطة ظنّا أنّ المراودة وقعت في مجلس المتكأ.

{ **قُلْنَ** } مفصولة لأجل كونها حكاية جواب عن كلام الملك. أي قالت النسوة عدا امرأة العزيز.

{ **حَاشَ لِلَّهِ** } مبالغة في النفي والتنزيه. والمقصود: التبرؤ ممّا نسب إليهنّ من المراودة.

{ **مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ** } مبيّنة لإجمال النفي الذي في {حَاشَ لِلَّهِ}. وهي جامعة لنفي مراودتهنّ إيّاه ومراودته إيّاهنّ لأنّ الحالتين من أحوال السوء.

{ **قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ** } هذا يدلّ على كلام محذوف وهو أنّ امرأة العزيز كانت من جملة النسوة اللائي أحضرهن الملك. شملها كلام الملك، فإنّ المراودة إنّما وقعت من امرأة العزيز دون النسوة اللاتي أعدّت لهن متكئا، ففي الكلام إيجاز حذف.

{ **حَصْحَصَ الحَقُّ** }: ثبت واستقر. وهو براءة يوسف - عليه السلام - مما رمته به امرأة العزيز. وإنّما ثبت

حينئذ لأنّه كان محل قيل وقال وشك، فزال ذلك باعترافها بما وقع. والتعبير بالماضي مع أنّه لم يثبت إلّا من إقرارها الذي لم يسبق، لأنّه قريب الوقوع فهو لتقريب زمن الحال من الماضي.

{ **أَنَا رَاوَدْتُهُ** } تقديم المسند إليه على المسند الفعلي للقصر، إبطال أن يكون النسوة راودنه. فهذا إقرار منها على نفسها، وشهادة لغيرها بالبراءة.

{ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ } [52]

ظاهر نظم الكلام أنّ الجملة من قول امرأة العزيز، وعلى ذلك حمله الأقلّ من المفسرين، وعزاه ابن عطيّة إلى فرقة من أهل التأويل، ونسب إلى الجبائي، واختاره الماوردي، وهو في موقع العلّة لما تضمّنته جملة {أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ} وما عطف عليها من إقرار ببراءة يوسف - عليه السلام - بما كانت رمته به.

الخيانة: هي تهمته بمحاولة السوء معها كذبا، لأنّ الكذب ضدّ أمانة القول بالحقّ.

{ **بِالْغَيْبِ** } تمدّحت بعدم الخيانة على أبلغ وجه إذ نفت الخيانة في المغيب وهو حائل بينه وبين دفاعه عن نفسه، وحالة المغيب أمكن لمزيد الخيانة، لأنّ الحاضر قد يتفطن لقصد الخائن فيدفع خيانته بالحجّة.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** } عطف على {لِيَعْلَمَ} وهو علة ثانية لإصداعها بالحقّ، أي ولأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين.

{ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } [53]

ظاهر ترتيب الكلام أنّ هذا من كلام امرأة العزيز، مضت في بقية إقرارها. أي ما أبرئ نفسي من محاولة هذا الإثم لأنّ النفس أمّارة بالسوء وقد أمرتني بالسوء ولكنّه لم يقع.

{ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** } تعليل. أي لا أدّعي براءة نفسي من ارتكاب الذنب، لأنّ النفوس كثيرة الأمر بالسوء.

{ **إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي** } استثناء من عموم الأزمان، أي أزمان وقوع السوء، إلّا وقت رحمة الله عبده، أي رحمته بأن يقيّض له ما يصرفه عن فعل السوء، أو يقيض حائر بينه وبين فعل السوء.

{ **إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تذييل يراد به الثناء على الله بأنّه شديد المغفرة لمن أذنب، وشديد الرحمة لعبده إذا أراد صرفه عن الذنب.

وهذا يقتضي أنّ قومها يؤمنون بالله ويحرّمون الحرام، وذلك لا ينافي أنّهم كانوا مشركين فإنّ المشركين من العرب كانوا يؤمنون بالله أيضا، وكانوا يعرفون البرّ والذنب.

وقيل: هذا الكلام كلام يوسف - عليه السلام –، وبذلك فسّرها مجاهد وقتادة وأبو صالح وابن جريج والحسن

والضحاك والسدي وابن جبير، واقتصر عليه الطبري. لأنّ معنى هذه الجملة أليق بأن يكون من كلام يوسف - عليه السلام - لأنّ من شأنه أن يصدر عن قلب مليء بالمعرفة.

{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ [54] قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [55]

{ **أَسْتَخْلِصْهُ** } السين والتاء في للمبالغة. والمعنى أجعله خالصا لنفسي، وهذا كناية عن شدّة اتصاله به والعمل معه. وقد دلّ الملكَ على استحقاق يوسف - عليه السلام - تقريبه منه ما ظهر من حكمته وعلمه. وصبره على تحمّل المشاق، وحسن خلقه. ونزاهته، فكل ذلك أوجب اصطفاءه.

{ **فَلَمَّا كَلَّمَهُ** } فالمكلّم هو يوسف - عليه السلام – كلّم الملك كلاما أعجب الملك بما فيه من حكمة وأدب.

{ **قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ** } جواب (لمّا). والقائل هو الملك لا محالة.

المكين: صفة مشبّهة من مكُن (بضم الكاف) إذا صار ذا مكانة، وهي المرتبة العظيمة، وهي مشتقة من المكان.

الأمين: فعيل بمعنى مفعول، أي مأمون على شيء. أي موثوق به في حفظه.

وهذا التنويه بشأنه والثناء عليه تعريض بأنّه يريد الاستعانة به في أمور مملكته وبأن يقترح عليه ما يرجوا من خير، فلذلك أجابه بقوله:

{ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** } حكاية جوابه كلام الملك، ولذلك فصلت على طريقة المحاورات. أي اجعلني متصرّفا في خزائن الأرض.

{ **خَزَائِنِ** } جمع خِزانة، أي البيت الذي يختزن فيه الحبوب والأموال.

{ **الْأَرْضِ** } تعريف العهد، أي أرض مصر.

لم يسأل مالا لنفسه ولا عرضا من متاع الدنيا، ولكن سأل أن يولّيه خزائن المملكة ليحفظ الأموال ويعدل في توزيعها ويرفق بالأمّة.

{ **إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** } تعليل، فإنّه علم أنّه اتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في النّاس بله كلتيهما، وهما: الحفظ لما يليه، والعلم بتدبير ما يتولّاه، ليعلم الملك أنّ مكانته لديه وائتمانه إيّاه قد صادفا محلّهما وأهلهما، وأنّه حقيق بهما لأنّه متّصف بما يفي بواجبهما، وذلك صفة الحفظ المحقّق للائتمان، وصفة العلم المحقّق للمكانة. وفي هذا تعريف بفضله ليهتدي النّاس إلى اتباعه. وهذا من قبيل الحسبة.

وهذه الآية أصل لوجوب عرض المرء نفسه لولاية عمل من أمور الأمّة إذا علم أنّه لا يصلح له غيره لأنّ

ذلك من النصح للأمّة، وخاصة إذا لم يكن ممّن يتهم على إيثار منفعة نفسه على مصلحة الأمّة. وقد علم يوسف - عليه السلام - أنه أفضل النّاس هنالك، لأنّه كان المؤمن الوحيد في ذلك القطر، فهو لإيمانه بالله يبثّ أصول الفضائل التي تقتضيها شريعة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

وهذا لا يعارض ما جاء في (صحيح مسلم) عن عبد الرحمان بن سمرة قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا عبد الرحمان لا تسأل الإمارة فإنّك إن أعطيتها عن مسألة وكّلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها ". لأنّ عبد الرحمان بن سمرة لم يكن منفردا بالفضل من بين أمثاله ولا راجحا على جميعهم.

ومن هذه الآية أخذ فقهاء المذهب جواز طلب القضاء لمن يعلم أنّه أهل وأنّه إن لم يول ضاعت الحقوق. قال المازري: " يجب على من هو أهل الاجتهاد والعدالة السعي في طلب القضاء إن علم أنّه إن لم يله ضاعت الحقوق أو وليه من لا يحلّ أن يولّى.

وقال عياض في كتاب الإمارة من (شرح صحيح مسلم)، ما ظاهره الاتفاق على جواز الطلب في هذه الحالة، وظاهر كلام ابن رشد في (المقدّمات) حرمة الطلب مطلقا. قال ابن مرزوق: وإنما رأيت مثل ما نقل المازري أو قريبا منه للغزالي في "الوجيز".

{ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [56] وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } [57].

{ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ } تقدم تفسيرها آنفا.

التبوؤ: اتخاذ مكان للبوء، أي الرجوع، فمعنى التبوؤ النزول والإقامة. وتقدّم في قوله تعالى {أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً} [يونس:87].

{ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ } كناية عن تصرّفه في جميع مملكة مصر فهو عند حلوله بمكان من المملكة لو شاء أن يحلّ بغيره لفعل. يجوز أن تكون حالا من يوسف، ويجوز أن تكون بيانا لـ {مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ }. وقرأ الجمهور {حَيْثُ يَشَاءُ} - بياء الغيبة - وقرأ ابن كثير {حَيْثُ نَشَاءُ} - بنون العظمة - أي حيث يشاء الله، أي حيث نأمره أو نلهمه. والمعنى متّحد لأنّه لا يشاء إلّا ما شاءه الله.

{ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ } إلى آخرها تذييل لمناسبة عمومه لخصوص ما أصاب يوسف - عليه السلام - من الرحمة في أحواله في الدنيا وما كان له من مواقف الإحسان التي كان ما أعطيه من النعم وشرف المنزلة

جزاء لها في الدنيا، لأنّ الله لا يضيع أجر المحسنين. ولأجره في الآخرة خير من ذلك له ولكل من آمن واتقى.

والتعبير في جانب الإيمان بصيغة الماضي وفي جانب التقوى بصيغة المضارع، لأن الإيمان عقد القلب الجازم فهو حاصل دفعة واحدة، وأمّا التقوى فهي متجدّدة بتجدد أسباب الأمر والنهي واختلاف الأعمال والأزمان.

{ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ [58] وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ [59] فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ } [60].

طوى القرآن أخَرة أمر امرأة العزيز وحلول سني الخصب والادخار ثم اعتراء سني القحط لقلّة جدوى ذلك كلّه في الغرض الذي نزلت السورة لأجله، وهو إظهار ما يلقاه الأنبياء من ذويهم وكيف تكون لهم عاقبة النصر والحسنى، ولأنّه معلوم حصوله، ولذلك انتقلت القصّة إلى ما فيها من مصير إخوة يوسف - عليه السلام - في حاجة إلى نعمته، ومن جمع الله بينه وبين أخيه الذي يحبّه، ثم بينه وبين أبويه، ثم مظاهر عفوه عن إخوته وصلته رحمه، لأنّ لذلك كلّه أثرا في معرفة فضائله.

وكان مجيء إخوة يوسف - عليه السلام - إلى مصر للميرة عند حلول القحط بأرض مصر وما جاورها من بلاد فلسطين، منازل آل يوسف - عليه السلام -، وكان مجيئهم في السنة الثالثة من سني القحط. وإنّما جاء إخوته عدا بنيامين لصغره، وإنّما رحلوا للميرة كلّهم لعل ذلك لأنّ التزويد من الطعام كان بتقدير يراعي فيه عدد الممتارين، وأيضا ليكونوا جماعة لا يطمع فيهم قطّاع الطريق، وكان الذين جاءوا عشرة.

ودخولهم عليه يدلّ على أنّه كان يراقب أمر بيع الطعام بحضوره ويأذن به في مجلسه خشية إضاعة الأقوات لأنّ بها حياة الأمّة.

وعرف يوسف - عليه السلام - إخوته بعد مضي سنين على فراقهم لقوة فراسته.

{ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ } وقع الإخبار عنهم بالجملة الاسميّة للدلالة على أنّ عدم معرفتهم به أمر ثابت متمكّن منهم، وكان الإخبار عن معرفته إيّاهم بالجملة الفعلية المفيدة للتجدّد للدلالة على أنّ معرفته إيّاهم حصلت بحدثان رؤيته إيّاهم دون توسّم وتأمل. وتقديم المجرور بلام التقوية للرعاية على الفاصلة، وللاهتمام بتعلّق نكرتهم إيّاه، للتنبيه على أنّ ذلك من صنع الله تعالى، وإلّا فإن شمائل يوسف - عليه السلام - ليست مما شأنه أن يجهل وينسى.

الجهاز: (بفتح الجيم وكسرها) ما يحتاج إليه المسافر. والتجهيز: إعطاء الجهاز.

{ **ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ** } يقتضي وقوع حديث منهم عن أنّ لهم أخا من أبيهم لم يحضر معهم، وإلّا لكان إنباء يوسف - عليه السلام - لهم بهذا يشعرهم أنّه يكلمهم عارف بهم وهو لا يريد أن يكشف ذلك لهم.

{ **أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ** } ترغّب لهم في العودة إليه، وقد علم أنّهم مضطرّون إلى العودة إليه لعدم كفاية الميرة التي امتاروها لعائلة ذات عدد من النّاس مثلهم.

{ **خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ** } دلّ على أنّه كان ينزل الممتارين في ضيافته. وهذه الجملة كناية عن الوعد بأن يوفي لهم الكيل ويكرم ضيافتهم إن أتوا بأخيهم.

{ **فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي** } أي لا يكال لكم، كناية عن منعهم من ابتياع الطعام.

{ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ }[61]

وعد بأن يبذلوا قصارى جهدهم في الإتيان بأخيهم وإشعار بصعوبة ذلك. فمعنى {**سَنُرَاوِدُ**} سنحاول أن لا يشحّ به، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ } [24].

{ **وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ** } عطف على الوعد بتحقيق الموعود به، فهو فعل ما أمرهم به، وأكدوا ذلك بالجملة الاسمية وحرف التأكيد

{ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }[62]

قرأ الجمهور { **لفتيته** } بوزن فعلة جمع تكسير فتى مثل أخ وإخوة. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف { **لِفِتْيَانِهِ** } بوزن إخوان. والأوّل صيغة قلة والثاني صيغة كثرة. وعدد الفتيان لا يختلف.

الفتى: من كان في مبدإ الشباب، ومؤنثه فتاة، ويطلق على الخادم تلطّفا، لأنهم كانوا يستخفّون بالشباب في الخدمة، وكانوا أكثر ما يستخدمون العبيد.

البضاعة: المال او المتاع المعدّ للتجارة. والمراد بها هنا الدراهم التي ابتاعوا بها الطعام كما في التوراة.

{ **لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا** } رجاء أن يعرفوا أنّها عين بضاعتهم إمّا بكونها مسكوك سكة بلادهم وإما بمعرفة الصرر التي كانت مصرورة فيها كما في التوراة، أي يعرفون أنّها وضعت هنالك قصدا عطيّة من عزيز مصر.

الرحال: جمع رحل، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب، ولذا سمّي البعير راحلة.

الانقلاب: الرجوع.

{ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } لأنّه لمّا أمرهم بالرجوع استشعر بنفاذ رأيه أنّهم قد يكونون غير واجدين بضاعة ليبتاعوا

بها الميرة، لأنّه رأى مخايل الضيق عليهم.

{ **فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** [63] **قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** } [64].

{ **مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ** } حيل بيننا وبين الكيل في المستقبل، لأنّ رجوعهم بالطعام المعبّر عنه بالجهاز أنّ المنع من الكيل يقع في المستقبل.

الكيل: مصدر صالح لمعنى الفاعلية والمفعولية، وهو هنا بمعنى الإسناد إلى الفاعل، أي لن نكيل، فالممنوع هو ابتداء الكيل منهم. فتعيّن أنّهم حكوا القصّة لأبيهم مفصّلة واختصرها القرآن لظهور المراد.

{ **وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** } أكّدوا حفظه بالجملة الاسمية الدالة على الثبات وبحرف التوكيد.

{ **قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** } الاستفهام إنكاري فيه معنى النفي، فهو يستفهم عن وجه التأكيد في قولهم {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}. والمقصود من الجملة على احتمالها هو التفريع الذي في قوله {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً}، أي خير حفظا منكم، فإن حفظه الله سلم وإن لم يحفظه لم يسلم كما لم يسلم أخوه من قبل حين أمنتكم عليه.

وهم قد اقتنعوا بجوابه وعلموا منه أنّه مرسل معهم أخاهم، ولذلك لم يراجعوه في شأنه.

قرأه حمزة والكسائي، وحفص { **حَافِظاً** } على أنّه حال من اسم الجلالة وهي حال لازمة. و {**حفظا**} مصدر منصوب على التمييز في قراءة الجمهور.

{ **وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ** } [65]

{ **مَتَاعَهُمْ** } أصل المتاع ما يتمتّع به من العروض والثياب. وتقدّم عند قوله تعالى { لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ } [النساء:102].

{ **مَا نَبْغِي** } يجوز أن يكون للاستفهام الإنكاري بتنزيل المخاطب منزلة من يتطلّب منهم تحصيل بغية فينكرون أن تكون لهم بغية أخرى، أي **ماذا نطلب بعد هذا**. ويجوز كون {مَا} نافية، والمعنى واحد لأنّ الاستفهام الإنكاري في معنى النفي.

{ **هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا** } مبنية لجملة {مَا نَبْغِي} على الاحتمالين. وإنما علموا أنها ردت إليهم بقرينة

وضعها في العدل بعد وضع الطعام وهم قد كانوا دفعوها إلى الكيّالين، أو بقرينة ما شاهدوا في يوسف - عليه السلام - من العطف عليهم، والوعد بالخير إن هم أتوا بأخيهم.

{ **وَنَمِيرُ أَهْلَنَا** } أي نأتيهم بالميرة. و**الميرة** (بكسر الميم بعدها ياء ساكنة): الطعام المجلوب.

{ **وَنَحْفَظُ أَخَانَا** } ذكروا ذلك تطمينا لخاطر أبيهم.

{ **وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ** } زيادة في إظهار حرصهم على سلامة أخيهم لأنّ في سلامته فائدة لهم بازدياد كيل بعير. لأن يوسف - عليه السلام - لا يعطي الممتار أكثر من حمل بعير من الطعام، فإذا كان أخوهم معهم أعطاه حمل بعير في عداد الإخوة. وبه تظهر المناسبة بين هذه الجملة والتي قبلها. وهذه الجمل مرتّبة ترتيبا بديعا لأنّ بعضها متولّد عن بعض.

{ **ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ** } الإشارة إلى الطعام الذي في متاعهم. وإطلاق الكيل عليه من إطلاق المصدر على المفعول بقرينة الإشارة.

{ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } [66]

{ **تُؤْتُونِ مَوْثِقاً** } اشتهر الإيتاء والإعطاء وما يراد بهما في إنشاء الحلف ليطمئن بصدق الحالف غيره وهو المحلوف له. وفي حديث الحشر " فيعطي الله من عهود ومواثيق أن لا يسأله غيره ". كما أطلق فعل الأخذ على تلقّي المحلوف له، قال تعالى { وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً } [النساء: 21].

ولعلّ سبب إطلاق فعل الإعطاء أنّ الحالف كان في العصور القديمة يعطي المحلوف له شيئا تذكرة لليمين مثل سوطه أو خاتمه، أو أنّهم كانوا يضعون عند صاحب الحقّ ضمانا يكون رهينة عنده. وقد اشتهر ضدّ ذلك في إبطال التوثيق يقال: ردّ عليه حلفه.

الموثق: أصله مصدر ميمي للتوثيق، أطلق هنا على المفعول وهو ما به التوثيق، يعني **اليمين**.

ومعنى ذلك أن يجعلوا الله شاهدا عليهم فيما وعدوا به. وذلك أن يقولوا: لك ميثاق الله أو عهد الله أو نحو ذلك، وبهذا يضاف الميثاق والعهد إلى اسم الجلالة كأنّ الحالف استودع الله ما به التوثّق للمحلوف له.

{ **لَتَأْتُنَّنِي بِهِ** } جواب لقسم محذوف دلّ عليه {مَوْثِقاً}. وهو حكاية لقول يقوله أبناؤه المطلوب منهم إيقاعه.

{ **إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ** } استثناء من عموم أحوال، و**الإحاطة**: الأخذ بأسر أو هلاك ممّا هو خارج عن قدرتهم، وأصله إحاطة الجيش في الحرب، فاستعمل مجازا في الحالة التي لا يستطاع التغلب عليها.

{ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } تذكير لهم بأنّ الله رقيب على ما وقع بينهم. وهذا توكيد للحلف.

الوكيل: فعيل بمعنى مفعول، أي موكول إليه.

{ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } [67]

{ وَقَالَ } للإشارة إلى اختلاف زمن القولين، لأنّه اطمأن لرعايتهم ابنه وظهرت له المصلحة في سفرهم للإمتار.

{ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ } صادر في وقت إزماعهم الرحيل.

الأبواب: أبواب المدينة. وكانت مدينة منفيس من أعظم مدن العالم فهي ذات أبواب. وإنّما نهاهم أن يدخلوها من باب واحد خشية أن يسترعي عددهم أبصار أهل المدينة وحرّاسها، وأزياؤهم أزياء الغرباء عن أهل المدينة، أن يوجسوا منهم خيفة من تجسّس أو سرقة، فربما سجنوهم أو رصدوا الأعين إليهم.

المتفرقة: أراد بها المتعدّدة لأنّه جعلها في مقابلة الواحد. ووجه العدول عن المتعددة إلى المتفرقة الإيماء إلى علّة الأمر وهي إخفاء كونهم جماعة واحدة.

{ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ } معترضة في آخر الكلام، أي وما أغني عنكم بوصيّتي هذه شيئا. أراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة تأدّبا مع واضع الأسباب ومقدّر الألطاف في رعاية الحالين، لأنّا لا نستطيع أن نطّلع على مراد الله في الأعمال فعلينا أن نتعرّفها بعلاماتها ولا يكون ذلك إلّا بالسعي لها.

الإغناء: هنا مشتق من الغَناء (بفتح الغين وبالمد) وهو الإجزاء والاضطلاع وكفاية المهم. وأصله مرادف الغِنى (بكسر الغين و القصر) وهما معا ضد الفقر. وشاع هذا الاستعمال المجازي حتّى غلب على هذا الفعل، فلذلك كثر في الكلام تخصيص الغَناء بالفتح والمد بهذا المعنى، وتخصيص الغنى - بالكسر والقصر - في معنى ضد الفقر ونحوه. وهي تفرقة حسنة من دقائق استعمالهم في تصاريف المترادفات.

{ مِنْ شَيْءٍ } نائب مناب شيئا، وزيدت (من) لتوكيد عموم شيء في سياق النفي.

{ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ } في موضع التعليل لمضمون {وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}.

الحكم: هنا التصرّف والتقدير، ومعنى الحصر أنّه لا يتم إلّا ما أراده الله. وليس للعبد أن ينازع مراد الله في نفس الأمر ولكن واجبه أن يتطلّب الأمور من أسبابها لأن الله أمر بذلك.

{ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } ليبيّن لهم أنّ وصيّته بأخذ الأسباب مع التنبيه على الاعتماد على الله هو معنى التوكّل الذي يضلّ في فهمه كثير من النّاس اقتصارا وإنكارا.

{ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } [68]

أغنت عن جمل كثيرة، وهي أنّهم ارتحلوا ودخلوا من حيث أمرهم أبوهم، ولمّا دخلوا من حيث أمرهم سلموا ممّا كان يخافه عليهم. وما كان دخولهم من حيث أمرهم يغني عنهم من الله من شيء لو قدّر الله أن يحاط بهم، فالكلام إيجاز.

{ قَضَاهَا } أنفذها. يقال: قضى حاجة لنفسه، إذا أنفذ ما أضمره في نفسه، أي نصيحة لأبنائه أداها لهم ولم يدّخرها عنهم، ليطمئن قلبه بأنه لم يترك شيئا يظنّه نافعا لهم إلّا أبلغه إليهم.

الحاجة: الأمر المرغوب فيه. سمّي حاجة لأنّه محتاج إليه، فهي من التسمية باسم المصدر. والحاجة التي في نفس يعقوب - عليه السلام - هي حرصه على تنبيههم للأخطار التي تعرض لأمثالهم في مثل هذه الرحلة إذا دخلوا من باب واحد. وتعليمهم الأخذ بالأسباب مع التوكّل على الله.

{ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ } معترضة، وهو ثناء على يعقوب - عليه السلام - بالعلم والتدبير، وأنّ ما أسداه من النصح لهم هو من العلم الذي آتاه الله وهو من علم النبوّة.

{ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } استدراك. والمعنى أنّ الله أمر يعقوب - عليه السلام - بأخذ أسباب الاحتياط والنصيحة مع علمه بأنّ ذلك لا يغني عنهم من الله من شيء قدّره لهم، فإنّ مراد الله تعالى خفيّ عن النّاس، وقد أمر بسلوك الأسباب المعتادة. وعلّم يعقوب - عليه السلام - ذلك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون تطلب الأمرين فيهملون أحدهما. فمنهم من يهمل معرفة أنّ الأسباب الظاهرية لا تدفع أمرا قدّره الله وعلم أنّه واقع، ومنهم من يهمل الأسباب وهو لا يعلم أن الله أراد في بعض الأحوال عدم تأثيرها.

ويفسر هذا المعنى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمّا أمر المسلمين بالقفول عن (عَمواس) لمّا بلغه ظهور الطاعون بها وقال له أبو عبيدة: أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر - رضي الله عنه -: " لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، ألسنا نفر من قدر الله إلى قدر الله...".

{ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [69]

الإيواء: الإرجاع. وتقدّم في قوله تعالى {أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ} [يونس:8]. وأطلق الإيواء هنا مجازا على الإدناء و**التقريب**، كأنّه إرجاع إلى مأوى، وإنّما أدناه ليتمكّن من الإسرار إليه بقوله { إِنِّي أَنَا أَخُوكَ }.

{ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ } كلّمه بكلمة مختصرة بليغة إذ أفاده أنّه هو أخوه الذي ظنّه أكله الذئب.

{ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }. والابتئاس: مطاوعة الإبئاس، أي جعل أحد بائسا، أي صاحب بؤس.

البؤس: الحزن والكدر. والنهي عن الابتئاس مقتض الكفّ عنه، أي أزل عنك الحزن.

{ **كَانُوا يَعْمَلُونَ** } راجعان إلى إخوتهما بقرينة المقام، وأراد بذلك ما كان يجده أخوه (بنيامين) من الحزن لهلاك أخيه الشقيق وفظاظة اخوته وغيرتهم منه.

{ **فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ** [70] **قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ** [71] **قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ** [72] **قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ** [73] **قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ** [74] **قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** } [75].

{ **جَعَلَ السِّقَايَةَ** } إسناد جعل السقاية إلى ضمير يوسف مجاز عقلي، وإنّما هو آمر بالجعل والذين جعلوا السقاية هم العبيد الموكلون بالكيل.

السقاية: إناء كبير يسقى به الماء والخمر.

الصواع: لغة في الصاع، وهو وعاء للكيل يقدر بوزن رطل وربع أو وثلث. فتسمية هذا الإناء سقاية وتسميته صواعا جارية على ذلك. وفي التوراة سمّي طاسا، ووصف بأنّه من فضة.

وإضافة الصواع إلى الملك لتشريفه، وتهويل سرقته. ويجوز أن يكون أطلق الملك على يوسف - عليه السلام - تعظيما له.

التأذين: النداء المكرّر. وتقدّم عند قوله تعالى { فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ } [الأعراف:44].

العير: اسم للحمولة من إبل وحمير وما عليها من أحمال وما معها من ركّابها، فهو اسم لمجموع هذه الثلاثة. وأسندت السرقة إلى جميعهم جريا على المعتاد من مؤاخذة الجماعة بجرم الواحد منهم.

{ **وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ** } حال من ضمير { قَالُوا }. ومرجع ضمير { أَقْبَلُوا } عائد إلى فتيان يوسف - عليه السلام - أي وقد أقبل عليهم فتيان يوسف - عليه السلام- . وجعلوا جعلا لمن يأتي بالصواع.

{ **وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ** } قاله واحد من المقبلين، وهو كبيرهم. و**الزعيم**: الكفيل.

وهذه الآية قد جعلها الفقهاء أصلا لمشروعية الجعل والكفالة. وفيه نظر، لأنّ يوسف - عليه السلام - لم يكن يومئذ ذا شرع حتّى يُستأنس للأخذ بـ (أن شرع من قبلنا شرع لنا) إذا حكاه كلام الله أو رسوله. ولو قدّر أنّ يوسف - عليه السلام - كان يومئذ نبيّا فلا يثبت أنّه رسول بشرع، إذ لم يثبت أنّه بعث إلى قوم فرعون، ولم يكن ليوسف - عليه السلام - أتباع في مصر قبل ورود أبيه واخوته وأهلهم. فهذا مأخذ ضعيف.

{ **قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ** } (التاء) حرف قسم على المختار. أكّدوا براءتهم بالقسم لأنّهم كانوا وفدوا على مصر مرّة سابقة.

{ **مَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ** } تحكيم، لأنّهم لا يسعهم إلّا أن يعيّنوا جزاء يؤخذون به. أي ما جزاء سارقه إن تبيّن كذبكم بوجود الصواع في رحالكم.

{ **جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ** } {جَزَاؤُهُ} الأول مبتدأ، و(من) يجوز أن تكون شرطيّة وهي مبتدأ ثان وأنّ جملة { وُجِدَ فِي رَحْلِهِ } جملة الشرط، وجملة { فَهُوَ جَزَاؤُهُ } جواب الشرط، و(الفاء) رابطة للجواب، والجملة المركبة من الشرط وجوابه خبر عن المبتدإ الأول.

ويجوز أن تكون {من} موصولة مبتدأ ثانيا، وجملة {وُجِدَ فِي رَحْلِهِ} صلة الموصول. والمعنى أن من وجد في رحله الصواع هو جزاء السرقة. وهذا معلوم من السياق، لأنّ السرقة لا تبلغ عقوبتها حدّ القتل.

ويظهر أنّ ذلك كان حكما مشهورا بين الأمم أن يسترق السارق. وهو قريب من استرقاق المغلوب في القتال.

{ **كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** } بقيّة كلام إخوة يوسف - عليه السلام - أي كذلك حكم قومنا في جزاء السارق.

{ **فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** } [76]

أوعية: جمع وعاء، وهو الظرف، مشتق من الوعي وهو الحفظ. والابتداء بأوعية غير أخيه لإبعاد أن يكون الذي يوجد في وعائه هو المقصود من أوّل الأمر.

{ **كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ** }

الكيد: فعل يتوصّل بظاهره إلى مقصد خفي. وهنا هو إلهام يوسف - عليه السلام - لهذه الحيلة المحكمة في وضع الصواع وتفتيشه، وإلهام إخوته إلى ذلك الحكم المُصْمَت. وأسند الكيد إلى الله لأنّه ملهمه فهو مسببه. وجعل الكيد لأجل يوسف - عليه السلام - لأنّه لفائدته.

{ **مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** } بيان للكيد باعتبار جميع ما فيه من وضع السقاية ومن حكم إخوته على أنفسهم بما يلائم مرغوب يوسف - عليه السلام - من إبقاء أخيه عنده، ولولا ذلك لما كانت

شريعة القبط تخوّله ذلك، فقد قيل: إن شرعهم في جزاء السارق أن يؤخذ منه الشيء ويضرب ويغرم ضعفي المسروق أو ضعفي قيمته. ومثله ما كان في شرع الرومان من استرقاق المدين، فتعين أن المراد بالدين الشريعة لا مطلق السلطان.

{ **نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ** } تذييل لقصّة أخذ يوسف - عليه السلام - أخاه لأنّ فيها رفع درجة يوسف - عليه السلام - في الحال بالتدبير الحكيم من وقت مناجاته أخاه إلى وقت استخراج السقاية من رحله. ورفع درجة أخيه في الحال بإلحاقه ليوسف - عليه السلام - في العيش الرفيه والكمال بتلقي الحكمة من فيه. ورفع درجات إخوته وأبيه في الاستقبال بسبب رفع درجة يوسف - عليه السلام - وحنوّه عليهم. فالدرجات مستعارة لقوة الشرف من استعارة المحسوس للمعقول.

{ **وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** } تذييل ثان، وفيها شاهد لتفاوت النّاس في العلم المؤذن بأن علم الذي خلق لهم العلم لا ينحصر مداه، وأنّه فوق كل نهاية من علم النّاس. والفوقية مجاز في شرف الحال، لأنّ الشرف يشبّه بالارتفاع.

{ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ }[77]

لمّا بهتوا بوجود الصّواع في رحل أخيهم اعتراهم ما يعتري المبهوت فاعتذروا عن دعواهم تنزّههم عن السرقة { وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ } [73]. عذرا بانّ أخاهم قد تسرّبت إليه خصلة السرقة من غير جانب أبيهم فزعموا أنّ أخاه الذي أُشيع فقده كان سرق من قبل. وقد علم فتيان يوسف - عليه السلام - أنّ المتّهم أخ من أم أخرى. فهذا اعتذار بتعريض بجانب أم إخوتهم وهي زوجة أبيهم وهي (**راحيل ابنة لابان**) خال يعقوب - عليه السلام - . وكان ليعقوب - عليه السلام - أربع زوجات:

1/ **راحيل**، وهذه أم يوسف - عليه السلام – وبنيامين.

و2/ **ليئة**، بنت لابان أخت راحيل وهي أم روبين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وبساكر، وزبولون.

3/ **بلهة**، جارية راحيل وهي أم دانا، ونفتالي.

4/ **زُلفة**، جارية راحيل أيضا وهي أم جاد، وأشير.

{ **قَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ** } بهتانا ونفيا للمعرّة عن أنفسهم. وليس ليوسف - عليه السلام – سرقة من قبل، ولم يكن إخوة يوسف –عليه السلام- يومئذ أنبياء. وكان هذا الكلام بمسمع من يوسف - عليه السلام -.

{ **فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا** } يجوز أن يعود الضمير البارز إلى جملة { قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ }، ويكون المعنى أنّه تحمّلها ولم يظهر غضبا منها، وأعرض عن زجرهم وعقابهم مع أنّها طعن فيه وكذب. وإلى هذا

التفسير ينحو أبو علي الفارسي وأبو حيان. ويكون { قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً } كلاما مستأنفا حكاية لما أجابهم به يوسف - عليه السلام - صراحة على طريقة حكاية المحاورة.

ويجوز أن يكون ضمير الغيبة في {فَأَسَرَّهَا} عائد إلى ما بعده { قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً }. وبهذا فسر الزجّاج والزمخشري، أي قال في نفسه، وهو يشبه ضمير الشأن والقصة. والإسرار، على هذا الوجه، مستعمل في حقيقته، وهو إخفاء الكلام عن أن يسمعه سامع.

{ **وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ** } قيل هي توكيد لجملة {فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ}. وشأن التوكيد أن لا يعطف. ووجه عطفها ما فيها من المغايرة للتي قبلها بزيادة قيد لهم المشعر بأنّه أبدى لأخيه أنّهم كاذبون. ويجوز أن يكون المراد لم يبد لهم غضبا ولا عقابا كما تقدم مبالغة في كظم غيظه، فيكون في الكلام تقدير مضاف مناسب، أي لم يبد أثرها.

{ **شَرٌّ** } اسم تفضيل، وأصله أشرّ.

{ **مَكَاناً** } تمييز لنسبة الأشرّ. وأطلق المكان على الحالة على وجه الاستعارة، والحالة هي السرقة، وإطلاق المكان والمكانة على الحالة شائع. وهو تشبيه الاتصاف بوصف ما بالحلول في مكان.

{ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ** } وهو كلام جامع، أي الله أعلم بصدقكم فيما وصفتم أو بكذبكم.

{ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [78] قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ } [79].

{ **يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ** } نادوا بوصف العزيز إمّا لأن كل رئيس ولاية مهمّة يدعى بما يرادف العزيز فيكون يوسف - عليه السلام - عزيزا، كما أن رئيس الشرطة يدعى العزيز كما في قوله { امْرَأَتُ الْعَزِيزِ } [30]. وإمّا لأن يوسف ضُمت إليه ولاية العزيز الذي اشتراه فجمع التصرفات، وراجعوه في أخذ أخيهم.

{ **إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً** } وصفوا أباهم بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه، وهي: حنان الأبوّة، وصفة الشيخوخة، واستحقاقه جبر خاطره لأنّه كبير قومه، أو لأنّه انتهى في الكبر إلى أقصاه، فالأوصاف مسوقة للحثّ على سراح الابن.

{ **فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ** } المكان: أصله محل الكون، أي ما يستقر فيه الجسم، وهو هنا مجاز في العوض، لأنّ العوض يضعه آخذه في مكان الشيء المعوّض عنه كما في الحديث: " هذه مكان حجّتك ".

{ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** } تعليل لإجابة المطلوب لا للطلب. والتقدير: فلا ترد سؤالنا لأنّا نراك من المحسنين فمثلك لا يصدر منه ما يسوء أبا شيخا كبيرا.

{ **مَعَاذَ اللَّهِ** } مصدر ميمي اسم للعوذ، وهو اللجأ إلى مكان للتحصّن. وانتصب هذا المصدر على المفعولية

المطلقة نائبا عن فعله المحذوف. والتقدير: أعوذ بالله معاذا، فلما حذف الفعل جعل الاسم المجرور بباء التعدية متصلا بالمصدر بطريق الإضافة فقيل: معاذ الله، كما قالوا: سبحان الله، عوضا عن أسبح الله.

{ **أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ** } المستعاذ منه. والمعنى: أي نلجأ إلى الله أن يعصمنا من أخذ من لا حقّ لنا في أخذه، أي أن يعصمنا من الظلم، لأنّ أخذ من وجد المتاع عنده صار حقّا عليه بحكمه على نفسه. وأمّا أخذ غيره فلا يسوغ.

{ **فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** [80] **ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ** [81] **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** }[82].

{ **اسْتَيْأَسُوا** } بمعنى يئسوا فالسين والتاء للتأكيد. واليأس منه: اليأس من إطلاقة أخاهم.

{ **خَلَصُوا نَجِيّاً** } اعتزلوا وانفردوا. واصله من الخلوص وهو الصفاء من الأخلاط. ومنه قول عبد الرحمان بن عوف لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما في آخر حجّة حجّها حيث عزم عمر رضي الله عنه على أن يخطب في الناس فيحذّرهم من قوم يريدون المزاحمة في الخلافة بغير حق: " يا أمير المؤمنين إنّ الموسم يجمع رعاع النّاس فأمهل حتّى تقدم المدينة فتخلص بأهل الفقه...".

النجي: اسم من المناجاة، وانتصابه على الحال. والتناجي: **المحادثة سرا،** أي متناجين.

{ **قَالَ كَبِيرُهُمْ** } بدل اشتمال من جملة {خَلَصُوا نَجِيّاً} ، لأنّ المناجاة تشتمل على أقوال كثيرة منها قول كبيرهم هذا، وكبيرهم هو أكبرهم سنّا وهو (**روبين**) بكر يعقوب - عليه السلام- .

{ **أَلَمْ تَعْلَمُوا** } الاستفهام تقريري مستعمل في التذكير بعدم اطمئنان أبيهم بحفظهم لابنه.

{ **وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ** } جملة معترضة، أي تفريطكم في يوسف - عليه السلام - كان من قبل الموثق، أي فهو غير مصدقكم فيما تخبرون به من اخذ بنيامين في سرقة الصّواع.

{ **فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي** } كعلامة عند يعقوب - عليه السلام - يعرف بها صدقهم في سبب تخلّف بنيامين، إذ لا يرضى لنفسه أن يبقى غريبا لولا خوفه من أبيه، ولا يرضى بقية أشقائه أن يكيدوا له كما يكيدون لغير الشقيق.

{ **أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي** } اللام للأجل، أي يحكم الله بما فيه نفعي. والمراد بالحكم **التقدير**.

{ **وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** } تذييل. الذي حكمه لا جور فيه، أو الذي حكمه لا يستطيع أحد نقضه، وفيه معنى

الثناء، للتعريض بالسؤال، أن يقدّر له ما فيه رأفة في رد غربته.
وعدم التعرّض لقول صدر من (**بنيامين**) يدافع به عن نفسه يدلّ على أنّه لازم السكوت لأنّه كان مطّلعا على مراد يوسف - عليه السلام - من استبقائه عنده.
{ **ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا...**} ثم لقّنهم ما يقولون لأبيهم.
{ **وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ** } احتراس من تحقّق كونه سرق، وهو إمّا لقصد التلطّف مع أبيهم في نسبة ابنه إلى السرقة، وإمّا لأنّهم علموا من أمانة أخيهم ما خالجهم به الشكّ في وقوع السرقة منه.
{ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا** } مجاز عن سؤال أهلها. والمراد بها مدينة مصر. والمدينة والقرية مترادفتان. وقد خصّت المدينة في العرف بالقرية الكبيرة.
{ **وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا** } المراد رفاقهم في عيرهم القادمين إلى مصر من أرض كنعان.

{ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } [83]

جعلت الجملة في صورة الجواب عن الكلام الذي لقّنه أخوهم على طريقة الإيجاز. والتقدير: فرجعوا إلى أبيهم فقالوا ذلك الكلام الذي لقّنه إيّاهم (روبين) فقال أبوهم: { **بَلْ سَوَّلَتْ** ... }.
و تهمته أبناءه بأن يكونوا تمالؤوا على أخيهم بنيامين فهو ظن مستند إلى القياس على ما سبق من أمرهم في قضية يوسف - عليه السلام -.
{ **عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً** } وهذا كشف منه إذ لم ييأس من حياة يوسف - عليه السلام- .
{ **إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** } تعليل لرجائه من الله بأنّ الله عليم فلا تخفى عليه مواقعهم المتفرّقة. حكيم فهو قادر على إيجاد أسباب جمعهم بعد التفرّق.

{ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ [84] قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ [85] قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [86] يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [87].

انتقال إلى حكاية حال يعقوب - عليه السلام - في انفراده عن أبنائه ومناجاته نفسه، فالتولّي حاصل عقب المحاورة.

{ **تَوَلَّى** } انصرف، وهو انصراف غضب. ولمّا كان التولّي يقتضي الاختلاء بنفسه ذُكر من أحواله تجدّد أسفه على يوسف - عليه السلام -.

{ **يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ** } والأسف: أشد الحزن، أَسِف كحزن. ونداء الأسف مجاز. نزل الأسف منزلة من يعقل فيقول له: احضر فهذا أوان حضورك. والألف عوض عن ياء المتكلّم فإنّها في النداء تبدّل ألفا.

وإنّما ذكر القرآن تحسّره على يوسف - عليه السلام - ولم يذكر تحسّره على ابنيه الآخرين لأنّ ذلك التحسّر هو الذي يتعلّق بهذه القصّة، فلا يقتضي ذكره أنّ يعقوب - عليه السلام - لم يتحسّر قطّ إلّا على يوسف.

{ **وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ** } قيل ابيضاض العينين: ضعف البصر. وظاهره أنه تبدل لون سوادهما من الهزال. وعندي أن ابيضاض العينين كناية عن عدم الإبصار، وأنّ الحزن هو السبب لعدم الإبصار كما هو الظاهر.

الكظيم: مبالغة للكاظم. والكظم: الإمساك النفساني، أي كاظم للحزن لا يظهره بين النّاس، ويبكي في خلوته.

{ **قَالُوا تَاللَّهِ** } محاورة بنيه إيّاه عندما سمعوا قوله { يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ }. والتاء حرف قسم، وهي عوض عن واو القسم. وجواب القسم هو { **تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ** }. المقصود من هذا اليمين الإشفاق عليه بأنّه صائر إلى الهلاك بسبب عدم تناسيه مصيبة يوسف - عليه السلام -، وجواب القسم هنا فيه حرف النفي مقدّر بقرينة عدم قرنه بنون التوكيد، لأنّه لو كان مثبتا لوجب قرنه بنون التوكيد فحذف حرف النفي هنا.

{ **تَفْتَأُ** } تفتر. يقال: فتئ من باب علم. إذا فتر عن الشيء. والمعنى: لا تفتر تذكر يوسف.

{ **حَرَضاً** } مصدر، وهو شدّة المرض المفضي إلى الهلاك. وفي جعلهم الغاية الحرض أو الهلاك تعريض بأنّه يذكر أمرا لا طمع في تداركه.

{ **قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** } أجابهم بانّ ذكره يوسف - عليه السلام - موجّه إلى الله دعاء بان يردّه عليه، لأنّه كان يعلم أن يوسف لم يهلك ولكنّه بأرض غربة مجهولة، وعلم ذلك بوحي أو بفراسة صادقة.

البثّ: الهمّ الشديد، وهو التفكير في الشيء المسيء. **والحزن**: الأسف على فائت.

فبين الهم والحزن العموم والخصوص الوجهي، وقد اجتمعا ليعقوب - عليه السلام -، لأنّه كان مهتمّا بالتفكير في مصير يوسف - عليه السلام - وما يعترضه من الكرب في غربته وكان آسفا على فراقه.

{ **وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** } لينبّههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية ليعلموا أنّهم دون مرتبة أن يعلّموه أو يلوموه. وفي هذا تعريض بردّ تعريضهم بأنّه يطمع في المحال.

{ **يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ** } مستأنفة استئنافا بيانيا، صرّح لهم بشيء ممّا يعلمه وكاشفهم بما يحقّق كذبهم. حين أذنه الله بذلك عند تقدير انتهاء البلوى.

التحسّس: (بالحاء المهملة) شدّة التطلّب والتعرّف، وهو أعم من التجسّس (بالجيم) فهو التطلب مع اختفاء وتستر.

{ **وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ** } الرَوْح (بفتح الراء): النفَس (بفتح الفاء) استعير لكشف الكرب، لأنّ الكرب والهمّ يطلق عليهما الغمّ وضيق النفس وضيق الصدر، بكذلك يطلق التنفّس والتروّح على ضدّ ذلك، ومنه استعارة قولهم: تنفّس الصبح إذا زالت ظلمة الليل.

{ **إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** } تعليل للنهي عن اليأس. والمعنى: لا تيأسوا من الظفر بيوسف - عليه السلام -. فإن الله إذا شاء تفريج كربة هيأ لها أسبابها، ومن كان يؤمن بأن الله واسع القدرة لا يُحيل مثل ذلك، فحقّه أن يأخذ في سببه ويعتمد على الله في تيسيره، وأمّا القوم الكافرون بالله فهم يقتصرون على الأمور الغالبة في العادة وينكرون غيرها.

{ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ } [88]

الفاء عاطفة على كلام مقدّر دل عليه المقام، أي فارتحلوا إلى مصر بقصد استطلاق بنيامين من عزيز مصر ثم بالتعرّض إلى التحسّس من يوسف - عليه السلام - فوصلوا مصر، فدخلوا على يوسف. وقد تقدّم آنفا وجه دعائهم يوسف - عليه السلام - بوصف العزيز.

{ **مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ** } أرادوا بمس الضرّ إصابته. وتقدّم عند قوله {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ} [الأنعام:17].

{ **وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ** } البضاعة القليلة التي لا يُرغب فيها، فكأن صاحبها يزجيها، أي يدفعها بكلفة ليقبلها المدفوعة إليه. والمراد بها مال قليل للامتيار.

{ **وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا** } طلبوا التصدّق منه تعريضا بإطلاق أخيهم لأنّ ذلك فضل منه إذ صار مملوكا له كما تقدّم.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ** } تعليل لاستدعائهم التصدّق عليهم.

{ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ [89] قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [90] قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ [91] قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ [92] اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ } [93]

{ **قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ** } الاستفهام مستعمل في التوبيخ، فهو توبيخ على ما يعلمونه محقّقا من أفعالهم مع يوسف - عليه السلام - وأخيه، وهي بالنسبة ليوسف - عليه السلام - واضحة، وأمّا بالنسبة إلى بنيامين فهي ما كانوا يعاملونه به من الإهانة التي تنافيها الأخوّة، ولذلك جعل ذلك الزمن زمن جهالتهم بقوله { **إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ**}.

وإنما كاشفهم بحاله الآن لأنّ الاطلاع على حاله يقتضي استجلاب أبيه وأهله إلى السكنى بأرض ولايته، وذلك كان متوقّفا على أشياء لعلّها لم تتهيأ إلّا حينئذ، فقد صار يوسف - عليه السلام - جدّ مكين.

ولا تعرف أسماء ملوك مصر في هذا الزمن الذي كان فيه يوسف - عليه السلام - لأنّ المملكة أيامئذ كانت منقسمة إلى مملكتين: إحداهما ملوكها من القبط وهم الملوك، والمملكة الثانية ملوكها من الهكسوس، ويقال لهم العمالقة أو الرعاة وهم عرب. ودام هذا الانقسام (511 سنة) من سنة 2214 ق م إلى سنة 1703ق م.

{ **أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ** } يدلّ على أنّهم استشعروا من كلامه ثمّ من ملامحه ثمّ من تفهّم قول أبيهم.

{ **وَهَذَا أَخِي** } خبر مستعمل في التعجيب من جمع الله بينهما بعد طول الفرقة.

{ **إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** } تعليل لجملة {مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا}. فيوسف -عليه السلام- اتقى الله وصبر، وبينيامين صبر ولم يعص الله فكان تقيّا. أراد يوسف - عليه السلام - تعليمهم وسائل التعرّض إلى نعم الله تعالى، وحثّهم على التقوى والتخلّق بالصبر، تعريضا بأنّهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه ولم يصبروا على إيثار أبيهم إيّاهما عليهم. وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته.

{ **المحسنين** } وضع للظاهر موضع المضمر إذ مقتضى الظاهر أن يقال: فإن الله لا يضيع أجرهم. فعدل عنه إلى المحسنين للدلالة على أن ذلك من الإحسان، وللتعميم في الحكم ليكون كالتذييل، ويدخل في عمومه هو وأخوه. ثم إن هذا في مقام التحدّث بالنعمة وإظهار الموعظة، وهو سائغ للأنبياء، لأنّه من التبليغ كقول النبيء ﷺ: " إنّي لأتقاكم لله وأعلمكم به".

{ **قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا** } **والإيثار**: التفضيل بالعطاء. وصيغة اليمين مستعملة في لازم الفائدة، وهي علمهم ويقينهم بأنّ ما ناله هو تفضيل من الله، وأنّهم عرفوا مرتبته.

{ **وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ** }. اعترفوا بذنبهم. **والخاطئ**: فاعل الخطيئة، أي الجريمة، أي نفعت فيهم الموعظة.

{ **قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ** } ولذلك أعلمهم بأن الذنب قد غفر فرفع عنهم الذم.

التثريب: التوبيخ والتقريع. والظاهر أن منتهى الجملة هو قوله {عَلَيْكُمُ}.

{ **الْيَوْمَ** } من تمام الجملة ولكنّه متعلق بفعل { يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ }، أعلمهم بأنّ الله يغفر لهم في تلك الساعة.

{ **اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا** } الأظهر أنّه جعل إرسال قميصه علامة على صدق إخوته فيما يبلّغونه إلى أبيهم من

أمر يوسف - عليه السلام – بجلبه، فإن قمصان الملوك والكبراء تنسج إليهم خصيصا ولا توجد أمثالها عند النّاس، وكان الملوك يخلعونها على خاصّتهم، فجعل يوسف - عليه السلام - إرسال قميصه علامة لأبيه على صدق إخوته أنّهم جاءوا من عند يوسف - عليه السلام - بخبر صدق.

ومن البعيد ما قيل: إن القميص كان قميص إبراهيم - عليه السلام - مع أن قميص يوسف قد جاء به إخوته إلى أبيهم حين جاءوا عليه بدم كذب.

{ **فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً** } وأمّا إلقاء القميص على وجه أبيه فلقصد المفاجأة بالبشرى. وأمّا كونه يصير بصيرا فحصل ليوسف - عليه السلام - بالوحي فبشرهم به من ذلك الحين.

{ **وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ** } لقصد صلة أرحام عشيرته. قال المفسّرون: وكانت عشيرة يعقوب -عليه السلام- ستا وسبعين نفسا بين رجال ونساء.

{ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ [94] قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ [95] فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [96] قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ [97] قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }[98].

ووجدان يعقوب ريح يوسف - عليه السلام - إلهام خارق للعادة جعله الله بشارة له. وهو داخل في قوله تعالى { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً }. [الشورى:51]

الريح: الرائحة، وهي ما يعبق من طيب، تدركه حاسة الشمّ.

{ **لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ** } وجواب {لَوْلا} محذوف دل عليه التأكيد، أي لولا أن تفندوني لتحققتم ذلك.

التفنيد: النسبة للفَنَد (بفتحتين)، وهو اختلال العقل من الخوف. وحذفت ياء المتكلم تخفيفا بعد نون الوقاية وبقيت الكسرة.

{ **تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ** } قاله الحاضرون من أهله ولم يسبق ذكرهم، وليسوا أبناءه لأنّهم كانوا سائرين في طريقهم إليه.

الضلال: البعد عن الطريق الموصلة. أرادوا طمعه في لقاء يوسف - عليه السلام -، ووصفوا ذلك بالقديم لطول مدّته، وكانت مدّة غيبة يوسف عن أبيه عليهما السلام اثنين وعشرين سنة. وكان خطابهم إيّاه بهذا مشتملا على شيء من الخشونة، إذ لم يكن أدب عشيرته منافيا لذلك في عرفهم.

{ **فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ** } وفائدة التأكيد في هذه الآية تحقيق هذه الكرامة الحاصلة ليعقوب - عليه السلام - لأنّها خارق عادة، ولذلك لم يؤت ب {أَنْ} في نظائر هذه الآية ممّا لم يكن فيه داع للتأكيد.

البشير: فعيل بمعنى مفعل، أي المبشّر. وهذا البشير هو يهوذا بن يعقوب - عليه السلام - تقدّم بين يديّ العير ليكون أوّل من يخبر أباه بخبر يوسف - عليه السلام -

وارتدّ: رجع، وهو افتعال مطاوع ردّه، أي ردّ الله إليه قوّة بصره، كرامة له وليوسف عليهما السلام وخارقة للعادة.

{ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }

جواب للبشارة لأنها تضمنت القول. ولذلك جاء فعل {قَالَ} مفصولا غير معطوف لأنه على طريقة المحاورات، وكان بقية أبنائه قد دخلوا فبين لهم مجمل كلامه.

{ **اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا** } توبة واعتراف بالذنب، فسألوا أباهم أن يطلب لهم المغفرة من الله.

{ **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي** } وإنّما وعدهم بالاستغفار في المستقبل للدلالة على أنّه يلازم الاستغفار لهم في أزمنة المستقبل. ويعلم منه أنّه استغفر لهم في الحال بدلالة الفحوى، ولكنّه أراد أن ينبّههم إلى عظم الذنب وعظمة الله تعالى وأنه سيكرر الاستغفار لهم.

{ **إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** } في موضع التعليل، وأكّد بضمير الفصل لتقوية الخبر.

{ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ [99] وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } [100].

طوى ذكر سفرهم من بلادهم إلى دخولهم على يوسف - عليه السلام - إذ ليس فيه من العبر شيء.

وأبواه أحدهما يعقوب - عليه السلام - وأما الآخر فالصحيح أن أم يوسف - عليه السلام - وهي (راحيل) توفيت قبل ذلك حين ولدت بنيامين، ولذلك قال جمهور المفسرين: أطلق الأبوان على الأب وزوج الأب وهي (ليئة) خالة يوسف - عليه السلام - وهي التي تولت تربيته، على طريقة التغليب والتنزيل.

{ **ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** } جملة دعائية، فالأمر في {ادْخُلُوا} للدعاء كالذي في قوله تعالى { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ } [الأعراف: 49].

الأمن: حالة اطمئنان النفس وراحة البال وانتفاء الخوف من كل ما يخاف منه، وهو يجمع جميع الأحوال الصالحة للإنسان من الصحة والرزق ونحو ذلك، ولذلك قالوا في دعوة إبراهيم - عليه السلام - { رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً } إنّه جمع في هذه الجملة جميع ما يطلب لخير البلد.

{ **إِنْ شَاءَ اللَّهُ** } تأدب مع الله كالاحتراس في الدعاء الوارد بصيغة الأمر وهو لمجرد التيمّن، فوقوعه في الوعد والعزم والدعاء بمنزلة وقوع التسمية في أوّل الكلام، وليس هو من الاستثناء الوارد النهي عنه في الحديث: أن لا يقول اغفر لي إن شئت.

{ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً** } والذين خرّوا سجّدا هم أبواه وإخوته.

العرش: سرير للقعود فيكون مرتفعا على سوق، وفيه سعة تمكّن الجالس من الاتكاء.

السجود: وضع الجبهة على الأرض تعظيما للذات او لصورتها أو لذكرها.

الخرور: الهُويّ والسقوط من علو إلى الأرض.

وكان السجود تحية الملوك وأضرابهم، ولم يكن يومئذ ممنوعا في الشرائع وإنّما منعه الإسلام لغير الله تحقيقا لمعنى مساواة النّاس في العبودية والمخلوقية. ولذلك فلا يعد قبوله السجود من أبيه عقوقا لأنّه لا غضاضة عليهما منه إذ هو عادتهم.

{ **قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً** } أي ولم يجعلها باطلا من أضعاث الأحلام .

{ **أَحْسَنَ بِي** } أحسن إليّ. يقال: أحسن به وأحسن إليه.

{ **وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ** } المجيء نعمة، فأسنده إلى الله تعالى وهو مجيئهم بقصد الاستيطان حيث هو.

البدو: ضد الحضر، سمي بدوا لأنّ سكّانه بادون، أي ظاهرون لكل وارد، إذ لا تحجبهم جدران ولا تغلق عليهم أبواب.

{ **مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي** }، أشار إلى مصائبه السابقة من الإبقاء في الجبّ، ومشاهدة مكر إخوته به. وقد ألمّ به إجمالا اقتصارا على شكر النعمة وإعراضا عن التذكير بتلك الحوادث المكدّرة للصلة بينه وبين إخوته، فمر بها مر الكرام وباعدها عنهم بقدر الإمكان إذ ناطها بنزغ الشيطان.

النزغ: مجاز في إدخال الفساد في النفس. شبه بنزغ الراكب الدابة وهو نخسها. وتقدّم عند قوله تعالى { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ } [الأعراف:200].

{ **إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا لقصد الاهتمام بها وتعليم مضمونها.

اللطف: تدبير الملائم. وهو يتعدّى باللام على تقدير لطيف لأجل ما يشاء اللطف به، ويتعدى بالباء { اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ} [الشورى: 19]. وتقدّم تحقيق معنى اللطف عند قوله { وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام:103].

{ **إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** } مستأنفة أيضا أو تعليل، وحرف التوكيد للاهتمام. وتوسيط ضمير الفصل للتقوية.

{ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ }[101]

أعقب ذكر نعمة الله عليه بتوجهه إلى مناجاة ربه بالاعتراف بأعظم نعم الدنيا والنعمة العظمى في الآخرة، فذكر ثلاث نعم: اثنتان دنيويتان وهما: نعمة الولاية على الأرض ونعمة العلم، والثالثة أخروية وهي نعمة الدين الحق المعبر عنه بالإسلام.

{ **آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ** } وجعل الذي أوتيه بعضا من الملك ومن التأويل لأنّ ما أوتيه بعض من جنس الملك وبعض من التأويل، إشعارا بأنّ ذلك في جانب ملك الله وفي جانب علمه شيء قليل.

{ **فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } نداء محذوف حرف ندائه. و**الفاطر**: الخالق. وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [الأنعام:14].

{ **أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ** } من قبيل الخبر في إنشاء الدعاء. فالمعنى: كن وليي في الدنيا والآخرة.

الوليّ: الناصر.

{ **تَوَفَّنِي مُسْلِماً** } طلب توفّيه على الدين الحق يقتضي أنّه متصف بالدين الحقّ المعبّر عنه بالإسلام من الآن، فهو يسأل الدوام عليه إلى الوفاة.

المسلم: الذي اتصف بالإسلام، وهو الدين الكامل، وهو ما تعبد الله به الأنبياء والرسل عليهم السلام. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [آل عمران:102].

الإلحاق: حقيقته جعل الشيء لاحقا، أي مدركا من سبقه في السير. وأطلق هنا مجازا على المزيد في عداد قوم.

الصالحون: المتّصفون بالصلاح، وهو التزام الطاعة. وأراد بهم الأنبياء. فإن كان يوسف - عليه السلام - يومئذ نبيا فدعاؤه لطلب الدوام على ذلك، وإن كان نُبِّئَ فيما بعد فهو دعاء بحصوله، وقد صار نبيئا بعد ورسولا.

{ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ } [102]

تذييل للقصّة عند انتهائها. والإشارة إلى ما ذكر من الحوادث، أي ذلك المذكور.

الغيب: ما غاب عن علم الناس، وأصله مصدر غاب فسمي به الشيء الذي لا يشاهد.

والضمائر عائدة إلى كل من صدر منه ذلك في هذه القصة من الرجال والنساء على طريقة التغليب، يشمل إخوة يوسف - عليه السلام - والسيارة، وامرأة العزيز، ونسوتها.

{ **أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ** } تفسيره مثل قوله { وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ } [15].

وهذه الجملة استخلاص لمواضع العبرة من القصّة. وفيها منّة على النبيء ﷺ، وتعريض للمشركين بتنبيههم

لإعجاز القرآن من الجانب العلمي، فإنّ صدور ذلك من النبيء ﷺ الأمّيّ آية كبرى على أنّه وحي من الله تعالى.

{ **وَهُمْ يَمْكُرُونَ** } حال من ضمير {أَجْمَعُوا} ، وأتي بصيغة المضارع لاستحضار الحالة العجيبة.

{ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ [103] وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ }[104].

انتقال من سوق هذه القصّة إلى العبرة بتصميم المشركين على التكذيب بعد هذه الدلائل البيّنة، فالواو للعطف على { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ } [102] باعتبار إفادتها أنّ هذا القرآن وحي من الله وأنّه حقيق بأن يكون داعيا سامعيه إلى الإيمان بالنبيء ﷺ. ولمّا كان ذلك من شأنه أن يكون مطمعا في إيمانهم عقب بإعلام النبيء ﷺ بأنّ أكثرهم لا يؤمنون.

{ **النَّاسِ** } يجوز حمله على جميع جنس النّاس، ويجوز أن يراد به ناس معيّنون وهم القوم الذين دعاهم النبيء ﷺ بمكة وما حولها، فيكون عموما عرفيا.

{ **وَلَوْ حَرَصْتَ** } في موضع الحال معترضة بين اسم {مَا} وخبرها.

الحرص: شّدة الطلب لتحصيل شيء ومعاودته. وتقدّم في قوله تعالى { حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ } [براءة:128].

{ **وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ** } معطوفة على جملة {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ}، أي لا يسوءك عدم إيمانهم فلست تبتغي أن يكون إيمانهم جزاء على التبليغ بل إيمانهم لفائدتهم، كقوله { قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ } [الحجرات:17].

وضمير الجمع عائد إلى النّاس، أي الذين أرسل إليهم النبيء ﷺ.

{ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** } بمنزلة التعليل والقصر إضافي، أي ما هو إلّا ذكر للعالمين، لا لتحصيل الأجر.

{ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ [105] وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } [106].

أي ليس إعراضهم عن آية حصول العلم للأمّيّ بما في الكتب السالفة فحسب بل هم معرضون عن آيات كثيرة في السماوات والأرض.

{ **كَأَيِّنْ** } اسم يدل على كثرة العدد المبهم يبيّنه تمييز مجرور بـ {مِنْ}. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ} [آل عمران:146].

الآية: العلامة. والمراد هنا الدّالة على وحدانية الله تعالى بقرينة ذكر الإشراك بعدها.

{ **يَمُرُّونَ عَلَيْهَا** } يرونها، والمرور مجاز مكنّى به عن التحقق والمشاهدة إذ لا يصحّ حمل المرور على

المعنى الحقيقي بالنسبة لآيات السماوات، فالمرور هنا كالذي في قوله تعالى { وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً } [الفرقان: 72].

{ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } في موضع الحال من ضمير {يَمُرُّونَ} أي وما يؤمن أكثر النّاس إلّا وهم مشركون. والمراد أهل الشرك من العرب. وهذا إبطال لما يزعمونه من الاعتراف بأنّ الله خالقهم، وبأنّ إيمانهم بالله كالعدم لأنّهم لا يؤمنون بوجود الله إلّا في تشريكهم معه غيره في الإلهية. والمقصود من هذا تشنيع حالهم.

{ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ }[107]

تفظيع حالهم وجرأتهم على خالقهم والاستمرار على ذلك دون إقلاع. فكأنهم في إعراضهم عن توقّع حصول غضب الله بهم آمنون أن تأتيهم غاشية من عذابه في الدنيا أو تأتيهم الساعة بغتة فتحول بينهم وبين التوبة ويصيرون إلى العذاب الخالد. والاستفهام مستعمل في التوبيخ.

{ غَاشِيَةٌ } الغشي والغشيان: الإحاطة من كل جانب { وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ } [لقمان: 32].

الغاشية: الحادثة التي تحيط بالنّاس. والعرب يؤنّثون هذه الحوادث مثل الطامة والصاخة والداهية والمصيبة والكارثة والحادثة والواقعة والحاقة.

البغتة: الفجأة. وتقدّمت عند قوله تعالى { حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً } [الأنعام:31].

{ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [108]

استئناف ابتدائي للانتقال من الاعتبار بدلالة نزول هذه القصّة للنبي ﷺ الأمّيّ على صدق نبوءته وصدقه فيما جاء به من التوحيد إلى الاعتبار بجميع ما جاء به من هذه الشريعة عن الله تعالى، وهو المعبّر عنه بالسبيل على وجه الاستعارة . وهي استعارة متكرّرة في القرآن وفي كلام العرب.

السبيل: يؤنّث كما في هذه الآية، ويذكّر أيضا كما في قوله تعالى { وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً } [الأعراف [146]. والإشارة إلى الشريعة بتنزيل المعقول منزلة المحسوس لبلوغه من الوضوح للعقول حدّا لا يخفى فيه إلّا عمن لا يعدّ مدركا.

{ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ }

البصيرة: الحجّة الواضحة، والمعنى: أدعو إلى الله ببصيرة متمكنا منها. ووصف الحجّة ببصيرة مجاز عقلي. والبصير: صاحب الحجّة لأنّه بها صار بصيرا بالحقيقة. ومثله وصف الآية بمبصرة في قوله: {فَلَمَّا

جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً} [سورة النمل: 13]. وبعكسه يوصف الخفاء بالعمى كقوله { وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ } [هود: 28].

وفي الآية دلالة على أنّ أصحاب النبيء ﷺ والمؤمنين الذين آمنوا به مأمورون بأن يدعوا إلى الإيمان بما يستطيعون. وقد قاموا بذلك بوسائل بثّ القرآن وأركان الإسلام والجهاد في سبيل الله. وقد كانت الدعوة إلى الإسلام في صدر زمان البعثة المحمّديّة واجبا على الأعيان لقول النبيء ﷺ: " بلغوا عني ولو آية " أي بقدر الاستطاعة. ثم لمّا ظهر الإسلام وبلغت دعوته الأسماع صارت الدعوة إليه واجبا على الكفاية كما دل عليه قوله تعالى { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ } [آل عمران 104].

سبحان: مصدر التسبيح جاء بدلا عن الفعل للمبالغة. والتقدير: وأسبح الله سبحانا، أي أدعو الناس إلى توحيده وطاعته وأنزهه عن النقائص التي يشرك بها المشركون من ادعاء الشركاء، والولد، والصاحبة.

{ **وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } بمنزلة التذييل لما قبلها لأنّها تعم ما تضمنته.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ [109] حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } [110].

هاتان الآيتان متصل معناهما بما تضمّنه قوله تعالى { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ - إلى قوله - قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي} [102- 108]، فإنّ تلك الآي تضمّنت الحجّة على صدق الرسول ﷺ فيما جاءهم به، وضمنت أن الذين أشركوا غير مصدّقينه عنادا وإعراضا عن آيات الصدق. فالمعنى أنّ إرسال الرسل عليهم السلام سنّة إلهية قديمة فلماذا يجعل المشركون نبوءتك أمرا مستحيلا فلا يصدقون بها مع ما قارنها من آيات الصدق.

{ **إِلَّا رِجَالاً** } أي إنسان أو شخص. فليس المراد الاحتراز عن المرأة. واختير هنا دون غيره لمطابقته الواقع فإن الله لم يرسل رسلا من النساء لحكمة قبول قيادتهم في نفوس الأقوام إذ المرأة مستضعفة عند الرجال دون العكس.

فالقصر إضافي، أي لم يكن الرسل عليهم السلام قبلك ملائكة أو ملوكا من ملوك المدن الكبيرة فلا دلالة في الآية على نفي إرسال رسول من أهل البادية مثل خالد بن سنان العبسي، ويعقوب - عليه السلام - حين كان ساكنا في البدو كما تقدّم.

{ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } الاستفهام إنكاري، فإن مجموع المتحدّث عنهم ساروا في الأرض فرأوا عاقبة المكذّبين مثل عاد وثمود. وهذا التفريع اعتراض بالوعيد

والتهديد.

{ **وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ** } خبر، وهو اعتراض بالتبشير وحسن العاقبة للرّسل عليهم السلام ومن آمن بهم وهم الذين اتقوا، وهو تعريض بسلامة عاقبة المتّقين في الدنيا، وتعريض أيضا بأنّ دار الآخرة أشد أيضا على الذين من قبلهم من العاقبة التي كانت في الدنيا، فحصل إيجاز بحذف جملتين.

{ **حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا** } ابتدائية، حجّة على المكذّبين، فتقدير المعنى: وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالا يوحى إليهم فكذّبوا المرسل إليهم واستمروا على التكذيب حتى إذا استيئس الرسل.

{ **اسْتَيْأَسَ** } مبالغة في يئس، كما تقدّم آنفا في قوله { وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ } [87].

{ **جَاءَهُمْ نَصْرُنَا** } جواب {إِذَا} لأنّ هذا الترتيب في المعنى هو المقصود من جلب {إِذَا} في مثل هذا التركيب.

{ **فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** } تفريع على { جَاءَهُمْ نَصْرُنَا } لأنّ نصر الرّسل عليهم السلام هو تأييدهم بعقاب الذين كذّبوهم بنزول العذاب وهو البأس، فينجي الله الذين آمنوا ولا يرد البأس عن القوم المجرمين.

البأس: هو عذاب المجرمين الذي هو نصر الرسل عليهم السلام. و**القوم المجرمون**: الذين كذبوا الرسل.

{ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [111]

هذا من ردّ العجز على الصدر فهي مرتبطة بجملة { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ } [102] وهي تتنزّل منها منزلة البيان لما تضمّنه معنى الإشارة في قوله {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ} من التعجيب، وما تضمنه معنى {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ } من الاستدلال على أنّه وحي من الله مع دلالة الأمّيّة.

أولو الألباب: أصحاب العقول.

العبرة: اسم مصدر للاعتبار، وهو التوصّل بمعرفة المشاهد المعلوم إلى معرفة الغائب. وتطلق العبرة على ما يحصل به الاعتبار.

{ **مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى** } إلى آخرها تعليل لجملة { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ }، أي لأنّ ذلك القصص خبر صدق مطابق للواقع وما هو بقصة مخترعة. ووجه التعليل أنّ الاعتبار بالقصّة لا يحصل إلّا إذا كانت خبرا عن أمر وقع.

وهذه الآية ناظرة إلى قوله تعالى في أول السورة { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } [3] فكما سمّاه الله أحسن القصص في أول السورة نفى عنه الافتراء في هذه الآية تعريضا بالنضر ابن الحارث وأضرابه.

الافتراء: تقدّم في قوله { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ } [المائدة:103].

{ **الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** } الكتب الإلهية السابقة.

التفصيل: التبيين.

{ **كُلِّ شَيْءٍ** } الأشياء الكثيرة مما يرجع إلى الاعتبار بالقصص. وإطلاق الكلّ على الكثرة مضى عند قوله تعالى { وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها } [الأنعام:31].

{ **وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } العبر الباعثة على الإيمان والتقوى بمشاهدة ما جاء من الأدلة في أثناء القصص على أن المتصرّف هو الله تعالى، وعلى أنّ التقوى هي أساس الخير في الدنيا والآخرة، وكذلك الرحمة فإنّ في قصص أهل الفضل دلالة على رحمة الله لهم وعنايته بهم، وذلك رحمة للمؤمنين لأنّهم باعتبارهم بها يأتون ويذرون، فتصلح أحوالهم ويكونون في اطمئنان بال، وذلك رحمة من الله بهم في حياتهم وسبب لرحمته إيّاهم في الآخرة كما قال تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل: 97].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الرّعْد

هكذا سمّيت من عهد السلف. وذلك يدلّ على أنّها مسمّاة بذلك من عهد النبيء ﷺ إذ لم يختلفوا في اسمها. وإنّما سمّيت بإضافتها إلى الرعد لورود ذكر الرعّد فيها بقوله تعالى { وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ} [13]. فسمّيت بذلك لأن الرعد لم يذكر في سورة مثل هذه السورة. وإنّما ذكر

الرعد في سورة البقرة وهي نزلت بالمدينة وإذا كانت آيات {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً - إلى قوله - وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ } [12] مما نزل بالمدينة، كما سيأتي، تعيّن أنّ ذلك نزل قبل نزول سورة البقرة.

وهذه السورة مكّية في قول مجاهد وروايته عن ابن عباس ورواية علي بن أبي طلحة وسعيد بن جبير عنه وهو قول قتادة. وعن أبي بشر قال: سألت سعيد ابن جبير عن قوله تعالى { وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } [43] أهو عبد الله بن سلام؟ فقال: كيف وهذه سورة مكّية، وعن ابن جريج وقتادة في رواية عنه وعن ابن عباس أيضا: أنّها مدنية، وهو عن عكرمة والحسن البصري، وعن عطاء عن ابن عباس. وجمع السيوطي وغيره بين الروايات بأنّها مكّية إلّا آيات منها نزلت بالمدينة يعني قوله { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً - إلى قوله - شَدِيدُ الْمِحَالِ } وقوله { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ } [43].

قال ابن عطيّة: والظاهر أن المدني فيها كثير، وكل ما نزل في شأن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة فهو مدني.

وأقول أشبه آياتها بأن يكون مدنيّا قوله { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا } [41] كما ستعلمه، وقوله تعالى { كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ - إلى - وَإِلَيْهِ مَتَابِ} [30]، فقد قال مقاتل وابن جريج: نزلت في صلح الحديبية كما سيأتي عند تفسيرها.

ومعانيها جارية على أسلوب معاني القرآن المكّي من الاستدلال على الوحدانية وتقريع المشركين وتهديدهم.

والأسباب التي أثارت القول بأنّها مدنية أخبار واهية، وسنذكرها في مواضعها من هذا التفسير. ولا مانع من أن تكون مكّية ومنها آيات نزلت بالمدينة وألحقت بها، فإنّ ذلك في بعض سور القرآن.

فالذين قالوا: هي مكّية لم يذكروا موقعها من ترتيب المكّيّات سوى أنّهم ذكروها بعد سورة يوسف وذكروا بعدها سورة إبراهيم. والذين جعلوها مدنية عدوها في النزول بعد سورة القتال (محمد) وقبل سورة الرحمان وعدوها سابعة وتسعين في عداد النزول. وإذ قد كانت سورة القتال نزلت عام الحديبية أو عام الفتح تكون سورة الرعد بعدها.

وعدّت آياتها ثلاثا وأربعين من الكوفيين وأربعا وأربعين في عدد المدنيين وخمسا وأربعين عند الشام.

أغراض السورة

أقيمت هذه السورة على أساس إثبات صدق الرّسول ﷺ فيما أوحي إليه من إفراد الله بالإلهيّة والبعث وإبطال أقوال المكذّبين، فلذلك تكرّرت حكاية أقوالهم خمس مرّات موزّعة على السورة بدءا ونهاية.

ومهّد لذلك بالتنويه بالقرآن وأنّه منزّل من الله، والاستدلال على تفرّده تعالى بالإلهية بدلائل خلق العالمين ونظامهما الدال على انفراده بتمام العلم والقدرة وإدماج الامتنان لما في ذلك من النعم على النّاس.

ثم انتقل إلى أقوال أهل الشرك ومزاعمهم في إنكار البعث. وتهديدهم أن يحلّ بهم ما حلّ بأمثالهم.

والتذكير بنعم الله على الناس.
وإثبات أن الله هو المستحق للعبادة دون آلهتهم.
وأنّ الله العالم بالخفايا وأنّ الأصنام لا تعلم شيئا ولا تُنعم بنعمة.
والتهديد بالحوادث الجوّيّة أن يكون منها عذاب للمكذّبين كما حلّ بالأمم قبلهم.
والتخويف من يوم الجزاء.
والتذكير بأنّ الدنيا ليست دار قرار.
وبيان مكابرة المشركين في اقتراحهم مجيء الآيات على نحو مقترحاتهم.
ومقابلة ذلك بيقين المؤمنين. وما أعدّ الله لهم من الخير.
وأنّ الرسول ﷺ ما لقي من قومه إلّا كما لقي الرّسل عليهم السلام من قبله.
والثناء على فريق من أهل الكتب يؤمنون بأن القرآن منزل من عند الله.
والإشارة إلى حقيقة القدر ومظاهر المحو والإثبات.
وما تخلّل ذلك من المواعظ والعبر والأمثال.

{ ألمر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ } [1]

تقدّم الكلام على نظائر { **ألمر** } ممّا وقع في أوائل بعض السور من الحروف المقطعة.

{ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ** } تقدّم نظيره من طالعة سورة يونس. والمشار إليه هو ما سبق نزوله من القرآن قبل هذه الآية أخبر عنها بأنّها آيات، أي دلائل إعجاز، ولذلك أشير إليه باسم إشارة المؤنث مراعاة لتأنيث الخبر.

{ **وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ** } يجوز أن يكون عطفا على { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ } للتعريف بأنّها آيات منزلة من عند الله.

وأخبر عن الذي أنزل بأنه الحق بصيغة القصر، أي هو الحق لا غيره من الكتب. فالمقصود الرد على المشركين الذين زعموه كأساطير الأولين.

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** } راجع إلى ما أفاده القصر من إبطال مساواة غيره له في الحقيّة إبطالا يقتضي ارتفاع النزاع في أحقيته، أي ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بما دلت الأدلة على الإيمان به، فمن أجل هذا الخلق الذميم فيهم يستمر النزاع منهم في كونه حقا.

وابتداء السورة بهذا تنويه بما في القرآن تهيئة السامع للتأمل مما سيرد عليه من الكلام.

{ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } [2]

{ **اللَّهُ** } الافتتاح باسم الجلالة دون الضمير الذي يعود إلى { رَبِّكَ } [1] ليكون الخبر المقصود جاريا على معيّن لا يحتمل غيره، إبلاغا في قطع شائبة الإشراك.

{ **الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** } خبر وجُعل اسم موصول لكون الصلة معلومة الدلالة على أنّ من تثبت له هو المتوحّد بالربوبيّة، ولأنه مسلّم له ذلك.

السماوات: تقدّمت مرارا، وهي الكواكب السيارة وطبقات الجو التي تسبح فيها.

رفعها: خلقها مرتفعة، فليس المراد أنّه رفعها بعد أن كانت منخفضة.

العمد: جمع عماد ، والعامد: ما تقام عليه القبة والبيت.

{ **تَرَوْنَهَا** } في موضع الحال من {السَّمَاوَاتِ} ، أي لا شبهة في كونها بغير عمد.

{ **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** } تقدّم القول في نظيرها في سورة الأعراف وفي سورة يونس.

{ **وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً** } تقدّم الكلام حول معناها في قوله تعالى { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ} [الأعراف:54].

الجري: السير السريع. وسير الشمس والقمر والنجوم في مسافات شاسعة، فهو أسرع التنقّلات في بابها وذلك سيرها في مداراتها.

الأجل: هو المدّة التي قدّرها الله لدوام سيرها، وهي مدة بقاء النظام الشمسي الذي إذا اختل انتثرت العوالم وقامت القيامة.

المسمّى: أصله المعروف باسمه، وهو هنا كناية عن المعيّن المحدّد.

{ **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** } في موضع الحال من اسم الجلالة.

{ **يُدَبِّرُ** } تقدّم عند قوله { وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ } [يونس:3].

تفصيل الآيات: تقدّم عند قوله { أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ } [هود:1].

ووجه الجمع بينهما هنا أنّ تدبير الأمر يشمل تقدير الخلق الأوّل والثاني، فهو إشارة إلى التصرّف بالتكوين للعقول والعوالم، وتفصيل الآيات مشير إلى التصرّف بإقامة الأدلة والبراهين، وشأن مجموع الأمرين أن يفيد اهتداء النّاس إلى اليقين بأنّ بعد هذه الحياة حياة أخرى، لأنّ النظر بالعقل في المصنوعات وتدبيرها يهدي إلى ذلك، وتفصيل الآيات والأدلة ينبّه العقول ويعينها على ذلك الاهتداء ويقرّبه.

وصيغ { يُدَبِّرُ - يُفَصِّلُ } بالمضارع عكس قوله { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ } لأنّ التدبير والتفصيل متجدّد متكرّر بتجدّد تعلّق القدرة بالمقدورات. وأمّا رفع السماوات وتسخير الشمس والقمر فقد تمّ واستقر دفعة.

{ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [3].

عطف على { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ }، فبين الجملتين شبه التّضاد، اشتملت الأولى على ذكر العوالم العلوية وأحوالها، واشتملت الثانية على ذكر العوالم السفليّة. والمعنى: أنّه خالق جميع العوالم وأعراضها.

المدّ: البسط والسعة، ومنه: ظل مديد. ومنه مدّ البحر وجزره. والمعنى: خلق الأرض ممدودة متّسعة للسير والزرع، لأنّه لو خلقها أسنمة من حجر أو جبالا شاهقة متلاصقة لما تيسّر للأحياء التي عليها الانتفاع بها والسير من مكان إلى آخر في طلب الرزق وغيره. وليس المراد أنّها كانت غير ممدودة فمدّها. فهذه خلقة دالة على القدرة وعلى اللطف بعباده، فهي آية ومنّة.

الرواسي: جمع رَاسٍ. وهو الثابت المستقرّ، أي جبالا رواسي. وقد حذف موصوفه لظهوره فهو كقوله { وَلَهُ الْجَوَارِ} ، أي السفن الجارية. والاستدلال بخلق الجبال على عظيم القدرة لما في خلقها من العظمة المشاهدة بخلاف المعادن والتراب فهي خفيّة.

الأنهار: جمع نهر، وهو الوادي العظيم. وتقدّم في قوله { إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ } [البقرة: 249]

{ **وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ** } عطف على {أَنْهاراً}، و{من} هذه تُحمل على التبعيض لأنّ حقائق الأجناس لا تنحصر، والموجود منها ما هو إلّا بعض جزئيّات الماهية، لأنّ منها جزئيّات انقضت ومنها جزئيّات ستوجد.

والمراد أشجارها، وإنّما ذكرت {الثَّمَرَاتِ} لأنّها في موقع منّة مع العبرة. فينبغي الوقف على {وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} ، وبذلك انتهى تعداد المخلوقات المتصلة بالأرض. وهذا أحسن تفسيرا.

وقيل إن قوله {وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} ابتداء كلام تتعلق بـ { جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ } وبهذا فسّر أكثر المفسّرين. ويبعده أنّه لا نكتة في تقديم الجار والمجرور على عامله على ذلك التقدير. لأنّ جميع المذكور محل اهتمام

فلا خصوصية للثمرات هنا، ولأنّ الثمرات لا يتحقّق فيها وجود أزواج ولا كون الزوجين اثنين. وأيضا فيه فوات المنّة بخلق الحيوان وتناسله مع أنّ منه معظم نفعهم ومعاشهم. ومما يقرّب ذلك قوله تعالى في نحو هذا المعنى { أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً} [النبأ: 6-8]. والمعروف أنّ الزوجين هما الذكر والأنثى قال تعالى { فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى } [القيامة:39].

{ **جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ** } الظاهر أنّها جملة مستأنفة للاهتمام بهذا الجنس من المخلوقات وهو جنس الحيوان المخلوق صنفين ذكرا وأنثى أحدهما زوج مع الآخر، وشاع إطلاق الزوج على الذكر والأنثى من الحيوان. والتنكير للتنويع، أي جعل زوجين من كل نوع.

{ **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } حال من ضمير {جعل}. وجيء فيه بالمضارع لما يدلّ عليه من التجدّد، لأنّ جعل الأشياء المتقدّم ذكرها جعل ثابت مستمر، وأمّا إغشاء الليل والنّهار فهو أمر متجدّد كل يوم وليلة. وهذا استدلال بأعراض أحوال الأرض. وذكره مع آيات العالم السفلي في غاية الدقّة العلمية، لأنّ الليل والنهار من أعراض الكرة الأرضيّة بحسب اتجاهها إلى الشمس وليسا من أحوال السماوات، إذ الشمس والكواكب لا يتغيّر حالها بضياء وظلمة.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } الإشارة إلى ما تقدّم. وجعل الأشياء المذكورات ظروفا لـ { آياتٍ } لأنّ كل واحدة من الأمور المذكورة تتضمّن آيات عظيمة يجلوها النظر الصحيح والتفكير المجرّد عن الأوهام. ولذلك أجرى صفة التفكير على لفظ قوم إشارة إلى أن التفكير المتكرّر المتجدّد هو صفة راسخة فيهم بحيث جعلت من مقوّماتهم، أي من جبلّتهم.

التفكير: تقدم عند قوله تعالى { أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ } [الأنعام:50].

{ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [4]

لله بلاغة القرآن في تغيير الأسلوب عند الانتقال إلى ذكر النعم الدالة على قدرة الله تعالى فيما ألهم النّاس من العمل في الأرض بفلحها وزرعها وغرسها والقيام عليها، فجاء ذلك معطوفا على الأشياء التي أسند جعلها إلى الله تعالى، ولكنّه لم يسند إلى الله حتّى بلغ إلى قوله { وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ }، لأنّ ذلك بأسرار أودعها الله تعالى فيها هي موجب تفاضلها. وأمثال هذه العبر ولفت النظر ممّا انفرد به القرآن من بين سائر الكتب.

{ **الْأَرْضِ** } أعيد الاسم الظاهر دون ضميرها الذي هو المقتضى ليستقلّ الكلام ويتجدّد الأسلوب.

القطع: جمع قِطعة (بكسر القاف)، وهي الجزء من الشيء تشبيها لها بما يقتطع. وليس وصف القطع متجاورات مقصودا بالذات في هذا المقام إذ ليس هو محل العبرة بالآيات، بل المقصود وصف محذوف دلّ عليه السياق تقديره: مختلفات الألوان والمنابت. وإنّما وصفت متجاورات لأنّ اختلاف الألوان والمنابت مع التجاور أشدّ دلالة على القدرة العظيمة.

الزرع والنخيل: تقدّما في قوله { وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ } [الأنعام:141] .

وقرأ الجمهور { وزرع النخيل } بالجر عطفا على { أَعْنَابٍ } ، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، ويعقوب بالرفع عطفا على {جَنَّاتٍ}. والمعنى واحد لأنّ الزرع الذي في الجنات مساو للذي في غيرها فاكتفى به قضاء لحق الإيجاز. وكذلك على قراءة الرفع هو يغني عن ذكر الزرع الذي في الجنّات، والنخل لا يكون إلّا في جنّات.

صنوان: جمع صِنو (بكسر الصاد) في الأفصح فيهما وهي لغة الحجاز، وبضمها فيها أيضا وهي لغة تميم وقيس. والصنو: **النخلة المجتمعة مع نخلة أخرى نابتتين في أصل واحد** أو نخلات. وهذه الزنة نادرة في صيغ أو الجموع في العربية لم يحفظ منها إلّا خمسة جموع: [صنو وصنوان / قنو وقنوان / زيد وزيدان / شقذ (بذال معجمة اسم الحرباء) وشقذان / وحش (معنى بستان) وحشان].

السقي: إعطاء المشروب. والمراد بالماء هنا ماء المطر وماء الأنهار وهو واحد بالنسبة للمسقي ببعضه.

التفضيل: منه الأفضل، وعبرة به وبضدّه، وكناية عن الاختلاف.

الأُكل: (بضم الهمزة وسكون الكاف) هو المأكول. ويجوز في اللغة ضمّ الكاف.

والمعنى، أنّ اختلاف طعومه وتفاضلها مع كون الأصل واحد والغذاء بالماء واحد ما هو إلّا لقوى خفيّة أودعها الله فيها فجاءت آثارها مختلفة.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } مجيء التذييل. والإشارة إلى جميع المذكور، وقد جعل جميع المذكور بمنزلة الظرف للآيات. وجعلت دلالته على انفراده تعالى بالإلهية دلالات كثيرة إذ في كل شيء منها آية تدلّ على ذلك. ووصفت الآيات بأنّها من اختصاص الذين يعقلون تعريضا بأنّ من لم تقنعهم تلك الآيات منزّلون منزلة من لا يعقل. وزيد في الدلالة على أنّ العقل سجيّة للذين انتفعوا بتلك الآيات بإجراء وصف العقل على كلمة قوم إيماء إلى أنّ العقل من مقومات قوميّتهم كما بيناه في الآية قبلها.

{ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [5]

لمّا قُضي حقّ الاستدلال على الوحدانيّة نُقل الكلام إلى الردّ على منكري البعث وهو غرض مستقلّ مقصود

من هذه السورة، بمناسبة التدليل على عظيم القدرة، فصيغ بصيغة التعجيب من إنكار منكري البعث، لأنّ الأدلة السالفة لم تبق عذرا لهم في ذلك، فصار في إنكارهم محلّ عجب المتعجّب. فيجوز أن يكون الخطاب موجّها إلى النبيء ﷺ، وهو المناسب بما وقع بعده من قوله { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ } [6] وما بعده من الخطاب الذي لا يصلح لغير النبيء ﷺ. ويجوز أن يكون الخطاب هنا لغير معيّن.

{ **أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً** } استفهام إنكاري، لأنّهم موقنون بأنّهم لا يكونون في خلق جديد بعد أن يكونوا ترابا. والقول المحكي عنهم هو في معنى الاستفهام عن مجموع أمرين وهما كونهم: ترابا، وتجديد خلقهم ثانية. والمقصود من ذلك العجب والإستحالة.

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ** } الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما سيرد بعد اسم الإشارة من الخبر لأجل ما سبق من قولهم { أإذا كنا ترابا إنا لفي خلق جديد } بعد أن رأوا دلائل الخلق الأول، فحقّ عليهم بقولهم ذلك حكمان: أحدهما أنّهم كفروا بربهم لأنّ قولهم ذلك لا يقوله إلّا كافر بالله، وثانيهما استحقاقهم العذاب.

{ **وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ** } مفتتحة باسم الإشارة لمثل الغرض الذي افتتحت به الجملة قبلها فإنّ مضمون الجملتين اللتين قبلها يحقّق أنهم أحرياء بوضع الأغلال في أعناقهم وذلك جزاء الإهانة.

الأغلال: جمع غُلّ (بضم الغين)، وهو القيد الذي يوضع في العنق، وهو أشد التقييد. قال تعالى { إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ } [غافر: 71].

والجملة وعيد بسوقهم إلى الحساب سوق المذلّة والقهر، وكانوا يضعون الأغلال للأسرى المثقلين.

{ **وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** } مزيد بيان و تخويف، وإعادة اسم الإشارة ثلاثا للتهويل.

{ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ } [6]

عطف على {وَإِنْ تَعْجَبْ} لأنّ كلتا الجملتين حكاية لغريب أحوالهم في المكابرة والعناد والاستخفاف بالوعيد. فابتدأ بذكر تكذيبهم بوعيد الآخرة لإنكارهم البعث، ثم عطف عليه تكذيبهم بوعيد الدنيا لتكذيبهم الرّسول ﷺ . وفي الاستخفاف بوعيد نزول العذاب وعدّهم إيّاه مستحيلا في حال أنّهم شاهدوا آثار العذاب النازل بالأمم قبلهم، وما ذلك إلّا لذهولهم عن قدرة الله تعالى التي سبقت الكلام للاستدلال عليها والتفريع عنها.

السيّئة: الحالة السيّئة. وهي هنا المصيبة التي تسوء من تحلّ به. و**الحسنة** ضدّها.

فسؤالهم سؤال تعجيز وتهكّم.

{ **وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ** } في موضع الحال. وهو محل زيادة التعجيب لأنّ ذلك قد يعذرون فيه لو كانوا لم يروا أثار الأمم المعذّبة مثل عاد وثمود.

المَثُلات (بفتح الميم وضم المثلثة): جمع **مَثُلة** (بفتح الميم وضم الثاء)، و**مُثْلة** (بضم الميم وسكون الثاء)،

وهي العقوبة الشديدة التي تكون مثالا تمثّل به العقوبات.

{ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ** } وهذا كشف لغرورهم بتأخير العذاب عنهم لأنّهم لمّا استهزأوا بالنبيء ﷺ وتعرّضوا لسؤال حلول العذاب بهم ورأوا أنّه لم يعجّل لهم حلوله اعترتهم ضراوة بالتكذيب وحسبوا تأخير العذاب عجزا من المتوعِّد وكذّبوا النبيء ﷺ، وهم يجهلون أنّ الله حليم يمهل عباده لعلهم يرجعون. فالمغفرة هنا مستعملة في المغفرة المؤقّتة، وهي التجاوز عن ضراوة تكذيبهم وتأخير العذاب إلى أجل، كما قال تعالى { وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [النحل:34].

وسياق الآية على أنّ المراد بالمغفرة هنا التجاوز عن المشركين في الدنيا بتأخير العقاب لهم إلى اجل أراده الله أو إلى يوم الحساب.

{ **عَلَى ظُلْمِهِمْ** } محمل الظلم على ما هو المشهور في اصطلاح القرآن من إطلاقه على **الشرك**. ويجوز أن يحمل الظلم على ارتكاب الذنوب بقرينة السياق.

{ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ** } احتراس لئلّا يحسبوا أنّ المغفرة المذكورة مغفرة دائمة تعريضا بانّ العقاب حال بهم من بعد.

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ }[7]

وهذه حالة من أعجوباتهم وهي عدم اعتدادهم بالآيات التي تأيّد بها محمد ﷺ وأعظمها آيات القرآن، فلا يزالون يسألون آية. ومرادهم بالآية في هذا خارقُ عادة على حساب ما يقترحون، فهي مخالفة لما تقدّم في قوله {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ } لأنّ تلك في تعجيل ما توعّدهم به، وما هنا في مجيء آية تؤيّده، كقولهم {لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ} [الأنعام: 8].

الذين كفروا: هم عين أصحاب ضمير { يَسْتَعْجِلُونَكَ } وإنّما عدل عن ضميرهم إلى اسم الموصول لزيادة تسجيل الكفر عليهم، ولما يومئ إليه الموصول من تعليل صدور قولهم ذلك. وصيغة المضارع تدلّ على تجدّد ذلك وتكرّره.

{ **لَوْلا** } حرف تحْضيض. يموّهون بالتحْضيض أنّهم حريصون وراغبون في نزول آية غير القرآن ليؤمنوا، وهم كاذبون في ذلك إذ لو أوتوا آية كما يقترحون لكفروا بها، كما قال تعالى { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ } [الإسراء:59].

{ **إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ** }، وقد ردّ الله اقتراحهم من أصله فقصر النبيء ﷺ على صفة الإنذار وهو قصر إضافي،

أي أنت منذر لا موجد خوارقّ عادة. وبهذا يظهر وجه قصره على الإنذار دون البشارة لأنّه قصر إضافي بالنسبة لأحواله نحو المشركين.

{ **وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** } تذييل بالأعمّ. أي إنّما أنت منذر لهؤلاء لهدايتهم. ولكلّ قوم هاد أرسله الله ينذرهم لعلّهم يهتدون. فما كنت بدعا من الرّسل وما كان للرّسل من قبلك آيات على مقترح أقوامهم بل كانت آياتهم بحسب ما أراد الله أن يظهره على أيديهم. على أنّ معجزات الرّسل تأتي على حسب ما يلائم حال المرسل إليهم.

ولمّا كان الذين ظهرت بينهم دعوة محمد ﷺ عربا أهل فصاحة وبلاغة جعل الله معجزته العظمى القرآن بلسان عربي مبين. وإلى هذا المعنى يشير قول النبيء ﷺ في الحديث الصحيح: " ما من الأنبياء نبيء إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنّما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ فارجوا أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ".

وبهذا العموم الحاصل بالتذييل والشامل للرّسول ﷺ صار المعنى إنّما أنت منذر لقومك هاد إيّاهم إلى الحق. فإن الإنذار والهدي متلازمان فما من إنذار إلّا وهو هداية وما من هداية إلّا وفيها إنذار، والهداية أعمّ من الإنذار. ففي هذا احتباك بديع.

{ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ [8] عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ }[9]

استئناف ابتدائي. فلمّا قامت البراهين العديدة بالآيات السابقة على وحدانيّة الله تعالى بالخلق والتدبير وعلى عظيم قدرته التي أودع بها في المخلوقات دقائق الخلقة، انتقل الكلام إلى إثبات العلم له تعالى علما عاما بدقائق الأشياء وعظائمها، ولذلك جاء افتتاحه على الأسلوب الذي افتتح به الغرض السابق بأن ابتدئ باسم الجلالة كما ابتدئ به هنالك في قوله { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } [2].

وجعلت هذه الجملة في هذا الموقع لأنّ لها مناسبة بقولهم { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ }، فإنّ ما ذكر فيها من علم الله وعظيم صنعه صالح لأن يكون دليلا على أنّه لا يعجزه الإتيان بما اقترحوا من ألايات، ولكن بعثة الرّسول ليس المقصد منها المنازعات بل هي دعوة للنظر في الأدلة.

وإذ قد كان خلق الله العوالم وغيرها معلوما لدى المشركين ولكن الإقبال على عبادة الأصنام يذهلهم عن تذكّره كانوا غير محتاجين لأكثر من التذكير بذلك وبالتنبيه إلى ما قد يخفى من دقائق التكوين، كقوله آنفا {بِغَيْرِ عَمَدٍ} [2] وقوله { وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ } [4].

{ **اللَّهُ يَعْلَمُ** } صيغ الإخبار عن الخلق في آية {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ} [2] بطريقة الموصول للعلم بثبوت مضمون الصلة للمخبر عنه. وجيء في تلك الصلة بالفعل الماضي فقال { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ } كما أشرنا إليه آنفا. فأمّا هنا فصيغ الخبر بصيغة المضارع المفيد للتجدّد والتكرير لإفادة أنّ ذلك العلم متكرّر متجدّد التعلّق بمقتضى أحوال المعلومات المتنوّعة والمتكاثرة على نحو ما قرر في قوله { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ } [2].

{ **مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ** } وذكر من معلومات الله ما لا نزاع في أنّه لا يعلمه أحد من الخلق يومئذ، فما تحمل كل أنثى هي أجنة الإنسان والحيوان. ولذلك جيء بفعل الحمل دون الحبل لاختصاص الحبل بحمل المرأة.

{ **مَا** } موصولة، وعمومها يقتضي علم الله بحال الحمل الموجود من ذكورة وأنوثة، وتمام ونقص، وحسن وقبح، وطول وقصر، ولون.

تغيض: تنقص. والظاهر أنّه كناية عن العلوق لأنّ غيض الرحم انحباس دم الحيض عنها، و**ازديادها**: فيضان الحيض منها. ويجوز أن يكون الغيض مستعارا لعدم التعدّد والازدياد: التعدّد، أي ما يكون في الأرحام من جنين واحد أو عدّة أجنّة وذلك في الإنسان والحيوان.

{ **وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ** }

المقدار: مصدر ميمي بقرينة الباء، أي بتقدير، ومعناه: **التحديد والضبط**. والمعنى أنّه يعلم كلّ شيء علما مفصّلا لا شيوع فيه ولا إبهام. وفي هذا ردّ على الفلاسفة غير المسلمين القائلين أن واجب الوجود يعلم الكلّيّات ولا يعلم الجزئيّات، فرارا من تعلّق العلم بالحوادث. وقد أبطل مذهبهم علماء الكلام بما ليس فوقه مرام. وهذه قضية كلّيّة أثبتت عموم علمه تعالى بعد أن وقع إثبات العموم بطريقة التمثيل بعلمه بالجزئيات الخفية في قوله {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى }.

{ **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ** } تذييل وفذلكة لتعميم العلم بالخفيّات والظواهر وهما قسما الموجودات.

{ **الْغَيْبِ** } تقدّم في صدر سورة البقرة [4]. و{ **الشَّهَادَةِ** } هنا مصدر بمعنى المفعول، أي الأشياء المشهودة، وهي الظاهرة المحسوسة. فالمقصود من { الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } تعميم الموجودات.

الكبير: مجاز في العظمة، إذ قد شاع استعمال أسماء الكثرة وألفاظ الكبر في العظمة تشبيها للمعقول بالمحسوس وشاع ذلك حتّى صار كالحقيقة.

المتعالي: المترفّع. وصيغت الصفة بصيغة التفاعل للدلالة على أنّ العلو صفة ذاتيّة له لا من غيره، أي الرفيع رفعة واجبة له عقلا. والمراد بالرفعة هنا المجاز عن العزّة التّامة بحيث لا يستطيع موجود أن يغلبه

أو يكرهه، أو المنزه عن النقائص كقوله عزّ وجلّ { تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [النحل: 3].
{ **الْمُتَعَالِ** } حذف الياء لمراعاة الفواصل الساكنة.

{ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ } [10]

استئناف بياني لأنّ مضمونها بمنزلة النتيجة لعموم علم الله تعالى بالخفيّات والظواهر. وعدل عن الغيبة المتّبعة في الضمائر فيما تقدّم إلى الخطاب هنا، لأنّه تعليم يصلح للمؤمنين والكافرين.

وفي الآية تعريض بالتهديد للمشركين المتآمرين على النبيء ﷺ.

{ سَوَاءٌ } اسم بمعنى مستو. وإنّما يقع معناه بين شيئين فصاعدا. واستعمل سواء في الكلام ملازما حالة واحدة فيقال: هما سواء وهم سواء، قال تعالى { فأنتم فيه سواء }.

الاستخفاء: هنا الخفاء. فالسين والتاء للمبالغة في الفعل.

السارب: اسم فاعل من سرب إذا **ذهب في السَرْب** (بفتح السين وسكون الراء) وهو الطريق. وهذا من الأفعال المشتقّة من الأسماء الجامدة. وذكر الاستخفاء مع الليل لكونه أشدّ خفاء. وذكر السروب مع النهار لكونه أشد ظهورا. والمعنى: أنّ هذين الصنفين سواء لدى علم الله تعالى.

{ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ } [11]

{ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ }

متّصلة بقوله {مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ }. أي لكلّ من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار معقّبات يحفظونه من غوائل تلك الأوقات.

{ **مُعَقِّبَاتٌ** } جمع معقّبة (بفتح العين وتشديد القاف مكسورة) اسم فاعل عقبه إذا تبعه. وصيغة التفعيل فيه للمبالغة في العقب. يقال: عقبه إذا اتبعه واشتقاقه من العقب (بفتح فكسر) وهو اسم لمؤخّر الرجل فهو فعل مشتق من الاسم الجامد لأنّ الذي يتبع غيره كأنّه يطأ على عقبه، والمراد: **ملائكة معقّبات**. والواحد معقّب. وإنّما جمع مؤنث بتأويل الجماعات.

الحفظ: المراقبة، ومنه سمي الرقيب حفيظا، والمعنى: يراقبون كلّ أحد في أحواله من إسرار وإعلان، وسكون وحركة، قال تعالى { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ } [الانفطار:10].

{ **مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ** } مستعمل في معنى الإحاطة من الجهات كلّها.

{ **مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** } صفة {مُعَقِّبَاتٌ} ، أي جماعات من جند الله وأمره.

{ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ

وَالٍ }

جملة معترضة بين الجمل المتقدّمة المسوقة للاستدلال على عظيم قدرة الله تعالى وعلمه بمصنوعاته وبين التذكير بقوّة قدرته وبين جملة { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً}، والمقصود تحذيرهم من الإصرار على الشرك بتحذيرهم من حلول العقاب في الدنيا في مقابلة استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة، ذلك أنّهم كانوا في نعمة من العيش فبطروا النعمة وقابلوا دعوة الرسول ﷺ بالهزء وعاملوا المؤمنين بالتحقير، فذكّرهم الله بنعمته عليهم ونبههم إلى أنّ زوالها لا يكون إلّا بسبب أعمالهم السيئة.

التغيير: التبديل بالمغاير، فلا جرم أنّه تهديد لأولي النعمة من المشركين بأنّهم قد تعرّضوا لتغييرها، أي حالة نعمة، لأنّها محلّ التحذير من التغيير.

{ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ } تصريح بمفهوم الغاية المستفاد من { حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } تأكيدا للتحذير، لأنّ المقام، لكونه مقام خوف ووجل، يقتضي التصريح دون التعريض ولا ما يقرب منه، أي إذا أراد الله أن يغيّر ما بقوم حين يغيّرون ما بأنفسهم لا يرد إرادته شيء. وذلك تحذير من الغرور.

{ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ } زيادة في التحذير من الغرور لئلّا يحسبوا أنّ أصنامهم شفعاؤهم عند الله.

الوالي: الذي يلي أمر أحد، أي يشتغل بأمره اشتغال تدبير ونفع، مشتق من ولي إذا قرب.

{ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ [12] وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ } [13].

استئناف ابتدائي على أسلوب تعداد الحجج الواحدة تلوى الأخرى، فلأجل أسلوب التعداد، إذ كان كالتكرير، لم يعطف. وقد أعرب هذا عن مظهر من مظاهر قدرة الله وعجيب صنعه. وفيه من المناسبة للإنذار أنّه مثال لتصرّف الله بالإنعام والانتقام في تصرّف واحد مع تذكيرهم بالنعمة التي هم فيها. وكل ذلك مناسب لمقاصد الآيات الماضية، فكانت هذه الجملة جديرة بالاستقلال وأن يجاء بها مستأنفة لتكون مستقلة في عداد الجمل المستقلّة الواردة في غرض السورة.

وجاء هنا بطريق الخطاب على أسلوب قوله { سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ }، لأنّ الخوف والطمع يصدران من المؤمنين ويهدّد بهما الكفرة.

وافتتحت الجملة بضمير الجلالة دون اسم الجلالة المفتتح به في الجمل السابقة، فجاءت على أسلوب مختلف. وأحسب أنّ ذلك مراعاة لكون هاته الجملة مفرّعة عن أغراض الجمل السابقة، فإنّ جمل فواتح الأغراض افتتحت بالاسم العلم كقوله {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ} [2] وقوله {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى} [8]

وقوله {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ} [11]، وجمل التفاريع افتتحت بالضمائر كقوله { يدبر الأمر } وقوله { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ} [3].

{ **خَوْفاً وَطَمَعاً** } مصدران بمعنى التخويف والإطماع، فهما في محل المفعول لأجله لظهور المراد.

وجعل البرق آية نذارة وبشارة معا لأنّهم كانوا يَسِمون البرق فيتوسّمون الغيث وكانوا يخشون صواعقه.

إنشاء السحاب: تكوينه من عدم بإثارة الأبخرة التي تتجمّع سحابا.

السحاب: اسم جمع لسحابة. و**الثقال:** جمع ثقيلة. والسحاب يكون ثقيلا بمقدار ما فيه من البخار. وعلامة ثقله قربه من الأرض وبطء تنقّله بالرياح. والخفيف منه يُسمّى جهاما.

{ **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ** } مجاز عقلي. ولك أن تجعله استعارة مكنية بأن شبّه الرعد بآدمي يسبح الله تعالى. ولمّا كان الرعد صوتا عظيما جعل ذكره عبرة للسامعين لدلالة الرعد بلوازم عقلية على أن الله منزّه عما يقوله المشركون من ادعاء الشركاء، وكان شان تلك الدلالة أن تبعث الناظر فيها على تنزيه الله عن الشريك جعل صوت الرعد دليلا على تنزيه الله تعالى.

{ **بِحَمْدِهِ** } الباء للملابسة، أي ينزّه الله تنزيها ملابسا لحمده من حيث إنّه دال على اقتراب نزول الغيث وهو نعمة تستوجب الحمد. فالقول في ملابسة الرعد للحمد مساو للقول في إسناد التسبيح إلى الرعد. فالملابسة مجازية عقلية أو استعارة مكنية.

{ **وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ** } عطف على الرعد، أي وتسبّح الملائكة من خيفته، أي من خوف الله، أي الخوف ممّا لا يرضى به، وهو التقصير في تنزيهه.

وهذا اعتراض بين تعداد المواعظ لمناسبة التعريض بالمشركين، أي أنّ التنزيه الذي دلّت عليه آيات الجو يقوم به الملائكة، فالله غني عن تنزيهكم إيّاه، كقوله { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ } [الزمر:7].

{ **وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ** } اقتصر في العبرة بالصواعق على الإنذار بها لأنّها لا نعمة فيها لأنّ النعمة حاصلة بالسحاب وأمّا الرعد فآلة من آلات التخويف والإنذار، كما قال في قوله { أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ } [البقرة: 19].

وكان العرب يخافون الصواعق. ولقّبوا خويلد بن نفيل الصعق لأنّه أصابته صاعقة أحرقته.

ومن هذا القبيل قول النبيء ﷺ أنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوّف الله بهما عباده، أي بكسوفهما، فاقتصر في آيتهما على الإنذار إذ لا يترقّب الناس من كسوفهما نفعا.

{ **وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ** } في موضع الحال لأنّه من متمّمات التعجّب، فضمائر الغيبة كلّها عائدة إلى الكفار الذين تقدّم ذكرهم في صدر السورة، وقد أعيد الأسلوب هنا إلى ضمائر الغيبة لانقضاء الكلام على ما يصلح لموعظة المؤمنين والكافرين فتمحّض تخويف الكافرين.

المجادلة: المخاصمة والمراجعة بالقول. وتقدّم في قوله تعالى { وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ } [النساء:107]. وقد فهم أن مفعول { يُجَادِلُونَ } هو النبيء ﷺ والمسلمون. فالتقدير: يجادلونك أو يجادلونكم.

{ **فِي اللَّهِ** } تعليق اسم الجلالة المجرور بفعل { يُجَادِلُونَ } يتعيّن أن يكون على تقدير مضاف تدلّ عليه القرينة، أي في توحيد الله أو في قدرته على البعث.

المِحال: (بكسر الميم) يحتمل هنا معنيين:

لأنّه إن كانت الميم فيه أصليّة فهو فِعال بمعنى الكيد وفعله مَحَل، ومنه قولهم تمحّل إذا تحيّل. أي جعل جدالهم في الله جدال كيد، لأنّهم يبرزونه في صورة الاستفهام في نحو قولهم {مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} فقوبل بـ {شَدِيدُ الْمِحَالِ} على طريقة المشاكلة، أي وهو شديد المحال لا يغلبونه، ونظيره { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [آل عمران: 54].

وإن كانت الميم زائدة فهو مفعل من الحول بمعنى القوّة، وعلى هذا فإبدال الواو ألفا على غير قياس لأنّه لا موجب للقلب لأن ما قبل الواو ساكن سكونا حيا، فلعلهم قلبوها ألفا للتفرقة بينه وبين محول بمعنى صبي ذي حول، أي سنة.

وقال نفطويه: هو من ماحل عن أمره، أي جادل. والمعنى: وهو شديد المجادلة، أي **قويّ الحجّة**.

{ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ } [14]

استئناف ابتدائي بمنزلة النتيجة ونهوض المدلّل عليه بالآيات السالفة التي هي براهين الانفراد بالخلق الأوّل، ثم الخلق الثاني، وبالقدرة التّامة التي لا تدانيها قدرة قدير، وبالعلم العام، فلا جرم أن يكون صاحب تلك الصفات هو المعبود بالحق وأن عبادة غيره ضلال.

الدعوة: طلب الإقبال، وكثر إطلاقها على طلب الإقبال للنجدة أو للبذل، وذلك متعيّن فيها إذا أطلقت في جانب الله لاستحالة الإقبال الحقيقي، فالمراد طلب الإغاثة أو النعمة.

{ **دَعْوَةُ الْحَقِّ** } إمّا من إضافة الموصوف إلى الصفّة إن كان الحقّ بمعنى مصادفة الواقع، أي الدعوة التي تصادف الواقع، أي استحقاقه إياها، وإمّا من إضافة الشيء إلى منشئه، أي الدعوة الصادرة عن حقّ وهو ضد الباطل، فإن دعاء الله يصدر عن اعتقاد الوحدانية وهو الحقّ، وعبادة الأصنام تصدر عن اعتقاد الشرك وهو الباطل. والمقصود بيان عدم استحقاق الأصنام أن يدعوها الداعون. واسم الموصول صادق على الأصنام. وضمير {يَدْعُونَ} للمشركين.

الاستجابة: إجابة نداء المنادي ودعوة الداعي، فالسين والتاء لقوّة الفعل.

{ **بِشَيْءٍ** } لما أريد هنا نفي إجداء دعائهم الأصنام جعل نفي الإجابة متعديا بالباء إلى انتفاء أقل ما يجيب به المسؤول وهو الواعد بالعطاء أو الاعتذار عنه، فهم عاجزون عن ذلك وأعجز عمّا فوقه. والتنكير للتحقير.

{ **إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ** } الاستثناء من عموم أحوال الداعين والمستجيبين والدعوة والاستجابة، لأنّه تشبيه هيئة فهو يسري إلى جميع أجزائها فلك أن تقدّر الكلام: إلّا كداع باسط أو إلّا كحال باسط. والمعنى: لا يستجيبونهم في حال من أحوال الدعاء. وهذا الاستثناء من تأكيد الشيء بما يشبه ضده فيؤول إلى نفي الاستجابة في سائر الأحوال بطريق التمليح والكناية.

{ **كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ** } من يغترف ماء بكفين مبسوطتين غير مقبوضتين إذ الماء لا يستقر فيهما. وهذا كما يقال: هو كالقابض على الماء، في تمثيل إضاعة المطلوب.

والكلام تمثيليّة. شبه حال المشركين في دعائهم الأصنام وجلب نفعهم وعدم استجابة الأصنام لهم بشيء بحال الظمآن يبسط كفيه يبتغي أن يرتفع الماء في كفيه المبسوطتين إلى فمه ليرويه وما هو ببالغ إلى فمه بذلك الطلب فيذهب سعيه وتعبه باطلا.

{ **وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** } عطف على جملة {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ} لاستيعاب حال المدعو وحال الداعي. فبيّنت الجملة السابقة حال عجز المدعوّ عن الإجابة وأعقبت بالتمثيل المشتمل على كناية وتمليح. واشتمل ذلك أيضا بالكناية على خيبة الداعي. وبيّنت هذه الجملة الثانية حال خيبة الداعي بالتصريح عقب تبيينه بالكناية. فباختلاف الغرض والأسلوب حَسُن العطف، وبالمآل حصل توكيد الجملة الأولى وتقريرها وكانت الثانية كالفذلكة لتفصيل الجملة الأولى.

الضلال: التلف والضياع. و{ **فِي** } للظرفية المجازية للدلالة على التمكّن في الوصف، أي إلّا ضائع ضياعا شديدا.

{ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ }[15]

عدل عن ضمير الجلالة إلى اسمه تعالى العلم تبعا للأسلوب السابق في افتتاح الأغراض الأصليّة.

{ **مَنْ** } تفيد عموم عرفي يراد به الكثرة الكاثرة.

{ **طَوْعاً وَكَرْهاً** } المقصود تقسيم أحوال الساجدين. والمراد بالطوع الانسياق من النفس تقرّبا وزلفى لمحض التعظيم ومحبة الله. وبالكره الاضطرار عند الشدّة والحاجة كما في قوله تعالى { ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ } [النحل: 53]. وليس المراد من الكره الضغط والإلجاء كما فسّر به بعضهم فهو بعيد عن الغرض كما سيأتي.

الظلال: جمع ظلّ، وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور. والضمير راجع إلى { مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} مخصوص بالصالح له من الأجسام الكثيفة ذات الظل تخصيصا بالعقل والعادة. أي يسجد من في السماوات

والأرض وتسجد ظِلالهم.

الغدوّ: الزمان الذي يغدو فيه النّاس، أي يخرجون إلى حوائجهم. إمّا مصدرا على تقدير مضاف. أي وقت الغدو، وإما جمع غدوة، فقد حكي جمعها على غدوّ، وتقدّم آخر سورة الأعراف.

الآصال: جمع أصيل، وهو وقت الشمس في آخر المساء. والمقصود من ذكرهما استيعاب أجزاء أزمنة الظل.

ومعنى سجود الظلال أن الله خلقها من أعراض الأجسام الأرضية، فهي مرتبطة بنظام انعكاس أشعة الشمس عليها وانتهاء الأشعة إلى صلابة وجه الأرض حتّى تكون الظلال واقعة على الأرض وقوع الساجد.

والغرض من هذا الاستدلال الرمزي التنبيه لدقائق الصنع الإلهي، كيف جاء على نظام مطّرد دال بعضه على بعض، كما قيل: وفي كل شيء له آية تدلّ ... على أنه الواحد

وهذه الآية موضع سجود من سجود القرآن، وهي السجدة الثانية في ترتيب المصحف باتفاق الفقهاء. ومن حكمة السجود عند قراءتها أن يضع المسلم نفسه في عداد ما يسجد لله طوعا بإيقاعه السجود. وهذا اعتراف فعلي بالعبودية لله تعالى.

{ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } [16]

{ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرّاً }

لمّا نهضت الأدلة الصريحة بمظاهر الموجودات المتنوّعة على انفراده بالإلهيّة من قوله { الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها } [2] وقوله { وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ } [3] وقوله { اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى } [8] وقوله { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ } [12]، وبما فيها من دلالة رمزيّة دقيقة من قوله { لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ }[14] وقوله { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ } [15] إلى آخرها، لا جرم تهيّأ المقام لتقرير المشركين تقريرا لا يجدون معه عن الإقرار مندوحة، ثم لتقريعهم على الإشراك تقريعا لا يسعهم إلّا تجرّع مرارته، لذلك استؤنف الكلام وافتتح بالأمر بالقول تنويها بوضوح الحجّة.

ولكون الاستفهام غير حقيقي جاء جوابه من قبل المستفهِم. وهذا كثير في القرآن وهو من بديع أساليبه. فالاستفهام تقرير وتوبيخ وتسفيه لرأيهم بناء على الإقرار المسلّم. وفيه استدلال آخر على عدم أهليّة أصنامهم للإلهية، فإنّ اتّخاذهم أولياء من دونه معلوم لا يحتاج إلى الاستفهام عنه.

{ لا يَمْلِكُونَ } صفة لـ { أَوْلِيَاءَ }. والمقصود منها تنبيه السامعين للنظر في تلك الصفة فإنّهم إن تدبّروا

علموها وعلموا أنّ من كانت تلك صفته فليس بأهل لأن يعبد. ومعنى الملك هنا القدرة كما في قوله { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً} [المائدة: 76]. وفي الحديث: " أوَ أمْلِك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ".

{ **نَفْعاً وَلا ضَرّاً** } عطف الضرّ على النفع استقصاء في عجزهم.

{ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ** }

إعادة الأمر بالقول للاهتمام الخاص بهذا الكلام، لأنّ ما قبله إبطال لاستحقاق آلهتهم العبادة. وهذا إظهار لمزيّة المؤمنين بالله على أهل الشرك، ذلك أنّ قوله { قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ } تضمّن أنّ الرسول ﷺ دعا إلى إفراد الله بالربوبيّة وأنّ المخاطبين أثبتوا الربوبيّة للأصنام فكان حالهم وحاله كحال الأعمى والبصير وحال الظلمات والنور.

ونفي التسوية بين الحالين يتضمّن تشبيها بالحالين وهذا من صيغ التشبيه البليغ. و{ أَمْ } للإضراب الانتقالي في التشبيه، فهي لتشبيه آخر بمنزلة (أو).

{ **الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ** } جمع الظلمات وإفراد النور تقدّم عند قوله تعالى { وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } [الأنعام:1].

واختير التشبيه في المتقابلات العمى والبصر، والظلمة والنور، لتمام المناسبة لأنّ حال المشركين أصحاب العمى كحال الظلمة في انعدام إدراك المبصرات، وحال المؤمنين كحال البصر في العلم وكحال النور في الإفاضة والإرشاد.

{ **أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** }.

{ **أَمْ** } للإضراب الانتقالي في الاستفهام، فالكلام بعدها استفهام حذفت أداته لدلالة (أم) عليها. والتقدير: أم جعلوا لله شركاء. والتفت عن الخطاب إلى الغيبة إعراضا عنهم لما مضى من ذكر ضلالهم.

والاستفهام مستعمل في التهكّم والتغليط. فالمعنى: لو جعلوا لله شركاء يخلقون كما يخلق الله لكانت لهم شبهة في الاغترار واتّخاذهم آلهة، أي فلا عذر لهم في عبادتهم.

{ **كَخَلْقِهِ** } في معنى المفعول المطلق، أي خلقوا خلقا مثل ما خلق الله. والخلق في الموضعين مصدر.

{ **فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ** } التقدير: فتشابه خلقهم عليهم. والوصفان هما مصبّ التهكّم والتغليط.

{ **قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** } فذلكة لما تقدّم ونتيجة له، فإنّه لمّا جاء الاستفهام التوبيخي في { قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ } وفي { أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ } كان بحيث ينتج أنّ أولئك الذين اتخذوهم شركاء والذين تبيّن قصورهم عن أن يملكوا لأنفسهم نفعا أوضرّا، وأنهم لا يخلقون كخلق الله، إن هم إلّا مخلوقات لله تعالى، وأنّ الله خالق كل شيء، وأنّ الله هو المتوحّد بالخلق، القهّار لكلّ شيء دونه.

القهر: الغلبة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } [الأنعام:18].

{ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ } [17]

استئناف ابتدائي أفاد تسجيل حرمان المشركين من الانتفاع بدلائل الاهتداء. وجيء في هذا التسجيل بطريقة ضرب المثل بحالي فريقين في تلقي شيء واحد انتفع فريق بما فيه من منافع وتعلّق فريق بما فيه من مضار. وجيء في ذلك التمثيل بحالة فيها دلالة على بديع تصرف الله تعالى ليحصل التخلّص من ذكر دلائل القدرة إلى ذكر عبر الموعظة.

شبّه إنزال القرآن الذي به الهدى من السماء بإنزال الماء الذي به النفع والحياة. وشبه ورود القرآن على أسماع النّاس بالسيل يمرّ على مختلف الجهات فهو يمرّ على التلال والجبال فلا يستقرّ فيها ولكنه يمضي إلى الأودية والوهاد فيأخذ منه كلّ بقدر سعته. وتلك السيول في حال نزولها تحمل في أعاليها زبدا، وهو رغوة الماء التي تربو وتطفو على سطح الماء، فيذهب الزبد غير منتفع به ويبقى الماء الخالص الصافي ينتفع به النّاس للشراب والسقي.

ثم شبهت هيئة نزول الآيات وما تحتوي عليه من إيقاظ النظر فيها فينتفع به من دخل الإيمان قلوبهم على مقادير قوّة إيمانهم وعملهم، ويمرّ على قلوب قوم لا يشعرون به، وهم المنكرون المعرضون، ويخالط قلوب قوم فيتأملونه فيأخذون منه ما يثير لهم شبهات وإلحادا، كقوله تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} [آل عمران: 7]. شبه ذلك كلّه بهيئة نزول الماء فانحداره على الجبال والتلال وسيلانه في الأودية على اختلاف مقاديرها، ثم ما يدفع من نفسه زبدا لا ينتفع به ثم لم يلبث الزبد أن ذهب وفني والماء بقي في الأرض للنفع.

وعلى نحو هذا التمثيل وتفسيره جاء ما يبيّنه من التمثيل الذي في قول النبيء ﷺ: " مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقيّة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها النّاس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنّما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ".

الأودية: جمع الوادي، وهو الحفير المتّسع الممتد من الأرض الذي يجري فيه السيل.

القَدَر (بفتحتين): التقدير، فقوله: {بِقَدَرِهَا} في موضع الحال من {أَوْدِيَةٌ} ، وذكره لأنّه من مواضع العبرة، وهو أن كانت أخاديد الأودية على قدر ما تحتمله من السيول بحيث لا تفيض عليها، وهو غالب أحوال

الأودية. وهذا الحال مقصود في التمثيل لأنّه حال انصراف الماء لنفع لا ضرّ معه، لأنّ من السيول جواحف تجرف الزرع والبيوت والأنعام.

وأيضا هو دال على تفاوت الأودية في مقادير المياه. ولذلك حظّ من التشبيه، وهو اختلاف النّاس في قابلية الانتفاع بما نزل من عند الله كاختلاف الأودية في قبول الماء على حسب ما يسيل إليها من مصاب السيول.

{ **وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ** } معترضة بين جملة { فَاحْتَمَلَ } وجملة {فَأَمَّا الزَّبَدُ}. وهذا تمثيل آخر ورد استطرادا عقب ذكر نظيره يفيد تقريب التمثيل لقوم لم يشاهدوا سيول الأودية من سكان القرى مثل أهل مكّة وهم المقصود، فقد كان لهم في مكة صوّاغون، فقرّب إليهم تمثيل عدم انتفاعهم بما انتفع به غيرهم بمثل ما يُصهر من الذهب والفضة في البواتق فإنه يقذف زبدا ينتفي عنه، وهو الخبث وهو غير صالح لشيء في حين صلاح معدنه، لاتّخاذه حلية أو متعاعا. وفي الحديث: " كما ينفي الكير خبث الحديد ". فالكلام من قبيل تعدّد التشبيه القريب.

وعدل عن تسمية الذهب والفضّة إلى الموصوليّة بقوله تعالى { وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ } لأنّها أخصر وأجمع. ولأن في العدول عن ذكر اسم الذهب والفضّة إعراضا يؤذن بقلّة الاكتراث بهما، ترفّعا عن ولع النّاس بهما فإن اسميهما قد اقترنا بالتعظيم في عرف النّاس.

الحلية: ما يتحلّى به، أي يتزيّن وهو المصوغ.

المتاع: ما يتمتّع به وينتفع، وذلك المسكوك الذي يتعامل به النّاس من الذهب والفضة.

{ **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ** } معترضة. هي فذلكة التمثيل ببيان الغرض منه، أي مثل هذه الحالة يكون ضرب مثل للحقّ والباطل.

{ **يَضْرِبُ** } يبيّن ويمثّل. وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً } [البقرة:26]. وحذف المضاف لدلالة فعل { يَضْرِبُ } عليه. والتقدير: يضرب الله مثل الحقّ والباطل.

وقد علم أنّ الزبد مثل للباطل وأنّ الماء مثل للحقّ، فارتقى عند ذلك إلى ما في المثلين من صفتي البقاء والزوال ليتوصّل بذلك إلى البشارة والنذارة لأهل الحقّ وأهل الباطل بأنّ الفريق الأول هو الباقي الدائم، وأنّ الفريق الثاني زائل بائد، كقوله { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ} [الأنبياء:105، 106]، فصار التشبيه تعريضا وكناية عن البشارة والنذارة.

{ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ** } معطوفة على { فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً} مفرعة على التمثيل.

{ **فَأَمَّا** } تصدّرت للتوكيد وصرف ذهن السامع إلى الكلام لما فيه من خفي البشارة والنذارة، ولأنّه تمام التمثيل. والتقدير: فذهب الزبد جفاء ومكث ما ينفع النّاس في الأرض.

الجفاء: الطريح المرمي. وهذا وعيد للمشركين بأنّهم سيبيدون بالقتل ويبقى المؤمنون.
{ **مَا يَنْفَعُ النَّاسَ** } عبر به عن الماء للإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو البقاء في الأرض، تعريضا للمشركين بأن يعرضوا أحوالهم على مضمون هذه الصلة ليعلموا أنّهم ليسوا ممن ينفع النّاس، وهذه الصلة موازنة للوصف في قوله تعالى { أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } [الأنبياء:105].
{ **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ** } مستأنفة تذييليّة لما في لفظ { الْأَمْثَالَ } من العموم. فهو أعمّ من جملة { كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ } لدلالتها على صنف من المثل دون جميع أصنافه، فلمّا أعقب بمثل آخر وهو {فأما الزبد فيذهب جفاء } جيء بالتنبيه إلى الفائدة العامة من ضرب الأمثال.
والإشارة للتنويه بذلك المثل وتنبيه الأفهام إلى حكمته وحكمة التمثيل، وما فيه من المواعظ والعبر، وما جمعه من التمثيل والكناية التعريضية، وإلى بلاغة القرآن وإعجازه، وذلك تبهيج للمؤمنين وتحد للمشركين، وليعلم أنّ جملة { فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً } لم يؤت بها لمجرّد تشخيص دقائق القدرة الإلهيّة والصنع البديع بل ولضرب المثل.

{ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ }[18]

زيادة تنبيه للتمثيل وللغرض منه مع ما في ذلك من جزاء الفريقين لأنّ المؤمنين استجابوا لله بما عقلوا الأمثال فجوزوا بالحسنى، وأمّا المشركون فاعرضوا ولم يعقلوا الأمثال، فكان جزاؤهم عذابا عظيما وهو سوء الحساب الذي عاقبته المصير إلى جهنم.
{ **اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ** } استجابوا لدعوته بما تضمنه المثل السابق وغيره.
{ **لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا / وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ** } في العدول إلى الموصولين وصلتيهما إيماء إلى أنّ الصلتين سببان لما حصل للفريقين. وتقديم المسند في قوله { لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى} لأنّه الأهم، لأنّ الغرض التنويه بشان الذين استجابوا مع جعل الحسنى في مرتبة المسند إليه، وفي ذلك تنويه بها أيضا. وأمّا الخبر عن وعيد الذين لم يستجيبوا فقد أجري على أصل نظم الكلام في التقديم والتأخير لقلة الاكتراث بهم.
{ **أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ** } أتي باسم الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة من الخبر بسبب ما قبل اسم الإشارة من الصلة.
{ **سُوءُ الْحِسَابِ** } ما يحفّ بالحساب من إغلاظ وإهانة للمحاسب، وأمّا أصل الحساب فهو حسن لأنّه عدل.

{ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } [19]

تفريع على { لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى } [13]. فالكلام لنفي استواء المؤمن والكافر في صورة الاستفهام تنبيها على غفلة الضالين عن عدم الاستواء، كقوله { أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ} [السجدة: 18].

{ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى } استعير لمن لا يعلم أن القرآن حقّ اسم الأعمى لأنّه انتفى علمه بشيء ظاهر بيّن، فأشبه الأعمى. فالكاف للتشابه مستعمل في التماثل. ولهذه الجملة في المعنى اتصال بقوله في أول السورة { وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ - إلى - لا يُؤْمِنُونَ} [1].

{ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } تعليل للإنكار الذي هو بمعنى الانتفاء، بأنّ سبب عدم علمهم بالحقّ أنّهم ليسوا أهلا للتذكّر، لأنّ التذكّر من شعار أولي الألباب، أي العقول. فهو تعريض بالمشركين بأنّهم لا عقول لهم إذ انتفت عنهم فائدة عقولهم.

{ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ } [20] **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ** [21] **وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ }** [22].

{ الَّذِينَ يُوفُونَ } يجوز أن يكون ابتداء كلام فهو استئناف ابتدائي جاء لمناسبة ما أفادت الجملة التي قبلها من إنكار الاستواء بين فريقين، ولذلك ذكر في هذه الجمل حال فريقين في المحامد والمساوي ليظهر أنّ نفي التسوية بينهما في الجملة السابقة المراد به تفضيل أحد الفريقين على الآخر هو نفي مؤيّد بالحجّة، وبذلك يصير موقع هذه الجملة مفيدا تعليلا لنفي التسوية والتفضيل.

{ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ } اسم الإشارة للتنبيه على أنّ المشار إليهم جديرون بما بعد اسم الإشارة من أجل الأوصاف التي قبله.

وقد ظهر بهذه الجملة كلّها وبموقعها تفضيل الذين يعلمون أنّ ما أنزل حقّ، بما لهم من صفات الكمال الموجبة للفضل في الدنيا وحسن المصير في الآخرة، وبما لأضدادهم من ضد ذلك في قوله { وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ - إلى قوله - وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [25].

الوفاء بالعهد: أنّ يحقّق المرء ما عاهد على أن يعمله. ومعنى **العهد**: الوعد الموثّق بإظهار العزم على تحقيقه من يمين أو تأكيد.

{ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ } المراد به الإيمان الذي أخذه الله على الخلق المشار إليه بقوله { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى } [الأعراف:172]، وأيضا بقوله

تعالى { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي } [يس:60-61]، وذلك عهد الله لهم بأن يعبدوه ولا يعبدوا غيره. لأنّه بذلك العهد قد أودع الله في فطرة العقول السليمة دلائل الوحدانيّة لمن تأمّل وأسلم للدليل، ولكن المشركين أعرضوا وكابروا ذلك العهد القائم في الفطرة، فلا جرم أن كان الإشراك إبطالا للعهد ونقضا له، ولذلك عطفت { وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ } على { يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ }.

{ **الْمِيثَاقَ** } تعريف الجنس فيستغرق جميع المواثيق وبذلك يكون أعمّ من عهد الله فيشمل المواثيق الحاصلة بين النّاس من عهود وأيمان. وباعتبار هذا العموم حصلت مغايرة ما بينه وبين عهد الله. وتلك هي مسوّغة العطف.

والميثاق والعهد مترادفان. والإيفاء ونفي النقض متحدا المعنى. وابتدئ من الصفات بهذه الخصلة لأنّها تنبئ عن الإيمان والإيمان أصل الخيرات وطريقها. وهذه الصلات صفات لأولي الألباب فعطفها من باب عطف الصفات للموصوف الاحد، وليس من عطف الأصناف.

{ **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ** } ما يصدق على الفريق الذين يوفون بعهد الله. ومناسبة عطفه أنّ وصل ما أمر الله به أن يوصل أثر من آثار الوفاء بعهد الله وهو عهد الطاعة.

الوصل: ضمّ شيء لشيء، وضده القطع. ويطلق مجازا على القرب وضده الهجر. واشتهر مجازا أيضا في الإحسان والإكرام ومنه قولهم، صلة الرحم، أي الإحسان لأجل الرحم.

{ **مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ** } عام في جميع الأواصر والعلائق التي أمر الله بالمودة والإحسان لأصحابها، فمنها آصرة الإيمان، ومنها آصرة القرابة وهي صلة الرحم. وقد اتفق المفسّرون على أنها مراد الله هنا، وقد تقدم مثله عند قوله تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} [البقرة:26، 27].

وإنما أطنب في التعبير عنها بطريقة اسم الموصول { مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ } لما في الصلة من التعريض بأنّ واصلها آت بما يرضي الله، لينتقل من ذلك إلى التعريض بالمشركين الذين قطعوا أواصر القرابة بينهم وبين رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين، وأساءوا إليهم في كلّ حال وكتبوا صحيفة القطعية مع بني هاشم. وفيها الثناء على المؤمنين بأنّهم يصلون الأرحام ولم يقطعوا أرحام قومهم المشركين إلّا عندما حاربوهم وناوؤهم.

الخشية: خوف بتعظيم المخوف منه. وتطلق أيضا على مطلق الخوف.

الخوف: ظنّ وقوع المضرّة من شيء. وتقدّم في قوله { إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ } [البقرة :229].

{ **سُوءَ الْحِسَابِ** } ما يحفّ به مما يسوء المحاسب، وقد تقدّم آنفا.

{ **الَّذِينَ يُوفُونَ / وَالَّذِينَ يَصِلُونَ**} جاءت الصلات وما عطف عليهما بصيغة المضارع في تلك الأفعال الخمسة لإفادة التجدّد كناية عن الاستمرار.

{ **وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً** } جاءت الصلة وما عطف عليها بصيغة الماضي لإفادة تحقّق هذه الأفعال الثلاثة لهم وتمكّنها من أنفسهم، تنويها بها لأنّها أصول لفضائل الأعمال.

فأمّا **الصبر**، فلأنّه ملاك استقامة الأعمال ومصدرها فإذا تخلّق به المؤمن صدرت عنه الحسنات والفضائل بسهولة، ولذلك قال تعالى { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } [العصر:2 - 3].

وأمّا **الصلاة** فلأنّها عماد الدين وفيها ما في الصبر من الخاصيّة، لقوله تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ} [البقرة: 45].

وأمّا **الإنفاق** فأصله الزكاة، وهي مقارنة للصلاة كلمّا ذكرت، ولها الحظ الأوفى من اعتناء الدين بها. ومنها النفقات والعطايا كلها، وهي أهم الأعمال، لأنّ بذل المال يشقّ على النفوس، فكان له من الأهمية ما جعله ثانيا للصلاة.

{ **ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ** } مفعول لأجله لـ { صَبَرُوا }. **والابتغاء**: الطلب. ومعنى ابتغاء وجه الله ابتغاء رضاه كأنّه فعل فعلا يطلب به إقباله عند لقائه. وتقدّم في قوله { وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ } [البقرة :272]. والمعنى أنّهم صبروا لأجل أنّ الصبر مأمور به من الله لا لغرض آخر كالرياء.

السر والعلانيّة: تقدّم ذكرهما في قوله { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً } [البقرة:274].

{ **وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ** } ثم أعيد أسلوب التعبير بالمضارع في المعطوف على الصلة لاقتضاء المقام إفادة التجدّد، إيماء إلى أنّ تجدّد هذا الدرء مما يُحرص عليه لأنّ النّاس عرضة للسيئات على تفاوت، فوصف لهم دواء ذلك بأن يدفعوا السّيّئات بالحسنات.

الدرء: الدفع والطرد. وهو هنا مستعار لإزالة أثر الشيء فيكون بعد حصول المدفوع وقبل حصوله بأن يعدّ ما يمنع حصوله. فيصدق ذلك بأن يتبع السيّئة إذا صدرت منه بفعل الحسنات فإن ذلك كطرد السيئة. قال النبيء ﷺ: " يا معاذ اتق الله حيث كنت وأتبع السيّئة الحسنة تمحها ". وخاصة فيما بينه وبين ربه.

ويصدق بان لا يقابل من فعل معه سيئة بمثلها بل يقابل ذلك بالإحسان، قال تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت: 34] وذلك بأن يصل من قطعه ويعطي من حرمه ويعفو عمن ظلمه. وذلك فيما بين الأفراد، وكذلك بين الجماعات إذا لم يفض إلى استمرار الضرّ. قال تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } [الأنفال: 3]. ويصدق بالعدول عن فعل السيّئة بعد العزم فإنّ ذلك

العدول حسنة درأت السيئة المعزوم عليها. قال النبيء ﷺ : " من همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له حسنة ".
فقد جمع { يَدْرَأُونَ } جميع هذه المعاني، ولهذا لم يعقّب بما يقتضي أن المراد معاملة المسيء بالإحسان كما أتبع في قوله { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [فصلت 34]. وكما في قوله { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ } [المؤمنون:96].
{ **أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**} خبر عن { الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ }. ودلّ اسم الإشارة على أنّ المشار إليهم جديرون بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة لأجل ما وصف به المشار إليهم من الأوصاف.
العقبى: العاقبة. وهي الشيء الذي يعقب، أي يقع عقب شيء آخر. وقد اشتهر استعمالها في آخرة الخير، قال تعالى { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [القصص:83]. وأمّا قوله { وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ } [35] فهو مشاكلة كما سيأتي في آخر السورة. وانظر ما ذكرته في تفسير قوله تعالى { وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ } [القصص:37] فقد زدته بيانا.

{ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ [23] سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ } [24]

{ **جَنَّاتِ عَدْنٍ** } بدل من {عُقْبَى الدَّارِ}. و**العدن**: الاستقرار. وتقدّم في قوله { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ } [براءة :72].
{ **يَدْخُلُونَهَا** } لاستحضار الحالة البهيجة. والجملة حال من {جَنَّاتِ} أو من ضمير {لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ}.
{ **وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ** } واو المعيّة وذلك زيادة الإكرام بأن جعل أصولهم وفروعهم وأزواجهم المتأهّلين لدخول الجنّة لصلاحهم في الدرجة التي هم فيها، فمن كانت مرتبته دون مراتبهم لحق بهم، ومن كانت مرتبته فوق مراتبهم لحقوا هم به، فلهم الفضل في الحالين. وهذا كعكسه في قوله تعالى { احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ } [الصافات: 22]، لأنّ مشاهدة عذاب الأقارب عذاب مضاعف.
وفي هذه الآية بشرى لمن كان له سلف صالح أو خلف صالح أو زوج صالح ممن تحقّقت فيهم هذه الصلات أنّه إذا صار إلى الجنّة لحق بصالح أصوله أو فروعه أو زوجه. وما ذكر الله هذا إلّا لهذه البشرى كما في قوله {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الطور:21].
والآباء يشمل الأمّهات على طريقة التغليب كما قالوا: الأبوين.
{ **وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ** } عطف على {يَدْخُلُونَهَا} فهي في موقع الحال. وهذا من كرامتهم والتنويه بهم، فإنّ تردّد رسل الله عليهم مظهر من مظاهر إكرامه. و{ **مِنْ كُلِّ بَابٍ** } كناية عن كثرة غشيان الملائكة إيّاهم.

{ **سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ** } مقول قول محذوف لأنّ هذا لا يكون إلّا كلاما من الداخلين. والتقدير: نالكم هذا التكريم بالسلام بسبب صبركم. ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف مستفاد من المقام، أي هذا النعيم المشاهد بما صبرتم. والمراد: الصبر على مشاق التكاليف وعلى ما جاهدوا بأموالهم وأنفسهم.
{ **فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** } تفريع ثناء على حسن عاقبتهم، والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة مقام الخطاب عليه. والتقدير: فنعم عقبى الدار دار عقباكم. وتقدّم معنى { عُقْبَى الدَّارِ } آنفا.

{ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } [25].

هذا شرح حال أضداد الذين يوفون بعهد الله، وهو ينظر إلى شرح مجمل قوله { كَمَنْ هُوَ أَعْمَى } [19].
نقض العهد: إبطاله وعدم الوفاء به.
{ **مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ** } زيادة في تشنيع النقض، أي من بعد توثيق العهد وتأكيده. وتقدّم نظير هذه الآية عند قوله تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ } [البقرة:26-27].
{ **أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** } خبرعن { والذين ينقضون }، وهي مقابل جملة { أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ }. والبعد عن الرحمة والخزي وإضافة سوء الدار كإضافة عقبى الدار. والسوء ضد العقبى كما تقدم.

{ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ }[26]

هذه الجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا جوابا عمّا يهجس في نفوس السامعين من المؤمنين والكافرين من سماع قوله { أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ } المفيد أنّهم مغضوب عليهم، فأمّا المؤمنون فيقولون: كيف بسط الله الرزق لهم في الدنيا فازدادوا به طغيانا وكفرا، وأمّا الكافرون فيسخرون من الوعيد مزدهين بما لهم من نعمة. فأجيب الفريقان بأنّ الله يشاء بسط الرزق لبعض عباده ونقصه لبعض آخر لحكمة متّصلة بأسباب العيش في الدنيا.
{ **اللَّهُ يَبْسُطُ** } أفاد تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي تقوية للحكم وتأكيدا، لأنّ المقصود أن يعلمه النّاس ولفت العقول إليه على رأي السكّاكي في أمثاله. وليس المقام مقام إفادة الحصر كما درج عليه (الكشّاف).
البسط: مستعار للكثرة وللدوام.
القدر: كناية عن القلّة.
ولما كان المقصود الأول من هذا الكلام تعليم المسلمين كان الكلام موجها إليهم.

{ **وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } جيء في جانب الكافرين بضمير الغيبة إشارة إلى أنّهم أقل من أن يفهموا هذه الدقائق لعنْجهيّة نفوسهم، فهم فرحوا بما لهم في الحياة الدنيا وغفلوا عن الآخرة، فالفرح المذكور فرح بطر وطغيان كما في قوله تعالى { ذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ } [القصص: 76].

{ **وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ** }

والمراد بالحياة الدنيا وبالآخرة نعيمهما بقرينة السياق، فالكلام من إضافة الحكم إلى الذات والمراد أحوالها. أي إذا نسبت أحوال الحياة الدنيا بأحوال الآخرة ظهر أنّ أحوال الدنيا متاع قليل.

المتاع: ما يُتمتع به وينقضي. وتنكيره للتقليل كقوله تعالى{ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ } [آل عمران: 196-197].

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ }[27]

هذه الجملة تكرير لنظيرتها السابقة { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ } [7]. فأعيدت تلك الجملة إعادة الخطيب كلمة من خطبته ليأتي بما بقي عليه في ذلك الغرض بعد أن يفصل بما اقتضى المقام الفصل به ثم يتفرّغ إلى ما تركه من قبل. فإنّه بعد أن بيّنت الآيات السابقة أنّ الله قادر على أن يعجّل لهم العذاب ولكن حكمته اقتضت عدم التنازل ليتحدّى عبيده، فتبيّن ذلك كلّه كمال التبيين. وكلّ ذلك لاحق بقوله { وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [5]، وعود إلى المهمّ من غرض التنويه بآية القرآن ودلالته على صدق الرسول ﷺ، ولهذا أطيل الكلام على هدي القرآن عقب هذه الجملة.

{ **إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ** } موقع الخبر المستعمل في تعجيب الرسول ﷺ من شدّة ضلالهم. وتحت هذا التعجيب معان أخرى:

أحدهما: أنّ آيات صدق النبيء ﷺ واضحة لولا أنّ عقولهم لم تدركها لفساد إدراكهم.

الثاني: أنّ الآيات الواضحة الحسيّة قد جاءت لأمم أخرى فرأوها ولم يؤمنوا. كما قال تعالى { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا } [الإسراء: 59].

الثالث: أنّ لعدم إيمانهم أسبابا خفيّة يعلمها الله قد أبهمت بالتعليق على المشيئة في قوله { يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ } منها ما يومئ إليه قوله في مقابله { وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ }. وذلك أنّهم تكبّروا وأعرضوا حين سمعوا الدعوة إلى التوحيد فلم يتأمّلوا، وقد ألقيت إليهم الأدلة القاطعة فأعرضوا عنها ولو أنابوا وأذعنوا لهداهم الله ولكنهم نفروا.

الإنابة: حقيقتها الرجوع. وأطلقت هنا على الاعتراف بالحقّ عند ظهور دلائله، لأنّ النفس تنفر من الحقّ ابتداء ثم ترجع إليه، فالإنابة هنا ضد النفور.

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [28] الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ }[29]

استئناف اعتراضي مناسبته المضادة لحال الذين أضلّهم الله، والبيان لحال الذين هداهم، مع التنبيه على أنّ مثال الذين ضلّوا هو عدم اطمئنان قلوبهم لذكر الله، وهو القرآن، لأنّ قولهم { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } يتضمّن أنّهم لم يعدّوا القرآن آية من الله. ثم التصريح بجنس عاقبة هؤلاء، والتعريض بضدّ ذلك لأولئك.

الاطمئنان: السكون، واستعير هنا لليقين وعدم الشك، لأنّ الشك يستعار له الاضطراب.

{ **ذكر الله** } يجوز أن يراد به خشية الله ومراقبته بالوقوف عند أمره ونهيه. ويجوز أن يراد به القرآن قال تعالى { وإنّه لذكر لك ولقومك } [الزخرف:44]، وهو المناسب هنا، لقولهم { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } لأنّهم لم يكتفوا بالقرآن آية على صدق الرسول ﷺ. وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى { فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: 22]. والذكر من أسماء القرآن.

ويجوز أن يراد ذكر الله باللسان فإن إجراءه على اللسان ينبّه القلوب إلى مراقبته. وهذا وصف لحسن حال المؤمنين ومقايسته بسوء حالة الكافرين الذين غمر الشك قلوبهم.

{ **تَطْمَئِنُّ** } اختير المضارع في مرّتين لدلالته على تجدّد الاطمئنان واستمراره وأنّه لا يتخلله شكّ ولا تردّد.

{ **أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ** } افتتحت بحرف التنبيه اهتماما بمضمونها. وهي بمنزلة التذييل لما في تعريف { **الْقُلُوبُ** } من التعميم. وفيه إثارة الباقين على الكفر على أن يتّسموا بسمة المؤمنين من التدبّر في القرآن لتطمئن قلوبهم.

طوبى: مصدر من طاب طيبا إذا حسن. وهي بوزن البشرى والزلفى، قلبت ياؤها واوا لمناسبة الضمّة، أي لهم الخير الكامل لأنّهم اطمأنت قلوبهم بالذكر. فهم في طيب حال: في الدنيا بالاطمئنان، وفي الآخرة بالنعيم الدائم، وهو حسن المئاب وهو مرجعهم في آخر أمرهم.

{ **وَحُسْنُ مَآبٍ** } وإطلاق المآب عليه باعتبار أنّه آخر أمرهم وقرارهم، كما أنّ قرار المرء بيته يرجع إليه بعد الانتشار منه. على أنّه يناسب ما تقرر أنّ الأرواح من أمر الله، أي من عالم الملكوت وهو عالم الخلد فمصيرها إلى الخلد رجوع إلى عالمها الأوّل. وهذا مقابل قوله في المشركين { وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ }.

{ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } [30]

هذا جواب عن قولهم { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } لأن الجواب السابق بقوله { قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ}

جواب بالإعراض عن جهالتهم والتعجّب من ضلالهم وما هنا هو الجواب الراد لقولهم.

{ **كَذَلِكَ** } افتتاحها باسم الإشارة تأكيد للمشار إليه وهو التعجّب من ضلالتهم إذ عموا عن صفة الرّسالة.

والمشار إليه: الإرسال المأخوذ من فعل { **أَرْسَلْنَاكَ** } ، أي مثل الإرسال البيّن أرسلناك، فالمشبّه به عين المشبّه.

{ **فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** } إرسال الرسل من قبله إلى أمم يقتضي مرسلين، أي ما كانت رسالتك إلّا مثل رسالة الرّسل من قبلك، كقوله تعالى { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ } [الأحقاف: 9]، لإبطال توهّم المشركين أنّ النبيء ﷺ لمّا لم يأتهم بما سألوه فهو غير مرسل من الله.

{ **فِي أُمَّةٍ** } هي أمة الدعوة { فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ }.

{ **قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ** } تقدّم في سورة آل عمران عند قوله { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ }. ويتضمّن التعريض بالوعيد بمثل مصير الأمم الخالية التي كذّبت رسلها.

{ **لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ** } تضمن لام التعليل أنّ الإرسال لأجل الإرشاد والهداية بما أمر الله، لا لأجل الانتصاب لخوارق العادات.

التلاوة: القراءة. فالمقصود لتقرأ عليهم القرآن.

وفيه إيماء إلى أن القرآن هو معجزته لأنّه ذكره في مقابلة إرسال الرّسل الأوّلين ومقابلة قوله { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } [7]. وقد جاء ذلك صريحا في قوله { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ } [العنكبوت: 51]. وقول النبيء ﷺ: " ما من الأنبياء نبيء إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ ".

{ **وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ** } أي أرسلناك بأوضح الهداية وهم مستمرون على الكفر، فالضمير عائد إلى المشركين المفهومين من المقام لا إلى { أُمَّةٍ } لأنّ الأمّة منها مؤمنون.

والتعبير بالمضارع في { **يَكْفُرُونَ** } للدلالة على تجدّد ذلك واستمراره، ومعنى كفرهم بالله إشراكهم معه غيره في الإلهية، فقد أبطلوا حقيقة الإلهية فكفروا به.

{ **الرَّحْمَنِ** } اختيار هذا الاسم من بين أسمائه تعالى لأنّ كفرهم بهذا الاسم أشد، لأنّهم أنكروا أن يكون الله رحمان، قال تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان:60]، ولأن لهذه الصفة مزيد اختصاص بتكذيبهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - وتأييده بالقرآن لأن القرآن هدى ورحمة للنّاس. وقد أرادوا تعويضه بالخوارق التي لا تكسب هديا بذاتها ولكنها دالة على صدق من جاء بها. فأشارت الآية إلى كفرين من كفرهم: جحد الوحدانية، وجحد اسم الرحمان.

{ **قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ** } لقّن النبيء ﷺ بإبطال كفرهم المحكي إبطالا جامعا بأن

يقول: { **هُوَ رَبِّي** } فضمير {هُوَ} عائد إلى { الرَّحْمَان } باعتبار المسمّى بهذا الاسم، أي المسمّى هو ربي وأنّ الرحمن اسمه.

{ **لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** } إبطال لإشراكهم معه في الإلهية غيره. وهذا ممّا أمر الله نبيّه أن يقوله، فهو احتراس لردّ قولهم: إن محمدا ﷺ يدعوا إلى رب واحد وهو يقول: إنّ ربّه الله وإنّ ربّه الرحمان، فكان قوله إخبار من جانب الله على طريقة الاعتراض.

{ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ** } هي نتيجة لكونه ربّا واحدا. ولكونها كالنتيجة لذلك فصلت عن التي قبلها لما بينها من الاتصال. وتقديم المجرورين {عَلَيْهِ / إِلَيْهِ } لإفادة اختصاص التوكل والمتاب عليه، لأنّه لما توحّد بالربوبيّة كان التوكّل عليه، ولما اتصف بالرحمانية كان المتاب إليه، لأنّ رحمانيّته مظنّة لقبوله توبة عبده.

المتاب: مصدر ميمي على وزن مفعل، أي **التوبة**، يفيد المبالغة لأنّ الأصل في المصادر الميمية أنّها أسماء زمان جعلت كناية عن المصدر، ثم شاع استعمالها حتى صارت كالصريح.

وأصلها (متابي) بإضافة إلى ياء المتكلم فحذفت الياء تخفيفا وأبقيت الكسرة دليلا على المحذوف.

{ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ } [31]

{ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً }

أي لو أنّ كتابا من الكتب السالفة اشتمل على أكثر من الهداية فكانت مصادر لإيجاد العجائب لكان هذا القرآن كذلك، ولكنه ليس كذلك، إذ ليس ذلك من سنن الكتب الإلهيّة.

{ **سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى** } وجه تخصيص هذه الأشياء الثلاثة من بين الخوارق المفروضة ما رواه الواحدي والطبري عن ابن عباس: أنّ كفّار قريش؛ أبا جهل وابن أبي أمية جلسوا خلف الكعبة ثم أرسلوا إلى النبيء ﷺ فقالوا: لو وسّعت لنا جبال مكّة فسيّرتها حتّى تتسع أرضنا فنحترثها فإنّها ضيّقة، أو قرّب إلينا الشام فإنّا نتجر إليها، أو أخرج قُصَيا نكلّمه.

فكان في ذكر هذه الأشياء إشارة إلى تهكّمهم.

{ **قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ** } قطّعت مسافات الأسفار كقوله تعالى {لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ} [الأنعام: 94].

{ **بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً** } عطف على { وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً } بحرف الإضراب. أي ليس ذلك من شأن الكتب بل لله أمر كل محدَث فهو الذي أنزل الكتاب وهو الذي يخلق العجائب إن شاء.

{ **الْأَمْرُ** } التصرّف التكويني.

{ **أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً** } استفهام إنكاري إنكار لانتفاء يأس الذين آمنوا، أي فهم حقيقون بزوال يأسهم، وأن يعلموا أن لو يشاء الله لهدى النّاس جميعا.

{ **يَيْأَسِ** } بمعنى يوقن ويعلم، ولا يستعمل هذا الفعل إلا مع (أَن) المصدريّة، وأصله مشتقّ من اليأس الذي هو تيقّن عدم حصول المطلوب بعد البحث، فاستعمل في مطلق اليقين على طريقة المجاز المرسل، وشاع ذلك حتى صار حقيقة. وقد قيل: إن استعمال يئس بمعنى علم لغة هوازن أو لغة بني وَهْبيل.

ويجوز أن يكون متعلّق {يَيْأَسِ} محذوفا دل عليه المقام. تقديره: من إيمان هؤلاء، ويكون { **أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ** } مجرورا بلام تعليل محذوفة. والتقدير: لأنه لو يشاء الله لهدى الناس، فيكون تعليلا لإنكار عدم يأسهم.

{ **وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** }.

تهديد بالوعيد على تعنّتهم وإصرارهم على عدم الاعتراف بمعجزة القرآن، وتهكّمهم باستعجال العذاب الذي توعّدوا به، فهدّدوا بما سيحل بهم من الخوف بحلول الكتائب والسرايا بهم، تنال الذين حلّت فيهم وتخييف من حولهم حتّى يأتي وعد الله بيوم بدر أو فتح مكّة.

{ **لا يَزَالُ** } في أصلها تدلّ على الإخبار باستمرار شيء واقع، فإذا كانت هذه الآية مكّية تعيّن أن تكون نزلت عند وقوع بعض الحوادث المؤلمة بقريش من جوع أو مرض. فتكون هذه الآية تنبيها لهم بأنّ ذلك عقاب من الله تعالى ووعيد بأنّ ذلك دائم فيهم حتّى يأتي وعد الله. ولعلّها نزلت في مدة إصابتهم بالسنين السبع المشار إليها بقوله { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ } [البقرة: 155].

ومن جعلوا هذه السورة مدنية فتأويل الآية عندهم أنّ القارعة السريّة من سرايا المسلمين التي تخرج لتهديد قريش ومن حولهم. وهو لا ملجئ إليه.

القارعة: في الأصل وصف من القرع. وهو ضرب جسم بجسم آخر. يقال: قرع الباب إذا ضربه بيده بحلقة. ولما كان القرع يحدث صوتا مباغتا يكون مزعجا لأجل تلك البغتة صار القرع مجازا للمباغتة والمفاجأة، ومثله الطرق، وصاغوا من هذا الوصف صيغة تأنيث، وهو ما يؤوّل بالحادثة أو النازلة، كما قالوا: داهية وكارثة. أي نازلة موصوفة بالإزعاج. ومنه تسمية ساعة البعث بالقارعة. والمراد هنا **الحادثة المفجعة** بقرينة إسناد الإصابة إليها. وهي مثل الغارة والكارثة تحلّ فيهم فتصيبهم عذابا، أو تقع بالقرب منهم فيصيبهم الخوف من تجاوزها إليهم.

{ **بِمَا صَنَعُوا** } بسبب فعلهم وهو كفرهم وسوء معاملتهم نبيئَهم، وأتى في ذلك بالموصول لأنّه أشمل لأعمالهم.

{ **أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ** } ضمير { تَحُلُّ } عائد إلى { قَارِعَةٌ } فيكون ترديدا لحالهم بين إصابة القوارع إيّاهم وبين حلول القوارع قريبا من أرضهم فهم في رعب منها وفزع.

تحُل: (بضم الحاء) مضارع حل اللازم.

{ **حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ** } من إطلاق المصدر على المفعول، أي موعود الله، وهو ما توعّدهم به من العذاب، فأشارت الآية إلى استئصالهم، لأنّها ذكرت الغلب ودخول جهنّم، فكان المعنى أنّه غلب القتل بسيوف المسلمين، وهو البطشة الكبرى. ومن ذلك يوم بدر ويوم حنين ويوم الفتح.

{ **إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** } تذييل، إيذانا بأنّ إتيان الوعد المُغيّا به محقّق، وأنّ الغاية به غاية بأمر قريب الوقوع. والتأكيد مراعاة لإنكار المشركين.

{ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } [32]

لأن تلك المثل الثلاثة التي فرضت أريد بها أمور سألها المشركون النبيء ﷺ استهزاء وتعجيزا.

وقد استهزأ قوم نوح به - عليه السلام - { وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ }، واستهزأت عاد بهود - عليه السلام - { فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [الشعراء: 187]، واستهزأت ثمود بصالح - عليه السلام - { قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ } [الأعراف: 66]، واستهزأوا بشعيب - عليه السلام - { قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ } [هود: 87]، واستهزأ فرعون بموسى - عليه السلام - { أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ} [الزخرف: 43].

الاستهزاء: مبالغة في الهزء مثل الاستسْخار في السخرية.

الإملاء: الإمهال والترك مدّة. ومنه قوله تعالى { وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً }.

{ **فكيف كان عقاب** } الاستفهام للتعجيب. وأصله (عقابي) مثل ما تقدّم آنفا في قوله { وَإِلَيْهِ مَتَابِ } والكلام تسلية للنبي ﷺ والمؤمنين، ووعيد للمشركين.

{ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ

اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [33]

تفريع على جملة { قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا } [30] المجاب به حكاية كفرهم المضمّن في جملة { وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ } [30]، فالتفريع في المعنى على مجموع الأمرين: كفرهم، وإيمان النبيء ﷺ بالله. وتذكيرهم بما حلّ بالمكذّبين من قبلهم مع إدماج تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، ثمّ فرّع على ذلك الاستفهام الإنكاري. والتقدير: أمّن هو قائم على كل نفس ومن جعلوهم به شركاء سواء في استحقاق العبادة.

{ **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** } العدول عن اسم الجلالة إلى الموصول لأنّ في الصلة دليلا على انتفاء المساواة، وتخطئة لأهل الشرك في تشريك آلهتهم لله تعالى في الإلهيّة، ونداء على غباوتهم إذ هم معترفون بأنّ الله هو الخالق.

القائم على الشيء: الرقيب، فيشمل الحفظ والإبقاء والإمداد، ولتضمّنه معنى الرقيب عدّي بحرف {عَلَى}. وأصله من القيام وهو **الملازمة** كقوله { إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً } [آل عمران: 75]. ويجيء من معنى القائم أنّه العليم بحال كل شيء، لأنّ تمام القيّوميّة يتوقّف على إحاطة العلم. فالمعنى: متولّيها ومدبّرها في جميع شؤونها في الخلق والأجل والرزق، والعالم بأحوالها وأعمالها. والمشركون لا ينازعون في انفراد الله بهذا القيام ولكنّهم لا يراعون ذلك في عبادتهم غيره، فمن أجل ذلك لزمتهم الحجّة.

{ **بِمَا كَسَبَتْ** } الباء للملابسة. وهي في موقع الحال. أي قياما ملابسا لما عملته كلّ نفس، أي قياما وفاقا لأعمالها من عمل خير يقتضي القيام عليها باللطف والرضى فتظهر آثار ذلك في الدنيا والآخرة لقوله { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 97]، أو من عمل شرّ يقتضي قيامه على النّفس بالغضب والبلايا. ففي هذه الصلة بعمومها تبشير وتهديد لمن تأمّل من الفريقين. فهذا تعريض بالأمرين أفادته صلة الموصول.

{ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ** } في موضع الحال، وإظهار اسم الجلالة للتعبير عن المسمّى باسمه العلم الذي هو الأصل إذ كان قد وقع الإيفاء بحقّ العدول عنه إلى الموصول في الجملة السابقة فتهيّأ المقام للاسم العلم، وليكون تصريحا بأنّه المراد من الموصول السابق زيادة في التصريح بالحجّة.

{ **قُلْ سَمُّوهُمْ** } أعيد الأمر بالقول لاسترعاء الأفهام لوعي ما سيذكر. وقد تضمّنت ردا عليهم. والمعنى: إن هي إلّا أسماء سميتموها، وهذا كقوله تعالى { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } [يوسف: 40]، وقوله { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا } [النجم: 23].

{ **أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ** } دلّت { أَمْ } على أنّ ما بعدها في معنى الاستفهام، وهو إنكاري توبيخي، أي ما كان لكم أن تفتروا على الله فتضعوا له شركاء لم ينبئكم بوجودهم، لأنّ ما لا يعلمه الله لا وجود له. وفي [يونس:18] { قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ } زيادة في التعميم.

{ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ } إعادة الباء للتأكيد بعد (أم) العاطفة. وليس (**الظاهر**) هنا من الظهور بمعنى الوضوح بل هو مشتق من الظهور بمعنى الزوال **كناية عن البطلان**، أي بمجرد لا ثبات له وليس بحقّ.

{ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ } إضراب عن الاحتجاج عليهم بإبطال إلهية أصنامهم إلى كشف السبب، وهو أن أئمة المشركين زيّنوا للذين كفروا مكرهم بهم إذ وضعوا لهم عبادتها.

المكر: إخفاء وسائل الضرّ، وتقدّم عند قوله { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا } [الأنفال:30]، والمراد هنا أنّ أئمة الكفر مثل عمرو بن لحي وضعوا للعرب عبادة الأصنام وحسّنوها إليهم مظهرين لهم أنّها حقّ ونفع وما أرادوا بذلك إلّا أن يكونوا قادة لهم ليسودوهم.

وقد تضمن هذا الاحتجاج أساليب وخصوصيّات:

أحدها: توبيخهم على قياسهم أصنامهم على الله في إثبات الإلهيّة لها قياسا فاسدا لانتفاء الجهة الجامعة، فكيف يسوّى من هو قائم على كلّ نفس بمن ليسوا في شيء من ذلك.

ثانيها: تبهيلهم في جعلهم أسماء لا مسميّاتٍ لها آلهةً.

ثالثها: إبطال كون أصنامهم آلهة، بأنّ الله لا يعلمها آلهة، وهو كناية عن انتفاء إلهيتها.

رابعها: أنّ ادعاءهم آلهة مجرد كلام لا انطباق له مع الواقع، وهو قوله { أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ }.

خامسها: أنّ ذلك تمويه باطل روّجه فيهم دعاة الكفر، وهو معنى تسميته مكرا.

سادسها: أنّهم يصدّون النّاس عن سبيل الهدى.

{ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ } عطف على { زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ }. قرأه الجمهور(بفتح الصاد) فهو باعتبار كون مضمون كلتا الجملتين من أحوال المشركين: فالأولى باعتبار كونهم مفعولين، والثانية باعتبار كونهم فاعلين للصدّ بعد أن انفعلوا بالكفر. وقرأه عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف { وَصُدُّوا } (بضم الصاد) فهو كجملة { زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا } في كون مضمون كلتيهما جعل الذين كفروا مفعولا للتزيين والصدّ.

{ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } تذييل لما فيه من العموم.

{ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ } [34]

استئناف بياني، لأنّ التهديد السابق { فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } يومئ إلى وعيد يسأل عنه السامع. وفيه تكملة للوعيد المتقدّم في قوله { وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ } مع زيادة الوعيد في الدار الآخرة.

{ عَذَابٌ } التنكير للتعظيم، وهو عذاب القتل والخزي والأسر.

{ **مِنْ وَاقٍ** } {مِنَ} لتأكيد النفي، للتنصيص على العموم.
الواقي: الحائل دون الضرّ، أي من عذابه بقرينة ما ذكر قبله.

{ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ } [35]

استئناف ابتدائي يرتبط بقوله {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ}. ذكر هنا بمناسبة ذكر ضده في قوله {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ} [34]

المثَل: هنا الصفة العجيبة، قيل: هو حقيقة من معاني المثل، كقوله تعالى {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} [النحل:60]، وقيل: هو مستعار من المثَل الذي هو الشبيه في حالة عجيبة أطلق على الحالة العجيبة غير الشبيهة لأنّها جديرة بالتشبيه بها.

{ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** } خبر عن {مَثَلُ} باعتبار أنّها من أحوال المضاف إليه.

{ **أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا** } خبر ثان، والأكل (بالضم): المأكول، وتقدّم. و**دوام الظل**، كناية عن التفاف الأشجار بحيث لا فراغ بينها تنفذ منه الشمس، كما قال تعالى { وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً } [النبأ: 16].

{ **تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا** } مستأنفة. والإشارة إلى الجنّة بصفاتها بحيث صارت كالمشاهدة. هي الجنّة التي وعد المتقون. وقد علم أنّ الذين اتقوا هم المؤمنون الصالحون كما تقدّم. وأوّل مراتب التقوى الإيمان.

{ وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ } مستأنفة للمناسبة بالمضادة. وهي كالبيان لجملة { وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ }.

{ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ } [36].

{ **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ** }

الواو للاستئناف. وهذا استئناف ابتدائي انتقل به إلى فضل لبعض أهل الكتاب في حسن تلقّيهم للقرآن، بعد الفراغ من ذكر أحوال المشركين.

والمناسبة هي أنّ الذين أرسل إليهم بالقرآن انقسموا في التصديق بالقرآن فرقا: ففريق آمنوا بالله وهم المؤمنون، وفريق كفروا به وهم مصداق قوله { وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ } [30]. كما تقدم أنه عائد إلى المشركين المفهومين من المقام، كما هو مصطلح القرآن.

وأهل الكتاب فريق آخر، وهو منقسم أيضا في تلقي القرآن فرقتين: فريق صدّقوا بالقرآن وفرحوا به. وكلّهم من النصارى مثل ورقة بن نوفل وكذلك غيره ممن بلغهم القرآن أيّام مقام النبيء ﷺ بمكّة قبل أن تبلغهم

دعوة النبيء ﷺ، فإنّ اليهود كانوا قد سُرّوا بنزول القرآن مصدّقا للتوراة، وكانوا يحسبون دعوة النبيء ﷺ مقصورة على العرب. وفريق آخر لم يثبت لهم الفرح بالقرآن وهم معظم اليهود والنصارى البعداء عن مكّة. وما كفر الفريقان به إلّا حين علموا أنّ دعوة الإسلام عامة.

وبهذا التفسير تظهر بلاغة التعبير عنهم بـ { **يَفْرَحُونَ** } دون يؤمنون. وإنّما سلكنا هذا الوجه بناء على أنّ هذه السورة مكّية كان نزولها قبل أن يسلم عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وبعض نصارى نجران وبعض نصارى اليمن. فإن كانت السورة مدنيّة أو كان هذا من المدني فلا إشكال.

{ **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ** } الذين أوتوه إيتاء كاملا، وهو المجرّد عن العصبيّة لما كانوا عليه، وعن الحسد، فهو كقوله تعالى { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } [البقرة:121].

{ **وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ** } الأظهر أنّ المراد بالأحزاب أحزاب الذين أوتوا الكتاب، كما جاء في قوله تعالى { فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ } [مريم:37]، أي ومن أحزابهم من ينكر بعض القرآن. فاللام عوض عن المضاف إليه. ولعلّ هؤلاء هم خبثاؤهم ودهاتهم الذين توسّموا أنّ القرآن يبطل شرائعهم فأنكروا بعضه. وفي التعبير عنهم بالأحزاب إيماء إلى أنّ هؤلاء هم المتحزّبون المتصلّبون لقومهم ولما كانوا عليه.

{ **قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ** }

أمر النبيء ﷺ أن يعلن للفريقين بأنّه ما أُمر إلّا بتوحيد الله كما في قوله { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ } [آل عمران:64]. وهذه الآية من مجاراة الخصم واستنزال طائر نفسه كيلا ينفر من النظر.

ولمّا كان المأمور به مجموع شيئين: عبادة الله، وعدم الإشراك به في ذلك آل المعنى: أني ما أمرت إلّا بتوحيد الله. ومن بلاغة الجدل القرآني أنّه لم يأت بذلك من أوّل الكلام بل أتى به متدرّجا فيه فقال { أن أعبد الله } لأنّه لا ينازع في ذلك أحد من أهل الكتاب ولا المشركين، ثم جاء بعده { وَلا أُشْرِكَ بِهِ } لإبطال إشراك المشركين، وللتعريض بإبطال إلهية عيسى عليه السلام لأن ادعاء بنوّته من الله تعالى يؤول إلى الإشراك.

{ **إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ** } بيان لجملة { إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ }، أي أن أعبده وأن أدعو النّاس إلى ذلك. وتقديم المجرور في الموضعين للاختصاص، أي إليه لا إلى غيره أدعو، أي بهذا القرآن، وإليه لا إلى غيره مئابي، فإن المشركين يرجعون في مهمّهم إلى الأصنام يستنصرونها ويستغيثونها. وليس في قوله هذا ما ينكره أهل الكتاب إذ هو ممّا كانوا فيه سواء مع الإسلام.

{ **وَإِلَيْهِ مَآبِ** } يعم الرجوع في الآخرة وهو البعث. وهذا من وجوه الوفاق في أصل الدين بين الإسلام واليهوديّة والنصرانيّة. وحذف ياء المتكلم من (مئابي) كحذفها في قوله { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ } [30].

{ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ } [37]

لمّا ذكر حال تلقّي أهل الكتابين للقرآن عند نزوله عرج على حال العرب في ذلك بطريقة التعريض بسوء تلقي مشركيه له مع أنّهم أولى الناس بحسن تلقيه، إذ نزل بلسانهم مشتملا على ما فيه صلاحهم وتنوير عقولهم. وقد جعل أهم هذا الغرض التنويه بعلو شأن القرآن لفظا ومعنى.

{ حُكْماً عَرَبِيّاً } حالان من ضمير { أَنْزَلْنَاهُ }. و**الحكم**: هنا بمعنى **الحكمة** كما في قوله { وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً} [مريم: 12]. وجعل نفس الحكم حالا منه مبالغة. والمراد أنه ذو حكمة. والحكمة تقدّمت.

{عَرَبِيّاً } حال ثانية وليس صفة ل {حُكْماً}. والمقصود أنّه بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأجملها وأسهلها، وفي ذلك إعجازه. فحصل لهذا الكتاب كمالان: كمال من جهة معانيه ومقاصده وهو كونه حكما، وكمال من جهة ألفاظه وهو المكنى عنه بكونه عربيا، وذلك ما لم يبلغ إليه كتاب قبله لأنّ الحكمة أشرف المعقولات فيناسب شرفها أن يكون إبلاغها بأشرف لغة وأصلحها للتعبير عن الحكمة، { وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: 192-195]. ثم في كونه عربيا امتنان على العرب المخاطبين به ابتداء بأنّه بلغتهم وبأنّ في ذلك حسن سمعتهم، كما قال تعالى { لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الأنبياء:10]. قال مالك: فيه بقاء ذكركم.

{ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ } معترضة، واللام موطئة للقسم وضمير الجمع في قوله { أَهْوَاءَهُمْ } عائد إلى معلوم من السياق وهم المشركون.

اتباع أهوائهم، تحذيرا من أن يسأل الله إجابتهم لما طلبوه كما قال لنوح - عليه السلام - { فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ }.

{ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ } ما بلغك وعلمته، فيحتمل أن يراد بالموصول القرآن تنويها به، أي لئن شايعتهم فسألتنا آية غير القرآن بعد أن نزل عليك القرآن، أو بعد أن أعلمناك أنّا غير متنازلين لإجابة مقترحاتهم.

الولي: النصير. و**الواقي**: المدافع.

والمقصود من هذا تحذير المسلمين من أن يركنوا إلى تمويهات المشركين، والتحذير من الرجوع إلى دينهم، وتأييس المشركين من الطمع في مجيء آية توافق مقترحاتهم.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ [38] **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ }** [39].

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ

كِتَابٌ }.

هذا عود إلى الردّ على المشركين في إنكارهم آية القرآن وتصميمهم على المطالبة بآية من مقترحاتهم تماثل ما يؤثر من آيات موسى وآيات عيسى عليهما السلام ببيان أنّ الرّسول لا يأتي بآيات إلّا بإذن الله، وأنّ ذلك لا يكون على مقترحات الأقوام.

وأدمج في هذا الردّ إزالة شبهة قد تعرض أو قد عرضت لبعض المشركين فيطعنون أو طعنوا في نبوّة محمد ﷺ بأنّه يتزوج النساء وأنّ شأن النبيء أن لا يهتم بالنّساء. وليس يلزم أن يكون هذا نازلا على سبب. وقد تزوّج رسول الله ﷺ خديجة ثم سودة رضي الله عنهما في مكّة فاحتمل أنّ المشركين قالوا قالة إنكار تعلقا بأوهن أسباب الطعن في النبوءة. وهذه شبهة تعرض للسذج أو لأصحاب التمويه، وقد يموّه بها المبشّرون من النصارى على ضعفاء الإيمان فيفضلون عيسى - عليه السلام - على محمد ﷺ بان عيسى لم يتزوج النساء. وقد كان لأكثر الرسل أزواج ولأكثرهم ذرية مثل نوح وإبراهيم ولوط وموسى وداود وسليمان - عليهم السلام-.

الأزواج: جمع زوج، وهو من مقابلة الجمع بالجمع، فقد يكون لبعض الرسل زوجة واحدة مثل: نوح ولوط - عليهما السلام - وقد يكون للبعض عدة زوجات مثل: إبراهيم وموسى وداود وسليمان - عليهم السلام - .

وتقدّم الكلام على الزوج عند قوله تعالى { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ } [البقرة:35].

الذرية: النسل. وتقدّم عند قوله تعالى { قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي } [البقرة:124].

{ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } هي المقصود. وتركيب {مَا كَانَ} يدلّ على المبالغة في النفي.

والمعنى: أنّ شأنك شأن من سبق من الرسل لا يأتون من الآيات إلّا بما آتاهم الله.

إذن الله: هو إذن التكوين للآيات وإعلام الرسول بأن ستكون آية، فاستعير الإتيان للإظهار، واستعير الإذن للخلق والتكوين.

{ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ }.

تذييل لأنّه أفاد عموم الآجال فشمل أجل الإتيان بآية من قوله { وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله }. فإنّ لذلك آجالا أرادها الله واقتضتها حكمته وهو أعلم بخلقه وشؤونهم، ولكنّ الجهلة يقيسون تصرفات الله بمثل ما تجري به تصرّفات الخلائق.

الأجل: الوقت الموقّت به عمل معزوم أو موعود.

الكتاب: المكتوب، وهو كناية عن التحديد والضبط، لأنّ شأن الأشياء التي يراد تحقّقها أن تكتب لئلّا يخالف عليها. وفي هذا الردّ تعريض بالوعيد. والمعنى: لكلّ واقع أجل يقع عنده، أي تعيين لا يتقدّمه ولا يتأخّر عنه.

{ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ } مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّ جملة { لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ } تقتضي أنّ الوعيد كائن وليس تأخيره مزيلا له. ولما كان في ذلك تأييس للنّاس عقّب بالإعلام بأنّ التوبة مقبولة، وبإحلال الرجاء

محلّ اليأس، فجاءت الجملة احتراسا.

المحو: حقيقته إزالة شيء، وكثر في إزالة الخط أو الصورة، ومرجع ذلك إلى عدم المشاهدة، قال تعالى {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً } [الإسراء:12]. ويطلق مجازا على تغيير الأحوال وتبديل المعاني كالأخبار والتكاليف والوعد والوعيد فإنّ لها نسبا ومفاهيم إذا صادفت ما في الواقع كانت مطابقتها إثباتا لها وإذا لم تطابقه كان عدم مطابقتها محوا لأنّه إزالة لمدلولاتها.

التثبيت: حقيقته جعل الشيء ثابتا قارا في مكان، قال تعالى { إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا } [الأنفال:45]. ويطلق مجازا على أضداد معاني المحو المذكورة.

فيندرج في ما تحتمله الآية عدة معان: منها أنّه يعدم ما يشاء من الموجودات ويبقي ما يشاء منها، ويعفو عمّا يشاء من الوعيد ويقرّر، وينسخ ما يشاء من التكاليف ويبقي ما يشاء. وكلّ ذلك مظاهر لتصرّف حكمته وعلمه وقدرته. وإذ قد كانت تعلّقات القدرة الإلهية جارية على وفق علم الله تعالى كان ما في علمه لا يتغيّر فإنّه إذا أوجد شيئا كان عالما أنّه سيوجده، وإذا أزال شيئا كان عالما أنّه سيزيله وعالما بوقت ذلك.

{ **مَا يَشَاءُ** } أبهم الممحو والمثبت لتتوجّه الأفهام إلى تعرّف ذلك والتدبّر فيه، لأنّ تحت هذا الموصول صورا لا تحصى، وأسبابُ المشيئة لا تحصى.

ومن مشيئة الله تعالى محو الوعيد أن يلهم المذنبين التوبة والإقلاع ويخلق في قلوبهم داعية الامتثال. ومن مشيئة التثبيت أن يصرف قلوب قوم عن النظر في تدارك أمورهم، وكذلك القول في العكس من تثبيت الخير ومحوه. وكذلك الشأن في ظهور آثار رضي الله أو غضبه على العبد، فبينما ترى أحدا مغضوبا عليه مضروبا عليه المذلّة لانغماسه في المعاصي إذا بك تراه قد أقلع وتاب فأعزّه الله ونصره.

ومن آثار ذلك أيضا تقليب القلوب بان يجعل الله البغضاء محبّة، كما قالت هند بنت عتبة للنبيء ﷺ بعد أن أسلمت: " ما كان أهل خباء أحبّ إلي أن يذلّوا من أهل خبائك واليوم أصبحت وما أهل خباء أحبّ إلي أن يعزّوا من أهل خبائك ".

{ **وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** } يجوز أن يكون مرادا به الكتاب الذي كتبت به الآجال وهو قوله { لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ }. وأن المحو في غير الآجال.

ويجوز أن يكون أم الكتاب مرادا به علم الله تعالى. أي يمحو ويثبت وهو عالم بأن الشيء سيمحى أو يثبت. وفي تفسير القرطبي عن ابن عمر قال سمعت النبيء ﷺ يقول: " يمحو الله ما يشاء ويثبت إلّا السعادة والشقاوة والموت". وروي مثله عن مجاهد. وعن عمر وابن مسعود ما يقتضي أن السعادة والشقاوة يقبلان المحو والإثبات.

والذي يلوح في معنى الآية أن ما في أم الكتاب لا يقبل محوا، فهو ثابت وهو قسيم لما يشاء الله محوه.

ويجوز أن يكون ما في أم الكتاب هو عين ما يشاء الله محوه أو إثباته سواء كان تعينا بالأشخاص أو بالذوات أو بالأنواع وسواء كانت الأنواع من الذوات أو من الأفعال، وأن جملة {وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} أفادت أن ذلك لا يطلع عليه أحد.

{ **أم** } مستعملة مجازا فيما يشبه الأمّ في كونها أصلا لما تضاف إليه، فالأمّ هنا مراد به ما هو أصل للمحو والإثبات. فأم الكتاب هو علم الله تعالى بما سيريد محوه وما سيريد إثباته كما تقدّم.

{ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } [40]

عطف على { يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ } [39] باعتبار ما تفيده من إبهام مراد الله في آجال الوعيد ومواقيت إنزال الآيات، فبيّنت هذه الجملة أنّ النبيء ﷺ ليس مأمورا بالاشتغال بذلك ولا بترقّبه وإنّما هو مبلّغ عن الله لعباده والله يعلم ما يحاسب به عباده سواء شهد النبيء ﷺ ذلك أم لم يشهده.

{ **أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ** } جعل التوفّي كناية عن عدم رؤية حلول الوعيد بقرينة مقابلته بقوله { نُرِيَنَّكَ }. والمعنى: ما عليك إلّا البلاغ سواء رأيت عذابهم أو لم تره.

{ **بَعْضَ** } إيماء إلى أنّه يرى البعض. وفي هذا إنذار لهم بأنّ الوعيد نازل بهم ولو تأخر، وأنّ هذا الدين يستمر بعد وفاة رسول الله ﷺ، لأنّه إذا كان الوعيد الذي أمر بإبلاغه واقعا ولو بعد وفاته فبالأولى أن يكون شرعه. وقد أرى الله نبيه بعض ما توعّد به المشركين من الهلاك بالسيف يوم بدر ويوم الفتح ويوم حنين وغيرها من أيام الإسلام في حياة النبيء ﷺ ولم يُرِهِ بعضه مثل عذاب أهل الردّة، فإنّ معظمهم كان من المكذبين المبطنين الكفر مثل: مسيلمة الكذّاب.

{ **فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** } {إِنَّمَا} للحصر، والمحصور فيه هو البلاغ لأنّه المتأخّر في الذكر من الجملة المدخولة لحرف الحصر، والتقدير: عليك البلاغ لا غيره من إنزال الآيات أو من تعجيل العذاب، ولهذا قدّم الخبر على المبتدأ لتعيين المحصور فيه.

{ **عَلَيْكَ الْبَلاغُ** } (على) مستعملة حقيقة في الإيجاب والإلزام.

{ **وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** } أي محاسبتهم على التكذيب. و(عَلَى) هنا مجاز في الوجوب لله بالتزامه به.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [41]

عطف على { وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ }،عقّبت بهذه الجملة لإنذار المكذّبين بأنّ ملامح نصر النبيء ﷺ قد لاحت وتباشير ظفره قد طلعت ليتدبّروا في أمرهم، وللاحتراس من أن يتوهّموا أنّ العقاب بطيء

وغير واقع بهم. وهي أيضا بشارة للنبيء ﷺ بأنّ الله مظهر نصره في حياته وقد جاءت أشراطه، فهي أيضا احتراس من أن ييأس النبيء ﷺ من رؤية نصره، مع علمه بأنّ الله متمّ نوره بهذا الدين.

والاستفهام إنكاري، والضمير عائد إلى المكذّبين العائد إليهم ضمير { نَعِدُهُمْ }.

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** } الكلام تهديد لهم بإيقاظهم إلى ما دبّ إليهم من أشباح الاضمحلال بإنقاص الأرض، أي سكانها. والرؤية يجوز أن تكون بصرية. والمراد: رؤية آثار ذلك النقص، ويجوز أن تكون علميّة، أي ألم يعلموا ما حلّ بأراضي الأمم السابقة من نقص.

{ **الْأَرْضَ** } تعريف الجنس، أي نأتي أية أرض من أراضي الأمم. وأطلقت الأرض هنا على أهلها مجازا، كما في قوله تعالى { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } [يوسف: 82] بقرينة تعلّق فعل النقص بها، لأنّ النقص لا يكون في ذات الأرض ولا يُرى نقص فيها ولكنه يقع فيمن عليها.

وذهب كثير من المفسرين إلى أنّ المراد بـ { الْأَرْضَ } أرض الكافرين من قريش فيكون التعريف للعهد، وتكون الرؤية بصرية، ويكون ذلك إيقاظا لهم. وبنوا على ذلك أنّ هذه الآية نزلت بالمدينة وهو الذي حمل فريقا على القول بأنّ سورة الرعد مدنية، فإذا اعتبرت مدنية صحّ أن تفسّر الأطراف بطرفين وهما مكّة والمدينة فإنهما طرفا العرب، فمكّة طرفها من جهة اليمن، والمدينة طرف البلاد من جهة الشام، ولم يزل عدد الكفار في البلدين في انتقاص بإسلام كفارها إلى أن تمحضت المدينة ثم تمحضت مكّة له بعد يوم الفتح.

وأياما كان تفسير الآية وسبب نزولها ومكانه فهي للإنذار بأنّهم صائرون إلى زوال وأنّهم مغلوبون زائلون.

{ **وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ** } عطف على { أَوَلَمْ يَرَوْا } مؤكّدة للمقصود منها، وهو الاستدلال على أنّ تأخير الوعيد لا يدل على بطلانه، لأنّ المعنى: أنّ ما حكم الله به من العقاب لا يبطله أحد، وأنّه واقع ولو تأخر.

وإظهار اسم الجلالة بعد الإضمار لتربية المهابة، وللتذكير بما يحتوي عليه الاسم العظيم من معنى الإلهية والوحدانية المقتضية عدم المنازع، وأيضا لتكون الجملة مستقلة بنفسها لأنّها بمنزلة الحكمة والمثل.

{ **لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ** } في موضع الحال، وهي مصب الكلام إذ ليس الغرض الإعلام بأنّ الله يحكم إذ لا يكاد يخفى، وإنّما الغرض التنبيه إلى أنّه لا معقّب لحكمه. وأفاد نفي جنس المعقّب انتفاء كل ما من شأنه أن يكون معقّبا؛ من شريك أو شفيع أو داع أو راغب أو مستعصم أو مفتد.

المعقّب: الذي يعقب عملا فيبطله، مشتق من العَقِب، وهو استعارة غلبت حتى صارت حقيقة. وتقدّم عند قوله تعالى { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ } [11].

{ **وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** } يجوز أن تكون عطفا على { وَاللَّهُ يَحْكُمُ } فتكون دليلا رابعا على أنّ وعده واقع وأنّ تأخّره وإن طال فما هو إلّا سريعٌ باعتبار تحقق وقوعه، ويجوز أن يكون عطفا على جملة الحال، والمعنى:

بحكم تام وسريعا حسابه. ومآل التقديرين واحد.

الحساب: كناية عن الجزاء، و**السرعة**: العجلة، وهي في كل شيء بحسبه.

{ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ }[42]

لمّا كان قوله { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا } [41] تهديدا وإنذارا. شُبّه عملهم بالمكر وشُبّه بعمل المكذّبين السابقين. وفي هذا التشبيه رمز إلى أنّ عاقبتهم كعاقبة الأمم التي عرفوها.

{ **فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً** } تفريع، والمعنى: مكر هؤلاء ومكر الذين من قبلهم وحلّ العذاب بالذين من قبلهم فمكر الله بهم وهو يمكر بهؤلاء مكرا عظيما كما مكر بمن قبلهم.

وتقديم المجرور للاختصاص، أي له لا لغيره، لأنّ مكره لا يدفعه دافع. وأكّد مدلول الاختصاص بقوله {جَمِيعاً} وهو حال من المكر.

{ **يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ** } بمنزلة العلّة لجملة { فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً } ، لأنّه لمّا كان يعلم ما تكسب كل نفس من ظاهر الكسب وباطنه كان مكره أشدّ.

{ **وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ** } أي سيعلم أن عقبى الدار للمؤمنين لا للكافرين، فالكلام تعريض بالوعيد. و{عُقْبَى الدَّارِ} تقدّم آنفا.

{ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}[43]

عطف على ما تضمنته جملة { وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [42] من التعريض بأنّ قولهم { لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ}[27] ضرب من المكر بإظهارهم أنّهم يتطلّبون الآيات الدالة على صدق الرّسول صلى الله عليه وسلم. وقد حكي قولهم بصيغة المضارع للدلالة على تكرّر ذلك منهم ولاستحضار حالهم العجيبة من الاستمرار على التكذيب بعد أن رأوا دلائل الصدق.

{ **قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** } ولمّا كانت مقالتهم المحكيّة هنا صريحة لا مواربة فيها أمر الرسول ﷺ بجواب لا جدال فيه وهو تحكيم الله بينه وبينهم.

وقد أمر الرّسول ﷺ بأن يجيبهم جواب الواثق بصدقه المستشهد على ذلك بشهادة الصدق، من إشهاد الله تعالى وإشهاد العالمين بالكتب والشرائع. ولمّا كانت الشهادة للرسول ﷺ بالصدق شهادة على الذين كفروا بأنّهم كاذبون جعلت الشهادة بينه وبينهم.

وإشهاد الله في معنى الحلف على الصدق كقول هود - عليه السلام - { إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ } [هود: 54].
{ **وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** } الموصول يجوز أن يراد به جنس من يتّصف بالصلة. والمعنى: وكلّ من عندهم علم الكتاب. وتعريف { الْكِتَابِ } تعريف للعهد، وهو التوراة. أي وشهادة علماء الكتاب. وذلك أنّ اليهود كانوا قبل هجرة النبيء ﷺ إلى المدينة يستظهرون على المشركين بمجيء النبيء المصدّق للتوراة.
ووجه شهادة علماء الكتاب برسالة محمد ﷺ، وجدانهم البشارة بنبيء خاتم للرسل، ووجدانهم ما جاء في القرآن موافقا لسنن الشرائع الإلهية ومفسّرا للرموز الواردة في التوراة والإنجيل في صفة النبيء ﷺ المصدّق الموعود به. ولهذا المعنى كان التعبير في هذه الآية بـ { مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} دون أهل الكتاب، لأنّ تطبيق ذلك لا يدركه إلّا علماؤهم. قال تعالى { أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرائيلَ} [الشعراء:97].

الوجيز

من التحرير و التنوير

للشيخ مُحَمَّد الطاهر ابن عاشور

(1879م- 1973م / 1296هـ- 1393هـ)

الجزء السادس

(إبراهيم – الحجر – النحل – الإسراء - الكهف)

محمد بن عبد القادر الزغواني

2023م / 1444هـ

بسم الله الرحمان الرحيم

الإهداء

إلى أئمتنا و دعاتنا وطلبة العلوم الشرعيّة

إلى كلّ العاملين في مجال الدعوة،

السالكين سبل الهداية، والمبشّرين بها بين النّاس.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة إبراهيم

أضيفت هذه السورة إلى اسم إبراهيم - عليه السلام - فكان ذلك اسما لها لا يعرف لها غيره. ولم أقف على إطلاق هذا الاسم عليها في كلام النبيء ﷺ ولا في كلام أصحابه في خبر مقبول.

ووجه تسميتها بهذا وإن كان ذكر إبراهيم - عليه السلام - جرى في كثير من السور أنّها من السور ذوات {ألر}. وقد ميّز بعضها عن بعض بالإضافة إلى أسماء الأنبياء - عليهم السلام - التي جاءت قصصهم فيها، أو إلى مكان بعثة بعضهم وهي (سورة الحجر)، ولذلك لم تضف سورة الرعد إلى مثل ذلك لأنّها متميّزة بفاتحتها بزيادة حرف ميم على ألف ولام وراء.

وهي مكّية كلّها عند الجمهور. وعن قتادة إلّا آيتي { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً - إلى قوله - وَبِئْسَ الْقَرَارُ } [28]، وقيل: إلى قوله { فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ } [30]. نزل ذلك في المشركين في قضيّة بدر، وليس ذلك إلّا توهّما كما ستعرفه.

نزلت هذه السور بعد سورة الشورى وقبل سورة الأنبياء.

وقد عدّت السبعين في ترتيب السور في النزول.

وعدّت آياتها أربعا وخمسين عند المدنين وخمسين عند أهل الشام، وإحدى وخمسين عند أهل البصرة. واثنتين وخمسين عند أهل الكوفة.

أغراض السورة

ابتدأت بالتنبيه إلى إعجاز القرآن، وبالتنويه بشأنه، وأنّه أنزل لإخراج النّاس من الضلالة.

والامتنان بأن جعله بلسان العرب. وتمجيد الله تعالى الذي أنزله. ووعيد الذين كفروا به وبمن أنزل عليه.

وإيقاظ المعاندين بأنّ محمدا ﷺ ما كان بدعا من الرسل. وأنّ كونه بشرا أمر غير مناف لرسالته من عند الله كغيره من الرسل.

وضرب له مثلا برسالة موسى - عليه السلام - إلى فرعون لإصلاح حال بني إسرائيل.

وتذكيره قومه بنعم الله ووجوب شكرها.

وموعظته إياهم بما حل بقوم نوح وعاد ومن بعدهم وما لاقته رسلهم من التكذيب، وكيف كانت عاقبة المكذبين.

وإقامة الحجّة على تفرد الله تعالى بالإلهيّة بدلائل مصنوعاته.

وذكر البعث.

وتحذير الكفار من تغرير قادتهم وكبرائهم بهم من كيد الشيطان وكيف يتبرأون منهم يوم الحشر ووصف حالهم وحال المؤمنين يومئذ.

وفضل كلمة الإسلام وخبث كلمة الكفر.

ثم التعجيب من حال قوم كفروا نعمة الله وأوقعوا من تبعهم في دار البوار بالإشراك، والإيماء إلى مقابلته بحال المؤمنين.

وعدّ بعض نعمه على الناس تفصيلا ثم جمعها إجمالا.

ثم ذكّر الفريقين بحال إبراهيم - عليه السلام - ليعلم الفريقان من هو سالك سبيل إبراهيم - عليه السلام - ومن هو ناكب عنه من ساكني البلد الحرام.

وتحذيرهم من كفران النعمة.

وإنذارهم أن يحل بهم ما حلّ بالذين ظلموا من قبل.

وتثبيت النبي ﷺ بوعد النصر.

وما تخلل ذلك من الأمثال.

{ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [1]

{ **ألر** } تقدّم الكلام على الحروف المقطعة في فاتحة سورة البقرة وعلى نظير هذه الحروف في سورة يونس.

{ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ** } الكلام على هذا التركيب كالكلام على قوله {ألمص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ} [الأعراف:1-2]، فللعلم بمُنزله حذف الفاعل في آية سورة الأعراف، وهو مقتضى الظاهر والإيجاز، ولكنّه ذُكر هنا لأنّ المقام مقام الامتنان على النّاس المستفاد من التعليل بقوله { لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }، ومن ذكر صفة الربوبيّة بقوله { بِإِذْنِ رَبِّهِمْ } ، بخلاف آية سورة الأعراف فإنّها في مقام الطمأنة والتصبير للنبيء ﷺ المنْزل إليه الكتاب، فكان التعرّض لذكر المنْزل إليه والاقتصار عليه أهم في ذلك المقام مع ما فيه من قضاء حقّ الإيجاز. أمّا التعرض للمنْزل إليه هنا فللتنويه بشأنه، وليجعل له حظّ في هذه المنّة وهو حظّ الوساطة، كما دلّ عليه قوله {لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}، ولما فيه من غم المعاندين والمبغضين للنبيء ﷺ.

{ **لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** }

وإسناد الإخراج إلى النبيء ﷺ لأنّه مبلّغ هذا الكتاب المشتمل على تبيين طرق الهداية إلى الإيمان وإظهار فساد الشرك والكفر، وهو مع التبليغ يبيّن للنّاس ويقرّب إليهم معاني الكتاب بتفسيره وتبيينه، ثم بما يبنيه عليه

من المواعظ والنذر والبشارة. وتعليل الإنزال بالإخراج من الظلمات دلّ على أنّ الهداية هي مراد الله تعالى من النّاس، وأنّه لم يتركهم في ضلالهم.

الإخراج: مستعار للنقل من حال إلى حال. شبّه الانتقال بالخروج فشبّه النقل بالإخراج.

{ **الظُّلُمَاتِ / النُّورَ** } استعارة للكفر والإيمان، لأنّ الكفر يجعل صاحبه في حيرة فهو كالظلمة في ذلك، والإيمان يرشد إلى الحقّ فهو كالنور في إيضاح السبيل. وجمع {الظُّلُمَاتِ} وإفراد {النُّورَ} تقدّم في الأنعام[1]

الإذن: الأمر بفعل يتوقّف على رضى الآمر به. وهو إرساله إليهم لأنّه هو الإذن الذي يتعلّق بجميع الناس. ولمّا كان الإرسال لمصلحتهم أضيف الإذن إلى وصف الربّ المضاف إلى ضمير النّاس، أي بإذن الذي يدبّر مصالحهم.

{ **إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** } بدل من { النُّورَ }، ومناسبة الصراط، المستعار للدين الحقّ، لاستعارة الإخراج والظلمات والنور، ولما يتضمنه من التمثيل.

واختيار {الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} من بين الصفات العُلى لمزيد مناسبتها للمقام.

العزيز: الذي لا يُغلب. وإنزال الكتاب برهان على أحقيّة ما أراده الله من النّاس فهو به غالب للمخالفين مقيم الحجّة عليهم.

الحميد: بمعنى المحمود، لأنّ في إنزال هذا الكتاب نعمة عظيمة ترشد إلى حمده عليه.

وبذلك استوعب الوصفان الإشارة إلى الفريقين، من كلّ منساق إلى الاهتداء من أوّل وهلة، ومن مجادل صائر إلى الاهتداء بعد قيام الحجّة ونفاذ الحيلة.

{ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ [2] الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ } [3].

{ **اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** }.

قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر برفع اسم الجلالة على أنّه خبر عن مبتدإ محذوف. وقرأه الباقون إلّا رويسا عن يعقوب بالجرّ على البدلية من { الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } ، وهي طريقة عربية. ومآل القراءتين واحد وكلتا الطريقتين تفيد أنّ المستقل إليه أجدر بالذكر عقب ما تقدمه، فإن اسم الجلالة أعظم من بقية الصفات لأنّه علم الذات الذي لا يشاركه موجود في إطلاقه ولا في معناه الأصلي المنقول منه إلى العلميّة إلّا أن الرفع أقوى وأفخم.

{ **الَّذِي** } إجراء الوصف بالموصول على اسم الجلالة لزيادة التفخيم لا للتعريف. لأنّ ملك سائر الموجودات

صفة عظيمة، والله معروف بها عند المخاطبين. وفيه تعريض بأنّ صراط غير الله من طرق آلهتهم ليس بواصل إلى المقصود لنقصان ذويه. وفي ذكر هذه الصلة إدماج تعريض بالمشركين الذين عبدوا ما ليس له السماوات والأرض.

{ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ }.

لمّا أفاد قوله السابق تعريضا بالمشركين الذين اتّبعوا صراط غير الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض عطف الكلام إلى تهديدهم وإنذارهم.

{ **وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ** } إنشاء دعاء عليهم في مقام الغضب والذمّ، مثل قولهم: ويحك، فعطفه من عطف الإنشاء على الخبر.

{ **وَيْلٌ** } مصدر لا يعرف له فعل. ومعناه الهلاك وما يقرب منه من سوء الحالة، ولأنّه لا يعرف له فعل كان اسم مصدر وعومل معاملة المصادر، ينصب على المفعوليّة المطلقة ويرفع لإفادة الثبات. يقال: ويل لك وويلك، بالإضافة. ويقال: يا ويلك، بالنداء. وقد يذكر بعد هذا التركيب سببه فيؤتى به مجرورا بحرف (من) الابتدائية كما في قوله هنا {مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}.

الكافرون: هم المعهودون، وهم الذين لم يخرجوا من الظلمات إلى النور، ولا اتّبعوا صراط العزيز الحميد، ولا انتفعوا بالكتاب الذي أنزل لإخراجهم من الظلمات إلى النور.

{ **يَسْتَحِبُّونَ** } بمعنى يحبّون، فالسين والتاء للتأكيد مثل استقدم واستأخر. وضُمّن معنى يؤثرون، فعدّي إلى مفعول آخر بواسطة حرف {على} في قوله { عَلَى الْآخِرَةِ } أي يؤثرونها عليها.

{ **وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً** } تقدّم نظيره في قوله { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ } [آل عمران:99].

الصد عن سبيل الله: المقبلين على الإسلام من الدخول فيه. شبّه ذلك بمن يمنع المار من سلوك الطريق. وجعل الطريق طريق الله لأنّه موصل إلى مرضاته فكأنّه موصل إليه. أو يصدّون أنفسهم عن سبيل الله لأنّهم عطّلوا مواهبهم ومداركهم من تدبّر آيات القرآن، فكأنّهم صدّوها عن السير في سبيل الله.

{ **أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ** } الإشارة للتنبيه على أنّهم أحرياء بما وُصفوا به من الضلال بسبب صدّهم عن سبيل الحقّ وابتغائهم سبيل الباطل. ودلّ حرف الظرفيّة (في) على أنّ الضلال محيط بهم.

{ **بَعِيدٍ** } يجوز أن يكون على وجه المجاز العقلي، وإنّما البعيد هم الضالون، أي ضلالا بعدوا به عن الحقّ فأسند البعد إلى سببه. ويجوز أن يراد وصفه بالبعد على تشبيهه بالطريق الشاسعة التي يتعذّر رجوع سالكها، أي ضلال قويّ يعسر إقلاع صاحبه عنه.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }[4]

إذا كانت صيغة القصر مستعملة في ظاهرها ومسلّطة على متعلّقي الفعل المقصور كان قصرا إضافيّا لقلب اعتقاد المخاطبين. كانوا لتعنّتهم يقولون: هلّا نزل القرآن بلغة العجم، وهو مروي في تفسير الطبري هنالك عن سعيد بن جبير أنّ العرب قالوا ذلك.

وقد كان المتنصّرون من العرب والمتهوّدون منهم مثل عرب اليمن تترجم لهم بعض التوراة والإنجيل بالعربية كما ورد في حديث ورقة بن نوفل في كتاب بدء الوحي من صحيح البخاري، فاستقرّ في نفوس المشركين من جملة مطاعنهم أنّ القرآن لو كان من عند الله لكان باللغة التي جاءت بها الكتب السالفة.

فصارت عربيّته عندهم من وجوه الطعن في أنّه منزل من الله. فالقصر هنا لردّ كلامهم، أي ما أرسلنا من رسول بلسان إلّا لسان قومه المرسل إليهم، لا بلسان قوم آخرين.

فموقع هذه الآية عقب آية {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ} بيّن المناسبة.

اللسان: اللغة وما به التخاطب. أطلق عليها اللسان من إطلاق اسم المحلّ على الحال به، مثل: سال الوادي.

القوم: الأمّة والجماعة، فقوم كلّ أحد رهطه الذين جماعتهم واحدة ويتكلمون بلغة واحدة، وقوم كل رسول أمّته المبعوث إليهم، إذ كان الرسل يبعثون إلى أقوامهم، وقوم محمد ﷺ هم العرب، وأما أمّته فهم الأقوام المبعوث إليهم وهم النّاس كافة.

وإنّما كان المخاطب أوّلا هم العرب الذين هو بين ظهرانيهم ونزل الكتاب بلغتهم لتعذّر نزوله بلغات الأمم كلها، فاختار الله أن يكون رسوله ﷺ من أمّة هي أفصح الأمم لسانا، وأسرعهم أفهاما، وألمعهم ذكاء، وأحسنهم استعدادا لقبول الهدى والإرشاد، ولم يؤمن برسول من الرّسل في حياته عدد من النّاس مثل الذين آمنوا بمحمد ﷺ في حياته، فقد عمّ الإسلام بلاد العرب، وقد حجّ مع النبيء ﷺ في حجّة الوداع نحو خمسين ألفا أو أكثر. وقيل مائة ألف وهم الرجال المستطيعون.

{ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } تعليل وفيه إيماء إلى هذا المعنى، لأنّه لمّا كان المقصود من التشريع البيان كانت أقرب اللغات إلى التبيين، من بين لغات الأمم المرسل إليهم، هي اللغة التي هي أجدر بأن يأتي الكتاب بها. ولكن لمّا كان المقصود من سياقها الردّ على طعنهم في القرآن بأنّه نزل بلغة لم ينزل بها كتاب قبله اقتصر في ردّ خطئهم على أنّه إنّما كان كذلك ليبيّن لهم لأنّ ذلك هو الذي يهمّهم.

{ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } تفريع على مجموع جملة { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ }، ولذلك جاء فعل {يُضِلُّ} مرفوعا غير منصوب إذ ليس عطفا على فعل { لِيُبَيِّنَ } لأنّ الإضلال لا يكون معلولا للتبيين

ولكنّه مفرّع على الإرسال المعلّل بالتبيين. والمعنى أنّ الإرسال بلسان قومه لحكمة التبيين. وقد يحصل أثر التبيين بمعونة الاهتداء وقد لا يحصل أثره بسبب ضلال المبيَّن لهم.

{ **وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } تذييل، لأنّ **العزيز** قويٌّ لا ينفلت شيء من قدرته ولا يخرج عمّا خُلق له، و**الحكيم** يضع الأشياء مواضعها، فموضع الإرسال والتبيين يأتي على أكمل وجه من الإرشاد.

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } [5]

لمّا كانت الآيات السابقة مسوقة للردّ على من أنكروا أنّ القرآن منزل من الله أعقب الرد بالتمثيل بالنظر، وهو إرسال موسى - عليه السلام - إلى قومه بمثل ما أرسل به محمد ﷺ، وبمثل الغاية التي أرسل لها.

{ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى** } وتأكيد الإخبار عن إرسال موسى - عليه السلام - بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المنكرين رسالة محمد ﷺ منزلة من ينكر رسالة موسى - عليه السلام -.

{ **بِآيَاتِنَا** } الباء للمصاحبة، أي إرسالا مصاحبا للآيات الدالة على صدقه في رسالته، كما أرسل محمد ﷺ مصاحبا لآية القرآن الدال على أنّه من عند الله.

{ **الظُّلُمَاتِ** } مستعار للشرك والمعاصي، و { **النُّورِ** } مستعار للإيمان الحقّ والتقوى، وذلك أنّ بني إسرائيل لمّا طال عليهم الأمد في مصر بعد وفاة يوسف - عليه السلام- سرى إليهم الشرك واتّبعوا دين القبط، فكانت رسالة موسى - عليه السلام - لإصلاح اعتقادهم مع دعوة فرعون وقومه للإيمان بالله الواحد، وكانت آيلة إلى إخراج بني إسرائيل من الشرك والفساد وإدخالهم في حظيرة الإيمان والصلاح.

التذكير: إزالة نسيان شيء. ويستعمل في تعليم مجهول كان شأنه أن يُعلم. ولمّا ضُمّن التذكير معنى الإنذار والوعظ عدّي بالباء، أي ذكّرهم تذكير عظة بأيّام الله.

{ **أَيَّامِ اللَّهِ** } أيام ظهور بطشه وغلبه من عصوا أمره، وتأييده المؤمنين على عدوّهم، فإنّ ذلك كلّه مظهر من مظاهر عزّة الله تعالى. وشاع إطلاق اسم اليوم مضافا إلى اسم شخص أو قبيلة، على يوم انتصر فيه مسمّى المضاف إليه على عدوّه، يقال: أيّام تميم، أي أيّام انتصارهم.

فالمراد هنا الأيام التي أنجى الله فيها بني إسرائيل من أعدائهم ونصرهم وسخّر لهم أسباب الفوز والنصر وأغدق عليهم النعم في زمن موسى - عليه السلام - فإنّ ذلك كلّه ممّا أمر موسى - عليه السلام - بأن يذكرهمُوه.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** } اسم الإشارة عائد إلى ما ذكر من الإخراج والتذكير، فالإخراج من الظلمات بعد توغّلهم فيها وانقضاء الأزمنة الطويلة عليها، آية من آيات قدرة الله تعالى. والتذكير بأيام الله

يشتمل على آيات قدرة الله وعزّته وتأييد من أطاعه. وكل ذلك آيات كائنة في الإخراج والتذكير على اختلاف أحواله.

ولكون الآيات مختلفة، بعضها آيات موعظة وزجر وبعضها آيات منّة وترغيب، جعلت متعلقة بـ { **كُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** } إذ الصبر مناسب للزجر، والإنعام يبعث النفس على الشكر.

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ }[6]

هذا ممّا قاله موسى لقومه بعد أن أنجاهم الله من استعباد القبط وإهانتهم، وهو من التذكير بأيّام الله الذي أمر الله موسى - عليه السلام - أن يذكّره قومه.

وقد تقدّم تفسير نظيرها في قوله تعالى {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ} [البقرة:49] وكذا في [الأعراف:141]. وإنّما حكاه القرآن في كل موضع بطريقة، تفنّنا في إعادة القصّة بحصول اختلاف في صورة النظم مع الحفاظ على المعنى المحكي، وهو ذكر سوء العذاب مجملا، وذكر أفظع أنواعه مبيّنا.

{ **وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ** } عطفت في الآيات الثلاث لأن مضمونها باستقلاله لا يصلح لبيان سوء العذاب، لأنّ استحياء النّساء في ذاته نعمة ولكنّه يصير من العذاب عند اقترانه بتذبيح الأبناء، إذ يعلم أنّ مقصودهم من استحياء النّساء استرقاقهنّ وإهانتهنّ، فصار الاستحياء بذلك القصد تهيئة لتعذيبهنّ. فسمّي جميع ذلك بلاء.

البلاء: أصله الاختبار. والبلاء هنا المصيبة بالشرّ، سمّي باسم الاختبار لأنّه اختبار لمقدار الصبر. وقد شاع إطلاق هذا بصيغة اسم المصدر بحيث يكاد لا يطلق إلّا على المكروه.

{ **بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ** } جعل هذا الضرّ الذي لحقهم واردا من جانب الله، لأنّ عدم إلطافه ببني إسرائيل يجعله كالوارد من الله، وهو جزاء على نبذ بني إسرائيل دينهم الحقّ الذي أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب عليهم السلام، واتّباعهم دين القبط وعبادة آلهتهم. واختيار وصف الربّ هنا للإيماء إلى أنّه أراد به صلاح مستقبلهم وتنبيههم لاجتناب عبادة الأوثان وتحريف الدين.

وهذه الآية تضمنت ما في سفر الخروج [الإصحاح21 / الفقرة 17] و [الإصحاح 13 / الفقرة 3]، وما في سفر اللاويين [الإصحاح 26 / الفقرة 13].

{ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } [7]

من كلام موسى - عليه السلام - ، والتقدير: واذكروا نعمة الله عليكم إذ تأذّن ربكم لئن شكرتم. لأنّ الجزاء عن شكر النعمة بالزيادة منها نعمة وفضل من الله، لأنّ شكر المنعم واجب فلا يستحق جزاء لولا سعة فضل

الله.

{ **تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ** } تكلّم كلاما علنا، أي كلّم موسى - عليه السلام - بما تضمّنه هذا الذي في الآية بمسمع من جماعة بني إسرائيل. ولعل هذا الكلام هو الذي في سفر الخروج [الإصحاح 91 / الفقرات 9 - 20 - والإصحاح 20 / الفقرات 1- 18- 22 - والإصحاح 23 / الفقرات 20 – 30].

التأذّن مبالغة في الأذان يقال: أذّن وتأذّن كما يقال: توعّد وأوعد، وتفضّل وأفضل.

{ **لَئِنْ شَكَرْتُمْ** } موطئة للقسم والقسم مستعمل في التأكيد. والشكر مؤذن بالنعمة. فالمراد: شكر نعمة الإنجاء من آل فرعون وغيرها.

{ **وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** } جاءت به المقابلة. والكفر مراد به كفر النعمة وهو مقابلة المنعم بالعصيان. وأعظم الكفر جحد الخالق أو عبادة غيره معه وهو الإشراك، كما أنّ الشكر مقابلة النعمة بإظهار العبودية والطاعة.

{ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ } [8]

أعيد فعل القول في عطف بعض كلام موسى - عليه السلام - على بعض لئلا يتوهّم أنّ هذا مما تأذن به الربّ، وإنّما هو تنبيه على كلام الله. وفي إعادة فعل القول اهتمام بهذه الجملة وتنويه بها حتّى تبرز مستقلة وحتّى يصغي إليها السامعون للقرآن.

ووجه الاهتمام بها أنّ أكثر الكفار يحسبون أنّهم يحسنون إلى الله بإيمانهم، وأنّ أنبياءهم حين يلحّون عليهم بالإيمان إنّما يبتغون بذلك تعزيز جانبهم والحرص على مصلحتهم. فلمّا وعدهم على الشكر بالزيادة وأوعدهم على الكفر بالعقوبة خشي أن يحسبوا ذلك لانتقام المثيب بما أثاب عليه، ولتضرّره ممّا عاقب عليه، فنبههم إلى هذا الخاطر الشيطاني حتّى لا يسري إلى نفوسهم فيكسبهم إدلالا بالإيمان والشكر والإقلاع عن الكفر.

{ **وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً** } للتنصيص على العموم.

الغني: الذي لا حاجة له في شيء، فدخل في عموم غناه أنّه غنيّ عن الذين يكفرون به.

الحميد: المحمود. والمعنى: أنّه محمود من غيركم مستغن عن حمدكم.

{ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } [9]

استئناف ابتدائي رجع به الخطاب إلى المشركين من العرب على طريقة الالتفات في قوله { أَلَمْ يَأْتِكُمْ } ، لأنّ

الموجّه إليه الخطاب هنا هم الكافرون المعنيّون بقوله { وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [2]، وهم معظم المعني من النّاس في قوله { لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } [1]، فإنّهم بعد أن أجمل لهم الكلام في قوله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } [4]، ثم فصّل بأن ضرب المثل للإرسال بإرسال موسى - عليه السلام - ، وقُضي حقّ ذلك عقّبه بكلام جامع لأحوال الأمم ورسلهم، فكان بمنزلة الحوصلة والتذييل، مع تمثيل حالهم بحال الأمم السالفة وتشابه عقليّاتهم في حججهم الباطلة، وردّ الرسل عليهم ما ردّ به القرآن على المشركين في مواضع، ثم ختم بالوعيد.

والاستفهام إنكاري لأنّهم قد بلغتهم أخبارهم، فأمّا قوم نوح فقد تواتر خبرهم بين الأمم بسبب خبر الطوفان، وأمّا عاد وثمود فهم من العرب ومساكنهم في بلادهم وهم يمرون عليها ويخبر بعضهم بعضا بها، قال تعالى { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الصافات:137].

{ **وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ** } يشمل أهل مدين وأصحاب الرسّ وقوم تُبّع وغيرهم من أمم انقرضوا وذهبت أخبارهم فلا يعلمهم إلّا الله. وهذا كقوله تعالى {وَعَاداً وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً} [الفرقان: 38].

{ **لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ** } معترضة، وهو كناية عن الكثرة التي يستلزمها انتفاء علم النّاس بهم.

{ **جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ** } جاء كل أمّة رسولها.

{ **فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ** } الضمائرعائد جميعها إلى قوم نوح والمعطوفات عليه. وهذا التركيب لا أعهد سبق مثله في كلام العرب فلعلّه من مبتكرات القرآن.

والمعنى يحتمل عدّة وجوه أنهاها في (الكشاف) إلى سبعة وفي بعضها بُعد، وأولاها بالاستخلاص أن يكون المعنى: أنّهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدّة الضحك من كلام الرسل، وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء.

الردّ: مستعمل في معنى تكرير جعل الأيدي في الأفواه. أي وضعوا أيديهم على الأفواه ثم أزالوها ثم أعادوا وضعها فتلك الإعادة ردّ. وحرف { **فِي** } للظرفية المجازية المراد بها التمكين، فهي بمعنى (عَلَى).

{ **وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ** } أكّدوا كفرهم بما جاءت به الرسل بما دلت عليه (إن) والفعل الماضي، وسمّوا ما كفروا به مرسلا به تهكّما بالرسل.

{ **وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** } فمرادهم: أنّهم وإن كانوا كاذبين في دعوى الرسالة فقد يكون في بعض ما يدعون إليه ما هو صدق وحقّ، فإنّ الكاذب قد يقول حقّا. وجعلوا الشك قويا فلذلك عبّر عنه بأنّهم مظروفون فيه، أي هو محيط بهم ومتمكّن كمال التمكّن.

{ **مُرِيبٍ** } الموقِع في الريب، وهو مرادف الشكّ، فوصف الشك بالمريب من تأكيد ماهيته، كقولهم: ليل أَلْيَل.

{ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ } [10]

{قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}

استفهام إنكاري. ومورد الإنكار هو وقوع الشك في وجود الله، فقدّم متعلّق الشكّ للاهتمام به، ولو قال: أشك في الله، لم يكن له هذا الوقع. وعلّق اسم الجلالة بالشك، والاسم العلم يدلّ على الذات. والمراد: إنكار وقوع الشكّ في أهمّ الصفات الإلهيّة وهي صفة التفرّد بالإلهيّة، أي صفة الوحدانية.

وأتبع اسم الجلالة بالوصف الدال على وجوده وهو وجود السماوات والأرض الدال على أن لهما خالقا حكيما لاستحالة صدور تلك المخلوقات العجيبة المنظمة عن غير فاعل مختار.

{ يَدْعُوكُمْ } حال من اسم الجلالة، أي يدعوكم أن تنبذوا الكفر ليغفر لكم ما أسلفتم من الشرك ويدفع عنكم عذاب الاستئصال فيؤخركم في الحياة إلى أجل معتاد.

الدعاء: حقيقته النداء. فأطلق على الأمر والإرشاد مجازا لأن الآمر ينادي المأمور.

ويعدى فعل الدعاء إلى الشيء المدعو إليه بحرف الانتهاء غالبا وهو (إلى)، وقد يعدّى بلام التعليل داخلة على ما جعل سببا للدعوة فإن العلّة تدل على المعلول، كقوله تعالى {وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ} [نوح: 7]، أي دعوتهم إلى إلى الإيمان لتغفر لهم، وهو في هذه الآية كذلك، أي يدعوكم إلى التوحيد ليغفر لكم.

{ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ }

أرادوا إفحام الرسل بقطع المجادلة النظريّة، فنفوا اختصاص الرسل بشيء زائد في صورتهم البشريّة يعلم به أنّ الله اصطفاهم دون غيرهم، فلذلك طالبوا رسلهم أن يأتوا بحجّة محسوسة تثبت أنّ الله اختارهم للرسالة.

وعبّروا عن دينهم بالموصوليّة لما تؤذن به الصلة من التنويه بدينهم بأنه متقلّد آبائهم الذين يحسبونهم معصومين من اتباع الباطل، وللأمم تقديس لأسلافها.

{ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ } لأنّ مجرد كونهم بشرا لا يقتضي مطالبتهم بالإتيان بسلطان مبين وإنّما اقتضاه أنّهم جاءوهم بإبطال دين قومهم، وهو مضمون ما أرسلوا به.

السلطان: الحجّة. وتقدّم في قوله { أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } [الأعراف:71].

المبين: الواضح الذي لا احتمال فيه لغير ما دلّ عليه.

{ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ [11] وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } [12].

{ **إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** } تقرير للدليل ولكنّه تمهيد لبيان غلط المستدلّ في الاستنتاج من دليله. ومحل البيان هو الاستدراك { **وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** }. والمعنى: أنّ المماثلة في البشريّة لا تقتضي المماثلة في الزائد عليها، فالبشر كلّهم عباد الله والله يمنّ على من يشاء من عباده بنعم لم يعطها غيرهم. فالاستدراك رفع لما توهّموه من كون المماثلة في البشريّة تقتضي الاستواء في كل خصلة.

{ **وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** } ثم عطفوا على ذلك تبيين أنّ ما سأله القوم من الإتيان بسلطان مبين ليس ذلك إليهم ولكنّه بمشيئة الله وليس الله بمكرَه على إجابة من يتحدّاه.

{ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** } أمر لمن آمن من قومهم بالتوكّل على الله، وقصدوا به أنفسهم قصدا أوّليّا لأنّهم أوّل المؤمنين. وتقديم المجرور مؤذن بالحصر وأنّهم لا يرجون نصرا من غير الله تعالى لضعفهم وقلة ناصرهم. وفيه إيماء إلى أنّهم واثقون بنصر الله.

التوكّل: الاعتماد وتفويض التدبير إلى الغير ثقة بأنّه أعلم بما يصلح، فالتوكّل على الله تحقّق أنّه أعلم بما ينفع أولياءه من خير الدنيا والآخرة. وتقدّم الكلام عنه عند قوله { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } آل عمران:59]. والجملة استدلال على صدق رأيهم في تفويض أمرهم إلى الله، لأنّهم رأوا بوارق عنايته بهم إذ هداهم إلى طرائق النجاة والخير.

{ **وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا** }

جاءوا بإنكار نفي التوكل على الله. وزادوا قومهم تأييسا من التأثّر بالأذى فأقسموا على أنّ صبرهم على أذى قومهم سيستمر، فصيغة الاستقبال المستفادة من المضارع المؤكّد بنون التوكيد في { **لَنَصْبِرَنَّ** } دلّت على أذى مستقبل. ودلت صيغة الماضي المنتزع منها المصدر في قوله { **مَا آذَيْتُمُونَا** } على أذى مضى، فحصل من ذلك معنى نصبر على أذى متوقّع، كما صبرنا على أذى مضى، وهذا إيجاز بديع.

{ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** } يحتمل أن تكون من بقية كلام الرسل فتكون تذييلا وتأكيد لجملة السابقة، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى، فهي تذييل للقصّة وتنويه بشأن المتوكّلين على الله.

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ [13] وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ}[14].

{ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** } تغيير أسلوب الحكاية بطريق الإظهار دون الإضمار يؤذن بأنّ المراد هنا غير

الكافرين الذين تقدّمت الحكاية عنهم، فإنّ الحكاية عنهم كانت بطريق الإضمار. فالظاهر عندي أنّ المراد هنا كفار قريش على طريقة التوجيه. وأنّ المراد بـ { **رُسُلِهِمْ** } الرّسول محمد ﷺ، أجريت على وصفه صيغة الجمع. وإطلاق صيغة الجمع على الواحد مجاز: **إما استعارة** إن كان فيه مراعاة تشبيه الواحد بالجمع تعظيما له كما في قوله تعالى { قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ } [المؤمنون:99]. **وإمّا مجاز مرسل** إذا روعي فيه قصد التعمية، فعلاقته الإطلاق والتقيد. والعدول عن الحقيقة إليه لقصد التعمية.

ويؤيّده قوله بعد ذلك { وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ } فإنّه لا يعرف أنّ رسولا من رسل الأمم السالفة دخل أرض مكذّبيه بعد هلاكهم وامتلكها إلّا النبيء محمدا ﷺ، قال في حجة الوداع: " منزلنا إن شاء الله غدا بالخَيْف خَيْفَ بني كنانة حيثُ تقاسموا على الكفر".

وعلى تقدير أن يكون المراد بـ { الَّذِينَ كَفَرُوا } في هذه الآية نفس المراد من الأقوام السالفين فالإظهار في مقام الإضمار لزيادة تسجيل اتّصافهم بالكفر حتّى صار الخصلة التي يعرفون بها. وعلى هذا التقدير يكون المراد من الرسل ظاهر الجمع، فيكون هذا التوعّد شنشنة الأمم ويكون الإيماء إليهم به سنّة الله مع رسله.

العود: الرجوع إلى شيء بعد مفارقته. ولم يكن أحد من الرسل متّبعا ملّة الكفر بل كانوا منعزلين عن المشركين دون تغيير عليهم. فكان المشركون يحسبونهم موافقين لهم.

الملّة: الدين. وقد تقدّم عند قوله تعالى { دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [الأنعام :161].

{ **فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ** } تفريع على ما يقتضيه قول الذين كفروا من العزم على إخراج الرسل من الأرض، أي أوحى الله إلى الرّسل ما يثبّت به قلوبهم، وهو الوعد بإهلاك الظالمين.

{ **وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ** } وإسكان الأرض التمكين منها وتخويلها إيّاهم، كقوله { وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ } [الأحزاب: 27]. والخطاب للرّسل والذين آمنوا بهم، فلا يقتضي أن يسكن الرّسول بأرض عدوّه بل يكفي أن يكون له السلطان عليها وأن يسكنها المؤمنون، كما مكّن الله لرسوله مكّة وأرض الحجاز وأسكنها الذين آمنوا بعد فتحها.

{ **ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ** } إشارة إلى المذكور من الإهلاك والإسكان المأخوذين من { لَنُهْلِكَنَّ - وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ }. واللام للملك، أي ذلك عطاء وتمليك لمن خاف مقامي.

{ **خَافَ مَقَامِي** } خافني، فلفظ (مقام) مقحم للمبالغة في تعلّق الفعل بمفعوله، كقوله تعالى { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [سورة الرحمن: 64]. وخوف الله: هو خوف غضبه، لأنّ غضب الله أمر مكروه لدى عبيده.

{ **وَخَافَ وَعِيدِ** } عطف على { خَافَ مَقَامِي } مع إعادة فعل { خَافَ } لأنّ هذه الصلة وإن كان صريحها ثناء على المخاطبين فالمراد منها التعريض بالكافرين بأنّهم لا يخافون وعيد الله، ولولا ذلك لكانت جملة {خَافَ مَقَامِي} تغني عن هذه الجملة، فإن المشركين لم يعبأوا بوعيد الله وحسبوه عبثا. ولذلك لم يجمع بينهما

في سورة البينة [8] { ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ } لأنّه في سياق ذكر نعيم المؤمنين خاصة.
وهذه الآية في ذكر إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين أرضهم فكان المقام للفريقين، فجمع في جزاء المؤمنين بإدماج التعريض بوعيد الكافرين، وفي الجمع بينهما دلالة على أنّ من حقّ المؤمن أن يخاف غضب ربّه وأن يخاف وعيده، وأولئك هم المتّقون الصالحون.

{ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ [15] مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ [16] يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ}[17].

يجوز أن تكون معطوفة على { فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ } وضمير { وَاسْتَفْتَحُوا } عائد إلى الرسل، أي فوعدهم الله النصر وخاب الذين كفروا، أي لم يتحقّق توعّدهم الرسل بقولهم {لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}. ويجوز أن تكون { وَاسْتَفْتَحُوا } عطفا على { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ } ويكون ضمير { اسْتَفْتَحُوا } عائدا على الذين { كَفَرُوا } ، أي وطلبوا النصر على رسلهم فخابوا في ذلك.
الاستفتاح: طلب الفتح وهو النصر، قال تعالى { إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ } [الأنفال 19].
الجبّار: المتعاظم شديد التكبّر. و**العنيد**: المعاند للحق. وتقدّما في قوله { وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ } [هود:59]. والمراد بهم المشركون المتعاظمون، فوصف {جَبَّارٍ} خلق نفساني، ووصف {عَنِيدٍ} من أثر وصف {جبّار} لأنّ العنيد المكابر معارض للحجّة.
{ **مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ** } أي خاب الجبّار العنيد في الدنيا وليس ذلك حظّة من العقاب بل وراءه عقاب الآخرة.
الوراء: مستعمل في معنى ما ينتظره ويحلّ به من بعد، فاستعير لذلك بجامع الغفلة عن الحصول، كالشيء الذي يكون من وراء المرء لا يشعر به لأنّه لا يراه. والمعنى: أنّ جهنّم تنتظره فهو صائر إليها بعد موته.
الصديد: المُهلة. أي مثل الماء يسيل من الدمل ونحوه، والمعنى: ويسقى صديدا عوض الماء.
التجرّع: تكلّف الجَرْع، والجرع: بلع الماء.
{ **وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ** } السوغ: انحدار الشراب سلسا في الحلق، يقال: شراب سائغ. والمعنى لا يقارب أن يسيغه فضلا عن أن يسيغه بالفعل.
{ **وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ** } أي حلول آلمه وسكراته، بقرينة قوله { وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ }، أي ولا يموت فيستريح.
{ **وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ** } مثل الكلام في قوله { مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ }، أي ينتظره عذاب آخر.
الغليظ: حقيقته الخشن، وهو مستعمل هنا في القوّة والشدّة، أي عذاب ليس بأخفّ مما هو فيه. وتقدّم عند قوله { وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } [هود:58].

{ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ }[18]

تمثيل لحال ما عمله المشركون من الخيرات حيث لم ينتفعوا بها يوم القيامة. وقد أثار هذا التمثيل ما دلّ عليه الكلام السابق من شدّة عذابهم، فيخطر ببالهم أو ببال من يسمع من المسلمين أن يسأل نفسه أنّ لهم أعمالا من الصلة والمعروف: من إطعام الفقراء، ومن عتق رقاب، وقرى ضيوف، وحمالة ديات، وفداء أسارى، واعتمار، ورفادة الحجيج، فهل يجدون ثواب ذلك؟

المثل: الحالة العجيبة، أي حال الذين كفروا العجيبة أنّ أعمالهم كرماد.

شُبهت أعمالهم برماد مكدّس فإذا اشتدت الرياح بالرماد انتثر وتفرق تفرقا لا يرجى معه اجتماعه. ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اضمحلال شيء كثير بعد تجمّعه، والهيئة المشبهة معقولة.

ووصف اليوم بالعاصف مجاز عقلي، أي عاصف ريحه، كما يقال: يوم ماطر، أي سحابه.

الرماد: ما يبقى من احتراق الحطب والفحم.

العاصف: تقدّم في قوله { جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ } [يونس:22].

ومن لطائف هذا التمثيل أن اختير له التشبيه بهيئة الرماد المجتمع، لأنّ الرماد أثر لأفضل أعمال الذين كفروا وأشيعها بينهم وهو قرى الضيف، حتّى صارت كثرة الرماد كناية في لسانهم عن الكرم.

قرأ نافع وأبو جعفر{ الرياح } وقراه البقية { الرِّيحُ } بالإفراد، وهما سواء لأن التعريف تعريف الجنس.

{ **لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ** } بيان لجملة التشبيه، أي ذهبت أعمالهم سدى فلا ينتفعون بشيء منها.

{ **ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ** } تذييل جامع لخلاصة حالهم، وهي أنّها ضلال بعيد. والمراد بالبعيد البالغ نهاية ما تنتهي إليه ماهيته، وقد تقدم في قوله تعالى {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً} [النساء:116].

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ [19] **وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** } [20].

استئناف بياني في موقع التعليل لجملة الاستئناف، قدّم عليها كما تجعل النتيجة مقدمة في الخطابة والجدال على دليلها. وقد بيّنّاه في كتاب (أصول الخطابة). ومناسبة موقع هذا الاستئناف ما سبقه من تفرّق الرماد في يوم عاصف.

{ **أَلَمْ تَرَ** } الخطاب لكلّ من يصلح للخطاب، وكلّ من يُظنّ به التساؤل عن إمكان إهلاك المشركين.

الرؤية: مستعملة في العلم الناشئ عن النظر والتأمّل، لأنّ السماوات والأرض مشاهدة لكل ناظر، وأمّا كونها

مخلوقة لله فمحتاج إلى أقل تأمّل لسهولة الانتقال من المشاهدة إلى العلم. فلمّا كان أصل ذلك رؤية المخلوقات المذكورة علّق الاستدلال على الرؤية. كقوله تعالى {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يونس:101].

الحقّ هنا: الحكمة، أي ضدّ العبث، بدليل مقابلته به في قوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [الدخان:38، 39].

{ **يُذْهِبْكُمْ** } الخطاب لجماعة من جملتهم المخاطب بـ { أَلَمْ تَرَ }. والمقصود: التعريض بالمشركين خاصة، تأكيدا لوعيدهم الذي اقتضاه قوله { لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ }.

{ **وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** } إيماء إلى أنّه يُذهب الجبابرة المعاندين ويأتي في مكانهم في سيادة الأرض بالمؤمنين.

{ **وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** } عطف للتأكيد، وإنّما سلك بهذا التأكيد مسلك العطف لما فيه من المغايرة للمؤكّد في الجملة بأنّه يفيد أنّه سهل عليه هيّن، كقوله {وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم:27].

العزيز: الممتنع بقوّته وقدرته.

{ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ } [21]

عطف على { إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ } [20] باعتبار جواب الشرط وهو الإذهاب، و في الكلام محذوف، إذ التقدير: فأذهبهم وبرزوا لله جميعا، أي يوم القيامة. وعدل عن المضارع إلى الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه حتّى كأنّه قد وقع.

البروز: الخروج من مكان. والمعنى هنا: حشروا من القبور. و{جَمِيعاً} تأكيد ليشمل جميعهم من سادة ولفيفٍ. وقد جيء في هذه الآية و التي بعدها بوصف حال الفرق يوم القيامة، ومجادلة أهل الضلالة مع قادتهم، ومجادلة الجميع للشيطان، وكون المؤمنين في شغل عن ذلك بنُزل الكرامة. والغرض من ذلك تنبيه النّاس إلى تدارك شأنهم.

الضعفاء: عوام النّاس والأتباع.

الذين استكبروا: السادة، لأنّهم يتكبّرون على العموم.. والسين والتاء للمبالغة في الكبر.

التبع: اسم جمع التابع مثل الخدم.

{ **فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا** } الاستفهام مستعمل في التورّك والتوبيخ والتنكيت، لأنّهم آيسون منهم لما رأوا آثار الغضب الإلهي عليهم وعلى سادتهم. ، فعلموا أنّهم قد غرّوهم في الدنيا. أي فأظهروا مكانتكم عند الله التي كنتم تدعونها وتغروننا بها في الدنيا.

{ **مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ** } (من) الأولى بدلية، أي غناء بدلا عن عذاب الله. والمعنى: هل تغنون عنا شيئا.

{ **قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ** } جواب المستكبرين اعتذار عن تغريرهم بأنّهم ما قصدوا به توريط أتباعهم كيف وقد ورّطوا أنفسهم أيضا. أي لو كنا نافعين لنفعنا أنفسنا.

{ **سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا** } من كلام الذين استكبروا. وهي مستأنفة تبيين عن سؤال من الضعفاء. فضمير المتكلّم المشارك شامل للمتكلمين والمجابين، جمعوا أنفسهم إتماما للاعتذار عن توريطهم.

الجزع: حزن مشوب باضطراب، و**الصبر** تقدّم.

{ **مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ** } واقعة موقع التعليل لمعنى الاستواء، أي حيث لا محيص ولا نجاة.

المحيص: مصدر ميمي كالمغيب والمشيب وهو **النجاة**. ويقال: حاص عنه، أي نجا منه. ويجوز أن يكون اسم مكان من حاص أيضا، أي ما لنا **ملجأ** ومكان ننجو فيه.

{ **وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** }[22]

أفضت مجادلة الضعفاء وسادتهم في تغريرهم بالضلالة إلى نطق مصدر الضلالة وهو الشيطان. على أنّ قوله { فَلا تَلُومُونِي } يظهر منه أنّه توجه إليه ملام صريح، ويحتمل أنّه توقعه فدفعه قبل وقوعه وأنّه يتوجّه إليه بطريقة التعريض. والمقصود من وصف هذا الموقف إثارة بغض الشيطان في نفوس أهل الكفر ليأخذوا حذرهم بدفاع وسواسه لأنّ هذا الخطاب الذي يخاطبهم به الشيطان مليء بإضماره الشرّ لهم فيما وعدهم في الدنيا، ممّا شأنه أن يستفزّ غضبهم من كيده لهم وسخريّته بهم، فيورثهم ذلك كراهية له وسوء ظنّهم بما يتوقّعون إتيانه إليهم من قبله. وذلك أصل عظيم في الموعظة والتربية.

{ **قُضِيَ الْأَمْرُ** } تمّ الشأن، أي إذن الله وحكمه. ومعنى إتمامه: ظهوره، وهو أمره تعالى بتمييز أهل الضلالة وأهل الهداية، قال تعالى { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ } [يس:59]، وذلك بتوجيه كل فريق إلى مقرّه الذي استحقّه بعمله، فيتصدى الشيطان للتخفيف عن الملام عن نفسه بتشريك الذين أضلّهم معه في تبعة ضلالهم، وقد أنطقه الله بذلك لإعلان الحقّ، وشهادة عليهم بأنّ لهم كسبا في اختيار الانصياع إلى دعوة الضلال دون دعوة الحقّ. فهذا شبيه شهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون وقولهم لهم { أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ } إظهارا للحقيقة وتسجيلا على أهل الضلالة وقمعا لسفسطتهم. وأخبر الله بها الناس استقصاء في

الإبلاغ ليحيط النّاس علما بكل ما سيحل بهم. وإيقاظا لهم ليتأمّلوا الحقائق الخفيّة فتصبح بيّنة واضحة.

{ **إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ** } وإضافة {وَعْدَ} إلى {الْحَقِّ} من إضافة الموصوف إلى الصفة مبالغة في الاتصاف، أي الوعد الحق الذي لا نقض له.

الحق: هنا بمعنى الصدق والوفاء بالموعود به. وضدّه: الإخلاف، ولذلك قال { وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ }، أي كذبت موعدي. وشمل وعد الحقّ جميع ما وعدهم الله بالقرآن على لسان رسوله ﷺ. وشمل الخلف جميع ما كان يعدهم الشيطان على لسان أوليائه، وما يعدهم إلّا غرورا.

{ **وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ** }

السلطان: اسم مصدر، تسلّط عليه، أي غلبه وقهره، أي لم أكن مجبرا لكم على اتّباعي فيما أمرتكم.

والاستثناء منقطع لأنّ ما بعد حرف الاستثناء ليس من جنس ما قبله. فالمعنى: لكني دعوتكم فاستجبتم لي.

{ **فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ** }. والمقصود: لوموا أنفسكم إذ قبلتم إشارتي ودعوتي.

{ **مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ** }، بيان لجملة النهي عن لومه، لأنّ لومه فيه تعريض بانّهم يتطلّبون منه حيلة لنجاتهم، فنفى ذلك عن نفسه بعد أن نهاهم عن أن يلوموه.

الإصراخ: الإغاثة، اشتق من الصراخ، لأنّ المستغيث يصرخ بأعلى صوته، فقيل: أصرخه، إذا أجاب صراخه، كما قالوا: أعتبه، إذا قبل استعتابه.

{ **إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ** } استئناف آخر من تبعات عبادتهم إيّاه قصد منه دفع زيادة العذاب عنه بإظهار الخضوع لله تعالى.

{ **كَفَرْتُ** } أراد شدّة التبرّي من إشراكهم إيّاه في العبادة. فإن أراد من ماضي فعل { كَفَرْتُ } ماضي الأزمنة كلّها، أي كنت غير راض بإشراككم إياي، فهو كذب منه أظهر به التذلّل، وإن كان مراده من الماضي إنشاء عدم الرضى بإشراكهم إيّاه فهو ندامة بمنزلة التوبة حيث لا يقبل متاب.

والإشراك الذي كفر به، إشراكهم إيّاه في العبادة، بأن عبدوه مع الله، لأنّ من المشركين من يعبدون الشياطين والجنّ، فهؤلاء يعبدون جنس الشيطان مباشرة، ومنهم من يعبدون الأصنام فهم يعبدون الشياطين بواسطة عبادة آلهته.

{ **إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } من الكلام المحكي عن الشيطان. وهي في موقع التعليل لما تقدّم.

{ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ }[23]

انتقال لوصف حال المؤمنين يومئذ بمناسبة ذكر حال المشركين، لأنّ حال المؤمنين يومئذ من جملة الأحوال

المقصودة بالوصف إظهارا لتفاوت الأحوال، فلم يدخل المؤمنون يومئذ في المنازعة والمجادلة تنزيها لهم عن الخوض في تلك الغمرة، مع التنبيه على أنّهم حينئذ في سلامة ودعه.

ويجوز جعل الواو للحال، أي برزوا وقال الضعفاء وقال الكبراء وقال الشيطان، وقد أدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّات، فيكون إشارة إلى أنّهم فازوا بنزل الكرامة من أوّل وهلة.

{ **بِإِذْنِ رَبِّهِمْ** } إشارة إلى العناية والاهتمام، فهو إذن أخصّ من أمر القضاء العام.

{ **تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ** } تقدّم نظيره في أول سورة يونس.

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ [24] تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [25] وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ } [26].

استئناف ابتدائي اقتضته مناسبة ما حكي عن أحوال أهل الضلالة وأحوال أهل الهداية. فضرب الله مثلا لكلمة الإيمان وكلمة الشرك.

{ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً** } إيقاظ ليترقّب ما يرد بعد هذا الكلام، وذلك مثل قولهم: ألم تعلم. ولم يكن هذا المثل مما سبق ضربه قبل نزول الآية، فالكلام تشويق إلى علم هذا المثل.

{ **أَلَمْ** } الاستفهام نزّل المخاطب منزلة من لم يعلم فأنكر عليه عدم العلم، أو هو مستعمل في التعجّب من عدم العلم بذلك مع أنّه ممّا تتوفّر الدواعي على علمه. أو هو للتقرير. ومثله في التقرير كثير، وهو كناية في التحريض على العلم بذلك. والخطاب لكل من يصلح للخطاب.

{ **ضَرَبَ اللَّهُ** } إسناده إلى اسم الجلالة لأنّ الله أوحى به إلى الرسول ﷺ

{ **مَثَلاً** } تقدّم في قوله { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً } [البقرة:17].

{ **كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ...** }

الكلمة الطيبة : قيل هي كلمة الإسلام، وهي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

الكلمة الخبيثة: كلمة الشرك.

الطيبة: النافعة. استعير الطيب للنفع لحسن وقعه في النفوس كوقع الروائح الذكيّة.

الفرع: ما امتد من الشيء وعلا، مشتقّ من الافتراع وهو الاعتلاء. وفرع الشجرة: غصنها.

السماء: مستعمل في الارتفاع، وذلك مما يزيد الشجرة بهجة وحسن منظر.

الأُكل: (بضم الهمزة) المأكول. وتقدّم عند قوله { وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ } [الرعد:4].

فالمشبّه هو الهيئة الحاصلة من البهجة في الحسّ والفرح في النفس وازدياد أصول النفع باكتساب المنافع المتتالية بهيئة رسوخ الأصل، وجمال المنظر، ونماء أغصان الأشجار، ووفرة الثمار، ومتعة أكلها. وكل جزء من أجزاء إحدى الهيئتين يقابله الجزء الآخر من الهيئة الأخرى، وذلك أكمل أحوال التمثيل أن يكون قابلا لجمع التشبيه وتفريعه.

{ **وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ** ... }

وكذلك القول في تمثيل حال الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة على الضدّ بجميع الصفات الماضية من اضطراب الاعتقاد، وضيق الصدر، وكدر التفكير، والضرّ المتعاقب. وقد اختصر فيها التمثيل اختصارا اكتفاء بالمضاد، فانتفت عنها سائر المنافع للكلمة الطيّبة.

وفي جامع الترمذي عن إنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: " {مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا} قال: هي النخلة . { وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} قال: هي الحنظل ".

{ **اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ** } لأنّ النّاس لا يتركونها تلتف على الأشجار فتقتلها.

الاجتثاث: قطع الشيء كلّه، مشتق من الجُثّة وهي الذات.

{ **مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ** } تأكيد لمعنى الاجتثاث لأنّ الاجتثاث من انعدام القرار.

والأظهر أنّ المراد بالكلمة الطيبة القرآن وإرشاده، وبالكلمة الخبيثة تعاليم أهل الشرك وعقائدهم.

{ **كَلِمَةٍ** } في الموضعين مطلقة على القول والكلام، كما دل عليه قوله { يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ }.

والمقصود مع التمثيل إظهار المقابلة بين الحالين بتمثيل كل حالة على حدة بخلاف ما يأتي عند قوله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً }[النحل:75]، فانظر بيانه هنالك.

{ **وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** } معترضة بين الجملتين المتعاطفتين.

{ **لَعَلَّهُمْ** } رجاء تذكّرهم، أي تهيئة التذكّر لهم، وقد مضت نظائرها.

{ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ } [27]

جملة مستأنفة استئنافا بيانيّا ناشئا عما أثاره تمثيل الكلمة الطيبة بالشجرة الثابتة.

{ **بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ** } الكلام الصادق الذي لا شك فيه. والمراد به أقوال القرآن لأنّها صادقة المعاني واضحة الدليل. والباء في { بِالْقَوْلِ } للسببية.

{ **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** } ومعنى تثبيت الذين آمنوا بها، أنّ الله يسّر لهم فهم الأقوال الإلهيّة على

وجهها وإدراك دلائلها حتّى اطمأنت إليها قلوبهم ولم يخامرهم فيها شك فأصبحوا ثابتين في إيمانهم غير متردّدين. وذلك في الحياة الدنيا ظاهر، وأمّا في الآخرة فبإلفائهم الأحوال على نحو ما علموه في الدنيا، فلم تعترهم ندامة ولا لهف. ويكون ذلك بمظاهر كثيرة يظهر فيها ثباتهم بالحقّ قولا وانسياقا، وتظهر فيها فتنة غير المؤمنين في الأحوال كلها. ومن مظاهر هذا التثبيت فيهما ما ورد من وصف فتنة سؤال القبر. روى البخاري والترمذي عن البراء بن عازب أنّ رسول الله ﷺ قال: " المسلم إذا سئل في القبر يشهد أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله "، فذلك قوله تعالى {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}.

{ **وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ** } ، أي المشركين، أي يجعلهم في حيرة وعماية في الدنيا وفي الآخرة.

الضلال: اضطراب وارتباك. فهو الأثر المناسب لسببه، أعني الكلمة التي اجتثت من فوق الأرض كما دلّت عليه المقابلة.

{ **وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** } كالتذييل لما قبلها. وتحت إبهام {مَا يَشَاءُ} وعمومه مطاو كثيرة، من ارتباط ذلك بمراتب النفوس، وصفاء النيات في تطلب الإرشاد. وفي كل تلك الأحوال مراتب ودرجات لا تبلغ عقول البشر تفصيلها. وإظهار اسم الجلالة لقصد أن تكون كلّ جملة مستقلة بدلالتها حتّى تسير مسير المثل.

{ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ** [28] **جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ** } [29].

ابتدئ بذكر أحوال المشركين لأنّها أعجب والعبرة بها أولى والحذر مقدّم على التحلي بضدها، ثم أعقب بذكر أحوال المؤمنين بقوله { قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا } [31]. والاستفهام مستعمل في التشويق إلى رؤية ذلك.

الرؤية: هنا بصريّة متعلقها مما يُرى، ولأنّ تعديّة فعلها بـ { إِلَى } يرجّح ذلك، كما في قوله { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ } [البقرة:258]. وقد نزل المخاطب منزلة من لم ير. والخطاب لمن يصحّ منه النظر إلى حال هؤلاء الذين بدّلوا نعمة الله مع وضوح حالهم.

الكفر: كفران النعمة، وهو ضدّ الشكر، والإشراك بالله من كفران نعمته.

{ **بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً** } محسن الاحتباك. وتقدير الكلام: بدلوا نعمة الله وشكرها كفرا بها. واستعير التبديل لوضع الشيء في الموضع الذي يستحقّه شيء آخر، لأنّه يشبه تبديل الذات بالذات.

والذين بدّلوا هذا التبديل هم الذين تلقّوا الكلمة الخبيثة من الشيطان، أي كلمة الشرك، وهم الذين استكبروا من مشركي أهل مكّة فكابروا دعوة الإسلام وكذّبوا النبيء ﷺ، وشرّدوا من استطاعوا، وتسبّبوا في إحلال قومهم دار البوار، فإسناد فعل { أَحَلُّوا } إليهم على طريقة المجاز العقلي.

ونعمة الله التي بدّلوها هي نعمة أن بوّأهم حرمه، وأمّنهم في سفرهم وإقامتهم، وجعل أفئدة النّاس تهوي إليهم،

وسلّمهم مما أصاب غيرهم من الحروب والغارات والعدوان، فكفروا بمن وهبهم هذه النعم وعبدوا الحجارة. ثم أنعم الله عليهم بأن بعث فيهم أفضل أنبيائه ﷺ وهداهم إلى الحقّ، وهيأ لهم أسباب السيادة والنجاة في الدنيا والآخرة، فبدّلوا شكر ذلك بالكفر به.

قومهم: هم الذين اتبعوهم في ملازمة الكفر حتّى ماتوا كفّارا، فهم أحقّ بأن يضافوا إليهم.

البوار: الهلاك والخسران. **داره**: محلّه الذي وقع فيه.

الإحلال بها: الإنزال فيها. والمراد بالإحلال التسبّب فيه، أي كانوا سببا لحلول قومهم بدار البوار. وهي جهنّم في الآخرة. وبه فسّر علي وابن عباس وكثير من العلماء، ويجوز أن تكون أرض بدر وهو رواية عن علي وعن ابن عباس. واستعمال صيغة الماضي في { أَحَلُّوا } لقصد التحقيق.

{ **وَبِئْسَ الْقَرَارُ** } عطف على جملة {يَصْلَوْنَهَا} ، أو حال من {جَهَنَّمَ}. والتقدير: وبئس القرار هي.

{ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ }[30]

الضمير راجع إلى { الَّذِينَ بَدَّلُوا } وهم أئمة الشرك.

{ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً** } والجعل يصدق على من اخترع ذلك، كما فعل عمرو بن لحي وهو من خزاعة. ويصدق على من أقرّ به ونشره واحتجّ له، مثل وضع أهل مكّة الأصنام في الكعبة.

الأنداد: جمع نِدّ (بكسر النون)، وهو المماثل في مجد ورفعة، وتقدّم عند قوله تعالى { فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً } [البقرة:22].

سبيل الله: كل عمل يجري على ما يرضي الله. شبّه العمل بالطريق الموصلة، وقد تقدّم غير مرة.

{ **قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ** } مستأنفة استئنافا بيانيا لأنّ المخاطب بـ {أَلَمْ تَرَ } إذا علم هذه الأحوال يتساءل عن الجزاء المناسب لجرمهم وكيف تركهم الله يرفلون في النعيم، فأجيب بأنّهم يصيرون إلى النّار، أي يموتون فيصيرون إلى العذاب. وهذا كقوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ } [آل عمران :196، 197].

{ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ } [31].

استئناف نشأ عن ذكر حال الفريق الذي حقّت عليه الكلمة الخبيثة بذكر حال مقابله، وهو الفريق الذي حقّت عليه الكلمة الطيّبة. فلما ابتدئ بالفريق الأوّل لقصد الموعظة والتخلّي ثُنِّي بالفريق الثاني على طريقة الاعتراض بين أغراض الكلام كما سيأتي في الآية عقبها. ونظيره قوله تعالى { وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً

أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً - إلى أن قال - وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [الإسراء:50، 52].

ولمّا كانوا متحلّين بالكمال صيغ الحديث عنهم بعنوان الوصف بالإيمان، وبصيغة الأمر بما هم فيه من صلاة وإنفاق لقصد الدوام على ذلك، فحصلت بذلك مناسبة وقع هذه الآية بعد التي قبلها لمناسبة تضاد الحالين.

ولمّا كان المؤمنون يقيمون الصلاة من قبل وينفقون من قبل تعين أنّ المراد الاستزادة من ذلك، ولذلك اختير المضارع مع تقدير لام الأمر دون صيغة فعل الأمر لأنّ المضارع دال على التجدّد، فهو مع لام الأمر يلاقي حال المتلبّس بالفعل الذي يؤمر به، بخلاف صيغة (افعل) فإنّ أصلها طلب إيجاد الفعل المأمور به من لم يكن ملتبسا به. فأصل { يُقِيمُوا الصَّلاةَ } ليقيموا، فحذفت لام الأمر تخفيفا.

{ **مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ** } للتذكير بالنعمة تحريضا على الإنفاق ليكون شكرا للنعمة.

{ **سِرّاً وَعَلانِيَةً** } حالان من ضمير {يُنْفِقُوا}. وهما مصدران. وتقدّم عند قوله {سِرّاً وَعَلانِيَةً} [البقرة:274]. والمقصود تعميم الأحوال في طلب الإنفاق، فربّما توخى المرء أحد الحالين فأفضى إلى ترك الإنفاق في الحال الآخر فتعطل نفع كثير وثواب جزيل، فبين الله للنّاس أنّ الإنفاق برّ لا يكدّره ما يحف به من الأحوال، " وإنّما الأعمال بالنيّات ". وقد تقدّم شيء من هذا عند قوله تعالى { الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ } [التوبة: 79].

وقيل المقصود من السرّ الإنفاق المتطوّع به، ومن العلانية الإنفاق الواجب. وتقديم السرّ على العلانيّة تنبيه على أنّه أولى الحالين لبعده عن خواطر الرياء، ولأنّ فيه استبقاء لبعض حياء المتصدّق عليه.

{ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ** } أي ليفعلوا ذينك الأمرين قبل حلول اليوم الذي تتعذر فيه المعاوضات والإنفاق. وهذا كناية عن عظيم منافع إقامة الصلاة والإنفاق قبل يوم الجزاء عنهما حين يتمنّون أن يكونوا ازدادوا من ذينك لما يسرّهم من ثوابهما فلا يجدون سبيلا للاستزادة منهما، إذ لا بيع يومئذ فيشتري الثواب ولا خلال من شأنها الإرفاد والإسعاف بالثواب. **فالمراد بالبيع المعاوضة وبالخلال الكناية عن التبرّع**. ونظيره قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ } [البقرة:254].

وبهذا تبين أن المراد من الخلال هنا آثارها، بقرينة المقام، وليس المراد نفي الخلّة، أي الصحبة والمودّة لأنّ المودّة ثابتة بين المتقين، قال تعالى { الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } [الزخرف:67].

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ [32] وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ [33] وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [34].

استئناف واقع موقع الاستدلال على ما تضمّنته جملة { وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً }. وقد فصل بينه وبين المستدلّ عليه بجملة { قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ }. وأدمج في الاستدلال تعداده لنعم تستحق الشكر عليها ليظهر حال الذين كفروها، وبالضدّ حال الذين شكروا عليها، وليزداد الشاكرون شكرا. فالمقصود الأول هو الاستدلال على أهل الجاهلية، كما يدل عليه تعقيبه بقوله { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ } [35]. فجيء في هذه الآية بنعم عامة مشهودة محسوسة لا يستطاع إنكارها، إلّا أنّها للتذكير بأنّ المنعم بها وموجدها هو الله تعالى.

{ **اللَّهُ الَّذِي** } افتتح الكلام باسم الموجد لأنّ تعينه هو الغرض الأهم. وأخبر عنه بالموصول لأنّ الصلة معلومة الانتساب إليه والثبوت له، إذ لا ينازع المشركون في أنّ الله هو صاحب الخلق ولا يدّعون أنّ الأصنام تخلق شيئا، كما قال { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } [لقمان: 25]، فخلق السماوات والأرض دليل على إلهية خالقها وتمهيد للنعم المودعة فيها؛ كإنزال الماء من السماء إلى الأرض، وإخراج الثمرات من الأرض، والبحار والأنهار من الأرض. والشمس والقمر من السماء، والليل والنهار من السماء ومن الأرض، وقد مضى بيان هذه النعم في آيات مضت.

الرزق: القوت.

التسخير: حقيقته التذليل والتطويع، وهو مجاز في جعل الشيء قابلا لتصرّف غيره فيه، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ } [الأعراف:54]. ومعنى **تسخير الفلك**: تسخير ذاتها بإلهام البشر لصنعها وشكلها بكيفية تجري في البحر بدون مانع.

{ **بِأَمْرِهِ** } متعلق بـ {تَجْرِيَ}، والأمر هنا الإذن، أي تيسير جريها في البحر، وذلك بكفّ العواصف عنها وبإعانتها بالريح الرخاء، وهذا كقوله { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ} [الحج: 65]. وقد بينته آية { وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ } [سورة الشورى: 32- 33].

تسخير الأنهار: خلقها على كيفيّة تقتضي انتقال الماء من مكان إلى مكان وقراره في بعض المنخفضات

فيستقي منه من تمرّ عليه وينزل على ضفافه حيث تستقرّ مياهه. وخلق بعضها مستمرّة القرار كالدجلة والفرات والنيل للشرب ولسير السفن فيها.

تسخير الشمس والقمر: خلقهما بأحوال ناسبت انتفاع البشر بضيائهما، وضبط أوقاتهم بسيرهما.

{ **دَائِبَيْنِ** } دائبين على حالات لا تختلف إذ لو اختلفت لم يستطع البشر ضبطها فوقعوا في حيرة وشك.

الفلك: جمع لفظه كلفظ مفرده. وتقدّم عند قوله {وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ} [البقرة:164].

{ **وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ** } أعطاكم بعضا من جميع مرغوباتكم الخارجة عن اكتسابكم بحيث شأنكم فيها أن تسألوا الله إيّاها، وذلك مثل توالد الأنعام، وإخراج الثمار والحبّ، ودفع العوادي عن جميع ذلك: كدفع الأمراض عن الأنعام، ودفع الجوائح عن الثمار والحبّ. فالجملة تعميم بعد خصوص، فهي بمنزلة التذييل لما قبلها لحكم يعلمها الله ولا يعلمونها { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} [الشورى: 27]، فالإنعام والامتنان يكون بمقدار البذل لا بمقدار الحرمان.

{ **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** } تأكيد للتذييل وزيادة في التعميم، تنبيها على أنّ ما آتاهم الله كثير منه معلوم وكثير منه لا يحيطون بعلمه أو لا يتذكّرونه عند إرادة تعداد النعم. وذلك مثل النعم المعتاد بها التي ينسى النّاس أنّها من النعم، كنعمة النفس، ونعمة الحواس، ونعمة هضم الطعام والشراب، ونعمة الدورة الدموية، ونعمة الصحة.

الإحصاء: ضبط العدد، وهو مشتق من الحَصَا اسما للعدد، وهو منقول من الحصى، وهو صغار الحجارة لأنّهم كانوا يعدّون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنبا للغلط.

{ **إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** } تأكيد لمعنى الاستفهام الإنكاري المستعمل في تحقيق تبديل النعمة كفرا، فلذلك فصلت عنها .و{ **الْإِنْسَانَ** } هنا هو صنف من الناس، وهو المشرك، مثل الذي في قوله { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً } [الشورى: 66]، وهو استعمال كثير في القرآن.

{ **ظَلُومٌ كَفَّارٌ** } صيغتا المبالغة اقتضاهما كثرة النعم المفاد من قوله { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا }، إذ بمقدار كثرة النعم يكثر كفر الكافرين بها، إذ أعرضوا عن عبادة المنعم وعبدوا ما لا يغني عنهم شيئا.

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ [35] رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [36].

عطف على { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً } [28] فإنّهم كما بدّلوا نعمة الله كفرا أهملوا الشكر على ما بوّأهم الله من النعم بإجابة دعوة أبيهم إبراهيم - عليه السلام - وبدّلوا اقتداءهم بسلفهم الصالح اقتداء بأسلافهم من أهل الضلالة، وبدّلوا دعاء سلفهم الصالح لهم بالإنعام عليهم كفرا بمُفيض تلك النّعم.

ويجوز أن تكون معطوفة على { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } بأن انتقل من ذكر النعم العامة للنّاس التي يدخل تحت منّتها أهل مكّة بحكم العموم إلى ذكر النعم التي خص الله بها أهل مكّة. وغيّر الأسلوب في الامتنان بها إلى أسلوب الحكاية عن إبراهيم لإدماج التنويه بإبراهيم - عليه السلام - والتعريض بذرّيّته من المشركين.

{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ } اسم زمان ماض منصوب على المفعولية لفعل محذوف شائع الحذف في أمثاله، تقديره: واذكر إذ قال إبراهيم، زيادة في التعجيب من شأن المشركين.

{ رَبِّ } منادى محذوف منه حرف النداء. وأصله (ربي)، حذفت ياء المتكلّم تخفيفا، وهو كثير في المنادى المضاف إلى الياء.

البلد: المكان المعيّن من الأرض، ويطلق على القرية. والتعريف تعريف العهد لأنّه معهود بالحضور.

وحكاية دعائه بدون بيان البلد إبهام يرد بعده البيان بقوله {عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ } [37]. وقد مضى في سورة البقرة تفسير نظيره. والتعريف هنا للعهد، والتنكير في آية البقرة تنكير النوعيّة، فهنا دعا للبلد بأن يكون آمنا، وفي آية سورة البقرة دعا لمشار إليه أن يجعله الله من نوع البلاد الآمنة، فمآل المفادين متّحد.

{ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ }، { وَاجْنُبْنِي } أمر من الثلاثي المجرّد، يقال: جنبه الشيء، إذا جعله جانبا عنه، أي باعده عنه، وهي لغة أهل نجد. وأهل الحجاز يقولون: جنّبه بالتضعيف أو أجنبه بالهمز. وجاء القرآن هنا بلغة أهل نجد لأنّها أخف.

{ وَبَنِيَّ } أبناء صلبه، وهم يومئذ إسماعيل وإسحاق، فهو من استعمال الجمع في التثنية، أو أراد جميع نسله تعميما في الخير فاستجيب له في البعض.

الأصنام: جمع صنم، وهو صورة أو حجارة أو بناء يتّخذ معبودا ويدعى إلها. وأراد إبراهيم - عليه السلام - مثل ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، أصنام قوم نوح، ومثل الأصنام التي عبدها قوم إبراهيم.

{ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ } وإعادة النداء لإنشاء التحسر على ذلك .والكلام تعليل للدعوة بإجنابه عبادتها، بأنّها ضلال راج بين كثير من النّاس، فحقّ للمؤمن الضنين بإيمانه أن يخشى أن تجترفه فتنتها.

وافتتاح الجملة بحرف التوكيد لما يفيده حرف (إنّ) في هذا المقام من معنى التعليل.

وذلك أن إبراهيم - عليه السلام - خرج من بلده (**أور**) بلد الكلدانيين إنكارا على عبدة الأصنام، فقال { إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الصافات: 99] وقال لقومه { وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } [مريم: 48]. فلمّا مرّ بمصر وجدهم يعبدون الأصنام ثم دخل فلسطين فوجدهم عبدة أصنام، ثم جاء عَرَبَةَ تهامة فأسكن بها زوجه فوجدها خالية ووجد حولها (**جُرهم**) قوما على الفطرة والسذاجة فأسكن بها هاجر وابنه إسماعيل - عليه السلام -. ثم أقام هنالك معلم التوحيد، وهو بيت الله الكعبة بناه هو وابنه إسماعيل، وأراد أن يكون مأوى

التوحيد، وأقام ابنه هنالك ليكون داعية للتوحيد. فلا جرم سأل أن يكون ذلك بلدا آمنا حتّى يسلم ساكنوه وحتّى يأوى إليهم من إذا آوى إليهم لقّنوه أصول التوحيد.

{ **فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي** } ، أي فمن تبعني من النّاس فتجنّب عبادة الأصنام فهو منّي. فدخل في ذلك أبوه وقومه، ويدخل فيه ذرّيّته لأنّ الشرط يصلح للماضي والمستقبل.

{ **وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** } تأدّب في مقام الدعاء، ونفع للعصاة من الناس بقدر ما يستطيعه.

والمعنى: ومن عصاني أفوض أمره إلى رحمتك وغفرانك. وليس المقصود الدعاء بالمغفرة لمن عصى.

وهذا من غلبة الحلم على إبراهيم - عليه السلام - وخشية من استئصال عصاة ذريته. ولذلك متّعهم الله قليلا في الحياة الدنيا، كما أشار إليه قوله { قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [البقرة: 126] وقوله { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ } [الزخرف: 27].

وسوق هذه الدعوة هنا للتعريض بالمشركين من العرب بأنّهم لم يبرّوا بأبيهم إبراهيم - عليه السلام - .

{ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ }[37]

جملة مستأنفة لابتداء دعاء آخر. وافتتحت بالنداء لزيادة التضرّع. وفي كون النداء تأكيدا لنداء سابق ضرب من الربط بين الجمل المفتتحة بالنداء ربط المثل بمثله.

وأضيف الربّ هنا إلى ضمير الجمع خلافا لسابقيه لأنّ الدعاء الذي افتتح به فيه حظ للداعي ولأبنائه. ولعلّ إسماعيل - عليه السلام - حاضر معه حين الدعاء كما تدلّ له الآية الأخرى { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} - إلى قوله - وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ } [البقرة:127].

{ **مِنْ ذُرِّيَّتِي** } يعني إسماعيل - عليه السلام - وهو بعض ذرّيّته، فكان هذا الدعاء صدر من إبراهيم - عليه السلام - بعد زمان من بناء الكعبة وتقرّي مكّة.

الواد: الأرض بين الجبال، وهو وادي مكّة.

{ **غَيْرِ ذِي زَرْعٍ** } صفة، أي بواد لا يصلح للنبت لأنّه حجارة، فإنّ كلمة ذو تدلّ على صاحب ما أضيفت إليه وتمكّنه منه، فإذا قيل: ذو مال، فالمال ثابت له، وإذا أريد ضد ذلك قيل: غير ذي مال، كقوله تعالى { قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ } [الزمر: 28]، أي لا يعتريه شيء من العوج.

{ **عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ** } صفة ثانية لواد أو حال. و**المحرّم**: المُمَنّع من تناول الأيدي إيّاه بما يفسده أو يضرّ أهله بما جعل الله له في نفوس الأمم من التوقير والتعظيم.

{ **رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ** } أي أن لا يشغلهم عن إقامة الصلاة في ذلك البيت شاغل فيكون البيت معمورا أبدا.

{ **فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ** } فرّع عليه الدعاء لهم بأن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، لأنّ همّة الصالحين في إقامة الدين.

الأفئدة: جمع فؤاد، وهو القلب. والمراد هنا النفس والعقل. والمعنى: فاجعل أناسا يقصدونهم برغبة وشوق.

تهوي: مضارع هوَى (بفتح الواو): سقط. وأطلق هنا على الإسراع في المشي استعارة، ولذلك عدّي باللام. وهو كناية عن المحبّة والشوق إلى زيارتهم.

والمقصود من هذا الدعاء تأنيس مكانهم بتردّد الزائرين وقضاء حوائجهم منهم.

ومحبّة النّاس إيّاهم يحصل معها محبّة البلد وتكرير زيارته، وذلك سبب لاستئناسهم به ورغبتهم في إقامة شعائره، فيؤول إلى الدعوة إلى الدين.

{ **لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** } ورجاء شكرهم داخل في الدعاء لأنّه جعل تكملة له تعرّضا للإجابة وزيادة في الدعاء لهم بان يكونوا من الشاكرين.

{ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ}[38]

جاء بهذا التوجّه إلى الله جامعا لما في ضميره، وفذلكة للجمل الماضية لما اشتملت عليه من ذكر ضلال كثير من النّاس، وذكر من اتبع دعوته ومن عصاه، وذكر أنّه أراد من إسكان أبنائه بمكّة رجاء أن يكونوا حرّاس بيت الله، وأن يقيموا الصلاة، وأن يشكروا النعم المسؤولة لهم. وفيه تعليم لأهله وأتباعه بعموم علم الله تعالى حتّى يراقبوه في جميع الأحوال ويخلصوا النيّة إليه.

أي تعلم أحوالنا وتعلم كلّ شيء. ولكونها تذييلا أظهر فيها اسم الجلالة ليكون التذييل مستقلا بنفسه بمنزلة المثل والكلام الجامع.

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ }[39]

لما دعا الله لأهمّ ما يهمّه وهو إقامة التوحيد وكان يرجو إجابة دعوته وأنّ ذلك ليس بعجب في أمر الله، خطر بباله نعمة الله عليه بما كان يسأله وهو أن وهب له ولدين في إبّان الكبر وحين اليأس من الولادة، فناجى الله فحمده على ذلك وأثنى عليه بأنه سميع الدعاء، أي مجيب، أي متصف بالإجابة وصفا ذاتيا، تمهيدا لإجابة دعوته هذه كما أجاب دعوته سلفا. فهذا مناسبة موقع هذه الجملة بعد ما قبلها.

{ **عَلَى الْكِبَرِ** } للاستعلاء المجازي بمعنى (مع)، أي مع الكبر الذي لا تحصل معه الولادة. وكان عمر إبراهيم حين ولد له إسماعيل عليهما السلام ستا وثمانين سنة (86). وعمره حين ولد له إسحاق عليهما السلام مائة سنة (100). وكان لا يولد له من قبل.

{ **إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ** } تعليل، أي وهب ذلك لأنّه سميع الدعاء. والسميع مستعمل في إجابة المطلوب كناية، وصيغ بمثال المبالغة أو الصفة المشبّهة ليدلّ على كثرة ذلك وأنّ ذلك شأنه، فيفيد أنّه وصف ذاتيّ لله تعالى.

{ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ [40] رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ } [41].

جملة مستأنفة من تمام دعائه. و**الإقامة**: الإدامة، وتقدّم في صدر سورة البقرة.

{ **وَمِنْ ذُرِّيَّتِي** } {مِنْ} ابتدائية وليست للتبعيض، لأنّ إبراهيم - عليه السلام - لا يسأل الله إلّا أكمل ما يحبّه لنفسه ولذرّيّته.

{ **وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ** } ودعاؤه بتقبّل دعائه ضراعة بعد ضراعة. وحذفت ياء المتكلم في {دُعَاءِ} في قراءة الجمهور تخفيفا كما تقدّم في قوله تعالى { وَإِلَيْهِ مَتَابِ } [الرعد:30].

{ **رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ** } ثم دعا بالمغفرة لنفسه وللمؤمنين ولوالديه ما تقدّم منه ومن المؤمنين قبل نبوءته، وما استمر عليه أبوه بعد دعوته من الشرك، أمّا أمّه فلعلّها توفيت قبل نبوءته. وهذا الدعاء لأبويه قبل أن يتبيّن له أن أباه عدو لله كما في آية سورة براءة.

{ **يَقُومُ الْحِسَابُ** }: يثبت. استعير القيام للثبوت تبعا لتشبيه الحساب بإنسان قائم، لأنّ حالة القيام أقوى أحوال الإنسان إذ هو انتصاب للعمل. ومنه قولهم: قامت الحرب على ساق، إذ قويت واشتدت. وقولهم: ترجّلت الشمس، إذا قوي ضوءها، وتقدّم عند قوله تعالى { وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ } [البقرة:4].

{ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ [42] مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ } [43].

له اتصال بجملة { قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ } [30] الذي هو وعيد للمشركين وإنذار لهم بأنّ لا يغترّوا بسلامتهم وأمنهم تنبيها لهم على أنّ ذلك متاع قليل زائل، فأكّد ذلك الوعيد بهذه الآية، مع إدماج تسلية الرّسول ﷺ على ما يتطاولون به من النعمة والدعة. وباعتبار ما فيه من زيادة معنى التسلية وما انضم إليه من وصف فظاعة حال المشركين يوم الحشر حسن اقتران هذه الجملة بالعاطف ولم تفصل.

{ **وَلا تَحْسَبَنَّ** } ظاهرها نهي عن حسبان ذلك. وهذا النهي كناية عن إثبات وتحقيق ضد المنهي عنه، أي

تحقّق أنّ الله ليس بغافل، وهو كناية ثانية عن لازم عدم الغفلة وهو المؤاخذة، فهو كناية بمرتبتين. وعلى هذا الاستعمال جاءت الآية سواء جعلنا الخطاب لكلّ من يصحّ أن يخاطب فيدخل فيه النبيء ﷺ أم جعلناه للنبيء ابتداء ويدخل فيه أمته.

ونفي الغفلة عن الله ليس جاريا على صريح معناه لأنّ ذلك لا يظنّه مؤمن، بل هو كناية عن النهي عن استعجال العذاب للظالمين. ومنه جاء معنى التسلية للرسول ﷺ.

الغفلة: الذهول، وتقدّم في قوله تعالى { وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ } [الأنعام:156].

{ **الظَّالِمُونَ** } المراد بالظلم هنا الشرك، لأنّه ظلم للنفس بإيقاعها في سبب العذاب المؤلم. وظلم لله بالاعتداء على ما يجب له من الاعتراف بالوحدانيّة. ويشمل ذلك ما كان من الظلم دون الشرك مثل ظلم النّاس بالاعتداء عليهم أو حرمانهم حقوقهم فإنّ الله غير غافل عن ذلك. ولذلك قال سفيان بن عيينة: هي تسلية للمظلوم وتهديد للظالم.

{ **تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ** } ارتفاعه كنظر المبهوت الخائف. أي تشخص فيه أبصار النّاس من هول ما يرون. ومن جملة ذلك مشاهدة هول أحوال الظالمين.

الإهطاع: إسراع المشي مع مد العنق كالمتختّل، وهي هيئة الخائف.

إقناع الرأس: طأطأته من الذلّ، وهو مشتق من قنع إذا تذلّل.

{ **لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ** } في موضع الحال أيضا. **والطَّرْفُ**: تحرك جفن العين. والمعنى لا يرجع إليهم، أي لا يعود إلى معتاده، أي لا يستطيعون تحويله. فهو كناية عن هول ما شاهدوه.

{ **وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء** } تشبيه بليغ، إذ هي كالهواء في الخلو من الإدراك لشدّة الهول. والهواء في كلام العرب: الخلاء. وليس هو المعنى المصطلح عليه في علم الطب وعلم الهيئة.

{ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ [44] وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ } [45].

{ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ}

النّاس: يعمّ جميع البشر. والمقصود: الكافرون، بقرينة قوله { يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا }. ولك أن تجعل النّاس ناسا معهودين وهم المشركون.

{ **يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ** } منصوب على أنّه مفعول ثان لـ { أَنْذِرِ }، وفعل الإنذار يتعدّى إلى مفعول ثان على التوسّع لتضمينه معنى التحذير. وإتيان العذاب مستعمل في معنى وقوعه مجازا مرسلا.

العذاب: عذاب الآخرة، أو عذاب الدنيا الذي هُدّد به المشركون.

{ **رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ** } طلب تأخير العذاب، إن كان مرادا به عذاب الآخرة فالتأخير بمعنى تأخير الحساب، أي يقول الذين ظلموا: أرجعنا إلى الدنيا لنجيب دعوتك. وهذا كما في قوله تعالى { رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ } [المؤمنون:99، 100]، فالتأخير مستعمل في الإعادة إلى الحياة الدنيا مجازا مرسلا بعلاقة الأول.

وإن حمل على عذاب الدنيا فالمعنى: أنّ المشركين يقولون ذلك حين يرون ابتداء العذاب فيهم. فالتأخير على هذا حقيقة. والرسل على هذا المحمل مستعمل في الواحد مجازا، والمراد به محمد ﷺ.

القريب: القليل الزمن. شبّه الزمان بالمسافة، أي أخّرنا مقدار ما نجيب به دعوتك.

{ **أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ** }

افتتحت جملة الجواب بواو العطف تنبيها على معطوف عليه مقدّر هو رفض ما سألوه، حذف إيجازا لأنّ شأن مستحقّ التوبيخ أن لا يعطى سؤله. فالتقدير: كلا، ألم تكونوا أقسمتم...

الزوال: الانتقال من المكان. وأريد به هنا الزوال من القبور إلى الحساب.

{ **مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ** } بيان لجملة { أَقْسَمْتُمْ }. وهذا القسم قد يكون صادرا من جميع الظالمين حين كانوا في الدنيا لأنّهم كانوا يتلقون تعاليم واحدة في الشرك يتلقاها الخلف عن سلفهم. ويجوز أن يكون ذلك صادرا من معظم هذه الأمم أو بعضها ولكن بقيّتهم مضمرون لمعنى هذا القسم.

{ **وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** } فإنّه يعم جميع أمم الشرك عدا الأمة الأولى منهم.

والمراد بالسكنى: الحلول، ولذلك عدّي بحرف الظرفية خلافا لأصل فعله المتعدي بنفسه. وكان العرب يمرون على ديار ثمود في رحلتهم إلى الشام ويحطون الرحال هنالك، ويمرون على ديار عاد في رحلتهم إلى اليمن.

{ **وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ** } حاصل من مشاهدة آثار العذاب من خسف وفناء استئصال.

{ **وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ** } بأقوال المواعظ على ألسنة الرسل عليهم السلام، ووصف الأحوال الخفيّة.

وقد جمع لهم في إقامة الحجّة بين دلائل الآثار والمشاهدة، ودلائل الموعظة.

{ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ } [46].

يجوز أن يكون عطف خبر على خبر، ويجوز أن يكون حالا من { النَّاسَ }، أي أنذرهم في حال وقوع مكرهم.

المكر: تبييت فعل السوء بالغير وإضماره. وتقدّم في قوله تعالى { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ } [آل عمران:54]

{ **وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ** } العنديّة إمّا عنديّة علم، أي وفي علم الله مكرهم، فهو تعريض بالوعيد والتهديد بالمؤاخذة بسوء فعلهم، وإمّا عنديّة تكوين، وتقديره في إرادة الله، فيكون وعيدا بالجزاء على مكرهم.

{ **لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ** } قرأ الجمهور { لِتَزُولَ } بكسر اللام وبنصب الفعل المضارع بعدها فتكون (إن) نافية ولام { لِتَزُولَ } لام الجحود، أي وما كان مكرهم زائلة منه الجبال، وهو استخفاف بهم، أي وما هو بالذي تزول منه الجبال. وفي هذا تعريض بأنّ الرسول ﷺ والمسلمين الذين يريد المشركون المكر بهم لا يزعزعهم مكرهم لأنّهم كالجبال الرواسي.

وقرأ الكسائي وحده - بفتح اللام الأولى - من {لَتَزُولُ} ورفع اللام الثانية على أن تكون {إنْ} مخففة من {إنّ} المؤكدة وقد أكمل إعمالها، واللام فارقة بينها وبين النافية، فيكون الكلام إثباتا لزوال الجبال من مكرهم، أي هو مكر عظيم لتزول منه الجبال لو كان لها أن تزول. وهذا من المبالغة في حصول أمر شنيع أو شديد في نوعه على نحو قوله تعالى {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً} [مريم: 90].

{ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } [47]

تفريع على { وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ } [42]. وهذا محلّ التسلية. والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم.

وأضيف { مُخْلِفَ } إلى مفعوله الثاني وهو { وَعْدِهِ } وإن كان المفعول الأوّل {رُسُلَهُ} هو الأصل في التقديم والإضافة إليه، لأنّ الاهتمام بنفي إخلاف الوعد أشدّ، فلذلك قدم.

{ **رُسُلَهُ** } جمع مراد به النبيء ﷺ لا محالة، فهو جمع مستعمل في الواحد مجازا. وهذا تثبيت للنبيء صلى الله عليه وسلم بأنّ الله منجز له ما وعده من نصره على الكافرين به. فأمّا وعده للرسل السابقين فذلك أمر قد تحقّق فلا يناسب أن يكون المراد.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ** } تعليل للنهي عن حسبانه مخلف وعده.

العزّة: القدرة. والمعنى: أن موجب إخلاف الوعد منتف عن الله تعالى لأنّ إخلاف الوعد يكون إمّا عن عجز وإمّا عن عدم اعتياد الموعود به، فالعزّة تنفي الأوّل وكونه صاحب انتقام ينفي الثاني. وهذه الجملة تذييل أيضا وبها تمّ الكلام.

{ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [48] وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ [49] سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ [50] لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [51].

استئناف لزيادة الإنذار بيوم الحساب، لأنّ في هذا تبيين بعض ما في ذلك اليوم من الأهوال.

التبديل: التغيير في شيء إمّا بتغيير صفاته، كقوله تعالى { فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } [الفرقان:70]، وقولك: بدلت الحلقة خاتما، وإمّا بتغيير ذاته وإزالتها بذات أخرى، كقوله تعالى { بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا } [النساء: 56]، وقوله { وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ } [سبأ:16].

تبديل الأرض والسماوات يوم القيامة: إمّا بتغيير الأوصاف التي كانت لها وإبطال النظم المعروفة فيها في الحياة الدنيا، وإمّا بإزالتها ووجدان أرض وسماوات أخرى في العالم الأخروي. وحاصل المعنى: استبدال العالم المعهود بعالم جديد.

{ **وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** } مثل ما ذُكر في قوله { وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً }. وضمير { بَرَزُوا } عائد إلى معلوم من السياق، أي وبرز النّاس أو برز المشركون.

{ **الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** } للرد على المشركين الذين أثبتوا له شركاء وزعموا أنّهم يدافعون عن أتباعهم.

التقرين: وضع اثنين في قرن، أي حبل.

الأصفاد: جمع صِفاد بوزن كتاب، وهو القيد والغلّ.

السرابيل: جمع سربال وهو القميص.

القطران: دهن من تركيب كيمياوي قديم عند البشر يصنعونه من إغلاء شجر الأرز وشجر السرو وشجر الأُبْهُل (بضم الهمزة والهاء وبينهما موحدة ساكنة) وهو شجر من فصيلة العرعر، ومن شجر العرعر، بأن تقطّع الأخشاب وتجعل في قبة مبنية على بلاط سويّ وفي القبّة قناة إلى خارج، وتوقد النار حول تلك الأخشاب فتصعد الأبخرة منها ويسري ماء البخار في القناة فتصب في إناء آخر موضوع تحت القناة فيتجمع منه ماء أسود يعلوه زبد خاثر أسود، فالماء يعرف بالسائل والزبد يعرف بالبرقي. ويتخذ للتداوي من الجرب للإبل ولغير ذلك مما هو موصوف في كتب الطب.

وجعلت سرابيلهم من قطران لأنّه شديد الحرارة فيؤلم الجلد الواقع هو عليه، فهو لباسهم قبل دخول النار ابتداء بالعذاب حتى يقعوا في النار.

{ **إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** } مستأنفة، إمّا لتحقيق أن ذلك واقع كقوله {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ} [الذاريات: 5، 6]، وإما استئناف ابتدائي، وأخّرت إلى آخر الكلام لتقديم {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ}.

{ هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } [52]

الإشارة إلى الكلام السابق في السورة كلّها من أين ابتدأته أصبت مراد الإشارة، والأحسن أن يكون للسورة كلّها.

البلاغ: اسم مصدر التبليغ، أي هذا المقدار من القرآن في هذه السورة تبليغ للنّاس كلّهم.

واللام في {لِلنَّاسِ} هي المعروفة بلام التبليغ، وهي التي تدخل على اسم من يسمع قولا أو ما في معناه.

{ **وَلِيُنْذَرُوا** } عطف على { بَلاغٌ } عطف على كلام مقدر يدل عليه لفظ {بَلاغٌ}. والتقدير: هذا بلاغ للنّاس ليستيقظوا من غفلتهم ولينذروا به. وقد تقدّم قريب من نظم هذه الآية في قوله تعالى { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا } [الأنعام:92].

والمعنى: وليعلموا ممّا ذكر فيه من الأدلّة ما الله إلّا إله واحد. وهذا قصر موصوف على صفة وهو إضافي، أي أنّه تعالى لا يتجاوز تلك الصفة إلى صفة التعدد بالكثرة أو التثليث، كقوله { إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ } [النساء:171].

التذكّر: النظر في أدلة صدق الرسول ﷺ ووجوب اتّباعه، ولذلك خصّ بذوي الألباب تنزيلا لغيرهم منزلة من لا عقول لهم { إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً } [الفرقان44].

وقد رتّبت صفات الآيات المشار إليها باسم الإشارة على ترتيب عقلي بحسب حصول بعضها عقب بعض، فابتدئ بالصفة العامة وهي حصول التبليغ، ثم ما يعقب حصول التبليغ من الإنذار، ثم ما ينشأ عنه من العلم بالوحدانيّة، لما في خلال هذه السورة من الدلائل، ثم بالتذكير في ما جاء به ذلك البلاغ وهو تفاصيل العلم والعمل. وهذه المراتب هي جامع حكمة ما جاء به الرسول ﷺ موزّعة على من بلّغ إليهم. ويختص المسلمون بمضمون قوله { وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ }.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الحِجْر

سمّيت هذه السورة سورة الحِجْر، ولا يعرف لها اسم غيره. ووجه التسمية أنّ اسم الحِجر لم يذكر في غيرها. والحِجر اسم البلاد المعروفة به وهو حِجر ثمود. وثمود هم أصحاب الحِجر. وسيأتي الكلام عليه عند قوله تعالى { وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ }.

وهي مكّيّة كلّها وحكي الاتفاق عليه .

واستثناء قوله تعالى { كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ } بناء على تفسيرهم {الْمُقْتَسِمِينَ} بأهل الكتاب وهو صحيح، وتفسير { جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ } أنّهم قالوا: ما وافق منه كتابنا فهو صدق وما خالف كتابنا فهو كذب. ولم يقل ذلك إلّا يهود المدينة، وهذا لا نصحّحه كما نبينه عند الكلام على تلك الآية. ولو سلم هذا التفسير من جهتيه فقد يكون لأنّ اليهود سمعوا القرآن قبل هجرة النبيء ﷺ بقليل فقالوا ذلك حينئذ، على أنّه قد روي أنّ قريشا لمّا أهمّهم أمر النبيء ﷺ استشاروا في أمره يهود المدينة.

وعلى تصحيح أنّها مكّيّة فقد عدّت الرابعة والخمسين في عدد نزول السور، نزلت بعد سورة يوسف وقبل سورة الأنعام.

ومن العجيب اختلافهم في وقت نزول هذه السورة وهي مشتملة على آية { فاصدع بما تؤمر } وقد نزلت عند خروج النبيء ﷺ من دار الأرقم في آخر السنة الرابعة من بعثته.

وعدد آيها تسع وتسعون باتفاق العادين.

أغراض السورة

افتتحت بالحروف المقطّعة التي فيها تعريض بالتحدي بأعجاز القرآن.

وعلى التنويه بفضل القرآن وهديه.

وإنذار المشركين بندم يندمونه على عدم إسلامهم.

وتوبيخهم بأنّهم شغلهم عن الهدى انغماسهم في شهواتهم.

وإنذارهم بالهلاك عند حلول إبّان الوعيد الذي عيّنه الله في علمه.

وتسلية الرسول ﷺ على عدم إيمان من لم يؤمنوا، وما يقولونه في شأنه وما يتورّكون بطلبه منه، وأنّ تلك عادة المكذّبين مع رسلهم.

وأنّهم لا تجدي فيهم الآيات والنذر لو أسعفوا بمجيء آيات حسب اقتراحهم به وأنّ الله حافظ كتابه من كيدهم.

ثم إقامة الحجّة عليهم بعظيم صنع الله وما فيه من نعم عليهم.

وذكر البعث ودلائل إمكانه.

وانتقل إلى خلق نوع الإنسان وما شرّف الله به هذا النوع.

وقصة كفر الشيطان.

ثم ذكر قصّة إبراهيم ولوط - عليهما السلام - وأصحاب الأيكة وأصحاب الحِجر.

وختمت بتثبيت الرّسول ﷺ وانتظار ساعة النصر، وأن يصفح عن الذين يؤذونه، ويكل أمرهم إلى الله، ويشتغل بالمؤمنين، وأنّ الله كافيه أعداءه.

مع ما تخلّل ذلك من الاعتراض والإدماج من ذكر خلق الجنّ، واستراقهم السمع، ووصف أحوال المتّقين، والترغيب في المغفرة، والترهيب من العذاب.

{ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ }[1]

{ **آلر** } تقدّم الكلام على نظير فاتحة هذه السورة في أوّل سورة يونس. وتقدّم في أوّل سورة البقرة ما في مثل هذه الفواتح من إعلان التحدّي بإعجاز القرآن.

{ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ** } الإشارة إلى ما هو معروف قبل هذه السورة من مقدار ما نزل من القرآن. وهذه الإشارة لتنزيل آيات القرآن منزلة الحاضر المشاهد.

{ **الْكِتَابِ** } علم بالغلبة على القرآن الذي أنّزل على محمد ﷺ للهدى والإرشاد إلى الشريعة. وسمي كتابا لأنّهم مأمورون بكتابة ما ينزل منه لحفظه ومراجعته. و التعريف للدلالة على معنى كمال الجنس، فاقتضى أنّ تلك الآيات هي آيات كتاب بالغ منتهى كمال جنسه، أي من كتب الشرائع.

ووقعت هذه الآية في مفتتح تهديد المكذّبين بالقرآن لقصد الإعذار إليهم باستدعائهم للنظر في دلائل صدق الرسول ﷺ وحقّيّة دينه.

{ **وَقُرْآنٍ** } عطف على { الْكِتَابِ } لأنّ اسم القرآن جعل علما على ما أنزل على محمد ﷺ للإعجاز والتشريع، فهو الاسم العلم لكتاب الإسلام مثل اسم التوراة والإنجيل والزبور.

فاسم القرآن أرسخ في التعريف به من الكتاب لأنّ العلم الأصلي أدخل في تعريف المسمّى من العلم بالغلبة، فسواء نكّر لفظ القرآن أو عرّف باللام فهو علم على كتاب الإسلام.

وابتدئ بالمعرف باللام لما في التعريف من إيذان بالشهرة والوضوح وما فيه من الدلالة على معنى الكمال،

ولأنّ المعرّف هو أصل الإخبار والأوصاف، ثمّ جيء بالمنكر لأنّه أريد وصفه بالمبين، والمنكر أنسب بإجراء الأوصاف عليه، ولأنّ التنكير يدلّ على التفخيم والتعظيم، فوزّعت الدلالتان على نكتة التعريف ونكتة التنكير.

فأمّا تقديم الكتاب على القرآن في الذكر فلأن سياق الكلام توبيخ الكافرين وتهديدهم بأنّهم سيجيء وقت يتمنّون فيه أن لو كانوا مؤمنين. فلمّا كان الكلام موجّها إلى المنكرين ناسب أن يستحضر المنزّل على محمد ﷺ بعنوانه الأعم وهو كونه كتابا، لأنّهم حين جادلوا ما جادلوا إلّا في كتاب فقالوا { لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ } [الأنعام:157].

المبين: اسم الفاعل من أبان القاصر الذي هو بمعنى بان **مبالغة في ظهوره**، أي ظهور إعجازه الذي تحققه المعاندون وغيرهم. وإنّما لم نجعل المبين بمعنى أبان المتعدّي لأنّ كونه بيّنا في نفسه أشدّ في توبيخ منكريه من وصفه بأنّه مظهر لما اشتمل عليه. وسيجيء قريب من هذه الآية في أوّل سورة النمل.

{ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ }[2]

استئناف ابتدائي وهو مفتتح الغرض وما قبله كالتنبيه والإنذار.

{ **رُبَمَا** } مركبة من (رب). وهو حرف يدلّ على تنكير مدخوله ويجرّ ويختص بالأسماء. وهو بتخفيف الباء وتشديدها في جميع الأحوال. وفيها عدّة لغات. واقترنت بها (ما) التي تكفّ عمل (رب) غالبا. وبذلك يصح دخولها على الأفعال. فإذا دخلت على الفعل فالغالب أن يراد بها التقليل. والتقليل هنا مستعمل في التهكّم والتخويف. والأكثر أن يكون فعلا ماضيا، وقد يكون مضارعا للدلالة على الاستقبال كما هنا.

والكلام خبر مستعمل في التهديد والتهويل في عدم اتباعهم دين الإسلام والمعنى: قد يودّ الذين كفروا لو كانوا أسلموا.

{ **لَوْ** } مستعملة في التمنّي لأنّ أصلها الشرطية، إذ هي حرف امتناع لامتناع، فهي مناسبة لمعنى التمنّي الذي هو طلب الأمر الممتنع الحصول. والتزم حذف جوابها اكتفاء بدلالة المقام عليه ثم شاع حذف القول.

{ **كَانُوا** } الإتيان بفعل الكون الماضي للدلالة على أنّهم يودّون الإسلام بعد مضي وقت التمكّن من إيقاعه، وذلك عندما يقتلون بأيدي المسلمين، وعند حضور يوم الجزاء. وقد ودّ المشركون ذلك غير مرة في الحياة الدنيا حين شاهدوا نصر المسلمين. قال تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ } [الأنعام:27].

{ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } [3]

اقتضت (رُبّ) أنّ استمرارهم على غلوائهم هو أكثر حالهم، وهو الإعراض عمّا يدعوهم إليه الإسلام من الكمال النفسي، فبإعراضهم عنه رضوا لأنفسهم بحياة الأنعام، فخوطب الرّسول ﷺ بما يُعرّض لهم بذلك من أنّ حياتهم حياة أكل وشرب. { وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ } [محمد:12].

{ **ذَرْهُمْ** } أمر لم يُسمع له ماض في كلامهم. وهو **بمعنى الترك**. وتقدم في قوله { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً } [الأنعام:70].

والأمر بتركهم مستعمل في لازمه وهو قلّة جدوى الحرص على إصلاحهم. وليس مستعملا في الإذن بمتاركتهم لأنّ النبيء ﷺ مأمور بالدوام على دعائهم، ودليله قوله تعالى { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً - إلى قوله - وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ } [الأنعام:70] ، فما أمره بتركهم إلّا وقد أعقبه بأمره بالتذكير بالقرآن، فعلم أن الترك مستعمل في عدم الرجاء في صلاحهم.

وقد حذف متعلّق الترك لأنّ الفعل نزل منزلة ما لا يحتاج إلى متعلّق، إذ المعني به ترك الاشتغال بهم والبعد عنهم، فذلك عدي فعل الترك إلى ذواتهم ليدل على اليأس منهم.

{ **يَأْكُلُوا** } مجزوم بلام الأمر محذوفة. وهو أمر للتوبيخ والتوعّد والإنذار بقرينة قوله { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ }.

التمتّع: الانتفاع بالمتاع. وقد تقدّم غير مرة، منها قوله { وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [الأعراف:24].

{ **وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ** } إنساؤه إيّاهم ما حقّهم أن يتذكروه، بأن يصرفهم تطلّب ما لا ينالون عن التفكير في البعث والحياة الآخرة.

{ **الْأَمَلُ** }: مصدر. وهو ظنّ حصول أمر مرغوب مع استبعاد حصوله. فهو واسطة بين الرجاء والطمع.

{ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** } تفرّع على التعريض التصريح بالوعيد، وهو مما يستعمل في الوعيد كثيرا حتى صار كالحقيقة. وفيه إشارة إلى أن لإمهالهم أجلا معلوما كقوله {وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ} [الفرقان:42].

{ **وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ** [4] **مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ** } [5].

اعتراض تذييلي لأنّ في هذه الجملة حكما يشملهم وهو حكم إمهال الأمم التي حقّ عليها الهلاك، أي ما أهلكنا أمّة إلّا وقد متعناها زمنا وكان لهلاكها أجل ووقت محدود، فهي ممتّعة قبل حلوله، وهي مأخوذة عند إبّانه.

وهذا تعريض لتهديد ووعيد مؤيّد بتنظيرهم بالمكذّبين السالفين.

وإنّما ذكر حال القرى التي أهلكت من قبل لتذكير هؤلاء بسنّة الله في إمهال الظالمين لئلّا يغرّهم ما هم فيه من التمتّع، فيحسبوا أنّهم أفلتوا من الوعيد.

وهذا التهديد لا يقتضي أنّ المشركين قدّر الله أجلا لهلاكهم، فإنّ الله لم يستأصلهم ولكن هدى كثيرا منهم إلى الإسلام بالسيف وأهلك سادتهم يوم بدر.

القرية: تطلق على المدينة. وتقدّمت عند قوله تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ } [البقرة:259].

الكتاب: القدر المحدود عند الله. شبّه بالكتاب في أنّه لا يقبل الزيادة والنقص.

{ **وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ** } في موضع الحال، وصاحب الحال { قَرْيَةٍ }.

{ **مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا** } لبيان فائدة التحديد في { وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ }: أنّه عدم المجاوزة بدءا ونهاية.

ومعنى (تسبق أجلها) تفوته، أي تُعدم قبل حلوله، شبّه ذلك بالسبق.

{ **وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ** }: يتأخّرون. فالسين والتاء للتأكيد.

وأنّث مفردا ضمير الأمّة مرة مراعاة للفظ، وجمع مذكرا مراعاة للمعنى.

{ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ [6] لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } [7].

عطف على { ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا } [3]، والمناسبة أنّ المعطوف عليها تضمّنت انهماكهم في الملذّات والآمال، وهذه تضمّنت توغّلهم في الكفر وتكذيبهم الرسالة المحمدية. والمعنى: ذرهم يكذّبون ويقولون شتى القول من التكذيب والاستهزاء.

{ **يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ** } النداء للتشهير بالوصف المنادى به، واختيار الموصولية لما في الصلة من المعنى الذي جعلوه سبب التهكّم. وقرينة التهكم قولهم { إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ }.

{ **الذِّكْرُ** }: مصدر ذكر، إذا تلفّظ. ومصدر ذكر إذا خطر بباله شيء. فالذكر الكلام الموحى به ليُتلى ويكرّر، فهو للتلاوة، لأنّه يذكر ويعاد، إمّا لأنّ فيه التذكير بالله واليوم الآخر، وإمّا بمعنى أنّ به ذكرهم في الآخرين. والمراد به هنا القرآن، فتسمية القرآن ذكرا تسمية جامعة عجيبة لم يكن للعرب علم بها من قبل أن ترد في القرآن. وكذلك تسميته قرآنا لأنّه قصد من إنزاله أن يقرأ، فصار الذكر والقرآن صنفين من أصناف الكلام الذي يلقى للنّاس لقصد وعيه وتلاوته، كما كان من أنواع الكلام الشعر والخطبة والقصة والأسطورة. ويدلّك لهذا قوله تعالى { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ } [يّس:69]، فنفى أن يكون الكتاب المنزّل على محمد ﷺ شعرا، ووصفه بأنّه ذكر وقرآن.

{ **إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ** } وإنّما وصفوه بالجنون لتوهّمهم أنّ ادعاء نزول الوحي عليه لا يصدر من عاقل، لأنّ ذلك عندهم مخالف للواقع توهّما منهم بانّ ما لا تقبله عقولهم التي عليها غشاوة ليس من شأنه أن يقبله العقلاء فالداعي به غير عاقل.

المجنون: الذي جنّ، أي أصابه فساد في العقل من أثر مس الجن إيّاه في اعتقادهم، فالمجنون اسم مفعول مشتقّ من الفعل المبني للمجهول وهو من الأفعال التي لم ترد إلّا مسندة للمجهول.

{ **لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ** } استدلال على ما اقتضته الجملة قبلها باعتبار أن المقصود منها تكذيب الرّسول ﷺ. و{ **لَوْ مَا** } حرف تخصيص بمنزلة **(لولا)** التحضيضية. ويلزم دخولها الجملة الفعلية.

والمراد بالإتيان بالملائكة حضورهم عندهم ليخبروهم بصدقه في الرسالة. وهذا كما حكى الله في الآية الأخرى بقوله تعالى { أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً } [الاسراء:92].

{ **إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** } أي من النّاس الذين صفتهم الصدق.

{ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ } [8]

مستأنفة ابتدائيّة، جوابا لكلامهم وشبهاتهم ومقترحاتهم. أريد منه إزالة جهالتهم إذ سألوا نزول الملائكة علامة على التصديق، لأنّهم وإن طلبوا ذلك بقصد التهكم فهم مع ذلك معتقدون أنّ نزول الملائكة هو آية صدق الرسول ﷺ، فكان جوابهم مشوبا بطرف من الأسلوب الحكيم، وهو صرفهم إلى تعليمهم المَيْزَ بين آيات الرّسل وبين آيات العذاب، فأراد الله أن لا يدّخرهم هديا، وإلّا فهم أحرياء بأن لا يجابوا.

النزول: التدلّي من علو إلى سفل. والمراد به هنا انتقال الملائكة من العالم العلوي إلى العالم الأرضي نزولا مخصوصا. وهو نزولهم لتنفيذ أمر الله بعذاب يرسله على الكافرين. كما أنزلوا إلى مدائن لوط -عليه السلام- وليس مثل نزول جبريل عليه السلام أو غيره من الملائكة إلى الرسل عليهم السلام بالشرائع أو بالوحي.

{ **بِالْحَقِّ** } المراد هنا الشيء الحاقّ، أي المقضي، مثل إطلاق القضاء بمعنى المقضي. وهو هنا صفة لمحذوف يعلم من المقام، أي العذاب الحاقّ. قال تعالى { وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ } [الحج:18]، وقرينته قوله { **وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ** }، أي لا تنزل الملائكة للنّاس، غير الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إلّا مصاحبين للعذاب الحاقّ، كما تنزّلت الملائكة على قوم لوط وهو عذاب الاستئصال.

والمعنى: ولو تنزلت الملائكة لعجّل للمنزل عليهم ولما أمهلوا. ويفهم من هذا أنّ الله منظرهم، لأنّه لم يرد استئصالهم، لأنه أراد أن يكون نشر الدين بواسطتهم فأمهلهم حتى اهتدوا ولكنه أهلك كبراءهم ومدبّريهم.

ونظير هذا قوله في سورة الأنعام { وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ }.

الإنظار: التأخير والتأجيل.

{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }[9]

استئناف ابتدائي لإبطال جزء من كلامهم المستهزئين به { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ } [6].
وكان هذا الجواب من نوع القول بالموجب بتقرير إنزال الذكر على الرسول ﷺ مجاراة لظاهر كلامهم.
والمقصود الردّ عليهم في استهزائهم، فأكّد الخبر بـ { إِنَّا } وضمير الفصل مع موافقته لما في الواقع، ثم زاد ذلك ارتقاء ونكاية لهم بأنّ منزّل الذكر هو حافظه من كيد الأعداء.
وشمل حفظه الحفظ من التلاشي، والحفظ من الزيادة والنقصان فيه، بأن يسّر تواتره وأسباب ذلك، وسلّمه من التبديل والتغيير حتّى حفظته الأمّة عن ظهور قلوبها من حياة النبيء ﷺ، فاستقر بين الأمّة بمسمع من النبيء ﷺ وصار حفّاظه بالغين عدد التواتر في كل مصر.
وقد حكى عياض في(المدارك): " أنّ القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد المالكي البصري سئل عن السر في تطرق التغيير للكتب السالفة وسلامة القرآن من طرق التغيير له. فأجاب بأنّ الله أوكل للأحبار حفظ كتبهم فقال { بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ } [المائدة:44] وتولى حفظ القرآن بذاته تعالى فقال { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون } ".
وفي هذا مع التنويه بشأن القرآن إغاضة للمشركين بأنّ أمر هذا الدين سيتمّ وينتشر القرآن ويبقى على مرّ الأزمان. وهذا من التحدي ليكون هذا الكلام كالدليل على أنّ القرآن منزّل من عند الله آية على صدق الرّسول ﷺ لأنّه لو كان من قول البشر أو لم يكن آية لتطرقت إليه الزيادة والنقصان ولاشتمل على الاختلاف، قال تعالى { أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً} [النساء:82].

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ [10] وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}[11].

وهذه إبطال لاستهزائهم على طريقة التمثيل بنظرائهم من الأمم السالفة. وفي هذا التنظير تحقيق لكفرهم لأنّ كفر أولئك السالفين مقرّ عند الأمم ومتحدّث به بينهم. وفيه أيضا تعريض بوعيد أمثالهم وإدماج بالكناية عن تسلية الرسول ﷺ.
{ **وَلَقَدْ** } التأكيد بلام القسم وقد لتحقيق سبق الإرسال من الله، مثل الإرسال الذي جحدوه واستعجبوه، كقوله تعالى { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ } [يونس:2].
الشيع: جمع شيعة وهي الفرقة التي أمرها واحد، وتقدّم ذلك عند قوله تعالى {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً} [الأنعام:65].
أي القرون الأولى، فإنّ من الأمم من أرسل إليهم ومن الأمم من لم يرسل إليهم.
{ **كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** }، (**كانُوا**) دلّت على أنّه سجيّة لهم، والمضارع دلّ على تكرّره منهم، وأنّه سنّتهم.

وتقديم المجرور يفيد القصر للمبالغة، لأنهم لما كانوا يكثرون الاستهزاء برسولهم وصار ذلك سجية لهم نزلوا منزلة من ليس له عمل إلّا الاستهزاء بالرسول.

{ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ [12] لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ } [13].

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا ناشئا عن جملة { وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [9]، إذ قد يخطر بالبال أنّ حفظ الذكر يقتضي أن لا يكفر به من كفر. فأجيب بأنّ ذلك عقاب من الله لهم لإجرامهم وتلقّيهم الحقّ بالسخرية وعدم التدبّر، ولأجل هذا اختير لهم وصف المجرمين دون الكافرين لأنّ وصف الكفر صار لهم كاللقب لا يشعر بمعنى التعليل.

{ **نَسْلُكُهُ** } التعبير بصيغة المضارع للدلالة على أنّ المقصود إسلاك في زمن الحال، أي زمن نزول القرآن، ليعلم أنّ المقصود بيان تلقّي المشركين للقرآن، فلا يتوهّم أنّ المراد بالمجرمين شيع الأولين مع ما يفيده المضارع من الدلالة على التجديد المناسب لقوله { وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ }، أي تجدّد لهؤلاء إبلاغ القرآن على سنّة إبلاغ الرسالات من قبلهم. وفيه تعريض بأنّ ذلك أعذار لهم ليحلّ بهم العذاب كما حلّ بمن قبلهم.

السلك: الإدخال.

المجرمون: هم كفار قريش. فإنهم يسمعونه ويفهمونه إذ هو من كلامهم ويدركون خصائصه، ولكنّه لا يستقر في عقولهم استقرار تصديق به بل هم مكذبون به. وبهذا السلوك تقوم الحجّة عليهم بتبليغ القرآن إليهم ويعاد إسماعهم إيّاه المرّة بعد المرّة.

{ **لا يُؤْمِنُونَ بِهِ** } بيان للسلك المشبّه به أو حال من المجرمين، أي تعيه عقولهم ولا يؤمنون به. وهذا عام مراد به من ماتوا على الكفر منهم.

{ **وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ** } معترضة بين { لا يُؤْمِنُونَ بِهِ } وجملة { وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ } [14]. والكلام تعريض بالتهديد بأن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم الماضية معاملة للنظير بنظيره، لأنّ كون سنة الأولين مضت أمر معلوم غير مفيد ذكره، فكان الخبر مستعملا في لازمه بقرينة تعذّر الحمل على أصل الخبرية.

السنّة: العادة المألوفة. وتقدّم في قوله تعالى { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ } [آل عمران:137].

{ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ [14] لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ } [15].

عطف على { لا يُؤْمِنُونَ بِهِ } [13] وهو كلام جامع لإبطال جميع معاذيرهم بأنّهم لا يطلبون الدلالة على صدقه، لأنّ دلائل الصدق بيّنة، ولكنّهم ينتحلون المعاذير المختلفة.

أي أنّهم لو اتصلوا بعالم القدس والنفوس الملكيّة ورأوا ذلك رأي العين لاعتذروا بأنّها تخيّلات وأنّهم سُحروا.

ونظيره قوله { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } [الأنعام:7].

{ **فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ** } و(ظلّ) تدل على الكون في النهار، أي وكان ذلك في وضح النّهار.

العروج: الصعود. ويجوز في مضارعه ضم الراء وبه القراءة وكسرها، أي فكانوا يصعدون في ذلك الباب نهارا.

{ **لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا** }، { سُكِّرَتْ } (بضم السين وتشديد الكاف) في قراءة الجمهور، وبتخفيف الكاف في قراءة ابن كثير. وهو مبني للمجهول على القراءتين، أي **سدّت**. يقال: سكّر الباب بالتشديد وسكره بالتخفيف إذا سدّه. والمعنى: لجحدوا أن يكونوا رأوا شيئا.

{ **بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ** }، أي ما رأيناه هو تخيّلات المسحور، أي فعادوا إلى إلقاء تبعة ذلك على الرّسول ﷺ بأنّه سحرهم حين سأل لهم الله أن يفتح بابا من السماء ففتحه لهم.

وتقدم الكلام على السحر وأحواله عند قوله تعالى { يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ } [البقرة:102].

{ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ [16] وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ [17] إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ } [18].

لمّا جرى الكلام السابق في شأن تكذيب المشركين برسالة محمد ﷺ وما تورّكوا به في ذلك، انبرى القرآن يبيّن لهم دلائل تفرّد الله تعالى بالإلهية، فذكر الدلائل الواضحة من خلق السماوات والأرض، ثم أعقبها بدلائل إمكان البعث من خلق الحياة والموت وانقراض أمم وخلفها بأخرى في قوله تعالى { وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ } [23]. وصادف ذلك مناسبة ذكر فتح أبواب السماء في تصوير غلوائهم بعنادهم، فكان الانتقال إليه تخلّصا بديعا. وفيه ضرب من الاستدلال على مكابرتهم فإنّهم لو أرادوا الحقّ لكان لهم في دلالة ما هو منهم غنية عن تطلب خوارق العادات.

{ **وَلَقَدْ** } افتتح الكلام بلام القسم وحرف التحقيق تنزيلا للمخاطبين الذاهلين عن الاستدلال بذلك منزلة المتردّد فأكّد لهم الكلام بمؤكّدين. ومرجع التأكيد إلى تحقيق الاستدلال وإلى الإلجاء إلى الإقرار بذلك.

البروج: جمع بُرج (بضم الباء)، وحقيقته البناء الكبير المتّخذ للسكنى أو للتحصّن. وهو يرادف القصر، قال تعالى { وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ } [النساء:78].

وأطلق البرج على بقعة معيّنة من سمت طائفة من النجوم غير السيّارة وتسمّى (النجوم الثوابت) متجمّع بعضها بقرب بعض على أبعاد بينها لا تتغير فيما يشاهد من الجو، فتلك الطائفة تكون بشكل واحد يشابه نقطا

لو خططت بينها خطوط لخرج منها شبه صورة حيوان أو آلة سمّوا باسمها تلك النجوم المشابهة لهيئتها وهي واقعة في خط سير الشمس. وقد سمّاها الأقدمون من علماء التوقيت بما يرادف معنى الدار أو المكان.
وسماها العرب بروجا ودارات على سبيل الاستعارة المجعولة سببا لوضع الاسم، تخيّلوا أنّها منازل للشمس لأنّهم وقّتوا بجهتها سمت موقع الشمس من قبّة الجو نهارا فيما يخيّل للناظر أنّ الشمس تسير في شبه قوس الدائرة. وجعلوها اثني عشر مكانا بعدد شهور السنة الشمسية وما هي في الحقيقة إلّا سموت لجهات تقابل كل جهة منها الأرض من جهة وراء الشمس مدة معيّنة. ثم إذا انتقل موقع الأرض من مدارها كل شهر من السنة تتغيّر الجهة المقابلة لها. فبما كان لها من النظام تسنّى أن تجعل علامات لمواقيت حلول الفصول الأربعة وحلول الأشهر الاثني عشر، فهم ضبطوا لتلك العلامات حدودا وهميّة عيّنوا مكانها في الليل من جهة موقع الشمس في النّهار وأعادوا رصدها يوما فيوما. وكلما مضت مدّة شهر من السنة ضبطوا للشهر الذي يليه علامات في الجهة المقابلة لموقع الشمس في تلك المدّة. وهكذا، حتّى رأوا بعد اثني عشر شهرا أنّهم قد رجعوا إلى مقابلة الجهة التي ابتدأوا منها فجعلوا ذلك حولا كاملا. وتلك المسافة التي تخال الشمس قد اجتازتها في مدة السنة سموها دائرة البروج أو منطقة البروج. وللتمييز بين تلك الطوائف من النجوم جعلوا لها أسماء الأشياء التي شبهوها بها وأضافوا البرج إليها.
وهي على هذا الترتيب ابتداء من برج مدخل فصل الربيع: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت.
وأول من رسم هذه الرسوم الكلدانيون، ثم انتقل علمهم إلى بقية الأمم، ومنهم العرب فعرفوها وضبطوها وسموها بلغتهم.
ولذلك أقام القرآن الاستدلال بالبروج على عظيم قدرته وانفراده بالخلق لأنّهم قد عرفوا دقائقها ونظامها الذي تهيّأت به لأن تكون وسيلة ضبط المواقيت بحيث لا تخلف ملاحظة راصدها. وما خلقها الله بتلك الحالة إلّا ليجعلها صالحة لضبط المواقيت كما قال تعالى { لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ } [يونس:5]. ثم ارتقى في الاستدلال بكون هذه البروج العظيمة الصنع قد جعلت بأشكال تقع موقع الحسن في الأنظار فكانت زينة للناظرين يتمتعون بمشاهدتها في الليل فكانت الفوائد منها عديدة.
{ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ } فهو إدماج للتعليم في أثناء الاستدلال. وفيه التنويه بعصمة الوحي من أن يتطرقه الزيادة والنقص، بأنّ العوالم التي يصدر منها الوحي وينتقل فيها محفوظة من العناصر الخبيثة. فهو يرتبط بقوله { وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [9].
وكانوا يقولون: محمد كاهن؛ ولذلك قال الوليد بن المغيرة لمّا حاورهم فيما أعدّوا من الاعتذار لوفود العرب في موسم الحجّ إذا سألوهم عن هذا الرجل الذي ادّعى النبوءة. وقد عرضوا عليه أن يقولوا: هو كاهن، فكان من

كلام الوليد أن قال: "... ولا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهّان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ". وكان الكهّان يزعمون أنّ لهم شياطين تأتيهم بخبر السماء، وهم كاذبون ويتفاوتون في الكذب.

والمراد بالحفظ من الشياطين الحفظ من استقرارها وتمكّنها من السماوات.

الشيطان: تقدّم في سورة البقرة.

الرجيم: المحقّر، لأنّ العرب كانوا إذا احتقروا أحدا حصبوه بالحصباء. كقوله تعالى { قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ } [34]، أي ذميم محقّر. و**الرُجام** (بضم الراء) الحجارة. قيل، هي أصل الاشتقاق. ويحتمل العكس.

وقد كان العرب يرجمون قبر أبي رِغال الثقفي الذي كان دليل جيش الحبشة إلى مكة. قال جرير:

إذا مات الفرزدق فارجموه ... كما ترمون قبر أبي رغال

والرجم عادة قديمة حكاها القرآن عن قوم نوح { قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ } [الشعراء:116]. وعن أبي إبراهيم { لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ } [مريم:46]. وقال قوم شعيب { وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ } [هود:91].

{ **إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ** } الاستماع بخفية من المتحدّث، كأنّ المستمع يسرق من المتكلم كلامه الذي يخفيه عنه.

{ **فَأَتْبَعَهُ** } بمعنى تبعه. والهمزة زائدة. وتقدّم عند قوله {فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الأعراف:175].

المبين: الظاهر البيّن.

وفيه تعليم لهم بأنّ الشهب التي يشاهدونها متساقطة في السماء هي رجوم للشياطين المسترق، طردا لها عن استراق السمع كاملا، فقد عرفوا ذلك من عهد الجاهلية ولم يعرفوا سببه.

والمقصود من منع الشياطين من ذلك منعهم الاطلاع على ما أراد الله عدم اطّلاعهم عليه من أمر التكوين ونحوه، ممّا لو ألقته الشياطين في علم أوليائهم لكان ذلك فسادا في الأرض. وربّما استدرج الله الشياطين وأولياءهم فلم يمنع الشياطين من استراق شيء قليل يلقونه إلى الكهّان، فلمّا أراد الله عصمة الوحي منعهم من ذلك بتاتا فجعل للشهب قوّة خرق التموّجات التي تتلقى منها الشياطين المسترقون السمع وتمزيق تلك التدرجات الموصوفة في الحديث الصحيح.

ثم إن ظاهر الآية لا يقتضي أكثر من تحكّك (مُسترق السمع) على السماوات لتحصيل انكشافات جُبِل المسترقُ على الحرص على تحصيلها. وفي آية الشعراء ما يقتضي أنّ هذا المسترق يلقي ما تلقّاه من الانكشافات إلى غيره لقوله { يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ } [الشعراء:223].

ومقتضى تكوين الشهب للرجم أنّ هذا الاستراق قد منع عن الشياطين.

وفي سورة الجن دلالة على أنّه منع بعد البعثة ونزول القرآن إحكاما لحفظ الوحي من أن يلتبس على النّاس

بالكهانة، فيكون ما اقتضاه حديث عائشة وأبي هريرة - رضي الله عنهما - من استراق الجنّ السمع وصفا للكهانة السابقة. ويكون قوله: " ليسوا بشيء " وصفا لآخر أمرهم.

وقد ثبت بالكتاب والسنة وجود مخلوقات تسمّى بالجنّ وبالشياطين مع قوله { وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ } [صّ:37]. والأكثر أن يُخصّ باسم الجنّ نوع لا يخالط خواطر البشر، ويخصّ باسم الشياطين نوع دابة الوسوسة في عقول البشر بإلقاء الخواطر الفاسدة.

وظواهر الأخبار الصحيحة من الكتاب والسنّة تدلّ على أنّ هذه المخلوقات أصناف، وأنّها سابحة في الأجواء وفي طبقات مما وراء الهواء وتتصل بالأرض، وأنّ منها أصنافا لها اتصال بالنفوس البشرية دون الأجسام وهو الوسواس ولا يخلو منه البشر.

وبعض ظواهر الأخبار من السنّة تقتضي أنّ صنفا له اتصال بنفوس ذات استعداد خاص لاستفادة معرفة الواقعات قبل وقوعها أو الواقعات التي يبعد في مجاري العادات بلوغ وقوعها، فتسبق بعض النفوس بمعرفتها قبل بلوغها المعتاد. وهذه النفوس هي نفوس الكهّان وأهل الشعوذة، وهذا الصنف من المخلوقات من الجنّ أو الشياطين هو المسمّى بـ **(مُسترق السمع)** وهو المستثنى بقوله تعالى { إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ }. فهذا الصنف إذا اتصل بتلك النفوس المستعدّة للاختلاط به حجز بعض قواها العقلية عن بعض فأكسب البعض المحجوز عنه ازدياد تأثير في وظائفه بما يرتدّ عليه من جراء تفرّغ القوة الذهنية من الاشتغال بمزاحمة إلى التوجه إليه وحده، فتكسبه قدرة على تجاوز الحدّ المعتاد لأمثاله، فيخترق الحدود المتعارفة لأمثاله اختراقا ما، فربما خلصت إليه تموّجات هي أوساط بين تموّجات كرة الهواء و تموجات الطبقات العليا المجاورة لها، مما وراء الكرة الهوائيّة.

ولنفرض أنّ هذه الطبقة هي المسمّاة بالسماء الدنيا وأنّ هذه التموجات هي تموجات الأثير فإنها تحفظ الأصوات مثلا. ثم هذه التموّجات التي تخلص إلى عقول أهل هذه النفوس المستعدّة لها تخلص إليها مقطّعة مجملة فيستعين أصحاب تلك النفوس على تأليفها وتأويلها بما في طباعهم من ذكاء، ويخبرون بحاصل ما استخلصوه من بين ما تلقّفوه وما ألفوه وما أوّلوه. وهم في مصادفة بعض الصدق متفاوتون على مقدار تفاوتهم في حدّة الذكاء وصفاء الفهم والمقارنة بين الأشياء، وعلى مقدار دربتهم ورسوخهم في معالجة مهنتهم وتقادم عهدهم فيها. فهؤلاء هم الكهّان. وكانوا كثيرين بين قبائل العرب. وتختلف سمعتهم بين أقوامهم بمقدار مصادفتهم لما في عقول أقوامهم. ولا شكّ أنّ لسذاجة عقول القوم أثرا ما، وكان أقوامهم يعدّون المعمّرين منهم أقرب إلى الإصابة فيما ينبئون به، وهم بفرط فطنتهم واستغفالهم البله من مريديهم لا يُصدرون إلّا كلاما مجملا موجّها قابلا للتأويل بعدة احتمالات، بحيث لا يؤخذون بالتكذيب الصريح، فيكلون تأويل كلماتهم إلى ما يحدث للنّاس في مثل الأغراض الصادرة فيها تلك الكلمات، وكلامهم خلو من الإرشاد

والحقائق الصالحة.
وهم بحيلتهم واطلاعهم على ميادين النفوس ومؤثراتها التزموا أن يصوغوا كلامهم الذي يخبرون به في صيغة خاصة ملتزما فيها فقرات قصيرة مختتمة بأسجاع، لأنّ النّاس يحسبون مزاوجة الفقرة لأختها دليلا على مصادفتها الحقّ والواقع، وأنّها أمارة صدق. وكانوا في الغالب يلوذون بالعزلة، ويكثرون النظر في النجوم ليلا لتتفرّغ أذهانهم. فهذا حال الكهّان وهو قائم على أساس الدجل والحيلة والشعوذة مع الاستعانة باستعداد خاص في النفس وقوة تخترق الحواجز المألوفة.
وهذا يفسّره ما في كتاب الأدب من صحيح البخاري عن عائشة: أنّ ناسا سألوا رسول الله ﷺ عن الكهّان فقال: " ليسوا بشيء ، فقيل: يا رسول الله فإنّهم يحدّثون أحيانا بالشيء يكون حقّا. فقال رسول الله ﷺ: " تلك الكلمة من الحقّ يخطفها الجنّيّ فيقرّها في أذن وليّه قَرّ الدجاجة (قرّت الدجاجة تقرّ قرّا: أخف صوتها) فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة ".
وما في تفسير سورة الحجر من صحيح البخاري من حديث سفيان عن أبي هريرة قال نبي الله ﷺ: " إذا قضى الله الأمر في السماء وضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانا ...
وهذه الظواهر كلّها لا تقتضي إلّا إدراك المسموعات من كلام الملائكة. وعبر عنه بالسمع لأنه يؤول إلى الخبر، فالذي يحصل لمسترق السمع شعور ما تتوجه الملائكة لتسخيره، والذي يحصل للكاهن كذلك. والمآل أن الكاهن يخبر به فيؤول إلى مسموع.

{ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ [19] وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ } [20].
انتقال من الاستدلال بالآيات السماويّة إلى الاستدلال بالآيات الأرضيّة لمناسبة المضادة.
{ **مَدَدْنَاهَا / رَوَاسِيَ** } تقدّم معنى اللفظتين في [الرعد:3]
الموزون: مستعار للمقدّر المضبوط.
{ **معايش** }: جمع معيشة. وبعد الألف ياء تحتيّة لا همزة كما تقدّم في صدر سورة الأعراف. أي جعلنا لكم أيّها المخاطبين في الأرض معايش.
{ **وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ** } وجعلنا في الأرض معايش لمن لستم له برازقين، أي لمن لستم له بمطعمين. وهي الموجودات التي تقتات من نبات الأرض ولا يعقلها النّاس.

{ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ }[21]

هذا اعتراض ناشئ عن قوله { وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ } [19]، وهو تذييل.

{ مِنْ شَيْءٍ } ما هو نافع للنّاس بقرينة قوله { وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ }. وفي الكلام حذف الصفة.

{ خَزَائِنُهُ } شبّهت هيئة إيجاد الأشياء النافعة بهيئة إخراج المخزونات من الخزائن على طريقة التمثيليّة المَكنية. وتقدّم عند قوله تعالى { قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ } [الأنعام:50].

{ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ } أطلق الإنزالَ على تمكين النّاس من الأمور التي خلقها الله لنفعهم، إطلاقا مجازيا، باعتبار أنّ تصاريف الأمور كائن في العوالم العلويّة، وهذا كقوله تعالى { وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ } [الزمر:6].

{ بِقَدَرٍ } (بفتح الدال): التقدير. وتقدّم عند قوله تعالى { فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا } [الرعد:17].

{ مَعْلُومٍ } أنه معلوم تقديره عند الله تعالى.

{ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ } [22]

انتقال من الاستدلال بظواهر السماء وظواهر الأرض إلى الاستدلال بظواهر كرة الهواء الواقعة بين السماء والأرض، وذلك للاستدلال بفعل الرياح والمنّة بما فيها من الفوائد.

الإرسال: مجاز في نقل الشيء من مكان إلى مكان. وهذا يدلّ على أنّ الرياح مستمرّة الهبوب في الكرة الهوائية. وهي تظهر في مكان آتية إليه من مكان آخر وهكذا...

{ لَوَاقِحَ } حال من { الرِّيَاحَ }. صالح لأن يكون جمع لاقح وهي الناقة الحبلى. واستعمل هنا استعارة للريح المشتملة على الرطوبة التي تكون سببا في نزول المطر، كما استعمل العقيم ضد اللاقح في قوله { وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ } [الذاريات:41].

وصالح لأنّ يكون جمع ملقّح وهو الذي يجعل غيره لاقحا، أي الفحل إذا ألقح الناقة. أي أنّ الرياح تلقّح الشجر ذي الثمرة بأن تنقل إلى نَوْره غبرة دقيقة من نور الشجر الذكر فتصلح ثمرته أو تثبت، وبدون ذلك لا تثبت أو لا تصلح. وهذا هو **الإبّار**. وبعضه لا يحصل إلّا بتعليق الطلع الذكر على الشجرة المثمرة. وبعضه يكتفي منه بغرس شجرة ذكر في خلال شجر الثمر.

ومن بلاغه الآية إيراد هذا الوصف لإفادة كلا العملين اللذين تعملهما الرياح وقد فسرت الآية بهما. واقتصر جمهور المفسّرين على أنها لواقح السحاب بالمطر.

{ أَسْقَيْنَاكُمُوهُ } بمعنى جعلناه سقيا، فالهمزة فيه للجعل. وكثر إطلاق أسقى بمعنى سقى.

{ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ } أي وما أنتم له بمحافظين ومنشئين عندما تريدون.

{ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ } [23]

لما جرى ذكر إنزال المطر وكان مما يسبق إلى الأذهان عند ذكر المطر إحياء الأرض به ناسب أن يذكر بعده جنس الإحياء كلّه لما فيه من غرض الاستدلال على الغافلين عن الوحدانيّة، ولأنّ فيه دليلا على إمكان البعث. والمقصود ذكر الإحياء ولذلك قدّم، وذكر الإماتة للتكميل.

{ نُحْيِي } والمراد تكوين الموجودات التي فيها الحياة، وإحياؤها أيضا بعد فناء الأجسام. وقد أدمج في الاستدلال على تفرّد الله تعالى بالتصرّف، إثبات البعث ودفع استبعاد وقوعه واستحالته. ولمّا كان المشركون منكرين نوعا من الإحياء كان توكيد الخبر مستعملا في معنييه الحقيقي والتنزيلي.

{ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ } معنى الإرث هنا البقاء بعد الموجودات، تشبيها بالإرث، وهو أخذ ما يتركه الميّت من أرض وغيرها.

{ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ [24] وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } [25].

لما ذكر الإحياء والإماتة وكان الإحياء (بكسر الهمزة) يذكّر بالأحياء (بفتحها)، وكانت الإماتة تذكّر بالأموات الماضين تخلّص من الاستدلال بالإحياء والإماتة على عظم القدرة إلى الاستدلال بلازم ذلك على عظم علم الله، وهو علمه بالأمم البائدة وعلم الأمم الحاضرة.

{ الْمُسْتَقْدِمِينَ } الذين تقدّموا الأحياء إلى الموت أو إلى الآخرة، فالتقدّم فيه بمعنى الماضي.

{ الْمُسْتَأْخِرِينَ } الذين تأخّروا وهم بعد انقراض غيرهم إلى أجل يأتي.

والسين والتاء في الوصفين للتأكيد مثل استجاب، ولكن قولهم استقدم بمعنى تقدّم على خلاف القياس لأنّ فعله رباعي. وقد تقدّم عند قوله تعالى { لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف:34].

{ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ } نتيجة هذه الأدلة من قوله { وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ } [23] فإنّ الذي يحيي الحياة الأولى قادر على الحياة الثانية بالأولى، والذي قدّر الموت ما قدّره عبثا. قال تعالى { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ } [الملك:2].

وقد أكّدت الجملة بحرف التوكيد وبضمير الفصل لردّ إنكارهم الشديد للحشر. وقد أسند الحشر إلى الله بعنوان كونه ربّ محمد ﷺ، تنويها بشأن النبيء ﷺ لأنّهم كذّبوه في الخبر عن البعث.

{ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } للإشارة إلى حكمة الإحياء والإماتة، تعليلا لجملة { وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ } لأنّ شأن (إِنَّ) إذا جاءت في غير معنى الرد على المنكِر أن تفيد معنى التعليل والربط بما قبلها.

الحكيم: الموصوف بالحكمة. وتقدّم عند قوله تعالى { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } [البقرة: 269].
العليم: الموصوف بالعلم العام، أي المحيط، وتقدّم عند قوله {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا} [آل عمران :140].

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ [26] وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ } [27].

تكملة لإقامة الدليل على انفراده تعالى بخلق أجناس العوالم وما فيها. ومنه يتخلّص إلى التذكير بعداوة الشيطان للبشر ليأخذوا حذرهم منه ويحاسبوا أنفسهم على ما يخامرها من وسواسه بما يرديهم. جاء بمناسبة ذكر الإحياء والإماتة فإنّ أهم الإحياء هو إيجاد النوع الإنساني. ففي هذا الخبر استدلال على عظيم القدرة والحكمة وعلى إمكان البعث، وموعظة وذكرى. والمراد بالإنسان آدم - عليه السلام -.
الصلصال: الطين الذي يترك حتّى ييبس فإذا يبس فهو صلصال وهو شبه الفخّار، إلّا أنّ الفخّار هو ما يبس بالطبخ بالنّار. قال تعالى { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ } [الرحمن:14].
الحمأ: الطين إذا اسودّ وكرهت رائحته. وهو صفة لـ {صَلْصَالٍ}.
المسنون: صفة ثانية، الذي طالت مدّة مكثه، وهو اسم مفعول من فعل سنّهُ إذا تركه مدة طويلة تشبه السنة. وأحسب أن فعل (سنّ) بمعنى ترك شيئا مدة طويلة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { لَمْ يَتَسَنَّهْ } [البقرة:259].
والمقصود من ذكر هذه الأشياء التنبيه على عجيب صنع الله تعالى إذ أخرج من هذه الحالة المهينة نوعا هو سيد أنواع عالم المادة ذات الحياة. وفيه إشارة إلى أنّ ماهية الحياة تتقوّم من الترابية والرطوبة والتعفّن، وهو يعطي حرارة ضعيفة. ولذلك تنشأ في الأجرام المتعفّنة حيوانات مثل الدود، ولذلك أيضا تنشأ في الأمزجة المتعفّنة الحمّى. وفيه إشارة إلى الأطوار التي مرت على مادة خلق الإنسان.
{ **وَلَقَدْ** } توكيد الجملة بلام القسم وبحرف (قد) لزيادة التحقّق، تنبيها على أهميّة هذا الخلق وأنّه بهذه الصفة.
{ **وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ** } إدماج وتمهيد إلى بيان نشأة العداوة بين آدم وجند إبليس.
{ **مِنْ قَبْلُ** } تعليم أنّ خلق الجانّ أسبق لأنّه مخلوق من عنصر الحرارة والحرارة أسبق من الرطوبة.
{ **السَّمُومِ** } (بفتح السين): الريح الحارة. فالجنّ مخلوق من الناريّة والهوائيّة ليحصل الاعتدال في الحرارة فيقبل الحياة الخاصة اللائقة بخلقة الجنّ، فكما كوّنَ الله الحمأةَ الصلصالَ المسنونَ لخلق الإنسان، كوّنَ ريحا حارة وجعل منها الجنّ. فهو مكوّن من حرارة زائدة على مقدار حرارة الإنسان ومن تهوية قوية. والحكمة كلّها في إتقان المزج والتركيب.

{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ [28] فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [29] فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [30] إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ [31] قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ [32] قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ [33] قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ [34] وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ } [35].

عطف قصّة على قصّة. وقد تقدّم الكلام في نظائره في سورة البقرة وفي سورة الأعراف.

البشر: مرادف الإنسان، أي أنّي خالق إنسانا. وقد فهم الملائكة الحقيقة بما ألقى الله فيهم من العلم، أو أنّ الله وصف لهم حقيقة الإنسان بالمعنى الذي عبّر عنه في القرآن.

وإنّما ذكر للملائكة المادة التي منها خلق البشر ليعلموا أنّ شرف الموجودات بمزاياها لا بمادة تركيبها.

التسوية: تعديل ذات الشيء. وقد أطلقت هنا على اعتدال العناصر فيه واكتمالها بحيث صارت قابلة لنفخ الروح.

النفخ: حقيقته إخراج الهواء مضغوطا بين الشفتين مضمومتين كالصفير، واستعير هنا لوضع قوّة لطيفة السريان قويّة التأثير دفعة واحدة. وليس ثمة نفخ ولا منفوخ.

وإسناد النفخ وإضافة الروح إلى ضمير اسم الجلالة تنويه بهذا المخلوق. وفيه إيماء إلى أنّ حقائق العناصر عند الله تعالى لا تتفاضل إلّا بتفاضل آثارها وأعمالها. وأنّ كراهة الذات أو الرائحة إنّما هو تابع لما يلائم الإدراك الحسّي أو ينافره تبعا لطباع الأمزجة أو لإلف العادة، ولا يؤبه في علم الله تعالى. وهذا هو ضابط وصف القذارة والنزاهة عند البشر. ألا ترى أنّ المنيّ يستقذر في الحس البشري على أنّ منه تكوين نوعه، ومنه تخلّقت أفاضل البشر. وكذلك المسك طيب في الحس البشري لملاءمة رائحته للشم وما هو إلّا غدة من خارجات بعض أنواع الغزال.

وهذا تأصيل لكون عالم الحقائق غير خاضع لعالم الأوهام. وفي الحديث: " لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ". وفيه: " لا يكلم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله، إلّا جاء يوم القيامة ودمه يَشْخُب، اللونُ لونُ الدم والريحُ ريحُ المسك".

{ **فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** } وهو الوقوع لقصد التعظيم. كقوله تعالى { وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً } [يوسف: 100]. وهذا تمثيل لتعظيم يناسب أحوال الملائكة وأشكالهم، تقديرا لبديع الصنع والصلاحية لمختلف الأحوال الدال على تمام علم الله وعظيم قدرته.

وأمر الملائكة بالسجود لا ينافي تحريم بالسجود في الإسلام لغير الله من وجوه:

أحدهما: أنّ ذلك المنع لسد ذريعة الإشراك والملائكة معصومون من تطرق ذلك إليهم.

ثانيها: أنّ شريعة الإسلام امتازت بنهاية مبالغ الحقّ والصلاح، فجاءت بما لم تجئ به الشرائع السالفة، لأنّ الله أراد بلوغ أتباعها أوجّ الكمال في المدارك ولم يكن السجود من قبل محظورا فقد سجد يعقوب وأبناؤه ليوسف - عليهم السلام - وكانوا أهل إيمان.

ثالثها: أن هذا إخبار عن أحوال العالم العلوي، ولا تقاس أحكامه على تكاليف عالم الدنيا.

{ **فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ** } عنوان على طاعة الملائكة. و{ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ } تأكيد على تأكيد.

{ **إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ** } تقدّم القول على نظيره في سورة البقرة وسورة الأعراف. وقوله هنا { أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ } بيان لقوله في سورة البقرة [34] {وَاسْتَكْبَرَ}، لأنّه أبى أن يسجد وأن يساوي الملائكة في الرضى بالسجود. فدلّ هذا على أنّه عصى وأنّه ترفّع عن متابعة غيره.

{ **مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ** } استفهام توبيخ.

{ **لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ** } جحود. وتقدّم أنه أشدّ في النفي من (لا أسجد) في {مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ} [المائدة:116].

{ **لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ** } تأييد لإبايته من السجود بأنّ المخلوق من ذلك الطين حقير ذميم لا يستأهل السجود. وهذا ضلال نشأ عن تحكيم الأوهام بإعطاء الشيء حكم ما منه التكوين للشيء الكائن.

{ **قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا** } عطفت جملة أمره بالخروج بالفاء لأنّ ذلك الأمر تفرّع على جوابه المُنبئ عن كفره وعدم تأهّله للبقاء في السماوات.

{ **منها** } الضميرعائد إلى السماوات وإن لم تذكر لدلالة ذكر الملائكة عليها. وقيل: عائد إلى الجنة. وقد اختلف علماؤنا في أنّها موجودة.

{ **فَإِنَّكَ رَجِيمٌ** } الفاء دالة على سبب إخراجه من السماوات. و (إن) مؤذنة بالتعليل. وذلك إيماء إلى سبب إخراجه من عوالم القدس.

الرجيم: المطرود. وهو كناية عن الحقارة. وتقدّم في قوله تعالى {وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} [17].

{ **اللَّعْنَةَ** }: السب بالطرد.

{ **إِلَى يَوْمِ الدِّينِ** } وهو يوم الجزاء، غاية للعن استعمالا في معنى الدوام، كأنّه قيل أبدا. وليس ذلك بمقتضي أنّ اللعنة تنتهي يوم القيامة ويخلفها ضدّها، ولكن المراد أنّ اللعنة عليه في الدنيا إلى أن يلاقي جزاء عمله فذلك يومئذ أشد من اللعنة.

{ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [36] قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ [37] إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ}[38]

سؤاله النظرة بعد إعلامه بأنّه معلون إلى يوم الدين فاض به خبث جبلّته البالغ نهاية الخباثة التي لا يشفيها إلّا دوام الإفساد في هذا العالم، فكانت هذه الرغبة مجلبة لدوام شقوته. وخاطب الله بصفة الربوبية تخضعا وحثا على الإجابة.

{ **فَأَنْظِرْنِي** } فاء التفريع. فرّع السؤال عن الإخراج، ووسّط النداء بين ذلك.

وذكرت هذه الحالة من أوصاف نفسيّته بعثا لكراهيّته في نفوس البشر الذين يرون أنّ حقّ النفس الأبيّة أن تأنف من الحياة الذميمة المحقّرة، وذلك شأن العرب، فإذا علموا هذا الحرص من حال إبليس أبغضوه واحتقروه فلم يرضوا بكل عمل ينسب إليه.

الإنظار: الإمهال والتأخير. وتقدّم في قوله { فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ } [البقرة:280]. والمراد تأخير إماتته.

{ **يَوْمِ يُبْعَثُونَ** } عبّر به عن يوم الدين تمهيدا لما عقد عليه العزم من إغواء البشر، فأراد الإنظار إلى آخر مدة وجود نوع الإنسان في الدنيا. وضمير { يُبْعَثُونَ } للبشر المعلومين من تركيب خلق آدم عليه السلام، وأنّه يكون له نسل ولا سيما حيث خلقت زوجه حينئذ، فإنّ ذلك يقتضي أن يكون منهما نسل.

{ **يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ** } تفنّنا وتفاديا من إعادة اللفظ قضاء لحق حسن النظم، ولما فيه من التعليم بأنّ الله يعلم ذلك الأجل، فالمراد: المعلوم لدينا. وفيه تعريض بأنّ من لم يؤمنوا بذلك اليوم من الناس لا يعبأ بهم.

وهذا الإنظار رمز إلهي على أنّ ناموس الشرّ لا ينقضي من عالم الحياة الدنيا وأنّ نظامها قائم على التصارع بين الخير والشر والأخيار والأشرار، قال تعالى { بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ } [الانبياء:18].

{ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[39].

{ **بِمَا أَغْوَيْتَنِي** } الباء للسببية، و(ما) موصولة، إشارة إلى غواية يعلمها الله وهي التي جبله عليها، فلذلك اختير لحكايتها طريقة الموصوليّة.

{ **لَأُزَيِّنَنَّ** } لام قسم محذوف مراد بها التأكيد، وهو القسم المصرّح به في قوله { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [صّ:82].

التزيين: التحسين، أي جعل الشيء زيْنا، أي حسنا. وحذف المفعول لظهوره من المقام، أي لأزيننّ لهم الشرّ والسيّئات فيرونها حسنة، وأزيّن لهم الإقبال على الملاذ التي تشغلهم عن الواجبات.

الإغواء: جعلهم غاوين. والغَواية (بفتح الغين): الضلال. والمعنى: ولأضلّنّهم.

{ **فِي الْأَرْضِ** } لأنّها أوّل ما يخطر بباله عند خطور الغواية لاقتران الغواية بالنزول إلى الأرض الذي دلّ عليه قوله تعالى { فَاخْرُجْ مِنْهَا } [34]، أي اخرج من الجنّة إلى الأرض كما جاء في قوله { وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ} [البقرة:36].

{ **لَهُمْ / لَأُغْوِيَنَّهُمْ / مِنْهُمُ** }، الضمائر لبني آدم، لأنّه قد علم علما ألقي في وجدانه بأنّ آدم عليه السلام ستكون له ذرّيّة.

{ **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** } (بفتح اللام) عند نافع وحمزة وعاصم والكسائي على معنى الذين أخلصتهم وطهّرتهم. وقرئ (بكسر اللام) لابن كثير وابن عامر وأبي عمرو، أي الذين أخلصوا لك في العمل.

{ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ [41] إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ [42] وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ [43] لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ}[44].

{ **قَالَ هَذَا** } الإشارة إلى غير مشاهد تنزيلا له منزلة المشاهد، وتنزيلا للمسموع منزلة المرئي. وهو مع ذلك غير مذكور لقصد التشويق إلى سماعه عند ذكره. فاسم الإشارة هنا بمنزلة ضمير الشأن، كما يكتب في العهود والعقود: هذا ما قاضى عليه فلان فلانا أنّه كيت و كيت.

ويجوز أن تكون الإشارة إلى الاستثناء الذي سبق في حكاية كلام إبليس من قوله { إِلَّا عِبَادَكَ }[40] لتضمّنه أنّه لا يستطيع غواية العباد الذين أخلصهم الله للخير، فتكون جملة { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } مستأنفة أفادت نفي سلطانه.

الصراط: مستعار للعمل الذي يقصد منه عامله فائدة. شبّه بالطريق الموصل إلى المكان المطلوب.

{ **مُسْتَقِيمٌ** } نعت لـ { صِرَاطٌ }، أي لا اعوجاج فيه. واستعيرت الاستقامة لملازمة الحالة الكاملة.

{ **عَلَيَّ** } مستعملة في الوجوب المجازي، وهو **الفعل الدائم الذي لا يتخلّف** كقوله تعالى{ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى } [الليل:12]، أي أنّا التزمنا الهدى لا نحيد عنه لأنّه مقتضى الحكمة وعظمة الإلهية.

وهذه الجملة مما يرسل من الأمثال القرآنيّة. والمعنى أنّ الله وضع سنّة في نفوس البشر أنّ الشيطان لا يتسلّط إلّا على من كان غاويا، أي مائلا للغواية مكتسبا لها دون من كبح نفسه عن الشر. فإنّ العاقل إذا تعلّق به وسواس الشيطان علم ما فيه من إضلال وعلم أنّ الهدى في خلافه فإذا توفّق وحمل نفسه على اختيار الهدى وصرف إليه عزمه قوي على الشيطان فلم يكن له عليه سلطان، وإذا مال إلى الضلال واستحسنه واختار إرضاء شهوته صار متهيّئا إلى الغواية فأغواه الشيطان فغوى.

{ **مَنِ اتَّبَعَكَ** } الاتباع مجاز بمعنى الطاعة واستحسان الرأي كقوله { اتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } [آل عمران:31].
{ **الْغَاوِينَ** } من باب إطلاق اسم الفاعل على الحصول في المستقبل بالقرينة، لأنّه لو كان غاويا بالفعل لم يكن لسلطان الشيطان عليه فائدة. وقد دلّ على هذا المعنى تعلّق نفي السلطان بجميع العباد، ثم استثناء من كان غاويا. فلمّا كان سلطان الشيطان لا يتسلّط إلّا على من كان غاويا علمنا أنّ ثمّة وصفا بالغواية هو مهيّئ تسلّط سلطان الشيطان على موصوفه. وذلك هو الموصوف بالغواية بالقوة لا بالفعل، أي بالاستعداد للغواية لا بوقوعها.
{ **وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ** } الضميرعائد إلى { مَنِ اتَّبَعَكَ }، والموعد مكان الوعد. وأطلق هنا على المصير إلى الله، استعير الموعد لمكان اللقاء تشبيها له بالمكان المعيّن بين النّاس. وفي ذلك تمليح بهم لأنّهم ينكرون البعث والجزاء.
{ **لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ** } الظاهر أنّ السبعة مستعملة في الكثرة، أو أريد بالأبواب الكناية عن طبقات جهنّم لأنّ الأبواب تقتضي منازل فهي مراتب مناسبة لمراتب الإجرام بأن تكون أصول الجرائم سبعة تتفرع عنها جميع المعاصي الكبائر. وعسى أن نتمكّن من تشجيرها في وقت آخر. وقد يكون من جملة طبقاتها طبقة النفاق قال تعالى { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ } [النساء:145].
{ **لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ** } وتقسيمها بالتعيين يعلمه الله تعالى. أي لكلّ باب فريق يدخل منه، أو لكلّ طبقة من النّار قسم من أهل النّار مقسوم على طبقات أقسام النّار.
واعلم أنّ هذه الأقوال التي صدرت من الشيطان لدى الحضرة القدسية هي انكشاف لجبلّة التطور الذي تكيّفت به نفس إبليس من حين أبى من السجود. وأمّا الأقوال الإلهية التي أجيبت بها أقوال الشيطان فمظهر للأوامر التكوينيّة التي قدّرها الله تعالى. وليست تلك الأقوال كلّها بمناظرة بين الله وأحد مخلوقاته، ولا بغلبة من الشيطان لخالقه، فإنّ ضعفه تجاه عزّة خالقه لا يبلغ به إلى ذلك.

{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [45] ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ [46] وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ [47] لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ } [48].
استئناف ابتدائي، انتقال من وعيد المجرمين إلى بشارة المتّقين على عادة القرآن في التفنّن.
المتّقون: الموصوفون بالتقوى. وتقدّمت عند صدر سورة البقرة.
الجنّات: جمع جنّة. تقدّمت عند قوله تعالى { أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } [البقرة [25].
العيون: جمع عين اسم لثقب أرضي يخرج منه الماء. فقد يكون انفجارها بدون عمل الإنسان. وأسبابه كثيرة تقدمت عند قوله تعالى { وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ } [البقرة:74]. وقد يكون بفعل فاعل وهو

التفجير.
{ **ادْخُلُوهَا** } معمولة لقول. والتقدير: يقال لهم ادخلوها. والقائل هو الملائكة عند إدخال المتّقين الجنّة.
السلام: التحيّة. وتقدّم في قوله { وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ} [الأنعام:54].
{ **آمِنِينَ** } والأمن النجاة من الخوف.
{ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ** } عطف على الخبر.
الغلّ (بكسر الغين): البغض. وتقدّم في قوله تعالى { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ} [الأعراف:43]، أي ما كان بين بعضهم من غلّ في الدنيا.
{ **إِخْوَاناً** } حال، وهو على معنى التشبيه، أي كالإخوان، أي كحال الإخوان في الدنيا. وأول من يدخل في هذا العموم أصحاب النبيء ﷺ فيما شجر بينهم من الحوادث الدافع إليها اختلاف الاجتهاد في إقامة مصالح المسلمين، والشدّة في إقامة الحقّ على حسب اجتهادهم. كما روي عن علي كرم الله وجهه أنّه قال: إنّي لأرجو من أن أكون أنا و طلحة ممن قال الله تعالى فيهم { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً }. فقال جاهل من شيعة علي اسمه الحارث بن الأعور الهمذاني: كلّا، الله أعدل من أن يجمعك وطلحة في مكان واحد. فقال عليّ: " فلمن هذه الآية لا أمّ لك، بفيك التراب ".
{ **عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ** }
السرر: جمع سرير. وهو محمل كالكرسي متسع يمكن الاضطجاع عليه والاتكاء. وهو مجلس أصحاب الدعة والرفاهية لتمكّن الجالس عليه من التقلّب كيف شاء حتى إذا ملّ جلسة انقلب لغيرها.
التقابل: كون الواحد قبالة غيره، وهو أدخل في التأنّس بالرؤية والمحادثة.
{ **لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ** }
المسّ: كناية عن الإصابة.
النصب: التعب الناشئ عن استعمال الجهد.

{ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [49] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ } [50].

هذا تصدير لذكر القصص التي أريد من التذكير بها الموعظة بما حلّ بأهلها، وهي قصّة قوم لوط وقصّة أصحاب الأيكة وقصّة ثمود. وابتدئ ذلك بقصّة إبراهيم - عليه السلام - لما فيها من كرامة الله له تعريضا بالمشركين إذ لم يقتفوا آثاره في التوحيد. فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا
{ **نَبِّئْ عِبَادِي** } ابتداء الكلام بفعل الإنباء لتشويق السامعين إلى ما بعده كقوله تعالى {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ} [سورة البروج:17] ونحوه. والمقصود هو قوله تعالى الآتي { وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ } [51]، وإنّما قدّم

الأمر بإعلام النّاس بمغفرة الله وعذابه ابتداء بالموعظة الأصليّة قبل الموعظة بجزئيّات حوادث الانتقام من المعاندين وإنجاء من بينهم المؤمنين لأنّ ذلك دائر بين أثر الغفران وبين أثر العذاب.
وقدّمت المغفرة على العذاب لسبق رحمته غضبه.

{ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ [51] إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ [52] قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ [53] قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ [54] قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ [55] قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ}[56].

القصة من مظاهر رحمته تعالى وعذابه.
{ **ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ** }: الملائكة الذين تشكّلوا بشكل أناس غرباء مارين ببيته. وتقدّمت القصة في سورة هود.
{ **قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ** } جاءت مفصولة بدون عطف لأنّها جواب عن جملة { فَقَالُوا سَلاماً }. وقد طوي ذكر ردّه السلام عليهم إيجازا لظهوره. صرّح به في [الذريات:25] { قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ }، أي قال إنّا منكم وجلون بعد أن ردّ السلام. وفي سورة هود أنّه أوجس منهم خيفة حين رآهم لم يمدّوا أيديهم للأكل.
{ **إِنَّا** } من كلام إبراهيم - عليه السلام - فهو يعني به نفسه وأهله، لأنّ الضيف طرقوا بيتهم في غير وقت طروق الضيف فظنهم يريدون به شرا، فلمّا سلّموا عليه فاتحهم بطلب الأمن {إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ}، أي أخفتمونا.
الوجِل(بكسر الجيم): الخائف. والوجَل (بفتح الجيم) الخوف. ووقع في [هود :70] { نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً }.
{ **إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ** } استئناف كلام آخر بعد أن قدّم إليهم القِرى وحضرت امرأته فبشّروه بحضرتها كما فُصّل في سورة هود.
{ **بِغُلامٍ عَلِيمٍ** }: إسحاق - عليه السلام - أي عليم بالشريعة، أي بأن يكون نبئا.
وقد حكي هنا قولهم لإبراهيم - عليه السلام -، وحكي في سورة هود قولهم لامرأته، لأنّ البشارة كانت لهما معا، فقد تكون حاصلة في وقت واحد فهي بشارتان باعتبار المبشّر، وقد تكون حصلت في وقتين متقاربين بشّروه بانفراد ثم جاءت امرأته فبشّروها.
{ **قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي** } للتعجب.
{ **عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ** } بمعنى (مع)، الدالة على شدّة اقتران البشارة بمس الكبر إيّاه.
المسّ: الإصابة. والمعنى: تعجّب من بشارته بولد مع أنّ الكبر مسّه.
{ **فَبِمَ تُبَشِّرُونَ** } استفهام تعجّب. نُزّل الأمر العجيب المعلوم منزلة الأمر غير المعلوم لأنّه يكاد يكون غير

معلوم. وقد علم إبراهيم عليه السلام من البشارة أنّهم ملائكة صادقون فتعيّن أنّ الاستفهام للتعجّب.

{ **قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ** } جواب الملائكة إيّاه بأنّهم بشّروه بالخبر الحقّ، فكلامهم ردّ لكلامه وليس جواب على استفهامه، لأنّه استفهام غير حقيقي.

{ **فلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ** } نهوه عن استبعاد ذلك بأنّه استبعاد رحمة القدير، بعد أن علم أنّ المبشّرين بها مرسلون إليه من الله، فاستبعاد ذلك يفضي إلى القنوط من رحمة الله. ولمّا كان إبراهيم - عليه السلام - منزّها من القنوط من رحمة الله جاءوا في موعظته بطريقة الأدب المناسب فنهوه عن أن يكون من زمرة القانطين، تحذيرا له مماّ يدخله في تلك الزمرة، ولم يفرضوا أن يكون هو قانطا، لرفعة مقام نبوّته عن ذلك.

وهذا النهي كقوله الله تعالى لنوح - عليه السلام - { إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [هود:46].

{ **قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ** }. وهو استفهام إنكار في معنى النفي، يعني أنه لم يقنط ولكنّه امتلكه المعتاد فتعجّب، فصار ذلك كالذهول عن المعلوم، فلمّا نبهه الملائكة أدنى تنبيه تذكّر.

القنوط: اليأس. وقرأ الجمهور {وَمَنْ يَقْنَطُ} (بفتح النون)، وقرأه أبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف (بكسر النون) وهما لغتان في فعل قنط.

{ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ [57] قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ [58] إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ [59] إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ } [60].

هذا الحوار، بين إبراهيم والملائكة عليهم السلام، يجمع بين بيان فضل إبراهيم - عليه السلام - وبين موعظة قريش بما حلّ ببعض الأمم المكذّبين.

انتقل إبراهيم عليه السلام إلى سؤالهم عن سبب نزولهم إلى الأرض، لأنّه يعلم أنّ الملائكة لا ينزلون إلّا لأمر عظيم كما قال تعالى { مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ } [الحجر:8]. وقد نزل الملائكة يوم بدر لاستئصال سادة المشركين ورؤسائهم.

{ **خَطْبُكُمْ** } الخطب تقدّم في قوله تعالى { قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ } [يوسف:51].

{ **إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ** } إيجاز حذف وتقدير الكلام: إنّا أرسلنا إلى لوط لأجل قوم مجرمين، أي لعذابهم. و**القوم المجرمون**: هم قوم سدوم وقراها. وتقدّم ذكرهم في سورة هود.

{ **إِلَّا آلَ لُوطٍ** } الاستثناء منقطع لأنّهم غير مجرمين.

{ **إِلَّا امْرَأَتَهُ** } استثناء متّصل لأنّها من آل لوط.

{ **إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ** } استئناف بياني لبيان الإجمال الذي في استثناء آل لوط، لدفع احتمال أنّهم لم يرسلوا إليهم ولا أمروا بإنجائهم.

{ **قَدَّرْنَا** } وإسناد التقدير إلى ضمير الملائكة لأنّهم مزمعون على سببه. وهو ما وكّلوا به من تحذير لوط عليه السلام وآله من الالتفات إلى العذاب، وتركهم تحذير امرأته حتّى التفتت فحلّ بها ما حل بقوم لوط.

{ **إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ** } أي ذهابها وهلاكها. وتقدّم ذكر الغابرين في سورة الأعراف.

{ **فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ** [61] **قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ** [62] **قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ** [63] **وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** [64] **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ** } [65]

تفريع على حكاية قصّتهم مع إبراهيم وقد طوى ما هو معلوم من خروج الملائكة من عند إبراهيم.

وعبّر بآل لوط - عليه السلام - لأنّهم نزلوا في منزله بين أهله.

{ **إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ** } وجدهم في شكل غير معروف في القبائل التي كانت تمرّ بهم، أي لا تعرف قبيلتكم. وتقدّم قوله تعالى { نَكِرَهُمْ } [هود:70].

{ **قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ** } أجابوه بما يزيل خوفه وريبته. وفيه إيماء إلى التعذيب، أي بالأمر الذي كان قومك يشكّون في حلوله بهم.

{ **وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** } الخبر الحقّ، ولذلك ذيّل بجملة { وَإِنَّا لَصَادِقُونَ }.

{ **جِئْنَاكَ** ... **وَأَتَيْنَاكَ** } التعبير في أحد الفعلين بمادة المجيء وفي الفعل الآخر بمادة الإتيان لمجرد التفنّن لدفع تكرار الفعل الواحد، وللتأكيد اللفظي بالمرادف. كقوله تعالى { وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً } [الفرقان:33]. وعليه تكون الباء في قوله { بِمَا كَانُوا } وقوله { بِالْحَقِّ } للملابسة.

ويحتمل أن تكون لذكر الفعل الثاني وهو {وَأَتَيْنَاكَ} خصوصية لا تفي بها واو العطف، وهي مراعاة اختلاف المجرورين بالباء في مناسبة كلّ منها للفعل الذي تعلّق هو به. فلمّا كان المتعلق بفعل { **جِئْنَاكَ** } أمرا حسّيا وهو العذاب الذي كانوا فيه يمترون، وكان ما يصح أن يسند إليه المجيء بمعنى كالحقيقي، إذ هو مجيء مجازي مشهور مسو للحقيقي، أوثر فعل { جِئْنَاكَ } ليسند إلى ضمير المخاطبين ويعلق به { **بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ** }.

وأمّا متعلّق فعل { **أَتَيْنَاكَ** } وهو { **بِالْحَقِّ** } فهو أمر معنوي لا يقع منه الإتيان. فإنّ هذا الإتيان مسند إلى الملائكة بمعناه الحقيقي، وكانوا في إتيانهم ملابسين للحقّ، أي الصدق، وليس الصدق مسندا إليه الإتيان. فالباء في قوله تعالى { بِالْحَقِّ } للملابسة لا للتعدية.

{ **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ** }

القِطْع (بكسر القاف وسكون الطاء): الجزء الأخير من الليل.

وأمروه أن يجعل أهله قدّامه ويكون من خلفهم، فهو يتبع أدبارهم، أي ظهورهم ليكون كالحائل بينهم وبين العذاب الذي يحلّ بقومه بعقب خروجه. فبكونه وراء أهله يخافون الالتفات لأنّه يراقبهم. وقد مضى تفصيل ذلك في سورة هود، وأنّ امرأته التفتت فأصابها العذاب.

ولم يبيّنوا له المكان الذي يقصده إلّا وقت الخروج، وهو مدينة عموريّة، كما تقدّم في سورة هود.

{ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ }[66]

{ **قَضَيْنَا** } قدّرنا، وضمّن معنى أوحينا فعدي بـ (إلى). أي أوحينا إليه بما قضينا.

{ **ذَلِكَ الْأَمْرَ** } إبهام للتهويل. والإشارة للتعظيم، أي الأمر العظيم.

{ **أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ** } جملة مفسّرة لـ { ذَلِكَ الْأَمْرَ } وهي المناسبة للفعل المضمّن وهو (أوحينا).

الدابر: الآخر، أي آخر شخص. وهو كناية عن استئصالهم كلّهم، كما تقدّم عند قوله تعالى { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا} [الأنعام:45].

{ **مُصْبِحِينَ** } أي في أوّل وقته، وهو حال من اسم الإشارة. ومبدأ الصباح وقت شروق الشمس، ولذلك قال بعده { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ } [73].

{ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ [67] قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ [68] وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ } [69]

الجزء الأهمّ من القصّة. ومجيء أهل المدينة إليه ومحاورته معهم كان قبل أن يعلم أنّهم ملائكة ولو علم ذلك لما أشفق مما عزم عليه أهل المدينة، كما جاء في قوله تعالى { قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ } [هود:81]. والواو لا تفيد ترتيب معطوفها. والمدينة هي سدوم.

{ **يَسْتَبْشِرُونَ** } يفرحون، وهو مطاوع بشّره فاستبشر، قال تعالى { فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ } [براءة:111].

وصيغ بصيغة المضارع لإفادة التجدّد مبالغة في الفرح. وذلك أنّهم علموا أنّ رجالا غرباء حلوا ببيت لوط عليه السلام ففرحوا بذلك ليغتصبوهم كعادتهم السيّئة. وقد تقدّمت القصّة في سورة هود.

{ **فَلا تَفْضَحُونِ** } الفضح والفضيحة: شهرة حال شنيعة. وكانوا يتعيّرون بإهانة الضيف ويعدّ ذلك مذلّة لمضيّفه.

{ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ** } ذكّرهم بالوازع الديني وإن كانوا كفارا، استقصاء للدعوة التي جاء بها، وبالوازع العرفي.

الخزي: الذلّ والإهانة. وتقدّم في قوله تعالى { إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [سورة البقرة:85].

{ **قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ [70] قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ [71] لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ [72] فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ [73] فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ [74] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ [75] وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ [76] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ** } [77].

{ **أَوَلَمْ نَنْهَكَ** } عطف على كلام لوط - عليه السلام - جار على طريقة العطف على كلام الغير. والاستفهام إنكاري، والمعطوف هو الإنكار.

{ **الْعَالَمِينَ** } النّاس. أي ألم ننهك عن حماية النّاس أو عن إجارتهم، وقد كانوا يقطعون السبيل.

{ **قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي** } عرض عليهم بناته ظنّا أنّ ذلك يردعهم ويطفئ شبقهم. وقد تقدّم في سورة هود معنى عرضه بناته، وأنه يجوز أن يراد به بنات صلبه وكن اثنتين أو ثلاثا، ويجوز أن يراد به بنات القوم كلّهم تنزيلا لهم منزلة بناته، لأنّ النبيء كأبّ لأمّته.

{ **لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ** } معترضة بين أجزاء القصّة للعبرة في عدم جدوى الموعظة فيمن يكون في سكرة هواه. والمخاطب بها محمد ﷺ من قبل الله تعالى. وقيل هو من كلام الملائكة بتقدير قول.

{ **لَعَمْرُكَ** } صيغة قسم. واللام لام القسم. و**العَمْر** (بفتح العين وسكون الميم) أصله لغة في العُمر (بضم العين) فخص المفتوح بصيغة القسم لخفّته بالفتح، لأنّ القسم كثير الدوران في الكلام. فهو قسم بحياة المخاطب به. وقد يستعملونه بغير اللام فحينئذ يقرنونه باسم الجلالة وينصبونهما، كقول عمر بن أبي ربيعة: عمرك الله كيف يلتقيان.

السكرة: ذهاب العقل. مشتقة من السَكر (بفتح السين) وهو السدّ والغلق. وأطلقت هنا على الضلال تشبيها لغلبة دواعي الهوى على دواعي الرشاد بذهاب العقل وغشيته.

{ **يَعْمَهُونَ** } يتحيّرون ولا يهتدون. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [البقرة:15].

{ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ** }

{ **الصَّيْحَةُ** } صعقة في الهواء، وهي صواعق وزلازل وفيها حجارة من سجيل. وقد مضى بيانها في هود.

{ **مُشْرِقِينَ** } انتصب على الحال من ضمير الغيبة. وهو اسم فاعل من أشرقوا إذا دخلوا في وقت الشروق.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ** } تذييل.

{ **فِي ذَلِكَ** } الإشارة إلى جميع ما تضمّنته القصة من الآيات؛ آية نزول الملائكة في بيت إبراهيم - عليه السلام - كرامة له، وبشارته بغلام عليم، وإعلام الله إيّاه بما سيحلّ بقوم لوط، ونصر الله لوطا بالملائكة، وإنجاء لوط - عليه السلام - وآله، وإهلاك قومه وامرأته لمناصرتها إيّاهم.

الآيات: الأدلة، أي دلائل على حقائق من الهداية وضدّها. وتقدّم الكلام حولهاعند قوله تعالى { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا } [البقرة:39].

{ **لِلْمُتَوَسِّمِينَ** } أصحاب التوسّم وهو التأمّل في السمة، والمراد للمتأمّلين في الأسباب وعواقبها، وأولئك هم المؤمنون. وهو تعريض بالذين لم تردعهم العبر بأنّهم دون مرتبة النظر، تعريضا بالمشركين الذين لم يتّعظوا، بأن يحلّ بهم ما حلّ بالأمم من قبلهم التي عرفوا أخبارها ورأوا آثارها.

{ **وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ** }، أي المدينة المذكورة آنفا هي بطريق باق يشاهد كثير منكم آثارها في بلاد فلسطين في طريق تجارتكم إلى الشام وما حولها، وهذا كقوله { وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ } [الصافات:137،138].

المقيم: أصله الشخص المستقرّ في مكانه غير مرتحل. وهو هنا مستعار لآثار المدينة الباقية في المكان بتشبيهه بالشخص المقيم.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ** } تذييل للتنبيه على أنّ المتوسّمين هم المؤمنون.

وجعل ذلك (آية) بالإفراد تفنّنا لأنّ (آية) اسم جنس يصدق بالمتعدّد، على أن مجموع ما حصل لهم آية على المقصود من القصة وهو عاقبة المكذبين. وفي مطاوي تلك الآيات آيات.

{ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ [78] فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ } [79].

{ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ }.

عطف قصّة على قصّة لما في كلتيهما من الموعظة. وذكر هاتين القصتين المعطوفتين تكميل وإدماج إذ لا علاقة بينهما وبين ما قبلهما من قصة إبراهيم والملائكة. وخصّ بالذكر أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر لأنّهم مثل قوم لوط في موعظة المشركين من الملائكة، لأنّ أهل مكّة يشاهدون ديار هذه الأمم الثلاث.

{ **الْأَيْكَةِ** }: الغيضة من الأشجار الملتف بعضها ببعض. واسم الجمع (أيك)، وأطلقت هنا مرادا بها الجنس إذ قد كانت منازلهم في غيضة من الأشجار كثيرة الورق. وقد تخفّف الأيكة فيقال: ليكة.

{ **أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ** }: هم قوم شعيب - عليه السلام - وهم مدين. وقيل أصحاب الأيكة فريق من قوم شعيب غير أهل مدين. فأهل مدين سكان الحاضرة وأصحاب الأيكة هم باديتهم وكان شعيب رسولا إليهم جميعا. قال تعالى: {كَذَّبَ أَصْحَابُ لْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ} [الشعراء:176-177]. وسيأتي الكلام على ذلك مستوفى في سورة الشعراء.

{ **لَظَالِمِينَ** }: لمشركين.

الانتقام: العقوبة لأجل ذنب، مشتقّة من النقم، وهو الإنكار على الفعل. يقال: نقم عليه ، ونقم منه أيضا. وتقدّم

في قوله { وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا } [الأعراف:126]. وأجمل الانتقام في هذه الآية وبين في آيات أخرى، مثل آية هود.
{ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ }

{ إِنَّهُمَا } الذي يظهر لي أنّ ضمير التثنية عائد على أصحاب الأيكة باعتبار أنهم قبيلتان، وهما مدين وسكان الغيضة الأصليون الذين نزل مدين بجوارهم، فإنّ إبراهيم - عليه السلام - أسكن ابنه مدين في شرق بلاد الخليل، ولا يكون إلّا في أرض مأهولة. وهذا عندي هو مقتضى ذكر قوم شعيب - عليه السلام - باسم مدين مرات وباسم أصحاب الأيكة مرات. وسيأتي لذلك زيادة إيضاح في سورة الشعراء.

ويجوز أن يكون ضمير التثنية لقرية قوم لوط وأيكة قوم شعيب - عليهما السلام - .

الإمام: الطريق الواضح لأنّه يأتمّ به السائر، أي يعرف أنّه يوصل.

مُبِينٍ: البيّن. أي أن كلتا القريتين بطريق القوافل بأهل مكّة. وقد تقدم آنفا قوله { وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ } فإدخال مدينة لوط عليه السلام في الضمير هنا تأكيد للأوّل.

{ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ [80] وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ [81] وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ [82] فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ [83] فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [84].

جمعت قصص هؤلاء الأمم الثلاث: قوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الحجر في نسق، لتماثل حال العذاب الذي سلط عليها وهو عذاب الصيحة والرجفة والصاعقة.

أصحاب الحجر: هم ثمود كانوا ينزلون الحِجْر (بكسر الحاء وسكون الجيم). **والحجر:** المكان المحجور، أي الممنوع من الناس، أو اشتق من الحجارة لأنّهم كانوا ينحتون بيوتهم في صخر الجبل نحتا محكما. وقد جعلت طبقات وفي وسطها بئر عظيمة وبئار كثيرة.

والحجر هو المعروف بـ **(وادي القرى)** وهو بين المدينة والشام، وهو المعروف اليوم باسم **مدائن صالح** على الطريق من خيبر إلى تبوك. وأما حَجر(بفتح الحاء) اليمامة مدينة بني حنيفة، وهي في بلاد نجد وتسمّى العروض وهي اليوم من بلاد البحرين.

وقد توهّم بعض المستشرقين من الإفرنج أنّ البيوت المنحوتة في ذلك الجبل كانت قبورا، وتعلّقوا بحجج وهمية. وممّا يفنّد أقوالهم خلو تلك الكهوف عن أجساد آدمية. وإذا كانت تلك قبورا فأين كانت منازل الأحياء؟ والظاهر أنّ ثمود لما أخذتهم الصيحة كانوا منتشرين في خارج البيوت لقوله تعالى { فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ }. وقد وجدت في مداخل تلك البيوت نقر صغيرة تدلّ على أنّها مجعولة لوصد أبواب المداخل في الليل.

{ **الْمُرْسَلِينَ** } التعريف للجنس، فيصدق بالواحد، إذ المراد أنّهم كذّبوا صالحا - عليه السلام - فهو كقوله تعالى { كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ } [الشعراء:105]. وكذلك جمع الآيات في قوله { آيَاتِنَا } مراد به الجنس، وهي آية الناقة، أو أريد أنّها آية تشتمل على آيات في كيفية خروجها من صخرة، وحياتها، ورعيها، وشربها. وقد روي أنّها خرج معها فصيلها، فهما آيتان.

{ **وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً** } والنحت: بري الحجر أو العود من وسطه أو من جوانبه. والمعنى أنّهم يتّخذون بيوتا في صخر الجبال.

{ **آمِنِينَ** } حال، وهي حال مقدّرة، أي مقدّرين أن يكونوا آمنين عقب نحتها وسكناها.

{ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ** } الفاء للتعقيب والسببية. أي داخلين في وقت الصباح.

{ **فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** } أي يصنعون، أي البيوت التي عنوا بتحصينها وتحسينها كما دلّ عليه فعل { كَانُوا }. وصيغة المضارع في { يَكْسِبُونَ } لدلالتها على التكرّر والتجدّد المكنّى به عن إتقان الصنعة. ليدلّ على أنّ الذي لم يغن عنهم شيءٌ متخذ للإغناء ومن شأنه ذلك.

{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ [85] إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } [86].

{ **وَمَا خَلَقْنَا** } موقع الواو في صدر هذه الجملة بديع. فهذه الجملة صالحة لأن تكون تذييلا لقصص الأمم المعذّبة ببيان أنّ ما أصابهم قد استحقّوه فهو من عدل الله بالجزاء على الأعمال بما يناسبها. والجملة أيضا صالحة لأنّ تكون تصديرا للجملة التي بعدها { وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ }. والمراد ساعة جزاء المكذّبين بمحمد ﷺ، أي ساعة البعث. فعلى الأول تكون الواو اعتراضية أو حالية، وعلى الثاني عاطفة جملة على جملة وخبرا على خبر. وإنّما أكسبها هذا الموقع البديع نظم الجمل المعجز والتنقّل من غرض إلى غرض بما بينها من المناسبة.

{ **السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا** } أصناف المخلوقات من حيوان وجماد، فشمل الأمم التي على الأرض وما حلّ بها، وشمل الملائكة الموكّلين بإنزال العذاب، وشمل الحوادث الكونيّة التي حلّت بالأمم من الزلازل والصواعق و الكسف.

{ **إِلَّا بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة متعلّقة بـ { خَلَقْنَا } ، أي خلقا ملابسا للحقّ، بحيث يكون الحقّ باديا في جميع أحوال المخلوقات. والملابسة هنا عرفيه، فقد يتأخّر ظهور الحقّ عن خلق بعض الأحوال والحوادث تأخرا متفاوتا. فالملابسة بين الخلق والحقّ تختلف باختلاف الأحوال من ظهور الحقّ وخفائه. على أنّه لا يلبث أن يظهر في عاقبة الأمور.

والحقّ هنا هو إجراء أحوال المخلوقات على نظام ملائم للحكمة والمناسبة في الخير والشرّ، والكمال والنقص، والسموّ والخفض، في كل نوع بما يليق بماهيته وحقيقته وما يصلحه، وما يصلح هو له، بحسب ما يقتضيه النظام العام لا بحسب الأميال والشهوات، فإذا لاح ذلك الحقّ الموصوف مقارنا وجوده لوجود محقوقه فالأمر واضح، وإذا لاح تخلّف شيء عن مناسبة فبالتأمل والبحث يتّضح أن وراء ذلك مناسبة قضت بتعطيل المقارنة المحقوقة، ثم لا يتبدّل الحقّ آخر الأمر.

وهذا التأويل يُظهره موقع الآية عقب ذكر عقاب الأمم التي طغت وظلمت، فإنّ ذلك جزاء مناسب تمرّدها وفسادها، وأنّها وإن أمهلت حينا برحمة من الله لحكمة استبقاء عمران جزء من العالم زمانا فهي لم تفلت من العذاب المستحقّ لها. وكذلك القول في جزاء الآخرة.

{ **وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ** } نتيجة الاستدلال، فمن عرف أنّ جميع المخلوقات خلقت خلقا ملابسا للحقّ وأيقن به علم أنّ الحقّ لا يتخلّف عن مستحقّه ولو غاب وتأخّر، وإن كان نظام حوادث الدنيا قد يعطّل ظهور الحقّ في نصابه وتخلفه عن أربابه. فعلم أنّ وراء هذا النظام نظاما مدّخرا يتّصل فيه الحقّ بكل مستحقّ إن خيرا وإن شرّا، فلا يحسبنّ من فات من الذين ظلموا قبل حلول العذاب بهم مفلتا من الجزاء، فإنّ الله قد أعدّ عالما آخر يعطي فيه الأمور مستحقيها.

والمقصود من هذا تسلية النبيء ﷺ على ما لقيه من أذى المشركين وتكذيبهم واستمرارهم على ذلك إلى أمد معلوم. وفي إمهال الله تعالى المشركين ثمّ في إنجائهم من عذاب الاستئصال حكمة تحقّق بها مراد الله من بقاء هذا الدين وانتشاره في العالم، بتبليغ العرب إيّاه وحمله إلى الأمم.

{ **السَّاعَةَ** } ساعة البعث وذلك الذي افتتحت به السورة. وذلك انتقال من تهديدهم ووعيدهم بعذاب الدنيا إلى تهديدهم بعذاب الآخرة.

{ **فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ** } أمر نبيّه ﷺ بالإعراض عن أذاهم وسوء تلقّيهم للدعوة.

{ **الصَّفْحَ** } العفو. وقد تقدّم في قوله تعالى { فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ } [العقود:13]. وهو مستعمل هنا في لازمه وهو عدم الحزن والغضب من صنيع أعداء الدين وحذف متعلّق الصفح لظهوره، أي عمّن كذّبك وآذاك.

{ **الْجَمِيلَ** } الحسن. والمراد الصفح الكامل.

ثم إنّ في هذه الآية ضربا من ردّ العجز على الصدر، إذ كان قد وقع الاستدلال على المكذّبين بالبعث بخلق السماوات والأرض عند قوله { وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً } [14-16]. وانتقل بعد ذلك إلى التذكير بخلق آدم عليه السلام وما فيه من العبر. ثم إلى سوق قصص الأمم التي عقبت عصور الخلقة الأولى، فآن الأوان للعود إلى حيث افترق طريق النظم حيث ذكر خلق السماوات ودلالته على البعث بقوله تعالى { وَمَا

خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ }.

{ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ** } في موقع التعليل للأمر بالصفح عنهم، أي لأنّ في الصفح عنهم مصلحة لك ولهم يعلمها ربّك، فمصلحة النبيء ﷺ في الصفح هي كمال أخلاقه، ومصلحتهم في الصفح رجاء إيمانهم.

{ **الْعَلِيمُ** } بما يأتيه كلّ منكم، وهذا كقوله { فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } [فاطر:8].

وفي الآية إيماء إلى بشارة النبيء ﷺ بأنّ الله يخلق من أولئك من يكونون أولياء للنبيء ﷺ، وهم الذين آمنوا بعد نزول هذه الآية والذين ولدوا، كقول النبيء ﷺ: " لعلّ الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده ".

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكان في أيام الجاهلية من المؤذين للنبيء ﷺ:

دعاني داع غير نفسي وردني ... إلى الله من أطردته كل مطرد

يعني بالداعي النبيء ﷺ. وتلك هي نكتة ذكر وصف { الْخَالِقُ } دون غيره من الأسماء الحسنى.

{ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ }[87]

اعتراض بين { فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } وجملة { لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } [88]. أتبع التسلية والوعد بالمنّة ليُذكّر نبيه ﷺ بالنعمة العظيمة، فيطمئن بأنّه كما أحسن إليه بالنعم الحاصلة فهو منجزه الوعود الصادقة. وفي هذا الامتنان تعريض بالرد على المكذّبين.

إيتاء القرآن: أي إعطاؤه، وهو تنزيله عليه والوحي به إليه. وأوثر فعل { **آتَيْنَاكَ** } دون (أوحينا) أو (أنزلنا) لأنّ الإعطاء أظهر في الإكرام والمنّة.

{ **سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي** } وجعل { الْقُرْآنَ } معطوفا يشعر بأنّ السبع المثاني من القرآن. وذلك ما درج عليه جمهور المفسّرين ودل عليه الحديث الآتي. وقد وصف القرآن بالمثاني في قوله تعالى { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ } [الزمر:23]، فيتعيّن أنّ المراد آيات أو سور من القرآن، وأنّ { **مِنَ** } تبعيضيّة. وذلك أيضا شأن (مِنَ) إذا وقعت بعد اسم عدد. وأنّ المراد أجزاء من القرآن، آيات أو سور لها مزيّة اقتضت تخصيصها بالذكر من بين سائر القرآن، ولكون المثاني غير السبع مغايرة بالكلية والجزئية، تصحيحا للعطف.

{ **الْمَثَانِي** } يجوز أن يكون جمع مُثنّى (بضم الميم وتشديد النون) اسم مفعول مشتقا من ثنّى إذا كرّر تكريرة. وقيل جمع مَثْناة (بفتح الميم وسكون الثاء المثلثة وبهاء تأنيث في آخره). فهو مشتق من اسم الاثنين.

والأصح أنّ السبع المثاني **هي سورة فاتحة الكتاب** لأنّها يثنّى بها، أي تعاد في كل ركعة من الصلاة، فاشتقاقها من اسم الاثنين المراد به مطلق التكرير.

ثم إن كان المراد بالسبع سبع آيات فالمؤتى هو سورة الفاتحة لأنّها سبع آيات وهذا الذي ثبت عن رسول الله ﷺ في حديث أبي سعيد بن المعلى وأبي بن كعب وأبي هريرة في الصحيح عن رسول الله ﷺ: " أنّ أمّ القرآن هي السبع المثاني" فهو الأولى بالاعتماد عليه. وقد تقدّم ذلك في ذكر أسماء الفاتحة.

{ **وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ** } عطف على السبع، من عطف الكلّ على الجزء لقصد التّعميم، ليعلم أنّ إيتاء القرآن كلّه نعمة عظيمة. وأجري وصف { **الْعَظِيمَ** } على القرآن تنويها به.

وإن كان المراد بالسبع سورا كما هو مروي من قول ابن عباس وكثير من الصحابة والسلف، واختلفوا في تعيينها بما لا ينثلج له الصدر، فيكون إبهامها مقصودا لصرف النّاس للعناية بجميع ما نزل من سور القرآن كما أبهمت ليلة القدر.

{ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ [88] وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ } [89].

استئناف بياني لما يثيره المقصود من قوله { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } [85]، ومن تساؤل يجيش في النفس عن الإملاء للمكذّبين في النعمة والترف مع ما رمقوا به من الغضب والوعيد، فكانت جملة { لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ } بيانا لما يختلج في نفس السامع من ذلك، ولكونها بهذه المثابة فصلت عن التي قبلها فصل البيان عن المبين.

المَدّ: أصله الزيادة. وأطلق على بسط الجسم وتطويله. يقال: مدّ يده إلى كذا، ومدّ رجله في الأرض. ثم استعير للزيادة من شيء. ومنه مدد الجيش، ومدّ البحر، والمدّ في العمر. وتلك إطلاقات شائعة صارت حقيقة. واستعير المدّ هنا إلى التحديق بالنظر والطموح به تشبيها له بمدّ اليد للمتناول، لأنّ المنهي عنه نظر الإعجاب مما هم فيه من حسن الحال في رفاهية عيشهم مع كفرهم، أي فإن ما أوتيته أعظم من ذلك.

والأزواج هنا يحتمل أن يكون على معناه المشهور، أي الكفّار ونسائهم. ووجه تخصيصهم بالذكر أن حالتهم أتم أحوال التمتع لاستكمالها جميع اللذات والأنّس.

{ **وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ** } شامل لكل حال من أحوالهم من شأنها أن تحزن الرسول ﷺ وتؤسفه. فمن ذلك كفرهم كما قال تعالى { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً } [الكهف:6]. ففي هذا النهي كناية عن قلّة الاكتراث بهم، وعن توعّدهم بأن سيحلّ بهم ما يثير الحزن لهم، وكناية عن رحمة الرّسول ﷺ بالناس.

{ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** } ولمّا كان هذا النهي يتضمّن شدّة قلب وغلظة اعترضه بالأمر بالرفق للمؤمنين. وهو اعتراض مراد منه الاحتراس. وهذا كقوله { أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } [الفتح:29].

وخفض الجناح تمثيل للرفق والتواضع بحال الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع خفض جناحه يريد الدنو، أو الذي يتهيّأ لحضن فراخه. وفي ضمن هذه التمثيليّة استعارة مكنية، والجناح تخييل. وقد بسطناه في قوله تعالى { وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ } [الاسراء:24]، وقد شاعت هذه التمثيليّة حتّى صارت كالمثل في التواضع واللين في المعاملة. وضدّ ذلك رفع الجناح تمثيل للجفاء والشدّة.

وفي الآية تمهيد لما يجيء بعدها من قوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } [94].

{ **وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ** } عطف على { وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ }. فالمقول لهم هذا القول هم المتحدّث عنهم بالضمائر السابقة في قوله تعالى { مِنْهُمْ / عَلَيْهِمْ }، فالتقدير: وقل لهم، لأنّ هذا القول مراد منه المتاركة، أي ما عليّ إلّا إنذاركم، والقرينة هي ذكر النذارة دون البشارة لأنّ النذارة تناسب المكذّبين، إذ النذارة هي الإعلام بحدث فيه ضرّ.

النذير: فعيل بمعنى مُفعِل مثل الحكيم بمعنى المحكم.

{ **المبين** } الموضح المصرح.

والقصر المستفاد من ضمير الفصل ومن تعريف الجزأين قصر قلب، أي كما تحسبون أنّكم تغيظونني بعدم إيمانكم فإني نذير مبين غير متقايض معكم لتحصيل إيمانكم.

{ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ [90] الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ } [91].

تخلّص من تسلية النبيء ﷺ إلى وعيد المشركين الطاعنين في القرآن بأنّهم سيحاسبون على مطاعنهم.

{ **الْمُقْتَسِمِينَ** } افتعال من قسّم إذا جعل شيئا أقساما. وصيغة الافتعال هنا تقتضي تكلّف الفعل. ومعنى التقسيم والتجزئة هنا تفرقة الصفات والأحوال لا تجزئه الذات.

والمقتسمون يجوز أن يراد بهم جمع من المشركين، من قريش وهم ستة عشر رجلا، سنذكر أسماءهم، فيكون المراد بالقرآن مسمى هذا الاسم العلم، وهو كتاب الإسلام، وهو الراجح، ويؤيّده أنّ السورة مكّيّة. ويجوز أن يراد بهم طوائف أهل الكتاب قسّموا كتابهم أقساما، منها ما أظهروه ومنها ما انسوه، فيكون القرآن مصدرا أطلق بمعناه اللغوي، أي المقروء من كتبهم. أو قسّموا كتاب الإسلام، منه ما صدّقوا به وهو مما وافق دينهم، ومنه ما كذّبوا به وهو ما خالف ما هم عليه.

{ **الْقُرْآنَ** } هنا يجوز أن يكون المراد به الاسم المجعول علما لكتاب الإسلام. ويجوز أن يكون المراد به الكتاب المقروء فيصدق بالتوراة والإنجيل.

{ عِضِينَ } جمع عضة، والعضة: الجزء والقطعة من الشيء.
وروي عن قتادة أنّ المقتسمين نفر من مشركي قريش جمعهم الوليد بن المغيرة لمّا جاء وقت الحجّ فقال: إنّ وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحدا، فانتدب لذلك ستة عشر رجلا فتقاسموا مداخل مكّة وطرقها لينفّروا النّاس عن الإسلام، فبعضهم يقول: لا تغتروا بهذا القرآن فهو سحر، وبعضهم يقول: هو شعر، وبعضهم يقول: كلام مجنون، وبعضهم يقول: قول كاهن، وبعضهم يقول: هو أساطير الأولين اكتتبها، فقد قسموا القرآن أنواعا باعتبار اختلاف أوصافه.
وهؤلاء النفر هم: [حنظلة بن أبي سفيان - عتبة بن ربيعة - أخوه شيبة - الوليد بن المغيرة - أبو جهل بن هشام - أخوه العاص - أبو قيس بن الوليد - قيس بن الفاكه - زهير بن أمية - هلال بن عبد الأسود - السائب بن صيفي - النضر بن الحارث - أبو البختري بن هشام - زمعة ابن الحجاج - أمية بن خلف - أوس بن المغيرة].

{ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [92] عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [93].
الفاء للتفريع، وهذا تفريع على ما سبق من قوله تعالى { وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } [85]، والواو للقسم، فالمفرّع هو القسم وجوابه. والمقصود بالقسم تأكيد الخبر. وليس الرّسول ﷺ ممّن يشك في صدق هذا الوعيد، ولكن التأكيد متسلّط على ما في الخبر من تهديد { لَنَسْأَلَنَّهُمْ }.
{ فَوَرَبِّكَ } ووصف الربّ مضافا إلى ضمير النبيء ﷺ إيماء إلى أنّ في السؤال المقسم عليه حظا من التنويه به، وهو سؤال الله المكذّبين عن تكذيبهم إيّاه، سؤال ربّ يغضب لرسوله ﷺ.
والسؤال مستعمل في لازم معناه، وهو وعيد للمسؤول، كقوله { ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } [التكاثر:8].

{ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ [94] إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ [95] الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [96].
تفريع على { وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي } [87] بصريحه وكنايته عن التسلية على ما يلاقيه من تكذيب قومه. نزلت هذه الآية في السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة ورسول الله ﷺ مختفٍ في دار الأرقم بن أبي الأرقم. روي عن عبد الله بن مسعود قال: ما زال النبيء ﷺ مستخفيا حتّى نزلت { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ } فخرج هو وأصحابه. يعني أنّ رسول الله ﷺ لمّا نزلت سورة المدثّر كان يدعو النّاس خفية وكان من أسلم من النّاس إذا أراد الصلاة يذهب إلى بعض الشعاب يستخفي بصلاته من المشركين، فلحقهم المشركون يستهزئون بهم ويعيبون صلاتهم، فحدث تضارب بينهم وبين سعد ابن أبي وقاص أدمى فيه سعد رجلا من المشركين. فبعد

تلك الوقعة دخل رسول الله ﷺ وأصحابه دار الأرقم عند الصفا فكانوا يقيمون الصلاة بها، واستمروا كذلك ثلاث سنين أو تزيد، فنزل قوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ }. وبنزولها ترك الرسول ﷺ الاختفاء بدار الأرقم وأعلن بالدعوة للإسلام جهرا.

الصدع: الجهر والإعلان. وأصله الانشقاق. ومنه انصداع الإناء، أي انشقاقه. فاستعمل الصدع في لازم الانشقاق وهو ظهور الأمر المحجوب وراء الشيء المنصدع.

{ **بِمَا تُؤْمَرُ** } الدعوة إلى الإسلام. وقصد شمول الأمر، أي كلّ ما أمر الرسول ﷺ بتبليغه، وهو إيجاز بديع.

{ **وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** } الإعراض عن بعض أحوالهم لا عن ذواتهم. عن استهزائهم، وعن تصدّيهم إلى أذى المسلمين. وليس المراد الإعراض عن دعوتهم لأنّ قوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ } مانع من ذلك.

{ **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** } تعليل للأمر بالإعلان بما أمر به، فإنّ اختفاء النبيء ﷺ بدار الأرقم كان بأمر من الله تعالى لحكمة علمها الله، أهمّها تعدّد الداخلين في الإسلام في تلك المدّة بحيث يغتاظ المشركون من وفرة الداخلين في الدين مع أنّ دعوته مخفية، ثم إنّ الله أمر رسوله ﷺ بإعلان دعوته لحكمة أعلى، تهيّأ اعتبارها في علمه تعالى.

{ **الْمُسْتَهْزِئِينَ** } التعبير عنهم بهذا الوصف إيماء إلى أنّه كفاه استهزاءهم وهو أقل أنواع الأذى، فكفايته ما هو أشد من الاستهزاء من الأذى مفهوم بطريق الأحرى. والتعريف للجنس فيفيد العموم، أي كفيناك كلّ مستهزئ. وفي التعبير عنهم بهذا الوصف إيماء إلى أنّ قصارى ما يؤذونه به الاستهزاء، كقوله تعالى { لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً} [آل عمران:111]، فقد صرفهم الله عن أن يؤذوا النبيء بغير الاستهزاء. وذلك لطف من الله برسوله ﷺ.

{ **كَفَيْنَاكَ** } الكافي هو متولّي عمل عن غيره لأنّه أقدر عليه، أو لأنّه يبتغي راحة المكفي. يقال: كفيت مُهمّك، فيتعدى الفعل إلى مفعولين ثانيهما هو المهمّ المكفي منه. فالأصل أن يكون مصدرا فإذا كان اسم ذات فالمراد أحواله التي يدل عليها المقام، فإذا قلت: كفيتك عدوك، فالمراد: كفيتك بأسه، وإذا قلت: كفيتك غريمك، فالمراد: كفيتك مطالبته. فلما قال هنا { كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ } فُهم أنّ المراد كفيناك الانتقام منهم وإراحتك من استهزائهم. وكانوا يستهزئون بصنوف من الاستهزاء كما تقدم. ومن استهزائهم استهزاؤهم بأسماء سور القرآن مثل سورة العنكبوت وسورة البقرة، كما في (الإتقان) في ذكر أسماء السور.

وعدّ من كبراء المستهزئين خمسة هم: [الوليد بن المغيرة - الأسود بن عبد يغوث - الأسود بن المطلب – العاصي بن وائل - الحارث بن عيطلة (يقال ابن عيطل وهو اسم أمّه دعي لها واسم أبيه قيس. وفي الكشاف و القرطبي أنّه ابن الطُلاطِلة ومثله في القاموس)] ، هلكوا بمكّة متتابعين، وكان هلاكهم العجيب المحكي في كتب السيرة صارفا أتباعهم عن الاستهزاء لانفراط عقدهم.

وقد يكون من أسباب كفايتهم زيادة الداخلين في الإسلام بحيث صار بأس المسلمين مخشيّا، وقد أسلم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه فاعتز به المسلمون، ولم يبق من أذى المشركين إيّاهم إلّا الاستهزاء، ثم أسلم عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فخشيه سفهاء المشركين، وكان إسلامه في حدود سنة خمس من البعثة.

{ **الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ** } للتشويه بحالهم، ولتسلية الرسول ﷺ بأنّهم ما اقتصروا على الافتراء عليه فقد افتروا على الله. وصيغة المضارع { يَجْعَلُونَ } للإشارة إلى أنّهم مستمرّون على ذلك مجدّدون له.

{ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** }. وفرّع على الأمرين الوعيد وحذف مفعول { يَعْلَمُونَ } لدلالة المقام عليه، أي فسوف يعلمون جزاء بهتانهم.

{ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ [97] فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ [98] وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [99].

لمّا كان الوعيد مؤذنا بإمهالهم قليلا، كما دلّ عليه حرف التنفيس في قوله تعالى { فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [96] طمأن الله نبيّه ﷺ بأنّه مطّلع على تحرّجه من أذاهم وبهتانهم؛ من أقوال الشرك وأقوال الاستهزاء، فأمره بالثبات والتفويض إلى ربّه، لأنّ الحكمة في إمهالهم، ولذلك افتتحت الجملة بلام القسم وحرف التحقيق.

وليس المخاطب ممن يداخله الشك في خبر الله تعالى ولكن التحقيق كناية عن الاهتمام بالمخبر، وأنّه بمحلّ العناية من الله. فالجملة معطوفة على { إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ } [95] أو حال.

{ **أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ** } مجاز عن كدر النفس. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ } [هود:12].

{ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ** } أمره بتسبيح الله تعالى وتنزيهه عما يقولونه من نسبة الشريك، أي عليك بتنزيه ربّك فلا يضرّك شركهم. على أنّ التسبيح قد يستعمل في معناه الكنائي مع معناه الأصلي فيفيد الإنكار على المشركين فيما يقولون، أي فاقتصر في دفعهم على إنكار كلامهم. وهذا مثل قوله تعالى { قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً } [الاسراء:93]. وتسبيح الله تنزيهه بقول: سبحان الله.

{ **وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ** } أبلغ في الاتصاف بالسجود من (ساجدا) كما تقدّم في قوله تعالى { وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } [براءة:119]، وقوله { قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [البقرة:67] ونظائرهما.

الساجدون: هم المصلّون. فالمعنى: ودم على الصلاة أنت ومن معك.

وليس هذا موضع سجدة من سجود التلاوة عند أحد من فقهاء المسلمين.

{ **الْيَقِينُ** } المقطوع به، الذي لا شك فيه وهو النصر الذي وعده الله به.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النحل

سمّيت هذه السورة عند السلف سورة النحل، وهو اسمها المشهور في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنّة. ووجه تسميّتها بذلك أنّ لفظ النحل لم يذكر في سورة أخرى. وعن قتادة أنّها تسمّى سورة النِعَم (أي بكسر النون وفتح العين). قال ابن عطيّة: لما عدّد الله فيها من النعم على عباده.

وهي مكّيّة في قول الجمهور، وهو عن أبن عباس وابن الزبير. وقيل: إلّا ثلاث آيات نزلت بالمدينة منصرف النبيء ﷺ من غزوة أحد، وهي قوله { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ } [126] إلى آخر السورة. قيل نزلت في نسخ عزم النبيء ﷺ على أن يمثّل بسبعين من المشركين أن أظفره الله بهم مكافاة على تمثيلهم بحمزة.

وعن قتادة وجابر بن زيد أنّ أوّلها مكّيّ إلى قوله تعالى { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا } [41] فهو مدني إلى آخر السورة.

وسيأتي في تفسير قوله تعالى{ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ } [79] ما يرجّح أنّ بعض السورة مكّيّ وبعضها مدنيّ، وبعضها نزل بعد الهجرة إلى الحبشة كما يدل عليه قوله تعالى { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا} [110]، وبعضها متأخر النزول عن سورة الأنعام لقوله في هذه { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ} [118]، يعني بما قصّ من قبل قوله تعالى { وَعَلَى الَّذِينَ

هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ } [الأنعام:146].

وهذه السورة نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة الم السجدة. وقد عدت الثانية والسبعين في ترتيب نزول السور.

وآيها مائة وثمان وعشرون بلا خلاف.

أغراض السورة

معظم ما اشتملت عليه السورة إكثارُ متنوّع الأدلّة على تفرد الله تعالى بالإلهيّة، والأدلة على فساد دين الشرك وإظهار شناعته.

وأدلة إثبات رسالة محمد ﷺ. وإنزال القرآن عليه ﷺ.

وأنّ شريعة الإسلام قائمة على أصول ملة إبراهيم - عليه السلام - .

وإثبات البعث والجزاء، فابتدئت بالإنذار بأنّه قد اقترب حلول ما أنذر به المشركون من عذاب الله الذي يستهزئون به، وتلا ذلك قرع المشركين وزجرهم على تصلّبهم في شركهم وتكذيبهم.

وانتقل إلى الاستدلال على إبطال عقيدة الشرك، فابتدئ بالتذكير بخلق السماوات والأرض، وما في السماء من شمس وقمر ونجوم، وما في الأرض من ناس وحيوان ونبات وبحار وجبال، وأعراض الليل والنهار.

وما في أطوار الإنسان وأحواله من العبر.

وخصّت النحل وثمراتها بالذكر لوفرة منافعها والاعتبار بإلهامها إلى تدبير بيوتها وإفراز شهدها.

والتنويه بالقرآن وتنزيهه عن اقتراب الشيطان، وإبطال افترائهم على القرآن.

والاستدلال على إمكان البعث وأنّه تكوين كتكوين الموجودات.

والتحذير ممّا حلّ بالأمم التي أشركت بالله وكذّبت رسله عليهم السلام، عذاب الدنيا وما ينتظرهم من عذاب الآخرة. وقابل ذلك بضدّه من نعيم المتّقين المصدّقين والصابرين على أذى المشركين والذين هاجروا في الله وظلموا.

والتحذير من الارتداد عن الإسلام، والترخيص لمن أكره على الكفر في التقية من المكرهين.
والأمر بأصول من الشريعة، من تأصيل العدل، والإحسان، والمواساة، والوفاء بالعهد، وإبطال الفحشاء والمنكر والبغي، ونقض العهود، وما على ذلك من جزاء بالخير في الدنيا والآخرة.
وأدمج في ذلك ما فيها من العبر والدلائل، والامتنان على النّاس بما في ذلك من المنافع، والمحاسن، وحسن المناظر، ومعرفة الأوقات، وعلامات السير في البر والبحر، ومن ضرب الأمثال.
ومقابلة الأعمال بأضدادها.
والتحذير من الوقوع في حبائل الشيطان.
والإنذار بعواقب كفران النعمة.
ثم عرض لهم بالدعوة إلى التوبة
وملاك طرائق دعوة الإسلام وتثبيت الرسول - عليه الصلاة والسلام - ووعده بتأييد الله إيّاه.

{ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [1]

{ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ }

لمّا كان معظم أغراض هذه السورة زجر المشركين عن الإشراك وتوابعه وإنذارهم بسوء عاقبة ذلك، وكان قد تكرّر وعيدهم من قبل، في آيات كثيرة، بيوم يكون الفارق بين الحقّ والباطل، فتزول فيه شوكتهم وتذهب شدّتهم. وكانوا قد استبطأوا ذلك اليوم حتّى اطمأنّوا أنّه غير واقع فصاروا يهزأون بالنبيء ﷺ والمسلمين فيستعجلون حلول ذلك اليوم، صدرت السورة بالوعيد المصوغ في صورة الخبر بأن قد حلّ ذلك المتوعّد به.
فجيء بالماضي المراد به المستقبل المحقّق الوقوع بقرينة تفريع { فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ }، لأنّ النهي عن استعجال حلول ذلك اليوم يقتضي أنّه لمّا يحلّ بعد.
الأمر: مصدر بمعنى المفعول، كالوعد بمعنى الموعود، أي ما أمر الله به. أي تقديره وإرادة حصوله في الأجل المسمّى الذي تقتضيه الحكمة.
{ أَمْرُ اللَّهِ } إبهام يفيد تهويله وعظمته لإضافته لمن لا يعظم عليه شيء. وقد عبّر عنه تارات بـ (وعد الله) ومرّات بـ (أجل الله) ونحو ذلك.
والخطاب للمشركين ابتداء لأنّ استعجال العذاب من خصالهم، قال تعالى { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ } [الحج:47]. ويجوز أن يكون شاملا للمؤمنين، لأنّ عذاب الله وإن كان الكافرون يستعجلون به تهكّما لظنّهم أنه غير آت، فإنّ المؤمنين يضمرون في نفوسهم استبطاءه ويحبّون تعجيله للكافرين.
الاستعجال: طلب تعجيل حصول شيء، فمفعوله هو الذي يقع التعجيل به. ويتعدّى الفعل إلى أكثر من واحد

بالباء فقالوا: استعجل بكذا. وقد مضى في قوله تعالى { مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ } [الأنعام:57] فضمير { تَسْتَعْجِلُوهُ } إمّا عائد إلى الله تعالى، أي فلا تستعجلوا الله بأمره. وقيل الضمير عائد إلى {أَمْرُ اللَّهِ}، وعليه تكون تعدية فعل الاستعجال إليه على نزع الخافض.

والمراد من النهي هنا دقيق لم يذكروه في موارد صيغ النهي. ويجدر أن يكون **للتسوية**، كما ترد صيغة الأمر للتسوية، أي لا جدوى في استعجاله لأنّه لا يعجّل قبل وقته المؤجّل له.

{ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ }

مستأنفة استئنافا ابتدائيا لأنّها المقصود من الوعيد، إذ الوعيد والزجر إنّما كانا لأجل إبطال الإشراك. فكانت جملة { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } كالمقدّمة وهذه الجملة كالمقصد.

{ عَمَّا يُشْرِكُونَ } الـ (ما) مصدريّة، أي عن إشراكهم غيره معه.

{ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلّا أَنَا فَاتَّقُونِ}[2]

كان استعجالهم بالعذاب استهزاء بالرسول ﷺ وتكذيبه، وكان ناشئا عن عقيدة الإشراك التي من أصولها استحالة إرسال الرسل من البشر.

وأتبع تحقيق مجيء العذاب بتنزيه الله عن الشريك فقفّى ذلك بتبرئة الرّسول ﷺ من الكذب فيما يبلّغه عن ربّه ووصف لهم الإرسال وصفا موجزا. وهذا اعتراض في أثناء الاستدلال على التوحيد.

{ الْمَلائِكَةَ } المراد الواحد منهم، وهو جبرائيل - عليه السلام - .

الروح: الوحي. أطلق عليه اسم الروح على وجه الاستعارة لأنّ الوحي به هدى للعقول، فشبّه الوحي بالروح كما يشبّه العلم الحقّ بالحياة، وكما يشبّه الجهل بالموت قال تعالى { أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ } [الأنعام:122]. ووجه تشبيه الوحي بالروح أنّ الوحي إذا وعته العقول حلّت بها الحياة المعنويّة وهو العلم، كما أنّ الروح إذا حلّ في الجسم حلّت به الحياة الحسّيّة، قال تعالى { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا } [الشورى:52].

{ مِنْ أَمْرِهِ } هي شؤونه، سبحانه، ومقدّراته التي استأثر بها. وذلك وجه إضافته إلى الله، كما هنا وكما في قوله تعالى { يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [الرعد:11]، وقوله تعالى { قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } [الاسراء:85].

{ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } ردّ على فنون من تكذيبهم. فقد قالوا { وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف:31] وقالوا { فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ } [الزخرف:53] أي كان ملكا، وقالوا { مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ } [الفرقان:7]. ومشيئة الله جارية على وفق

حكمته.
{ **أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلّا أَنَا** } لمّا كان هذا الخبر مسوقا للذين اتّخذوا مع الله آلهة أخرى وكان ذلك ضلالا يستحقون عليه العقاب جعل إخبارهم بضد اعتقادهم إنذارا.
{ **فَاتَّقُونِ** } أمر بالتقوى الشاملة لجميع الشريعة.
وقد أحاطت جملة { أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلّا أَنَا فَاتَّقُونِ } بالشريعة كلّها، لأنّ جملة { أنَ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلّا أَنَا } تنبيه على ما يرجع من الشريعة إلى إصلاح الاعتقاد وهو الأمر بكمال القوة العقلية. وجملة { فَاتَّقُونِ } تنبيه على الاجتناب والامتثال اللذين هما منتهى كمال القوة العملية.

{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالحقّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [3]

استئناف بياني ناشئ عن قوله { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [1] لأنّهم إذا سمعوا ذلك ترقّبوا دليل تنزيه الله عن أن يكون له شركاء. فابتدئ بالدلالة على اختصاصه بالخلق والتقدير، وذلك دليل على أنّ ما يُخلق لا يوصف بالإلهية، كما أنبأ عنه التفريع عقب هذه الأدلة بقوله { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [17].
والاستدلال بخلق السماوات والأرض أكبر من سائر الأدلة وأجمع لأنّها محوية لهما، ولأنّهما من أعظم الموجودات. فلذلك ابتدئ بهما. ولكن ما فيه من إجمال المَحويّات اقتضى أن يعقّب بالاستدلال بأصناف الخلق والمخلوقات فثنّى بخلق الإنسان.
الحق: هنا ضد العبث، فهو هنا بمعنى الحكمة والجدّ. إلّا ترى إلى قوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلّا بِالْحَقِّ } [الدخان:38-39]. وقوله تعالى { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً} [ص:27]. والحقّ والصدق يطلقان وصفين لكمال الشيء في نوعه.
{ **تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** } تحقيقا لنتيجة الدليل، لأنّ إشراكهم هو الذي حداهم إلى إنكار نبوّة من جاء ينهاهم عن الشرك فلا جرم كان الاعتناء بإثبات الوحدانية وإبطال الشرك مقدما على إثبات صدق الرسول - عليه الصلاة والسلام - المُبدأ به في أول السورة { يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ } [2].

{ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ }[4]

استئناف بياني أيضا. وهو استدلال آخر على انفراده تعالى بالإلهية ووحدانيّته فيها. وذلك أنّه بعد أن استدل عليهم بخلق العوالم العليا والسفلى، وهي مشاهدة لديهم، انتقل إلى الاستدلال عليهم بخلق أنفسهم المعلوم لهم.

وأيضا لما استدل على وحدانيّته بخلق أعظم الأشياء المعلومة لهم استدل عليهم أيضا بخلق أعجب الأشياء للمتأمّل، وهو الإنسان في طرفي أطواره من كونه نطفة مهينة إلى كونه عاقلا فصيحا مبينا.

{ **الْإِنْسَانَ** } التعريف للعهد الذهني، وهو تعريف الجنس، أي خلق الجنس المعلوم الذي تدعونه بالإنسان.

وقد ذكر للاعتبار بخلق الإنسان ثلاثة اعتبارات: **جنسه** المعلوم بماهيته وخواصه، و**مبدأ** خلقه وهو النطفة التي هي أمهن شيء نشأ منها أشرف نوع، و**منتهى** ما شرّفه به وهو العقل.

الخصيم: من صيغ المبالغة، أي كثير الخصام.

{ **مُبِينٌ** } خبر ثان، أي فإذا هو متكلّم مفصح عما في ضميره ومراده بالحقّ أو بالباطل.

والمراد: الخصام في إثبات الشركاء، وإبطال الوحدانية، وتكذيب من يدعون إلى التوحيد، كما دلّ عليه قوله تعالى { أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } [يس:77،78]

(**إذا**) الإتيان بحرف المفاجأة استعارة تبعيّة. استعير الحرف الدال على معنى المفاجأة لمعنى ترتّب الشيء على غير ما يظنّ أن يترتّب عليه. ولا مفاجأة بالحقيقة هنا، لأنّ الله لم يفاجأه ذلك ولا فَجَأ أحدا، ولكن المعنى أنّه بحيث لو تدبّر الناظر في خلق الإنسان لترقّب منه الاعتراف بوحدانيّة خالقه وبقدرته على إعادة خلقه، فإذا سمع منه الإشراك والمجادلة في إبطال الوحدانية وفي إنكار البعث كان كمن فجأه ذلك. ولمّا كان حرف المفاجأة يدلّ على حصول الفَجْأة للمتكلّم به تعيّن أن تكون المفاجأة استعارة تبعيّة.

فإقحام حرف المفاجأة جعل الكلام مُفْهِما أمرين هما: التعجيب من تطور الإنسان من أمهن حالة إلى أبدع حالة، وهي حالة الخصومة والإبانة الناشئتين عن التفكير والتعقل، والدلالة على كفرانه النعمة وصرفه ما أنعم به عليه في عصيان المنعم عليه. فالجملة في حد ذاتها تنويه، وبضميمة حرف المفاجأة أدمجت مع التنويه التعجيب. ولو قيل: فهو خصيم أو فكان خصيما لم يحصل هذا المعنى البليغ.

{ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ [5] وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ [6] وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ}[7].

{ **وَالْأَنْعَامَ** } يجوز أن يكون عطفا على { الإِنْسَان } [4]، أي خلق الإنسان من نطفة والأنعام أيضا مخلوقة من نطفة. فيحصل اعتبار بهذا التكوين العجيب لشبهه بتكوين الإنسان، وفيه امتنان.

ويجوز أن يكون عطف الجملة على الجملة، فيكون نصب { الْأَنْعَامَ } بفعل مضمر يفسّره المذكور بعده على طريقة الاستغلال. فيكون الكلام مفيدا للتأكيد لقصد تقوية الحكم اهتماما بما في الأنعام من الفوائد، فيكون

امتنانا على المخاطبين، وتعريضا بهم، فإنّهم كفروا نعمة الله بخلقها فجعلوا من نتاجها لشركائهم وجعلوا لله نصيبا. وأي كفران أعظم من أن يتقرّب بالمخلوقات إلى غير من خلقها.

وليس في الكلام حصر على كلا التقديرين.

والمقصود من الاستدلال هو قوله تعالى { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا } وما بعده إدماج للامتنان.

{ **الْأَنْعَامَ** }: الإبل، والبقر، والغنم، والمعز. وتقدّم في سورة الأنعام. وأشهر الأنعام عند العرب الإبل، ولذلك يغلب أن يطلق لفظ الأنعام عندهم على الإبل.

والخطاب صالح لشمول المشركين، وهم المقصود ابتداء من الاستدلال، وأن يشمل جميع النّاس ولا سيما فيما تضمّنه الكلام من الامتنان.

الدفء (بكسر الدال) اسم لما يتدفأ به . وهو الثياب المنسوجة من أوبار الأنعام وأصوافها وأشعارها، وتتخذ منها الخيام والملابس. فلمّا كانت تلك مادة النسج جعل المنسوج كأنّه مظروف في الأنعام.

{ **وَمَنَافِعُ** } عطف على { دِفْءٌ } من عطف العام على الخاص، لأنّ أمر الدفء قلما تستحضره الخواطر.

{ **وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** } وهذا امتنان بنعمة تسخيرها للأكل منها والتغذّي. وتقديم المجرور للاهتمام، لأنّهم شديدو الرغبة في أكل اللحوم، وللرعاية على الفاصلة. والإتيان بالمضارع لأنّ ذلك من الأعمال المتكرّرة.

الإراحة: فعل الرواح، وهو الرجوع إلى المعاطن يقال: أراح نعمه إذا أعادها بعد السروح.

السروح: الإسامة، أي الغدو بها إلى المراعي. يقال: سرَحها (بتخفيف الراء) سَرَحا وسُرَوحا، وسرّحها (بتشديد الراء) تسريحا.

وتقديم الإراحة على التسريح لأنّ الجَمال عند الإراحة أقوى وأبهج، لأنّها تقبل حينئذ ملأى البطون حافلة الضروع مرحة بمسرّة الشبع ومحبة الرجوع إلى منازلها من معاطن ومرابض.

واستعمال المضارع لأنّ ذلك من الأحوال المتكرّرة. وفي تكررها تكرر النعمة بمناظرها.

{ **وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ** } الضمير عائد إلى بعض الأنعام بالقرينة. والمضارع لنفس الغاية.

الأثقال: جمع ثَقَل (بفتحتين) وهو ما يثقل على النّاس حمله بأنفسهم.

{ **إِلَى بَلَدٍ** } الذي يرتحلون إليه كالشام واليمن بالنسبة إلى أهل الحجاز، ومنهم أهل مكّة في رحلة الصيف والشتاء، والرحلة إلى الحجّ.

{ **لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ** } صفة لـ { بَلَدٍ }، وهي مفيدة معنى البعد، لأنّ بلوغ المسافر إلى بلد بمشقّة هو من شان البلد البعيد، أي لا تبلغونه بدون الأنعام الحاملة أثقالكم.

الشِقّ (بكسر الشين) في قراءة الجمهور: المشقّة: التعب الشديد. والباء للملابسة.

{ **إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ** } تعليل لجملة {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا} ، أي خلقها لهذه المنافع لأنّه رؤوف رحيم بكم.

{ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ }[8]

{ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً }. معطوف على { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا } [5] فالتقدير: وخلق الخيل. والقول في مناط الاستدلال وما بعده من الامتنان والعبرة في كلٍّ كالقول فيما تقدّم من قوله تعالى { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ }.

{ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً } ، أي خلقها الله لتكونا مراكب للبشر، ولولا ذلك لم تكن في وجودها فائدة لعمران العالم.

{ وَزِينَةً } بالنصب عطفا على شبه الجملة { لِتَرْكَبُوهَا }، فجُنِّب قرنه بلام التعليل من أجل توفر شرط انتصابه على المفعولية لأجله، لأنّ فاعله وفاعل عامله واحد، { خَلَقَ } في قوله { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا }. وهذا النصب أوضح دليل على أنّ المفعول لأجله منصوب على تقدير لام التعليل.

وقد اقتصر على منّة الركوب على الخيل والبغال والحمير والزينة، ولم يذكر الحمل عليها كما قال في شأن الأنعام، لأنّهم لم تكن من عادتهم الحمل على الخيل والبغال والحمير، فإنّ الخيل كانت تركب للغزو وللصيد، والبغال تركب للمشي والغزو، والحمير تركب للتنقل في القرى وشبهها.

وفي حديث البخاري عن ابن عباس في حجّة الوداع أنه قال:" جئت على حمار أتان ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالنّاس".

فلا يتعلّق الامتنان بنعمة غير مستعملة عند المنعم عليهم، وإن كان الشيء المنعم به قد تكون له منافع لا يقصدها المخاطبون، مثل الحرث بالإبل والخيل والبغال والحمير، وهو مما يفعله المسلمون ولا يعرف منكر عليهم. أو منافع لم يتفطّن لها المخاطبون مثل ما ظهر من منافع الأدوية في الحيوان، ممّا لم يكن معروفا للنّاس من قبل، فيدخل كل ذلك في عموم قوله تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} [البقرة:29].

وبهذا يعلم أن لا دليل في هذه الآية على تحريم أكل لحوم الخيل والبغال والحمير لأنّ أكلها نادر الخطور بالبال لقلته، وكيف وقد أكل المسلمون لحوم الحمر في غزوة خيبر بدون أن يستأذنوا النبيء ﷺ وكانوا في حالة اضطرار، وآية سورة النحل يومئذ مقروءة منذ سنين كثيرة فلم ينكر عليهم أحد ولا أنكره النبيء ﷺ.

كما جاء في الصحيح: أنّه أتي فقيل له: أكلت الحمر، فسكت، ثم أتي فقيل: أكلت الحمر فسكت. ثم أتي فقيل: أفنيت الحمر فنادي النبيء ﷺ أنّ الله ورسوله ينهانكم عن أكل لحوم الحمر. فأهرقت القدور.

وأنّ الخيل والبغال والحمير سواء في أن الآية لا تشمل حكم أكلها. فالمصير في جواز أكلها ومنعه إلى أدلة أخرى.

فأمّا الخيل والبغال ففي جواز أكلها خلاف قوي بين أهل العلم، وجمهورهم أباحوا أكلها. وهو قول الشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد ابن الحسن والظاهري. وروي عن ابن مسعود وأسماء بنت أبي بكر وعطاء

والزهري والنخعي وابن جبير. وقال مالك وأبو حنيفة: يحرم أكل لحوم الخيل. وروي عن ابن عباس، واحتج بقوله تعالى { لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً }، ولو كانت مباحة الأكل لامتنّ بأكلها كما امتن في الأنعام بقوله {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} [5]. وهو دليل لا ينهض بمفرده. فيجاب عنه بما قرّرنا من جريان الكلام على مراعاة عادة المخاطبين به. وقد ثبتت أحاديث كثيرة أنّ المسلمين أكلوا لحوم الخيل في زمن رسول الله ﷺ وعلمه. ولكنّه كان نادرا في عادتهم. وعن مالك رضي الله عنه رواية بكراهة لحوم الخيل واختار ذلك القرطبي.

وأما الحمير فقد ثبت أكل المسلمين لحومها يوم خيبر. ثم نهوا عن ذلك كما في الحديث المتقدّم. واختلف في محمل ذلك، فحمله الجمهور على التحريم لذات الحمير. وحمله بعضهم على تأويل أنها كانت حمولتهم يومئذ فلو استرسلوا على أكلها لانقطعوا بذلك المكان فآبوا رجالًا ولم يستطيعوا حمل أمتعتهم. وهذا رأي فريق من السلف. وأخذ فريق من السلف بظاهر النهي فقالوا بتحريم أكل لحوم الحمر الإنسية لأنّها مورد النهي وأبقوا الوحشية على الإباحة الأصلية. وهو قول جمهور الأئمة، مالك وأبي حنيفة والشافعي، وغيرهم.

وفي هذا إثبات حكم تعبّدي في التفرقة وهو ممّا لا ينبغي المصير إليه في الاجتهاد إلّا بنص لا يقبل التأويل كما بيّنّاه في كتاب (مقاصد الشريعة الإسلامية). على أنّه لا يعرف في الشريعة أن يحرم صنف إنسي لنوع من الحيوان دون وحشيّه.

وأما البغال فالجمهور على تحريمها. فأمّا من قال بحرمة أكل الخيل فلان البغال صنف مركّب من نوعين محرّمين، فتعيّن أن يكون أكله حراما. ومن قال بإباحة أكل الخيل فلتغليب تحريم أحد النوعين المركّب منهما وهو الحمير على تحليل النوع الآخر وهو الخيل. وعن عطاء أنّه رآها حلالا.

الخيل: اسم جمع لا واحد له من لفظه على الأصحّ. وقد تقدّم عند قوله { وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ } [آل عمران:14]

{ **الْبِغَالَ** } جمع بغل. وهو اسم للذكر والأنثى من نوع أمّه من الخيل وأبوه من الحمير. وهو من الأنواع النادرة والمتولّدة من نوعين. وعكسه البرذوْن. ومن خصائص البغال عقم أنثاها بحيث لا تلد.

{ **الْحَمِيرَ** }: جمع تكسير حمار وقد يجمع على أحمرة وعلى حمر. وهو غالب للذكر من النوع، وأمّا الأنثى فأتان. وقد روعي في الجمع التغليب.

{ **وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ** } اعتراض في آخر الكلام أو في وسطه على ما سيأتي.

{ **وَيَخْلُقُ** } مضارع مراد به زمن الحال لا الاستقبال، فكما خلق لهم الأنعام والكراع خلق لهم ويخلق لهم خلائق أخرى لا يعلمونها الآن، فيدخل في ذلك ما هو غير معهود أو غير معلوم للمخاطبين وهو معلوم عند أمم أخرى كالفيل عند الحبشة والهنود، وما هو غير معلوم لأحد ثم يعلمه النّاس من بعد، مثل دواب الجهات القطبية كالفقمة والدب الأبيض. ودواب القارة الأمريكية التي كانت مجهولة للناس في وقت نزول القرآن، فيكون المضارع مستعملا في الحال للتجديد، أي هو خالق ويخلق.

وقيل يدخل فيه ما يخلقه الله من المخلوقات في الجنّة، غير أن ذلك خاص بالمؤمنين، فالظاهر أنّه غير مقصود من سياق الامتنان العام للناس، المتوسلّ به إلى إقامة الحجّة على كافري النعمة.

فالذي يظهر لي أن هذه الآية من معجزات القرآن الغيبية العلمية، وأنّها إيماء إلى أنّ الله سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير. وإلهام الله النّاس لاختراعها هو ملحق بخلق الله، فالله هو الذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم وبما تدرّجوا في سلم الحضارة واقتباس بعضهم من بعض إلى اختراعها، فهي بذلك مخلوقة لله تعالى لأنّ الكلّ من نعمته.

{ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } [9]

جملة معترضة. اقتضت اعتراضها مناسبة الامتنان بنعمة تيسير الأسفار بالرواحل والخيل والبغال والحمير. فلمّا ذكرت نعمة تيسير السبيل الموصلة إلى المقاصد الجثمانية ارتقي إلى التذكير بسبيل الوصول إلى المقاصد الروحانيّة، وهو سبيل الهدى، فكان تعهّد الله بهذه السبيل نعمة أعظم من تيسير المسالك الجثمانية لأنّ سبيل الهدى تحصل به السعادة الأبدية. وهذا السبيل هي موهبة العقل الإنساني الفارق بين الحقّ والباطل، وإرسال الرسل لدعوة النّاس إلى الحقّ، وتذكيرهم بما يغفلون عنه، وإرشادهم إلى ما لا تصل إليه عقولهم أو تصل إليه بمشقّة على خطر من التورّط في بُنيّات الطريق.

السبيل: مجاز لما يأتيه النّاس من الأعمال من حيث هي موصلة إلى دار الثواب أو دار العقاب، كما في قوله { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي } [يوسف:108]. لأنّه لمّا شُرحت دلائل التوحيد ناسب التنبيه على أنّ ذلك طريق للهدى، وأنّ من بين الطرق التي يسلكها النّاس طريق ضلال وجور.

{ وَعَلَى اللَّهِ } حرف (على) مستعار كثيرا في القرآن وكلام العرب لمعنى التعهّد بتبيين سبيل الهدى، كقوله تعالى { إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى } [الليل:12].

القصد: استقامة الطريق. وقع هنا وصفا للسبيل، من قبيل الوصف بالمصدر، لأنّه يقال: طريق قاصد، أي مستقيم، وذلك أقوى في الوصف بالاستقامة، كشأن الوصف بالمصادر.

{ جَائِرٌ } وصف لـ {السَّبِيلِ} باعتبار استعماله مذكّرا. و**الجائر**: هو الحائد عن الاستقامة. وكنّي به عن طريق غير موصل إلى المقصود، أي إلى الخير، وهو المفضي إلى ضرّ، فهو جائر بسالكه. ووصفه بالجائر على طريقة المجاز العقلي. ولم يضف السبيل الجائر إلى الله لأنّ سبيل الضلال اخترعها أهل الضلالة اختراعا لا يشهد له العقل الذي فطر الله النّاس عليه، وقد نهى الله النّاس عن سلوكها.

{ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } تذييل.

{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ } [10]

استئناف لذكر دليل آخر من مظاهر بديع خلق الله تعالى أدمج فيه امتنان بما يأتي به ذلك الماء العجيب من المنافع للناس، من نعمة الشراب ونعمة الطعام للحيوان، الذي به قوام حياة النّاس، وللنّاس أنفسهم.

{ هُوَ الَّذِي } وصيغة تعريف المسند إليه والمسند أفادت الحصر، أي هو لا غيره. وهذا قصر على خلاف مقتضى الظاهر، لأنّ المخاطبين لا ينكرون ذلك ولا يدّعون له شريكا في ذلك، ولكنهم لما عبدوا أصناما لم تنعم عليهم بذلك كان حالهم كحال من يدعي أنّ الأصنام أنعمت عليهم بهذه النعم، فنزلوا منزلة من يدّعي الشركة لله في الخلق، فكان القصر قصر إفراد، تخريجا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

{ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } تقدّم معناه عند قوله { وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ } [البقرة:22]. وذكر في الماء منّتين: الشراب منه، والإنبات للشجر والزرع.

الشراب: اسم للمشروب، وهو المائع الذي تشتقّه الشفتان وتُبلّغه إلى الحلق فيبلعَ دون مضغ.

{ وَمِنْهُ شَجَرٌ } وحرف (من) هنا للابتداء، أو للسببيّة، فلا يحسن عطف {شَجَرٌ} على {شَرَابٌ}.

الشجر: يطلق على النبات ذي الساق الصلبة، ويطلق على مطلق العشب والكلأ تغليبا. وروعي هذا التغليب هنا لأنّه غالب مرعى أنعام أهل الحجاز لقلّة الكلأ في أرضهم، فهم يرعون الشعاري والغابات.

{ فِيهِ تُسِيمُونَ } ومن الدقائق البلاغية الإتيان بحرف (في) الظرفية هنا، فالإسامة فيه تكون بالأكل منه والأكل مما تحته من العشب.

الإسامة: إطلاق الإبل للسوم وهو **الرعي**. يقال: سامت الماشية فهي سائمة.

{ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [11]

وإنّما لم يعطف هذا على جملة { لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ } [10] لأنّه ليس ممّا يحصل بنزول الماء وحده بل لا بد معه زرع وغرس. وهذا الإنبات من دلائل عظيم القدرة الربّانيّة، فالغرض منه الاستدلال ممزوجا بالتذكير بالنعمة، كما دلّ عليه قوله { لَكُمْ } على وزان ما تقدّم في قوله تعالى {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ} [5].

وأسند الإنبات إلى الله لأنّه الملهم لأسبابه والخالق لأصوله، تنبيها للنّاس على دفع غرورهم بقدرة أنفسهم، ولذلك قال { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } لكثرة ما تحت ذلك من الدقائق.

{ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ } تقدّم غير مرة في سورة الأنعام.

{ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } أي وينبت لكم به من الثمرات ممّا لم يذكر هنا. والتعريف تعريف الجنس. والمراد:

أجناس ثمرات الأرض التي ينبتها الماء، ولكلّ قوم من النّاس ثمرات أرضهم وجوّهم. و {مِنْ} تبعيضية قصد منها تنويع الامتنان على كلّ قوم بما نالهم من نعم الثمرات. وإنّما لم تدخل على الزرع وما عطف عليه لأنّها من الثمرات التي تنبت في كل مكان.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } تذييل. والتفكّر تقدّم عند قوله تعالى { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ } [الأنعام:50].

{ **لَآيَةً** }: الدلالة على أنّه تعالى المبدع الحكيم. ونيطت دلالة هذه بوصف التفكير لأنّها دلالة خفيّة لحصولها بالتدريج. وهو تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بما في ذلك من دلالة على تفرد الله بالإلهية بأنّهم قوم لا يتفكّرون.

{ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }[12]

آيات أخرى على دقيق صنع الله تعالى وعلمه ممزوجة بامتنان. وتقدّم ما يفسّر هذه الآية في صدر سورة يونس. وتسخير هذه الأشياء تقدّم عند قوله تعالى { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إلّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ } [الأعراف:54]، وفي أوائل سورة الرعد وفي سورة إبراهيم.

{ **لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } نيطت الدلالات بوصف العقل لأنّ أصل العقل كاف في الاستدلال بها على الوحدانيّة والقدرة، إذ هي دلائل بيّنة واضحة حاصلة بالمشاهدة كل يوم وليلة. وتقدم وجه إقحام لفظ (قوم) آنفا، وأنّ الجملة تذييل.

وقرأ الجمهور جميع هذه الأسماء منصوبة على المفعولية لفعل{ **سَخَّرَ**}. وقرأ ابن عامر {وَالشَّمْس وَالْقَمَر وَالنُّجُوم} بالرفع على الابتداء ورفع {مُسَخَّرَاتٌ} على أنّه خبر عنها. فنكتة اختلاف الإعراب الإشارة إلى الفرق بين التسخيرين. وقرأ حفص برفع { وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ}. ونكتة اختلاف الأسلوب الفرق بين التسخيرين من حيث إنّ الأول واضح والآخر خفي لقلّة من يرقب حركات النجوم.

{ **بِأَمْرِهِ** } أمر التكوين للنظام الشمسي المعروف.

{ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ } [13]

الذرء: الخلق بالتناسل والتولد بالحمل والتفريخ، فليس الإنبات ذرءا، وهو شامل للأنعام والكراع، وقد مضت المنّة به، ولغيرها مثل كلاب الصيد والحراسة، وجوارح الصيد، والطيور، والوحوش المأكولة، ومن الشجر والنبات.

{ **مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ** } زيادة للتعجيب ولا دخل له في الامتنان، فهو كقوله تعالى { يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ} [الرعد:4]، وقوله تعالى { وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌوَمِنَ النّاس وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ} [فاطر:27]. وبذلك صار هذا آية مستقلّة فلذلك ذيله بجملة {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ}، ولكون محل الاستدلال هو اختلاف الألوان مع اتحاد أصل الذرء

الألوان: جمع لون. وقد تقدّم عند قوله تعالى { قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا } [البقرة:69].

{ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ } ونيط الاستدلال باختلاف الألوان بوصف التذكّر لأنّه استدلال يحصل بمجرد تذكر الألوان المختلفة إذ هي مشهورة. وإقحام لفظ (قوم)، وكون الجملة تذييلا تقدّم آنفا.

{ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[14]

القول في هذا الاستدلال وإدماج الامتنان فيه كالقول فيما سبق.

وتقدّم الكلام على تسخير الفلك في البحر وتسخير الأنهار في أثناء سورة إبراهيم.

ومن تسخير البحر خلقه على هيئة يمكن معها السبح والسير بالفلك، وتمكين السابحين والماخرين من صيد الحيتان المخلوقة فيه. وزيد في الامتنان أنّ لحم صيده طري.

الطريّ: ضد اليابس. والمصدر: الطراوة. وفعله: طَرُوَ، بوزن خَشُنَ.

الحِلْية: ما يتحلّى به النّاس، أي يتزيّنون. وتقدّم في قوله تعالى { ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ } [الرعد:17]. وذلك اللؤلؤ والمرجان، فاللؤلؤ يوجد في بعض البحار مثل الخليج الفارسي، والمرجان يوجد في جميع البحار ويكثر ويقلّ. وسيأتي الكلام على اللؤلؤ في سورة الحجّ، وفي سورة الرحمان، ويأتي معه الكلام على المرجان.

الاستخراج: كثرة الإخراج، فالسين والتاء للتأكيد.

اللبس: جعل الثوب والعمامة والمصوغ على الجسد. يقال: لبس الخاتم، ولبس القميص. وتقدّم عند قوله تعالى { قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً } [الأعراف:26]. وإسناد لباس الحلية إلى ضمير جمع الذكور تغليب، وإلّا فإنّ غالب الحلية يلبسها النساء، عدا الخواتيم وحلية السيوف.

{ **وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ** } معترضة بين الجمل المتعاطفة مع إمكان العطف لقصد مخالفة الأسلوب للتعجيب من تسخير السير في البحر، باستحضار الحالة العجيبة بواسطة فعل الرؤية. وهو يستعمل في التعجيب كثيرا بصيغ متعدّدة نحو (ولو ترى، و أرأيت، وماذا ترى). واجتلاب فعل الرؤية يفيد الحثّ على معرفة ذلك.

{ **وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِه** } عطف على { وَتَسْتَخْرِجُوا } ليكون من جملة النعم التي نشأت عن حكمة تسخير البحر. وأعيد حرف التعليل لأجل البعد بسبب الجملة المعترضة.

الابتغاء من فضل الله: التجارة كما في قوله { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ } [البقرة:198].

{ **وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } عطف على بقية العلل، لأنّه من الحكم التي سخر الله بها البحر للنّاس، حملا لهم على الاعتراف لله بالعبودية ونبذهم إشراك غيره فيها. وهو تعريض بالذين أشركوا.

{ **وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** [15] **وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ** } [16].

انتقال إلى الاستدلال والامتنان بما على سطح الأرض من المخلوقات العظيمة التي في وجودها لطف بالإنسان.

{ **وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ** } لمّا كانت هذه المخلوقات مجعولة كالتكملة للأرض وموضوعة على ظاهر سطحها عبّر عن خلقها ووضعها بالإلقاء الذي هو رمي شيء على الأرض. ولعلّ خلقها كان متأخّرا عن خلق الأرض، إذ لعلّ الجبال انبثقت باضطرابات أرضية كالزلزال العظيم ثم حدثت الأنهار بتهاطل الأمطار. وأمّا السبل والعلامات فتأخر وجودها ظاهر، فصار خلق هذه الأربعة شبيها بإلقاء شيء في شيء بعد تمامه. وإطلاقه على وضع السبل والعلامات تغليب.

{ **رَوَاسِيَ** } جمع راسٍ. وهو وصف من الرسْو (بفتح الراء وسكون السين). وهو الثبات والتمكّن في المكان قال تعالى { وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ } [سبأ:13].

{ **أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ** } تعليل لإلقاء الرواسي في الأرض. و**الميد**: الاضطراب. والضمير عائد إلى {الأرض} بقرينة قرنه بقوله تعالى { بِكُمْ }. ولما كان المقام مقام امتنان علم أنّ المعلل به هو انتفاء الميد لا وقوعه. فالكلام جار على حذف تقتضيه القرينة، ومثله كثير في القرآن وكلام العرب. والاضطراب يعطل مصالح النّاس ويلحق بهم آلاما.

{ **وَأَنْهَاراً** } ونعمة الأنهار عظيمة، فإنّ منها شرابهم وسقي حرثهم، وفيها تجري سفنهم لأسفارهم.

{ **وَسُبُلاً** } جمع سبيل. وهو الطريق الذي يسافر فيه برا.

{ **لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** } معترضة، أي رجاء اهتدائكم. وهو كلام موجّه. لأنّ في تلك الأشياء دلالة على الخالق المتوحّد بالخلق.

{ **وَعَلامَاتٍ** } الأمارات التي ألهم الله النّاس أن يضعوها أو يتعارفوها، لتكون دلالة على المسافات والمسالك المأمونة في البرّ والبحر فتتبعها السابلة.

{ **وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ** } وهذه منّة بالاهتداء في الليل، لأنّ السبيل والعلامات إنّما تهدي في النهار، وقد يضطر السالك إلى السير ليلا. فمواقع النجوم علامات لاهتداء النّاس السائرين ليلا. وأخصّ من يهتدي بها البحّارة، لأنّهم لا يستطيعون الإرساء في كلّ ليلة فهم مضطرّون إلى السير ليلا. وهي هداية عظيمة، ولذلك

قدّم المتعلق { وَبِالنَّجْمِ } تقديما يفيد الاهتمام، وكذلك بالمسند الفعلي { هُمْ يَهْتَدُونَ }.
وعدل عن الخطاب إلى الغيبة التفاتا يومئ إلى فريق خاص وهم السيّارة والملّاحون فإنّ هدايتهم بهذه النجوم لا غير.
{ **وَبِالنَّجْمِ** } تعريف الجنس. والمقصود منه النجوم التي تعارفها النّاس للاهتداء بها مثل القطب. وتقدّم في قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا } [الأنعام:97].

{ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ [17] وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [18].

بعد أن أقيمت الدلائل على انفراد الله بالخلق، وثبتت المنّة وحقّ الشكر، فرّع على ذلك هاتان الجملتان لتكونا كالنتيجتين للأدلة السابقة، إنكارا على المشركين. فالاستفهام عن المساواة إنكاري، أي لا يستوي من يخلق بمن لا يخلق. فالكاف للماثلة، وهي مورد الإنكار حيث جعلوا الأصنام آلهة شريكة لله تعالى. ومن مضمون الصلتين يعرف أي الموصولين أولى بالإلهية.
{ **كَمَنْ لا يَخْلُقُ** } وحين كان المراد الأصنام كان إطلاق (من) الغالبة في العاقل مشاكلة.
{ **أَفَلا تَذَكَّرُونَ** } الاستفهام مستعمل في الإنكار على انتفاء التذكّر، وذلك يختلف باختلاف المخاطبين. فهو إنكار على إعراض المشركين عن التذكّر في ذلك.
{ **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** } عطف على { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ }، وهي كالتكملة لها، لأنّها نتيجة لما تضمّنته تلك الأدلة من الامتنان كما تقدّم. وهي بمنزلة التذييل للامتنان، لأنّ فيها عموما يشمل النعم المذكورة وغيرها.
وهذا كلام جامع للتنبيه على وفرة نعم الله تعالى على النّاس بحيث لا يستطيع عدّها العادون. وفي هذا إيماء إلى الاستكثار من الشكر على مجمل النعم، وتعريض بفظاعة كفر من كفروا بهذا المنعم، وتغليظ التهديد لهم. وتقدّم نظيرها في سورة إبراهيم.
{ **إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** } استئناف عقّب به تغليظ الكفر والتهديد عليه، تنبيها على تمكّنهم من تدارك أمرهم بأن يقلعوا عن الشرك، ويتأهّبوا للشكر بما يطيقون، على عادة القرآن من تعقيب الزواجر بالرغائب كيلا يقنط المسرفون.
وقد خولف بين ختام هذه الآية وختام آية سورة إبراهيم، إذ وقع هنالك { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [ابراهيم:34]، لأنّ تلك جاءت في سياق وعيد وتهديد عقب قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً} [ابراهيم:28] فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله. وأمّا هذه الآية

فقد جاءت خطابا للفريقين كما كانت النعم المعدودة عليهم منتفعا بها كلاهما.
ثم كان من اللطائف أن قوبل الوصفان اللذان في آية سورة إبراهيم { لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } بوصفين هنا { لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } إشارة إلى أنّ تلك النعم كانت سببا لظلم الإنسان وكفره وهي سبب لغفران الله ورحمته. والأمر في ذلك منوط الإنسان.

{ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } [19]

عطف على { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ }. فبعد أن أثبت أنّ الله منفرد بصفة الخلق دون غيره بالأدلة العديدة ثم باستنتاج ذلك بقوله { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ }، انتقل هنا إلى إثبات أنّه منفرد بعموم العلم.
ولم يُقدّم لهذا الخبر استدلال ولا عُقب بالدليل، لأنّه ممّا دلّت عليه أدلة الانفراد بالخلق، لأنّ خالق أجزاء الإنسان الظاهرة والباطنة يجب له أن يكون عالما بدقائق حركات تلك الأجزاء وهي بين ظاهر وخفي.
والمخاطب هنا هم المخاطبون بقوله تعالى { أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [17] وفيه تعريض بالتهديد والوعيد بأنّ الله محاسبهم على كفرهم.
وفيه إعلام بأنّ أصنامهم بخلاف ذلك كما دلّ عليه تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي فإنّه يفيد القصر لرد دعوى الشركة.

{ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ [20] أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } [21].

الخطاب هنا متمحّض للمشركين وهم بعض المخاطبين في الضمائر السابقة. والمقصود من هذه الجملة التصريح بما استفيد ضمنا ممّا قبلها، وهو نفي الخالقيّة ونفي العلم عن الأصنام.
{ **لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً** } الخبر الأول استفيد من جملة { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ } [17]. وعطف عليه { **وَهُمْ يُخْلَقُونَ** } ارتقاء في الاستدلال على انتفاء إلهيتها.
{ **أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ** } الخبر الثاني استفيد من جملة { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } [19] بطريقة نفي الشيء بنفي ملزومه. وهي طريقة الكناية التي هي كذكر الشيء بدليله. فنفي الحياة عن الأصنام {غَيْرُ أَحْيَاءٍ} يستلزم نفي العلم عنها، لأنّ الحياة شرط في قبول العلم، ومن كان هكذا فهو غير إله.
{ **يُخْلَقُونَ** } أسند إلى النائب لظهور الفاعل من المقام، أي وهم مخلوقون لله تعالى، فإنّهم من الحجارة التي هي من خلق الله. كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } [الصافات:96].
{ **غَيْرُ أَحْيَاءٍ** } تأكيد لمضمون جملة { أَمْوَاتٌ } ، بأنّه ليس فيها شائبة حياة لأنّها حجارة. ولا يشترط في

الوصف بالأسماء السالبة (الإعدام) قبول الموصوفات بها لملكاتها، كما اصطلح عليه الحكماء، لأنّ ذلك اصطلاح منطقي دعا إليه تنظيم أصول المحاجة.

{ **وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** } إدماج لإثبات البعث عقب الكلام على إثبات الوحدانية لله تعالى، لأنّ هذين هما أصل إبطال عقيدة المشركين، وتمهيد لوجه التلازم بين إنكار البعث وبين إنكار التوحيد في قوله تعالى { فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ } [22].

وفيه تهديد بأنّ البعث الذي أنكروه واقع وأنّهم لا يدرون متى يبغتهم، كما قال تعالى { لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً } [الأعراف:187].

البعث: حقيقته الإرسال من مكان إلى آخر. ويطلق على إثارة الجاثم. ومنه قولهم: بعثت البعير، إذا أثرته من مبركه. وقد غلب البعث في اصطلاح القرآن على إحضار النّاس إلى الحساب بعد الموت. فمن كان منهم ميّتا فبعثه من جدثه، ومن كان منهم حيا فصادفته ساعة انتهاء الدنيا فمات ساعتئذ فبعثه هو إحياؤه عقب الموت.

{ **أَيَّانَ** } اسم استفهام عن الزمان. مركبة من (أي) و (آن) بمعنى أي زمن، وهي معلقة لفعل { يَشْعُرُونَ } عن العمل بالاستفهام، والمعنى: وما يشعرون بزمن بعثهم. وتقدّم في قوله تعالى { يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا } [الأعراف:187].

{ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ [22] لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ } [23].

استئناف نتيجة لحاصل المحاجة الماضية، أي قد ثبت بما تقدّم إبطال إلهيّة غير الله، فثبت أنّ لكم إلها واحدا لا شريك له، ولكون ما مضى كافيا في إبطال إنكارهم الوحدانيّة عُرّيت الجملة عن المؤكِّد تنزيلا لحال المشركين، بعدما سمعوا من الأدلة، منزلة من لا يُظنّ به أنّه يتردّد في ذلك. بخلاف قوله تعالى { إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ} [الصافات:4]، لأنّ ذلك ابتداء كلام لم يتقدّمه دليل، كما أنّ قوله { وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ } [البقرة:163] خطاب لأهل الكتاب.

{ **فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ** } ، وهو تفريع الأخبار عن الأخبار، أي يتفرّع على هذه القضية القاطعة بما تقدّم من الدلائل أنّ قلوبكم منكرة وأنّكم مستكبرون، وأنّ ذلك ناشئ عن عدم إيمانكم بالآخرة.

والتعبير عن المشركين بالموصول وصلته لأنّهم قد عرفوا بمضمون الصلة واشتهروا بها اشتهار لمز وتنقيص عند المؤمنين، كقوله { وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا } [الفرقان:21]، وللإيماء إلى أنّ لهذه الصلة ارتباطا باستمرارهم على العناد. لأنّ انتفاء إيمانهم بالبعث والحساب قد جرّأهم على نبذ دعوة الإسلام ظِهريّا، فلم يتوقّعوا مؤاخذة على نبذها.

{ **قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ** } جاحدة بما هو واقع. استعمل الإنكار في جحد الأمر الواقع لأنّه ضدّ الإقرار. فحذف متعلق { مُنْكِرَةٌ } لدلالة المقام عليه، أي منكرة للوحدانيّة. وعبّر بالجملة الاسمية للدلالة على أنّ الإنكار ثابت لهم دائم. وذلك يفيد أنّ الإنكار صار لهم سجيّة.

{ **وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ** } بنيت على الاسمية، كذلك، للدلالة على تمكّن الاستكبار منهم. وقد خولف ذلك في قوله {لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً } [الفرقان:21] لأنّ تلك الآية لم تتقدّمها دلائل على الوحدانية، مثل الدلائل المذكور في هذه الآية.

{ **لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** } معترضة بين الجملتين المتعاطفتين.

والجَرَم (بالتحريك): أصلهُ البُدُّ. وكثر في الاستعمال حتّى صار بمعنى **حَقًّا**. وتقدّم عند قوله تعالى { لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ } [هود:22].

{ **أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ** } في موضع جر بحرف جر محذوف متعلق بـ { جَرَمَ }. والتقدير: لا جرم في أنّ الله يعلم أو لا جرم من أنّه يعلم، أي لا بدّ أنّه يعلم. والجملة كناية عن الوعيد بالمؤاخذة بما يخفون وما يظهرون من الإنكار والاستكبار.

{ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ** } واقعة موقع التعليل والتذييل، لأنّ الذي لا يحبّ فعلا وهو قادر يجازي فاعله بالسوء. والتعريف للاستغراق، لأنّ شأن التذييل العموم. ويشمل هؤلاء المتحدّث عنهم فيكون إثبات العقاب لهم كإثبات الشيء بدليله.

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [24] لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ } [25].

عطف على { قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ } [22] لأنّ مضمون هذه من أحوالهم المتقدّم بعضها، فإنّه ذكر استكبارهم وإنكارهم الوحدانيّة، وأتبع بمعاذيرهم الباطلة لإنكار نبوّة محمد ﷺ، وبصدّهم النّاس عن اتباع الإسلام.

والتقدير: قلوبهم منكرة ومستكبرة فلا يعترفون بالنبوّة ولا يخلّون بينك وبين من يتطلّب الهدى.

{ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ** } ذكْر فعل القول يقتضي صدوره عن قائل يسألهم عن أمر حدث بينهم، وليس على سبيل الفرض، وأنّهم يجيبون بما ذُكر مكرا بالدين وتظاهرا بمظهر الناصحين للمسترشدين. وقد ذكر المفسّرون أنّ قريشا لمّا أهمّهم أمر النبيء ﷺ ورأوا تأثير القرآن في نفوس النّاس، وأخذ أتباع الإسلام يكثرون، وصار الواردون إلى مكّة في موسم الحجّ وغيره يسألون النّاس عن هذا القرآن، وماذا يدعو إليه، دبّر لهم الوليد بن المغيرة معاذير واختلاقا يختلقونه ليقنعوا السائلين به، فندب منهم ستة عشر رجلا بعثهم أيام الموسم يقعدون في عقبات مكّة وطرقها التي يرد منها النّاس، يقولون لمن سألهم لا تغتروا بهذا الذي يدّعي أنّه نبيّ فإنّه

مجنون أو ساحر أو شاعر أو كاهن، وأنّ الكلام الذي يقوله أساطير من أساطير الأولين اكتتبها. وقد تقدّم ذلك في آخر سورة الحجر. وكان النضر بن الحارث يقول: " أنا أقرأ عليكم ما هو أجمل من حديث محمد أحاديث رستم وإسفنديار". وتقدّم ذكره عند قوله تعالى { وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ } [لأنعام:93].

ومساءلة العرب عن بعث النبيء ﷺ كثيرة واقعة. وأصرحها ما رواه البخاري عن أبي ذرّ أنّه قال: " كنت رجلا من غفار فبلغنا أنّ رجلا قد خرج بمكّة يزعم أنّه نبيّ، فقلت لأخي أنيس: انطلق إلى هذا الرجل كلّمه وائتني بخبره، فانطلق فلقيه ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ فقال: والله لقد رأيت رجلا يأمر بالخير وينهى عن الشرّ. فقلت: لم تشفني من الخبر، فأخذت جرابا وعصا ثم أقبلت إلى مكّة فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد..." إلى آخر الحديث.

{ **مَاذَا** } كلمة مركّبة من (ما) الاستفهامية واسم الإشارة. والتقدير: هذا الذي أنزل ربكم ما هو. وتقدّم عند قوله تعالى { يَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ } [البقرة:215].

{ **أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** } خبر مبتدأ محذوف دلّ عليه ما في السؤال. والتقدير: هو أساطير الأوّلين. ويعلم من ذلك أنّه ليس منزلاً من ربّهم، ولذلك لم يقع منصوبا، لأنّه لو نصب لاقتضى التقدير: أنزل أساطير الأوّلين، وهو كلام متناقض.

الأساطير: قال المبرّد: جمع أُسطورة (بضم الهمزة) كأرجوحة. وهي مؤنثة باعتبار أنها قصة مكتوبة. وهذا الذي ذكره المبرّد أولى لأنّها أساطير في الأكثر يعني بها القصص لا كلّ كتاب مسطور. وقد تقدّم عند قوله تعالى { يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [الأنعام:25].

{ **لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** } غاية وليست بعلّة لأنّهم لمّا قالوا { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } لم يريدوا أن يكون قولهم سببا لأنّ يحملوا أوزار الذين يضلّونهم، فاللام مستعملة مجازا في العاقبة مثل { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } [القصص: 8].

الأوزار: جمع وِزْر (بكسر الواو وسكون الزاي) وهو الثقل. واستعمل في الجرم والذنب، لأنّه يثقل فاعله عن الخلاص من الألم والعناء، فأصل ذلك استعارة بتشبيه الجرم والذنب بالوزر. وشاعت هذه الاستعارة. كما يعبّر عن الذنوب بالأثقال قال تعالى { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ } [العنكبوت:13].

{ **كَامِلَةً** } تحقيقا لوفائها وشدّة ثقلها، ليسري ذلك إلى شدة ارتباكهم في تبعاتها، إذ هو المقصود من إضافة الحمل إلى الأوزار.

{ **وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ** } { **مِنْ** } للسببية، والتقدير: ويحملوا أوزارا ناشئة عن أوزار الذين يضلّونهم، أي ناشئة لهم عن تسبّبهم في ضلال المضلَّلين (بفتح اللام). وفي الحديث الصحيح: " ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا ".

{ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** } في موضع الحال، أي يضلّون ناسا غير عالمين، يحسبون إضلالهم نصحا. والمقصود من هذا الحال تفظيع التضليل لا تقييده.
{ **إلّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ** } تذييل. افتح بحرف التنبيه اهتماما بما تضمّنه للتحذير من الوقوع فيه أو للإقلاع عنه.

{ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ } [26]

لما ذكر عاقبة إضلالهم وصدّهم السائلين عن القرآن والإسلام في الآخرة، أتبع بالتهديد بأن يقع لهم ما وقع فيه أمثالهم في الدنيا من الخزي والعذاب، مع التأييس من أن يبلغوا بصنعهم ذلك مبلغ مرادهم، وأنّهم خائبون في صنعهم كما خاب من قبلهم، الذين مكروا برسلهم.
{ **قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } لمّا كان جوابهم السائلين عن القرآن بقولهم هو { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [24]، مظهرينه بمظهر النصيحة والإرشاد وهم يريدون الاستبقاء على كفرهم، سمّي ذلك مكرا بالمؤمنين، إذ المكر إلحاق الضرّ بالغير في صورة تمويهه بالنصح والنفع، فنُظّر فعلهم بمكر من قبلهم، أي من الأمم السابقة الذين مكروا بغيرهم مثل قوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم فرعون، قال تعالى في قوم صالح {وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} [النمل:50]، وقال { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } [الأنعام:123].
{ **فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ** } تمثيل لحالات استئصال الأمم.
البنيان: مصدر بمعنى المفعول. أي المبني، وهو هنا مستعار للقوّة والمنعة.
{ **مِنَ الْقَوَاعِدِ** } متعلّق بـ { أَتَى } وهو بمعنى الاستئصال، فهو في معنى هدمه.
{ **الْقَوَاعِدِ** }: الأسس والأساطين التي تجعل عمدا للبناء يقام عليها السقف. وهو تخييل أو ترشيح.
{ **فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ** } و**الخرور**: السقوط والهويّ، ففعل خرّ مستعار لزوال ما به المنعة.
{ **السَّقْفُ** }: حقيقته غطاء الفراغ الذي بين جدران البيت، ويكون من حجر ومن أعواد، وهو هنا مستعار لما استعير له البناء. و{ **من فَوْقِهِمْ** } تأكيد للجملة.
ومن مجموع هذه الاستعارات تتركّب الاستعارة التمثيليّة. وهي تشبيه هيئة القوم الذين مكروا في المنعة فأخذهم الله بسرعة وأزال تلك العزة، بهيئة قوم أقاموا بنيانا عظيما ذا دعائم وآووا إليه فاستأصله الله من قواعده فخر سقف البناء دفعة على أصحابه فهلكوا جميعا. فهذا من إبداع التمثيليّة، لأنّها تنحلّ إلى عدّة استعارات.
{ **وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ** } عطف على { فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ }. والمعنى: أنّ العذاب

المذكور حلّ بهم بغتة وهم لا يشعرون، فإنّ الأخذ فجأة أشدّ نكاية لما يصحبه من الرعب الشديد، بخلاف الشيء الوارد تدريجا فإنّ النفس تتلقاه بصبر.

{ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ } [27]

{ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ }

عطف على { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ } [25]، لأنّ ذلك وعيد لهم وهذا تكملة له.

الخزي: الإهانة. وتقدّم عند قوله تعالى { فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ } [البقرة:85].

وتقديم الظرف للاهتمام بيوم القيامة لأنّه يوم الأحوال الأبدية فما فيه من العذاب مهول للسامعين.

{ **أَيْنَ** } الاستفهام عن المكان مستعمل في التهكّم.

{ **شُرَكَائِيَ** } وإضافة الشركاء إلى ضمير الجلالة زيادة في التوبيخ، لأنّ مظهر عظمة الله تعالى يومئذ للعيان ينافي أن يكون له شريك.

{ **الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ** } الموصول للتنبيه على ضلالهم وخطئهم في ادعاء المشاركة.

المشاقّة: المشادة في الخصومة. كأنّها خصومة لا سبيل معها إلى الوفاق، إذ قد صار كل خصم في شقّ غير شقّ الآخر.

وقرأ نافع { تُشَاقُّونِ } بكسر النون على حذف ياء المتكلّم، أي تعاندونني، وذلك بإنكارهم ما أمرهم الله على لسان رسوله ﷺ. وقرأ البقية { تُشَاقُّونَ } بفتح النون وحذف المفعول للعلم، أي تعاندون من يدعوكم إلى التوحيد.

{ **فِيهِمْ** } للظرفية المجازية مع حذف المضاف، إذ المشاقة لا تكون في الذوات بل في المعاني. والتقدير: في إلهيّتهم أو في شانهم.

{ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ }

جيء بالجملة غير معطوفة لأنّها واقعة موقع الجواب لقوله { أَيْنَ شُرَكَائِيَ }، للتنبيه على أنّ الذين أوتوا العلم ابتدروا الجواب لمّا وجم المشركون فلم يحيروا جوابا، فأجاب الذين أوتوا العلم جوابا جامعا لنفي أن يكون الشركاء المزعومون مغنين عن الذين أشركوا شيئا، وأنّ الخزي والسوء أحاطا بالكافرين. والتعبير بالماضي لتحقيق وقوع القول.

{ **الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** } هم الذين آتاهم الله علم الحقائق من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنون، كقوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ} [الروم:56].

وتأكيد الجملة بحرف التوكيد وبصيغة القصر والإتيان بحرف الاستعلاء الدال على تمكّن الخزي والسوء منهم، يفيد معنى التعجّب من هول ما أعدّ لهم.

{ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [28] فادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ } [29].

فالوجه أن { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ } بدل من { الَّذِينَ } في قوله تعالى { فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } [22] أو صفة لهم، كما يومئ إليه وصفهم في آخر الآية بالمتكبّرين في قوله تعالى {فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}.

ويجوز أن يكون { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ } خبرا لمبتدأ محذوف. والتقدير: هم الذين تتوفاهم الملائكة. وحذف المسند إليه جار على الاستعمال في أمثاله من كل مسند إليه جرى فيما سلف من الكلام. أخبر عنه وحدث عن شأنه، وهو ما يعرف عند السكاكي بالحذف المتبع فيه الاستعمال.

والمقصود من هذه الصلة وصف حالة الذين يموتون على الشرك؛ فبعد أن ذكر حال حلول العذاب بمن حلّ بهم الاستئصال وما يحل بهم يوم القيامة، ذكرت حالة وفاتهم التي هي بين حالي الدنيا والآخرة، وهي حال تُعرض لجميعهم سواء منهم من أدركه الاستئصال ومن هلك قبل ذلك.

وأطبق من تصدى لربطه بما قبله من المفسرين، على جعل { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ } بدلا من { الْكَافِرِينَ } في قوله تعالى {إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ} [27] أو صفة له.

ظلم النفس: الشرك.

الإلقاء: مستعار إلى الإظهار المقترن بمذلّة. شبه بإلقاء السلاح على الأرض، ذلك أنهم تركوا استكبارهم وإنكارهم وأسرعوا إلى الاعتراف والخضوع لمّا ذاقوا عذاب انتزاع أرواحهم.

السَلَم (بفتح السين وفتح اللام) الاستسلام. وتقدّم الإلقاء والسلم عند قوله { وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ } النساء:90]. وتقدّم الإلقاء الحقيقي عند قوله تعالى { وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ } [15].

{ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ } مقول قول محذوف دلّ عليه { أَلْقَوُا السَّلَمَ }، لأنّ إلقاء السلم أوّل مظاهره القول الدال على الخضوع. يقولون ذلك للملائكة الذين ينتزعون أرواحهم ليكفوا عنهم تعذيب الانتزاع، وهم من اضطراب عقولهم يحسبون الملائكة إنما يجربونهم بالعذاب ليطلعوا على دخيلة أمرهم، فيحسبون أنهم إن كذبوهم راج كذبهم على الملائكة فكفوا عنهم العذاب، لذلك جحدوا أن يكونوا يعملون سوءا من قبل.

{ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } جواب الملائكة لهم، ولذلك افتتحت بالحرف الذي يبطل به النفي(بَلَى).

وقد جعلوا علم الله بما كانوا يعملون كناية عن تكذيبهم في قولهم { مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ }، وكناية على أنّهم ما عاملوهم بالعذاب إلّا بأمر من الله تعالى العالم بهم.

وأسندوا العلم إلى الله دون أن يقولوا: إنا نعلم ما كنتم تعملون، أدبا مع الله وإشعارا بأنهم ما علموا ذلك إلّا بتعليم من الله تعالى.

{ فادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا } تفريع على إبطال نفيهم عمل السوء ظاهر، لأنّ إثبات كونهم كانوا يعملون السوء يقتضي استحقاقهم العذاب، وذلك عندما كشف لهم عن مقرّهم الأخير. ونظيره قوله { وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } [الأنفال:50].

{ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ } تذييل. يحتمل أن يكون حكاية كلام الملائكة، والأظهر أنه من كلام الله، ووصفهم بالمتكبّرين يرجّح ذلك.

المثوى: المرجع. من ثوى إذا رجع، أو المقام من ثوى إذا أقام. وتقدّم في قوله تعالى { قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ } [الأنعام:128]. ولم يعبّر عن جهنم بالدار كما عبر عن الجنة فيما يأتي بقوله تعالى { وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ } [30]، تحقيرا لهم وأنّهم ليسوا في جهنّم بمنزلة أهل الدار بل هم متراصون في النار وهم في مثوى.

{ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ [30] جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ } [31].

{ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً }

لمّا افتتحت صفة سيئات الكافرين وعواقبها بأنّهم إذا قيل لهم { مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ } [24] قالوا { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [24]، جاءت هنا مقابلة حالهم بحال حسنات المؤمنين وحسن عواقبها، فافتتح ذلك بمقابل ما افتتحت به قصّة الكافرين، فجاء النظير بين القصتين في أبدع نظم.

ولم تقترن هذه الجملة بأداة الشرط كما قرنت مقابلتها بها { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ }، لأنّ قولهم {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} لمّا كان كذبا اختلقوه، قرن بأداة الشرط المقتضية تكرّر ذلك، للدلالة على إصرارهم على الكفر، بخلاف ما هنا، فإنّ الصدق مظنّة استمرار قائله عليه فليس بحاجة إلى التنبيه على تكرّره منه.

الذين اتقوا: هم المؤمنون، لأنّ الإيمان تقوى الله وخشية غضبه. والمراد بهم المؤمنون المعهودون في مكّة. والمعنى أنّ المؤمنين سئلوا عن القرآن، ومن جاء به، فأرشدوا السائلين ولم يتردّدوا في الكشف عن حقيقة القرآن بأوجز بيان وأجمعه، وهو كلمة { **خَيْراً** } المنصوبة، فإنّ لفظها شامل لكلّ خير في الدنيا وكلّ خير في الآخرة، ونصبها دال على أنّهم جعلوها معمولة لـ { أَنْزَلَ } الواقع في سؤال السائلين، فدلّ النصب على أنّهم مصدّقون بأنّ القرآن منزّل من عند الله، وهذا وجه المخالفة بين الرفع في جواب المشركين حين قيل لهم {مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [24] بالرفع وبين النصب في كلام المؤمنين. وقد تقدّم ذلك آنفا عند

قوله تعالى { قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ }.

{ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ }

مستأنفة ابتدائيّة، وهي كلام من الله تعالى، وليست من حكاية قول الذين اتقوا.

الذين أحسنوا: هم المتّقون، فهو من الإظهار في مقام الإضمار، أي جزاءهم حسنة لأنّهم أحسنوا.

{ **هَذِهِ الدُّنْيَا** } يجوز أن يتعلّق بفعل { أَحْسَنُوا }. ويجوز أن يكون ظرفا مستقرا حالا من { حَسَنَة }. وانظر ما يأتي في نظير هذه الآية من سورة الزمر من نكتة التوسيط.

{ **وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ** } أنّها خير لهم من الدنيا فإذا كانت لهم في الدنيا حسنة فلهم في الآخرة أحسن، فكما كان للذين كفروا عذاب الدنيا وعذاب جهنّم كان للذين اتقوا خير الدنيا وخير الآخرة. فهذا مقابل قوله تعالى في حقّ المشركين { ليحملوا أوزارهم كاملة } [25] وقوله تعالى { وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ } [26]. وحسنة الدنيا هي الحياة الطيّبة وما فتح الله لهم من زهرة الدنيا مع نعمة الإيمان. وخير الآخرة هو النعيم الدائم، قال تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [97].

{ **وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا** } مقابل قوله تعالى في ضدّهم { فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ } [29]. وقد تقدّم آنفا وجه تسمية جهنم مثوى والجنّة دارا.

{ **وَلَنِعْمَ** } فعل مدح غير متصرّف، ومرفوعه فاعل دال على جنس الممدوح، ويذكر بعده مرفوع آخر يسمى المخصوص بالمدح. والمعنى: ولنعم دار المتّقين دار الآخرة.

{ **جَنَّاتُ عَدْنٍ** } ارتفع على أنّه خبر لمبتدإ محذوف. والتقدير: هي جنّات عدن، أي دار المتقين جنّات عدن.

{ **لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ** } مضمونها مكمّل لما في جملة { يَدْخُلُونَهَا } من استحضار الحالة البديعة.

{ **كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ** } مستأنفة، والإتيان باسم الإشارة لتمييز الجزاء والتنويه به. وجعل الجزاء لتمييزه وكماله بحيث يشبّه به جزاء المتقين. والتقدير: يجزي الله المتقين جزاء كذلك الجزاء الذي علمتموه. وهو تذييل، لأنّ التعريف في { الْمُتَّقِينَ } للعموم.

{ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }[32]

مقابل قوله في أضدادهم { الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ }، فما قيل في مقابلة يقال فيه.

الطيّب: بزنة فَيْعَل، مثل قيّم وميّت، وهو مبالغة في الاتّصاف بالطيب وهو حسن الرائحة. ويطلق على محاسن الأخلاق وكمال النفس على وجه المجاز المشهور، فتوصف به المحسوسات كقوله تعالى { حَلالًا

طَيِّباً } [البقرة:168]، والمعاني والنفسيّات كقوله تعالى { سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ } [الزمر:73]. وقولهم: طبت نفسا. ومنه قوله تعالى { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ } [الأعراف:58]. وفي الحديث: " إن الله طيّب لا يقبل إلّا طيّبا ". أي مالا حلالا.

{ **طَيِّبِينَ** } هنا يجمع كل هذه المعاني، أي تتوفاهم الملائكة منزّهين من الشرك مطمئني النفوس. وهذا مقابل قوله في أضدادهم { ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ } [28].

{ **يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ** } حال من { الْمَلائِكَةُ }، أي يتوفّونهم مسلّمين عليهم، وهو سلام تأنيس وإكرام.

{ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } هو مقابل قولهم لأضدادهم { فادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ } [29].

{ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [33] فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [34].

استئناف بياني ناشئ عن جملة { قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [26] لأنّها تثير سؤال من يسأل عن إبّان حلول العذاب على هؤلاء كما حلّ بالذين من قبلهم، فقيل: ما ينظرون إلّا أحد أمرين، هما مجيء الملائكة لقبض أرواحهم، فيحقّ عليهم الوعيد المتقدّم، أو أن يأتي أمر الله. والمراد به الاستئصال المعرّض بالتهديد في قوله { فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ } [26]. والاستفهام إنكاري في معنى النفي، ولذلك جاء بعد الاستثناء.

{ **يَنْظُرُونَ** } هنا بمعنى الانتظار وهو النظرة.

والكلام موجّه إلى النبيء ﷺ تذكيرا بتحقيق الوعيد وعدم استبطائه، وتعريضا بالمشركين بالتحذير من اغترارهم بتأخّر الوعيد وحثّا لهم على المبادرة بالإيمان.

وإسناد الانتظار المذكور إليهم على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيلهم منزلة من ينتظر أحد الأمرين، لأنّ حالهم من الإعراض عن الوعيد وعدم التفكّر في دلائل صدق الرسول ﷺ مع ظهور تلك الدلائل وإفادتها التحقّق، كحال من أيقن حلول أحد الأمرين به فهو يترقّب أحدهما، كما تقول لمن لا يأخذ حذره من العدو: ما تترقب أن تقع أسيرا. ومنه قوله تعالى { فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ } [يونس:102]

{ **كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } تنظير بأحوال الأمم الماضية تحقيقا للغرضين. والإشارة إلى الانتظار المأخوذ من { يَنْظُرُونَ } المراد منه الإعراض والإبطاء، أي كإبطاء الذين من قبلهم، أن يأخذهم العذاب بغتة كما أخذ الذين من قبلهم، وهذا تحذير.، وقد رفع الله عذاب الاستئصال عن أمّة محمد ﷺ ببركته ولإرادته انتشار دينه.

{ **وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** } معترضة بين جملة { فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } وجملة {فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا }. ووجه هذا الاعتراض أنّ التعرّض إلى ما فعله الذين من قبلهم يشير إلى ما كان من

عاقبتهم وهو استئصالهم، فعقّب بقوله تعالى { وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ }، أي فيما أصابهم.

{ **فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** } ولمّا كان هذا الاعتراض مشتملا على أنّهم ظلموا أنفسهم صار تفريع { فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا } عليه أو على ما قبله. وهو أسلوب من نظم الكلام عزيز. وتقدير أصله: كذلك فعل الذين من قبلهم وظلموا أنفسهم فأصابهم سيئات ما عملوا وما ظلمهم الله. ففي تغيير الأسلوب المتعارف تشويق إلى الخبر، وتهويل له بأنّه ظلم أنفسهم، وأنّ الله لم يظلمهم، فيترقّب السامع خبرا مفظعا وهو { فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا }.

{ **فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ** } إمّا بتقدير مضاف، أي أصابهم جزاؤها، أو جعلت أعمالهم السيّئة كأنّها هي التي أصابتهم لأنّها سبب ما أصابهم، فهو مجاز عقلي.

{ **حاق** }: أحاط. والحَيْق: الإحاطة. ثم خصّ استعمال الحيقَ بإحاطة الشرّ. وقد تقدّم الكلام على ذلك عند قوله تعالى { فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [الأنعام:10].

{ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ }[35]

عطف قصّة على قصّة لحكاية حال من أحوال شبهاتهم ومكابرتهم وباب من أبواب تكذيبهم.

وذلك أنّهم كانوا يحاولون إفحام الرسول ﷺ فقالوا له: لو شاء الله أن لا نعبد أصناما لما أقدرنا على عبادتها، ولو شاء أن لا نُحرّم ما حرمنا من نحو البحيرة والسائبة لما أقرّنا على تحريم ذلك.

وهذا ردَّه الله عليهم بتنظير أعمالهم بأعمال الأمم الذين أهلكهم الله، فلو كان الله يرضى بما عملوه لما عاقبهم بالاستئصال، فكانت عاقبتهم نزول العذاب بقوله تعالى { كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، ثم بقطع المحاجّة بقوله تعالى { فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ }، أي وليس من شأن الرّسل - عليهم السلام - المناظرة مع الأمّة.

ونظيره قوله { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حتّى ذَاقُوا بَأْسَنَا } [الأنعام:148]، فسمّى قولهم هذا تكذيبا كتكذيب الذين من قبلهم، لأنّ المقصود منه التكذيب وتعضيد تكذيبهم بحجّة أساءوا الفهم فيها، فهم يحسبون أنّ الله يتولّى تحريك النّاس لأعمالهم كما يحرّك صاحب خيال الظل ومحرك اللعب أشباحه وتماثيله، وذلك جهل منهم بالفرق بين تكوين المخلوقات وبين ما يكسبونه بأنفسهم، وتخليط بين الرضى والإرادة.

{ **كَذَلِكَ** } الإشارة إلى الإشراك وتحريم أشياء من تلقاء أنفسهم، أي كفعل هؤلاء فعل الذين من قبلهم، وهم المذكورون فيما تقدّم بقوله تعالى { قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [26]. والمقصود: أنهم فعلوا كفعلهم فكانت عاقبتهم ما علمتم، فلو كان فعلهم مرضيا لله لما أهلكهم، فهلا استدلوا بهلاكهم على أن الله غير راض بفعلهم،

فإن دلالة الانتقام أظهر من دلالة الإملاء، لأنّ دلالة الانتقام وجودية ودلالة الإمهال عدميّة.

{ **فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ** } قطع المحاجّة معهم وإعلامهم أنّ الرّسل - عليهم السلام - ما عليهم إلّا البلاغ، ومنهم محمد ﷺ فاحذروا أن تكون عاقبتكم عاقبة أقوام الرسل السالفين.

{ **الْبَلاغُ** } اسم مصدر الإبلاغ. و**المبين**: الموضح الصريح.

{ **هل** } الاستفهام إنكاري بمعنى النفي، ولذلك جاء الاستثناء عقبه.

والقصر المستفاد من النفي والاستثناء، قصر إضافي لقلب اعتقاد المشركين من معاملتهم الرسول ﷺ، أنّ للرّسول غرضا شخصيا فيما يدعو إليه.

وأثبت الحكم لعموم الرسل - عليهم السلام - لتكون الجملة تذييلا للمحاجّة، فتفيد ما هو أعمّ من المردود.

والكلام موجه إلى النبيء ﷺ تعليما وتسلية. ويتضمن تعريضا بإبلاغ المشركين.

{ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** }[36]

عطف على { كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [35]. وهو تكملة لإبطال شبهة المشركين، إبطالًا بطريقة التفصيل بعد الإجمال لزيادة تقرير الحجّة، فقوله تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً } بيان لمضمون جملة { فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ }. وجملة { فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ } إلى آخرها بيان لمضمون جملة { كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }.

والمعنى: أن الله بيّن للأمم على ألسنة الرّسل - عليهم السلام - أنّه يأمرهم بعبادته واجتناب عبادة الأصنام، فمن كلّ أمّة أقوام هداهم الله فصدّقوا وآمنوا، ومنهم أقوام تمكّنت منهم الضلالة فهلكوا. ومن سار في الأرض رأى دلائل استئصالهم.

{ **الطَّاغُوتَ** } جنس ما يعبد من دون الله من الأصنام. جمعه: الطواغيت. وتقدّم عند قوله تعالى { يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ } [النساء:51].

{ **فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ** } أسندت هداية بعضهم إلى الله مع أنّه أمر جميعهم بالهدى تنبيها للمشركين على إزالة شبهتهم في قولهم { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ} بأن الله بيّن لهم الهدى، فاهتداء المهتدين بسبب بيانه، فهو الهادي لهم.

{ **وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ** } إشارة إلى أنّ الله لمّا نهاهم عن الضلالة فقد كان تصميمهم عليها إبقاء لضلالتهم السابقة فحقّت عليهم الضلالة ، أي ثبتت ولم ترتفع.

وفي ذلك إيماء إلى أنّ بقاء الضلالة من كسب أنفسهم، ولكن ورد في آيات أخرى أنّ الله يضلّ الضّالين، كما في قوله { وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً } [الأنعام:125]، وقوله عقب هذا { فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ} [37] على قراءة الجمهور، ليحصل من مجموع ذلك علم بأنّ الله كوّن أسبابا عديدة بعضها جاء من توالد العقول والأمزجة واقتباس بعضها من بعض، وبعضها تابع للدعوات الضالة بحيث تهيأت من اجتماع أمور شتى، لا يحصيها إلّا الله، أسباب تامة تحول بين الضال وبين الهدى. فلا جرم كانت تلك الأسباب هي سبب حقّ الضلالة عليهم، فباعتبار الأسباب المباشرة كان ضلالهم من لدن خالق تلك الأسباب وخالق نواميسها في متقادم العصور، فافهم.

{ **فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** } ثم فرّع على ذلك الأمر بالسير في الأرض لينظروا آثار الأمم فيروا منها آثار استئصال مخالف لأحوال الفناء المعتاد، ولذلك كان الاستدلال بها متوقفا على السير في الأرض.

{ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } [37]

استئناف بياني، لأنّ تقسيم كل أمّة ضالة إلى مهتد منها وباق على الضلال يثير سؤإلّا في نفس النبيء صلى الله عليه وسلم عن حال هذه الأمّة: أهو جار على حال الأمم التي قبلها، أو أنّ الله يهديهم جميعا. وذلك من حرصه على خيرهم ورأفته بهم، فاعلمه الله أنّه مع حرصه على هداهم فإنّه سيبقى منهم فريق على ضلالة.

وفي الآية لطيفتان:

الأولى: التعريض بالثناء على النبيء ﷺ في حرصه على خيرهم مع ما لقيه منهم من الأذى الذي شأنه أن يثير الحنق في نفس من يلحقه الأذى، ولكن نفس محمد ﷺ مطهّرة من كل نقص.

الثانية: الإيماء إلى أنّ غالب أمّة الدعوة المحمدية سيكونوا مهتدين وأنّ الضُلّال منهم فئة قليلة، وهم الذين لم يقدّر الله هديهم في سابق علمه بما نشأ عن خلقه وقدرته من الأسباب التي هيّأت لهم البقاء في الضلال.

{ **إِنْ تَحْرِصْ** } الحرص: فرط الإرادة الملحّة في تحصيل المراد بالسعي في أسبابه.

والشرط هنا ليس لتعليق حصول مضمون الجواب على حصول مضمون الشرط، لأنّ مضمون الشرط معلوم الحصول، لأنّ علاماته ظاهرة بحيث يعلمه النّاس، وإنّما هو لتعليق العلم بمضمون الجواب على دوام حصول مضمون الشرط. فالمعنى: إن كنت حريصا على هداهم حرصا مستمرّا فاعلم أنّ من أضلّه الله لا تستطيع هديه ولا تجد لهديه وسيلة ولا يهديه أحد. فالمضارع مستعمل في معنى التجدّد لا غير.

{ **فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ** } جعل المسند إليه في جملة الإخبار عن استمرار ضلالهم اسم الجلالة للتهويل

المشوّق إلى استطلاع الخبر. والخبر هو أنّ هُداهم لا يحصل إلّا إذا أراده الله، ولا يستطيع أحد تحصيله، لا أنت ولا غيرك، فمن قدّر الله دوام ضلاله فلا هادي له.

{ **وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** } ما لهم ناصر ينجيهم من العذاب، أي كما أنّهم ما لهم منقذ من الضلال الواقعين فيه ما لهم ناصر يدفع عنهم عواقب الضلال.

{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لا يَعْلَمُونَ }[39]

انتقال لحكاية مقالة أخرى من شنيع مقالاتهم في كفرهم، واستدلال من أدلّة تكذيبهم الرّسول ﷺ فيما يخبر به، إظهارا لدعوته في مظهر المحال، وذلك إنكارهم الحياة الثانية والبعث بعد الموت. وذلك لم يتقدّم له ذكر في هذه السورة سوى الاستطراد بقوله { فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } [22].

{ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ** } القسم على نفي البعث، أرادوا به الدلالة على يقينهم بانتفائه.

{ **جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ** } تقدّم عند قوله تعالى { أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } [المائدة:53].

{ **لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ** } ما أقسموا عليه. و**البعث** تقدّم آنفا في قوله { وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ } [21].

{ **بَلَى** } حرف لإبطال النفي في الخبر والاستفهام، أي بل يبعثهم الله.

{ **وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لا يَعْلَمُونَ** } انتصب { وَعْداً } على المفعول المطلق مؤكِّدا لما دلّ عليه حرف الإبطال من حصول البعث بعد الموت. ويسمّى هذا النوع من المفعول المطلق مؤكِّدا لنفسه، أي مؤكدا لمعنى فعل هو عين معنى المفعول المطلق.

{ **عَلَيْهِ** } صفة لـ { وَعْداً }، أي وعدا كالواجب عليه، في أنّه لا يقبل الخُلف. ففي الكلام استعارة مكنيّة. شبّه الوعد الذي وعده الله، بمحض إرادته واختياره، بالحقّ الواجب عليه، ورمز إليه بحرف الاستعلاء.

{ **حَقّاً** } صفة ثانية لـ {وَعْداً}. بمعنى الصدق الذي لا يتخلّف.

وقد تقدّم نظيره في قوله تعالى { وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ } [براءة:111].

{ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لا يَعْلَمُونَ** } المشركون، وهم يومئذ أكثر النّاس. ومعنى { لا يعلمون } أنّهم لا يعلمون كيفية ذلك، فيقيمون من الاستبعاد دليل استحالة.

{ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ } [39]

{ **لِيُبَيِّنَ** } تعليل لقوله تعالى { وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً } لقصد بيان حكمة جعله وعدا لازما لا يتخلّف، والله تعالى حكيم لا تجري أفعاله على خلاف الحكمة التّامة، أي جعل البعث ليبيّن للنّاس الشيء الذي يختلفون فيه من

الحقّ والباطل، فيظهر حقّ المحقّ ويظهر باطل المبطل.

{ **الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ** } شمل كل معاني المحاسبة على الحقوق، لأنّ تمييز الحقوق من المظالم كلّه محل اختلاف النّاس وتنازعهم.

{ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ** } عطف على هذه الحكمة العامة حكمة فرعيّة خاصة بالمردود عليهم هنا، وهي حصول العلم للذين كفروا بأنّهم كانوا كاذبين فيما اخترعوه من الشرك وتحريم الأشياء، وإنكار البعث. وفي حصول علمهم بذلك يوم البعث مثار للندامة والتحسّر على ما فرط منهم من إنكاره. وقد تقدّم بيان حكمة الجزاء في يوم البعث في أوّل سورة يونس.

{ **كَانُوا كَاذِبِينَ** } أقوى في الوصف بالكذب من (كذبوا أو كاذبون)، لما تدل عليه (كان) من الوجود زيادة على ما يقتضيه اسم الفاعل من الاتصاف، ففيه شتم صريح وتعريض بالعقاب.

{ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }[40]

متّصلة بجملة { وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لا يَعْلَمُونَ } [38] لبيان أنّ جهلهم بمدى قدرة الله تعالى هو الذي جرّأهم على إنكار البعث واستحالته عندهم، فهي بيان للجملة التي قبلها ولذلك فصلت.

والمعنى أنّه لا يتوقّف تكوين شيء إذا أراده الله إلّا على أن تتعلق قدرته بتكوينه. وليس إحياء الأموات إلّا من جملة الأشياء، وما البعث إلّا تكوين، فلا يخرج عن قدرته.

{ **إِنَّمَا** } أفادت قصرا هو قصر وقوع التكوين على صدور الأمر به، وهو قصر قلب لإبطال اعتقاد المشركين تعذّر إحياء الموتى ظنّا منهم أنّه لا يحصل إلّا إذا سلمت الأجساد من الفساد كما تقدّم آنفا.

{ **قَوْلُنَا لِشَيْءٍ** } تكويننا شيئا، أي تعلّق القدرة بخلق شيء.

{ **إِذَا أَرَدْنَاهُ** } إذا تعلقت به الإرادة الإلهية تعلقا تنجيزيا.

الشيء: أطلق هنا على المعدوم باعتبار إرادة وجوده، فهو من إطلاق اسم ما يؤول إليه، أو المراد بالشيء مطلق الحقيقة المعلومة وإن كانت معدومة، وإطلاق الشيء على المعدوم مستعمل.

{ **كُنْ** } توجّه القدرة إلى إيجاد المقدور. عبّر عن ذلك التوجّه بالقول { قَوْلُنَا } كما عبّر عنه بالأمر في قوله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [يس:82]. وشبّه الشيء الممكن حصوله بشخص مأمور، وشبّه انفعال الممكن لأمر التكوين بامتثال المأمور لأمر الآمر. وكل ذلك تقريب للنّاس بما يعقلون، وليس هو خطابا للمعدوم ولا أنّ للمعدوم سمعا يعقل به الكلام فيمتثل للآمر.

{ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ

كَانُوا يَعْلَمُونَ [41] الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [42].

لما ثبتت حكمة البعث بأنّها تبيين الذي اختلف فيه النّاس من هدى وضلالة، ومن ذلك أن يتبيّن أنّ الذين كفروا كانوا كاذبين وأنّ الذين آمنوا كانوا صادقين، بدلالة المضادة، وأنّهم مثابون ومكرّمون. فلما عُلم ذلك من السياق وقع التصريح به في هذه الآية. وأدمج مع ذلك وعدهم بحسن العاقبة في الدنيا، مقابلة وعيد الكافرين بسوء العاقبة فيها، الواقع بالتعريض في قوله { فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [36].

المهاجرة: متاركة الديار لغرض ما.

{ **فِي اللَّهِ** } مستعملة في التعليل، أي لأجل الله. والكلام على تقدير مضاف تقديره: هاجروا لأجل مرضاة الله.

{ **مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا** } إسناد الفعل إلى المجهول لظهور الفاعل من السياق وهو المشركون. والظلم يشمل أصناف الاعتداء من الأذى والتعذيب.

التبوئة: الإسكان. وأطلقت هنا على الجزاء بالحسنى على المهاجرة بطريق المضادة، لأنّ المهاجرة خروج من الديار فيضادها الإسكان.

{ **لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً** } أي لنجازينهم جزاء حسنا. أي تبوئة حسنة.

وهذا الجزاء يجبر كلّ ما اشتملت عليه المهاجرة من الأضرار التي لقيها المهاجرون من مفارقة ديارهم وأموالهم، وما لاقوه من الأذى الذي ألجأهم إلى المهاجرة من تعذيب واستهزاء ومذلّة وفتنة، فالحسنة تشتمل على تعويضهم ديارا خيرا من ديارهم، ووطنا خيرا من وطنهم، وهو المدينة، وأموالا خيرا من أموالهم، وهي ما نلوه من المغانم ومن الخراج. روي أنّ عمر رضي الله عنه كان إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له: " هذا ما وعدك ربك في الدنيا، وما ذخر لك في الآخرة أكبر". قال تعالى { وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً } [النور:55].

وسبب النزول الذين هاجروا إلى أرض الحبشة من المسلمين لا محالة، أو الذين هاجروا إلى المدينة، الهجرة الأولى قبل هجرة النبيء ﷺ وبقية أصحابه رضي الله عنهم، مثل مصعب بن عمير وأصحابه، إن كانت هذه الآية نازلة بعد الهجرة الأولى إلى المدينة. وكلا الاحتمالين لا ينافي كون السورة مكّيّة. ولا يقتضي تخصيص أولئك بهذا الوعد.

{ **وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ** } ثم أعقب بالوعد العظيم المقصود. ومعنى { أَكْبَرُ } أنّه أهم وأنفع. والإضافة على معنى (في)، أي الأمر الذي في الآخرة.

{ **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** } معترضة، وهي استئناف بياني ناشئ عن جملة الوعد كلّها، لأنّ ذلك الوعد العظيم بخير الدنيا والآخرة يثير في نفوس السامعين أن يسألوا كيف لم يقتد بهم من بقوا على الكفر فتقع جملة { لَوْ كَانُوا

يَعْلَمُونَ } بيانا لما استبهم على السائل. والتقدير: لو كانوا يعلمون ذلك لاقتدوا بهم ولكنّهم لا يعلمون. فضمير {يَعْلَمُونَ} عائد إلى { الذين كفروا } [39].

ويجوز أن يكون المعنى، لو كان المهاجرون يعلمون ما أُعدّ لهم علم مشاهدة لما حزنوا على مفارقة ديارهم ولكانت هجرتهم عن شوق إلى ما يلاقونه بعد هجرتهم، لأنّ تأثير العلم الحسّيّ على المزاج الإنسانيّ أقوى من العلم العقليّ. فليس المراد لو كانوا يعتقدون ويؤمنون، لأنّ ذلك حاصل لا يناسب موقع { لَوْ } الامتناعية. فضمير { يَعْلَمُونَ } عائد إلى { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا }. وفي هذا الوجه تتناسق الضمائر.

الصبر: تحمّل المشاق. و**التوكّل**: الاعتماد. وتقدّم الصبر عند قوله تعالى { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ } [البقرة:45]. والتوكّل عند قوله تعالى { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران:159].

والتعبير في جانب الصبر بالماضي وفي جانب التوكّل بالمضارع إيماء إلى أنّ صبرهم قد آذن بالانقضاء لانقضاء أسبابه، وأنّ الله قد جعل لهم فرجا بالهجرة الواقعة والهجرة المترقّبة. فهذا بشارة لهم. وأنّ التوكّل ديدنهم لأنّهم يستقبلون أعمالا جليلة تتمّ لهم بالتوكّل على الله في أمورهم، فهم يكرّرونه. وفي هذا بشارة بضمان النجاح. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [الزم:10].

{ **وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** } وتقديم المجرور للقصر، أي لا يتوكّلون إلّا على ربهم دون التوكّل على المشركين.

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [43] بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [44].

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ }

كانت الآيات السابقة جارية على حكاية تكذيب المشركين نبوءة محمد ﷺ وإنكارهم أنّه مرسل من عند الله وأنّ القرآن وحي الله إليه، وردّ مزاعمهم الباطلة بالأدلة القارعة لهم متخلّلا بما ادمج في أثنائه من معان أخرى تتعلّق بذلك، فعاد هنا إلى إبطال شبهتهم في إنكار نبوءته من أنّه بشر لا يليق بأن يكون سفيرا بين الله والنّاس، إبطالا بقياس التمثيل بالرسل الأسبقين الذين لا تنكر قريش رسالتهم مثل نوح وإبراهيم - عليهما السلام - .

وقد غيّر أسلوب نظم الكلام هنا بتوجيه الخطاب إلى النبيء ﷺ بعد أن كان جاريا على أسلوب الغيبة، تأنيسا للنبيء ﷺ لأنّ فيما مضى من الكلام آنفا حكاية تكذيبهم إيّاه تصريحا وتعريضا، فأقبل الله على الرّسول ﷺ بالخطاب لما في هذا الكلام من تنويه بمنزلته بأنّه في منزلة الرسل الأوّلين - عليهم الصلاة والسلام -.

ثمّ أشهد على المشركين بشواهد الأمم الماضية وأقبل عليهم بالخطاب توبيخا لهم لأنّ التوبيخ يناسبه الخطاب

لكونه أوقع في نفس الموبّخ، فاحتج عليهم بقوله { فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ }. فهذا احتجاج بأهل الأديان السابقين.

{ فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ } معترضة بين جملة { وَمَا أَرْسَلْنَا } وبين قوله تعالى {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ}. والجملة المعترضة تقترن بالفاء إذا كان معنى الجملة مفرّعا على ما قبله.

{ الذِّكْرِ } : كتاب الشريعة. وتقدّم عند قوله تعالى { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ } [الحجر:6].

{ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ } إيماء إلى أنّهم يعلمون ذلك ولكنّهم قصدوا المكابرة والتمويه لتضليل الدهماء، فلذلك جيء في الشرط بحرف (إن) التي ترد في الشرط المظنون عدم وجوده.

{ بِالْبَيِّنَاتِ } متعلّق بمستقر صفة أو حالا من { رجالا } وفي تعلّقه وجوه أخر ذكرها في الكشّاف، والباء للمصاحبة، أي مصحوبين بالبيّنات والزبر، فالبيّنات دلائل الصدق، من معجزات أو أدلّة عقلية. وقد اجتمع ذلك في القرآن وافترق بين الرّسل الأولين كما تفرّق منه كثير لرسولنا ﷺ.

{ الزُّبُرِ } جمع زبور وهو مشتق من الزَّبْر، أي الكتابة، ففعول بمعنى مفعول. أي الكتب التي كتب فيها ما أوحي إلى الرّسل مثل صحف إبراهيم والتوراة، وما كتبه الحواريّون من الوحي إلى عيسى - عليه السلام - وإن لم يكتبه عيسى.

{ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ } عطف تقسيم بقصد التوزيع، أي بعضهم مصحوب بالبيّنات وبعضهم بالأمرين لأنّه قد تجئ رسل بدون كتب، مثل حنظلة بن صفوان رسول أهل الرسّ، وخالد ابن سنان رسول عبس. ولم يذكر الله لنوح - عليه السلام - كتابا.

وقد تُجعل الزّبر خاصة بالكتب الوجيزة التي ليست فيها شريعة واسعة، مثل صحف إبراهيم وزبور داود - عليهما السلام -، والإنجيل كما فسّروها به في سورة فاطر.

{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }

لمّا اتّضحت الحجّة بشواهد التاريخ الذي لا ينكر ذكرت النتيجة المقصودة، وهو أنّ ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم إنّما هو ذكر وليس أساطير الأولين.

الذكر: الكلام الذي شأنه أن يذكر، أي يتلى ويكرّر. وهنا ما أنزل ليقرأه النّاس ويتلوه تكرارا، ليتذكروا ما اشتمل عليه. وتقديم المتعلّق المجرور على المفعول للاهتمام بضمير المخاطب . وتقدّم عند قوله { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ } [الحجر:6]. أي ما كنت بدعا من الرّسل فقد أوحينا إليك الذكر.

وفي الاقتصار على إنزال الذكر عقب قوله { بالبينات والزبر } إيماء إلى أنّ الكتاب المنزل على محمد ﷺ هو بيّنة وزبور معا، أي هو معجزة وكتاب شرع. وذلك من مزايا القرآن التي لم يشاركه فيها كتاب آخر، ولا

معجزة أخرى. قال تعالى { وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [العنكبوت:51،50].

وفي الحديث: أنّ النبيء ﷺ قال: " ما من الأنبياء نبيء إلّا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنّما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ".

{ **لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ** } التبيين: إيضاح المعنى. والتعريف في النّاس للعموم.

{ **مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** } والإظهار يقتضي أنّ ما صدق الموصول غير الذكر المتقدّم، إذ لو كان إياه لكان مقتضى الظاهر أن يقال لتبيّنه للنّاس. ولذا فالأحسن أن يكون المراد بـ { مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } الشرائع التي أرسل الله بها محمدا ﷺ فجعل القرآن جامعا لها ومبيّنا لها ببليغ نظمه ووفرة معانيه، فيكون في معنى قوله { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ } [89].

وليس في هذه الآية دليل لمسائل تخصيص القرآن بالسنّة، وبيان مجمل القرآن بالسنّة، وترجيح دليل السنّة المتواترة على دليل الكتاب عند التعارض المفروضات في أصول الفقه، إذ كلّ من الكتاب والسنة هو تبيين النبيء ﷺ إذ هو واسطته.

{ **لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** } حكمة أخرى من حكم إنزال القرآن، وهي تهيئة تفكّر النّاس فيه وتأمّلهم فيما يقرّبهم إلى رضى الله تعالى.

{ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ } [45]

بعد أن ذُكرت مساويهم ومكائدهم، وبعد تهديدهم بعذاب يوم البعث تصريحا، وبعذاب الدنيا تعريضا، فرّع على ذلك تهديدهم الصريح بعذاب الدنيا بطريق استفهام التعجيب من استرسالهم في المعاندة غير مقدّرين أن يقع ما يهدّدهم به الله على لسان رسوله ﷺ، فلا يقلعون عن تدبير المكر بالنبيء ﷺ، فكانت حالهم في استرسالهم كحال من هم آمنون بأس الله، فالاستفهام مستعمل في التعجيب المشوب بالتوبيخ.

{ **الَّذِينَ مَكَرُوا** }: هم المشركون. و**المكر** تقدّم في قوله تعالى { قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } [26].

{ **السَّيِّئَاتِ** } صفة لمصدر { مَكَرُوا } محذوفا يقدّر مناسبا لتانيث صفته. فالتقدير: مكروا المكرات السّيّئات. كما وصف المكر بالسيء في قوله تعالى { وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ } [فاطر:43].

الخسف: زلزال شديد تنشقّ به الأرض فتحدث بانشقاقها هوّة عظيمة تسقط فيها الديار والنّاس، ثم تنغلق الأرض على ما دخل فيها. وقد أصاب ذلك أهل بابل، ومكانهم يسمى خسف بابل. وأصاب قوم لوط إذ جعل الله عاليها سافلها. وبلادهم مخسوفة اليوم في بحيرة لوط من فلسطين.

{ **الْعَذَابُ** } يعمّ كلّ ما فيه تأليم يستمر زمنا، فلذلك عطف على الخسف. وإتيان العذاب إليهم: إصابته إيّاهم.
{ **مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ** } من مكان لا يترقّبون أن يأتيهم منه ضرّ. وهو كناية عن عذاب لا يطيقون دفعه بحسب اللزوم العرفي، و إلّا فقد جاء العذاب عادا من مكان يشعرون به، قال تعالى { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا } [الأحقاف:24]. وحلّ بقوم نوح عذاب الطوفان وهم ينظرون، وكذلك عذاب الغرق لفرعون وقومه.

{ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ [46] أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ}[47].
{ **أَوْ يَأْخُذَهُمْ** } الأخذ مستعار للإهلاك قال تعالى { فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً } [الحاقة:10].
التقلّب: السعي في شؤون الحياة من متاجرة ومعاملة وسفر ومحادثة ومزاحمة. وأصله: الحركة إقبالا وإدبارا، والمعنى: أن يهلكهم الله وهم شاعرون بمجيء العذاب. وهذا قسيم قوله تعالى { أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ} [45]. وفي معناه قوله تعالى { أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [الأعراف:98].
{ **فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ** } اعتراض، إذ لا يعجزه اجتماعهم وتعاونهم.
{ **أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ** } والتخوّف في اللغة يأتي مصدر تخوّف القاصر بمعنى خاف ومصدر تخوّف المتعدي بمعنى تنقّص، وهذا الثاني لغة هذيل، وهي من اللغات الفصيحة التي جاء بها القرآن.
فللآية معنيان: إمّا أن يكون المعنى يأخذهم وهم في حالة توقّع نزول العذاب بأن يريهم مقدّماته مثل الرعد قبل الصواعق، وإمّا أن يكون المعنى يأخذهم وهم في حالة تنقّص، بأن يكثر فيهم الموتان والفقر والقحط.
روى الزمخشري وابن عطية يزيّد أحدهما على الآخر: أنّ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خفي عليه معنى التخوّف في هذه الآية وأراد أن يكتب إلى الأمصار، وأنّه سأل النّاس وهو على المنبر: ما تقولون فيها؟ فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا. التخوّف: التنقّص، قال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم قال شاعرنا (أبو كبير) :

تخوف الرحل منها تامِكا قرِدا ... كما تخوف عودَ النبعة السفنُ

(وهذا البيت في وصف راحلة أثّر الرحل في سنامها فتنقص من وبره. و**التامِك**: بكسر الميم السنام المشرق. و**القِرِد** بكسر الراء المتبلد الوبر، و**النبعة** قصبة شجر النبع تتخذ منه القسي. و**السفن** بالتحريك البرد).
فقال عمر - رضي الله عنه -: " أيها النّاس عليكم بديوانكم لا يضل، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم".

{ **فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ** } تفرّع على الجمل الماضية تفريع العلّة على المعلّل. وحرف (إنّ) هنا مفيد للتعليل ومغن عن (فاء) التفريع كما بيّنه عبد القاهر، فهي مؤكّدة لما أفادته الفاء.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} [48]

بعد أن نهضت براهين انفراده تعالى بالخلق بما ذكر من تعداد مخلوقاته العظيمة جاء الانتقال إلى دلالة من حال الأجسام التي على الأرض، وهو ما خلق الله عليه النظام الأرضي، خلقا ينطق لسان حاله بالعبودية لله تعالى، وذلك في أشدّ الأعراض ملازمة للذوات، ومطابقة لأشكالها وهو الظل. وقد مضى تفصيل هذا الاستدلال عند قوله تعالى { وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } [الرعد:15].

والاستفهام إنكاري، أي قد رأوا، والرؤية بصرية.

{ **مِنْ شَيْءٍ** } بيان للإبهام الذي في (ما) الموصولة، وإنّما كان بيانا باعتبار ما جرى عليه من الوصف بجملة { يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ }.

التفيّؤ: تفعّل من فاء الظل فيئا، أي عاد بعد أن أزاله ضوء الشمس. لعلّ أصله من فاء إذا رجع.

{ **ظِلالُهُ** } وتقدّم ذكر الظلال عند قوله { وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } [الرعد:15].

{ **عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ** } ، أي عن جهات اليمين وجهات الشمائل. وليس المراد خصوص اليمين والشمال بل كذلك الأمام والخلف، فاختصر الكلام. وإفراد اليمين وجمع { وَالشَّمَائِلِ } تفنّن.

{ **سُجَّداً** } حال من ضمير { ظِلالُهُ } العائد إلى {مِنْ شَيْءٍ} فهو قيد للتفيّؤ، أي أنّ ذلك التفيؤ يقارنه السجود.

{ **وَهُمْ دَاخِرُونَ** } في موضع الحال من الضمير في { ظِلالُهُ } لأنّه في معنى الجمع لرجوعه إِلَى { مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ }. وجمع بصيغة الجمع الخاصة بالعقلاء تغليبا لأنّ في جملة الخلائق العقلاء وهم الجنس الأهم.

الداخر: الخاضع الذليل، أي داخرون لعظمة الله تعالى.

{ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ [49] يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [50].

لمّا ذكر في الآية السابقة السجود القسري ذكر بعده هنا سجود آخر بعضه اختيار وفي بعضه شبه اختيار.

{ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ** } تقديم المجرور على فعله مؤذن بالحصر، أي يسجد لله لا لغيره ما في السماوات وما في الأرض، وهو تعريض بالمشركين إذ يسجدون للأصنام.

{ **ما** } دون (من) تغليبا لكثرة غير العقلاء.

{ **مَا فِي السَّمَاوَاتِ** } يشمل مخلوقات غير الملائكة، مثل الأرواح، أو يراد بالسماوات الأجواء فيراد بما فيها الطيور والفراش.

وفي ذكر أشرف المخلوقات وأقلّها، تعريض بذمّ من نزل من البشر عن مرتبة الدواب في كفران الخالق، وبمدح من شابه من البشر حال الملائكة.

{ **وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ** } الدابة ما يدب على الأرض غير الإنسان. ومعنى سجود الدواب لله أنّ الله جعل في تفكيرها الإلهامي التذاذها بوجودها وبما هي فيه من المرح والأكل والشرب، وتطلّب الدفع عن نفسها من المتغلّب ومن العوارض بالمدافعة أو بالتوقّي، ونحو ذلك من الملائمات. فحالها بذلك كحال شاكر تتيسّر تلك الملائمات لها، وإنّما تيسيرها لها ممن فطرها. وقد تصحب أحوال تنعّمها حركات تشبه إيماء الشاكر المقارب للسجود، ولعل من حركاتها ما لا يشعر به النّاس لخفائه وجهلهم بأوقاته، وإطلاق السجود على هذا مجاز. وفي جعل الدواب والملائكة معمولين لـ { يسجد } استعمال للفظ في حقيقته ومجازه.

{ **وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ** } وصف للملائكة، وهو تعريض ببعد المشركين عن أوجّ تلك المرتبة الملكية.

{ **يَخَافُونَ رَبَّهُمْ** } بيان لجملة { وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ }.

{ **مِنْ فَوْقِهِمْ** } فوقيّة تصرّف وملك وشرف كقوله تعالى { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } [الأنعام:18].

{ **وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** }، أي يطيعون ولا تصدر منهم مخالفة.

وهنا موضع سجود للقارئ بالاتفاق. وحكمته هنا إظهار المؤمن أنّه من الفريق الممدوح، بأنّه مشابه للملائكة في السجود لله تعالى.

{ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ }[51]

لمّا أُشبع القول في إبطال تعدّد الآلهة الشائع في جميع قبائل العرب، وأُتبع بإبطال الاختلاق على الرّسول ﷺ والقرآن، نُقل الكلام إلى إبطال نوع آخر من الشرك متّبع عند قبائل من العرب وهو الإشراك بإلهيّة أصلين للخير والشرّ، تقلّدته قبائل العرب المجاورة بلاد فارس والساري فيهم سلطان كسرى وعوائدهم، مثل بني بكر بن وائل وبني تميم، فقد دان منهم كثير بالمجوسيّة، أي المزدكية والمانوية في زمن كسرى أبرويش وفي زمن كسرى أنوشروان، والمجوسية تثبت عقيدةً بإلهين: إله للخير وهو النور، وإله للشر وهو الظلمة، فإله الخير لا يصدر منه إلّا الخير والأنعام، وإله الشرّ لا يصدر عنه إلّا الشرّ والآلام، وسموا إله الخير (**يَزْدان**)، وسموا إله الشر (**أَهْرُمُنْ**). وزعموا أنّ يزدان كان منفردا بالإلهية وكان لا يخلق إلّا الخير فلم يكن في العالم إلّا الخير، فخطر في نفسه مرة خاطر شر فتولّد عنه إله آخر شريك له هو إله الشرّ، وقد حكى هذا المعري في لزومياته بقوله:

فكر يَزْدانُ على غِرّة ... فصيغ من تفكيره أهْرُمُنْ

ولم يكونوا يجعلون لهذين الأصلين صورا مجسّمة، فلذلك لم يكن دينهم من عداد عبادة الطاغوت لاختصاص اسم الطاغوت بالصور والأجسام المعبودة. وهذا الدين من هذه الجهة يشبه الأديان التي لا تعبد صورا محسوسة. وسيأتي الكلام على المجوسيّة عند تفسير قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا }[الحج:170].

{ **وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ** } عطف قصة على قصة. والمعنى: أنّه دعا النّاس ونصب الأدلّة على بطلأنّ اعتقاده. وهذا كقوله تعالى { يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ } [الفتح:15].

{ **إِلَهَيْنِ** } صيغة التثنية أكّدت بلفظ { اثْنَيْنِ } للدلالة على أنّ الاثنينيّة مقصودة بالنهي إبطالًا لشرك مخصوص من إشراك المشركين، وهو قول المجوس بإلهين. وإذ نهوا عن اتخاذ إلهين فقد دلّ بدلالة الاقتضاء على إبطال اتخاذ آلهة كثيرة.

{ **إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ** } بيانا لجملة { لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ }، فالجملة مقولة لفعل { وَقَالَ اللَّهُ } لأنّ عطف البيان تابع للمبيّن، فلذلك فصلت، وبذلك أفيد بالمنطوق ما أفيد قبل بدلالة الاقتضاء.

والضمير{ **هُوَ** } عائد إلى اسم الجلالة في قوله { وَقَالَ اللَّهُ } ، أي قال الله: إنّما الله إله واحد.

والقصر قصر موصوف على صفة، أي الله مختص بصفة توحّد الإلهيّة، وهو قصر قلب لإبطال دعوى تثنية الإله.

{ **فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** } الراجح أن يكون تفريعا على جملة { لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ } فيكون { فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } من مقول القول. ووقع في ضمير { فَإِيَّايَ } التفات من الغيبة إلى التكلّم لمناسبة انتقال الكلام من تقرير دليل وحدانية الله على وجه كلي إلى تعيين هذا الواحد أنّه الله منزّل القرآن، تحقيقا لتقرير العقيدة الأصليّة. وفي هذا الالتفات اهتمام بالرهبة لما في الالتفات من هزّ فهم المخاطبين. وتقدّم تركيب نظيره بدون التفات في سورة البقرة.

{ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ } [52]

تقديم المجرور يفيد الحصر، فدخل جميع ما في السماء والأرض في مفاد (لام) الملك، فأفاد أن ليس لغيره شيء من المخلوقات خيرها وشرّها. فانتفى أن يكون معه إله آخر، لأنّه لو كان معه إله آخر لكان له بعض المخلوقات إذ لا يعقل إله بدون مخلوقات.

{ **وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً** } فالدين يحتمل أن يكون المراد به الطاعة. من قولهم: دانت القبيلة للملك. أي أطاعته، فهو من متمّمات جملة { وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }، لأنّه لما قصر الموجودات على الكون في ملكه كان حقيقا بقصر الطاعة عليه، ولذلك قدّم المجرور في هذه الجملة على فعله كما وقع في التي قبلها.

ويجوز أن يكون { الدِّينُ } بمعنى الديانة، فيكون تذييلا لجملة { وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ }، لأنّ إبطال دين الشرك يناسبه أن لا يدين النّاس إلّا بما يشرعه الله لهم، أي هو الذي يشرّع لكم الدين لا غيره من أئمة الضلال مثل عمرو بن لحيي، وزرادشت، ومزدك، وماني، قال تعالى { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ } [الشورى:21].

ويجوز أن يكون الدين بمعنى الجزاء كما في قوله تعالى {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة:4]، فيكون إدماجا لإثبات البعث الذي ينكره أولئك أيضا. والمعنى: له ما في السماوات والأرض وإليه يرجع من في السماوات والأرض لا يرجعون إلى غيره ولا ينفعهم يومئذ أحد.

الواصب: الثابت الدائم، وهو صالح للاحتمالات الثلاثة، ويزيد أنّه تأكيد لردّ إنكارهم البعث.

{ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ** } توبيخ على تقواهم غيره، وذلك أنّهم كانوا يتّقون إله الشرّ ويتقرّبون إليه ليأمنوا شرّه.

{ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ [53] ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } [54].

لمّا أبطل في الآية السابقة وجود إلهين اثنين، أحدهما فعله الخير والآخر فعله الشرّ، أعقبه هنا بأنّ الخير والضرّ من تصرفات الله تعالى، وهو يعطي النعمة وهو كاشف الضرّ.

وهو انتقال من الاستدلال بمصنوعات الله الكائنة في ذات الإنسان وفيما يحيط به من الموجودات إلى الاستدلال بما ساق الله من النعم، فمن النّاس معرضون عن التدبّر فيها وعن شكرها وهم الكافرون، فكان في الأدلة الماضية القصد إلى الاستدلال ابتداء متبوعا بالامتنان. وتغيّر الأسلوب هنا فصار المقصود الأوّل هو الامتنان بالنعم مدمجا فيه الاعتبار بالخلق.

فالخطاب موجّه إلى الأمّة كلّها، ولذلك جاء عقبه قوله تعالى { إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ }، وابتدئ بالنعم على وجه العموم إجمالًا ثم ذكرت مهمّات منها.

{ **وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** } لما كان { **مِنْ نِعْمَةٍ** } مفيدا للعموم كان الإخبار عنه بأنّه من عند الله مغنيا عن الإتيان بصيغة قصر. و(من) الثانية ابتدائية، أي واصلة إليكم من الله.

{ **ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ** } للتراخي الرتبي كما هو شان (ثمّ) الغالب في عطفها الجمل، لأنّ اللجأ إلى الله عند حصول الضرّ أعجب إخبارا من الإخبار بأنّ النعم كلّها من الله.

مسّ الضرّ: حلوله. استعير المسّ للحصول الخفيف، للإشارة إلى ضيق صبر الإنسان بحيث إنّه يجأر إلى الله بحصول أدنى شيء من الضرّ له. وتقدّم استعمال **المسّ** في الإصابة الخفيفة في قوله تعالى { وَإِنْ يَمْسَسْكَ

اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ } [الأنعام:17].

{ **تجأرون** } تصرخون بالتضرع. والمصدر: الجُؤار، بصيغة أسماء الأصوات.

والمقصود: تقرير أنّ الله تعالى هو مدبّر أسباب ما بهم من خير وشرّ، وأنّه لا إله يخلق إلّا هو، وإنّهم لا يلتجئون إلّا إليه إذا أصابهم ضرّ، وهو ضدّ النعمة.

{ **ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ** } نعمة أخرى، وهي كشف الضّرّ عن النّاس.

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي، لأنّ مضمون الجملة المعطوفة أبعد في النظر من مضمون المعطوف عليها، فإنّ الإعراض عن المنعم بكشف الضرّ، وإشراك غيره به في العبادة أعجب حالا وأبعد حصولا من اللجأ إليه عند الشدّة.

والمقصود تسجيل كفران المشركين، وإظهار رأفة الله بالخلق بكشف الضّرّ عنهم عند التجائهم إليه مع علمه بأنّ من أولئك من يشرك به ويستمر على شركه بعد كشف الضرّ عنه.

{ **إِذَا** } الأولى مضمّنة معنى الشرط، وهي ظرف.

{ **إِذَا** } الثانية فجائية، للدلالة على إسراع هذا الفريق بالرجوع إلى الشرك.

{ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [55]

{ **لِيَكْفُرُوا** } سمّى كثير من النحاة هذه اللام لام العاقبة، ومثالها عندهم قوله تعالى { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً} [القصص:8]. وهي متعلّقة بفعل { يُشْرِكُونَ } [54] الذي هو من جواب قوله تعالى { إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ } [54]. والكفر هنا كفر النعمة، ولذلك علّق به قوله تعالى { بِمَا آتَيْنَاهُمْ }، أي من النعم. وكفر النعمة ليس هو الباعث على الإشراك فإنّ إشراكهم سابق على ذلك وقد استصحبوه عقب كشف الضّرّ عنهم، ولكن شبّهت مقارنة عودهم إلى الشرك، بعد كشف الضر عنهم، بمقارنة العلّة الباعثة على عملٍ لذلك العمل. ووجه الشبه مبادرتهم لكفر النعمة دون تريّث. فاستعير لهذه المقارنة لام التعليل، وهي استعارة تبعية تمليحيّة تهكّميّة ومثلها كثير الوقوع في القرآن

الإيتاء: الإعطاء. وهو مستعار للإنعام بالحالة النافعة، لأنّ شأن الإعطاء أن يكون تمكينا بالمحبوب.

{ **بما آتيناهم** } عبّر بالموصول لما تؤذن به الصلة من كونه نعمة، تفظيعا لكفرانهم بها، لأنّ كفران النعمة قبيح عند جميع العقلاء.

{ **فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** } فرّع عليه مخاطبتهم بأمرهم بالتمتع، أمر إمهال وقلّة اكتراث بهم، وهو في معنى التخلية.

التّمتّع: الانتفاع بالمتاع. والمتاع الشيء الذي ينتفع به انتفاعا محبوبا ويسرّ به. ويقال: تمتع بكذا واستمتع.

قيل الخطاب للفريق الذين يشركون بربهم على طريقة الالتفات. والأظهر أنّه مقول لقول محذوف. لأنّه جاء مفرّعا على كلام خوطب به النّاس كلهم، فيكون المفرّع من تمام ما تفرع عليه. وذلك ينافي الالتفات الذي يقتضي أن يكون مرجع الضمير إلى مرجع ما قبله. والمعنى: فنقول تمتّعوا بالنعم التي أنتم فيها إلى أمد.
{ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** } تهديد بأنّهم سيعلمون عاقبة كفران النعمة بعد زوال التمتّع. وحذف المفعول لظهوره من قوله تعالى { لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ } ، أي تعلمون جزاء كفركم.

{ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ } [56]
عطف حالة من أحوال كفرهم لها مساس بما أنعم الله عليهم من النعمة، فهي معطوفة على جملة { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } [53]. وما حُكي هنا هو تفاريع دينهم الناشئة عن إشراكهم والتي هي من تفاريع كفران نعمة ربّهم، إذ جعلوا في أموالهم حقّا للأصنام التي لم ترزقهم شيئا. وقد مرّ ذلك عند قوله تعالى { وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ } [الأنعام: 136]. إلّا أنّه اقتصر هنا على ذكر ما جعلوه لشركائهم دون ما جعلوه لله لأنّ المقام هنا لتفصيل كفرانهم النعمة، بخلاف ما في سورة الأنعام فهو مقام تعداد أحوال جاهليتهم وإن كان كلّ ذلك منكرا عليهم، إلّا أن بعض الكفر أشدّ من بعض.
الجعل: التصيير والوضع. تقول: جعلت لك في مالي كذا. وجيء هنا بصيغة المضارع للدلالة على تجدّد ذلك منهم واستمراره، بخلاف قوله تعالى { وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ } [38] بأنّه حكاية قضيّة مضت من عنادهم وجدالهم في أمر البعث.
{ **لِمَا لا يَعْلَمُونَ** } الأصنام، وإنّما عبّر عنها بهذه الصلة زيادة في تفظيع سخافة آرائهم، إذ يفرضون في أموالهم عطاء يعطونه لأشياء لا يعلمون حقائقها بله مبلغ ما ينالهم منها، كما قال تعالى { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ} [النجم:23].
{ **نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ** } لتشنيع ظلمهم، إذ تركوا المنعم فلم يتقرّبوا إليه بما يرضيه في أموالهم مما أمرهم بالإنفاق فيه، كإعطاء المحتاج، وأنفقوا ذلك في التقرّب إلى أشياء موهومة لم ترزقهم شيئا.
{ **تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ** } وجّه الخطاب إليهم على طريقة الالتفات لقصد التهديد. ولا مانع من الالتفات هنا لعدم وجود فاء التفريع.
وتصدير جملة التهديد والوعيد بالقسم لتحقيقه، إذ السؤال الموعود به يكون يوم البعث وهم ينكرونه فناسب أن يؤكّد. والقسم بالتاء يختصّ بما يكون المقسم عليه أمرا عجيبا ومستغربا، كما تقدّم في قوله تعالى { قَالُوا

تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ } [يوسف: 73].

والسؤال كناية عمّا يترتب عليه من العقاب، لأنّ عقاب العادل يكون في العرف عقب سؤال المجرم عمّا اقترفه إذ لعل له ما يدفع به نفسه، فأجرى الله أمر الحساب يوم البعث على ذلك السَنن الشّريف.

{ **عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ** } كناية عن استحقاقهم العقاب، لأنّ الكذب على الله جريمة.

والإتيان بفعل الكون وبالمضارع للدلالة على أنّ الافتراء كان من شأنهم، وكان متجدّدا ومستمرا منهم.

{ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ }[57]

هذا استدلال بنعمة الله عليهم بالبنين والبنات، وهي نعمة النسل. وأدمج في هذا الاستدلال وهذا الامتنان ذكر ضرب شنيع من ضروب كفرهم، وهو زعمهم أنّ الملائكة بنات الله من سروات الجنّ، كما دلّ عليه قوله تعالى { وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً } [الصافات: 158]. وهو اعتقاد قبائل كنانة وخزاعة.

الجعل هنا النسبة بالقول.

{ **سُبْحَانَهُ** } مصدر نائب عن الفعل، وهو في محل جملة معترضة وقعت جوابا عن مقالتهم السيّئة التي تضمّنها قوله { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ } إذ الجعل فيه جعل القول، فقوله { سُبْحَانَهُ } مثل قولهم: **حاش لله ومعاذ الله**، أي تنزيها له عن أن يكون له ذلك.

وإنّما قدم { سُبْحَانَهُ } ليكون في أن التنزيه عن هذا الجعل لذاته، وهو نسبة البنوّة لله.

{ **وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ** } جملة في موضع الحال. زيادة في التفظيع. وتقديم الخبر في الجملة للاهتمام بهم في ذلك على طريقة التهكّم. وما صدق { مَا يَشْتَهُونَ } الأبناء الذكور بقرينة مقابلته بالبنات.

{ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ [58] يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [59].

الراجح أن تكون الجملة معترضة والواو اعتراضية اقتضى الإطالة بها أنّها من تفاريع شركهم.

{ **بُشِّرَ** } التعبير عن الإعلام بازدياد الأنثى بهذا الفعل في موضعين لأنّه كذلك في نفس الأمر، إذا ازدياد المولود نعمة على الوالد لما يترقّبه من التأنّس به والانتفاع بخدمته وإعانته عند الاحتياج إليه، ولما فيه من تكثير نسل القبيلة الموجب عزّتها، وآصرة الصهر. ثم إنّ هذا مع كونه بشارة في نفس الأمر فالتعبير به يفيد تعريضا بالتهكّم بهم، إذ يعدّون البشارة مصيبة وذلك من تحريفهم الحقائق. والتعريض من أقسام الكناية والكناية تجامع الحقيقة.

{ ظَلَّ } من أفعال الكون أخوات كان التي تدلّ على اتصاف فاعلها بحالة لازمة، فلذلك تقتضي فاعلا مرفوعا يدعى اسما وحالا لازما له منصوب يدعى خبرا لأنّه شبيه بخبر المبتدإ. وسماها النحاة لذلك نواسخ لأنّها تعمل فيها، لولاها لكان مبتدأ وخبرا فلمّا تغيّر معها حكم الخبر سميت ناسخة لرفعه. كما سميت (إنّ) وأخواتها و (ظنّ) وأخواتها كذلك. وهو اصطلاح تقريبي وليس برشيق.

ويستعمل {ظَلّ} بمعنى صار. وهو المراد هنا.

{ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً } مستعمل في لون وجه الكئيب إذ ترهقه غبرة، فشبهت بالسواد مبالغة.

الكظيم: الغضبان المملوء حنقا. وتقدّم في قوله تعالى { فَهُوَ كَظِيمٌ } [يوسف:84]، أي أصبح حنقا على امرأته. وهذا من جاهليتهم الجهلاء وظلمهم.

التواري: الاختفاء، مشتق من الوراء وهو جهة الخلف.

{ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ } أي يتوارى من أجل تلك البشارة. و{ مِنْ } للابتداء المجازي المفيد معنى التعليل، لأنّه يقال: فعلت كذا من أجل كذا، قال تعالى { وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ } [الأنعام: 151].

{ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ } بدل اشتمال من { يَتَوَارَى}، أي يتوارى يتردد بين هذين الأمرين.

الهون: الذلّ. وتقدّم عند قوله تعالى { الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ } [الأنعام: 93].

الدسّ: إخفاء الشيء بين أجزاء شيء آخر كالدفن. والمراد: الدفن في الأرض وهو الوأد. وكانوا يئدون بناتهم، بعضهم يئد بحدثان الولادة، وبعضهم يئد إذا يفعت الأنثى ومشت وتكلّمت، أي حين تظهر للنّاس لا يمكن إخفاؤها. وذلك من أفظع أعمال الجاهلية، وكانوا متمالئين عليه ويحسبونه حقّا للأب فلا ينكرها الجماعة على الفاعل.

{ ألا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ }. سماه الله حكما وأعلن ذمّه بحرف { ألا } لأنّه جور عظيم قد تمالأوا عليه. فأسند إلى ضمير الجماعة مع أنّ الكلام كان جاريا على فعل واحد غير معيّن، قضاء لحق هذه النكتة.

{ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }[60]

جملة معترضة مرتبطة بجملة { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ } [57]، فهي بمنزلة جملة {سُبْحَانَهُ} ،غير أنّ {سُبْحَانَهُ} جواب بتنزيه الله عمّا نسبوه إليه، وهذه جواب بتحقيرهم على ما يعاملون به البنات، مع نسبتهم إلى الله هذا الصنف المحقّر عندهم.

{ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ } شتم لهم، على استعمال العرب عند سماع الكلام المكروه.

المثل: الحال العجيبة في الحسن والقبح، وإضافة إلى السوء للبيان.

السَوء: (بفتح السين) مصدر ساءه، إذا عمل معه ما يكره. والسُوء (بضم السين) الاسم، تقدّم في قوله تعالى

{ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ } [البقرة:49].

{ **وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى** } عطفت على { لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ } لأنّ بها تكملة إفساد قولهم وذمّ رأيهم، إذ نسبوا إلى الله الولد وهو من لوازم الاحتياج والعجز. ولمّا نسبوا إليه ذلك خصّوه بأخس الصنفين عندهم، كما قال تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ } [62].

المثل: تقدّم تفصيل معانيه عند قوله تعالى { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً } [البقرة:17].

{ **الْأَعْلَى** } تفضيل، وحذف المفضّل عليه لقصد العموم، أي أعلى من كل مثل في العلو بقرينة المقام.

{ **الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** } تقدّم عند قوله تعالى { فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة:209].

{ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النّاس بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ }[61]

هذا اعتراض في أثناء التوبيخ على كفرهم الذي من شرائعه وأد البنات. فلمّا وصف جعلهم لله البنات اللاتي يأنفون منها لأنفسهم، ووصف ذلك بأنّه حكم سوء، ووصف حالهم بأنّها مثل سوء، وعرّفهم بأخصّ عقائدهم أنّهم لا يؤمنون بالآخرة، أتبع ذلك بالوعيد على أقوالهم وأفعالهم.

{ **لَوْ** } حرف امتناع لامتناع، أي حرف شرط يدل على امتناع وقوع جوابه لأجل امتناع وقوع شرطه.

فالمعنى: لو كان الله مؤاخذا الخلق على شركهم لأفناهم من الأرض وأفنى الدواب معهم. ولكنّه لم يفعل.

المؤاخذة: الأخذ المقصود منه الجزاء، فهو أخذ شديد، ولذلك صيغت له صيغة المفاعلة الدالة على الكثرة، فدلّ على أن المؤاخذة المنتفية بـ { لو } هي الأخذ العاجل المناسب للمجازاة، لأنّ شأن الجزاء في العرف أن لا يتأخّر عن وقت حصول الذنب. ولهذا جاء الاستدراك بقوله تعالى { وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ }. فموقع الاستدراك هنا أنّه تعقيب لقوله تعالى { مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ }.

الظلم: الاعتداء على الحقّ. وأعظمه الاعتداء على حقّ الخالق على مخلوقاته، وهو حق إفراده بالعبادة، ولذلك كان الظلم في القرآن إذا لم يعد إلى مفعول نحو {ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [آل عمران:117] مرادا منه أعظم الظلم، **وهو الشرك** حتّى صار ذلك حقيقة عرفيّة في مصطلح القرآن، **وهو المراد هنا من هذا الإنذار**. وأمّا الظلم الذي هو دون الإشراك بالله فغير مراد هنا، لأنّه مراتب متفاوتة فلا يقتضي عقاب الاستئصال على عمومه.

{ **النّاس** } تعريف الجنس ليشمل جميع النّاس. لأنّ ذلك أنسب بمقام الزجر.

{ **عليها** } الضمير صادق على الأرض وإن لم يجر لها ذكر في الكلام فإنّ المقام دال عليها. وذلك استعمال معروف في كلامهم كقوله تعالى { حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ } [ص:32] يعني الشمس، ويقولون: أصبحت

باردة، يريدون الغداة، ويقول أهل المدينة: ما بين لابتيها أحد يفعل كذا، يريدون لابتي المدينة.

الدابة: خصّ في الاستعمال بالإطلاق على ما عدا الإنسان ممّا يمشي على الأرض. وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ الدواب التي على الأرض مخلوقة لأجل انتفاع الإنسان، فلذلك لم يكن استعمال الإنسان إيّاها فيما تصلح له ظلما لها، ولا قتلها لأكلها ظلما لها.

{ **وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً** } دلّ أن تأخيرهم متفاوت الآجال، ففي مدد تلك الآجال تبقى أقوام كثيرة تعمر بهم الأرض، فذلك سبب بقاء أمم كثيرة من المشركين ومن حولهم.

الأجل: المدّة المعيّنة لفعل ما. والمسمّى: المعيّن والمميّز، وتسمية الآجال تحديدها. وتقدّم نظير هذه عند قوله تعالى { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف:34].

{ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ } [62]

{ **وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ** } إشارة إلى قوله { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ } [57] التي فيها إيماء إلى كراهتهم البنات كما تقدّم. وخُصت هذه بذكر الكراهية تصريحا.

وقد يكون الموصول للعموم فيشير إلى أنّهم جعلوا لله أشياء يكرهونها لأنفسهم مثل الشريك في التصرّف، وأشياء لا يرضونها لآلهتهم ونسبوها لله كما أشار إليه قوله تعالى { فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [الأنعام:136]. فتكون هذه القصة أعمّ من قصة قوله تعالى { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ }، ويكون تخصيصها بالذكر من جهتين: جهة اختلاف الاعتبار، وجهة زيادة أنواع هذا الجعل.

{ **وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ** } عطف قصة على قصة أخرى من أحوال كفرهم.

{ **تَصِفُ** } تذكر بشرح وبيان وتفصيل. وحقيقة الوصف: ذكر الصفات والحُلَي. ثم أطلق على القول المبيّن المفصّل. وقد تقدّم في قوله تعالى { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنعام:100].

والمراد من هذا الكذب كل ما يقولونه من أقوال خاصتهم ودهمائهم باعتقاد أو تهكّم.

{ **أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى** } بدل من { الْكَذِبَ }، أي الحالة الحسنى.

{ **لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ**} جواب عن قولهم المحكي. ومعنى لا جرم لا شكّ، أي حقّا. وتقدّم في سورة هود.

{ **وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ** } (بفتح الراء مخفّفة)على زنة اسم المفعول، أي مجعولون فَرَطا (بفتحتين) وهو **المقدّم إلى الماء ليسقي**. وقراه نافع: { مُفْرِطُونَ }(بكسر الراء المخففة) اسم فاعل من أفرط، إذا بلغ غاية شيء ما، أي مفرِطون في الأخذ من عذاب النار . وقراه أبو جعفر (بكسر الراء المشدّدة) من فرّط المضاعف.

والمراد: أنّهم سابقون إلى النّار معجّلون إليها، لأنّهم أشد أهل النّار استحقاقا لها، وعلى هذا الوجه يكون إطلاق الإفراط على هذا المعنى استعارة تهكّمية. وفيه مع ذكر النار في مقابلتها محسن الطباق. على أنّ قراءة نافع تحتمل التفسير بهذا أيضا لجواز أن يقال: أفرط إلى الماء إذا تقدّم له.

{ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }[63]

استئناف ابتدائي داخل في الكلام الاعتراضي قصد منه تنظير حال المشركين المتحدّث عنهم وكفرهم في سوء أعمالهم وأحكامهم بحال الأمم الضالة من قبلهم، الذين استهواهم الشيطان من الأمم البائدة مثل عاد وثمود، والحاضرة كاليهود والنصارى.

{ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ } وجّه الخطاب إلى النبيء ﷺ لقصد إبلاغه إلى أسماع النّاس، فإنّ القرآن منزّل لهدي الناس، فتأكيد الخبر بالقسم منظور فيه إلى المقصودين بالخبر لا إلى الموجّه إليه الخبر، لأنّ النبيء ﷺ لا يشك في ذلك. وأمّا الإرسال إلى أمم من قبلهم فلا يشك فيه المشركون.

{ تَاللَّهِ } شأن التاء المثناة أن تقع في قسم على مستغرب، ومصب القسم هنا هو المفرد بقوله تعالى { فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } لأنّ تأثير تزيين الشيطان لهم أعمالهم بعدما جاءهم من إرشاد رسلهم أمر عجيب.

{ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ } التقدير: أرسلنا فزين لهم الشيطان أعمالهم. وتزيين الشيطان أعمالهم كناية عن المعاصي. والمقصود: أنّ المشركين سلكوا مسلك من قبلهم من الأمم التي زيّن لهم الشيطان أعمالهم.

{ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } يجوز أن تكون مفرّعة على جملة القسم بتمامها، على أن يكون التفريع هو المقصود من جملة الاستئناف للتنظير؛ فيكون ضمير { وَلِيُّهُمُ } عائدا إلى المنظّرين بقرينة السياق. ولا مانع من اختلاف معادي ضميرين متقاربين مع القرينة.

والمعنى: فالشيطان ولي المشركين اليوم، أي متولّي أمرهم كما كان وليّ الأمم من قبلهم إذ زيّن لهم أعمالهم.

{ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [64]

عطف على جملة القسم. والمناسبة أنّ القرآن أنزل لإتمام الهداية وكشف الشبهات التي عرضت للأمم الماضية والحاضرة فتركت أمثالها في العرب وغيرهم. فلمّا ذكرت ضلالاتهم وشبهاتهم عقّب ذلك ببيان الحكمة في إرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن إليه، فالقرآن جاء مبيّنا للمشركين ضلالهم بيانا لا يترك للباطل مسلكا إلى النفوس، ومفصحا عن الهدى إفصاحا لا يترك للحيرة مجالا في العقول، ورحمة للمؤمنين بما جازاهم عن إيمانهم من خير الدنيا والآخرة.

{ **إِلَّا لِتُبَيِّنَ** } صيغة القصر لقصد الإحاطة بالأهمّ من غاية القرآن وفائدته التي أنزل لأجلها. فهو قصر ادعائي ليرغب السامعون في تلقيه وتدبّره من مؤمن وكافر كلّ بما يليق بحاله حتّى يستووا في الاهتداء.

ثم إن القصر يعرّض بتفنيد أقوال من حسبوا، من المشركين، أنّ القرآن أنزل لذكر القصص لتعليل الأنفس في الأسمار ونحوها حتّى قال مضلّهم: أنا آتيكم بأحسن مما جاء به محمد، آتيكم بقصة (رستم واسفنديار).

فالقرآن أهم مقاصده هذه الفوائد الجامعة لأصول الخير، وهي كشف الجهالات والهدى إلى المعارف الحقّ وحصول أثر ذينك الأمرين. وهو الرحمة الناشئة عن مجانبة الضلال وإتباع الهدى.

{ **الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ** } عبّر عن الضلال بطريقة الموصولية للإيماء إلى أنّ سبب الضلال هو اختلافهم على أنبيائهم. فالعرب اختلفت ضلالتهم في عبادة الأصنام، عبدت كل قبيلة منهم صنما، وعبد بعضهم الشمس والكواكب، واتّخذت كل قبيلة لنفسها أعمالا يزعمونها دينا صحيحا. واختلفوا مع المسلمين في جميع ذلك الدين.

{ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } للإيماء إلى أنّهم الذين كان الإيمان كالسجية لهم والعادة الراسخة التي تتقوم بها قوّميّتهم. وهاته الآية بمنزلة التذييل للعبر والحجج الناشئة عن وصف أحوال المخلوقات، ونعم الخالق على النّاس.

{ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [65]

عاد الكلام إلى دلائل الانفراد بالخلق مع ما أدمج فيه من التذكير بالنعم. فهذه منّة من المنن وعبرة من العبر وحجّة من الحجج المتفرّعة عن التذكير بنعم الله والاعتبار بعجيب صنعه.

{ **وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً** } كان ذكر إنزال الماء في الآية السابقة { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ } [10] مسوقا مساق الاستدلال، وهو هنا مسوق مساق الامتنان بنعمة إحياء الأرض بعد موتها. وبناء الجملة على المسند الفعلي لإفادة التخصيص، أي الله لا غيره أنزل من السماء ماء. وإظهار اسم الجلالة دون الإضمار، الذي هو مقتضى الظاهر، لقصد التنويه بالخبر إذ افتتح بهذا الاسم، ولأنّ دلالة الاسم العلم أوضح وأصرح. فهو مقتضى مقام تحقيق الانفراد بالخلق والإنعام دون غيره من شركائهم، لأنّ المشركين يقرّون بأنّ الله هو فاعل هذه الأشياء.

{ **فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** } إخراج ما فيه الحياة، وهو الكلأ والشجر. وموتها ضد ذلك، فتعدية فعل (أحيا) إلى الأرض تعدية مجازية. وقد تقدّم عند قوله تعالى {فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [البقرة:164].

{ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** } مستأنفة. والتأكيد ب { إِنَّ } ولام الابتداء لأنّ من لم يهتد بذلك إلى الوحدانيّة ينكرون صلاحية ذلك للاستدلال. والإتيان باسم الإشارة دون الضمير ليكون محلّ الآية جميع المذكورات، من إنزال المطر وإحياء الأرض به.

السمع: مستعمل هنا في لازم معناه على سبيل الكناية، وهو سماع التدبّر والإنصاف لما تدبّروا به. وهو تعريض بالمشركين الذين لم يفهموا دلالة ذلك على الوحدانيّة.

{ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ }[66]

هذه حجّة أخرى ومنّة من المنن الناشئة عن منافع خلق الأنعام، أدمج فيها العبرة بما في دلالتها على بديع صنع الله. ومناسبة ذكر هذه النعمة هنا أنّ بألبان الأنعام حياة الإنسان كما تحيا الأرض بماء السماء، وأنّ لآثار ماء السماء أثرا في تكوين ألبان الحيوان بالمرعى.

{ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً } معطوفة على جملة { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } [65]، وضمير الخطاب التفات من الغيبة. وتوكيدها بـ { إنّ } ولام الابتداء كتأكيد الجملة قبلها.

{ الْأَنْعَامِ } اسم جمع لكلّ جماعة من أحد أصناف الإبل والبقر والضأن والمعز.

العبرة: ما يُتّعظ به ويُعتبر. وقد تقدّم في نهاية سورة يوسف.

{ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ } واقعة موقع البيان لجملة { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً }.

البطون: جمع بطن، وهو اسم للجوف الحاوية للجهاز الهضمي كلّه من معدة وكبد وأمعاء.

{ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً } {من} زائدة لتوكيد التوسط.

الفرث: الفضلات التي تركها الهضم المعدي فتنحدر إلى الأمعاء فتصير فرثا.

الدم: إفراز تفرزه الكبد من الغذاء المنحدر إليها ويصعد إلى القلب فتدفعه حركة القلب الميكانيكية إلى الشرايين والعروق ويبقى يدور كذلك بواسطة القلب.

ووجه العبرة في ذلك أنّ ما تحتويه بطون الأنعام من العلف والمرعى ينقلب بالهضم في المعدة، ثم الكبد، ثم غدد الضرع، مائعا يسقى وهو مفرز من بين إفراز فرث ودم.

والمعنى: أنّه إفراز ليس هو بدم لأنّه ألين من الدم، ولأنّه غير باق في عروق الضرع كبقاء الدم في العروق، فهو شبيه بالفضلات في لزوم إفرازه، وليس هو بالفضلة لأنّه إفراز طاهر نافع مغذ، وليس قذرا ضارا غير صالح للتغذية كالبول والثفل. وموقع {مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ} موقع الصفة لـ { لبنا } ، قُدّمت عليه للاهتمام بها لأنها موضع العبرة، فكان لها مزيد اهتمام، وقد صارت بالتقديم حالا.

{ خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ }. خلوصه نزاهته مما اشتمل عليه البول والثفل، وسوغه للشاربين سلامته مما يشتمل عليه الدم من المضار لمن شربه، فلذلك لا يسيغه الشارب ويتجهّمه.

وهذا الوصف العجيب من معجزات القرآن العلمية، إذ هو وصف لم يكن لأحد من العرب يومئذ أن يعرف

دقائق تكوينه.

الخالص: المجرّد مما يكدّر صفاءه، فهو الصافي. و**السائغ**: السهل المرور في الحلق.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب { نَسْقِيكُمْ } (بفتح النون) مضارع سقى. وقراه ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف (بضم النون) على أنّه مضارع أسقى، وهما لغتان وقرأه أبو جعفر بمثناة فوقية مفتوحة عوضا عن النون على أنّ الضمير للأنعام.

{ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [67]

{ **وَمِنْ** } وجودها في صدر الكلام يدلّ على تقدير الفعل الذي في الجملة التي قبلها { نُسْقِيكُمْ } [66]. فالتقدير: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب. وليس متعلقا بـ { تَتَّخِذُونَ }، لأنّه يبعد المعنى عن الامتنان بلطف الله تعالى إذ جعل نفسه الساقي للنّاس. وهذا عطف منّه على منة، لأنّ مفاد فعل { نُسْقِيكُمْ } مفاد الامتنان لأنّ السقي مزيّة.

السَكَر (بفتحتين): الشراب المسكر. وهذا امتنان بما فيه لذّتهم المرغوبة لديهم والمتفشيّة فيهم، وذلك قبل تحريم الخمر لأنّ هذه الآية مكية وتحريم الخمر نزل بالمدينة فالامتنان حينئذ بمباح.

الرزق: الطعام، ووصف بـ { **حسنا** } لما فيه من المنافع، وذلك التمر والعنب.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } جعل التذييل عقب ذكر السقيين دون أن يذيّل سقي الألبان بكونه آية. والإشارة إلى جميع ما ذكر من نعمة سقي الألبان وسقي السكر وطعم الثمر. واختير وصف العقل هنا لأنّ دلالة تكوين ألبان الأنعام على حكمة الله تعالى يحتاج إلى تدبّر فيما وصفته الآية هنا، وليس هو ببديهي كدلالة المطر كما تقدم.

{ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ [68] ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [69].

عطف عبرة على عبرة ومنّة على منّة. وغيّر أسلوب الاعتبار لما في هذه العبرة من تنبيه على عظيم حكمة الله تعالى، إذ أودع في خلقة الحشرة الضعيفة هذه الصنعة العظيمة وجعل فيها هذه المنفعة، كما أودع في

الأنعام ألبانها وأودع في ثمرات النخيل والأعناب شرابا، وكان ما في بطون النحل وسطا بين ما في بطون الأنعام وما في قلب الثمار، فإنّ النحل يمتصّ ما في الثمرات والأنوار من المواد السكريّة ثم يخرجه عسلا كما يخرج اللبن من خلاصة المرعى.

{ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ } افتتحت الجملة بفعلَ دون أن تفتتح باسم الجلالة مثل جملة { والله أنزل } [65]، لما في { أَوْحَى } من الإيماء إلى إلهام تلك الحشرة الضعيفة تدبيرا عجيبا وعملا متقنا وهندسة في الجبلّة. فكان ذلك الإلهام في ذاته دليلا على عظيم حكمة الله تعالى، فضلا على ما بعده من دلالة على قدرته.

الوحي: الكلام الخفي والإشارة الدالة على معنى كلامي. ومنه سمّي ما يلقيه الملك إلى الرّسول وحيا لأنّه خفي عن أسماع الناس.

وأطلق الوحي هنا على التكوين الخفيّ الذي أودعه الله في طبيعة النحل، بحيث تنساق إلى عمل منظّم مرتّب بعضه على بعض لا يختلف فيه آحادها، تشبيها بعمل المتعلّم، أو المؤتمر بإرشاد الآمر، فإطلاق الوحي استعارة تمثيليّة.

{ النَّحْلِ } اسم جنس جمعي، واحده نحلة، وهو ذباب له جرم بقدر ضعفي جرم الذباب المتعارف، وأربعة أجنحة، ولون بطنه أسمر إلى الحمرة. وهو ثلاثة أصناف ذكر وأنثى وخنثى، فالذكور هي التي تحرس بيوتها ولذلك تكون محوّمة بالطيران والدوي أمام البيت وهي تلقح الإناث لقاحا به تلد الإناث إناثا.

والإناث هي المسماة اليعاسيب، وهي أضخم جرما من الذكور. ولا تكون التي تلد في البيوت إلّا أنثى واحدة، وهي قد تلد بدون لقاح ذكر، ولكنّها في هذه الحالة لا تلد إلّا ذكورا فليس في أفراخها فائدة لإنتاج الوالدات.

وأما الخنثى فهي التي تفرز العسل، وهي العواسل، وهي أصغر جرما من الذكور وهي معظم سكان بيت النحل.

{ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } أوّل مراتب الصنع الدقيق الذي أودعه الله في طبائع النحل، فإنّها تبني بيوتا بنظام دقيق، ثم تقسّم أجزاءها أقساما متساوية بأشكال مسدّسة الأضلاع بحيث لا يتخلل بينها فراغ تنساب منه الحشرات، لأنّ خصائص الأشكال المسدسة إذا ضمّ بعضها إلى بعض أن تتصل فتصير كقطعة واحدة، ثم تغشي على سطوح المسدّسات بمادة الشمع، وهو مادة دهنيّة متميّعة أقرب إلى الجمود، تتكوّن في كيس دقيق جدّا تحت بطن النحلة العاملة فترفعه النحلة بأرجلها إلى فمها وتمضغه وتضع بعضه لصق بعض لبناء المسدّس المسمّى بالشهد لتمنع تسرب العسل منها.

ولما كانت بيوت النحل معروفة للمخاطبين اكتفى في الاعتبار بها بالتنبيه عليها والتذكير بها.

وأشير إلى أنّها تتخذ في أحسن البقاع من الجبال أو الشجر أو العرش دون بيوت الحشرات الأخرى. وذلك لشرفها بما تحتويه من المنافع، وبما تشتمل عليه من دقائق الصنعة.

{ **مِنَ الْجِبَالِ** } وما عطف عليها بمعنى (في)، لأنّ النحل تبني لنفسها بيوتا ولا تجعل بيوتها جحور الجبال ولا أغصان الشجر ولا أعواد العريش، وليست مثل (من) التي في قوله {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً} [81].

{ **يَعْرِشُونَ** } أي ما يجعلونه عروشا، جمع عريش، وهو مجلس مرتفع على الأرض في الحائط أو الحقل يتخذ من أعواد ويسقّف أعلاه بورق ونحوه ليكون له ظل فيجلس فيه صاحبه مشرفا على ما حوله.

يقال: عرش، إذا بنى ورفع، ومنه سمّي السرير الذي يرتفع عن الأرض ليجلس عليه العظماء عرشا. وتقدم عند قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ } [الأنعام:141]، وقوله تعالى { وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ } [الأعراف [137]. وقرأ جمهور القراء بكسر راء {يعرِشون}. وقرأه ابن عامر بضمها.

{ **ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ** } (ثمّ) للترتيب الرتبي، لأنّ إلهام النحل للأكل من الثمرات يترتّب عليه تكوّن العسل في بطونها، وذلك أعلى رتبة من أتخاذها البيوت لاختصاصها بالعسل دون غيرها من الحشرات التي تبني البيوت، ولأنّه أعظم فائدة للإنسان، ولأنّ منه قوّتها الذي به بقاؤها. وسمّي امتصاصها أكلا لأنّها تقتاته فليس هو بشرب.

{ **الثَّمَرَاتِ** } جمع ثمرة. وأصل الثمرة ما تخرجه الشجرة من غلة. مثل التمر والعنب، والنحل يمتص من الأزهار قبل أن تصير ثمرات، فأطلق في الآية على الأزهار على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الأوْل.

{ **فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً** }عطفت بفاء التفريع للإشارة إلى أنّ الله أودع في طبع النحل عند الرعي التنقل من زهرة إلى زهرة ومن روضة إلى روضة، وإذا لم تجد زهرة أبعدت الانتجاع ثم إذا شبعت قصدت المبادرة بالطيران لترجع إلى بيوتها فتقذف من بطونها العسل الذي يفضل عن قوتها، فذلك السلوك مفرّع على طبيعة أكلها.

والعسل حين القذف به في خلايا الشهد يكون مائعا رقيقا، ثم يأخذ في جفاف ما فيه من رطوبة مياه الأزهار بسبب حرارة الشمع المركّب منه الشهد وحرارة بيت النحل حتّى يصير خاثرا، ويكون أبيض في الربيع وأسمر في الصيف.

السلوك: المرور وسط الشيء من طريق ونحوه. وتقدّم عند قوله تعالى { كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ } [الحجر:12]. ويستعمل في الأكثر متعدّيا كما في آية الحجر بمعنى أسلكه، وقاصرا بمعنى مرّ كما هنا، لأنّ السبل لا تصلح لأنّ تكون مفعول (سلك) المتعدي، فانتصاب {سبل} هنا على نزع الخافض توسّعا.

{ **سُبُلَ رَبِّكِ** } وإضافة السبل إلى { ربّك } للإشارة إلى أنّ النّحل مسخّرة لسلوك تلك السبل.

{ **ذُلُلاً** } جمع ذلول، أي مذلّلة مسخّرة لذلك السلوك. وتقدّم عند قوله تعالى{ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ} [البقرة :71].

{ **يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ ما تقدّم من الخبر عن إلهام النحل تلك الأعمال يثير في نفس السامع أن يسأل عن الغاية من هذا التكوين العجيب، فيكون

مضمون الجملة بيانا لما سأل عنه. وهو أيضا موضع المنّة كما كان تمام العبرة.
وجيء بالفعل المضارع للدلالة على تجدّد الخروج وتكرره.
{ **شَرَابٌ** } وعبّر عن العسل باسم الشراب دون العسل لما يومئ إليه اسم الجنس من معنى الانتفاع به، وهو محلّ المنّة، وليرتّب عليه جملة { فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ }. وسمي شرابا لأنه مائع يشرب شربا ولا يمضغ.
{ **مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ** } لأنّ له مدخلا في العبرة، كقوله تعالى { تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ } [الرعد:4]، فذلك من الآيات على عظيم القدرة ودقيق الحكمة. وفي العسل منافع كثيرة مبيّنة في علم الطب.
{ **فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ** } وجعل الشفاء مظروفا في العسل على وجه الظرفية المجازية. وإيماء إلى أنّه لا يقتضي أن يطّرد الشفاء به في كل حالة من أحوال الأمزجة، أو قد تعرض للأمزجة عوارض تصير غير ملائم لها شرب العسل، كما في حديث : " صدق الله وكذب بطن أخيك".
وتنكير { شِفَاءٌ } في سياق الإثبات لا يقتضي العموم، فلا يقتضي أنّه شفاء من كل داء.
{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** } مثل الجملتين المماثلتين لها. وهو تكرير لتعداد الاستدلال، واختير وصف التفكّر هنا لأنّ الاعتبار بتفصيل ما أجملته الآية في نظام النحل محتاج إلى إعمال فكر دقيق، ونظر عميق.

{ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } [70]

انتقال من الاستدلال بدقائق صنع الله على وحدانيّته إلى الاستدلال بتصرّفه في الخلق، التصرّف الغالب لهم الذي لا يستطيعون دفعه، على انفراده بربوبيتهم وعلى عظيم قدرته. كما دلّ عليه تذييلها بجملة { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ }. فهو خلقهم بدون اختيار منهم ثم يتوفّاهم كرها عليهم أو يردّهم إلى حالة يكرهونها فلا يستطيعون ردا لذلك ولا خلاصا منه، وبذلك يتحقّق معنى العبوديّة بأوضح مظهر.
{ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ** } ابتدئت الجملة باسم الجلالة للغرض الذي شرحناه عند قوله تعالى { وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} [65]. وأما إعادة اسم الجلالة هنا دون الإضمار فلان مقام الاستدلال يقتضي تكرير اسم المستدَل (بفتح الدال) على إثبات صفاته تصريحا واضحا.
وجيء بالمسند فعليا لإفادة تخصيص المسند إليه بالمسند الفعلي في الإثبات. وقد تقدّم نظيره في قوله تعالى {وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً }. فهذه عبرة وهي أيضا منّة، لأنّ الخلق، وهو الإيجاد، نعمة، لشرف الوجود والإنسانيّة، وفي التوفّي أيضا نعم على المتوفى، لأنّ به تندفع آلم الهرم.
الأرذل: تفضيل في الرذالة، وهي الرداءة في صفات الاستياء.
{ **الْعُمُرِ** } مدة البقاء في الحياة، لأنّه مشتقّ من العَمْر، وهو شغل المكان، { وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ

مِمَّا عَمَرُوهَا } [الروم:9]، فإضافة { أَرْذَلِ } إلى { الْعُمُرِ } هي من إضافة الصفة إلى الموصوف على طريقة المجاز العقلي، لأنّ الموصوف بالأرذل حقيقة هو حال الإنسان في عمره لا نفس العمر.

والهرم لا ينضبط حصوله بعدد من السنين، لأنّه يختلف باختلاف الأبدان والبلدان والصحّة والاعتلال على تفاوت الأمزجة المعتدلة، وهذه الرذالة رذالة في الصحّة لا تعلق لها بحالة النفس، فهي مما يعرض للمسلم والكافر فتسمّى أرذل العمر فيهما، وقد استعاذ رسول الله ﷺ من أن يردّ إلى أرذل العمر.

{ **لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً** } ولام التعليل الداخلة على (كي) المصدرية مستعملة في معنى الصيرورة والعاقبة تشبيها للصيرورة بالعلّة، استعارة تشير إلى أنّه لا غاية للمرء في ذلك التعمير، تعريضا بالنّاس، إذ يرغبون في طول الحياة، وتنبيها على وجوب الإقصار من تلك الرغبة.

واستعارة حرف العلّة إلى معنى العاقبة مستعملة في الكلام البليغ في مقام التوبيخ أو التخطئة أو نحو ذلك.

وقد تقدّم القول قريبا في ذلك عند قوله تعالى { إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ } [55].

والمعنى: لكيلا يعلم شيئا بعد أن كان له علم، أي ليزول منه قبول العلم.

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** } تذييل تنبيها على أنّ المقصود من الجملة الدلالة على عظم قدرة الله وعظم علمه. وقدّم وصف العليم لأنّ القدرة تتعلّق على وفق العلم، وبمقدار سعة العلم يكون عظم القدرة.

{ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ }[71]

هذا من الاستدلال على أنّ التصرّف القاهر لله تعالى. وذلك أنّه أعقب الاستدلال بالإحياء والإماتة وما بينهما من هرم، بالاستدلال بالرزق. ولما كان الرزق حاصلا لكل موجود بني الاستدلال على التفاوت فيه.

ووجه الاستدلال به على التصرّف القاهر أنّ الرزق حاصل لجميع الخلق وأن تفاضل النّاس فيه غير جار على رغباتهم ولا على استحقاقهم، فقد تجد أكيس النّاس وأجودهم عقلا وفهما مقترا عليه في الرزق، وبضدّه ترى أجهل النّاس وأقلّهم تدبيرا موسعا عليه في الرزق، وكلا الرجلين قد حصل به ما حصل قهرا عليه.

وذلك لأنّ الأسباب كثيرة متوالدة ومتسلسلة ومتوغّلة في الخفاء حتّى يظنّ أن أسباب الأمرين مفقودة وما هي بمفقودة ولكنها غير محاط بها. ولذلك أسند التفضيل في الرزق إلى الله تعالى لأنّ أسبابه خارجة عن إحاطة عقول البشر، والحكيم لا يستفزّه ذلك. وتفيد وراء الاستدلال معنى الامتنان لاقتضائها حصول الرزق للجميع.

{ **وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ** } مقدّمة للدليل ومنّة من الممن، لأنّ التفضيل في الرزق يقتضي الإنعام بأصل الرزق. وليست الجملة مناط الاستدلال. إنما الاستدلال في التمثيل من قوله تعالى { فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ }. والقول في جعل المسند إليه اسم الجلالة وبناء المسند الفعلي عليه كالقول في قوله تعالى

{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ }. والمعنى: الله لا غيره رزقكم جميعا وفضل بعضكم على بعض في الرزق ولا يسعكم إلّا الإقرار بذلك له.

{ **فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ** } إدماج جاء على وجه التمثيل لتبيان ضلال أهل الشرك حين سوّوا بعض المخلوقات بالخالق فأشركوها في الإلهيّة فسادا في تفكيرهم. فمثّل بطلأنّ عقيدة الإشراك بالله بعض مخلوقاته، بحالة أهل النعمة المرزوقين، لأنّهم لا يرضون أن يشركوا عبيدهم معهم في فضل رزقهم، فكيف يسوّون بالله عبيده في صفته العظمى وهي الإلهية.

والغرض من التمثيل تشنيع مقالتهم واستحالة صدقها بحسب العرف، وقرينة التمثيل والمقصد منه دلالة المقام.

الرّاد: المُعطي. كما في قول النبيء ﷺ: "والخُمُس مردود عليكم"، أي فما هم بمعطين رزقهم لعبيدهم إعطاء مشاطرة بحيث يسوّونهم بهم.

{ **مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** } وإسناد الملك إلى اليمين مجاز عقلي، لأنّ اليمين سبب وهمي للملك، لأنّ سبب الملك إمّا أسر وهو أثر للقتال بالسيف الذي تمسكه اليد اليمنى، وإمّا شراء ودفع الثمن يكون باليد اليمنى عرفا، فهي سبب وهمي ناشئ عن العادة.

{ **فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ** } أي لا يشاطرون عبيدهم رزقهم فيستووا فيه.

{ **أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** } صالحة لأنّ تكون مفرّعة على جملة { وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ } باعتبار ما تضمنته من الامتنان، أي تفضل الله عليكم جميعا بالرزق أفبنعمة الله تجحدون، استفهاما مستعملا في التوبيخ، بحيث أشركوا مع الذي أنعم عليهم آلهة لا حظّ لها في الإنعام عليهم. وذلك جحود النعمة كقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ} [العنكبوت:17]. وعلى هذا الوجه يكون في { يَجْحَدُونَ } على قراءة الجمهور بالتحتية التفات من الخطاب إلى الغيبة. ونكتته أنّهم لمّا كان المقصود من الاستدلال، المشركين فكانوا موضع التوبيخ، ناسب أن يعرض عن خطابهم وينالهم المقصود من التوبيخ بالتعريض.

وقرأ أبو بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب {تَجْحَدُونَ} بالمثناة الفوقية على مقتضى الظاهر ويكون الاستفهام مستعملا في التحذير.

وتصلح جملة { أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } أن تكون مفرّعة على جملة { فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ } ، فيكون التوبيخ متوجها إلى فريق من المشركين وهم الذين فضِّلوا بالرزق وهم أولو السعة منهم وسادتهم وقد كانوا أشدّ كفرا بالدين وتألّبا على للمسلمين، أي أيجحد الذين فضلوا بنعمة الله إذ أفاض عليهم النعمة فيكونوا أشد إشراكا به، كقوله تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً } [المزمل:11].

وعلى هذا الوجه يكون قوله تعالى { يَجْحَدُونَ } في قراءة الجمهور بالتحتية جاريا على مقتضى الظاهر.
وفي قراءة أبي بكر عن عاصم بالمثناة الفوقية التفاتا من الغيبة إلى خطابهم إقبالّا عليهم بالخطاب لإدخال الروع في نفوسهم.
وقد عدي فعل { يَجْحَدُونَ } بالباء لتضمّنه معنى يكفرون.
وتقديم { بِنِعْمَةِ } على متعلقه وهو { يَجْحَدُونَ } للرعاية على الفاصلة.

{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ } [72]

استدلال ببديع الصنع في خلق النسل إذ جعله مقارنا للتّأنّس بين الزوجين. وجعل النسل معروفا متّصلا بأصوله بما ألهم الإنسان من داعية حفظ النسب، فهي من الآيات على انفراده تعالى بالوحدانيّة كما قال تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الروم:21]. فجعلها آية تنطوي على آيات، ويتضمّن ذلك الصنع نعما كثيرة.
{ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ** } القول فيها كالقول في نظيرتيها المتقدمتين.
{ **مِنْ أَنْفُسِكُمْ** } من نوعكم، كقوله تعالى { فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ } [النور:61]. والخطاب بضمير الجماعة المخاطبين موجّه إلى النّاس كلّهم، وغُلّب ضمير التذكير.
الأزواج: جمع زوج، وهو الشيء الذي يصير مع شيء آخر أثنين، فلذا وصف بزوجٍ المرادف لثانٍ. وقد مضى الكلام عليه في قوله تعالى {اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} [البقرة:35]. والوصف بالزوج يؤذن بملازمته لآخر، فلذا سمي بالزوج قرين المرأة وقرينة الرجل.
{ **وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً** } وجعْل البنين للإنسان نعمة، وجعل كونهم من زوجة نعمة أخرى، لأنّ بها تحقّق كونهم أبناءه، ووجود المشارك له في القيام بتدبير أمرهم في حالة ضعفهم.
الحفدة: جمع حافد، مثل كَمَلة جمع كامل. والحافد أصله المسرع في الخدمة. وأطلق على ابن الابن لأنّه يكثر أن يخدم جدّه لضعف الجدّ بسبب الكبر، فأنعم الله على الإنسان بحفظ سلسلة نسبه بسبب ضبط الحلقة الأولى منها، وهي كون أبنائه من زوجه ثم كون أبناء أبنائه من أزواجهم، فانضبطت سلسلة الأنساب بهذا النظام المحكم البديع. وغير الإنسان من الحيوان لا يشعر بحفدته أصلا ولا يشعر بالبنوّة إلّا أنثى الحيوان مدّة قليلة قريبة من الإرضاع. والحفدة للإنسان زيادة في مسرة العائلة، قال تعالى { فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ } [هود:71].
{ **وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** } معطوفة على جملة {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً} وما بعدها، لمناسبة ما في الجمل

المعطوف عليها من تضمّن المنّة بنعمة أفراد العائلة، فإنّ مكمّلاتها سعة الرزق، كما قال تعالى { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ }[آل عمران:15].

ثم الرزق يجوز أن يكون مرادا منه المال كما في قوله تعالى في قصة قارون { وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ } [القصص:82]. وهذا هو الظاهر وهو الموافق لما في الآية المذكورة آنفا.

{ **الطَّيِّبَاتِ** }: صفة لموصوف محذوف دلّ عليه فعل رزقكم، أي الأرزاق الطيّبات. و**الطيّب**: فيعل صفة مبالغة في الوصف بالطيب. والطيب: أصله النزاهة وحسن الرائحة، ثم استعمل في الملائم الخالص من النكد، قال تعالى { فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً } [النحل:97]. واستعمل في الصالح من نوعه كقوله تعالى { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ }، [الأعراف:58].

فالطيبات هنا الأرزاق الواسعة المحبوبة ، أو المطعومات والمشروبات اللذيذة الصالحة. وقد تقدّم ذكر الطيبات عند قوله تعالى { الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ } [المائدة:5]، وذكر الطيب في قوله تعالى { كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّباً } [البقرة:168].

{ **أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ** } استفهام توبيخ على إيمانهم بالباطل البيّن.

الباطل: ضدّ الحقّ لأنّ ما لا يحقّ لا يعبد بحقّ. وتقديم المجرور على متعلّقه للاهتمام بالتعريف بباطلهم.

والالتفات عن الخطاب السابق إلى الغيبيّة في قوله تعالى { أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ } يجري الكلام فيه على نحو ما تقدّم في قوله تعالى { أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ }.

{ **وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ** } مقصد التوبيخ جليّ، وتقديم المجرور للاهتمام، وضميرالفصل { هُمْ يَكْفُرُونَ } لتأكيد الحكم بكفرانهم النعمة، لأنّ كفران النعمة أخفى من الإيمان بالباطل، لأنّ الكفران يتعلق بحالات القلب، فاجتمع في الجملة تأكيدان: التأكيد الذي أفاده التقديم، والتأكيد الذي أفاده ضمير الفصل.

{ **يؤمنون – يَكْفُرُونَ** } الإتيان بالمضارع للدلالة على التجدّد والتكرير. وفي الجمع محسن بديع الطباق.

{ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ}[73]

مزيد من التوبيخ، فإنّ الجملتين المعطوف عليها أفادتها توبيخا على إيمانهم بالآلهة الباطل وكفرانهم بنعمة المعبود الحقّ. وهذه الجملة المعطوفة أفادت التوبيخ على شكر ما لا يستحق الشكر، فإن العبادة شكر، فهم عبدوا ما لا يستحق العبادة ولا بيده نعمة. فمفاد هذه الجملة مؤكد لمفاد ما قبلها مع اختلاف الاعتبار بموجب التوبيخ في كلتيهما.

{ **مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً** } عدم القدرة على إعطائه. والملك يطلق على القدرة، كما تقدّم في قوله تعالى { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ } [المائدة:17].

الرزق: هنا مصدر منصوب على المفعولية، أي لا يملك أن يرزق.

{ **مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ السماوات** } {مِنَ} ابتدائية، أي رزقا موصوفا بوروده من السماوات والأرض.

{ **شَيْئاً** } مبالغة في المنفي، أي ولا يملكون جزاء قليلا من الرزق.فهو في معنى المفعول به، كأنه قيل: لا يملك لهم شيئا من الرزق.

{ **وَلا يَسْتَطِيعُونَ** } ضمير الجمع عائد إلى { **مَا لا يَمْلِكُ** } الموصولة باعتبار دلالتها جماعة الأصنام المعبودة لهم. وأجريت عليها صيغة جمع العقلاء مجاراة لاعتقادهم أنّها تعقل وتشفع وتستجب.

وحذف مفعول { يَسْتَطِيعُونَ } لقصد التعميم، أي لا يستطيعون شيئا لأنّ تلك الأصنام حجارة لا تقدر على شيء. والاستطاعة: القدرة.

{ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُون } [74]

تفريع على جميع ما سبق من الآيات والعبر والمنن، إذ قد استقام من جميعها انفراد الله تعالى بالإلهيّة، ونفي الشريك فيما خلق وأنعم، وبالأولى نفي أن يكون له ولد وأن يشبّه بالحوادث، فلا جرم استتب للمقام أن يفرّع على ذلك زجر المشركين عن تمثيلهم غير الله بالله في شيء من ذلك، وأن يمثّلوه بالموجودات.

{ **الْأَمْثَالَ** } هنا جمع مَثل (بفتحتين) بمعنى المماثل، كقولهم: شَبَه بمعنى مشابه. وضرب الأمثال شاع استعماله في تشبيه حالة بحالة وهيئة بهيئة، وهو هنا استعمال آخر.

{ **فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ** } ووجه كون الإشراك ضرب مثل لله أنّهم أثبتوا للأصنام صفات الإلهية وشبهوها بالخالق. وقد كانوا يقولون عن الأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله، والملائكة هنّ بنات الله من سروات الجنّ، فذلك ضرب مثل وتشبيه لله بالحوادث في التأثر بشفاعة الأكفاء والأعيان والاحتياج للبنين.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ** } تعليل للنهي عن تشبيه الله تعالى بالحوادث، وتنبيه على أنّ جهلهم هو الذي أوقعهم في تلك السخافات من العقائد، وأنّ الله إذ نهاهم وزجرهم عن أن يشبّهوه بما شبَّهوه إنّما نهاهم لعلمه ببطلان اعتقادهم.

{ **وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُون** } استدعاء لإعمال النظر الصحيح ليصلوا إلى العلم البريء من الأوهام.

{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ} [75].

أعقب زجرهم عن أن يشبّهوا الله بخلقه أو أن يشبّهوا الخلق بربّهم بتمثيل حالهم في ذلك بحال من مثّل عبدا بسيّده في الإنفاق. فشبّه حال أصنامهم في العجز عن رزقهم بحال مملوك لا يقدر على التصرّف في نفسه ولا يملك مالا، وشبّه شأن الله تعالى في رزقه إيّاهم بحال الغنيّ المالك أمر نفسه بما شاء من إنفاق وغيره. والمقصود نفي المماثلة بين الحالتين، فكيف يزعمون مماثلة أصنامهم لله تعالى في الإلهية، ولذلك أعقب بجملة { هَلْ يَسْتَوُونَ }.

العبد: الإنسان الذي يملكه إنسان آخر بالأسر أو بالشراء أو بالإرث.

{ **مَمْلُوكا** } وصف للعبد، تأكيدا للمعنى المقصود وإشعارا لما في لفظ عبد من معنى المملوكيّة المقتضية أنّه لا يتصرّف في عمله تصرف الحريّة.

{ **لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ** } صفة، أي عاجزا عن كلّ ما يقدر عليه النّاس. فهذا مثل لأصنامهم، كما قال تعالى {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ } [النحل:21- 20]، وقوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً } [العنكبوت:17].

{ **وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً** } {مِنْ} موصولة ما صدْقها **حُرٌّ**، بقرينة أنّه وقع في مقابلة عبد مملوك، وأنّه وصف بالرزق الحسن، فهو ينفق منه سرّا وجهرا، أي كيف شاء. وهذا من تصرّفات الأحرار. لأنّ العبيد لا يملكون رزقا في عرف العرب.

الرزق: هنا اسم للشيء المرزوق به.

الحسن: الذي لا يشوبه قبح في نوعه، مثل قلّة وجدان وقت الحاجة.

{ **فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ** } مفرّعة على التي قبلها دون أن تجعل صفة للرزق، للدلالة على أنّ مضمون كلتا الجملتين مقصود لذاته كمال في موصوفه، فكونه صاحب رزق حسن كمال، وكونه يتصرف في رزقه بالإعطاء كمال آخر، وكلاهما بضد نقائص المملوك الذي لا يقدر على شيء.

وجعْل المسند فعلا للدلالة على التقوّي، أي ينفق إنفاقا ثابتا. وجعْل الفعل مضارعا للدلالة على التجدّد والتكرّر، أي ينفق ويزيد.

{ **سِرّاً وَجَهْراً** } حالان من ضمير { يُنْفِقُ }، وهما مصدران مؤوّلان بالصفة، أي مسرّا وجاهرا بإنفاقه. والمقصود من ذكرهما تعميم الإنفاق، كناية عن استقلال التصرّف. وهذا مثل لغنى الله تعالى وجوده.

{ **هَلْ يَسْتَوُونَ** } بيان لجملة { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً} فبيّن غرض التشبيه بأنّ المثل مراد منه عدم تساوي الحالتين. والاستفهام مستعمل في الإنكار. وجاءت صيغة الجمع لمراعاة أصحاب الهيئة المشبّهة، لأنّها أصنام كثيرة كل واحد منها مشبّه بعبد مملوك لا يقدر على شيء، فصيغة الجمع هنا تجريد للتمثيليّة، أي هل يستوي أولئك مع الإله الحقّ القادر المتصرّف. وإنّما أجري ضمير جمعهم على صيغة جمع العالم تغليبا لجانب أحد

التمثيلين وهو جانب الإله القادر.

{ **الْحَمْدُ لِلَّهِ** } معترضة بين الاستفهام المفيد للنفي وبين الإضراب بـ { بَلْ } الانتقالية. والمقصود من هذه الجملة أنّه تبين من المثل اختصاص الله بالإنعام، فوجب أن يختصّ بالشكر.

ولما كان الحمد مظهرا من مظاهر الشكر في مظهر النطق جُعل كناية عن الشكر هنا، إذ كان الكلام على إخلال المشركين بواجب الشكر إذ أثنوا على الأصنام وتركوا الثناء على الله، جيء بهذه الجملة البليغة الدلالة المفيدة انحصار الحمد في ملك الله تعالى، وهو إمّا حصر ادعائي لأنّ الحمد إنّما يكون على نعمة، وغير الله إذا أنعم فإنّما إنعامه مظهر لنعمة الله تعالى التي جرت على يديه، كما تقدّم في صدر سورة الفاتحة، وإمّا قصر إضافي قصرَ إفراد، للردّ على المشركين إذ قسّموا حمدهم بين الله وبين آلهتهم.

{ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } إضراب للانتقال من الاستدلال عليهم إلى تجهيلهم في عقيدتهم.

وأسند نفي العلم إلى أكثرهم لأنّ منهم من يعلم الحقّ ويكابر استبقاء للسيادة واستجلابا لطاعة دهمائهم، فهذا ذم لأكثرهم بالصراحة، وهو ذم لأقلّهم بوصمة المكابرة والعناد بطريق التعريض. وهذا نظير قوله تعالى {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ }[الزمر [29].

{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }[76]

هذا تمثيل ثان للحالتين بحالتين باختلاف وجه الشبه. الأولى، حال الأبكم، وهو العجز عن الإدراك، وعن العمل، وتعذّر الفائدة منه في سائر أحواله. والثانية، حال الرجل كامل العقل والنطق في إدراكه الخير وهديه إليه.

وهذا التمثيل ضربه الله مثلا لكماله وإرشاده النّاس إلى الحق، ومثلا للأصنام الجامدة التي لا تنفع ولا تضرّ.

وقد قرن في التمثيل هنا حال الرجلين ابتداء، ثم فصل في آخر الكلام مع ذكر عدم التسوية بينهما بأسلوب من نظم الكلام بديع الإيجاز، إذ حذف من صدر التمثيل ذكر الرجل الثاني للاقتصار على ذكره في استنتاج عدم التسوية، تفنّنا في المخالفة بين أسلوب هذا التمثيل وأسلوب سابقه الذي في قوله تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً } [75]. ومثل هذا التفنّن من مقاصد البلغاء كراهية للتكرير، لأنّ تكرير الأسلوب بمنزلة تكرير الألفاظ.

الأبكم: الموصوف بالبَكَم (بفتح الباء والكاف) وهو الخرس في أصل الخلقة من وقت الولادة بحيث لا يَفهَم ولا يُفهِم. وزيد في وصفه أنّه زمِنٌ لا يقدر على شيء. وتقدّم عند قوله تعالى {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ} [البقرة:18].

الكَلّ: (بفتح الكاف) العالة على النّاس. وفي الحديث: " من ترك كلّا فعلينا "، أي من ترك عيالا فنحن نكلفهم. وأصل الكلّ: الثّقَل. ونشأت عنه معان مجازيّة اشتهرت فساوت الحقيقة.

المولى: الذي يلي أمر غيره. والمعنى: هو عالة على كافله لا يدبّر أمر نفسه.

{ **أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ** } زاد فوصفه بقلّة الجدوى، أي لا يهتدي إلى ما وجّه إليه.

{ **يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ** } دلّت الصلة على أنّه حكيم عالم بالحقائق ناصح للنّاس يأمرهم بالعدل، لأنّه لا يأمر بذلك إلّا وقد علمه وتبصّر فيه. و**العدل**: الحقّ والصواب الموافق للواقع.

الصراط المستقيم: المحجّة التي لا التواء فيها. وأطلق هنا على العمل الصالح، لأنّ العمل يشبه بالسيرة والسلوك فإذا كان صالحا كان كالسلوك في طريق موصِلة للمقصود واضحة.

فالأول مثل الأصنام الجامدة التي لا تفقه وهي محتاجة إلى من يحرسها وينفض عنها الغبار والوسخ، والثاني مثل لكماله تعالى في ذاته وإفاضته الخير على عباده.

{ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[77]

كان ممّا حكي من مقالات كفرهم أنّهم أقسموا بالله لا يبعث الله من يموت، لأنّهم توهّموا أنّ إفناء هذا العالم العظيم وإحياء العظام وهي رميم أمر مستحيل، وأبطل الله ذلك على الفور بأنّ الله قادر على كل ما يريده.

ثم انتقل الكلام عقب ذلك إلى بسط الدلائل على الوحدانيّة والقدرة، وتسلسل البيان وتفنّنت الأغراض بالمناسبات، فكان من ذلك تهديدهم بأنّ الله لو يؤاخذ النّاس بظلمهم ما ترك على الأرض من دابة، ولكنّه يمهلهم ويؤخّرهم إلى أجل عيّنه في علمه لحكمته، وحذرهم من مفاجأته، فثنّى عِنان الكلام إلى الاعتراض بالتذكير بأنّ الله لا يخرج من قدرته أعظم فعل مما غاب عن إدراكهم، وأنّ أمر الساعة التي أنكروا إمكانها وغرّهم تأخير حلولها هي ممّا لا يخرج عن تصرّف الله ومشيئته متى شاءه. فذلك قوله تعالى { وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }. بحيث لم يغادر شيئا مما حكي عنهم من كفرهم وجدالهم إلّا وقد بيّنه لهم استقصاء للأعذار لهم. ومن مقتضيات تأخير هذا أنّه يشتمل بصريحه على تعليم، وبإيمائه إلى تهديد وتحذير.

{ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } اللام لام الملك. وتقديم المجرور أفاد الحصر، أي له لا لغيره. ولام الملك أفادت الحصر، فيكون التقديم مفيدا تأكيد الحصر أو هو للاهتمام.

الغيب: مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي الأشياء الغائبة. وتقدّم في قوله { الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } [البقرة:3]. وهو الغائب عن أعين النّاس من الأشياء الخفيّة والعوالم التي لا تصل إلى مشاهدتها حواس المخلوقات الأرضيّة. والإخبار بأنّها ملك لله يقتضي بطريق الكناية أيضا أنّه عالم بها.

{ **أَمْرُ السَّاعَةِ** } شأنها العظيم. فالأمر: الشأن المهمّ، كما في قوله تعالى { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [1].

السَّاعَةِ: عَلم بالغلبة على وقت فناء العالم، وهي من جملة غيب الأرض.

لمح البصر: اللمح هو النظر. ووجه الشبه هو كونه مقدورا بدون كلفة، لأنّ لمح البصر هو أمكن وأسرع حركات الجوارح فهو أيسر وأسرع من نقل الأرجل في المشي ومن الإشارة باليد.

ويجوز أن يكون وجه الشبه السرعة، أي سرعة الحصول عند إرادة الله، أي يحصل فجأة بدون أمارات كقوله تعالى { لا تَأْتِيكُمْ إِلّا بَغْتَةً } [ألأعراف:187].

والمقصود: إنذارهم وتحذيرهم من أن تبغتهم الساعة ليقلعوا عمّا هم فيه من وقت الإنذار.

{ **أَوْ هُوَ أَقْرَبُ** }، {أَوْ} للإضراب الانتقالي، إضرابا عن التشبيه الأوّل، بأنّ المشبّه أقوى في وجه الشبه من المشبّه به.

وهو كناية عن كونه في المقدورية بمنزلة الشيء القريب التناول كقوله تعالى { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } [قّ:16].

{ **إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** } تذييل صالح لكلا التفسيرين؛ القدرة والسرعة.

{ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [78]

عود إلى إكثار الدلائل على انفراد الله بالتصرّف، وإلى تعداد النعم على البشر عطفا على جملة { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً} [72] بعدما فصل بين تعداد النعم بما اقتضاه الحال من التذكير والإنذار.

وقد اعتبر في هذه النّعم ما فيها من لطف الله تعالى بالنّاس ليكون من ذلك التخلّص إلى الدعوة إلى الإسلام وبيان أصول دعوته في قوله تعالى { كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } [81] إلى آخره.

والمعنى: أنّه كما أخرجكم من عدم وجعل فيكم الإدراك وما يتوقّف عليه الإدراك من الحياة فكذلك ينشئكم يوم البعث بعد العدم.

وإذ كان هذا الصنع دليلا على إمكان البعث فهو أيضا باعث على شكر الله بتوحيده ونبذ الإشراك، فإنّ الإنعام يبعث العاقل على الشكر.

{ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ** } وافتتاح الكلام باسم الجلالة وجعل الخبر عنه فعلا تقدّم بيانه عند قوله تعالى { وَاللَّهُ أَنْزَلَ

مِنَ السَّمَاءِ مَاءً } [65].

الإخراج: الإبراز من مكان إلى آخر.

الأمّهات: جمع أمّ. وقد تقدّم عند قوله تعالى { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ } [النساء:23].

{ **لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً** } حال من الضمير في { أَخْرَجَكُمْ }. وذلك أنّ الطفل حين يولد لم يكن له علم بشيء ثم تأخذ حواسه تنقل الأشياء تدريجا، فجعل الله في الطفل آلات الإدراك وأصول التفكّر.

{ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ** } أي أوجد فيكم إدراك السمع والبصر والعقل، أي كونها في النّاس حتّى بلغت مبلغ كمالها الذي ينتهي بها إلى علم أشياء كثيرة.

{ **السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ** } أفرد { السَّمْعَ } لأنّه مصدر فهو دال على الجنس الموجود في جميع حواس النّاس. وأمّا {الْأَبْصَارَ} فجي به جمعا لأنّه اسم، فهو ليس نصّا في إفادة العموم لاحتمال توهّم بصر مخصوص، فكان الجمع أدلّ على قصد العموم وأنفى لاحتمال العهد ونحوه، بخلاف قوله { إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً} [الإسراء: 36]، لأنّ المراد الواحد لكلّ مخاطب بقوله { وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [الإسراء: 36].

{ **الْأَفْئِدَةَ** } جمع الفؤاد، وأصله القلب. ويطلق كثيرا على العقل وهو المراد هنا. فالسمع والبصر أعظم آلات الإدراك إذ بهما إدراك أهم الجزئيّات، وهما أقوى الوسائل لإدراك العلوم الضروريّة.

واقتصر عليهما من بين الحواس لأنهما أهم، ولأنّ بهما إدراك دلائل الاعتقاد الحق. ثم ذكر بعدهما الأفئدة، أي العقل مقرّ الإدراك كلّه، فهو الذي تنقل إليه الحواس مدركاتها، وهي العلم بالتصوّرات المفردة.

وللعقل إدراك آخر وهو إدراك اقتران أحد المعلومين بالآخر، وهو التصديقات المنقسمة إلى:

البديهيّات: ككون نفي الشيء وإثباته من سائر الوجوه لا يجتمعان، وككون الكلّ أعظم من الجزء.

النظريات: وتسمّى الكسبيّات، وهي العلم بانتساب أحد المعلومين إلى الآخر بعد حركة العقل في الجمع بينهما أو التفريق. فالعلوم الكسبية لا يمكن اكتسابها إلّا بواسطة العلوم البديهيّة. وحصول هذه العلوم البديهية إنّما يحصل عند حدوث تصوّر موضوعاتها وتصور محمولاتها. وحدوث هذه التصورات إنّما هو بسبب إعانة الحواس على جزئيّاتها، فكانت الحواس الخمس هي السبب الأصلي لحدوث هذه العلوم، وكان السمع والبصر أوّل الحواس تحصيلا للتصورات وأهمّها.

{ **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** } لأنّ هذه العلوم نعمة من الله تعالى ولطف، أي هي سبب لرجاء شكرهم واهبها سبحانه.

{ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [79]

موقع هذه الجملة موقع التعليل والتدليل على عظيم قدرة الله وبديع صنعه وعلى لطفه بالمخلوقات، فإنّه لمّا ذكر موهبة العقل والحواس التي بها تحصيل المنافع ودفع الأضرار نبّه النّاس إلى لطف يشاهدونه أجلّى مشاهدة لأضعف الحيوان، بأنّ تسخير الجوّ للطير وخلقها صالحة لأنّ ترفرف فيه بدون تعليم هو لطف بها اقتضاه ضعف بنياتها، إذ كانت عادمة وسائل الدفاع عن حياتها.

فلأجل هذا الموقع لم تعطف الجملة على التي قبلها لأنّها ليس في مضمونها نعمة على البشر، ولكنّها آية على قدرة الله تعالى وعلمه، بخلاف نظيرتها { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ }[الملك:19] فإنّها عطفت على آيات دالة على قدرة. ولذلك المعنى عقّبت هذه وحدها بجملة { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }.

{ **أَلَمْ يَرَوْا** } الاستفهام إنكاري. معناه: إنكار انتفاء رؤيتهم الطير مسخرات في الجو بتنزيل رؤيتهم إيّاها منزلة عدم الرؤية، لانعدام فائدة الرؤية من إدراك ما يدلّ عليه المرئي من انفراد الله تعالى بالإلهية.

الرؤية: بصرية. وفعلها يتعدى بنفسه، فتعديته بحرف (إلى) لتضمين الفعل معنى (ينظروا).

التسخير: التذليل للعمل. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ } [الأعراف:54].

الجَوّ: الفضاء الذي بين الأرض والسماء. وإضافته إلى السماء لأنّه يبدو متّصلا بالقبة الزرقاء.

الإمساك: الشدّ عن التفلّت. وتقدّم في قوله تعالى { فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ } [البقرة:229].

وإمساك الله إيّاها خلقه الأجنحة لها والأذناب، وجعله الأجنحة والأذناب قابلة للبسط، وخلق عظامها أخف من عظام الدواب بحيث إذا بسطت أجنحتها وأذنابها ونهضت بأعصابها خفت خفة شديدة فسبحت في الهواء فلا يصلح ثقلها لأنّ يخرق ما تحتها من الهواء إلّا إذا قبضت من أجنحتها وأذنابها وقوست أعصاب أصلابها عند إرادتها النزول إلى الأرض أو الانخفاض في الهواء. فهي تحوم في الهواء كيف شاءت ثم تقع متى شاءت أو عييت. فلولا أنّ الله خلقها على تلك الحالة لما استمسكت، فسمي ذلك إمساكا على وجه الاستعارة.

{ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } مستأنفة استئنافا بيانيا، والتأكيد بـ { إِنَّ } مناسب لاستفهام الإنكار على الذين لم يروا تلك الآيات، فأكدت الجملة الدالة على انتفاع المؤمنين بتلك الدلالة، لأنّ الكلام موجّه للذين لم يهتدوا بتلك الدلالة، فهم بمنزلة من ينكر أنّ في ذلك دلالة للمؤمنين، لأنّ المشركين ينظرون بمرآة أنفسهم.

وبين الإنكار عليهم عدم رؤيتهم تسخير الطير وبين إثبات رؤية المؤمنين محسن الطباق. وبين نفي عدم رؤية المشركين وتأكيد إثبات رؤية المؤمنين لذلك محسن الطباق أيضا. وبين ضمير { يروا } وقوله { لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } التضاد أيضا، فحصل الطباق ثلاث مرات. وهذا أبلغ طباق جاء محويا للبيان.

{ **لَآياتٍ** } وجمع الآيات لأنّ في الطير دلائل مختلفة: من خلقة الهواء، وخلقة أجساد الطير مناسبة للطيران في الهواء، وخلق الإلهام للطير بان يسبح في الجو، وبأن لا يسقط إلى الأرض إلّا بإرادته. وخصّت الآيات

بالمؤمنين لأنّهم بخلُق الإيمان قد ألفوا إعمال تفكيرهم في الاستدلال على حقائق الأشياء، بخلاف أهل الكفر فإن خلُق الكفر مطبوع على النفرة من الاقتداء بالناصحين وعلى مكابرة الحق.

{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ }[80]

هذا من تعداد النعم التي ألهم الله إليها الإنسان، وهي نعمة الفكر بصنع المنازل الواقية والمرفّهة وما يشبهها من الثياب والأثاث عطفا على جملة { وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً } [78]. وكلّها من الألطاف التي أعدّ الله لها عقل الإنسان وهيّأ له وسائلها.

وذلك أصل حفظ النوع من غوائل حوادث الجوّ من شدة برد أو حرّ ومن غوائل السباع والهوام. وهي أيضا أصل الحضارة والتمدّن، لأنّ البلدان ومنازل القبائل تتقوّم من اجتماع البيوت.

{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ } القول في نظمها كالقول في التي قبلها.

{ بُيُوتِكُمْ } يجوز فيه ضم الباء وكسرها، وهو جمع بيت. وضم الباء هو القياس لأنّه على وزن فعول. وأمّا لغة الكسر فلمناسبة وقوع الياء التحتية بعدها، لأنّ الانتقال من حركة الضم إلى النطق بالياء ثقيل. وبالكسر قرأ الجمهور. وقرأها بالضم أبو عمرو وورش عن نافع و حفص عن عاصم.

وقد تقدّم ذكر البيت عند قوله تعالى { وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً } [البقرة:125].

{ جَعَلَ } هنا بمعنى أوجد، فتتعدّى إلى مفعول واحد.

{ مِنْ بُيُوتِكُمْ } بيان للسكن، فتكون {مِنْ} بيانيّة.

السكن: اسم بمعنى المسكون. والسكنى: مصدر سكن فلان البيت. إذا جعله مقرا له، وهو مشتق من السكون، أي القرار. وأصل التركيب: والله جعل لكم بيوتكم سكنا.

{ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً } وخُصّ بالذكر القباب والخيام لأنّ القباب من أدم والخيام من منسوج الأوبار والأصواف والأشعار، وهي ناشئة من الجلد، لأنّ الجلد هو الإهاب بما عليه، فإذا دبغ وأزيل منه الشعر فهو الأديم. وهذا امتنان خاص بالبيوت القابلة للانتقال والارتحال، والبشر كلّهم لا يعدون أن يكونوا أهل قرى أو قبائل رحلا.

{ تَسْتَخِفُّونَهَا } السين والتاء للوجدان، أي تجدونها خفيفة، أي خفيفة المخمل حين ترحلون، إذ يسهل نقضها من مواضعها وطيّها وحملها على الرواحل، وحين تنيخون إناخة الإقامة في الموضع المنتقل إليه فيسهل ضربها وتوثيقها في الأرض.

الظعن: (بفتح الظاء والعين وتسكن العين). وقد قرأه بالأول نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب،

وبالثاني الباقون، وهو **السفر**. وأطلق **اليوم** هنا على الحين والزمن، أي **وقت سفركم**.

الأثاث: (بفتح الهمزة) اسم جمع للأشياء التي تفرش في البيوت من وسائد وبسط وزرابي، وكلّها تنسج أو تحشى بالأصواف والأشعار والأوبار.

المتاع: أعم من الأثاث، فيشمل الأعدال و الخطم و الرحائل و اللبود والعقل. فالمتاع: ما يُتمتّع به وينتفع، وهو مشتق من المتع، وهو الذهاب بالشيء. والمقصود الوعظ بأنّها أو أنّهم صائرون إلى زوال.

{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } [81]

هذا امتنان بنعمة الإلهام إلى التوقّي من أضرار الحرّ والقُرّ في حالة الانتقال، أُعقبت به المنّة بذلك في حال الإقامة والسكنى، وبنعمة خلق الأشياء التي يكون بها ذلك التوقّي باستعمال الموجود وصنع ما يحتاج إليه الإنسان من اللباس، إذ خلق الله الظلال صالحة للتوقّي من حر الشمس، وخلق الكهوف في الجبال ليمكن اللجأ إليها، وخلق مواد اللباس مع الإلهام إلى صناعة نسجها، وخلق الحديد لاتخاذ الدروع للقتال.

الظلال: تقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى { يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ } [48].

الأكنان: جمع كِنّ - بكسر الكاف - وهو فعل بمعنى مفعول، أي مكنون فيه، وهي الغيران والكهوف. كانوا يأوون إلى الكهوف في شدّة حرّ الهجير أو عند اشتداد المطر، كما ورد في حديث الثلاثة الذين سألوا الله بأفضل أعمالهم في صحيح البخاري.

السرابيل: جمع سربال، وهو القميص يقي الجسد حرّ الشمس، كما يقيه البرد. وخصّ الحرّ هنا لأنّه أكثر أحوال بلاد المخاطبين في وقت نزولها.

{ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ } هي دروع الحديد. ولها من أسماء القميص الدرع، والسربال، والبدن.

البأس: الشدّة في الحرب. وإضافتة إلى الضمير على معنى التوزيع، أي تقي بعضكم بأس بعض، كما فسّر به قوله تعالى { وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } [الأنعام:65]، وقال تعالى {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} [الحديد:25]، وهو بأس السيوف، وقوله { وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ } [الانبياء:80].

{ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } تذييل لما ذكر من النعم، والمشار إليه هو ما في النعم المذكورة من الإتمام.

{ **لَعَلَّكُمْ** } للرجاء، استعملت في معنى الرغبة، أي رغبة في أن تسلموا، أي تتبعوا دين الإسلام. وتقدّم تأويل معنى الرجاء في كلام الله تعالى من سورة البقرة.

{ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ }[82]

تفريع على جملة { لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ } وقع اعتراضا بين { كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ } [81] وجملة { وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً } [84]. وقد حوّل الخطاب عنهم إلى خطاب النبيء ﷺ، وهو نوع من الالتفات من أسلوب إلى أسلوب، والتفات عمن كان الكلام موجها إليه بتوجيه الكلام إلى شخص آخر.

والمقصود: تسلية النبيء ﷺ على عدم استجابتهم.

التولّي: الإعراض. وفعل { تَوَلَّوْا } هنا بصيغة الماضي، أي فإن أعرضوا عن الدعوة فلا تقصير منك ولا غضاضة عليك فإنك قد بلغت البلاغ المبين للمحجّة.

{ **فَإِنَّمَا عَلَيْكَ** } القصر إضافي، أي ما عليك إلّا البلاغ لا تقليب قلوبهم إلى الإسلام، كقوله تعالى { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } [الرعد:40].

ونظير هذه قوله تعالى { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ } [المائدة:92].

{ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ } [83]

استئناف بياني لأنّ تولّيهم عن الإسلام مع وفرة أسباب اتّباعه يثير سؤالًا في نفس السامع: كيف خفيت عليهم دلائل الإسلام؟ فيجاب بأنّهم عرفوا نعمة الله ولكنّهم أعرضوا عنها إنكارا ومكابرة. ويجوز أن تجعلها حالا من ضمير { تَوَلَّوْا }. ويجوز أن تكون بدل اشتمال لجملة { تَوَلَّوْا }.

وهذه الوجوه كلها تقتضي عدم عطفها على ما قبلها. والمعنى: هم يعلمون نعمة الله المعدودة عليهم، فإنّهم منتفعون بها، ومع تحقّقهم أنّها نعمة من الله ينكرونها، أي ينكرون شكرها.

{ **ثُمَّ** } للتراخي الرتبي، ولما كانت كذلك زال عنها معنى المهلة الزمانية الموضوعة له، فبقي لها معنى التشريك، وصارت المهلة مهلة رتبية لأنّ إنكار نعمة الله أمر غريب.

وإنكار النعمة يستوي فيه جميع المشركين أيمّتهم ودهماؤهم، ففريق من المشركين وهم أيمّة الكفر شأنهم التعقّل والتأمّل فإنّهم عرفوا النعمة بإقرارهم بالمنعم وبما سمعوا من دلائل القرآن حتّى تردّدوا وشكوا في دين الشرك ثم ركبوا رؤوسهم وصمّموا على الشرك. ولهذا عبّر عن ذلك بالإنكار المقابل للإقرار.

{ **وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ** } الظاهر أنّ الذين وصفوا بأنّهم الكافرون هم غالب المشركين لا جميعهم، فيحمل

المراد بالغالب على دهماء المشركين، فإنّ معظمهم بسطاء العقول بعداء عن النظر فهم لا يشعرون بنعمة الله، فإن نعمة الله تقتضي إفراده بالعبادة، فكان إشراكهم راسخا، بخلاف عقلائهم وأهل النظر فإنّ لهم تردّدا في نفوسهم ولكن يحملهم على الكفر حبّ السيادة في قومهم. وهم الذين قال الله تعالى فيهم { فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } [الأنعام:33].

{ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ }[84]

الواو عاطفة جملة { يَوْمَ نَبْعَثُ } على جملة { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ } [82] بتقدير: واذكر يوم نبعث من كل أمّة شهيدا. فالتذكير بذلك اليوم من البلاغ المبين. والمعنى: فإن تولّوا فإنما عليك البلاغ المبين، وسنجازي يوم نبعث من كل أمة شهيدا عليها. ذلك أنّ وصف شهيد يقتضي أنّه شاهد على المؤمنين به وعلى الكافرين، أي شهيد لأنّه بلغهم رسالة الله.

الشهيد: الشاهد. وقد تقدّم نظيره عند قوله تعالى { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ } [النساء:41].

البعث: إحضاره في الموقف. وبعث شهيد من كل أمّة يفيد أنّ محمدا ﷺ شهيد على هؤلاء الكافرين كما سيجيء عقبه. وبذلك انتظم أمر العطف والتخلّص إلى وصف يوم الحساب وإلى التنويه بشأنه.

{ ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ }، { ثُمَّ } للترتيب الرتبي، لأنّ إلجامهم عن الكلام مع تعذّر الاستعتاب أشدّ هولا من الإتيان بالشهيد عليهم. وليست للتراخي في الزمن، لأنّ عدم الإذن لهم مقارن لبعث الشهيد عليهم. والمعنى: لا يؤذن لهم بالمجادلة عن أنفسهم.

ويجوز أن يكون نفي الإذن كناية عن الطرد كما كان الإذن كناية عن الإكرام، كما في حديث جرير بن عبد الله: " ما استأذنت رسول الله منذ أسلمت إلّا أذن لي " .

الاستعتاب: أصله طلب العُتبى، والعتبى: الرضى بعد الغضب. يقال: استعتب فلان فلانا فأعتبه، إذا أرضاه، قال تعالى { وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ } [فصلت:24].

وعطف { وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } على { لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا } وإن كان أخصّ منه، فهو عطف خاص على عام، للدلالة على أنّهم مأيوس من الرضى عنهم عند سائر أهل الموقف بحيث يعلمون أن لا طائل في استعتابهم، فلذلك لا يشير أحد عليهم بأن يستعتبوا. فإن جعلت { لا يُؤْذَنُ } كناية عن الطرد فالمعنى: أنّهم يطردون ولا يجدون من يشير عليهم بأن يستعتبوا.

{ وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ } [85]

عطف على { ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا } [84].

{ وَإِذَا رَأَى } شرطية ظرفية. وجملة { فَلا يُخَفَّفُ } جواب {إذَا} وقرن بالفاء لتأكيد معنى الشرطية والجوابية لدفع احتمال الاستئناف.
{ الَّذِينَ ظَلَمُوا } هم الذين كفروا، فالتعبير به من الإظهار في مقام الإضمار لقصد إجراء الصفات المتلبسين بها عليهم. والمعنى: فلا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون، ثم يساقون إلى العذاب فإذا رأوه لا يخفف عنهم، أي يسألون تخفيفه أو تأخير الإقحام فيه فلا يستجاب لهم شيء من ذلك.
{ الْعَذَابَ } أطلق العذاب على آلاته ومكانه.
{ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ } جاء المسند إليه مخبرا عنه بالجملة الفعلية، لأنّ الإخبار بالجملة الفعلية عن الاسم يفيد تقوّي الحكم، أي أنّ عدم تخفيف العذاب عنهم محقّق الوقوع لا طماعية في إخلافه، فحصل تأكيد هذه الجملة كما حصل تأكيد الجملة التي قبلها بالفاء.

{ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ [86] وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ }[87].
{ الَّذِينَ أَشْرَكُوا } هم الذين ظلموا الذين يرون العذاب، وهم الذين كفروا الذين لا يؤذن لهم. وإجراء هذه الصلات الثلاث عليهم لزيادة التسجيل عليهم بأنواع إجرامهم الراجعة إلى تكذيب ما دعاهم الله إليه، وهو نكتة الإظهار في مقام الإضمار هنا.
فالإشراك المقصود هنا هو إشراكهم الأصنام في صفة الإلهيّة مع الله تعالى، فيتعيّن أن يكون المراد بالشركاء الأصنام. والمعنى: أنهم يرون الأصنام حين تقذف معهم في النار، { وَقُودُهَا النّاس وَالْحِجَارَةُ } [البقرة:24].
{ رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا } إمّا من قبيل الاعتراف عن غير إرادة، فضحا لهم، كقوله تعالى { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ} [النور:24]، وإمّا من قبيل التنصّل وإلقاء التبعة على المعبودات، كأنّهم يقولون هؤلاء أغرونا بعبادتهم من قبيل قوله تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا } [البقرة:167].
{ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } الفاء للتعقيب للدلالة على المبادرة بتكذيب ما تضمّنه مقالهم، أنطق الله تلك الأصنام فكذبت ما تضمّنه مقالهم من كون الأصنام شركاء لله، أو من كون عبادتهم بإغراء منها تفضيحا لهم وحسرة عليهم.
ولمّا كان نطق الأصنام غير جار على المتعارف عبر عنه بالإلقاء المؤذن بكون القول أجراه الله على أفواه الأصنام من دون أن يكونوا ناطقين. وهو مجاز عقلي لأنّها مظهره. وأجرى عليهم ضمير جمع العقلاء في فعل (ألقوا) مشاكلة لاسم الإشارة واسم الموصول للعقلاء.
{ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } بدل من {القول}. ووصفهم بالكذب متعلّق بما تضمّنه كلامهم أنّ أولئك آلهة يدعون من دون

الله على نحو ما وقع في الحديث: " فيقال للنصارى:ما كنتم تعبدون، فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ الله من ولد".

{ **وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ** } أعيد فعل {أَلْقَوْا} لاختلاف فاعل الإلقاء، لأنّ هذا عائد إلى {الَّذِينَ أَشْرَكُوا }.

السلَم (بفتح اللام): الاستسلام، أي الطاعة وترك العناد.

{ **وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** } أي غاب عنهم وزايلهم ما كانوا يفترونه في الدنيا من الاختلاقات للأصنام من أنّها تسمع لهم ونحو ذلك.

{ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } [88]

لمّا ذكر العذاب الذين هم لأقوه على كفرهم استأنف هنا بذكر زيادة العذاب لهم على الزيادة في كفرهم، بأنّهم يصدّون النّاس عن اتباع الإسلام، وهو المراد بالصدّ عن سبيل الله، أي السبيل الموصلة إلى الله. وفيه تنبيه المسلمين إلى كيدهم وإفسادهم، والتعريض بالتحذير من الوقوع في شراكهم.

زيادة العذاب: مضاعفته.

{ **فَوْقَ الْعَذَابِ** } تعريف الجنس المعهود حيث تقدّم ذكره في قوله { وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ } [85]، لأنّ عذاب كفرهم لمّا كان معلوما بكثرة الحديث عنه صار كالمعهود، وأمّا عذاب صدّهم النّاس فلا يخطر بالبال فكان مجهولا فناسبه التنكير.

{ **بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ** } الباء للسببيّة. والمراد: إفسادهم الراغبين في الإسلام بتسويل البقاء على الكفر، كما فعلوا مع الأعشى حين جاء مكّة راغبا في الإسلام مادحا الرسول ﷺ بقصيدة:

هل اغتمضت عيناك ليلة أرمدا

وقصّته في كتب السيرة والأدب. وكما فعلوا مع عامر بن الطفيل الدوسي فإنّه قدم مكّة فمشى إليه رجال من قريش فقالوا: يا طفيل إنّك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرّق جماعتنا وشتّت أمرنا وإنّما قوله كالسحر، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنّه ولا تسمعنّ منه. وقد ذُكر في قصة إسلام أبي ذر كيف تعرّضوا له بالأذى في المسجد الحرام حين علموا إسلامه.

{ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } [89]

{ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ }.

تكرير لجملة { وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا } [84]، ولمّا كان تكريرا أعيد نظير الجملة على صورة الجملة المؤكّدة مقترنة بالواو، ولأنّ في هذه الجملة زيادة وصف { مِنْ أَنْفُسِهِمْ } فحصلت

مغايرة مع الجملة السابقة والمغايرة مقتضية للعطف أيضا.

ومن دواعي تكرير مضمون الجملة السابقة أنّه لبعد ما بين الجملتين بما اعترض بينهما من قوله تعالى { ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا - إلى قوله - بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } [84،85].

وقد حصل من هذه الإعادة تأكيد التهديد والتسجيل.

{ **نَبْعَثُ فِي** } عدّي الفعل هنا بحرف (فِي) ، وعدي نظيره في الجملة السابقة بحرف (من) ليحصل التفنّن بين المكرّرين تجديدا لنشاط السامعين.

{ **مِنْ أَنْفُسِهِمْ** } وزيد في هذه الجملة أنّ الشهيد يكون من أنفسهم للتذكير بأنّ شهادة الرّسل على الأمم شهادة لا مطعن لهم فيها، لأنّها شهادة شهود من قومهم لا يجد المشهود عليهم فيها مساغا للطعن.

ولم تخل أيضا، بعد التّعريض بالتحذير من صدّ الكافرين عن سبيل الله، من حسن موقع تذكير المسلمين بنعمة الله عليهم إذ بعث فيهم شهيدا يشهد لهم بما ينفعهم وبما يضرّ أعداءهم.

ولما كان بعث الشهداء للأمم الماضية مرادا به بعثهم يوم القيامة عبّر عنه بالمضارع.

{ **وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ** } الراجح أن تكون معطوفة على جملة { وَيَوْمَ نَبْعَثُ } كلّها. فالمعنى: وجئنا بك ،لمّا أرسلناك إلى أمتك، شهيدا عليهم، أي مقدّرا أن تكون شهيدا عليهم يوم القيامة، لأنّ النبيء ﷺ لمّا كان حيا في آن نزول هذه الآية كان شهيدا في الحال والاستقبال، فاختير لفظ الماضي في { جِئْنَا } للإشارة إلى أنّه مجيء حصل من يوم بعثته.

ويعلم من ذلك أنّه يحصل يوم القيامة بطريق المساواة لبقية إخوانه الشهداء على الأمم، والمقصود من ذلك كلّه تهديد قومه وتحذيرهم. وهذا الوجه شديد المناسبة بأن يعطف عليه قوله {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ} [89].

وعلى هذا يكون الكلام تمّ عند قوله تعالى { مِنْ أَنْفُسِهِمْ }، فيحسن الوقف عليه لذلك.

ولم يوصف الرسول ﷺ بأنّه من أنفسهم لأنّه مبعوث إلى جميع الأمم وشهيد عليهم جميعا، وأمّا وصفه بذلك في قوله تعالى { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ } [التوبة:128] فذلك وصف كاشف اقتضاه مقام التذكير للمخاطبين من المنافقين الذين ضمّوا الكفر بالله كفران نعمة بعث رسول إليهم من قومهم.

{ **عَلَى هَؤُلاءِ** } ليس فيه ما يقتضي تخصيص شهادته بكونها شهادة على المتحدّث عنهم من أهل الشرك، ولكن اقتصر عليهم لأنّ الكلام جار في تهديدهم وتحذيرهم.

{ **هَؤُلاءِ** } إشارة إلى حاضر في الذهن وهم المشركون الذين أكثر الحديث عليهم. وقد تتبّعتُ مواقع أمثال اسم الإشارة هذا في القرآن فرأيته يُعنى به المشركون من أهل مكّة. وتقدّم بيانه عند قوله تعالى { وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً } [النساء:41]، وقوله تعالى { فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ } [الأنعام:89].

{ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** }

عطف على { وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً } أي أرسلناك شهيدا على المشركين وأنزلنا عليك القرآن لينتفع به المسلمون، فرسول الله ﷺ شهيد على المكذّبين ومرشد للمؤمنين.

وهذا تخلّص للشروع في تعداد النعم على المؤمنين، من نعم الإرشاد ونعم الجزاء على الامتثال وبيان بركات هذا الكتاب المنزّل لهم. وتعريف الكتاب للعهد، وهو القرآن.

{ **تِبْيَاناً** } مفعول لأجله. والتبيان مصدر دال على المبالغة في المصدريّة، ثم أريد به اسم الفاعل فحصلت مبالغتان، وهو - بكسر التاء -، ولا يوجد مصدر بوزن تِفعال - بكسر التاء - إلّا تبيان بمعنى البيان كما هنا، وتِلقاء بمعنى اللقاء لا بمعنى المكان، وما سوى ذلك من المصادر الواردة على هذا الزنة - بفتح التاء - .

{ **لِكُلِّ شَيْءٍ** } يفيد العموم، إلّا أنّه عموم عرفي في دائرة ما لمثله تجيء الأديان والشرائع؛ من إصلاح النفوس، وإكمال الأخلاق، وتقويم المجتمع المدنيّ، وتبيّن الحقوق، وما تتوقّف عليه الدعوة من الاستدلال على الوحدانيّة، وصدق الرسول ﷺ، وما يأتي من خلال ذلك من الحقائق العلميّة والدقائق الكونيّة، ووصف أحوال الأمم، وأسباب فلاحها وخسارها، والموعظة بآثارها بشواهد التاريخ، وما يتخلّل ذلك من قوانينهم وحضاراتهم وصنائعهم.

وفي خلال ذلك كلّه أسرار ونكت من أصول العلوم والمعارف صالحة لأنّ تكون بيانا لكلّ شيء على وجه العموم الحقيقي، إن سُلك في بيانها طريق التفصيل واستُنير فيها بما شرح الرّسول ﷺ وما قفّاه به أصحابه وعلماء أمّته، ثم ما يعود إلى الترغيب والترهيب من وصف ما أعدّ للطائعين وما أعدّ للمعرضين، ووصف عالم الغيب والحياة الآخرة. ففي كل ذلك بيان لكلّ شيء، يقصد بيانه للتبصّر في هذا الغرض الجليل، فيؤول ذلك العموم العرفي بصريحه إلى عموم حقيقي بضمنه ولوازمه. وهذا من أبدع الإعجاز.

{ **وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** } خصّ بالذكر الهدى والرحمة والبُشرى لأهميتها، فالهدى ما يرجع من التبيان إلى تقويم العقائد والأفهام والإنقاذ من الضلال. والرحمة ما يرجع منه إلى سعادة الحياتين الدنيا والأخرى، والبُشرى ما فيه من الوعد بالحسنيين الدنيويّة والأخرويّة.

وكل ذلك للمسلمين دون غيرهم، لأنّ غيرهم لمّا أعرضوا عنه حرموا أنفسهم الانتفاع بخواصه كلّها.

{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }[90]

لمّا جاء أنّ هذا القرآن تبيان لكلّ شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين حسن التخلّص إلى تبيان أصول الهدى في التشريع للدين الإسلامي العائدة إلى الأمر والنهي، إذ الشريعة كلّها أمر ونهي والتقوى منحصرة

في الامتثال والاجتناب. فهذه الآية استئناف لبيان كون الكتاب تبيانا لكلّ شيء، فهي جامعة أصول التشريع.

{ **إِنَّ اللَّهَ** } حرف التوكيد للاهتمام بشأن ما حوته. وتصديرها باسم الجلالة للتشريف.

{ **يَأْمُرُ / وَيَنْهَى** } دون أن يقال: اعدلوا واجتنبوا الفحشاء، للتشويق. ونظيره ما في الحديث: " إنّ الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا ".

العدل: إعطاء الحقّ إلى صاحبه. وهو الأصل الجامع للحقوق الراجعة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتيّة وحقوق المعاملات، إذ المسلم مأمور بالعدل في ذاته، قال تعالى { وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } [البقرة:195]، ومأمور بالعدل في المعاملة؛ وهي معاملة مع خالقه بالاعتراف له بصفاته وبأداء حقوقه، ومعاملة مع المخلوقات من أصول المعاشرة العائليّة والمخالطة الاجتماعية وذلك في الأقوال والأفعال، قال تعالى { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } [الأنعام:152]، وقال تعالى { وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } [النساء:58].

ومن هذا تفرّعت شعب نظام المعاملات الاجتماعية من آداب، وحقوق وأقضية، وشهادات، ومعاملة مع الأمم، قال تعالى { وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى إِلّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } [المائدة:8].

ومرجع تفاصيل العدل إلى أدلة الشريعة. فالعدل هنا كلمة مجملة جامعة، فهي بإجمالها مناسبة إلى أحوال المسلمين حين كانوا بمكّة، فيصار فيها إلى ما هو مقرّر بين النّاس في أصول الشرائع وإلى ما رسمته الشريعة من البيان في مواضع الخفاء، فحقوق المسلمين بعضهم على بعض من الأخوّة والتناصح قد أصبحت من العدل بوضع الشريعة الإسلامية.

الإحسان: هو معاملة بالحسنى ممّن لا يلزمه إلى من هو أهلها. والحسَن: ما كان محبوبا عند المعامَل به ولم يكن لازما لفاعله، وأعلاه ما كان في جانب الله تعالى مما فسّره النبيء ﷺ بقوله " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك". ودون ذلك التقرّب إلى الله بالنوافل. ثمّ الإحسان في المعاملة فيما زاد على العدل الواجب، وهو يدخل في جميع الأقوال والأفعال ومع سائر الأصناف، إلّا ما حُرم الإحسانَ بحكم الشّرع ومن أدنى مراتب الإحسان ما في الموطأ " أنّ امرأة بغيّا رأت كلبا يلهث من العطش يأكل الثرى فنزعت خفّها وأَدْلَتْه في بئر ونزعت فسقته فغفر الله لها".

وفي الحديث: " إنّ الله كتب الإحسان على كلّ شيء فإذا قلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ".

ومن الإحسان أن يجازي المحسَنُ إليه المحسِن على إحسانه إذ ليس الجزاء بواجب.

فإلى حقيقة الإحسان ترجع أصول وفروع آداب المعاشرة كلّها في العائلة والصحبة.

والعفو عن الحقوق الواجبة من الإحسان لقوله {وَالْعَافِينَ عَنِ النّاس وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران:134].

وتقدّم عند قوله تعالى { وبالوالدين إحسانا } [الأنعام:151].

{ **وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى** } نوع مهمّ من جنس أنواع العدل والإحسان يكثر أن يغفل النّاس عنه ويتهاونوا بحقّه أو بفضله. فقد تقرّر في نفوس النّاس الاعتناء باجتلاب الأبعد واتّقاء شرّه، كما تقرّر في نفوسهم الغفلة عن القريب والاطمئنان من جانبه وتعوّد التساهل في حقوقه. ولأجل ذلك كثر أن يأخذوا أموال الأيتام من مواليهم. ولأجل ذلك صرفوا معظم إحسانهم إلى الأبعدين لاجتلاب المحْمدة وحسن الذكر بين النّاس. ولم يزل هذا الخلق متفشيا في النّاس حتّى في الإسلام إلى الآنّ. لذلك تعدّدت الآيات المذكّرة والمحذّرة من مثل قوله تعالى { وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ } [النساء:2]، وقوله { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ} [الاسراء:26]، وقوله { وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ } [النساء:127].

وقد كانوا في الجاهلية يقصدون بوصايا أموالهم أصحابهم من وجوه القوم، ولذلك قال تعالى { كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ } [البقرة:180].

وهذا راجع إلى تقويم نظام العائلة والقبيلة تهيئةً لنفوس النّاس إلى أحكام المواريث التي شُرعت فيما بعد.

ذو القربى: هو صاحب القرابة، أي من المؤتي. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } [الأنعام:152].

الإيتاء: الإعطاء. والمراد: إعطاء المال، قال تعالى { وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ } [البقرة:177].

{ **وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ** } وهي أصول المفاسد.

الفحشاء: اسم جامع لكلّ عمل أو قول تستفظعه النفوس لفساده، من الآثام التي تفسد نفس المرء؛ من اعتقاد باطل أو عمل مفسد للخلق، والتي تضرّ بأفراد النّاس، من قتل أو سرقة أو قذف أو غصب مال، أو تضرّ بحال المجتمع وتدخل عليه الاضطراب من حرابة أو زنى أو تقامر أو شرب خمر. فدخل في الفحشاء كلّ ما يوجب اختلال المناسب الضروري، وقد سماها الله الفواحش. وتقدم ذكر الفحشاء عند قوله تعالى { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ} [البقرة:169]، وقوله { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ } [الأعراف:33] وهي مكّيّة.

المنكر: هو ما تستنكره النفوس المعتدلة وتكرهه الشريعة من فعل أو قول، قال تعالى { وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً } [المجادلة:2]، وقال { وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَر } [العنكبوت:29].

والاستنكار مراتب، منها مرتبة الحرام، ومنها مرتبة المكروه فإنّه منهي عنه. وشمل المنكر كل ما يفضي إلى الإخلال بالمناسب الحاجي، وكذلك ما يعطل المناسب التحسيني بدون ما يفضي منه إلى ضرّ.

الْبَغْيِ: نوع من الفحشاء والمنكر خصّه الله بالذكر اهتماما بالنهي عنه وسدا لذريعة وقوعه، لأنّ النفوس تنساق إليه بدافع الغضب، وتغفل عمّا يشمله من النهي من عموم الفحشاء بسب فشوّه بين النّاس. وذلك أنّ العرب كانوا أهل بأس وشجاعة وإباء، فكانوا يكثر فيهم البغي على الغير إذا لقي المعجَب بنفسه من أحد شيئا يكرهه أو معاملة يعدّها هضيمة وتقصيرا في تعظيمه. وبذلك كان يختلط على مريد البغي حسن الذبّ عمّا

يسمّيه الشرف وقبح مجاوزة حدّ الجزاء.

فالبغي هو الاعتداء في المعاملة، إمّا بدون مقابلة ذنب، كالغارة التي كانت وسيلة كسب في الجاهلية، وإمّا بمجاوزة الحدّ في مقابلة الذنب، كالإفراط في المؤاخذة، ولذا قال تعالى { فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ} [البقرة:194] وقال { ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ } [الحج:60]. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ } [الأعراف:33].

فهذه الآية جمعت أصول الشريعة في الأمر بثلاثة والنهي عن ثلاثة، بل في الأمر بشيئين وتكملة، والنهي عن شيئين وتكملة.

وفي فضل هذه الآية رويت أحاديث وأقوال شهيرة منها ما رواه أحمد بن حنبل: أنّ هذه كانت السبب في تمكّن الإيمان من عثمان ابن مظعون، فإنّها لما نزلت كان عثمان بن مظعون بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان حديث الإسلام، وكان إسلامه حياء من النبيء ﷺ وقراها النبيء عليه. قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي.

وعن عثمان بن أبي العاص: كنت عند رسول الله ﷺ جالسا إذ شخص بصره، فقال: " أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع ". وهذا يقتضي أنّ هذه الآية لم تنزل متّصلة بالآيات التي قبلها فكان وضعها في هذا الموضع صالحا لأنّ يكون بيانا لآية { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ } [89]، ولأنّ تكون مقدّمة لما بعدها { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ } [91].

وعن ابن مسعود: أنّ هذه الآية أجمع آية في القرآن.

وعن قتادة: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلّا أمر الله به في هذه الآية، وليس من خلق كانوا يتعايرونه بينهم إلّا نهى الله عنه وقدح فيه، وإنّما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها.

وروى ابن ماجه عن عليّ قال: أمر الله نبيّه أن يعرض نفسه على قبائل العرب، فخرج، فوقف على مجلس قوم من شيبان بن ثعلبة في الموسم. فدعاهم إلى الإسلام وأن ينصروه، فقال مفروق بن عمرو منهم: إلام تدعونا أخا قريش، فتلا عليهم رسول الله ﷺ { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ } الآية. فقال: " دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذّبوك وظاهروا عليك ".

وقد روي أنّ الفقرات الشهيرة التي شهد بها الوليد بن المغيرة للقرآن من قوله: " إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وما هو بكلام بشر"، قالها عند سماع هذه الآية.

وقد اهتدى الخليفة عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - إلى ما جمعته هذه الآية من معاني الخير فلما استخلف سنة (99هـ) كتب يأمر الخطباء بتلاوة هذه الآية في الخطبة يوم الجمعة وتجعل تلاوتها عوضا عما كانوا يأتونه في خطبة الجمعة من كلمات سبّ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -.

{ **يَعِظُكُمْ** } في موضع الحال من اسم الجلالة. و**الوعظ**: كلام يقصد منه إبعاد المخاطب به عن الفساد وتحريضه على الصلاح. وتقدّم عند قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63].
والخطاب للمسلمين لأنّ الموعظة من شأن من هو محتاج للكمال النفساني، ولذلك قارنها بالرجاء بـ { لعلكم تذكّرون }.
التذكّر: مراجعة المنسي المغفول عنه، أي رجاء أن تتذكّروا، أي تتذكروا بهذه الموعظة ما اشتملت عليه فإنها جامعة باقية في نفوسكم.

{ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ }[91]

لمّا أمر الله المؤمنين بملاك المصالح ونهاهم عن ملاك المفاسد بما أومأ إليه قوله { يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [90]، فكان ذلك مناسبة حسنة لهذا الانتقال الذي هو من أغراض تفنّن القرآن، وأوضح لهم أنّهم قد صاروا إلى كمال وخير بذلك الكتاب المبيّن لكلّ شيء. ولا جرم ذكّرهم، هنا، الوفاء بالعهد الذي عاهدوا الله عليه عندما أسلموا. وهو ما بايعوا عليه النبيء ﷺ مما فيه: أن لا يعصوه في معروف. وقد كان النبيء صلى الله عليه وسلم يأخذ البيعة على كل من أسلم من وقت ابتداء الإسلام في مكّة. وتكررت البيعة قبيل الهجرة وبعدها على أمور أخرى، مثل النصرة التي بايع عليها الأنصار ليلة العقبة، ومثل بيعة الحديبية.
{ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ** } الخطاب للمسلمين في الحفاظ على عهدهم بحفظ الشريعة. وإضافة العهد إلى الله لأنّهم عاهدوا النبيء ﷺ على الإسلام الذي دعاهم الله إليه، فهم قد عاهدوا الله كما قال { إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ } [الفتح:10]، وقال { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ } [الأحزاب:23].
والمقصود: تحذير الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام من أن ينقضوا عهد الله.
{ **إِذَا عَاهَدْتُمْ** } لمجرد الظرفيّة، لأنّ المخاطبين قد عاهدوا الله على الإيمان والطاعة، فالإتيان باسم الزمان لتأكيد الوفاء. فالمعنى: أنّ من عاهد وجب عليه الوفاء بالعهد. والقرينة على ذلك قوله {وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ}.
العهد: الحلف. وتقدّم في قوله تعالى { الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه } [البقرة:27]. وكذلك النقض تقدّم في تلك الآية.
نقض الأيمان: إبطال ما كانت لأجله. فالنقض إبطال المحلوف عليه لا إبطال القسم، فجعْل إبطال المحلوف عليه نقضا لليمين تهويلا وتغليظا للنقض، لأنّه نقض لحرمة اليمين.
{ **بَعْدَ تَوْكِيدِهَا** } زيادة في التحذير، وليس قيدا، إذ المقصود أيمان معلومة وهي أيمان العهد والبيعة، وليست فيها بعديّة. و{بعد} هنا بمعنى (مع)، إذ البعديّة والمعيّة أثرهما واحد هنا.

التوكيد: التوثيق. وليس هو توكيد اللفظ كما توهّمه بعضهم فهو ضدّ النقض. والمعنى: بعد ما فيها من التوكيد، وبيّنه قوله { وَقَد جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً }. والمعنى: ولا تنقضوا الأيمان بعد حلفها.

{ **وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً** } في موقع الحال من ضمير { لا تنقضوا } ، أي لا تنقضوا الأيمان في حال جعلكم الله كفيلا على أنفسكم إذا أقسمتم باسمه، فإنّ مدلول القسم أنّه إشهاد الله بصدق ما يقوله المقسم، فيأتي باسم الله كالإتيان بذات الشاهد. ولذلك سمّي الحلف شهادة في مواضع كثيرة، كقوله { فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } [النور:6].

الكفيل: الشاهد والضامن والرقيب على الشيء المراعى لتحقيق الغرض منه.

والمعنى: أنّ القسم باسم الله إشهاد لله وكفالة به. وقد كانوا عند العهد يحلفون ويُشهدون الكفلاء بالتنفيذ، قال الحارث بن حلزة:

واذكروا حلف ذي المجاز وماقُـ ـدّم فيه العهود والكفلاء

{ **عَلَيْكُمْ** } متعلق بـ { جَعَلْتُمُ } لا بـ { كَفِيلاً } أي أقمتموه على أنفسكم مقام الكفيل.

{ **إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** } معترضة. وهي خبر مراد منه التحذير من التساهل في التمسّك بالإيمان والإسلام بتذكيرهم أنّ الله يطّلع على ما يفعلونه، فالتوكيد بـ { إِنَّ } للاهتمام بالخبر.

وكذلك التأكيد ببناء الجملة بالمسند الفعلي. واختير الفعل المضارع في { يَعْلَمُ } وفي { تَفْعَلُونَ } لدلالته على التجدّد، أي كلما فعلوا فعلا فالله يعلمه.

ولم يذكر المفسّرون سببا لنزول هذه الآية، وليست بحاجة إلى سبب. وذكروا في الآية الآتية وهي قوله { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ } [106] أنّ آية { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إذا عاهدتم } إلى آخرها نزلت في الذين رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان لمّا فتنهم المشركون كما سيأتي، فجعلوا بين الآيتين اتصالا.

{ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [92]

تشنيع لحال الذين ينقضون العهد. وعطف على { وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا }. واعتمد العطف على المغايرة في المعنى بين الجملتين لما في هذه الثانية من التمثيل، وإن كانت من جهة الموقع كالتوكيد لجملة {وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ }.

{ **كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا** } نهوا عن أن يكونوا مضرب مثل معروف في العرب بالاستهزاء، وهو المرأة التي تنقض غزلها بعد شدّ فتله. فالتي نقضت غزلها امرأة اسمها (**ريطة بنت سعد التميميّة**) من بني تميم من قريش. وعبّر عنها بطريق الموصوليّة لاشتهارها بمضمون الصلة، ولأنّ القرآن لم يذكر فيه بالاسم العلم إلّا

من اشتهر بأمر عظيم مثل جالوت وقارون.

وقد ذُكر من قصّتها أنّها كانت امرأة خرقاء مختلّة العقل، ولها جوار، فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر، ثم تنقض ما غزلته، وهكذا تفعل كل يوم، فكان حالها إفساد ما كان نافعا محكما من عملها وإرجاعه إلى عدم الصلاح، فنهوا عن أن يكون حالهم كحالها في نقضهم عهد الله، وهو عهد الإيمان، بالرجوع إلى الكفر وأعمال الجاهلية. ووجه الشبه الرجوع إلى فساد بعد التلبّس بصلاح.

الغزل: هنا مصدر بمعنى المفعول، أي المغزول، لأنّه الذي يقبل النقض. والغزل: فتل نتف من الصوف أو الشعر لتُجعل خيوطا محكمة اتصال الأجزاء بواسطة إدارة آلة الغزل بحيث تلتف النتف المفتولة باليد فتصير خيطا غليظا طويلا بقدر الحاجة ليكون سَدًى أو لُحْمَةً للنسج.

القوة: إحكام الغزل، أي نقضته مع كونه محكم الفتل لا موجب لنقضه.

الأنكاث (بفتح الهمزة) : جمع نِكْث (بكسر النون وسكون الكاف) أي منكوث، أي منقوض، ونظيره نقض وأنقاض. والمراد بصيغة الجمع أن ما كان غزلا واحدا جعلته خيوطا عديدة. وذلك بأنّ صيّرته إلى الحالة التي كان عليها قبل الغزل وهي كونه خيوطا ذات عدد.

{ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ } حال من ضمير { وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ }.

الدَخَل (بفتحتين) : الفساد، أي تجعلون أيمانكم التي حلفتموها فاسدة. ومن كلام العرب: ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل، أي ما يدريك ما فيهم من فساد. والمعنى: تجعلون أيمانكم الحقيقة بان تكون معظمة وصالحة فيجعلونها فاسدة كاذبة، فيكون وصف الأيمان بالدخل حقيقة عقلية.

أو تجعلونها سبب فساد بينكم إذ تجعلونها وسيلة للغدر والمكر فيكون وصف الأيمان بالدخل مجازا عقليا.

ووجه الفساد أنّها تقتضي اطمئنان المتحالفين فإذا نقضها أحد الجانبين فقد تسبّب في الخصام والحقد. وهذا تحذير لهم وتخويف من سوء عاقبة نقض اليمين، وليس بمقتض أنّ نقضا حدث فيهم.

{ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ } معمول للام جر محذوفة كما هو غالب حالها مع (أن). والمعنى التعليل. أي تنقضون الأيمان بسبب أن تكون أمّة أربى من أمة، أي أقوى وأكثر.

الأمّة: الطائفة والقبيلة. والمقصود طائفة المشركين وأحلافهم.

{ **أَرْبَى** } أزيد، وهو اسم تفضيل من الرُبُوّ بوزن العلو، أي الزيادة، يحتمل الحقيقة أعني كثرة العدد. والمجاز أعني رفاهية الحال وحسن العيش. وكلمة { أَرْبَى } تعطي هذه المعاني كلّها فلا تعدلها كلمة أخرى تصلح لجميع هذه المعاني، فوقعها هنا من مقتضى الإعجاز. والمعنى: لا يبعثكم على نقض الأيمان كون أمّة أحسن من أمة.

ومعلوم أنّ الأمّة التي هي أحسن هي المنقوض لأجلها وأنّ الأمّة المفضولة هي المنفصل عنها، أي لا يحملكم

على نقض الحلف أن يكون المشركون أكثر عددا وأموالا من المسلمين، فيبعثكم ذلك على الانفصال عن جماعة المسلمين وعلى الرجوع إلى الكفّار.

{ **إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا للتعليل بما يقتضي الحكمة. وهو أنّ ذلك يبتلي الله به صدق الإيمان كقوله تعالى { وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ } [الأنعام:165].

والقصر، قصر موصوف على صفة. والتقدير: ما ذلك الرُبُوّ إلّا بلوى لكم.

البَلْو: الاختبار. ومعنى إسناده إلى الله الكناية عن إظهار حال المسلمين. وله نظائر في القرآن. وضمير {به} يعود إلى المصدر المنسبك من قوله { أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ }.

{ **وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** } ثم عطف عليه تأكيد أنّه سيبين لهم يوم القيامة ما يختلفون فيه من الأحوال، فتظهر الحقائق كما هي، غير مغشّاة بزخارف الشهوات ولا بمكاره مخالفة الطباع، لأنّ الآخرة دار الحقائق لا لبس فيها، فيومئذ تعلمون أنّ الإسلام هو الخير المحض وأنّ الكفر شرّ محض.

وأكد هذا الوعد بمؤكدين، القسم الذي دلّت عليه اللام ونون التوكيد. ثم في ترتّب آثاره، إذ يكون النعيم إثر الإيمان ويكون العذاب إثر الشرك، وكل ذلك بيان لما كانوا مختلفين فيه في الدنيا.

{ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [93]

لما أحال البيان إلى يوم القيامة زادهم إعلاما بحكمة هذا التأخير، فأعلمهم أنّه قادر على أن يبيّن لهم الحقّ من هذه الدار فيجعلهم أمّة واحدة، ولكنّه أضلّ من شاء، أي خلق فيه داعية الضلال، وهدى من شاء، أي خلق فيه داعية الهدى. وأحال الأمر هنا على المشيئة إجمالا، لتعذّر نشر مطاوي الحكمة من ذلك.

ومرجعها إلى مشيئة الله تعالى أن يخلق النّاس على هذا الاختلاف الناشئ عن اختلاف أحوال التفكير ومراتب المدارك والعقول، وذلك يتولّد من تطوّرات عظيمة تعرض للإنسان في تناسله وحضارته وغير ذلك مما أجمله قوله تعالى { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } [التين:4-6].

وهذه المشيئة لا يطلع على كنهها إلّا الله تعالى وتظهر آثارها في فرقة المهتدين وفرقة الضالين.

{ **وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** } لما كان قوله { وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } قد يغترّ به قصار الأنظار فيحسبون أنّ الضّالين والمهتدين سواء عند الله وأنّ الضّالين معذورون في ضلالهم إذ كان من أثر مشيئة الله فعقب ذلك بقوله { **وَلَتُسْأَلُنَّ** } مؤكّدا بتأكيدين كما تقدّم نظيره آنفا. أي عمّا تعملون من عمل.

السؤال: كناية عن المحاسبة، لأنّه سؤال حكيم تترتب عليه الإنارة وليس سؤال استطلاع.

{ وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [94]

لمّا حذّرهم من النقض الذي يؤول إلى اتخاذ أيمانهم دخَلا فيهم، وأشار بالإجمال إلى ما في ذلك من الفساد فيهم، أعاد الكرّة إلى بيان عاقبة ذلك الصنيع، إعادة تفيد التصريح بالنهي عن ذلك، وتأكيد التحذير، وتفصيل الفساد في الدنيا، وسوء العاقبة في الآخرة.

{ وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ } تصريح بالنهي، وتأكيد لقوله قبله { تَتَّخِذُون أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ } [92].

{ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } تفريع تفصيل لما أجمل في معنى الدخل. وبهذا التصدير وهذا التفريع فارقت هذه نظيرتها السابقة بالتفصيل والزيادة، فحق أن تعطف عليها لهذه المغايرة وإن كان شان الجملة المؤكِّدة أن لا تعطف.

الزلل: تزلّق الرجل وتنقلها من موضعها دون إرادة صاحبها فيسقط على الأرض. وتقدّم عند قوله { فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا } [البقرة:36]. وزلل القدم تمثيل لاختلال الحال والتعرّض للضرّ، لأنّه يترتّب عليه السقوط أو الكسر. كما أنّ **ثبوت القدم**، تمكّن الرجل من الأرض، وهو تمثيل لاستقامة الحال ودوام السير.

ولما كان المقصود تمثيل ما يجرّه نقض الأيمان من الدخل شبهت حالهم بحال الماشي في طريق بينما كانت قدمه ثابتة إذا هي قد زلت به فصرع.

{ بَعْدَ ثُبُوتِهَا } زيادة، لأنّ الزلل لا يتصوّر إلّا بعد الثبوت، وذلك لتصوير اختلاف الحالين، وأنّه انحطاط من حال سعادة إلى حال شقاء، ومن حال سلامة إلى حال محنة.

الثبوت: مصدر ثبت كالثبات، وهو الرسوخ وعدم التنقّل، وخصّ المتأخّرون من الكتّاب الثبوت الذي بالواو بالمعنى المجازي وهو التحقّق، مثل ثبوت عدالة الشاهد لدى القاضي، وخصّوا الثبات الذي بالألف بالمعني الحقيقي، وهي تفرقة حسنة.

الذوق: مستعار للإحساس القويّ كقوله تعالى { لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ } [المائدة:95].

السوء: ما يؤلم. والمراد: ذوق السوء في الدنيا من معاملتهم معاملة الناكثين عن الدين أو الخائنين عهودهم.

{ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } أي بكونكم معرضين عن سبيل الله. وتقدّم آنفا. ذلك أنّ الآيات جاءت في الحفاظ على العهد الذي يعاهدون الله عليه، أي على التمسك بالإسلام.

سبيل الله: هو دين الإسلام.

{ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } هو عذاب الآخرة على الرجوع إلى الكفر أو على معصية غدر العهد.

وقد عصم الله المسلمين من الارتداد مدة مقام النبيء ﷺ، وما ارتدّ أحد إلّا بعد الهجرة حين ظهر النفاق، فكانت فلتة عبد الله بن سعد بن أبي سرح واحدة في المهاجرين، وقد تاب وقبل توبته النبيء ﷺ.

{ وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [95]

وهذا نهي عن نقض عهد الإسلام لأجل ما فاتهم بدخولهم في الإسلام من منافع عند المشركين. وبهذا الاعتبار عطفت على { وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا } [91] وعلى { وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ } [94]، لأنّ كلّ جملة منها تلتفت إلى غرض خاص مما قد يبعث على النقض.

الثمن: العوض الذي ياخذه المعاوض. وتقدّم الكلام على نظير هذا عند قوله تعالى { وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ } [البقرة:41]. وذكرنا هناك أنّ { **قَلِيلاً** } صفة كاشفة وليست مقيّدة، أي أنّ كلّ عوض يؤخذ عن نقض عهد الله هو عوض قليل ولو كان أعظم المكتسبات.

{ **إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** } تعليل للنهي باعتبار وصف عوض الاشتراء المنهي عنه بالقلّة، فإنّ ما عند الله هو خير من كل ثمن وإن عظم قدره.

و(ما عند الله) هو ما ادّخره للمسلمين من خير في الدنيا وفي الآخرة، كما سننبّه عليه عند قوله تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [97]، فخير الدنيا الموعود به أفضل مما يبذله لهم المشركون، وخير الآخرة أعظم من الكلّ، فالعنديّة هنا بمعنى الادخار لهم، كما تقول: لك عندي كذا، وليست عنديّة ملك الله تعالى كما في قوله { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ } [الأنعام:59].

{ **وإنّما** } هذه مركّبة من (إن) و (ما) الموصولة، فحقّها أن تكتب (ما) مفصولة عن (إن) لأنّها ليست (ما) الكافة، ولكنها كتبت في المصحف موصولة اعتبارا لحالة النطق ولم يكن وصل أمثالها مطّردا في جميع المواضع من المصحف.

{ **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } إن كنتم تعلمون حقيقة عواقب الأشياء ولا يغرّكم العاجل. وفيه حث على التأمّل والعلم.

{ **مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ** } تذييل وتعليل لمضمون جملة { إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } بأنّ ما عند الله لهم خير متجدّد لا نفاد له، وأنّ ما يعطيهم المشركون محدود نافذ لأنّ خزائن النّاس صائرة إلى النفاد بالإعطاء وخزائن الله باقية.

النفاد: الانقراض. و**البقاء**: عدم الفناء.

وهذا الكلام جرى مجرى التذييل لما قبله، وأرسل إرسال المثل فيحمل على العموم، ولذلك كان ضمير {عِنْدَكُمْ} عائدا إلى جميع النّاس بقرينة التذييل والمثل، وبقرينة المقابلة بما عند لله.

{ **وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } لمّا كان في نهيهم عن أخذ ما يعدهم به المشركون حمل لهم على حرمان أنفسهم من ذلك النفع العاجل وعدوا الجزاء على صبرهم.

قرأه الجمهور { وليجزين } بياء الغيبة. والضمير عائد إلى اسم الجلالة من قوله تعالى { بِعَهْدِ اللَّهِ }، فهو الناهي والواعد فلا جرم كان هو المجازي على امتثال أمره ونهيه. وقرأه أبن كثير وعاصم وابن ذكوان عن ابن عامر في إحدى روايتين عنه وأبو جعفر بنون العظمة فهو التفات.

{ **بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } الباء للسببية. و**أحسن**: صيغة تفضيل مستعملة للمبالغة في الحسن. كما في قوله تعالى { قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ } [يوسف:33]. أي بسبب عملهم البالغ في الحسن، وهو الدوام على الإسلام مع تجرّع ألم الفتنة من المشركين. وقد أكّد الوعد بلام القسم ونون التوكيد { وَلَنَجْزِيَنَّ }.

{ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [97]

لمّا كان الوعد المتقدّم { وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [96] خاصا بأولئك الذين نهوا عن أن يشتروا بعهد الله ثمنا قليلا عقّب بتعميمه لكلّ من ساواهم في الثّبات على الإسلام والعمل الصالح مع التبيين للأجر، فكانت هذه الجملة بمنزلة التذييل للتي قبلها، والبيان لما تضمنته من مجمل الأجر. وكلا الاعتبارين يوجب فصلها عمّا قبلها.

{ **مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى** } تبيين للعموم الذي دلت عليه { من } الموصولة. وفي هذا البيان دلالة على أنّ أحكام الإسلام يستوي فيها الذكور والنساء عدا ما خصّصه الدين بأحد الصنفين.

{ **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** } أكّد هذا الوعد كما أكّد المبيّن به. أي لنجعلنّ له حياة طيّبة. وابتدئ الوعد بإسناد الإحياء إلى ضمير الجلالة تشريفا له، كأنّه قيل: فله حياة طيّبة منا. أي طيّب ما يحصل فيها، فهذا الوصف مجاز عقلي.

ويفسّر هذا المعنى ما ورد في الصحيح عن خبّاب بن الأرت قال: " هاجرنا مع رسول الله نبتغي بذلك وجه الله فوجب أجرنا على الله، فمنّا من مضى لم يأكل من أجره شيئا كان منهم مُصَعب بنُ عمير قتل يوم أحد فلم يترك إلّا نَمِرة كنّا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه وإذا غُطي بها رجلاه خرج رأسه، ومنّا من أينعت له ثمرته فهو يَهْدُبُهَا ".

الطيّب: ما يطيب ويحسن. وضدّه الخبيث والسيّء. وهذا وعد بخيرات الدنيا. وأعظمها الرضى بما قسم لهم، وحسن أملهم بالعاقبة والصحّة والعافية وعزة الإسلام في نفوسهم. وهذا مقام دقيق تتفاوت فيه الأحوال على تفاوت سرائر النفوس، ويعطي الله فيه عباده المؤمنين على مراتب هممهم وآمالهم. ومن راقب نفسه رأى شواهد هذا.

{ **وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** }، عقّب بوعد جزاء الآخرة، فاختص هذا بأجر الآخرة بالقرينة بخلاف نظيره المتقدّم آنفا فإنّه عام في الجزاءين.

{ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ [98] إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [99] إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } [100].

{ **فَإِذَا** } موقع فاء التفريع هنا خفي ودقيق، ولذلك تصدّى بعض حذّاق المفسرين إلى البحث عنه. فقال الزمخشري في الكشاف: " إيذانا بأنّ الاستعاذة من جملة الأعمال التي يجزل عليها الثواب". وهو إبداء مناسبة ضعيفة لا تقتضي تمكن ارتباط أجزاء النظم.

وقال فخر الدين:" لمّا قال: { وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } أرشد إلى العمل الذي تخلص به الأعمال من الوسواس ". وهو أمكن من كلام الكشاف، ولكن فيه وهن أنّه لا وجه لتخصيص الاستعاذة بإرادة قراءة القرآن.

وقال شرف الدين الطيبي: " قوله تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ } متصل بالفاء بما سبق من قوله تعالى { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [89]. وذلك لأنّه تعالى لمّا منّ على النبيء ﷺ بإنزال كتاب جامع لصفات الكمال وأنّه تبيان لكل شئ، ونبّه على أنّه تبيان لكل شيء بالكلمة الجامعة وهي قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ } [90]، وعطف عليه {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ } [91]، وأكّده ذلك التأكّيد، قال بعد ذلك {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ}، أي إذا شرعت في قراءة هذا الكتاب الشريف الجامع الذي نبّهت على بعض ما اشتمل عليه، ونازعك فيه الشيطان بهمزه ونفثه فاستعذ بالله منه، والمقصود إرشاد الأمة ".

وهذا أحسن الوجوه وقد انقدح في فكري قبل مطالعة كلامه ثم وجدته في كلامه فحمدت الله وترحمته عليه. والمقصود بالتفريع الشروع في التنويه بالقرآن. وإظهار اسم { الْقُرْآنَ } دون أن يضمر لأجل بعد المعاد.

{ **قَرَأْتَ** } الأظهر أنّه مستعمل في إرادة الفعل، مثل قوله تعالى { إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ } [المائدة:6].

{ **قَرَأْتَ الْقُرْآنَ** } عبارة مشتملة على النطق بألفاظه والتفهّم لمعانيه، وكلاهما معرّض لوسوسة الشيطان، وسوسة تتعلق بألفاظه مثل الإنساء، ووسوسة تتعلق بمعانيه مثل أن يخطئ فهما، وهذا المعنى يلائم محمل الأمر بالاستعاذة عند الشروع في القراءة.

{ **فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ** } السين للطلب، والباء لتعدية فعل الاستعاذة يقال: عاذ بحصن، وعاذ بالحرم. أي فاطلب العوذ بالله من الشيطان.

العوذ: اللجأ إلى ما يعصم ويقي من أمر مضرّ.
ومعنى طلب العوذ بالله محاولة العوذ به. ولا يتصوّر ذلك في جانب الله إلّا بالدعاء أن يعيذه.
فقد ورد في عمل النبيء ﷺ بهذا الأمر أنّه كان يقول:"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" يحاكي لفظ هذه الآية.
قال ابن عطيّة: لم يصح عن النبيء زيادة على هذا اللفظ. وما يروي من الزيادات لم يصح منه شيء.
وجاء حديث الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: " كان رسول الله إذا قام من الليل يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ... ". فتلك استعاذة تعوّذ وليست الاستعاذة لأجل قراءة القرآن.
الشيطان: تقدّم عند قوله تعالى { إِلَى شَيَاطِينِهِمْ } [البقرة:14].
الرجيم: تقدّم عند قوله تعالى { وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ } [الحجر:17].
والخطاب للنبيء ﷺ والمراد عمومه لأمّته بقرينة الآية اللاحقة.
وإنّما شرعت الاستعاذة عند ابتداء القراءة إيذانا بنفاسة القرآن ونزاهته، إذ هو نازل من العالم القدسيّ الملَكي، فجعل افتتاح قراءته بالتجرّد عن النقائص النفسانية التي هي من عمل الشيطان، ولا استطاعة للعبد أن يدفع تلك النقائض عن نفسه إلّا بأن يسأل الله أن يبعد الشيطان عنه، لأنّ جانب الله قدسي لا تسلك الشياطين إلى من يأوي إليه، فأرشد الله رسوله إلى سؤال ذلك وضمن له أن يعيذه منه، وأن يعيذ أمّته عوذا مناسبا، كما شرعت التسمية في الأمور ذوات البال وكما شرعت الطهارة للصلاة.
وإنّما لم تشرع لذلك كلمة (باسم الله) لأنّ المقام مقام تخلّ عن النقائص لا مقام استجلاب التيمّن والبركة، ولأنّ القرآن نفسه يمن وبركة وكمال تام.
حكم الاستعاذة
ومحمل الأمر في هذه الآية عند الجمهور على الندب لانتفاء أمارات الإيجاب فإنّه لم يثبت أنّ النبيء صلى الله عليه وسلم بيّنه. فمن العلماء من ندبه مطلقا في الصلاة وغيرها عند كل قراءة. وجعل بعضهم جميع قراءة الصلاة قراءة واحدة تكفي استعاذة واحدة في أوّلها، وهو قول جمهور هؤلاء. ومنهم من جعل قراءة كل ركعة قراءة مستقلة.
ومن العلماء من جعله مندوبا للقراءة في غير الصلاة، وهو قول مالك، وكرهها في قراءة صلاة الفريضة وأباحها بلا ندب في قراءة صلاة النافلة. ولعلّه رأى أنّ في الصلاة كفاية في الحفظ من الشيطان.
وقيل: الأمر للوجوب، فقيل في قراءة الصلاة خاصة ونسب إلى عطاء. وقد أطلق القرآن على قرآن الصلاة في قوله تعالى { إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً } [الإسراء:78].
وقال: الثوري بالوجوب في قراءة الصلاة وغيرها. وقال قوم: الوجوب خاص بالنبيء ﷺ والندب لبقية أمته.
ومدارك هذه الأقوال ترجع إلى تأويل الفعل في قوله تعالى { قرأت}، وتأويل الأمر في قوله تعالى {فاستعذ}،

وتأويل القرآن مع ما حفّ بذلك من السنّة فعلا وتركا.
وعلى الأقوال كلّها فالاستعاذة مشروعة للشروع في القراءة أو لإرادته وليست مشروعة عند كلّ تلفّظ بألفاظ القرآن، كالنطق بآية أو آيات من القرآن في التعليم أو الموعظة، خلافا لما يفعله بعض المتحذّقين إذا ساق آية من القرآن في غير مقام القراءة أنّ يقو: كقوله تعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويسوق آية.
{ **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا** } الآية تعليل للأمر بالاستعاذة وبيان لصفة الاستعاذة.
السلطان: مصدر بوزن الغفران، وهو التسلّط والتصرّف المكين.
فأمّا كونها تعليلا فلزيادة الحثّ على الامتثال للأمر بأنّ الاستعاذة تمنع تسلّط الشيطان على المستعيذ، لأنّ الله منعه من التسلّط على الذين آمنوا المتوكلين، والاستعاذة منه شعبة من شعب التوكّل على الله، لأنّ اللجأ إليه توكّل عليه. وليست الاستعاذة مجرّد قول بدون استحضار نيّة العوذ بالله.
{ **وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** } صفة ثانية للموصول. وقدّم المجرور على الفعل للقصر، أي لا يتوكلون إلّا على ربّهم. وجعل فعلها مضارعا لإفادة تجدّد التوكّل واستمراره. والعطف دون إعادة اسم الموصول للإشارة إلى أن الوصفين كصلة واحدة لموصول واحد، لأنّ المقصود اجتماع الصلتين. فنفي سلطان الشيطان مشروط بالأمرين: الإيمان، والتوكّل. ومن هذا تفسير لقوله تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } [الحجر:42].
{ **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا لأنّ مضمون الجملة قبلها يثير سؤال سائل يقول: فسلطانه على من؟
والقصر المستفاد من { إنّما } قصر إضافي بقرينة المقابلة، أي بدون الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.
{ **يتولّونه** } يتخذونه وليّا لهم، وهم الملازمون للملل المؤسَّسة على ما يخالف الهدي الإلهي عن رغبة فيها.
ولا شك أنّ الذين يتولونه فريق غير المشركين لأنّ العطف يقتضي بظاهره المغايرة، وهم أصناف كثيرة من أهل الكتاب.
وعبّر بالمضارع للدلالة على تجدّد التولّي، أي الذين يجدّدون تولّيه، للتنبيه على أنّهم كلّما تولّوه بالميل إلى طاعته تمكّن منهم سلطانه، وأنّه إذا انقطع التولّي بالإقلاع أو التوبة انسلخ سلطانه عليهم.
{ **وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ** } الباء للسببية، والضمير المجرور عائد إلى الشيطان، أي صاروا مشركين بسببه. وليست هي كالباء في قوله تعالى { وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً } [سورة الأعراف:33].
وجعلت الصلة جملة اسمية لدلالتها على الدوام والثبات، لأنّ الإشراك صفة مستمرّة لأنّ قرارها القلب، بخلاف المعاصي لأنّ مظاهرها الجوارح. للإشارة إلى أن سلطان الشيطان على المشركين أشد وأدوم، لأنّ سببه ثابت ودائم.

{ **بِهِ مُشْرِكُونَ** } تقديم المجرور لإفادة الحصر، أي ما أشركوا إلّا بسببه، ردا عليهم إذ يقولون { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا } [الأنعام: 148] وقولهم { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ } [35].

{ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ}[101]

استمر الكلام على شأن القرآن وتنزيهه عمّا يوسوسه الشيطان في الصدّ عن متابعته.

ولمّا كان من أكبر الأغراض في هذه السورة بيان أنّ القرآن منزّل من عند الله وبيان فضله وهديه فابتدئ فيها بآية { يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ } [2]، ثم قفّيت بما اختلقه المشركون من الطعن فيه بعد تنقّلات جاء فيها { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [24]، وأتبع ذلك بتنقّلات بديعة فأعيد الكلام على القرآن وفضائله من قوله تعالى { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ} [64] ثم قوله {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ } [89]. وجاء في عقب ذلك بشاهد يجمع ما جاء به القرآن، وذلك قوله { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْأِحْسَانِ } [90]، فلمّا استقر ما يقتضي تقرّر فضل القرآن في النفوس نبّه على نفاسته ويمنه بقوله { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } [98]، لا جرم تهيّأ المقام لإبطال اختلاق آخر من اختلاقهم على القرآن، اختلاقا مموّها بالشبهات، كاختلاقهم السابق الذي أشير إليه بقوله تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ } [24]. ذلك الاختلاق هو تعمّدهم التمويه فيما يأتي من آيات القرآن مخالفا لآيات أخرى لاختلاف المقتضى والمقام، والمغايرة باللين والشدّة، أو بالتعميم والتخصيص، ونحو ذلك مما يتبع اختلافه اختلاف المقامات واختلاف الأغراض واختلاف الأحوال التي يتعلّق بها، فيتّخذون من ظاهر ذلك، دون وضعه مواضعه وحمله محامله، مغامز يتشدّقون بها في نواديهم، يجعلون ذلك اضطرابا من القول، ويزعمونه شاهدا على أنّ قائله ينقل عن غيره. وبعض ذلك ناشئ عن قصور مداركهم عن إدراك مرامي القرآن وسموّ معانيه، وبعضه ناشئ عن تعمّد للتجاهل، تعلقا بظواهر الكلام يلبّسون بذلك على ضعفاء الإدراك من أتباعهم.

روي عن ابن عباس أنه قال: " كان إذا نزلت آية فيها شدّة ثم نزلت آية ألين منها يقول كفّار قريش: والله ما محمد إلّا يسخر بأصحابه، اليوم يأمر بأمر وغدا ينهى عنه، وأنّه لا يقول هذه الأشياء إلّا من عند نفسه ".

وهذه الكلمة أحسن ما قاله المفسّرون في حاصل معنى هذه الآية.

{ **وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ** } المراد من التبديل مطلق التغاير بين الأغراض والمقامات، أو التغاير في المعاني واختلافها باختلاف المقاصد والمقامات مع وضوح الجمع بين محاملها.

الآية: الكلام التام من القرآن، وليس المراد المعجزة، بقرينة قوله تعالى { وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ }.

ويشمل التبديل نسخ الأحكام مثل نسخ قوله تعالى { وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا } [الاسراء:110]

بقوله تعالى { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } [الحجر:94]. وهذا قليل في القرآن الذي يُقرأ على المشركين لأنّ نسخ الأحكام إنّما كثر بعد الهجرة حين تكّونت الجامعة الإسلامية. وأمّا نسخ التلاوة فلم يرد من الآثار ما يقتضي وقوعه في مكّة فمن فسّر به الآية كما نُقل عن مجاهد فهو مشكل.

ويشمل التبديل أيضا التعارض بالعموم والخصوص ونحو ذلك من التعارض الذي يحمل بعضه على بعض، فيفسّر بعضه ويؤوّل بعضه بعضا، كقوله تعالى { وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ} [الشورى:5] مع قوله تعالى { الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا } [غافر:7]، فيأخذون بعموم { وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ } فيجعلونه مكذّبا لخصوص { وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} فيزعمونه إعراضا عن أحد الأمرين إلى الأخير منهما.

وكذلك قوله تعالى { وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً } [المزمل:10] يأخذون من ظاهره أنّه أمر بمتاركتهم فإذا جاءت آيات بعد ذلك لدعوتهم وتهديدهم زعموا أنّه انتقض كلامه وبدا له ما لم يكن يبدو له من قبل.

وكذلك قوله تعالى { وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [الاسراء:15] مع قوله تعالى { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ } [النحل: 25].

ومن هذا ما يبدو من تخالف بادئ الأمر كقوله بعد ذكر خلق الأرض { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ } [فصلت:11] مع قوله تعالى { وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا } [النازعات:30]، فيحسبونه تناقضا لغفلتهم عن محمل { بعد ذلك}، من جعل (بعد) بمعنى (مع) وهو استعمال كثير.

فالتبديل في الآية هو التعويض ببدل، أي عوض، والتعويض لا يقتضي إبطال المعوَّض (بفتح الواو) بل يقتضي أن يجعل شئ عوضا عن شئ. وقد تقدّم شيء من هذا المعنى عند قوله تعالى { ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ } [يونس:15].

{ **مكان آية** } منصوب على الظرفيّة المكانية. بأن تأتي آية في الدعوة والخطاب في مكان آية أخرى أتت في مثل تلك الدعوة، فالمكان هنا مكان مجازي وهو حالة الكلام والخطاب، كما يسمّى ذلك مقاما، فيقال: هذا مقام الغضب، فلا تأت فيه بالمزح. وليس المراد مكانها من ألواح المصحف ولا بإبدالها محوها منه.

{ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ** } معترضة بين شرط { إذا } وجوابها. والمقصود منها تعليم المسلمين، لا الردّ على المشركين، لأنّهم لو علموا أنّ الله هو المنزل للقرآن لارتفع البهتان. والمعنى: أنّه أعلم بما ينزّل من آية بدل آية، فهو أعلم بمكان الأولى ومكان الثانية ومحمل كلتيهما، وكلّ عنده بمقدار وعلى اعتبار.

{ **قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ** } حكاية طعنهم في النبيء ﷺ بصيغة القصر، وهو قصر إضافي، أي لست بمرسل من الله. وهذا من مجازفتهم وسرعتهم في الحكم الجائر فلم يقتصروا على أنّ تبديله افتراء، بل جعلوا الرّسول

مقصورا على كونه مفتريا، لإفادة أنّ القرآن الوارد مقصور على كونه افتراء.
الافتراء: أصله الاختراع، وغلب على اختراع الخبر، أي اختلاقه، فساوى الكذب في المعنى، ولذلك قد يطلق وحده كما هنا وقد يطلق مقترفا بالكذب كقوله الآتي { إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ } [105]، وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} [المائدة:103].
{ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** } و(بل) للإضراب الإبطالي على كلامهم، وهو من طريقة النقض الإجمالي في علم المناظرة. وضمير { أكثرهم } للذين قالوا إنّما أنت مفتر، أي ليس كما قالوا، ولكن أكثر القائلين ذلك لا يعلمون، أي لايفهمون وضع الكلام مواضعه وحمله محامله.
وفهم من الحكم على أكثرهم بعدم العلم أنّ قليلا منهم يعلمون أن ذلك ليس افتراء، ولكنّهم يقولون ذلك تلبيسا وبهتانا. ويجوز حمل لفظ أكثر على إرادة جميعهم كما تقدّم في هذه السورة.

{ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالحقّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } [102]

بعد أن أبطل الله دعواهم عليه أنّه مفتر بطريقة النقض، أمر رسوله أن يبيّن لهم ماهية القرآن. وهذه نكتة الالتفات في قوله تعالى { من ربّك } الجاري على خلاف مقتضى ظاهر حكاية المقول المأمور بأنّ يقوله، لأنّ مقتضى الظاهر أن يقول: من ربي، فوقع الالتفات إلى الخطاب تأنيسا للنبيء ﷺ بزيادة توغّل الكلام معه في طريقة الخطاب. واختير اسم الربّ لما فيه من معنى العناية والتدبير.
{ **رُوحُ الْقُدُسِ** } جبريل. وتقدّم عند قوله تعالى { وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ } [البقرة:87]. والروح: الملك، قال تعالى { فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا } [مريم:17]، أي ملكا من ملائكتنا.
{ **الْقُدُسِ** } الطهر. وهو هنا مراد به معنياه الحقيقي والمجازي الذي هو الفضل وجلالة القدر.
وإضافة الروح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة، كقولهم: حاتم الجود. فالمعنى: الملك المقدّس.
{ **بِالْحَقِّ** } الباء للملابسة، أي ملابسا للحقّ، لا شائبة للباطل فيه.
{ **نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ** } فيه إبطال لقولهم { إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ }، وفي قوله تعالى { بِالْحَقِّ } إيقاظ للنّاس بأن ينظروا في حكمة اختلاف أغراضه وأنّها حقّ.
{ **لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** } علّة من علل إنزال القرآن على الوصف المذكور، أي تبديل آية مكان آية، بأنّ في ذلك تثبيتا للذين آمنوا، إذ يفهمون محمل كلّ آية ويهتدون بذلك وتكون آيات البشرى بشارة لهم وآيات الإنذار محمولة على أهل الكفر. وفيه بيان لرسوخ إيمان المؤمنين وسداد آرائهم في فهم الكلام السامي، وأنّه تثبيت لقلوبهم بصحّة اليقين وهدى وبشرى لهم.
{ **لِلْمُسْلِمِينَ** } كان مقتضى الظاهر أن يقال: وهدى وبشرى لهم، فعدل إلى الإظهار لزيادة مدحهم بوصف

آخر شريف.

{ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّـهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ } [103]

عطف على { وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ } [101]. وهذا إبطال لتلبيس آخر مما يلبّسون به على عامتهم، وذلك أن يقولوا: إنّ محمدا يتلقّى القرآن من رجل من أهل مكة. قيل: قائل ذلك الوليد بن المغيرة وغيره. أي لا يلقّنه ملك بل يعلّمه إنسان، وقد عيّنوه بما دلّ عليه قوله تعالى { لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ }.

فقد كان في مكّة غلام رومي كان مولى لعامر بن الحضرمي اسمه جبر كان يصنع السيوف بمكّة ويقرأ من الإنجيل ما يقرأ أمثاله من عامة النصارى من دعوات الصلوت، فاتخذ زعماء المشركين من ذلك تمويها على العامة، فإنّ معظم أهل مكّة كانوا أمّيين، فكانوا يحسبون من يتلو كلمات يحفظها ولو محرّفة، أو يكتب حروفا يتعلّمها يحسبونه على علم، وكان النبيء ﷺ لما جانبه قومه وقاطعوه يجلس إلى هذا الغلام، وكان هذا الغلام قد أظهر الإسلام فقالت قريش: هذا يعلّم محمدا ما يقوله.

وقيل: غلام رومي اسمه بلعام كان عبدا بمكّة لرجل من قريش، وكان رسول الله ﷺ يقف عليه يدعوه إلى الإسلام، فقالوا: إنّ محمدا يتعلّم منه، وكان هذا العبد يقول: إنّما يقف عليّ يعلّمني الإسلام.

{ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ } كشف القرآن هذا اللبس هنا بأوضح كشف إذ قال قولا فصلا دون طول جدال ، أي كيف يعلّمه وهو أعجمي لا يكاد يبين وهذا القرآن فصيح عربي معجز. والجملة جواب عن كلامهم، فهي مستأنفة استئنافا بيانيّا.

أَلْحَدَ: مثل لَحَدَ، أي مال عن القويم. فهو مما جاء من الأفعال مهموز بمعنى المجرّد، كقولهم: أبان بمعنى بان. فمعنى { يُلْحِدُونَ } يميلون عن الحقّ، لأنّ ذلك اختلاق معاذير.

اللسان: الكلام. سمّي الكلام باسم آلته.

الأعجمي: المنسوب إلى الأعجم، وهو الذي لا يبيّن عن مراده، من كل ناطق لا يفهمون ما يريده. ولذلك سمّوا الدواب العجماوات.

المبين: اسم فاعل من أبان، إذا صار ذا إبانة، أي زائد في الإبانة بمعنى الفصاحة والبلاغة، فحصل تمام التضاد بينه وبين { لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ }.

{ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [104]

جملة معترضة. وورود هذه الآية عقب ذكر اختلاق المتقعّرين على القرآن المرجفين بالقالة فيه بين الدهماء

يومئ إلى أنّ المراد بالذين لا يؤمنون هم أولئك المردود عليهم آنفا. وهم فريق معلوم بشدّة العداوة للنبيء ﷺ وبالتصلّب في التصدّي لصرف النّاس عنه، بحيث بلغوا من الكفر غايةً ما وراءها غايةٌ، فحقّت عليهم كلمة الله أنّهم لا يؤمنون، فهؤلاء فريق غير معين يومئذ ولكنّهم مشار إليهم على وجه الإجمال وتكشف عن تعيينهم عواقب أحوالهم.

{ **لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ** } فقد كان من الكافرين بالنبيء ﷺ أبو جهل وأبو سفيان. وكان أبو سفيان أطول مدّة في الكفر من أبي جهل، ولكن أبا جهل كان يخلط كفره بأذى النبيء ﷺ والحنق عليه. وكان أبو سفيان مقتصرا على الانتصار لدينه ولقومه ودفع المسلمين عن أن يغلبوهم، فحرم الله أبا جهل الهداية فأهلكه كافرا، وهدى أبا سفيان فأصبح من خيرة المؤمنين.

وكان الوليد بن المغيرة وعمر بن الخطاب كافرين وكان كلاهما يدفع النّاس من اتباع الإسلام ولكن الوليد كان يختلق المعاذير والمطاعن في القرآن وذلك من الكيد، وعمر كان يصرف النّاس بالغلظة علنا دون اختلاق فحرم الله الوليد بن المغيرة الاهتداء، وهدى عمر إلى الإسلام فأصبح الإسلام به عزيز الجانب.

ويشير إلى هذا المعنى الذي ذكرناه قوله تعالى {إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار} [الزمر: 3] فوصف من لا يهديه الله بوصفين الكذب وشدة الكفر.

فتبيّن أن معنى قوله تعالى { الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ } من كان الإيمان منافيا لجبلّة طبعه لا لأميال هواه. وهذا يعلم الله أنّه لا يؤمن وأنه ليس معرّضا للإيمان فلذلك لا يهديه الله، أي لا يكوّن الهداية في قلبه.

وهذا الأسلوب عكس أسلوب قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ} [يونس:96]، وكلّ يرمي إلى معنى عظيم.

فموقع هذه الجملة من التي قبلها موقع التعليل لجميع أقوالهم المحكيّة والتذييل لخلاصة أحوالهم، ولذلك فصلت بدون عطف.

{ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } للدلالة على حرمانهم من الخير وإلقائهم في الشرّ، لأنّهم إذا حرموا الهداية فقد وقعوا في الضلالة، وماذا بعد الحقّ إلّا الضلال، وهذا كقوله تعالى { كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ } [الحج:4]. ويشمل العذاب عذاب الدنيا، وهو عذاب القتل مثل ما أصاب أبا جهل يوم بدر.

{ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ }[105]

هذا رد لقولهم { إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ } [101] بقلب ما زعموه عليهم، كما كان قوله تعالى { لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ} [103] جوابا عن قولهم { إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ }. فبعد أن نزّه القرآن عن أن يكون مفترى والمنزّل عليه عن أن يكون مفتريا ثُني العنان لبيان من هو المفتري. وهذا من طريقة القلب في الحال.

{ **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ** } ولأنهم أتوا في قولهم { إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ } بصيغة قصر هي أبلغ مما قالوه، قصر للمخاطب على صفة الافتراء الدائمة، إذ الجملة الاسمية تقتضي الثبات والدوام، رد عليهم بصيغة تقصرهم على الافتراء المتكرّر المتجدّد، إذ المضارع يدلّ على التجدّد.

{ **الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ** } عبّر عن المقصور عليهم باسم الموصول دون أن يذكر ضميرهم فيقال: إنّما يفتري الكذب أنتم، ليفيد اشتهارهم بمضمون الصلة، ولأنّ للصلة أثرا في افترائهم، لما تفيده الموصوليّة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر. واختير في الصلة صيغة { لا يُؤْمِنُونَ } دون: لم يؤمنوا. لتكون على وزان ما عُرفوا به سابقا في قوله { إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ }، ولما في المضارع من الدلالة على أنّهم مستمرّون على انتفاء الإيمان، لا يثبت لهم ضدّ ذلك.

{ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ** } افتتحت باسم الإشارة، بعد إجراء وصف انتفاء الإيمان بآيات الله عنهم، لينبّه على أن المشار إليهم جديرون بما يرد من الخبر بعد اسم الإشارة، وهو قصرهم على الكذب، لأنّ من لا يؤمن بآيات الله يتّخذ الكذب ديدنا له متجدّدا.

وجعل المسند في هذه الجملة معرفا باللام ليفيد أن جنس الكاذبين اتّحد بهم وصار منحصرا فيهم، أي الذين تُعرف أنهم طائفة الكاذبين. وهذا يؤول إلى معنى قصر جنس المسند على المسند إليه.

{ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْأِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }[106]

لما سبق التحذير من نقض عهد الله الذي عاهدوه، وأن لا يغرّهم ما لأمّة المشركين من السعة والرُبُو، والتحذير من زلل القدم بعد ثبوتها، وبُشّروا بالوعد بحياة طيبة، جزاء أعمالهم الصالحة من الإشارة إلى التمسك بالقرآن والاهتداء به، وأن لا تغرّهم شُبه المشركين وفتونهم في تكذيب القرآن، عقّب ذلك بالوعيد على الكفر بعد الإيمان، فالكلام استئناف ابتدائي.

ومناسبة الانتقال أنّ المشركين كانوا يحاولون فتنة الراغبين في الإسلام والذين أسلموا. فلذلك ردّ عليهم بقوله { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ - إلى قوله - لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا } [102].

وكان الغلام الذي عنوه بقولهم { إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } قد أسلم ثم فتنه المشركون فكفر، وهو جبر مولى عامر بن الحضرمي. وكانوا راودوا نفرا من المسلمين على الارتداد، منهم: بلال، وخباب بن الأرت، وياسر وسميّة أبوا عمار بن ياسر، فثبتوا على الإسلام. وفتنوا عمارا فأظهر لهم الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان. وفتنوا نفرا آخرين فكفروا، وذُكر منهم: (الحارث بن ربيعة بن الأسود، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أميّة

بن خلف، والعاصي بن منبّه بن الحجاج). وأحسب أن هؤلاء هم الذين نزل فيهم قوله تعالى { وَمِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّاس كَعَذَابِ اللَّهِ } [العنكبوت:10]، فكان من هذه المناسبة رد لعجز الكلام على صدره.

كما ابتدئ بالتحذير تحفّظا على الصالح من الفساد، ثم أعيد الكلام بإصلاح الذين اعتراهم الفساد، وفتح باب الرخصة للمحافظين على صلاحهم بقدر الإمكان.

وإن كانت الآية لا تشير إلى نفر كفروا بعد إسلامهم، فهي مجرّد تحذير للمسلمين من العود إلى الكفر، ولذلك تكون (من) شرطية، والشرط غير مراد به معين بل هو تحذير، أي من يكفروا بالله، لأنّ الماضي في الشرط ينقلب إلى معنى المضارع، ويكون قوله { فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ } جوابا.

والتحذير حاصل على كلا المعنيين.

{ **إلّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ** } فهو ترخيص ومعذرة لِمَا صدر من عمار بن ياسر وأمثاله إذا اشتدّ عليهم عذاب من فتنوهم.

{ **إلّا مَنْ أُكْرِهَ** } استثناء من عموم { مَنْ كَفَرَ }، أي إلّا من أكرهه المشركون على الكفر، أي على إظهاره فأظهره بالقول لكنّه لم يتغيّر اعتقاده.

{ **وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً** } استدرك على الاستثناء، وهو احتراس من أن يُفهم أنّ المكره مرخّص له أن ينسلخ عن الإيمان من قلبه.

{ **فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** } تدلّ الجملة الاسمية على الدوام والثبات، أي غضب لا مغفرة معه. وتقديم الخبر المجرور على المبتدأ للاهتمام بأمرهم، فقدّم ما يدل عليهم، ولتصحيح الإتيان بالمبتدأ نكرة حين قصد بالتنكير التعظيم، أي غضب عظيم، فاكتفى بالتنكير عن الصفة.

الإكراه: الإلجاء إلى فعل ما يُكره فعله. وإنّما يكون ذلك بفعل شيء تضيق عن تحمّله طاقة الإنسان من إيلام بالغ أو سجن أو قيد أو نحوه.

وقد رخّصت هذه الآية للمكره على إظهار الكفر، أن يظهره بشيء من مظاهره التي يطلق عليها أنّها كفر في عرف النّاس من قول أو فعل.

وقد أجمع علماء الإسلام على الأخذ بذلك في أقوال الكفر، فقالوا: فمن أكره على الكفر غير جارية عليه أحكام الكفر، لأنّ الإكراه قرينة على أنّ كفره تقيّة ومصانعة بعد أن كان مسلما. وقد رخّص الله ذلك رفقا بعباده واعتبارا للأشياء بغاياتها ومقاصدها.

وفي الحديث: أنّ ذلك وقع لعمار بن ياسر، وأنّه ذكر ذلك للنبيء ﷺ فصوّبه وقال له: **"وإن عادوا لك فعد".** واجمع على ذلك العلماء.

وسوّى جمهور العلماء بين أقوال الكفر وأفعاله كالسجود للصنم. وقالت طائفة: إن الإكراه على أفعال الكفر لا يبيحها. ونسب إلى الأوزاعي وسحنون والحسن البصري، وهي تفرقة غير واضحة. وقد ناط الله الرخصة باطمئنان القلب بالإيمان.

وإذا كان الإكراه موجب الرخصة في إظهار الكفر فهو في غير الكفر من المعاصي أولى كشرب الخمر والزنا، وفي رفع أسباب المؤاخذة في غير الاعتداء على الغير كالإكراه على الطلاق أو البيع.

وأما في الاعتداء على النّاس من ترتب الغرم فبين مراتب الإكراه ومراتب الاعتداء المكروه عليه تفاوت، وأعلاها الإكراه على قتل نفس. وهذا يظهر أنّه لا يبيح الإقدام على القتل، لأنّ التوعّد قد لا يتحقّق وتفوت نفس القتيل.

والخلاف في طلاق المكره معلوم، والتفاصيل والتفاريع مذكورة في كتب الفروع وبعض التفاسير.

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } [107]

هذه الجملة واقعة موقع التعليل لمضمون قوله { فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [106].

{ **بِأَنَّهُمُ** } الضمير عائد إلى { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ } [106]، والباء للسببية.

{ **اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ** } مبالغة في (أحبّوا). وضُمّن معنى فضّلوا بحرف (على)، أي لأنّهم قدّموا نفع الدنيا على نفع الآخرة، فهم قد استقرّ في قلوبهم أحقيّة الإسلام، وما رجعوا عنه إلّا خوف الفتنة أو رغبة في رفاهية العيش، فيكون كفرهم اشدّ من كفر المستصحبين للكفر من قبل البعثة.

{ **وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** } سبب ثان للغضب والعذاب، أي وبأنّ الله حرمهم الهداية فهم موافونه على الكفر. وقد تقدّم تفسير ذلك عند قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ } [104].

وهو تذييل لما في صيغة { الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } من العموم الشامل للمتحدّث عنهم وغيرهم، فليس ذلك إظهارا في مقام الإضمار ولكنّه عموم بعد خصوص.

{ **الْقَوْمَ** } للدلالة على أنّ من كان هذا شأنهم فقد عرفوا به وتمكّن منهم وصار سجيّة، حتّى كأنّهم يجمعهم هذا الوصف.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ } [108]

مبيّنة لجملة { وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }، بأنّ حرمانهم الهداية بحرمانهم الانتفاع بوسائلها: من النظر

الصادق في دلائل الوحدانيّة، ومن الوعي لدعوة الرّسول ﷺ والقرآن المنزّل عليه. ومن ثبات القلب على حفظ ما داخله من الإيمان، حيث انسلخوا منه بعد أن تلبّسوا به.

الطبع: مستعار لمنع وصول الإيمان وأدلّته، على طريقة تشبيه المعقول بالمحسوس. وقد تقدّم مفصّلا عند قوله تعالى { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ } [البقرة:7].

{ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** } تكملة للبيان، أي الغافلون الأكملون في الغفلة. والقصر قصر موصوف على صفة، وهو حقيقي ادعائي يقصد به المبالغة، لأنّهم بلغوا الغاية في الغفلة.

{ **لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ** } واقعة موقع النتيجة لما قبلها، لأنّ ما قبلها صار كالدليل على مضمونها، ولذلك افتتحت بكلمة نفي الشك.

{ **لا جَرَمَ** } بمعنى (لا محالة) أو (لا بدّ). وتقدّم بسط تفسيرها عند قوله تعالى { لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ } [هود:22]. ووقع هنا { هُمُ الْخَاسِرُونَ } لأنّ آية هود تقدّمها { أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ }، فكان المقصود بيان خسارتهم في الآخرة أشد من خسارتهم في الدنيا.

والمعنى هنا: أن خسارتهم هي الخسارة، لأنّهم أضاعوا النعيم إضاعة أبدية.

{ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [110]

عطف على { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ - إلى قوله - هُمُ الْخَاسِرُونَ } [106- 109].

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي، كما هو شأنها في عطفها الجمل. وذلك أنّ مضمون هذه الجملة المعطوفة أعظم رتبة من المعطوف عليها، إذ لا أعظم من رضى الله تعالى كما قال تعالى { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ } [التوبة:72].

{ **لِلَّذِينَ هَاجَرُوا** } المهاجرون إلى الحبشة الذين أذن لهم النبيء ﷺ بالهجرة للتخلّص من أذى المشركين. ولا يستقيم معنى الهجرة إلّا لهذه.

قال ابن إسحاق:" فلمّا رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانة من الله ومن عمه أبي طالب، وأنّه لا يقدر على أن يمنعهم ممّا هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتّى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا بدينهم " .

{ **هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا** } أومأ إلى حظّهم من الفضل، فسمّى عملهم هجرة. وهذا الاسم في مصطلح القرآن يدلّ على مفارقة الوطن لأجل المحافظة على الدين، كما حُكي عن إبراهيم - عليه السلام - { وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي } [العنكبوت:26]. وسمّى ما لقوه من المشركين فتنة.

الفتنة: العذاب والأذى الشديد المتكرّر الذي لا يترك لمن يقع به صبرا ولا رأيا. وتقدّم بيانها عند قوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191].

المجاهدة: المقاومة بالجهد، أي الطاقة. والمراد هنا، دفاعهم المشركين عن أن يردّوهم إلى الكفر.

وهاتان الآيتان مكّيّتان نازلتان قبل شرع الجهاد الذي هو بمعنى قتال الكفار لنصر الدين.

الصبر: الثبات على تحمّل المكروه والمشاق.

ويدلّ على ذلك ما في صحيح البخاري: أنّ أسماء بنت عُميس، وهي ممن قدم من أرض الحبشة، دخلت على حفصة فدخل عمر عليها فقال لها: سبقناكم بالهجرة فنحن أحقّ برسول الله منكم، فغضبت أسماء وقالت: كلّا والله، كنتم مع النبيء يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، وكنّا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة، ونحن كنّا نؤذى ونخاف، وذلك في الله ورسوله، وأيّم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتّى أذكر ما قلت لرسول الله، فلمّا جاء النبيء ﷺ بيت حفصة قالت: أسماء: يا رسول الله إنّ عمر قال كذا وكذا، قال: " فما قلت له؟" قالت: قلت له كذا وكذا، قال: " ليس بأحقّ بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنّتم أهل السفينة هجرتان".

{ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } وتعريف المسند إليه الذي هو اسم (إنّ) بطريق الإضافة دون العلميّة لما يومئ إليه إضافة لفظ (ربّ) إلى ضمير النبيء من كون المغفرة والرحمة لأصحابه كانت لأنّهم أوذوا لأجل الله ولأجل النبيء ﷺ فكان إسناد المغفرة إلى الله بعنوان كونه ربّ محمد ﷺ حاصلا بأسلوب يدلّ على الذات العليّة وعلى الذات المحمدية. وهذا من أدق لطائف القرآن في قرن اسم النبيء باسم الله بمناسبة هذا الإسناد بخصوصه.

{ مِنْ بَعْدِهَا } الضمير عائد إلى الهجرة المستفادة من { هَاجَرُوا } ، أو إلى المذكورات: من هجرة وفتنة وجهاد وصبر، أو إلى الفتنة المأخوذة من { فُتِنُوا }. وكل تلك الاحتمالات تشير إلى أنّ المغفرة والرحمة لهم جزاء على بعض تلك الأفعال أو كلّها.

{ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }[111]

يجوز أن يكون هذا استئنافا وتذييلا بتقدير: اذكر يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها، وقع عقب التحذير والوعيد؛ وعيدا للذين أُنذروا ووعدا للذين بُشّروا.

ويجوز أن يكون متّصلا بقوله { إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [110]، فيكون انتصاب { يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ } على الظرفيّة { لَغَفُورٌ رَحِيمٌ }، أي يغفر لهم ويرحمهم يوم القيامة، بحيث لا يجدون أثرا لذنوبهم التي لا يخلو عنها غالب النّاس، ويجدون رحمة من الله بهم يومئذ. فهذا المعنى هو مقتضى الإتيان بهذا الظرف.

المجادلة: دفاع بالقول للتخلّص من تبعة فعل. وتقدّم عند قوله تعالى { وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ }

[النساء:107].

{ كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا } النفس الأولى: بمعنى الذات والشخص كقوله { أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ } [المائدة: 45]، والنفس الثانية ما به الشخص شخص، فالاختلاف بينهما بالاعتبار. وتقدّم في قوله { وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ } [البقرة:44].

وذلك أن العرب يستشعرون للإنسان جملة مركّبة من جسد وروح فيسمّونها النفس، أي الذات، وهي ما يعبّر عنه المتكلم بضمير (أنا)، ويستشعرون للإنسان قوة باطنية بها إدراكه ويسمّونها نفسا أيضا. ومنه أخذ علماء المنطق اسم النفس الناطقة.

والمعنى: يأتي كل أحد يدافع عن ذاته، أي يدافع بأقواله ليدفع تبعات أعماله. ففاعل المجادلة وما هو في قوّة مفعوله شيء واحد. وهذا قريب من نوع وقوع الفاعل والمفعول شيئا واحد في أفعال الظن والدعاء، بكثرة مثل: أراني فاعلا كذا.

{ وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }

{ تُوَفَّى } تُعطى شيئا وافيا، أي كاملا غير منقوص، و**{ مَا عَمِلَتْ }** مفعول ثان، وهو على حذف مضاف تقديره: جزاء ما علمت، أي من ثواب أو عقاب، وإظهار كل نفس في مقام الإضمار لتكون الجملة مستقلة فتجري مجرى المثل.

الظلم: الاعتداء على الحقّ. وأطلق هنا على مجاوزة الحدّ المعيّن للجزاء في الشرّ والإجحاف عنه في الخير، لأنّ الله لمّا عين الجزاء على الشرّ ووعد بالجزاء على الخير صار ذلك كالحقّ لكل فريق. والعلم بمراتب هذا التحديد مفوّض لله تعالى { وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً } [الكهف:49].

{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } [112]

بعد أن توعّدهم بقوارع الوعيد بقوله { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [104] وقوله { فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ - إلى قوله - لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [106 - 109]. عاد الكلام إلى تهديدهم بعذاب في الدنيا، بأنّ جعلهم مضرب مثل لقرية عُذّبت عذاب الدنيا، أو جعلهم مثلا وعظة لمن يأتي بمثل ما أتوا به من إنكار نعمة الله.

ويجوز أن يكون المعطوف عليها جملة { يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ } [111]، على اعتبار تقدير (اذكر).

{ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً** }: بمعنى جعل، أي صاغ المثل وأوحى به إلى رسوله ﷺ. وصيغة الماضي للتشويق إلى الإصغاء إليه، وهو من استعمال الماضي في الحال لتحقيق وقوعه، مثل { أَتَى أَمْرُ اللَّهِ } [1]، أو لتقريب زمن الماضي من زمن الحال، مثل: قد قامت الصلاة.

ويجوز أن يكون { **وَضَرَبَ** } مستعملا في معنى الطلب والأمر، أي اضرب يا محمد لقومك مثلا قرية إلى آخره، كما سيجيء عند قوله تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاء } [الزمر:29]. وإنّما صيغ في صيغة الخبر توسّلا إلى إسناده إلى الله، تشريفا له وتنويها به.

{ **قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً** } استغنى عن تعيين القرية، للتعريض بالمشركين باحتمال أن تكون القرية قريتهم أعني مكّة، بأن جعلهم مثلا للنّاس من بعدهم. ويقْوَى هذا الاحتمال إذا كانت هذه الآية قد نزلت بعد أن أصاب أهل مكّة الجوع الذي أنذروا به في قوله تعالى { فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النّاس هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الدخان: 10،11]. وهو الدخان الذي كان يراه أهل مكّة أيام القحط الذي أصابهم بدعاء النبيء ﷺ. ويؤيد هذا قوله بعد { وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ } [113].

ولعلّ المخاطب بهذا المثل هم المسلمون الذين هاجروا من بعد ما فتنوا، أي أصحاب هجرة الحبشة، تسلية لهم مفارقة بلدهم، وبعثا لهم على أن يشكروا الله تعالى إذ أخرجهم من تلك القرية فسلموا مما أصاب أهلها وما يصيبهم.

{ **قَرْيَةً** } تقدّم معنى القرية عند قوله تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ } [البقرة:259]. والمراد بالقرية أهلها إذ هم المقصود كقوله: { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } [يوسف: 82].

{ **آمِنَةً** } السلامة من تسلّط العدو.

{ **مُطْمَئِنَّةً** } الدعة وهدوء البال. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } [البقرة:260].

وقدّم الأمن على الطمأنينة إذ لا تحصل الطمأنينة بدونه.

{ **يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً** } تيسير الرزق فيها من أسباب راحة العيش، وقد كانت مكّة كذلك. قال تعالى { أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ } [القصص:57].

الرزق: الأقوات. وقد تقدّم عند قوله { لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ } [يوسف:37].

الرغد: الوافر الهنيء. وتقدّم عند قوله { وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا } [البقرة:35].

{ **مِنْ كُلِّ مَكَانٍ** } بمعنى من أمكنة كثيرة. و (كلّ) تستعمل في معنى الكثرة، كما تقدّم في قوله تعالى { وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا } [الأنعام:25].

الأنعُم: جمع نعمة على غير قياس.

{ **فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ** } الكفر بالمُنعِم، لأنّهم أشركوا غيره في عبادته، فلم يشكروا المنعم الحقّ. وهذا يشير إلى

قوله تعالى { يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ } [83].

{ **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ** } تعقيب عرفي في مثل ذلك المعقّب، لأنّه حصل بعد مضيّ زمن عليهم وهم مصرّون على كفرهم والرّسول يكرّر الدعوة وإنذارهم به. فلمّا حصل عقِب ذلك بمدّة غير طويلة، وكان جزاء على كفرهم، جُعل كالشيء المعقّب به كفرهم.

الإذاقة: حقيقتها إحساس اللسان بأحوال الطعوم. وهي مستعارة هنا وفي مواضع من القرآن إلى إحساس الألم والأذى، إحساسا مكينا، كتمكّن ذوق الطعام من فم ذائقه لا يجد له مدفعا، وقد تقدّم في قوله تعالى { لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ } [المائدة:95].

اللباس: حقيقته الشيء الذي يلبس. وإضافته إلى الجوع والخوف قرينة على أنّه مستعار إلى ما يغشى من حالة إنسان ملازمة له كملازمة اللباس لابسه، كقوله تعالى { هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ } [البقرة187].

ومن لطائف البلاغة جعل اللباس لباس شيئين لأنّ تمام اللبسة أن يلبس المرء إزارا ودرعا.

{ **بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** } أجمل هنا، اعتمادا على سبق ما بيّنه من قوله { فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّه }.

{ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ }[113]

لمّا أخبر عنهم بأنّهم أذيقوا لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، وكان إنّما ذكر من صنعهم أنّهم كفروا بأنعم الله. زيد هنا أنّ ما كانوا يصنعون عام لكلّ عمل لا يرضي الله، غير مخصوص بكفرهم نعمة الله، وإنّ من أشنع ما كانوا يصنعون تكذيبهم رسول الله ﷺ مع أنّه منهم. وذلك أظهر في معنى الإنعام عليهم والرفق بهم. وما من قرية أُهلكت إلّا وقد جاءها رسول من أهلها { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حتّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا } [القصص: 59].

الأخذ: الإهلاك. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } [الأعراف:95].

وتأكيد الجملة بلام القسم وحرف التحقيق للاهتمام بهذا الخبر تنبيها للسامعين المعرّض بهم لأنّه محل الإنذار.

{ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }[114]

تفريع على الموعظة وضرب المثل، وخوطب به فريق من المسلمين كما دل عليه قوله { إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ } [114،115] إلى آخره.

ولعلّ هذا موجّه إلى أهل هجرة الحبشة إذ أصبحوا آمنين عند ملك عادل في بلد يجدون فيه رزقا حلالا وهو ما يُضافون به وما يكسبونه بكدّهم، أي إذا علمتم حال القرية الممثّل بها أو المعرّض بها فاشكروا الله الذي نجّاكم من مثل ما أصاب القرية، فاشكروا الله ولا تكفروه كما كفر بنعمته أهل تلك القرية.

{ **فَكُلُوا** } الأمر للامتنان. وإدخال حرف التفريع عليه باعتبار أنّ الأمر بالأكل مقدّمة للأمر بالشكر، وهو المقصود بالتفريع. والمقصود: فاشكروا نعمة الله ولا تكفروها فيحلّ بكم ما حل بأهل القرية المضروبة مثلا.

الحلال: المأذون فيه شرعا. و**الطيب**: ما يطيب للنّاس طعمه وينفعهم قوته.

{ **وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ** } إظهار اسم الجلالة مع أن مقتضى الظاهر الإضمار لزيادة التذكير، ولتكون جملة هذا الأمر مستقلّة بدلالتها بحيث تصحّ أن تجرى مجرى المثل.

{ **إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** } إن كنتم لا تعبدون غيره كما هو مقتضى الإيمان. وتعليق ذلك بالشرط للبعث على الامتثال لإظهار صدق إيمانهم.

{ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [115]

بيان لمضمون { فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً } [114] لتمييز الطيّب من الخبيث فإنّ المذكورات في المحرّمات هي خبائث خبثا فطريّا لأنّ بعضها مفسد لتولّد الغذاء، لما يشتمل عليه من المضرّة. وتلك هي الميتة والدم ولحم الخنزير. وبعضها مناف للفطرة، وهو ما أُهلّ به لغير الله لأنّه مناف لشكر المنعم بها، فالله خلق الأنعام والمشركون يذكرون اسم غير الله عليها.

ولإفادة بيان الحلال الطيب بهذه الجملة جيء فيها بأداة الحصر، أي ما حرم عليكم إلّا الأربع المذكورات فبقي ما عداها طيبا. وهذا بالنظر إلى الطيّب والخبث بالذات. وقد يعرض الخبث لبعض المطعومات عرضا. ومناسبة هذا التحديد في المحرّمات أنّ بعض المسلمين كانوا بأرض غربة وقد يؤكل فيها لحم الخنزير وما أهل به لغير الله، وكان بعضهم ببلد يؤكل فيه الدم وما أهل به لغير الله. وقد مضى تفسير نظير هذه الآية في سورة البقرة والأنعام.

{ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ [116] مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [117].

عاد الخطاب إلى المشركين، فالجملة معطوفة على جملة { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً } [112].

وفيه تعريض بتحذير المسلمين لأنّهم كانوا قريبي عهد بجاهلية فربما بقيت في نفوس بعضهم كراهية أكل ما كانوا يتعفّفون عن أكله في الجاهلية.

{ **لِمَا تَصِفُ** } واللام هي إحدى اللامين اللتين يتعدّى بهما فعل القول وهي التي بمعنى (عن) الداخلة على المتحدّث عنه، فهي كاللام في قوله { الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا } [آل عمران:168]، أي قالوا عن إخوانهم. وليست هي لام التقوية الداخلة على المخاطب بالقول.

{ **تَصِفُ** } معناه تذكر وصفا وحالا، كما في قوله تعالى { وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى } [62]. أي لا تقولوا ذلك وصفا كذبا، لأنّه تقوُّل لم يقله الذي له التحليل والتحريم وهو الله تعالى.

{ **الْكَذِبَ** } انتصب على المفعول المطلق لـ { تَصِفُ } ، أي وصفا كذبا.

{ **هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ** } اسم الإشارة حكاية بالمعنى لأوصافهم أشياء بالحلّ وأشياء بالتحريم.

{ **لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** } علّة لـ { تقولوا } باعتبار كون الافتراء حاصلا لا باعتبار كونه مقصودا للقائلين، فهي لام العاقبة وليست لام العلة. وقد تقدّم قريبا أنّ المقصد منها تنزيل الحاصل المحقّق حصوله بعد الفعل منزلة الغرض المقصود من الفعل.

افتراء الكذب تقدّم آنفا. والذين يفترون هم المشركون الذين حرّموا أشياء.

{ **مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** } استئناف بياني في صورة جواب عمّا يجيش بخاطر سائل يسأل عن عدم فلاحهم مع مشاهدة كثير منهم في حالة من الفلاح، فأجيب بأنّ ذلك متاع، أي نفع موّقت زائل ولهم بعده عذاب أليم.

والآية تحذّر المسلمين من أن يتقوّلوا على الله ما لم يقله.

{ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[118]

لما شنّع على المشركين أنّهم حرّموا على أنفسهم ما لم يحرّمه الله، وحذّر المسلمين من تحريم أشياء على أنفسهم جريا على ما اعتاده قومهم من تحريم ما أحلّ لهم، نظّر أولئك وحذّر هؤلاء. فهذا وجه تعقيب الآية السالفة بهذه الآية.

{ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا** } تقديم المجرور للاهتمام، وللإشارة إلى أنّ ذلك حرّم عليهم ابتداء ولم يكن محرّما من شريعة إبراهيم عليه السلام التي كان عليها سلفهم، كما قال تعالى { كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرائيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ } [آل عمران:93]، أي عليهم دون غيرهم فلا تحسبوا أنّ ذلك من الحنيفيّة.

{ **مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ** } المراد منه ما ذُكر في سورة الأنعام { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ

وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } [146] كما روي عن الحسن وعكرمة وقتادة.

{ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }، أي وما ظلمناهم بما حرّمنا عليهم ولكنّهم كفروا النعمة فحُرموا من نعم عظيمة.

وغير أسلوب الكلام إلى خطاب النبيء ﷺ لأنّ جانب التحذير فيه أهم من جانب التنظير.

{ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [119]

لمّا ذكرت أحوال أهل الشرك وكان منها ما حرّموه على أنفسهم، وكان المسلمون قد شاركوهم أيام الجاهلية في ذلك، ووردت قوارع الذمّ لما صنعوا، كان مما يتوهّم علوقه بأذهان المسلمين أن يحسبوا أنّهم سينالهم شيء من غمص لما اقترفوه في الجاهلية، فطمأن الله نفوسهم بأنّهم لمّا تابوا بالإقلاع عن ذلك بالإسلام وأصلحوا عملهم بعد ان أفسدوا فإنّ الله قد غفر لهم مغفرة عظيمة ورحمهم رحمة واسعة.

{ رَبَّكَ } ووقع الإقبال بالخطاب على النبيء ﷺ إيماء إلى أنّ تلك المغفرة من بركات الدين الذي أرسل به.

وذكر اسم الربّ مضافا إلى ضمير النبيء للنكتة المتقدمة آنفا في قوله { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا }.

الجهالة: انتفاء العلم بما يجب. والمراد: جهالتهم بأدلّة الإسلام.

{ ثُمَّ } للترتيب الرتبي، لأنّ الجملة المعطوفة تضمّنت حكم التوبة وأنّ المغفرة والرحمة من آثارها، وذلك أهم عند المخاطبين مما سبق من وعيد، أي الذين عملوا السوء جاهلين بما يدلّ على فساد ما عملوه.

ويدخل في هذا الحكم من عمل حراما من المسلمين جاهلا بأنّه حرام وكان غير مقصّر في جهله. وقد تقدّم عند قوله تعالى { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ } [النساء:17].

{ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } تأكيد لفظي لقوله { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ } لزيادة الاهتمام بالخبر على الاهتمام الحاصل بحرف التوكيد ولام الابتداء.

{ مِنْ بَعْدِهَا } عائد إلى الجهالة أو إلى التوبة.

ووقع الخبر بوصف الله بصفة المبالغة في المغفرة والرحمة، وهو كناية عن غفرانه لهم ورحمته إيّاهم.

{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [120] شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [121] **وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** } [122].

استئناف ابتدائي للانتقال إلى غرض التنويه بدين الإسلام. فبعد أن بشّرهم بأنّه غفر لهم ما عملوه من قبل، زادهم فضلا ببيان فضل الدين الذي اتّبعوه. وجعل الثناء على إبراهيم عليه السلام مقدّمة لذلك. والمقصود، بعد هذا التمهيد و هاته المقدّمة، هو الإفضاء إلى قوله { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [123]. والأصل الأصيل الذي تفرّع عنه وعن فروعه هذا الانتقال، ما ذكر في الآية قبلها من تحريم أهل الجاهلية على أنفسهم كثيرا ممّا أنعم الله به على الناس، ونظّرهم باليهود إذ حرم الله عليهم أشياء، تشديدا عليهم، فجاء بهذا الانتقال لإفادة أنّ كلا الفريقين قد حادوا عن الحنيفيّة التي يزعمون أنهم متابعوها، وأنّ الحنيفة هي ما جاء به الإسلام من إباحة ما في الأرض جميعا من الطيبات إلّا ما بيّن الله تحريمه في آية { قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً } [الأنعام:145].

{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً }

الأمة: الطائفة العظيمة من النّاس التي تجمعها جهة جامعة. وتقدم في قوله تعالى { كَانَ النّاس أُمَّةً وَاحِدَةً } [البقرة:213]. ووصف إبراهيم - عليه السلام – بذلك، وصفٌ بديعٌ لمعنيين:

أحدهما: أنه كان في الفضل والفتوّة والكمال بمنزلة أمّة كاملة. وهذا كقولهم: أنت الرجل كلّ الرجل.

وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن النبيء ﷺ قال: " معاذٌ أمة قانتٌ لله".

الثاني: أنّه كان أمّة وحده في الدين، لأنّه لم يكن في وقت بعثته، موحّد لله غيره. فهو الذي أحيا الله به التوحيد، وبثّه في الأمم والأقطار، وبنى له معلما عظيما، وهو الكعبة، ودعا النّاس إلى حجّه لإشاعة ذكره بين الأمم، ولم يزل باقيا على العصور.

القانت: المطيع. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } [البقرة:238].

الحنيف: المجانب للباطل. وقد تقدّم عند قوله { قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [البقرة:135].

{ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } اعتراض لإبطال مزاعم المشركين أنّ ما هم عليه هو دين إبراهيم - عليه السلام - وقد صوّروا إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يستقسمان بالأزلام ووضعوا الصورة في جوف الكعبة، كما جاء في حديث غزوة الفتح. فليس القول مسوقا مساق الثناء على إبراهيم، ولكنّه تنزيه له عمّا اختلقه عليه المبطلون. فوزانه وزان قوله { وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ } [التكوير:22]. وهو كالتأكيد لوصف الحنيف بنفي ضدّه مثل { وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى } [طه:79].

{ وَلَمْ يَكُ } ونفي كونه من المشركين بحرف (لَمْ) لأنّها تقلب زمن الفعل المضارع إلى الماضي، فتفيد انتفاء مادة الفعل في الزمن الماضي، وتفيد تجدد ذلك المنفي. أي أنّ إبراهيم عليه السلام لم يتلبس بالإشراك قط، وأنّه لا يتلبس بالإشراك أبدا.

{ **شَاكِراً لأَنْعُمِهِ** } مدح لإبراهيم - عليه السلام - وتعريض بذرّيّته الذين أشركوا وكفروا نعمة الله مقابل قوله { فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ } [112]. وتقدّم قريبا الكلام على أنعم الله.

{ **اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** } مستأنفة استئنافا بيانيا، لبيان سبب فوز إبراهيم بهذه المحامد.

الاجتباء: الاختيار، وهو افتعال من جبى إذا جمع.

الهداية إلى الصراط المستقيم: الهداية إلى التوحيد ودين الحنيفيّة.

{ **وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** } ضمير { آتَيْنَاهُ } التفات من الغيبة إلى التكلم تفننا في الأسلوب لتوالي ثلاثة ضمائر غيبة.

الحسنة في الدنيا: كلّ ما فيه راحة العيش من اطمئنان القلب بالدين، والصحة، والسلامة، وسعة الرزق الكافي، وحسن الذكر بين النّاس. وتقدّم في قوله { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً } [البقرة:201].

الصلاح: تمام الاستقامة في دين الحقّ. واختير هذا الوصف إشارة إلى أنّ الله أكرمه بإجابة دعوته، إذ حكى عنه أنّه قال { رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } [الشعراء:83].

{ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [123]

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي المشير إلى أنّ مضمون الجملة المعطوفة متباعد في رتبة الرفعة على مضمون ما قبلها، تنويها جليلا بشأن النبيء ﷺ وبشريعة الإسلام، وزيادة في التنويه بإبراهيم - عليه السلام -، أي جعلناك متّبعا ملة إبراهيم، وذلك أجلّ ما أوليناكما من الكرامة. وقد بيّنت آنفا أنّ هذه الجملة هي المقصود، وأن جملة { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } تمهيد لها.

{ **أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** } للتنبيه على أن اتّباع محمد ملّة إبراهيم كان بوحي من الله وإرشاد صادق، تعريضا بأنّ الذين زعموا اتّباعهم ملّة إبراهيم من العرب من قبل قد أخطأوها بشبهة، مثل أمية بن أبي الصلت، وزيد ابن عمرو بن نفيل، أو بغير شبهة مثل مزاعم قريش في دينهم.

{ **أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً** } بيان وتفسير لفعل { أَوْحَيْنَا }، لأنّ فيه معنى القول دون حروفه، فاحتيج إلى تفسيره بحرف التفسير(أن).

الاتّباع: اقتفاء السير على سير آخر. وهو هنا مستعار للعمل بمثل عمل الآخر.

{ **حَنِيفاً** } انتصب على الحال من { إِبْرَاهِيمَ } فيكون زيادة تأكيد لمماثلة قبله، أي كن يا محمد حنيفا كما كان إبراهيم حنيفا. ولذلك قال النبيء ﷺ: " بعثت بالحنيفيّة السمحة ".

وهذا تفسير بكلام جامع لما أوحى الله به إلى محمد ﷺ من شرائع الإسلام مع الإعلام بأنّها مقامة على أصول ملّة إبراهيم. وليس المراد أوحينا إليك كلمة { اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً }، لأنّ النبيء ﷺ لا يعلم تفاصيل ملّة

إبراهيم، فتعيّن أنّ المراد، أنّ الموحى به إليه منبجس من شريعة إبراهيم - عليه السلام- .
{ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } هو مما أوحاه الله إلى محمد ﷺ المحكي بقوله **{ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ }**.
وقد علم من هذا أن دين الإسلام منزّه عن أن تتعلّق به شوائب الإشراك لأنّه جاء كما جاء إبراهيم معلنا توحيدا لله بالإلهية ومجتثّا لوشيج الشرك. والشرائع الإلهية كلّها وإن كانت تحذّر من الإشراك فقد امتاز القرآن من بينها بسد المنافذ التي يتسلّل منها الإشراك بصراحة أقواله وفصاحة بيانه، وأنّه لم يترك في ذلك كلاما متشابها كما قد يوجد في بعض الكتب الأخرى، مثل ما جاء في التوراة من وصف اليهود بأبناء الله، وما في الأناجيل من موهِم بنوّة - عيسى عليه السلام - لله سبحانه عما يصفون.
وقد أشار إلى هذا المعنى قول النبيء ﷺ في خطبة حجة الوداع: " أيّها النّاس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبدا، ولكنّه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقّرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم ".
ومعنى اتباع محمد ملّة إبراهيم، الواقع في كثير من آيات القرآن، أنّ دين الإسلام بني على أصول ملّة إبراهيم، وهي أصول الفطرة، والتوسّط بين الشدّة واللين، كما قال تعالى { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ } [الحج:78].
فالشريعة التي تبنى تفاصيلها وتفاريعها على أصول شريعة تعتبر كأنّها تلك الشريعة. ولذلك قال المحقّقون من علمائنا: إنّ الحكم الثابت بالقياس في الإسلام يصحّ أن يقال إنّه دين الله وإن كان لا يصح أن يقال: قاله الله. وليس المراد أنّ جميع ما جاء به الإسلام قد جاء به إبراهيم - عليه السلام - إذ لا يخطر ذلك بالبال، فإنّ الإسلام شريعة قانونية سلطانية، وشرع إبراهيم شريعة قبائليّة خاصة بقوم، ولا أنّ المراد أن الله أمر النبيء محمدا ﷺ باتباع ملة إبراهيم ابتداء قبل أن يوحي إليه بشرائع دين الإسلام، لأنّ ذلك وإن كان صحيحا من جهة المعنى، وتحتمله ألفاظ الآية، لكنّه لا يستقيم، إذ لم يرد في شيء من التشريع الإسلامي ما يشير إلى أنّه نسخ لما كان عليه النبيء ﷺ من قبل.
فاتباع النبيء ملة إبراهيم كان بالقول والعمل في أصول الشريعة من إثبات التوحيد والمحاجّة له، واتباع ما تقتضيه الفطرة. وفي فروعها ممّا أوحى الله إليه من الحنيفيّة مثل الختان وخصال الفطرة والإحسان.

{ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }[124]

موقع هذه الآية ينادي على أنّها تضمّنت معنى يرتبط بملة إبراهيم وبمجيء الإسلام على أساسها.
فلمّا نفت الآية قبل هذه أن يكون إبراهيم - عليه السلام - من المشركين، ردا على مزاعم العرب المشركين أنّهم على ملّة إبراهيم، انتقل بهذه المناسبة إلى إبطال ما يشبه تلك المزاعم. وهي مزاعم اليهود أنّ ملّة

اليهودية هي ملّة إبراهيم، زعما ابتدعوه حين ظهور الإسلام جحدا لفضيلة فاتتهم، وهي فضيلة بناء دينهم على أوّل دين للفطرة الكاملة حسدا من عند أنفسهم. وقد بيّنّا ذلك عند قوله تعالى { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ } [آل عمران:65]. ولمّا كانت هذه السورة مكّيّة لم يتعرّض فيها للنصارى الذين تعرض لهم في سورة آل عمران.

{ **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ** } استئنافا بيانيّا نشأ عن قوله { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [123] إذ يثير سؤالًا من المخالفين: كيف يكون الإسلام من ملة إبراهيم؟ وفيه جعل يوم الجمعة اليوم المقدس. وقد جعلت التوراة لليهود يوم التقديس يوم السبت. ولعل اليهود شغبوا بذلك على المسلمين، فكان قوله { إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ } بيانا لجواب هذا السؤال.

{ **إنّما** } للحصر، وهو قصر قلب مقصود به الرد على اليهود بالاستدلال عليهم بأنّهم ليسوا على ملة إبراهيم، لأنّ السبت جعله الله لهم شرعا جديدا بصريح كتابهم إذ لم يكن عليه سلفهم.

{ **جُعِلَ** } فرض وعين عليهم، أي فرضت عليهم أحكام السبت؛ من تحريم العمل فيه، وتحريم استخدام الخدم والدواب. وعدل عن ذكر اسم اليهود أو بني إسرائيل مع كونه أوجز إلى التعبير عنهم، بالموصول لأنّ اشتهارهم بالصلّة كاف في تعريفهم، مع ما في الموصول وصلته من الإيماء إلى وجه بناء الخبر. وذلك الإيماء هو المقصود هنا، لأنّ المقصود إثبات أنّ اليهود لم يكونوا على الحنيفيّة كما علمت آنفا.

{ **عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ** } وليس المعنى وقوع خلاف بينهم بأمر السبت، بل فعل {اخْتَلَفُوا} مراد به خالفوا، أي عملهم خلاف ما أمر به أنبياؤهم. فحاصل المعنى هكذا: ما فُرض عليهم السبت إلّا لأنّهم لم يكونوا على ملّة إبراهيم، إذ مما لا شك فيه عندهم أنّ ملّة إبراهيم ليس منها حرمة السبت ولا هو من شرائعها.

ولا يؤخذ من هذا أنّ ملة إبراهيم كان اليوم المقدّس فيها يوم الجمعة، لعدم ما يدلّ على ذلك.

ثم الأظهر أنّ حرمة يوم الجمعة أُدّخِرت للملّة الإسلامية لقول النبيء ﷺ: " فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله إليه فالنّاس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد". فقوله: " فهدانا الله إليه " يدل على أنّه لم يسبق ذلك في ملّة أخرى.

فهذا وجه تفسير هذه الآية، ومحمل الفعل والضمير المجرور في قوله { اخْتَلَفُوا فِيهِ }، وما ذكره المفسّرون من وجوه لا يخلو من تكلّف وعدم طائل. وقد جعلوا ضمير { فيه } عائدا إلى { السبت }. وتأوّلوا معنى الاختلاف فيه بوجوه.

{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }[125]

{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }

يتنزل معنى هذه الآية منزلة البيان لقوله { أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [123] فإنّ المراد بما أوحي إليه من اتّباع ملّة إبراهيم هو دين الإسلام، ودين الإسلام مبني على قواعد الحنيفيّة، فلا جرم كان الرّسول ﷺ بدعوته النّاس إلى الإسلام داعيا إلى اتباع ملة إبراهيم.

{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ } ومخاطبة الله رسوله ﷺ بهذا الأمر في حين أنّه داع إلى الإسلام وموافق لأصول ملّة إبراهيم دليل على أنّ صيغة الأمر مستعملة في طلب الدوام.

فتضمّنت الآية تثبيت الرسول ﷺ على الدعوة، وأنّ لا يؤيّسه قول المشركين له { إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ } [101] وقولهم { إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } [103]، وأن لا يصدّه عن الدعوة أنّه تعالى لا يهدي الذين لا يؤمنون بآيات الله. ذلك أنّ المشركين لم يتركوا حيلة يحسبونها تثبّط النبيء ﷺ عن دعوته إلّا ألقوا بها إليه؛ من تصريح بالتكذيب، واستسخار، وتهديد، وبذاءة، واختلاق، وبهتان، كما ذلك محكي في تضاعيف القرآن.

قال القرطبي: إنّ هذه الآية نزلت بمكّة في وقت الأمر بمهادنة قريش أي في مدّة صلح الحديبية.

{ سَبِيلِ رَبِّكَ } طريقه. وهو مجاز لكلّ عمل من شأنه أن يبلّغ عامله إلى رضى الله تعالى.

وصار هذا المركّب علما بالغلبة على دين الإسلام، كما في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنفال:36].

ويطلق سبيل الله علما بالغلبة أيضا على نصرة الدين بالقتال كما في قوله تعالى { وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [التوبة:41].

وحذف مفعول { ادع } لقصد التعميم. أو لأنّ الفعل نزل منزلة اللازم، لأنّ المقصود الدوام على الدعوة لا بيان المدعوين.

{ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ } الباء للملابسة. ومعنى الملابسة يقتضي أن لا تخلو دعوته إلى سبيل الله عن هاتين الخصلتين: الحكمة، والموعظة الحسنة.

الحكمة: هي المعرفة المُحكمة، أي الصائبة المجرّدة عن الخطأ، فلا تطلق الحكمة إلّا على المعرفة الخالصة عن شوائب الأخطاء وبقايا الجهل في تعليم النّاس وفي تهذيبهم.

ولذلك عرّفوا الحكمة بأنّها معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية بحيث لا تلتبس على صاحبها الحقائق المتشابهة بعضها ببعض ولا تخطئ في العلل والأسباب. وهي اسم جامع لكل كلام أو علم يراعى فيه إصلاح حال النّاس واعتقادهم إصلاحا مستمرا لا يتغيّر. وقد تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } [البقرة:269] مفصّلا فانظره. وتطلق الحكمة على العلوم الحاصلة للأنبياء، ويرادفها الحكم.

الموعظة: القول الذي يُلين نفس المقول له لعمل الخير. وهي أخصّ من الحكمة، لأنّها حكمة في أسلوب خاص لإلقائها. وتقدمت عند قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63].

{ **الْحَسَنَةِ** } ووصفها بالحسن تحريض على أن تكون ليّنة مقبولة عند الناس، أي حسنة في جنسها.

{ **وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** }، و**المجادلة**: الاحتجاج لتصويب رأي أو عمل، وإبطال ما يخالفه. ولمّا كان ما لقيه النبيء ﷺ من أذى المشركين قد يبعثه على الغلظة في المجادلة أمره الله بأن يجادلهم بالتي هي أحسن. وتقدّمت قريبا عند قوله { تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا } [111]. والمعنى: إذا ألجأتك الدعوة إلى محاجّة المشركين فحاججهم بالتي هي أحسن.

والمفضل عليه المحاجة الصادرة منهم، فإنّ المجادلة تقتضي صدور الفعل من الجانبين، فعلم أنّ المأمور به أن تكون المحاجّة الصادرة منه أشدّ حسنا من المحاجّة الصادرة منهم، كقوله تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [المؤمنون:96].

ولما كانت المجادلة لا تكون إلّا مع المعارضين صرّح في المجادلة بضمير جمع الغائبين المراد منه المشركون، فإن المشركين متفاوتون في كيفيات محاجّتهم، فمنهم من يحاجّ بلين، مثل ما في الحديث: " أنّ النبيء ﷺ قرأ القرآن على الوليد بن المغيرة ثم قال له: " هل ترى بما أقول بأسا" قال: لا والدماء ".

وقرأ النبيء ﷺ القرآن على عبد الله بن أبي بن سلول في مجلس قومه، فقال عبد الله بن أبي: " أيّها المرء إن كان ما تقول حقا فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدّث إيّاه، ومن لم يأتك فلا تُغتّه ولا تأته في مجلسه بما يكره منه ".

وتصدّي المشركين لمجادلة النبيء ﷺ تكرّر غير مرة. ومن ذلك ما روي عن ابن عباس: أنّه لما نزل قوله تعالى { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ } [الأنبياء:98]، قال عبد الله الزِبَعْرَي: لأخْصُمَنّ محمدا، فجاءه فقال: يا محمد قد عُبد عيسى، وعُبدت الملائكة فهل هم حصب لجهنم؟ فقال النبيء ﷺ: " اقرأ ما بعد { إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} [الأنبياء:101]. أبو داود في كتاب (الناسخ والمنسوخ).

وقيّدت الموعظة بالحسنة ولم تقيّد الحكمة بمثل ذلك، لأنّ الموعظة لمّا كان المقصود منها غالبا ردع نفس الموعوظ عن أعماله السيّئة أو عن توقّع ذلك منه، كانت مظنةّ لصدور غلظة من الواعظ ولحصول انكسار في نفس الموعوظ، أرشد الله رسوله أن يتوخّى في الموعظة أن تكون حسنة، أي بإلانَة القول وترغيب الموعوظ في الخير، قال تعالى خطابا لموسى وهارون { اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّه يَتَذَكَّرُ أَوْيَخْشَى} [طه:43].

وفي حديث الترمذي عن العرباض بن سارية أنه قال: "وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون".

وأمّا الحكمة فهي تعليم لمتطلّبي الكمال، من معلّم يهتم بتعليم طلابه، فلا تكون إلّا في حالة حسنة، فلا حاجة إلى التنبية على أن تكون حسنة.

والمجادلة لما كانت محاجة في فعل أو رأي لقصد الإقناع بوجه الحقّ فيه فهي لا تعدو أن تكون من الحكمة أو من الموعظة، ولكنّها جعلت قسيما لهما هنا بالنظر إلى الغرض الداعي إليها.

{ **وَجَادِلْهُمْ** } الضمير عائد إلى المشركين بقرينة المقام لظهور أنّ المسلمين لا يجادلون النبيء ﷺ ولكن يتلقون منه تلقي المستفيد والمسترشد. وهذا موجب تغيير الأسلوب بالنسبة إلى المجادلة إذ لم يقل: والمجادلة الحسنة. قال تعالى { وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [العنكبوت: 46].

والآية تقتضي أنّ القرآن مشتمل على هذه الطرق الثلاثة من أساليب الدعوة، وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم إذا دعا النّاس بغير القرآن من خطبه ومواعظه وإرشاده يسلك معهم هذه الطرق الثلاثة. وذلك كلّه بحسب ما يقتضيه المقام من معاني الكلام ومن أحوال المخاطبين من خاصة وعامة.

{ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين** }

هذه الجملة تعليل للأمر بالاستمرار على الدعوة بعد الإعلام بأنّ الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله، وبعد وصف أحوال تكذيبهم وعنادهم. فلمّا كان التحريض بعد ذلك على استدامة الدعوة إلى الدين محتاجا لبيان الحكمة في ذلك بيّنت الحكمة، بأنّ الله هو أعلم بمصير النّاس وليس ذلك لغير الله من النّاس فما عليك إلّا البلاغ، أي فلا تيأس من هدايتهم ولا تتجاوز إلى حد الحزن على عدم اهتدائهم.

{ **أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ** } قدّم العلم بمن ضلّ لأنّه المقصود من التعليل، لأنّ دعوتهم أوكد والإرشاد إلى اللين في جانبهم بالموعظة الحسنة والمجادلة الحسنى أهمّ، ثم أتبع ذلك بالعلم بالمهتدين على وجه التكميل. وفيه إيماء إلى أنّه لا يدري أن يكون بعض من أيس من إيمانه قد شرح الله صدره للإسلام بعد اليأس منه.

{ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ** } تأكيد الخبر بضمير الفصل للاهتمام به. وأما { إِنَّ } فهي في مقام التعليل وليست لمجرّد الاهتمام، وهي قائمة مقام فاء التفريع على ما أوضحه عبد القاهر في دلائل الإعجاز، فإنّ إفادتها التأكيد هنا مستغنى عنها بوجود ضمير الفصل في الجملة المفيدة لقصر الصفة على الموصوف، فإن القصر تأكيد على تأكيد.

{ **وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** } إعادة ضمير الفصل للتنصيص على التقوية ، لأنّه لو قيل: وأعلم بالمهتدين، لاحتمل أن يكون معطوفا على جملة { هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ }، فأعيد ضمير الفصل لدفع هذا الاحتمال. ولم يقل: (وبالمهتدين)، تصريحا بالعلم في جانبهم ليكون صريحا في تعلّق العلم به. وهذان القصران إضافيّان، أي ربك أعلم بالضالين والمهتدين.

{ **هُوَ أَعْلَمُ** } التفضيل تفضيل على علم غيره بذلك. وفي هذا التفضيل إيماء إلى وجوب طلب كمال العلم بالهدى، وتمييز الحقّ من الباطل، وغوص النظر في ذلك، وتجنّب التسرّع في الحكم دون قوّة ظنّ بالحقّ.

والتخلق بهذه الآية هو أنّ كلّ من يقوم مقاما من مقامات الرسول ﷺ في إرشاد المسلمين أو سياستهم يجب عليه أن يكون سالكا للطرائق الثلاث: الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وإلّا كان منصرفا عن الآداب الإسلامية وغير خليق بما هو فيه من سياسة الأمّة، وأن يخشى أن يعرّض مصالح الأمّة للتلف، فإصلاح الأمّة يتطلب إبلاغ الحقّ إليها بهذه الوسائل الثلاث. والمجتمع الإسلامي لا يخو عن متعنّت أو ملبّس، وكلاهما يلقي في طريق المصلحين شوك الشبه بقصد أو بغير قصد. فسبيل تقويمه هو المجادلة، فتلك أدنى لإقناعه وكشف قناعه.

في الموطأ أنّ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال في خطبة خطبها في آخر عمره: " أيّها النّاس قد سُنّت لكم السنن، وفُرضت لكم الفرائض، وتُرِكتم على الواضحة، إلّا أن تضلّوا بالنّاس يمينا وشمالا " وضرب بإحدى يديه على الأخرى.

{ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ } [126]

عطف على { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ } [125]، أي إن كان المقام مقام الدعوة فلتكن دعوتك إيّاهم كما وصفنا، وإن كنتم أيّها المؤمنون معاقبين المشركين على ما نالكم من أذاهم فعاقبوهم بالعدل لا بتجاوز حدّ ما لقيتم منهم. فهذه الآية متّصلة بما قبلها أتمّ اتصال، وحسبك وجود العاطف فيها.

وهذا تدرّج في رتب المعاملة، من معاملة الذين يدعون ويوعظون إلى معاملة الذين يجادلون ثم إلى معاملة الذين يجازون على أفعالهم. وبذلك حصل حسن الترتيب في أسلوب الكلام.

وهذا مختار النحاس وابن عطية وفخر الدين، وبذلك يترجّح كون هذه الآية مكّيّة مع سوابقها ابتداء من الآية الحادية والأربعين، وهو قول جابر بن زيد، كما تقدّم في أوّل السورة. واختار ابن عطية أنّ هذه الآية مكّيّة. ولعلّه اشتبه على الرواة تذكّر النبيء ﷺ الآية حين توعّد المشركين بأن يمثّل بسبعين منهم إن أظفره الله بهم. في قصّة التمثيل بحمزة يوم أحد.

والخطاب للمؤمنين ويدخل فيه النبيء ﷺ.

المعاقبة: الجزاء على فعل السوء بما يسوء فاعل السوء.

{ **بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ** } مشاكلة لـ { عاقبتم }. استعمل {عوقبتم} في معنى عوملتم به، لوقوعه بعد فعل {عاقبتم}، فهو استعارة وجه شبهها هو المشاكلة. ويجوز أن يكون { عوقبتم } حقيقة لأنّ ما يلقونه من الأذى من

المشركين قصدوا به عقابهم على مفارقة دين قومهم وعلى شتم أصنامهم وتسفيه آباءهم.
{ **فعاقبوا** } الأمر للوجوب باعتبار متعلّقه، وهو{ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} فإن عدم التجاوز في العقوبة واجب.
وفي هذه الآية إيماء إلى أنّ الله يظهر المسلمين على المشركين ويجعلهم في قبضتهم، فلعلّ بعض الذين فتنهم المشركون يبعثه الحنق على الإفراط في العقاب.
{ **وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ** } رغّبهم في الصبر على الأذى، أي بالإعراض عن أذى المشركين وبالعفو عنهم، لأنّه أجلب لقلوب الأعداء، فوصف بأنه { **خَيْرٌ** } ، أي خير من الأخذ بالعقوبة، كقوله { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت:34] وقوله تعالى { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ } [الشورى:40].
وأكد كون الصبر خيرا بلام القسم زيادة في الحثّ عليه. وعبّر عنهم بالصابرين إظهار في مقام الإضمار لزيادة التنويه بصفة الصابرين.

{ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ }[127]

خصّ النبيء ﷺ بالأمر بالصبر للإشارة إلى أنّ مقامه أعلى، فهو بالتزام الصبر أولى، أخذا بالعزيمة بعد أنّ رخصّ لهم في المعاقبة.
{ **وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ** } معترضة بين المتعاطفات، أي وما يحصل صبرك إلّا بتوفيق الله إيّاك. وفي هذا إشارة إلى أنّ صبر النبيء ﷺ عظيم لأنّه لقي من أذى المشركين أشدّ مما لقيه عموم المسلمين. فصبره ليس كالمعتاد، لذلك كان حصوله بإعانة من الله.
{ **وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ** } حذّره من الحزن عليهم إن لم يؤمنوا كقوله { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِين } [الشعراء:3].
{ **وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ** } ثمّ أعقبه بأن لا يضيق صدره من مكرهم. وهذه أحوال مختلفة تحصل في النفس باختلاف الحوادث المسبّبة لها، فإنّهم كانوا يعاملون النبيء مرة بالأذى علنا، ومرة بالإعراض عن الاستماع إليه وإظهار أنهم يغيظونه بعدم متابعته، وآونة بالكيد والمكر له، وهو تدبير الأذى في خفاء.
الضَيْق: (بفتح الضاد وسكون الياء) مصدر ضاق، مثل السير والقول. وبها قرأ الجمهور . وتقدّم عند قوله {وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ } [هود: 12]. والمراد ضيق النفس، يقال: فلان ضيّق الصدر، وهو **مستعار للجزع والكدر**، كما استعير ضدّه وهو السعة والاتساع للاحتمال والصبر، يقال: سعة الصدر. قال تعالى { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ } [الحجر:97].
{ **فِي ضَيْقٍ** } ظرفية مجازية.

{ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ }[128]

تعليل للأمر بالاقتصار على قدر الجرم في العقوبة، وللترغيب في الصبر على الأذى، والعفو عن المعتدين، ولتخصيص النبيء ﷺ بالأمر بالصبر، والاستعانة على تحصيله بمعونة الله تعالى، ولصرف الكدر عن نفسه من جراء أعمال الذين لم يؤمنوا به. علّل ذلك كلّه بأنّ الله مع الذين يتّقونه، فيقفون عند ما حدّ لهم، ومع المحسنين. **والمعية هنا مجاز في التأييد والنصر.**

وأتي في جانب التقوى بصلة فعلية ماضية للإشارة إلى لزوم حصولها وتقرّرها من قبل، لأنّها من لوازم الإيمان، لأنّ التقوى آيلة إلى أداء الواجب وهو حقّ على المكلف. ولذلك أمر فيها بالاقتصار على قدر الذنب.

وأتي في جانب الإحسان بالجملة الاسمية للإشارة إلى كون الإحسان ثابتا لهم دائما معهم، لأنّ الإحسان فضيلة، فبِصاحبه حاجة إلى رسوخه من نفسه وتمكّنه.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الإسْراء

سمّيت في كثير من المصاحف سورة الإسراء. إذ قد ذكر في أوّلها الإسراء بالنبيء ﷺ، واختصّت بذكره.

وتُسمّى في عهد الصحابة سورة بني إسرائيل. ففي جامع الترمذي في أبواب الدعاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: " كان النبيء ﷺ لا ينام حتّى يقرأ الزمر وبني إسرائيل ".

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود أنّه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم:" إنّهنّ من العِتاق الأوّل وهنّ من تِلادي". وبذلك ترجم لها البخاري في كتاب التفسير ، والترمذي في أبواب التفسير. ووجه ذلك أنّها ذُكر فيها من أحوال بني إسرائيل ما لم يذكر في غيرها. وهو استيلاء قوم أولى بأس (الآشوريين) عليهم ثمّ استيلاء قوم آخرين وهم (الروم) عليهم.

وتُسمّى أيضا سورة (سبحان)، لأنّها افتتحت بهذه الكلمة. قاله في (بصائر ذوي التمييز).

وهي مكّيّة عند الجمهور. قيل: إلّا آيتين منها، وهما { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ - إلى قوله - قَلِيلاً } [73،74].

وقيل: إلّا أربعا، هاتين الآيتين، وقوله: { وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنّاس } [60]، وقوله { وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْق } [80]. وقيل: إلّا خمسا، هاته الأربع، وقوله { قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِه} [107] إلى آخر السورة. وقيل: إلّا خمس آيات غير ما تقدّم، وقيل إلّا ثمانيا من قوله { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ - إلى قوله - سُلْطَاناً نَصِيراً } [73- 80].

وأحسب أنّ منشأ هاته الأقوال أنّ ظاهر الأحكام التي اشتملت عليها تلك الأقوال يقتضي أنّ تلك الآي لا تناسب حالة المسلمين فيما قبل الهجرة فغلبت على ظنّ أصحاب تلك الأقوال أنّها مدنيّة. وسيأتي بيان أنّ ذلك غير متّجه عند التعرّض لتفسيرها.

ويظهر أنّها نزلت في زمن كثرت فيه جماعة المسلمين بمكّة، وأخذ التشريع المتعلّق بمعاملات جماعتهم يتطرّق إلى نفوسهم، فقد ذُكرت فيها أحكام متتالية لم تذكر أمثال عددها في سورة مكّيّة غيرها عدا سورة الأنعام، وذلك من قوله { وَقَضَى رَبُّكَ إِلّا تَعْبُدُوا إِلّا إِيَّاهُ - إلى قوله - كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً } [23 - 38].

وقد اختلف في وقت الإسراء. والأصح أنّه كان قبل الهجرة بنحو سنة وخمسة أشهر، فإذا كانت قد نزلت عقب وقوع الإسراء بالنبيء ﷺ تكون قد نزلت في حدود سنة اثنتي عشرة بعد البعثة، وهي سنة اثنتين قبل الهجرة في منتصف السنة.

وليس افتتاحها بذكر الإسراء مقتضيا أنها نزلت عقب وقوع الإسراء. بل يجوز أنّها نزلت بعد الإسراء بمدّة.

نزلت هذه السورة بعد سورة القصص وقبل سورة يونس.
وعدّت السورة الخمسين في تعداد نزول سورة القرآن.
وعدد آيها مائة وعشر في عدّ أهل المدينة، ومكّة، والشام، والبصرة. ومائة وإحدى عشرة في عد أهل الكوفة.

أغراض السورة

العماد الذي أقيمت عليه أغراض هذه السورة إثبات نبوّة محمد ﷺ، وإثبات أنّ القرآن وحي من الله. وإثبات فضله وفضل من أنزل عليه. وذكر أنّه معجز.
ردّ مطاعن المشركين فيه وفيمن جاء به، وأنّهم لم يفقهوه فلذلك أعرضوا عنه.
إبطال إحالتهم أن يكون النبيء ﷺ أسري به إلى المسجد الأقصى. فافتتحت بمعجزة الإسراء توطئة للتنظير بين شريعة الإسلام وشريعة موسى عليه السلام، على عادة القرآن في ذكر المثل والنظائر الدينية، ورمزا إلهيا إلى أنّ الله أعطى محمدا ﷺ من الفضائل أفضل ممّا أعطى من قبله.
وأنّه أكمل له الفضائل فلم يفته منها فائت. فمن أجل ذلك أحلّه بالمكان المقدس الذي تداولته الرّسل من قبل، فلم يستأثرهم بالحلول بذلك المكان الذي هو مهبط الشريعة الموسوية، ورمز أطوار تاريخ بني إسرائيل وأسلافهم، والذي هو نظير المسجد الحرام، في أنّ أصل تأسيسه في عهد إبراهيم كما سننبه عليه عند تفسير قوله تعالى { إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى } [1]، فأحلّ الله به محمدا ﷺ بعد أن هُجِر وخُرّب، إيماء إلى أنّ أمّته تجدّد مجده.
وأنّ الله مكّنه من حرميّ النبوّة والشريعة، فالمسجد الأقصى لم يكن معمورا حين نزول هذه السورة وإنّما عمرت كنائس حوله، وأنّ بني إسرائيل لم يحفظوا حرمة المسجد الأقصى، فكان إفسادهم سببا في تسلّط أعدائهم عليهم وخراب المسجد الأقصى. وفي ذلك رمز إلى أنّ إعادة المسجد الأقصى ستكون على يد أمّة هذا الرسول الذي أنكروا رسالته.
ثم إثبات دلائل تفرّد الله بالإلهية، والاستدلال بآية الليل والنهار وما فيهما من المنن على إثبات الوحدانيّة.
والتذكير بالنعم التي سخّرها الله للنّاس، وما فيها من الدلائل على تفرّده بتدبير الخلق، وما تقتضيه من شكر المنعم وترك شكر غيره، وتنزيهه عن اتّخاذ بنات له.
وإظهار فضائل من شريعة الإسلام وحكمته، وما علّمه الله المسلمين من آداب المعاملة نحو ربّهم سبحانه، ومعاملة بعضهم مع بعض، والحكمة في سيرتهم وأقوالهم، ومراقبة الله في ظاهرهم وباطنهم.
عن ابن عباس أنّه قال: " التوراة كلّها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل". وفي رواية عنه:" ثمان

عشرة آية منها كانت في ألواح موسى"، أي من قوله تعالى { لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً - إلى قوله - وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً } [22 - 39].

ويعني بالتوراة الألواح المشتملة على الوصايا العشر، وليس مراده أنّ القرآن حكى ما في التوراة ولكنها أحكام قرآنية موافقة لما في التوراة.

على أن كلام ابن عباس معناه: أن ما في الألواح مذكور في تلك الآي، ولا يريد أنهما سواء، لأن تلك الآيات تزيد بأحكام، منها قوله { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ - إلى قوله - لِرَبِّهِ كَفُوراً} [25-27)، وقوله { وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ } [31]، وقوله { وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ - إلى قوله - ذَلِكَ ممّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ } [34 - 39]، مع ما تخلل ذلك كلّه من تفصيل وتبيين عرّيت عنه الوصايا العشر التي كتبت في الألواح.

وإثبات البعث والجزاء.

والحثّ على إقامة الصلوات في أوقاتها.

والتحذير من نزغ الشيطان وعداوته لآدم وذرّيّته، وقصّة إبايته من السجود.

والإنذار بعذاب الآخرة.

وذكر ما عرض للأمم من أسباب الاستئصال والهلاك.

وتهديد المشركين بأنّ الله يوشك أن ينصر الإسلام على باطلهم.

وما لقي النبيء ﷺ من أذى المشركين واستعانتهم باليهود. واقتراحهم الآيات، وتحميقهم في جهلهم بآية القرآن وأنّه الحقّ.

وتخلّل ذلك من المستطردات والنذر والعظات ما فيه شفاء ورحمة، ومن الأمثال ما هو علم وحكمة.

{ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [1]

{ **سُبْحَانَ** } الافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام متضمّن ما يجب تنزيه الله عنه يؤذن بأنّ خبرا عجيبا يستقبله السامعون دالا على عظيم القدرة من المتكلّم، ورفيع منزلة المتحدّث عنه.

فإنّ جملة التسبيح في الكلام الذي لم يقع فيه ما يوهم تشبيها أو تنقيصا لا يليقان بجلال الله تعالى، يتعيّن أن تكون مستعملة في أكثر من التنويه، وذلك هو **التعجيب من الخبر المتحدّث به** كقولهُ { قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ } [النور:16].

ولمّا كان هذا الكلام من جانب الله تعالى والتسبيح صادرا منه كان المعنى تعجيب السامعين، لأنّ التعجيب مستحيلة حقيقته على الله، لا لأنّ ذلك لا يلتفت إليه في محامل الكلام البليغ لإمكان الرجوع إلى التمثيل، بل لأنّه لا يستقيم تعجّب المتكلم من فعل نفسه.

وأصل صيغ التسبيح هو كلمة (سبحان الله) التي نحت منها السبحلة. ووقع التصرّف في صيغها بالإضمار نحو: سبحانك وسبحانه، وبالموصول نحو { سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا } [يس:36] ومنه هذه الآية.

{ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى** } التعبير عن الذات العليّة بطريق الموصول دون الاسم العلم للتنبيه على ما تفيده صلة الموصول من الإيماء إلى وجه هذا التعجيب والتنويه وسببه، وهو ذلك الحادث العظيم والعناية الكبرى.

ويفيد أنّ حديث الإسراء أمر فشا بين القوم، فقد آمن به المسلمون وأكبَره المشركون.

وفي ذلك إدماج لرفعة قدر محمد ﷺ وإثبات أنّه رسول من الله، وأنّه أوتي من دلائل صدق دعوته ما لا قبل لهم بإنكاره، فقد كان إسراؤه إطلاعا له على غائب من الأرض، وهو أفضل مكان بعد المسجد الحرام.

{ **أسرى** } لغة في سرى، بمعنى سار في الليل، فالهمزة هنا ليست للتعدية لأنّ التعدية حاصلة بالباء، بل أسرى فعل مفتتح بالهمزة مرادف سرى.

وللمبرّد والسهيلي نكتة في التفرقة بين التعدية بالهمزة والتعدية بالباء: بأنّ الثانية أبلغ لأنّها في أصل الوضع تقتضي مشاركة الفاعل المفعول في الفعل. وفي هذا لطيفة تناسب المقام هنا إذ قال { أسرى بعبده } دون سرى بعبده، وهي التلويح إلى أنّ الله تعالى كان مع رسوله في إسرائه بعنايته وتوفيقه، كما قال تعالى { فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } [الطور:48]، وقال { إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } [التوبة:40].

{ **ليلاً** } إشارة إلى أنّ السير به إلى المسجد الأقصى كان في جزء ليلة، و إلّا لم يكن ذكره إلّا تأكيدا، على أنّ الإفادة كما يقولون خير من الإعادة. وفي ذلك إيماء إلى أنّه إسراء خارق للعادة لقطع المسافة التي بين مبدأ السير ونهايته في بعض ليلة، وأيضا ليتوسّل بذكر الليل إلى تنكيره المفيد للتعظيم.

أي هو ليل عظيم باعتبار جعله زمنا لذلك السرى العظيم، فقام التنكير هنا مقام ما يدل على التعظيم.

ألا ترى كيف احتيج إلى الدلالة على التعظيم بصيغة خاصة في قوله تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ } [القدر:1-2] إذ وقعت ليلة القدر غير منكرة.

{ بِعَبْدِهِ } هو محمد ﷺ كما هو مصطلح القرآن، فإنّه لم يقع فيه لفظ العبد مضافا إلى ضمير الغيبة الراجع إلى تعالى إلّا مرادا به النبيء ﷺ. ولأنّ خبر الإسراء به إلى بيت المقدس قد شاع بين المسلمين وشاع إنكاره بين المشركين، فصار المراد { بعبده } معلوما. والإضافة إضافة تشريف لا إضافة تعريف، لأنّ وصف العبودية لله متحقّق لسائر المخلوقات فلا تفيد إضافته تعريفا.

{ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } والمسجد الحرام هو الكعبة والفناء المحيط بالكعبة بمكّة المتّخذ للعبادة المتعلقة بالكعبة من طواف بها واعتكاف عندها وصلاة.

المسجد: اسم مكان السجود. وأصل **الحرام**: الأمر الممنوع، ولأنّه مشتق من الحَرْم (بفتح فسكون) وهو المنع. فوصف الشيء بالحرام يكون بمعنى أنّه ممنوع، نحو قوله تعالى { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ } [المائدة:3]. ويكون بمعنى الممنوع من أن يعمل فيه عمل ما. ويبين بذكر المتعلق الذي يتعلق به. وقد لا يذكر متعلقة إذا دلّ عليه العرف، ومنه قولهم { الشَّهْرُ الْحَرَامُ } [البقرة:194] أي الحرام فيه القتال في عرفهم. وقد يحذف المتعلّق لقصد التكثير، فهو من الحذف للتعميم فيرجع إلى العموم العرفي، ففي نحو قوله { الْبَيْتَ الْحَرَامَ } [المائدة:2] يراد الممنوع من عدوان المعتدين، وغزو الملوك والفاتحين، وعمل الظلم والسوء فيه.

وقد بنى قريش في زمن الجاهلية بيوتهم حول المسجد الحرام. وجعل قُصي بقربه دار الندوة لقريش وكانوا يجلسون فيها حول الكعبة، فانحصر لمّا أحاطت به بيوت عشائر قريش. وكانت كلّ عشيرة تتخذ بيوتها متجاورة. ومجموع البيوت يسمى شِعبا (بكسر الشين). وكانت كلّ عشيرة تسلك إلى المسجد الحرام من منفذ دورها، ولم يكن للمسجد الحرام جدار يحفظ به. وكانت المسالك التي بين دور العشائر تسمى أبوابا لأنّها يسلك منها إلى المسجد الحرام، مثل باب بني شيبة، وباب بني هاشم، وباب بني مخزوم وهو باب الصفا لقربه منها، وباب بني سهم، وباب بني تيم. وباب الحزورة، سمي بمكان كانت به سوق لأهل مكّة تسمى الحزورة. ولا أدري هل كانت أبوابا تغلق أم كانت منافذ في الفضاء، فإنّ الباب يطلق على ما بين حاجزين. وأوّل من جعل للمسجد الحرام جدارا يحفظ به هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة (17هـ).

ولقّب بالمسجد لأنّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام جعله لإقامة الصلاة في الكعبة كما حكى الله عنه { رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ } [إبراهيم: 37]. ولمّا انقرضت الحنفيّة وترك أهل الجاهلية الصلاة تناسوا وصفه بالمسجد الحرام فصاروا يقولون: البيت الحرام. وأمّا قول عمر: إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام، فإنّه عبر عنه باسمه في الإسلام.

فغلب عليه هذا التعريف التوصيفي فصار له علما بالغلبة في اصطلاح القرآن. ولا أعرف أنّه كان يعرف في

الجاهلية بهذا الاسم، ولا على مسجد بيت المقدس في عصر تحريمه عند بني إسرائيل. وقد تقدّم وجه ذلك عند قوله تعالى { فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [البقرة:144]، وعند قوله تعالى { أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [المائدة:2].

{ **إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى** } المسجد الأقصى هو المسجد المعروف ببيت المقدس الكائن بإيلياء، وهو المسجد الذي بناه سليمان عليه الصلاة والسلام. والأقصى، أي الأبعد. والمراد بعده عن مكّة، بقرينة جعله نهاية الإسراء من المسجد الحرام، وهو وصف كاشف اقتضاه هنا زيادة التنبيه على معجزة هذا الإسراء وكونه خارقا للعادة لكونه قطع مسافة طويلة في بعض ليلة.

وبهذا الوصف الوارد له في القرآن صار مجموع الوصف والموصوف علما بالغلبة على مسجد بيت المقدس كما كان المسجد الحرام علما بالغلبة على مسجد مكّة. وأحسب أنّ هذا العلم له من مبتكرات القرآن فلم يكن العرب يصفونه بهذا الوصف ولكنّهم لمّا سمعوا هذه الآية فهموا المراد منه أنّه مسجد إيلياء. ولم يكن مسجد لدين إلهي غيرهما يومئذ.

{ **الْأَقْصَى** } وفي هذا الوصف بصيغة التفضيل، باعتبار أصل وضعها، معجزة خفيّة من معجزات القرآن، إيماء إلى أنّه سيكون بين المسجدين مسجد عظيم هو مسجد طيبة الذي هو قصي عن المسجد الحرام، فيكون مسجد بيت المقدس أقصى منه حينئذ. فتكون الآية مشيرة إلى جميع المساجد الثلاثة المفضّلة في الإسلام على جميع المساجد الإسلامية، والتي بيّنها قول النبيء ﷺ: " لا تشد الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي ".

{ **مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى** } وفائدة ذكر مبدأ الإسراء ونهايته أمران:

أحدهما: التنصيص على قطع المسافة العظيمة في جزء ليلة، ليعلم أنّه من قبيل المعجزات.

ثانيهما: الإيماء إلى أنّ الله تعالى يجعل هذا الإسراء رمزا إلى أنّ الإسلام جمع ما جاءت به شرائع التوحيد والحنيفيّة من عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام الصادر من المسجد الحرام إلى ما تفرع عنه من الشرائع التي كان مقرّها بيت المقدس ثم إلى خاتمتها التي ظهرت من مكّة أيضا، فقد صدرت الحنيفية من المسجد الحرام وتفرّعت في المسجد الأقصى. ثم عادت إلى المسجد الحرام كما عاد الإسراء إلى مكّة، لأنّ كل سرى يعقبه تأويب. وبذلك حصل ردّ العجز على الصدر.

ومن هنا يظهر مناسبة نزول التشريع الاجتماعي في هذه السورة في الآيات المفتتحة بقوله تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } ففيها { وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ } وفيها { وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } وفيها { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} [23 - 35]. إيماء إلى أنّ هذا الدين سيكون دينا يحكم في النّاس وتنفذّ أحكامه.

والمسجد الأقصى هو ثاني مسجد بناه إبراهيم عليه السلام كما ورد ذلك عن النبيء ﷺ. ففي الصحيحين عن أبي ذر قال: " قلت: يا رسول الله أيّ مسجد وضع في الأرض أوّل؟ قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة ". فهذا الخبر قد بيّن أنّ المسجد الأقصى من بناء إبراهيم، لأنّه حدّد بمدّة هي من مدّة حياة إبراهيم عليه السلام . وقد قرن ذكره بذكر المسجد الحرام.

وهذا ممّا أهمل أهل الكتاب ذكره. وهو ممّا خصّ الله نبيّه بمعرفته. والتوراة تشهد له، فقد جاء في سفر التكوين في الإصحاح الثاني عشر: أنّ إبراهيم لمّا دخل أرض كنعان (وهي بلاد فلسطين)نصب خيمته في الجبل شرقي بيت إيل (بيت إيل مدينة على بعد أحد عشر ميلا من أورشليم إلى الشمال وهو بلد كان اسمه عند الفلسطينيين (**لوزا**) فسماه يعقوب: بيت إيل، كما في الإصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين) وغربي بلاد عاي (مدينة عبرانية تعرف الآن **الطيّبة**) وبنى هنالك مذبحا للربّ. وهم يطلقون المذبح على المسجد لأنّهم يذبحون القرابين في مساجدهم. قال عمر بن أبي ربيعة:

دُميةٌ عند راهب قسيس ... صوروها في مذبح المحراب

ولا شكّ أنّ مسجد إبراهيم هو الموضع الذي توخّى داود عليه السلام أن يضع عليه الخيمة وأن يبني عليه محرابه، أو أوحى إليه الله بذلك، وهو الذي أوصى ابنه سليمان عليه السلام أن يبني عليه المسجد، أي الهيكل. وقد ذكر مؤرخو العبرانيين ومنهم (يوسيفسوس) أنّ الجبل الذي سكنه إبراهيم بأرض كنعان اسمه (نابو) وأنّه الجبل الذي ابتنى عليه سليمان الهيكل وهو المسجد الذي به الصخرة. وقصة بناء سليمان إياه مفصلة في سفر الملوك الأول من أسفار التوراة.

وقد انتابه التخريب ثلاث مرات:

أولاها : حين خرّبه بختنصر ملك بابل سنة (578 ق م) ثم جدّده اليهود تحت حكم الفرس.

الثانية : خرّبه الرومان في مدة طيطوس بعد حروب طويلة بينه وبين اليهود وأعيد بناؤه، فأكمل تخريبه أدريانوس سنة (135م) وعفى آثاره فلم تبق منه إلّا أطلال.

الثالثة : لما تنصرت الملكة هيلانة أمّ الأمبراطور قسطنطين ملك الروم بيزنطة وصارت متصلّبة في النصرانية، وأشرب قلبها بغض اليهود بما تعتقده من قتلهم المسيح كان ممّا اعتدت عليه حين زارت أورشليم أن أمرت بتعفية أطلال هيكل سليمان وأن ينقل ما بقي من الأساطين ونحوها فتبنى بها كنيسة على قبر المسيح المزعوم عندهم في موضع توسّموا أن يكون هو موضع القبر (والمؤرخون من النصارى يشكّون في كون ذلك المكان هو المكان الذي يُدّعى أن المسيح دفن فيه) وأن تسمّيها كنيسة القيامة، وأمرت بأن يجعل موضع المسجد الأقصى مرمى أزبال البلد وقماماته فصار موضع الصخرة مزبلة تراكمت عليها الأزبال فغطتها وانحدرت على درجها.

ولمّا فتح المسلمون بقيّة أرض الشام في زمن عمر وجاء عمر بن الخطاب ليشهد فتح مدينة إيليا، وهي المعروفة من قبل (**أورشليم**) وصارت تسمّى إيلياء (بكسر الهمزة وكسر اللام) وكذلك كان اسمها المعروف عند العرب عندما فتح المسلمون فلسطين. وإيلياء اسم نبي من بني إسرائيل كان في أوائل القرن التاسع قبل المسيح. قال الفرزدق:

وبيتان بيت الله نحن ولاته ... وبيت بأعلى إيلياء مشرف

انعقد الصلح بين عمر وأهل تلك المدينة وهم نصارى. قال عمر لبطريق لهم اسمه (صفرونيوس) :" دلّني على مسجد داود"، فانطلق به حتّى انتهى إلى مكان الباب وقد انحدر الزبل على درج الباب فتجشم عمر حتّى دخل ونظر فقال: " الله أكبر، هذا والذي نفسي بيده مسجد داود الذي أخبرنا رسول الله ﷺ أنّه أسري به إليه". ثم أخذ عمر والمسلمون يكنسون الزبل عن الصخرة حتّى ظهرت كلها، ومضى عمر إلى جهة محراب داود فصلى فيه، ثم ارتحل من بلد القدس إلى فلسطين.

ولم يبن هنالك مسجدا إلى أن كان في زمن عبد الملك بن مروان أمر بابتداء بناء القبة على الصخرة وعمارة المسجد الأقصى. ووكلّ على بنائها رَجاء بن حَيْوَة الكِندي أحد علماء الإسلام، فابتدأ ذلك سنة (66هـ) وكان الفراغ من ذلك في سنة (73هـ).

ولهذا فتسمية ذلك المكان بالمسجد الأقصى في القرآن تسمية قرآنية اعتبر فيها ما كان عليه من قبل، لأنّ حكم المسجديّة لا ينقطع عن أرض المسجد. فالتسمية باعتبار ما كان، وهي إشارة خفيّة إلى أنّه سيكون مسجدا بأكمل حقيقة المساجد.

واستقبله المسلمون في الصلاة من وقت وجوبها المقارن ليلة الإسراء إلى ما بعد الهجرة بستة عشر شهرا. ثم نسخ استقباله وصارت الكعبة هي القبلة الإسلامية.

وقد رأيت أنّ سائحا نصرانيا اسمه (اركولف) زار القدس سنة 670م، أي بعد خلافة عمر بأربع وثلاثين سنة، وزعم أنّه رأى مسجدا بناه عمر على شكل مربع من ألواح وجذوع أشجار ضخمة وأنّه يسع نحو ثلاثة آلاف (مقال حرّره عارف عارف في الجملة المسمّاة رسالة العلم بالمملكة الأردنية في عدد2 من السنة12 سنة 1968).

والظاهر أن نسبة المسجد الأقصى إلى عمر بن الخطاب وهم من أوهام النصارى اختلط عليهم كشف عمر موضع المسجد فظنّوه بناه. وإذا صدق (اركولف) فيما ذكر كان ذلك شيئا أحدثه مسلمو البلاد لصيانة ذلك المكان عن الامتهان.

{ **الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَه** } صفة للمسجد الأقصى. وجئ في الصفة بالموصوليّة لقصد تشهير الموصوف بمضمون الصلة، حتّى كأن الموصوف مشتهر بالصلة عند السامعين. والمقصود: إفادة أنّه مبارك حوله. وصيغة المفاعلة هنا للمبالغة في تكثير الفعل.

البركة: نماء الخير والفضل في الدنيا والآخرة بوفرة الثواب للمصلّين فيه بإجابة دعاء الداعين فيه. وقد تقدّم ذكر البركة عند قوله تعالى { مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ } [آل عمران:96]. وقد وصف المسجد الحرام بمثل هذا في قوله تعالى { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ } [آل عمران:96].

ووجه الاقتصار على وصف المسجد الأقصى في هذه الآية بذكر هذا التبريك أنّ شهرة المسجد الحرام بالبركة، وبكونه مقام إبراهيم معلومة للعرب، وأمّا المسجد الأقصى فقد تناسى النّاس ذلك كلّه، فالعرب لا علم لهم به والنصارى عفوا أثره من كراهيتهم لليهود، واليهود قد ابتعدوا عنه وأيسوا من عوده إليهم، فاحتيج إلى الإعلام ببركته.

وكون البركة حوله كناية عن حصول البركة فيه بالأولى، لأنّها إذا حصلت حوله فقد تجاوزت ما فيه، ففيه لطيفة التلازم، ولطيفة فحوى الخطاب، ولطيفة المبالغة بالتكثير.

وأسباب بركة المسجد الأقصى كثيرة؛ منها أن واضعه إبراهيم عليه السلام ، ومنها ما لحقه من البركة بمن صلى به من الأنبياء من داود وسليمان ومن بعدهما من أنبياء بني إسرائيل، ثم بحلول الرسول عيسى عليه السلام وإعلانه الدعوة إلى الله فيه وفيما حوله، ومنها بركة من دفن حوله من الأنبياء، فقد ثبت أن قبري داود وسليمان حول المسجد الأقصى. وأعظم تلك البركات حلول النبيء ﷺ فيه ذلك الحلول الخارق للعادة، وصلاته فيه بالأنبياء كلّهم.

{ **لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا** } تعليل ببعض الحِكم التي لأجلها منح الله نبيّه منحة الإسراء، فإنّ للإسراء حِكما جمّة تتضح من حديث الإسراء المروي في الصحيح. وأهمّ الحكم وأجمعها إراءته من آيات الله تعالى ودلائل قدرته ورحمته. لأنّ إراءة الآيات تزيد يقين الرائي بوجودها الحاصل من قبل الرؤية. قال تعالى { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } [الأنعام:75].

فإن فطرة الله جعلت إدراك المحسوسات أثبت من إدراك المدلولات البرهانية. قال تعالى { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } [البقرة:260]. ولذلك لم يقل الله بعد هذا التعليل: أو لم يطمئن قلبك، لأنّ اطمئنان القلب متسع المدى لا حدّ له، فقد أنطق الله إبراهيم عن حكمة نبوءة، وقد بادر محمدا ﷺ بإراءة الآيات قبل أن يسأله إيّاها توفيرا في الفضل.

قال علي بن حزم الظاهري وأجاد:

ولكن للعيان لطيف معنى ... له سأل المعاينة الكليم

واعلم أنّ تقوية يقين الأنبياء من الحكم الإلهية لأنهم بمقدار قوّة اليقين يزيدون ارتقاء على درجة مستوى البشر والتحاقا بعلوم عالم الحقائق ومساواة في هذا المضمار لمراتب الملائكة.

{ **باركنا / ولنريه من آياتنا** } في تغيير الأسلوب من الغيبة التي في اسم الموصول وضميريه إلى التكلّم

سلوك لطريقة الالتفات المتّبعة كثيرا في كلام البلغاء

والالتفات هنا امتاز بلطائف:

منها، أنّه لما استُحضرت الذات العليّة بجملة التسبيح وجملة الموصولية صار مقام الغيبة مقام مشاهدة فناسب أنّ يغير الإضمار إلى ضمائر المشاهدة وهو مقام التكلم.

ومنها، الإيماء إلى أنّ النبيء ﷺ عند حلوله بالمسجد الأقصى قد انتقل من مقام الاستدلال على عالم الغيب إلى مقام مصيره في عالم المشاهدة.

ومنها، التوطئة والتمهيد إلى محمل معاد الضمير في قوله { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } ، فيتبادر عود ذلك الضمير إلى غير من عاد إليه ضمير { نريه } لأنّ الشأن تناسق الضمائر، ولأنّ العود إلى الالتفات بالقرب ليس من الأحسن.

{ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** } الأظهر أنّ الضميرين عائدان إلى النبيء ﷺ. قاله بعض المفسّرين، واستقرّبه الطيبي، ولكن جمهرة المفسّرين على أنّه عائد إلى الله تعالى. ولعلّ احتماله للمعنيين مقصود.

وقد تجيء الآيات محتملة عدة معان. واحتمالها مقصود تكثيرا لمعاني القرآن، ليأخذ كلّ منه على مقدار فهمه كما ذكرنا في المقدمة التاسعة. وأيّاما كان فموقع (إنّ) التوكيد والتعليل كما يؤذن به فصل الجملة عما قبلها.

وهي إمّا تعليل لإسناد فعل { نريه } إلى فاعله؛ وإمّا تعليل لتعليقه بمفعوله، فيفيد أن تلك الإراءة من باب الحكمة، وهي إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي، فهي من إيتاء الحكمة من هو أهلها.

والتعليل على اعتبار مرجع الضمير إلى النبيء ﷺ أوقع، إذ لا حاجة إلى تعليل إسناد فعل الله تعالى، لأنّه محقق معلوم. وإنما المحتاج للتعليل هو إعطاء تلك الإراءة العجيبة لمن شك المشركون في حصولها له زمن يحسبون أنّه لا يطيقها مثله.

على أنّ الجملة مشتملة على صيغة قصر بتعريف المسند باللام وبضمير الفصل قصرا مؤكّدا، وهو قصر موصوف على صفة قصرا إضافيا للقلب، أي هو المدرك لما سمعه وأبصره لا الكاذبُ ولا المتوهمُ كما زعم المشركون. وهذا القصر يؤيد عود الضمير إلى النبيء ﷺ لأنّه المناسب للردّ. ولا ينازع المشركون في أنّ الله سميع وبصير.

ثم إن الصفتين على تقدير كونهما للنبيء ﷺ هما على أصل اشتقاقهما للمبالغة في قوّة سمعه وبصره وقبولهما لتلقّي تلك المشاهدات المدهشة، على حدّ قوله تعالى { مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى } [النجم:17] وقوله { أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى } [النجم:12].

وأمّا على تقدير كونهما صفتين لله تعالى فالمناسب أن تؤوّلا بمعنى المسمع المبصر، أي القادر على إسماع عبده وإبصاره.

وقد اختلف السلف في الإسراء أكان بجسد رسول الله ﷺ من مكّة إلى بيت المقدس أم كان بروحه في رؤيا هي مشاهدة روحانية كاملة، ورؤيا الأنبياء حقّ. والجمهور قالوا: هو إسراء بالجسد في اليقظة، وقالت عائشة ومعاوية والحسن البصري وابن إسحاق رضي الله عنهم أنّه إسراء بروحه في المنام ورؤيا الأنبياء وحي.

واستدل الجمهور بانّ الامتنان في الآية وتكذيب قريش بذلك دليلان على أنّه ما كان الإخبار به إلّا على أنّه بالجسد. واتفق الجميع على أنّ قريشا استوصفوا من النبيء ﷺ علامات في بيت المقدس وفي طريقه فوصفها لهم كما هي، ووصف لهم عيرا لقريش قافلة في طريق معين ويوم معين فوجدوه كما وصف لهم.

ففي صحيح البخاري أنّ النبيء ﷺ قال: " بينما أنا في المسجد الحرام بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل..." إلى آخر الحديث. وهذا أصحّ وأوضح ممّا روي في حديث آخر أنّ الإسراء كان من بيته أو كان من بيت أم هاني بنت أبي طالب أو من شعب أبي طالب.

والتحقيق حمْل ذلك على أنّه إسراء آخر، وهو الوارد في حديث المعراج إلى السماوات وهو غير المراد في هذه الآية. فللنبيء ﷺ كرامتان: أولاهما الإسراء وهو المذكور هنا، والأخرى المعراج وهو المذكور في حديث الصحيحين مطولا وأحاديث غيره. وقد قيل: أنّه هو المشار إليه في سورة النجم.

{ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيلَ إلّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً } [2]

عطف على جملة {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى} فهي ابتدائية. والتقدير: الله أسرى بعبده محمد وآتى موسى الكتاب. فهما منّتان عظيمتان على جزء عظيم من البشر. وهو انتقال إلى غرض آخر لمناسبة ذكر المسجد الأقصى، فإنّ أطوار المسجد الأقصى تمثّل ما تطوّر به حال بني إسرائيل في جامعتهم من أطوار الصلاح والفساد، والنهوض والركود، ليعتبر بذلك المسلمون فيقتدوا أو يحذروا.

على ما في حالة الإسراء بالنبيء ﷺ ليلا ليرى من آيات الله تعالى من المناسبة لحالة موسى عليه السلام حين أوتي النبوّة، فقد أوتي النبوّة ليلا وهو سار بأهله من أرض مدين إذ آنس من جانب الطور نارا، ولحاله أيضا حين أسرى إلى مناجاة ربّه بآيات الكتاب.

الكتاب: التوراة. والإخبار عنه بأنّه هدى مبالغة لأنّ الهدى بسبب العمل بما فيه فجعل كأنّه نفس الهدى، كقوله تعالى في القرآن: { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2].

وخصّ بني إسرائيل لأنّهم المخاطبون بشريعة التوراة دون غيرهم، فالجعل هو جعل التكليف. وهم المراد بـ(الناس) في قوله { قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ } [الأنعام:91]، لأنّ النّاس قد يطلق على بعضهم، على أنّ ما هو هدى لفريق من النّاس صالح لأن ينتفع بهديه من لم يكن مخاطبا به.

الوكيل: الذي تفوّض إليه الأمور. والمراد به الربّ، لأنّه يتّكل عليه العباد في شؤونهم، أي أن لا تتخذوا

شريكا تلجؤون إليه. وقد عرف إطلاق الوكيل على الله في لغة بني إسرائيل كما حكى الله عن يعقوب وأبنائه { فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } [يوسف:66].

{ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ أنّه كَانَ عَبْداً شَكُوراً } [3]

يجوز أن يكون اعتراضا في آخر الحكاية. ويجوز أن يكون من تمام الجملة التفسيريّة، أي حال كونهم ذرّيّة من حملنا مع نوح عليه السلام ، أو ينتصب على النداء بتقدير النداء، أي يا ذرية من حملنا مع نوح. مقصودا به تحريضهم على شكر نعمة الله واجتناب الكفر به باتخاذ شركاء دونه.

الحمل: وضع شيء على آخر لنقله، والمراد الحمل في السفينة كما قال { حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } [الحاقة:11] أي ذرّية من أنجيناهم من الطوفان مع نوح عليه السلام.

{ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً } مفيدة تعليل النهي عن أن يتخذوا من دون الله وكيلا، لأنّ أجدادهم حملوا مع نوح بنعمة من الله عليهم لنجاتهم من الغرق، وكان نوح عبدا شكورا والذين حملوا معه كانوا شاكرين مثله أي فاقتدوا بهم ولا تكفروا نعم الله.

واعلم أن في اختيار وصفهم بأنّهم ذرّيّة من حمل مع نوح عليه السلام معاني عظيمة من التذكير والتحريض والتعريض لأن بني إسرائيل من ذرية سام بن نوح وكان سام ممن ركب السفينة.

وفيه تذكير بان الله أنجى نوحا ومن معه من الهلاك بسبب شكره وشكرهم تحريضا على الائتساء بأولئك.

وفيه تعريض بأنّهم إن أشركوا ليوشكن أن ينزل بهم عذاب واستئصال.

وفيه أن ذرية نوح كانوا شقين شق بار مطيع، وهم الذين حملهم معه في السفينة، وشق متكبر كافر وهو ولده الذي غرق، فكان نوح عليه السلام مثلا لأبي فريقين. وكان بنو إسرائيل من ذرية الفريق البار، فإن اقتدوا به نجوا وإن حادوا فقد نزعوا إلى الفريق الآخر فيوشك أن يهلكوا. وقد ذكر في هذه السورة استئصال بني إسرائيل مرّتين بسبب إفسادهم في الأرض وعلوّهم مرتين، وأنّ ذلك جزاء أهمالهم وعد الله نوحا عليه السلام حينما نجاه.

والتأكيد بحرف (إن) تنزيل لهم منزلة من يجهل ذلك، إما لتوثيق حملهم على الاقتداء به، إن كانت الجملة خطابا لبني إسرائيل من تمام الجملة التفسيرية، وإمّا لتنزيلهم منزلة من جهل ذلك حتّى تورّطوا في الفساد فاستأهلوا الاستئصال وذهاب ملكهم، لينتقل منه إلى التعريض بالمشركين من العرب بأنهم غير مقتدين بنوح لأن مثلهم ومثل بني إسرائيل في هذا السياق واحد في جميع أحوالهم، فيكون التأكيد تعريضي.

{ عَبْداً } أنّه معترف لله بالعبودية غير متكبر بالإشراك.

{ **شَكُوراً** }، أي شديدا لشكر الله بامتثال أوامره. وروي أنّه كان يكثر حمد الله.

والاقتداء بصالح الآباء مجبولة عليه النفوس ومحلّ تنافس عند الأمم، بحيث يعدّ خلاف ذلك كمثير للشك في صحة الانتساب. وكان نوح عليه السلام مثلا في كمال النفس وكانت العرب تعرف ذلك وتنبعث على الاقتداء به. قال النابغة: فألفيت الأمانة لم تخنها ... كذلك كان نوح لا يخون

{ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً [4] **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً** } [5].

عطف على { وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ } [2]، أي آتينا موسى الكتاب هُدى، وبيّنّا لبني إسرائيل في الكتاب ما يحلّ بهم من جراء مخالفة هدي التوراة، إعلاما لهذه الأمّة بأنّ الله لم يدّخر أولئك إرشادا ونصحا.

{ **وَقَضَيْنَا** } الحكم وهو التقدير، ومعنى كونه **في الكتاب**: أنّ القضاء ذكر في الكتاب. والتعدية بحرف (إلى) لتضمين معنى (أبلغنا)، أي قضينا وأنهينا، كقوله تعالى { وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ } [الحجر:66].

فيجوز أن يكون المراد بـ (الكتاب) كتاب التوراة، ويوجد في مواضع، منها ما هو قريب ممّا في هذه الآية لكن بإجمال (انظر الإصحاح 26 / 28 / 30)، فيكون العدول عن الإضمار إلى الإظهار لمجرّد الاهتمام.

ويجوز أن يكون الكتاب بعض كتبهم الدينية. لأنّه لمّا أظهر اسم الكتاب أشعر بأنّه كتاب آخر من كتبهم، وهو الأسفار المسمّاة بكتب الأنبياء (أشعياء، وأرميا، وحزقيال، ودانيال)، وهي في الدرجة الثانية من التوراة. وكذلك كتاب النبيء ملاخي. والإفساد مرتين ذكر في كتاب أشعياء وكتاب أرمياء.

{ **لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً** } مبيّنة لجملة { وَقَضَيْنَا } وأيّا ما كان فضمائر الخطاب في هذه الجملة مانعة من أن يكون المراد بالكتاب اللوح المحفوظ أو كتاب الله، أي علمه.

وهذه الآية تشير إلى حوادث عظيمة بين بني إسرائيل وأعدائهم من أمّتين عظيمتين: حوادث بينهم وبين البابليين، وحوادث بينهم وبين الرومانيين. فانقسمت بهذا الاعتبار إلى نوعين: نوع منهما تندرج فيه حوادثهم مع البابليين، والنوع الآخر حوادثهم مع الرومانيين، فعبر عن النوعين بمرتين، لأنّ كلّ مرّة منهما تحتوي على عدة ملاحم.

فالمرّة الأولى هي مجموع حوادث متسلسلة تسمّى في التاريخ بالأسر البابلي وهي غزوات (بختنصر) ملك بابل وأشور بلاد أورشليم. والغزو الأوّل كان سنة (606 ق م)، أسر جماعات كثيرة من اليهود، ويسمّى الأسر الأوّل. ثم غزاهم أيضا غزوا يسمّى الأسر الثاني، وهو أعظم من الأوّل، كان سنة (598 ق م)، وأسر ملك يهوذا وجمعا غفيرا من الإسرائيلين وأخذ الذهب الذي في هيكل سليمان وما فيه من الآنية النفيسة.

والأسر الثالث المُبير سنة (588 ق م) غزاهم (بختنصر) وسبى كلّ شعب يهوذا، وأحرق هيكل سليمان، وبقيت أورشليم خرابا يبابا. ثم أعادوا تعميرها كما سيأتي عند قوله { ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ } [الإسراء:6].

وأمّا المرة الثانية فهي سلسلة غزوات الرومانيين بلاد أورشليم. وسيأتي بيانها عند قوله تعالى { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ } [6].

وإسناد الإفساد إلى ضمير بني إسرائيل مفيد أنّه إفساد من جمهورهم بحيث تعدّ الأمّة كلّها مفسدة وإن كانت لا تخلو من صالحين.

{ **وَلَتَعْلُنَّ** } مجاز في الطغيان والعصيان كقوله { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ } [القصص :4]. تشبيها للتكبّر والطغيان بالعلو على الشيء لامتلاكه، تشبيه معقول بمحسوس.

{ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ }

الوعد: مصدر بمعنى المفعول، أي المَوْعود الذي هو أولى المرّتين من الإفساد والعلو.

{ **بَعَثْنَا** } البعث مستعمل في تكوين السير إلى أرض إسرائيل وتهيئة أسبابه حتّى كأنّ ذلك أمر بالمسير إليهم كما مر في قوله { لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ } [الأعراف:167]، وهو بعث تكوين وتسخير لا بعث بوحي وأمر. وتعدية {بعثنا} بحرف الاستعلاء (على) لتضمينه معنى التسليط.

العباد: الأشوريون أهل بابل وهم جنود بختنصر.

{ **بَأْسٍ شَدِيدٍ** } الشوكة والشدّة في الحرب. ووصفه بالشديد لقوّته في نوعه كما في قوله تعالى { قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيد } [النمل:33]

{ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً } عطف على { بعثنا } فهو من المقتضى في الكتاب.

الجوس: التخلّل في البلاد وطرقها ذهابا وإيّابا لتتبع ما فيها. وأريد به هنا تتبع المقاتلة فهو جوس مضرّة وإساءة بقرينة السياق.

{ **خِلَال** } اسم جاء على وزن الجموع ولا مفردا له، وهو وسط الشيء الذي يتخلّل منه. قال تعالى{ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ } [الروم:48].

{ **الدِيَار** } تعريف العهد، أي دياركم، وذلك أصل جعل(ال) عوضا عن المضاف إليه. وهي ديار بلد أورشليم فقد دخلها جيش بختنصر وقتل الرجال وسبى، وهدم الديار، وأحرق المدينة وهيكل سليمان بالنار.

ولفظ (الديار) يشمل هيكل سليمان لأنّه بيت عبادتهم. وأسر كلّ بني إسرائيل وبذلك خلت بلاد اليهود منهم.

{ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرا [6] إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ

كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً [7] **عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً** } [8].

{ **ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرا إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** }

عطف على { فجاسوا } [5] ومن بقية المقضي في الكتاب، وهو ماضٍ لفظا مستقبل معنًى، لأنّ (إذا) ظرف لما يستقبل. وجيء به في صيغة الماضي لتحقيق وقوع ذلك. و(**ثُمَّ**) تفيد التراخي الرتبي والزمني معا.

الردّ: الإرجاع. وجيء بالفعل ماضيا جريا على الغالب في جواب(إذا) كما جاء شرطها فعلا ماضيا { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا } [5]، أي إذا يجيء يبعث.

الكرّة: الرجعة إلى المكان الذي ذهب منه.

{ **عليهم** } ظرف مستقرّ هو حال من { الكرّة } ، لأنّ رجوع بني إسرائيل إلى أورشليم كان بتغلّب ملك فارس على ملك بابل.

وذلك أنّ بني إسرائيل بعد أن قضوا نيفا وأربعين سنة في أسر البابليين وتابوا إلى الله وندموا على ما فرط منهم سلّط الله ملوك فارس على ملوك بابل الأشوريين، فإنّ الملك (**كُورش**) ملك فارس حارب البابليين وهزمهم فضعف سلطانهم، ثمّ نزل بهم (**داريوس**) ملك فارس وفتح بابل سنة (538 ق م)، وأذن لليهود في سنة (530 ق م) أن يرجعوا إلى أورشليم ويجدّدوا دولتهم. وذلك نصر انتصروه على البابليين إذ كانوا أعوانا للفرس عليهم.

والوعد بهذا النصر ورد أيضا في كتاب أشعيا (الإصحاحات: 10/ 11 / 12)، وغيرها، وفي كتاب أرميا (الإصحاح: 28 و 29)

{ **وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً** }

هو من جملة المقضي الموعود به. ووقع في كتاب أرميا (الإصحاح:29): " هكذا قال الربّ إله إسرائيل لكلّ الذي سبيته من أورشليم إلى بابل: ابنوا بيوتا واسكنوا، واغرسوا جنّات، وكلوا ثمرها، خذوا نساء ولدوا بنين وبنات، وأكثروا هناك ولا تقلّوا".

{ **نَفِيراً** } تمييز لـ { أكثر} فهو تبيين لجهة الأكثرية. والنفير اسم جمع **للجماعة التي تنفر مع المرء** من قومه وعشيرته، ومنه قول أبي جهل: " لا في العير ولا في النفير".

أي جعلناكم أكثر ممّا كنتم قبل الجلاء، وهو المناسب لمقام الامتنان. وقال جمع من المفسرين: أكثر نفيرا من

أعدائكم الذين أخرجوكم من دياركم، أي أفنى معظم البابليين في الحروب مع الفرس حتّى صار عدد بني إسرائيل في بلاد الأسر أكثر من عدد البابليين.

{ **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** } من جملة المقضي في الكتاب ممّا خوطب به بنو إسرائيل، وهو حكاية لما في كتاب أرميا (الإصحاح: 29) : " وصلّوا لأجلها إلى الربّ لأنّه بسلامها يكون لكم سلام". وفي الإصحاح (31) : " يقول الرب أزرع بيت إسرائيل وبيت يهوذا ويكون كما سهرت عليهم للاقتلاع والهدم والقرض والإهلاك، كذلك أسهر عليهم للبناء والغرس، في تلك الأيام لا يقولون: الآباء أكلوا حِصْرِما وأسنان الأبناء ضرست بل كلّ واحد يموت بذنبه كل إنسان يأكل الحِصْرِم تَضْرِس أسنانه".

{ **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ** } أنّنا نردّ لكم الكرة لأجل التّوبة وتجدّد الجيل وقد أصبحتم في حالة نعمة، فإن أحسنتم كان جزاؤكم حسنا وإن أسأتم لأنفسكم، فكما أهلكنا من قبلكم بذنوبهم فقد أحسنّا إليكم بتوبتكم فاحذروا الإساءة كيلا تصيروا إلى مصير من قبلكم.

وإعادة فعل { أحسنتم } تنويه، ومثله قول الله { هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا } [القصص:63].

وأسلوب إعادة الفعل عند إرادة تعلّق شيء به أسلوب عربي فصيح **يقصد به الاهتمام**. وقد تكرّر في القرآن، قال { وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ } [الشعراء:130]، وقال { وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً } [الفرقان:72].

{ **وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** }، قوله { فلها } متعلّق بفعل محذوف بعد فاء الجواب، تقديره: أسأتم لها. وليس المجرور بظرف مستقر خبرا عن مبتدأ محذوف يدل عليه فعل { أسأتم } لأنّه لو كان كذلك لقال: فعليها، كقوله { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} [فصلت:46].

ووجه المخالفة بين أسلوب الآيتين أنّ آية فصلت ليس فيها تجريد، إذ التقدير فيها: فعمله لنفسه وإساءته عليها، فلمّا كان المقدّر اسما كان المجرور بعده مستقرا غير حرف تعدية. وأمّا هذه آية فالفعلان (أحسنتم / أسأتم) الواقعان في الجوابين مقتضيان التجريد فجاءا على أصل تعديتهما باللام لا لقصد نفع ولا ضر.

{ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً** }.

إيجاز بديع قضاء لحق التقسيم الأوّل في قوله { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا }[5]، ولِحَقِّ إفادة ترتب مجيء وعد الآخرة على الإساءة، ولو عطف بالواو كما هو مقتضى ظاهر التقسيم إلى مرّتين فاتت إفادة الترتّب والتفرّع.

{ **الآخرة** } صفة لمحذوف دلّ عليه قوله { مرتين }، أي وعد المرة الآخرة. وهذا الكلام من بقية ما قضي في الكتاب بدليل تفريعه بالفاء. والآخرة ضدّ الأولى.

{ **لِيَسُوءُوا / وَلِيَدْخُلُوا / وَلِيُتَبِّرُوا** } اللامات للتعليل، وليست للأمر لاتفاق القراءات المشهورة على كسر اللامين الثاني والثالث، ولو كانا لامي أمر لكانا ساكنين بعد واو العطف، فيتعيّن أنّ اللام الأول لام أمر لا

لام جر. والتقدير: فإذا جاء وعد الآخرة بعثنا عبادا لنا ليسوءوا وجوهكم الخ.
وليست عائدة إلى قوله { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ } [5]. لأنّ الذين أساءوا ودخلوا المسجد هذه المرّة أمّة غير الذين جاسوا خلال الديار حسب شهادة التاريخ وأقوال المفسّرين.
سوء الوجوه: جَعْل المساءة عليها، أي تسليط أسباب المساءة والكآبة عليكم حتّى تبدو على وجوهكم، لأنّ ما يخالج الإنسان من غمّ وحزن، أو فرح ومسرّة يظهر أثره على الوجه دون غيره من الجسد.
{ **وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ** } دخول غزو بقرينة التشبيه في قوله { كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ } المراد منه قوله { فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَار } [5].
التتبير: الإهلاك والإفساد.
{ **مَا عَلَوْا تَتْبِيراً** } موصول هو مفعول(يتبّروا)، وعائد الصلة محذوف لأنّه متّصل منصوب، والتقدير: ما علوه، والعلو علو مجازي وهو الاستيلاء والغلب.
{ **عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ** } لم يعدهم الله في هذه المرة إلّا بتوقّع الرحمة دون ردّ الكرّة، فكان إيماء إلى أنّهم لا ملك لهم بعد هذه المرّة. وبهذا تبيّن أنّ المشار إليه بهذه المرّة الآخرة هو ما اقترفه اليهود من المفاسد والتمرّد وقتل الأنبياء والصالحين والاعتداء على عيسى وأتباعه، وقد أنذرهم النبيء ملاخي في الإصحاحين (3 / 4) من كتابه، وأنذرهم زكرياء ويحيى وعيسى (انجيل مرقس، الإصحاح : 3) فلم يرعوا فضربهم الله الضربة القاضية بيد الرومان.
وبيان ذلك: أنّ اليهود بعد أن عادوا إلى أورشليم وجدّدوا ملكهم ومسجدهم في زمن (داريوس) وأطلق لهم التصرّف في بلادهم التي غلبهم عليها البابليون وكانوا تحت نفوذ مملكة فارس، فمكثوا على ذلك مائتي سنة (من 530 إلى 330 ق م)، ثم أخذ ملكهم في الانحلال بهجوم البطالسة ملوك مصر على أورشليم فصاروا تحت سلطانهم إلى (سنة 166 ق م) إذ قام قائد من إسرائيل اسمه (**ميثيا**)وكان من اللاويين فانتصر لليهود وتولّى الأمر عليهم وتسلسل الملك بعده في أبنائه في زمن مليء بالفتن إلى سنة (40 ق م). دخلت المملكة تحت نفوذ الرومانيين وأقاموا عليها أمراء من اليهود كان أشهرهم (**هيرودس**) ثم تمرّدوا للخروج على الرومانيين، فأرسل قيصر رومية القائد (**سيسيانوس**) مع ابنه القائد (**طيطوس**) بالجيوش في حدود سنة (40 م) فخربت أورشليم واحترق المسجد، وأسر(**طيطوس**) نيفا وتسعين ألفا من اليهود، وقتل من اليهود في تلك الحروب نحو ألف ألف، ثم استعادوا المدينة وبقي منهم شرذمة قليلة بها إلى أن وافاهم الأمبراطور الروماني(**أدريانوس**)فهدمها وخرّبها ورمى قناطير الملح على أرضها كيلا تعود صالحة للزراعة، وذلك سنة (135م). وبذلك انتهى أمر اليهود وانقرض، وتفرّقوا في الأرض ولم تخرج أورشليم من حكم الرومان إلّا حين فتحها المسلمون في زمن عمر بن الخطاب (16 هـ) صلحا مع أهلها وهي تسمى يومئذ (**أيلياء**).

{ **وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا** } يجوز أن تكون الواو عاطفة على جملة { عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ } عطف الترهيب على الترغيب. ويجوز أن تكون معترضة. والمعنى: بعد أن يرحمكم ربكم ويؤمّنكم في البلاد التي تلجأون إليها، إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى عقابكم، أي عدنا لمثل ما تقدّم من عقاب الدنيا.

{ **وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً** } عطف على { عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ } لإفادة أنّ ما ذكر قبله من عقاب إنّما هو عقاب دنيوي وأنّ وراءه عقاب الآخرة.

{ **لِلْكَافِرِين** } يعمّ المخاطبين وغيرهم، وفيه معنى التذييل. ويومئ هذا إلى أنّ عقابهم في الدنيا ليس مقصورا على ذنوب الكفر بل هو منوط بالإفساد في الأرض وتعدّي حدود الشريعة. وأمّا الكفر بتكذيب الرّسل فقد حصل في المرة الآخرة فإنّهم كذّبوا عيسى، وأمّا في المرة الأولى فلم تأتهم رسل ولكنهم قتلوا الأنبياء مثل أشعياء، وأرمياء، وقتل الأنبياء كفر.

الحصير: المكان الذي يحصر فيه، فلا يستطاع الخروج منه.

{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً [9] وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } [10].

استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى الغرض الأهم من هذه السورة وهو تأييد النبيء ﷺ بالآيات والمعجزات، وإيتاؤه الآيات التي أعظمها آية القرآن. وأعقب ذلك بذكر ما أنّزل على بني إسرائيل من الكتب للهُدى والتحذير، وما نالهم من جزاء مخالفتهم ما أمرهم الله به، ومن عدولهم عن سنن أسلافهم من عهد نوح. وفي ذلك فائدة التحذير من وقوع المسلمين فيما وقع فيه بنو إسرائيل، وهي الفائدة العظمى من ذكر قصص القرآن، وهي فائدة التاريخ.

{ **إِنَّ** } تأكيد الجملة مراعى فيه حال بعض المخاطبين وهم الذين لم يذعنوا إليه، وحال المؤمنين من الاهتمام بهذا الخبر، فالتوكيد مستعمل في معنييه **دفع الإنكار والاهتمام**، ولا تعارض بين الاعتبارين.

{ **هذا القرآن** } إشارة إلى الحاضر في أذهان النّاس من المقدار المنزّل من القرآن قبل هذه الآية. وبُيّنت الإشارة بالاسم الواقع بعدها تنويها بشأن القرآن.

وقد جاءت هذه الآية تنفيسا على المؤمنين من أثر القصص المهولة التي قُصّت عن بني إسرائيل وما حلّ بهم من البلاء ممّا يثير في نفوس المسلمين الخشية من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك، فأُخبروا بأنّ في القرآن ما يعصمهم عن الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل، إذ هو يهدي للطريق التي هي أقوم ممّا سلكه بنو إسرائيل، ولذلك ذكر مع الهداية بشارة المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ونذارة الذين لا يؤمنون بالآخرة. وتلك عادة القرآن في تعقيب الرهبة بالرغبة وعكسه.

{ **التي هي أقوم** } صفة لمحذوف دلّ عليه { يهدي } ، أي للطريق التي هي أقوم، لأنّ الهداية من ملازمات السير والطريق، أو للملّة الأقوم.

الأقوم: تفضيل القَويم. والمعنى: أنّه يهدي للتي هي أقوم من هُدى كتاب بني إسرائيل الذي في قوله { وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائيلَ } [2]. ففيه إيماء إلى ضمان سلامة أمّة القرآن من الحَيْدة عن الطريق الأقوم، لأنّ القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلكا إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلّا سلكه إليها تحريضا أو تحذيرا، بحيث لا يعدم المتدبّر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه، وبتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة كانت الطريقة التي يهدي إلى سلوكها أقوم من الطرائق الأخرى، وإن كانت الغاية المقصود الوصول إليها واحدة.

{ **أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً** } والأجر الكبير فسّر بالجنّة، والعذاب الأليم بجهنّم، والأظهر أن يُحمل على عموم الأجر والعذاب، فيشمل أجر الدنيا وعذابها، وهو المناسب لما تقدّم من سعادة عيش بني إسرائيل وشقائه، فجعل اختلاف الحالين فيهما موعظة لحالي المسلمين والمشركين.

{ **وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً** } المراد بهم مشركو قريش وهم أعداء المؤمنين، فلا جرم أن عذاب العدو بشارة لمن عاداه.

والاقتصار على هذين الفريقين هو مقتضى المقام لمناسبة تكذيب المشركين بالإسراء فلا غرض في الإعلام بحال أهل الكتاب.

{ وَيَدْعُ الْأِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْأِنْسَانُ عَجُولاً } [11]

موقع هذه الآية هنا غامض، وانتزاع المعنى من نظمها وألفاظها أيضا، ولم يأت فيها المفسّرون بما ينثلج له الصدر، والذي يظهر لي أنّ الآية التي قبلها لمّا اشتملت على بشارة وإنذار وكان المنذرون إذا سمعوا الوعيد والإنذار يستهزئون به { وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [يّس:48]، عطف هذا الكلام على ما سبق تنبيها على أنّ لذلك الوعد أجلا مسمّى.

{ **وَيَدْعُ الْأِنْسَانُ** } المراد به الذي لا يؤمن بالآخرة كما في سورة مريم { وَيَقُولُ الْأِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً [66] أَوَلا يَذْكُرُ الْأِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً} [67].

وإطلاق الإنسان على الكافر كثير في القرآن. وفعل { **يدعو** } مستعمل في معنى يطلب ويبتغي.

{ **دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ** } مصدر يفيد تشبيها، أي **يستعجل الشرّ كاستعجاله الخير**، يعني يستبطئ حلول الوعيد كما يستبطئ أحد تأخّر خبر وُعد به.

{ **وَكَانَ الْأِنْسَانُ عَجُولا** } تذييل، فالإنسان هنا مراد به الجنس لأنّه المناسب للتذييل، أي وما هؤلاء الكافرون

الذين لا يؤمنون بالآخرة إلّا من نوع الإنسان، وفي نوع الإنسان الاستعجال، كقوله تعالى { وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } [الكهف:54]. وهو كناية عن عدم تبصّره، وأن الله أعلم بمقتضى الحكمة في توقيت الأشياء { وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ} [يونس:11]، ولكنه درّج لهم وصول الخير والشرّ لطفا بهم في الحالين.

عجول: صيغة مبالغة في عاجل، يقال: عجِل فهو عاجل وعجول.

وكتب في المصحف{ ويدع } بدون واو بعد العين إجراء لرسم الكلمة على حالة النطق بها في الوصل.

{ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً } [12]

عطف على { ويدع الإنسان بالشرّ } [11]. والمناسبة أنّ جملة { ويدع الإنسان } تتضمّن أنّ تأخير الوعد لا يرفعه، وأنّ الاستعجال لا يجدي صاحبه لأنّ لكلّ شيء أجلا، ولمّا كان الأجل عبارة عن أزمان كان مشتملا على ليل ونهار متقضّيَيْن. فلما أريد التنبيه على ذلك أدمج فيه ما هو أهم في العبرة بالزمنين وهو كونهما آيتين على وجود الصانع وعظيم القدرة، وكونهما منّتين على النّاس، وكون النّاس ربما كرهوا الليل لظلمته، واستعجلوا انقضاءه بطلوع الصباح. ثم بزيادة العبرة في أنّهما ضدّان، وفي كلّ منهما آثار النعمة المختلفة وهي نعمة السير في النهار. واكتفى بعدها عن عدّ نعمة السكون في الليل لظهور ذلك بالمقابلة، وبتلك المقابلة حصلت نعمة العلم بعدد السنين والحساب، لأنّه لو كان الزمن كلّه ظلمة أو كلّه نورا لم يحصل التمييز بين أجزائه.

وفي هذا بعد ذلك كله إيماء إلى ضرب مثل للكفر والأيمان، وللضلال والهدى، ولذلك عقّب بقوله بعده { مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ } [15]. وكل هذا الإدماج تزويد للآية بوافر المعاني شأن بلاغه القرآن وإيجازه.

{ آيَةَ اللَّيْلِ / آيَةَ النَّهَارِ } وإضافة آية إلى الليل وإلى النهار يجوز أن تكون بيانيّة، أي الآية التي هي الليل، والآية التي هي النهار. ويجوز أن تكون آية الليل الآية الملازمة له وهي القمر، وآية النهار الشمس.

ويكون معنى المحو أن القمر مطموس لا نور في جرمه ولكنّه يكتسب الإنارة بانعكاس شعاع الشمس على كرته، ومعنى كون آية النهار مبصرة أنّ الشمس جعل ضوءها سبب إبصار النّاس الأشياء. وهذا أدقّ معنى وأعمق في إعجاز القرآن بلاغة وعلما، فإنّ هذه حقيقة من علم الهيئة. وما أعيد لفظ (آية) إلّا لأجلها.

المحو: الطمس. وأطلق على انعدام النور، لأنّ النور يُظهر الأشياء والظلمة لا تظهر فيها الأشياء، فشبّه اختفاء الأشياء بالمحو.

{ لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ } علّة لخصوص آية النهار. وجاء التعليل لحكمة آية النهار خاصة دون ما يقابلها

من حكمة الليل لأنّ المنّة بها أوضح، ولأنّ من التنبيه إليها يحصل التنبّه إلى ضدّها وهو حكمة السكون في الليل، كما قال { لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً } [يونس:67].

{ **وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** } ثم ذكرت حكمة أخرى حاصلة من كلتا الآيتين. وهي حكمة حساب السنين، وهي في آية الليل أظهر، لأنّ جمهور البشر يضبط الشهور والسنين بالليالي، أي حساب القمر.

{ **وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً** } تذييل، باعتبار ما سبق له من الإشارة إلى أنّ للشرّ والخير الموعود بهما أجلا ينتهيان إليه. والمعنى: أنّ ذلك الأجل محدود في علم الله تعالى لا يعدوه، فلا يقرّبه استعجال ولا يؤخّره استبطاء لأنّ الله قد جعل لكلّ شيء قدرا لا إبهام فيه ولا شكّ عنده.

التفصيل: التبيين والتمييز. وهو مشتقّ من الفصل بمعنى القطع، لأنّ التبيين يقتضي عدم التباس الشيء بغيره. وقد تقدّم في قوله تعالى { كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ } [هود:1].

والتفصيل في الأشياء يكون في خلقها، ونظامها، وعلم الله بها، وإعلامه بها. فالتفصيل الذي في علم الله وفي خلقه ونواميس العوالم عام لكلّ شيء وهو مقتضى العموم هنا. وأمّا ما فصّله الله للنّاس من الأحكام والأخبار فذلك بعض الأشياء، ومنه قوله تعالى { يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } (الرعد:2) وقوله { قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [الأنعام:97]. وذلك بالتبليغ على ألسنة الرّسل، وبما خلق في النّاس من إدراك العقول. ومن جملة ما فصّله للنّاس والإرشاد إلى التوحيد وصالح الأعمال والإنذار على العصيان. وفي هذا تعريض بالتهديد.

{ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً [13] اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً } [14]

لمّا كان سياق الكلام جاريا في طريق الترغيب في العمل الصالح والتحذير من الكفر والسيّئات ابتداء من قوله تعالى { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ - إلى قوله - عَذَاباً أَلِيماً }[10/9]، وما عقبه ممّا يتعلّق بالبشارة والنذارة وما أدمج في خلال ذلك من التذكير ثم بما دلّ على أنّ علم الله محيط بكلّ شيء تفصيلا، وكان أهمّ الأشياء في هذا المقام إحاطة علمه بالأعمال كلّها، فأعقب ذكر ما فصّله الله من الأشياء بالتنبيه على تفصيل أعمال النّاس تفصيلا لا يقبل الشكّ ولا الإخفاء، وهو التفصيل المشابه للتقييد بالكتابة.

{ **وَكُلَّ إِنْسَانٍ** } عطف على قوله { وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً } [12] عطف خاص على عام للاهتمام بهذا الخاص. والمعنى: وكلّ إنسان قدّرنا له عمله في علمنا فهو عامل به لا محالة، وهذا من أحوال الدنيا.

الطائر: أطلق على السهم، أو القرطاس الذي يُعيّن فيه صاحب الحظّ في عطاء أو قرعة لقسمة أو أعشار جزور الميسر، يقال: اقتسموا الأرض فطار لفلان كذا، ومنه قول أم العلاء الأنصارية في حديث الهجرة :

"أقتسم الأنصار المهاجرين فطار لنا عثمان بين مظعون... " وذكرت قصّة وفاته.[صحيح البخاري]

وأصل إطلاق الطائر على هذا، إمّا لأنّهم كانوا يرمون السهام المرقومة بأسماء المتقاسمين على صُبر الشيء المقسوم المعدّة للتوزيع. فكلّ من وقع السهم المرقوم باسمه على شيء أخذه. وكانوا يطلقون على رمي السهم فعل الطيران لأنّهم يجعلون للسهم ريشا في قذذه ليخفّ به اختراقه الهواء عند رميه من القوس.

فالطائر هنا أطلق على الحظّ من العمل مثل ما يطلق اسم السهم على حظ الإنسان من شيء ما.

وإمّا من زجر الطير لمعرفة بخت أو شؤم الزاجر من حالة الطير التي تعترضه في طريقه، والأكثر أن يفعلوا ذلك في أسفارهم، وشاع ذلك في الكلام فأطلق الطائر على حظ الإنسان من خير أو شرّ.

الإلزام: جعله لازما له، أي غير مفارق، يقال: لزمه إذا لم يفارقه.

{ **فِي عُنُقِهِ** } يجوز أن يكون كناية عن الملازمة والقرب، أي عمله لازم له لزوم القلادة. ومنه قول العرب تقلّدها طوق الحمامة، فلذلك خصّت بالعنق، لأنّ القلادة توضع في عنق المرأة.

ويحتمل أن يكون تمثيلا لحالة لعلّها كانت معروفة عند العرب وهي وضع علامات تعلّق في الرقاب للذين يعيّنون لعمل ما أو ليؤخذ منهم شيء. ويجوز أن يكون تمثيلا بالبعير الذي يُوسم في عنقه بسمْةٍ كيلا يختلط بغيره، أو الذي يوضع في عنقه جُلجل لكيلا يضلّ عن صاحبه.

والمعنى على الجميع، أنّ كلّ إنسان يعامل بعمله من خيرّ أو شر لا ينقص له منه شيء.

{ **وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً** } إخبار عن كون تلك الأعمال المعبّر عنها بالطائر تظهر يوم القيامة مفصّلة معيّنة لا تغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصيت للجزاء عليها.

الكتاب: ما فيه ذكر الأعمال وإحصاؤها.

{ **يَلْقَاهُ مَنْشُوراً** } والنشر ضدّ الطيّ. ومعنى { يَلْقَاهُ } يجده. وهو كناية عن سرعة اطلاعه على جميع ما عمله، بحيث إنّ الكتاب يحضر من قبل وصول صاحبه مفتوحا للمطالعة.

نشر الكتاب: إظهاره ليقرأ، قال تعالى { وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ } [التكوير:10].

{ **اقْرَأْ كِتَابَكَ** } مقول قول محذوف دل عليه السياق. والأمر مستعمل في التسخير ومكنّى به عن الإعذار لهم والاحتجاج عليهم كما دلّ عليه قوله { كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً }، ولذلك كان معرفة تلك الأعمال من ذلك الكتاب حاصلة للقارئ.

القراءة: مستعملة في معرفة ما أُثبت للإنسان من الأعمال، أو في فهم النقوش المخصوصة إن كانت هنالك نقوش وهي خوارق عادات.

{ **بِنَفْسِكَ** } الباء مزيدة للتأكيد، كما في قوله { وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً } [النساء:79].

{ **حَسِيباً** } انتصب على التمييز لنسبة الكفاية إلى النفس. والحسيب: فعيل بمعنى فاعل أي الحاسب والضابط.

وكثر ورود التمييز بعد(كفى بكذا) وعدّي بـ (على) لتضمينه معنى الشهيد. وما صدق النفس هو الإنسان في قوله { وكل إنسان ألزمناه طائره } فلذلك جاء {حسيبا} بصيغة التذكير.

{ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتّى نَبْعَثَ رَسُولاً } [15]

{ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى }

هذه الجملة بيان أو بدل اشتمال من جملة { وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه } مع توابعها. وفيه تبيين اختلاف الطائر بين نافع وضار، فطائر الهداية نفع لصاحبه وطائر الضلال ضرّ لصاحبه. ولكون الجملة كذلك فصلت ولم تعطف على التي قبلها.

{ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } واقعة موقع التعليل لمضمون { وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا } لما في هذه من عموم الحكم، فإنّ عمل أحد لا يلحق نفعه ولا ضرّه بغيره.

وفي الجملة إبطال أوهام قوم يظنّون أنّ أوزارهم يحملها عنهم غيرهم. وقد روي أنّ الوليد بن المغيرة وهو من أئمة الكفر كان يقول لقريش: " اكفروا بمحمد وعليّ أوزاركم". ولعلّه قال ذلك لما رأى تردّدهم في أمر الإسلام وميلهم إلى النظر في أدلّة القرآن خشية الجزاء يوم البعث، فأراد التمويه عليهم بأنّه يتحمّل ذنوبهم إن تبين أنّ محمدا على حق، وقد يروج على دهمائهم لأنّهم اعتادوا بالحملات والكفالات والرهائن، فبيّن الله للنّاس إبطال ذلك إنقاذا لهم من الاغترار بالذي يهوي بهم إلى المهالك، مع ما في هذا البيان من تعليم أصل عظيم في الدين وهو{ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى }. فكانت هذه الآية أصلا عظيما في الشريعة، وتفرع عنها أحكام كثيرة.

ولمّا روى ابن عمر عن النبيء ﷺ أنّ الميت ليعذب ببكاء أهله عليه قالت عائشة رضي الله عنها:" يرحم الله أبا عبد الرحمان، ما قال رسول الله ذلك والله يقول { وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } ".

وسكتت الآية عن أن لا ينتفع أحد بصالح عمل غيره اكتفاء، إذ لا داعي إلى بيانه لأنّه لا يوقع في غرور، وتُعلم المساواة بطريق لحن الخطاب أو فحواه.

وقد جاء في القرآن ما يومي إلى أنّ المتسبّب لأحد في هدي ينال من ثواب المهتدي قال تعالى { وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً } [الفرقان:74] وفي الحديث:" إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم بثه في صدور الرجال، وولد صالح يدعو له بخير " [مسلم].

ومن التخليط توهّم أنّ حمل الديّة في قتل الخطأ على العاقلة مناف لهذه الآية، فإنّ ذلك فرع قاعدة أخرى وهي قاعدة التعاون والمواساة وليست من حمل التبعات.

{ **تزر** } تحمل الوزر، وهو الثقل. و**الوازرة**: الحاملة، وتأنيثها باعتبار أنّها نفس لقوله قبله { يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ }.
الوزر: الإثم لتشبيهه بالحمل الثقيل لما يجرّه من التعب لصاحبه في الآخرة، كما أطلق عليه الثقل، قال تعالى { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ } [العنكبوت:13].
{ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتّى نَبْعَثَ رَسُولاً** } وهذا استقصاء في الإعذار لأهل الضلال، زيادة على نفي مؤاخذتهم بأجرام غيرهم، ولهذا اقتصر على { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ } دون أن يقال: ولا مثيبين. لأنّ المقام مقام إعذار وقطع حجّة وليس مقام امتنان بالإرشاد.
والعذاب هنا عذاب الدنيا بقرينة السياق وقرينة ما بعده. ودلّت على ذلك آيات كثيرة، مثل قوله تعالى { وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلّا لَهَا مُنْذِرُونَ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ} [الشعراء:209].
{ **حتّى نَبْعَثَ رَسُولاً** } يؤذن بأنّ بعثة الرسول متّصلة بالعذاب شأن الغاية، وهذا اتصال عرفي بحسب ما تقتضيه البعثة من مدّة للتبليغ والاستمرار على تكذيبهم الرّسول والإمهال للمكذّبين، ولذلك يظهر أن يكون العذاب هنا عذاب الدنيا وكما يقتضيه الانتقال إلى الآية بعدها.
على أنّنا إذا اعتبرنا التوسّع في الغاية صحّ حمل التعذيب على ما يعمّ عذاب الدنيا والآخرة.
ودلّت الآية على أنّ الله لا يؤاخذ النّاس إلّا بعد أن يرشدهم، رحمة منه لهم. وهي دليل بيّن على انتفاء مؤاخذة أحد ما لم تبلغه دعوة رسول من الله إلى قومه، فهي حجة للأشعري ناهضة على الماتريدي والمعتزلة الذين اتفقوا على إيصال العقل إلى معرفة وجود الله. فوجود الله وتوحيده عندهم واجبان بالعقل فلا عذر لمن أشرك بالله وعطّل.
وتأويل المعتزلة أن يراد بالرسول العقل تطوّحٌ عن استعمال اللغة وإغماضٌ عن كونه مفعولا لفعل {نبعث} إذ لا يقال بعث عقلا بمعنى جعل. وقد تقدّم ذلك في تفسير قوله تعالى { لِئَلّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } [النساء:165].

{ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً}[16].

هذا تفصيل للحكم المتقدّم قصد به تهديد قادة المشركين وتحميلهم تبعة ضلال الذين أضلّوهم. وهو تفريع لتبيين أسباب حلول التعذيب بعد بعثة الرّسول أدمج فيه تهديد المضلّين. فكان مقتضى الظاهر أن يعطف بالفاء على قوله { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتّى نَبْعَثَ رَسُولاً } [15] ولكنّه عطف بالواو للتنبيه على أنّه خبر مقصود لذاته باعتبار ما يتضمّنه من التحذير من الوقوع في مثل الحالة الموصوفة.
فهذه الآية تهديد للمشركين من أهل مكة وتعليم للمسلمين.
والمعنى أنّ بعثة الرسول تتضمّن أمرا بشرع، وأنّ سبب إهلاك المرسَل إليهم بعد أن يبعث إليهم الرّسول هو

عدم امتثالهم لما يأمرهم الله به على لسان ذلك الرّسول.

{ **وَإِذَا أَرَدْنَا** } ومعنى إرادة الله إهلاك قرية التعلق التنجيزي لإرادته. وتلك الإرادة تتوجّه إلى المراد عند حصول أسبابه { فَفَسَقُوا فِيهَا }.

{ **أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا** } المتعلّق محذوف، أي أمرناهم بما نأمرهم على لسان رسولهم فعصوا الرّسول وفسقوا في قريتهم.

واعلم أن تصدير هذه الجملة بـ (إذا) أوجب استغلاق المعنى في الربط بين جملة شرط (إذا) وجملة جوابه، لأنّ شأن (إذا) أن تكون ظرفا للمستقبل وتتضمّن معنى الشرط أي الربط بين جملتيها. فيقتضي ذلك أنّ إرادة الله تتعلق بإهلاك القرية ابتداء، فيأمر الله مترفي أهل القرية فيفسقوا فيها فيحقّ عليها القول الذي هو مظهر إرادة الله إهلاكهم، مع أنّ مجرى العقل يقتضي أن يكون فسوق أهل القرية وكفرهم هو سبب وقوع إرادة الله إهلاكهم، وأنّ الله لا تتعلّق إرادته بإهلاك قوم إلّا بعد أن يصدر منهم ما توعّدهم عليه لا العكس. وليس من شأن الله أن يريد إهلاكهم قبل أن يأتوا بما يسبّبه، ولا من الحكمة أن يسوقهم إلى ما يفضي إلى مؤاخذتهم ليحقّق سببا لإهلاكهم.

فيكون أصل نظم الكلام هكذا: وما كنا معذبين حتّى نبعث رسولا ونأمر مترفي قرية بما نأمرهم به على لسان الرسول فيفسقوا عن أمرنا فيحقّ عليهم الوعيد فنهلكهم إذا أردنا إهلاكهم .وقرينة السياق واضحة في هذا، فبنا أن نجعل الواو عاطفة فعل { أمرنا مترفيها } على { نَبْعَثَ رَسُولاً }، فإن الأفعال يعطف بعضها على بعض سواء أتحدت في اللوازم أم اختلفت.

وإنّما عدل عن نظم الكلام بهذا الأسلوب إلى الأسلوب الذي جاءت به الآية لإدماج التعريض بتهديد أهل مكة بأنهم معرضون لمثل هذا ممّا حلّ بأهل القرى التي كذّبت رسل الله.

وللمفسّرين طرائق كثيرة تزيد على ثمان لتأويل هذه الآية متعسّفة أو مدخولة، وهي متفاوتة، وأقربها قول من جعل جملة { أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا } إلخ صفة لـ { قرية } وجعل جواب (إذا) محذوفا.

المترف: اسم مفعول من أترفه إذا أعطاه التُرْفة (بضم التاء وسكون الراء) أي النعمة. والمترفون هم أهل النعمة وسعة العيش، وهم معظم أهل الشرك بمكّة. وكان معظم المؤمنين يومئذ ضعفاء قال الله { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً} [المزمل:11].

وتعليق الأمر بخصوص المترفين مع أنّ الرسل يخاطبون جميع النّاس، لأنّ عصيانهم الأمر الموجّه إليهم هو سبب فسقهم وفسق بقية قومهم، إذ هم قادة العامة وزعماء الكفر، فالخطاب في الأكثر يتوجّه إليهم، فإذا فسقوا عن الأمر اتّبعهم الدهماء فعم الفسق أو غلب على القرية فاستحقت الهلاك.

الفسق: الخروج عن المقر وعن الطريق. والمراد به في اصطلاح القرآن **الخروج عمّا أمر الله به**، وتقدّم

عند قوله تعالى { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ } [البقرة:26]

{ **الْقَوْلُ** } هو ما يبلّغه الله إلى النّاس من كلام بواسطة الرّسل، وهو قول الوعيد كما قال { فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ } [الصافات:31].

التدمير: هدم البناء وإزالة أثره، وهو مستعار هنا للاستئصال إذ المقصود إهلاك أهلها ولو مع بقاء بنائهم. وتقدّم التدمير عند قوله تعالى { وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ } [الأعراف:137].

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً }[17]

ضرب مثال لإهلاك القرى الذي وُصف سببه وكيفيّتة في الآية السابقة، لأنّه أشدّ في الكشف وأدخل في التحذير المقصود. وفي ذلك تحقيق لكون حلول العذاب بالقرى مقدّما بإرسال الرسول إلى أهل القرية، ثم بتوجيه الأوامر إلى المترفين ثم فسقهم عنها. وكان زعماء الكفرة من قوم نوح مترفين وهم الذين قالوا { وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ } [هود:27].

فكان مقتضى الظاهر عطف هذه الجملة بالفاء لأنّها كالفرع على الجملة قبلها ولكنّها عطفت بالواو إظهارا لاستقلالها بوقع التحذير من جهة أخرى، فكان ذلك تحريجا على خلاف مقتضى الظاهر لهذا الاعتبار.

{ **وَكَمْ** } في الأصل استفهام عن العدد، وتستعمل خبريّة دالة على عدد كثير مبهم النوع، فلذلك تحتاج إلى تمييز لنوع العدد. و{ من القرون } تمييز للإبهام الذي اقتضته (كم).

القرون: جمع قرن، وهو في الأصل المدّة الطويلة من الزمن فقد يقدّر بمائة سنة وبأربعين سنة، ويطلق على النّاس الذين يكونون في تلك المدّة كما هنا، وفي الحديث خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ، أي أهل القرن الذي أنا فيه. قال الله تعالى { وَعَاداً وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً } [الفرقان:38].

{ **مِنْ بَعْدِ نُوحٍ** } إيجاز، كأنّه قيل: من قوم نوح فمن بعدهم، وقد جعل زمن نوح مبدأ لقصص الأمم لأنّه أوّل رسول، واعتبر القصص من بعده لأنّ زمن نوح صار كالمنقطع بسبب تجديد عمران الأرض بعد الطوفان، ولأن العذاب الذي حل بقومه عذاب مهول وهو الغرق الذي أحاط بالعالم.

ووجه ذكره تذكير المشركين به، وأنّ عذاب الله لا حدّ له، والتنبيه على أنّ الضلالة تحول دون الاعتبار بالعواقب ودون الاتعاظ بما يحل بمن سبق.

والآية إقبال على خطاب النبيء ﷺ بالخصوص، لأنّ كلّ ما سبق من الوعيد والتهديد إنّما مآله إلى حمل النّاس على تصديق محمد ﷺ فيما جاء به من القرآن بعد أن لجّوا في الكفر وتفنّنوا في التكذيب، فلا جرم ختم ذلك بتطمين النبيء بأنّ الله مطّلع على ذنوب القوم. وهو تعريض بأنّه مجازيهم بذنبوهم بما يناسب فظاعتها، ولذلك جاء بفعل { كَفَى } وبوصفي {خَبِيراً بَصِيراً} المكنّى بذكرهما عن عدم إفلات شيء من ذنوبهم المرئية

والمعلومة من ضمائرهم أعني أعمالهم ونواياهم.
وقدّم ما هو متعلق بالضمائر والنوايا لأنّ العقائد أصل الأعمال في الفساد والصلاح. وفي الحديث: " ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب" [متفق عليه].
{ **وَكَفَى بِرَبِّكَ** } إيماء إلى أنّ النبيء غير محتاج إلى من ينتصر له غير ربّه فهو كافية وحسبه. قال تعالى {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة:137].
أو إلى أنّه في غنية عن الهم في شأنهم كقوله لنوح { فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [هود:46] فهذا إمّا تسلية له عن أذاهم، وإم،ا صرف له عن التوجّع لهم.
وفي الخطاب تعريض بالوعيد لسامعيه من الكفار.

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً [18] وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً}[19].
بيان لجملة { من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه } [15] وهو راجع أيضا إلى جملة { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ } [13] تدريجا في التبيان للنّاس بأنّ أعمالهم من كسبهم واختيارهم، فابتدئوا بأنّ الله قد ألزمهم تبعة أعمالهم بقوله { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ } ثم وكّل أمرهم إليهم، وأنّ المسيء لا يضرّ بإساءته غيره ولا يحملها عنه غيره فقال { من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه } [15]. ثم أعذر إليهم بأنّه لا يأخذهم على غرّة ولا يأخذهم إلّا بسوء أعمالهم بقوله { وما كنا معذبين - إلى قوله - خَبِيراً بَصِيراً } [15-17]. ثم كشف لهم مقاصدهم من أعمالهم، وأنّهم قسمان:
قسم لم يرد إلّا الدنيا فكانت أعماله لمرضاة شهواته معتقدا أنّ الدنيا هي قصارى مراتع النفوس لا حظ لها إلّا ما حصل لها في مدّة الحياة، لأنّه لا يؤمن بالبعث فيقصر عمله على ذلك.
وقسم علم أنّ الفوز الحقّ هو فيما بعد هذه الحياة فعمل للآخرة مقتفيا ما هداه الله إليه من الأعمال بواسطة رسله. وأن الله عامل كل فريق بمقدار همّته.
{ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ** } أي الدنيا بقرينة مقابلته بقوله { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ } لأنّ هذه المقابلة تقوم مقام الحصر الإضافي، إذ ليس الحصر الإضافي سوى جملتين لإثبات الشيء ونفي لخلافه. كقوله { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا } [هود:15].
والمراد من التعجيل أن يعطى ذلك في الدنيا قبل الآخرة، وقرينة ذلك قوله { فيها } .

{ مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ } لأن ما يعطاه من أرادوا العاجلة يعطاه بعضهم بالمقادير التي شاء الله إعطاءها.

المشيئة: الطواعية وانتفاء الإكراه.

الإرادة: مرادف المشيئة، فالتعبير بها بعد قوله { ما نشاء } تفنّن.

والمعنى: أنّ هذا الفريق الذي يريد الحياة الدنيا فقط قد نعطي بعضهم بعض ما يريد على حسب مشيئتنا وإرادتنا لأسباب مختلفة. ولا يخلو أحد في الدنيا من أن يكون قد عجّل له بعض ما يرغبه من لذات الدنيا.

{ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً } (ثمّ) لإفادة التراخي الرتبي.

{ يَصْلاهَا } يقال: صلى النّار إذا أصابه حرقها.

الذم: الوصف بالمعائب التي في الموصوف.

المدحور: المطرود. يقال: دحره، والمصدر: الدحور، وتقدّم عند قوله تعالى { قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُورا } [الأعراف:18].

{ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا } والاختلاف بين جملة { مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ } وهذه الجملة بجعل الفعل مضارعا في الأولى للإيماء إلى أنّ إرادة النّاس العاجلة متكرّرة متجدّدة. وفيه تنبيه على أنّ أمور العاجلة متقضية زائلة. وجعل فعل إرادة الآخرة ماضيا لدلالة الماضي على الرسوخ، تنبيها على أنّ خير الآخرة أولى بالإرادة.

{ وَسَعَى } حقيقته المشي دون العدو، فسعي الآخرة هو الأعمال الصالحة لأنّها سبب الحصول على نعيم الآخرة، فالعامل للصالحات كأنّه يسير سيرا سريعا إلى الآخرة ليصل إلى مرغوبه منها. وإضافته إلى ضمير الآخرة من إضافة المصدر إلى مفعوله في المعنى، وهو مفعول مطلق لبيان النوع.

وفي الآية تنبيه على أنّ إرادة خير الآخرة من غير سعي غرور وأنّ إرادة كل شيء لا بد لنجاحها من السعي في أسباب حصوله. قال عبد الله بن المبارك:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إنّ السفينة لا تجري على اليبس

{ وَهُوَ مُؤْمِنٌ } حال من ضمير { وَسَعَى } وجيء بالجملة الإسميّة لدلالتها على الثبات والدوام، أي وقد كان راسخ الإيمان، وهو في معنى قوله { ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا } [البلد:17].

{ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً } اسم الإشارة للتنبيه على أنّ المشار إليهم جديرون بما سيخبر به عنهم لأجل ما وصفوا به قبل ذكر اسم الإشارة.

والسعي المشكور هو المشكور ساعيه، فوصفه به مجاز عقلي. وهو أبلغ في الإخبار عن عامله بأنّه مرضي عنه، لأنّه في معنى الكناية الراجعة إلى إثبات الشيء بواسطة إثبات ملزومه.

{ **كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً** }[20]

تذييل للآيتين السابقتين. وهي فذلكة للتنبيه على أنّ الله تعالى لم يترك خلقه من أثر رحمته حتّى الكفرة منهم، فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قدّر لهم، وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة. وذلك مصداق قوله { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } [الأعراف:156] وقوله فيما رواه عنه نبيه ﷺ :" لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي" [البخاري (7453)، ومسلم (2751)].

{ **كُلّا** } التّنوين عوض عن المضاف إليه، أي كلّ الفريقين. ومجموع المعطوف والمعطوف عليه هو البدل كقول النبيء ﷺ: " اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي مِنْ أَصْحَابِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، وَاهْتَدُوا بِهَدْيِ عَمَّارٍ ، وَتَمَسَّكُوا بِعَهْدِ ابْنِ مَسْعُودٍ " [الترمذي (3805) وصححه الألباني]

{ **هَؤُلاءِ** } الإشارة في الموضعين إلى من كان يريد العاجلة ومن أراد الآخرة.

الإمداد: استرسال العطاء وتعاقبه. وجعل الجديد منه مددا للسالف بحيث لا ينقطع.

{ **وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً** } اعتراض أو تذييل، وعطاء ربك جنس العطاء،

المحظور: الممنوع، أي ما كان ممنوعا بالمرّة، بل لكل مخلوق نصيب منه.

{ **انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً** } [21]

لما كان العطاء المبذول للفريقين هو عطاء الدنيا وكان النّاس مفضّلين فيه على وجه يدركون حكمته لفت الله لذلك نظر نبيّه عليه الصلاة والسلام لفت اعتبار وتدبّر، ثم ذكّره بأنّ عطاء الآخرة أعظم عطاء، وقد فضّل الله به المؤمنين.

{ **انْظُرْ** } الأمر موجّه إلى النبيء ﷺ ترفيعا في درجات علمه، ويحصل به توجيه العبرة إلى غيره.

و حقيقته توجّه آلة الحس البصري إلى المبصر. وقد شاع في كلام العرب استعماله في النظر المصحوب بالتدبّر وتكرير مشاهدة أشياء في غرض ما، فيقوم مقام الظنّ ويستعمل استعماله بهذا الاعتبار، ولذلك شاع إطلاق النظر في علم الكلام على الفكر المؤدي إلى علم أو ظنّ، وهو هنا كذلك. وتقدّم نظيره في قوله تعالى { انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ } [النساء:50].

{ **كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** } اسم الاستفهام مستعمل في التنبيه. والمراد: التفضيل في عطاء الدنيا، لأنّه الذي يدركه التأمّل والنظر. والمقصود من هذا التنظير التنبيه إلى أنّ عطاء الدنيا غير منوط بصلاح الأعمال. ألا ترى إلى ما فيه من تفاضل بين أهل العمل المتّحد، وقد يفضل المسلم فيه الكافر، ويفضل الكافر المسلم، ويفضل بعض المسلمين بعضا، وبعض الكفرة بعضا، وكفاك بذلك هاديا إلى أنّ مناط عطاء الدنيا أسباب ليست من وادي العمل الصالح ولا ممّا يساق إلى النفوس الخيّرة.

{ **وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً** } ونصب { دَرَجَاتٍ – تَفْضِيلاً } على التمييز، والمفضّل عليه هو عطاء الدنيا.

الدرجات: مستعارة لعظمة الشرف.

التفضيل: إعطاء الفضل، وهو الجدّة والنعمة. وفي الحديث: " قيلَ: يا رسولَ اللهِ، ذهَبَ أهلُ الدُّثورِ بالأُجورِ، يُصلُّونَ كما نُصلِّي، ويَصومونَ كما نَصومُ، **ويَتصدَّقونَ بفُضولِ أموالِهم**، فقال: أوليس قد جعَلَ اللهُ لكم ما تَصدَّقونَ، إنَّ بكلِّ تَسبيحةٍ صَدَقةً، وبكلِّ تَكبيرةٍ صَدَقةً، وبكلِّ تَهليلةٍ صَدَقةً، وبكلِّ تَحميدةٍ صَدَقةً، وأمْرٌ بالمَعروفِ صَدَقةٌ، ونَهْيٌ عنِ المُنكَرِ صَدَقةٌ، وفي بُضْعِ أحَدِكم صَدَقةٌ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، يَأْتي أحَدُنا شَهوتَه ويكونُ له فيها أجْرٌ؟ فقال: أرَأَيْتم لو وضَعَها في الحَرامِ أليس كان يكونُ عليه وِزرٌ، أوِ الوِزرُ؟ قالوا: بَلى، قال: فكذلك إذا وضَعَها في الحَلالِ، يكونُ له الأجْر.[مسلم (1006)]

{ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً } [22]

تذييل هو فذلكة لاختلاف أحوال المسلمين والمشركين، فإنّ خلاصة أسباب الفوز ترك الشرك، لأنّ ذلك هو مبدأ الإقبال على العمل الصالح، فهو أوّل خطوات السعي لمريد الآخرة، لأنّ الشرك قاعدة اختلال التفكير وتضليل العقول، قال الله تعالى في ذكر آلهة المشركين { وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } [هود:101].

والخطاب للنبي ﷺ تبع لخطاب قوله { انْظُرْ }، والمقصود إسماع الخطاب غيره بقرينة تحقّق أنّ النبيء قائم بنبذ الشرك ومُنْحٍ على الذين يعبدون مع الله إلها آخر.

{ **تقعد** } مستعار لمعنى المكث والدوام. أريد بهذه الاستعارة تجريد معنى النهي إلى أنّه نهي تعريض بالمشركين لأنّهم متلبّسون بالذم والخذلان.

المذموم: المذكور بالسوء والعيب.

المخذول: الذي أسلمه ناصره.

فأمّا ذمّه فمن ذوي العقول، إذ أعظم سخرية أن يتّخذ المرء حجرا أو عودا ربا له ويعبده، كما قال إبراهيم عليه السلام { قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } [الصافات:95]، وذمّه من الله على لسان الشرائع.

وأمّا خذلانه فلأنّه اتخذ لنفسه وليّا لا يغني عنه شيئا { إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ} [فاطر:14]، وقال إبراهيم عليه السلام { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً } [مريم:42]، وخذلانه من الله لأنّه لا يتولى من لا يتولاه قال { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ} [محمد:11]، وقال { وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ } [غافر:50].

{ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا

تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً [23] وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً } [24].

{ **وَقَضَى رَبُّكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** } . عطف على الكلام السابق عطف غرض على غرض تخلّصا إلى أعمدة من شريعة الإسلام بمناسبة الفذلكة المتقدّمة تنبيها على أنّ إصلاح الأعمال متفرّع على نبذ الشرك كما قال تعالى { فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَة أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا } [البلد:13-17]. وهذه الآيات أوّل تفصيل للشريعة وقع بمكّة،

وما ذكر في هذه الآيات مقصود به تعليم المسلمين، ولذلك اختلف أسلوبه عن أسلوب نظيره في سورة الأنعام الذي وجه فيه الخطاب إلى المشركين لتوقيفهم على قواعد ضلالتهم. فمن الاختلاف بين الأسلوبين أنّ هذه الآية افتتحت بفعل القضاء المقتضي الإلزام، وهو مناسب لخطاب أمّة تمتثل أمر ربّها، وافتتح خطاب سورة الأنعام بـ { تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ }[151].

ومنها أنّ هذه الآية جعلت المقضي هو توحيد الله بالعبادة، لأنّه المناسب لحال المسلمين فحذّرهم من عبادة غير الله. وآية الأنعام جعلت المحرّم فيها هو الإشراك بالله في الإلهية المناسب لما كانوا عليه من الشرك إذ لا عبادة لهم. وأنّ هذه الآية فُصّل فيها حكم البرّ بالوالدين وحكم القتل وحكم الإنفاق ولم يُفصّل ما في الأنعام.

وكان ما ذكر في هذه الآيات خمسة عشر تشريعا هي أصول التشريع الراجع إلى نظام المجتمع.

وأحسب أن هذه الآيات اشتهرت بين النّاس في مكة وتناقلها العرب في الآفاق، فلذلك ألمّ الأعشى ببعضها في قصيدته المروية التي أعدّها لمدح النبيء ﷺ حين جاء يريد الإيمان فصدّته قريش عن ذلك، وهي القصيدة الدالية التي يقول فيها:

أجدّك لم تسمع وَصاة محمد ... نبئ الإله حين أوصى وأشهدا

فإيّاك والميتات لا تأكلّنها ... ولا تأخذنّ سهما حديدا لتفصدا

وذا النصب المنصوب لا تنسكنّه ... ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

وذا الرحم القربى فلا تقطعنه ... لفاقته ولا الأسير المقيدا

ولا تسخرنّ من بائس ذي ضرارة ... ولا تحسبن المال للمرء مخلدا

ولا تقربنّ جارة إن سِرَّها ... عليك حرام فأنكحن أو تأبّدا

{ **وَقَضَى رَبُّكَ** } افتتحت هذه الأحكام والوصايا بفعل القضاء اهتماما به وأنّه ممّا أمر الله به أمرا جازما وحكما لازما، وليس هو بمعنى التقدير كقوله { وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ } [4] لظهور أنّ المذكورات هنا ممّا يقع ولا يقع.

{ **ربّك** } الخطاب للنبيء ﷺ كالذي في قوله قبل { من عطاء ربك } [20]، والقرينة ظاهرة. ويجوز أن يكون

لغير معيّن فيعمّ الأمّة والمآل واحد.

{ **أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ** } جيء بخطاب الجماعة لأنّ النهي يتعلّق بجميع النّاس وهو تعريض بالمشركين.

وابتدئ التشريع بالنهي عن عبادة غير الله لأنّ ذلك هو أصل الإصلاح، لأنّ إصلاح التفكير مقدّم على إصلاح العمل، إذ لا يساق العقل إلى طلب الصالحات إلّا إذ كان صالحا. عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ "[متفق عليه].وقد فصّلت ذلك في كتابي (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام).

{ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً [23] وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً** } [24]

هذا أصل ثان من أصول الشريعة وهو برّ الوالدين.

{ **إِحْسَاناً** } انتصب على المفعولية المطلقة مصدر نائبا عن فعله. أي وقضى إحسانا بالوالدين.

{ **وَبِالْوَالِدَيْنِ** } متعلق بـ { إِحْسَاناً }، والباء فيه للتعدية يقال: أحسن بفلان كما يقال: أحسن إليه، و تقدّم عند قوله تعالى { وَقَدْ أَحْسَنَ بِي } [يوسف:100]. وتقديمه على متعلّقة للاهتمام به.

وعطف الأمر بالإحسان إلى الوالدين على ما هو في معنى الأمر بعبادة الله، لأنّ الله هو الخالق فاستحقّ العبادة لأنّه أوجد النّاس، ولأنّها أعظم الشكر على أعظم منّة، فالخالق مستحقّ العبادة لغناه عن الإحسان.

ولمّا جعل الله الأبوين مظهر إيجاد النّاس أمر بالإحسان إليهما. ولأنّ الله جبل الوالدين على الشفقة على ولدهما، فأمر الولد بمجازاة ذلك بالإحسان، كما سيأتي { وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً}.

وشمل الإحسان كل ما يصدق فيه هذا الجنس، من الأقوال والأفعال والبذل والمواساة.

{ **إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً** } بيان لجملة {إِحْسَاناً } ، و { **إمّا** } مركبة من (إن) الشرطية و(ما) الزائدة المهيّئة لنون التوكيد، أي إن يبلغ أحد الوالدين أو كلاهما حدّ الكبر وهما عندك، أي في كفالتك فوطِّئ لهما خُلُقك وليّن جانبك.

والخطاب لغير معيّن فيعمّ كلّ مخاطب، وليس خطابا للنبيء ﷺ إذ لم يكن له أبوان يومئذ. وإيثار ضمير المفرد هنا دون ضمير الجمع لأنّه خطاب يختصّ بمن له أبوان من بين الجماعة المخاطبين فكان الإفراد أنسب به، وإنّ كان الإفراد والجمع سواء في المقصود، لأنّ خطاب غير المعيّن يساوي خطاب الجمع.

وخصّ هذه الحالة بالبيان لأنها مظنّة انتفاء الإحسان بما يلقى الولد من أبيه وأمه من مشقة القيام بشؤونهما ومن سوء الخلق منهما.

{ **إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا** } ووجه تعدّد الفاعل مظهرا دون جعله بضمير التثنية، بأن يقال: إمّا يبلغان عندك الكبر، الاهتمام بتخصيص كلّ حالة من أحوال الوالدين بالذكر.

وأكّد فعل الشرط بنون التوكيد لتحقيق الربط بين مضمون الجواب ومضمون الشرط في الوجود.

{ **عندك** } الخطاب لكلّ من يصلح لسماع الكلام فيعمّ كل مخاطب.

{ **فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ** } اسم فعل مضارع معناه أتضجّر. وفيه لغات كثيرة أشهرها كلّها ضم الهمزة وتشديد الفاء. وليس المقصود من النهي عن أن يقول لهما { أُفٍّ } خاصة، وإنّما المقصود النهي عن الأذى الذي أقلّه الأذى باللسان بأوجز كلمة، وبأنّها غير دالة على أكثر من حصول الضجر لقائلها دون شتم أو ذمّ، فيفهم منه النهي ممّا هو أشدّ أذى بطريق فحوى الخطاب بالأولى.

{ **وَلا تَنْهَرْهُمَا** } ثمّ عطف عليه النهي عن نهرهما لئلا يحسب أنّ ذلك تأديب لصلاحهما وليس بالأذى.

النهر: الزجر، يقال: نهره وانتهره.

{ **وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً** } ثم أمر بإكرام القول لهما. والكريم من كل شيء: الرفيع في نوعه. وتقدّم عند قوله تعالى { وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [لأنفال:4]. وبهذا الأمر انقطع العذر بحيث إذا رأى الولد أن ينصح لأحد أبويه أو أن يحذّره ممّا قد يضرّ به أدى إليه ذلك بقول ليّن حسن الوقع.

{ **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً** } ثمّ ارتقى في الوصاية بالوالدين إلى أمر الولد بالتواضع لهما تواضعا يبلغ حدّ الذلّ لهما لإزالة وحشة نفوسهما إن صارا في حاجة إلى معونة الولد، لأنّ الأبوين يبغيان أن يكونا هما النافعين لولدهما. والقصد من ذلك التخلّق بشكره على إنعامهما السابقة عليه. وصيغ التعبير عن التواضع بتصويره في هيئة تذلّل الطائر عندما يعتريه خوف من طائر أشدّ منه إذ يخفض جناحه متذللا. ففي التركيب استعارة مكنية والجناح تخييل، ومجموع هذه الاستعارة تمثيل. وقد تقدّم في قوله { وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ } [الحجر:88].

{ **مِنَ الرَّحْمَةِ** } التعريف عوض عن المضاف إليه، أي من رحمتك إيّاهما. و(من) ابتدائية، أي الذلّ الناشئ عن الرحمة لا عن الخوف أو عن المداهنة. والمقصود اعتياد النفس على التخلّق بالرحمة باستحضار وجوب معاملته إيّاهما بها حتّى يصير له خلقا.

وهذه أحكام عامة في الوالدين وإن كانا مشركين، ولا يطاعان في معصية ولا كفر كما في آية سورة العنكبوت. عن أبي هريرة: " جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، مَن أحَقُّ النَّاسِ بحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قالَ: أُمُّكَ، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: ثُمَّ أبُوكَ" [البخاري:5971]. وهو ظاهر في ترجيح جانب الأمّ لأنّ سؤال السائل دل على أنّه يسأل عن حسن معاملته لأبويه. وللعلماء أقوال:

أحدها: ترجيح الأمّ على الأب، وإلى هذا ذهب الليث بن سعد، والمحاسبي، وأبو حنيفة. وهو ظاهر قول مالك، فقد حكى القرافي في (الفرق 23) عن مختصر الجامع أنّ رجلا سأل مالكا فقال: إنّ أبي في بلد السودان وقد كتب إليّ أن أقدم عليه وأمّي تمنعني من ذلك؟ فقال مالك: أطع أباك ولا تعص أمّك. وذكر القرافي في المسألة السابعة من ذلك الفرق أنّ مالكا أراد منع الابن من الخروج إلى السودان بغير إذن الأمّ.

الثاني: قول الشافعية أنّ الأبوين سواء في البرّ. وهذا القول يقتضي وجوب طلب الترجيح إذا أمرا ابنهما بأمرين متضادين.

وحكى القرطبي عن المحاسبي في كتاب (الرعاية) أنّه قال: لا خلاف بين العلماء في أنّ للأمّ ثلاثة أرباع البرّ وللأب الربع. وحكى القرطبي عن الليث أنّ للأم ثلثي البر وللأب الثلث، بناء على اختلاف رواية الحديث المذكور أنّه قال: ثم أبوك بعد المرّة الثانية أو بعد المرّة الثالثة.

والوجه عندي أنّ تحديد ذلك بالمقدار حوالة على ما لا ينضبط وأنّ محمل الحديث مع اختلاف روايتيه على أنّ الأمّ أرجح على الإجمال.

{ **وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً** } أمْر بالدعاء لهما برحمة الله إيّاهما، وهي الرحمة التي لا يستطيع الولد إيصالها إلى أبويه إلّا بالابتهال إلى الله تعالى. وفي حديث أبي هريرة: " إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عنْه عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له " [مسلم: 1631] .

وفي الآية إيماء إلى أنّ الدعاء لهما مستجاب لأنّ الله أذن فيه. والحديث المذكور مؤيّد ذلك إذ جعل دعاء الولد عملا لأبويه. وحكم هذا الدعاء خاص بالأبوين المؤمنين بأدلة أخرى دلّت على التخصيص كقوله { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِين } [التوبة:113].

{ **كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرا** } الكاف للتشبيه المجازي يعبّر عنه النحاة بمعنى التعليل في الكاف، ومثاله قوله تعالى {وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ } [البقرة:198]، أي ارحمهما رحمة تكافئ ما ربياني صغيرا.

والرحمة حفظ للوجود من اجتناب انتهاكه وهو مقتضى الشكر، فجمع الشكر على ذلك كلّه بالدعاء لهما بالرحمة. والأمر يقتضي الوجوب. وأمّا مواقع الدعاء لهما فلا تنضبط وهو بحسب حال كل امرئ في أوقات ابتهاله. وعن سفيان بن عيينة إذا دعا لهما في كل تشهد فقد امتثل.

ومقصد الإسلام من الأمر ببر الوالدين وبصلة الرحم ينحلّ إلى مقصدين:

المقصد الأوّل : نفساني وهو تربية نفوس الأمّة على الاعتراف بالجميل لصانعه، وهو الشكر، تخلّقا بأخلاق الباري تعالى في اسمه الشكور، فكما أمر بشكر الله على نعمة الخلق والرزق أمر بشكر الوالدين على نعمة الإيجاد الصوري ونعمة التربية والرحمة. وفي الأمر بشكر الفضائل تنويه بها وتنبيه على المنافسة في إسدائها.

المقصد الثاني: عمراني، وهو أن تكون أواصر العائلة قويّة العرى مشدودة الوثوق فأمر بما يحقّق ذلك الوثوق بين أفراد العائلة، وهو حسن المعاشرة ليربّي في نفوسهم من التحاب والتواد ما يقوم مقام عاطفة الأمومة الغريزية في الأم، ثم عاطفة الأبوّة المنبعثة عن إحساس بعضه غريزي ضعيف وبعضه عقلي قوي حتّى أنّ أثر ذلك الإحساس ليساوي بمجموعه أثر عاطفة الأم الغريزية أو يفوقها في حالة كبر الابن. ثم وزّع الإسلام ما دعا إليه من ذلك بين بقيّة مراتب القرابة على حسب الدنو في القرب النسبي بما شرعه من صلة الرحم، وقد عزّز الله قابلية الانسياق إلى تلك الشرعة في النفوس.

وفي حديث أبي هريرة : " خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ منه قامَتِ الرَّحِمُ، فأخَذَتْ بحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فقالَ له: مَهْ، قالَتْ: هذا مَقامُ العائِذِ بكَ مِنَ القَطِيعَةِ، قالَ: ألا تَرْضَيْنَ أنْ أصِلَ مَن وصَلَكِ، وأَقْطَعَ مَن قَطَعَكِ، قالَتْ: بَلَى يا رَبِّ، قالَ: فَذاكِ. قالَ أبو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} [محمد: 22] " [البخاري: 4830 – مسلم: 2554].

وفي هذا التكوين لأواصر القرابة صلاح عظيم للأمّة تظهر آثاره في مواساة بعضهم بعضا، وفي اتحاد بعضهم مع بعض، قال تعالى { يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات:13]. وزاده الإسلام توثيقا بما في تضاعيف الشريعة من تأكيد شدّ أواصر القرابة أكثر ممّا حاوله كل دين سلف. وقد بينا ذلك في بابه من كتاب (مقاصد الشريعة الإسلامية).

{ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً } [25]

تذييل لآية الأمر بالإحسان بالوالدين وما فصّل به، وما يقتضيه الأمر من اختلاف أحوال المأمورين بهذا الأمر قبل وروده بين موافق لمقتضاه ومفرّط فيه، ومن اختلاف أحوالهم بعد وروده من محافظ على الامتثال، ومقصّر عن قصد أو عن بادرة غفلة. فلذلك ذيّله بأنّه المطّلع على النفوس والنوايا، فوعد الولد بالمغفرة له إن هو أدّى ما أمره الله به لوالديه وافيا كاملا.

{ **بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ** } يشمل جميع أحوال النفوس وخاصة حالة التفريط وبوادر المخالفة. وهذا من رحمة الله تعالى بخلقه.

{ **إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ** } أي ممتثلين لما أمرتم به. وغيّر أسلوب الضمير فعاد إلى ضمير جمع المخاطبين لأنّ هذا يشترك فيه النّاس كلّهم فضمير الجمع أنسب به.

{ **لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً** } ولمّا شمل الصلاح الصلاح الكامل والصلاح المشوب بالتقصير ذيّله بوصف الأوابين المفيد بعمومه معنى الرجوع إلى الله، أي الرجوع إلى أمره وما يرضيه، ففهم من الكلام معنى احتباك بطريق المقابلة. والتقدير: إن تكونوا صالحين أوّابين إلى الله فإنّه كان للصالحين محسنا وللأوابين غفورا.

وهذا يعم المخاطبين وغيرهم، وبهذا العموم كان تذييلا.
وقد جمعت هذه الآية مع إيجازها تيسيرا بعد تعسير مشوبا بتضييق وتحذير ليكون المسلم على نفسه رقيبا.

{ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً [26] إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً } [27].

{ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ }

القرابة كلّها متشعّبة عن الأبوّة فلا جرم انتقل من الكلام على حقوق الأبوين إلى الكلام على حقوق القرابة.

{ **حَقَّهُ** } للقرابة حقّان: حقّ الصلة، وحقّ المواساة. والخطاب لغير معين.

والعدول عن الخطاب بالجمع في قوله { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ } [25] إلى الخطاب بالإفراد بقوله { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى } تفنّن لتجنّب كراهة إعادة الصيغة الواحدة عدّة مرّات، والمخاطب غير معيّن فهو في معنى الجمع.

الإيتاء: الإعطاء وهو حقيقة في إعطاء الأشياء، ومجاز شائع في التمكّن من الأمور المعنويّة كحسن المعاملة والنصرة. ومنه قول النبيء ﷺ: " لا حَسَدَ إلّا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا، فسَلَّطَه على هَلَكَتِهِ في الحَقِّ، **ورجل آتاه الله حِكْمَة، فهو يقضي بها** ويُعَلِّمها " [البخاري: 1409 / مسلم:816].

وإطلاق الإيتاء هنا صالح للمعنيين كما هي طريقة القرآن في توفير المعاني وإيجاز الألفاظ.

وقد بيّنت أدلة شرعية حقوق ذي القربى ومراتبها: من واجبة، مثل بعض النفقة على بعض القرابة مبيّنة شروطها عند الفقهاء، ومن غير واجبة مثل الإحسان.

وليس لهاته تعلّق بحقوق قرابة النبيء ﷺ لأنّ حقوقهم في المال تقرّرت بعد الهجرة لمّا فرضت الزكاة وشرعت المغانم والأفياء وقسمتها. ولذلك حمل جمهور العلماء هذه الآية على حقوق قرابة النسب بين النّاس. وعن عليّ زين العابدين أنّها تشمل قرابة النبيء ﷺ.

{ **الْقُرْبَى** } تعريف الجنس، أي القربى منك، وهو الذي يعبّر عنه بأنّ (ال)عوض عن المضاف إليه.

{ **وَالْمِسْكِينَ** } وبمناسبة ذكر إيتاء ذي القربى عطف عليه من يماثله في استحقاق المواساة. وحقّ المسكين هو الصدقة. قال تعالى { وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } [الفجر:18]. وقد بيّنت آيات وأحاديث كثيرة حقوق المساكين وأعظمها آية الزكاة ومراتب الصدقات الواجبة وغيرها.

{ **وَابْنَ السَّبِيلِ** } هو المسافر يمر بحيّ من الأحياء، فله على الحيّ الذي يمرّ به حقّ ضيافته.

وحقوق الأضياف جاءت في كلام النبيء ﷺ كقوله: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحلّ له أن يثوي عنده حتّى يحرجه " [البخاري:6135] . وكانت ضيافة ابن السبيل من أصول الحنيفيّة ممّا سنّه إبراهيم عليه السلام.

وقد جعل لابن السبيل نصيب الزكاة.

فأمّا **إيتاء ذي القربى** فالمقصد منه مقارب للمقصد من الإحسان للوالدين رعيا لاتحاد المنبت القريب وشدًّا لآصرة العشيرة التي تتكون منها القبيلة. وفي ذلك صلاح عظيم لنظام القبيلة وأمنها وذبّها عن حوزتها.

وأمّا **إيتاء المسكين** فلمقصد انتظام المجتمع بأن لا يكون من أفراده من هو في بؤس وشقاء، على أنّ ذلك المسكين لا يعدوا أن يكون من القبيلة في الغالب أقعده العجز عن العمل والفقر عن الكفاية.

وأمّا **إيتاء ابن السبيل** فلإكمال نظام المجتمع، لأنّ المارّ به من غير بنيه بحاجة عظيمة إلى الإيواء ليلا ليقيه من عوادي الوحوش واللصوص، وإلى الطعام والدفء أو التظلّل من إضرار الجوع والفقر أو الحرّ.

{ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً [26] **إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً }** [27].

لمّا ذكر البذل المحمود وكان ضدّه معروفا عند العرب أعقبه بذكره للمناسبة.

وليس قوله { وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً } متعلّقا بقوله { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ }، لأنّ التبذير لا يوصف به بذل المال في حقّه ولو كان أكثر من حاجة المعطَى (بالفتح)، بل هي معطوفة على جملة { ألّا تعبدوا إلّا إياه } لأنّها من جملة ما قضى الله به، وهي معترضة بين جملة { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ } وجملة { وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ } [28] فتضمّنت وصيّة سادسة ممّا قضى الله به.

التبذير: تفريق المال في غير وجهه، وهو مرادف الإسراف، فإنفاقه في الفساد تبذير، ولو كان المقدار قليلا، وإنفاقه في المباح إذا بلغ حد السرف تبذير، وإنفاقه في وجوه البرّ والصلاح ليس بتبذير. وقد قال بعضهم لمن رآه ينفق في وجوه الخير: لا خير في السرف، فأجابه المنفق: لا سرف في الخير، فكان فيه من بديع الفصاحة محسن العكس.

ووجه النهي عن التبذير هو أنّ المال جعل عوضا لاقتناء ما يحتاج إليه المرء في حياته من ضروريات وحاجيات وتحسينات. وكان نظام القصد في إنفاقه ضامن كفايته في غالب الأحوال بحيث إذا أنفق في وجهه على ذلك الترتيب بين الضروري والحاجي والتحسيني أمن صاحبه من الخصاصة فيما هو إليه أشد احتياجا، وتجاوز هذا الحدّ فيه يسمى تبذيرا بالنسبة إلى أصحاب الأموال ذات الكفاف، وأمّا أهل الوفر والثروة فأحسن ما يبذل فيه وفر المال هو اكتساب الزلفى عند الله، قال تعالى { وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [التوبة:41]، واكتساب المحمدة بين قومه. وقديما قال المثل العربي" نعم العون على المروءة الجِدة ". وقال آخر " اللهم هب لي حمدا، وهب لي مجدا، فإنه لا حمد إلّا بفعال، ولا فعال إلّا بمال ".

والمقصد الشرعي أن تكون أموال الأمّة عُدة لها وقوّة لابتناء أساس مجدها والحفاظ على مكانتها حتّى تكون مرهوبه الجانب مرموقة بعين الاعتبار غير محتاجة إلى من قد يستغلّ حاجتها فيبتزّ منافعها ويدخلها تحت نير سلطانه. ولهذا أضاف الله تعالى الأموال إلى ضمير المخاطبين في قوله { وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي

جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً } [النساء:5] ولم يقل أموالهم مع أنّها أموال السفهاء، لقوله بعده { فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ } [النساء:6] فأضافها إليهم حين صاروا رشداء. وما منع السفهاء من التصرف في أموالهم إلّا خشية التبذير. ولذلك لو تصرّف السفيه في شيء من ماله تصرّف السداد والصلاح لمضى.

{ **تَبْذِيراً** } المفعول المطلق لتأكيد النهي كأنّه قيل: لا تبذر، لا تبذر.

{ **إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ** } تعليل للمبالغة في النهي عن التبذير.

{ **الْمُبَذِّرِينَ** } تعريف الجنس، أي الذين عرفوا بهذه الحقيقة، كالتعريف في قوله { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة:2].

الإخوان جمع أخ، وهو هنا مستعار للملازم غير المفارق لأنّ ذلك شأن الأخ، كقولهم: أخو العلم، أي ملازمه والمتصف به، وأخو السفر لمن يكثر الأسفار. والمعنى: أنّهم من أتباع الشياطين وحلفائهم.

{ **كَانُوا** } تأكيد، أنّ تلك الأخوّة صفة راسخة فيهم. وكفى بحقيقة الشيطان كراهة في النفوس واستقباحا.

ومعنى ذلك: أنّ التبذير يدعو إليه الشيطان لأنّه إمّا إنفاق في الفساد وإمّا إسراف يستنزف المال في السفاسف واللذات فيعطل الإنفاق في الخير وكل ذلك يرضي الشيطان

وهذا تحذير من التبذير، فإنّ التبذير إذا فعله المرء اعتاده فأدمن عليه فصار له خلقا لا يفارقه شأن الأخلاق الذميمة أن يسهل تعلّقها بالنفوس كما ورد في الحديث إنّ المرء لا يزال يكذب حتّى يكتب عند الله كذابا.

{ **وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً** } وهذا تحذير شديد من أن يفضي التبذير بصاحبه إلى الكفر تدريجا بسبب التخلّق بالطبائع الشيطانية، فيذهب بتدهور في مهاوي الضلالة حتّى يبلغ به إلى الكفر، كما قال تعالى { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام:121].

ويجوز حمل الكفر هنا على كفر النعمة فيكون أقرب درجات إلى حال التخلق بالتبذير، لأنّ التبذير صرف المال في غير ما أمر الله به فهو كفر لنعمة الله بالمال. فالتخلّق به يفضي إلى التخلّق والاعتياد لكفران النعم.

وعلى الوجهين فالكلام جار على ما يعرف في المنطق بقياس المساواة، إذ كان المبذر مؤاخيا للشيطان وكان الشيطان كفورا، فكان المبذر كفورا بالمآل أو بالدرجة القريبة.

وقد كان التبذير من خُلُق أهل الجاهلية، ولذلك يتمدّحون بصفة المتلاف والمهلك المال، فكان عندهم الميسر من أسباب الإتلاف، فحذر الله المؤمنين من التلبس بصفات أهل الكفر، وهي من المذام، وأدّبهم بآداب الحكمة والكمال.

{ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً } [28]

عطف على قوله { وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ } [26] لأنّه من تمامه.

والخطاب لغير معيّن ليعمّ كل مخاطب. والمقصود بالخطاب النبيء ﷺ لأنّه على وزان نظم قوله { وَقَضَى

رَبُّكَ إِلّا تَعْبُدُوا إِلّا إِيَّاهُ } [23]، فإن المواجهة بـ { رَبُّكَ } في القرآن جاءت غالبا لخطاب النبيء صلى الله عليه وسلم. ويعدله ما روي أنّ النبيء كان إذا سأله أحد مالا ولم يكن عنده ما يُعطيه يُعرض عنه حياء فنبّهه الله إلى أدب أكمل من الذي تعهّده من قبل ويحصل من ذلك تعليم لسائر الأمّة.

{ **عنهم** } الضمير عائد إلى ذي القربى والمسكين وابن السبيل.

الإعراض: أصله ضدّ الإقبال مشتقّ من العُرض (بضم العين) أي الجانب، فأعرض بمعنى أعطى جانبه كقوله { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ } [83]. وهو هنا مجاز في عدم الإيتاء أو كناية عنه لأنّ الإمساك يلازمه الإعراض، أي إن سألك أحدهم عطاء فلم تجبه إليه فقل لهم قولا ميسورا.

الميسور: مفعول من اليُسر، وهو السهولة، وفعله مبني للمجهول. يقال: يُسِر الأمرُ (بضم الياء وكسر السين) كما يقال: سُعِد الرجل ونُحِس. والمعنى جُعل يسيرا غير عسير، وكذلك يقال: عسير.

القول الميسور: الليّن الحسن المقبول عندهم، شبّه المقبول بالميسور في قبول النفس إيّاه لأنّ غير المقبول عسير. أمر الله بإرفاق عدم الإعطاء لعدم الموجدة بقول لين حسن بالاعتذار والوعد عند الموجدة، لئلا يحمل الإعراض على قلّة الاكتراث والشحّ.

وقد شرط الإعراض بشرطين: أن يكون إعراضا لابتغاء رزق من الله، أي إعراضا لعدم الجدة لا اعراضا لبخل عنهم، وأن يكون معه قول لين في الاعتذار.

{ **ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ** } حال من ضمير { تُعْرِضَنَّ } مصدر بالوصف، أي مبتغيا رحمة من ربّك.

والرحمة هنا هي الرزق الذي يتأتّى منه العطاء بقرينة السياق. وفيه إشارة إلى أنّ الرزق سبب للرحمة لأنّه إذا أعطاه مستحقّه أثيب عليه، وهذا إدماج. وعلم منه أنّه اعتذار صادق وليس تعللا.

وفي ضمن هذا الشرط تأديب للمؤمن إن كان فاقدا ما يبلغ به إلى فعل الخير أن يرجو من الله تيسير أسبابه، وأن لا يحمله الشحّ على السرور بفقد الرزق للراحة من البذل، بحيث لا يعدم البذل الآن إلّا وهو راج أن يسهل له في المستقبل حرصا على فضيلته، وأنّه لا ينبغي أن يعرض عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل إلّا في حال رجاء حصول نعمة فإن حصلت أعطاهم.

{ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً }[29]

عود إلى بيان التبذير والشحّ، فالجملة عطف على جملة { وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً } [26].ولولا تخلّل الفصل بينهما بقوله { وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ } [28] لكانت هذه الجملة غير مقترنة بواو العطف، لأنّ شأن البيان أن لا يعطف على المبين، وأيضا على أنّ في عطفها اهتماما بها بجعلها مستقلّة بالقصد، لأنّها مشتملة على زيادة على البيان، بما فيها من النهي عن البخل المقابل للتبذير. والخطاب لغير معين.

وقد أتت هذه الآية تعليما بمعرفة حقيقة من الحقائق الدقيقة فكانت من الحكمة. وجاء نظمها على سبيل التمثيل فصيغت الحكمة في قالب البلاغة .

فأمّا الحكمة فإذا بيّنت أنّ المحمود في العطاء هو الوسط الواقع بين طرفي الإفراط والتفريط، وهذه الأوساط هي حدود المحامد بين المذام من كل حقيقة لها طرفان. وقد تقرّر في حكمة الأخلاق أنّ لكل خلق طرفين ووسطا، فالطرفان إفراطٌ وتفريطٌ وكلاهما مقر مفاسد للمصدر وللمورد، وأنّ الوسط هو العدل.

فالإنفاق والبذل حقيقة أحد طرفيها الشحّ وهو مفسدةٌ للمحاويج ولصاحب المال، إذ يجرّ إليه كراهية النّاس إيّاه وكراهيته إيّاهم. والطرف الآخر التبذير والإسراف، وفيه مفاسد لذي المال وعشيرته لأنّه يصرف ماله عن مستحقّه إلى مصارف غير جديرة بالصرف، والوسط هو وضع المال في مواضعه وهو الحدّ الذي عبر عنه في الآية بنفي حالين بين (لا) و(لا).

وأمّا البلاغة فبتمثيل الشحّ والإمساك بغلّ اليد إلى العُنق، وهو تمثيل مبني على تخيّل اليد مصدرا للبذل والعطاء، وتخيّل بسطها وغلّها شحا، وهو تخيّل معروف لدى البلغاء والشعراء.

ومن ثَمَّ قالوا: له يد على فلان، أي نعمة وفضل، فجاء التمثيل في الآية مبنيّا على التصرّف في ذلك المعنى بتمثيل الذي يشحّ بالمال بالذي غلت يده إلى عنقه، أي شُدَّت بالغُل، وهو القيد من السير يشدّ به الأسير.

وبضدّه مُثِّل المسرف بباسط يده غاية البسط ونهايته وهو المفاد من قوله { **كُلَّ الْبَسْطِ** } أي البسط كلّه الذي لا بسط بعده، وهو معنى النهاية. وتقدّم عند قوله تعالى { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ - إلى قوله - بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاء } [المائدة:64].

{ **فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً** } جواب لكلا النّهيين على التوزيع بطريقة النشر المرتّب، فالملوم يرجع إلى النهي عن الشحّ، والمحسور يرجع إلى النهي عن التبذير، فإنّ الشحيح ملوم مذموم. وقد قيل:

إنّ البــخـيــل مــلــوم حـيـثـمـا كـانـا

وقال زهير:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يُستغنَ عنه ويُذمم

المحسور: المنهوك القوى. يقال: بعير حسير، إذا أتعبه السير فلم تبق له قوّة، ومنه قوله تعالى { يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٍ}ٌ[الملك:4]،والمعنى: غير قادر على إقامة شؤونك.

{ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ أنّه كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً } [30]

موقع هذه الجملة موقع اعتراض بالتعليل لما تقدّم من الأمر بإيتاء ذي القربى والمساكين، والنهي عن التبذير، وعن الإمساك المفيد الأمر بالقصد، بأنّ هذا واجب النّاس في أموالهم وواجبهم نحو قرابتهم وضعفاء

عشائرهم، فعليهم أن يمتثلوا ما أمرهم الله من ذلك. وليس الشحّ بمبق مال الشحيح لنفسه، ولا التبذير بمغن من يبذّر فيهم المال فإنّ الله قدّر لكلّ نفس رزقها.

فيجوز أن يكون الكلام جاريا على سنن الخطاب السابق لغير معيّن. ويجوز أن يكون قد حُوِّل الكلام إلى خطاب النبيء ﷺ، فوُجِّه بالخطاب إلى النبيء لأنّه الأولى بعلم هذه الحقائق العالية، وإنّ كانت أمّته مقصودة بالخطاب تبعا له، فتكون هذه الوصايا مخلّلة بالإقبال على خطاب النبيء ﷺ.

{ **وَيَقْدِرُ** } ضدّ { يَبْسُطُ } وقد تقدّم عند قوله تعالى { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } [الرعد:26].

{ **إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً** } تعليل لجملة { إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ } إلى آخرها، أي هو يفعل ذلك لأنّه عليم بأحوال عباده وما يليق بكلّ منهم بحسب ما جُبلت عليه نفوسهم، وما يحفّ بهم من أحوال النظم العالمية التي اقتضتها الحكمة الإلهية المودعة في هذا العالم.

الخبير: العالم بالأخبار. و**البصير**: العالم بالمبصرات. وهذان الاسمان الجليلان يرجعان إلى معنى بعض تعلق العلم الإلهي.

{ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً } [31].

عطف جملة حكم على جملة حكم للنهي عن فعل ينشأ عن اليأس من رزق الله. وهذه الوصيّة السابعة من الأحكام المذكورة في آية { وَقَضَى رَبُّكَ } (23). وغيّر أسلوب الإضمار من الإفراد إلى الجمع لأنّ المنهي عنه هنا من أحوال الجاهلية زجرا لهم عن هذه الخطيئة الذميمة. وتقدّم الكلام على نظير هذه الآية في سورة الأنعام[151]، ولكن بين الآيتين فرقا في النظم من وجهين:

الوجه الأول: أنّه قيل هنا { خَشْيَةَ إِمْلاقٍ } وقيل في آية الأنعام { مِنْ إِمْلاقٍ }. ويقتضي ذلك أنّ الذين كانوا يئدون بناتهم يئدونهن لغرضين: إمّا لأنّهم فقراء لا يستطيعون إنفاق البنت ولا يرجون منها إن كبرت إعانة على الكسب فهم يئدونها لذلك، فذلك مورد قوله في الأنعام { مِنْ إِمْلاقٍ } فإنّ (من) التعليلية تقتضي أنّ الإملاق سبب قتلهن فيقتضي أنّ الإملاق موجود حين القتل.

وإمّا أن يكون الحامل على ذلك ليس فقر الأب ولكن خشية عروض الفقر له أو عروض الفقر للبنت بموت أبيها، إذ كانوا في جاهليتهم لا يورّثون البنات، فيكون الدافع للوأد هو توقّع الإملاق، كما قال إسحاق بن خلف، شاعر إسلامي قديم:

إذا تذكرت بنتي حين تندبني ... فاضت لعبرة بنتي عبرتي بدم
أحاذر الفقر يوما أن يلمّ بها ... فيهتك الستر عن لحم على وضم

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقا ... والموت أكرم نزال على الحُرم

أخشى فظاظة عمّ أو جفاء أخ ... وكنت أخشى عليها من أذى الكلم

فلتحذير المسلمين من آثار هذه الخواطر ذكّروا بتحريم الوأد وما في معناه. وقد كان ذلك في جملة ما تؤخذ عليه بيعة النساء المؤمنات كما في آية سورة الممتحنة.

الوجه الثاني : فمن أجل هذا الاعتبار في الفرق للوجه الأول قيل هنالك {نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ } بتقديم ضمير الآباء على ضمير الأولاد، لأنّ الإملاق الدافع للوأد المحكي به في آية الأنعام هو إملاق الآباء فقدّم الإخبار بأنّ الله هو رازقهم وكمّل بأنّه رازق بناتهم.

وأمّا الإملاق المحكي في هذه الآية فهو الإملاق المخشي وقوعه. والأكثر أنّه توقع إملاق البنات كما رأيت في الأبيات، فلذلك قدّم الإعلام بأنّ الله رازق الأبناء وكمّل بأنّه رازق آبائهم. وهذا من نكت القرآن.

الإملاق: الافتقار. وتقدّم الكلام على الوأد عند قوله تعالى { وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ } [الأنعام: 137]

{ **نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ** } (معترضة بين المتعاطفات وجملة { إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً } تأكيد للنهي وتحذير من الوقوع في المنهي.

{ **وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ** } المراد خصوص البنات لأنّهنّ اللاتي كانوا يقتلونهنّ وأدا، ولكن عبّر عنهنّ بلفظ الأولاد في هذه الآية ونظائرها لأنّ البنت يقال لها: ولد. وجرى الضمير على اعتبار لفظ { نَرْزُقُهُمْ }.

الخِطء (بكسر الخاء وسكون الطاء) مصدر خطئ بوزن فرح، إذا أصاب إثما، ولا يكون الإثم إلّا عن عمد، قال تعالى { إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ } [القصص:8].

وأمّا الخَطَأ (بفتح الخاء والطاء) فهو ضدّ العمد. وفعله: أخطأ واسم الفاعل مخطئ، قال تعالى { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ } [الأحزاب:5] وهذه التفرقة هي سرّ العربية وعليها المحقّقون.

وأكد بـ { إِنَّ } لتحقيقه، ردّا على أهل الجاهلية إذ كانوا يزعمون أنّ وأد البنات من السداد، ويقولون: دفن البنات من المكرمات. وأكد أيضا بفعل (كان) للإشعار بأنّ كونه إثمًا أمرًا استقر.

{ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى أنّه كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً } [32].

الوصية الثامنة من الوصايا الإلهية بقوله تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ إِلّا تَعْبُدُوا إِلّا إِيَّاهُ } [23].

عطف هذا النهي على النهي عن وأد البنات إيماء إلى أنّهم كانوا يعدّون من أعذارهم في وأد البنات الخشية من العار الذي قد يلحق من جراء إهمال البنات الناشئ عن الفقر الرامي بهن في مهاوي العهر، ولأنّ في الزنى إضاعة نسب النسل بحيث لا يعرف للنسل مرجع يأوي إليه، وهو يشبه الوأد في الإضاعة.

وجرى الإضمار فيه بصيغة الجمع كما جرى في قوله { وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ } [31] لمثل ما وجّه به تغيير الأسلوب هنالك، فإنّ المنهي عنه هنا كان من غالب أحوال أهل الجاهلية.

{ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى } القرب المنهي عنه هو أقل الملابسة. وهو كناية عن شدّة النهي عن ملابسة الزنا.

الزنى: في اصطلاح الإسلام مجامعة الرجل امرأة غير زوجته له ولا مملوكة غير ذات الزوج.

وفي الجاهلية الزنى: مجامعة الرجل امرأة حرّة غير زوج له، وأمّا مجامعة الأمّة غير المملوكة للرجل فهو البغاء.

{ أنّه كَانَ فَاحِشَةً } تعليل للنهي عن ملابسته تعليلا مبالغا فيه من جهات بوصفه بالفاحشة الدال على فعلة بالغة الحد الأقصى في القبح، وبتأكيد ذلك بحرف التوكيد، وبإقحام فعل (كان) المؤذن بأنّ خبره وصف راسخ مستقر. والمراد أنّ ذلك وصف ثابت له في نفسه سواء علمه النّاس أم لم يعلموه إلّا بعد نزول الآية.

{ وَسَاءَ سَبِيلاً } أتبع ذلك بفعل الذم.

السبيل: الطريق. وهو مستعار هنا للفعل الذي يلازمه المرء ويكون له دأبا، استعارة مبنيّة على استعارة السير للعمل كقوله تعالى { سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى } [طه:21]. وقد تقدّم نظيرها في قوله { إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلا } [النساء:22].

وعناية الإسلام بتحريم الزنى لأنّ فيه إضاعة النسب وتعريض النسل للإهمال إن كان الزنى بغير متزوّجة وهو خلل عظيم في المجتمع، ولأنّ فيه إفساد النساء على أزواجهنّ والأبكار على أوليائهنّ، ولأنّ فيه تعريض المرأة إلى الإهمال بإعراض النّاس عن تزوّجها، وطلاق زوجها إيّاها، ولما ينشأ عن الغيرة من الهرج والتقاتل.

فالزنى مئنّة لإضاعة الانساب ومظنّة للتقاتل فكان جديرا بالتحريم. ومن تأمّل ونظر جزم بما يشتمل عليه الزنى من المفاسد ولو كان المتأمل ممن يفعله في الجاهلية، فقُبحه ثابت لذاته، ولكنّ العقلاء متفاوتون في إدراكه وفي مقدار إدراكه، فلمّا أيقظهم التحريم لم يبق للنّاس عذر.

وقد زعم بعض المفسّرين أنّ هذه الآية مدنية، كما تقدّم في صدر السورة، ولا وجه لذلك الزعم. وقد أشرنا إلى إبطال ذلك في أول السورة.

{ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ أنّه كَانَ مَنْصُوراً } [33].

معلومة حالة العرب في الجاهلية من التسرّع إلى قتل النفوس، فكان حفظ النفوس من أعظم القواعد الكلّية

للشريعة الإسلامية. ولذلك كان النهي عن قتل النفس من أهمّ الوصايا التي أوصى بها الإسلام أتباعه في هذه الآيات الجامعة. وهذه هي الوصية التاسعة.

{ **النَّفْسَ** } هنا الذات كقوله تعالى { وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } [النساء:29]، وقوله { أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاس جَمِيعاً } [لمائدة:32]. وتطلق النفس على الروح الإنساني، وهي النفس الناطقة.

القتل: الإماتة بفعل فاعل، أي إزالة الحياة عن الذات.

{ **الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلّا بِالْحَقّ** } حذف العائد من الصلة إلى الموصول لأنّه ضمير منصوب بفعل الصلة وحذفه كثير. والتقدير: حرّمها الله. وعلق التحريم بعين النفس، والمقصود تحريم قتلها.

{ **إِلّا بِالْحَقّ** } أي الذي يشهد الحق أن نفسا معيّنة استحقت الإعدام من المجتمع، وهذا مجمل يفسّره في وقت النزول ما هو معروف من أحكام القود على وجه الإجمال. ولمّا كانت هذه الآيات سيقت مساق التشريع للأمّة وإشعارا بأن سيكون في الأمّة قضاء وحكم فيما يستقبل أبقي مجملا حتّى تفسّره الأحكام المستأنفة من بعد، مثل آية { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلّا خَطَأً - إلى قوله - وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً} [النساء:92 / 93].

الحق: بمعنى العدل، أو بمعنى الاستحقاق، أي حقّ القتل، كما في الحديث: " إذا قالوها (أي لا إله إلّا الله) عصموا مني دماءهم وأموالهم إلّا بحقّها " .

ولمّا كان الخطاب بالنهي لجميع الأمّة، كما دّل عليه الفعل في سياق النهي، كان تعيين الحقّ المبيح لقتل النفس موكولا إلى من لهم تعيين الحقوق. ولمّا كانت هذه الآية نازلة قبل الهجرة فتعيين الحقّ يجري على ما هو متعارف بين القبائل، وهو ما سيذكر في قوله تعالى عقب هذا { وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً }.

{ **وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ أنّه كَانَ مَنْصُوراً** } وحين كان المسلمون وقت نزول هذه الآية مختلطين في مكّة بالمشركين ولم يكن المشركون أهلا للثقة بهم في الطاعة للشرائع العادلة، وكان قد يعرض أن يعتدي أحد المشركين على أحد المسلمين بالقتل ظلما أمر الله المسلمين بأنّ المظلوم لا يظلم، أي قد جعل لولي المقتول تصرفا في القاتل بالقود أو الديّة.

السلطان: مصدر من السلطة كالغفران، والمراد به ما استقرّ في عوائدهم من حكم القود. فالمراد بالجعل ما أرشد الله إليه أهل الجاهلية من عادة القود.

والقود من جملة المستثنى بقوله { إِلّا بِالْحَقّ } ، لأنّ القود من القاتل الظالم هو قتل للنفس بالحقّ. وهذه حالة خصّها الله بالذكر لكثرة وقوع العدوان في بقيّة أيام الجاهلية، فأمر الله المسلمين بقبول القود. وهذا مبدأ صلاح عظيم في المجتمع الإسلامي، وهو حمل أهله على اتباع الحقّ والعدل حتّى لا يكون الفساد من طرفين فيتفاقم أمره. فنهى الله المسلمين عن أن يكونوا مثالا سيّئا يقابلوا الظلم بالظلم كعادة الجاهلية بل عليهم أن

يتّبعوا سبيل الإنصاف فيقبلوا القود، ولذلك قال { فلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ }.

السرف: الزيادة على ما يقتضيه الحقّ، وليس خاصا بالمال كما يفهم من كلام أهل اللغة. فالسرف في القتل هو أن يقتل غير القاتل، إمّا مع القاتل، وإمّا قتل غير القاتل عند العجز عن قتل القاتل، فقد كانوا يقتنعون عند العجز عن القاتل بقتل رجل من قبيلة القاتل. وكانوا يتكايلون الدماء، أي يجعلون كيلها متفاوتا بحسب شرف القتيل.

{ **يُسْرِفْ** } الضمير بياء الغيبة، في قراءة الجمهور، يعود إلى الولي مظنّة السرف في القتل.

{ **إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً** } استئناف، حذّرهم الله من السرف في القتل، وذكّرهم بأنّه جعل للولي سلطانا على القاتل. وقد أكد ذلك بحرف التوكيد وبإقحام (كان) الدال على أن الخبر مستقر الثبوت. وفيه إيماء إلى أنّ من تجاوز حدّ العدل إلى السرف في القتل لا ينصر.

ومن نكت القرآن وبلاغته وإعجازه الخفي الإتيان بلفظ (سلطان) هنا الظاهر في معنى المصدر، أي السلطة والحق، والصالح لإرادة إقامة السلطان. ففيه إيماء إلى أنّ الله سيجعل للمسلمين دولة دائمة، إذ لم يكن للمسلمين يوم نزول الآية سلطان.

وهذا الحكم منوط بالقتل الحادث بين الأشخاص وهو قتل العدوان، فأما القتل الذي هو لحماية البيضة والذبّ عن الحوزة، وهو الجهاد، فله أحكام أخرى.

ولما رأى بعض المفسرين أنّ الحكم الذي تضمنته هذه الآية لا يناسب إلّا أحوال المسلمين استبعد أن تكون الآية نازلة بمكة فزعم أنّها مدنية، وقد بيّنّا وجه مناسبتها وأبطلنا أن تكون مكية في صدر هذه السورة.

{ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً } [34]

{ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ }

الوصية العاشرة، وهي من أهم الوصايا التي أوصى الله بها في هذه الآيات، لأنّ العرب في الجاهلية كانوا يستحلّون أموال اليتامى لضعفهم عن التفطّن لمن يأكل أموالهم وقلّة نصيرهم لإيصال حقوقهم، فحذّر الله المسلمين من ذلك لإزالة ما عسى أن يبقى في نفوسهم من أثرٍ من تلك الجاهلية. وقد تقدّم القول في نظير هذه الآية في سورة الأنعام.

والقول في الإتيان بضمير الجماعة المخاطبين كالقول في سابقيه لأنّ المنهي عنه من أحوال أهل الجاهلية.

{ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً }

الوصية الحادية عشرة. أمروا بالوفاء بالعهد. والتعريف في { **الْعَهْدَ** } للجنس المفيد للاستغراق يشمل العهد

الذي عاهدوا عليه النبيء ﷺ. وهو البيعة على الإيمان والنصر. وتقدّم عند قوله تعالى { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ } [النحل:91]، وقوله { وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا } [الأنعام:151].

وهذا التشريع من أصول حرمة الأمّة في نظر الأمم والثقة بها للانزواء تحت سلطانها. وقد مضى القول فيه في سورة الأنعام. والجملة معطوفة على التي قبلها.

{ **إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً** } تعليل للأمر، أي للإيجاب الذي اقتضاه، وإعادة لفظ { الْعَهْدَ } في مقام إضماره للاهتمام به، ولتكون هذه الجملة مستقلة فتسري مسرى المثل.

{ **مَسْؤُولاً** } حذف المتعلّق لظهوره، أي مسئولا عنه، أي يسألكم الله عنه يوم القيامة.

{ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً }[35]

هذان حكمان هما الثاني عشر والثالث عشر من الوصايا التي قضى الله بها. وتقدّم نظيره في سورة الأنعام.

وزيادة الظرف في هذه الآية وهو { إِذَا كِلْتُمْ} دون ذكر نظيره في آية الأنعام لما في (إذا) من معنى الشرطيّة، فتقتضي تجدّد ما تضمّنه الأمر في جميع أزمنة حصول مضمون شرط (إذا) الظرفية الشرطية للتنبيه على عدم التسامح في شيء من نقص الكيل عند كل مباشرة له. ذلك أنّ هذا خطاب للمسلمين بخلاف آية الأنعام فإنّ مضمونها تعريض بالمشركين في سوء شرائعهم، وكانت هنا أجدر بالمبالغة في التشريع.

{ **إِذَا كِلْتُمْ** } يدلّ على أنّ فاعله مباشر الكيل، فهو الذي يدفع الشيء المكيل، وهو بمنزلة البائع، ويقال للذي يقبض الشيء المكيل: مكتال. وهو من أخوات باع وابتاع، وشرى واشترى، ورهن وارتهن.

قال تعالى { الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النّاس يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ } [المطففين:2 - 3].

{ **بِالْقِسْطَاسِ** } بضم القاف في قراءة الجمهور. وقرأه بالكسر حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف. وهما لغتان فيه، وهو اسم للميزان أي آلة الوزن، واسم للعدل. قيل: هو معرب من الرومية مركّب من كلمتين قسط، أي عدل، وطاس وهو كفة الميزان. وفي صحيح البخاري: "وقال مجاهد: القسطاس: العدل بالرومية". ومعنى العدل والميزان صالحان هنا، لكن التي في الأنعام جاء فيها { بِالْقِسْطِ } فهو العدل لأنّها سيقت مساق التذكير للمشركين بما هم عليه من المفاسد فناسب أن يذكّروا بالعدل ليعلموا أنّ ما يفعلونه ظلم. والباء هنالك للملابسة. وهذه الآية جاءت خطابا للمسلمين فكانت أجدر باللفظ الصالح لمعنى آلة الوزن، لأنّ شأن التشريع بيان تحديد العمل، مع كونه يومئ إلى معنى العدل على استعمال المشترك في معنييه. فالباء هنا ظاهرة في معنى الاستعانة والآلة، ومفيدة للملابسة أيضا.

المستقيم: السويّ، مشتق من القَوام (بفتح القاف) وهو اعتدال الذات. يقال: قوّمته فاستقام. ووصف الميزان به ظاهر. وأمّا العدل فهو وصف له كاشف، لأنّ العدل كلّه استقامة.

{ **ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** } مستأنفة. والإشارة إلى المذكور وهو الكيل والوزن المستفاد من فعلي { **كِلْتُمْ** } و{ **زِنُوا** }.

{ **خَيْرٌ** } تفضيل، أي خير من التطفيف، أي خير لكم، تفضيلا لخير الآخرة الحاصل من ثواب الامتثال على خير الدنيا الحاصل من الاستفضال الذي يطفّفه المطفّف، وهو أيضا أفضل منه في الدنيا لأنّ انشراح النفس الحاصل للمرء من الإنصاف في الحقّ أفضل من الارتياح الحاصل له باستفضال شيء من المال.

التأويل: تفعيل من الأَوْل. وهو الرجوع. يقال: أوّله إذا أرجعه، أي أحسن إرجاعا، إذا أرجعه المتأمل إلى مراجعه وعواقبه.

ومعنى كون ذلك أحسن تأويلا: أنّ النظر إذا جال في منافع التطفيف في الكيل والوزن وفي مضار الإيفاء فيهما ثم عاد فجال في مضار التطفيف ومنافع الإيفاء استقر وآل إلى أنّ الإيفاء بهما خير من التطفيف، لأنّ التطفيف يعود على المطفّف باقتناء جزء قليل من المال ويُكسبه الكراهيّة والذمّ عند النّاس وغضب الله والسحت في ماله مع احتقار نفسه في نفسه، والإيفاء بعكس ذلك يُكسبه ميل النّاس إليه ورضى الله عنه ورضاه عن نفسه والبركة في ماله. فهو أحسن تأويلا.

وتقدم ذكر التأويل بمعانيه في المقدمة الأولى من مقدمات هذا التفسير.

{ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } [36]

القفو: الاتباع، يقال: قفاه يقفوه إذا اتبعه، وهو مشتقّ من اسم القفا، وهو ما وراء العنق. واستعير هذا الفعل هنا للعمل.

{ **مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** } الخاطر النفساني الذي لا دليل عليه ولا غلبة ظنّ به. ويندرج تحت هذا أنواع كثيرة:

*/ منها خلّة من خلال الجاهلية، وهي الطعن في أنساب النّاس، فكانوا يرمون النساء برجال ليسوا بأزواجهنّ ويليطون بعض الأولاد بغير آبائهم بهتانا، أو سوء ظنّ إذا راوا بعدا في الشبه بين الابن وأبيه أو رأوا شبهه برجل آخر من الحيّ أو رأوا لونا مخالفا للون الأب أو الأم، تخرّصا وجهلا بأسباب التشكّل، وجهلا بالشبه الناشئ عن الرحم. وقد جاء أعرابي إلى النبيء ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت ولدا أسود، يريد أن ينتفي منه، فقال له النبيء هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: ما ألوانهن؟ قال: وُرْق. قال: وهل فيها من جمل أسود؟ قال: نعم. قال: فمن أين ذلك؟ قال: لعلّه عرق نزعه. فقال النبيء ﷺ فلعل ابنك نزعه عرق . ونهاه عن الانتفاء منه. فهذا كان شائعا في مجتمعات الجاهلية فنهى الله المسلمين عن ذلك.

*/ ومنها القذف بالزنى وغيره من المساوي بدون مشاهدة، وربما رموا الجيرة من الرجال والنساء بذلك.
وكذلك كان عملهم إذا غاب زوج المرأة لم يلبثوا أن يلصقوا بها تهمة ببعض جيرتها، وكذلك يصنعون إذا تزوّج منهم شيخ مسنّ امرأة شابة أو نصفا فولدت له ألصقوا الولد ببعض الجيرة. ولذلك لمّا قال النبيء ﷺ يوما سلوني أكثر الحاضرون أن يسأل الرجل فيقول: من أبي؟ فيقول: أبوك فلان.
وكان العرب في الجاهلية يطعنون في نسب أسامة بن زيد من أبيه زيد بن حارثة لأنّ أسامة كان أسود اللون وكان زيد أبوه أبيض أزهر، وقد أثبت النبيء ﷺ أن أسامة بن زيد بن حارثة. فهذا خلق باطل كان متفشّيا في الجاهليّة نهى الله المسلمين عن سوء أثره.
*/ ومنها تجنب الكذب. قال قتادة: لا تقف: لا تقل رأيتُ وأنت لم تر، ولا سمعتُ وأنت لم تسمع، وعلمتُ وأنت لم تعلم.
*/ ومنها شهادة الزور وشملها هذا النهي، وبذلك فسّر محمد ابن الحنفية وجماعة.
{ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** } يشهد لإرادة جميع هذه المعاني. فموقع الجملة موقع تعليل، أي أنّك أيّها الإنسان ستُسأل عمّا تسنده إلى سمعك وبصرك وعقلك.
وهذا أدب خلقي عظيم، وهو أيضا إصلاح عقليّ جليل يعلّم الأمّة التفرقة بين مراتب الخواطر العقليّة، بحيث لا يختلط عندها المعلوم والمظنون والموهوم. ثم هو أيضا إصلاح اجتماعيّ جليل يجنّب الأمّة من الوقوع والإيقاع في الأضرار والمهالك من جرّاء الاستناد إلى أدلّة موهومة.
وقد صيغت جملة { كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } على هذا النظم بتقديم (كلّ) الدالة على الإحاطة من أوّل الأمر. وأتى باسم الإشارة دون الضمير بأن يقال: (كلّها كان عنه مسئولا)، لما في الإشارة من زيادة التمييز.
وأقحم فعل (كان) لدلالته على رسوخ الخبر كما تقدّم غير مرة.
{ **عَنْه** }ُجار ومجرور في موضع النائب عن الفاعل لاسم المفعول، وقدّم عليه للاهتمام، وللرعي على الفاصلة. والتقدير: كان مسئولا عنه، كما تقول: كان مسؤولا زيد.
{ **مَسْؤُولاً** } كناية عن المؤاخذة بالتقصير وتجاوز الحق، كقول كعب:

وقيل إنك منسوب ومسؤول

أي مؤاخذ بما اقترفت من هجو النبيء ﷺ والمسلمين. وهو في الآية كناية بمرتبة أخرى عن مؤاخذة صاحب السمع والبصر والفؤاد بكذبه على حواسه. وليس هو بمجاز عقلي. وهذا المعنى كقوله { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النور:24].
أي يُسأل السمع: هل سمعت؟ فيقول: لم أسمع، فيؤاخذ صاحبه بأن أسند إليه ما لم يبلّغه إيّاه وهكذا.
{ **أُولَئِكَ** } الاسم الإشارة يعود إلى السمع والبصر والفؤاد وهو من استعمال اسم الإشارة الغالب استعماله

للعامل في غير العاقل تنزيلا لتلك الحواس منزلة العقلاء لأنّها جديرة بذلك إذ هي طريق العقل والعقل نفسه. على أنّ استعمال (أولئك) لغير العقلاء استعمال مشهور، قيل هو استعمال حقيقي أو لأن هذا المجاز غلب حتّى ساوى الحقيقة، قال تعالى { مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [الإسراء: 102]. والمقصود سؤال أصحابها، وهو من نكت بلاغة القرآن.

{ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً }[37]

الوصية الخامسة عشرة. نهيٌ عن خصلة من خصال الجاهلية، وهي خصلة الكبرياء، وكان أهل الجاهلية يتعمّدونها. والخطاب لغير معيّن ليعم كلّ مخاطب، وليس خطابا للنبيء ﷺ إذ لا يناسب ما بعده.

المرح (بفتح الميم وفتح الراء) : شدّة ازدهاء المرء وفرحه بحاله في عظمة الرزق.

{ **مَرَحاً** } مصدر وقع حالا من ضمير { تَمْشِ } . ومجيء المصدر حالا كمجيئه صفة يراد منه المبالغة في الاتصاف. وتأويله باسم الفاعل، أي لا تمش مشية المارح، وهي المشية الدالة على كبرياء الماشي بتمايل وتبختر. ويجوز أن يكون مفعولا مطلقا مبيّنا لفعل { تَمْشِ } لأن للمشي أنواعا، منها: ما يدل على أنّ صاحبه ذو مرح. فإسناد المرح إلى المشي مجاز عقلي.

{ **إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً** } استئناف ناشئ عن النهي بتوجيه خطاب ثان في هذا المعنى على سبيل التهكّم، أي أنّك أيّها الماشي مرحا لا تخرق بمشيك أديم الأرض، ولا تبلغ بتطاولك في مشيك طول الجبال، فماذا يغريك بهذه المشية.

الخرق: قطع الشيء والفصل بين الأديم، فخرق الأرض تمزيق قشر التراب.

وعن عمر بن الخطاب: أنّه رأى غلاما يتبختر في مشيته فقال له:" إنّ البخترة مِشية تُكره إلّا في سبيل الله" يعني لأنها يُرهَب بها العدو إظهارا للقوة على أعداء الدين في الجهاد.

{ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً } [38]

تذييل للجمل المتقدّمة ابتداء من قوله تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } [23] باعتبار ما اشتملت عليه من التحذيرات والنواهي. فكلّ جملة فيها أمر هي مقتضية نهيا عن ضدّه، وكلّ جملة فيها نهي هي مقتضية شيئا منهيّا عنه، فقوله { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } يقتضي عبادة مذمومة منهيّا عنها، وقوله { وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً } يقتضي إساءة منهيّا عنها، وعلى هذا القياس.

وقرأ الجمهور{ سيّئة } بفتح الهمزة بعد المثناة التحتية وبهاء تأنيث في آخره، وهي ضدّ الحسنة.

وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف { كَانَ سَيِّئُهُ } بضم الهمزة وبهاء ضمير في آخره .

والضمير عائد إلى { كُلُّ ذَلِكَ }، و{ كُلُّ ذَلِكَ } هو نفس السيّء. فإضافة (سيء) إلى ضميره إضافة بيانيّة تفيد قوّة صفة السيّء حتّى كأنّه شيئان يضاف أحدهما إلى الآخر. وهذه نكتة الإضافة البيانيّة كلّما وقعت، أي كان ما نهى عنه من ذلك مكروها عند الله.

{ **مَكْرُوهاً** } ينبغي أن يكون خبرا ثانيا لـ (كان) لأنّه المناسب للقراءتين.

{ ذَلِكَ ممّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً } [39]

{ ذَلِكَ ممّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ }

عدل عن مخاطبة الأمّة بضمائر جمع المخاطبين وضمائر المخاطب غير المعيّن إلى خطاب النبيء صلى الله عليه وسلم ردّا إلى ما سبق في أوّل هذه الآيات من قوله { وَقَضَى رَبُّكَ } [23].

وهو تذييل معترض بين جمل النهي. وفي هذا التذييل تنبيه على أنّ ما اشتملت عليه الآيات السبع عشرة هو من الحكمة، تحريضا على اتباع ما فيها وأنّه خير كثير. وفيه امتنان على النبيء ﷺ بأنّ الله أوحى إليه، فذلك وجه قوله { ممّا أَوْحَى إِلَيْكَ } تنبيها على أنّ مثل ذلك لا يصل إليه الأمّيّون لولا الوحي من الله.

الحكمة: معرفة الحقائق على ما هي عليه دون غلط ولا اشتباه، وتطلق على الكلام الدال عليها، وتقدّم في قوله تعالى { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ } [البقرة:269].

{ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً }

عطف على جمل النهي المتقدّمة، وهذا تأكيد لمضمون جملة { أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } [23]، أعيد لقصد الاهتمام بأمر التوحيد بتكرير مضمونه وبما رتّب عليه من الوعيد بأن يجازى بالخلود في النّار مهانا.

والخطاب لغير معين على طريقة المنهيّات قبله، وبقرينة قوله عقبه { أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ } [40].

الإلقاء: رمي الجسم من أعلى إلى أسفل، وهو يؤذن بالإهانة.

الملوم: الذي ينكر عليه ما فعله.

المدحور: المطرود، أي المطرود من جانب الله، أي مغضوب عليه ومبعد من رحمته في الآخرة.

{ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً } [40]

تفريع على مقدّر يدلّ على تقديره المفرع عليه. والتقدير: أفضّلكم الله فأعطاكم البنين وجعل لنفسه البنات.

ومناسبته لما قبله أنّ نسبة البنات إلى الله ادّعاء آلهة تنتسب إلى الله بالبنوّة. إذ عبد فريق من العرب الملائكة كما عبدوا الأصنام، واعتلّوا لعبادتهم بأنّ الملائكة بنات الله تعالى كما حكى عنهم في قوله { وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً - إلى قوله - وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } [الزخرف:19- 20].

فلمّا نهوا عن أن يجعلوا مع الله إلها آخر خصّص بالتحذير عبادة الملائكة، لئلّا يتوهّموا أنّ عبادة الملائكة ليست كعبادة الأصنام، لأنّ الملائكة بنات الله ليتوهّموا أنّ الله يرضى بأن يعبدوا أبناءه.

وقد جاء إبطال عبادة الملائكة بإبطال أصلها في معتقدهم، وهو أنّهم بنات الله.

{ **أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ** } إلى آخرها متفرّعة على جملة { وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ } [39] تفريعا على النهي كما بيّنّاه، باعتبار أنّ المنهي عنه مشتمل عمومه على هذا النوع الخاص الجديد بتخصيصه بالإنكار وهو شبيه ببدل البعض. فالفاء للتفريع وحقّها أن تقع في أوّل جملتها ولكن أخّرها أنّ للاستفهام الصدر في أسلوب الكلام العربي، وهذا هو الوجه الحسن في موقع حروف العطف مع همزة الاستفهام.

الإصفاء: جعل الشيء صفْوا، أي خالصا. وأصله: أفأصفى لكم.

{ **بِالْبَنِينَ** } الباء إمّا مزيدة لتوكيد لصوق فعل (أصفى) بمفعوله. وأصله: أفأصفى لكم ربكم البنين، كقوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6]. أو ضمّن أصفى معنى آثر فتكون الباء للتعدية دالة على معنى الاختصاص بمجرورها.

أي قصر البنين عليكم دونه، أي جعل لكم البنين خالصة لا يساويكم هو بأمثالهم. وجعل لنفسه الإناث التي تكرهونها. وفساد ذلك ظاهر بأدنى نظر فإذا تبيّن فساده على هذا الوضع فقد تبيّن انتفاء وقوعه إذ هو غير لائق بجلال الله تعالى. وتقدّم هذا عند قوله { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ } [النحل :57]، وقوله تعالى { إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً } [النساء:117].

{ **إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً** } تقرير لمعنى الإنكار وبيان له، أي تقولون: اتخذ الله الملائكة بنات. وأكّد فعل (تقولون) بمصدره تأكيدا لمعنى الإنكار. وجعله مجرّد قول لأنّه لو تأمّله قائله أدنى تأمّل لوجده غير داخل تحت قضايا المقبول عقلا.

العظيم: القويّ. والمراد هنا أنّه عظيم في الفساد والبطلان بقرينة سياق الإنكار. ولا أبلغ في تقبيح قولهم من وصفه بالعظيم.

{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً } [41]

لمّا ذكر فظاعة قولهم بأنّ الملائكة بنات الله أعقب ذلك بأنّ في القرآن هديا كافيا، ولكنّهم يزدادون نفورا من تدبّره. فالجملة معترضة. والضمير عائد إلى الذين عبدوا الملائكة وزعموهم بنات الله.

التصريف: أصله تعدّد الصرف، وهو النقل من جهة إلى أخرى. ومنه تصريف الرياح، وهو هنا كناية عن التبيين بمختلف البيان و متنوّعه. وتقدّم في قوله { انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ } [الأنعام:46]. وحذف مفعول {صرفنا} لأنّ الفعل نزل منزلة اللازم فلم يقدّر له مفعول، أي، بيّنّا البيان، أي ليذكّروا ببيانه.

{ **لِيَذَّكَّرُوا** } أصله يتذكّروا، فأدغم التاء في الذال لتقارب مخرجيهما، وقد تقدّم في أول سورة يونس، وهو من الذُّكر المضموم الذال الذي هو ضدّ النسيان. والضمير عائد إلى معلوم من المقام دلّ عليه قوله { أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ } [40] فهو التفات من الخطاب إلى الغيبة، أو من خطاب المشركين إلى خطاب المؤمنين.

{ **وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلّا نُفُوراً** } في موضع الحال، وهو حال مقصود منه التعجيب من حال ضلالتهم، إذ كانوا يزدادون نفورا من كلام فُصِّل وبُيِّن لتذكيرهم. وشأن التفصيل أن يفيد الطمأنينة للمقصود.

النفور: هروب الوحشيّ والدابة بجزع وخشية من الأذى. واستعير هنا لإعراضهم تنزيلا لهم منزلة الدواب والأنعام.

{ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً } [42]

عود إلى إبطال تعدّد الآلهة زيادة في استئصال عقائد المشركين من عروقها، فالجملة استئناف ابتدائي بعد جملة { وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً } [39]. والمخاطب بالأمر بالقول هو النبيء ﷺ لدمغهم بالحجّة المقنعة بفساد قولهم.

{ **قُلْ** } للاهتمام، تخصيصا لهذا بالتبليغ وإن كان جميع القرآن مأمورا بتبليغه.

{ **كَمَا يَقُولُونَ** } معترضة للتنبيه على أنّ تعدّد الآلهة لا تَحقّق له وإنّما هو مجرّد قول عار عن المطابقة لما في نفس الأمر.

ابتغاء السبيل: طلب طريق الوصول إلى الشيء، أي توخّيه والاجتهاد لإصابته، وهو هنا مجاز في توخّي وسيلة الشيء. وقد جاء في حديث موسى والخضر عليهما السلام أنّ موسى سأل السبيل إلى لقيا الخضر.

{ **إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً** } و(إذن) دالة على الجواب والجزاء فهي مؤكدة لمعنى الجواب الذي تدل عليه اللام المقترنة بجواب (لو) الامتناعية الدالة على امتناع حصول جوابها لأجل امتناع وقوع شرطها، وزائدة بأنّها تفيد أنّ الجواب جزاء عن الكلام المجاب.

فالمقصود الاستدلال على انتفاء إلهية الأصنام والملائكة الذين جعلوهم آلهة. وهذا الاستدلال يحتمل معنيين مآلهما واحد:

المعنى الأول: أن يكون المراد بالسبيل سبيل السعي إلى الغلبة والقهر، أي لطلبوا مغالبة ذي العرش وهو الله تعالى. وهذا كقوله تعالى { وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ }

[المؤمنون:91]. ووجه الملازمة التي بني عليها الدليل أنّ من شأن أهل السلطان في العرف والعادة أن يتطلّبوا توسعة سلطانهم ويسعى بعضهم إلى بعض بالغزو ويتألّبوا على السلطان الأعظم ليسلبوه ملكه.
وتمام الدليل محذوف للإيجاز يدلّ عليه ما يستلزمه ابتغاء السبيل على هذا المعنى من التدافع والتغالب. وذلك المفضي إلى اختلال العالم لاشتغال مدبّريه بالمقاتلة والمدافعة على نحو ما يوجد في ميثلوجيا اليونان من تغالب الأرباب وكيد بعضهم لبعض، فيكون هذا في معنى قوله تعالى { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا } [الانبياء:22]. وهو الدليل المسمّى ببرهان التمانع في علم أصول الدين.
فالسبيل على هذا المعنى مجاز عن التمكّن والظفر بالمطلوب. والابتغاء على هذا ابتغاء عن عداوة وكراهة.
وقوله { كَمَا يَقُولُونَ } على هذا الوجه تنبيه على خطئهم، وهو من استعمال الموصول في التنبيه على الخطأ.
المعنى الثاني: أن يكون المراد بالسبيل سبيل الوصول إلى ذي العرش، وهو الله تعالى، وصول الخضوع والاستعطاف والتقرّب، أي لطلبوا ما يوصلهم إلى مرضاته كقوله { يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ } [57].
ووجه الاستدلال أنّكم جعلتموهم آلهة وقلتم ما نعبدهم إلّا ليكونوا شفعاءنا عند الله، فلو كانوا آلهة كما وصفتم إلهيتهم لكانوا لا غنى لهم عن الخضوع إلى الله، وذلك كاف لكم بفساد قولكم، إذ الإلهيّة تقتضي عدم الاحتياج فكان مآل قولكم إنّهم عباد لله مكرمون عنده، وهذا كاف في تفطّنكم لفساد القول بإلهيتهم.
والابتغاء على هذا ابتغاء محبة ورغبة، كقوله { فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً } [المزمل:19].
والسبيل على هذا المعنى مجاز عن التوسل إليه والسعي إلى مرضاته.
وقوله { كَمَا تَقُولُونَ } على هذا المعنى تفيد للكون في قوله { لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ } أي لو كان معه آلهة حال كونهم كما تقولون، أي كما تصفون إلهيتهم من قولكم { هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ } [يونس:18].
{ **ذِي الْعَرْشِ** } استحضار الذات العليّة بوصف دون اسمه العلم لما تتضمنه الإضافة إلى العرش من الشأن الجليل الذي هو مثار حسد الآلهة إيّاه وطمعهم في انتزاع ملكه على المعنى الأول، أو الذي هو مطمع الآلهة الابتغاء من سعة ما عنده على المعنى الثاني.
وقرأ الجمهور{ كَمَا تَقُولُونَ } بتاء الخطاب على الغالب في حكاية القول المأمور بتبليغه أن يحكى كما يقول المبلغ حين إبلاغه. وقراه ابن كثير وحفص بياء الغيبة على الوجه الآخر في حكاية القول المأمور بإبلاغه للغير أن يحكى بالمعنى، لأنّ في حال خطاب الآمر المأمور بالتبليغ يكون المبلَّغ له غائبا وإنّما يصير مخاطبا عند التبليغ فإذا لوحظ حاله هذا عبر عنه بطريق الغيبة كما في قوله تعالى { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ } [آل عمران:12] ـ بالتاء وبالياء ـ ، أو على أن قوله { كَمَا يَقُولُونَ } اعتراض بين شرط (لو) وجوابه.

{ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً** } [43].

إنشاء تنزيه لله تعالى عما ادّعوه من وجود شركاء له في الإلهيّة. وهذا من المقول اعتراض بين أجزاء المقول، وهو مستأنف لأنّه نتيجة لبطلان قولهم: إن مع الله آلهة، بما نهضت به الحجّة عليهم من قوله { إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً } [42]. وقد تقدّم الكلام على نظيره في قوله تعالى { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنعام:100].

{ **عُلُوّاً** } مفعول مطلق عامله { تَعَالَى }، منصوب على المفعولية المطلقة المبيّنة للنوع. جيء به على غير قياس فعله للدلالة على أنّ التعالي هو الاتصاف بالعلو بحقّ لا بمجرد الادعاء كقوله سبحانه { مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ } [المؤمنون:24]، أي يدّعي الفضل ولا فضل له .

{ **كَبِيراً** } الكامل في نوعه. وأصل الكبير صفة مشبّهة: الموصوف بالكبر. والكبر: ضخامة جسم الشيء في متناول الناس، أي تعالى أكمل علوّ لا يشوبه شيء من جنس ما نسبوه إليه، لأنّ المنافاة بين استحقاق ذاته وبين نسبة الشريك له والصاحبة والولد بلغت في قوّة الظهور إلى حيث لا تحتاج إلى زيادة، لأنّ وجوب الوجود والبقاء ينافي آثار الاحتياج والعجز.

{ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ أنّه كَانَ حَلِيماً غَفُوراً }[44]

الجملة حال من الضمير في { سبحانه }، أي نسبّحه في حال أنّه { يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ }.

{ **لَهُ** } لام تعدية { يسبح } المضمّن معنى يشهد بتنزيهه، أو هي اللام المسمّاة لام التبيين، كالتي في قوله تعالى { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ } [الشرح:1]. وفي قولهم: حمدت الله لك.

ولمّا أسند التسبيح إلى كثير من الأشياء التي لا تنطق دلّ على أنّه مستعمل في الدلالة على التنزيه بدلالة الحال، وهو معنى قوله { وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ } حيث أعرضوا عن النظر فيها فلم يهتدوا إلى ما يحفّ بها من الدلالة على تنزيهه عن كل ما نسبوه من الأحوال المنافية للإلهية.

{ **وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ** } يجوز أن يكون الخطاب للمشركين جريا على أسلوب الخطاب السابق في قوله { إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً } [40]، لأنّ الذين لم يفقهوا دلالة الموجودات على تنزيه الله تعالى هم الذين لم يثبتوا له التنزيه عن النقائص التي شهدت الموجودات - حيثما توجّه إليها النظر- بتنزيهه عنها، فلم يحرم من الاهتداء إلى شهادتها إلّا الذين لم يقلعوا عن اعتقاد أضدادها. فأمّا المسلمون فقد اهتدوا إلى ذلك التسبيح بما أرشدهم إليه القرآن من النظر في الموجودات، وإن تفاوتت مقادير الاهتداء على تفاوت القرائح والفهوم.

ويجوز أن يكون الخطاب لجميع النّاس باعتبار انتفاء تمام العلم بذلك التسبيح.

ولعلّ إيثار فعل { لا تَفْقَهُونَ } دون أن يقول: لا تعلمون، للإشارة إلى أنّ المنفي علم دقيق.

وقرأ الجمهور { يسبح } بياء الغائب وقرأه عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، ويعقوب، وخلف بتاء جماعة مؤنث، والوجهان جائزان في جموع غير العاقل وغير حقيقي التأنيث.

{ **إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** } استئناف يفيد التعريض بأنّ مقالتهم تقتضي تعجيل العقاب لهم في الدنيا لولا أنّ الله عاملهم بالحلم والإمهال. وفي ذلك تعريض بالحث على الإقلاع عن مقالتهم ليغفر الله لهم.

{ **كَانَ** } للدلالة على أنّ الحلم والغفران صفتان له محققتان.

{ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً** } [45].

عطف جملة على جملة وقصّة على قصّة، فإنّه لمّا نوّه بالقرآن في قوله تعالى { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } [9]، ثم أعقب بما اقتضاه السياق من الإشارة إلى ما جاء به القرآن من أصول العقيدة وجوامع الأعمال وما تخلّل ذلك من المواعظ والعبر عاد هنا إلى التنبيه على عدم انتفاع المشركين بهدي القرآن لمناسبة الإخبار عن عدم فقههم دلالة الكائنات على تنزيه الله تعالى عن النقائص، وتنبيها للمشركين على وجوب إقلاعهم عن عبثهم وعنادهم، وتأمينا للنبيء ﷺ من مكرهم به وإضمارهم إضراره، وقد كانت قراءته القرآن تغيظهم وتثير في نفوسهم الانتقام.

{ **حِجَاباً** } حقيقته الساتر الذي يحجب البصر عن رؤية ما وراءه. وهو هنا مستعار للصرْفة التي يصرف الله بها أعداء النبيء ﷺ عن الإضرار به، وللإعراض الذي يعرضون به عن استماع القرآن وفهمه. وجعل الله الحجاب المذكور إيجاد ذلك الصارف في نفوسهم بحيث يهمّون ولا يفعلون، من خور الإرادة والعزيمة بحيث يخطر الخاطر في نفوسهم ثم لا يصمّمون، وتخطر معاني القرآن في أسماعهم ثم لا يتفهّمون. وذلك خلق يسري إلى النفوس تدريجيا تغرسه في النفوس، بادئ الأمر، شهوة الإعراض وكراهية المسموع منه ثم لا يلبث أن يصير مَلَكَةً في النفس لا تقدر على خلعه ولا تغيره.

{ **مَسْتُوراً** } مبالغة في حقيقة جنسه، أي حجابا بالغا الغاية في حجب ما يحجبه هو حتّى كأنّه مستور بساتر آخر، فذلك في قوّة أن يقال: جعلنا حجابا فوق حجاب. مثل قوله { وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً } [الفرقان:22]. أو أريد أنّه حجاب من غير جنس الحجب المعروفة، فهو حجاب لا تراه الأعين ولكنها ترى آثار أمثاله. وقد ثبت في أخبار كثيرة أن نفرا هموا الإضرار بالنبيء ﷺ فما منهم إلّا وقد حدث له ما حال بينه وبين همّه وكفى الله نبيه شرهم، قال تعالى { فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ } [البقرة:137]، وهي معروفة في أخبار السيرة.

وفي الجميع بين { حِجَاباً } و{ مَسْتُوراً } من البديع الطباق.

{ **وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً** } [46].

عطف جعل على جعل. والتصريح بإعادة فعل الجعل يؤذن بأنّ هذا جعل آخر فيرجّح أن يكون جعل الحجاب المستور جعل الصرفة عن الإضرار، ويكون هذا جعل عدم التدبّر في القرآن خلقة في نفوسهم.

والقول في نظم هذه الآية ومعانيها تقدّم في نظيرها في سورة الأنعام.

لمّا كان الإخبار عنهم قبل هذا يقتضي أنّهم لا يفقهون معاني القرآن أتبع ذلك بأنّهم يُعرِضون عن فهم ما فيه خير لهم، فإذا سمعوا ما يبطل إلهية أصنامهم فهموا ذلك فولوا على أدبارهم نفورا، أي زادهم ذلك الفهم ضلالا كما حرمهم عدم الفهم هديا، فحالهم متناقض. فهم لا يسمعون ما يحقّ أن يُسمع، ويسمعون ما يهوَوْن أن يسمعوه ليزدادوا به كفرا.

{ **وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ** } يحتمل أنّ المعنى: إذا ذكرت ربك بتوحيده بالإلهية، وهو المناسب لنفورهم وتولّيهم، لأنّهم إنّما ينكرون انفراد الله تعالى بالإلهيّة، فتكون دلالة { وَحْدَهُ } على هذا المعنى بمعونة المقام وفعل { ذَكَرْتَ }. أي ذكرته موصوفا بالوحدانية.

{ **وَحْدَهُ** } تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ } [الأعراف:70]

التولية: الرجوع من حيث أتى.

{ **عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً** } تقدّم القول فيه في قوله تعالى { وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ } [المائدة:21].

{ **نُفُوراً** } يجوز أن يكون جمع نافر مثل سجود وشهود. ووزن فعول يطّرد في جمع فاعل فيكون اسم الفاعل على صيغة المصدر، فيكون نفورا على هذا منصوبا على الحال من ضمير { ولوا }.

ويجوز جعله مصدرا منصوبا على المفعولية لأجله، أي ولوا بسبب نفورهم من القرآن.

{ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً } [47].

كان المشركون يحيطون بالنبيء ﷺ في المسجد الحرام إذا قرأ القرآن يستمعون لما يقوله ليتلقّفوا ما في القرآن ممّا ينكرونه، مثل توحيد الله، وإثبات البعث بعد الموت، فيعجّب بعضهم بعضا من ذلك. فكان الإخبار عنهم بأنّهم جُعلت في قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر، وأنّهم يولّون على أدبارهم نفورا إذا ذكر الله وحده، يثير في نفس السامع سؤالا عن سبب تجمّعهم لاستماع قراءة النبيء ﷺ، فكانت هذه الآية جوابا عن ذلك السؤال. فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا.

{ **نَحْنُ** } افتتاح الجملة بضمير الجلالة لإظهار العناية بمضمونها. والمعنى: أن الله يعلم علما حقّا داعي استماعهم.

{ **أَعْلَمُ** } اسم تفضيل مستعمل في معنى قوّة العلم وتفصيله. وليس المراد أنّ الله أشدّ علما من غيره إذ لا

يقتضيه المقام.

{ **بِمَا يَسْتَمِعُونَ** } الباء لتعدية اسم التفضيل إلى متعلّقه لأنّه قاصر عن التعدية إلى المفعول. واسم التفضيل المشتق من العلم ومن الجهل يعدى بالباء وفي سوى ذينك يعدى باللام، يقال: هو أعطى للدراهم.

{ **يَسْتَمِعُونَ بِهِ** } الباء للملابسة. والضمير المجرور بالباء عائد إلى ما الموصولة، أي نحن أعلم بالشيء الذي يلابسهم حين يستمعون إليك.

{ **إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى** }

النجوى: اسم مصدر المناجاة، وهي المحادثة سرّا. وتقدّم في قوله تعالى { لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ } [النساء: 114]. وأخبر عنهم بالمصدر للمبالغة في كثرة تناجيهم عند استماع القرآن تشاغلا عنه.

أي نحن أعلم بالذي يستمعونه، ونحن أعلم بنجواهم.

{ **إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً** } بدل من { وَإِذْ هُمْ نَجْوَى } بدل بعض من كلّ، لأنّ نجواهم غير منحصرة في هذا القول. وإنّما خصّ هذا القول بالذكر لأنّه أشدّ غرابة من بقية آفاكهم، للبون الواضح بين حال النبيء ﷺ وبين حال المسحور.

{ **إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ** } وقع إظهار في مقام الإضمار، دون: إذ يقولون، للدلالة على أنّ باعث قولهم ذلك هو الظلم، أي الشرك، فإنّ الشرك ظلم، أي ولولا شركهم لما مثّل عاقل حالة النبيء الكاملة بحالة المسحور. ويجوز أن يراد الظلم أيضا الاعتداء، أي الاعتداء على النبيء ﷺ كذبا.

{ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً } [48].

جملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا ونظائرها كثيرة في القرآن. والتعبير بفعل النظر إشارة إلى أنّه بلغ من الوضوح أن يكون منظورا. والاستفهام بـ (كيف) للتعجيب من حالة تمثيلهم للنبيء ﷺ بالمسحور ونحوه.

{ **ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ** } أصل ضرب وضع الشيء وتثبيته، يقال: ضرب خيمة، ويطلق على صوغ الشيء على حجم مخصوص، يقال: ضرب دنانير، وهو هنا **مستعار للإبراز والبيان**، تشبيها للشيء المبرز المبيَّن بالشيء المثبت. وتقدّم عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً } [البقرة:26].

{ **لَكَ** } اللام للتعليل والأجل، أي ضربوا الأمثال لأجل تمثيلك، أي مثّلوك. يقال: ضربت لك مثلا بكذا. وأصله مثّلتك بكذا، قال تعالى { فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ } [النحل:74]، وقال { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ } [يس:13]، أي اجعلهم مثلا لحالهم.

{ **الْأَمْثَال** } جمع هنا، وإن كان المحكي عنهم أنّهم مثّلوه بالمسحور، وهو مثل واحد، لأنّ المقصود التعجيب من هذا المثل ومن غيره فيما يصدر عنهم من قولهم: هو شاعر، هو كاهن، هو مجنون، هو ساحر، هو

مسحور، وسمّيت أمثالا باعتبار حالهم لأنّهم تحيّروا فيما يصفونه به للنّاس لئلا يعتقدوه نبيّا.

{ **فَضَلُّوا** } فرّع ضلالهم على ضرب أمثالهم لأنّ ما ضربوه من الأمثال كلّه باطل وضلال وقوّة في الكفر.

أي فظهر ضلالهم في ذلك كقوله { كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا } [القمر:9].

ويجوز أن يراد بالضلال هنا أصل معناه، وهو الحيرة في الطريق وعدم الاهتداء، أي ضربوا لك أشباها كثيرة لأنّهم تحيّروا فيما يعتذرون به عن شأنك العظيم.

{ **فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً** } تفريع على { فَضَلُّوا }، تفريع لتوغّلهم في الحيرة على ضلالهم في ضرب تلك الأمثال.

السبيل: الطريق، واستطاعته استطاعة الظفر به، فيجوز أن يراد بالسبيل سبيل الهدى على الوجه الأوّل في تفسير الضلال، ويجوز أن يكون تمثيلا لحال ضلالهم بحال الذي وقف في فيفاء لا يدري من أية جهة يسلك إلى المقصود، على الوجه الثاني في تفسير الضلال. والمعنى على هذا الوجه أنّهم تحيّروا كيف يصفون حالك للنّاس لتوقّعهم أنّ النّاس يكذّبونهم، فلذلك جعلوا ينتقلون من صفة إلى صفة لاستشعارهم أن ما يصفونه به باطل لا يطابقه الواقع.

{ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً } [49].

{ **وَقَالُوا** } يجوز أن تكون جملة معطوفة على جملة { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ } [42] باعتبار ما تشتمل عليه من قوله { كَمَا يَقُولُونَ } لقصد استئصال ضلالة أخرى من ضلالاتهم بالحجّة الدامغة.

ويجوز أن تكون عطفا على جملة { إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلّا رَجُلاً مَسْحُوراً } [47] التي مضمونها مظروف للنجوى، فيكون هذا القول ممّا تناجوا به بينهم، ثم يجهرون بإعلانه ويعدّونه حجّتهم على التكذيب.

{ **أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً** } تقديم الظرف للاهتمام به لأن مضمونه هو دليل الاستحالة في ظنّهم، فالإنكار متسلط على جملة { أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ }. وأصل تركيب الجملة: أإنا لمبعوثون إذا كنا عظاما ورفاتا.

البعث: الإرسال. وأطلق هنا على إحياء الموتى، لأنّ الميّت يشبه الماكث في عدم مبارحة مكانه.

العظام: جمع عظم، وهو ما منه تركيب الجسد للإنسان والدواب.

الرفات: الأشياء المرفوتة، أي المفتتة. يقال: رفت الشيء إذا كسّره كِسرًا دقيقة.

{ **خَلْقاً جَدِيداً** } حال من ضمير (مبعوثون) وذكر الحال لتصوير استحالة البعث بعد الفناء لأنّ البعث هو الإحياء، فإحياء العظام والرفات محال عندهم، وكونهم خلقا جديدا أدخل في الاستحالة.

{ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً [50] أَوْ خَلْقاً ممّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبا [51] يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إلاّ قَلِيلاً } [52].

جواب عن قولهم { أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً }. أمر الله رسوله ﷺ بأن يجيبهم بذلك. وقرينة ذلك مقابلة فعل { كُنَّا } في مقالهم بقوله { كُونُوا } ، ومقابلة { عِظَاماً وَرُفَاتاً } في مقالهم بقوله {حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً }، مقابلة أجسام واهية بأجسام صلبة. ومعنى الجواب أنّ وهن الجسم مساو لصلابته بالنسبة إلى قدرة الله تعالى على تكييفه كيف يشاء.

لهذا كانت الجملة غير معطوفة، جريا على طريقة المحاورات التي بيّنتها عند قوله تعالى { قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا } [البقرة:30].

واعلم أن ارتباط رد مقالتهم بقوله { كُونُوا حِجَارَةً ... } غامض، لأنّهم إنّما استبعدوا أو أحالوا إرجاع الحياة إلى أجسام تفرّقت أجزاؤها وانخرم هيكلها، ولم يعلّلوا الإحالة بأنّها صارت أجساما ضعيفة، فيردّ عليهم بأنّها لو كانت من أقوى الأجسام لأعيدت لها الحياة. فبنا أن نبيّن وجه الارتباط بين الردّ على مقالتهم وبين مقالتهم المردودة، وفي ذلك ثلاثة وجوه:

الوجه الأوّل: أن تكون صيغة الأمر في قوله { كونوا } **مستعملة في معنى التسوية**، ويكون دليلا على جواب محذوف تقديره: إنّكم مبعوثون سواء كنتم عظاما و رفاتا أو كنتم حجارة أو حديدا، تنبيها على أنّ قدرة الله تعالى لا يتعاصى عليها شيء. وذلك إدماج يجعل الجملة في معنى التذييل.

الوجه الثاني: أن تكون صيغة الأمر في قوله { كُونُوا } **مستعملة في الفرض**، أي لو فرض أن يكون الأجساد من الأجسام الصلبة وقيل لكم: إنكم مبعوثون بعد الموت لأحلتم ذلك واستبعدتم إعادة الحياة فيها.

وعلى كلا الوجهين يكون قوله { ممّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ } نهاية الكلام، ويكون قوله { فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا } مفرّعا على جملة { وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا } [49] تفريعا على الاستئناف، وتكون الفاء للاستئناف وهي بمعنى الواو على خلاف في مجيئها للاستئناف، والكلام انتقال لحكاية تكذيب آخر من تكذيباتهم.

الوجه الثالث: أن يكون قوله { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً } **كلاما مستأنفا ليس جوابا** على قولهم { أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً } [49]، وتكون صيغة الأمر { كُونُوا } مستعملة في التسوية. وفي هذا الوجه يكون قوله { فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا } متصلا بقوله { كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً }، ومفرعا على كلام محذوف يدلّ عليه قوله { كُونُوا حِجَارَةً }، أي فلو كانوا كذلك لقالوا: من يعيدنا، أي لانتقلوا في مدارج السفسطة من إحالة الإعادة إلى ادعاء عدم وجود قادر على إعادة الحياة لهم لصلابة أجسادهم.

وبهذه الوجوه يلتئم نظم الآية وينكشف ما فيه من غموض.

الحديد: تراب معدني، أي لا يوجد إلّا في مغاور الأرض، وهو تراب غليظ مختلف الغلظ، ثقيل أدكن اللون، وهو إما محتّت الأجزاء وإما مُورِقها، أي مثل الورق. وأصنافه ثمانية عشر باعتبار اختلاف تركيب أجزائه، وتتفاوت ألوان هذه الأصناف، وأشرف أصنافه الخالص، وهو السالم في جميع أجزائه من المواد الغريبة. وهذا نادر الوجود وأشهر ألوانه الأحمر، ويقسّم باعتبار صلابته إلى صنفين أصليين يسمّيان الذكر والأنثى، فالصلب هو الذكر واللين الأنثى. وكان العرب يصفون السيف الصلب القاطع بالذكر. وإذا صهر الحديد بالنار تمازجت أجزاؤه وتميع وصار كالحلواء، فمنه ما يكون حديد صب ومنه ما يكون حديد تطريق، ومنه فولاذ. وكل صنف من أصنافه صالح لما يناسب سبكه منه على اختلاف الحاجة فيها إلى شدّة الصلابة مثل السيوف والدروع.

ومن خصائص الحديد أن يعلوه الصدأ، وهو كالوسخ أخضر ثم يستحيل تدريجا إلى أكسيد (كلمة كيمياوية تدلّ على تعلّق أجزاء الأكسجين بجسم فتفسده) وإذا لم يتعهّد الحديد بالصقل والزيت أخذ الصدأ في نخر سطحه. وهذا المعدن يوجد في غالب البلاد. وأكثر وجوده في بلاد الحبشة وفي صحراء مصر. ووُجدت في البلاد التونسية معادن من الحديد.

وكان استعمال الحديد من العصور القديمة، فإن الطور الثاني من أطور التاريخ يعرف بالعصر الحديدي، أي الذي كان البشر يستعمل فيه آلات متّخذة من الحديد، وذلك من أثر صنعة الحديد، وذلك قبل عصر تدوين التاريخ. والعصر الذي قبله يعرف بالعصر الحجري.

وقد اتصلت بتعيين الزمن الذي ابتدئ فيه صنع الحديد أساطير واهية لا ينضبط بها تاريخه. والمقطوع به أنّ الحديد مستعمل عند البشر قبل ابتداء كتابة التاريخ، ولكونه يأكله الصدأ عند تعرّضه للهواء والرطوبة لم يبق من آلاته القديمة إلّا شيء قليل.

وقد وجدت في (طيبة) ومدافن الفراعنة في (منفيس) بمصر صور على الآثار مرسوم عليها: صور خزائن شاحذين مُداهم وقد صبغوها في الصور باللون الأزرق لون الفولاذ، وذلك في القرن [21 ق م]. وقد ذكر في التوراة وفي الحديث قصّة الذبيح، وقصة اختتان إبراهيم بالقدوم. ولم يذكر أنّ السكين ولا القدوم كانتا من حجر الصوان، فالأظهر أنّه بآلة الحديد. ومن الحديد تتخذ السلاسل للقيد، والمقامع للضرب، وسيأتي قوله تعالى { وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ } [الحج:21].

الخلق: بمعنى المخلوق، أي أو خلقا آخر ممّا يعظم في نفوسكم عن قبوله الحياة، ويستحيل عندكم على الله إحياؤه مثل الفولاذ والنحاس.

{ ممّا **يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ** } صفة { خَلقاً }: يعظم، وهو عِظَمٌ مجازي بمعنى القويّ في نوعه وصفاته.

الصدور: العقول، أي ممّا تعدّونه عظيما لا يتغيّر. وفي الكلام حذف، والتقدير: كونوا أشياء أبعد عن قبول

الحياة من العظام والرفات.

{ **فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا** } التفريع في على جملة { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً }. جعل سؤالهم هنا عن المُعيد لا عن أصل الإعادة لأنّ البحث عن المُعيد أدخل في الاستحالة من البحث عن أصل الإعادة، فهو بمنزلة الجواب بالتسليم الجدلي بعد الجواب بالمنع، فإنّهم نفوا إمكان إحياء الموتى، ثم انتقلوا إلى التسليم الجدلي، لأنّ التسليم الجدلي أقوى، في معارضة الدعوى، من المنع.

{ **مَنْ يُعِيدُنَا** } الاستفهام تهكّمي.

{ **قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** } لمّا كان قولهم هذا محقّق الوقوع في المستقبل أمر النبيء بأن يجيبهم، عندما يقولونه، جواب تعيين لمن يعيدهم إبطالا للازم التهكّم، وهو الاستحالة في نظرهم، إجراء لظاهر استفهامهم على أصله بحمله على خلاف مرادهم، لأنّ ذلك أجدر على طريقة الأسلوب الحكيم لزيادة المحاجة، كقوله في محاجة موسى لفرعون { قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ إِلّا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ } [الشعراء:25-26].

{ **الَّذِي فَطَرَكُمْ** } جيء بالمسند إليه موصولا لقصد ما في الصلة من الإيماء إلى تعليل الحكم بأنّ الذي فطرهم أوّل مرة قادر على إعادة خلقهم، كقوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } [الروم:27] فإنّه لقدرته التي ابتدأ بها خلقكم في المرة الأولى قادر أن يخلقكم مرة ثانية.

الانغاض: التحريك من أعلى إلى أسفل والعكس. وهو تحريك الاستهزاء.

{ **وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ** } استفهموا عن وقته استفهام تهكّم أيضا. فأمر الرسول بأن يجيبهم جوابا حقّا إبطالا للازم التهكّم، كما تقدّم في نظيره آنفا. وضمير { **هُوَ** } عائد إلى العود المأخوذ من قوله { يُعِيدُنَا }.

{ **قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبا** } للرجاء على لسان الرسول ﷺ: والمعنى لا يبعد أن يكون قريبا.

{ **يَوْمَ** } بدل من الضمير المستتر في { يَكُونَ }. وفتحته فتحة بناء لأنّه أضيف إلى الجملة الفعلية. ويجوز أن يكون ظرفا لـ { يَكُونَ }، أي يكون يوم يدعوكم، وفتحته فتحة نصب على الظرفية.

{ **يَدْعُوكُمْ** } يجوز أن يحمل على حقيقته، أي دعاء الله النّاس بواسطة الملائكة الذين يسوقون النّاس إلى المحشر. ويجوز أن يحمل على الأمر التكويني بإحيائهم، فأطلق عليه الدعاء، لأنّ الدعاء يستلزم إحياء المدعو وحصول حضوره، فهو مجاز في الإحياء والتسخير لحضور الحساب.

{ **فَتَسْتَجِيبُونَ** } مستعارة لمطاوعة معنى { يَدْعُوكُمْ } ، أي فتحيون وتمثلون للحساب. وليس للعظام والرفات إدراك واستماع ولا ثمّ استجابة، لأنّها فرع السماع، وإنّما هو تصوير لسرعة الإحياء والإحضار وسرعة الانبعاث والحضور للحساب. وضمائر الخطاب على هذا خطاب للكفار القائلين { مَنْ يُعِيدُنَا - مَتَى هُوَ }.

{ **بِحَمْدِهِ** } الباء للملابسة، فهي في معنى الحال، أي حامدين، فهم إذا بعثوا خلق فيهم إدراك الحقائق علموا أنّ الحق لله. ويجوز أن يكون { بِحَمْدِهِ } متعلّقا بمحذوف على أنّه من كلام النبيء ﷺ. والتقدير: انطق بحمده،

أي احمد الله على ظهور صدق ما أنبأتكم به، ويكون اعتراضا بين المتعاطفات.

{ **وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً** } عطف على { فَتَسْتَجِيبُونَ }، أي وتحسبون أنّكم ما لبثتم في الأرض إلّا قليلا.

والمراد: التعجيب من هذه الحالة، ولذلك جاء في بعض آيات أخرى سؤال المولى حين يُبعثون عن مدّة لبثهم تعجيبا من حالهم، قال تعالى { قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فاسْأَلِ الْعَادِّينَ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [المؤمنون:112- 114]، وقال { فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ } [البقرة:259].

وهذا التعجيب تنديم للمشركين وتأييد للمؤمنين. والمراد هنا: أنّهم ظنّوا ظنّا خاطئا، وهو محلّ التعجيب.

وأمّا قوله في الآية الأخرى { قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } فمعناه: أنّه وإن طال فهو قليل بالنسبة لأيام الله.

{ **وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً** } [53].

لما أعقب ما أمر النبيء ﷺ بتبليغه إلى المشركين من أقوال تعظهم من قوله تعالى { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ } [42] وقوله { قُلْ كُونُوا حِجَارَةً } [50] وقوله { قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً } [51] ثُنِّيَ العنان إلى الأمر بإبلاغ المؤمنين تأديبا ينفعهم في هذا المقام، على عادة القرآن في تلوين الأغراض وتقريب بعضها ببعض أضدادها، استقصاء لأصناف الهُدى ومختلف أساليبه، ونفع مختلف النّاس.

ولمّا كان ما سبق من حكاية أقوال المشركين تُنبئ عن ضلال اعتقادٍ نُقل الكلام إلى أمر المؤمنين بأن يقولوا أقوالا تعرب عن حسن النيّة وعن نفوس زكيّة. وأوتوا في ذلك كلمة جامعة وهي { يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ }.

{ **الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** } صفة لمحذوف يدلّ عليه فعل { يَقُولُوا } . تقديره: بالتي هي أحسن. وليس المراد مقالة واحدة. واسم التفضيل مستعمل في قوّة الحسن. ونظيره قوله { وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [النحل:125].

فهذه الآية شديدة الاتصال بالتي قبلها وليست بحاجة إلى تطلّب سبب لنزولها. وهذا تأديب عظيم في مراقبة اللسان وما يصدر منه. وفي الحديث الصحيح عن معاذ بن جبل: أنّ النبيء ﷺ أمره بأعمال تدخله الجنّة ثم قال له:" ألا أخبرك بملاك ذلك كلّه؟ قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: كف عليك هذا. قال: قلت: يا رسول الله وإنّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك، وهل يكبّ النّاس في النار على وجوههم، أو قال على مناخرهم، إلّا حصائد ألسنتهم ".

والمقصد الأهمّ من هذا التأديب تأديب الأمّة في معاملة بعضهم بعضا بحسن المعاملة وإلانة القول. لأنّ القول ينمّ عن المقاصد بقرينة قوله { إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ } . ثم تأديبهم في مجادلة المشركين اجتنابا لما تثيره

المشادة والغلظة من ازدياد مكابرة المشركين وتصلّبهم، فذلك من نزغ الشيطان بينهم وبين عدوّهم. قال تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كأنّه وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت:34]. والمسلمون في مكّة يومئذ طائفة قليلة وقد صرف الله عنهم ضرّ أعدائهم بتصاريف من لطفه ليكونوا آمنين. فأمرهم أن لا يكونوا سببا في إفساد تلك الحالة.

{ **لِعِبَادِي** } المؤمنون كما هو المعروف من اصطلاح القرآن في هذا العنوان.

وروي أنّ قول التي هي أحسن أن يقولوا للمشركين: يهديكم الله. يرحمكم الله، أي بالإيمان. وعن الكلبي: كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بالقول والفعل، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية.

{ **يَقُولُوا** } مجزوم على حذف لام الأمر وهو وارد كثيرا بعد الأمر بالقول. والتقدير: قل لهم: قولوا التي هي أحسن. فيكون كناية على أنّ الامتثال شأنهم فإذا أمروا امتثلوا. وقد تقدّم نظيره في قوله { قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ } [إبراهيم:31].

النزغ: أصله الطعن السريع. واستعمل هنا في الإفساد السريع الأثر. وتقدّم في قوله تعالى { مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي } [يوسف:100].

{ **إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ** } تعليل للأمر بقول التي هي أحسن. والمقصود من التعليل أنّ لا يستخفّوا بفاسد الأقوال، فإنّها تثير مفاسد من عمل الشيطان.

{ **بَيْنَهُمْ** } ولمّا كان الضمير عائدا إلى عبادي كان المعنى التحذير من إلقاء الشيطان العداوة بين المؤمنين تحقيقا لمقصد الشريعة من بثّ الأخوّة الإسلامية.

روى الواحدي: أنّ عمر بن الخطاب شتمه أعرابي من المشركين فشتمه عمر وهمّ بقتله فكاد أن يثير فتنة فنزلت هذه الآية. وأياما كان سبب النزول فهو لا يقيّد إطلاق صيغة الأمر للمسلمين بأن يقولوا التي أحسن في كل حال.

{ **إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً** } تعليل لجملة { يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ }.وعلّة العلّة علّة.

{ **كَانَ** } للدلالة على أنّ صفة العداوة أمر مستقرّ في خِلقته قد جُبل عليه. وعداوته للإنسان متقرّرة من وقت نشأة آدم عليه الصلاة والسلام، وأنّه يسوّل للمسلمين أن يغلظوا على الكفار بوهمهم أنّ ذلك نصر للدين ليوقعهم في الفتنة، فإنّ أعظم كيد الشيطان أن يوقع المؤمن في الشرّ وهو يوهمه أنّه يعمل خيرا.

{ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً } [54].

هذا الكلام متّصل بقوله { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ - إلى قوله - فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً } [48]. فإنّ ذلك

ينطوي على ما هو شأن نجواهم من التصميم على العناد والإصرار على الكفر. وذلك يسوء النبيء ﷺ ويحزنه أن لا يهتدوا. فوجّه هذا الكلام إليه تسلية له. ويدلّ لذلك تعقيبه بقوله { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً }.

{ **رَبُّكُمْ** } أوتي بالمسند إليه بلفظ الربّ مضافا إلى ضمير المؤمنين الشامل للرّسول، تذكيرا بأنّ الاصطفاء للخير شأن من معنى الربوبيّة التي هي تدبير شؤون المربوبين بما يليق بحالهم، ليكون لإيقاع المسند على المسند إليه بعد ذلك بقوله { أَعْلَمُ بِكُمْ } وقع بديع، لأنّ الذي هو الربّ هو الذي يكون أعلم بدخائل النفوس وقابليّتها للاصطفاء.

{ **أَعْلَمُ بِكُمْ** } أعلم بحالكم، لأنّ الحالة هي المناسبة لتعلّق العلم.

{ **إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ** } مبيّنة للمقصود من جملة {أَعْلَمُ بِكُمْ }. الكناية عن مشيئة هديه إيّاهم الذي هو سبب الرحمة. أو مشيئة تركهم وشأنهم. وهذا أحسن ما تفسّر به هذه الآية ويبيّن موقعها، وما قيل غيره أراه لا يلتئم.

والرحمة والتعذيب مكنًّى بهما عن الاهتداء والضلال، بقرينة مقارنته لقوله { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ } الذي هو كالمقدّمة. وسلك سبيل الكناية بهما لإفادة فائدتين: صريحهما وكنايتهما، ولإظهار أنّه لا يُسأل عما يفعل، لأنّه أعلم بما يليق بأحوال مخلوقاته. فلمّا ناط الرحمة بأسبابها والعذاب بأسبابه، بحكمته وعدله، علم أن معنى مشيئته الرحمة أو التعذيب هو مشيئة إيجاد أسبابهما.

{ **أَوْ** } للتقسيم، لأنّ الرحمة والتعذيب لا يجتمعان.

{ **إِنْ يَشَأْ - إِنْ يَشَأْ** } ذكر شرط المشيئة هنا فائدته التعليم بأنّه تعالى لا مُكره له، فجمعت الآية الإشارة إلى صفة العلم والحكمة وإلى صفة الإرادة والاختيار. وإعادة شرط المشيئة في الجملة المعطوفة لتأكيد تسلط المشيئة على الحالتين.

{ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً** } زيادة لبيان أنّ الهداية والضلال من جعل الله تعالى، وأنّ النبيء غير مسؤول عن استمرار من استمر في الضلالة، إزالة للحرج عنه فيما يجده من عدم اهتداء من يدعوهم، أي ما أرسلناك لتجبرهم على الإيمان وإنما أرسلناك داعيا.

الوكيل على الشيء: هو المسؤول به. والمعنى: أرسلناك نذيرا وداعيا لهم وما أرسلناك عليهم وكيلا، فيفيد معنى القصر لأنّ كونه داعيا ونذيرا معلوم بالمشاهدة، فإذا نفي عنه أن يكون وكيلا وملجئا آل إلى معنى: ما أنت إلّا نذير.

{ **عَلَيْهِمْ** } الضميرعائد إلى المشركين. وهو متعلّق بـ { وَكِيلاً } . وقدم على متعلّقه للاهتمام وللرعاية على الفاصلة.

{ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً } [55]

تماثل القرينتين في فاصلتي هذه الآية من كلمة { وَالْأَرْضِ } وكلمة { عَلَى بَعْضٍ }. يدلّ دلالة واضحة على أنّهما كلام مرتبط بعضه ببعض، وأن ليس قوله { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } تكملة لآية {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ } [54].

{ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ } تغيير أسلوب الخطاب بعد قوله { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ } [54] إيماء إلى أنّ الغرض من هذه الجملة عائد إلى شأن من شؤون النبيء ﷺ التي لها مزيد اختصاص به، تقفية على إبطال أقوال المشركين في شؤون الصفات الإلهية. بإبطال أقوالهم في أحوال النبيء بغرورهم أنّه لم يكن من عظماء أهل بلادهم وقادتهم، وقالوا: أبعث الله يتيم أبي طالب رسولا، أبعث الله بشرا رسولا. فأبكتهم الله بهذا الرد.

{ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } كالمقدمة لقوله { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ }. أعاد تذكيرهم بأنّ الله أعلم منهم بالجدير بالرسالة بحسب ما أعدّه الله فيه من الصفات القابلة لذلك، كما قال تعالى عنهم { قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حتّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام:124].

وكان الحكم في هذه المقدّمة على عموم الموجودات لتكون بمنزلة الكلّيّة التي يؤخذ كل حكم لجزئيّاتها، لأنّ المقصود بالإبطال من أقوال المشركين جامع لصور كثيرة من أحوال الموجودات من البشر والملائكة وأحوالهم، لأنّ بعض المشركين أحالوا إرسال رسولا من البشر. وبعضهم أحالوا إرسال رسول ليس من عظمائهم، وبعضهم أحالوا إرسال من لا يأتي بمثل ما جاء به موسى عليه السلام . وذلك يثير أحوالا جمّة من العصور والرجال والأمم أحياء وأمواتا. فلا جرم كان للتعميم موقع عظيم في قوله { بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }.

وهو أيضا كالمقدّمة لجملة { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ }، مشيرا إلى أنّ تفاضل الأنبياء ناشئ على ما أودعه الله فيهم من موجبات التفاضل. وهذا إيجاز تضمّن إثبات النبوّة وتقرّرها فيما مضى ممّا لا قِبل لهم بإنكاره، وتعدد الأنبياء، ممّا يجعل محمدا ﷺ ليس بدعا من الرّسل.

فعلم أنّ طعنهم في نبوة محمد ﷺ طعن مكابرة وحسد. كما قال تعالى في شأن اليهود { أَمْ يَحْسُدُونَ النّاس عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً} [النساء:54].

{ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً } وتخصيص داود عليه السلام بالذكر عقب هذه القضيّة العامة وجهه صاحب الكشاف ومن تبعه بأنّ فائدة التلميح إلى أنّ محمدا ﷺ أفضل الأنبياء وأمته أفضل الأمم لأنّ في الزبور أنّ الأرض يرثها عباد الله الصالحون. وهذا حسن.

وأنا أرى أن يكون وجه هذا التخصيص الإيماء إلى أن كثيرا من الأحوال المرموقة في نظر الجاهلين وقاصري الأنظار، بنظر الغضاضة، هي أحوال لا تعوق أصحابها عن الصعود في مدارج الكمال التي اصطفاها الله لها، وأن التفضيل بالنبوّة والرسالة لا ينشأ عن عظمة سابقة، فإنّ داود عليه السلام كان راعيا من رعاة الغنم في بني إسرائيل. وكان ذا قوة في الرمي بالحجر، فأمر الله شاول ملك بني إسرائيل أن يختار داود لمحاربة جالوت الكنعاني، فلمّا قتل داود جالوت آتاه الله النبوّة وصيّره ملكا لإسرائيل، فهو النبيء الذي تجلّى فيه اصطفاء الله تعالى لمن لم يكن ذا عظمة وسيادة.

وذكر إيتائه الزبور هو محلّ التعريض للمشركين بأنّ المسلمين سيرثون أرضهم وينتصرون، عليهم لأنّ ذلك مكتوب في الزبور كما تقدّم آنفا. وقد أوتي داود الزبور ولم يؤت أحد من أنبياء بني إسرائيل كتابا بعد موسى عليه السلام.

داود: تقدّم ذكره في سورة الأنعام وفي آخر سورة النساء.

الزبور: اسم لجموع أقوال داود عليه السلام التي بعضها ممّا أوحاه إليه وبعضها ممّا ألهمه من دعوات ومناجاة وهو المعروف اليوم بكتاب المزامير من كتب العهد القديم. وتقدّم ذكره عند قوله تعالى { وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً } [النساء:163].

{ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً }[56]

لم أر لهذه الآية تفسيرا يُثْلَج له الصدر، والحيرة بادية على أقوال المفسّرين في معناها وانتظام موقعها مع سابقها، ولا حاجة إلى استقراء كلماتهم. ومرجعها إلى طريقتين في محمل { الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ } إحداهما في تفسير الطبري وابن عطية عن ابن مسعود والحسن. وثانيتهما في تفسير القرطبي والفخر غير معزوّة لقائل.

والذي أرى في تفسيرها أن الآية معترضة بين جملة { وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ } وجملة { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ} [57]. وذلك أنّه لمّا جرى ذكر الأفضلين من الأنبياء في أثناء آية الردّ على المشركين مقالتهم في اصطفاء محمد ﷺ للرسالة واصطفاء أتباعه لولايته ودينه، وهي آية { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } [55] إلى آخرها، جاءت المناسبة لردّ مقالة أخرى من مقالاتهم الباطلة وهي اعتذارهم عن عبادة الأصنام بأنّهم ما يعبدونهم إلّا ليقرّبوهم إلى الله زلفى، فجعلوهم عبادا مقرّبين ووسائل لهم إلى الله.

فلمّا جرى ذكر المقرّبين حقّا انتُهزت مناسبة ذكرهم لتكون مخلصًا إلى إبطال ما ادّعوه من وسيلة أصنامهم على عادة إرشاد القرآن من اغتنام مناسبات الموعظة. وذلك من أسلوب الخطباء.

فبعد أن أبطل أن يكون مع الله آلهة ببرهان العقل عاد إلى إبطال إلهيتهم المزعومة ببرهان الحسّ، وهو

مشاهدة أنّها لا تغني عنهم كشف الضرّ.

{ **فَلا يَمْلِكُونَ** } بمعنى الاستطاعة والقدرة كما في قوله { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً } [المائدة: 17].

والمقصود من ذلك بيان البون بين الدعاء الحقّ والدعاء الباطل. ومن نظائر هذا المعنى في القرآن قوله تعالى { إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } [الأعراف:196-197]

الكشف: مستعار للإزالة.

التحويل: نقل الشيء من مكان إلى مكان، أي لا يستطيعون إزالة الضرّ عن الجميع، ولا إزالته عن واحد إلى غيره.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً } [57]

{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ** } الإشارة إلى النبيين لزيادة تمييزهم.

والمعنى: أولئك الذين إن دعوا يُستجب لهم ويُكسف عنهم الضرّ، وليسوا كالذين تدعونهم فلا يملكون كشف الضرّ عنكم بأنفسهم ولا بشفاعتهم عند الله، كما رأيتم من أنّهم لم يغنوا عنكم من الضر كشفا ولا صرفا.

الوسيلة: المرتبة العالية القريبة من عظيم كالمَلك.

{ **أَيُّهُمْ أَقْرَبُ** } يجوز أن يكون بدلا من ضمير { يَبْتَغُونَ } بدل بعض، وتكون(أي) موصولة. والمعنى: الذي هو أقرب من رضى الله يبتغي زيادة الوسيلة إليه، أي يزداد عملا للازدياد من رضى الله عنه واصطفائه.

ويجوز أن يكون بدلا من جملة { يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ }، و(أي) استفهامية، أي يبتغون معرفة جواب: أيّهم أقرب عند الله.

أقرب: اسم تفضيل، ومتعلّقه محذوف دلّ عليه السياق. والتقدير: أيّهم أقرب إلى ربّهم.

{ **وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** } وذكر خوف العذاب بعد رجاء الرحمة للإشارة إلى أنّهم في موقف الأدب مع ربّهم فلا يزيدهم القرب من رضاه إلّا إجلالا له وخوفا من غضبه. وهو تعريض بالمشركين الذين ركبوا رؤوسهم وتوغّلوا في الغرور فزعموا أنّ شركاءهم شفعاؤهم عند الله.

{ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً** } تذييل. ومعنى {كَانَ مَحْذُوراً} أن حقيقته تقتضي حذر الموقّين، إذ هو جدير بذلك.

{ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ

مَسْطُوراً } [58]

ولمّا عرَّض بالتهديد للمشركين في قوله { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً }[57]، وتحدّاهم بقوله { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً }[56]، جاء بصريح التهديد على مسمع منهم بأنّ كلّ قرية مثل قريتهم في الشرك لا يعدوها عذاب الاستيصال، وهو يأتي على القرية وأهلها، أو عذاب الانتقام بالسيف والذلّ والأسر والخوف والجوع وهو يأتي على أهل القرية، مثل صرعى بدر، كلّ ذلك في الدنيا.

فالمراد: القرى الكافر أهلها لقوله تعالى { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } [هود:117]، وقوله { وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } [القصص:59].

وحذف الصفة في مثل هذا معروف كقوله تعالى {يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً} [الكهف:79] أي كل سفينة صالحة، بقرينة قوله { فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا } [الكهف:79].

فلوا سلّمنا أنّ هذا الحكم لا تنفلت منه قرية من القرى بحكم سنة الله في مصير كل حادث إلى الفناء لما سلّمنا أنّ في ذكر ذلك هنا فائدة.

{ **وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ** } و(من) مزيدة بعد (إن) النافية لتأكيد استغراق مدخولها باعتبار الصفة المقدّرة، أي جميع القرى الكافرة كيلا يحسب أهل مكّة عدم شمولهم.

{ **قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ** } التقييد زيادة في الإنذار والوعيد، كقوله { وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى } [طه: 127].

{ **كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً** }، **الكتاب**: مستعار لعلم الله وسابق تقديره، فتعريفه للعهد، أو أريد به الكتب المنزلة على الأنبياء، فتعريفه للجنس فيشمل القرآن وغيره.

المسطور: المكتوب، يقال: سَطَر الكتاب إذا كتبه سطورا، قال تعالى { وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ } [القلم:1].

{ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً } [59].

{ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا }

هذا كشف شبهة أخرى من شبه تكذيبهم إذ كانوا يسألون النبيء أن يأتيهم بآيات على حسب اقتراحهم، ويقولون: لو كان صادقا وهو يطلب منّا أن نؤمن به لجاءنا بالآيات التي سألناه. غرورا بأنفسهم أنّ الله يتنازل لمباراتهم.

والجملة معطوفة على جملة { وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا }[58]، أي إنّما أمهلنا المتمرّدين على الكفر إلى أجل نزول العذاب ولم نجبهم إلى ما طلبوا من الآيات لعدم جدوى إرسال الآيات للأوّلين من قبلهم في الكفر على حسب اقتراحهم فكذّبوا بالآيات.

{ **وَمَا مَنَعَنَا** } حقيقة المنع: كفّ الفاعل عن فعل يريد فعله أو يسعى في فعله. وهذا محال عن الله تعالى إذ لا مُكره للقادر المختار. فالمنع هنا مستعار للصرف عن الفعل وعدم إيقاعه دون محاولة إتيانه.

{ **أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ** } يجوز أن يكون حقيقة فيكون مفعول { أَنْ نُرْسِلَ } محذوفا دل عليه الفعل. والتقدير: أن نرسل رسولنا. فالباء في قوله { بالآيات } للمصاحبة، أي مصاحبا للآيات التي اقترحها المشركون.

ويجوز أن يكون الإرسال مستعارا لإظهار الآيات وإيجادها، فتكون الباء مزيدة لتأكيد تعلّق فعل { نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ }، وتكون { بِالْآيَاتِ } مفعولا في المعنى كقوله تعالى { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6].

{ **إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ** } إسناد المنع إلى تكذيب الأولين بالآيات مجاز عقلي لأنّ التكذيب سبب الصرف. والمعنى: أنّنا نعلم أنّهم لا يؤمنون كما لم يؤمن من قبلهم من الكفرة لمّا جاءتهم أمثال تلك الآيات.

فعلم النّاس أنّ الإصرار على الكفر سجيّة للمشرك لا يقلعها إظهار الآيات، فلو آمن الأوّلون عندما أُظهرت لهم الآيات لكان لهؤلاء أن يجعلوا إيمانهم موقوفا على إيجاد الآيات التي سألوها. قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ } [يونس: 96 - 97].

والأظهر أن هذا تثبيت لأفئدة المؤمنين لئلا يفتنهم الشيطان، وتسلية للنبيء ﷺ لحرصه على إيمان قومه، فلعلّه يتمنى أن يجيبهم الله لما سألوا من الآيات، ولحزنه من أن يظنّوه كاذبا.

{ **وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ** } في محلّ الحال من ضمير الجلالة، أي وقد أتينا ثمودا آية كما سألوا فزادوا كفرا بسببها حتّى عُجّل لهم العذاب.

{ **مُبْصِرَةً** } واضحة الدلالة، فهو اسم فاعل أبصر المتعدّي إلى مفعول، أي جعل غيره مبصرا وذا بصيرة. فالمعنى: أنّها مفيدة البصيرة، أي اليقين. أي تجعل من رآها ذا بصيرة وتفيده أنها آية. ومنه قوله تعالى { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ } [النمل:13].

وخُصَّ بالذكر ثمود وآيتها لشهرة أمرهم بين العرب، ولأنّ آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من أهل مكّة يبصرها صادرهم وواردهم في رحلاتهم بين مكّة والشام.

{ **فَظَلَمُوا بِهَا** } يجوز أن يكون استُعمل الظلم بمعنى الكفر لأنّه ظلم النفس، وتكون الباء للتعدية لأنّ فعل الكفر يعدّى إلى المكفور بالباء. ويجوز أن يكون الظلم مضمَّنا معنى الجحد، أي كابروا في كونها آية، كقوله تعالى { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً } [النمل:14]. ويجوز بقاء الظلم على حقيقته، وهي الاعتداء بدون حقّ، والباء صلة لتوكيد التعدية مثل الباء في { وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ } [المائدة:6] ، أي ظلموا

الناقة حين عقروها وهي لم تجن عليهم، فكان عقرها ظلما. والاعتداء على العجماوات ظلم إذا كان غير مأذون فيه شرعا كالصيد.

{ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً }

هذا بيان لحكمة أخرى في ترك إرسال الآيات إلى قريش، تشير إلى أنّ الله تعالى أراد الإبقاء عليهم ليدخل منهم في الإسلام كثير ويكون نشر الإسلام على يد كثير منهم.

وتلك مكرمة للنبيء ﷺ فلو أرسل الله لهم الآيات كما سألوا، مع أن جبلّتهم العناد، لأصرّوا على الكفر فحقّت عليهم سنة الله التي قد خلت في عباده، وهي الاستئصال عقب إظهار الآيات، لأنّ إظهار الآيات تخويف من العذاب، والله أراد الإبقاء على هذه الأمّة { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ } [الأنفال:33]، فعوّضنا تخويفهم بدلا عن إرسال الآيات التي اقترحوها.

التخويف: جعل المرء خائفا.

{ إِلَّا تَخْوِيفاً } لقصر الإرسال بالآيات على علّة التخويف، وهو قصر إضافي، أي لا مباراة بين الرّسل وأقوامهم أو لا طمعا في إيمان الأقوام فقد علمنا أنّهم لا يؤمنون.

{ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنّاس وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلّا طُغْيَاناً كَبِيراً } [60].

{ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ } هذه تسلية للنبيء ﷺ على حزنه من تكذيب قومه إيّاه، ومن إمهال عتاة أعداء الدين الذين فتنوا المؤمنين، فذكّره الله بوعده نصره. والجملة يجوز أن تكون معطوفة على جملة { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ } ويجوز أن تكون معترضة.

{ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ } متعلقة بفعل محذوف، أي اذكر إذ قلنا لك كلاما هو وعد بالصبر، أي اذكر لهم ذلك وأعده على أسماعهم، أو هو فعل (اذكر) على أنّه مشتق من الذُّكر (بضم الذال) وهو إعادة الخبر إلى القوة العقلية الذاكرة.

{ رَبَّكَ } أومأ جعْل المسند إليه لفظ الرب مضافا إلى ضمير الرسول أنّ هذا القول مسوق مساق التكرمة للنبيء وتصبيره، وأنّه بمحلّ عناية الله به إذ هو ربّه وهو ناصره، قال تعالى { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } [الطور:48].

{ أَحَاطَ بِالنَّاسِ } والإحاطة لمّا عدي فعلها هنا إلى ذات النّاس لا إلى حال من أحوالهم تعيّن أنّها مستعملة في معنى الغلبة، كما في قوله تعالى { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ } [يونس:22]. وعبّر بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوع إحاطة الله بالنّاس في المستقبل القريب. والمعنى: فلا تحزن لافترائهم وتطاولهم فسننتقم منهم.

{ **وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ** } عطف على { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ } وما بينهما معترضات.

{ **الرُّؤْيا** } أشهر استعمالها في رؤيا النوم، وتستعمل في رؤية العين كما نقل عن ابن عباس في هذه الآية.

قال: هي رؤيا عين أريها النبيء ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس، رواه الترمذي وقال: إنّه قول عائشة ومعاوية وسبعة من التابعين، سماهم الترمذي.

وتأوّلها جماعة أنّها ما رآه ليلة أسري به إذ رأى بيت المقدس وجعل يصفه للمشركين، ورأى عيرهم واردة في مكان معيّن من الطريق ووصف لهم حال رجال فيها فكان كما وصف. ويؤيد هذا الوجه قوله { الَّتِي أَرَيْنَاكَ } فإنّه وصف للرؤيا ليعلم أنّها رؤية عين.

وقيل: رأى أنّه يدخل مكّة في سنة الحديبية فردّه المشركون فلم يدخلها فافتتن بعض من أسلموا فلمّا كان العام المقبل دخلها. وقيل: هي رؤيا مصارع صناديد قريش في بدر أريها النبيء ﷺ قبل ذلك أي بمكّة. وعلى هذين القولين فهي رؤيا نوم ورؤيا الأنبياء وحي.

الفتنة: اضطراب الرأي واختلال نظام العيش، وتطلق على العذاب المكرّر الذي لا يطاق. قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } [البروج:10]، وقال { يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ } [الذريات:13]. فيكون المعنى على أوّل القولين في الرؤيا أنّها المرئي وهو عذابهم بالسيف فتنة لهم.

{ **وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ** } عطف على الرؤيا، أي ما جعلنا ذكر الشجرة الملعونه في القرآن إلّا فتنة للنّاس. وهذا إشارة إلى قوله { إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كأنّه رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ } [الصافات:64-66]. وقوله { إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ }[الدخان:43- 44] وقوله { ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ } [الواقعة:51-52].

روي أنّ أبا جهل قال: " زعم صاحبكم أنّ نار جهنم تحرق الحجر، ثم يقول بأنّ في النار شجرة لا تحرقها النار". وجهلوا أنّ الله يخلق في النار شجرة لا تأكلها النار. وهذا مروي عن ابن عباس وأصحابه في أسباب النزول للواحدي وتفسير الطبري.

ويجوز أن يكون المعنى: أن إيجادها فتنة. أي عذاب مكرّر.

الملعونة: أي المذمومة في القرآن. وقيل أنّها موضوعة في مكان اللعنة وهي الإبعاد من الرحمة، لأنّها مخلوقة في موضع العذاب. وفي الكشّاف: قيل تقول العرب لكلّ طعام ضار: ملعون.

{ **وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً** }.

عطف على { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ } [59] الدال على أنّهم متصلّبون في كفرهم مكابرون معاندون. وهذه زيادة في تسلية النبيء ﷺ حتّى لا يأسف من أنّ الله لم يرهم آيات. لأنّ

النبيء ﷺ حريص على إيمانهم.

{ نُخَوِّفُهُمْ } جئ بصيغة المضارع للإشارة إلى تخويف حاضر، فإنّ الله خوفهم بالقحط والجوع حتّى رأوا الدخان بين السماء والأرض وسألوا الله كشفه، فقال { إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ } [الدخان:15] فذلك وغيره من التخويف الذي سبق فلم يزدهم إلّا طغيانا. فالظاهر أن هذه الآية نزلت في مدة حصول بعض المخوّفات.

الكبير: مستعار لمعنى الشديد القوي في نوع الطغيان. وتقدّم عند قوله { قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ } [البقرة:217].

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً [61] قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلّا قَلِيلاً }[62].

عطف على { وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ } [60]، أي واذكر إذ قلنا للملائكة. والمقصود من هذا تذكير النبيء ﷺ بما لقي الأنبياء قبله من معاندة الأعداء والحسدة من عهد آدم حين حسده إبليس على فضله. وأنّهم لا يعدمون مع ذلك معترفين بفضلهم وهم خيرة زمانهم كما كانت الملائكة نحو آدم عليه السلام ، وأنّ كِلا الفريقين في كل عصر يمُتّ إلى أحد الفريقين الذي في عهد آدم، فلفريق الملائكة المؤمنون ولفريق الشيطان الكافرون. كما أومأ إليه قوله تعالى {قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ} [63] ، ففي ذلك تسلية للنبيء ﷺ.

وذكر النبيء ذلك موعظة للنّاس بحال الفريقين لينظر العاقل أين يضع نفسه.

وتفسير قصّة آدم وبيان كلماتها مضى في سورة البقرة وما بعدها.

{ قَالَ أَأَسْجُدُ } الاستفهام للإنكار، أي لا يكون. والجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا، لأنّ استثناء إبليس من حكم السجود لم يفد أكثر من عدم السجود.

{ طِيناً } حال من اسم الموصول، فيفيد معنى أنّك خلقته من الطين. لأنّ ذلك أشدّ في تحقيره في نظر إبليس.

{ قَالَ أَرَأَيْتَكَ } بدل اشتمال من جملة { أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً } باعتبار ما تشتمل عليه من احتقار آدم وتغليط الإرادة من تفضيله. فقد أعيد إنكار التفضيل بقوله { أَرَأَيْتَكَ } المفيد الإنكار.

و{ أَرَأَيْتَكَ } تركيب يُفتتح بها الكلام الذي يراد تحقيقه والاهتمام به. ومعناه: أخبرني عما رأيت، وهو مركب من همزة استفهام، و(رأى) التي بمعنى علم، و(تاء) المخاطب المفرد المرفوع، ثم يزاد على ضمير الخطاب (كاف) خطاب تشبه ضمير الخطاب المنصوب بحسب المخاطب واحدا أو متعددا. يقال: أرأيتك وأرأيتكم كما تقدّم في قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ } [الأنعام:40].

{ هَذَا الَّذِي } واسم الإشارة مستعمل في التحقير، كقوله تعالى {أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ} [الانبياء:36].

والمعنى: أخبرني عن نيّتك أهذا الذي كرّمته عليّ بلا وجه.

{ **لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلّا قَلِيلاً** } مستأنفة استئنافا ابتدائيا، وهي جملة قَسَمية، واللام موطنة للقسم المحذوف مع الشرط، والخبر مستعمل في الدعاء فهو في معنى قوله { قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [صّ:79].

وهذا الكلام صدر من إبليس إعرابا عمّا في ضميره. وإنّما شرط التأخير إلى يوم القيامة ليعمّ بإغوائه جميع أجيال ذرّيّة آدم فلا يكون جيل آمنا من إغوائه.

وإنما اقتصر على إغواء ذرية آدم ولم يذكر إغواء آدم، وهو أولى بالذكر، إذ آدم هو أصل عداوة الشيطان الناشئة عن الحسد من تفضيله عليه، إمّا لأنّ هذا الكلام قاله بعد أن أغوى آدم وأُخرج من الجنّة فقد شفى غليله منه وبقيت العداوة مسترسلة في ذرية آدم، قال تعالى { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ } [فاطر:6].

الاحتناك: وضع الراكب اللجام في حنك الفرس ليركبه ويسيّره، فهو هنا تمثيل لجلب ذرية آدم إلى مراده من الإفساد والإغواء بتسيير الفرس على حبّ ما يريد راكبه.

{ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً [63] وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلّا غُرُوراً } [64].

جواب من الله تعالى عن سؤال إبليس التأخير إلى يوم القيامة، ولذلك فصلت على طريقة المحاورات.

{ **اذْهَبْ** } ليس مرادا به الانصراف بل هو مستعمل في الاستمرار على العمل، أي امض لشأنك الذي نويته. وصيغة الأمر مستعملة في التسوية.

{ **فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ** } تفريع على التسوية والزجر كقوله تعالى { قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ } [طه: 97].

الجزاء: مصدر جزاه على عمل، أي أعطاه عن عمله عوضا. وهو هنا بمعنى اسم المفعول.

الموفور: اسم مفعول من وفّره إذا كثّره.

{ **جَزَاءً** } أعيد للتأكيد، اهتماما وفصاحة، ولأنه أحسن في جريان وصف (الموفور) على موصوف متصل به دون فصل. وأصل الكلام: فإن جهنم جزاؤكم موفورا. فانتصاب {جَزَاءً} على الحال الموطئة، و{مَوْفُوراً} صفة له، وهو الحال في المعنى، أي جزاء غير منقوص.

الاستفزاز: طلب الفزّ، وهو الخفّة والانزعاج وترك التثاقل. والسين والتاء للطلب والحثّ الذي هو أصل معنى السين والتاء، أي استخفّهم وأزعجهم.

الصوت: يطلق على الكلام كثيرا، لأن الكلام صوت من الفم، واستعير هنا لإلقاء الوسوسة في نفوس النّاس.

ويجوز أن يكون مستعملا هنا تمثيلا لحالة إبليس بحال قائد الجيش فيكون متصلا بقوله { وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ } كما سيأتي.

الإجلاب: جمع الجيش وسوقه، مشتق من الجَلَبة بفتحتين، وهي الصياح، لأنّ قائد الجيش إذا أراد جمع الجيش نادى فيهم للنفير أو للغارة والهجوم.

الخيل: اسم جمع الفرس. والمراد به عند ذكر ما يدل على الجيش الفرسان. ومنه قول النبيء ﷺ: " يا خيلَ الله اركبي". وهو تمثيل لحال صرف قوّته ومقدرته على الإضلال بحال قائد الجيش يجمع فرسانه ورجّالته.

والباء في { بِخَيْلِكَ } إما لتأكيد لصوق الفعل لمفعوله فهي لمجرد التأكيد. وإما لتضمين فعل { أَجْلِبْ } معنى (اغزهم)، فيكون الفعل مضمّنا معنى الفعل اللازم وتكون الباء للمصاحبة.

{ وَرَجِلِكَ } اسم جمع الرجال كصحب. وقد كانت جيوش العرب مؤلفة من رجّالة يقاتلون بالسيوف ومن كتائب فرسان يقاتلون بنضح النبال، فإذا التحموا اجتلدوا بالسيوف جميعا.

وقرأ حفص عن عاصم { وَرَجِلِكَ } (بكسر الجيم) ، وهو لغة في رجُل (مضموم الجيم)، وهو الواحد من الرجال. والمراد الجنس. والمعنى: بخيلك ورجالك، أي الفرسان والمشاة.

{ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ }

المشاركة في الأموال: أنّ يكون للشيطان نصيب في أموالهم وهي إنعامهم وزروعهم إذ سوّل لهم أن يجعلوا نصيبا في النتاج والحرث للأصنام. وهي من مصارف الشيطان، لأنّ الشيطان هو المسوّل للنّاس باتخاذها، قال { وَجَعَلُوا لِلَّهِ ممّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا } [الأنعام:136].

مشاركة الأولاد: هي أن يكون للشيطان نصيب في أحوال أولادهم مثل تسويله لهم أن يئدوا أولادهم وأن يستولدوهم من الزنى، وأنّ يسمّوهم بعبدة الأصنام، كقولهم: عبد العزى، وعبد اللات، وزيد مناة.

{ وَعِدْهُمْ } أعطهم المواعيد بحصول ما يرغبونه، كما يسوّل لهم بأنّهم إن جعلوا أولادهم للأصنام سلم الآباء من الثكل والأولاد من الأمراض، ويسوّل لهم أنّ الأصنام تشفع لهم عند الله في الدنيا، وتضمن لهم النصر على الأعداء، كما قال أبو سفيان يوم أحد: أعلُ هُبل . ومنه وعدهم بأنّهم لا يخشون عذابا بعد الموت لإنكار البعث، ووعد العصاة بحصول اللذات المطلوبة من المعاصي مثل الزنى والسرقة والخمر والمقامرة.

وحذف مفعول { وَعِدْهُمْ } للتعميم في الموعود به. والمقام دال على أنّ المقصود أن يعدهم بما يرغبون.

{ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً } اعتراض.

الغرور: إظهار الشيء المكروه في صورة المحبوب الحسن. وتقدّم عند قوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ } [آل عمران:196]، وقوله { زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً } [الأنعام:112].

والمعنى: أنّ ما سوّله لهم الشيطان في حصول المرغوب إمّا باطل لا يقع، مثل ما يسوّله للنّاس من العقائد الفاسدة، وكونه غرورا لأنّه إظهار لما يقع في صورة الواقع فهو تلبيس، وإمّا حاصل لكنه مكروه غير محمود بالعاقبة، مثل ما يسوّله للنّاس من قضاء دواعي الغضب والشهوة ومحبّة العاجل دون تفكير في الآجل، وكل ذلك لا يخلو عن مقارنة الأمر المكروه أو كونه آيلا إليه بالإضرار. وقد بسط هذا الغزالي في كتاب الغرور من كتاب (إحياء علوم الدين).

وإظهار اسم الشيطان دون أن يؤتى بضميره المستتر لأنّ هذا الاعتراض جملة مستقلّة فلو كان فيها ضمير عائد إلى ما في جملة أخرى لكان في النثر شبه عيب التضمين في الشعر، ولأن هذه الجملة جارية مجرى المثل فلا يحسن اشتمالها على ضمير ليس من أجزائها.

{ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً } [65]

من تمام الكلام المحكي بـ { قَالَ اذْهَبْ } [63]. وهي جملة مستأنفة استئنافا بيانيّا. فإنّ مفهوم { فَمَنْ تَبِعَكَ } و{ مَنِ اسْتَطَعْتَ } من قبيل مفهوم الصفة فيفيد أنّ فريقا من ذرّية آدم لا يتبع إبليس فلا يحتنكه.

وهذا المفهوم يفيد أنّ الله قد عصم أو حفظ هذا الفريق من الشيطان. فوقعت الإشارة إلى تعيين هذا الفريق بالوصف وبالسبب؛

فأمّا الوصف ففي قوله { **عِبَادِي** } المفيد أنّهم تمحّضوا لعبودية الله تعالى كما تدلّ عليه الإضافة، فعلم أنّ من عبدوا الأصنام والجنّ وأعرضوا عن عبودية الله تعالى ليسوا من أولئك.

وأمّا السبب ففي قوله { **وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً** } المفيد أنّهم توكّلوا على الله واستعاذوا به من الشيطان، فكان خير وكيل لهم إذ حاطهم من الشيطان وحفظهم منه.

{ **لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** } السلطان المنفي هو الحكم المستمّر بحيث يكونون رعيّته ومن جنده. وأمّا غيرهم فقد يستهويهم الشيطان ولكنّهم لا يلبثون أن يثوبوا إلى الصالحات، وكفاك من ذلك دوام توحيدهم لله، وتصديقهم رسوله، واعتبارهم أنفسهم عبادا لله متطلبين شكر نعمته، فشتان بينهم وبين أهل الشرك. وقد تقدّم معنى هذا عند قوله تعالى { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } [النحل: 99 - 100].

فالمؤمن لا يتولّى الشيطان أبدا ولكنّه قد ينخدع لوسواسه، وهو مع ذلك يلعنه فيما أوقعه فيه من الكبائر، وبمقدار ذلك الانخداع يقترب من سلطانه. وهذا معنى قول النبيء ﷺ في خطبة حجة الوداع: " إنّ الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا ولكنّه قد رضي بما دون ذلك ممّا تحقّرون من أعمالكم ".

{ **وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً** } يجوز أن تكون تكملة لتوبيخ الشيطان، فيكون كاف الخطاب ضمير الشيطان تسجيلا

عليه بأنّه عبد الله. ويجوز أن تكون معترضة في آخر الكلام فتكون كاف الخطاب ضمير النبيء ﷺ، تقريبا للنبيء بالإضافة إلى ضمير الله. ومآل المعنى على الوجهين واحد وإن اختلف الاعتبار.

{ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ أنّه كَانَ بِكُمْ رَحِيماً } [66]

استئناف ابتدائي وهو عود إلى تقرير أدلّة الانفراد بالتصريف في العالم المشوبة بما فيها من نعم على الخلق، والدالة بذلك الشوب على إتقان الصنع ومحكم التدبير لنظام هذا العالم وسيادة الإنسان فيه وعليه. ويشبه أن يكون هذا الكلام عودا إلى قوله { وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ } [11]، كما تقدّم هنالك فراجعه.

فلمّا جرى الكلام على الإنذار والتحذير أعقب هنا بالاستدلال على صحّة الإنذار والتحذير.

والخطاب لجماعة المشركين كما يقتضيه قوله عقبه { فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ } [67]، أي أعرضتم عن دعائه ودعوتم الأصنام.

{ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ } افتتحت الجملة بالمسند إليه معرّفا بالإضافة ومستحضرا بصفة الربوبيّة لاستدعاء إقبال السامعين على الخبر المؤذن بأهميّته، حيث افتتح بما يترقّب منه خبر عظيم لكونه من شؤون الإله الحقّ وخالق الخلق ومدبّر شؤونهم تدبير اللطيف الرحيم، فيوجب إقبال السامع بشراشره إن مؤمنا متذكّرا أو مشركا ناظرا متدبّرا. وجيء بالجملة الاسمية لدلالتها على الدوام والثبات.

وبتعريف طرفيها للدلالة على الانحصار، أي ربكم هو الذي يزجي لكم الفلك لا غيره ممن تعبدونه باطلا، وهو الذي لا يزال يفعل ذلك لكم.

يزجي: يسوق سوقا بطيئا. شبّه تسخير الفلك للسير في الماء بإزجاء الدابة المثقلة بالحمل.

الفلك: هنا جمع لا مفرد.

البحر: الماء الكثير فيشمل الأنهار، وتقدّم عند قوله تعالى { وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ } [البقرة:164].

الابتغاء: الطلب. و**الفضل**: الرزق، أي للتجارة. وتقدّم عند قوله تعالى { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ } [البقرة:198]. وهذا امتنان على النّاس كلّهم، مناسب لعموم الدعوة، لأنّ أهل مكّة ما كانوا ينتفعون بركوب البحر وإنّما ينتفع بذلك عرب اليمن وعرب العراق والنّاس غيرهم.

{ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً } تعليل وتنبيه لموقع الامتنان ليرفضوا عبادة غيره ممّا لا أثر له في هذه المنة.

{ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً } [67]

بعد أن ألزمهم الحجّة على حقّ إلهية الله تعالى بما هو من خصائص صنعه باعترافهم، أعقبه بدليل آخر من

أحوالهم المتضمّنة إقرارهم بانفراده بالتصرّف، ثم بالتعجيب من مناقضة أنفسهم عند زوال اضطرارهم.

{ **وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ** } خبر مستعمل في التقرير وإلزام الحجّة إذ لا يخبر أحد عن فعله إخبارا حقيقيا.

{ **فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ** } خبر مستعمل في التعجيب والتوبيخ.

ضرّ البحر: هو الإشراف على الغرق، لأنّه يزعج النفوس خوفا، فهو ضرّ لها.

{ **ضَلَّ** } من الضلال، وهو سلوك طريق غير موصلة للمقصود خطأ.

{ **مَنْ تَدْعُونَ** } العدول إلى الموصولية لما تؤذن به الصلة من عمل اللسان ليتأتي الإيجاز، أي من يتكرّر دعاؤكم إيّاهم، كما يدلّ عليه المضارع. فالمعنى غاب وانصرف ذكر الذين عادتكم دعاؤهم، فتعيّن أنّ ضلالهم هو ضلال ذكر أسمائهم، وهذا إيجاز بديع.

{ **إِلَّا إِيَّاهُ** } الاستثناء من عموم الموصول، لأنّ اسم الله ممّا يجري على ألسنتهم في الدعاء تارة كما تجري أسماء الأصنام، فالاستثناء متّصل.

ويجوز أن يكون اسم الموصول في قوله { مَنْ تَدْعُونَ } خاصا بأصنامهم لأنّهم يكثر دعاؤهم إيّاها دون اسم الله تعالى، كما هو مقتضى التجدّد فإذا اشتدّ بهم الضرّ دعوا الله كما قال تعالى { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ } [العنكبوت:65]. ويكون الاستثناء منقطعا. ولعلّ هذا الوجه أرجح لأنّه أنسب بقوله { أَعْرَضْتُمْ }.

الإعراض: الترك، أي تركتم دعاء الله، بقرينة الجمع بين مقتضى المضارع من إعادة التجدّد وبين مقتضى الاستثناء من انحصار الدعاء في الكون باسمه تعالى.

{ **إِلَى الْبَرِّ** } عدي بحرف (إلى) لتضمين { نَجَّاكُمْ } معنى أبلغكم وأوصلكم.

{ **وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً** } اعتراض وتذييل لزيادة التعجّب منهم ومن أمثالهم.

الكفور: صيغة مبالغة. أي كثير الكفر. والكفر ضدّ الشكر.

{ **الْإِنْسَانُ** } تعريف الجنس وهو مفيد للاستغراق. فهذا الاستغراق يجوز أن يكون استغراقا عرفيّا بحمله على غالب نوع الإنسان، وهم أهل الإشراك، وهم أكثر النّاس يومئذ، فتكون صيغة المبالغة من قوله {كَفُوراً} راجعة إلى قوّة صفة الكفران أو عدم الشكر، فإنّ أعلاه إشراك غير المنعم مع المنعم في نعمة لا حظّ له فيها. ويجوز أن يكون الاستغراق حقيقيا، أي كان نوع الإنسان كفورا، أي غير خال من الكفران، فتكون صيغة المبالغة راجعة إلى كثرة أحوال الكفران مع تفاوتها. وكثرة كفران الإنسان هي تكرّر إعراضه عن الشكر في موضع الشكر، ضلالا أو سهوا، أو غفلة لإسناده النعم إلى أسبابها المقارنة دون منعمها، ولفرضه منعمين وهميين لا حظ لهم في الإنعام.

{ **وَكَانَ** } إشارة إلى أنّ الكفران مستقر في جبلّة هذا الإنسان. لأنّ الإنسان قلّما يشعر بما وراء عالم الحس، فإنّ الحواس تشغله بمدركاتها عن التفكّر فيما عدا ذلك من المعاني المستقرّة في الحافظة والمستنبطة بالفكر. ولمّا كان الشكر على النعمة متوقفا على تذكر النعمة كانت شواغله عن تذكر النعم الماضية مغطية عليها، ولأنّ مدركات الحواس منها الملائم للنفس وهو الغالب، ومنها المنافر لها. فالإنسان إذا أدرك الملائم لم يشعر بقدرة عنده لكثرة تكرره حتّى صار عادة فذهل عما فيه من نفع، فإذا أدرك المنافر استذكر فقدان الملائم فضج وضجر. وهو معنى قوله تعالى { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ } [فصلت:51]. ومن أجل ذلك كان من آداب النفس في الشريعة تذكيرها بنعم الله، قال تعالى {وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ } [ابراهيم:5] ليقوم ذكر النعمة مقام معاهدتها.

{ **أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً** [68] **أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً** } [69].

تفريع على جملة { أَعْرَضْتُمْ } [67]، وما بينهما اعتراض. وفرّع الاستفهام التوبيخي على إعراضهم عن الشكر وعودهم إلى الكفر.

الخسف: انقلاب ظاهر الأرض في باطنها من الزلزال. وتقدّم في قوله { أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ } [النحل:45].

وفي هذا تنبيه على أنّ السلامة في البرّ نعمة عظيمة تنسونها فلو حدث لكم خسف لهلكتم هلاكا لا نجاة لكم منه بخلاف هول البحر. ولكن لمّا كانت السلامة في البرّ غير مدرك قدرها قلّ أن تشعر النفوس بنعمتها، وتشعر بخطر هول البحر، فينبغي التدرّب على تذكّر نعمة السلامة من الضرّ.

{ **أَفَأَمِنْتُمْ** } الاستفهام إنكاري وتوبيخي.

الجانب: هو الشقّ. وجعل البرّ جانبا لإرادة الشقّ الذي ينجيهم إليه، وهو الشاطئ الذي يرسون عليه، إشارة إلى إمكان حصول الخوف لهم بمجرد حلولهم بالبرّ بحيث يخسف بهم ذلك الشاطئ، أي أنّ البرّ والبحر في قدرة الله تعالى سيّان، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في البرّ والبحر.

الحاصب: الرامي بالحصباء، وهي الحجارة. يقال: حصبه، وهو هنا صفة، أي يرسل عليكم عارضا حاصبا، تشبيها له بالذي يرمي الحصباء، أي مطر حجارة، أي برد يشبه الحجارة.

الوكيل: الموكَل إليه القيام بمهم مُوَكِّله، والمدافع عن حقّ مُوَكِّله، أي لا تجدوا لأنفسكم من يجادلنا عنكم أو يطالبنا بما ألحقناه بكم من الخسف أو الإهلاك بالحاصب. وهذا المعنى مناسب لما يقع في البرّ من الحدثان.

{ **أَمْ أَمِنْتُمْ** } عاطفة الاستفهام، وهي للإضراب الانتقالي، أي بل أمنتم، فالاستفهام مقدّر مع (أم) لأنّها خاصة به. أي: أو هل كنتم آمنين من العود إلى ركوب البحر مرة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح.

{ **أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ** } أن يوجد فيكم الدواعي إلى العود تهيئة لإغراقكم وإرادة للانتقام منكم. كما يدلّ عليه السياق وتفريع { فَيُرْسِلَ } عليه.

التارة: المرّة المتكرّرة، قيل عينه همزة ثم خفّفت لكثرة الاستعمال. مثل: فأس وفاس، وكأس وكاس.

القاصف: التي تقصف، أي تكسر. وأصل القصف: الكسر. وغلب وصف الريح به، فعومل معاملة الصفات المختصّة بالمؤنث فلم يلحقوه علامة التأنيث، مثل {عَاصِفٌ} في قوله { جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ } [يونس:22].

والمعنى: فيرسل عليكم ريحا قاصفا، أي تقصف الفلك، أي تعطبه بحيث يغرق، ولذلك قال { فَيُغْرِقَكُمْ }.

{ **بما كفرتم** } الباء للسببيّة. و(ما) مصدريّة، أي بكفركم، أي شرككم.

{ **ثُمَّ** } للترتيب الرتبي كشأنها في عطفها الجمل. وهو ارتقاء في التهديد بعدم وجود منقذ لهم، بعد تهديدهم بالغرق لأنّ الغريق قد يجد منقذا.

التبيع: مبالغة في التابع، أي المتتبّع غيره المطالب لاقتضاء شيء منه. أي لا تجدوا من يطالب لكم بثأر. وضمير(به) عائد إمّا إلى الإغراق المفهوم من { يُغْرِقَكُمْ } ،وإمّا إلى المذكور من إرسال القاصف وغيره.

{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً } [70].

اعتراض جاء بمناسبة العبرة والمنّة على المشركين، فاعترض بذكر نعمته على جميع النّاس فأشبه التذييل.

{ **بَنِي آدَمَ** } جميع النوع، فالأوصاف المثبتة هنا إنّما هي أحكام للنوع من حيث هو، كما هو شأن الأحكام التي تسند إلى الجماعات.

وقد جمعت الآية خمس منن: التكريم، وتسخير المراكب في البر، وتسخير المراكب في البحر، والرزق من الطيّبات، والتفضيل على كثير من المخلوقات.

فأمّا منّة التكريم فهي مزيّة خصّ بها الله بني آدم من بين سائر المخلوقات الأرضيّة.

{ **كَرَّمْنَا** } جعله كريما، أي نفيسا غير مبذول ولا ذليل في صورته ولا في حركة مشيه وفي بشرته، فإنّ جميع الحيوان لا يعرف النظافة ولا اللباس ولا ترفيه المضجع والمأكل، ولا حسن كيفية تناول الطعام والشراب، ولا الاستعداد لما ينفعه ودفع ما يضرّه ولا شعوره بما في ذاته وعقله من المحاسن فيستزيد منها، والقبائح فيسترها ويدفعها، بله الخلو عن المعارف والصنائع وعن قبول التطور في أساليب حياته وحضارته.

{ **وَحَمَلْنَاهُمْ** } الوضع على المركب من الرواحل. فالراكب محمول على المركوب. وأصله في ركوب البرّ،

وذلك بأنّ سخّر لهم الرواحل وألهمهم استعمالها.

وأمّا الحمل في البحر فهو الحصول في داخل السفينة. وإطلاق الحمل على ذلك استعارة من الحمل على الراحلة وشاعت حتّى صارت كالحقيقة، قال تعالى { إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } [الحاقة:11].

ومعنى حمل الله النّاس في البحر: إلهامه إيّاهم استعمال السفن والقلوع والمجاذيف، فجعل تيسير ذلك كالحمل.

{ **وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** } لأنّ الله تعالى ألهم الإنسان أن يطعم ما يشاء ممّا يروق له، وجعل في الطعوم أمارات على النفع، وجعل ما يتناوله الإنسان من الطعومات أكثر جدًّا ممّا يتناوله غيره من الحيوان.

{ **وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** } المراد به التفضيل المشاهد لأنّه موضع الامتنان. وذلك الذي جِماعه تمكين الإنسان من التسلّط على جميع المخلوقات الأرضية برأيه وحيلته.

والفرق بين التفضيل والتكريم بالعموم والخصوص؛ فالتكريم منظور فيه إلى تكريمه في ذاته، والتفضيل منظور فيه إلى تشريفه فوق غيره، على أنّه فضّله بالعقل الذي به استصلاح شؤونه ودفع الأضرار عنه وبأنواع المعارف والعلوم. هذا هو التفضيل المراد.

وأما نسبة التفاضل بين نوع الإنسان وأنواع من الموجودات الخفي عنا كالملائكة والجنّ فليست هنا وإنّما تعرف بأدلة توقيفية من قبل الشريعة.

{ **تَفْضِيلاً** } الإتيان بالمفعول المطلق لإفادة ما في التنكير من التعظيم أي تفضيلا كبيرا.

{ **يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً [71] وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً** } [72].

انتقال من غرض التهديد بعاجل العذاب في الدنيا الذي في قوله { رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ - إلى قوله - ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً } [66 - 69] إلى ذكر حال النّاس في الآخرة تبشيرا وإنذارا. فالكلام استئناف ابتدائي، والمناسبة ما علمت.

{ **يَوْمَ** } تخلّص من ذكر التفضيل إلى ذكر اليوم الذي تظهر فيه فوائد التفضيل، فترجّح أنّه ابتداء مستأنف استئنافا ابتدائيا، ففتحة { يَوْمَ } إمّا فتحة إعراب على أنّه مفعول به لفعل شائع الحذف في ابتداء العبر القرآنيّة وهو فعل (اذكر) فيكون { يَوْمَ } هنا اسم زمان مفعولا للفعل المقدّر وليس ظرفا.

وإمّا أن تكون فتحته فتحةَ بناء لإضافته اسم الزمان إلى الفعل، وهو إمّا في محل رفع بالابتداء، وخبره جملة { فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ }. وإمّا ظرف لفعل محذوف دلّ عليه التقسيم الذي بعده.

{ **نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ** } أن يُدعى يا أمّة فلان ويا أتباع فلان، مثل: يا أمّة محمد، يا أمّة موسى، يا أمّة عيسى، ومثل: يا عبدة العزى، يا عبدة بعل ، يا عبدة نسر.

{ **بِإِمَامِهِمْ** } الباء لتعدية فعل { نَدْعُو } لأنّه يتعدى بالباء، يقال: دعوته بكنيته وتداعوا بشعارهم.

الإمام: ما يؤتمّ به، أي يعمل على مثل عمله أو سيرته. والمراد به هنا مبيّن الدِّين، من دين حقٍّ للأمم المؤمنة ومن دين كفرٍ وباطلٍ للأمم الضالة.

وفائدة ندائهم بمتبوعيهم التعجّل بالمسرّة لاتباع الهداة، وبالمساءة لاتباع الغواة، لأنّهم إذا دعوا بذلك رأوا متبوعيهم في المقامات المناسبة لهم فعلموا مصيرهم.

{ **فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ** } تفريع التفصيل لما أجمله قوله { نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ } أي كتاب أعماله بيمينه. وإيتاء الكتاب باليمين إلهام صاحبه إلى تناوله باليمين. وتلك علامة عناية بالمأخوذ، لأنّ اليمين يأخذ بها من يعزم عملا عظيما قال تعالى { لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ } [الحاقة:45]، وقال النبيء ﷺ:" من تصدّق بصدقة من كسب طيبا، ولا يقبل الله طيبا، تلقّاها الرحمان بيمينه وكلتا يديه يمين ".

وأمّا أهل الشقاوة فيؤتَون كتبهم بشمائلهم،كما في قوله تعالى { وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ } [الحاقة:25].

{ **فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً** } والإتيان باسم الإشارة بعد فاء جواب (أمّا) للتنبيه على أنّهم دون غيرهم يقرؤون كتابهم، لأنّ في اطلاعهم على ما فيه من فعل الخير والجزاء عليه مسرّة لهم. وأمّا الفريق الآخر فسكت عن قراءة كتابهم هنا وورد في الآية التي قبلها في هذه السورة { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً } [13 – 14].

{ **وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً** } الظلم مستعمل هنا في معنى النقص كما في قوله تعالى { كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتتَ أُكُلَهَا وَلَمِ تظْلِمَ مِنْهُ شَيْئًا } [الكهف:33]. لأنّ غالب الظلم يكون بانتزاع بعض ما عند المظلوم.

الفتيل: شبه الخيط يكون في شق النواة. وهو مثَل للشيء الحقير التافه.

{ **وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً** } ولمّا كان القسيم المعطوف عليه هم من أوتوا كتابهم باليمين عُلم أنّ المعطوف بضدّ ذلك يؤتى كتابه بالشمال، فاستغنى عن ذكر ذلك وأوتي له بصلة أخرى وهي كونه أعمى.

{ **فِي هَذِهِ** } الإشارة إلى معلوم من المقام وهو الدنيا، وله نظائر في القرآن.

والمراد بالعمى في الدنيا الضلالة في الدين، وهي استعارة. والمراد بالعمى في الآخرة ما ينشأ عن العمى من الحيرة و اضطراب البال.

{ **وَأَضَلُّ سَبِيلاً** } قائم مقام صيغة التفضيل في (العمى). وعدل عن لفظ: أشدّ ونحوه ما يتوسّل به إلى التفضيل عند تعذّر اشتقاق صيغة (أفعل) ليتأتى ذكر السبيل. لما في الضلال عن السبيل من تمثيل حال العمى وإيضاحه، لأنّ ضلال فاقد البصر عن الطريق في حال السير أشدّ وقعا في الإضرار منه وهو قابع

بمكانه، فعدل عن اللفظ الوجيز إلى التركيب المطنب لما في الإطناب من تمثيل الحال وإيضاحه وإفظاعه وهو إطناب بديع.

فالمعنى: وأضل سبيلا منه في الدنيا. ووجه كون ضلاله في الآخرة أشدّ، أنّ ضلاله في الدنيا كان في مكنته أن ينجو منه بطلب ما يرشده إلى السبيل الموصل من هدي الرسول والقرآن. وأمّا ضلاله في الآخرة فهو ضلال لا خلاص منه وهو مقارن للعذاب الدائم. فلا جرم كان ضلاله في الآخرة أدخل في حقيقة الضلال وماهيته.

{ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً } [73].

حكاية فنّ من أفنين ضلالهم وعماهم في الدنيا، فالجملة عطف على جملة { وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى } [72]. وهو انتقال من وصف حالهم وإبطال مقالهم في تكذيب النبيء ﷺ إلى ذكر حال آخر من حال معارضتهم وإعراضهم، وهي حال طمعهم في أن يستنزلوا النبيء ﷺ لأن يقول قولًا فيه حسن ذكر لألهتهم ليتنازلوا إلى مصالحته وموافقته إذا وافقهم في بعض ما سألوه.

وضمائر الغيبة مراد منها كفار قريش، أي متولُّو تدبير أمورهم.

وغير الأسلوب من خطابهم إلى الإقبال على خطاب النبيء ﷺ لتغيّر المقام، من مقام استدلال إلى مقام امتنان.

{وَإِنْ كَادُوا } (إن) مخفّفة من (إنّ) المشدّدة واسمها ضمير شأن محذوف، واللام في { لَيَفْتِنُونَكَ } هي اللام الفارقة بين (إن) المخففة من الثقيلة وبين (إن) النافية فلا تقتضي تأكيدا للجملة.

{ لَيَفْتِنُونَكَ } الفتن والفتون: معاملة يلحق منها ضرّ واضطراب النفس في أنواع من المعاملة يعسر دفعها، من تغلّب على القوّة وعلى الفكر، وتقدّم في قوله تعالى { وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ } [البقرة:191].

{ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } عدّي { يَفْتِنُونَكَ } بحرف (عن) لتضمينه معنى فعل كان الفتن لأجله، وهو ما فيه معنى(يصرفونك). والذي أوحي إليه هو القرآن.

هذا هو الوجه في تفسير الآية بما تعطيه معاني تراكيبها مع ملاحظة ما تقتضيه أدلّة عصمة الرسول ﷺ من أن تتطرق إليه خواطر إجابة المشركين لما يطمعون.

وللمفسرين بضعة محامل أخرى لهذه الآية استقصاها القرطبي، فمنها ما ليس له حظ من القبول لوهن سنده وعدم انطباقه على معاني الآية، ومنها ما هو ضعيف السند وتتحمله الآية بتكلّف. ومرجع ذلك إلى أنّ المشركين راودوا النبيء ﷺ أن لا يسوّيهم مع من يعدّونهم منحطّين عنهم من المؤمنين المستضعفين عندهم مثل: بلال، وعمار بن ياسر، وخباب، وصهيب، وأنّهم وعدوا النبيء إن هو فعل ذلك بأن يجلسوا إليه

ويستمعوا القرآن حين لا يكون فيه تنقيص آلهتهم، وأنّ رسول الله همّ بأن يظهر لهم بعض اللين رغبة في إقبالهم على سماع القرآن لعلّهم يهتدون. فيكون المراد من { الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } بعض الذي أوحينا إليك، وهو ما فيه فضل المؤمنين مثل قوله { وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ } [الأنعام:52] أو ما فيه تنقيص الأصنام.

وإذ قد ملئت بها كتب التفسير لم يكن بدّ من تأويل الآية بأمثل ما يناسب تلك الأخبار لئلا تكون فتنة للناظرين فنقول: إنّ رغبة النبيء ﷺ في اقترابهم من الإسلام وفي تأمين المسلمين، أجالت في خاطره أن يجيبهم إلى بعض ما دعوه إليه ممّا يرجع إلى تخفيف الإغلاظ عليهم أو أنظارهم، أو إرضاء بعض أصحابه بالتخلي عن مجلسه حين يحضره صناديد المشركين وهو يعلم أنّهم ينتدبون إلى ذلك لمصلحة الدين أو نحو ذلك ممّا فيه مصلحة لنشر الدين، وليس فيه فوات شيء على المسلمين.

أي كادوا يصرفونك عن بعض ما أوحيناه إليك ممّا هو مخالف لما سألوه.

{ **الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** } الموصول للعهد لما هو معلوم عند النبيء ﷺ بحسب ما سأله المشركون من مخالفته.

فهذه الآية مسوقة مَساق المنّ على النبيء بعصمة الله إيّاه من الخطأ في الاجتهاد، ومَساق إظهار ملل المشركين من أمر الدعوة الإسلامية وتخوّفهم من عواقبها. وفي ذلك تثبيت للنبيء وللمؤمنين وتأييس للمشركين بأنّ ذلك لن يكون.

{ **لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ** } متعلق بـ { يَفْتِنُونَكَ } ، واللام للعلّة، أي يفعلون ذلك إضمارا منهم وطمعا في أن يفتري علينا غيره، أي غير ممّا أوحي إليك. وهذا طمع من المشركين أن يستدرجوا النبيء من سؤال إلى آخر، فهو راجع إلى نيّاتهم. وليس في الكلام ما يقتضي أنّ النبيء ﷺ همّ بذلك، كما فهمه بعض المفسرين. إذ لام التعليل لا تقتضي أكثر من غرض فاعل الفعل المعلّل ولا تقتضي غرض المفعول ولا علمه.

{ **وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً** } عطف على { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ }. ووجه عطفها بالواو دون الاقتصار على حرف الجزاء لأنّه باعتبار كونه من أحوالهم التي حاوروا النبيء ﷺ فيها وألحوا عليه ناسب أن يعطف على جملة أحوالهم. والتقدير: فلو صرفوك عن بعض ما أوحينا إليك لاتخذوك خليلا.

الخليل: الصديق. وتقدّم عند قوله تعالى { وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً } [النساء:125].

{ وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً [74] إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً } [75]

يجوز أن يكون هذا كلاما مستقلّا غير متّصل بقوله { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ } [73] بناء على ما نحوناه في تفسير الآية السابقة. وهذه منّة أخرى ومقام آخر من مقام رسول الله ﷺ تجاه المشركين.

ويجوز أن يكون من تكملة ما قبله فيكون الركون إليهم ركونا فيما سألوه منه على نحو ما ساقه المفسرون من الأخبار المتقدّمة.

{ **لَوْلا**} حرف امتناع لوجود، أي يقتضي امتناع جوابه لوجود شرطه.

{ **ثَبَّتْنَاكَ** } والتثبيت جعل الشيء ثابتا، أي متمكّنا من مكانه غير مقلقل ولا مقلوع. وهو مستعار للبقاء على حاله غير متغير. وتقدّم عند قوله تعالى { وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ } [البقرة:265].

وعدّي التثبيت إلى ضمير النبيء الدال على ذاته. والمراد تثبيت فهمه ورأيه. وهذا من الحكم على الذات. والمراد بعض أحوالها بحسب دلالة المقام، مثل { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ } [النساء:23]. فالمعنى: ولولا أن ثبتنا رأيك فأقررناه على ما كان عليه في معاملة المشركين لقاربت أن تركن إليهم.

{ **لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً** } يجوز أن تكون اللام لام جواب لولا ، وهي ملازمة لجوابها لتحقيق الربط بينه وبين الشرط. والمعنى على الوجه الأول في موقع هذه الآية: أنّ الركون مجمل في أشياء هي مظنّة الركون ولكن الركون منتف من أصله لأجل التثبيت بالعصمة كما انتفى أن يفتنه المشركون عن الذي أوحي إليه بصرف الله إياهم عن تنفيذ فتنتهم.

والمعنى على الوجه الثاني: ولولا أن عصمناك من الخطأ في الاجتهاد وأريناك أنّ مصلحة الشدّة في الدين والتنويه بأتباعه، ولو كانوا من ضعفاء أهل الدنيا، لا تعارضها مصلحة تأليف قلوب المشركين، ولو كان المسلمون راضين بالغضاضة من أنفسهم استئلافا للمشركين، فإنّ إظهار الهوادة في أمر الدين تُطمع المشركين في الترقّي إلى سؤال ما هو أبعد مدى ممّا سألوه، فمصلحة ملازمة موقف الحزم معهم أرجح من مصلحة ملاينتهم وموافقتهم، أي فلا فائدة من ذلك. ولولا ذلك كله لقد كدت تركن إليهم قليلا، أي تميل إليهم.

الركون: الميل بالركن، أي بالجانب من الجسد واستعمل في الموافقة بعلاقة القرب. وتقدّم في قوله { وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا } [هود :113] كما استعمل ضدّه في المخالفة في قوله تعالى { وإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ }.

فركون النبيء ﷺ إليهم غير واقع ولا مقارب الوقوع لأنّ الآية قد نفته بأربعة أمور، وهي: لولا الامتناعية. وفعل المقاربة المقتضي أنّه ما كان يقع الركون ولكن يقع الاقتراب منه، والتحقير المستفاد من {شَيْئاً} ، والتقليل المستفاد من {قَلِيلاً }.

{ **إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ** }

{ **إِذاً** } الثانية جزاء لـ { كِدْتَ تَرْكَنُ } ولكونها جزاء فصلت عن العطف إذ لا مقتضى له.

والمعنى: لو تركن إليهم لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات.

الضِعف (بكسر الضاد): مماثل مقدار شيء ذي مقدار. وأطلق هنا على القويّ الشديد لعدم حمل الضعف على

حقيقته إذ ليس ثمّ علم بمقدار العذاب يراد تضعيفه كقوله { فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ } في سورة الأعراف.
وإضافة الضعف إلى الحياة وإلى الممات على معنى (في). فالتقدير: لأذقناك ضعفا في الحياة وضعفا في الممات، فضعف عذاب الحياة هو تراكم المصائب والأرزاء في مدة الحياة، وضعف عذاب الممات أن يموت مكمودا مستذلّا.
ويشبه أن يكون قوله { وَضِعْفَ الْمَمَاتِ } في استمرار ضعف الحياة، فيكون المعنى: لأذقناك ضعف الحياة حتّى الممات. فليس المراد من ضعف الممات عذاب الآخرة لأنّ النبيء ﷺ لو ركن إليهم شيئا قليلا لكان ذلك عن اجتهاد واجتلابا لمصلحة الدين في نظره، فلا يكون على الاجتهاد عقاب في الآخرة إذ العقاب الأخروي لا يكون إلّا على مخالفة في التكليف، وقد سوغ الله لنبيه الاجتهاد وجعل للمخطئ في اجتهاده أجرا كما قُرّر في تفسير قوله تعالى { لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [ألأنفال:68].
وأمّا مصائب الدنيا وأرزاؤها فهي مسبّبة على أسباب من الأغلاط والأخطاء فلا يؤثر في التفادي منها حسن النيّة إن كان صاحبها قد أخطأ وجه الصواب، فتدبر في هذه المعاني تدبر ذوي الألباب. ولهذا خولف التعبير المعتاد استعماله لعذاب الآخرة. وعبّر هنا بـ { ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ }.
{ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً } معطوفة على جملة { لَأَذَقْنَاكَ }.
النصير: الناصر المخلّص من الغلبة أو الذي يثأر للمغلوب، أي لا تجد لنفسك من ينتصر لك.

{ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً [76] سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً } [77].
عطف على جملة { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ } [3] تعدادا لسيّئات أعمالهم. والضمائر متّحدة.
الاستفزاز: الحمل على الترحّل، وهو استفعال من فزَّ بمعنى بارح المكان، أي كادوا أن يسعوا أن تكون خارجا من مكّة. وتقدّم معنى هذا الفعل عند قوله { وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ } [64]. والمعنى: كادوا أن يخرجوك من بلدك. وذلك بأن همّوا بأن يخرجوه كرها ثم صرفهم الله عن ذلك، لأنّهم ارتأوا بعد زمان أن يبقوه بينهم حتّى يقتلوه.
{ مِنَ الْأَرْضِ } تعريف للعهد، أي من أرضك وهي مكّة.
{ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا } تعليل للاستفزاز، أي استفزازا لقصد الإخراج.
{ وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً } عطف على جملة { وَإِنْ كَادُوا } . أو هي اعتراض في آخر الكلام، فتكون الواو للاعتراض و(إذا) ظرفا لقوله { لا يَلْبَثُونَ } وهي (إذا) الملازمة الإضافة إلى الجملة.
ويجوز أن يكون (إذا) حرف جواب وجزاء لكلام سابق، وهي التي نونها حرف من الكلمة ولكن كثرت

كتابتها بألف في صورة الاسم المنون. والتقير: وإذا أخرجوك أو وإذا خرجت لا يلبثون خلفك إلّا قليلا.
وقرأ الجمهور { خَلفَكَ } أريد به بعدك. وأصل الخلف الوراء فاستعمل مجازا في البعدية، أي لا يلبثون بعدك. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص، وخلف { خِلافَكَ } وهو لغة في خلف. وتقدّم عند قوله تعالى { بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ } [التوبة:81].
اللبث: الاستقرار في المكان، أي لا يستقرّون في مكّة بل يخرجون منها فلا يرجعون. وقد خرج رسول الله ﷺ بعد ذلك مهاجرا وكانوا السبب في خروجه فكأنّهم أخرجوه، فلم يلبث الذين تسببوا في إخراجه وألّبوا عليه قومهم بعده إلّا قليلا ثم خرجوا إلى وقعة بدر فلقوا حتفهم هنالك فلم يرجعوا وحقّ عليهم الوعيد، وأبقى الله عامّتهم ودهماءهم لضعف كيدهم فأراد الله أن يدخلوا في الإسلام بعد ذلك.
وفي الآية إيماء إلى أنّ الرسول سيخرج من مكّة وأن مخرجيه، أي المتسببين في خروجه، لا يلبثون بعده بمكة إلّا قليلا.
{ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا }
السنّة: العادة والسيرة التي يلتزمها صاحبها. وتقدّم القول في أنّها اسم جامد أو اسم مصدر عند قوله { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ } [آل عمران:136]، أي عادة الله في كل رسول أخرجه قومه أن لا يبقوا بعده، خرج هود من ديار عاد إلى مكّة، وخرج صالح من ديار ثمود، وخرج إبراهيم ولوط، وهلكت أقوامهم.
والتقدير: سَنَنَّا ذلك لمن أرسلنا قبلك من رسلنا، أي لأجلهم. وإنّما سنّ الله هذه السنّة لرسله لأنّ تآمر الأقوام على إخراجهم يستدعي حكمة الله تعالى لأن تتعلق إرادته بأمره إيّاهم بالهجرة لئلا يبقوا مرموقين بعين الغضاضة بين قومهم وأجوارهم بشبه ما كان يسمّى بالخلع عند العرب.
{ وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً } اعتراض لتكملة البيان. والمعنى: أنّ ذلك كائن لا محالة لأنّنا أجريناه على الأمم السالفة ولأنّ عادتنا لا تتحول.
{ وَلا تَجِدُ } مبالغة في الانتفاء كما في قوله { وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } [الأعراف:117].
التحويل: تغيير الحال وهو التبديل.

{ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً } [78].
كان شرع الصلوات الخمس للأمّة ليلة الإسراء، كما ثبت في الحديث الصحيح، ولكنّه كان غير مثبت في التشريع المتواتر إنّما أبلغه النبيء أصحابه فيوشك أن لا يعلمه غيرهم ممن يأتي من المسلمين. وأيضا فقد عيّنت الآية أوقاتا للصلوات بعد تقرّر فرضها، فلذلك جاءت هذه الآية في هذه السورة التي نزلت عقب حادث الإسراء جمعا للتشريع الذي شرّع للأمّة أيّامئذ المبتدأ بقوله تعالى { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } [23].

فالجملة استئناف ابتدائي. ومناسبة موقعها عقب ما قبلها أنّ الله لمّا امتنّ على النبيء ﷺ بالعصمة وبالنصر ذكَّره بشكر النعمة بأن أمره بأعظم عبادة يعبده بها، وبالزيادة منها طلبا لازدياد النعمة عليه، كما دلّ عليه قوله في آخر الآية { عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً } [79].

فالخطاب بالأمر للنبيء ﷺ، ولكن قد تقرّر من اصطلاح القرآن أنّ خطاب النبيء بتشريع تدخل فيه أمّته إلّا إذا دلّ دليل على اختصاصه بذلك الحكم، وقد علم المسلمون ذلك وشاع بينهم بحيث ما كانوا يسألون عند اختصاص حكم إلّا في مقام الاحتمال القويّ، كمن سأله: ألنا هذه أم للأبد؟ فقال: بل للأبد.

الإقامة: مجاز في المواظبة والإدامة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ } [البقرة:3].

{ **لِدُلُوكِ الشَّمْسِ** } اللام لام التوقيت. وهي بمعنى(عند).

الدلوك: من أحوال الشمس. فورد بمعنى زوال الشمس عن وسط قوس فرضي في طريق مسيرها اليومي. وورد بمعنى: ميل الشمس عن مقدار ثلاثة أرباع القوس وهو وقت العصر. وورد بمعنى غروبها. فصار لفظ الدلوك مشتركا في المعاني الثلاثة.

الغسق: الظلمة، وهي انقطاع بقايا شعاع الشمس حين يماثل سواد أفق الغروب سواد بقية الأفق وهو وقت غيبوبة الشفق. وذلك وقت العشاء. ويسمى العتمة، أي الظلمة.

وقد جمعت الآية أوقاتا أربعة، فالدلوك يجمع ثلاثة أوقات باستعمال المشترك في معانيه. والقرينة واضحة. وفهم من حرف (إلى) الذي للانتهاء أن في تلك الأوقات صلوات لأنّ الغاية كانت لفعل { أَقِمِ الصَّلاةَ } فالغاية تقتضي تكرر إقامة الصلاة. وليس المراد غاية الصلاة واحدة جعل وقتها متسعا. وقد زاد عمل النبيء ﷺ بيانا للآية.

وأمّا مقدار الاتساع فيعرف من أدلة أخرى وفيه خلاف بين الفقهاء. فكلمة (دلوك) لا تعادلها كلمة أخرى. وقد ثبت في حديث أبي مسعود الأنصاري في الموطأ: أنّ أوّل الوقت هو المقصود. وثبت في حديث عطاء بن يسار مرسلا في الموطأ وموصولا عن أنس ابن مالك عند ابن عبد البر وغيره: أنّ للصبح وقتا له ابتداء ونهاية. وهو أيضا ثابت لكل صلاة بآثار كثيرة عدا المغرب فقد سكت عنها الأثر، فتردّدت أنظار الفقهاء فيها بين وقوف عند المروي وبين قياس وقتها على أوقات غيرها. وهذا الثاني أرجح، لأنّ امتداد وقت الصلاة توسعة على المصلّي وهي تناسب تيسير الدين.

{ **إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ** } جعل الغسق نهاية للأوقات، فعلم أنّ المراد أوّل الغسق كما هو الشان المتعارف في الغاية بحرف (إلى) فعلم أن ابتداء الغسق وقت صلاة، وهذا جمع بديع.

{ **وَقُرْآنَ الْفَجْرِ** } عطف على { الصَّلاةَ } .والتقدير: وأقم قرآن الفجر، أي الصلاة به. كذا قدّر القراء وجمهور المفسرين ليعلم أنّ لكل صلاة من تلك الصلوات قرآنا كقوله { فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ }

[المزمل:20]،أي صلوا به نافلة الليل.
وخُصَّ ذكر ذلك بصلاة الفجر دون غيرها لأنّها يُجهر بالقرآن في جميع ركوعها، ولأنّ سنّتها أن يُقرأ بسور من طوال المفصّل، فاستماع القرآن للمأمومين أكثر فيها وقراءته للإمام والفذ أكثر أيضا.
ويجوز أن يكون عطف جملة والكلام على الإغراء، والتقدير: والزم قرآن الفجر، قاله الزجاج. فيُعلم أنّ قراءة القرآن في كلّ صلاة حتم.
وهذا مجمل في كيفيّة الصلوات. ومقادير ما تشتمل عليه من القرآن بيّنته السنّة المتواترة والعرف في معرفة أوقات النهار والليل.
{ **إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودا** } استئناف بياني لوجه تخصيص صلاة الصبح باسم القرآن، بأنّ صلاة الفجر مشهودة، أي محضورة. وفُسّر ذلك بأنّها تحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار، كما ورد في الحديث: "وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح". وذلك زيادة في فضلها وبركتها.

{ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً } [79]

{ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ** } قدّم المجرور المتعلّق بـ (تهجد) على متعلّقه اهتماما به وتحريضا عليه. وبتقديمه اكتسب معنى الشرط والجزاء فجعل متعلقه بمنزلة الجزاء فأدخلت عليه فاء الجزاء. وهو استعمال فصيح.
ومنه قوله تعالى { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } [المطففين:26]، وقول النبيء ﷺ: " ففيهما فجاهد ".
التهجّد: الصلاة في أثناء الليل. وهو اسم مشتق من الهجود. وهو النوم فمادة (التفعّل) للإزالة مثل التحرّج.
{ **بِهِ** } الضمير للقرآن المذكور في قوله { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ } [78]، والباء للسببيّة.
النافلة: الزيادة من الأمر المحبوب.
{ **لَكَ** } متعلقة بـ { نَافِلَةً } وهي لام العلة. أي نافلة لأجلك. وفي هذا دليل على أنّ الأمر بالتهجّد خاصّ بالنبيء ﷺ فالأمر للوجوب. وبذلك انتظم في عداد الصلوات الواجبة، فبعضها واجب عليه وعلى الأمّة، وبعضها واجب عليه خاصة. ويعلم منه أنّه مرغّب فيه كما صرّحت به آية { إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ - إلى قوله - فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ } [المزمل:20].
وفي هذا الإيجاب عليه زيادة تشريف له. ولهذا أعقب بوعد أن يبعثه الله مقاما محمودا.
{ **عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً** } تعليل لتخصيصه بإيجاب التهجّد عليه.
{ **عَسَى** } الرجاء من الله تعالى وعد. فالمعنى: ليبعثك ربك مقاما محمودا.
المقام: محلّ القيام. والمراد به المكان المعدود لأمر عظيم، لأنّه من شأنه أن يقوم النّاس فيه ولا يجلسوا. وإلا فهو المجلس.

{ **مَحْمُوداً** } وصف المقام بالمحمود وصف مجازي. والمحمود من يقوم فيه. أي يحمد أثره فيه. وذلك لغنائه عن أصحاب ذلك المقام. ولذلك فسر المقام المحمود **بالشفاعة العظمى**.

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر:" أن النّاس يصيرون يوم القيامة جُثاً (بضم الجيم وتخفيف المثلّثة، أي جماعات) كلّ أمة تتبع نبيّها يقولون: يا فلان اشفع! حتى تنتهي الشفاعة إلى النبيء فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود". وفي جامع الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله : { عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً } قال: هي الشفاعة ". قال: هذا حديث حسن صحيح .

وقد ورد وصف الشفاعة في صحيح البخاري مفصّلا. وذلك مقام يحمده فيه كلّ أهل المحشر.

{ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً} [80]

لمّا وعده بأن يقيمه مقاما محمودا ناسب أن يسأل أن يكون ذلك حاله في كل مقام يقومه. وفي هذا التلقين إشارة إلهية أنّ الله تعالى مخرجه من مكّة إلى مهاجَر. والظاهر أنّ هذه الآية نزلت قبيل العقبة الأولى التي كانت مقدّمة للهجرة إلى المدينة.

{ **أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ** } والمُدخَل والمُخرَج أصله اسم مكان الإدخال والإخراج. اختير هنا الاسم المشتقّ من الفعل المتعدّى للإشارة إلى أنّ المطلوب دخول وخروج ميسّران من الله تعالى وواقعان بإذنه. وذلك دعاء بكلّ دخول وخروج مباركين لتتمّ بين المسؤول وبين الموعود به، وهو المقام المحمود. وهذا السؤال يعمّ كل مكان يدخل إليه ومكان يخرج منه.

الصدق: هنا الكمال وما يحمد في نوعه، لأنّ ما ليس بمحمود فهو كالكاذب لأنّه يخلف ظنّ المتلبّس به.

{ **وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً** } سؤال التأييد والنصر في تلك المداخل والمخارج وغيرها من الأقطار النائية والأعمال القائم بها غيره من أتباعه وأعدائه، بنصر أتباعه وخذل أعدائه.

السلطان: اسم مصدر يطلق على السلطة وعلى الحجّة وعلى الملك. وهو في هذا المقام كلمة جامعة، على طريقة استعمال المشترك في معانيه أو هو من عموم المشترك، تشمل أن يجعل له الله تأييدا وحجّة وغلبة وملكا عظيما، وقد آتاه الله ذلك كلّه.

النصير: مبالغة في الناصر، أي سلطانا ينصرني. وإذا قد كان العمل القائم به النبيء هو الدعوة إلى الإسلام كان نصره تأييدا له فيما هو قائم به، فصار هذا الوصف تقييدا للسلطان، بأنّه لم يسأل سلطانا للاستعلاء على النّاس، وإنّما سأل سلطانا لنصره فيما يطلب النصرة وهو التبليغ وبثّ الإسلام في النّاس.

{ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً } [81]

أعقب تلقينه الدعاء بسداد أعماله وتأييده فيها بأن لقّنه هذا الإعلان المُنبئ بحصول إجابة الدعوة المُلْهَمَة بإبراز وعده بظهور أمره في صورة الخبر عن شيء مضى.

ولمّا كانت دعوة الرّسول هي لإقامة الحقّ وإبطال الباطل كان الوعد بظهور الحقّ وعدا بظهور أمر الرسول وفوزه على أعدائه. واستحفظه الله هذه الكلمة الجليلة إلى أن ألقاها يوم فتح مكّة على مسامع من كانوا أعداءه فإنّه لمّا دخل الكعبة ووجد فيها وحولها الأصنام جعل يشير إليها بقضيب ويقول { جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً } فتسقط تلك الأنصاب على وجوهها.

ومجيء الحقّ مستعمل في إدراك النّاس إيّاه وعملهم به وانتصار القائم به على معاضديه تشبيها للشيء الظاهر بالشيء الذي كان غائبا فورد جائيا.

{ **زَهَقَ** } اضمحل بعد وجوده. ومصدره الزُّهُوق والزَّهَق. وزهوق الباطل مجاز في تركه أصحابه فكأنّه كان مقيما بينهم ففارقهم. والمعنى: استقر وشاع الحقّ الذي يدعوا إليه النبيء وانقضّ الباطل الذي كان النبيء ﷺ ينهى عنه.

{ **إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً** } تذييل للجملة التي قبله لما فيه من عموم يشمل كلّ باطل في كلّ زمان. وإذا كان هذا شأن الباطل كان الثبات والانتصار شأن الحقّ، لأنّه ضدّ الباطل فإذا انتفى الباطل ثبت الحقّ.

{ **كان** } دلّ على أنّ الزهوق شنشنة الباطل، وشأنه في كل زمان أنّه يظهر ثم يضمحل، كما تقدّم في قوله تعالى { أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً } [يونس:2].

{ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً } [82]

عطف على { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ } [81]، على ما في تلك الجملة والجمل التي سبقتها من معنى التأييد للنبيء ﷺ ومن الإغاظة للمشركين، ابتداء من قوله {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [73]. فإنّه بعد أن امتنّ عليه بأن أيّده بالعصمة من الركون إليهم، وتبشيره بالنصرة عليهم وبالخلاص من كيدهم، وبعد أن هدّدهم بأنّهم صائرون قريبا إلى هلاك وأن دينهم صائر إلى الاضمحلال، أعلن له ولهم في هذه الآية أنّ ما منه غيظهم وحنقهم، وهو القرآن الذي طمعوا أن يسألوا النبيء أن يبدّله بقرآن ليس فيه ذكر أصنامهم بسوء، أنّه لا يزال متجدّدا مستمرّا، فيه شفاء للرّسول وأتباعه وخسارة للظالمين.

ولأنّ القرآن مصدر الحقّ ومُدحِض الباطل أعقب قوله { جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ } [81] بقوله { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ}. ولهذا اختير للإخبار عن التنزيل الفعل المضارع المشتقّ من فعل المضاعف للدلالة على التجديد والتكرير والتكثير، وهو وعد بأنّه يستمر هذا التنزيل زمنا طويلا.

{ **مَا هُوَ شِفَاءٌ** } مفعول {نُنَزِّلُ}. والشفاء حقيقته زوال الداء، ويُستعمل مجازا في زوال ما هو نقص وضلال

وعائق عن النفع من العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة والأخلاق الذميمة تشبيها له ببرء السقم، كقول عنترة:

ولـقـد شـفـى نـفـسـي وابـرأ سُـقـمـهـا ... قـيـلُ الفـوارس: وَيْـكَ عـنـتـرَ قَـدِّمِ

والمعنى: أنّ القرآن كلّه شفاء ورحمة للمؤمنين ويزيد خسارة للكافرين، لأنّ كلّ آية من القرآن من أمره ونهيه ومواعظه وقصصه وأمثاله ووعده ووعيده، كلّ آية من ذلك مشتملة على هدي وصلاح حال للمؤمنين المتبعينه. ومشتملة بضدّ ذلك على ما يزيد غيظ المستمرّين على الظلم. أي الشرك. فيزدادون بالغيظ كراهية للقرآن فيزدادون بذلك خسارا بزيادة آثامهم واستمرارهم على فاسد أخلاقهم وبعد ما بينهم وبين الإيمان. وهذا كقوله { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة:124- 125].

وفي الآية دليل على أنّ في القرآن آيات يُشتفى بها من الأدواء والآلام ورد تعيينها في الأخبار الصحيحة فشملتها الآية بطريقة استعمال المشترك في معنييه. وهذا ممّا بينا تأصيله في المقدمة التاسعة.

{ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْأِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُساً }[83]

لمّا كان القرآن نعمة عظيمة للنّاس، وكان إعراض المشركين عنه حرمانا عظيما لهم من خيرات كثيرة، أعقب ذلك ببيان السبب النفساني الذي يوقع العقلاء في مهواة هذا الحرمان، وذلك بالاشتغال بما هم فيه من نعمة. كما أشار إليه قوله { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً } [المزمل:11] وقوله { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ } [آل عمران:196-197].

فهذه الجملة مضمونها مقصود بذاته استفيد بيانها بوقوعها عقب التي قبلها.

{ **الْأِنْسَانِ** } تعريف الجنس، وهو يفيد الاستغراق وهو استغراق عرفي، أي أكثر أفراد الإنسان، لأنّ أكثر النّاس يومئذ كفّار وأكثر العرب مشركون. فالمعنى: إذا أنعمنا على المشركين أعرضوا وإذا مسّهم الشرّ يئسوا. وهذا مقابل حال أهل الإيمان الذين كان القرآن شفاء لأنفسهم وشكر النعمة من شيمهم والصبر على الضر من خلقهم.

الإنعام: إعطاء النعمة. وليس المراد النعم الكاملة من الإيمان والتوفيق، كما في قوله { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } [الفاتحة:7].وقوله { فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ } [النساء:69].

الإعراض: الصدّ وضدّ الإقبال. وتقدّم عند قوله تعالى { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ } [النساء:63].

النأي: البعد. وتقدّم في قوله تعالى { وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ } [الأنعام:26].

الجانب: الجنب. وهو الجهة من الجسد التي فيها اليد. وهما جانبان: يمين ويسار.

{ **وَنَأَى بِجَانِبِهِ** } صدّ عن العبادة والشكر. وهذا غير المفاد من معنى { أَعْرَضَ } فليس تأكيدا له. وحذف

المتعلّق لدلالة المقام عليه من قوله { أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ } ،أي أعرض عنّا وأجفل منّا، أي من عبادتنا وأمرنا ونهينا.

وقرأ الجمهور { وَنَأَى } بهمزة بعد النون وألف بعد الهمزة. وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان وأبو جعفر {وناء} بألف بعد النون ثم همزة. وقيل: ناء في هذه القراءة بمعنى ثقل، أي عن الشكر، أي في معنى قوله تعالى { وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ } [لأعراف: 176].

{ **وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً** } احتراس من أن يتوهّم السامع من التقييد بقوله { وَإِذَا أَنْعَمْنَا } أنّه إذا زالت عنه النعمة صلح حاله، فبيّن أنّ حاله ملازم لنكران الجميل في السرّاء والضرّاء، فإذا زالت النعمة عنه لم يقلع عن الشرك والكفر ويتب إلى الله ولكنّه ييأس من الخير ويبقى حَنِقا ضيّق الصدر لا يعرف كيف يتدارك أمره. ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله { وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ } [فصلت:51] كما سيأتي.

{ **كَانَ يَؤُوساً** } دلّ على قوّة يأسه إذ صيغ له مثال المبالغة. وأقحم معه فعل (كان) الدال على رسوخ الفعل، تعجيبا من حاله في وقت مسّ الضرّ إيّاه، لأنّها حالة أدعى إلى الفكرة في وسائل دفعه، بخلاف حالة الإعراض في وقت النعمة فإنّها حالة لا يستغرب فيها الازدهاء لما هو فيه من النعمة.

{ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً } [84].

هذا تذييل، وهو تنهية للغرض الذي ابتدئ من قوله { رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} [66] الراجع إلى التذكير بنعم الله تعالى على النّاس في خلال الاستدلال على أنّه المتصرّف الوحيد، وإلى التحذير من عواقب كفران النعم. وإذ قد ذكر في خلال ذلك فريقان في قوله { يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ } [71]، وقوله { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلّا خَسَاراً } [82].

{ **كُلٌّ** } تنوين عوض عن المضاف إليه، أي كلّ أحد ممّا شمله عموم قوله { وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى } [72] وقوله { وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلّا خَسَاراً } [82] وقوله { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ } [83].

الشاكلة: الطريقة والسيرة التي اعتادها صاحبها ونشأ عليها. وأصلها شاكلة الطريق، وهي الشعبة التي تتشعب منه. وهذه الجملة في الآية تجري مجرى المثل.

{ **فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً** } تفريع. وهو كلام جامع لتعليم النّاس بعموم علم الله، والترغيب للمؤمنين، والإنذار للمشركين مع تشكيكهم في دينهم لعلّهم ينظرون، كقوله تعالى { وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً } [سبأ:24].

{ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلّا قَلِيلاً } [85]

وقع هذه الآية بين الآي التي معها يقتضي نظمه أنّ مرجع ضمير { يَسْأَلونَكَ } هو مرجع الضمائر المتقدّمة، فالسائلون عن الروح هم قريش. وقد روى الترمذي عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل عنه، فقالوا: سلوه عن الروح، قال: فسألوه عن الروح، فأنزل الله { وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ}. وظاهر هذا أنّهم سألوه عن الروح خاصة وأنّ الآية نزلت بسبب سؤالهم. وحينئذ فلا إشكال في إفراد هذا السؤال في هذه الآية على هذه الرواية. وبذلك يكون موقع هذه الآية بين الآيات التي قبلها والتي بعدها مسببا على نزولها بين نزول تلك الآيات.

واعلم أنّه كان بين قريش وبين أهل يثرب صلات كثيرة من مصاهرة وتجارة وصحبة. وكان لكل يثربي صاحب بمكّة ينزل عنده إذا قدم الآخر بلده، كما كان بين أميّة بن خلف وسعد بن معاذ. وقصّتهما مذكورة في حديث غزوة بدر من صحيح البخاري.

روى ابن إسحاق أنّ قريشا بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بيثرب يسألانهم عن أمر النبيء ﷺ فقال اليهود لهما: سلوه عن ثلاثة. وذكروا لهم أهل الكهف وذا القرنين وعن الروح كما سيأتي في سورة الكهف. فسألته قريش عنها فأجاب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين بما في سورة الكهف، وأجاب عن الروح بما في هذه السورة. وهذه الرواية تثير إشكالا في وجه فصل جواب سؤال الروح عن المسألتين الأخريين بذكر جواب مسألة الروح في سورة الإسراء وهي متقدمة في النزول على سورة الكهف. ويدفع الإشكال أنّه يجوز أن يكون السؤال عن الروح وقع منفردا أوّل مرة ثم جمع مع المسألتين الأخريين ثاني مرة.

ويجوز أن تكون آية سؤال الروح ممّا ألحق بسورة الإسراء كما سنبينه في سورة الكهف. والجمهور على أنّ الجميع نزل بمكّة، قال الطبري عن عطاء ابن يسار نزل قوله { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلّا قَلِيلاً } بمكّة.

وأمّا ما روي في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنّه قال: " بينما أنا مع النبيء في حرث بالمدينة إذ مرّ اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح. فسألوه عن الروح فأمسك النبيء ﷺ فلم يرد عليهم شيئا، فعلمت أنّه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال { وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ }. فالجمع بينه وبين حديث ابن عباس المتقدّم: أنّ اليهود لمّا سألوا النبيء ﷺ قد ظنّ النبيء أنّهم أقرب من قريش إلى فهم الروح فانتظر أن ينزل عليه الوحي بما يجيبهم به أبين ممّا أجاب به قريشا، فكرّر الله تعالى إنزال الآية التي نزلت بمكّة أو أمره أن يتلوها عليهم ليعلم أنّهم وقريشا سواء في العجز عن إدراك هذه الحقيقة، أو أنّ الجواب لا يتغيّر.

هذا، والذي يترجّح عندي: أنّ فيما ذكره أهل السير تخليطا، وأن قريشا استقوا من اليهود شيئا ومن النصارى

شيئا فقد كانت لقريش مخالطة مع نصارى الشام في رحلتهم الصيفية إلى الشام، لأنّ قصة أهل الكهف لم تكن من أمور بني إسرائيل وإنّما هي من شؤون النصارى. بناء على أنّ أهل الكهف كانوا نصارى كما سيأتي في سورة الكهف، وكذلك قصة ذي القرنين، إن كان المراد به الاسكندر المقدوني، لأنّها ممّا عني به النصارى لارتباط فتوحاته بتأريخ بلاد الروم، فتعيّن أنّ اليهود ما لقّنوا قريشا إلّا السؤال عن الروح.

وبهذا يتّضح السبب في إفراد السؤال عن الروح في هذه السورة وذكر القصتين الأخريين في سورة الكهف. على أنّه يجوز أن يتكرّر السؤال في مناسبات وذلك شان الذين معارفهم محدودة فهم يلقونها في كل مجلس.

الروح: يطلق على الموجود الخفي المنتشر في سائر الجسد الإنساني الذي دلت عليه آثاره من الإدراك والتفكير، وهو الذي يتقوّم في الجسد الإنساني حين يكون جنينا بعد أن يمضي على نزول النطفة في الرحم مائة وعشرون يوما وهذا الإطلاق هو الذي في قوله تعالى { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } [صٓ:72]. وهذا يسمى أيضا بالنفس كقوله { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ } [الفجر:27].

ويطلق لفظ (الروح) على الملك الذي ينزل بالوحي على الرّسل. وهو جبريل عليه السلام، منه قوله تعالى {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ } [الشعراء:193- 194].

واختلف المفسّرون في الروح المسؤول عنه هنا ما هو من هذه الثلاثة؟ فالجمهور قالوا: المسؤول عنه هو الروح بالمعنى الأوّل، لأنّه الأمر المشكل الذي لم تتضح حقيقته، وأمّا الروح بالمعنيين الآخرين فيشبه أن يكون السؤال عنه سؤالا عن معنى مصطلح قرآني. وقد ثبت أنّ اليهود سألوا عن الروح بالمعنى الأوّل لأنّه هو الوارد في أوّل كتابهم وهو سفر التكوين من التوراة، لقوله في الإصحاح الأول: " وروح الله يرفّ على وجه المياه ". وليس الروح بالمعنيين الآخرين بوارد في كتبهم.

فالروح وبيان ماهيتها، قد شغلت الفلاسفة وحكماء المتشرّعين، لظهور أنّ في الجسد الحيّ شيئا زائدا على الجسم، به يكون الإنسان مدركا وبزواله يصير الجسم مسلوب الإرادة والإدراك، فعلم بالضرورة أنّ في الجسم شيئا زائدا على الأعضاء الظاهرة والباطنة غير مشاهد إذ قد ظهر بالتشريح أن جسم الميت لم يفقد شيئا من الأعضاء الباطنة التي كانت له في حال الحياة.

وإذ قد كانت عقول النّاس قاصرة عن فهم حقيقة الروح وكيفية اتصالها بالبدن وكيفية انتزاعها منه وفي مصيرها بعد ذلك الانتزاع، أجيبوا بأنّ الروح من أمر الله. أي أنّه كائن عظيم من الكائنات المشرّفة عند الله ولكنّه ممّا استأثر الله بعلمه.

{ **مِنْ أَمْرِ رَبِّي** } فلفظ (أمر) يحتمل أن يكون مرادف الشيء. فالمعنى: الروح بعض الأشياء العظيمة التي هي لله. فإضافة { أمر } إلى اسم الجلالة على معنى لام الاختصاص، أي أمر اختص بالله اختصاص علم. وروى ابن العربي في الأحكام عن ابن وهب عن مالك أنّه قال:" لم يأته في ذلك جواب ". أي أنّ قوله { قُلِ

الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } ليس جوابا ببيان ما سألوا عنه ولكنه صرف عن استعلامه وإعلام لهم بأنّ هذا من العلم الذي لم يؤتوه. والاحتمالات كلّها مرادة، وهي كلمة جامعة.

{ **وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً** } يجوز أن تكون ممّا أمر الله رسوله أن يقوله للسائلين، فيكون الخطاب لقريش أو لليهود الذين لقّنوهم، ويجوز أن يكون تذييلا أو اعتراضا فيكون الخطاب لكل من يصلح للخطاب. والمراد بالعلم هنا المعلوم، أي ما شأنه أن يعلم أو من معلومات الله. ووصفه بالقليل بالنسبة إلى ما من شأنه أن يعلم من الموجودات والحقائق.

وإذ قد جرى ذكر الروح في هذه الآية وصرف السائلون عن مرادهم لغرض صحيح اقتضاه حالهم وحال زمانهم ومكانهم، فما علينا أن نتعرض لمحاولة تعرّف حقيقة الروح بوجه الإجمال فقد تهيأ لأهل العلم من وسائل المعرفة ما تغيّرت به الحالة التي اقتضت صرف السائلين في هذه الآية بعض التغير، وقد تتوفر تغيرات في المستقبل تزيد أهل العلم استعدادا لتجلّي بعض ماهية الروح، فلذلك لا نجاري الذين قالوا: إن حقيقة الروح يجب الإمساك عن بيانها لأنّ النبيء ﷺ أمسك عنها فلا ينبغي الخوض في شأن الروح بأكثر من كونها موجودة. فقد رأى جمهور العلماء من المتكلمين والفقهاء منهم أبو بكر بن العربي في (العواصم)، والنووي في(شرح مسلم): أن هذه الآية لا تصدّ العلماء عن البحث عن الروح لأنّها نزلت لطائفة معيّنة من اليهود ولم يقصد بها المسلمون.

{ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً [86] إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً }]87].

هذا متّصل بقوله { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ } [82]، أفضت إليه المناسبة، فإنّه لمّا تضمن قوله { قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } [85] تلقين كلمة علم جامعة، وتضمّن أنّ الأمّة أوتيت علما ومنعت علما. وأنّ علم النبوءة من أعظم ما أوتيته، أعقب ذلك بالتنبيه إلى الشكر على نعمة العلم دفعا لغرور النفس، لأنّ العلم بالأشياء يكسبها إعجابا بتميّزها عمن دونها فيه. فأوقظت إلى أنّ الذي منح العلم قادر على سلبه، وخوطب بذلك النبيء ﷺ لأنّ علمه أعظم علم، فإذا كان وجود علمه خاضعا لمشيئة الله فما الظنّ بعلم غيره، تعريضا لبقيّة العلماء. فالكلام صريحُه تحذير، وهو كناية عن الامتنان كما دلّ عليه قوله بعده { إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً}.

{ **لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** } جواب القسم. بمعنى لنذهبنّه، أي عنك، وهو أبلغ من نذهبه. وما صدق الموصول القرآن.

{ **ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً** } (ثمّ) للترتيب الرتبي، لأنّ نفي الطمع في استرجاع المسلوب أشدّ على النفس

من سلبه، فذكره أدخل في التنبيه على الشكر والتحذير من الغرور.
الوكيل: من يوكل إليه المهم. والمراد به هنا المدافع عنك والشفيع لك. ولما فيه من معنى الغلبة عدّي بـ (على)، ولما فيه من معنى التعهّد والمطالبة عدّي إلى المردود بالباء. أي متعهّدا بالذي أوحينا إليك.
{ **إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** } استثناء منقطع، فحرف الاستثناء فيه بمعنى الاستدراك. وهو استدراك على ما اقتضاه فعل الشرط من توقّع ذلك، أي لكن رحمة من ربّك نفت مشيئة الذهاب بالذي أوحينا إليك، فهو باق.
وهذا إيماء إلى بقاء القرآن وحفظه، قال تعالى { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر:9].
{ **إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً** } موقع التعليل للاستثناء المنقطع، لأنّ فضله كان عليك كبيرا فلا يحرمك فضل الذي أوحاه إليك.
{ **كَانَ** } لتوكيد الجملة، زيادة على توكيدها بحرف التوكيد المستعمل في معنى التعليل والتفريع.

{ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً }[88]

استئناف للزيادة في الامتنان. وهو استئناف بياني لمضمون جملة { إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً } [87].
وافتتاحه بـ (قل) للاهتمام به. وهذا تنويه بشرف القرآن، فكان هذا التنويه امتنانا على الذين آمنوا به وهم الذين كان لهم شفاء ورحمة، وتحدّيا بالعجز على الإتيان بمثله للذين أعرضوا عنه وهم الذين لا يزيدهم إلّا خسارا.
{ **لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْأِنْسُ وَالْجِنُّ** } الاتفاق واتحاد الرأي، أي لو تواردت عقول الإنس والجنّ على أن يأتي كلّ واحد منهم بمثل هذا القرآن لما أتوا بمثله. فهو اجتماع الرأي لا اجتماع التعاون، كما تدلّ عليه المبالغة في قوله بعده { وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً }.
وذكر الجنّ مع الإنس لقصد التعميم، كما يقال:" لو اجتمع أهل السماوات والأرض". وأيضا لأنّ المتحدّين بإعجاز القرآن كانوا يزعمون أنّ الجنّ يقدرون على الأعمال العظيمة.
{ **عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ** } المراد بالمماثلة للقرآن: المماثلة في مجموع الفصاحة والبلاغة والمعاني والآداب والشرائع. وهي نواحي إعجاز القرآن اللفظي والعلمي.
{ **لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ** } جواب القسم الموطأ له باللام.
{ **وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** }في موقع الحال من ضمير {لا يَأْتُونَ }. و(لو) وصلية، وهي تفيد أنّ ما بعدها مظنّة أن لا يشمله ما قبلها. وقد تقدّم معناها عند قوله { وَلَوِ افْتَدَى بِهِ } [آل عمران:91].

الظهير: المعين.

وهذه الآية مفحمة للمشركين في التحدي بإعجاز القرآن.

{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النّاس إلّا كُفُوراً } [89]

لمّا تحدّى الله بلغاء المشركين بالإعجاز تطاول عليهم بذكر فضائل القرآن على ما سواه من الكلام، مدمجا في ذلك النعي عليهم إذ حرموا أنفسهم الانتفاع بما في القرآن من كل مثل. وذكرت هنا ناحية من نواحي إعجازه، وهي ما اشتمل عليه من أنواع الأمثال.

وتقدّم ذكر المثل عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة:126].

{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا } معطوفة على { قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ } مشاركة لها في حكمها المتقدّم بيانه زيادة في الامتنان والتعجيز. وتأكيدها بلام القسم وحرف التحقيق لردّ أفكار المشركين أنّه من عند الله، فمورد التأكيد هو فعل {صَرَّفْنَا} الدال على أنّه من عند الله.

التصريف: تقدّم آنفا عند قوله تعالى { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا } [41]. وزيد في هذه الآية قيد {للنّاس} دون الآية السابقة لأنّ هذه الآية واردة في مقام التحدّي والإعجاز، فكان النّاس مقصودين به قصدا أصليّا مؤمنهم وكافرهم، بخلاف الآية المتقدّمة فإنّها في مقام توبيخ المشركين خاصة فكانوا معلومين.

{ لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ } ووجه تقديم أحد المتعلّقين بفعل {صَرَّفْنَا} على الآخر: أنّ ذكر النّاس أهم في هذا المقام لأجل كون الكلام مسوقا لتحدّيهم والحجّة عليهم، وإن كان ذكر القرآن أهم بالأصالة، إلّا أنّ الاعتبارات الطارئة تقدّم في الكلام البليغ على الاعتبارات الأصلية، لأنّ الاعتبارات الأصلية لتقرّرها في النفوس تصير متعارفة فتكون الاعتبارات الطارئة أعزّ منالا. ومن هذا باب تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

{ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } ذكر في هذه الآية متعلّق التصريف بخلاف الآية السابقة، لأنّ ذكر ذلك أدخل في الإعجاز، فإنّ كثرة أغراض الكلام أشدّ تعجيزا لمن يروم معارضته عن أن يأتي بمثله، إذ قد يقدر بليغ من البلغاء على غرض من الأغراض ولا يقدر على غرض آخر، فعجزهم عن معارضة سورة من القرآن مع كثرة أغراضه عجز بيّن من جهتين، لأنّهم عجزوا عن الإتيان بمثله ولو في بعض الأغراض.

{ مِنْ كُلِّ } (من) للتبعيض، و(كلّ) تفيد العموم، فالقرآن مشتمل على أبعاض من جميع أنواع المثل.

{ مَثَلٍ } التنوين للتعظيم والتشريف، أي من كل مثل شريف. والمراد: شرفه في المقصود من التمثيل.

{ فَأَبَى أَكْثَرُ النّاس إلّا كُفُوراً } وحذف مفعول { أبى } للقرينة، أي أبى العمل به.

{ **إِلَّا كُفُوراً** } تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه، لما فيه من الإطماع بأنّ إبايتهم غير مطّردة، ثم يأتي المستثنى مؤكّدا لمعنى المستثنى منه، إذ الكفور أخصّ من المفعول الذي حذف للقرينة.
الكُفور (بضم الكاف):المجحود، أي جحدوا بما في القرآن من هدى وعاندوا.

{ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً [90] أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً [91] أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً [92] أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلّا بَشَراً رَسُولاً } [93].
عطف على جملة { فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلّا كُفُوراً } [99]. أي كفروا بالقرآن وطلبوا بمعجزات أخرى.
وضمير الجمع عائد إلى أكثر النّاس الذين أبوا إلّا كفورا، باعتبار صدور هذا القول بينهم وهم راضون به ومتمالئون عليه متى علموه، فلا يلزم أن يكون كلّ واحد منهم قال هذا القول كلّه، بل يكون بعضهم قائلا جميعه أو بعضهم قائلا بعضه.
ولما اشتمل قولهم على ضمائر الخطاب تعيّن أنّ بعضهم خاطب به النبيء ﷺ مباشرة، إمّا في مقام واحد وإمّا في مقامات. وقد ذكر ابن إسحاق: أنّ عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، وناسا معهم اجتمعوا بعد غروب الشمس عند الكعبة وبعثوا إلى النبيء ﷺ أن يأتيهم. فأسرع إليهم حرصا على هداهم، فعاتبوه على تسفيه أحلامهم والطعن في دينهم، وعرضوا عليه ما يشاء من مال أو تسويد. وأجابهم بأنّه رسول من الله إليهم لا يبغي غير نصحهم، فلمّا رأوا منه الثبات انتقلوا إلى طلب بعض ما حكاه الله عنهم في هذه الآية.
وروي أنّ الذي سأل ما حكي بقوله تعالى { أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ } [93] إلى آخره، هو عبد الله بن أبي أميّة المخزومي.
{ **لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ** } لن نصدّقك أنك رسول الله إلينا. و**الإيمان**: التصديق. يقال: آمنه، أي صدّقه. وكثر أن يعدّى إلى المفعول بـ (اللام)، قال تعالى { وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا } [يوسف:17] وقال {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ} [العنكبوت:26].
وهذه اللام من قبيل ما سمّاه في (مغني اللبيب) لام التبيين. وغفل عن التمثيل لها بهذه الآية ونحوها.
التفجير: مصدر فجّر بالتشديد مبالغة غي الفجر، وهو الشق باتساع. ومنه سمّي فجر الصباح فجرا لأنّ الضوء يشق الظلمة شقا طويلا عريضا، فالتفجير أشدّ من مطلق الفجر وهو تشقيق شديد باعتبار اتساعه.

ولذلك ناسب الينبوع هنا والنهر في قوله تعالى { وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً } [الكهف:33].

وقرأه الجمهور { تُفَجِّرَ } ـ بضم التاء وتشديد الجيم ـ على أنّه مضارع (فجّر)المضاعف. وقرأه عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف { تَفْجُرَ } ـ بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة ـ على أنّه مضارع فجر كنصر، فلا التفات فيها للمبالغة لأن الينبوع يدل على المقصود أو يعبّر عن مختلف أقوالهم الدالة على التصميم في الامتناع.

{ **مِنَ الْأَرْضِ** } أرض مكّة، فالتعريف للعهد، ووجه تخصيصها أنّ أرضها قليلة المياه بعيدة عن الجنّات.

الينبوع: اسم للعين الكثيرة النبع التي لا ينضب ماؤها. وصيغة يفعول صيغة مبالغة غير قياسية. والينبوع مشتقة من مادة النبع.

{ **أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً** } الجنّة والنخيل والعنب والأنهار تقدّمت في قوله { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [البقرة:266].

المقترح هو تفجير الماء في الأرض القاحلة. وإنّما ذكروا وجود الجنّة تمهيدا لتفجير أنهار خلالها فكأنّهم قالوا: حتّى تفجر لنا ينبوعا يسقي النّاس كلّهم، أو تفجّر أنهارا تسقي جنّة واحدة تكون تلك الجنّة وأنهارها لك. فنحن مقتنعون بحصول ذلك لا بغية الانتفاع منه. وهذا كقولهم { أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ } [93].

{ **تَفْجِيراً** } المفعول المطلق للدلالة على التكثير، لأنّ { تَفْجُرَ } قد كفى في الدلالة على المبالغة في الفجر، فتعيّن أن يكون الإتيان بمفعوله المطلق للمبالغة في العدد، كقوله تعالى { وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً } [106]، وهو المناسب لقوله { خلالها }، لأنّ الجنّة تتخلّلها شعب النهر لسقي الأشجار. فجمع الأنهار باعتبار تشعّب ماء النهر إلى شعب عديدة. ويدلّ لهذا المعنى إجماع القراء على قراءة { فَتُفَجِّرَ } هنا بالتشديد مع اختلافهم في الذي قبله. وهذا من لطائف معاني القراءات المروية عن النبيء ﷺ فهي من أفانين إعجاز القرآن.

{ **أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً** } انتقال من تحديه بخوارق فيها منافع لهم إلى تحديه بخوارق فيها مضرّتهم. أي فليأتهم بآية على ذلك ولو في مضرّتهم. وهذا حكاية لقولهم كما قالوا. ولعلّهم أرادوا به الإغراق في التعجيب من ذلك فجمعوا بين جعل الإسقاط لنفس السماء. وعززوا تعجيبهم بالجملة المعترضة وهي { كَمَا زَعَمْتَ } إنباء بأنّ ذلك لا يصدّق به أحد. وعنوا به قوله تعالى { إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ } [سبأ: 9] وبقوله { وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ } [الطور:44]، إذ هو تهديد لهم بأشراط الساعة وإشرافهم على الحساب.

الكسف (بكسر الكاف وفتح السين): ـ جمع كسفة، وهي القطعة من الشيء مثل سدرة وسدر. وكذلك قرأه نافع، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر، وقرأه الباقون بسكون السين بمعنى المفعول، أي

المكسوف بمعنى المقطوع.

{ **زَعَمْتَ** } الزعم: القول المستبعد أو المحال.

{ **أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً** }

القبيل: الجماعة من جنس واحد. وهو منصوب على الحال من الملائكة، أي هم قبيل خاص غير معروف، كأنّهم قالوا: أو تأتي بفريق من جنس الملائكة.

الزخرف: الذهب.

{ **أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ** } وإنّما عدّي بحرف (في) الظرفية للإشارة إلى أنّ الرقيّ تدرّج في السماوات، كمن يصعد في المرقاة والسلم.

{ **وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ** } ثم تفنّنوا في الاقتراح فسألوه إن رقي أن يُرسل إليهم بكتاب ينزل من السماء يقرءونه، فيه شهادة بأنّه بلغ السماء. قيل: قائل ذلك عبد الله بن أبي أمية، قال: حتّى تأتينا بكتاب معه أربعة من الملائكة يشهدون لك.

ولعلّهم إنّما أرادوا أن ينزّل عليهم من السماء كتابا كاملا دفعة واحدة، فيكونوا قد ألحدوا بتنجيم القرآن، توهما بأنّ تنجيمه لا يناسب كونه منزلا من عند الله، لأنّ التنجيم عندهم يقتضي التأمّل والتصنّع في تأليفه. ولذلك يكثر في القرآن بيان حكمة تنجيمه.

{ **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلّا بَشَراً رَسُولاً** } لمّا كان اقتراحهم اقتراح ملاجَّة وعناد، أمره الله بأن يجيبهم بما يدلّ على التعجب من كلامهم بكلمة { سُبْحَانَ رَبِّي } التي تستعمل في التعجّب كما تقدّم في طالع هذه السورة، ثم بالاستفهام الإنكاري، وصيغة الحصر المقتضية قصر نفسه على البشرية والرسالة قصرا إضافيا، أي لست ربّا متصرّفا أخلق ما يطلب مني.

{ **وَمَا مَنَعَ النّاس أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً [94] قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً** } [95].

بعد أن عدت أشكال عنادهم ومظاهر تكذيبهم أعقبت ببيان العلّة الأصلية التي تبعث على الجحود في جميع الأمم وهي توهّمهم استحالة أن يبعث الله للناس برسالة بشرا مثلهم. فذلك التوهّم هو مثار ما يأتونه من المعاذير. فالذين هذا أصل معتقدهم لا يرجى منهم أن يؤمنوا ولو جاءتهم كلّ آية. ومع ما في هذا من بيان أصل كفرهم هو أيضا رد بالخصوص لقولهم { أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً } [92].

{ **إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً** } يقتضي بصريحه أنّهم قالوا بألسنتهم وهو مع ذلك كناية عن اعتقادهم ما قالوه. ولذلك جعل قولهم ذلك مانعا من أن يؤمنوا لأنّ اعتقاد قائليه يمنع من إيمانهم بضده ونطقهم بما

يعتقدونه يمنع من يسمعونهم من متبعي دينهم.

{ **النّاس** } الظاهر حمل التعريف على الاستغراق. أي ما منع جميع النّاس أن يؤمنوا إلّا ذلك التوهّم الباطل لأنّ الله حكى مثل ذلك عن كل أمّة كذبت رسولها:

فقال حكاية عن قوم نوح { مَا هَذَا إِلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ } [المؤمنون:24].

وحكي مثله عن هود { مَا هَذَا إِلّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ ممّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ ممّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ } [المؤمنون:33 - 34].

وعن قوم صالح { مَا أَنْتَ إِلّا بَشَرٌ مِثْلُنَا } [الشعراء:154].

وعن قوم شعيب { وَمَا أَنْتَ إِلّا بَشَرٌ مِثْلُنَا } [الشعراء:186].

وحكي عن قوم فرعون { فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا } [المؤمنون:47].

وقال في قوم محمد ﷺ { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ } [قّ:2].

{ **قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً** } وإذا شمل العموم كفّار قريش أمر الرسول بأن يجيبهم عن هذا الشبهة، فاختص الله رسوله محمدا ﷺ باجتثاث هذه الشبهة من أصلها اختصاصا لم يلقنه من سبق من الرسل، فإنّهم تلقوا تلك الشبهة باستنصار الله تعالى على أقوالهم:

فقال عن نوح { قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الشعراء:117-118]. وقال مثله عن هود وصالح، وقال عن موسى وهارون { فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ } [المؤمنون:48].

فقد ادخر الله لرسوله قواطع الأدلة على إبطال الشرك وشبه الظلال بما يناسب كونه خاتم الرسل، ولهذا قال في خطبة حجة الوداع: " إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنّه قد رضي أن يطاع فيما دون ذلك ممّا تحقّرون من أعمالكم ".

والمعنى : أن الله يرسل الرسول للقوم من نوعهم للتمكّن من المخالطة لأنّ اتحاد النوع هو قوام تيسير المعاشرة، قال تعالى { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً } [الأنعام:9]،أي في صورة رجل ليمكن التخاطب بينه وبين الناس.

{ **مُطْمَئِنِّينَ** } المطمئن: الساكن. وأريد به هنا المتمكّن غير المضطرب، أي مشي قرار في الأرض، أي لو كان في الأرض ملائكة قاطنون على الأرض غير نازلين برسالة للرسل أنزلنا عليهم ملكا. ولما كان المشي والاطمئنان في الأرض من صفة الإنسان آل المعنى إلى: لو كنتم ملائكة لنزلنا عليكم من السماء ملكا فلما كنتم بشرا أرسلنا إليكم بشرا مثلكم.

{ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنّه كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً } [96]

بعد أن خصّ الله محمدا ﷺ بتلقين الحجّة القاطعة للضلالة أردف ذلك بتلقينه أيضا ما لقّنه الرسل السابقين من تفويض الأمر إلى الله وتحكيمه في أعدائه.

{ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ } تسلية للرّسول ﷺ وتثبيتا لنفسه وتعهدا له بالفصل بينه وبينهم كما قال نوح وهود { قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ} [المؤمنون:26]،وغيرهما من الرسل قال قريبا من ذلك.

وفي هذا رد لمجموع مقترحاتهم المتقدّمة على وجه الإجمال.

{ كَفَى } والمفعول محذوف، تقديره: كفاني.

الشهيد: الشاهد، وهو المخبر بالأمر الواقع كما وقع. وأريد بالشهيد هنا الشهيد للمُحقّ على المُبطل، فهو كناية عن النصير والحاكم، لأنّ الشهادة سبب الحكم. والقرينة قوله { بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ }.

والباء الداخلة على اسم الجلالة زائدة لتأكيد لصوق فعل { كَفَى } بفاعله. وأصله: كفى الله شهيدا.

{ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً } تعليل للاكتفاء به تعالى.

الخبير: العليم. وأريد به العليم بالنوايا والحقائق.

البصير: العليم بالذوات والمشاهدات من أحوالها. والمقصود من اتباعه به إحاطة العلم وشموله.

{ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً }[97]

{ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ }

يجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة { وَمَا مَنَعَ النّاس أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى } [94] جمعا بين المانع الظاهر المعتاد من الهدى وبين المانع الحقيقي وهو حرمان التوفيق من الله تعالى.

ويجوز أن تكون الجملة معطوفة على جملة { قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ } [96] ارتقاء في التسلية، أي لا يحزنك عدم اهتدائهم فإنّ الله حرمهم الاهتداء لمّا أخذوا بالعناد قبل التدبر في حقيقة الرسالة.

والمراد بالهدى الهدى إلى الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ.

{ الْمُهْتَدِ } تعريف العهد الذهني، فالمعرف مساو للنكرة، فكأنه قيل: فهو مهتد. وفائدة الإخبار عنه بأنّه مهتد التوطئة إلى ذكر مقابله وهو { وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ }.

ويجوز أن تجعل التعريف تعريف الجنس فيفيد قصر الهداية على الذي هداه الله قصرا إضافيا، أي دون من تريد أنت هداه وأضله الله. ولا يحتمل أن يكون المعنى على القصر الادعائي الذي هو بمعنى الكمال، لأنّ الهدى المراد هنا هدي واحد وهو الهدي إلى الإيمان.

وحذفت ياء { الْمُهْتَدِ } في رسم المصحف لأنهم وقفوا عليها بدون ياء على لغة من يقف على الاسم المنقوص غير المنون بحذف الياء، وهي لغة فصيحة غير جارية على القياس ولكنها أوثرت من جهة التخفيف لثقل صيغة اسم الفاعل مع ثقل حرف العلة في آخر الكلمة. ورسمت بدون ياء لأنّ شأن أواخر الكلم أن ترسم بمراعاة حال الوقف. وأمّا في حال النطق في الوصل فقرأها نافع وأبو عمرو بإثبات الياء في الوصل وهو الوجه، ولذلك كتبوا الياء في مصاحفهم باللون الأحمر وجعلوها أدق من بقية الحروف المرسومة في المصحف تفرقة بينها وبين ما رسمه الصحابة كتاب المصحف. والباقون حذفوا الياء في النطق في الوصل إجراء للوصل مجرى الوقف. وذلك وإن كان نادرا في غير الشعر إلّا أن الفصحاء يجرون الفواصل مجرى القوافي. واعتبروا الفاصلة كل جملة تم بها الكلام، كما دلّ عليه تمثيل سيبويه في كتابة الفاصلة بقوله تعالى {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ } [الفجر:4] وقوله { قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ } [الكهف:64].

{ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ } الخطاب للنبيء ﷺ لأنّ هذا الكلام مسوق لتسليته على عدم استجابتهم له. فنفي وجدان الأولياء كناية عن نفي وجود الأولياء لهم.

الأولياء: الأنصار، أي لن تجد لهم أنصارا يخلّصونهم من جزاء الضلال، وهو العذاب. ويجوز أن يكون الأولياء بمعنى متولّي شأنهم، أي لن تجد لهم من يصلح حالهم فينقلهم من الضلال.

وجمع الأولياء باعتبار مقابلة الجمع بالجمع، أي لن تجد لكل واحد وليا ولا لجماعته وليا.

{ مِنْ دُونِهِ } أي غيره.

{ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً }

ذكر المقصود من نفي الولي أو المآل له بذكر صورة عقابهم.

الحشر: جمع النّاس من مواضع متفرقة إلى مكان واحد. ولمّا كان ذلك يستدعي مشيهم عدي الحشر بحرف (على) لتضمينه معنى (يمشون). وقد فهم النّاس ذلك من الآية فسألوا النبيء ﷺ كيف يمشون على وجوههم؟ فقال: " إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم".

وهذا جزاء مناسب للجرم، لأنهم روجوا الضلالة في صورة الحق ووسموا الحق بسمات الضلال.

{ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً } جزاء أقوالهم الباطلة على الرسول وعلى القرآن، وجزاء امتناعهم من سماع الحق، كما قال تعالى عنهم { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ممّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } [فصلت: من الآية 5]. وقال عنهم { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراًقَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا

وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } [طه: 125- 126].

المأوى: محل الأوْي، أي النزول بالمأوى، أي المنزل والمقرّ.

{ **خَبَتْ** } خبت النار خُبُوًّا وخَبْوًا: نقص لهيبها.

السعير: لهب النّار، وهو مشتق من سعَّر النّار إذا هيّج وقودها. وقد جرى الوصف فيه على التذكير تبعا لتذكير اللهب. والمعنى: زدناهم لهبا فيها.

{ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً}[98].

استئناف بياني لأنّ العقاب الفظيع المحكي يثير في نفوس السامعين السؤال عن سبب تركّب هذه الهيئة من تلك الصورة المفظّعة، فالجواب بأنّ ذلك بسبب الكفر بالآيات وإنكار المعاد.

{ **ذَلِكَ** } الإشارة إلى ما تقدّم من قوله { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ } [97].

الجزاء: العوض عن عمل.

{ **بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا** } الباء للسببية.

{ **وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً** } الظاهر أنّها عطف على جملة { بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا} ، فذكر وجه اجتماع تلك العقوبات لهم. وذكر سببان:

أحدهما: الكفر بالآيات ويندرج فيه صنوف من الجرائم تفصيلا وجمعا تناسبها العقوبة التي في قوله {نحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم }.

ثانيهما: إنكارهم البعث المناسب له أن يعاقبوا عقابا يناسب ما أنكروه من تجدد الحياة بعد المصير رفاتا، فإنّ رفات الإحراق أشد اضمحلالا من رفات العظام في التراب.

{ **أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً / أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ** } الاستفهام إنكاري.

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلّا كُفُوراً } [99].

عطف على جملة { ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ } باعتبار ما تضمّنته الجملة المعطوف عليها من الردع عن قولهم { أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً} [98]. فبعد زجرهم عن إنكارهم البعث بأسلوب التهديد عطف عليه إبطال اعتقادهم بطريق الاستدلال بقياس التمثيل في الإمكان. فكان تمثيل خلق أجسام من أجزاء بالية بخلق أشياء أعظم منها من عدم أوغل في الفناء، دليلا يقطع دعواهم.

{ **أَوَلَمْ يَرَوْا** } الاستفهام إنكاري مشوب بتعجّب من انتفاء علمهم لأنّهم لمّا جرت عقائدهم على استبعاد البعث كانوا بحال من لم تظهر له دلائل قدرة الله تعالى، فيؤول الكلام إلى إثبات أنّهم علموا ذلك في نفس الأمر.

والرؤية مستعملة في الاعتقاد لأنّها عدّيت إلى كون الله قادرا. وذلك ليس من المبصرات. والمعنى: أو لم يعلموا أنّ الله قادر على أن يخلق مثلهم.

{ **عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ** } والمثل: المماثل، أي قادر على أن يخلق ناسا أمثالهم، لأنّ الكلام في إثبات إعادة أجسام المردود عليهم لا في أنّ الله قادر على أن يخلق خلقا آخر. ويكون في الآية إيماء إلى أنّ البعث إعادة أجسام أخرى عن عدم، فيُخلق لكلّ ميّت جسد جديد على مثال جسده الذي كان في الدنيا وتُوضع فيه الروح التي كانت له.

ولعلمائنا طرق في إعادة الأجسام عند البعث فقيل: تكون الإعادة عن عدم، وقيل تكون عن جميع ما تفرق من الأجسام. وقيل: ينبت من عجْب ذنب كل شخص جسد جديد مماثل لجسده كما تنبت من النواة شجرة مماثلة للشجرة التي أثمرت ثمرة تلك النواة.

{ **اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ** } وصف اسم الجلالة بالموصول للإيماء إلى وجه بناء الخبر، وهو الإنكار عليهم، لأنّ خلق السماوات والأرض أمر مشاهد معلوم، وكونه من فعل الله لا ينازعون فيه.

{ **وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ** } معطوفة على جملة { أَوَلَمْ يَرَوْا } لتأويلها بمعنى قد رأوا ذلك لو كان لهم عقول، أي تحقّقوا أنّ الله قادر على إعادة الخلق وقد جعل لهم أجلا لا ريب فيه.

الأجل: الزمان المجعول غاية يُبلغ إليها في حال من الأحوال. وشاع إطلاقه على امتداد الحياة، وهو المدّة المقدرة لكلّ حي بحسب ما أودع الله فيه من سلامة آلات الجسم، وما علمه الله من العوارض التي تعرض له فتخرم بعض تلك السلامة أو تقويها.

والأجل هنا محتمل لإرادة الوقت الذي جُعل لوقوع البعث في علم الله تعالى.

ووجه كون هذا الجعل لهم لأنّهم الذين أنكروا البعث، والمعنى: وجعل لهم ولغيرهم أجلا.

{ **لا رَيْبَ فِيهِ** } أنّه لا ينبغي أن يكون فيه ريب، وأنّ ريب المرتابين فيه مكابرة أو إعراض عن النظر، فهو من باب قوله { ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ } [البقرة:2].

{ **فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً** } [99] تفريع على الجملتين باعتبار ما تضمنتاه من الإنكار والتعجيب. أي علموا أنّ الذي خلق السماوات والأرض قادر على إعادة الأجسام ومع علمهم أبوا إلّا كفورا. فالتفريع من تمام الإنكار عليهم والتعجيب من حالهم.

{ **إِلَّا كُفُوراً** } واستثناء الكفور من الإباية تأكيد للشيء بما يشبه ضدّه.

الكفور: جحود النعمة، وتقدّم آنفا. واختير (الكفور) تنبيها على أنّهم كفروا بما يجب اعتقاده، وكفروا نعمة المنعم عليهم فعبدوا غير المنعم.

{ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً}[100].

اعتراض ناشئ عن بعض مقترحاتهم التي توهّموا عدم حصولها، دليلا على انتفاء إرسال بشير، فالكلام استئناف لتكملة ردّ شبهاتهم. وهذا ردّ لما تضمّنه قولهم { حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً - إلى قوله – تَفْجِيراً } [91]، وقولهم { أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ } [93] من تعذّر حصول ذلك لعظيم قيمته.

ومعنى الردّ: أنّ هذا ليس بعظيم في جانب خزائن رحمة الله، لو شاء أن يظهره لكم.

وأدمج في هذا الردّ بيان ما فيهم من البخل عن الإنفاق في سبيل الخير، وتذكيرهم بأنّ الله أعطاهم من خزائن رحمته فكفروا نعمته وشكروا الأصنام التي لا نعمة لها. ويصلح لأن يكون هذا خطابا للنّاس كلّهم مؤمنهم وكافرهم كلّ على قدر نصيبه.

{ **قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ** } وشأن (لو) أن يليها الفعل ماضيا في الأكثر أو مضارعا في اعتبارات، فهي مختصّة بالدخول على الأفعال، فإذا أوقعوا الاسم بعدها في الكلام وأخروا الفعل عنه فإنّما يفعلون ذلك لقصد بليغ : إمّا لقصد التقوّي والتأكيد، وإمّا للانتقال من التقوّي إلى الاختصاص، وهذا الاعتبار هو الذي يتعيّن التخريج عليه في هذه الآية ونحوها من الكلام البليغ، ومنه قول عمر لأبي عبيدة: " لو غيرك قالها ".

والمعنى: لو أنتم أختصصتم بملك خزائن رحمة الله لما أنفقتم على الفقراء شيئا. وذلك أشدّ في التقريع وفي الامتنان بتخييل أنّ إنعام غيره كالعدم. واختير الفعل المضارع لأنّ المقصود فرض أن يملكوا ذلك في المستقبل.

{ **لَأَمْسَكْتُمْ** } هنا منزَّل منزلة اللازم فلا يقدّر له مفعول، لأنّ المقصود: إذن لاتّصفتم بالإمساك، أي البخل.

يقال: فلان ممسك، أي بخيل. ولا يراد أنّه ممسك شيئا معيّنا.

{ **إِذاً** } أكّد جواب (لو) وفيه تقوية معنى الجوابية، ولأنّ في (إذن) معنى الجزاء كما تقدّم آنفا عند قوله { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً } [42].

{ **وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً** } حالية أو اعتراضية في آخر الكلام، وهي تفيد تذييلا لأنّها عامة الحكم.

القتور: شديد البخل، مشتقّ من القتر وهو التضييق في الإنفاق.

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرائيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً** [101] **قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً** } [102].

بقي قولهم { أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً } [92] غير مردود عليهم، لأنّ له مخالفة لبقيّة ما اقترحوه بأنّه اقتراح آية عذاب ورعب، فهو من قبيل آيات موسى عليه السلام التسع. فكان ذكر ما آتاه الله موسى من الآيات وعدم إجداء ذلك في فرعون وقومه تنظيرا لما سأله المشركون.

والمقصود: أنّنا آتينا موسى عليه السلام تسع آيات بيّنات الدلالة على صدقه فلم يهتد فرعون وقومه وزعموا ذلك سحرا، ففي ذلك مثل للمكابرين كلّهم، وما قريش إلّا منهم. ففي هذا مثل للمعاندين وتسلية للرسول.

{ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ** } وهي: بياض يده كلّما أدخلها في جيبه وأخرجها، وانقلاب العصا حيّة، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والرجز وهو الدمل، والقحط وهو السنون ونقص الثمرات، وهي مذكورة في سورة الأعراف.

وبهذا القول حصلت الحجّة على المشركين الذين يقترحون الآيات.

ثم لم يزل الاعتناء في هذه السورة بالمقارنة بين رسالة محمد ﷺ ورسالة موسى عليه السلام إقامة للحجّة على المشركين الذين كذّبوا بالرسالة بعلّة أنّ الذي جاءهم بشر، وللحجّة على أهل الكتاب الذين ظاهروا المشركين ولقّنوهم شبه الإلحاد في الرسالة المحمدية ليصْفو لهم الجو في بلاد العرب.

{ **فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرائيلَ إِذْ جَاءَهُمْ** } الخطاب للنبيء ﷺ. والمراد: سؤال الاحتجاج بهم على المشركين لا سؤال الاسترشاد كما هو بيّن. وفيه تعريض بهم بأنّهم ساووا المشركين في إنكار نبوّة محمد ﷺ ومظاهرتهم المشركين بالدسّ وتلقين الشبه، تذكيرا لهم بردّ فرعون وقومه.

{ **فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً** } ظاهره أنّ معناه متأثّرا بالسحر، أي سحرك السحرة وأفسدوا عقلك. وهذا قول قاله فرعون في مقام غير الذي قال له فيه { يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ } [الشعراء:35]، والذي قال فيه { إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ } [الشعراء:34]، فيكون إعراضا عن الاشتغال بالآيات وإقبالا على تطلّع حال موسى. ألا ترى إلى قوله تعالى حكاية عنه { قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ } [الشعراء:25]. وكل تلك الأقوال صدرت من فرعون في مقامات محاوراته مع موسى عليه السلام فحكي في كل آية شيء منها.

{ **إِنِّي لَأَظُنُّكَ** } وكان فرعون تعلّق ظنّه بحقيقة ما أظهر من الآيات فرجح عنده أنّها سحر، أو تعلّق ظنّه بحقيقة حال موسى فرجح عنده أنّه أصابه سحر، لأنّ الظن دون اليقين، وقد يستعمل الظن بمعنى اليقين.

{ **قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ** } أكّد كلام موسى بلام القسم وحرف

التحقيق تحقيقا لحصول علم فرعون بذلك. وإنّما أيقن موسى بأنّ فرعون قد علم بذلك، إمّا بوحي من الله أعلمه به، وإمّا برأي مصيب.

{ **هَؤُلاءِ** } الإشارة إلى الآيات التسع، جيء لها باسم إشارة العاقل، وهو استعمال مشهور. ومنه قوله تعالى {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } [36]. والأكثر أن يشار بـ (أولاء) إلى العاقل.

{ **رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } عبّر عن الله بطريق إضافة وصف الربّ للسماوات والأرض تذكيرا بأنّ الذي خلق السماوات والأرض هو القادر على أن يخلق مثل هذه الخوارق.

البصائر: الحجج المفيدة للبصيرة، أي العلم، فكأنّها نفس البصيرة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ } [الأعراف:203].

{ **وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً** } وإنّما جعله موسى ظنّا تأدّبا مع الله تعالى، أو لأنّه علم ذلك باستقراء تام أفاده هلاك المعاندين للرسل، ولكنه لم يدر لعل فرعون يقلع عن ذلك وكان عنده احتمالا ضعيفا، فلذلك جعل توقّع هلاك فرعون ظنّا. ويجوز أن يكون الظنّ هنا مستعملا بمعنى اليقين كما تقدّم آنفا.

المثبور: الذي أصابه الثبور وهو الهلاك. وهذا نذارة وتهديد لفرعون بقرب هلاكه.

{ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً [103] وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً } [104].

أكملت قصّة المثل بما فيه تعريض بتمثيل الحالين، إنذارا للمشركين بأنّ عاقبة مكرهم وكيدهم ومحاولاتهم صائرة إلى ما صار إليه مكر فرعون وكيده.

فقد أضمر المشركون إخراج النبيء ﷺ والمسلمين من مكّة، فمثّلت إرادتهم بإرادة فرعون إخراج موسى وبني إسرائيل من مصر، قال تعالى { وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلّا قَلِيلاً } [76].

الاستفزاز: الاستخفاف، وهو كناية عن الإبعاد وتقدّم عند قوله { وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ } [76].

{ **وَمَنْ مَعَهُ** } جنده الذين خرجوا معه يتبعون بني إسرائيل.

والأرض الأولى هي المعهودة وهي أرض مصر، والأرض الثانية أرض الشام وهي المعهودة لبني إسرائيل بوعد الله إبراهيم إيّاها.

{ **وَعْدُ الْآخِرَةِ** } ما وعد الله به الخلائق على ألسنة الرّسل من البعث والحشر.

اللفيف: الجماعات المختلطون من أصناف شتّى.

المعنى: حكمنا بينهم في الدنيا بغرق الكفرة وتمليك المؤمنين، وسنحكم بينهم يوم القيامة.

{ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً }[105]

{ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ }

عود إلى التنويه بشأن القرآن متّصل بقوله { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النّاس إِلّا كُفُوراً } [89].

وقد وُصِف القرآن بصفتين عظيمتين كل واحدة منهما تحتوي على ثناء عظيم وتنبيه للتدبّر فيهما.

{ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ } ذكر فعل النزول مرتين، وذكر له في كل مرة متعلّق متماثل اللفظ لكنّه مختلف المعنى، فعلق إنزال الله إيّاه بأنّه بالحق فكان **معنى الحق الأوّل الثابت الذي لا ريب فيه** ولا كذب، فهو كقوله تعالى { ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ } [البقرة:2] وهو ردّ لتكذيب المشركين أن يكون القرآن وحيا من عند الله.

وعلق نزول القرآن، أي بلوغه للنّاس بأنّه بالحقّ فكان **معنى الحق الثاني مقابل الباطل،** أي مشتملا على الحق الذي به قوام صلاح النّاس وفوزهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ } [81]، وقوله { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاس بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ } [النساء:105].

وضمائر الغيبة عائدة إلى القرآن المعروف من المقام.

والباء في الموضعين للمصاحبة، لأنّه مشتمل على الحقّ والهدى، والمصاحبة تشبه الظرفية. ولولا اختلاف معنى الباءين في الآية لكان قوله { وَبِالْحَقِّ نَزَلَ } مجرد تأكيد.

وتقديم المجرور في الموضعين على عامله للقصر ردا على المنكرين الذين ادّعوا أنّه أساطير الأولين أو سحر مبين أو نحو ذلك.

{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً } معترضة بين جملة { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ } وجملة { وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ } [106]، أي وفي ذلك الحقّ نفع وضرّ، فأنت به مبشّر للمؤمنين ونذير للكافرين.

{ إِلّا } القصر للردّ على الذين سألوه أشياء من تصرّفات الله تعالى والذين ظنّوا أن لا يكون الرسول بشرا.

{ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاس عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً } [106]

عطف على جملة { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ }.

{ وَقُرْآناً } انتصب على الحال من الضمير المنصوب في { فَرَقْنَاهُ } مقدّمة على صاحبها تنويها بكونه قرآنا،

أي كونه كتابا مقروءا. فإنّ اسم القرآن مشتق من القراءة، وهي التلاوة، إشارة إلى أنّه من جنس الكلام الذي يحفظ ويتلى، كما أشار إليه قوله تعالى { تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ } [الحجر:1]، وقد تقدّم بيانه.

فهذا الكتاب له أسماء باختلاف صفاته فهو: كتاب، وقرآن، وفرقان، وذكر، وتنزيل.

وتجري عليه الأوصاف أو بعضها باختلاف المقام:

*/ مقام الأمر بالتلاوة في الصلاة أو مطلقا. مثل قوله تعالى { وَقُرْآنَ الْفَجْرِ } [78] وقوله { فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ } [المزمل:20]

*/ مقام كونه فارقا بين الحق والباطل، مثل قوله { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً } [الفرقان:1].

ولهذا لم يوصف من الكتب السماوية بوصف القرآن غير الكتاب المنزل على محمد ﷺ.

{ **فَرَقْنَاهُ** } جعلناه فِرَقًا، أي أنزلناه منجّما مفرّقا. يقال: فرّق الأشياء إذا باعد بينها. ويطلق الفرق على البيان لأنّ البيان يشبه تفريق الأشياء المختلطة، فيكون { فَرَقْنَاهُ } محتملا معنى بيّنّاه وفصّلناه.

{ **لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاس عَلَى مُكْثٍ** } علّتان: أن يُقرأ على النّاس وتلك علّة لجعله قرآنا، وأن يُقرأ على مُكث، أي مهل وبطء وهي علة لتفريقه. والحكمة في ذلك أن تكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين.

{ **وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً** } إشارة إلى تفريق إنزاله المذكور في قوله { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ } [105].

وطُوي بيان الحكمة للاجتزاء بما في قوله { لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاس عَلَى مُكْثٍ } من اتحاد الحكمة.

ويجوز أن يراد: فرقنا إنزاله رعيا للأسباب والحوادث. وفي كلا الوجهين إبطال لشبهتهم إذ قالوا { لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } [الفرقان:32].

{ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً [107] وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً [108] وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً } [109].

استئناف خطاب للنبيء ﷺ ليلقّنه بما يقوله للمشركين الذين لم يؤمنوا بأنّ القرآن منزّل من عند الله، فإنّه بعد أنّ أوضح لهم الدلائل على أنّ مثل ذلك القرآن لا يكون إلّا منزلا من عند الله من قوله { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ } [88] فعجزوا عن الإتيان بمثله، ثم بيان فضائل ما اشتمل عليه بقوله { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ } [89]، ثمّ بالتعرّض إلى ما اقترحوه من الإتيان بمعجزات أخر، ثمّ بكشف شبهتهم التي يموّهون بها امتناعهم من الإيمان برسالة البشر، وبيّن لهم غلطهم أو مغالطتهم، ثمّ بالأمر بإقامة الله شهيدا بينه وبينهم، ثمّ بتهديدهم بعذاب الآخرة، ثمّ بتمثيل حالهم مع

رسولهم بحال فرعون وقومه مع موسى وما عجّل لهم من عذاب الدنيا بالاستئصال، ثمّ بكشف شبهتهم في تنجيم القرآن، أعقب ذلك بتفويض النظر في ترجيح الإيمان بصدق القرآن وعدم الإيمان بقوله { قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا } للتسوية بين إيمانهم وعدمه عند الله تعالى.

{ **قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا** } الأمر للتسوية، أي إن شئتم. وجزم { لا تُؤْمِنُوا } بالعطف على المجزوم. ومثله قوله { فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ } [الطور:16]، فحرف (لا) حرف نفي وليس حرف نهي، ولا يقع مع الأمر المراد به التسوية إلّا كذلك، وهو كناية عن الإعراض عنهم واحتقارهم وقلّة المبالاة بهم.

ويندمج فيه مع ذلك تسلية الرسول ﷺ.

{ **إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً** } تعليل لمعنى التسوية بين إيمانهم به وعدمه أو تعليل لفعل (قل) ، أو لكليهما، شأن العلل التي ترد بعد جمل متعددة. ولذلك فصلت. وموقع (إنّ) فيها موقع فاء التفريع، أي إنّما كان إيمانكم بالقرآن وعدمه سواء، لأنّه مستغن عن إيمانكم به بإيمان الذين أوتوا العلم من قبل نزوله. فهم أرجح منكم أحلاما وأفضل مقاما، فإنهم يسمعونه ويؤمنون به ويزيدهم إيمانا بما في كتبهم من الوعد بالرسول الذي أنزل هذا عليه. وفي هذا تعريض بأن الذين أعرضوا عن الإيمان بالقرآن جهلة.

والمراد بالذين أوتوا العلم أمثال: ورقة بن نوفل، فقد تسامع أهل مكّة بشهادته للنبيء ﷺ، ومن آمن بعد نزول هذه السورة من مثل: عبد الله بن سلام، ومعيقيب، وسلمان الفارسي. ففي هذه الآية إخبار بمغيب.

{ **يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً** } **الخرور**: سقوط الجسم. وتقدّم في قوله { وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً } [الأعراف:143].

{ **لِلْأَذْقَانِ** } اللام بمعنى (على) كما في قوله تعالى { وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ } [الصافات:103].

وأصل هذه اللام أنّها استعارة تبعية. استعير حرف الاختصاص لمعنى الاستعلاء للدلالة على مزيد التمكّن كتمكن الشيء بما هو مختص به.

الأذقان: جمع الذَقَن (بفتح الذال وفتح القاف) مجتمع اللحيين وذكر الذقن للدلالة على تمكينهم الوجوه كلّها من الأرض من قوة الرغبة في السجود، لما فيه من استحضار الخضوع لله تعالى.

{ **سُجَّداً** } جمع ساجد، وهو في موضع الحال من ضمير { يَخِرُّونَ } لبيان الغرض من هذا الخرور.

{ **وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا** } عطفت على { يَخِرُّونَ } للإشارة إلى أنّهم يجمعون بين الفعل الدال على الخضوع والقول الدال على التنزيه والتعظيم. ونظيره قوله { خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ } [السجدة:15].

على أنّ في قولهم { سُبْحَانَ رَبِّنَا } دلالة على التعجب والبهجة من تحقّق وعد الله في التوراة والإنجيل بمجيء الرسول الخاتم ﷺ.

{ **إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً** } من تمام مقولهم. وهو المقصود من القول. لأنّ تسبيحهم قبله تسبيح تعجّب

واعتبار بأنّه الكتاب الموعود به وبرسوله في الكتب السابقة.

{ **مَفْعُولاً** } أن الله يفعل ما جاء في وعده، أي يحقّقه. وهذا السجود سجود تعظيم لله إذ حقق وعده بعد سنين.

{ **وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً** } تكرير للجملة باختلاف الحال المقترنة بها. فالخرور المحكي بالجملة الثانية هو الخرور الأول، وأنّما خروا خرورا واحدا ساجدين باكين، فذكر مرّتين اهتماما بما صحبه من علامات الخشوع.

{ **يَبْكُونَ** } صيغة المضارع لاستحضار الحالة. والبكاء بكاء فرح وبهجة.

ويزيدهم القرآن خشوعا على خشوعهم الذي كان لهم من سماع كتابهم.

ومن السنة سجود القارئ والمستمع له بقصد، عند هذه الآية اقتداء بأولئك الساجدين بحيث لا يذكر المسلم سجود أهل الكتاب عند سماع القرآن إلّا وهو يرى نفسه أجدر بالسجود عند تلاوة القرآن.

{ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً** } [110].

{ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** }

لا شكّ أنّ لنزول هذه الآية سببا خاصا إذ لا موجب لذكر هذا التخيير بين دعاء الله تعالى باسمه العلم وبين دعائه بصفة الرحمان خاصة دون ذكر غير تلك الصفة من صفات الله مثل: الرحيم أو العزيز وغيرهما من الصفات الحسنى. ثم لا بد بعد ذلك من طلب المناسبة لوقوعها في هذا الموضع من السورة.

فأمّا سبب نزولها فروى الطبري والواحدي عن ابن عباس قال: " كان النبيء ﷺ ساجدا يدعو يا رحمان يا رحيم، فقال المشركون: هذا يزعم أنّه يدعو واحدا وهو يدعو مثنى مثنى، فأنزل الله تعالى { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} . وعليه فالاقتصار على التخيير في الدعاء بين اسم الله وبين صفة الرحمان اكتفاء، أي أو الرحيم.

وفي الكشاف: عن ابن عباس: سمع أبو جهل النبيء ﷺ يقول: يا الله يا رحمان. فقال أبو جهل: أنّه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلها آخر ". وأخرجه ابن مردويه. وهذا أنسب بالآية لاقتصارها على اسم الله وصفة الرحمان.

وأما موقعها هنا فيتعين أن يكون سبب نزولها حدث حين نزول الآية التي قبلها.

والكلام ردّ وتعليم بأنّ تعدّد الأسماء لا يقتضي تعدد المسمّى، وشتان بين ذلك وبين دعاء المشركين آلهة مختلفة الأسماء والمسمّيات، والتوحيد والإشراك يتعلقان بالذوات لا بالأسماء.

{ **ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ** } ادعوا هذا الاسم أو هذا الاسم، أي اذكروا في دعائكم هذا أو هذا، فالمسمّى واحد. وعلى هذا التفسير قد وقع تجوُّز في فعل { ادْعُوا } مستعملا في معنى اذكروا أو سمّوا في دعائكم.

ويجوز أن يكون الدعاء مستعملا في معنى سمّوا، وهو حينئذ يتعدى إلى مفعولين. والتقدير: سمّوا ربكم الله أو سمّوه الرحمان.

{ **أَيّاً** } اسم استفهام في الأصل، فإذا اقترنت بها (ما) الزائدة أفادت الشرط، كما تفيده (كيف) إذا اقترنت بها (ما) الزائدة. ولذلك جزم الفعل بعدها وهو {تَدْعُوا} شرطا، وجيء لها بجواب مقترن بالفاء:

{ **فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** } علّة الجواب. والتقدير: لا حرج في دعائه بعدة أسماء إذ له الأسماء الحسنى.

{ **وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً** } لا شك أن لهذه الجملة اتصالا بجملة { **قُلِ** ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ }، فقد كان ذلك بسبب جهر النبيء ﷺ في دعائه باسم الرحمان.

الصلاة: تحتمل الدعاء، وتحتمل العبادة المعروفة. وقد فسّرها السلف هنا بالمعنيين. ومعلوم أنّ من فسّر الصلاة بالعبادة المعروفة فإنّما أراد قراءتها خاصة، لأنّها التي توصف بالجهر والمخافتة.

ولعلّ سفهاء المشركين توهّموا من صدع النبيء ﷺ بالقراءة أو بالدعاء أنّه يريد بذلك التحكّك بهم والتطاول عليهم بذكر الله تعالى مجردا عن ذكر آلهتهم فاغتاظوا وسبّوا. فأمره الله تعالى بأن لا يجهر بصلاته هذا الجهر تجنّبا لما من شأنه أن يثير حفائظهم ويزيد تصلّبهم في كفرهم في حين أنّ المقصود تليين قلوبهم. والمقصود من الكلام النهي عن شدّة الجهر.

{ **وَلا تُخَافِتْ بِهَا** } المقصود منه الاحتراس لكيلا يجعل دعاءه سرّا أو صلاته كلّها سرا فلا يبلغ أسماع المتهيئين للاهتداء به، لأنّ المقصود من النهي عن الجهر تجنب جهر يتوهّم منه الكفار تحكّكا أو تطاولا.

الجهر: قوّة صوت الناطق بالكلام.

المخافتة: من خفت بكلامه، إذا أسرّ به. وصيغة المفاعلة مستعملة في معنى الشدّة، أي لا تسرّها.

{ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً } [111]

لمّا كان النهي عن الجهر بالدعاء أو قراءة الصلاة سدّا لذريعة زيادة تصميمهم على الكفر أعقب ذلك بأمره بإعلان التوحيد لقطع دابر توهّم من توهّموا أنّ الرحمان اسم لمسمّى غير مسمّى اسم الله، فبعضهم توهّمه إلها شريكا، وبعضهم توهّمه معينا وناصرا، أمر النبيء بأن يقول ما يقلع ذلك كلّه وأن يعظّمه بأنواع من التعظيم.

{ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ** } تقتضي تخصيصه تعالى بالحمد، أي قصر جنس الحمد عليه تعالى لأنّه أعظم مستحقّ لأن يُحمد. فالتخصيص ادعائي بادعاء أن دواعي حمد غير الله تعالى في جانب دواعي حمد الله بمنزلة

العدم، كما تقدّم في سورة الفاتحة.

{ مِنَ الذُّلِّ } (من) بمعنى لام التعليل.

الذلّ: العجز والافتقار. والمراد: نفي الناصر له على وجه مؤكّد، فإنّ الحاجة إلى الناصر لا تكون إلّا من العجز عن الانتصار للنفس.

{ كَبِّرْهُ } اعتقد أنّه كبير، أي عظيم.

{ تَكْبِيراً } المفعول المطلق للتوكيد، ولما في التنوين من التعظيم. ولأنّ من هذه صفاته هو الذي يقدر على إعطاء النعم التي يعجز غيره عن إسدائها.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الكهف

سمّاها رسول الله ﷺ سورة الكهف.

روى مسلم، وأبو داود، عن أبي الدرداء عن النبيء ﷺ قال: " من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف "، وفي رواية لمسلم: " من آخر الكهف، عصم من فتنة الدجال". ورواه الترمذي عن أبي الدرداء بلفظ: " من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف عصم من فتنة الدجال". قال الترمذي: " حديث حسن صحيح ".

وكذلك وردت تسميتها عن البراء بن عازب في صحيح البخاري، قال: " كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشَطَنين فتغشّته سحابة فجعلت تدنو، وتدنو، وجعل فرسه ينفر، فلمّا أصبح أتى النبيء ﷺ فذكر ذلك له، فقال: " تلك السكينة تنزّلت بالقرآن ".

وفي حديث أخرجه ابن مردويه عن النبيء ﷺ " أنّه سماها سورة أصحاب الكهف ".

وهي مكّيّة بالاتفاق كما حكاه ابن عطية. وقيل قوله { وَاصْبِرْ نَفسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ } [28] نزلتا بالمدينة، وقيل قوله { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً } [107] إلى آخر السورة نزل بالمدينة. وكلّ ذلك ضعيف كما سيأتي التنبيه عليه في مواضعه.

نزلت بعد سورة الغاشية وقبل سورة الشورى.

وهي الثامنة والستون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد.

وقد ورد في فضلها أحاديث متفاوتة أصحّها الأحاديث المتقدّمة.

وهي من السور التي نزلت جملة واحدة. روى الديلمي في سند الفردوس عن أنس قال: نزلت سورة الكهف جملة معها سبعون ألفا من الملائكة. وقد أغفل هذا صاحب (الإتقان) .

وعدّت آيها في عدد قراء المدينة ومكّة مائة وخمسا، وفي عدد قراء الشام مائة وستا، وفي عدد قراء البصرة مائة وإحدى عشرة، وفي عدّ قراء الكوفة مائة وعشرا، بناء على اختلافهم في تقسيم بعض الآيات إلى آيتين.

وسبب نزولها ما ذكره كثير من المفسّرين، وبسطه ابن إسحاق في سيرته بدون سند، وأسنده الطبري إلى ابن عبّاس بسند فيه رجل مجهول: " أنّ المشركين لمّا أهمّهم أمر النبيء ﷺ وازدياد المسلمين معه وكثر تساؤل الوافدين إلى مكّة من قبائل العرب عن أمر دعوته، بعثوا النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة يثرب يسألونهم رأيهم في دعوته، وهم يطمعون أن يجد لهم الأحبار ما لم يهتدوا إليه ممّا يوجّهون به تكذيبهم إيّاه . قالوا: فإنّ اليهود أهل الكتاب الأوّل وعندهم من علم الأنبياء، أي صفاتهم وعلاماتهم علم ليس عندنا، فقدم النضر وعقبة إلى المدينة ووصفا لليهود دعوة النبيء ﷺ وأخبراهم ببعض قوله. فقال لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث؟ فإن أخبركم بهنّ فهو نبئ وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل ما كان أمرهم، وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وسلوه عن الروح ما هي. فرجع النضر وعقبة فأخبرا قريشا بما قاله أحبار اليهود، فجاء جمع من المشركين إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن هذه الثلاثة، فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم بما سألتم عنه غدا وهو ينتظر وقت نزول الوحي عليه بحسب عادة يعلمها. ولم يقل: إن شاء الله. فمكث رسول الله ثلاثة أيام لا يوحى إليه، وقال ابن إسحاق: خمسة عشر يوما، فأرجف أهل مكّة وقالوا: وعدنا محمد غدا وقد أصبحنا اليوم عدّة أيام لا يخبرنا بشيء ممّا سألناه عنه، حتّى أحزن ذلك رسول الله ﷺ وشقّ عليه، ثم جاءه جبريل عليه السلام بسورة الكهف وفيها جوابهم عن الفتية وهم أهل الكهف، وعن الرجل الطواف وهو ذو القرنين. وأنزل عليه فيما سألوه من أمر الروح { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً } [الاسراء: 85].

وقد يعترضك هنا: أن الآية التي نزلت في أمر الروح هي من سورة الإسراء فلم تكن مقارنة للآية النازلة في

شان الفتية وشأن الرجل الطواف فماذا فرّق بين الآيتين، وأن سورة الإسراء نزلت قبل سورة الكهف. وقد يجاب عن هذا بأنّ آية الروح قد تكون نزلت على أن تلحق بسورة الإسراء، فإنّها نزلت في أسلوب سورة الإسراء وعلى مثل فواصلها، ولأن الجواب فيها جواب بتفويض العلم إلى الله، وهو مقام يقتضي الإيجاز، بخلاف الجواب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين فإنه يستدعي بسطا وإطنابا ففرقت آية الروح عن القصتين.

على أنه يجوز أن يكون نزول سورة الإسراء مستمرا إلى وقت نزول سورة الكهف، فأنزل قرآن موزع عليها وعلى سورة الكهف.

فاتّضح من هذا أنّ أهم غرض نزلت فيه سورة الكهف هو بيان قصّة أصحاب الكهف، وقصّة ذي القرنين. وقد ذكرت أولاهما في أول السورة وذكرت الأخرى في آخرها.

وهي مفتتحة بالحمد حتّى يكون افتتاح النصف الثاني من القرآن بـ { الْحَمْدُ لِلَّهِ } كما كان افتتاح النصف الأول بـ { الْحَمْدُ لِلَّهِ } .

أغراض السورة

افتتحت بالتحميد على إنزال الكتاب للتنويه بالقرآن تطاولا من الله تعالى على المشركين وملقّنيهم من أهل الكتاب.

وأدمج فيه إنذار المعاندين الذين نسبوا لله ولدا، وبشارة للمؤمنين.

وتسلية رسول الله ﷺ عن أقوالهم حين تريّث الوحي، لما اقتضته سنّة الله مع أوليائه من إظهار عتبه على الغفلة عن مراعاة الآداب الكاملة.

وذكر افتتان المشركين بالحياة الدنيا وزينتها وأنّها لا تكسب النفوس تزكيّة.

وانتقل إلى خبر أصحاب الكهف المسؤول عنه.

وحذّرهم من الشيطان وعداوته لبني آدم ليكونوا على حذر من كيده.

وقدّم لقصة ذي القرنين قصّة أهم منها وهي قصّة موسى والخضر عليهما السلام، لأنّ كلتا القصتين تشابهتا في السفر لغرض شريف. فذو القرنين خرج لبسط سلطانه على الأرض، وموسى عليه السلام خرج في طلب العلم.

وفي ذكر قصّة موسى تعريض بأحبار بني إسرائيل إذ تهمّموا بخبر ملك من غير قومهم ولا من أهل دينهم ونسوا خبرا من سيرة نبيّهم.

وتخلّل ذلك مستطردات من إرشاد النبيء ﷺ وتثبيته. وأنّ الحقّ فيما أخبر به، وأنّ أصحابه الملازمين له خير من صناديد المشركين.

ومن الوعد والوعيد، وتمثيل المؤمن والكافر، وتمثيل الحياة الدنيا وانقضائها، وما يعقبها من البعث والحشر.

والتذكير بعواقب الأمم الدنيا وانقضائها، وما يعقبها من البعث والحشر، والتذكير بعواقب الأمم المكذبة للرّسل.

وما ختمت به من إبطال الشرك ووعيد أهله، ووعد المؤمنين بضدّهم، والتمثيل لسعة علم الله تعالى.

وختمت بتقرير أن القرآن وحي من الله تعالى إلى رسوله ﷺ فكان في هذا الختام محسن رد العجز على الصدر.

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا [1] قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً [2] مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً } [3].

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا قَيِّماً }.

موقع الافتتاح بهذا لتحميد كموقع الخطبة يفتتح بها الكلام في الغرض المهمّ.

ولما كان إنزال القرآن على النبيء ﷺ أجزل نَعماء الله تعالى على عباده المؤمنين لأنّه سبب نجاتهم في حياتهم الأبدية، وسبب فوزهم في الحياة العاجلة بطيب الحياة وانتظام الأحوال والسيادة على النّاس، ونعمة على النبيء ﷺ بأن جعله واسطة ذلك ومبلّغه ومبيّنه، لأجل ذلك استحقّ الله تعالى أكمل الحمد إخبارا وإنشاء.

وقد تقدّم إفادة جملة { الْحَمْدُ لِلَّهِ } استحقاقه أكمل الحمد في صدر سورة الفاتحة.

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ } جملة خبرية. أخبر الله نبيه والمسلمين بأنّ مستحقّ الحمد هو الله تعالى لا غيره.

فأجرى على اسم الجلالة الوصف بالموصول تنويها بمضمون الصلة ولما يفيده الموصول من تعليل الخبر.

{ عَلَى عَبْدِهِ } وذكر النبيء ﷺ بوصف العبودية لله تقريب لمنزلته وتنويه به بما في إنزال الكتاب عليه من رفعة قدره كما في قوله تعالى { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ } [الفرقان: 1].

الكتاب: القرآن. فكلّ مقدار منزّل من القرآن فهو { الكتاب } . فالمراد بالكتاب هنا ما وقع إنزاله من يوم البعثة في غار حراء إلى يوم نزول هذه السورة، ويلحق به ما ينزل بعد هذه الآية.

{ **وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا** } معترضة بين { الكتاب } وبين الحال منه وهو { قيّما }. ويجوز كون الجملة حالا.

العِوَج (بكسر العين وفتحها وبفتح الواو): حقيقته انحراف جسم ما عن الشكل المستقيم، فهو ضد الاستقامة. ويطلق مجازا على الانحراف عن الصواب والمعاني المقبولة المستحسنة.

والذي عليه المحقّقون من أئمة اللغة أن مكسور العين ومفتوحها سواء في الإطلاقين الحقيقي والمجازي.

والمراد بالعوج هنا عوج مدلولات كلامه بمخالفتها للصواب وتناقضها وبعدها عن الحكمة وإصابة المراد.

والمقصود من هذه الجملة المعترضة أو الحالية إبطال ما يرميه به المشركون من قولهم افتراه، وأساطير الأوّلين، وقول كاهن، لأن تلك الأمور لا تخلو من عوج. قال تعالى { أَفلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً } [النساء: 82].

وإنّما عدّي الجعل بـ (اللام) دون (في) لأنّ العوج المعنوي يناسبه حرف الاختصاص دون حرف الظرفيّة، لأنّ الظرفيّة من علائق الأجسام، وأمّا معنى الاختصاص فهو أعمّ.

فالمعنى: أنّه متّصف بكمال أوصاف الكتب من صحة المعاني والسلامة من الخطأ والاختلاف. وهذا وصف كمال للكتاب في ذاته، وهو مقتض أنّه أهل للانتفاع به، فهذا كوصفه بـ { أنّه لا رَيْبَ فيهِ } [البقرة: 2].

{ **قَيِّماً** } حال من {الكتاب}. والقيّم: صفة مبالغة من القيام المجازي الذي يطلق على دوام تعهّد شيء وملازمة صلاحه، لأنّ التعهّد يستلزم القيام لرؤية الشيء والتيقّظ لأحواله، كما تقدّم عند قوله تعالى { الْحَيُّ الْقَيُّومُ } [البقرة: 255]. والمراد به هنا أنّه قيّم على هدي الأمّة وإصلاحها، فالمراد أنّ كماله متعدٍ بالنفع، فوزانه وِزان وصفه بأنّه { هُدىً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة: 2].

{ **لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ** } متعلّق بـ { أنزل} . والضمير المرفوع عائد إلى اسم الجلالة، أي لينذر الله بأسا شديدا من لدنه، والمفعول الأوّل لـ { ينذر } محذوف لقصد التعميم، أو تنزيلا للفعل منزلة اللازم لأنّ المقصود المنذر به، وهو البأس الشديد، تهويلا له، ولتهديد المشركين المنكرين إنزال القرآن من الله.

البأس: الشدّة في الألم. ويطلق على القوّة في الحرب لأنّها تؤلم العدو. وقد تقدّم في قوله تعالى { وَالصَّابِرِينَ في الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ } [البقرة: 177]. والمراد هنا: شدّة الحال في الحياة الدنيا، وذلك هو الذي أطلق على اسم البأس في القرآن. وعليه درج الطبري. وهذا إيماء بالتهديد للمشركين بما سيلقونه من القتل والأسر بأيدي المسلمين، وذلك بأس من لدنه تعالى، لأنّه بتقديره وبأمره عباده أن يفعلوه.

{ **مِنْ لَدُنْهُ** } مستعمل هنا في معنييه الحقيقي والمجازي. ويجوز أن يراد بالبأس عذاب الآخرة فإنّه بأس شديد، ويكون قوله { مِنْ لَدُنْهُ } مستعملا في حقيقته. وبهذا الوجه فسر جمهور المفسرين.

{ **وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً** }

عطف على قوله { لينذر بأسا } ، فهو سبب آخر لإنزال الكتاب أثارته مناسبة ذكر الإنذار ليبقى الإنذار موجّها إلى غيرهم.

{ **أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً** } متعلّق بـ { يُبَشِّرَ }. وذكر الإيمان والعمل الصالح للإشارة إلى أنّ استحقاق ذلك الأجر بحصول ذلك لأمرين.

المكث: الاستقرار في المكان، للدلالة على أنّ الأجر الحسن كالمحيط بهم لا يفارقهم طرفة عين.

{ **أَبَداً** } ليس بتأكيد بل أفيد بمجموعها الإحاطة والدوام.

{ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً [4] مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً } [5].

تعليل آخر لإنزال الكتاب على عبده، باعتبار أنّ المراد هنا إنذار مخصوص مقابل لما بشّر به المؤمنين.

وهذا إنذار بجزاء خالدين فيه وهو عذاب الآخرة، فإن جريتَ على تخصيص البأس في قوله { بَأْساً شَدِيداً } بعذاب الدنيا كما تقدّم كان هذا الإنذار مغايرا لما قبله، وإن جريتَ على شمول البأس للعذابين كانت إعادة فعل { ينذر } تأكيدا، وهو يومئ إلى المنذرين المحذوف في قوله { لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً } ويغني عن ذكره.

وهذه العلة أثارتها مناسبة ذكر التبشير قبلها.

{ **الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً** } هنا المشركون الذين زعموا أنّ الملائكة بنات الله، وليس المراد به النصارى الذين قالوا بأنّ عيسى ابن الله تعالى، لأنّ القرآن المكّي ما تعرّض للردّ على أهل الكتاب مع تأهّلهم للدخول في العموم لاتّحاد السبب.

والتعبير عنهم بالموصول وصلته لأنّهم قد عُرفوا بهذه المقالة بين أقوامهم وبين المسلمين تشنيعا عليهم.

الولد: اسم لمن يولد من ذكر أو أنثى، يستوي فيه الواحد والجمع. وتقدّم في قوله تعالى { قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ } [يونس:68].

{ **مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ** } حال من { الَّذِينَ قَالُوا } . وفائدة ذكر هذه الحال أنّها أشنع في كفرهم وهي أن يقولوا كذبا ليست لهم فيه شبهة.

{ **ولا لآبائهم** } لقطع حجّتهم لأنّهم كانوا يقولون { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ } [الزخرف: 23]، فإذا لم يكن لآبائهم حجّة على ما يقولون فليسوا جديرين بأن يقلّدوهم.

{ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً** }

استئناف بالتشاؤم بذلك القول الشنيع. ووجه فصل الجملة أنّها مخالفة للتي قبلها بالإنشائيّة المخالفة للخبريّة.

{ **كَبُرَتْ** } أصله الإخبار عن الشيء بضخامة جسمه، ويستعمل مجازا في الشدّة والقوّة في وصف من الصفات المحمودة والمذمومة على وجه الاستعارة، وهو هنا مستعمل في التعجّب من كبر هذه الكلمة في الشناعة بقرينة المقام. ودلّ على قصد التعجّب منها انتصاب { **كَلِمَةً** } على التمييز إذ لا يحتمل التمييز هنا معنى غير أنّه تمييز نسبة التعجّب.

{ **كَلِمَةً** } أطلقت على الكلام وهو إطلاق شائع، ومنه قوله تعالى { إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا } [المؤمنون:100]، وقول النبيء ﷺ: " أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل ".

{ **تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ** } صفة لـ { كلمة } مقصود بها من جرأتهم على النطق بها ووقاحتهم في قولها. والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار صورة خروجها من أفواههم تخيلا لفظاعتها.

الأفواه: جمع فم بوزن أفعال، لأنّ أصل فم (فَوَه) – بفتحتين - ، أو (فيه) بوزن ريح. ولما جمعوه ردوه إلى أصله.

{ **إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً** } مؤكدة لمضمون جملة { تَخْرُجُ مِنْ أَفوَاهِهِمْ } لأنّ الشيء الذي تنطق به الألسن ولا تحقّق له في الخارج ونفس الأمر هو الكذب.

{ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً }[6]

تفريع على جملة { وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً } [4] باعتبارهم مكذّبين كافرين.

{ **فَلَعَلَّكَ** } حقيقتها إنشاء الرجاء والتوقّع، وتستعمل في الإنكار والتحذير على طريقة المجاز المرسل لأنّهما لازمان الأمر المكروه. وهي هنا مستعملة في تحذير الرسول ﷺ من الاغتمام والحزن على عدم إيمان من لم يؤمنوا من قومه. وذلك في معنى التسلية.

الباخع: قاتل نفسه، كذا فسّره ابن عباس ومجاهد والسدّي وابن جبير. وفسّره البخاري بمهلك. وتفسيره يرجع إلى أبي عبيدة.

وفي اشتقاقه خلاف، فقيل مشتق البِخاع (بوزن كتاب) وهو عرق مستبطن في القفا فإذا بلغ الذابح البِخاع فذلك أعمق الذبح، قاله الزمخشري في قوله تعالى { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفسَكَ } [الشعراء:3]. وانفرد الزمخشري بذكر هذا الاشتقاق في (الكشاف) و (الفائق) و (الأساس) . وكفى بالزمخشري حجّة فيما أثبته. وقد تبعه عليه المطرزي في (المغرب) وصاحب (القاموس) .

البخع: أصله أن يبلغ الذابح بالذبح إلى القفا ثم أطلق على القتل المشوب بغيظ.

{ **آثَارِهِمْ** } جمع أثر وهو ما يؤثره، أي يبقيه الماشي أو الراكب في الرمل أو الأرض من مواطئ أقدامه وأخفاف راحلته. والأثر أيضا ما يبقيه أهل الدار إذا ترحّلوا عنها من تافه آلاتهم التي كانوا يعالجون بها شؤونهم كالأوتاد والرماد.

والمعنى: لعلّك مهلك نفسك لأجل إعراضهم عنك كما يعرض السائر عن المكان الذي كان فيه. فتكون {على} للتعليل.

ويجوز أن يكون المعنى تمثيل حال الرسول ﷺ في شدّة حرصه على اتّباع قومه له وفي غمّه من إعراضهم. وتمثيل حالهم في النفور والإعراض بحال من فارقه أهله وأحبّته فهو يرى آثار ديارهم ويحزن لفراقهم.

ويكون حرف (على) مستقرّا في موضع الحال من ضمير الخطاب، ومعنى (على) الاستعلاء المجازي وهو شدة الاتصال بالمكان.

وكأن هذا الكلام سيق إلى الرسول ﷺ، في آخر أوقات رجائه في إيمانهم، إلى أنّهم غير صائرين إلى الإيمان، وتهيئة لنفسه أن تتحمل ما سيلقاه من عنادهم، رأفة من ربّه.

{ **بِهَذَا الْحَدِيثِ** } اسم الإشارة وبيانه مراد به القرآن، لأنّه لحضوره في الأذهان كأنه حاضر في مقام نزول الآية فأشير إليه بذلك الاعتبار. وبيّن بأنه الحديث.

الحديث: الخبر. وإطلاق اسم الحديث على القرآن باعتبار أنّه إخبار من الله لرسوله، إذ الحديث هو الكلام الطويل المتضمن أخبارا وقصصا. أي الأخبار المستجدّة التي لا يعلمها المخاطب،. وانظر ما يأتي عند قوله تعالى { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ } [الزمر:23].

{ **أَسَفًا** } مفعول له من { بَاخِعٌ نَفسَكَ } أي قاتلها لأجل شدة الحزن، والشرط معترض بين المفعولين.

{ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً [7] وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً } [8].

مناسبة موقع هذه الآية هنا خفيّة جدًّا أعوز المفسّرين بيانها، منهم ساكت عنها، ومنهم محاول بيانها بما لا يزيد على السكوت.

والذي يبدو أنّها تسلية للنبيء ﷺ على إعراض المشركين بأنّ الله أمهلهم وأعطاهم زينة الدنيا لعلّهم يشكرونه، وأنّهم بطروا النعمة، فإنّ الله يسلب عنه النعمة فتصير بلادهم قاحلة. وهذا تعريض بأن سيحلّ بهم قحط السنين السبع التي سأل الله رسول الله ربه أن يجعلها على المشركين كسنين يوسف عليه السلام.

ولهذا اتصال بقوله { لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ } [2].

ويحصل من ذلك تذكير بعضهم قدرة الله تعالى، وخاصة ما كان منها إيجادا للأشياء وأضدادها من حياة الأرض وموتها المماثل لحياة النّاس وموتهم، والمماثل للحياة المعنويّة والموت المعنوي من إيمان وكفر، ونعمة ونقمة، كلّها عِبَر لمن يعتبر بالتغيّر ويأخذ إلى الانتقال من حال إلى حال فلا يثق بقوته وبطشه.

وأوثر الاستدلال بحال الأرض التي عليها النّاس لأنّها أقرب إلى حسّهم وتعلّقهم، كما قال تعالى { وَفي

الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ } [الذريات:20].
وقد جاء نظم هذا الكلام على أسلوب الإعجاز في جمع معان كثيرة يصلح اللفظ لها من مختلف الأعراض المقصودة، فإنّ الإخبار عن خلق ما على الأرض زينة يجمع الامتنان على النّاس والتذكير ببديع صنع الله إذ وضع هذا العالم على أتقن مثال ملائم لما تحبّه النفوس من الزينة والزخرف. والامتنان بمثل هذا كثير، مثل قوله { وَلَكُمْ فيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ } [النحل: 6]، وقال { زُيِّنَ للنّاس حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ } [آل عمران:14] ولا تكون الأشياء زينة إلّا وهي مبثوثة فيها الحياة التي بها نماؤها وازدهارها.
ومن لوازم هذه الزينة أنها توقظ العقول إلى النظر في وجود منشئها وتسبر غور النفوس في مقدار الشكر لخالقها وجاعلها لهم، فمن موف بحق الشكر، ومقصّر فيه وجاحد كافر بنعمة هذا المنعم ناسب إيّاها إلى غير موجدها.
البلو: الاختبار والتجربة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفسٍ مَا أَسْلَفتْ } [يونس:30]. وهو هنا مستعار لتعلّق علم الله التنجيزي بالمعلوم عند حصوله، بقرينة الأدلة العقلية والسمعية الدالة على إحاطة علم الله بكلّ شيء قبل وقوعه، فهو مستغن عن الاختبار والتجربة. وفائدة هذه الاستعارة الانتقال منها إلى الكناية عن ظهور ذلك لكلّ النّاس حتّى لا يلتبس عليهم الصالح بضدّه.
{ **وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً** } تكميل للعبرة وتحقيق لفناء العالم. أي سنجعل ما على الأرض كلّه معدوما، فلا يكون على الأرض إلّا تراب جاف أجرد لا يصلح للحياة فوقه وذلك هو فناء العالم، قال تعالى {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ } [ابراهيم: 48].
الصعيد: التراب. و**الجرز**: القاحل الأجرد. وسيأتي بيان معنى الصعيد عند قوله { فتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً }[40].

{ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً }[9]

{ أَمْ } للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض. ولمّا كان هذا من المقاصد التي أنزلت السورة لبيانها لم يكن هذا الانتقال اقتضابا بل هو كالانتقال من الديباجة والمقدّمة إلى المقصود.
على أن مناسبة الانتقال إليه تتصل بقوله تعالى { فلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً } [6]، إذ كان ممّا صرف المشركين عن الإيمان إحالتهم الإحياء بعد الموت، فكان ذكر أهل الكهف وبعثهم بعد خمودهم سنين طويلة مثالا لإمكان البعث.
والتقدير هنا: أحسبت أنّ أصحاب الكهف كانوا عجبا من بين آياتنا، فإنّ إماتة الأحياء بعد حياتهم من عجب إنامة أهل الكهف، لأنّ في إنامتهم إبقاء للحياة في أجسامهم وليس في إماتة الأحياء إبقاء لشيء من الحياة فيهم

على كثرتهم وانتشارهم. وهذا تعريض بغفلة الذين طلبوا من النبيء ﷺ بيان قصّة أهل الكهف لاستعلام ما فيها من العجب، بأنّهم سألوا عن عجيب وكفروا بما هو أعجب، وهو انقراض العالم، فإنّهم كانوا يُعْرِضون عن ذكر فناء العالم ويقولون { مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } [الجاثية: 24]. أي إنّ الحياة إلّا حياتنا الدنيا لا حياة الآخرة وأنّ الدهر يهلكنا وهو باق.

وفيه لفت لعقول السائلين عن الاشتغال بعجائب القصص إلى أنّ الأولى لهم الاتّعاظ بما فيها من العبر والأسباب وآثارها. ولذلك ابتدئ ذكر أحوالهم بقوله { إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فقَالُوا رَبَّنَا } [10]، فأعلَم النّاس بثبات إيمانهم بالله ورجائهم فيه، وبقوله { إِنَّهُمْ فتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً} [13]. الدال على أنّهم أبطلوا الشرك وسفّهوا أهله، تعريضا بأنّ حقّ السامعين أن يقتدوا بهداهم.

والخطاب للنبيء ﷺ والمراد: قومه الذين سألوا عن القصة، وأهل الكتاب الذين أغروهم بالسؤال عنها وتطلّب بيانها. ويظهر أن الذين لقنوا قريشا السؤال عن أهل الكهف هم بعض النصارى الذين لهم صلة بأهل مكّة، من التّجار الواردين إلى مكّة، أو من الرهبان الذين في الأديرة الواقعة في طريق رحلة قريش من مكّة إلى الشام وهي رحلة الصيف.

{ مِنْ آيَاتِنَا } أي من بين آياتنا الكثيرة المشاهدة لهم وهم لا يتعجّبون منها ويقصرون تعجّبهم على أمثال هذه الخوارق، فيؤول المعنى إلى أنّ أهل الكهف ليسوا هم العجب من بين الآيات الأخرى، بل عجائب صنع الله تعالى كثيرة، منها ما هو أعجب من حال أهل الكهف ومنها ما يساويها.

الكهف: الشقّ المتسع الوسط في جبل، فإن لم يكن متّسعا فهو غار.

الرقيم: فعيل بمعنى مفعول من الرقم وهو الكتابة. فالرقيم كتاب كان مع أصحاب الكهف في كهفهم. قيل: كتبوا فيه ما كانوا يدينون به من التوحيد، وقيل: هو كتاب دينهم، دين كان قبل عيسى عليه السلام، وقيل: هو دين عيسى، وقيل: كتبوا فيه الباعث الذي بعثهم على الالتجاء إلى الكهف فرارا من كفر قومهم.

وقد أشارت الآية إلى قصّة نفر من صالحي الأمم السالفة ثبتوا على دين الحقّ في وقت شيوع الكفر والباطل فانزووا إلى الخلوة تجنبا لمخالطة أهل الكفر فأووا إلى كهف استقروا فيه فرارا من الفتنة في دينهم، فأكرمهم الله تعالى بأن ألقى عليهم نوما بقوا فيه مدّة طويلة ثم أيقظهم فأراهم انقراض الذين كانوا يخافونهم على دينهم. وبعد أن أيقنوا بذلك أعاد نومتهم الخارقة للعادة فأبقاهم أحياء إلى أمد يعلمه الله أو أماتهم وحفظ أجسادهم من البلى كرامة لهم.

وقد عرف النّاس خبرهم ولم يقفوا على أعيانهم ولا وقفوا رقيمهم، ولذلك اختلفوا في شأنهم، فمنهم من يثبت وقوع قصّتهم ومنهم من ينفيها.

ولمّا كانت معاني الآيات لا تتضح إلّا بمعرفة ما أشارت إليه من قصّة أهل الكهف تعيّن أن نذكر ما صح

عند أعلام المؤرّخين على ما فيه من اختلاف. وقد ذكر ابن عطية ملخّصا في ذلك دون تعريج على ما هو من زيادات المبالغين والقصاص.

والذي ذكره الأكثر أن في بلد يقال له (**أبْسُس**) - بفتح الهمزة وسكون الموحدة وضم السين بعدها سين أخرى مهملة - وكان بلدا من ثغور طرطوس بين حلب وبلاد أرمينية وأنطاكية.

وليست هي (أفسس) المعروفة في بلاد اليونان بشهرة هيكل المشتري فيها فإنها من بلاد اليونان وإلى أهلها كتب بولس رسالته المشهور. وقد اشتبه ذلك على بعض المؤرخين والمفسرين.

وهي قريبة من مرعش من بلاد أرمينية، وكانت الديانة النصرانية دخلت في تلك الجهات، وكان الغالب عليها دين عبادة الأصنام على الطريقة الرومية الشرقية قبل تنصّر قسطنطين، فكان من أهل أبْسُس نفر من صالحي النصارى يقاومون عبادة الأصنام. وكانوا في زمن الامبراطور (**دوقيوس** ويقال **دقيانوس**) الذي ملك في حدود سنة (237م)، وكان ملكه سنة واحدة، وكان متعصّبا للديانة الرومانية وشديد البغض للنصرانية، فأظهر كراهية الديانة الرومانية. وتوعّدهم (**دوقيوس**) بالتعذيب، فاتفقوا على أن يخرجوا من المدينة إلى جبل بينه وبين المدينة فرسخان يقال له (**بنجلوس**) فيه كهف أووا إليه وانفردوا فيه بعبادة الله. ولما بلغ خبر فرارهم مسامع الملك وأنّهم أووا إلى الكهف أرسل وراءهم فألقى الله عليهم نومة فظنهم أتباع الملك أمواتا. وقد بقوا في رقدتهم مدة طويلة، وذكر القرآن أنّها ثلاثمائة سنة.

وكان انبعاثهم في مدة ملك (**ثاوذوسيوس**) قيصر الصغير، ثم إنّ الله جعلهم آية لأنفسهم وللنّاس فيبعثهم من مرقدهم، ولم يعلموا مدّة مكثهم وأرسلوا أحدهم إلى المدينة، وهي (**أبسس**)، بدراهم ليشتري لهم طعاما. تعجب النّاس من هيئته ومن دراهمه وعجب هو ممّا رأى من تغيير الأحوال. وتسامع أهل المدينة بأمرهم، فخرج قيصر الصغير مع أساقفة وقسيسين وبطارقة إلى الكهف فنظروا إليهم وكلموهم وآمنوا بآيتهم، ولما انصرفوا عنهم ماتوا في مواضعهم. وكانت آية تأيّد بها دين المسيح.

والذي في كتاب الطبري أن الذين ذهبوا إلى مشاهدة أصحاب الكهف هم رئيسا المدينة (أريوس) و (أطيوس) ومن معهما من أهل المدينة، وقيل لما شاهدهم النّاس كتب واليا المدينة إلى ملك الروم. فحضر وشاهدهم وأمر بأن يبنى عليهم مسجد. ولم يذكروا هل نفّذ بناء المسجد أو لم ينفّذ. ولم يذكر أنّه وقع العثور على هذا الكهف بعد ذلك. ولعلّه قد انسد بحادث زلزال أو نحوه كرامة من الله لأصحابه.

وللكهوف ذكر شائع في اللوذ إليها والدفن بها. وقد كان المتنصّرون يُضطهدون في البلاد فكانوا يفرّون من المدن والقرى إلى الكهوف يتّخذونها مساكن فإذا مات أحدهم دفن هنالك. وربما كانوا إذا قتلوهم وضعوهم في الكهوف التي كانوا يتعبّدون فيها. ولذلك يوجد في رومية كهف عظيم من هذه الكهوف اتخذه النصارى لأنفسهم هنالك، وكانوا كثيرا ما يستصحبون معهم كلبا ليدفع عنهم الوحوش من ذئاب ونحوها. وما الكهف

الذي ذكره ابن عطية إلّا واحدٌ من هذه الكهوف.

{ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً }[10]

يجوز كون الظرف (إذ) متعلّقا بفعل محذوف تقديره: اذكر، فتكون مستأنفة استئنافا بيانيّا للجملة التي قبلها. وأيا ما كان فالمقصود إجمال قصّتهم ابتداء، تنبيها على أنّ قصتهم ليست أعجب آيات الله. مع التنبيه على أنّ ما أكرمهم الله به من العناية إنّما كان تأييدا لهم لأجل إيمانهم.

أوى أُوِيًّا إلى المكان: جعله مسكنا له، فالمكان: المأوى. وقد تقدّم عند قوله تعالى { أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [يونس: 8].

الفتية: جمع قلّة لفتى، وهو الشاب المكتمل. وتقدّم في سورة يوسف. والمراد بهم: أصحاب الكهف. وهذا من الإظهار في مقام الإضمار لأنّ مقتضى الظاهر أن يقال: إذ أووا، فعدل عن ذلك لما يدلّ عليه لفظ الفتية من كونهم أترابا متقاربي السنّ. وذكرهم بهذا الوصف للإيماء إلى ما فيه من اكتمال خُلُق الرجوليّة المعبّر عنه بالفتوّة الجامع لمعنى سداد الرأي، وثبات الجأش، والدفاع عن الحقّ.

{ **فقالوا** } دلّت الفاء على أنّهم بادروا بالابتهال إلى الله.

{ **رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً** } دعوا الله أن يؤتيهم رحمة من لدنه، وذلك جامع لخير الدنيا والآخرة، فزيادة {مِنْ لَدُنْكَ } للتعلّق بفعل الإيتاء تشير إلى ذلك، لأنّ في (من) معنى الابتداء وفي (لدن) معنى العندية والانتساب إليه، فذلك أبلغ ممّا لو قالوا: آتنا رحمة، لأنّ الخلْق كلّهم بمحل الرحمة من الله، ولكنّهم سألوا رحمة خاصة وافرة، وقصدوا الأمن على إيمانهم من الفتنة.

{ **وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً** } ثم سألوا الله أن يقدّر لهم أحوالا تكون عاقبتها حصول ما خوّلهم من الثبات على الدين الحقّ والنجاة من مناواة المشركين. فعبر عن ذلك التقدير بالتهيئة التي هي إعداد الأسباب.

{ **أَمْرِنَا** } الشأن والحال الذي يكونون فيه، وهو مجموع الإيمان والاعتصام إلى محلّ العزلة عن أهل الشرك. وقد أعدّ الله لهم من الأحوال ما به رشدهم. فمن ذلك صرف أعدائهم عن تتبعهم. وأن ألهمهم موضع الكهف، وأن كان وضعه على جهة صالحة ببقاء أجسامهم سليمة، وأن أنامهم نوما طويلا ليمضي عليهم الزمن الذي تتغير فيه أحوال المدينة، وحصل رشدهم إذ ثبتوا على الدين الحقّ وشاهدوه منصورا متّبعا. وجعلهم آية للنّاس على صدق الدين وعلى قدرة الله وعلى البعث.

الرَشَد (بفتحتين): الخير وإصابة الحقّ والنفع والصلاح، وقد تكرّر في سورة الجنّ باختلاف هذه المعاني. والرُشْد (بضم الراء وسكون الشين) مرادف الرَشَد. وغلب في حسن تدبير المال.

ولم يقرأ هذا اللفظ هنا في القراءات المشهورة إلّا بفتح الراء بخلاف قوله تعالى { قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } [البقرة: 256]. وقوله { فإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً} [النساء: 6] فلم يقرأ فيهما إلّا بضم الراء. ووجه إيثار مفتوح الراء والشين في هذه السورة في هذا الموضع وفي قوله الآتي { وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً } [24]، أنّ تحريك الحرفين فيهما أنسب بالكلمات الواقعة في قرائن الفواصل.

{ فضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْف سِنِينَ عَدَداً [11] **ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً }** [12].

تفريع هذه الجملة بـ (الفاء) إمّا على جملة دعائهم، فيؤذن بأنّ مضمونها استجابة دعوتهم، فجعل الله إنامتهم كرامة لهم. بأن سلّمهم من التعذيب بأيدي أعدائهم. وأيّد بذلك أنّهم على الحقّ. وأرى النّاس ذلك بعد زمن طويل. وإمّا تفريع على جملة { إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ } [10]، فيؤذن بأنّ الله عجّل لهم حصول ما قصدوه.

{ **فضَرَبْنَا** } الضرب هنا بمعنى الوضع، كما يقال: ضرب عليه حجابا، ومنه قوله تعالى { ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ } [البقرة: 61]، وتقدّم تفصيله عند قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا } [البقرة: 26]. وحذف المفعول لظهوره. أي ضربنا على آذانهم غشاوة أو حائلا عن السمع.

والضرب على الآذان كناية عن الإنامة، لأنّ النوم الثقيل يستلزم عدم السمع، بخلاف البصر الصحيح فقد يحجب بتغميض الأجفان. وهذه الكناية من خصائص القرآن لم تكن معروفة قبل هذه الآية وهي من الإعجاز.

{ **سِنِينَ عَدَداً** } والعدد مستعمل في الكثرة، أي سنين ذات عدد كثير. ونظيره ما في حديث بدء الوحي من قول عائشة: " فكان يخرج إلى غار حراء فيتحنّث فيه الليالي ذوات العدد ". وقد أجمل العدد هنا.

البعث: هنا الإيقاظ، أي أيقظناهم من نومتهم. وحسن هذه الاستعارة هنا أن المقصود من هذه القصّة إثبات البعث بعد الموت فكان في ذكر لفظ البعث تنبيه على أنّ في هذه الإفاقة دليلا على إمكان البعث وكيفيته.

الحزب: الجماعة الذين توافقوا على شيء واحد. فالحزبان فريقان: أحدهما مصيب والآخر مخطئ في عدّ الأمد الذي مضى عليهم. فقيل: هما فريقان من أهل الكهف أنفسهم. وفي هذا بعد من لفظ حزب.

فالوجه: أنّ المراد بالحزبين حزبان من النّاس، أهل بلدهم، اختلفت أقوالهم في مدّة لبثهم بعد أن علموا انبعاثهم من نومتهم. أحد الفريقين مصيب والآخر مخطيء، والله يعلم المصيب منهم والمخطئ.

{ **أَحْصَى** } يحتمل أن يكون فعلا ماضيا، وأن يكون اسم تفضيل مصوغا من الرباعي على خلاف القياس. والوجه عندي اسم تفضيل، والتفضيل منصرف إلى ما في معنى الإحصاء من الضبط والإصابة.

والمعنى: لنعلم أي الحزبين أتقن إحصاء. أي عدًّا بأن يكون هو الموافق للواقع ويكون ما عداه تقريبا ورجما بالغيب، وذلك هو ما فصّله قوله تعالى { سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ } [22].

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً [13] **وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً}**[14].

لمّا اقتضى قوله { لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى} أنّ في نبأ أهل الكهف تخرّصات ورجما بالغيب أثار ذلك في النفس تطلعا إلى معرفة الصدق في أمرهم، من أصل وجود القصّة إلى تفاصيلها، من مخبر لا يشكّ في صدق خبره كانت جملة {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ } استئنافا بيانيا.

وهذا شروع في مجمل القصّة والاهتمام بمواضع العبرة منها. وقدّم منها ما فيه وصف ثباتهم على الإيمان ومنابذتهم قومهم الكفرة ودخولهم الكهف.

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ } تقديم المسند إليه على المسند الفعلي يفيد الاختصاص، أي نحن لا غيرنا يقصّ قصصهم بالحقّ.

الحقّ: هنا الصدق. والصدق من أنواع الحقّ، ومنه قوله تعالى { حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحقّ } [الأعراف:105]. والباء للملابسة، أي القصص المصاحب للصدق لا للتخرّصات.

القصص: سرد خبر طويل، فالإخبار بمخاطبة مفرّقة ليس بقصص. وتقدّم في طالع سورة يوسف.

النبأ: الخبر الذي فيه أهميّة وله شأن.

{ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ } مبيّنة للقصص والنبأ. وافتتاح الجملة بحرف التأكيد لمجرد الاهتمام لا لرد الإنكار.

زيادة الهدى: يجوز أن يكون تقوية هدى الإيمان المعلوم من قوله { آمَنُوا بِرَبِّهِمْ } بفتح بصائرهم للتفكير في وسائل النجاة بإيمانهم وألهمهم التوفيق والثبات، فكلّ ذلك هدى زائد على هدى الإيمان.

{ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ } مستعار إلى تثبيت الإيمان وعدم التردّد فيه. فلمّا شاع إطلاق القلب على الاعتقاد استعير الربط عليه للتثبيت. كما قال تعالى { لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [القصص: 10]. ومنه قولهم: هو رابط الجأش. وفي ضدّه يقال: اضطرب قلبه.

{ عَلَى } للمبالغة في الشدّ، لأنّ حرف الاستعلاء مستعار لمعنى التمكّن من الفعل.

{ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً } ظرف للربط، أي كان الربط في وقت قيامهم. أي كان ذلك الخاطر الذي قاموا به مقارنا لربط الله على قلوبهم.

والقيام يحتمل أن يكون حقيقيا، بأن وقفوا بين يدي ملك الروم المشرك، أو وقفوا في مجامع قومهم خطباء

معلنين فساد عقيدة الشرك. ويحتمل أن يكون القيام مستعارا للإقدام والجسر على عمل عظيم، وللاهتمام بالعمل أو القول، تشبيها للاهتمام بقيام الشخص من قعود للإقبال على عمل ما.

{ **فَقَالُوا رَبُّنَا** } وعرّفوا الله بطريق الإضافة إلى ضميرهم: إمّا لأنّهم عُرفوا من قبل بأنّهم عبدوا الله المنزّه عن الجسم وخصائص المحدثات، وإمّا لأنّ الله لم يكن معروفا باسم علم عند أولئك المشركين الذين يزعمون أنّ ربّ الأرباب هو جوبتير الممثّل في كوكب المشتري، فلم يكن طريق لتعريفهم الإله الحقّ إلا طريق الإضافة. وقريب منه ما حكاه الله عن قول موسى لفرعون بقوله تعالى { قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ } [الشعراء: 24- 25].

هذا إن كان القول مسوقا إلى قومهم المشركين قصدوا به إعلان إيمانهم بين قومهم وإظهار عدم الاكتراث بتهديد الملك وقومه، فيكون موقفهم هذا كموقف بني إسرائيل حين قالوا لفرعون { قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ} [الشعراء: 50]، أو قصدوا به موعظة قومهم بدون مواجهة خطابهم، استنزالا لطائرهم على طريقة التعريض، واستقصاء لتبليغ الحقّ إليهم. وهذا هو الأظهر لحمل القيام على حقيقته.

{ **لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً** } استئناف بياني لما أفاده توكيد النفي بـ (لن). واللام للقسم.

الشطط: الإفراط في مخالفة الحقّ والصواب. وهو مشتقّ من الشطّ، وهو البعد عن الموطن لما في البعد عنه من كراهية النفوس، فاستعير للإفراط في شيء مكروه، أي لقد قلنا قولا شططا، وهو نسبة الإلهية إلى من دون الله.

{ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً }[15]

من بقية كلام الفتية. والإشارة إلى قومهم بـ { **هَؤُلاءِ** } لقصد تمييزهم بما سيخبر به عنهم. وفي هذه الإشارة تعريض بالتعجّب من حالهم وتفضيح صنعهم. وهو من لوازم قصد التمييز.

{ **اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً** } خبر عن اسم الإشارة، مستعمل في الإنكار عليهم دون الإخبار، إذ اتخاذهم آلهة من دون الله معلوم بين المتخاطبين. وكان قومهم يومئذ يعبدون الأصنام على عقيدة الروم ولا يؤمنون بالله.

{ **لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ** } مؤكّدة للجملة التي قبلها باعتبار أنّها مستعملة في الإنكار، لأنّ مضمون هذه الجملة يقوّي الإنكار عليهم.

{ **لولا** } حرف تحضيض. حقيقته: الحث على تحصيل مدخولها. ولمّا كان الإتيان بسلطان على ثبوت الإلهية للأصنام التي اتخذوها آلهة متعذرا انصرف التحضيض إلى التبكيت والتغليط.

السلطان: الحجّة والبرهان.

البيّن: الواضح الدلالة.

{ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترَى عَلَى اللهِ كَذِباً** }. إنكار، أي لا أظلم ممن افترى. والمعنى: أنّه أظلم من غيره. كما تقدّم في قوله تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فيهَا اسْمُهُ} [البقرة: 114]

افتراء الكذب: تقدّم في قوله تعالى { وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفرُوا يَفتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ } [المائدة: 103].

{ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فأْوُوا إِلَى الْكَهْف يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفقاً } [16]

يتعيّن أن يكون هذا من كلام بعضهم لبعض على سبيل النصح والمشورة الصائبة. فيجوز أن يكونوا قال بعضهم لبعض ذلك بعد الاعتزال. ويجوز أن يكون ذلك في نفس المقام الذي خاطبوا فيه قومهم بأن غيّروا الخطاب من مواجهة قومهم إلى مواجهة بعضهم بعضا، وهو ضرب من الالتفات.

وعلى الاحتمالين فالقرآن اقتصر في حكاية أقوالهم على المقصد الأهمّ منها في الدلالة على ثباتهم دون ما سوى ذلك ممّا لا أثر له في الغرض وإنّما هو مجرّد قصص.

الاعتزال: التباعد والانفراد عن مخالطة الشيء، فمعنى اعتزال القوم ترك مخالطتهم. ومعنى اعتزال ما يعبدون: التباعد عن عبادة الأصنام.

{ **إلّا الله** } الاستثناء منقطع، لأنّ الله تعالى لم يكن يعبده القوم.

{ **فأْوُوا إِلَى الْكَهْف** } الفاء للتفريع على جملة { وَإِذِاعْتَزَلْتُمُوهُمْ } فيقدّر بعدها جملة نحو: وإذ اعتزلتم دينهم يعذبونكم فأووا إلى الكهف.

الأَوْيُ: تقدّم آنفا، أي فاسكنوا الكهف.

{ **الكهف** } يجوز أن يكون تعريف العهد، بأن كان الكهف معهودا عندهم يتعبّدون فيه من قبل. ويجوز أن يكون تعريف الحقيقة مثل { وَأَخَاف أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ } [يوسف: 13]، أي فأووا إلى كهف من الكهوف.

{ **يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ** } توفّر تعلّقها بالمرحومين. شُبّه تعليق الصفة المتكرّر بنشر الثوب في أنّه لا يُبقي من الثوب شيئا مخفيًّا، كما شُبّه بالبسط، وشُبّه ضدّه بالطيّ وبالقبض.

{ **وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ** } مستعارة للإكرام به والعناية، تشبيها بتهيئة القرى للضيف المعتنى به. وهو مبني على الثقة بالرجاء والدعاء. وساقوه مساق الحاصل لشدّة ثقتهم بلطف ربّهم بالمؤمنين.

المَرْفِق (بفتح الميم وكسر الفاء): ما يرتفق به وينتفع. وبذلك قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر، و{ **مِرْفقاً** } (بكسر الميم وفتح الفاء) قرأ الباقون.

{ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً } [17]

{ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ في فَجْوَةٍ منه }. عطف بعض أحوالهم على بعض، انتقل إلى ذكره بمناسبة الإشارة إلى تحقيق رجائهم في ربّهم حين قال بعضهم لبعض { يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفقاً } . وهذا حال عظيم، وهو ما هيّأ الله لهم في أمرهم من مرفق، وأنّ ذلك جزاؤهم على اهتدائهم وهو من لطف الله بهم.

والخطاب لغير معيّن.

{ تَزَاوَرُ } مضارع مشتق من الزَّور بفتح الزاي، وهو الميل. وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح التاء وتشديد الزاي بعدها ألف وفتح الواو. وأصله: تتزاور. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الزاي على حذف إحدى التاءين وهي تاء المضارعة للتخفيف اجتزاء برفع الفعل الدال على المضارعة. وقرأه ابن عامر ويعقوب {تَزْوَرُّ} بفتح التاء بعدها زاي ساكنة وبفتح الواو وتشديد الراء بوزن تَحْمَرُّ. وكلها أبنية مشتقة من (الزَّوَرُ) بالتحريك، وهو الميل عن المكان، قال عنتره:

فازورَّ من وقع القنا بلَبانه

(أي مال بعض بدنه إلى بعض وانقبض).

{ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ } أي تنصرف عنهم. وأصل القرض القطع، أي أنّها لا تطلع في كهفهم.

فيدلّ على أنّ فم الكهف كان مفتوحا إلى الشمال الشرقي، فالشمس إذا طلعت تطلع على جانب الكهف ولا تخترقه أشعتها، وإذا غربت كانت أشعتها أبعد عن فم الكهف منها حين طلوعها. وهذا وضع عجيب يسّره الله لهم بحكمته ليكون داخل الكهف بحالة اعتدال فلا ينتاب البلى أجسادهم، وذلك من آيات قدرة الله.

الفجوة: المتّسع من داخل الكهف، بحيث لم يكونوا قريبين من فم الكهف. وفي تلك الفجوة عون على حفظ هذا الكهف كما هو.

{ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الله } الإشارة إلى المذكور من قوله { وَتَرَى الشَّمْسَ } ، والإشارة للتعظيم.
آيات الله: دلائل قدرته وعنايته بأوليائه ومؤيّدي دين الحقّ.
والجملة معترضة في خلال القصّة للتنويه بأصحابها.
{ **مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً** } استئناف بياني لما اقتضاه اسم الإشارة من تعظيم أمر الآية وأصحابها.
والمعنى: أنّهم كانوا مهتدين لأنّ الله هداهم فيمن هدى، تنبيها على أن تيسير ذلك لهم من الله هو أثر تيسيرهم لليسرى والهدى، فأبلغهم الحقّ على لسان رسولهم. ورزقهم أفهاما تؤمن بالحقّ. وقد تقدّم الكلام على نظير {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فهُوَ الْمُهْتَدِ} ، وعلى كتابة { المهتد } بدون ياء في سورة الإسراء.
المرشد: الذي يبيّن للحيران وجه الرشد، وهو إصابة المطلوب من الخير.

{ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً } [18]

عطف على بقيّة القصّة، وما بينهما اعتراض. والخطاب فيه كالخطاب في قوله { وَتَرَى الشَّمْسَ } [17].
وهذا انتقال إلى ما في حالهم من العبرة، مدمج فيه بيان كرامتهم وعظيم قدرة الله في شأنهم، وهو تعجيب من حالهم لمن رآه من النّاس.
{ **وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ** } أنّهم في حالة تشبه حال اليقظة وتخالف حال النوم. قيل: كانت أعينهم مفتوحة.
{ **وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ** } **التقليب**: تغيير وضع الشيء من ظاهره إلى باطنه.
والمعنى: أنّ الله أجرى عليهم حال الأحياء الأيقاظ فجعلهم تتغير أوضاعهم من أيمانهم إلى شمائلهم والعكس. وذلك لحكمة لعلّ لها أثرا في بقاء أجسامهم بحالة سلامة.
والإتيان بالمضارع للدلالة على التجدّد بحسب الزمن المحكي.
{ **وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ** } لم يذكر التقليب لكلبهم بل استمر في مكانه باسطا ذراعيه.
الوصيد: مدخل الكهف، شُبِّه بالباب الذي هو الوصيد لأنّه يوصد ويغلق.
{ **لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً** } الخطاب لغير معيّن، أي لو اطلعت عليهم أيّها السامع حين كانوا في تلك الحالة قبل أن يبعثهم الله، لفررت منهم وملكك الرعب.
الاطلاع: الإشراف على الشيء ورؤيته من مكان مرتفع، لأنّه افتعال من طلع إذا ارتقى جبلا، فصيغ الافتعال للمبالغة في الارتقاء، وضمّن معنى الإشراف فعدّي بـ (على)، ثم استعمل مجازا مشهورا في رؤية الشيء

الذي لا يراه أحد.

الرعب: تقدّم في قوله تعالى { سَنُلْقِي في قُلُوبِ الَّذِينَ كَفرُوا الرُّعْبَ } [آل عمران:151].

{ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّف وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً [19] إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً } [20].

عطف لجزء من القصّة الذي فيه عبرة لأهل الكهف بأنفسهم ليعلموا ما أكرمهم الله به من حفظهم عن أن تنالهم أيدي أعدائهم بإهانة، ومن إعلامهم علم اليقين ببعض كيفية البعث، فإنّ علمه عظيم.

{ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ } الإشارة إلى المذكور من إنامتهم وكيفيّتها، أي كما أنمناهم قرونا بعثناهم. ووجه الشبه: أنّ في الإفاقة آية على عظيم قدرة الله تعالى مثل آية الإنامة.

وتقدّم الكلام على معنى البعث في الآية المتقدّمة، وفي حسن موقع لفظ البعث في هذه القصّة.

{ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ } بيان لجملة { ليتساءلوا } . وسمّيت هذه المحاورة تساؤلا لأنّها تحاور للوصول إلى تحقيق المدّة.

{ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } واسند الجواب إلى ضمير جماعتهم: إمّا لأنّهم تواطأوا عليه، وإمّا على إرادة التوزيع، أي منهم من قال: لبثنا يوما، ومنهم من قال: لبثنا بعض يوم. وعلى هذا يجوز أن تكون (أو) للتقسيم في القول.

{ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ } أي لمّا اختلفوا رجعوا فعدلوا عن القول بالظنّ إلى تفويض العلم إلى الله تعالى، وذلك من كمال إيمانهم. فالقائلون يجوز أن يكون جميعهم وهو الظاهر، ويجوز أن يكون قول بعضهم فأسند إليهم لأنّهم رأوه صوابا.

{ فابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ } تفريع على قولهم { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ } لأنّه في معنى فدعوا الخوض في مدّة اللبث فلا يعلمها إلّا الله وخذوا في شيء آخر ممّا يهمّكم.

الوَرِق (بفتح الواو وكسر الراء): الفضّة. وكذلك قرأه الجمهور. والمراد بالورق هنا القطعة المسكوكة من الفضة، وهي الدراهم. قيل: كانت من دراهم دقيوس سلطان الروم. والإشارة بهذه إلى دراهم معيّنة عندهم.

{ إِلَى الْمَدِينَةِ } هي (**أبْسُس**)، وقد قدّمنا ذكرها في صدر القصّة.

{ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ } أي فلينظر أي مكان منها هو أزكى طعاما، أي أزكى طعامه

من طعام غيره.

الأزكى: الأطيب والأحسن، لأنّ الزَّكْوَ الزيادة في الخير والنفع.

الرزق: القوت. وقد تقدّم عند قوله تعالى { قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ } [يوسف:37].

{ **وَلْيَتَلَطَّف وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا** } أمر لأحد غير معين سيوكّلونه.

قيل التاء من كلمة { وَلْيَتَلَطَّف } هي نصف حروف القرآن عدًّا. وهنالك قول اقتصر عليه ابن عطية هو أنّ النون من قوله تعالى { لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً } [الكهف: 74] هي نصف حروف القرآن.

الإشعار: الإعلام، وهو إفعال من شَعَر من باب نصر، أي علم. فالهمزة للتعدية مثل همزة { أعلم }.

والتقدير: ولا يخبرنّ بوجودكم أحدا.

{ **إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ** } علّة للأمر بالتلطّف والنهي عن إشعار أحد بهم.

{ **يَظْهَرُوا** } الظهور أصله البروز دون ساتر. ويطلق على الظفر بالشيء، وعلى الغلبة، وهو المراد هنا.

قال تعالى: { تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } [البقرة: 85].

الرجم: القتل برمي الحجارة على المرجوم حتّى يموت، وهو قتل إذلال وإهانة وتعذيب.

{ **أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ** } يرجعوكم إلى الملّة الفاسدة التي فررتم منها.

أي لا يخلو أمرهم عن أحد الأمرين إمّا إرجاعكم إلى دينهم أو قتلكم.

الملّة: الدين. وقد تقدّم عند قوله { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [يوسف:37]

{ **وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً** } أكد التحذير من الإرجاع إلى ملّتهم بأنّها يترتب عليها انتفاء فلاحهم في المستقبل، لما دلّت عليه حرف (إذا) من الجزائيّة. و{ أبدا } ظرف للمستقبل كلّه.

{ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً } [21].

انتقل إلى جزء القصّة الذي هو موضع عبرة أهل زمانهم بحالهم، وانتفاعهم باطمئنان قلوبهم لوقوع البعث يوم القيامة بطريقة التقريب بالمشاهدة، وتأييد الدين بما ظهر من كرامة أنصاره.

وقد كان القوم الذين عثروا عليهم مؤمنين مثلهم، فكانت آيتهم آية تثبيت وتقوية إيمان.

{ **وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ** } العثور على الشيء الاطلاع عليه والظفر به بعد الطلب. وقد كان الحديث عن أهل الكهف في تلك المدينة يتناقله أهلها فيسّر الله لهم العثور عليهم للحكمة التي في قوله { لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حق}. ومفعول { أعثرنا } محذوف، تقديره: أعثرنا أهل المدينة عليهم.

{ **لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا** } ووعد الله هو إحياء الموتى للبعث. وأمّا علمهم بأنّ الساعة لا ريب فيها، أي ساعة الحشر، فهو إن صار علمهم بذلك عن مشاهدة تزول بها خواطر الخفاء التي تعتري المؤمن في اعتقاده حين لا يتصوّر كيفيّة العقائد السمعية، وما هو بريب في العلم ولكنّه في الكيفية، وهو الوارد فيه أنّه لا يخطر إلا لصدِّيق ولا يدوم إلّا عند زنديق.

{ **إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ** }

التنازع: الجدال القويّ، أي يتنازع أهل المدينة بينهم شأن أهل الكهف، مثل: أكانوا نياما أم أمواتا، وأيبقون أحياء أم يموتون، وأيبقون في ذلك الكهف أم يرجعون إلى سكنى المدينة، وفي مدّة مكثهم.

والإتيان بالمضارع لاستحضار حالة التنازع.

{ **فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً** }

طوي هنا وصف العثور عليهم، وذكر عودهم إلى الكهف لعدم تعلّق الغرض بذكره، إذ ليس موضع عبرة لأن المصير إلى مرقدهم وطُرُوِّ الموت عليهم شأن معتاد لكل حيّ.

وإنّما ارتأوا أن يبنوا عليهم بنيانا لأنّهم خشوا عليهم من تردّد الزائرين غير المتأدّبين، فلعلّهم أن يؤذوا أجسادهم وثيابهم باللمس والتقليب، فأرادوا أن يبنوا عليهم بناء يمكن غلق بابه وحراسته.

{ **رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ** } يجوز أن تكون من حكاية كلام الذين قالوا، ابنوا عليهم بنيانا، تنهية للتنازع في أمرهم. ويجوز أن تكون معترضة من كلام الله تعالى في أثناء حكاية تنازع الذين أعثروا عليهم، أي ربّ أهل الكهف أو ربّ المتنازعين في أمرهم أعلم منهم بواقع ما تنازعوا فيه.

{ **قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ** } ولّاة الأمور بالمدينة.

{ **لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً** } وإنما رأوا أن يكون البناء مسجدا ليكون إكراما لهم ويدوم تعهّد النّاس كهفهم. وقد كان اتخاذ المساجد على قبور الصالحين من سنّة النصارى، ونهى عنه النبيء ﷺ، كما في حديث عائشة رضي الله عنها يوم وفاة رسول الله ﷺ.

واتخاذ المساجد على القبور، والصلاة فيها منهيّ عنه، لأنّ ذلك ذريعة إلى عبادة صاحب القبر، أو شبيه بفعل من يعبدون صالحي ملّتهم. وإنّما كانت الذريعة مخصوصة بالأموات لأنّ ما يعرض لأصحابهم من الأسف على فقدانهم يبعثهم على الإفراط فيما يحسبون أنّه إكرام لهم بعد موتهم، ثم يتناسى الأمر ويظنّ النّاس أن ذلك لخاصيّة في ذلك الميّت. وكان بناء المساجد على القبور سنّة لأهل النصرانية، فإن كان شرعا لهم فقد نسخه الإسلام، وإن كان بدعة منهم في دينهم فأجدر.

{ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً } [22]

لمّا شاعت قصّة أهل الكهف حين نزل بها القرآن صارت حديث النوادي، فكانت مثار تخرّصات في معرفة عددهم، وحصر مدّة مكثهم في كهفهم، وربّما أملى عليهم المتنصّرة من العرب في ذلك قصصا، وقد نبّههم القرآن إلى ذلك وأبهم على عموم النّاس الإعلام بذلك لحكمة، وهي أن تتعوّد الأمّة بترك الاشتغال فيما ليست منه فائدة للدين أو للنّاس، ودلّ عَلَم الاستقبال على أنّ النّاس لا يزالون يخوضون في ذلك.

{ **سَيَقُولُونَ / وَيَقُولُونَ / وَيَقُولُونَ** } عائد إلى غير مذكور لأنّه معلوم من المقام، أي يقول النّاس أو المسلمون، إذ ليس في هذا القول حرج ولكنّهم نُبِّهوا إلى أن جميعه لا حجّة لهم فيه. ومعنى سين الاستقبال سار إلى الفعلين المعطوفين على الفعل المقترن بالسين.

وقد أعلم الله أنّ قليلا من الخلق يعلمون عدّتهم وهم من أطلعهم الله على ذلك. وفي مقدمتهم محمد ﷺ لأنّ قصّتهم جاءت على لسانه فلا شك أنّ الله أطلعه على عدتهم. وروي أنّ ابن عباس قال: أنا من القليل.

{ **رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ / سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ** } في موضع الصفة لاسم العدد الذي قبلها، أو موضع الخبر الثاني عن المبتدأ المحذوف.

{ **رَجْماً بِالْغَيْبِ** } الرجم حقيقته الرمي بحجر ونحوه. واستعير هنا لرمي الكلام من غير رويّة ولا تثبت. والباء للتعدية، كأنّهم لمّا تكلّموا عن أمر غائب كانوا يرجمون به.

{ **وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ** } واو الحال، وهي في موضع الحال من المبتدأ المحذوف، أو من اسم العدد الذي هو خبر المبتدأ، وهو إن كان نكرة فإن وقوعه خبر على معرفة أكسبه تعريفا. على أن وقوع الحال جملة مقترنة بالواو قد عُدّ من مسوّغات مجيء الحال من النكرة.

روي عن ابن الحاجب: أنّ القاضي الفاضل كان يعتقد أنّ الواو هي **واو الثمانية**.

ومن غريب الاتفاق أن كان لحقيقة الثمانية اعتلاق بالمواضع الخمسة المذكورة من القرآن إمّا بلفظه كما هنا وآية الحاقة { سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً } [7]، وإمّا بالانتهاء إليه كما في آية براءة { وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [112] وآية التحريم { ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً }[التحريم: 5] ، وإمّا بكون مسمّاه معدودا بعدد الثمانية كما في آية الزمر{ وَفتِحَتْ أَبْوَابُهَا } [73]. ولقد يُعدُّ الانتباه إلى ذلك من اللطائف، ولا يبلغ أن يكون من المعارف. ومثل هذه اللطائف كالزهرة تشمُ ولا تحك.

وقد تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى { وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [براءة:112].

{ **قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ** } مستأنفة استئنافا بيانيّا لما تثيره جملة { سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ } إلى آخرها من ترقّب تعيين ما يُعتمد عليه من أمر عدّتهم. فأجيب بأنّ يحال العلم بذلك على علّام الغيوب.

{ **أَعْلَمُ** } إسناد اسم التفضيل إلى الله تعالى يفيد أنّ علم الله بعدّتهم هو العلم الكامل وأنّ علم غيره مجرّد ظنّ وحدس قد يصادف الواقع وقد لا يصادفه.

{ **مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ** } كذلك مستأنفة استئنافا بيانيّا، وهم من أطلعهم الله على ذلك بوحي. وعلى كل حال فهم لا يوصفون بالأغلبية لأنّ علمهم مكتسب من جهة الله.

{ **فلا تُمَارِ فيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً** }

تفريع على الاختلاف في عدد أهل الكهف، أي إذا أراد بعض المشركين المماراة في عدّة أهل الكهف لأخبار تلقوها من أهل الكتاب أو لأجل طلب تحقيق عدّتهم فلا تمارهم إذ هو اشتغال بما ليس فيه جدوى. وهذا التفريع وما عطف عليه معترض في أثناء القصّة.

التماري: تفاعل مشتق من المِرْيَة، وهي الشكّ. واشتقاق المفاعلة يدل على أنّها إيقاع من الجانبين في الشكّ، فيؤول إلى معنى المجادلة في المعتقد لإبطاله وهو يفضي إلى الشك فيه، فأطلق المراء على المجادلة بطريق المجاز، ثم شاع فصار حقيقة لمّا ساوى الحقيقة.

{ **إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً** } هو الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا يطول الخوض فيه. وذلك مثل قوله { قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ } وقوله { مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ } ، فإنّ هذا ممّا لا سبيل إلى إنكاره وإبايته لوضوح حجّته.

الاستفتاء: طلب الفتوى، وهي الخبر عن أمر علمي ممّا لا يعلمه كلّ أحد. والمراد من النهي عن استفتائهم الكناية عن جهلهم بأمر أهل الكهف.

{ **مِنْهُمْ أَحَداً** } أهل مكة الذين سألوا عن أمر أهل الكهف. ولا يستقيم جعل ضمير { منهم } عائدا إلى أهل الكتاب، لأنّ هذه الآيات مكّيّة باتفاق الرواة والمفسرين.

أو يكون كناية رمزية عن حصول علم النبيء ﷺ بحقيقة أمرهم بحيث هو غني عن استفتاء أحد، وأنه لا يُعلم المشركين بما علّمه الله من شأن أهل الكهف.

{ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غَداً [23] إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً } [24].

{ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ }

عطف على الاعتراض. ومناسبة موقعه هنا ما رواه ابن إسحاق والطبري في أوّل هذه السورة والواحدي في سورة مريم: أنّ المشركين لمّا سألوا النبيء ﷺ عن أهل الكهف وذي القرنين وعدهم بالجواب عن سؤالهم من الغد ولم يقل (إن شاء الله)، فلم يأته جبريل عليه السلام بالجواب إلّا بعد خمسة عشر يوما، وقيل: بعد ثلاثة أيام كما تقدّم، أي فكان تأخير الوحي إليه بالجواب عتابا رمزيا من الله لرسوله ﷺ.

فأعلم الله رسوله بقصّة أهل الكهف، ثم نهاه عن أن يعد بفعل شيء دون التقييد بمشيئة الله.

{ **لِشَيْءٍ** } اسم متوغّل في التنكير يفسّره المقام، أي الشيء تريد أن تفعله.

{ **غَداً** } مستعمل في المستقبل مجازا. وليست الكلمة مرادا بها اليوم الذي يلي يومه، ولكنه مستعمل في معنى الزمان المستقبل، كما يستعمل اليوم بمعنى زمان الحال، والأمس بمعنى زمن الماضي.

{ **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** } استثناء حقيقي من الكلام الذي قبله. فالمراد بالمشيئة إذن الله له.

وقد جمعت هذه الآية كرامة للنبيء ﷺ من ثلاث جهات:

الأولى: أنه أجاب سُؤْله، فبيّن لهم ما سألوه إيّاه على خلاف عادة الله مع المكابرين.

الثانية: أنّه علّمه علما عظيما من أدب النبوّة.

الثالثة: أنّه ما علّمه ذلك إلّا بعد أن أجاب سؤله استئناسا لنفسه أن لا يبادره بالنهي عن ذلك قبل أن يجيبه، كيلا يتوهّم أنّ النهي يقتضي الإعراض عن إجابة سؤاله، وكذلك شأن تأديب الحبيب المكرَّم. ومثاله ما في الصحيح: أن حكيم بن حزام قال: " سألت رسول الله فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم سألته فأعطاني، ثم قال: يا حكيم إن هذا المال خَضِرة حُلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى. قال حكيم: يا رسول الله والذي بعثك بالحقّ لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتّى أفارق الدنيا " . فعلم حكيم أنّ قول رسول الله ﷺ له ذلك ليس القصد منه منعه من سؤله وإنّما قصد منه تخليقه بخلق جميل، فلذلك أقسم حكيم: أن لا يأخذ عن أحد غير رسول الله شيئا. ولم يقل: لا أسألك بعد هذه المرّة شيئا.

وظاهر الآية اقتصار إعمالها على الإخبار بالعزم على فعل في المستقبل دون ما كان من الكلام إنشاء مثل الأيمان، فلذلك اختلف فقهاء الأمصار في شمول هذه الآية لإنشاء الأيمان ونحوها، فقال جمهورهم: يكون ذكر { إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } حلا لعقد اليمين يُسقط وجوب الكفارة. بحيث إذا أعقبت اليمين بقول { إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } ونحوه لم يلزم البرّ في اليمين.

{ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ }

عطف على النهي، أي لا تعد بوعد فإن نسيت فقلت: إني فاعل، فاذكر ربك، أي اذكر ما نهاك عنه. والمراد بالتذكير التدارك وهو هنا مشتقّ من الذُّكر بضم الذال وهو كناية عن لازم التذكّر، وهو الامتثال، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه.

{ رَبَّكَ } من كمال الملاطفة ما لا يخفى.

{ نَسِيتَ } وحذف المفعول لظهوره من المقام، أي إذا نسيت النهي فقلت: إني فاعل.

والجمهور على أن قوله: { وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ } لا دلالة فيه على جواز تأخير الثنيا (قول: إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)، واستدلوا بأن السنة وردت بخلافة. وعن ابن عباس: لا تحديد بمدّة بل ولو طال ما بين اليمين والثنيا.

{ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً }

لما أبرّ الله وعد نبيه ﷺ الذي وعده المشركين أن يبيّن لهم أمر أهل الكهف فأوحاه إليه وأوقفهم عليه، أعقب ذلك بعتابه على التصدّي لمجاراتهم في السؤال عما هو خارج عن غرض الرسالة دون إذن من الله، وأمره أن يذكر نهي ربّه. ويعزم على تدريب نفسه على إمساك الوعد ببيان ما يسأل منه بيانه دون أن يأذنه الله به. حيث أمره هنا أن يخبر سائليه بأنّه ما بعث للاشتغال بمثل ذلك، وأنّه يرجو أن الله يهديه إلى ما هو أقرب إلى الرشد من بيان أمثال هذه القصّة، وإن كانت هذه القصّة تشتمل على موعظة وهدى ولكن الهدى الذي في بيان الشريعة أعظم وأهم. والمعنى: وقل لهم عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا.

فالجملة معطوفة على جملة { فلاَ تُمَارِ فيهِمْ }. ويجوز أن تكون عطفا على جملة { وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ }، أي اذكر أمره ونهيه وقل في نفسك: عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشدا، أي ادع الله بهذا. أي ارج من الله أن يهديك فيذكّرك أن لا تعيد وعدا ببيان شيء دون إذن الله.

{ عسى } مستعملة في الرجاء تأدّبا.

{ مِنْ هَذَا } اسم الإشارة عائد إلى المذكور من القصّة بقرينة وقوع هذا الكلام معترضا في أثنائها.

الرَشَد (بفتحتين) الهدى والخير. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً } [10].

{ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً } [25]

رجوع إلى بقيّة القصّة بعد أن تخلّل الاعتراض بينها بقوله { فلاَ تُمَارِ فيهِمْ - إلى قوله - رشدا } [22-24]. فيجوز أن تكون الجملة عطفا على مقولهم في قوله { سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ } [22]. أي ويقولون: لبثوا في كهفهم، ليكون موقع قوله { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا } [26] كموقع قوله { قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ} [22]، وعليه فلا يكون هذا إخبار عن مدّة لبثهم. وعن ابن مسعود أنّه قرأ (وقالوا لَبثوا في كَهفهم) إلى آخره، فذلك

تفسير لهذا العطف.
ويجوز أن يكون العطف على القصّة كلّها. والتقدير: وكذلك أعثرنا عليهم إلى آخره، وهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين.
ثم إنّ الظاهر أنّ القرآن أخبر بمدّة لبث أهل الكهف في كهفهم، وقد قدمنا أن مؤرخي النصارى يزعمون أنّ مدة نومة أهل الكهف مائتان وأربعون سنة.
والمعنى: أن يقدّر لبثهم بثلاثمائة وتسع سنين. فعبر عن هذا العدد بأنّه ثلاثمائة سنة وزيادة تسع. ليعلم أنّ التقدير بالسنين القمرية المناسبة لتاريخ العرب والإسلام مع الإشارة إلى موافقة ذلك المقدار بالسنين الشمسية التي بها تاريخ القوم الذين منهم أهل الكهف وهم أهل بلاد الروم.

{ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً }[26]

إنّ كان قوله تعالى { وَلَبِثُوا في كَهْفِهِمْ } إخبارا من الله عن مدّة لبثهم يكون قوله { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا } قطعا للمماراة في مدّة لبثهم المختلف فيها بين أهل الكتاب، أي الله أعلم منكم بمدة لبثهم.
وإن كان قوله { ولبثوا } حكاية عن قول أهل الكتاب في مدة لبثهم كان قوله { قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا } تفويضا إلى الله في علم ذلك، كقوله { قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ } [22].
{ **لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** } ما غاب علمه عن النّاس من موجودات السماوات والأرض وأحوالهم.
واللام للملك. وتقديم الخبر المجرور لإفادة الاختصاص، أي لله لا لغيره، ردا على الذين يزعمون علم خبر أهل الكهف ونحوهم.
{ **أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ** } صيغتا تعجيب من عموم علمه تعالى بالمغيّبات من المسموعات والمبصرات، وهو العلم الذي لا يشاركه فيه أحد.
{ **مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ** } ضمير الجمع يعود إلى المشركين. وهو إبطال لولاية آلهتهم بطريقة التنصيص على عموم النفي بدخول (من) الزائدة على النكرة المنفيّة.
{ **وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً** } ردّ على زعمهم بأنّ الله اتخذ آلهتهم شركاء له في ملكه.
وهنا انتهت قصّة أصحاب الكهف بما تخلّلها، وقد أكثر المفسّرون من رواية الأخبار الموضوعة فيها.

{ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً } [27]

والمقصود من هذا الردُّ على المشركين إذ كانوا أيّامئذ لا يُبيَّن لهم شيء إلّا وانتقلوا إلى طلب شيء آخر فسألوا عن أهل الكهف وعن ذي القرنين، وطلبوا من النبيء ﷺ أن يجعل بعض القرآن للثناء عليهم، ونحو

ذلك، كما تقدّم ذلك عند قوله تعالى { وَإِنْ كَادُوا لَيَفتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ } [الاسراء: 73].
والمعنى: لا تعبأ بهم إن كرهوا تلاوة بعض ما أوحى إليك واتل جميع ما أوحي إليك فإنّه لا مبدّل له. فلمّا وعدهم الجواب عن الروح وعن أهل الكهف وأبرّ الله وعده إيّاهم قطعا لمعذرتهم ببيان إحدى المسألتين ذيّل ذلك بأن أمر نبيّه أن يقرأ القرآن كما أنزل عليه وأنّه لا مبدّل لكلمات الله، لكي لا تُطمِعهم الإجابة عن بعض ما سألوه بالطمع في أن يجيبهم عن كل ما طلبوه.
{ **وَاتْلُ** } كناية عن الاستمرار.
التلاوة: القراءة. وقد تقدّم عند قوله تعالى { وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ } [البقرة:102].
{ **مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ** } مفيد للعموم، أي كلّ ما أوحي إليك، ومفهوم الموصول أن ما لم يوح إليه لا يتلوه. وهو ما اقترحوا أن يقوله في الثناء عليهم وإعطائهم شطرًا من التصويب.
التبديل: التغيير بالزيادة والنقص. أي بإخفاء بعضه، بترك تلاوة ما لا يرضون بسماعه من إبطال شركهم وضلالهم. وهذا يؤذن بأنّهم طعنوا في بعض ما اشتملت عليهم القصّة في القرآن. وقد تقدّم نظير هذا عند قوله تعالى { وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ } [الأنعام [34].
الملتحد: مكان الالتحاد، والالتحاد: الميل إلى جانب. وجاء بصيغة الافتعال لأنّ أصله تكلّف الميل. ويفهم من صيغة التكلّف أنّه مفر من مكروه يتكلّف الخائف أن يأوي إليه. فلذلك كان الملتحد بمعنى الملجأ.
والمعنى: لن تجد شيئا ينجيك من عقابه. والمقصود من هذا تأييسهم ممّا طمعوا فيه.

{ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً } [28]
هذا من ذيول الجواب عن مسألتهم عن أهل الكهف. فهو مشارك لقوله تعالى { وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ } [27]. وتقدّم في سورة الأنعام عند قوله تعالى { وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ }[52] أنّ سادة المشركين كانوا زعموا أنّه لولا أنّ من المؤمنين ناسا أهل خصاصة في الدنيا وأرقاء لا يدانوهم ولا يستأهلون الجلوس معهم لأتوا إلى مجالسة النبيء ﷺ واستمعوا القرآن، فاقترحوا عليه أن يطردهم من حوله إذا غشيه سادة قريش، فرد الله عيهم بما في سورة الأنعام وما في هذه السورة.
{ **وَاصْبِرْ نَفسَكَ** } تأكيد لما سبق، إذ أمره بملازمتهم، أي احبس نفسك معهم حبس ملازمة.
الصبر: الشدّ بالمكان بحيث لا يفارقه. ومنه سمّيت المَصْبورة، وهي الدابة تشدّ لتجعل غرضا للرمي.
ولتضمين فعل { اصبر } معنى الملازمة علّق به ظرف (مع).

{ **مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ** } التعبير عنهم بالموصول للإيماء إلى تعليل الأمر بملازمتهم، أي لأنّهم أحرياء بذلك لأجل إقبالهم على الله فهم الأجدر بالمقارنة والمصاحبة.

الدعاء: المناجاة والطلب. والمراد به ما يشمل الصلوات.

الغداة: قرأه الجمهور بألف بعد الدال: اسم الوقت الذي بين الفجر وطلوع الشمس. وقرأ ابن عامر { بالغدْوَة } بسكون الدال وواو بعد مفتوحة وهو مرادف الغداة.

العشي: المساء. والمقصود أنّهم يدعون الله دعاء متخللا سائر اليوم والليلة.

{ **يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** } في موضع الحال. ووجه الله: مجاز في إقباله على العبد.

{ **وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ** } ثمّ أكّد الأمر بمواصلتهم بالنهي عن أقل إعراض عنهم. ومعنى نهي العينين نهي صاحبهما. أي أن تُجاوزاهم، أي تَبعُدا عنهم. وهو إيجاز بديع.

{ **تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** } أي لا تكن إرادة الزينة سبب الإعراض عنهم، لأنّهم لا زينة لهم.

وهذا تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا همّهم وعنايتهم بالأمور الظاهرة وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية، فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة وجعلوا همّهم الصور الظاهرة.

{ **وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً** }

هذا نهي جامع عن ملابسة شيء ممّا يأمره به المشركون. والمقصود من النهي تأسيس قاعدة لأعمال الرسول والمسلمين تجاه رغائب المشركين، وتأييس المشركين من نوال شيء ممّا رغبوه.

قيل نزلت في أميّة بن خلف الجمحي، دعا النبيء ﷺ إلى طرد فقراء المسلمين عن مجلسه حين يجلس إليه هو وأضرابه من سادة قريش.

{ **مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ** } جعله غافلا عن التفكّر في الوحدانيّة حتّى راج فيه الإشراك، فإنّ ذلك ناشئ عن عقول ضيّقة التبصّر مسوقة بالهوى والإلف. وأصل الإغفال: إيجاد الغفلة، وهي الذهول عن تذكّر الشيء، وأريد بها هنا غفلة خاصة.

{ **وَاتَّبَعَ هَوَاهُ** } اتباع الهوى يكون عن بصيرة لا عن ذهول، فالغفلة خِلقة في قلوبهم، واتباع الهوى كسب من قدرتهم.

{ **فُرُطاً** } : الظلم والاعتداء. وهو مشتق من الفُروط وهو السبق، لأنّ الظلم سَبْق في الشرّ.

وزيادة فعل الكون للدلالة على تمكن الخبر من الاسم، أي حالة تمكّن الإفراط والاعتداء على الحق.

{ **وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً** }[29]

بعد أن أمر الله نبيه ﷺ بما فيه نقض ما يفتلونه من مقترحاتهم وتعريض بتأييسهم من ذلك أمره أن يصارحهم

بأنّه لا يعدل عن الحقّ الذي جاءه من الله، وأنّه مبلغه بدون هوادة، وأنّه لا يرغب في إيمانهم ببعضه دون بعض، ولا يتنازل إلى مشاطرتهم في رغباتهم بشطر الحقّ الذي جاء به، وأنّ إيمانهم وكفرهم موكول إلى أنفسهم، لا يحسبون أنّهم بوعد الإيمان يستنزلون النبيء ﷺ عن بعض ما أوحي إليه.

{ **الحَقُّ** } خبر مبتدأ محذوف معلوم من المقام، أي هذا الحقّ.

{ **مِنْ رَبِّكُمْ** } للتذكير بوجوب توحيده.

{ **فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفرْ** } الأمر في { فليؤمن / فليكفر} للتسوية المكنّى بها عن الوعد والوعيد. وقدّم الإيمان على الكفر لأنّ إيمانهم مرغوب فيه.

{ **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، والمراد بالظالمين: المشركون، قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان: 13].

{ **نارًا** } التنوين للتهويل والتعظيم.

السُرادق (بضم السين): قيل هو الفسطاط، أي الخيمة. وقيل: الحُجْزة (بضم الحاء وسكون الجيم)، أي الحاجز الذي يكون محيطا بالخيمة يمنع الوصول إليها، فقد يكون من جنس الفسطاط أديما أو ثوبا وقد يكون غير ذلك كالخندق. وهو كلمة معرّبة من الفارسية، أصلها **(سراطاق)**.

والسرادق هنا تخييل لاستعارة مكنية بتشبيه النار بالدار، وشأن السرادق يكون في بيوت أهل الترف، فإثباته لدار العذاب استعارة تهكّميّة.

{ **وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ** }

الاستغاثة: طلب الغوث وهو الإنقاذ من شدّة وبتخفيف الألم. يطلبون شيئا يبرّد عليهم.

{ **يُغَاثُوا** } مستعارة للزيادة ممّا استغيث من أجله على سبيل التهكّم، وهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه.

المُهل (بضم الميم) له معان كثيرة أشبهها هنا أنه دُرْدِيُّ الزيت فإنّه يزيدها التهابا، قال تعالى { يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ } [المعارج: 8]. والتشبيه في سواد اللون وشدّة الحرارة فلا يزيدهم إلا حرارة، ولذلك عقّب بقوله: { **يَشْوِي الْوُجُوهَ** }. والوجه أشد الأعضاء تألما من حر النار قال تعالى { تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ } [المؤمنون: 104].

{ **بِئْسَ الشَّرَابُ** } مستأنفة ابتدائية أيضا لتشنيع ذلك الماء مَشْرُوبًا كما شُنِّع مُغْتَسَلًا. وفي عكسه الماء الممدوح في قوله تعالى { هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ } [صٓ: 42].

{ **وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً** } معطوفة على جملة { يَشْوِي الْوُجُوهَ }، فهي مستأنفة أيضا لإنشاء ذمّ تلك النّار بما فيها.

المرتفق: محل الارتفاق، اشتقّ من المرفق وهو مجمع العضد والذراع. سمّي مرفقا لأنّ الإنسان يحصل به الرفق إذا أصابه إعياء فيتكئ عليه. فالمرتفق هو المتكأ، وتقدم في سورة يوسف.

وشأن المرتفق أن يكون مكان استراحة، فإطلاق ذلك على النّار تهكّم، كما أطلق على ما يزاد به عذابهم لفظ الإغاثة، وكما أطلق على مكانهم السرادق.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً } [30]

جملة مستأنفة استئنافا بيانيا مراعى فيه حال السامعين من المؤمنين، فإنّهم حين يسمعون ما أُعِدَّ للمشركين تتشوف نفوسهم إلى معرفة ما أُعِدَّ للذين آمنوا ونبذوا الشرك فأُعلموا أنّ عملهم مرعى عند ربّهم.

وجريا على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والترهيب بالترغيب.

وافتتاح الجملة بحرف التوكيد (إن) لتحقيق مضمونها. وإعادة حرف (إن) في الجملة المخبر بها عن المبتدأ الواقع في الجملة الأولى لمزيد العناية والتحقيق.

الإضاعة: جعل الشيء ضائعا. وحقيقته الضيعة: تلف الشيء من مظنّة وجوده. وتطلق مجازا على انعدام الانتفاع بشيء موجود فكأنّه قد ضاع وتلف، قال تعالى { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ } [البقرة: 143].

ويطلق على منع التمكين من شيء والانتفاع به، كما في هذه الآية، أي أنّا لا نحرم من أحسن عملا أجر عمله. ومنه قوله { إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } [التوبة: 120].

{ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً }[31]

الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنّ ما أجمل من عدم إضاعة أجرهم يستشرف بالسامع إلى ترقّب ما يُبيِّنه.

{ **أُولَئِكَ** } افتتاح الجملة باسم الإشارة لما فيه من التنبيه على أنّ المشار إليهم جديرون لما بعده لأجل الأوصاف المذكورة قبله، وهي كونهم آمنوا وعملوا الصالحات.

{ **لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ** } اللام لام الملك. و(من) للابتداء، جعلت جهة تحتهم مَنْشَأً لجري الأنهار. وتقدّم في قوله { وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } [براءة:72].

{ **عدن** } الخلد والاستقرار المستمّر، تقدّم في قوله تعالى { وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً في جَنَّاتِ عَدْنٍ } [براءة 72].

اجتمع في هذا الخبر عدة مقرّرات لمضمونه، وهي: التأكيد مرّتين، وذكر اسم الإشارة. ولام الملك، وجر اسم الجهة بـ (من)، وإضافة اسم الجهة إلى ضميرهم، والمقصود من ذلك: التعريض بإغاظة المشركين لتتقرّر بشارة المؤمنين أتّم تقرّر.

{ **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ** } صفة لـ {جَنَّاتُ عَدْنٍ}.

التحلية: التزيين، والحلية: الزينة. وأسند الفعل إلى المجهول، لأنّهم يجدون أنفسهم محلَّين بتكوين الله تعالى.

الأساور: جمع أسورة الذي هو جمع سوار. فصيغة جمع الجمع للإشارة إلى اختلاف أشكال ما يحلّون به.
السوار: حليّ من ذهب أو فضة يحيط بموضع الذراع، وهو اسم معرّب عن الفارسية عند المحققين وهو في الفارسية (دستوراه) بهاء في آخره.
{ **مِنْ ذَهَبٍ** } (من) للبيان، وفي الكلام اكتفاء، أي من ذهب وفضّة كما اكتفى في آية سورة الإنسان بذكر الفضة عن ذكر الذهب بقوله { وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فضَّةٍ } [21]، ولكلّ من المعدنين جمالة الخاص.
اللباس: ستر البدن بثوب من قميص أو إزار أو رداء، وجميع ذلك للوقاية من الحر والبرد وللتجمّل.
الثياب: جمع ثوب، وهو الشقة من النسيج.
{ **خُضْراً** } واللون الأخضر أعدل الألوان وأنفعها عند البصر، وكان من شعار الملوك. قال النابغة:

يصونون أجسادا قديما نعيمها ... بخالصة الأردان خضر المناكب

السندس: صنف من الثياب، وهو الديباج الرقيق يُلبس مُباشِرا للجلد ليقيه غلظ الإستبرق.
الإستبرق: الديباج الغليظ المنسوج بخيوط الذهب، يلبس فوق الثياب المباشِرة للجلد.
وكلا اللفظين معرب. وفي الإتقان للسيوطي عن ابن النقيب: " لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذا اللفظ ويأتوا بلفظ يقوم مقامه في الفصاحة لعجزوا. وذلك أنّ الله تعالى حثّ عباده على الطاعة بالوعد والوعيد. والوعد بما يرغب فيه العقلاء وذلك منحصر في: الأماكن، والمآكل، والمشارب، والملابس، ونحوها مما تتّحد فيه الطباع أو تختلف فيه. وأرفع الملابس في الدنيا الحرير، والحرير كلّما كان ثوبه أثقل كان أرفع فإذا أريد ذكر هذا فالأحسن أن يذكر بلفظ واحد موضوع له صريح، وذلك ليس إلّا الإستبرق ولا يوجد في العربية لفظ واحد يدلّ على ما يدل عليه لفظ إستبرق ". هذه خلاصة كلامه على تطويل فيه.
وقدّم ذكر الحليّ على اللباس هنا لأنّ ذلك وقع صفة للجنّات ابتداء، وكانت مظاهر الحلي أبهج للجنّات، فقدّم ذكر الحليّ وأخّر اللباس، لأنّ اللباس أشدّ اتصالا بأصحاب الجنّة لا بمظاهر الجنّة، وعكس ذلك في قوله تعالى { عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ } [الانسان:21] لأنّ الكلام هنالك جرى على صفات أصحاب الجنّة.
{ **مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ** } في موضع الحال من ضمير { يلبسون }.
الاتكاء: جلسة الراحة والترف. وتقدّم عند قوله تعالى { وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً } [يوسف:31].
الأرائك: جمع أريكة. وهي اسم لمجموع سرير وحَجَلة. والحَجَلة: قبّة من ثياب تكون في البيت تجلس فيها المرأة أو تنام فيها. ولذلك يقال للنساء: ربّات الحِجَال، فإذا وضع فيها سرير للاتكاء أو الاضطجاع فهي أريكة. ويجلس فيها الرجل وينام مع المرأة، وذلك من شعار أهل الترف.
{ **نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً** } استئناف مدح، ومخصوص فعل المدح محذوف لدلالة ما تقدّم عليه.

والتقدير: نعم الثواب الجنّات الموصوف، وحسنت مرتفقا. وهذا مقابل قوله في حكاية حال أهل النار {وَسَاءَتْ مُرْتَفقاً }. والمرتفق: هنا مستعمل في معناه الحقيقي بخلاف مقابله المتقدم.

{ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَففنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً [32] كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً [33] وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفرا [34] وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً [35] وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً } [36].

بعد أن بيّن لهم ما أعدّ لأهل الشرك، وذكر ما يقابله ممّا أعدّه للذين آمنوا، ضرب مثلا لحال الفريقين بمثل قصّة أظهر الله فيها تأييده للمؤمن وإهانته للكافر، فكان لذلك المثل شبه بمثل قصّة أصحاب الكهف من عصر أقرب لعلم المخاطبين. ليظهر للفريقين ما يجرّه الغرور والإعجاب والجبروت إلى صاحبه من الأرزاء، وما يلقاه المؤمن المتواضع العارف بسنن الله في العالم من التذكير والتدبّر في العواقب فيكون معرَّضا للصلاح والنجاح.

{ **وَاضْرِبْ لَهُمْ** } الضمير في { لهم } يعود إلى المشركين من أهل مكّة على الوجه الأول ولم يتقدّم لهم ذكر، ويعود إلى جماعة الكافرين والمؤمنين على الوجه الثاني.

{ **مَثَلاً رَجُلَيْنِ** } قال الكلبي: المعني بالرجلين رجلان من بني مخزوم من أهل مكّة أخوان أحدهما كافر وهو الأسود ابن عبد الأشد (بشين معجمة وقيل بسين مهملة) بن عبد ياليل، والآخر مسلم وهو أخوه: أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد بن عبد ياليل. وكان زوج أم سلمة قبل أن يتزوّجها رسول الله ﷺ.

ولم يذكر المفسرون أين كانت الجنتان، ولعلّهما كانت بالطائف، فإنّ فيه جنّات أهل مكّة.

وعن ابن عباس: هما أخوان من بني إسرائيل مات أبوهما وترك لهما مالا فاشترى أحدهما أرضا وجعل فيها جنتين، وتصدق الآخر بماله فكان من أمرهما في الدنيا ما قصّه الله تعالى في هذه السورة، وحكى مصيرهما في الآخرة بما حكاه الله في قوله { فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ } [الصافات:50-52]. فتكون قصّتهما معلومة بما نزل فيها من القرآن في سورة الصافات قبل سورة الكهف.

وجوّز بعض المفسّرين، فيما نقله عنهم ابن عطية أنّ تلك الحالة متصوّرة متخيّلة. قال ابن عطية: فهذه الهيئة التي ذكرها الله تعالى لا يكاد المرء يتخيّل أجمل منها في مكاسب النّاس، وعلى هذا الوجه يكون هذا التمثيل كالذي في قوله تعالى { وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ }

[البقرة: 265].

والأظهر من سياق الكلام وصنع التراكيب أن يكون هذا المثل قصّة معلومة، ولأن ذلك أوقع في العبرة والموعظة مثل المواعظ بمصير الأمم الخالية.

{ **جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَففنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً** } ذكر الجنّة والأعناب والنخل تقدّم في قوله تعالى { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ } [البقرة:266].

{ **حَففنَاهُمَا** } أحطناهما، يقال: حفّه بكذا، إذا جعله حافًّا به، أي محيطا، قال تعالى { وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ } [الزمر: 75].

{ **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً** } ألهمناه أن يجعل بينهما. وظاهر الكلام أنّ هذا الزرع كان فاصلا بين الجنتين: كانت الجنتان تكتنفان حقل الزرع فكان المجموع ضيعة واحدة. وتقدم ذكر الزرع في سورة الرعد.

{ **كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً** } معترضة بين الجمل المتعاطفة.

والمعنى: أثمرت الجنتان إثمارا كثيرا.

{ **أُكُلَهَا** } قرأه الجمهور بضم الهمزة وسكون الكاف. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم الهمزة وضم الكاف وهو الثمر، وتقدّم.

{ **وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً** } لم تنقص منه، أي من أكلها شيئا، أي لم تنقصه عن مقدار ما تعطيه الأشجار في حال الخصب. ففي الكلام إيجاز بحذف مضاف. والتقدير: ولم تظلم من مقدار أمثاله. واستعير الظلم لإقلال الإغلال، واستعير نفيه للوفاء بحق الإثمار.

{ **وَفجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً** } تقدّم عند قوله تعالى { حَتَّى تَفجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً } [الإسراء:90].

والنهر بتحريك الهاء لغة في النهر بسكونها. وتقدم عند قوله { قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ } [البقرة [249].

{ **وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ** } في موضع الحال من { لأحدهما }.

الثُمُر (بضم الثاء والميم): المال الكثير المختلف من النقدين والأنعام والجنات والمزارع. وهو مأخوذ من ثُمِّر ماله (بتشديد الميم بالبناء للنائب)، يقال: ثمّر الله ماله إذا كثُر. قال النابغة:

فلما رأى أن ثَمَّر الله ماله ... وأثّل موجودا وسدّ مفاقره

مشتقا من اسم الثمرة على سبيل المجاز أو الاستعارة لأن الأرباح وعفو المال يشبهان ثمر الشجر. وشاع هذا المجاز حتّى صار حقيقة.

وقرأ الجمهور { ثُمُر} بضم المثلثة وضم الميم. وقرأه أبو عمرو ويعقوب بضم المثلثة وسكون الميم.

وقرأه عاصم بفتح المثلثة وفتح الميم { ثَمَر }. فقالوا: إنّه جمع ثمار الذي هو جمع ثَمر، فيكون دالا على أنواع كثيرة ممّا تنتجه المكاسب، كما تقدّم آنفا في جمع أساور من قوله: {أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ}.

والمعنى: وكان لصاحب الجنتين مال، أي غير الجنّتين.

{ **فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفرا** } الفاء للتفريع على الجمل السابقة، لأنّ ما تضمّنته الجمل السابقة من شأنه أن ينشأ عنه غرور بالنفس ينطق عن مثل ذلك القول.

{ **لِصَاحِبِهِ** } هنا بمعنى المقارن في الذكر حيث انتظمهما خبر المثل، أو أريد به الملابس المخاصم.

والمراد بالصاحب هنا الرجل الآخر من الرجلين، ولم يتعلّق الغرض بذكر مكان هذا القول ولا سببه لعدم الاحتياج إليه في الموعظة.

المحاورة: مراجعة الكلام بين متكلّمين. ودلّ فعل المحاورة على أنّ صاحبه قد وعظه في الإيمان والعمل الصالح، فراجعه الكلام بالفخر عليه والتطاول، شأن أهل الغطرسة والنقائص.

{ **وَأَعَزُّ نَفرا** } أشدّ عزّة. والعزة: ضدّ الذلّ. وهي كثرة عدد عشيرة الرجل وشجاعته.

النفر: عشيرة الرجل الذين ينفرون معه. وأراد بهم هنا ولده، كما دل عليه مقابلته في جواب صاحبه { إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً } [39].

{ **وَدَخَلَ جَنَّتَهُ** } في موضع الحال من ضمير(قال) ، أي قال ذلك وقد دخل جنّته مرافقا لصاحبه.

{ **وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفسِهِ** } وهو مشرك مكذّب بالبعث بَطِرٌ بنعمة الله عليه.

وإنّما أفرد الجنّة هنا وهما جنتان لأنّ الدخول إنّما يكون لإحداها.

{ **قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً** } والظن هنا بمعنى الاعتقاد.

تبيد: تهلك وتفنى. والإشارة بـ (هذه) إلى الجنّة التي هما فيها، أي لا أعتقد أنّها تنتقض وتضمحلّ.

الأبد: مراد منه طول المدّة، أي هي باقية بقاء أمثالها لا يعتريها ما يبيدها. وهذا اغترار منه بغناه واغترار بما لتلك الجنّة من وثوق الشجر وقوته وثبوته واجتماع أسباب نمائه ودوامه حوله، من مياه وظلال.

{ **وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً** } انتقل من الإخبار عن اعتقاده دوام تلك الجنّة إلى الإخبار عن اعتقاده بنفي قيام الساعة. ولا تلازم بين المعتقدين. ولكنه أراد التورّك على صاحبه المؤمن تخطئة إيّاه.

{ **وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً** } تهكّم. وقرينة التهكّم قوله { وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً }. وأكّد كلامه بلام القسم ونون التوكيد مبالغة في التهكّم. وهذا كقول العاصي ابن وائل السهمي لخباب بن الأرت ليكونّن لي مال هنالك فأقضيك دينك منه.

{ **مُنْقَلَباً** } انتصب على تمييز نسبة الخبر. والمنقلب: المكان الذي ينقلب إليه، أي يرجع.

{ **مِنْهَا** } قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالإفراد جريا على قوله { وَدَخَلَ جَنَّتَهُ } وقوله { أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ }. وعلى قراءة الجمهور {منهما} بالتثنية.

{ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً [37] لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً [38] وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً [39] فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً [40] أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً}[41].

{ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ }.

حكي كلام صاحبه بفعل القول بدون عطف، للدلالة على أنّه واقع موقع المحاورة والمجاوبة.

{ **أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ** } الاستفهام مستعمل في التعجيب والإنكار، وليس على حقيقته، لأنّ الصاحب كان يعلم أن صاحبه مشرك بدليل قوله له { وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً } . فالمراد بالكفر هنا الإشراك الذي من جملة معتقداته إنكار البعث.

{ **مِنْ تُرَابٍ** } إشارة إلى الأجزاء التي تتكون منها النطفة وهي أجزاء الأغذية المستخلصة من تراب الأرض، كما قال تعالى { سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ممّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ } [يّس:36].

النطفة: ماء الرجل، مشتقّة من النطف وهو السيلان.

{ **ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً** } عدل خلقك، أي جعله متناسبا في الشكل والعمل.

{ **لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي** } كتب في المصحف بألف بعد النون. واتفق القراء العشرة على إثبات الألف في النطق في حال الوقف، وأما في حال الوصل فقرأه الجمهور بدون نطق بالألف، وقرأه ابن عامر وأبو جعفر ورويس عن يعقوب بإثبات النطق بالألف في حال الوصل، ورسم المصحف يسمح بكلتا الروايتين.

{ **لَكِنَّا** } مركب من (لكنْ) بسكون النون الذي هو حرف استدراك، ومن ضمير المتكلم (أنا). وأصله: لكن أنا، فحذفت الهمزة تخفيفا كما قال الزجاج. فـ (أنا) مبتدأ، وجملة { هُوَ اللَّهُ رَبِّي } ضمير شأن وخبره. أي شأني هو الله ربي. والخبر مستعمل في الإقرار، أي أعترف بأنّه ربّي خلافا لك.

وأكد إثبات اعترافه بالخالق الواحد بمؤكدات أربعة، وهي: الجملتان الاسميتان، وضمير الشأن في قوله {لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي} ، وتعريف المسند والمسند إليه في قول { اللَّهُ رَبِّي } المفيد قصر صفة ربوبية الله على نفس المتكلم، قصرا إضافيّا بالنسبة لمخاطبه، أي دونك، إذ تعبد آلهة غير الله، وما القصر إلّا توكيد مضاعف، ثم

بالتوكيد اللفظي للجملة بقوله { **وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً** }.

{ **وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ** } عطف على جملة { أَكَفرْتَ } عطف إنكار على إنكار.

{ **وَلَوْلا** } للتوبيخ، كشأنها إذا دخلت على الفعل الماضي، نحو{ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ } [النور:13]

أي كان الشأن أن تقول { مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ } عوض قولك { مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً }.

{ **مَا شَاءَ اللَّهُ** } أي هذه الجنّة ما شاء الله، أي الأمر الذي شاء الله إعطاءه إيّاي.

{ **لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ** } تعليل لكون تلك الجنّة من مشيئة الله، أي لا قوة لي على إنشائها، أو لا قوة لمن أنشأها إلّا بالله، فإنّ القوى كلّها موهبة من الله تعالى لا تؤثّر إلّا بإعانته بسلامة الأسباب والآلات المفكرة والصانعة.

{ **إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً فعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً** }

جملة ابتدائية رجع بها إلى مجاوبة صاحبه عن قوله { أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفراً } [37]، وعظه فيها بأنّه لا يدري أن تصير كثرة ماله إلى قلّة أو إلى اضمحلال وأن يصير القليل ماله ذا مال كثير.

{ **تَرَنِ** } حذفت ياء المتكلّم بعد نون الوقاية تخفيفا وهو كثير.

{ **فعَسَى** } للرجاء، وهو طلب الأمر القريب الحصول. ولعلّه أراد به الدعاء لنفسه وعلى صاحبه.

الحُسبان: مصدر حسب كالغفران. وهو هنا صفة لموصوف محذوف، أي هلاكا حسبانا، أي **مقدّرا من الله،** كقوله تعالى { عَطَاءً حِسَاباً } [النبأ: 36]. وقيل: الحسبان **اسم جمع لسهام** قصار يرمى بها في طلق واحد وليس له مفرد. وقيل: اسم جمع حسبانة وهي **الصاعقة**. وقيل: **اسم للجراد**. والمعاني الأربعة صالحة هنا.

السماء: الجو المرتفع فوق الأرض.

الصعيد: وجه الأرض. وتقدّم عند قوله تعالى { فتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً } [المائدة: 6].

وفي (اللسان) عن الليث: " يقال للحديقة، إذا خربت وذهب شجراؤها: قد صارت صعيدا، أي أرضا مستوية لا شجر فيها ". وهذا إذا صحّ أحسن هنا، ويكون وصفه بـ { زلقا } مبالغة في انعدام النفع به بالمرّة. لكني أظن أن الليث ابتكر هذا المعنى من هذه الآية وهو تفسير معنى الكلام وليس تبيينا لمدلول لفظ صعيد.

ونظيره قوله { وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا } [8].

الزلق: مصدر زلقت الرِّجل، إذا اضطربت وزلّت على الأرض فلم تستقر. ووصف الأرض بذلك مبالغة، أي ذات زلق، أي هي مزلقة.

الغور: مصدر غار الماء، إذا ساخ الماء في الأرض. ووصفه بالمصدر للمبالغة.

{ **فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً** } جاء بحرف توكيد النفي زيادة في التحقيق لهذا الرجاء الصادر مصدر الدعاء.

{ **وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً** [42] **وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً**}[43].

كان صاحبه المؤمن رجلا صالحا فحقّق الله رجاءه، أو كان رجلا محدَّثا من محدَّثي هذه الأمّة، أو من محدَّثي الأمم الماضية، على الخلاف في المعنيِّ بالرجلين في الآية، ألهمه الله معرفة ما قدّره في الغيب من عقاب في الدنيا للرجل الكافر المتجبّر.

{ **وَأُحِيطَ** } لم تعطف الجملة بفاء التفريع على رجاء صاحبه المؤمن إذ لم يتعلّق الغرض في هذا المقام بالإشارة إلى الرجل المؤمن، وإنّما المهمّ التنبيه على أنّ ذلك حادث حلّ بالكافر عقابا له على كفره، ليعلم السامعون أنّ ذلك جزاء أمثاله، وأن ليس بخصوصيّة لدعوة الرجل المؤمن.

الإحاطة: الأخذ من كل جانب، مأخوذة من إحاطة العدو بالقوم إذا غزاهم. وتقدّمت في قوله تعالى { إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ } [يوسف:66] وقوله { إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ } [الإسراء:60].

والمعنى: أُتلف ماله كلّه بأن أُرسل على الجنّة والزرع حُسْبَانٌ من السماء فأصبحت صعيدا زلقا وهلكت أنعامه وسُلبت أمواله، أو خُسف بها بزلزال أو نحوه.

{ **بِثَمَرِهِ** } تقدّم اختلاف القراء في لفظ { ثمر} آنفا عند قوله تعالى { وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ } [34].

تقليب الكفّين: حركة يفعلها المتحسّر، وذلك أن يقلّبهما إلى أعلى ثم إلى قبالته، تحسّرا على ما صرفه من المال. ومثله قولهم: قرع السنّ من ندم، وقوله تعالى { عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ } [آل عمران:119].

الخاوية: الخالية، أي وهي خالية من الشجر والزرع.

العروش: السقف. و(على) للاستعلاء.

{ **خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا** } وهذا التركيب أرسله القرآن مثلا للخراب التام الذي هو سقوط سقوف البناء وجدرانه. وتقدّم في قوله { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا } [البقرة:259]، على أن الضمير في آية البقرة مراد به جدران القرية بقرينة مقابلته بعروشها، إذ القرية هي المنازل.

{ **وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي** } حرف النداء مستعمل في التلهّف. و(ليتني) تمنّ مراد به التندّم. ومثله قوله تعالى { أَنْ تَقُولَ نَفسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فرَّطْتُ في جَنْبِ اللَّهِ } [الزمر:56].

{ **لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً** } وهذا ندم على الإشراك فيما مضى وهو يؤذن بأنّه آمن بالله وحده حينئذ.

{ **وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ** } موعظة وتنبيه على جزاء قوله { وَأَعَزُّ نَفراً } [34].

الفئة: الجماعة. وجملة { ينصرونه } صفة، أي لم تكن له فئة هذه صفتها.

{ **وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً** } أي ولا يكون له انتصار وتخلّص من العذاب.

وأحاط به هذا العقاب لا لمجرد الكفر، لأنّ الله قد يمتّع كافرين كثيرين طوال حياتهم ويملي لهم ويستدرجهم. وإنّما أحاط به هذا العقاب جزاء على طغيانه وجعله ثروته وماله وسيلة إلى احتقار المؤمن الفقير، فإنّه لمّا اعتز بتلك النعم وتوسّل بها إلى التكذيب بوعد الله استحقّ عقاب الله بسلب تلك النعم عنه كما سلبت النعمة عن قارون حين قال { قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي } [القصص: 78]. وبهذا كان هذا المثل موضع العبرة للمشركين الذين جعلوا النعمة وسيلة للترفّع عن مجالس الدعوة لأنّها تجمع قوما يرونهم أحطّ منهم، وطلبوا من النبيء ﷺ طردهم عن مجلسه كما تقدم.

{ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الحقّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً } [44] .

تذييل للجمل قبلها لما في هذه الجملة من العموم الحاصل من قصر الولاية على الله تعالى، المقتضي تحقيق جملة { وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً }، وجملة { وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً } [34]، لأنّ الولاية من شأنها أن تبعث على نصر المولى وأن تُطمع المولى في أنّ وليّه ينصره. ولذلك لما رأى الكافر ما دهاه من جرّاء كفره التجأ إلى أن يقول { يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً } [42]، إذ علم أنّ الآلهة الأخرى لم تغن ولايتهم عنه شيئا، كما قال أبو سفيان يوم أسلم " لقد علمت أن لو كان معه إله آخر لقد أغنى عني شيئا".

{ **هُنَالِكَ** } اسم إشارة المكان البعيد مستعار للإشارة إلى الحال العجيبة، بتشبيه الحالة بالمكان لإحاطتها بصاحبها، وتشبيه غرابتها بالبعد لندرة حصولها. والمعنى: أنّ في مثل تلك الحالة تقصر الولاية على الله.

الوَلاية: (بفتح الواو) مصدر وَلِيَ، إذا ثبت له الولاء. وتقدّمت عند قوله تعالى { مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حتّى يُهَاجِرُوا } [الأنفال 72].

{ **الحقِّ** } قرأه الجمهور بالجر، على أنّه وصف الله تعالى، كما وصف بذلك في قوله تعالى { وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ } [يونس:30]. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف {الحقُّ} بالرفع صفة للولاية، فالحقّ على هذا الوجه بمعنى الصدق لأنّ ولاية غيره كذب وباطل.

ووصفه هنا بالحقّ دون وصف آخر، لأنه قد ظهر في مثل تلك الحال أنّ غير الله لا حقيقة له أو لا دوام له.

{ **هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً** } يجوز أن يكون بمعنى أَخْيَرُ، فيكون التفضيل في الخيرية على ثواب غيره وعُقُب غيره، فإنّ ما يأتي من ثوابٍ من غيره ومن عقبى إمّا زائف مفض إلى ضرّ وإما زائل، وثواب الله خالص دائم وكذلك عقباه.

ويجوز أن يكون { **خَيْرٌ** } اسما ضدّ الشرّ، أي هو الذي ثوابه وعُقُبه خير وما سواه فهو شرّ.

{العقب}

{ **عُقْباً** } بمعنى العاقبة، أي آخرة الأمر. وهي ما يرجوه المرء من سعيه وعمله. وقرأ الجمهور بضمّتين وبالتنوين. وقرأه عاصم وحمزة وخلف بإسكان القاف وبالتنوين.
فكأنّ ما ناله ذلك المشرك الجبّار من عطاء إنّما ناله بمساع وأسباب ظاهرية ولم ينله بعناية من الله تعالى وكرامة فلم يكن خيرا وكانت عاقبته شرا عليه.

{ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً } [45]

كان أعظم حائل بين المشركين وبين النظر في أدلة الإسلام انهماكهم في الإقبال على الحياة الزائلة ونعيمها، والغرور الذي غرّ طغاة أهل الشرك وصرفهم عن إعمال عقولهم في فهم أدلة التوحيد والبعث كما قال تعالى { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً } [المزمل:11]، وقال { أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين } [القلم: 14-15]. وكانوا يحسبون هذا العالم غير آيل إلى الفناء { وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } [الجاثية: 24]. وما كان أحد الرجلين الذين تقدّمت قصتهما إلّا واحدا من المشركين إذ قال { وَمَا أَظُنُّ السَّاعةَ قَائِمَةً } [36].
فأمر الله رسوله بأن يضرب لهم مثل الحياة الدنيا التي غرَّتهم بهجتها.
{ **لَهُمْ** } الضمير عائد إلى المشركين كما دلّ عليه تناسق ضمائر الجمع.
الحياة الدنيا: تطلق على مدّة بقاء الأنواع الحيّة على الأرض وبقاء الأرض على حالتها. فإطلاق هذا الاسم على تلك المدة لأنّها مدّة الحياة الناقصة، غير الأبديّة لأنها مقدّر زوالها، فهي دنيا. ووصفها بـ (الدنيا) بمعنى القريبة، أي الحاضرة غير المنتظرة، كنّى عن الحضور بالقرب.
وتطلق (الحياة الدنيا) على مدّة حياة الأفراد، أي حياة كلّ أحد.
{ **كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ** } الكاف في محلّ الحال من الحياة المضاف إليه {مثل}.
أي اضرب لهم مثلا لها حال أنّها كماء أنزلناه. وهذا المثل منطبق على الحياة الدنيا بإطلاقيها.
اختلاط النبات: وفرته والتفاف بعضه ببعض من قوّة الخصب والازدهار. و(به) باء السببية، والضمير عائد إلى { **كَمَاءٍ** }، أي فاختلط النبات بسبب الماء. وليست الباء لتعدية فعل (اختلط) إلى المفعول لعدم وضوح المعنى عليه. وفي ذكر الأرض بعد ذكر السماء محسن الطباق.
{ **فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ** }، مستعملة هنا بمعنى صار، وهو استعمال شائع لـ (أصبح).
الهشيم: اسم على وزن فعيل بمعنى مفعول، أي مهشوما محطّما. والهشم: الكسر والتفتيت.
{ **تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ** } أي تفرّقه في الهواء. و**الذرو**: الرمي في الهواء.

شُبهت حالة هذا العالم بما فيه بحالة الروضة تبقى زمانا بَهِجة خَضِرة ثم يصير نبتُها بعد حين إلى اضمحلال ووجه الشبه: المصير من حال حسن إلى حال سيء.

وأيضا شُبِّهت هيئة إقبال نعيم الدنيا في الحياة مع الشباب والجِدَّة وزخرف العيش لأهله، ثم تقلّص ذلك وزوال نفعه ثم انقراضه أشتاتا، بهيئة إقبال الغيث منبت الزرع ونشأته عنه ونضارته ووفرته ثم أخذه في الانتقاص وانعدام التمتّع به ثم تطايره أشتاتا في الهواء، تشبيها لمركب محسوس بمركب.

{ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً } جملة معترضة في آخر الكلام. موقعها التذكير بقدرة الله تعالى على خلق الأشياء وأضدادها، وجعل أوائلها مفضية إلى أواخرها، وترتيبه أسباب الفناء على أسباب البقاء، وذلك اقتدار عجيب. وقد أفيد ذلك على أكمل وجه بالعموم الذي في قوله {على كل شيء} وهو بذلك العموم أشبه التذييل.

المقتدر: قويّ القدرة.

{ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً } [46]

اعتراض أريد به الموعظة والعبرة للمؤمنين بأنّ ما فيه المشركون من النعمة من مال وبنين ما هو إلّا زينة الحياة الدنيا التي علمتم أنّها إلى زوال، كقوله تعالى { لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ } [آل عمران:196] وأنّ ما أعد الله للمؤمنين خير عند الله وخير أملا.

{ الْمَالُ وَالْبَنُونَ } وتقديم المال على البنين في الذكر لأنّه أسبق خطورا لأذهان النّاس، لأنّه يرغب فيه الصغير والكبير والشاب والشيخ ومن له من الأولاد ما قد كفاه.

{ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ } صفتان جرتا على موصوف محذوف، أي الأعمال الصالحات البقيات، أي التي لا زوال لخيرها، وهو ثوابها الخالد، فهي خير من زينة الحياة الدنيا التي هي غير باقية.

وكان مقتضى الظاهر في ترتيب الوصفين أن يقدّم { الصالحات } على { الباقيات }، لأنّه قد شاع أن يقال: الأعمال الصالحات ولا يقال الأعمال البقيات، ولأن بقاءها مترتب على صلاحها، فلا جرم أن الصالحات وصف قام مقام الموصوف وأغنى عنه كثيرا في الكلام حتّى صار لفظ {الصالحات} بمنزلة الاسم الدال على عمل خير، وذلك كثير في القرآن قال تعالى: { وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } [العصر:3].

ولكن خولف مقتضى الظاهر هنا، فقدّم {الباقيات} للتنبيه على أنّ ما ذكر قبله إنّما كان مفصولا لأنه ليس بباق، وهو المال والبنون. ونظير هذه الآية قوله { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا } [مريم: 76].

{ وَخَيْرٌ أَمَلاً } أنّ أمل الآمل في المال والبنين إنّما يأمل حصول أمر مشكوك في حصوله ومقصور على مدّته. وأمّا الآمل لثواب الأعمال الصالحة فهو يأمل حصول أمر موعود به من صادق الوعد. ويأمل شيئا

تحصل منه منفعة الدنيا ومنفعة الآخرة كما قال تعالى { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 97].

{ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً [47] وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً } [48].

عطف على جملة { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [45] فلفظ { يَوْمَ } منصوب بفعل مضمر تقديره: اذكر، كما هو متعارف في أمثاله. فبعد أن بيّن لهم تعرّض ما هم فيه من نعيم إلى الزوال على وجه الموعظة، أعقبه بالتذكير بما بعد ذلك الزوال، بتصوير حال البعث وما يترقّبهم فيه من العقاب على كفرهم به، وذلك مقابلة لضدّه المذكور في قوله { وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ }.

{ **نُسَيِّرُ الْجِبَالَ** } نقلها من مواضعها بزلزال أرضي عظيم، وهو مثل قوله { وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ} [التكوير:3] وقيل: أطلق التسيير على تناثر أجزائها، فيكون كقوله { وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ } [القارعة: 5]، وقوله { وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً } [الواقعة: 5-6] وقوله { وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً } [النبأ: 20]. وهو من أحوال انقراض نظام هذا العالم، وإقبال عالم الحياة الخالدة والبعث.

{ **وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً** } الخطاب لغير معيّن. والمعنى: ويرى الرائي. وهو نظير قوله { فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ ممّا فيهِ } [49].

البارزة: الظاهرة، أي الظاهر سطحها، إذ ليس عليها شيء يستر وجهها من شجر ونبات أو حيوان، كقوله تعالى { فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ } [النازعات: 14].

{ **وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً** } في موضع الحال من ضمير { نُسَيِّرُ }. يجوز أن نجعل الجملة معطوفة على جملة { نُسَيِّرُ الْجِبَالَ }. و**المغادرة**: إبقاء شيء وتركه.

{ **وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً** } في موضع الحال من الضمير المنصوب في { حشرناهم } ، أي حشرناهم وقد عرضوا، تنبيها على سرعة عرضهم في حين حشرهم.

عرض الشيء: إحضاره ليرى حاله وما يحتاجه. وفي الحديث: " عرضت عليّ الأمم ". وهو هنا مستعار لإحضارهم، حيث يعلمون أنّهم سيتلقّون ما يأمر الله به في شأنهم.

الصفّ: جماعة يقفون واحدا حذو واحد بحيث يبدو جميعهم لا يحجب أحد منهم أحدا. وأصله مصدر صفّهم إذا أوقفهم. وتلك الحالة إيذان بأنّهم أحضروا بحالة الجناة الذين لا يخفى منهم أحد، إيقاعا للرعب في قلوبهم.

{ **عَلَى رَبِّكَ** } عدل عن الإضمار إلى التعريف بالإضافة، دون أن يقال: علينا، لتضمّن الإضافة تنويها بشأن المضاف إليه بأنّ في هذا العرض، وما فيه من التهديد، نصيبا من الانتصار للمخاطب إذ كذّبوه حين أخبرهم

وأنذرهم بالبعث.

{ **لَقَدْ جِئْتُمُونَا** } مقول لقول محذوف دلّ عليه أنّ الجملة خطاب للمعروضين، فتعيّن تقدير القول.

والجملة في محلّ الحال. والتقدير: قائلين لهم لقد جئتمونا. وذلك بإسماعهم هذا الكلام من جانب الله تعالى.

المجيء: مجاز في الحضور، شُبّهوا حين موتهم بالغائبين، وشُبّهت حياتهم بعد الموت بمجيء الغائب.

{ **كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** } واقع موقع المفعول المطلق المفيد للمشابهة، أي جئتمونا مجيئا كخلقكم أوّل مرّة.

فالخلق الثاني أشبه الخلق الأوّل، أي فهذا خلق ثان. قال تعالى { أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ في لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [قّ:15]. والمقصود التعريض بخطئهم في إنكارهم البعث.

{ **بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً** } الإضراب انتقال من التهديد وما معه من التعريض بالتغليط إلى التصريح بالتغليط في قالب الإنكار، فالخبر مستعمل في التغليط مجازا وليس مستعملا في إفادة مدلوله الأصلي.

الزعم: الاعتقاد المخطئ، أو الخبر المعرّض للكذب.

الموعد: أصله وقت الوعد بشئ أو مكان الوعد. وهو هنا الزمن الموعود به الحياة بعد الموت.

والمعنى: أنّكم اعتقدتم باطلا أن لا يكون لكم موعد للبعث بعد الموت أبدا.

{ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ ممّا فيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً } [49]

معطوفة على جملة { وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ } [48]، فهي في موضع الحال، أي وقد وُضع الكتاب.

{ **الْكِتَابُ** } مراد به الجنس، أي وضعت كتب أعمال البشر، لأنّ لكلّ أحد كتابا، كما دلّت عليه آيات أخرى كقوله { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً } [الاسراء: 13- 14].

وإفراد الضمير في قوله {مما فيه} لمراعاة إفراد لفظ {الكتاب}. وعن الغزالي: أنّه قال: يكون كتاب جامع لجميع ما هو متفرّق في الكتب الخاصة بكل أحد. ولعلّه انتزعه من هذه الآية.

{ **فتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ ممّا فيهِ** } الخطاب لغير معيّن. وليس للنبيء ﷺ لأنّ الرسول ﷺ يومئذ في مقامات عالية عن ذلك الموضع.

الإشفاق: الخوف من أمر يحصل في المستقبل.

{ **وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا** } التعبير بالمضارع لاستحضار الحالة الفظيعة، أو لإفادة تكرّر قولهم ذلك وإعادته، شأن الفزعين الخائفين.

نداء الويل: ندبة للتوجّع من الويل. وأصله نداء استعمل مجازا بتنزيل ما لا ينادى منزلة ما ينادى لقصد حضوره، ثم شاع ذلك فصار لمجرّد الغرض من النداء، وهو التوجّع ونحوه.

الويلة: تأنيث الويل للمبالغة، وهو سوء الحال والهلاك. كما أنّثت الدار على دارة، للدلالة على سعة المكان.

وقد تقدّم عند قوله تعالى { قال يا وليتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب} [المائدة:31].

{ **مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا** } الاستفهام مستعمل في التعجيب. فـ **(ما)** اسم استفهام، ومعناها: أي شيء، و {هَذَا الْكِتَابِ} صفة لـ (ما) الاستفهامية لما فيها من التنكير، أي ما ثبت لهذا الكتاب. والـ **(لام)** للاختصاص.

{ **لا يغادر** } في موضع الحال، هي مثار التعجيب.

المغادرة: الترك، وتقدّم آنفا في قوله { فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً } [47].

{ **صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً** } وصفان لموصوف محذوف لدلالة المقام. والمراد بالصغر والكبر هنا الأفعال العظيمة والأفعال الحقيرة. والعظم والحقارة يكونان بحسب الوضوح والخفاء ويكونان بحسب القوّة والضعف.

وتقديم ذكر الصغيرة لأنّها أهم من حيث يتعلّق التعجّب من إحصائها. وعطفت عليها الكبيرة لإرادة التعميم في الإحصاء لأنّ التعميم أيضا ممّا يثير التعجّب.

{ **إِلَّا أَحْصَاهَا** } الاستثناء هنا من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه لأنّه إذا أحصاه فهو لم يغادره، فآل إلى معنى أنه لا يغادر شيئا، وانتفت حقيقة الاستثناء.

الإحصاء: العدّ، أي كانت أفعالهم معدودة مفصّلة.

{ **وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً** } في موضع الحال من ضمير {يقولون} . أي إنّما قالوا ذلك حين عرضت عليهم أعمالهم كلّها عند وضع ذلك الكتاب عرضا سريعا حصل به علم كلّ بما في كتابه على وجه خارق للعادة.

{ **وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً** } عطف على جملة { وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً } لما أفْهمته الصلة من أنّهم لم يجدوا غير ما عملوا، لأنّ الله لا يظلم أحدا فيؤاخذه بما لم يقترفه. وقد حدّد لهم من قبل ذلك ما ليس لهم أن يفعلوه وما أمروا بفعله، وتوعدهم ووعدهم، فلم يكن في مؤاخذتهم بما عملوه من المنهيات بعد ذلك ظلم لهم.

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ففسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً } [50]

عطف على جملة { وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ } [47] بتقدير: واذكر إذ قلنا للملائكة، تفنّنا لغرض الموعظة الذي سيقت له هذه الجمل، وهو التذكير بعواقب اتباع الهوى والإعراض عن الصالحات، وبمداحض الكبرياء والعجب واحتقار الفضيلة والابتهاج بالأعراض التي لا تُكسب أصحابها كمالا نفسيّا. وكما وُعظوا بآخر أيّام الدنيا ذُكّروا هنا بالموعظة بأوّل أيّامها، وهو يوم خلق آدم، وهذا أيضا تمهيد وتوطئة لقوله { يَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ } [52]، فإنّ الإشراك كان من غرور الشيطان ببني آدم.

ولها أيضا مناسبة بما تقدّم من الآيات التي أنحت على الذين افتخروا بجاههم وأموالهم واحتقروا فقراء أهل الإسلام ولم يميّزوا بين الكمال الحقّ والغرور الباطل، فكان في قصّة إبليس نحو آدم مثل لهم، ولأنّ في هذه القصّة تذكيرا بأنّ الشيطان هو أصل الضلال، وأن خسران الخاسرين يوم القيامة آيل إلى اتّباعهم خطوات الشيطان وأوليائه. ولهذا فُرّع على الأمرين قوله تعالى { أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ }.

وهذه القصّة تكرّرت في مواضع كثيرة من القرآن، وهي في كل موضع تشتمل على شيء لم تشتمل عليه في الآخر، ولها في كل موضع، ذكرت فيه، عبرة تخالف عبرة غيره، فذكرها في سورة البقرة مثلا إعلام بمبادئ الأمور، وذكرها هنا تنظير للحال وتوطئة للإنكار والتوبيخ، وقسّ على ذلك.

{ **فَفَسَقَ** } تجاوز عن طاعته. وأصله قولهم: فسقت الرُّطَبة، إذا خرجت من قشرها فاستعمل مجازا في التجاوز. قال أبو عبيدة. والفسق بمعنى التجاوز عن الطاعة، ولم نسمع ذلك في شيء من أشعار الجاهلية ولا أحاديثها وإنّما تكلّم به العرب بعد نزول القرآن"، أي في هذه الآية ونحوها. ووافقه المبرد وابن الأعرابي.

وأطلق الفسق في مواضع من القرآن على العصيان العظيم، كقوله { وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ } [البقرة:26].

{ **عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** } الأمر بمعنى المأمور، أي ترك وابتعد عمّا أمره الله به. والعدول إلى التعريف بطريق الإضافة دون الضمير لتفظيع فسق الشيطان عن أمر الله بأنّه فسق عبد أمر من تجب عليه طاعته لأنّه مالكه.

{ **أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ** } وفرّع على التذكير بفسق الشيطان وعلى تعاظمه على أصل النوع الإنساني إنكار اتخاذه واتخاذ جنده أولياء، لأن تكبّره على آدم يقتضي عداوته للنوع، ولأنّ عصيانه أمر مالكه يقتضي أنّه لا يرجى منه خير وليس أهلا لأن يتّبع.

والاستفهام مستعمل في الإنكار والتوبيخ للمشركين، إذ كانوا يعبدون الجنّ، قال تعالى { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ } [الأنعام: 100].

الذرية: النسل، وذرية الشيطان الشياطين والجنّ.

الولي: من يتولّى، أي يتّخذ ذا وَلاية (بفتح الواو) وهي القرب. والمراد به القرب المعنوي، وهو الصداقة والنسب والحلف.

العدو: اسم يصدق على الواحد وعلى الجمع، قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ

تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ } [الممتحنة: 1] وقال { هُمُ الْعَدُوُّ } [المنافقون: 4].

{ **بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً** } مستأنفة لإنشاء ذم إبليس وذريته باعتبار اتخاذ المشركين إيّاهم أولياء. أي بئس البدل للمشركين الشيطان وذرّيّته.

{ **بَدَلاً** } تمييز مفسر لاسم { بئس } المحذوف لقصد الاستغناء عنه بالتمييز على طريقة الإجمال ثم التفصيل. والظالمون هم المشركون. وإظهار الظالمين في موضع الإضمار للتشهير بهم. ولما في الاسم الظاهر من معنى الظلم الذي هو ذمّ لهم.

{ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً }[51]

تتنزّل هذه الجملة منزلة التعليل للجملتين اللتين قبلها وهما { أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ - إلى قوله – بدلا } [50]، فإنّهم لمّا لم يشهدوا خلق السماوات والأرض لم يكونوا شركاء لله في الخلق بطريق الأولى فلم يكونوا أحقّاء بأن يُعبدوا. وهذا احتجاج على المشركين بما يعترفون به، فإنّهم يعترفون بأنّ الله هو المتفرّد بخلق السماوات والأرض وخلق الموجودات.

الإشهاد: جعل الغير شاهدا، أي حاضرا، وهو هنا كناية عن إحضار خاص، وهو إحضار المشاركة في العمل أو الإعانة عليه. ونفي هذا الشهود يستلزم نفي المشاركة في الخلق والإلهية بالفحوى، أي بالأولى، فإنّ خلق السماوات كان قبل وجود إبليس وذرّيّته، فهو استدلال على انتفاء إلهيتهم بسبق العدم على وجودهم. وكل ما جاز عليه العدم استحال عليه القدم، والقدم من لوازم الإلهيّة.

{ **أشهدتم / أنفسهم** } ضمائر الغيبة عائدة إلى المتحدّث عنه، أي إبليس وذرّيّته كما عاد إليهم الضمير في قوله { وَهُمْ لَكُمْ عَدُو }.

واعلم أنّ الله تعالى خلق السماوات والأرض قبل أن يخلق لهما سكّانهما كما دلّ عليه قوله { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } [فصلت:9-12].

وكان أهل الجاهلية يعتقدون في الأرض جنّا متصرّفين فكانوا إذا نزلوا واديا مَخُوفًا قالوا: أعوذ بعزيز هذا الوادي، ليكونوا في أمن من ضرّه.

{ **وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً** } الجملة تذييل لجملة { مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }. والعدول عن الإضمار بأن يقال: وما كنت متخذهم إلى { المضلّين } لإفادة الذم، ولأن التذييل ينبغي أن يكون كلاما مستقلّا.

{ **الْمُضِلِّينَ** } الشياطين، لأنّهم أضلّوا النّاس بإلقاء خواطر الضلالة والفساد في النفوس، كما قال تعالى { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } [الأنعام: 121]..

العَضُد: بفتح العين وضم الضاد المعجمة في الأفصح، و بالفتح وسكون الضاد في لغة تميم. وفيه لغات أخرى أضعف. وهو: العظم الذي بين المرفق والكتف. وهو يطلق مجازا على المعين على العمل، يقال: فلان عضدي واعتضدت به.

والمعنى: لا يليق بالكمال الإلهي أن أتّخذ أهل الإضلال أعوانا فأشركهم في تصرفي في الإنشاء، فإن الله مفيض الهداية وواهب الدراية فكيف يكون أعوانه مصادر الضلالة.

{ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً }[52]

عطف على { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ } فيقدّر: واذكر يوم يقول نادوا شركائي، أو على جملة { مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [51] فالتقدير: ولا أشهدت شركاءهم جميعا ولا تنفعهم شركاؤهم يوم الحشر، فهو انتقال من إبطال معبودية الشيطان والجنّ إلى إبطال إلهية جميع الآلهة التي عبدها دهماء المشركين، مع بيان ما يعتريهم من الخيبة واليأس يومئذ.

وقد سلك في إبطال إلهيتها طريق المذهب الكلامي وهو الاستدلال على انتفاء الماهية بانتفاء لوازمها، فإنّه إذا انتفى نفعها للذين يعبدونها استلزم ذلك انتفاء إلهيتها، وحصل بذلك تشخيص خيبتهم ويأسهم من النجاة.

{ **وَيَوْمَ يَقُولُ** } يوم الحشر. والمعنى: يقول للمشركين، كما دل عليه قوله { الَّذِينَ زَعَمْتُمْ }، أي زعمتموهم شركائي. وقدم وصفهم بوصف الشركاء قبل فعل الزعم، تهكّما بالمخاطبين وتوبيخا لهم.

{ **نَادُوا** } النداء طلب الإقبال للنصرة والشفاعة.

{ **فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ** } والاستجابة الكلام الدال على سماع النداء والإقبال على المنادي بنحو قول: لبيكم. وأمره إيّاهم بمناداة شركائهم مستعمل في معناه مع إرادة لازمه وهو إظهار باطلهم بقرينة الزعم. ولذلك لم يسعهم إلّا أن ينادوهم، { **فدعوهم** } لطمعهم، فإذا نادوهم تبيّن لهم خيبة طمعهم. ولذلك عطف فعل الدعاء بالفاء الدالة على التعقيب. وأتى به في صيغة الماضي للدلالة على تعجيل وقوعه، حتّى كأنّه قد انقضى.

الموبق: مكان الوُبوق، أي الهلاك. يقال: وَبَقَ مثل وعد . والموبق هنا أريد به جهنم، أي حين دعوا أصنامهم بأسمائهم كوّن الله فيما بين مكانهم ومكان أصنامهم فوهات جهنم، ويجوز أن تكون الجملة في مقام الحال.

{ وَرَأى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً }[53]

عطف على جملة { وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً }، أي جعلنا الموبق ورآه المجرمون، فذكر المجرمين إظهار في مقام

الإضمار للدلالة على تلبّسهم بما استحقوا به عذاب النار. وكذلك بـ { النّار } في مقام الإضمار للموبق للدلالة على أنّ الموبق هو النّار، فهو شبيه بعطف البيان.

{ **فظَنُّوا** } والظنّ مستعمل هنا في معنى التحقّق وهو من استعمالاته. ولعل اختياره هنا ضرب من التهكّم بهم، بأنّهم رجّحوا أن تلك النار أعدت لأجلهم في حين أنهم موقنون بذلك.

المواقعة: مفاعلة من الوقوع، وهو الحصول لقصد المبالغة.

المصرف: مكان الصرف، أي التخلّص والمجاوزة.

وفي الكلام إيجاز، تقديره: وحاولوا الانقلاب أو الانصراف فلم يجدوا عنها مصرفا، أي مخلصا.

{ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ للنّاس مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } [54]

عطف على الجمل السابقة التي ضُربت فيها أمثال من قوله { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ } [32] وقوله {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } [45]. ولمّا كان في ذلك لهم مقنع وما لهم منه مدفع عاد إلى التنويه بهدي القرآن عودا ناظرا إلى قوله { وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ } [27] وقوله { وَقُلِ الحقّ مِنْ رَبِّكُمْ فمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفرْ} [29]، فأشار لهم أنّ هذه الأمثال التي قرعت أسماعهم هي من جملة هدي القرآن الذي تبرّموا منه. وتقدّم الكلام على نظير هذه الآية عند قوله { وَلَقَدْ صَرَّفنَا للنّاس في هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فأَبَى أَكْثَرُ النّاس إِلَّا كُفوراً} [الإسراء:89]، سوى أنّه يتجه هنا أن يُسال لم قدّم في هذه الآية أحد متعلقي فعل التصريف على الآخر إذ قدم هنا قوله { في هَذَا الْقُرْآنِ } على قوله { للناس } عكس آية سورة الإسراء. وهو ما أشرنا إليه عند الآية السابقة من أن ذكر القرآن أهم من ذكر النّاس بالأصالة، ولا مقتضى للعدول عنه هنا بل الأمر بالعكس لأنّ الكلام جار في التنويه بشأن القرآن وأنّه ينزل بالحق لا بهوى الأنفس.

{ **للنّاس** } اسم عام لكلّ من يبلغه القرآن في سائر العصور المستقبلة، والمقصود على الخصوص المشركون. كما دل عليه جملة { وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً }. وسيجيء قوله { وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ } [56]. وهذا يشبه العام الوارد على سبب خاص وقرائن خاصة.

{ **وَكَانَ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** } تذييل، وهو مؤذن بكلام محذوف على وجه الإيجاز، والتقدير: فجادلوا فيه وكان الإنسان أكثر جدلا.

{ **الْإِنْسَانُ** } وليس المراد الإنسان الكافر كما في قوله تعالى { وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً } [مريم: 66] ولا المراد بالجدل الجدل بالباطل، لأنّ هذا سيجيء في قوله تعالى { وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفرُوا بِالْبَاطِلِ } فالكلام هنا تمهيد لقوله بعده { وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفرُوا بِالْبَاطِلِ } [56].

{ **شَيْءٍ** } اسم مفرد متوغّل في العموم. ولذلك صحّت إضافة اسم التفضيل إليه، أي أكثر الأشياء. واسم

التفضيل هنا مسلوب المفاضلة، وإنّما أتي بصيغته لقصد المبالغة في شدّة جدل الإنسان وجنوحه إلى المماراة والنزاع. وإنما أُلجئنا إلى هذا التأويل في اسم التفضيل لظهور أنّ غير الإنسان من أنواع ما على الأرض لا يتصور منه الجدل. فالجدل خاص بالإنسان لأنّه من شعب النطق الذي هو فصل حقيقة الإنسانية، أما الملائكة فجدلهم محمود مثل قولهم { أَتَجْعَلُ فيهَا مَنْ يُفسِدُ فيهَا - إلى قوله - ونُقَدِّسُ لَكَ } [البقرة: 30]. وأمّا الشياطين فهم أكثر جدلا من الإنسان، ولكن لمّا نبا المقام عن إرادتهم كانوا غير مرادين بالتفضيل عليهم في الجدل.

{ **جَدَلاً** } تمييز لنسبة الأكثرية إلى الإنسان. أي كثيرا جدله.

الجدل: المنازعة بمعاوضة القول، أي هو الكلام الذي يحاول به إبطال ما في كلام المخاطب من رأي أو عزم عليه، بالحجة أو بالإقناع أو بالباطل، قال تعالى { وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [العنكبوت: 46]، وقال { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ في زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ } [المجادلة: 1]، وقال تعالى { يُجَادِلُنَا في قَوْمِ لُوطٍ} [هود: 74]، وقال { وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفسَهُمْ } [النساء: 107] وقال { يجادلونك في الحقّ بعد ما تبين} [الأنفال: 6].

والمراد هنا مطلق الجدل وبخاصة ما كان منه بباطل، أي أن كل إنسان في طبعه الحرص على إقناع المخالف بأحقية معتقده أو عمله. وسياق الكلام يقتضي إرادة الجدل الباطل.

{ وَمَا مَنَعَ النّاس أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً } [55]

عطف على جملة { وَلَقَدْ صَرَّفنَا في هَذَا الْقُرْآنِ } [54]. ومعناها متّصل تمام الاتصال بمعنى الجملة التي قبلها بحيث لو عطفت عليها بفاء التفريع لكان ذلك مقتضى الظاهر. وتعتبر جملة { وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } [54] معترضة بينهما.

{ **النّاس** } يعم النّاس الذين يسمعون القرآن في أزمان ما بعد نزول تلك الآية، وهذا يعم النّاس كلهم الذين امتنعوا من الإيمان بالله.

{ **الْهُدَى** } لفظ عام يشمل هدى القرآن وما قبله من الكتب الإلهية وأقوال الأنبياء كلّها، فكانت هذه الجملة قياسا تمثيليا بشواهد التاريخ وأحوال تلقّي الأمم دعوات رسلهم.

{ **وَيَسْتَغْفرُوا رَبَّهُمْ** } وذكر الاستغفار هنا بعد ذكر الإيمان لتلقينهم بأن يبادروا بالإقلاع عن الكفر وأن يتوبوا إلى الله من تكذيب النبيء ومكابرته.

{ **تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ** } تحلّ فيهم وتعتريهم. أي تلقى في نفوسهم وتسوّل إليهم. والمعنى: أنهم يشبهون خُلُق من كانوا قبلهم من أهل الضلال ويقلدونهم، كما قال { أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [الذريات:53].

{ **الأولين** } السابقون من الأمم في الضلال والعناد. ويجوز أن يراد بهم الآباء، أي سنّة آبائهم، أي طريقتهم ودينهم. ولكلّ أمّةٍ أمّةٌ سبقتها. وإسناد منعهم من الإيمان إلى إتيان سنة الأولين استعارة.

والمعنى: ما منع النّاس أن يؤمنوا إلّا الذي منع الأولين قبلهم من عادة العناد والطغيان، وطريقتهم في تكذيب الرّسل والاستخفاف بهم.

{ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً }

{ **أَوْ** } هي التي بمعنى إلى، وانتصاب فعل { يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ } بـ (أن) مضمرة بعد (أو). أي منعهم تقليد سنة الأولين من الإيمان إلى أنّ يأتيهم العذاب كما أتى الأوّلين.

هذا ما بدا لي في تفسير هذه الآية وأراه أليق بموقع هاته الآية من التي قبلها.

{ **قُبُلاً** } حال من العذاب . وهو في قراءة الجمهور { **قِبَلاً** } (بكسر القاف وفتح الباء) بمعنى المقابل الظاهر. وقرأ حمزة وعاصم والككسائي وأبو جعفر وخلف { **قُبُلاً** } (بضمّتين) وهو جمع قبيل، أي يأتيهم العذاب أنواعا.

{ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً } [56]

بعد أن أشار إلى جدالهم في هدى القرآن بما مهّد له من قوله { وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } [54]. وأشار إلى أنّ الجدال فيه مجرّد مكابرة وعناد، وأنّه لا يحفّ بالقرآن ما يمنع من الإيمان به، كما لم يحف بالهدى الذي أرسل إلى الأمم ما يمنعهم الإيمان به، أعقب ذلك بأنّ وظيفة الرسل التبليغ بالبشارة والنذارة لا التصدي للمجادلة، لأنّها مجادلة لم يقصد منها الاسترشاد بل الغاية منها إبطال الحقّ.

{ **وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفرُوا بِالْبَاطِلِ** } مفيدة معنى الاستدراك، أي أرسلنا الرّسل مبشّرين ومنذرين بما فيه مقنع لطالب الهدى، ولكن الذين كفروا جادلوه بالباطل لإزالة الحقّ لا لقصد آخر. واختيار فعل المضارعة للدلالة على تكرر المجادلة، أو لاستحضار صورة المجادلة.

المجادلة: تقدّمت في قوله تعالى { يُجَادِلُنَا في قَوْمِ لُوطٍ} [هود: 74].

{ **لِيُدْحِضُوا بِهِ الحقّ** } الإدحاض: الإزلاق، يقال: دحضت القدم، إذا زلّت، وهو مجاز في الإزالة، لأنّ الرجل إذا زلقت زالت عن موضع تخطيها، قال تعالى { فسَاهَمَ فكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ } [الصافات:141].

{ **وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُواً** } عطف على جملة { وَيُجَادِلُ } فإنّهم ما قصدوا من المجادلة الاهتداء، ولكن أرادوا إدحاض الحقّ واتخاذ الآيات كلها وبخاصة آيات الإنذار هزؤا.

الهُزُو: مصدر هَزَا، أي اتخذوا ذلك مستهزأ به. والاستهزاء بالآيات هو الاستهزاء عند سماعها، كما يفعلون عند سماع آيات الإخبار بالبعث وعند سماع آيات الوعيد والإنذار بالعذاب.

وعطف { وَمَا أُنْذِرُوا } على { الآيات } عطف خاص على عام لأنّه أبلغ في الدلالة على توغل كفرهم وحماقة عقولهم.

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفقَهُوهُ وَفي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً } [57]

لمّا بيّن حالهم من مجادلة الرّسل لسوء نيّة، ومن استهزائهم بالإنذار، وعرّض بحماقتهم أتبع ذلك بأنّه أشدّ الظلم. وذلك لأنّه ظلم المرء نفسه، وهو أعجب الظلم. فقد ذُكّروا ما هم في غفلة عنه تذكيرا بواسطة آيات الله، وأعرضوا عن التأمّل فيها، مع أنّها تنذرهم بسوء العاقبة. وشأن العاقل إذا سمع مثل ذلك أن يتأهّب للتأمّل وأخذ الحذر، كما قال النبيء ﷺ لقريش " إذا أخبرتكم أنّ العدوّ مصبّحكم غدا أكنتم مصدّقي؟ فقالوا: ما جرّبنا عليك كذبا، فقال فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد ".

{ وَمَنْ أَظْلَمُ } المراد بها المشركين من العرب الذين ذُكّروا بالقرآن فأعرضوا عنه. والاستفهام مستعمل في الإنكار، أي لا أحد أظلم من هؤلاء المتحدّث عنهم.

{ فَأَعْرَضَ عَنْهَا } عطف إعراضهم عن الذكر على التذكير بفاء التعقيب إشارة إلى أنّهم سارعوا بالإعراض ولم يتركوا لأنفسهم مهلة النظر والتأمّل.

{ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ } المعنى أنّه لم يعرض حاله وأعماله على النظر والفكر ليعلم أهي صالحة لا تُخشى عواقبها أم هي سيّئة من شأنها أن لا يسلم مقترفها من مؤاخذة، والصلاح بيّن والفساد بيّن، ولذلك سمّي الأوّل معروفا والثاني منكرا، ولا سيما بعد أن جاءتهم الذكرى على لسان الرسول ﷺ.

النسيان: مستعمل في التغاضي عن العمل. وتقدّم عند قوله تعالى {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا} [البقرة:106].

{ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ } ما أسلفه من الأعمال. وأكثر ما يُستعمل مثل هذا التركيب في القرآن في العمل السيّء، فصار جاريا مجرى المثل، قال تعالى { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ }[آل عمران:182]، وقال { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } [الشورى: 30].

والآية مصوغة بصيغة العموم، والمقصود الأوّل منها مشركو أهل مكّة.

{ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفقَهُوهُ وَفي آذَانِهِمْ وَقْراً } مستأنفة بيانيّة وهي تفيد معنى التعليل بالمآل.

{ **قُلُوبِهِمْ** } مراد بها مدارك العلم.
الأكنّة: جمع كِنان، وهو الغطاء، لأنّه يُكنّ الشيء، أي يحجبه.
{ **أَنْ يَفْقَهُوهُ** } مجرور بحرف محذوف، أي من أن يفقهوه، لتضمين { أكنة } معنى الحائل أو المانع.
والضمير المفرد في { يفقهوه } عائد إلى القرآن المفهوم من المقام والمعبّر عنه بالآيات.
الوقر: ثقل السمع المانع من وصول الصوت إلى الصماخ.
{ **وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً** } عطف على جملة { إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ} ، وهي متفرّعة عليها، ولكنها لم تعطف بالفاء لأنّ المقصود جعل ذلك في الإخبار المستقلّ.
وأكد نفي اهتدائهم بحرف توكيد النفي وهو (لن)، وبلفظ { أبدا } المؤكّد لمعنى (لن)، وبحرف الجزاء (إذا) المفيد تسبّب الجواب على الشرط. وإنّما حصل معنى الجزاء باعتبار تفرع جملة الشرط على جملة الاستئناف البياني، أي ذلك مسبّب على فطر قلوبهم على عدم قبول الحقّ.

{ وَرَبُّكَ الْغَفورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً } [58]

جرى القرآن على عادته في تعقيب الترهيب بالترغيب والعكس، فلمّا رماهم بقوارع التهديد والوعيد عطف على ذلك التعريض بالتذكير بالمغفرة، لعلّهم يتفكّرون في مرضاته، ثم التذكير بأنّه يشمل الخلق برحمته في حين الوعيد، فيؤخّر ما توعّدهم به إلى حد معلوم، إمهالا للنّاس لعلّهم يرجعون عن ضلالهم ويتدبّرون فيما هم فيه من نعم الله تعالى، فلعلّهم يشكرون، موجّها الخطاب إلى النبيء ﷺ.
وخصّ بالذكر من أسماء الله تعالى اسم { الغفور } تعريضا بالترغيب في الاستغفار.
الغفور: اسم يتضمّن مبالغة الغفران لأنّه واسع المغفرة إذ يغفر لمن لا يحصون ويغفر ذنوبا لا تحصى إن جاءه عبده تائبا منكسرا، على أنّ إمهاله الكفّار والعصاة هو أيضا من أثر المغفرة إذ هو مغفرة مؤقّتة.
{ **ذُو الرَّحْمَةِ** } بيان لجملة { وَرَبُّكَ الْغَفورُ } باعتبار الغفور الخبر وهو الوصف الثاني.
والمعنى: أنّهم فيما كسبوه من الشرك والعناد أحرياء بتعجيل العقوبة ولكنّ الله يمهلهم إلى أمد معلوم مقدّر.
وفي ذلك التأجيل رحمة بالنّاس بتمكين بعضهم من مهلة التدارك وإعادة النظر.
فوصف { ذُو الرَّحْمَةِ } يساوي وصف { الرحيم } لأنّ (ذو) تقتضي رسوخ النسبة بين موصوفها وما تضاف إليه. وإنّما عدل عن وصف { الرحيم } إلى { ذو الرحمة } للتنبيه على أنّه خبر لا نعت، تنبيها بطريقة تغيير الأسلوب، فإنّ اسم { الرحيم } صار شبيها بالأسماء الجامدة، لأنّه صيغ بصيغة الصفة المشبّهة فبعُد عن ملاحظة الاشتقاق فيه واقترب من صنف الصفة الذاتية.

{ **بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً** } (بل) للإضراب الإبطالي عن مضمون جواب (لو)، أي لم يعجّل لهم العذاب إذ لهم موعد للعذاب متأخّر. وهذا تهديدٌ بما يحصل لهم يوم بدر.

الموئل: مَفْعل من (وَأَلَ) بمعنى لجأ، فهو اسم مكان بمعنى الملجأ.

وأكد النفي بـ (لن) ردا على إنكارهم، إذ هم يحسبون أنّهم مفلتون من العذاب حين يرون أنّه تأخّر مدة طويلة، أي لأنّ لا ملجأ لهم من العذاب دون وقت وعده أو مكان وعده، فهو ملجؤهم. وهذا من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه، أي هم غير مفلتين منه.

{ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً } [59]

بعد أن أزيل غرورهم بتأخّر العذاب، وأبطل الإفلات منه ببيان أنّ ذلك إمهال من أثر رحمة الله بخلقه. ضرب لهم المثل في ذلك بحال أهل القرى السالفين الذين أُخِّر عنهم العذاب مدّة ثمّ لم ينجوا منه بأَخَرة، فالجملة معطوفة على جملة { بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ } [58].

{ **وَتِلْكَ الْقُرَى** } الإشارة بـ (تلك) إلى مقدّر في الذهن. والعرب يعرفون ديار عاد وثمود ومدين ويسمعون بقوم لوط وقوم فرعون فكانت كالحاضرة حين الإشارة.

الظلم: الشرك وتكذيب الرّسل.

{ **وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً** } والمُهْلَك (بضم الميم وفتح اللام) مصدر ميمي من (أهلك)، أي جعلنا لإهلاكنا إيّاهم وقتا معيّنا في علمنا إذا جاء حلّ بهم الهلاك. وهذه قراءة الجمهور. وقرأه حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام على أنّه اسم زمان على وزن (**مَفْعِل**). وقرأه أبو بكر عن عاصم بفتح الميم وفتح اللام على أنه مصدر ميمي لهلك.

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حتّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً }[60]

لما جرى ذكر قصّة خلق آدم وأمر الله الملائكة بالسجود له، وما عرض للشيطان من الكبر والاعتزاز بعنصره، جهلا بأسباب الفضائل ومكابرة في الاعتراف بها وحسدا في الشرف والفضل، فضرب بذلك مثلا لأهل الضلال عبيد الهوى والكبر والحسد، أعقب تلك القصّة بقصة هي مَثَل في ضدّها، لأنّ تطلُّب ذي الفضل والكمال للازدياد منهما وسعيه للظفر بمن يبلّغه الزيادة من الكمال، اعترافا للفاضل بفضلته. وفي ذلك إبداء المقابلة بين الخُلُقين ولإقامة الحجّة على المماثلة والمخالفة بين الفريقين المؤمنين والكافرين، وفي خلال ذلك تعليم وتنويه بشأن العلم والهدى، وتربية للمتّقين.

ولأن هذه السورة نزلت بسبب ما سأل المشركون والذين أملوا عليهم من أهل الكتاب عن قصتين قصّة

أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين. وقد تقضَّى الجواب عن القصّة الأولى وما ذيّلت به، وآن أن ينتقل إلى الجواب عن القصّة الثانية، قدمت لهذه القصّة قصّة لها شبه بها في أنّها تطواف في الأرض لطلب نفع صالح. وهي قصّة سفر موسى عليه السلام لطلب لقاء من هو على علم لا يعلمه موسى.

وفي سوق هذه القصّة تعريض بأهل الكتاب بأنّ الأولى لهم أن يدلّوا النّاس على أخبار أنبياء بني إسرائيل وعلى سفر لأجل تحصيل العلم والحكمة لا سفر لأجل بسط الملك والسلطان.

{ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ** } معطوفة على { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ } [50] عطف القصّة على القصّة. والتقدير: واذكر إذ قال موسى لفتاه. وناسبها تقدير فعل (اذكر) لأنّ في هذه القصّة موعظة وذكرى كما في قصّة آدم.

الفتى: الذكر الشاب، والأنثى فتاة، وهو مستعمل مجازا في التابع والخادم. وتقدّم عند قوله { تُرَاوِدُ فَتَاهَا } [يوسف:30]. وفتى موسى: خادمه وتابعه، وهو (**يوشع بن نون**) من سبط أفرايم.

وقد قيل: إنّه ابن أخت موسى، كان اسمه الأصلي (هوشع) فدعاه موسى حين بعثه للتجسّس في أرض كنعان يوشع. ولعل ذلك التغير في الاسم تلطّف به، كما قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة: " يا أبا هرّ ".

وفي التوراة: أن إبراهيم كان اسمه أبرام فلما أمره الله بخصال الفطرة دعاه إبراهام. ولعلّ هذه التغييرات في العبرانية تفيد معاني غير معاني الأسماء الأولى، فتكون كما دعا النبيء ﷺ زيد الخيل زيدَ الخير.

(**يوشع بن نون**) أحد الرجال الاثني عشر الذين بعثهم موسى عليه السلام ليتجسّسوا في أرض كنعان في جهات حلب وحبرون ويختبروا بأس أهلها وخيرات أرضها ومكثوا أربعين يوما في التجسّس. وهو أحد الرجلين اللذين شجعا بني إسرائيل على دخول أرض كنعان اللذين ذكرهما القرآن في آية { قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فإِنَّكُمْ غَالِبُونَ} [المائدة:23].

كان ميلاد يوشع في حدود سنة (1463 ق م) ووفاته في حدود سنة (1353 ق م) وعمّر مائة وعشر سنين. وكان موسى عليه السلام قد قرّبه إلى نفسه واتخذه تلميذا وخادما.

وكان يوشع أحد الرجلين الذين عهد إليهما موسى عليه السلام بأن يقسّما الأرض بين أسباط بني إسرائيل بعد وفاته. وأمر الله موسى بأن يعهد إليه بتدبير أمر الأمّة الإسرائيلية، فعهد إليه موسى بذلك فصار نبيّا من يومئذ. ودبّر أمر الأمّة بعد موسى سبعا وعشرين سنة. وكتاب يوشع هو أوّل كتب الأنبياء.

{ **لا أَبْرَحُ حتّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً** } ابتدئت القصّة بحكاية كلام موسى عليه السلام المقتضي تصميما على أن لا يزول عما هو فيه، أي لا يشتغل بشيء آخر حتّى يبلغ مجمع البحرين، ابتداء عجيبا في باب الإيجاز. ويدلّ على أن فتاه استعظم هذه الرحلة.

{ **أَبْرَحُ** } مضارع برِح بكسر الراء، بمعنى زال يزول. وتقدّم في سورة يوسف عليه السلام. واستعير هنا لمعنى: لا أترك، أولا أكف عن السير حتّى أبلغ مجمع البحرين.

وحذف ذكر الغرض الذي سار لأجله موسى عليه السلام لأنه سيذكر بعد، وهو حذف إيجاز وتشويق. له موقع عظيم في حكاية القصة، لإخراجها عن مطروق القصص إلى أسلوب بديع الحكم والأمثال قضاء لحق بلاغة الإعجاز.

وتفصيل هذه القصّة وارد في صحيح البخاري من حديث: عمرو بن دينار ويعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب عن النبيء ﷺ: " أنّ موسى عليه السلام قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل: أي النّاس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه. فأوحى الله إليه: بلى عبدُنا خِضْرٌ هو أعلم منك. قال: فأين هو؟ قال: بمجمع البحرين. قال موسى عليه السلام: يا رب اجعل لي عَلَمًا أعلم ذلك به. قال: تأخذ معك حوتا في مِكْتل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثَمَّ، فأخذ حوتا فجعله في مكتل وقال لفتاه يوشع بن نون: لا أكلفك إلّا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال(فتاه): ما كلّفت كثيرا. ثم انطلق وانطلق بفتاه حتّى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا وموسى نائم، فقال فتاه (وكان لم ينم): لا أوقظه وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار الماء عليه مثل الطاق. فلما استيقظ موسى نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقيّة يومهما وليلتهما حتّى إذا كان من الغد قال موسى عليه السلام لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. قال: ولم يجد موسى النصب حتّى جاوز المكان الذي أمره الله به (أي لأنّ الله ميسّر أسباب الامتثال لأوليائه) فقال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنّي نسيت الحوت وما أنسانيه إلّا الشيطان أن أذكره وأتخذ سبيله في البحر عجبا. قال: فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا. فقال موسى: ذلك ما كنا نبغي، فارتدّا على آثارهما قصصا، قال: رجعا يَقُصَّان آثارهما حتّى انتهى إلى الصخرة، فإذا رجل مسجّى ثوبا فسلم عليه موسى. فقال الخضر: وأنّى بأرضك السلام...".

{ **مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ** } لا ينبغي أن يختلف في أنّه مكان من أرض فلسطين. والأظهر أنّه مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية فإنّه النهر العظيم الذي يمرّ بجانب الأرض التي نزل بها موسى عليه السلام وقومه. وكانت تسمّى عند الإسرائيليين بحر الجليل.

ومعنى كون هذا العبد أعلم من موسى عليه السلام أنّه يعلم علوما من معاملة النّاس لم يعلّمها الله لموسى. فالتفاوت في العلم في هذا المقام تفاوت بفنون العلوم. وهو تفاوت نسبي.

الخضر: اسم رجل صالح. قيل: هو نبي من أحفاد عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام. فهو الخضر بن ملكان بن فالغ بن عابر. فيكون ابن عم الجد الثاني لإبراهيم عليه السلام. وقيل: الخضر لقبه. وأمّا اسمه فهو (بليا) بموحدة أو (إيليا) بهمزة وتحتية.

واتفق النّاس على أنّه كان من المعمرين، ثم اختلفوا في أنّه لم يزل حيّا، اختلافا لم يُبْنَ على أدلّة مقبولة

متعارفة ولكنّه مستند إلى أقوال بعض الصوفية. وهي لا ينبغي اعتمادها لكثرة ما يقع في كلامهم من الرموز والخلط بين الحياتين الروحية والمادية، والمشاهدات الحسّيّة والكشفيّة، وقد جعلوه رمز العلوم الباطنية كما سيأتي.

وزعم بعض العلماء أن الخضر هو جرجس: وقيل: هو من ذرية عيسو بن إسحاق. وقيل: هو نبي بعث بعد شعيب.

قيل: لقّب خضرا لأنّه كان إذا جلس على الأرض أخضر ما حوله، أي أخضر بالنبات من أثر بركته.

والمحقّق أن قصّة الخضر وموسى يهوديّة الأصل ولكنّها غير مسطورة في كتب اليهود المعبّر عنها بالتوراة أو العهد القديم. ولعلّ عدم ذكرها في تلك الكتب هو الذي أقدم (نَوْفًا البكالي) على أن قال: إنّ موسى المذكور في هذه الآيات هو غير موسى بني إسرائيل، كما ذكر ذلك في صحيح البخاري، وأنّ ابن عباس كذّب نوفا، وساق الحديث المتقدّم.

وقيل هو رجل آخر اسمه (موسى بن ميشا) أو (مِنسه ابن يوسف بن يعقوب). وسمّي الخضر بليا بن ملكان أو إيليا أو إلياس، فقيل: إن الخضر هو إلياس المذكور في سورة يس.

ولا يصح أن يكون الخضر من بني إسرائيل إذ لا يجوز أن يكون مكلفا بشريعة موسى ويُقرُّه موسى على أفعال لا تبيحها شريعته. بل يتعيّن أن يكون نبيّا موحى إليه بوحي خاص، وعَلِمَ موسى أنّه من أمّة غير مبعوث موسى إليها. لذلك لم يصرفه عنه ما رأى من أعماله التي تخالف شريعة التوراة.

وأمّا وجوده في أرض بني إسرائيل فهو من السياحة في العبادة، أو أمره الله بأن يحضر في المكان الذي قدّره للقاء موسى رفقا بموسى عليه السلام.

{ **أَوَأَمْضِيَ** } أو أسير. والمضيّ: الذهاب والسير.

الحُقُب: (بضمتين) اسم للزمان الطويل غير منحصر المقدار، وجمعه أحقاب.

أي إمّا أن أبلغ المكان أو أمضي زمنا طويلا. ولما كان موسى لا يخامره الشك في وجود مكان هو مجمع للبحرين وإلقاء طلبته عنده، لأنه علم ذلك بوحي من الله تعالى، تعين أن يكون المقصود بحرف الترديد تأكيد مضيّه زمنا يتحقّق فيه الوصول إلى مجمع البحرين.

وكأنه أراد بهذا تأييس فتاه من محاولة رجوعهما. كما دلّ عليه قوله بعد { لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفرِنَا هَذَا نَصَباً } [62]، أو أراد شحذ عزيمة فتاه ليساويه في صحّة العزم، حتّى يكونا على عزم متّحد.

{ **فلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فاتَّخَذَ سَبِيلَهُ في الْبَحْرِ سَرَباً** [61] **فلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفرِنَا هَذَا نَصَباً** [62] **قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً** } [63].

{ **فلَمَّا بَلَغَا** } الفاء للتفريع والفصيحة لأنّها تفصح عن كلام مقدّر، أي فسارا حتّى بلغا مجمع البحرين.

{ **بينهما** } عائد إلى البحرين، أي محلا يجمع بين البحرين.

{ **نَسِيَا حُوتَهُمَا** } والحوت هو الذي أمر الله موسى باستصحابه معه ليكون له علامة على المكان الذي فيه الخضر، كما تقدّم في سياق الحديث.

النسيان: تقدّم في قوله تعالى { أَوْ نُنْسِهَا } [البقرة:106].

السَّرَبُ: النفق. **والاتخاذ**: الجعل. وقد انتصب {سربا} على الحال من {سبيله} مرادا بالحال التشبيه.

وقد مر تفسير كيف اتخذ البحر سربا في الحديث السابق عن أبي بن كعب.

الغداء: طعام النهار مشتقّ من كلمة الغدوة، لأنّه يؤكل في وقت الغدوة، وضدّه العشاء، وهو طعام العشيّ.

النصب: التعب.

الصخرة: صخرة معهودة لهما. إذ كانا قد أويا إليها في سيرهما فجلسا عليها، وكانت في مجمع البحرين. قيل: إن موضعها دون نهر يقال له: نهر الزيت، لكثرة ما عنده من شجر الزيتون.

{ **فإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ** } أي نسيت حفظه وافتقاده. أي فانقلب في البحر.

{ **وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ** } هذا نسيان آخر غير النسيان الأوّل. فهذا نسيان ذكر الإخبار عنه.

وقرأ حفص عن عاصم { وَمَا أَنْسَانِيهُ } بضم هاء الضمير على أصل الضمير وهي لغة. والكسر أشهر لأنّ حركة الكسرة بعد الياء أخف.

{ **أَنْ أَذْكُرَهُ** } بدل اشتمال من ضمير { أنسانيه } لا من الحوت، والمعنى: ما أنساني أن أذكره لك إلّا الشيطان. فالذكر هنا ذكر اللسان.

ووجه حصره إسناد هذا الإنساء إلى الشيطان أنّ ما حصل له من نسيان أن يخبر موسى بتلك الحادثة نسيان ليس من شأنه أن يقع في زمن قريب مع شدّة الاهتمام بالأمر المنسي وشدّة عنايته بإخبار نبيه به. ومع كون المنسي أعجوبة شأنها أن لا تُنسى، يتعيّن أنّ الشيطان يسوءه التقاء هذين العبدين الصالحين، وما له من الأثر في بث العلوم الصالحة فهو يصرف عنها ولو بتأخير وقوعها طمعا في حدوث العوائق.

{ **وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً** } عطف على جملة { فإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ} وهي بقية كلام فتى موسى، أي

وأنّه اتخذ سبيله في البحر، أي سبح في البحر بعد أن كان ميّتا زمنا طويلا.

{ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً [64] فوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً [65] قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ ممّا عُلِّمْتَ رُشْداً [66] قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً [67] وَكَيْف تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً [68] قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً [69] قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حتّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً } [70].

{ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ } جواب عن كلامه، ولذلك فصلت كما بيّنّاه غير مرّة.

{ ذلك} الإشارة إلى ما تضمّنه خبر الفتى من فقد الحوت. ومعنى كونه المبتغى أنّه وسيلة المبتغى. وإنّما المبتغى هو لقاء العبد الصالح في المكان الذي يُفقد فيه الحوت.

{ نَبْغِ } كتب في المصحف بدون ياء في آخره، فقيل: أراد الكاتبون مراعاة حالة الوقف، لأنّ الأحسن في الوقف على ياء المنقوص أن يوقف بحذفها. وقيل: أرادوا التنبيه على أنهّا رويت محذوفة في هذه الآية. والعرب يميلون إلى التخفيف. فقرأ نافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر بحذف الياء في الوقف وإثباتها في الوصل. وقرأ عاصم، وحمزة، وابن عامر بحذف الياء في الوصل والوقف. وقرأ ابن كثير، ويعقوب بإثباتها في الحالين.

والنون نون المتكلّم المشارك، أي ما أبغيه أنا وأنت، وكلاهما يبغي ملاقاة العبد الصالح.

الارتداد: أي رجعا على آثار سيرهما، أي رجعا على طريقهما الذي أتيا منه.

القصص: مصدر قصّ الأثر، إذا توخّى متابعته كيلا يخطئا الطريق الأول.

{ فوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا } المراد به الخِضْر، ووُصف بأنّه من عباد الله تشريفا له، كما تقدّم عند قوله تعالى { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ } [الاسراء: 1]. وعدل عن الإضافة إلى التنكير والصفة لأنّه لم يسبق ما يقتضي تعريفه، وللإشارة إلى أنّ هذا الحال الغريب الذي ذكر من قصّته ما هو إلّا من أحوال عباد كثيرين لله تعالى.

{ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا } وإيتاء الرحمة يجوز أن يكون معناه: أنّه جُعل مرحوما، وذلك بأن رفق الله به في أحواله. ويجوز أن يكون جعلناه سبب رحمة بأن صرّفه تصرّفا يجلب الرحمة العامة.

{ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً } والعلم من لدن الله: هو الإعلام بطريق الوحي.

(لدن) حقيقته اسم مكان قريب، مثل {عند}. ويستعملان مجازا في اختصاص المضاف إليه بموصوفهما.

والمخالفة بين { مِنْ عِنْدِنَا } وبين { من لدنا } للتفنّن تفاديا من إعادة الكلمة.

أي آتيناه رحمة صدرت من مكان القرب، وهو قرب تشريف بالانتساب إلى الله، وعلما صدر منه أيضا. وذلك أنّ ما أوتيه من الولاية أو النبوءة رحمة عزيزة، أو ما أوتيه من العلم عزيز، فكأنّهما ممّا يُدّخر عند الله

فلا يُعطى إلّا للمصطفين.

{ **قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ ممّا عُلِّمْتَ رُشْداً** } ابتداء محاورة، فهو استئناف ابتدائي، ولذلك وقع التعبير بـ { **قَالَ** } مجرّدة عن العاطف.

{ **هَلْ أَتَّبِعُكَ** } الاستفهام مستعمل في العرض بقرينة أنّه استفهام عن عمل نفس المستفهم.

الاتباع: مجاز في المصاحبة، كقوله تعالى { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ } [النجم: 28].

{ **عَلَى** } مستعملة في معنى الاشتراط، لأنّه استعلاء مجازي. فصيغة: أفعل كذا على كذا. من صيغ الالتزام والتعاقد.

ويؤخذ من الآية جواز التعاقد على تعليم القرآن والعلم. كما في حديث تزويج المرأة التي عرضت نفسها على النبيء ﷺ فلم يقبلها، فزوّجها من رغب فيها على أن يعلّمها ما معه من القرآن.

وفيه أنّه التزام يجب الوفاء به. وقد تفرع عن حكم لزوم الالتزام أنّ العرف فيه يقوم مقام الاشتراط، فيجب على المنتصب للتعليم أن يعامل المتعلمين بما جرى عليه عرف أقاليمهم.

ذكر عياض في باب صفة مجلس مالك العلم من كتاب المدارك: أنّ رجلا خراسانيا جاء من خراسان إلى المدينة للسماع من مالك فوجد النّاس يعرضون عليه وهو يسمع ولا يسمعون قراءة منه عليهم، فسأله أن يقرأ عليهم فأبى مالك، فاستدعى الخراساني قاضي المدينة. وقال: جئت من خراسان ونحن لا نرى العرض وأبى مالك أن يقرأ علينا. فحكم القاضي على مالك: أن يقرأ له، فقيل لمالك: أأصاب القاضي الحق؟ قال: نعم.

وفيه أيضا إشارة إلى أنّ حقّ المعلّم على المتعلّم اتباعه والاقتداء به.

{ **رُشْداً** } انتصب على المفعولية لـ { **تُعَلِّمَنِ** } أي ما به الرشد، أي الخير.

وهذا العلم الذي سأل موسى تعلّمه هو من العلم النافع الذي لا يتعلّق بالتشريع للأمّة الإسرائيلية، فإنّ موسى مستغن في علم التشريع عن الازدياد إلّا من وحي الله إليه مباشرة، لأنّه لذلك أرسله، وما عدا ذلك لا تقتضي الرسالة علمه.

وإنّما رام موسى أن يعلم شيئا من العلم الذي خصّ الله به الخضر، لأنّ الازدياد من العلوم النافعة هو من الخير. وقد قال الله تعالى تعليما لنبيّه { وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً } [طه: 114].

وهذا العلم الذي أوتيه الخضر هو علم سياسة خاصة غير عامة، تتعلّق بمعيَّنين لجلب مصلحة أو دفع مفسدة بحسب ما تهيّئه الحوادث والأكوان لا بحسب ما يناسب المصلحة العامة. فلعلّ الله يسّره لنفع معيّنين من عنده كما جعل مجدا ﷺ رحمة عامة لكافة النّاس، ومن هنا فارق سياسة التشريع العامة.

ونظيره معرفة النبيء ﷺ أحوال بعض المشركين والمنافقين، وتحقّقه أنّ أولئك المشركين لا يؤمنون وهو مع ذلك يدعوهم دوما إلى الإيمان، وتحقّقه أن أولئك المنافقين غير مؤمنين وهو يعاملهم معاملة المؤمنين، وكان

حذيفة بن اليمان يعرفهم بأعيانهم بإخبار النبيء ﷺ إيّاه بهم.

{ **إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً** } أكّد الجملة بحرف (إنّ) وبحرف (لن) تحقيقا لمضمونها من توقّع ضيق ذرع موسى عن قبول ما يبديه إليه، لأنّه علم أنّه تصدر منه أفعال ظاهرها المنكر وباطنها المعروف. ولمّا كان موسى عليه السلام من الأنبياء الذين أقامهم الله لإجراء الأحكام على الظاهر، علم أنّه سينكر ما يشاهده من تصرّفاته، لاختلاف المشربين، لأنّ الأنبياء لا يقرّون المنكر.

وهذا تحذير منه لموسى وتنبيه على ما يستقبله منه، حتّى يقدم على متابعته، إن شاء، على بصيرة وعلى غير اغترار، وليس المقصود منه الإخبار.

فمناط التأكيدات في الجملة إنّما هو تحقيق خطورة أعماله وغرابتها في المتعارف بحيث لا تُتحمّل.

وفي هذا أصل من أصول التعليم، أن ينبّه المعلِّمُ المتعلِّمَ بعوارض موضوعات العلوم الملقّنة، لا سيما إذا كانت في معالجتها مشقّة.

{ **صَبْراً** } وزادها تأكيدا عموم الصبر المنفي، لوقوعه نكرة في سياق النفي. فأفاد هذا التركيب نفي حصول الصبر منه في المستقبل على آكد وجه.

{ **وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً** } في موضع الحال من اسم (إن) أو من ضمير (تستطيع) . فالواو واو الحال وليست واو العطف، لأن شأن هذه الجملة أن لا تعطف على التي قبلها لأنّ بينهما كمال الاتصال إذ الثانية كالعلّة للأولى.

{ **وَكَيْفَ** } للاستفهام الإنكاري في معنى النفي، أي وأنت لا تصبر على ما لم تحط به خبرا.

{ **خُبْراً** } العلم. وهو منصوب على أنّه تمييز لنسبة الإحاطة في قوله { مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ }.

الإحاطة: مجاز في التمكّن، تشبيها لقوّة تمكّن الاتصاف بتمكّن الجسم المحيط بما أحاط به.

{ **قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً** } أبلغ في ثبوت الصبر من نحو: سأصبر، لأنّه يدلّ على حصول صبر ظاهر لرفيقه ومتبوعه. وظاهر أنّ متعلّق الصبر هنا هو الصبر على ما من شانه أن يثير الجزع أو الضجر من تعب في المتابعة، ومن مشاهدة ما لا يتحمّله إدراكه، ومن ترقّب بيان الأسباب والعلل والمقاصد.

{ **إِنْ شَاءَ اللَّهُ** } وفي تأكيده ذلك بالتعليق على مشيئة الله استعانة به وحرصا على تقدّم التيسير، تأدّبا مع الله إيذانٌ بأنّ الصبر والطاعة من المتعلّم الذي له شيء من العلم أعسر من صبر وطاعة المتعلّم الساذج، لأنّ خلو ذهنه من العلم لا يحرجه من مشاهدة الغرائب. إذ ليس في ذهنه من المعارف ما يعارض قبولها. فالمتعلّمُ الذي له نصيب من العلم وجاء طالبا الكمال في علومه إذا بدا له من علوم أستاذه ما يخالف ما تقرّر في علمه يبادر إلى الاعتراض والمنازعة. وذلك قد يثير النفرة بينه وبين أستاذه.

{ وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً } ولمّا كان هذا الصبر الكامل يقتضي طاعة الآمر فيما يأمره به عطف عليه ما يفيد الطاعة إبلاغا في الاتّسام بأكمل أحوال طالب العلم. فالجملة معطوفة على جملة { ستجدني } ، أو هو من عطف الفعل على الاسم المشتق عطفا على { صابرا } فيؤوّل بمصدر، أي وغير عاص.

وفي هذا دليل على أنّ أهم ما يتّسم به طالب العلم هو الصبر والطاعة للمعلّم.

والتزام موسى ذلك مبني على ثقته بعصمة متبوعه، لأنّ الله أخبره بأنّه آتاه علما.

{ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حتّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً } تفريع على وعد موسى إيّاه بأنّه يجده صابرا، ففرّع على ذلك نهيه عن السؤال عن شيء ممّا يشاهده من تصرفاته حتّى يبيّنه له من تلقاء نفسه.

وأكّد النهي بحرف التوكيد تحقيقا لحصول أكمل أحوال المتعلّم مع المعلّم، لأنّ السؤال قد يصادف وقت اشتغال المسؤول بإكمال عمله فتضيق له نفسه، فربّما كان الجواب عنه بدون شره نفس. وربّما خالطه بعض القلق فيكون الجواب غير شاف. فأراد الخضر أن يتولّى هو بيان أعماله في الإبّان الذي يراه مناسبا، ليكون البيان أبسط والإقبال أبهج فيزيد الاتصال بين القرينين.

الذكر: هنا ذكر اللسان. أعني بيان العلل والتوجيهات وكشف الغوامض .

{ حتّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً } وإحداث الذكر إنشاؤه وإبرازه.

{ تَسْأَلْنِي } قرأ نافع بالهمز وبفتح اللام وتشديد النون { تَسْأَلَنِّي } على أنّه مضارع سأل المهموز مقترنا بنون التوكيد الخفيفة المدغمة في نون الوقاية وبإثبات ياء المتكلّم. وقرأ ابن عامر مثله. لكن بحذف ياء المتكلم. وقرأ البقية { تسألني } بالهمز وسكون اللام وتخفيف النون. وأثبتوا ياء المتكلم.

{ فانْطَلَقَا حتّى إِذَا رَكِبَا في السَّفينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً }[71]

الانطلاق: الذهاب والمشي، مشتقّ من الإطلاق وهو ضدّ التقييد. لأنّ الدابة إذا حُلّ عقالها مشت.

{ حتّى إِذَا رَكِبَا في السَّفينَةِ خَرَقَهَا } غاية للانطلاق. أي إلى أن ركبا في السفينة. و(حتّى) ابتدائية. وفي الكلام إيجاز، وأصل الكلام: حتّى استأجرا سفينة فركباها فلمّا ركبا في السفينة خرقها.

{ إِذَا } ظرف للزمان الماضي هنا. وليست متضمّنة معنى الشرط. وهذا التوقيت يؤذن بأخذه في خرق السفينة حين ركوبهما. وفي ذلك ما يشير إلى أنّ الركوب فيها كان لأجل خرقها.

{ السَّفينَةِ } تعريف العهد الذهني، مثل التعريف في قوله تعالى { وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ } [يوسف:13].

الخرق: الثقب والشق. وهو ضد الالتئام.

{ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً } الاستفهام للإنكار. ومحلّ الإنكار هو العلة { لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا } لأنّ العلّة ملازمة للفعل المستفهم عنه. ولذلك توجّه أن يغيّر موسى عليه السلام هذا المنكر في ظاهر الأمر.

الإمر (بكسر الهمزة): هو العظيم المفظع. يقال: أَمِرَ (كفرح) إِمْرًا، إذا كثر في نوعه. ولذلك فسّره الراغب بالمنكر. لأنّ المقام دال على شيء ضارّ. ومقام الأنبياء في تغيير المنكر مقام شدّة وصراحة. ولم يجعله نكرا كما في الآية بعدها لأنّ العمل الذي عمله الخضر ذريعة للغرق ولم يقع الغرق بالفعل.

{ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً } [72]

استفهام تقرير وتعريض باللوم على عدم الوفاء بما التزم، أي أتقرّ أني قلت إنّك لا تستطيع معي صبرا. فاستطاعة الصبر المنفيّة هي التي تكون في صحبته، لأنّه يرى أمورا عجيبة لا يدرك تأويلها.

{ قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً }[73]

اعتذر موسى بالنسيان وكان قد نسي التزامه بما غشي ذهنه من مشاهدة ما ينكره.

{ **لا تُؤَاخِذْنِي** } النهي مستعمل في التعطّف والتِماس عدم المؤاخذة، لأنّه قد يؤاخذه على النسيان مؤاخذة من لا يصلح للمصاحبة لما ينشأ عن النسيان من خطر. ولذلك بُني كلام موسى على طلب عدم المؤاخذة بالنسيان ولم يُبن على الاعتذار بالنسيان، كأنه رأى نفسه محقوقا بالمؤاخذة، فكان كلاما بديع النسيج في الاعتذار.

المؤاخذة: مفاعلة من الأخذ، وهي هنا للمبالغة لأنّها من جانب واحد كقوله تعالى { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النّاس بِظُلْمِهِمْ } [النحل: 61].

الإرهاق: تعدية رهق، إذا غشي ولحق، أي لا تغشني عسرا. وهو هنا مجاز في المعاملة بالشدّة.

العسر: الشدّة وضدّ اليسر. والمراد، هنا: عسر المعاملة، أي عدم التسامح معه فيما فعله، فهو يسأله الإغضاء والصفح.

{ **من** } يجوز أن تكون ابتدائيّة، فكون المراد بأمره نسيانه، أي لا تجعل نسياني منشئا لإرهاقي عسرا.

ويجوز أن تكون بيانيّة، فيكون المراد بأمره شأنه معه.

{ فانْطَلَقَا حتّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً }[74]

{ **فانْطَلَقَا** } يدل هذا التفريع، على أنّ الخضر قبل عذره وانطلقا مصطحبين.

{ **حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاما** } كقوله { حَتَّى إِذَا رَكِبَا في السَّفينَةِ } [الكهف: 71].

{ **فقَتَلَهُ** } تعقيب لفعل { لقيا } تأكيدا للمبادرة المفهومة من تقديم الظرف، فكانت المبادرة بقتل الغلام عند لقائه أسرع من المبادرة بخرق السفينة حين ركوبها.

وكلام موسى في إنكار ذلك جرى على نسق كلامه في إنكار خرق السفينة سوى أنّه وصف هذا الفعل بأنّه

نُكُر (بضمّتين): الذي تنكره العقول وتستقبحه. فهو أشدّ من { **شَيْئاً إِمْراً** }، لأنّ هذا فساد حاصل والآخر ذريعة فساد، كما تقدّم.

{ **نَفساً زَكِيَّةً** } لأنّها نفس غلام لم يبلغ الحلم، فلم يقترف ذنبا فكان زكيّا طاهرا. و**الزكاء**: الزيادة في الخير.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ورويس عن يعقوب { زاكية } بألف بعد الزاي اسم فاعل من زكا. وقرأ الباقون { زكيّة } . وهما بمعنى واحد.

قال ابن عطية: " النون من قوله { **نكرا** } هي نصف القرآن. أي نصف حروفه. وقد تقدّم أنّ ذلك مخالف لقول الجمهور: إنّ نصف القرآن هو حرف التاء من قوله تعالى { **وليتلطف** } في هذه السورة ".

{ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً [75] قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً } [76].

كان جواب الخضر هذا على نسق جوابه السابق إلّا أنّه زاد ما حُكي في الآية بكلمة { **لَكَ** } وهو تصريح بمتعلّق فعل القول. وإذ كان المقول له معلوما من مقام الخطاب كان في التصريح بمتعلق فعل القول تحقيق لوقوع القول وتثبيت له وتقوية، والداعي لذلك أنّه أهمل العمل به.

{ **قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فلا تُصَاحِبْنِي** } وهنا لم يعتذر موسى بالنسيان، إمّا لأنّه لم يكن نسي، ولكنّه رجّح تغيير المنكر العظيم. وهو قتل النفس بدون موجب، وإمّا لأنّه نسي، وأعرض عن الاعتذار بالنسيان لسماجة تكرّر الاعتذار به. وعلى الاحتماليين فقد عدل إلى المبادرة باشتراط ما تطمئن إليه نفس صاحبه، بأنّه إن عاد للسؤال الذي لا يبتغيه صاحبه فقد جعل له أن لا يصاحبه بعده.

وفي الحديث عن النبيء ﷺ: " كانت الأولى من موسى نسيانا، والثانية شرطا " ، فاحتمل كلام النبيء الاحتمالين المذكورين.

وأنصف موسى إذ جعل لصاحبه العذر في ترك مصاحبته في الثالثة تجنبا لإحراجه.

{ **قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً** } قد وصلت من جهتي إلى العذر. فاستعير (بلغت) لمعنى (تحتّم و تعيّن) لوجود أسبابه، بتشبيه العذر في قطع الصحبة بمكان ينتهي إليه السائر على طريقة المكنية.

وقرأ نافع، وأبو بكر، وأبو جعفر { من لدني } بتخفيف النون على أنّه حذف منه نون الوقاية تخفيفا، وقرأ الجمهور{ لدنّي } بتشديد النون. قال ابن عطية: وهي قراءة النبيء ﷺ يعني أّن فيها سندا خاصا مرويا فيه عن النبيء ﷺ كما تقدّم في المقدمة السادسة من مقدمات هذا التفسير.

{ فانْطَلَقَا حتّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفوهُمَا فوَجَدَا فيهَا جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً } [77]

نظم قوله { فانْطَلَقَا حتّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا } كنظم نظيريه السابقين.

الاستطعام: طلب الطعام. وموقع جملة {اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا} كموقع جملة {خرقها} وجملة {فقتله}.

{ **اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفوهُمَا** } إظهار لفظ { أهلها } دون الإتيان بضميرهم بأن يقال: استطعماهم، لزيادة التصريح. تشنيعا بهم في لؤمهم، إذ أبوا أن يضيّفوهما وذلك لؤم، لأنّ الضيافة كانت شائعة في الأمم من عهد إبراهيم عليه السلام، وهي من المواساة المتّبعة عند النّاس، ويقوم بها من ينتدب إليها ممّن يمرّ عليهم عابر السبيل ويسألهم الضيافة، أو من أعدّ نفسه لذلك من كرام القبيلة.

وفي الآية دليل على أباحة طلب الطعام لعابر السبيل لأنّه شرع من قبلنا، وحكاه القرآن ولم يرد ما ينسخه.

ودل لَوْم موسى الخضر، على أن لم يأخذ أجر إقامة الحائط على صاحبه من أهل القرية، على أنّه أراد مقابلة حرمانهم لحق الضيافة بحرمانهم من إقامة الجدار في قريتهم.

وفي الآية مشروعية ضيافة عابر السبيل إذا نزل بأحد من الحي أو القرية. وفي حديث الموطأ أنّ النبيء ﷺ قال: " ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة (أي يتحفه ويبالغ في بره) وضيافته ثلاثة أيام (أي إطعام وإيواء بما حضر من غير تكلّف كما يتكلف في أول ليلة) فما كان بعد ذلك فهو صدقة " قال الجمهور: الضيافة من مكارم الأخلاق وهي مستحبة وليست واجبة. وهو قول مالك وأبي حنيفة والشافعي. وقال سحنون: " الضيافة على أهل القُرى والأحياء ، أمّا الحضر فالفندق ينزل فيه المسافرون ". ونُسب إلى مالك.

وقال الشافعي ومحمد بن عبد الحكم من المالكية: " الضيافة حق على أهل الحضر والبوادي".

وقال الليث واحمد: الضيافة فرض يوما وليلة.

{ **أَنْ يُضَيِّفوهُمَا** } يقال: ضيّفه وأضافه. فهو مضيِّف بالتشديد. ومُضيف بالتخفيف. والمتعرّض للضيافة: ضائف ومتضيّف. يقال: ضِفته وتضيّفته. إذا نزل به ومال إليه.

الجدار: الحائط المبني.

{ **يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ** } أشرف على الانقضاض. أي يكاد يسقط. فعبّر عن إشرافه على الانقضاض بإرادة الانقضاض على طريقة الاستعارة.

إقامة الجدار: تسوية ميله. وكانت إقامته بفعل خارق للعادة بأن أشار إليه بيده كالذي يسوي شيئا ليّنا، كما ورد في بعض الآثار.

{ **قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً** } لَوْم، أي كان في مُكنتك أن تجعل لنفسك أجرا على إقامة الجدار، تأخذه ممن يملكه من أهل القرية، ولا تقيمه مجانا لأنّهم لم يقوموا بحقّ الضيافة.

وهذا اللوم يتضمن سؤالا عن سبب ترك المشارطة على إقامة الجدار عند الحاجة إلى الأجر. وليس هو لومًا

على مجرد إقامته مجانا، لأنّ ذلك من فعل الخير وهو غير ملوم.

{ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً [78] أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً [79] وأَمَّا الْغُلامُ فكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفراً [80] فأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً [81] وَأَمَّا الْجِدَارُ فكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً } [82].

{ **قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ** } المشار إليه بلفظ { هذا } مقدّر في الذهن حاصل من اشتراط موسى على نفسه أنّه إن سأله عن شيء بعد سؤاله الثاني فقد انقطعت الصحبة بينهما، أي هذا الذي حصل الآن هو فراق بيننا، وكثيرا ما يكون المشار إليه مقدَّرا في الذهن كقوله تعالى { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ } [القصص: 83].

{ **سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً** } مستأنفة استئنافا بيانيّا، تقع جوابا لسؤال يهجس في خاطر موسى عليه السلام عن أسباب الأفعال التي فعلها الخضر عليه السلام وسأله عنها موسى، فإنّه قد وعده أن يُحدث له ذكرا ممّا يفعله.

التأويل: تفسير لشيء غير واضح، وهو مشتقّ من الأول وهو الرجوع. شبّه تحصيل المعنى على تكلّفٍ بالرجوع إلى المكان بعد السير إليه. وقد مضى في المقدمة الأولى من مقدّمات هذا التفسير.

{ **مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً** } تعريض باللوم على الاستعجال وعدم الصبر إلى أن يأتيه إحداث الذكر حسبما وعده بقوله { فلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حتّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً }.

المساكين: هنا بمعنى ضعفاء المال الذين يرتزقون من جهدهم ويُرَقّ لهم لأنّهم يكدحون دهرهم لتحصيل عيشهم. فليس المراد أنهم فقراء أشدّ الفقر كما في قوله { إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ } [التوبة: 60].

{ **فأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا** } متفرّعة على كل من جملتي {فكَانَتْ لِمَسَاكِينَ} ، {وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ} ، فكان حقّها التأخير عن كلتا الجملتين بحسب الظاهر، ولكنّها قدّمت خلافا لمقتضى الظاهر لقصد الاهتمام والعناية بإرادة إعابة السفينة، حيث كان عملا ظاهره الإنكار وحقيقته الصلاح، زيادة في تشويق موسى إلى علم تأويله، لأنّ كون السفينة لمساكين ممّا يزيد السامع تعجّبا في الإقدام على خرقها.

{ **وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً** } هو ملك بلادهم بالمرصاد منهم ومن أمثالهم يسخّر كل سفينة يجدها غصبا، أي بدون عوض، وكان ذلك لنقل أمور بناء أو نحوه ممّا يستعمله الملك في مصالح نفسه

وشهواته. كما كان الفراعنة يسخّرون النّاس للعمل في بناء الأهرام.
ولو كان ذلك لمصلحة عامة للأمّة لجاز التسخير من كلٍ بحسب حاله من الاحتياج، لأنّ ذلك فرض كفاية بقدر الحاجة وبعد تحققها.

وراء: اسم الجهة التي خلف ظهر من أضيف إليه ذلك الاسم،وهو ضدّ أمام وقدّام. ويستعار (الوراء) لحال تعقّب شيء شيئا، وحال ملازمة طلب شيء شيئا بحق، وحال الشيء الذي سيأتي قريبا. كلّ ذلك تشبيه بالكائن خلف شيء لا يلبث أن يتّصل به، كقوله تعالى { مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ } [الجاثية: 10].
وبعض المفسّرين فسروا { وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ } بمعنى أمامهم ملك. فتوهّم بعض مدوني اللغة أن {وراء} من أسماء الأضداد، وأنكره الفراء. وقال الزجاج: وليس من الأضداد كما زعم بعض أهل اللغة.

{ **كُلَّ سَفِينَةٍ** } أي صالحة، بقرينة قوله { فأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا } .
وقد ذكروا في تعيين هذا الملك وسبب أخذه للسفن قصصا وأقوالا لم يثبت شيء منها بعينه، ولا يتعلّق به غرض في مقام العبرة.
وتصرّف الخضر في أمر السفينة تصرّف برعي المصلحة الخاصة عن إذن من الله بالتصرّف في مصالح الضعفاء، إذ كان الخضر عالما بحال الملك، أو كان الله أعلمه بوجوده حينئذ، فتصرّف الخضر قائم مقام تصرّف المرء في ماله، بإتلاف بعضه لسلامة الباقي. وهذا أمر خفي لم يطلع عليه إلّا الخضر. فلذلك أنكره موسى.

{ **وأَمَّا الْغُلامُ فكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفراً** } وأمّا تصرّفه في قتل الغلام فتصرّف بوحي من الله جار على قطع فساد خاص علمه الله وأعلم به الخضر بالوحي، فليس من مقام التشريع. وأراد الله اللطف بأبويه بحفظ إيمانهما، ففي هذا مصلحة للدين بحفظ أتباعه من الكفر، وهو مصلحة خاصة فيها حفظ الدين.

الخشية: توقع ذلك لو لم يتدارك بقتله.

{ **فأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً** }.

الزكاة: الطهارة

الرُحْم (بضم الراء وسكون الحاء): نظير الكثر للكثرة.

{ **يُبْدِلَهُمَا** } قرأ الجمهور {أَنْ يُبَدِّلَهُمَا} بفتح الموحدة وتشديد الدال من التبديل. وقرأه ابن كثير، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف بسكون الموحدة وتخفيف الدال من الإبدال.

{ **فخشينا – فأردنا** } ضميرا الجماعة عائدان إلى المتكلّم الواحد بإظهار أنّه مشارك لغيره في الفعل. وهذا الاستعمال يكون من التواضع لا من التعاظم، لأنّ المقام مقام الإعلام بأنّ الله أطلعه على ذلك وأمره فناسبه

التواضع فقال: {فخشينا.. فأردنا} ، ولم يقل مثله عندما قال { فأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا } لأنّ سبب الإعابة إدراكه متيسّر لمن له علم بحال تلك الأصقاع.

{ وَأَمَّا الْجِدَارُ فكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ في الْمَدِينَةِ }

وأمّا قضية الجدار فالخضر تصرّف في شأنها عن إرادة الله اللطف باليتيمين جزاء لأبيهما على صلاحه. إذ علم الله أن أباهما كان يهمّه أمر عيشهما بعده. وكان قد أودع تحت الجدار مالا. ولعلّه سأل الله أن يلهم ولديه عند بلوغ أشدهما أن يبحثا عن مدفن الكنز تحت الجدار بقصد أو بمصادفة. فلو سقط الجدار قبل بلوغهما لتناولت الأيدي مكانه بالحفر ونحوه فعثر عليه عاثر، فذلك أيضا لطف خارق للعادة. وقد أسند الإرادة في قصّة الجدار إلى الله تعالى دون القصتين السابقتين لأنّ العمل فيهما كان من شأنه أن يسعى إليه كلّ من يقف على سرّه لأنّ فيهما دفع فساد عن النّاس بخلاف قصّة الجدار فتلك كرامة من الله لأبي الغلامين.

{ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ } تصريح بما يزيل إنكار موسى عليه تصرفاته هذه بأنّها رحمة ومصلحة فلا إنكار فيها بعد معرفة تأويلها.

{ وَمَا فعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي } ثم زاد بأنّه فعلها عن وحي من الله، وقد علم موسى ذلك، لأنّ النبيء إنّما يتصرّف عن اجتهاد أو عن وحي، فلمّا نفى أن يكون فعله ذلك عن أمر نفسه تعيّن أنّه عن أمر الله تعالى.

{ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً } فذلكة للجمل التي قبلها ابتداء من قوله {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ}، فالإشارة بذلك إلى المذكور في الكلام السابق، وهو تلخيص للمقصود، كحوصلة المدرّس في آخر درسه.

{ تَسْطِعْ } مضارع (اسطاع) بمعنى (استطاع). حذف تاء الاستفعال تخفيفا لقربها من مخرج الطاء.

والمخالفة بينه وبين قوله { سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً } للتفنّن، تجنبا لإعادة لفظ بعينه مع وجود مرادفه. وابتدئ بأشهرهما استعمالا وجيء بالثانية بالفعل المخفّف.

واعلم أن قصّة موسى والخضر قد اتّخذتها طوائف من أهل النحل الإسلامية أصلا بنوا عليه قواعد موهومة. فأوّل ما أسّسوه منها أنّ الخضر لم يكن نبيّا وإنّما كان عبدا صالحا، وأنّ العلم الذي أوتيه ليس وحيا ولكنّه إلهام، وأنّ تصرّفه الذي تصرّفه في الموجودات أصل لإثبات العلوم الباطنية، وأنّ الخضر منحه الله البقاء إلى انتهاء مدّة الدنيا ليكون مرجعا لتلقّي العلوم الباطنية، وأنّه يظهر لأهل المراتب العليا من الأولياء فيفيدهم من علمه ما هم أهل لتلقّيه.

وبنوا على ذلك أنّ الإلهام ضرب من ضروب الوحي، وسمّوه الوحي الإلهامي، وأنّه يجيء على لسان ملك الإلهام، وقد فصّله الشيخ محيي الدين ابن عربي في الباب الخامس والثمانين من كتابه (الفتوحات المكّيّة)، وبيّن الفرق بينه وبين وحي الأنبياء بفروق وعلامات ذكرها منشورة في الأبواب الثالث والسبعين، والثامن

والستين بعد المائتين، والرابع والستين بعد ثلاثمائة (73 / 268 / 364)، وجزم بأنّ هذا الوحي الإلهامي لا يكون مخالفا للشريعة، وأطال في ذلك، ولا يخلو ما قاله من غموض ورموز.

وقد انتصب علماء الكلام وأصول الفقه لإبطال أن يكون ما يسمّى بالإلهام حجّة. وعرفّوه بأنّه إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر، وأبطلوا كونه حجّة لعدم الثقة بخواطر من ليس معصوما، ولتفاوت مراتب الكشف عندهم. وقد تعرّض لها النسفي في عقائده ، وكلّ ما قاله النسفي في ذلك حقّ، ولا يقام التشريع على أصول موهومة لا تنضبط.

والأظهر أنّ الخضر نبيء عليه السلام وأنّه كان موحى إليه بما أوحي، لقوله { وَمَا فعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي }، وأنّه قد انقضى خبره بعد تلك الأحوال التي قصّت في هذه السورة، وأنه قد لحقه الموت الذي يلحق البشر في أقصى غاية من الأجل يمكن أن تفرض.

{ وَيَسْأَلونكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً [83] إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً } [84].

{ **وَيَسْأَلونَكَ** } يدلّ على أنّها ممّا نزلت السورة للجواب عنه، كما كان الابتداء بقصّة أصحاب الكهف.

وقد ذكرنا عند تفسير قوله تعالى { وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } [الإسراء:85] عن ابن عباس أنّ المشركين بمكّة سألوا النبيء ﷺ ثلاثة أسئلة، بإغراء من أحبار اليهود في يثرب. فقالوا: سلوه عن أهل الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح، فإن أجاب عنها كلّها فليس بنبيء وإن أجاب عن بعضها وأمسك عن بعض فهو نبيء؟. وبيّنا هنالك وجه التعجيل في سورة الإسراء النازلة قبل سورة الكهف بالجواب عن سؤالهم عن الروح وتأخير الجواب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين إلى سورة الكهف. وأعقبنا ذلك بما رأيناه في تحقيق الحقّ من سوق هذه الأسئلة الثلاثة في مواقع مختلفة.

فالسائلون: قريش لا محالة. والمسئول عنه: خبر رجل من عظماء العالم عرف بلقب ذي القرنين، كانت أخبار سيرته خفيّة مجملة مغلقة، فسألوا النبيء عن تحقيقها وتفصيلها. وأذن له الله أن يبيّن منها ما هو موضع العبرة للنّاس في شؤون الصلاح والعدل، وفي عجيب صنع الله تعالى في اختلاف أحوال الخلق، فكان أحبار اليهود منفردين بمعرفة إجماليّة عن هذه المسائل وكانت من أسرارهم، فلذلك جرّبوا بها نبوّة محمد ﷺ.

ولم يتجاوز القرآن ذكر هذا الرجل بأكثر من لقبه المشتهر به إلى تعيين اسمه وبلاده وقومه، لأنّ ذلك من شؤون أهل التاريخ والقصص وليس من أغراض القرآن، فكان منه الاقتصار على ما يفيد الأمّة من هذه القصّة عبرة حِكَميّة أو خُلُقيّة فلذلك قال الله { **قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً** }.

الذكر: التذكّر والتفكّر، أي سأتلو عليكم ما به التذكّر، فجعل المتلو نفسه ذكرا مبالغة بالوصف بالمصدر،

ولكن القرآن جاء بالحقّ الذي لا تخليط فيه من حال الرجل الذي يوصف بذي القرنين، بما فيه إبطال لما خلط به النّاس بين أحوال رجال عظماء كانوا في عصور متقاربة، أو كانت قصصهم تساق مساق من جاسوا خلال بلاد متقاربة متماثلة، وشوّهوا تخليطهم بالأكاذيب، وأكثرهم في ذلك صاحب (الشاهنامة) الفردوسي وهو معروف بالأكاذيب والأوهام الخرافية.

{ ذِي الْقَرْنَيْنِ } اختلف المفسرون في تعيين المسمّى بذي القرنين اختلافا كثيرا تفرّقت بهم فيه أخبار قصصيّة وأخبار تاريخيّة واسترواح من الاشتقاقات اللفظيّة، ولعلّ اختلافهم له مزيد اتصال باختلاف القصّاصين الذين عنو بأحوال الفاتحين عناية تخليط لا عناية تحقيق، فراموا تطبيق هذه القصّة عليها. والذي يجب الانفصال فيه، بادئ ذي بدء، أنّ وصفه بذي القرنين يتعيّن أن يكون وصفا ذاتيّا له، وهو وصف عربي يظهر أن يكون عُرف بمدلوله بين المثيرين للسؤال عنه فترجموه بهذا اللفظ.

ويتعيّن أن لا يُحمل القرنان على الحقيقة بل هما على التشبيه أو على الصورة.

فالأظهر أن يكونا ذؤابتين من شعر الرأس متدليتين، وإطلاق القرن على الضفيرة من الشعر شائع في العربية، قال عمر بن أبي ربيعة:

فلثمتُ فاها آخذًا بقرونها ... شُرب النزيف ببرد ماء الحشرج

وفي حديث أم عطية في صفة غسل ابنة النبيء ﷺ قالت أم عطية:" **فجعلنا رأسها ثلاثة قرون** "، فيكون هذا الملك قد أطال شعر رأسه وضفره ضفرتين فسمّي ذا القرنين، كما سمِّي خرباق: ذا اليدين.

وقيل: هما شبه قرني الكبش من نحاس كانا في خوذة هذا الملك فنعت بهما.

وقيل: هما ضربتان على موضعين من رأس الإنسان يشبهان منبتي القرنين من ذوات القرون.

ومن هنا تأتي الأقوال في **تعيين ذي القرنين**:

القول الأوّل: إنّه الإسكندر بن فيليبوس المقدوني. وذكروا في وجه تلقيبه بذي القرنين أنّه ضفر شعره قرنين. وقيل: كان يلبس خوذة في الحرب بها قرنان. وقيل: رسم ذاته على بعض نقوده بقرنين في رأسه تمثيلا لنفسه بالمعبود آمون، معبود المصريين وذلك حين ملك مصر.

القول الثاني: إنّه ملك من ملوك حِمْيَر هو (تُبَّع أبو كرب.)

القول الثالث: إنّه ملك من ملوك الفرس وأنّه (أفريدون بن أنفيان بن جمشيد).

هذه أوضح الأقوال، وما دونها لا ينبغي التعويل عليه ولا تصحيح روايته.

ونحن تجاه هذا الاختلاف يحقّ علينا أن نستخلص من قصّته في هذه الآية أحوال تقرّب تعيينه وتزييف ما عداه من الأقوال. وليس يجب الاقتصار على تعيينه من بين أصحاب هذه الأقوال بل الأمر في ذلك أوسع.

والقصّة القرآنية تعطى صفات لا محيد عنها:

الأولى: أنّه كان ملكا صالحا عادلا.

الثانية: أنّه كان ملهما من الله.

الثالثة: أنّ ملكه شمل أقطارا شاسعه.

الرابعة: أنّه بلغ في فتوحه من جهة المغرب مكانا كان مجهولا وهو عين حمئة.

الخامسة: أنّه بلغ بلاد يأجوج ومأجوج، وأنّها كانت في جهة ممّا شمله ملكه غير الجهتين الشرقية والغربية فكانت وسطا بينهما كما يقتضيه استقراء مبلغ أسبابه.

السادسة: أنّه أقام سُدًّا يحول بين يأجوج ومأجوج وبين قوم آخرين.

السابعة: أنّ يأجوج ومأجوج هؤلاء كانوا عائثين في الأرض فسادا، وأنّهم كانوا يفسدون بلاد قوم موالين له.

الثامنة: أنّه كان معه قوم أهل صناعة متقنة في الحديد والبناء.

التاسعة: أنّ خبره خفيّ دقيق لا يعلمه إلّا الأحبار، علما إجماليا كما دلّ عليه سبب النزول.

وأنت إذا تدبّرت جميع هذه الأحوال نفيت أن يكون ذو القرنين إسكندر المقدوني، لأنّه لم يكن ملكا صالحا بل كان وثنيا، فلم يكن أهلا لتلقي الوحي من الله، وإن كانت له كمالات على الجملة، وأيضا فلا يعرف في تاريخه أنّه أقام سُدًّا بين بلدين.

وأما نسبة السُدّ الفاصل بين الصين وبين بلاد يأجوج ومأجوج إليه في كلام بعض المؤرخين فهو ناشئ عن شهرة الاسكندر فتوهّم القصاصون أن ذلك السدّ لا يكون إلّا من بنائه، كما توهّم العرب أنّ مدينة تدمر بناها سليمان عليه السلام. وأيضا فإنّ (هيرودوتس اليوناني) المؤرخ ذكر أن الاسكندر حارب أمّة (**سكيثوس**).

وهذا الاسم هو اسم مأجوج [انظر القاموس الجديد تأليف لاروس في مادة سكيتس].

وأحسب أن لتركيب القصّة المذكورة في هذه السورة على اسم إسكندر المقدوني أثرا في اشتهار نسبة السُدّ إليه. وذلك من أوهام المؤرّخين في الإسلام.

ولا يعرف أن مملكة إسكندر كانت تبلغ في الغرب إلى عين حمئة، وفي الشرق إلى قوم مجهولين عراة أو عديمي المساكن، ولا أنّ أمّته كانت تلقّبه بذي القرنين. وإنّما انتُحل هذا اللقب له لمّا توهّموا أنّه المعنيّ بذي القرنين في هذه الآية. فمنحُه هذا اللقب من مخترعات مؤرخي المسلمين، وليس رسم وجهه على النقود بقرنين ممّا شأنه أن يلقّب به. وأيضا فالإسكندر كانت أخباره مشهورة لأنّه حارب الفرس والقبط وهما أمتان مجاورتان للأمّة العربية.

ومثل هذه المبطلات التي ذكرناها تتأتى، أيضا، لإبطال أن يكون الملك المتحدَّث عنه هو(**أفريدون بن أنفيان بن جمشيد)**. فإمّا أن يكون من تبابعة حِمْيَر، فقد يجوز أن يكون في عصر متوغّل في القدم.
وقد توهّم بعض المفسّرين أنّه كان معاصرا إبراهيم عليه السلام، وكانت بلاده التي فتحها مجهولة المواقع.
ولكن يبعد أن يكون هو المراد لأنّ العرب لا يعرفون من خبره مثل هذا. وقد ظهر من أقوالهم أن سبب هذا التوهّم هو وجود كلمة (ذو) التي اشتهر وجود مثلها في ألقاب ملوك اليمن وتبابعته.

فالذي يظهر لي أنّ ذا القرنين كان ملكا **من ملوك الصين** لوجوه:
الأوّل: أنّ بلاد الصين اشتهر أهلها منذ القدم بأنّهم أهل تدبير وصنائع.
الثاني: أنّ معظم ملوكهم كانوا أهل عدل وتدبير للمملكة.
الثالث: أنّ من سماتهم تطويل شعر رؤوسهم وجعلها في ضفيرتين فيظهر وجه تعريفه بذي القرنين.
الرابع: أنّ سُدًّا ورَدْمًا عظيما لا يعرف له نظير في العالم هو موجود بين بلاد الصين وبلاد المغول. وهو المشهور في كتب الجغرافيا والتاريخ بالسور الأعظم، وسيرد وصفه.
الخامس: ما روت أمّ حبيبة عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنّ النبيء ﷺ خرج ليلة فقال:**" ويل للعرب من شرّ قد اقترب فُتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج هكذا"**. وأشار بعقد تسعين (أعني بوضع طرف السبابة على طرف الإبهام). وقد كان زوال عظمة سلطان العرب على يد المغول في بغداد فتعيّن أن يأجوج ومأجوج هم المغول، وأنّ الردم المذكور في القرآن هو الردم الفاصل بين بلاد المغول وبلاد الصين وبانيه ملك من ملوكهم. وأنّ وصفه في القرآن بذي القرنين توصيف لا تلقيب فهو مثل التعبير عن شاول ملك إسرائيل باسم طالوت.
واسم هذا الملك (**تْسِينْشي هْوانْقتي** - أو- **تْسِينْ شِى هْوَانْقْ تي**). وكان موجودا في حدود سنة (247 ق م) فهو متأخّر عن إسكندر المقدوني بنحو قرن. وبلاد الصين في ذلك العصر كانت متديّنة بدين (**كنفيشيوس**) المشرّع المصلح. فلا جرم أن يكون أهل شريعته صالحين.
... والله أعلم بالحقيقة.

{ **قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ** } الأمر إذْن من الله لرسوله بأن يعد بالجواب عن سؤالهم عملا بقوله { وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } [23] على أحد تأويلين في معناه.
والسين في { سَأَتْلُو } لتحقيق الوعد كما في قوله تعالى { قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ } [يوسف:98].

{ **مِنْهُ ذِكْراً** } وجعل خبر ذي القرنين تلاوة وذكرا للإشارة إلى أنّ المهمّ من أخباره ما فيه تذكير وما يصلح لأن يكون تلاوة، حسب شأن القرآن، فإنّه يتلى لأجل الذكر ولا يساق مساق القصص.

و(منه) للتنبيه على أنّ أحواله وأخباره كثيرة وأنهم إنّما يهمّهم بعض أحواله المفيدة ذكرا وعظة. ولذلك لم يقل في قصّة أهل الكهف: نحن نقصّ عليك من نبئهم. لأنّ قصتهم منحصرة فيما ذكر. وأحوال ذي القرنين غير منحصرة فيما ذكر هنا.

{ **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً** }

التمكين: جعل الشيء متمكّنا، أي راسخا. وهو تمثيل لقوّة التصرف بحيث لا يزعزع قوّته أحد. وحقّ الفعل التعدية بنفسه، فيقال: مكّنّاه في الأرض كقوله { مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ } [الأنعام: 6].

فاللام في { **لَهُ** } للتوكيد، كاللام في قولهم: شكرت له، ونصحت له، والجمع بينهما تفنّن.

فمعنى التمكين في الأرض إعطاء المقدرة على التصرّف.

{ **فِي الْأَرْضِ** } المراد بها أهل الأرض، وهي أرض ملكه.

{ **مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** } مستعمل هنا في الأشياء الكثيرة ، أي آتيناه وسائل أشياء عظيمة كثيرة .

{ **سَبَباً** } حقيقته الحبل، وأطلق هنا على ما يَتوسّل به إلى الشيء، من علم أو مقدرة أو آلات التسخير، على وجه الاستعارة كقوله تعالى { وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } [البقرة:166].

{ **فَأَتْبَعَ سَبَباً** [85] **حتّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً** [86] **قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً** [87] **وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً** } [88].

السبب: الوسيلة. المراد هنا معنى مجازي وهو الطريق، لأنّ الطريق وسيلة إلى المكان المقصود، وقرينة المجاز ذكر الاتباع والبلوغ في قوله { فَأَتْبَعَ سَبَبا حتّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشّمْسِ } . والدليل على إرادة غير معنى السبب في قوله تعالى { وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً } إظهار اسم السبب دون إظماره، لأنّه لمّا أريد به معنى غير ما أريد بالأوّل حسن إظهار اسمه تنبيها على اختلاف المعنيين، أي فاتبع طريقا للسير.

ولم يعدّ أهل اللغة معنى الطريق في معاني لفظ السبب، لعلهّم رأوه لم يكثر وينتشر في الكلام.

ويظهر أن قوله تعالى { أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ } [غافر:37] من هذا المعنى.

{ **مَغْرِبَ الشَّمْسِ** } من حيث يلوح الغروب من طريق غزوته أو مملكته. إذ ليس للشمس مغرب حقيقي إلّا فيما يلوح للتخيّل. والأشبه أن يكون ذو القرنين قد بلغ بحر الخزر وهو (بحيرة قزوين) فإنّها غرب الصين.

{ **فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ** } العين: منبع ماء. والمعنى: عين مختلط ماؤها بالحمأة: وهو **الطين الأسود**.
ويظهر أنّ هذه العين من عيون النفط الواقعة على ساحل بحر الخزر حيث مدينة باكو، وفيها منابع النفط الآن، ولم يكن معروفا يومئذ. والمؤرخون المسلمون يسمُّونها البلاد المنتنة.
وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص { في عَيْنٍ حَمِئَةٍ } مهموزا مشتقا من الحمأة (الطين الأسود).
وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر، وخلف { **في عَيْنٍ حامية** } بألف بعد الحاء وياء بعد الميم، أي حارة من **الحمو** وهو الحرارة، أي أن **ماءها سُخن**.
{ **قَوْماً** } التنكير يؤذن بأنّهم أمّة غير معروفة ولا مألوفة حالة عقائدهم وسيرتهم.
{ **قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً** } استئناف بياني. وقد دلّ على أنّهم مستحقّون للعذاب، فدلّ على أنّ أحوالهم كانت في فساد من كفر وفساد عمل.
{ **قُلْنَا** } إسناد القول إلى ضمير الجلالة يحتمل أنّه قول إلهام، أي ألقينا في نفسه تردّدا بين أن يبادر استئصالهم وأن يمهلهم ويدعوهم إلى الإيمان وحسن العمل، ويكون قوله { قال أَمَّا مَنْ ظَلَمَ }، قال في نفسه معتمدا على حالة وسط بين صورتي التردّد.
وقيل: إنّ ذا القرنين كان نبيّا يوحى إليه، فيكون القول كلاما موحى به إليه يخيّره فيه بين الأمرين، مثل التخيير الذي في قوله { فإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فدَاءً } [محمد: 4]. ويكون قوله { أَمَّا مَنْ ظَلَمَ } جوابا منه إلى ربّه.
{ **حُسْناً** } مصدر. مبالغة في الإحسان إليهم، مثل قوله تعالى { وَقُولُوا للنّاس حُسْناً } [البقرة: 83].
{ **قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فسَوْف نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً** }
الظلم: الشرك، بقرينه قسيمه في قوله { وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً }.
{ **فَسَوفَ نُعَذِّبُهُ** } اجتلاب حرف الاستقبال يشير إلى أنّه سيدعوه إلى الإيمان فإن أصرّ على الكفر يعذّبه. وقد صرح بهذا المفهوم في قوله { وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً } أي آمن بعد كفره. ولا يجوز أن يكون المراد من هو مؤمن الآن، لأنّ التخيير بين تعذيبهم واتخاذ الإمهال معهم يمنع أن يكون فيهم مؤمنون حين التخيير.
{ **ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً** } وذلك عذاب الآخرة.
{ **وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً** }
وقرأ الجمهور { جَزَاءَ الْحُسْنَى } بإضافة (جزاء) إلى (الحسنى) على الإضافة البيانية. وقرأه حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، ويعقوب، وخلف { جزاءً الحسنى } بنصب (جزاء) منونا على أنّه تمييز لنسبه استحقاقه الحسنى، أو مصدر مؤكّد، أو حال مقدّمة.
{ **الْحُسْنَى** } يجوز أن تكون هي الجنّة كما في قوله { للذين أحسنوا الحسنى وزيادة } [يونس: 26].

القول اليُسر: هو الكلام الحسن. وصف باليسر المعنوي لكونه لا يثقل سماعه. وهو مثل قوله تعالى { فقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً } [الاسراء: 28] أي جميلا.

فإن كان المراد من { **الْحُسْنَى** } الخصال الحُسنى، فمعنى عطف { وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً } أنه يجازي بالإحسان وبالثناء. وكلاهما من ذي القرنين، وإن كان المراد ثواب الآخرة فذلك من أمر الله تعالى، وإنّما ذو القرنين مخبر به، على معنى: إنّا نبشره بذلك، أو مستعملا في لازم الفائدة تأدبا مع الله تعالى، أي أنّي أعلم جزاءه عندك الحسنى.

{ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً [89] حتّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً } [90].

مطلع الشمس: جهة المشرق من سلطانه ومملكته، بلغ جهة قاصية من الشرق حيث يخال أن لا عمران وراءها، فالمطلع مكان الطلوع. والظاهر أنّه بلغ ساحل بحر اليابان في حدود منشوريا أو (كوريا شرقا).

{ **لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً** } فوجد قوما تطلع عليهم الشمس لا يسترهم من حرها شيء، أي لا جبل فيها يستظلّون بظله ولا شجر فيها، فهي أرض مكشوفة للشمس.

ويجوز أن يكون المعنى أنّهم كانوا **قوما عراة**، فكانوا يتّقون شعاع الشمس في الكهوف أو في أسراب يتخذونها في التراب. فالمراد بالستر ما يستر الجسد.

وفي هذه الحالة عبرة من اختلاف الأمم في الطبائع والعوائد، وسيرتهم على نحو مناخهم.

{ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً } [91]

{ **كَذَلِكَ** } الكاف للتشبيه، والمشبّه به شيء تضمّنه الكلام السابق بلفظة أو معناه.

ويجوز أن يكون جزء جملة حذف أحد جزأيها والمحذوف مبتدأ. والتقدير: أمر ذي القرنين كذلك، أي كما سمعت.

ويجوز أن يكون صفة لـ (قوما) أي قوما كذلك القوم الذين وجدهم في مغرب الشمس، أي في كونهم كفارا، وفي تخييره في إجراء أمرهم على العقاب أو على الإمهال.

ويجوز أن يكون المجرور جزء جملة أيضا جلبت للانتقال من كلام إلى كلام، فيكون فصل خطاب كما يقال: هذا الأمر كذا.

وعلى الوجوه كلّها فهو اعتراض.

{ **وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً** } حال من الضمير المرفوع في { ثُمَّ أَتْبَعَ }.

{ **بِمَا لَدَيْهِ** } : ما عنده من عظمة الملك من جند وقوّة وثروة.
الخُبْر(بضم الخاء وسكون الموحدة): العلم والإحاطة بالخبر. كناية عن كون المعلوم عظيما بحيث لا يحيط به علما إلّا علّام الغيوب.

{ **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً** [92] **حتّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يفقَهُونَ قَوْلاً** [93] **قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفسِدُونَ في الْأَرْضِ فهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبيْنَهُمْ سَدّاً** [94] **قَالَ مَا مَكَّنّي فيهِ رَبِّي خَيْرٌ فأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً** [95] **آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حتّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفيْنِ قَالَ انْفخُوا حتّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً** [96] **فمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً** [97] **قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً** } [98].
السدّ (بضم السين وفتحها): الجبل. ويطلق أيضا على الجدار الفاصل، لأنّه يُسَدُّ به الفضاء، وقيل: الضم في الجبل والفتح في الحاجز.
وقرأه نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر. وخلف، ويعقوب بضم السين. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاعصم بفتح السين على لغة عدم التفرقة.
{ **بَيْنَ السَّدَّيْنِ** } والمراد بالسدّين هنا الجبلان، وبالسد المفرد الجدار الفاصل، والقرينة هي التي عيّنت المراد من هذا اللفظ المشترك. والتعريف تعريف الجنس، أى ببين سدّين معينين. أي اتبع طريقا آخر في غزوة حتّى بلغ بين جبلين معلومين.
ويظهر أن هذا السبب اتجه به إلى جهة غير جهتي المغرب والمشرق فيحتمل أنّها الشمال أو الجنوب. وعينه المفسرون أنّه للشمال، وبنوا على أنّ ذا القرنين هو إسكندر المقدوني، فقالوا: إن جهة السدين بين أرمينيا وأذربيجان. ونحن نبني على ما عيّناه في الملقب بذي القرنين، فنقول: إنّ موضع السدين هو الشمال الغربي لصحراء قوبي الفاصلة بين الصين وبلاد المغول شمال الصين وجنوب مغوليا. وقد وجد السدّ هنالك ولم تزل آثاره إلى اليوم شاهدها الجغرافيون والسائحون وصورت صورا شمسية في كتب الجغرافيا وكتب التاريخ العصرية.
{ **قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفقَهُونَ قَوْلاً** } أنّهم لا يعرفون شيئا من قول غيرهم، فلغتهم مخالفة للغات الأمم المعروفة، بحيث لا يعرفها تراجمة ذي القرنين لأنّ شأن الملوك أن يتّخذوا تراجمة ليترجموا لغات الأمم الذين يحتاجون

إلى مخاطبتهم، فهؤلاء القوم كانوا يتكلّمون بلغة غريبة، لانقطاع أصقاعهم عن الأصقاع المعروفة، فلا يوجد من يستطيع إفهامهم مراد الملك ولا هم يستطيعون الإفهام.

ويجوز أن يكون المعنى أنّهم قوم متوغّلون في البداوة والبلاهة فلا يفهمون ما يقصده من يخاطبهم.

وهؤلاء القوم مجاورون يأجوج ومأجوج. وكانوا أضعف منهم فسألوا ذا القرنين أن يقيهم من فساد يأجوج ومأجوج. ولم يذكر المفسّرون تعين هؤلاء القوم ولا أسماء قبيلتهم سوى أنّهم قالوا: هم في منقطع بلاد الترك نحو المشرق، وكانوا قوما صالحين فلا شك أنّهم من قبائل بلاد الصين التي تتاخم بلاد المغول والتتر.

{ **قالوا** } استئناف للمحاورة. وقد بيّنّا في غير موضع أنّ جمل حكاية القول في المحاورات لا تقترن بحرف العطف. فعلى أول الاحتمالين في معنى { لا يَكَادُونَ يَفقَهُونَ قَوْلاً } أنّهم لا يدركون ما يطلب منهم من طاعة ونظام، ومع ذلك يعربون عمّا في نفوسهم من الأغراض مثل إعراب الأطفال. وعلى الاحتمال الثاني أنّهم أمكنهم أن يُفهم مرادهم بعد لأي.

{ **يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ** } وافتتاحهم الكلام بالنداء أنّهم نادوه نداء المستغيثين المضطّرين. ونداؤهم إيّاه بلقب ذي القرنين على أنّه مشهور بمعنى ذلك اللقب بين الأمم المتاخمة لبلاده.

يأجوج ومأجوج: أمّة كثيرة العدد فيحتمل أنّ الواو الواقعة بين الاسمين حرف عطف فتكون أمة ذات شعبين. وهم المغول وبعض أصناف التتار. وهذا هو المناسب لأصل رسم الكلمة ولا سيما على القول بأنّهما اسمان عربيان كما سيأتي، فقد كان الصنفان متجاورين.

ووقع لعلماء التأريخ وعلماء الأنساب اختلاف إطلاق اسمي المغول والتتار كلّ على ما يطلق عليه الآخر لعسر التفرقة بين المتقاربين منهما. وقد قال بعض العلماء: إنّ المغول هم مأجوج (بالميم) اسم جدّ لهم يقال أيضا (سكيثوس). وكان الاسم العام الذي يجمع القبيلتين مأجوج، ثم أنقسمت الأمّة فسمّيت فروعها بأسماء خاصة؛ فمنها مأجوج ويأجوج وتتر ثم التركمان ثم الترك.

ويحتمل أنّ (الواو) المذكورة ليست عاطفة ولكنها جاءت في صورة العاطفة فيكون اللفظ كلمة واحدة مركبة تركيبا مزْجيا. فيتكوّن اسما لأمّة وهم المغول.

والذي يجب اعتماده أن يأجوج ومأجوج هم المغول والتتر.

وقد ذكر أبو الفداء أن مأجوج هم المغول فيكون يأجوج هم التتر. وقد كثرت التتر على المغول فاندمج المغول في التتر وغلب اسم التتر على القبيلتين. وأوضح شاهد على ذلك ما ورد في حديث أم حبيبة عن زينب بنت جحش أنّ النبيء صلى الله عليه و سلم دخل عليها فزعا يقول: " لا اله إلّا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه " . وحلّق بأصبعيه الإبهام والتي تليها. وقد تقدّم آنفا. ولا يعرف بالضبط وقت إنطلاقهم من بلادهم ولا سبب ذلك. ويقدّر أن انطلاقهم كان أواخر القرن السادس

الهجري. وتشتت ملك العرب بأيدي المغول والتتر من خروج جنكيز خان المغولي واستيلائه على بخارى سنة (616 هـ) ووصلوا ديار بكر سنة (628 هـ) ثم ماكان من تخريب هولاكو بغداد عاصمة ملك العرب سنة (660 هـ).

ونظير إطلاق اسمين على حي مؤتلف من قبيلتين إطلاق (طسم وجديس) على أمّة من العرب البائدة. وإطلاق (السكاسك والسكرن) في القبائل اليمنية، وإطلاق (هلال وزغبة) على أعراب إفريقيّة الواردين من صعيد مصر. وإطلاق (أولاد يحيى) على حي بتونس بالجنوب الغربي. و(مُرادة وفِرجان) على حي من وطن نابل بتونس.

وقرأ الجمهور { يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ } كلتيهما بألف بعد التحتية بدون همز. وقرأه عاصم بالهمز.

واختلف المفسّرون في أنّه اسم عربي أو معرب. وغالب ظنّي أنّه اسم وضعه القرآن حاكى به معناه في لغة تلك الأمّة المناسب لحال مجتمعهم فاشتق لهما من مادة (**الأج**)، وهو **الخلط**. إذ قد علمت أنّ تلك الأمّة كانت أخلاطا من أصناف.

{ **فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً** } الاستفهام مستعمل في العرض.

الخَرْج: المال الذي يدفع للملك. وهو بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء في قراءة الجمهور. ويقال فيه الخراج بألف بعد الراء. وكذلك قرأه حمزة، والكسائي، وخلف.

وقرأ الجمهور { سُدا } بضم السين وقرأه ابن كثير،وأبو عمرو،وحفص، والكسائي، وخلف بفتح السين.

{ **قَالَ مَا مَكَّنِّي فيهِ رَبِّي خَيْرٌ فأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً** } أي ما آتاني الله من المال والقوّة خير من الخراج الذي عرضتموه أو خير من السدّ الذي سألتموه. أي ما مكنني فيه ربي يأتي بخير ممّا سألتم، فإنّه لاح له أنّه إن سدّ عليهم المرور من بين الصدفين تحيّلوا فتسلقوا الجبال ودخلوا بلاد الصين، فأراد أن يبني سورا ممتدا على الجبال في طول حدود البلاد حتّى يتعذر عليهم تسلق تلك الجبال، ولذلك سمّاه ردْما.

الردم: البناء المردّم. شبِّه بالثوب المردّم المؤتلف من رقاع فوق رقاع. أي سدّا مضاعفا. ولعله بني جدارين متباعدين وردم الفراغ الذي بينهما بالتراب المخلوط ليتعذر نقبه.

{ **فأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ** } أي بقوة الأبدان. أراد تسخيرهم للعمل لدفع الضرر عنهم.

وقد بنى ذو القرنين وهو (تسين شى هوانق تي) سلطان الصين هذا الردم بناء عجيبا في القرن الثالث قبل المسيح وكان يعمل فيه ملايين من الخدمة. وهو مبنيّ بالحجارة والآجر وبعضه من الطين فقط.

وهو الآن بحالة خراب فلم يبق له اعتبار من جهة الدفاع. ولكنّه بقي علامة على الحدّ الفاصل بين المقاطعات الأرضية فهو فاصل بين الصين ومنغوليا. ويخترق جبال بابلوني التي هي حدود طبيعية بين الصين وبلاد منغوليا، فمنتهى طرفه إلى الشمال الغربي لصحراء قوبي.

{ **آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ** } هو أمر لهم بمناولة زبر الحديد. فالإيتاء مستعمل في حقيقة معناه وهو المناولة، وليس تكليفا للقوم بأن يجلبوا له الحديد من معادنه لأنّ ذلك ينافي قوله { مَا مَكَّنِّي فيهِ رَبِّي خَيْرٌ فأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ }، أي أنّه غنيّ عن تكليفهم إنفاقا على جعل السدّ. وكأنّ هذا لقصد إقامة أبواب من حديد في مداخل الردم لمرور سيول الماء في شعب الجبل حتّى لا ينهدم البناء بأن جعل الأبواب الحديدية كالشبابيك تمنع مرور النّاس ولا تمنع انسياب الماء، وجعل قضبان الحديد معضودة بالنحاس المذاب المصبوب على الحديد.

الزُّبر: جمع زُبْرة، وهي القطعة الكبيرة من الحديد.

الحديد: معدن من معادن الأرض يكون قطعا كالحصى ودون ذلك، يكون فيها صلابة. وهو إذا صهر بنار قويّة في أتون مغلق التأمت أجزاؤه وتجمعت في وسط النار كالاسفنجة واشتدت صلابته لأنّه بالصهر يدفع ماكان فيه من الأجزاء الترابية، وهي المسماة بالصدأ والخبث، فتعلو تلك الأجزاء على سطحه وهي الزبد. ولذلك فبمقدار ما يطفو من تلك الجزاء الغريبة الخبيثة يخلص الجزء الحديدي ويصفو ويصير زُبُرا. ومن تلك الزبر تُصنع الأشياء الحديديّة؛ من سيوف ودروع وغيرها.

{ **حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ** } أشعرت (حتّى) بشيء مُغَيًّا قبلها، وهو كلام محذوف تقديره: فآتوه زبر الحديد فنضدها وبناها حتّى إذا جعل بين الصدفين. وهذا إيجاز الحذف.

المساواة : جعل الأشياء متساوية، أي متماثلة في مقار أو وصف.

الصدفان: (بفتح الصاد وفتح الدال) في قراءة الجمهور، وهو الأشهر، هما جانبا الجبلين وهما السدّان.

وعن أبي عيسى: الصدف كل بناء عظيم مرتفع.

{ **انْفُخُوا / آتُونِي** } خطاب للعملة. وحذف متعلق { انفخوا } لظهوره. والتقدير: انفخوا في الكيران المصفوفة على طول ما بين الصدفين من زُبُر الحديد.

القِطر (بكسر القاف): النحاس المذاب.

{ **فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً** } الضمائر ليأجوج ومأجوج.

الظهور: العلو. و{ **نَقْباً** } كسر الردم، وعدم استطاعتهم ذلك لارتفاعه وصلابته.

{ **اسطاعوا** } تخفيف {استطاعوا} . والجمع بينهما تفنّن في فصاحة الكلام كراهية إعادة الكلمة. وابتدئ بالأخف منهما لأنّه وليه الهمز وهو حرف ثقيل لكونه من الحلق، بخلاف الثاني إذ وليه اللام وهو خفيف. ومقتضى الظاهر أن يبتدأ بفعل { استطاعوا } ويثنى بفعل { اسطاعوا } لأنّه يثقل بالتكرير، كما وقع في قوله آنف { مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً } [78]، ثم قوله { مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً } [82].

ومن خصائص مخالفة مقتضى الظاهر هنا إيثار فعل ذي زيادة في المبنى بموقع فيه زيادة المعنى، لأنّ استطاعة نقب السد أقوى من استطاعة تسلّقه، فهذا من مواضع دلالة زيادة المبنى على زيادة في المعنى.

{ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي } مستأنفة استئنافا بيانيا. والإشارة بـ (هذا) إلى الردم. وهو رحمة للنّاس لما فيه من رد فساد أمّة يأجوج ومأجوج عن أمّة أخرى صالحة.

{ مِنْ } ابتدائية. وجُعلت من الله، لأنّ الله ألهمه لذلك ويسر له ما هو صعب.

{ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ } لأنّه يعلم أنّ كلّ حادث صائر إلى زوال. ولأنّه علم أنّ عملا عظيما مثل ذلك يحتاج إلى التعهّد والمحافظة عليه من الانهدام. وعلم أنّ ذلك لا يتسنّى في بعض أزمان انحطاط المملكة الذي لا محيص منه لكلّ ذي سلطان.

الوعد: هو الإخبار بأمر مستقبل، وأراد به ما في علم الله تعالى من الأجل الذي ينتهي إليه دوام ذلك الردم.

{ دَكَّاءَ } على قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف. والدكّاء: اسم للناقة التي لا سنام لها، وذلك على التشبيه البليغ. وعلى قراءة الجمهور{ دَكًّا }، مصدر بمعنى المفعول للمبالغة، أي جعله مدكوكا، أي مسوًّى بالأرض بعد ارتفاع.

{ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً } تذييل للعلم بأنّه لا بد له من أجل ينتهي إليه لقوله { لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [الرعد: 38]، أي وكان تأجيل الله الأشياء حقا ثابتا لا يتخلّف. وهذه الجملة بعمومها وما فيها من حكمة كانت تذييلا بديعا.

{ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً [99] وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً [100] الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً } [101].

{ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ }

الترك: حقيقته مفارقة شيء شيئا كان بقربه، ويطلق مجازا على جعل الشيء بحالة مخالفة لحالة سابقة.

{ يَوْمَئِذٍ } هو يوم إتمام بناء السدّ المستفاد من قوله { فما استطاعوا أن يظهروه }.

{ يَمُوجُ } يضطرب تشبيها بموج البحر. أي جعلنا ياجوج وماجوج يومئذ مضطربين بينهم. لأنّهم إذا لم يجدوا ما اعتادوه من غزو الأمم المجاورة لهم رجع قويّهم على ضعيفهم بالاعتداء.

{ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً }.

تخلّص من أغراض الاعتبار بما في القصّة من إقامة المصالح في الدنيا على أيدي من اختاره الله لإقامتها من خاصة أوليائه، إلى غرض التذكير بالموعظة بأحوال الآخرة، وهو تخلّص يؤذن بتشبيه حال تموّجهم بحال تموّج النّاس في المحشر، تذكيرا للسامعين بأمر الحشر وتقريبا بحصوله في خيال المشركين، فإنّ

القادر على جمع أمّة كاملة وراء هذا السد، بفعل من يسّره لذلك من خلقه، هو الأقدر على جمع الأمم في الحشر بقدرته، لأن متعلقات القدرة في عالم الآخرة أعجب.

وقد تقدّم أن من أهم أغراض هذه السورة إثبات البعث. واستعمل الماضي موضع المضارع تنبيها على تحقيق وقوعه.

{ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ** } تمثيليّة مكنية تشبيها لحال الداعي المطاع وحال المدعو الكثير العدد السريع الإجابة، بحال الجند الذين ينفذون أمر القائد بالنفير فينفخون في بوق النفير، وبحال بقيّة الجند حين يسمعون بوق النفير فيسرعون إلى الخروج. على أنّه يجوز أن يكون الصور من مخلوقات الآخرة.

والحالة الممثّلة حالة غريبة لا يعلم تفصيلها إلّا الله تعالى.

{ **وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ** } وعرض جهنم مستعمل في إبرازها حين يشرفون عليها وقد سيقوا إليها فيعلمون أنّها المهيئة لهم، فشبّه ذلك بالعرض تهكّما بهم، لأنّ العرض هو إظهار ما فيه رغبة وشهوة.

{ **فَجَمَعْنَاهُمْ / جَمْعاً - عَرَضْنَا / عَرْضاً** } وتأكيد فعلي (جمعناهم) و (عرضنا) بمصدريهما لتحقّق أنّه جمع حقيقي وعرض حقيقي ليسا من المجاز، وفي تنكير الجمع والعرض تهويل.

{ **كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ** } الغطاء مستعار لعدم الانتفاع بدلالة البصر على تفرد الله بالإلهية. وحرف (في) للظرفية المجازية. وهي تمكّن الغطاء من أعينهم بحيث كأنّها محوية للغطاء.

{ **عَنْ ذِكْرِي** } للمجاوزة، أي عن النظر فيما يحصل به ذكري.

{ **وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً** } لشدّة كفرهم لا تطاوعهم نفوسهم للاستماع. وحذف مفعول { سمعا } لدلالة قوله {عَنْ ذِكْرِي} عليه.

{ **أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً**}[102].

أعقب وصف حرمانهم الانتفاع بدلائل المشاهدات على وحدانية الله، وإعراضهم عن سماع الآيات بتفريع الإنكار، لاتّخاذهم أولياء من دون الله يزعمونها نافعة لهم تنصرهم. أي حسبوا حسبانا باطلا فلم يغن عنهم ما حسبوه شيئا، ولأجله كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا.

{ **أَفَحَسِبَ** } وتقدّم حرف الاستفهام على فاء العطف لأنّ للاستفهام صدر الكلام وهو كثير في أمثاله.

والاستفهام إنكاري. والإنكار عليهم فيما يحسبونه يقتضي أنّ ما ظنّوه باطل. ونظيره قوله { أَحَسِبَ النّاس أَنْ يُتْرَكُوا } [العنكبوت: 2].

{ **الَّذِينَ كَفرُوا** } إظهار الذين كفروا دون أن يقال: أفحسبوا، بإعادة الضمير إلى الكافرين في الآية قبلها، لقصد استقلال الجملة بدلالتها، وزيادة في إظهار التوبيخ لهم.

{ **أَنْ يَتَّخِذُوا** } صيغ فعل الاتخاذ بصيغة المضارع للدلالة على تجدّده منهم وأنّهم غير مقلعين عنه.

وجَعل في (الكشّاف) فعل { يتخذوا } للمستقبل. أي أحسبوا أن يتّخذوا عبادي أولياء يوم القيامة، كما اتخذوهم في الدنيا. ونظَّره بقوله تعالى { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ } [سبأ: 40-41].

{ **عِبَادِي** } صادق على الملائكة والجن والشياطين ومن عبدوهم من الأخيار مثل عيسى عليه السلام، ويصدق على الأصنام بطريق التغليب.

{ **مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ** } إمّا يجعل { دوني } اسما بمعنى **حول**، أي من حول عذابي، وتأويل { أولياء } بمعنى أنصارا، أي حائلين دون عذابي ومانعينهم منه.

وإمّا يجعل دوني بمعنى **غيري**. أي أحسبوا أنّهم يستغنون بولايتهم.

{ **إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً** } مقرّرة لإنكار انتفاعهم بأوليائهم، فأكّد بأنّ جهنم أُعدّت لهم نزلا، فلا محيص لهم عنها، ولذلك أكّد بحرف (إنّ).

{ **أَعْتَدْنَا** } : أعددنا، أُبدل الدال الأول تاء لقرب الحرفين، والإعداد: التهيئة، وتقدّم آنفا عند قوله تعالى { إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً } [29]. وجعل المسند إليه ضمير الجلالة لإدخال الروع في ضمائر المشركين.

النُّزُل (بضمتين): ما يُعدّ للنزيل والضيف من القرى. وإطلاق اسم النزل على العذاب استعارة علاقتها التهكّم.

{ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً [103] الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً } [104].

اعتراض باستئناف ابتدائي أثاره مضمون جملة { أَفحَسِبَ الَّذِينَ كَفرُوا }. فإنّهم لمّا اتّخذوا أولياء من ليسوا ينفعونهم، فاختاروا الأصنام وعبدوها وتقرّبوا إليها بما أمكنهم من القرب، اغترارا بأنّها تدفع عنهم، وهي لا تغني عنهم شيئا، فكان عملهم خاسرا وسعيهم باطلا.

{ **قُلْ** } افتتاح الجملة بالأمر بالقول للاهتمام بالمقول بإصغاء السامعين، لأنّ مثل هذا الافتتاح يشعر بأنّه في غرض مُهِمّ.

{ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ } وكذلك افتتاحه باستفهامهم عن إنبائهم، استفهاما مستعملا في العرض لأنّه بمعنى: أتحبون أن ننبئكم بالأخسرين أعمالا، وهو عرض تهكّم، لأنّه منبئهم بذلك دون توقّف على رضاهم.

ونون المتكلّم المشارك في قوله **{ نُنَبِّئُكُمْ }** يجوز أن تكون نون العظمة راجعة إلى ذات الله على طريقة الالتفات في الحكاية. ويجوز أن تكون للمتكلّم المشارك راجعة إلى الرسول ﷺ وإلى الله تعالى، لأنّه ينبئهم بما يوحى إليه من ربّه. ويجوز أن تكون راجعة للرسول وللمسلمين.

{ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً } إلى آخره، تمليح، إذ عُدل فيه عن طريقة الخطاب بأن يقال لهم: هل ننبئكم بأنّكم الأخسرون أعمالا، إلى طريقة الغيبة بحيث يستشرفون إلى معرفة هؤلاء الأخسرين، فما يروعهم إلّا أن يعلموا أنّ المخبَر عنهم هم أنفسهم.

والمقول لهم: المشركون، توبيخا لهم وتنبيها على ما غفلوا عنه من خيبة سعيهم.

{ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ } بدل من { بالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً } وفي هذا الإطناب زيادة التشويق إلى معرفة هؤلاء الأخسرين حيث أجرى عليهم من الأوصاف ما يزيد السامع حرصا على معرفة الموصوفين بتلك الأوصاف والأحوال.

الضلال: خطأ السبيل. شُبّه سعيهم غير المثمر بالسير في طريق غير موصلة.

السعي: المشي في شدّة. وهو هنا مجاز في العمل كما تقدّم عند قوله { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا } [الإسراء:19]، أي عملوا أعمالا تقرّبوا بها للأصنام يحسبونها مبلّغة إيّاهم أغراضا وقد أخطأوها وهم يحسبون أنهم يفعلون خيرا.

وإسناد الضلال إلى سعيهم مجاز عقلي. والمعنى: الذين ضلّوا في سعيهم.

وبين {يحسبون} و {يحسنون} جناس مصحَّف، وقد مُثّل بهما في مبحث الجناس.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً }[105]

استئناف بياني بعد قوله { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ }.

{ أُولَئِكَ } اسم الإشارة لتمييزهم أكمل تميز لئلّا يلتبسوا بغيرهم. وللتنبيه على أنّ المشار إليهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة من حكم، بسبب ما أجري عليهم من الأوصاف.

الآيات: القرآن والمعجزات.

الحبط: البطلان والدحض.

{ فلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً } نفي إقامة الوزن مستعمل في عدم الاعتداد بالشيء. وفي حقارته لأنّ النّاس يزنون الأشياء المتنافس في مقاديرها والشيء التافه لا يوزن، فشُبِّهوا بالمحقّرات.

وجُعل عدم إقامة الوزن مفرّعا على حبط أعمالهم، لأنّهم بحبط أعمالهم صاروا محقّرين لا شيء لهم من الصالحات.

{ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً } [106]

الإشارة إمّا إلى ما تقدّم من وعيدهم في قوله { إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً } ، أي ذلك الإعداد جزاؤهم. وإمّا إلى مقدّر في الذهن دلّ عليه السياق بيّنه ما بعده. والتقدير: الأمر والشأن ذلك جزاؤهم جهنّم.

{ **وَاتَّخَذُوا** } عطف على { كَفَرُوا } فهو من صلة (ما) المصدريّة. والتقدير: وبما اتخذوا آياتي ورسلي هزوا.

{ **وَرُسُلِي** } يجوز أن يراد به حقيقة الجمع فيكون إخبارا عن حال كفار قريش ومن سبقهم من الأمم المكذّبين، ويجوز أن يراد به الرّسول ﷺ، الذي أرسل إلى النّاس كلّهم وأطلق عليه اسم الجمع تعظيما، كما في قوله { نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ } [ابراهيم: 44].

{ **هُزُواً** } (بضمّتين) مصدر بمعنى المفعول. وهو أشد مبالغة، أي كانوا كثيري الهزو بهم.

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً [107] خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً } [108].

هذا مقابل قوله { إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً } على عادة القرآن في ذكر البشارة بعد الإنذار.

وهي مؤكّدة كي لا يظنّ ظان أنّ جزاء المؤمنين غير مهتمّ بتأكيده.

{ **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** } جعل المسند إليه الموصول بصلة الإيمان وعمل الصالحات للاهتمام بشأن أعمالهم، فلذلك خولف نظم الجملة التي تقابلها فلم يقل: جزاؤهم الجنّة. وقد تقدّم نظير هذا الأسلوب في المخالف بين وصف الجزاءين عند قوله تعالى في هذه السورة { إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا } [29] ثم قوله { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً } [30].

{ **كَانَتْ** } دلالة على أنّ استحقاقهم الجنّات أمر مستقرّ من قبل مهيّأ لهم.

{ **لَهُمْ** } وجيء بلام الاستحقاق تكريما لهم بأنّهم نالوا الجنّة باستحقاق إيمانهم وعملهم.

{ **جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً** } وجمع الجنّات إيماء إلى سعة نعيمهم، وأنّها جنات كثيرة كما جاء في الحديث : "إنها جنان كثيرة ".

الفردوس: البستان الجامع لكلّ ما يكون في البساتين. وعن مجاهد هو معرّب عن الروميّة. وقيل عن السريانية. وقال الفراء: هو عربي. ولم يرد ذكره في كلام العرب قبل القرآن.

وأهل الشام يقولون للبساتين والكروم: الفراديس. وفي مدينة حلب باب يسمّى باب الفراديس.
وإضافة الجنّات إلى الفردوس بيانية، أي جنّات هي من صنف الفردوس. وورد في الحديث أنّ الفردوس أعلى الجنّة أو وسط الجنّة. وذلك إطلاق آخر على هذا المكان المخصوص يرجع إلى أنّه علم بالغلبة.
{ لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً } أي ليس بعدما حوته تلك الجنات من ضروب اللذات والتمتع ما تتطلع النفوس إليه فتودّ مفارقة ما هي فيه إلى ما هو خير منه. أي هم يجدون فيها كل ما يخامر أنفسهم من المشتهى.
الحِوَل: مصدر بوزن العِوَج والصِغَر. المفارقة والانتقال.

{ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً}[109]

لمّا ابتدئت هذه السورة بالتنويه بشأن القرآن ثم أفيض فيها من أفانين الإرشاد والإنذار والوعد والوعيد، وذُكر فيها من أحسن القصص ما فيه عبرة وموعظة، وما هو خفيّ من أحوال الأمم، حُوِّل الكلام إلى الإيذان بأنّ كلّ ذلك قليل من عظيم علم الله تعالى.
فهذا استئناف ابتدائي وهو انتقال إلى التنويه بعلم الله تعالى، مفيض العلم على رسوله ﷺ. لأنّ المشركين لمّا سألوه عن أشياء يظنّونها مفحمة للرسول وأن لا قبل له بعلمها، علّمه الله إيّاها، وأخبر عنها أصدق خبر، وبيّنها بأقصى ما تقبله أفهامهم، وبما يقصر عنه علم الذين أغروا المشركين بالسؤال عنها، وكان آخرها خبر ذي القرنين، أتبع ذلك بما يُعلم منه سعة علم الله تعالى وسعة ما يجري على وفق علمه من الوحي، إذا أراد إبلاغ بعض ما في علمه إلى أحد من رسله. وفي هذا ردّ عجز السورة على صدرها.
كلمات الله: ما يدلّ على شيء من علمه ممّا يوحي إلى رسله أن يبلّغوه، فكلّ معلوم يمكن أن يخبر به، فإذا أخبر به صار كلمة. ولذلك يطلق على المعلومات كلمات، لأنّ الله أخبر بكثير منها ولو شاء لأخبر بغيره، فإطلاق الكلمات عليها مجاز بعلاقة المآل. ونظيرها قوله تعالى { وَلَوْ أَنَّمَا في الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ } [لقمان: 27].وفي هذا دليل لإثبات الكلام النفسي، ولإثبات التعلّق الصلوحي لصفة العلم. وقلّ من يتنبه لهذا التعلّق.
ولما كان شأن ما يخبر الله به على لسان أحد رسله أن يُكتب حرصا على بقائه في الأمّة، شُبّهت معلومات الله المخبر بها والمطلق عليها كلمات بالمكتوبات.
{ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً } والمداد يطلق على الحبر لأنّه تُمدّ به الدواة، أي يمد به ما كان فيها من نوعه، ويطلق المداد على الزيت الذي يُمدّ به السراج، فقد شُبّه نور الله وهديه بالمصباح في قوله تعالى { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ } [النور: 35].

وغلب إطلاقه على الحبر. وهو في هذه الآية يحتمل المعنيين.

النفاد: الفناء والاضمحلال. ونفاد البحر ممكن عقلا. وأمّا نفاد كلمات الله، بمعنى تعلّقات علمه فمستحيل، فلا يُفهم من تقييد نفاد كلمات الله بقيد الظرف وهو { قبل } إمكان نفاد كلمات الله. والكلام كناية عن عدم تناهي معلومات الله تعالى التي منها تلك المسائل الثلاث التي سألوا عنها النبيء ﷺ.

{ **وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدا** } في موضع الحال. و(لو) وصلية، وهي الدالة على حالة هي أجدر الأحوال بأن لا يتحقّق معها مفاد الكلام السابق، فيُنبَّه السامع على أنّها متحقق معها مفاد الكلام السابق. وقد تقدّم عند قوله تعالى { فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ } [آل عمران:91]. وهذا مبالغة ثانية.

{ **مددا** } انتصب على التمييز المفسر للإبهام الذي في لفظ { بمثله } أي مثل البحر في الإمداد.

{ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً } [100]

استئناف ثان، انتقل به من التنويه بسعة علم الله تعالى وأنّه لا يعجزه أن يوحي إلى رسوله بعلم كل ما يُسأل عن الإخبار به، إلى إعلامهم بأنّ الرّسول لم يبعث للإخبار عن الحوادث الماضية والقرون الخالية. ولا أنّ من مقتضى الرسالة أن يحيط علم الرسول بالأشياء، فيتصدّى للإجابة عن أسئلة تلقى إليه، ولكنّه بشر علمه كعلم البشر، أوحى الله إليه بما شاء إبلاغه عباده من التوحيد والشريعة. ولا علم له إلّا ما علّمه ربّه، كما قال تعالى { قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي } [لأعراف: 203].

{ **إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** } فالحصر قصر الموصوف على الصفة وهو إضافي للقلب. أي ما أنا إلّا بشر لا أتجاوز البشريةّ إلى العلم بالمغيّبات.

وأدمج في هذا أهم ما يوحى إليه وما بعث لأجله وهو توحيد الله والسعي لما فيه السلامة عند لقاء الله تعالى. وهذا من رد العجز على الصدر من قوله في أول السورة { لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْه - إلى قوله - إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً } [2 – 5].

{ **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً** } هو من جملة الموحى به إليه. أي يُوحى إليّ بوحدانية الإله وبإثبات البعث وبالأعمال الصالحة.

فجاء النظم بطريقة بديعة في إفادة الأصول الثلاثة، إذ جعل التوحيد أصلا لها وفُرّع عليه الأصلان الآخران، وأكّد الإخبار بالوحدانية بالنهي عن الإشراك بعبادة الله تعالى. وحصل مع ذلك ردّ العجز على الصدر وهو أسلوب بديع.